



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد دراية أدرار - الجزائر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية

قسم العلوم الإنسانية

فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية ودورهم في الإصلاح

والانفتاح على أوروبا

(1039-1293هـ / 1630-1876م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

ج 01

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد المالك بوعريوة

إعداد الطالب

توهامي بشير

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
محمد مرغيث	أستاذ التعليم العالي	جامعة أحمد دراية أدرار	رئيسا
عبد المالك بوعريوة	أستاذ التعليم العالي	جامعة أحمد دراية أدرار	مشرفا ومقررا
بغداد خلوفي	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي نور البشير البيض	مناقشا
محمد شاطو	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي نور البشير البيض	مناقشا
محمد مولاي	أستاذ محاضر "أ"	جامعة أحمد بن بلة وهران	مناقشا
حمادي بن موسى	أستاذ محاضر "أ"	جامعة أحمد دراية أدرار	مناقشا

الموسم الجامعي 1442 - 1443هـ / 2021 - 2022م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

كتبت هذه الرسالة بنفسى، إلا أنها ليست خالصَ جُهدي بأي حال من الأحوال؛ إنني مدين بنفس القدر لجميع الرفاق والأساتذة والموجهين الذين التقيت بهم طوال سنوات الدراسة من الابتدائية إلى الجامعة، وخاصة خلال السنوات الخمس الأخيرة التي أمضيتها في إعداد هذه الرسالة التي أخذت مني الكثير من الجهد والوقت، والتي أردتها لائقة بكل من علّمني وساعدني.

استفدت وتعلّمت الكثير من أشخاص كُثر لدرجة أنه من المستحيل ذكرهم أو تذكّرهم جميعاً وتقديم ما يستحقّونه من شكر. مع ذلك وجرياً على قاعدة "ما لا يدرك كله لا يترك جله" سأحاول ذكر بعضهم. أولاً وقبل كل شيء، يجب أن أعبر عن امتناني لأستاذي الأستاذ الدكتور عبد المالك بوعريوة أولاً لمساعدته الثمينة حين أردت الانتقال من جامعة بوزريعة 2 بالعاصمة إلى جامعة أحمد دراية بأدرار، وثانياً لموافقته الكريمة على أن يشرف على رسالة الدكتوراه، وأشكر له وقوفه بجانبى طوال سنوات الدكتوراه؛ فقد كفاني مؤونة التسجيلات والوثائق الإدارية مشجعاً لي على التركيز فقط في البحث العلمي لإخراج الرسالة بشكل يليق بجوائز الشهداء. وقد كانت صلتى بشخصه الكريم من قَبَل الدكتوراه، حين كنت تلميذه في جامعة أدرار في مرحلة الليسانس، وتعلّمت يقينا الكثير من منهجيّته الملهمة حول كيفية التفكير بشكل تحليلي، وكيفية تنظيم الأفكار وكيفية الكتابة بشكل أفضل. كنت طالباً يحاول أن يتعلّم وكان معلماً صبوراً طيباً سمحاً، فأسأل الله العليّ القدير أن يجزيه ومن خلاله كل أساتذتي ومعلّميّ الجزاء الأوفى.

مدين بالشكر لرجل عرفته من خلال كتاباته ولم ألتقه وألهمني بشكل مباشر أن أخوض غمار هذا البحث الشاق حين قرأت مقالته النادرة في مجلة الاجتهاد في عددها الثالث والأربعين لسنة 1989م والتي حملت عنواناً ملهماً حقاً هو: " دور فئة الكُتّاب الإداريين في علمنة الدولة العثمانية " إنّه الكاتب والمفكر والباحث الجامعي والسفير اللبناني الأستاذ الدكتور خالد زيادة.

أودّ أن أشكر أيضاً الباحث التركي المتخصص في الأرشيف العثماني وأستاذ تاريخ الدولة العثمانية بجامعة الملك سعود الأستاذ الدكتور سهيل صابان الذي رافقني بتوجيهاته عن بُعد من أيام الماجستير إلى هذه الرسالة. أشكره على كرمه وصبره معي، وعلى توجيهاته القيّمة. كما أقدم بالغ شكري إلى البروفسور خالد أرن المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (ircica) التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، الذي استقبلني بحفاوة بمكتبه لدى زيارتي لإستانبول سنة 2012م، وقد

عرضت عليه فكرة رسالتي للدكتوراه حتى قبل مناقشتي لرسالة الماجستير فشجعتني على ذلك وأهداني كتباً من مكتبته الخاصة، وأمر المكتبة الخاصة للمركز أن تبيني الكتب التي اشتريتها بنصف الثمن. مدين بالشكر أيضاً للأكاديمي السعودي والمتخصص في علم المخطوطات وتحقيق التراث الدكتور لطف الله قاري الذي قرأت جزءاً بسيطاً من الدراسة التي شارك بها ضمن أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، سوريا، المنعقد بتاريخ، 15-16 أبريل 1982م، فبحثت عن الدراسة كاملة لأستفيد منها في المبحث الأول من الفصل الثاني حول أدب نصائح الملوك، فلم أجد الدراسة، فاتصلت به عبر موقعه على الفيسبوك لطلب الدراسة، فلم يتردد بل صورها وأرسلها لي في اليوم نفسه، فجزاه الله خيراً.

مدين بالشكر أيضاً للتي ارتقت إلى ربها شهيدة بإذن الله، أستاذتي التي قُتلت غدرا الدكتورة عائشة غطاس، فقد اعتبرتني وأنا أدرس على يديها بجامعة بوزريعة 2، ابنها، واعتبرته أمّاً لي، بنوّة علمية شاء الله ألا تدوم طويلاً، ولكنني تعلمت معها الجدية في البحث، وعزفتني على أهم مصادر التاريخ العثماني؛ فبفضلها تعرّفت على المستشرق النمساوي الشهير جوزيف فون هامر-برجشتال (Joseph von Hammer-Purgstall)، صاحب الموسوعة الضخمة "18 مجلد" (Histoire de l'Empire ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours)، وعلى المستشرق والمؤرخ والدبلوماسي الأرميني العثماني إغناطيوس مرادجه دوسون (Ignatius Mouradgea d'Ohsson) صاحب موسوعة (Tableau Général de l'Empire Othoman) في سبع مجلدات. وقد أصرت أن أكتب لها ملخصاً موجزاً عن مضامين موسوعة مرادجه، وقد فعلت فشاركنتي شغفها بالبحث والتأليف رحمها الله وتقبلها في الصالحين. ومن خلالها أشكر جميع أساتذتي ورفاقي بجامعة بوزريعة 2.

أشكر الذين تفضلوا بمراجعة ترجماتي وعند هذه النقطة أتوجّه بالشكر للذين راجعوا بعضاً من ترجماتي؛ البروفسور سهيل صابان (التركية) الأستاذ محمد فضالي (الإنجليزية)، الأستاذ محمد وطاس (الإيطالية)، الأستاذة والأخت التونسية المتخصصة في الترجمة والمقيمة بمدينة بون الألمانية الأستاذة (صباح سبيوي)، والدي العزيز عافاه الله الذي راجع معي بعض النصوص الفرنسية.

أعجز فعلاً عن ذكر كل من كان له فضل علي في إنجاز هذه الرسالة، لذا أعتذر بصدق لكل من ساعدني وأمدني بالإلهام ولم أذكره، لكنني أذكر أخيراً زوجتي الحبيبة قرة العين سميّة أم المؤمنين "خديجة"، التي تحمّلتني طيلة هذه السنوات، وعاملتني كما لو كنت طفلها وليس زوجها، فأنا مدين لها إلى الأبد لأنها زودتني بالدافع والإلهام الذي تشتد الحاجة إليه في كل عمل بحثي شاق. أشكر الله على حبها ورعايتها لي كل يوم.

إهداء

أهدي هذا الجهد العلمي المتواضع ...

إلى اللّذين تَعَلَّقَ رِضَا الله بِرِضَاهُمَا مُنْذُ وُجِدَ البَشَرُ، إلى
وَالِدَيَا الكَرِيمِينَ اللّذِينَ هُنْدَسَا حَيَاتِي بِحُبِّ وَتَقَانٍ وَصَبْرٍ،
فَاللهم ارحمهما كما رَبَّيَانِي صَغِيرًا.

إلى إِخْوَتِي حُبُّ دُنْيَايَ وَأَخْرَتِي، نَصِيرَةَ، فَتِيحَةَ، حَسِينَةَ،
رَشِيدَ، هَجِيرَهُ، سَمِيرَ، جَمِيلَةَ، أَحْمَدَ.

إلى حَبِيبَتِي نَصَفَ دِينِي وَمَعِينَتِي فِي نَصْفِهِ الثَّانِي قَرَةَ العَيْنِ
مَنْ رُزِقَتْ حَبَّهَا، خَدِيجَةَ.

إلى رِيَاحِينَ وَزِينَةَ حَيَاتِي أَبْنَائِي هِنْدَ أُمِّ سَلْمَةَ، أَنَسَ هَبَةَ
الرَّحْمَنِ، إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ، عَائِشَةَ سِيرِينَ، مَارِيَا فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ
وَأَخِيرًا إِلَى رُوحِ وَلَدِي الَّذِي سَبَقْنَا إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ، إِبْرَاهِيمَ

المقدمة

أستفتح بالقول أنه ربما يكون هذا البحث هو أول دراسة عربية شاملة عن فئة كان لها دور كبير في البناء الإداري العثماني، ذلك البناء الذي مكّن الدولة العثمانية من الصمود كدولة طيلة ستة قرون وكان لتلك الفئة على ما قيل دور حاسم في تأخير انهيار تلك الدولة مدّة قرن ونصف على الأقل - وهو ما سيتم اختباره - إنها فئة الكُتّاب من أهل القلم أو القلمية. أحاول في هذا البحث الإجابة عن جملة من التساؤلات من شأنها كشف الغطاء عن تلك الفئة وعن الدور الذي يمكن أنهما اضطلعت به للحفاظ على الدولة العلية العثمانية سيما في عهدها الأخيرة.

اخترت التّفيد بمصطلح "فئة الكُتّاب من أهل القلم" لرفع أي لبس قد يقع فيه القارئ المتخصص أو العامي، على اعتبار أنّ مصطلح "أهل القلم" وحده استخدم في العهود القديمة للإشارة إلى الرجال المتعلمين المثقفين بشكل عام وتحت هذا العنوان اندرج حتى فقهاء الشريعة الإسلامية ورؤساء المكاتب وموظفيها، لكن ولأنّ مصطلح "أهل القلم" في وقت لاحق من التاريخ العثماني - كما سنرى - بدأ يشير في الوثائق الإدارية إلى الإداريين العثمانيين فقط أي الكُتّاب، لذا أثبتته مع إضافة "فئة الكتاب" لتخصيصه وليكون مفهوما للقارئ المعاصر؛ فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وبالتدرّج تمايزت وتحدّدت المسؤوليات في الإدارة العثمانية، وظهر تخصص معين مع المهام المحددة لأهل السيف أو السيفية (seyfiye) وأهل العلم أو العلمية (ilmiye) و"فئة الكتاب من أهل القلم" أو القلمية (kalemiye) الذين عرفوا أيضا بعد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي باسم "أرباب القلمية" (kalemiye erbabi) في الوثائق العثمانية.

أهمية الموضوع

تأتي أهمية هذه الدراسة في كونها تحاول إعطاء تصور واضح وشامل لفئة إدارية عثمانية قيل أنها عانت وعالجت أكثر من غيرها قضايا الإصلاح تنظيرا وتنفيذا، من العهد الذي كانت فيه الدولة العثمانية في موقع القوة العظمى التي يُحسب لها ألف حساب، إلى العهد الذي بدأت فيه الدولة تضمحلّ قوّتها وتخرج رويدا رويدا من التاريخ إلى الجغرافيا على شكل دول شتى. ومن خلال دراسة هذه الفئة التي مثلت الجهاز الإداري والتوثيقي للدولة العثمانية يمكننا تتبع العوامل التي سبّبت انهيار الخلافة العثمانية، وكذا تتبع مسار انتقال الدولة من الهوية الإسلامية إلى الهوية العلمانية.

قدّمت فئة الكتاب من أهل القلم كما سنرى حين كانوا في موقع التنظير رسائل وكتابات ضمن

المقدمة

ما يعرف بأدب نصائح الملوك، حاولوا من خلالها تلمّس مواطن الخلل في الدولة العثمانية، وفي وقت مبكر جدا من حيث كانت الدولة العثمانية لا تزال القوة العظمى في العالم، وخاضوا في مواضيع شتى في جميع المجالات التي رأوا أنّ الخلل قد بدأ بالظهور فيها؛ وهكذا تحدّثوا عن الضرائب والخراج والأمور المالية عموما تحدّثوا عن نظام التمدرس، عن القضاء، عن نظام الترقية في الوظائف الحكومية عن الرشوة والظلم عن الجيش، عن علاقة السلطان بالرعية وعلاقة الرعية بالسلطان، وغيرها.

تحوّلهم من موقع التنظير إلى موقع صانع القرار السياسي، موقع السلطة التنفيذية بداية من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، أتاح لهم اختبار رؤاهم الإصلاحية مستفيدين من خبرتهم الإدارية الطويلة ومن الكثير من المؤلفات التي تركها أسلافهم، إضافة إلى اطلاعنا على محاولاتهم في تكييف الدولة حال ضعفها مع تقدم الغرب الأوروبي على ضوء ما عرفوه عن هذا الغرب من واقع تعاملهم مع السفراء واطلاعهم الحثيث على الشؤون الخارجية للدولة.

دافع البحث

شُغِلت منذ أيام الثانوية بذلك السؤال الكبير "لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟" وكنت ولا زلت متابعا مُجد لقضايا هذه الأمة الإسلامية العريقة، وهو ما دفعني وأنا أقرأ في ليلة من ليالي العاصمة بحج حيدر وسط سنة 2011م مقالة للدكتور خالد زيادة عن دور فئة الكتاب من أهل القلم في علمنة الدولة العثمانية بمجلة الاجتهاد اللبنانية - والتي أشعلت لديّ شغفا كبيرا - إلى أن أبحث عن هذه الفئة، وأبحث إن كان لهم دور في نقض عُرى الخلافة العثمانية وبناء الجمهورية التركية العلمانية على أنقاضها.

إشكالية البحث

تدفعنا معرفة حقيقة فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية لصياغة الإشكالية على أساس السؤال المركزي التالي: ما الدور الذي اضطلعت به فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية والذي حوّلها أكثر من غيرها للاشتباك مع قضايا الإصلاح والانفتاح على أوروبا سيما في القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين/ الثامن والتاسع عشر الميلاديين؟ ويتم تفكيك ذلك السؤال المركزي إلى جملة من الأسئلة الفرعية التي تعكس المسائل الأساسية للبحث ويتم الإجابة عنها ضمن مباحث الفصول؛ وتلك الأسئلة من قبيل: كيف نشأ وتطوّرت فئة الكتاب من أهل القلم ضمن النُظُم الإدارية الإسلامية عامة والعثمانية على وجه الخصوص؟ ما موقعهم داخل المنظومة الإدارية العثمانية؟ ما هي الظروف والأسباب التي

رَشَّحتهم أكثر من غيرهم لمهمة التقييم والتشخيص والإصلاح طوال التاريخ الإسلامي؟ كيف واجهوا الاختلالات وعوامل الانحلال في الدولة العثمانية بداية من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي؟ وكيف كانت شبكة علاقاتهم مع أهل السيف وأهل العلم والمجتمع العثماني؟ كيف انتقلوا من موقف المقترح للإصلاحات إلى موقف المنقذ لها؟ كيف ولماذا يمت فئة الكتاب هذه وجهها باتجاه الغرب كنموذج مُلهم للإصلاحات بعد أن كانوا دعاة للاستلها من الشرق وضمن أي إطار؟ ما المسار الذي اتبعوه لوضع أول دستور مكتوب للدولة العثمانية سنة 1293هـ/1876م؟ ما هي أهم العقبات التي واجهوها في سبيل ما رأوه من إصلاحات وكيف ذلّوها، وأيّ ضريبة دفعوها في سبيل ذلك؟ أرجو من خلال الإجابة عن تلك الإشكالية وما ارتبط بها من تساؤلات أن تنجلي أمامنا صورة تلك الفئة، والدور الذي مثّله في التاريخ العثماني، إلى جانب انجلاء موقف النخبة العثمانية السياسية والعسكرية والدينية منها، سيما بعد أن أخذوا بيد الدولة العثمانية التي نبتت في الشرق، باتجاه بيئة غربية كانت بالأمس القريب عدوّاً لذودا ودار حرب مقابل دار الإسلام.

الإطار الزمني والمكاني للبحث

تحديدي للمجال الزمني والمكاني للبحث، راعيت اختيار فترة زمنية طويلة تشمل الفترة من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي صحيح أنّ طول الفترة يقتضي عملا شاقا جدا تنقيا عن المصادر والمراجع، ومقارنة بين مختلف التوجهات والتحليلات، ولكنه مهم إذ به يتّضح تطوّر فئة الكتاب ضمن الظروف المتغيرة في البعد الزمني الطويل الذي يمكننا من رصد تلك التطوّرات عبر عدّة أجيال، كما يتّضح دورهم الشامل المستمر في حفظ وصيانة الدولة العليّة العُثمانيّة.

تمّ تحديد البداية من سنة 1039هـ/1630م وهي السنة التي شهدت تقديم ما اعتبره المؤرخون العثمانيون أهم رسالة تشخيصية لأدواء الدولة العثمانية إلى سلطان عثماني، والتي عدّ صاحبها مونتسكيو العثمانيين، والرسائل التي جاءت بعدها إما نسجت على منوالها أو استفادت منها، أما تحديد نهاية الأطروحة بسنة 1293هـ/1876م، فهي السنة التي شهدت وضع أول دستور عثماني مكتوب على الطريقة الأوروبية أو هكذا كان يراد له.

يتّم مكانيا التركيز في هذه الدراسة على فئة الكتاب من أهل القلم بإستانبول عاصمة الدوّلة العليّة المتراامية الأطراف، مع وجود تلك الفئة في كامل إدارات الأيالات أو الولايات التابعة للدولة العثمانية

بآسيا وإفريقيا وأوروبا، إلا أنّ دورهم الأكبر كان بالعاصمة ومنها بلغ تأثيرهم وشمل جميع أقاليم الدولة العثمانية، فالعاصمة مقر السلطان أو الخليفة العثماني، وهي مقر الحكومة أو الباب العالي، وما يحدث بالعاصمة ينعكس سلبا أو إيجابا على بقية أقاليم الدولة العثمانية.

منهج البحث

سيتم الاعتماد في حل إشكالية الدراسة والإجابة على جملة التساؤلات المتولدة عنها على المنهج التاريخي باعتباره المنهج الأنسب لفهم طبيعة وعمل فئة شغلت حيزًا مهمًا في التاريخ العثماني من بداياته إلى نهايته، مبتدئًا بوصف الهيكل الإداري العثماني عامة ووصف مؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم "رئاسة الكتاب" بشكل خاص، وذلك بالاعتماد على جملة من المصادر والمراجع والدراسات المختلفة وبلغات أجنبية متعددة (إنجليزية، فرنسية، تركية، ألمانية وغيرها)، مما يسمح لنا بالتعرف بعمق على البنية المؤسسية لفئة الكتاب، وأدوار ومهام أعضائها، والعلاقات المتبادلة بين مؤسستها وغيرها من المؤسسات الإدارية العثمانية بما فيها مؤسسة السلطنة، ورصد التغيرات التي مسّت الإدارة العثمانية عموما وفي القلب منها فئة الكتاب عبر الزمن. ثم يأتي دور التحليل والتفسير والنقد؛ تفسير تلك العلاقات وتحليل الوقائع ونقدها للوصول إلى الاستنتاجات المرجوة.

بخصوص منهجي في توثيق الأعلام فإنني لا أترجم الأعلام المشهورين في الهامش واكتفي بإرفاق اسمه بتاريخ الوفاة، أما الشخصيات العثمانية والمرتبطة بالتاريخ العثماني فأقدم عنها في الهامش ترجمة موجزة قدر المستطاع سيما أعلام فئة الكتاب من أهل القلم، أما إذا كانت الشخصية محورية في المبحث فإنني أدون ترجمتها بمتن المبحث على اعتبار أن تفاصيل حياتها مرتبطة بمضمون المبحث، أما بخصوص سلاطين آل عثمان فلم أترجمهم لشهرتهم واكتفيت بإثبات تاريخ ومدة حكمهم أو تاريخ الميلاد والوفاة.

هدف البحث

أؤكد أنّ هديني من هذه الدراسة ليس مناقشة وتحليل تطوّر تاريخ الفكر الإصلاحية العثمانية من خلال بعض أهم صانعيه من فئة الكتاب - وإن كانت الدراسة تتطرق للكثير من ذلك - ولكن هدف الدراسة هو معرفة رجال ذلك الفكر الإصلاحية من حيث ظروف نشأتهم وطرق تحصيلهم العلمي ضمن المدرسة الإدارية لرئاسة الكتاب، وكيف تطوّر أدائهم وزادت حاجة الدولة إليهم سيّما حين أصبحت الدبلوماسية سلاحا جديدا لا يقل خطورة عن المدافع والبارود، وكيف أصبح منهم

المقدمة

المفاوضين والسفراء وصولاً إلى أعلى المناصب في هرم المنظومة الإدارية العثمانية موقع الصدر الأعظم أو رئيس الوزراء وكيف استغلّوا هذا المنصب لتنفيذ ما ارتأوه من أفكار إصلاحية. تكمن مساهمتي الأصلية إذاً في تقديم هذه الفئة التي كان من أعضائها أهم رجالات الإصلاح في القرنين الثاني والثالث عشر الهجري/ الثامن والتاسع عشر الميلادي، هذه الفئة التي يقال أنها فتحت باب الاستفادة من العدو "الكافر" على مصراعيه، متجاوزة عقدة التفوق العثماني التي أعمت النخبة السياسية العثمانية طويلاً عن إدراك حقيقة أنّ من كانوا يدفعون للعثمانيين الجزية من قبل عن يد وهم صاغرون يوشك أن يتعاملوا بنديّة أكبر لدرجة أن تصبح دولة آل عثمان بالنسبة لهم مجرد مسألة شرقية ورجل أوروبا المريض على مشرحة الدول الأوروبية.

وصف ونقد أهم المصادر والمراجع

اعتمدت على مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع والدراسات بلغات مختلفة مما أتاح لي الوصول إلى معلومات كثيرة مهمة أثرت هذه الدراسة؛ هذه عينة منها: من المصادر المهمة في أي دراسة لها علاقة بالدواوين والنظم الإدارية الإسلامية، اعتمدت على أضخم موسوعة وصلتنا في أدب الإنشاء والنظم ومراسلات الملوك وعنوانها: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، ومؤلفها أحد أهم رجالات فئة الكتاب في العصر المملوكي بمصر وهو أبو العباس القلقشنديّ شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (756 - 821 هـ / 1355 - 1418 م).

تم الاعتماد فيما يخص بنية النظام الإداري العثماني وتطوره حتى بلوغه ذروة كماله على عهد سليمان القانوني على أهم المصادر في التاريخ العثماني؛ الموسوعة الضخمة (18 مجلد) للمستشرق النمساوي الشهير جوزيف فون هامر-برجشتال (Joseph von Hammer-Purgstall) (1774-1856 م) وعنوانها تاريخ الإمبراطورية العثمانية من بداياتها إلى عصرنا الراهن (Histoire de l'Empire ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours)، حيث تمّ الاعتماد على الأجزاء: الثالث والرابع والسابع والثامن والعاشر والسابع عشر.

اعتمدت أيضاً على مصدر آخر مهم يعود للمستشرق والمؤرخ والدبلوماسي الأرميني العثماني إغناطيوس مرادجه دوسون (Ignatius Mouradgea d'Ohsson) صاحب موسوعة: مشهد عام للإمبراطورية العثمانية (Tableau Général de l'Empire Othoman) في سبع مجلدات إذ تمّ الاعتماد على المجلد الأول وبصورة خاصة المجلد السابع. إلى جانب ما كتبه الأكاديمي التركي

البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلو في الجزء الأول من كتابه "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة" وما كتبه المؤرخ الأمريكي المتخصص في التاريخ العثماني ألبرت هـ. ليبير (Albert Howe Lybyer) (1876 – 1949) في كتابه "الحكومة العثمانية في عهد سليمان العظيم" (The Government of The Ottoman Empire In The Time Of Suleiman The Magnificent). وتمّ ها هنا الاعتماد على "المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية" لسهيل صابان في شرح المصطلحات الإدارية العثمانية.

استفدت في وصف مؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية وتطورها بشكل أساسي من دائرة المعارف الإسلامية التركية (TDV İslâm Ansiklopedisi) في أجزاءها التاسع، والرابع والعشرين والرابع والثلاثين، وتمت الاستفادة من مراجع أخرى مثل ما كتبه المؤرخ الأمريكي كارتر في فيندلي (Carter V. Findley) ضمن كتابه "الإصلاح الإداري في الإمبراطورية العثمانية، الباب العالي، 1789-1922" (Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire, The Sublime Porte, 1789-1922)، وغيرها.

عرضت أشهر رسالة إصلاحية في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي لأحد أهم كوادر فئة الكتاب في عهده السيد قوجي بك بالاعتماد على رسالته "رسالة قوجي بك" (Koçi Bey Risâlesi) التي حقّقها الأستاذ والباحث التركي أحمد زهير دانيشمان (Ahmet Zuhuri Danışman) (1902-1971م). ولعرض أفكار حاجي خليفة في رسالته دستور العمل لإصلاح الخلل تم الاعتماد على ترجمة الأكاديمي الأستاذ علي خان (Ali Can)، تحت عنوان: الطرق التي انتهجها كاتب جلبي لإصلاح الخلل في "دستور العمل لإصلاح الخلل" (Kâtip Çelebi Bozuklukların Düzeltmesinde Tutulacak Yollar (Düsturu l-'amel fi islahi l-halel)، ولعرض أعمال المؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما ضمن المبحث الرابع تمّ الاعتماد على العرض الموجز والمحكم الذي قدّمه الباحثون في المشروع البحثي التاريخي (OTTPOL) المتخصص في تاريخ الفكر السياسي العثماني الحديث المبكر، من القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر وهو مشروع تابع لمعهد الدراسات المتوسطة / مؤسسة الأبحاث والتكنولوجيا - اليونان.

عوّلت في فهم الإطار العام الذي جرى ضمنه التبادل الحضاري بين العثمانيين والأوروبيين على مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع والدراسات أهمّها "تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين" دراسة الباحث التركي الدكتور مصطفى سويكت (Mustafa Soykut) "صورة" الترك" في إيطاليا

تاريخ "الآخر" في أوائل أوروبا الحديثة: 1453-1683 (Image of the "Turk" in Italy, A) المنشور بسلسلة الدراسات الإسلامية (Islamkundliche Untersuchungen) الصادرة بألمانيا، إلى جانب كتاب المؤرخ التركي خليل إينالجيك "تركيا وأوروبا في التاريخ" (Turkey and Europe in History). وكذا "الإمبراطورية العثمانية وأوروبا: مواجهات ثقافية" (The Ottoman Empire and Europe: Cultural Encounters) للمؤرخة التركية المتخصصة في تاريخ الفن العثماني غونسيل ريندا (Gunsel Renda) ودراسة بعنوان "التطلع شرقاً: الكتابة الإنجليزية والإمبراطورية العثمانية قبل عام 1800" (Looking East: English Writing and the Ottoman Empire before 1800) للبروفسور البريطاني جيرالد إم ماكلين (Gerald MacLean) أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة إكستر، ومؤسس ومدير مشارك لدراسات إكستر التركية، وغيرها.

استعنت لمعرفة دور فئة الكتاب من أهل القلم والصدارة العظمى قبل عهد التنظيمات فقد بمجموعة متنوعة من الدراسات منها دراسة الباحثة التركية الأستاذة في جامعة ميشيغان الأمريكية الدكتورة فاطمة موج جوتشيك (Fatma Müge Göçek) بعنوان "مواجهات شرق غرب: فرنسا والإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر" (East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century). وكتاب "الحلم العثماني، تاريخ الدولة العثمانية 1300-1923" (Osman's Dream, History of the Ottoman Empire 1300-1923) للكاتبة البريطانية المتخصصة في التاريخ العثماني والمقيمة بتركيا كارولين فينكل (Caroline Finkel)، وغيرها.

اعتمدت في سبيل معرفة السفراء العثمانيين المنتمين لفئة الكتاب من أهل القلم على المجلد السابع عشر من موسوعة المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر، ودراسة المؤرخ التركي محمد إيشيرلي (Mehmet İpşirli) بدائرة المعارف الإسلامية التركية بعنوان "السفير، دبلوماسي يعين لتمثيل دولة أمام دولة أخرى" (ELÇİ, Bir devleti temsil etmek üzere başka bir devlet nezdinde) ودراسة بعنوان "سفارة أحمد واصيف أفندي لإسبانيا" (Ahmet Vasıf Efendi'nin İspanya'ya Dair Sefaretnamesi) للمؤرخ الأمريكي المتخصص في التاريخ العثماني إيثان إل مينشينغر (Ethan L. Menchinger). وأخرى للمؤرخ التركي البروفسور أ.نوري يوردوسيف (A. Nuri Yurdusev) بعنوان "الدبلوماسية العثمانية: تقليدية أم غير تقليدية؟"

(Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional)?.

اعتمدت أيضا على "مذكرات عبد الحميد الثاني" التي حققها العالم المصري المتخصص في التاريخ العثماني البروفسور محمد حرب، إلى جانب "القانون الأساسي" أو "الدستور العثماني" الذي نشرته الدولة العلية العثمانية. إلى جانب كتاب يحكي سيرة أحد أهم رجالات فئة الكتاب من أهل القلم في عصره ومن يسميه بعض المؤرخين الأتراك بأبي الدستور العثماني السيد مدحت باشا، والكتاب ألفه نجله علي حيدر مدحت وعنوانه "سيرة مدحت باشا سجل خدماته، والإصلاحات السياسية، والنفي والحكم بالإعدام" (The life of Midhat Pasha; a record of his services, political reforms, banishment, and judicial murder).

تمت الاستفادة في كامل الفصل الأخير تقريبا من العمل الأكاديمي الدقيق للمؤرخ الأمريكي أستاذ جامعة جورج واشنطن ورئيس جمعية دراسات الشرق الأوسط وجمعية الدراسات التركية البروفسور رودريك دافيسون (Roderic H. Davison) (1917-1996) في كتابه "الإصلاح في الدولة العثمانية 1856-1876" (Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876) كونه اعتمد على مصادر عثمانية، وكتابه يغطي تقريبا الفترة التي يعالجها الفصل الأخير.

أقول في النهاية أن الاعتماد على كتابات المستشرقين يجب أن يُتوخى فيه الحذر فأمثال المستشرق البريطاني لين بول ستانلي (Lane-poole Stanley) رغم اتصافه عموما بالموضوعية في كتاباته فإنه بالنظر إلى بروتستانتيته كان به بعض التعصب لولي نعمته السفير البريطاني بالقسطنطينية السير ستراتفورد كانينج (Sir Stratford Canning)، كما أن المستشرق البريطاني برنارد لويس (Lewis Bernard) وإن كان لا يغامر بمصداقيته في أمانة نقل النصوص من الأرشيف العثماني، ولكنه يعمل على وضعها في سياقات وضمن قراءات تنسجم مع عدائه للحضارة الإسلامية عموما، ومصدر كالذي كتبه نجل مدحت باشا السيد علي حيدر مدحت (Ali Haydar Midhat) عن والده وعنوانه: حياة مدحت باشا؛ سجل خدماته وإصلاحاته السياسية ونفيه والحكم بإعدامه (The life of Midhat Pasha; a record of his services, political reforms, banishment, and judicial murder) اتسم بلغة ونفس دفاعي ينبغي كغيره مقارنة ما جاء فيه من أحكام مع غيره من الكتابات المعاصرة.

الدراسات الأكاديمية السابقة

بحث فيما كُتِبَ بالدراسات السابقة حول فئة الكتاب من أهل القلم وبعد البحث والاستقصاء فيما عثرت عليه من دراسات ومراجع عربية وأجنبية (إنجليزية فرنسية تركية ألمانية) تبين لي عدم وجود

دراسة استقصائية شاملة حول فئة الكتاب من أهل القلم بالذات، مع وجود الكثير عن أخبارهم وإشارات عن أهمية أدوارهم في التاريخ العثماني في الكثير من الأبحاث والدراسات، ولعلّ أشمل دراسة كثر فيها الإشارة إلى بعض رجالات فئة الكتاب هي رسالة الدكتوراه للأستاذ والباحث والأكاديمي التركي الدكتور ألب إرن توبال (Alp Eren Topal) الموسومة بـ "من التراجع إلى التقدم: المفاهيم العثمانية للإصلاح 1600-1876" (From Decline to Progress: Ottoman Concepts of Reform 1600-1876) وهو بحث في فلسفة الأفكار وتاريخ الفكر السياسي العثماني حول الإصلاح. وجدت أن جميع الأبحاث والدراسات التي تتحدث عن الإصلاحات في التاريخ العثماني وهي كثيرة لا بدّ وأن تتحدّث عن رجالات فئة الكتاب كأشخاص، وذلك بمثابة إجماع من الباحثين يفرضه الواقع التاريخي بأنّ الإصلاحات في الدولة العثمانية كان رجال فئة الكتاب من أهم روادها، وبعضها ركّز البحث على أحد رجالاتها ودوره في الإصلاح أو نقل الأفكار الإصلاحية الغربية إلى الدولة العثمانية¹.

نجد فيما يتعلق بالتحويلات في المنظومة الإدارية العثمانية عامة وفئة الكتاب من أهل القلم بوجه خاص أنّ المؤرخ الأمريكي المتخصص في تاريخ الحضارة الإسلامية مع التركيز على الإمبراطورية العثمانية والشرق الأوسط الحديث الأستاذ الدكتور كارتر في فيندي قد وضع كتاباً قيماً عنوانه: "الإصلاح الإداري في الإمبراطورية العثمانية، الباب العالي، 1789-1922"، (Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire, The Sublime Porte, 1789-1922)، وقد تطرّق فيه إلى التغييرات التي مسّت الهيكل الإداري العثماني عامة مع التركيز على فئة الكتاب منذ زمن السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني إلى بدايات تشكل الجمهورية التركية.

أجدد أيضاً ذكر المقالة الثمينة التي كانت السبب وراء هذا البحث الشاق كله وهي مقالة المؤرخ والدبلوماسي والأكاديمي اللبناني خالد زيادة، والتي تحمل عنواناً مستفزاً ومُلهماً في آن معاً: " دور فئة الكُتّاب الإداريين في علمنة الدولة العثمانية " ضمن مقالات مجلة الاجتهاد العربية في عددها الثالث

1. على سبيل المثال لا الحصر رسالة ماجستير للباحث التركي الدكتور بيرم فاتح (Bayram Fatih) حول رئيس أهل القلم في عصره أبو بكر راتب أفندي وعنوان رسالته: "أبو بكر راتب أفندي كمبعوث عثمانى للمعرفة بين الشرق والغرب" (Ebubekir Ratib Efendi as an Ottoman envoy of knowledge between the east and the west) ورسالة الدكتوراه للباحث الأمريكي الدكتور إيتان لويس مانشينجر (Ethan Lewis Menchinger) حول رئيس أهل القلم في عصره أحمد واصف أفندي، وعنوانها: "مؤرخ عثمانى في عصر الإصلاح: أحمد واصف أفندي (حوالي 1730-1806)" (An Ottoman Historian in an Age of Reform: Ahmed Vâsif Efendi (ca. 1730-1806)).

والأربعين لسنة 1989م، فقد استعرض فيه بإيجاز مؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم وبنائها الهرمي وموقعها ضمن النظام الإداري العثماني، ويستعرض بعض رسائلهم الإصلاحية في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، ويذكر دورهم في تطور الكتابة التاريخية العثمانية، ودورهم في تنشيط حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العثمانية، ثم دورهم في الانفتاح على أوروبا وإسهامهم الكبير في تحرير مفهوم جديد للدولة ودورها، وكيفية بناء جيش نظامي يتقاضى راتبه من خزانة الدولة ويكون على منوال الجيوش الأوروبية الحديثة.

خطة البحث

بُنيت خطة البحث على خمسة فصول يكمل بعضها بعضاً؛ في الفصل الأول: فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي عامة والعثماني خاصة، والذي ضمّ ثلاثة مباحث هي على التوالي نشأة ومكانة فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي، النظام الإداري العثماني نظرة عامة، فئة الكتاب في النظام الإداري العثماني. تناولت كل ما يتعلّق بالجانب التقني - مع جواز التعبير - لفئة الكتاب وتاريخ نشأتهم ضمن التاريخ الإداري الإسلامي بشكل عام خاصة الدّول التي تعتبر سلفاً للدولة العثمانية مثل دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م) ودولة السلاجقة العظام (429-552هـ/1037-1157م) ودولة سلاجقة الروم (470-708هـ/1077-1308م). كما تمّ التطرّق للنظام الإداري العثماني كيف نشأ وتطوّر حتى بلغ غاية كماله زمن سليمان القانوني، وهو مبحث مهم لفهم موقع مؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم ضمن المنظومة الإدارية العثمانية حين يتم الحديث عنها وعن نشأتها وتطوورها ومهام أعضائها وعلاقتها بغيرها من المؤسسات الإدارية العثمانية في المبحث الأخير من هذا الفصل.

عنونت الفصل الثاني ب: فئة الكتاب من أهل القلم ودورهم في الإصلاح قبل اتفاقية كارلوفيتز سنة 1110هـ/1699م وهو مكوّن من أربعة مباحث هي: أدب نصائح الملوك عند العثمانيين، قوجي بك ورسالته الإصلاحية حاجي خليفة ودستور العمل لإصلاح الخلل، المؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما، أركّز في هذا الفصل على جانب مهم من التنظير الذي قامت به فئة الكتاب في ميدان تشخيص الخلل والإصلاحات ضمن ما سمي في دراسات التاريخ الإسلامي بأدب نصائح الملوك نظير أدب مرايا الأمراء في التاريخ الأوروبي، هذا الفصل نفهم من خلاله جانباً مهماً من التفكير الكلاسيكي السائد عند النخبة العثمانية قبل أن تهبّ عليهم رياح التغريب، ومع الإشارة إلى أنّ اتفاقية كارلوفيتز سنة

كما سنرى تعتبر مفصلاً مهماً في تاريخ التحولات الفكرية والسياسية والعسكرية والثقافية العثمانية. جعلت عنوان الفصل الثالث: العثمانيون في المنظور الأوروبي، التأثير والتأثر. ويضمّ هذا الفصل ثلاثة مباحث هي: تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين، التأثير العثماني الأوروبي المتبادل، العثمانيون في عيون الرحالة أهمية هذا الفصل تكمن في معرفة حجم وطبيعة العلاقات العثمانية الأوروبية في زمن القوة العثمانية ثم في زمن تراجعها، من خلاله نعرف أنّ العلاقات العثمانية مع أوروبا كانت مع بدايات الدولة العثمانية ولم تكن في الجانب العسكري فقط، بل شملت عدّة جوانب، ولنفهم سُنّة التداول والتدافع الحضاري من حيث أنّ الإنسان مدني بطبعه، ومُحِبٌّ للتّركي والاستفادة من جنسه بطبعه. يعتبر هذا الفصل الإطار المرجعي للفهم الموضوعي للفصلين اللاحقين ضمن قانون التداول الكوني {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} ¹، وحتى لا يظن ظان أن العثمانيين أخذوا من الغرب ولم يعطوه، وتأثروا به ولم يؤثروا فيه.

وضعت عنوان الفصل الرابع: جهود فئة الكتاب من أهل القلم بعد كارلوفيتز وقبل التنظيمات، وعبر مباحثه الثلاثة: فئة الكتاب من أهل القلم والصدارة العظمى قبل عهد التنظيمات، السفراء و"السفارت نامه" (إعادة اكتشاف أوروبا) أبو بكر راتب أفندي ومحمد سعيد خالد أفندي. نرى كيف انتقلت فئة الكتاب من مربع التنظير إلى مربع السلطة التنفيذية، نرى كيف بدأ دورهم في أعلى منصب في المنظومة الإدارية العثمانية، وكيف نقلوا صورة التقدّم الأوروبي إلى العثمانيين، ونرى جانباً من بدايات الصراع الإيديولوجي بين التغريب والمرجعية الإسلامية حتى ضمن فئة الكتاب من أهل القلم.

ختمت بالفصل الخامس: فئة الكُتّاب من أهل القلم والانفتاح الإصلاحي على أوروبا الجديدة والذي يتألّف من ثلاثة مباحث هي على التوالي: فئة الكتاب من أهل القلم وخط شريف كلخانة 1255هـ/1839م، فئة الكتاب من أهل القلم وخط همايوني 1272هـ/1856م، فئة الكتاب من أهل القلم والدستور العثماني 1293هـ/1876م. نفحص التصاعد الكبير للتغريب، وبدأت في هذه المرحلة تتشكل رؤية الدولة الحديثة التي فيها رقابة على تصرفات السلطان الإدارية، وفيها فصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتشكّلت فيها المجالس والبرلمان وبدايات الصحافة وتشكّل الرأي العام العثماني، وكل ذلك بدفع كبير من فئة الكتاب. ختمت الأطروحة بعد ذلك بخاتمة لخصّت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وضمنت الأطروحة مجموعة من الملاحق، بالإضافة إلى الفهارس (الأعلام، الأماكن، البلدان والدول، فهرس المصطلحات).

1. سورة آل عمران، الآية 140.

ملاحظات بخصوص الملاحق

حرصت بالنسبة للملاحق - وعددها 32 ملحقاً - على أن تكون وظيفية تخدم الأطروحة فالملاحق الخمسة الأولى نتعرف من خلالها على شجرة السلاطين العثمانيين، وعلى الهيكل البنوي للمؤسسات الدينية والسياسية ومؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم، وهكذا تكون عندنا صورة واضحة عن منظومة الحكم العثماني، وموقع مؤسسة فئة الكتاب من تلك المنظومة.

قصدت بوضع الملاحق الأحد عشر (من 6 إلى 16) التي بها صور سلاطين عثمانيين أو ملوك أو صدور عظام وغيرهم ضمن الفصل الثالث: "العثمانيون في المنظور الأوروبي، التأثير والتأثر" إعطاء نماذج لذلك التأثير والتأثير من خلال الصور التي كانت موضوعة تلك الحقبة، فمثلاً على ذلك التأثير نجده في (الملحق 09) صورة أول مقهى بفيينا لصاحبه جورج فرانز كلوتشيتزكي الذي أخذ البن الذي تركه العثمانيون أثناء حصارهم لفيينا سنة 1683م، يظهر فضل العثمانيين على الغرب في ظهور الرأي العام الذي تشكل أول ما تشكل في المقاهي. كما يظهر الملحقين (10-11) نظرة العثمانيين إلى الكفار من الغرب لفهم عمق التحول الذي طرأ على العثمانيين.

تظهر بقية الملاحق صور كبار أهم أعلام فئة الكتاب من أهل القلم الذين دشنوا مسار التغريب في الدولة العثمانية (نوشهري دمادا إبراهيم باشا، يرميسكيز محمد جلبي أفندي، خليل حميد باشا، مصطفى رشيد باشا، محمد أمين عالي باشا، فؤاد باشا كاتشي جي زاده، مدحت باشا) إلى جانب صورة أهم سفير بريطاني وغربي في فترة التنظيمات السير سترايتفورد كانينج. إلى جانب صورة لحديقة حديقة سعد آباد (Sa'dabad) رمز عهد التوليب ومنطقة كاغد خانة (Kâğıthane) حيث ألقى أول مرسوم للتنظيمات، إلى جانب الجداول المختلفة كلها تزيد في فهم البيئة التي تحرك ضمنها أعلام فئة الكتاب من أهل القلم.

صعوبات البحث

أخذت مني هذه الدراسة جهداً كبيراً سيما في البحث والتنقيب عن المصادر والمراجع بلغات مختلفة، ليقيني أنّ الدراسات العربية لا تزال قليلة في مجال الدراسات العثمانية سيما التخصصية منها وهو ما أكّده لي البروفسور سهيل صابان، والبروفسور خالد أرن، وليس البحث والتنقيب في مصادر ومراجع بلغات أجنبية بالأمر السهل، ثم إنّ العثور على الكثير من المصادر والأبحاث باللغات الأجنبية أوجد مشكلة غربلتها وتصنيفها وتصنيفاً مناسباً لطبيعة الأطروحة وخدمة لإشكالياتها، وبعد الاتفاق

المقدمة

على الخطة الأولى مع المشرف الأستاذ الدكتور عبد المالك بوعريوة بدأت العمل الصعب؛ الترجمة من اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية التي توليتها بنفسى وأخذت هذه المسألة وحدها معظم الوقت. استعملت في هذه الدراسة الكثير من المصطلحات العثمانية التي لها جذور عربية أو فارسية على اعتبار أنّ اللغتين من أهم روافد اللغة التركية العثمانية، والتأثير الفارسي في النظم الإسلامية عامة والعثمانية خاصة لا يمكن إنكاره أو تجاوزه، وتبعاً لذلك التأثير كثرت المصطلحات ذات الجذور الفارسية في القاموس الإداري العثماني، وقد أوجد ذلك صعوبة أخرى تطلبت بذلت المزيد من الجهد والكثير من التنقيب للعثور على ترجمة دقيقة لتلك المصطلحات؛ فتمّ شرح تلك المصطلحات بالرجوع إلى دائرة المعارف الإسلامية التركية وإلى "المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية" للأستاذ الدكتور سهيل صابان، وغير ذلك من المعاجم والدراسات.

الفصل الأوّل: فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي عامّة والعثماني خاصّة

المبحث الأوّل: نشأة ومكانة فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي

المبحث الثاني: النظام الإداري العثماني نظرة عامة

المبحث الثالث: فئة الكتاب من أهل القلم في النظام الإداري العثماني

أتناول في هذا الفصل مقدمات مهمة لفهم تاريخ نشأة فئة الكتاب من أهل القلم ضمن الإطار العام لتاريخ النُظْم والإدارة الإسلامي، الذي بدأ من العهد النبوي الشريف بكتاب الوحي وكتبة النبي لمختلف أغراض الدولة الإسلامية الوليدة، إلى تطويره على يد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تطوره وتطور الإدارة عموماً في العهدين الأموي والعباسي، وصولاً إلى معرفة كيف نشأت وتطورت فئة الكتاب من أهل القلم ضمن الإطار الخاص للتاريخ العثماني الذي استفاد من روافد حضارية متنوعة؛ من التراث الإداري الإسلامي متمثلاً في الدول الإسلامية التي شكلت بيتهم الحاضنة وأعني هنا دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م) ودولة السلاجقة العظام (429-552هـ/1037-1157م) ودولة سلاجقة الروم (470-708هـ/1077-1308م) وميراث الخلافة العثمانية، إلى جانب التراث البيزنطي الذي تمدد العثمانيون على حساب دولته الإمبراطورية البيزنطية (330-1453م)، كما أتعرض في هذا الفصل إلى وصف المنظومة الإدارية العثمانية، ليتضح لنا موقع مؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم ضمن تلك المنظومة، كما أتطرق إلى هيكله مؤسستهم ورتب مسؤوليها ومهام موظفيها وحدود صلاحياتهم وكيف توسعت ولماذا.

المبحث الأول: نشأة ومكانة فئة الكتاب من أهل القلم
في التراث الإداري الإسلامي

بدايات النظم والتراتب الإدارية الإسلامية
التنظيم الإداري في الدولة الأيوبية ودولة المماليك
التنظيم الإداري في دولة سلاجقة الروم

تحضّر أي أمة من الأمم يظهر في مؤسساتها ونظمها، كما تظهر عبقريتها في مدى استجابة القواعد التي بنيت عليها تلك المؤسسات والنظم لمختلف التحديات الداخلية والخارجية عبر الزمن ممّا ضمن لها البقاء والحيوية والنماء، وإذا كانت الدولة هي "مجموعة من الأفراد يقطنون إقليمًا جغرافيًا معيّنًا بصفة دائمة ومستقرّة ويخضعون في تنظيم شؤونهم لسلطة سياسية تستقل في أساسها عن أشخاص من يمارسها"¹ فإنّه لا عبرة بتلك المكونات إذا لم تكن للدولة مؤسسات ونظم تضمن لها الاستقرار والرفاه.

بدايات النظم والتراتب الإدارية الإسلامية

في الإسلام ومع عهد الدولة النبوية بالمدينة المنورة كانت بدايات المؤسسات والنظم والتراتب الإدارية، نمت وتطوّرت استجابة لتغير الظروف واتّسع دولة الإسلام شرقًا وغربًا؛ كانت المدينة المنورة هي عاصمة الدولة الإسلامية وأوّل عاصمة للإسلام، ومثّل المهاجرون والأنصار النواة الصلبة لشعب تلك الدولة، وكانت القيادة الروحية والسياسية ممثلة في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم. بدأت المؤسسات والنظم تتشكل تباعًا بحسب حاجات الدولة الوليدة؛ فكان المسجد إلى جانب دوره الروحي التعبدي أوّل مؤسسة ومركز إداري في الإسلام؛ فقد كان مجلسًا للشورى يتشاور فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع صحابته الكرام فيما يعود بالنفع على الدعوة والدولة، وفي كيفية مواجهة التحديات التي تهدّد دولة الإسلام، وكان المسجد إلى جانب ذلك مجلسًا للقضاء فيه تفضّ المنازعات ومنه تنطلق الجيوش وفيه تستقبل الوفود ومنه ينطلق الرسل إلى الملوك والرؤساء وجباة [الزكاة]² ومن المسجد كما سنرى تشكّلت بدايات النظم الإدارية التي استجابت لحاجات الدولة الوليدة في ربط متناغم بين الدنيا والآخرة.

كانت الشورى قاعدة حكم النبي صلى الله عليه وسلم كما أشارت الآيات الكريمة في قوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}³، وقوله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}⁴، وقد أطلقت بعض المصادر على أولئك الذين استشارهم النبي صلى الله عليه وسلم بشكل كبير اسم "الوزراء"؛ فقد جاء في كتب السنن "كان أبو بكر الصديق من النبي صلى الله عليه وسلم مكان الوزير فكان يشاوره في جميع أموره" وجاء في الحديث: "ما من نبي إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي

1. نعمان احمد الخطيب: الوجيز في النظم السياسية، ط2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2011، ص16.

2. كرمي أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ط1، دار السلام، القاهرة، 1427، ص77.

3. آل عمران، الآية 159.

4. الشورى، الآية 38.

من أهل السماء فجيريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر¹ فكانت تلك بدايات مؤسسة الوزارة في الإسلام.

شهدت الحجابة أيضا بداياتها في العهد النبوي؛ إذ كان بعض المسلمين يعمل حاجبا لرسول الله بتكليف منه، فيقومون بالإذن عليه في بعض الأوقات، ولكن يلاحظ أن "الحجابة" هذه لم تكن لها مراسيم وأعراف أو أنظمة معقدة. كما وجدت وظيفة "أمين السر"، وارتبطت بشكل كبير بالإدارة العليا للدولة ممثلة برسول الله صلى الله عليه وسلم²، وكل من الحجابة وامانة السر تطوّرت مع الزمن بإسهام من روافد بيزنطية وفارسية.

يهمنا في النظم الإدارية المختلفة وظيفة الكتبة أو ما عرف لاحقا بفئة الكتاب؛ فقد كانت الكتابة من أعظم إنجازات البشر وهي من أعظم حسنات الحضارة السومرية³؛ جاء في موسوعة قصة الحضارة: "الكتابة أروع ما خلفه السومريون، ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيم الرقي صالحاً للتعبير عن الأفكار المعقدة في التجارة والشعر والدين والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش... كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين. وكانوا في ذلك جد مهرة... وكانت نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية"⁴.

إذا كانت الكتابة هبة بلاد ما بين النهرين للعالم، فإنّ الأوراق هي هبة الصين للعالم، وإن طوّرها العرب؛ فقد "استطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعه الورق إلى أعلى درجة، وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف، وليجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هذه الصناعة في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، ثم أخذتها أوروبا

¹ والحديث ضعيف، ينظر: الترمذي أبو عيسى (ت 279 هـ): سنن الترمذي، تح: محمد ناصر الدين الألباني، مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية، ب ت، ص835.

² وقد روى الإمام الترمذي أن حذيفة ابن اليمان (ت 36 هـ) رضي الله عنه اشتهر أنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ينظر: المصدر نفسه، ص860. ومن هنا فقد انفرد حذيفة في معرفة كثير من الأسرار التي لم يعلمها غيره خاصة معرفة أسماء المنافقين وأخبارهم.

³ نشأت الحضارة السومرية بين نهري دجلة والفرات جنوب شرقي العراق حالياً، وهو ما يعرف ببلاد ما بين النهرين، حيث تشير المصادر التاريخية إلى أنّها بدأت سنة 3500 قبل الميلاد، وازدهرت واستمرت حوالي سنة 2000 قبل الميلاد، ثم ذابت وامتزجت بحضارة بابل وحضارة الآشوريين، وهي تعد أول حضارة في العالم. ينظر: الحميدان عبد اللطيف بن محمد بن عبد العزيز: سنن قيام الحضارات وسقوطها: قديماً وحديثاً بآراء ابن خلدون، ط1، العبيكان للنشر، السعودية، 2017، ص13-14.

⁴ ول ديورانت، وويليام جيمس ديورانت: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود وآخرين، ج2، دار الجيل، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988، ص34.

عن العرب في القرن الثالث عشر كانت قد بلغت غاية الكمال¹.

بعد ذلك كان للكتابة شأن عظيم في كل حضارة، وسنعمد على نصوص تراثية من كتب التراث العربي الإسلامي لإجلاء الرؤيا حول فضل الكتابة والكتابة في الحضارة الإسلامية، وحول فحة الكتاب من أهل القلم نشأتهم وتطور طبقتهم وتميزها وتميزها عن بقية النظم الإدارية، إلى جانب ثقافتهم ومهامهم وموقعهم في المنظومة الإدارية الإسلامية.

أطنب العلماء في فضل الكتابة والكتابة من ذلك ما نقله العلامة القلقشندي (ت821هـ) في موسوعته صبح الأعشى إذ قال: " أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه: { أَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق الآية 3-5] ... ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلّت قدرته: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ } [الانفطار الآية 10] ... ثم زاد ذلك تأكيداً ووفر محله إجلالاً وتعظيماً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يسطر به فقال تقدّست عظمته: { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [القلم الآية 1]²

نقل القلقشندي بعد ذلك أقوال السلف في فضل الكتابة فقال: " وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لمادح حتى قال سعيد بن العاص³: «من لم يكتب فيمينه يسرى». وقال معن بن زائدة (ت151هـ): «إذا لم تكتب اليد فهي رجل» وبالغ مكحول (ت112هـ) [فقيه الشام] فقال: «لا دية ليد لا تكتب» ... ثم قال المؤيد⁴: «الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة، إليها ينتهي الفضل، وعندها تقف الرغبة»⁵.

عرض القلقشندي بعد ذلك أقوال بعض السلف في فضل الكتابة فقال: " وإذا كانت الكتابة

1. المرجع نفسه، ج4، ص153.

2. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري (ت821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح: محمد حسين شمس الدين وآخرون، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987، ص63.

3. سعيد بن العاص (000 - نحو 3 هـ / 000 - نحو 624 م): من سادات أمية في الجاهلية. عاش إلى ما بعد ظهور الإسلام ومات على دين الجاهلية. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج3، ص96-97. بتصرف.

4. أبو الفداء (672 - 732 هـ / 1273 - 1331 م): إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: الملك المؤيد، صاحب حماة في عصر المماليك. مؤرخ جغرافي، له (المختصر في أخبار البشر - ط) ويعرف بتاريخ أبي الفداء، وله (تقويم البلدان - ط) في مجلدين، وغيرها من المصنفات. ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص319. بتصرف.

5. القلقشندي: المصدر السابق، ص65-66.

من بين سائر الصناعات بهذه الرتبة الشريفة والذروة المنيفة. كان الكتاب كذلك من بين سائر الناس قال الزبير بن بكار¹: «الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة». وقال ابن المقفع: «الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك» ومن كلام المؤيد «كتاب الملوك عيونهم المبصرة، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة». وكانت ملوك الفرس تقول: «الكتاب نظام الأمور وجمال الملك، وبهاء السلطان وخزان أمواله والأمناء على رعيته وبلاده، وهم أولى الناس بالحباء والكرامة، وأحقهم بمحبة السلام»².

أورد الإمام أبو حامد الغزالي (505 هـ) أنّ "الدنيا تحت شيفين السيف والقلم، والسيف تحت القلم، والقلم أدب المتعلمين وبضاعتهم وبه يعرف رأي كل إنسان من قريب وبعيد... السيف والقلم حاكمان في جميع الأشياء، ولولا السيف والقلم ما قدمت الدنيا"³، "والكاتب هو أحد دعامتي الدولة فإن كل دولة لا تقوم إلا على دعامتين من السيف والقلم، وربما لا يفتقر الملك في ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام، وكثيرا ما يُستعنى به عن السيف"⁴، وبمثل ذلك قالوا: "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب للملوك، ومن فضل الكتابة أنّ صاحب السيف يُزاحم صاحب القلم في قلمه ولا يُزاحمه الكاتب في سيفه"⁵ لذلك كان لفئة الكتاب من أهل القلم مكانة عالية عبر كافة مراحل التاريخ الإسلامي لا تقل في أهميتها عن مكانة أهل السيف، بل لعله في الكثير من الأحيان بزّ أهل القلم أهل السيف.

عندما ظهر الإسلام وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُنظّم أمر الحكومة التي أنشأها في المدينة استعان بعدد كبير من أصحابه الذين يعرفون القراءة والكتابة، وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الكتاب إلى مجموعات متخصصة؛ فمجموعة اختصت بكتابة "الوحي"، ومجموعة اختصت بكتابة "الرسائل والإقطاع"، ويتبع هذه المجموعة وظيفة "الترجمة" ومجموعة تكتب "العهود والمواثيق" ومجموعة اختصت بكتابة حوائج النبي صلى الله عليه وسلم، وأخرى بكتابة "أموال الصدقات" وغيرها، وبلغ

1. الزبير بن بكار القرشي (172 - 256 هـ / 788 - 870 م): من أحفاد الزبير بن العوام: عالم بالأنساب وأخبار العرب راوية. ولي قضاء مكة فتوفي فيها. له تصانيف، ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج3، ص42.

2. القلقشندي: المصدر السابق، ص72-74.

3. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت505هـ): التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تح: أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1988، ص89.

4. ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت638هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج4، ب ط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ب ت، ص5-6.

5. الوطواط، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف (ت718هـ): غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائص الفاضحة، تح: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2008، ص194.

من اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاز الإداري الكتابي أن عين خليفة لكل كاتب إذا غاب عن عمله، وذلك حتى لا تتعطل حاجات الدولة الإدارية لغياب كاتب بسبب مرض أو غيره. غير أن الكتابة لم تكن وظيفة ثابتة لهؤلاء الكتّاب تجرى عليهم منها الرواتب¹، بل كانت أشبه ما تكون بالعمل التطوعي.

مجموع أولئك الكتّبة بجميع تخصصاتهم هو ما اضطلع عليه لاحقاً بديوان الإنشاء² وهي مؤسسة قائمة بذاتها كان لها شأن كبير في تاريخ الإسلام؛ وقد ذكر القلقشندي في موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" أنّ ديوان الإنشاء كانت بداياته في العهد النبوي³ وإن لم يسمى بديوان الإنشاء ولم يكن فيه من التعقيدات والمراسيم والشارات كما طرأ عليه لاحقاً، مما اقتضته تغيرات الأحوال واتساع رقعة دولة الإسلام. ومما ينبغي ذكره هنا أن المكاتبات في صدر الإسلام لم تحفظ في سجلات خاصة وكان ذلك سبباً في أن تناولها غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين، ومن ثم كان الكتّاب الواحد يُروى بروايات مختلفة باختلاف الكتّاب التي ترويه، وحسب ذوق الراوي وقدرته البيانية⁴.

تأثرت النظم والمؤسسات في بداية دولة الإسلام دون شك بالنظام القبلي الذي كان سائداً في جزيرة العرب. غير أنّ النبي صلى الله عليه وسلم شرّعنَ بفعله وقوله الأخذ من منتجات الحضارات المختلفة حين أخذ عن الفرس طريقة حفر الخندق لمواجهة تحالف المشركين الذي حاصروا عاصمة الإسلام، فجاء بعد ذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فكان أول من دوّن الدواوين⁵، وإن لم يسمى

1. كرمي أحمد عجاج: المرجع السابق، ص 119، 120، 122.

2. عرفه العلامة القلقشندي في موسوعته صبح الأعشى: بأنّه " اسم مركّب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء أما الديوان فاسم للموضع الذي يجلس فيه الكتّاب، وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه واخترعه وحينئذ إضافة الديوان للإنشاء تحتل أمرين: أحدهما - أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تنشأ عنه وتبدأ منه. والثاني - أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالاً" ينظر: القلقشندي: المصدر السابق، ص 123-124.

3. قال القلقشندي: "اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة، رضوان الله عليهم ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه... وهذه المكتوبات كلها متعلّقة ديوان الإنشاء". ينظر: القلقشندي: المصدر نفسه، ص 125.

4. شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط3، دار المعارف، مصر، 1960، ص 98.

5. وهو على ما ذكره الماوردي في الأحكام: موضع لحفظ ما يتعلّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمّال، وذكر سبب تدوينه للدواوين فقال: واختلف الناس في سبب وضعه له، فقال قوم: سببه أنّ أبا هريرة قدّم عليه بمال من البحرين فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر فقال له: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف خمس مرات، فقال عمر: أطيّب هو؟ فقال: لا أدري، فصعد عمر المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا لكم كميلاً، وإن شئتم عددنا لكم عدداً، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين =

من بينها ديوان الإنشاء غير أنّ الكتّبة في عهده كثروا وتوسّعت مهامهم كثيراً عن العهد النبوي؛ فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوّل من اتخذ القرارات المكتوبة المفسّرة وعمّمها على الولايات التابعة لدولة الإسلام، وهو أوّل من أمر قواده أن يوافوه بالتقارير المكتوبة المفصلة، وكان له من الدواوين عدا ديوان الجيش، ديوان العمال وديوان الموظفين وديوان بيت المال تُضبط فيه الصادرات والواردات¹ وغيرها، واعتبر عمر بن الخطاب بذلك المؤسس الفعلي للجهاز الإداري الإسلامي.

ذكر القلقشندي أنّ ديوان الإنشاء كان يسمى في البداية "ديوان الرسائل تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه، لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمّها، وربما قيل ديوان المكاتبات. ثم غلب عليه هذا الاسم وشهر به واستمر عليه إلى الآن"²، وانتقل مصطلح الديوان³ عبر جميع الدول الإسلامية حتى انتقل من سلاجقة الروم إلى العثمانيين.

في العهد الأموي وهو العهد الذي حدثت فيه أخطر بدعة سياسية في الإسلام؛ حيث تغيّر الحكم من نظام الخلافة الراشدة إلى النظام الملكي المتأثر بالقيم السياسية البيزنطية، وانتقل مركز الثقل السياسي من المدينة المنورة إلى دمشق بُعْدِها، استعان الأمويون بالموالي من النصارى البيزنطيين في تسيير أمور إدارتهم من أمثال سرجون بن منصور الرومي⁴ وغيره، كما زاد عدد الدواوين فاستُحدث ديوان

قد رأيت الأعاجم يدنون ديواناً لهم، فدوّن أنت لنا ديواناً، وقال آخرون: بل سببه أن عمر بعث بعثاً، وكان عنده الهرمز، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلّف منهم رجل وآجل بمكانه، فمن أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديواناً، فسأله عن الديوان حتى فسّره لهم. ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): الأحكام السلطانية، تح: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 2006، ص 297.

1. غالب عبد الكافي القرشي: أوليات الفاروق السياسية، ط 1، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1990، ص 89، 297، 301.

2. القلقشندي: المصدر السابق، ص 124.

3. ذكر العلامة أبو الحسن الماوردي (450 هـ) سبب تسميته بالديوان وهي كلمة فارسية معربة: "وفي تسميته ديواناً وجهان: أحدهما: إنّ كسرى أطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم، فقال: ديوانه أي: مجانين، فسوّي موضعهم بهذا الاسم ثم حذف الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفاً للاسم، فقيل: ديوان. والثاني: إنّ الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسوّي الكتاب باسمهم؛ لخديقتهم بالأمر وقوتهم على الجلي والخفي، وجمعهم لما شدّ وتفرّق، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل: ديوان". ينظر: الماوردي: المصدر السابق، ص 297.

4. سرجون بن منصور الرومي، كاتب معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، إلى أن أمره عبد الملك بأمر فتوان فيهِ، ورأى منه عبد الملك بعض التفريط، فقال لسليمان ابن سعد كاتبه على الرسائل: إنّ سرجون يدل علينا بصناعته، وأظنّ أنه رأى ضرورتنا إليه في حسابه، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحوّلت الحساب من الرومية إلى العربية. قال: افعل قال: أنظرني على ذلك. قال: لك نظرة ما شئت، فحوّل الديوان، فولّاه عبد الملك جميع ذلك. ينظر: ابن عبد ربه، أبو عمر =

الخاتم وديوان البريد وديوان الصدقات وديوان الطراز¹، وفي العهد الأموي عُرِّبَت الدواوين، لتصبح اللغة العربية لغة الإدارة في الخلافة الإسلامية.

أصبح للإنشاء في العهد الأموي ديوان خاص يسمى صاحبه كاتب الرسائل، وقد يسمى كاتب السر، وهو يدُ الخليفة ومستودع سره، ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يُؤلَّوَنَهُ إلا أقربائهم وخاصَّتهم² وظهرت في هذا العهد طبقة من الكُتَّاب المحترفين في هذا الديوان، لا في دواوين الخلفاء وحدهم بل أيضا في دواوين الولاية، وكان قادة الجيوش أيضا يتخذونهم، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته³ وهكذا بدأت طبقة الكُتَّاب بالنمو والتميز عن غيرها من الوظائف الإدارية.

ظهر في العهد الأموي أحد أشهر الكتاب في الحضارة الإسلامية؛ عبد الحميد الكاتب (ت132هـ) واضع أوَّل وأهم دستور للكُتَّاب في الحضارة الإسلامية في رسالته إلى الكتاب⁴، وهو يدل على نمو طبقتهم وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة في حياة الدولة، ووظائفها وأعمالها المتنوعة⁵. يصف عبد الحميد في رسالته تلك فضل الكُتَّاب وشرف مقامهم والخصال التي يجب أن يتصفوا بها، والعلوم التي ينبغي أن يتزَيَّنوا بالإلمام بها، واضعا الأسس والقواعد للكتابة الديوانية.

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي (ت 328هـ): **العقد الفريد**، تح: مفيد محمد قميحة ط1، ج4 دار الكتب العلمية، لبنان، 1404، ص252.

¹ . كان معاوية أول من اتخذ ديوان الخاتم، لتختتم رسائل الخليفة وتحزم حتى لا يُزاد فيها ولا يُنقص. ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (ت310هـ): **تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك**، ط2 ج5 دار التراث، لبنان، 1387، ص330. وديوان الخاتم تنسخ فيه أوامر الخليفة وبلاغاته ويودع هذا الديوان في مكان أمين بعد حزمه بخيط وختمه بالشمع الأحمر بخاتم رئيس الديوان. ينظر: حسين الحاج حسن: **النظم الإسلامية**، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، 1987، ص215. ومعاوية أوَّل من وضع ديوان البريد، ينظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت 630هـ): **الكامل في التاريخ**، تح: عمر عبد السلام تدمري، ط1 ج3، دار الكتاب العربي، لبنان، 1997، ص127. ديوان الطراز تختص مهمته بصنع الأزياء الرسمية والأعلام في الحرب، والشارات والشعارات في جميع الحوال الرسمية الخاصة بالدولة. ينظر: حسين الحاج حسن: المرجع السابق ص215.

² . شلي أبو زيد: **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي**، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، مصر، 2012، ص97.

³ . شوقي ضيف: المرجع السابق، ص103.

⁴ . مما ورد فيها: "أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووقَّكم وأرشدكم ... فجعلكم معشر الكُتَّاب في أشرف الجهات أهل الأدب، والمروءة، والعلم، والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم. لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يصرون، وألستهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم الله بما خصَّكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم" ينظر: القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص118.

⁵ . شوقي ضيف: المرجع السابق، ص115.

أصبح الكُتّاب يمثلون ما نسميه في عصرنا بـ "المفكرين" أو "المثقفين"، إذ كانت مهنتهم تتطلب ثقافة واسعة وموسوعية، وقد نبّه عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى العلوم التي ينبغي لفئة الكتاب من أهل القلم الإمام بها فقال أنه من شأن الكاتب أن يكون: "قد نظر في كل فنّ من فنون العلوم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار يكتفي به، يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعدّ لكل أمر عدّته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتنافسوا يا معشر الكُتّاب، في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين ... ثم أجدوا الخطّ فإنه حلية كتبكم ... ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتّاب الخراج"¹. وفي جملته الأخيرة دليل على التخصّص داخل فئة الكتاب.

في العصر العباسي حيث انتقلت عاصمة الإسلام من دمشق إلى بغداد، وظهر التأثير الفارسي بشكل أقوى؛ فقد قامت دعوة بني العباس على أكتاف الفرس في خراسان، إذ: " خلفت الدولة العباسية دولة بني أمية، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شئون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرماً على الأمويين، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين، فلم يعد العرب يتصدرون مكان السيادة، ولم تعد لهم أرستقراطيتهم، كما كان شأنهم في العصر الأموي، فقد أبعدها غالباً عن المناصب الكبرى في الإدارة والجيش... وبذلك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية، حتى الخليفة نفسه ... أصبح خلفاً لملوك الفرس الساسانيين؛ فله وزراؤه وحجابه وبلاطه، وله نفس التقاليد الفارسية في التشريعات، ويعيش معيشة مترفة"².

كان لفئة الكتاب من أهل القلم في ظل العباسيين شأن عظيم³، واتسعت مهام ديوان الإنشاء والرسائل وظهر لدينا تخصصات جديدة منها التوقيع؛ وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقّع على القُصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها مُتلقّاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فيما أن تصدّر كذلك وإمّا أن يحدو الكاتب على مثّالها في سجلّ يكون بيد صاحب

¹. القلقشندي، المصدر السابق، ج1، ص118-119.

². المصدر نفسه، ص121.

³. فقد بلغ بعضهم منصب الوزارة؛ مثل أحمد بن يوسف بن القاسم وأبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي كاتباً للمأمون. ينظر: ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تح: عبد القادر محمد مايو، ط1، دار القلم العربي، لبنان، 1997، ص223-224.

القُصَّة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه¹.

سمي ديوان الإنشاء أحياناً بالديوان العزيز لعزّة أصحابه وعلوّ مرتبتهم وفي ذلك قال البهائي²:
 "وأهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كل عام وخاص تحتاج الأمراء إلى مداراتهم
 وتقصّر الوزراء مع علو الرتبة في الوزارة عن مباراتهم، يجتمعون بالملك إذا أرادوا على عدد الأنفاس، وهم
 معنى الدولة، وعليهم عولة كل الناس، وما كانت الملوك تكاتب الخلفاء ببغداد إلا على هذا الديوان
 أعني ديوان الإنشاء، وكانت تسميه الديوان العزيز، ولهذا كانت كتبهم تستفتح أدام الله أيام الديوان
 العزيز إشارة إلى ديوان الإنشاء"³.

غير أنّ القلقشندي ذكر معلومة مهمة في تأريخه للقب الذي أطلق على صاحب ديوان الإنشاء
 فقال: "وأما لقبه الجاري عليه في كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا في زمن بني أميّة وما قبله يعبرون عنه
 بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك... فلما جاءت الدولة العباسيّة، واستقر السّقّاح أول خلفائهم
 في الخلافة لقب كاتبه أبا سلمة الخلال بالوزارة وترك اسم الكاتب... إلى انقراض الخلافة من بغداد
 وتقدّم أيضاً أن هذا الديوان كان تارة يضاف إلى الوزارة... وتارة ينفرد عنها... لقب متوليه بصاحب
 ديوان الرسائل أو متوليّ ديوان الرسائل وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات أو متولي ديوان المكاتبات؛
 [وفي مصر] لقب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء. وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيماً لمتوليه، فقالوا صاحب
 دواوين الإنشاء بالممالك الإسلاميّة"⁴.

يحدثنا أيضاً صاحب كتاب "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" عن تطور ديوان الإنشاء
 فقال: "كانت كتابة الإنشاء في المشرق في خلافة بني العباس منوطة بالوزراء، وربما انفرد بها رجل واستقل
 بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة فكان يسمى في المشرق كتاب الإنشاء. ثم لما كثر عددهم سمي رئيسهم

1. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت808هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، ط2، ج1، دار الفكر، لبنان، 1988، ص306.

2. البهائي، علي بن عبد الله الغزولي البهائي الدمشقي (000 - 815 هـ / 000 - 1412 م): أديب، له شعر. تركي الأصل من المماليك. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج4، ص306.

3. البهائي، علي بن عبد الله الغزولي الدمشقي (ت815هـ): مطالع البدور ومنازل السرور، تح: التيجاني سعيد محمود، ج2 ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2016، ص191.

4. القلقشندي: المصدر السابق، ص137.

رئيس ديوان الإنشاء، ثم بقي يطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء وتارة كاتب السر¹. وكانت في دولة السلاجقة وملوك الشرق يسمى ديوان الطغراوية، والطغراء، هي الطرة بالفارسية. وأهل المغرب يسمون صاحب ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى².

يؤكد المؤرخ المصري يوسف بن تغري بردي (874 هـ) ما ذكره القلقشندي من أنه في بداية العهد العباسي تولى وزراءهم أمر المكاتبات: "ثم صارت الخلافة لبني العباس فاتخذوا كتّابهم وزراء، وكان أول خلفاء بني العباس أبو العباس عبد الله ابن محمد السفّاح فاتخذ أبا سلمة الخلال (ت132 هـ) [وزيراً] وهو أول وزير وزر في الإسلام... فتراكمت عليهم الأشغال، واتسعت عليهم الأمور، فأفردوا للمكاتبات ديواناً، وكانوا يعبرون عنه تارة بصاحب ديوان الرسائل، وتارة بصاحب ديوان المكاتبات، وتفرقت دواوين الإنشاء في الأقطار، فكان بكلّ مملكة ديوان إنشاء"³، وهكذا تغلغت هذه الفئة المنتظمة هرمياً بانتظام في كامل مفاصل الدولة الإسلامية.

أخبرنا ابن خلدون أنّ شأن مهنة الكتابة ارتفع في العهد العباسي: "وكانت عند بني العباس ربيعة وكان الكاتب يصدر السجّلات مطلقاً، ويكتب في آخرها اسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان؛ وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم، ويطبّع به على طرفي السجّل عند طيّه وإصاقه"⁴، وحسبك من خطر الكاتب أن يُصدّر السجّلات مطلقاً، لذا كان يختار ممن يوثق به وبأمانته وعدله.

وكان فئة الكتاب من كتاب الدواوين في العصر العباسي يلثّمون بالكثير من العلوم ويمتازون بثقافة

1. ويذكر السيوطي أنّ وظيفة كتابة السر استحدثت في أيام قلاوون، وكانت هذه الوظيفة قديماً في ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرف في الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء. ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت911هـ): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ط1، ج2 دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1967، ص231.

ويفهم من محقق كتاب "تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك" عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي أنّ كاتب السر وظيفة تولّاها رئيس ديوان الإنشاء، وتختص وظيفة كتابة السر بقراءة الرسائل الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها. كما أنّ لكاتب السر الجلوس بدار العدل لقراءة القصص (الشكاوى والمتمسكات). ينظر: إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المنعم الطرسوسي، نجم الدين الحنفي (ت758هـ): تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تح: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي ط2، دار الحق، لبنان، 2000، ص91.

2. السيوطي: المصدر السابق، ص230-231.

3. ابن تغري بردي، (ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط1، ج7، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب مصر، 1963، ص336.

4. ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص306.

فلسفية واسعة، وعلى اطلاع واسع بالثقافة الفارسية والهندية، ومن أجل ذلك نعى عليهم ابن قتيبة الدينوري (276 هـ) أنهم يُهْمَلُونَ النَّظَرَ فِي اللُّغَةِ بينما يشغفون "بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة" والحديث عن "الكون والفساد، وسمع الكيان والكيفية والكمية والجوهر والعرض ورأس الخط النقطة لا تنقسم"، إلى غير ذلك مما كانوا يتشددون به مما عرفوه من الفلسفة، والثقافات الأجنبية¹. ولهذا البعد خطره على الخليفة أو السلطان من حيث أنّ الكتابة هم ذراع اليمنى وأقرب مقرّبيه، وبحسب ثقافتهم يؤثرون عليه سلبا أو إيجابا.

حرص الأمويون بالأندلس على إيجاد إدارة حازمة تعمل على تسيير شئون دولتهم الإدارية والمالية، وقد عُرفت هذه الإدارة باسم "الكتابة"، وهي أعلى أجهزة الدولة بقرطبة، وقد عُرف المكان الذي يعمل فيه كاتب الرسائل باسم ديوان الرسائل؛ وكانت مهمة هذا الديوان هي إعداد وصياغة المكاتبات الرسمية التي تصدر عن الأمير أو الخليفة، وصاحب ديوان الرسائل يُعد من أبرز موظفي الدولة². ولا ريب أن بني أمية في الأندلس ترسموا خطى أسلافهم في المشرق، حتى أنّ عاصمتهم قرطبة في عمرانها ومؤسساتها كانت شبيهة بتلك التي خلفوها في دمشق.

نقلا عن المقرئيين فإنّ كتابة الديوان التي لا غنى عنها في أي دولة كانت على ثلاثة أقسام: كتابة الجيوش، وكتابة الخراج، وكتابة الإنشاء والمكاتبات³، ثم يذكر المقرئيين عظيم قدر رئيس ديوان الإنشاء في الدولة العبيدية فقال: "وكان لا يتولاه إلاّ أجل كُتّاب البلاغة، ويخاطب: بالشيخ الأجل، ويقال له: كاتب الدست الشريف، ويسلم المكاتبات الواردة محتومة، فيعرضها على الخليفة من بعده، وهو الذي يأمر بتنزيلها، والإجابة عنها للكتاب، والخليفة يستشير في أكثر أموره، ولا يجب عنه متى قصد المثول بين يديه، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عند الخليفة ليالي... وهو أول أرباب الإقطاعات... وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وفراشون وله المرتبة الهائلة"⁴.

كان لرئيس ديوان الإنشاء مهام خطيرة تدلّ على عظيم قدره في الإدارة الإسلامية أوصلها القلقشندي إلى اثنا عشرة مهمة بعضها خاص بالدولة العبيدية، نذكر منها باختصار ما كان عاما وهي:

1. شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 195.

2. سالم بن عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ط 1، ج 1، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 2003، ص 337-338.

3. أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئيين (ت 845هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط 1، ج 1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418، ص 172.

4. المصدر نفسه، ج 2، ص 279.

1. التوقيع والتعيين. 2. النظر في الكتب الداخلية والخارجية الواردة عليه إلى الخليفة أو السلطان
3. ردّه على الكتب الواردة بأبلغ عبارة وأوضحها ودون تأخير. 4. نظره فيما تتفاوت به مراتب المسؤولين في المكاتب والولايات: من الافتتاح والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك
5. نظره فيما يكتب من ديوانه وتصفّحه قبل إخراجها من الديوان. 6. نظره في أمر البريد ومُتعلّقاته وهو من أعظم مهمات السلطان، وأكد روابط الملك. 7. نظره في أمر أبراج الحمام الزاجل ومُتعلّقاته
8. نظره في أمر العيون والجواسيس (جهاز الاستخبارات). 10. نظره في الأمور العامة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة¹.

يشير ابن خلدون إلى أنّ فئة الكتاب من أهل القلم يعلوا شأنهم ويُسْتَفْلُ بقدر ازدهار الدولة وانحدارها، ويفاضل بينهم وبين أهل السيف، مفاضلة العسكري على المثقف العبقري، فقال عن أهل السيف في الفصل الخامس والثلاثون "في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول": "اعلم أنّ السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره، إلّا أنّ الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشدّ من الحاجة إلى القلم، لأنّ القلم في تلك الحال خادم فقط منقذ للحكم السلطانيّ والسيف شريك في المعونة، وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتهما كما ذكرناه، ويقلّ أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدّمناه، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها، كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى إقطاعاً"².

ثم يتحدّث ابن خلدون على الفترة التي تكون فيها حاجة الدولة لفئة الكتاب من أهل القلم أكثر من حاجتها لأهل السيف فقال: "وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنّه قد تمهّد أمره ولم يبق همّه إلّا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة إلى تصريفه وتكون السيوف مهمة في مضاجع أعمادها إلّا إذا أنابت نائبة أو دعيت إلى سدّ فرجة، ومما سوى ذلك فلا حاجة إليها فتكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلساً"³.

1. القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص145، 164.

2. ابن خلدون: المصدر السابق، ص318.

3. المكان نفسه.

رسم ابن خلدون في نصه أعلاه هيكلية الإدارة الإسلامية التي تركز في نظامها الهرمي على الخليفة أو السلطان في قمة الهرم وعلى أهل السيف وفئة الكتاب من أهل القلم، ويمثل أهل العلم من العلماء والفقهاء وغيرهم قاعدة الهرم التي بثباتها يعلو البناء، ومنها يستمد النظام الإداري شرعيته. وأوضح ابن خلدون في عباراته الموجزة أهمية فئة الكتاب من أهل القلم في تسيير شؤون البلاد والعباد سيما في حالة السلم.

التنظيم الإداري في الدولة الأيوبية ودولة المماليك

إذا انتقلنا بعد ذلك للحديث عن الدولة الأيوبية التي هي " أصل الدولة التركية " كما قال العلامة القلقشندي¹ فإنها بعد أن قامت على أنقاض الدولة العبيدية بمصر، خالفت في تنظيمها الإداري ما جرت عليه الدولة العبيدية، وتبنت التنظيم الإداري للدولة الأتابكية؛ دولة عماد الدين زنكي (541هـ) بالموصل ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود زنكي (569 هـ) بالشام² وتبعته دولة المماليك في الكثير من ترتيباتها الإدارية لذا فإنّ بعض التفاصيل في نظامها الإداري مهم لفهم خلفية تشكّل النظام الإداري في الدولة العثمانية لاحقا.

بحسب القلقشندي كان الجهاز الإداري للدولة الأيوبية ودولة المماليك مبنيًا إجمالاً على فرعين كل فرع به قسمان: أما الفرعان فهما: الفرع الأول: أهل السيف أو أرباب السيوف. وهم قسمان: القسم الأول: من هو بحضرة السلطان، والقسم الثاني ما هو خارج عن الحضرة السلطانية. أما الفرع الثاني فهم: فئة الكتاب من أهل القلم أو أرباب الأقلام، وهم قسمان أيضاً: القسم الأول: أرباب الوظائف الديوانية والقسم الثاني: أرباب الوظائف الدينية.

أما تفصيلاً فالفرع الأول وهم أهل السيف أو أرباب السيوف، فعامة موظفيه من أمراء أو قادة الجيش والجنود، وهم قسمان:

القسم الأول: من هم بحضرة السلطان، وتضم خمسة وعشرون وظيفة منها: نائب السلطنة: هو بمثابة نائب السلطان، وأتابك العساكر، ووظيفة رأس نوبة: وموضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، إمرة سلاح: وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في الجامع الجامعة إمرة أخورية: وموضوعها التحدّث على إصطبل السلطان وخيوله الدوّارّة: وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، إمرة جاندار: وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء

1. القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص49.

2. المصدر نفسه، ج4، ص3.

للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة، الاستادارية: وموضوعها التحدّث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشّراب خاناه والحاشية والغلمان، الخازندارية: وموضوعها التحدّث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك. وغير ذلك من الوظائف. القسم الثاني من هم خارج عن الحضرة السلطانية، وهم ولاية الأقاليم وحكام النواحي¹.

أما الفرع الثاني وهم: فئة الكتاب من أهل القلم أو أرباب الأقلام، فهم قسمان أيضا: القسم الأوّل: أرباب الوظائف الديوانية، وهي كثيرة للغاية لا يسع استيفاؤها ومنها: 1. الوزارة. 2. كتابة السر أو صاحب ديوان الإنشاء: وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خطّ السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودا وصدرا، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها وصار كاتب السر يوقّع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه. وبديوانه كتاب الدّست: وهو الذين يجلسون معه في دار العدل ويقرّون القصص على السلطان ويوقّعون عليها بأمر السلطان، وكتاب الدّرج: وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة، وربما شاركهم كتاب الدست في ذلك².

ثالثها ديوان [ويسميه القلقشندي هنا النظر أو النظارة] نظر الخاصّ: وأصل موضوعها التحدّث فيما هو خاصّ بمال السلطان. 4. نظر الجيش: وموضوعها التحدّث في أمر الإقطاعات بمصر والشّام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطّه 5. نظر الخزانة: وكانت أوّلا كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة، فلما استحدثت وظيفة الخاص، صغر شأنها. 6. نظر بيت المال: وموضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال والتصرف فيه تارة قبضا وصرفا وتارة بالتسويق محضرا وصرفا. ولا يليها إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة. 7. نظر الإصطبلات السلطانية: وموضوعها مباشرة إصطبلات السلطان والتحدّث في أنواع الخيول والبغال والدواب والجمال السلطانية وعليفها وعدّتها، وما لها من الاستعمالات والإطلاقات، وكل ما يتنازع لها أو يباع منها، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك. 8. نظر خزائن السلاح. 9. نظر الأملاك السلطانية. وغيرها³.

القسم الثاني: أرباب الوظائف الدينية، وهم نوعان: النوع الأول من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف، وهو منحصر في خمس وظائف: 1. قضاء القضاة: وموضوعها التحدّث

1. المصدر نفسه، ج4، ص28، 14، بتصرف.

2. المصدر نفسه، ص28-30، بتصرف.

3. المصدر نفسه، ص30-35، بتصرف.

في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحديث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه؛ وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلىها قدرا وأجلها رتبة 2. قضاء العسكر: وهي وظيفة جليلة قديمة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاة المتقدم ذكرهم ويسافر مع السلطان إذا سافر وجلسهم في دار العدل دون قضاء القضاة. 3. إفتاء دار العدل. 4. وكالة بيت المال: وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر، وموضوعها التحديث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وآدر وغير ذلك، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى. 5. الحسبة. وهي وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وموضوعها التحديث في الأمر والنهي النوع الثاني من أرباب الوظائف الدينية من لا مجلس له بالحضرة السلطانية وهي كثيرة جدا منها: نقابة الأشراف، ومشيخة الشيوخ، وديوان الأحباس المبرورة وغيرها¹.

يفهم من المقريري (845 هـ) أن صاحب ديوان الإنشاء في الدولة المملوكية كانت له وظائف رشحته أن تعلق رتبته رتبة وزير الدولة، إذ قال أن: "متوليها المسمى بكتاب السرّ وبصاحب ديوان الإنشاء ومن الناس من قال ناظر ديوان الإنشاء [من مهامه] قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها... وله تفسير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها، وله تصريف المراسيم ورودا وصدورا، وله الجلوس بين يدي السلطان بدار العدل لقراءة القصص والتوقيع عليها بخطه في المجلس. فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة، وصار إليه التحديث في مجلس السلطان عند عقد المشورة وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير وإليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصرا وشاما فيمضي من أمورهم ما أحب ويشاور السلطان فيما لا بدّ من مشاورته فيه، وكانت العادة أن يجلس تحت الوزير فلما عظم تَمَكُّنُ القاضي فتح الدين فتح الله² كاتب السرّ من الدولة، جلس فوق الوزير صاحب سعد الدين إبراهيم البشير³، فاستمر ذلك لمن بعده ورتبة كاتب السرّ أجلّ الرتب، وذلك أنها منتزعة من الملك"⁴.

1. المصدر نفسه، ص35-40، بتصرف.

2. فتح الله بن مستعصم بن نفيس فتح الدين الإسرائيلي الدّوديّ التبريزي الحنفيّ (759-816هـ): تميز في الطبّ عالج السلطان المملوكي برفوق فأعجبه وجعله نديمه، فلما مات كاتب سره جعله مكانه، وشغل هذا المنصب أربعة عشرة سنة حتى قتل في سجنه ينظر: السخاوي (ت 902هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج6، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ب ت، ص165-166، بتصرف.

3. لم أقف على ترجمته.

4. المقريري: المصدر السابق، ج3، ص393-394.

توزّع العاملون بديوان الإنشاء في دولة المماليك على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الكُتّاب، وعددهم سبعة بالترتيب حسب أهميتهم: 1. كاتب ينشئ ما يكتب من المكاتبات والولايات وهو أجلُّ كُتّاب الديوان وأرفعهم درجة لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه على لسان الملك بعد علمه بغاية الملك، وهو الذي ينشئ العهود والتقاليد في الولايات والكتب في الحوادث الكبار والمهمّات العظيمة التي تتلى فيها الكتب على المنابر ورؤوس الأشهاد. 2. كاتب يرسل الملوك نيابة عن الملك: ويشترط فيه أن يكون على دين من يرأسه عالما بلغته. 3. كاتب يكتب في شأن كبراء أهل الدولة من ولاة وقضاة وغيرهم في أمور مثل تنصيبهم وعزلهم ورواتبهم. 4. كاتب يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ. 5. كاتب يبيّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، وهو بمثابة مراجع لما يُكتب من حيث جودة الخط وجماله قبل إرساله. 6. كاتب يتصفّح ما يكتب في الديوان. وهو بمثابة مراجع لما يُكتب من حيث خلو المكتوب من الأخطاء والألفاظ المموجة قبل إرساله. وينبغي أن يكون هذا المتصفّح عالي المنزلة في اللغة والنحو وحفظ كتاب الله تعالى، ذكياً، إلى جانب صفات أخرى. 7. كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمّنة لمُتعلّقات الديوان، حتى يسهل العثور على أي وثيقة بدل طول البحث عنها ضمن أطنان الوثائق¹.

القسم الثاني: غير الكتاب، وهما اثنان، الأول: الخازن: ومنصبه بالغ الخطورة إذ بيده زمام جميع الديوان وهو بمثابة أمين الأرشيف، فمتى كان قليل الأمانة ربّما أمالته الرّشوة إلى إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرّ من الأسرار فيضّر بالدولة ضرراً كبيراً. وهو يقيد في سجلاته كل الكتب الواردة والصادرة ويؤرخها ثم يبوّنها ويصنّفها ويضع كل قسم منها في إضبارة خاصة باسم خاص مثل أن يكتب: «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية في الشهر الفلاني» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارة واحدة لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل استخراج ما أراد أن يستخرجه من ذلك. الثاني: حاجب الديوان إذ ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء أن يقيم لديوانه حاجباً لا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إليه ما خلا العاملين فيه².

التنظيم الإداري في دولة سلاجقة الروم

نتناول أيضاً بشيء من التفصيل النظام الإداري في دولة سلاجقة الروم على اعتبار أنّ السلاجقة هم السلف المباشر للدولة العثمانية؛ نشأت دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى

¹. القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص167-169، بتصرف.

². المصدر نفسه، ص170-172، بتصرف.

في منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، في أعقاب الهزيمة التي ألحقها السلاجقة الأتراك بالإمبراطورية البيزنطية في معركة "ملاذكرد" سنة 413هـ/1071م، مما فتح الطريق أمام السلاجقة للسيطرة على آسيا الوسطى وأخذها قاعدة للنفوذ والتوسع في بلاد الأرمن والقفقاز والروس واندفع السلاجقة في اجتياحهم- عند ذاك- لمنطقة آسيا الصغرى حتى بلغوا "نيقية" على ساحل بحر "مرمرة" فاتخذوها عاصمة لدولتهم التي أسست سنة 470هـ/1078م، كجناح من أجنحة الإمبراطورية السلجوقية العظمى التي كانت تتمركز في إيران وعاصمتها أصفهان. وقد أطلق على هذا الجناح اسم "سلاجقة الروم". ثم ما لبثوا- بعد بضعة أعوام- أن نقلوا عاصمتهم إلى "قونية" تحت الضغط المتواصل للحملات الصليبية¹.

كان سليمان بن قتلмыш بن إسرائيل بن أرسلان بن سلجوق² قد أبلى بلاء حسنا في معركة ملاذكرد وفتوحات الأناضول، فأصدر السلطان السلجوقي ملكشاه (485هـ) قرارا بتنصيبه ملكا لذلك الجناح الشمالي الغربي من الإمبراطورية، وما لبث سلاجقة الروم أن استقلوا بدولتهم التي تعاقب أبناء سليمان بن قتلмыш على عرشها حتى انقضت في النهاية سنة 708هـ/1309م³ بعد أن مهّدت الطريق لقيام الدولة العثمانية وريثة أمجاد السلاجقة ومجددة دولتهم.

ننتقل للحديث عن التنظيم الإداري لدولة السلاجقة عموما وسلاجقة الروم على الخصوص ينبغي تقرير ما قرره المؤرخون من أن السلاجقة وهم مجموعة من القبائل التركمانية البدوية، لم تكن لهم خلفية ثقافية مدنية، ولا دراية لهم ولا خبرة بالمجال الإداري والقوانين الإدارية، لذلك استعانوا في استقرار دولتهم وتنظيمها بالإيرانيين سكان البلاد ومن لهم خلفية ثقافية فارسية إسلامية ممن تمرسوا في الإدارة بخدومتهم في الدولة السامانية (261-389هـ/874-999م) والغزنوية (366-579هـ/976-1182م)

1. مجهول (من أهل القرن السابع الهجري): أخبار سلاجقة الروم = مختصر سلجوقنامه، تر: محمد سعيد جمال الدين، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007، ص4-5، بتصرف.

2. سليمان بن قتلмыш بن سلجوق [المتوفى: 479 هـ] أمير قونية، وجدّ سلاطين [سلاجقة] الروم. قُتِلَ في صَفَرٍ في المصافِّ بأرض حلب، وقام بعده ابنه قَلج أرسلان. ينظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي (ت 748هـ): تاريخ الإسلام وَوَفِيَّاتِ الْمَشَاهِيرِ وَالْأَعْلَامِ، تح: بشار عوَّاد معروف، ج10، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2003 ص441 وهو ابن عم السلطان ملكشاه.

3. مجهول: المصدر السابق، ص5.

والخلفاء العباسيين¹. لذلك انطبع التنظيم الإداري السلجوقي بتنظيم تلك الدول الإسلامية التي سبقتهم، واصطبغ بالصبغة الفارسية.

بعد استقلال دولة سلاجقة الروم بنفسها عن دولة السلاجقة الأم، صاغ سلاجقة الروم جهاز دولتهم على غرار جهاز دولة السلاجقة الأم؛ بحيث نجد في مصادرهم الألقاب السلجوقية الكبرى التقليدية أمير جاندار (رئيس حرس السلطان)، وأمير السلاح [حامل سلاح السلطان]، وأمير شكار (مشرف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيد)، والاستدار [وهو المشرف على كل بيوت السلطان من مطابخ وحاشية ونفقات وكسوة]. وكما هو الحال عند دولة السلاجقة الأم، وجدنا أيضاً العديد من الدوائر المدنية (الدواوين) المتمركزة حول الوزير الكبير².

يمثل السلطان قمة هرم التنظيم الإداري للدولة السلجوقية وكان يكتسب شرعيته من اعتراف الخليفة العباسي به، وهو المسؤول عن رسم السياسات العامة، وإعلان الحرب وقيادة الجيوش، وتعيين الحكام والقواد وإقطاع الأرض وفرض الضرائب ورفعها. وقد اعتمد السلطان في تسيير دفة الحكم على خمسة أركان أو دواوين إدارية، كل ديوان يرأسه رئيس يعينه السلطان، ولكل رئيس نائب ينوب عنه إذا غاب، ويعمل تحت إمرة كل رئيس ديوان مجموعة من الكتّاب المصطفين وفق شروط صارمة وهذه الدواوين هي بالترتيب حسب أهميتها:

1. الوزارة أو الصدارة: يعرف القائم بشؤونها باسم الوزير أو الصدر أو السيد الأكبر أو الدستور وهو المشرف على جميع مرافق الدولة ويتعامل السلطان معه مباشرة دون سائر بقية رؤساء الدواوين لذلك كان للوزارة أهميتها وخطرها باعتبارها أرفع منصب في الدولة بعد السلطان، فكانت بذلك محل نزاع وتنافس³. فالوزير في النظام الإداري السلجوقي له دور محوري، وأكد هذا الدور أحد أعظم الوزراء في تاريخ الإسلام عامة والدولة السلجوقية خاصة نظام الملك (485هـ) في كتابه الشهير "سياست نامه" إذ قال: "ويجب الاستفسار عن أحوال الوزراء سرا لمعرفة ما إذا كانوا يسيرون الأمور على النحو الصحيح أم لا لأن صلاح الملك والمملكة أو فسادهما منوط بهم فباستقامة الوزير وحسن مسلكه إعمار للمملكة وتقدمها وإسعاد للرعية والجيوش ورفاههما وراحة الملك واطمئنانه وبانحراف الوزير

1. حلمي أحمد كمال الدين: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ط1، دار البحوث العلمية، الكويت، 1975، ص208-209 بتصرف.

2 - Dimitri Korobeinikov: **Byzantium and the Turks in the Thirteenth Century**, 1Edt, Oxford University Press, United Kingdom, 2014, P84.

3. حلمي أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص210، بتصرف.

يتسرب التصدع الذي لا يُمكن رأبه الى المملكة فتظل في اضطراب دائم ويظل الملك حيران مضطرباً¹.
2. ديوان الاستيفاء: يعرف رئيسه باسم "المستوفي"، ومنزله تلي منزلة الوزير في الدولة ويرتبط عمله بالشؤون المالية والحسابات، فهو من يقوم بضبط اموال الجيش والدولة². وهو أحد الثلاثة الذين يحق لهم حمل لقب "فلان الملك" إلى جانب الوزير والطغرائي³. وهو بمثابة وزارة المالية في العصر الحديث ويسمى أيضا ديوان الزمام، وكثيرا ما كان المستوفي يقوم بجولات تفتيشية للإشراف على حسابات الدولة وتدقيقها⁴. واعتبره القلقشندي " يد السلطان وقطب الديوان، وقسطاس الأعمال، والمهيمن على العمال، وإليه المال في السلم والهرج، وعليه المدار في الدّخل والخرج، وبه مناط الضّرّ والتّفّع وفي يده رباط الإعطاء والمنع"⁵.

3. ديوان الطغراء: ويعرف القائم به باسم "الطغرائي"، والطغراء كلمة تركية استعملها أهل الديوان منذ استيلاء السلاجقة على إيران، وهي مشتقة من الكلمة التركية طغراج بمعنى الحتم، وتعني الخط المقوس الذي كان يرسم في صدر الفرمانات والمنشورات، وقد جاء به الأتراك الغز من غرب آسيا حيث راج بعد ذلك في بلاد السلاطين العثمانيين وعرفته سائر الممالك بدورها⁶. والطغرائي يتعامل مع السلطان والوزير وهو المختص بتوصيل الرسائل إلى السلطان، وهو الذي يُصدر عنه الأوامر الموقّعة بتوقيعه والممهورة بخاتمه والمذيلة بشعاره. وهو الذي ينوب عن الوزير إذا خرج هذا الأخير رفقة السلطان في الحرب أو الصيد. ويتبع ديوان الطغراء ديوان آخر هو "ديوان الرسائل والإنشاء"، يديره شخص يطلقون عليه لقب "الوزير" أو "صاحب الرسائل"، ويشرف ديوان الرسائل والإنشاء على جميع المكاتبات الرسمية، وينظم علاقة الدولة في الداخل والخارج، والعاملين فيه يسمون بالمنشئين أو كتاب الرسائل ويشترط فيهم السرية والكفاءة⁷.

كما كان صاحب ديوان الرسائل يحضر المجالس العامة التي يعقدها السلطان لسماع المظالم

1. نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين (ت 485هـ): سياست نامه أو سير الملوك تح: يوسف حسين بكار، ط2، دار الثقافة، قطر، 1987، ص59.

2. حلمي أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص210، بتصرف.

3. نظام الملك: المصدر السابق، ص199.

4. أبو النصر، محمد عبد العظيم يوسف: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية مصر، 2001، ص272.

5. القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص88.

6. أبو النصر: المرجع نفسه، ص273.

7. حلمي أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص210-211، بتصرف.

والنظر في شكاوى الناس، ويقوم بتسجيل ما يعن للسلطان من ملاحظات والتماسات وينظم علاقة الدولة بالداخل والخارج، ويساعده فريق من الكتاب، الذين يقسمون إلى أقسام تخصصية؛ منهم من يتولى مكاتبه الملوك ويشترط في هؤلاء معرفته باللغات، ويعرفون بأمناء الأسرار، ويختارون من الثقة الذين يعرفون خفايا الملك، ويحللون جميع المراسلات حتى يقفوا على معاني الكلمات ودقائق الألفاظ ومنهم من يعرفون بالمراجعين مهمتهم قراءة وتصحيح كل ما يكتب بهذا الديوان قبل رفعه للسلطان ليحيزه، ومنهم من يعرف بالخازن وهو بمثابة مصلحة حفظ الأرشيف في أيامنا، ووظيفته حفظ أصول المكاتبات التي ترد إلى الديوان مع إشارة موجزة حول ما تمّ بشأنها¹.

4. ديوان الإشراف: وهو متمم لديوان الاستيفاء، ورئيسه يسمى "المشرف"، وهو يختص بضبط الحسابات والإشراف عليها، والموازنة بين الصادر والوارد، وللمشرف نواب عنه في كل ولاية². قال نظام الملك: "يَنْبَغِي إِسْنَادُ الإِشْرَافِ إِلَى مَنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ اعْتِمَادًا تَامًا لِيَتِمَّكَنَّ مِنَ الإِحَاطَةِ بِكُلِّ مَا يَجْرِي فِي البَلَاطِ والإِجَابَةِ عَن كُلِّ شَيْءٍ فِي أَيِّ وَقْتٍ يُطَلَبُ إِلَيْهِ ذَلِكَ وَعَلَى المَشْرِفِ نَفْسَهُ أَنْ يَعْينَ لَهُ نَائِبًا أَمِينًا قَوِيًّا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ومَدِينَةٍ لمراقبة الأعمال والإشراف على تحصيل الخراج ومعرفة كل كبيرة وصغيرة تقع هُنَاكَ"³.

5. ديوان عرض الجيوش: ويسمى رئيسه "العارض"، ويؤدي هذا الديوان وظيفة هامة فهو يشرف على تنظيم سجلات الجنود وصرف مرتباتهم، وعلى تسليح الجيش وإعداده وتمويله⁴. وكانت هناك دواوين أخرى كثيرة غير الدواوين الخمسة الكبيرة، منها: ديوان الخراج وديوان المظالم، وديوان الشرطة وديوان البريد، وديوان النفقات وغيرها⁵.

إلى جانب الأركان الخمسة السابقة للإدارة السلجوقية يقوم البناء السلجوقي الإداري على مناصب كثيرة مهمة يعين السلطان أغلبها وهي: 1. الأمير الحاجب الكبير: وهو المشرف على سير الأمور في بلاط السلطان وهو حلقة الاتصال بينه وبين الرعية، وله نائب يعاونه وكان من مهامه قيادة الجيوش وسماع أوامر السلطان مشافهة وإبلاغها للوزير، وكان له سطوة كبيرة في الدولة. 2. وكيل دار السلطان: وهو بمثابة المستشار الخاص للسلطان. 3. منصب الشحنة: وهو منصب استحدثه السلاجقة

1. أبو النصر: المرجع نفسه، ص 274-275.

2. حلمي أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص 211، بتصرف.

3. نظام الملك: المصدر السابق، ص 99.

4. حلمي أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص 211، بتصرف.

5. أبو النصر: المرجع السابق، ص 271.

وهو منصب يشبه منصب المحافظ أو المتصرف في أيامنا، وكانت من مهامه رئاسة الشرطة، وهو مسؤول عن إدارة المدينة وأمنها. 4. منصب العميد: وهو يعاون الشحنة في إدارة الولاية، وتوجيه القوات في حالة الشغب. 5. منصب الاسفهبسالار: أي مقدم الجيش، وهو الذي يتقدم جيش السلاجقة في القتال، وكان السلطان يختاره بعناية من بين الشجعان الأقوياء ذوو الخبرة. 6. منصب الأتابك والأتابكية إمارة يقطعها السلطان لأحد خواصه المقربين من ممالك السلاجقة¹.

وظيفة أمير الحرس من أهم الوظائف، وهي تلي الحجابة وصاحبها مهاب كالخاجب الأعظم وهو يقف عند باب السلطان وله أعوان من خمسين رجلا مسلحين، ينفذون ما يأمر به السلطان بإشراف أمير الحرس، وعمل أمير الحرس مختص بالعقوبات التي يوقعها السلطان من سجن أو إعدام أو قطع يد ونحوه، وكان أمير الحرس يشرف أيضا على الحرس الخاص للسلطان والحريم وغيرهم، وكان الحرس الخاص للسلطان يعرفون باسم غلمان القصر. ووظيفة أخرى مهمة هي وظيفة صاحب الخبر والبريد ومنتهى الأخبار وهو أحد كبار موظفي البلاط السلجوقي، وهو بمثابة مدير المخابرات في أيامنا فمهمته التجسس ورفع التقارير إلى السلطان السلجوقي عن أحوال الجيش والرعية، وله أعوان منتشرون في كل ربوع الدولة كتجار وسياح ومتصوفة ودرأويش². وغيرها من المناصب الإدارية المهمة.

رأينا كيف نشأت التراتيب والنظم الإدارية في دولة الإسلام الوليدة بالمدينة بشكل بسيط، تزايد تعقيدا وانضباطا مع اتساع رقعة الإسلام، أضاف له الأمويون بما استحسنوه من نظم البيزنطيين باعتبار عاصمتهم دمشق في الشام، وزاد عليه العباسيون بما استحسنوه من نظم الإمبراطورية الفارسية الذين اتخذوا عاصمتهم بغداد في ديارها، وعرجنا على الدول التي اعتبرت أسلافا للعثمانيين؛ الدولة الأيوبية ودولة المماليك ثم السلاجقة العظام فسلاجقة الروم بالأناضول.

انتقلت الكثير من تلك التراتيب والنظم إلى الدولة العثمانية التي ورثت دولة سلاجقة الروم، ولا يخفى التأثير الفارسي في هذه النظم وهو أمر طبيعي بالنظر إلى المدة الزمنية الطويلة التي تغلغل فيها ذلك التأثير ابتداء من قيام الخلافة العباسية التي عمرت طويلا وقامت على أكتاف المسلمين الفرس في خراسان، وتزايد ذلك التأثير مع الخلافة العباسية والدول التي دارت في فلكها، وسنرى أنّ المسلمين الذين اضطروهم الغزو المغولي للفرار باتجاه الأناضول كان معظمهم من ذوي الثقافة الفارسية وأسهموا في ترسيخها في مفاصل الدولة العثمانية الناشئة.

1. حلمي أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص 212، 214، بتصرف.

2. أبو النصر: المرجع السابق، ص 312-313، بتصرف.

المبحث الثاني: النظام الإداري العثماني نظرة عامة

ظهور الدولة العثمانية وريثة السلاجقة
خلفية ونشأة المنظومة الإدارية العثمانية
بنية الجهاز الإداري العثماني
الإصلاحات في المنظومة الإدارية العثمانية
مكانة الصدور العظام في البناء الإداري العثماني

ينتمي العثمانيون إلى شعب الأوغوز¹ وهو أحد الشعوب التركية الرئيسية، ومنه خرج مؤسسو الدولتين السلجوقية والعثمانية؛ بدأت قبائل الأوغوز التي تقع في الأصل في منغوليا الحالية، بالهجرة إلى غرب آسيا بعد تدمير دولة الأويغور² سنة 225هـ/840م، واعتنقت بعض قبائل الأوغوز الإسلام وأصبحوا من مماليك الخلافة العباسية. أخذ الأتراك الأوغوز المسلمون تدريجياً اسم التركمان. قامت مجموعة من أولئك الأوغوز التركمان بتأسيس الإمبراطورية السلجوقية وهزمت البيزنطيين في معركة ملاذكرد الشهيرة سنة 463هـ/1071م، فاتحة الطريق لمزيد من هجرات قبائل الأوغوز إلى الأناضول. كما أسس فرع من سلالة السلاجقة سلطنة سلاجقة الروم (الأناضول). كان الغزو المغولي الذي بدأ سنة 640هـ/1243م أحد أسباب التفكك التدريجي لسلطنة سلاجقة الروم إلى مجموعة إمارات تركية من بين تلك الإمارات المحلية الناشئة أثبت العثمانيون تفوقهم على جميعها³.

ظهور الدولة العثمانية وريثة السلاجقة

ظهر العثمانيون كإمارة تركمانية صغيرة في الجزء الشمالي الغربي من الأناضول بعد الغزو المغولي وانحيار سلطنة سلاجقة الروم؛ في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي كان غازي عثمان مؤسس الدولة العثمانية (حكم خلال 688-726هـ/1289-1326م) يُسيطر على مناطق في أقصى الشمال أقرب ما يكون لبيزنطة والبلقان، ونجاحه في حصار العاصمة القديمة لبيزنطة إزنيق (نيقية) وانتصاره على كتيبة من الجيش البيزنطي سنة 700هـ/1301م جعل منه مركز استقطاب لكل

1. كلمة أوغوز مشتقة من (أوق - ز) وأوق كلمة تركية قديمة معناها القبيلة، أما حرف "ز" فكان أداة جمع في التركية القديمة، وبذلك يكون معنى أوغوز القبائل، والراجح أن هذه القبائل سميت باسم جدها الأعلى أوغوز خان؛ هناك ملحمة تسمى "أوغوز نامه" تتحدث بإسهاب عن مولد وحياة أوغوزخان، والقدرات الغامضة التي كانت تحيط به، ويعتبر كتاب "دده قورفوت" جزءاً من هذه الملحمة ويحتوي على 12 قصة تبين وقائع تاريخية معينة ذات علاقة وثيقة بالمعتقدات التركية وطرق معيشتهم. ينظر: مرجونة، إبراهيم محمد علي: دراسات سياسية وحضارية في المشرق الإسلامي، دار التعليم الجامعي، مصر، 2020، ص116.

2. الأويغور كلمة تركية تعني الارتباط والتعاون وهم كانوا أكثر القبائل التركية تحضراً، والأويغور قبيلة تركية أقاموا دولة لهم على تقاطع طرق عالمين الصيني والإيراني، وقد استطاع الأويغور الانتصار والقضاء على التوركو (إمبراطورية تو-كيو-م) سنة 125هـ/742م بشكل جعل الصينيين يعترفون بهيمنتهم على السهوب الغربية، واستمرت دولة الأويغور في الحكم بزعامة الخاقانات حتى سنة 226هـ/840م. كانت الدولة الإويغورية مزيجاً من البدو والحضر... اعتنقوا المانوية ثم البوذية. ينظر: علي محمد شريف رسول: الأوضاع الحضارية في بلاد ماوراء النهر في عهد الترك الإبلخانيين (382 - 605 للهجرة / 992 - 1212 للميلاد) ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، 2020، ص43.

3 - Selcuk Aksin Somel: **The A to Z of the Ottoman Empire**, The A to Z Guide Series, No. 152, Scarecrow Press, United Kingdom, 2003, P217.

الطّامحين بالجهاد أو الثروة في الأناضول، وتوطّدت بانتصاره هذا دعائم دولته¹.

بتحقيقه انتصارا حقيقيا على المسيحيين، رشّحه هذا حسب التقاليد المعروفة بالأناضول إلى أن يُصبح زعيما لإمارة سلجوقية حُدودية، وقد أرسل له السلطان السلجوقي رمز الرّعامَة وعلامات السّلطنة كالطّبّل والرّاية وشارة الرّأس (الطوغ)، ليُصبح "بك"² بِصُورة رسميّة كأَمير مُقاطعة حُدودية كبيرة (يُوك أوج بك)، وقد أمر عثمان بك بأن يُذكر اسمه في الحُطبة³ - وهو مَظَهَر من مظاهر السيادة إلى جانب صك العُملة - بعد ذكر اسم الخليفة العباسي في مصر، ثم ايلخان المغول المقيم في تبريز ثم الباديشاه السلجوقي في قونية⁴. كان للتقاليد القبلية التركية التي تعززت بقيم الإسلام وحب الجهاد لنشره الدور الكبير في جعل إمارة عثمان مركز جذب كبير للفارين من ضغط المغول.

تعد إمارة عثمان من بين الإمارات الأصغر في الأناضول إلا أنّ عثمان بك بسلسلة من الحملات العسكرية ضد المدن والحصون البيزنطية المجاورة، ونجاحه أخيراً في غزو بورصة سنة 726هـ/1326م⁵ مكّنه من تحويل قبيلته إلى إمارة مرهوبة الجانب، وترك لخلفائه قاعدة صلبة تمكنهم من إعلاء صرح الدولة بالارتكاز عليها، كما ترك جيشا من المتطوعين مُستعدّين للقتال تحت مبدأ الجهاد مُتحمّزين لتوسيع رُقعة الدولة العثمانية ودار الإسلام.

ابنه وخليفته أورخان (حكم خلال 726-763هـ/1326-1362م) زاد من حجم هذه الإمارة وحوّلها إلى دولة؛ فقد تأسست في عهده الإدارة والجيش، وأكمل مظهرا مُهمّا من مظاهر السيادة بِصكّه للعُملة⁶؛ إذ كانت التّفود المتداولة هي نقود السلاطين السلاجقة ونقود حانات تبريز المنغوليين

1. إينالجيك خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد م. الأرنؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت 2002 ص 15، بتصرف.

2. بك: من الألقاب التركية القديمة التي شاعت عند الأتراك قبل الإسلام، وكانت تطلق على صاحب الأمر في أي موقع كان، فبك الإقليم هو حاكمه أو أميره. ينظر: صابان سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مر: عبد الرزاق محمد حسن بركات، ب ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص 63. 64.

3. غير أن إينالجيك ذكر أن ذكر اسم عثمان في الحُطبة أمر مختلق لإضفاء الشرعية على السلالة العثمانية الحاكمة ينظر: إينالجيك: المرجع السابق، ص 89.

4. يلماز أورتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سلمان، تح: محمود الأنصاري، ج1، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل تركيا 1988، ص 91.

5. Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P CXIII.

6. كان يعتقد أن أورخان هو أول من صك العملة العثمانية، لكن اكتشفت عملة سنة 1977 مكتوب عليها عثمان بن أرطغرل ليصبح عثمان أول من صك عملة الدولة. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: صالح سعداوي ج1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيسكا) إستانبول، 1999، ص 663.

فأمَرَ أورخان سنة 728هـ/1328م بصكّ العملة الخاصة للدولة من معدنيّ الذهب والفضة، وكان على النُقود شِعَار السلطان أورخان وآية قرآنية¹. لقد كان أورخان مدركاً بأنّ الدولة السلجوقية تعيش عمرها الأخير، لذا كانت تصرفاته تبرز حرصه على بناء دولة بديلة.

اكتسبت الدولة مع أورخان شكلها المستقل؛ تعزز بسقوط الدولتان اللتان كانت كل الإمارات التركية بالأناضول تابعةً لهما؛ الدولة السلجوقية التي سقطت سنة 708هـ/1307م والدولة الإيلخانية التي سقطت سنة 738هـ/1337م، وقد خَلَعَ أورخان على نفسه لقب السلطان² بكل ما يحمله هذا اللقب من استقلالية³. وبذلك صار أقدر الشخصيات بالأناضول على وراثته السلاجقة والإيلخانيين خلال السنوات الأولى من حكمه استولى العثمانيون على معظم الأراضي البيزنطية المتبقية بالأناضول وفي سنة 746هـ/1345م ضم أورخان الإمارة التركمانية قاره سي (Karesi) (تضم حالياً محافظة بلكيسير (Balıkesir Province) وجنق قلعة (Çanakkale)) إلى سيطرته⁴، ليصبح سيد الأناضول بلا منازع.

وضع هذا التوسع العثمانيين في موقع عسكري مناسب للتوغل بالبلقان والدخول في المجال الأوروبي؛ بعد الصراع على العرش في بيزنطة استنجد أحد المطالبين بالعرش بأورخان لدعمه، فدخل العثمانيون البلقان واستولوا على تزيبي (Tzympe) وهي معقل على الشواطئ الأوروبية لشبه جزيرة جاليبولي سنة 753هـ/1352م، فأصبح للعثمانيين بذلك موطن قدم في أوروبا، منه توسّعوا بالعمق الأوروبي حتى سيطر أورخان على أدرنه سنة 762هـ/1361م. جلب حكم أورخان ظهور المنظومة الإدارية والمؤسسات الإدارية المركزية والتعليم المدرسي⁵.

عندما اعتلى العرش العثماني نجل أورخان مراد الأول (حكم خلال 763-791هـ/1362-

1. دوسون مرادجه: نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون، تر: فيصل شيخ الأرض " رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ، جامعة بيروت الأمريكية، لنيل شهادة أستاذ في العلوم "، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942، ص113، بتصرف.
2. حسب المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر برجشتال (Joseph von Hammer-Purgstall) (1774-1856م) فإن بايزيد الأول هو أول من تلقب بالسلطان، ينظر:

Hammer J.De : **Histoire De L'Empire Ottoman, Depuis Son Origine Jusqu'a Nos Jours**, Traduit De L'Allemand Par:J.J.Hellert, Tom 1, Bellizard, Paris, 1835.118

ولكن إذا ثبت ما ذكره بروكلمان، في تاريخ الشعوب الإسلامية الصفحة 408، أن نقوش جامع بروسه الذي بناه أورخان سنة 1334م يلقب أورخان نفسه عليها بالسلطان، فإن ذلك يكون دليلاً قوياً على أن أورخان أول من تسمى بالسلطان. ينظر: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس ومنير العلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص 408.
3. المكان نفسه.

4 - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P CXIII.

5 - Ibid, P CXIII-XCIV.

1389) وحتى وفاته، لم تعد الدولة العثمانية إمارة وأصبحت قوة عظمى، تهيمن على غالبية إمارات الأناضول ومملكتيات البلقان، ودخلت في حوزة الدولة العثمانية كل من جنوب بلغاريا وتراقيا¹. تحوّلت الدولة العثمانية مع نجل مراد الأوّل السلطان بايزيد الأول (حكم خلال 791-804هـ/1389-1402) إلى إمبراطورية مركزية، يحدّها من الغرب نهر الدانوب ومن الشرق الفرات وتوسعت بالأناضول والبلقان، وأصبحت تشكل خطراً حقيقياً على أوروبا مما استدعى عدة تحالفات أوروبية لوقف التقدم العثماني، كانت إحداها تحالف ضم مملكة المجر والبندقية وبيزنطة حيث وقعت معركة نيكوبوليس في 22 ذو الحجة 798هـ/25 سبتمبر 1396م². انتصار الدولة العثمانية على هذا التحالف كرّس وجودها كقوة إسلامية عظمى في أوروبا والعالم.

تعبيراً عن ولاء العثمانيين لمقام الخلافة العباسية، وإحياءاً لتقليد قديم درج عليه سلاطين الإسلام شرقاً وغرباً، متمثلاً في طلب شرعية سلطنتهم من الخلافة العباسية المقيمة في دولة المماليك بمصر؛ نذكر المؤرخون أنّه في سنة 791هـ/1389م بعث السلطان بايزيد الأول سفارة مهيبة إلى الخليفة العباسي بالقاهرة مع رسائل التبجيل والهدايا الثمينة، من أجل أن ينال مباركته وتنصيبه سلطاناً على المناطق التي ورثها عن أسلافه³، في ظل خلافة إسلامية جامعة. هذه الخطوة تدل على تنامي شعور العثمانيين على أنّهم أصبحوا قوة إسلامية معترف بها من قبل خليفة المسلمين.

واجهت الدولة العثمانية بعدها خطراً كاد يقضي عليها، وهو هجوم تيمورلنك مؤسس إمبراطورية أوراسية عظيمة تمتد من شرق أوروبا إلى الهند حيث تغلب على العثمانيين في معركة أنقرة سنة 804هـ/1402م، ووقع بايزيد أسيراً، وردّ تيمورلنك إمارات الأناضول التي استولى عليها العثمانيون إلى أصحابها⁴. وقد مات بايزيد حسرة في سجنه، ودخلت دولته في دوامة مبيرة، وصراع خطير على العرش، خفف من ارتداداته القاعدة الصلبة التي بنيت عليها الدولة.

تُعرف الفترة بين 804 و816هـ/1402 و1413م باسم عهد الفترة "فترت دُوري" أو دور الانتقال؛ حيث تقاتل أبناء بايزيد الأوّل ضد بعضهم البعض للسيطرة على الأراضي العثمانية المتبقية أخيراً ظهر محمد الأول (حكم خلال 816-824هـ/1413-1421م) باعتباره الحاكم الوحيد للدولة العثمانية والمؤسس الثاني لها. كرس محمد نفسه لتحقيق الاستقرار والحكم المركزي واستعادة بعض

¹ - Ibid, P XCIV.

² - Ibid, P XCV.

³ . D'Ohsson Mouradja: **Tableau Général De L'Empire Othoman**, Tom1, Monsieur, Paris, 1788, P233-234.

⁴ - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P XCIV- XCV.

أراضي الإمارات التركمانية، ومع ذلك فإن التوسع الإقليمي بالأناضول الذي كان موجوداً في عهد بايزيد الأول لن يتحقق مرة أخرى إلا في نهاية عهد محمد الثاني¹.

واجه نجل محمد الأول، السلطان مراد الثاني (حكم في فترتين: الأولى: 824-848هـ/1421-1444م والثانية: 850-855هـ/1446-1451م) اعتداءات من إقليم البلقان وكذلك من باقي الإمارات التركمانية التي كانت تخشى إحياء قوة الدولة العثمانية. هكذا كانت فترة حكم مراد الثاني فترة صراع مستمر وقمع للتمردات بالأناضول والبلقان. وخلال هذا العهد تمت السيطرة على معظم الإمارات التركمانية، وواصل العثمانيون توسعهم في البلقان².

في عهد محمد الفاتح (حكم في فترتين: الأولى حين تنازل له والده مراد الثاني عن الحكم: 848 - 855 هـ/1444م-1446م، والثانية بعد أن استعاد والده عرشه لصد هجوم أوروبا، ثم تولى محمد الفاتح خلال: 855 - 886 هـ/1451 - 1481م) استعادت الدولة العثمانية توسعها الذي تمتعت به في عهد بايزيد الأول. وكانت أول وأعظم أعمال الفاتح فتحه للقسطنطينية والقضاء المبرم على الإمبراطورية البيزنطية في جمادى الأولى 857هـ/ماي 1453م.

اعتبر فتح القسطنطينية حدثاً عالمياً؛ انتقل العالم فيه من القرون الوسطى إلى القرون الحديثة وتحولت معه الدولة العثمانية إلى أقوى دولة في العالم، ليصبح الفاتح سلطان البرين وحاقان³ البحرين وقد أحدث انقلاباً كبيراً في مفهوم السلطنة العثمانية ووظيفتها؛ فمع قانونه الذي وضعه أصبحت الدولة العثمانية أمام نموذج لحاكم مطلق، تنتقل السلطنة من سمات عرفية تقليدية إلى سمات شرعية⁴ فالعثمانيون قبل الفاتح " ... كانوا جيشاً أكثر منهم أمة، وفضله هو تم تقنين المؤسسات وإصلاحها"⁵

¹ - Ibid, P XCV.

² - Ibid, P XCV- XCVI.

³ . خاقان: أصله تركي، أطلق على ملوك الأتراك القدامى منذ القرن السادس الميلادي، ثم أطلق على رؤساء الترك من المسلمين ثم تسمى به ملوك المغول، بإطلاقه على رئيس الأسرة المغولية صاحب السيادة العليا على كافة ولاية المغول في العالم، ومن دونهم لقبوا ب (خان)، ثم أطلقه السلاطين المماليك على أنفسهم، كرمز بادعائهم أحقيتهم في سيادة العالم الإسلامي عربيه وعجمه. ينظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ب ط، الدار الفنية للنشر والتوزيع، مصر، 1989، ص 273، 271 بتصرف.

⁴ . أكمل الدين: المرجع السابق، ص148، بتصرف.

⁵ - LA jonquiére, V.A.De : **Histoire De L'Empire Ottoman, Depuis Les Origines Jusqu'au Traité De Berlin**, Hachette, Paris, 1881, P181.

ويصفه النهروالي¹ أحد المؤرخين المسلمين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بقوله " ... هو الذي أسس مُلك بني عثمان، وقتن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان"².

خلال حكم محمد الثاني أصبحت المؤسسات العثمانية الإدارية والاجتماعية والاقتصادية راسخة بالكامل. خاض الفاتح سلسلة حروب مع جمهورية البندقية انتهت بالتوقيع على معاهدة سلام بين العثمانيين والبندقية في 4 ذو الحجة 883هـ/25 يناير 1479م، وأصبحت شواطئ البحر الأدرياتيكي الجنوبية في البلقان باستثناء دوريس وبار عثمانية. كان محمد الفاتح يخطط لإطلاق حملة في شبه الجزيرة الإيطالية، لكن موته المفاجئ في 5 ربيع الأول 886هـ/3 ماي 1481م جعل التوسع العثماني يتوقّف³.

تميّز عهد نجل محمد الفاتح، السلطان بايزيد الثاني (حكم خلال 886-918هـ/1481-1512م) بفترة سلام نسبي حيث تم شن حروب محدودة فقط. كان التطور السياسي المهم في هذه السنوات هو ظهور القوة الصفوية في إيران (حكم خلال 905-930هـ/1500-1524م)، حيث أثارت هذه الدولة الشيعية الجديدة المتشددة ثورات بين التركمان في الدولة العثمانية، مما أدى في سنة 917هـ/1511م إلى حرب أهلية بغرب الأناضول عُرفت باسم ثورة أو عصيان شاه قولي (Şahkulu İsyani) والتي تمّ السيطرة عليها بصعوبة كبيرة⁴. مما فرض الدولة الصفوية كخطر جسيم ينبغي على العثمانيين السنين التعامل معه بحزم.

أجبر سليم الأول (حكم خلال 918-926هـ/1512-1520م) والده بايزيد الثاني على التنازل عن العرش فاتحا حقبة جديدة في التاريخ العثماني؛ لقب بـ "سليم الرهيب" (Yavuz) فتّخت حكمه تم قمع كل الاضطرابات التركمانية بأقصى الإجراءات، واضطر أنصار الدولة الصفويّة إلى الفرار من البلاد. حوّل سليم خلال فترة حكمه القصيرة نسبياً الدولة العلية العثمانية إلى الدولة الإسلامية العظيمة الوحيدة في عصره؛ خطوته الأولى كانت ضد إيران الصفوية، التي هزمها في معركة جالديران في 3 رجب 920هـ/23 أوت 1514م، وسيطر على شرق الأناضول وأذربيجان وغرب

1. النهروالي محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود، قطب الدين الحنفي (... 988 هـ / .. 1580 م): مؤرخ من أهل مكة. تعلم بمصر، ونصب مفتيا بمكة. له الاعلام بأعلام بلد الله الحرام، والبرق اليماني في الفتح العثماني، وغيرها. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج6، ص 6-7.

2. النهروالي قطب الدين الحنفي (ت 988 هـ): الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، ط1، المطبعة الخيرية، مصر، 1888، ص174.

3 - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P XCVI.

4 - Ibid, P XCVII.

إيران¹، محوّلاً بذلك خط الفتح الإسلامي من الغرب إلى الشرق، في محاولة لتأمين ظهره لمواصلة الفتح غرباً إذ أن العثمانيون اكتسبوا شرعيتهم بجهاد الكفار بأوروبا.

جاءت خطوته الثانية في الفترة من 922 إلى 923 هـ/1516 إلى 1517 م؛ إذ هاجم سليم دولة المماليك بمصر وهزم جيوشها في معركة مرج دابق (حلب في 26 رجب 922 هـ/24 أوت 1516) والريمانية (القاهرة في 1 صفر 923 هـ/22 يناير 1517). ضم أراضي المماليك يعني ضم سوريا وجبل لبنان وفلسطين ومصر والحجاز إلى الدولة العثمانية. في جميع هذه المناطق التي شكلت جوهر الحضارة الإسلامية الكلاسيكية - بما في ذلك المدن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس - تولت الدولة العثمانية الآن دور حامي الأراضي المقدسة²، وعقدت عليها آمال المسلمين في العالم.

لم يكن فتح سليم الأوّل لمصر يعني وراثته لسيادة العالم الإسلامي من المماليك حكمًا مصر³ فحسب، بل كان إلى جانب ذلك يعني انتقال الخلافة الإسلاميّة من بني العبّاس إلى بني عثمان وهي قضية كبرى أثارت جدلاً واسعاً بين المؤرّخين قديماً وحديثاً⁴، وقد تقلّد سليم بتسلّمه لمفاتيح الكعبة

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, P XCVIII.

³ . يَصِفُ المؤرّخ المعاصر لسليم الأوّل ابن إياس محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، أبو البركات (852 - نحو 930 هـ / 1448 - نحو 1524 م)، حال مصر بعد الاستيلاء عليها لتصبح مقاطعة من مقاطعات الدولة العثمانيّة " ومن العجائب أنّ مصر صارت نيابةً بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة، لأتّه خادم الحرمين الشريفين، وحواي ملك مصر ...". ينظر: ابن إياس، محمد ابن أحمد ابن إياس الحنفي (ت 930هـ): المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج3، ب ط، مطابع الشعب، 1960، ص1110.

⁴ . يتفق المؤرّخون أنّ رواية التنازل عن الخلافة لم ترد في المصادر المعاصرة، بل ظهرت في القرن الثامن عشر، ولعلّ أوّل من ذكرها هو المؤرخ والسكرتير والمترجم الأوّل للقنصلية السويدية بإسطنبول مرادجه دوسون (Mouradgea d'Ohosson) (1740-1807م)؛ حين قال: " لا تنحدر العائلة العثمانية من قريش التي انحصرت فيها الإمامة وفقاً للتّصوُّص، وحسب إجماع الفقهاء المتقدمين فإنّ العثمانيين اكتسبوا هذا الحق بالتنازل الرسمي من الخليفة العبّاسي محمد الثاني عشر المتوكل على الله آخر الخلفاء العبّاسيين عن الخلافة للسلطان سليم الأوّل سنة 923 هـ (1517م)، بعد أن أطاح هذا الأخير بدولة المماليك بمصر التي كان يعيش بها الخليفة المذكور." ولم يذكر دوسون مصادره التي اعتمد عليها في تقرير ذلك الإجماع.

جاء في المصادر المعاصرة لتلك الحقبة خبر نقل آخر الخلفاء العبّاسيين إلى إستانبول مثله في ذلك مثل الأمانات المقدّسة، وذكرت حياة الترف التي عاشها هناك، حتى تغبّر عليه عليه سليم الأوّل وسجّته، وقام خليفته سليمان القانوني بإطلاق سراحه، وعاد إلى مصر حيث توفي فيها سنة 945 هـ/1538 م، ومات بموته ميراث العبّاسيين في الخلافة. ينظر: أحمد بن يوسف القرماني (ت1019 هـ): أخبار الدول وآثار الأوّل في التاريخ، تح: أحمد حطيّط وفهمي سعد، ج2، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1992، ص226 بتصرف. وقال النهروالي: "... وموته انقطعت الخلافة العبّاسية الصّوريّة بمصر." النهروالي: المصدر السابق، ص124. لكن لا أحد من تلك المصادر سواء العربية أو التركية ذكرت خبر التنازل، ولو أنّه وقع ما اغفلته، فما هو بالأمر الذي يُغفل عنه =

المشرفة من شريف مكة لقباً من أجل وأعظم ألقاب السلطنة ألا وهو خادم الحرمين الشريفين، وأصبحت الدولة العلية العثمانية خلافة عثمانية إسلامية.

أدت هذه التطورات إلى استقرار الهوية الدينية للدولة العثمانية باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية في العالم. من الناحية الجيوستراتيجية سيطر العثمانيون على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بالكامل وكذلك البحر الأحمر، وبدأ مجال اهتمامهم يصل إلى المحيط الهندي، عزز عهد سليمان الأول الملقب بالقانوني والعظيم (حكم خلال 926-973هـ / 1520-1566م) مكانة الدولة العلية العثمانية كقوة عالمية¹، ترسم السياسات العالمية، وتعيد تشكيل الخرائط السياسية.

كشفت مسألة الخلافة عن نفسها " ... بشكل أكثر حيوية في عهد السلطان سليمان القانوني فقد استخدمت في تلك الفترة ألقاباً للسلطان مثل صاحب الخلافة الكبرى، والإمامة العظمى، وخليفة المسلمين وهذه الألقاب كانت انعكاساً لفهم الخلافة بمعناها العالمي الشامل"² وأخذت مسألة الخلافة عند العثمانيين بعده العقائدي الذي " ... تجلّى في تأمين طرق الحج وحماية الأماكن المقدسة والدفاع عن الإسلام والمسلمين ووضعهم تحت شمسية الحماية، وامتزج ذلك المعزى بتقاليد مبدأ الجهاد"³ التي تشبعت بها الروح القبلية عند الأتراك المسلمين؛ ولا أدل على ذلك من أن الجزائر في الجناح الغربي من العالم الإسلامي طلب أعيانها حماية الدولة العثمانية من الخطر الإسباني الداهم، لتجمع الدولة العثمانية في حوزتها جناحاً العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

خلال هذه الفترة أصبحت رودس وبلغراد ومعظم أجزاء المجر عثمانية. في سنة 935هـ/1529م ضرب العثمانيون الحصار على فيينا لأول مرة. في الشرق تم ضم العراق وجورجيا. في شمال إفريقيا دخلت الجزائر وطرابلس الليبية تحت الحكم العثماني. امتدت العمليات العسكرية العثمانية من نيس في جنوب فرنسا إلى ديو في الهند. تم تحديد الشؤون الدولية للدولة العثمانية في هذه الفترة من خلال علاقاتها مع إمبراطورية هابسبورغ وإيران⁴.

ومع ذلك وكما قال المؤرخ التركي أكمل الدين إحسان أوغلو فإن العثمانيين مارسوا وظيفة الخلافة عن جدارة واستحقاق، وقد ذكرت الدراسات الحديثة أنّ العثمانيين لم يبرؤوا الخلافة في شكلها الوراثي بل فهموها على أنّها حق طبيعي كما يدل عليه معناها تماماً كما استخدم لقب الخليفة عند بعض حكام الدول الإسلامية الأخرى، وعند العثمانيين أيضاً منذ عهد السلطان مراد الأول ينظر: أكمل الدين: المرجع السابق، ص34.

¹ - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P XCVIII - XCIX.

² . أكمل الدين: المرجع السابق، ص34.

³ . المكان نفسه.

⁴ - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P XCIX.

هكذا بلغت الدولة العثمانية أوجها في زمن القانوني، واكتمل بناؤها السياسي والعسكري والمؤسسي، وبامتداد رُقعة الدولة لتشمل عوالم الخلافة الثلاث دمشق بغداد والقاهرة، كلف سليمان القانوني الشيخ إبراهيم الحلبي¹ بوضع كتاب شامل يجمع المذهب الحنفي ليكون قانوناً للدولة؛ فكان "ملتقى الأبحر" جاهزا حوالي سنة 956هـ/1549م، وقد ظل قانونا للدولة العثمانية حتى إصلاحات القرن التاسع عشر²، وهكذا كان للفقهاء العرب في شخص إبراهيم الحلبي دور في تقنين قوانين الدولة العثمانية، وفي اللقب الذي عرف به السلطان سليمان القانوني.

لكن بعد القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي لم تعد للسلطين العثمانيين القدرة على لعب دور الحامي للعالم الإسلامي مع تزايد ضعفهم وتزايد الأخطار الخارجية، فتزايد تركيزهم على حقوقهم الشرعية كخلفاء بالعودة إلى نظرية الخلافة حسب القرون الأولى³. وأسلمهم القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي إلى ضعف لم يتوقف إلا وقد انحارت الخلافة الإسلامية كنظام سياسي استظل المسلمون بظله قرونا مديدة⁴. وهكذا نشأ الحكم العثماني وتطور من قبيلة إلى إمارة فدولة عليية انتهاء بخلافة إسلامية، مثلت آخر كيان سياسي إسلامي كبير جامع بداية من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي.

لا شك أنّ انتقال العثمانيين من طور القبيلة إلى بكونية حدودية إلى إمارة مستقلة إلى سلطنة فدولة فخلافة إسلامية فرض عليهم إيجاد نظام إداري يلبي حاجيات ذلك التطور، مما مكن دولتهم من أن تُعمر قُرُونًا طَوَالًا؛ لقد أوجدت الدولة العثمانية لنفسها مؤسسات قوية مستفيدة من التراث الإسلامي والبيزنطي، ومُؤَلِّية اهتماما بالغا في تدريب الكفاءات التي أدارت تلك المؤسسات باحترافية

1 - إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي: (000 - 956 هـ / 000 - 1549 م) فقيه حنفي، من أهل حلب، تفقه بها وبمصر ثم استقر في القسطنطينية وتوفي بها عن نيف وتسعين عاما. أشهر كتبه ملتقى الأبحر في الفقه. ينظر: الزركلي المرجع السابق، ج1، ص66. 67.

2 - Lybyer Albert Howe: **The Government of The Ottoman Empire in The Time of Suleiman The Magnificent**, Cambridge Harvard University Press, And London: Hrnry Frowde Oxford University Press, 1913, P153.

3. خليل إينالجيك: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية**، تر: عبد اللطيف حارس، ج1، ط1، دار المدار الإسلامي بيروت، 2007، ص66.

4. الملحق (01) شجرة سلاطين آل عثمان، ص607.

واقترار، وهو ما شهد به كثير من الغربيين، قال المستشرق ألبرت هـ. لبيير (Albert Howe Lybyer)¹:
" ... يكشف تاريخ الإمبراطورية العثمانية عن ثابتين كانا سببا في قوتها؛ ليست القوة العسكرية وحدها هي التي جعلت العثمانيين القوة الأكبر في القرن السادس عشر؛ فقد كان من وراء القوة العسكرية رجال لهم من القوة والكفاءة بالقدر الذي مكّنهم من فتح أجزاء شاسعة من أوروبا آسيا وإفريقيا وإدارتها وفق تنظيم محكم ومقنع، صمد لأكثر من ثلاثة قرون قبل أن ينهار"².

يذكر الكولونيل والمؤرخ ألفيو. م. كراسي (Alfio M.Grassi)³ أن: " الحكومات بمثابة كيانات سياسية؛ تتناسب مدها وتماسكها وقوتها مع القواعد التي تقوم عليها وككل المنجزات الإنسانية، تنهار تلك الكيانات مهما كانت عظمتها حين لا تستجيب قواعد لها لتطورها هذا فيما إذا قامت تلك القواعد ذاتها على أرضية راسخة ومستقرة؛ من بين هذه الكيانات السياسية أو بالأحرى من بين هذه الحكومات الأوروبية، لا يوجد أكثر رسوخا وأفضل تنظيما مع الزمن - مهما بدى غريبا - من حكومة الترك ... هذا التأكيد عن قوة حكومة الترك يمكن أن يثير التساؤل، ولكن عندما نُلقِي نظرة حول تنظيم الإمبراطورية العثمانية سندرك صحة ذلك"⁴.

خلفية ونشأة المنظومة الإدارية العثمانية

يحسن قبل الحديث عن النظام الإداري العثماني وموقع فئة الكتاب من أهل القلم فيه، أن نتحدث عن الخلفية الثقافية التي انبنى عليها ذلك النظام، ومدى تأثير النظم البيزنطية على العثمانيين لا سيما وأن توسعهم كان على حساب الإمبراطورية البيزنطية العريقة. إلى جانب تأثير التراث الفارسي المتجدد

1 . ألبرت هـ. لبيير (Albert Howe Lybyer) (1876 – 1949): مستشرق أمريكي، من أهم كتبه: الحكومة العثمانية في عهد سليمان القانوني، ومن مباحثه: الأتراك العثمانيون وطرق التجارة الشرقية، ورحلات إلبا أفندي، ومحمد الفاتح. ينظر: العقيلي نجيب: المستشرقون، ج2، ط5، دار المعارف، القاهرة، 2006، ص112.

2 - Lybyer, Albert Howe: **The Government of The Ottoman Empire in The Time of Suleiman the Magnificent**, Cambridge Harvard University Press, London: Hmry Frowde Oxford University Press, 1913, P4

3 . كراسي (Alfio M.Grassi): ولد بصقلية سنة 1774، من عائلة نبيلة، ترقى سريعا في الرتب العسكرية، حتى بلغ سنة 1800 رتبة كولونيل ونظرا للخدمات التي قدمها للجيش الفرنسي، نفي وانتقل للخدمة في فرنسا، وحصل على وسام العسكرية الفرنسي سنة 1815 انخرط في التأليف فنشر له: محاولة تاريخية حول الجيش الروماني والسلام الإغريقي المقدوني 1820، الميثاق التركي 1825، وغيرها توفي سنة 1827. ينظر:

Rabbe MM : **Biographie Universelle et Portative des Contemporains**, Tom2, L'Editeur, Paris, 1836, P1941.

4 - Alfio M. Grassi : **Charte Turque Ou Organisation Religieuse Civile et Militaire De L'Empire Ottoman**, Tom1, D'Ambroise Dupont, paris, 1826, P25-26.

في التربة الإسلامية. سنعمد هنا بشكل كبير على ما كتبه المستشرق الأمريكي ألبرت هـ. ليبير باعتباره تخصص في النظام الإداري العثماني عموماً وفي العصر الذهبي للعثمانيين عصر سليمان القانوني خصوصاً.

استفاد العثمانيون - إلى جانب الأعراف القبلية المقدّرة بشكل كبير عند الأتراك عموماً - في بنائهم الإداري بلا ريب من سلاجقة الروم الذين كانوا يتبعون لهم، كما أنّهم كما قال ليبير استفادوا من البيئة الفارسية المتجذرة في آسيا الصغرى عددًا من الأفكار الفارسية عن الحكومة؛ مثل تمجيد الملك، وفصل مسؤولي البلاط عن المسؤولين الحكوميين، وتقسيم الوزارة إلى خمس إدارات، ومجلس الدولة، وإعطاء صلاحيات كبيرة للحكام المحليين، وبدائيات ما يسمى بالنظام "القانوني" للضرائب. ويبدو أيضًا أنّهم قد أخذوا عنهم سياسة السماح للرعايا الذين اعتنقوا ديانات مخالفة بتشكيل منظمات منفصلة، والتي عاشت وفقًا لقوانينها الخاصة¹ ولا عجب في ذلك فقد كانت الخلافة العباسية مسرفة في الأخذ عن الفرس، وفي ظل الخلافة العباسية تعمّقت العلاقات بين الفرس والأتراك.

غني عن البيان أن العثمانيين تأثروا بالإسلام وعُرفوا بشدة تعلقهم به²، واعتبروا الجهاد واجباً في أعناقهم لنشر الإسلام، لذا من المفيد أن نستعرض وصية عثمان لخليفته أورخان لأنّه رسم في هذه الوصية السياسة العامة للدولة العثمانية؛ فقد أوصاه في بدايتها بالتعلق بالآخرة وبالعدل واستمرار الجهاد والدعوة؛ "اسمع آخر وصاياي: لا تتعلق بهذه الدنيا ولا تغتر بالسعادة التي تحيط بك، أتوسّل إليك ألا تسعى لدعم سلطتك بالاستبداد؛ ابتعد عن القسوة، واسعى لتحقيق العدالة وزين بها الأرض، خلد روعي المنفصلة عن جسدي بمزيد من الانتصارات وعندما تغزو العالم، اجعل هدف جيوشك نشر الدين"³ وهو الهدف الذي تحركت لأجله جيوش الدولة العثمانية عبر تاريخها.

أوصاه بعد ذلك بما لا قيام للدولة إلّا به وهم العلماء، كما أوصاه بأن يجعل الدعوة الإسلامية همّه الأوحد إلى جانب الوصية بإصلاح شأن الرعيّة؛ "...أكرم جميع العلماء، وبذلك تعزز الشريعة الإلهية، وإذا تنهى إلى علمك وجود رجل ضليع في العلم، فأغدق عليه وأكرمه غاية الكرم. لا تُسئِ إطلاقاً إلى جنودك، ولا تحرمهم من ثروتك، قَرّب إليك أهل الشريعة، واعلم أن العدالة أقوى دعائم

¹ - Lybyer, Albert Howe: Op.cit, P20.

² . على الرغم من النزعة الصوفية المليئة بالبدع والأساطير والمسحة الشيعية التي طبعت تديينهم على اعتبار دور الصوفية الكبير في نشر الإسلام في آسيا عموماً وآسيا الصغرى على وجه الخصوص.

³ - Cantimir Demertius : **Histoire de l'Empire Othoman ou se voyent les causes de son aggrandissement et de sa decadence**, Traduite en Francois par : De Jonquieres, Tom1, Despilly, Paris, 1743, P16.

الملك ابتعد عن كل ما يضعفك. يجب أن تكون الشريعة هدفنا الوحيد، وهَمُّنا الأُوحد: وينبغي أن يكون الله هو غايتنا جميعاً لا تُقجِم نفسك في أي عبث، ولا في أي مشاجرات غير مثمرة فإنَّه لَطُموح زائف أن نسعى فقط لإنشاء مملكة في العالم، لا أرغب في أي شيء غير انتشار الشريعة وأنت من عليك مواصلة تحقيق رغبتى هذه ... ثمَّة واجبات عليك نحو العامة؛ تواضع لهم، ولا تتميز عنهم وارفق بهم وارحمهم يجب أن يكون شغلك الدائم حماية رعاياك ستحظى برعاية الله إن أنت أخذت بهذه الأحكام"¹.

رَسَم عثمان بوصيَّته المهام الأساسية لخلفائه، وجعلها أربعة مهام: إقامة الشريعة واحترام علمائها تحقيق العدالة، الاهتمام بالجيش والجهاد لنشر الإسلام، حماية الرعية والترقُّق بها. وقد أسسوا نظامهم الإداري لخدمة تلك المهام؛ فقد بنى العثمانيون أوَّل مؤسسة دينية في تاريخ الإسلام ترعى مصالح الإسلام والمسلمين وتراقب مدى انطباق أوامر السلاطين مع الشريعة؛ إنها مؤسسة المشيخة الإسلامية التي يرأسها شيخ الإسلام². وربما تأثر العثمانيون بالبيزنطيين في استحداث هذه المؤسسة التي لا نظير لها في تاريخ الإسلام.

ذهب بعض الباحثين إلى أنّ نشوء طبقة العلماء وتنظيمها برئاسة شيخ الإسلام ضمن مؤسسة تابعة للمنظومة الإدارية العثمانية قد تأثّر بطريقة تنظيم الإكليروس المسيحي عند البيزنطيين تحت سلطة البطريرك للحد الذي يجعل شيخ الإسلام حسبهم " ... نظيراً مُسليماً من نوع ما للبطريرك اليوناني الأرثوذكسي، يتمتّع بسلطة على مجموع رجال الدين، والواقع أن إنشاء هذا النوع من كنيسة مسلمة! ذات طابع مُهيكل وهرمي بدرجة قوية، ومرتبطة بالدولة ويحصل على مرتبات منها، هو ظاهرة لا نظير لها في التراث الإسلامي"³ وذلك صحيح إلى حد كبير على اعتبار هيكلتها وتنظيمها وفوق ذلك اعتبارها قانونياً مؤسسة لا غنى عنها في صناعة القرار السياسي؛ فقد كان قرار شيخها حاسماً في السلم والحرب وفي ترسيم السلطان أو عزله أو حتى الأمر بإعدامه.

بالنظر إلى أنّ الدولة العثمانية قائمة على الشريعة الإسلامية، والسلطان يستمدّ شرعيَّته منها فإن علماء الشريعة وهم عماد المؤسسة الدينية تبوأوا منزلة رفيعة في المنظومة الإدارية العثمانية وفي المجتمع على حدّ سواء؛ فقد أُعفي العلماء من جميع الضرائب، ولا يخضعون لأي قانون تعسفي ولا تُصدّر

¹ - Loc.cit.

². الملحق (02) المؤسسة الدينية في الدولة العثمانية، ص608.

³. فينشتاين جيل: "الإمبراطورية في عظمتها (القرن السادس عشر)"، روبرت مونتران: تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي ج1، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، ص282.

ممتلكاتهم ولا يتعرضون للعقوبات المهينة، فالسجن والمنفى عقوبتهم الوحيدة، وكانت لديهم محكمتهم الخاصة¹ قال ليبير: هذه الامتيازات جعلت العلماء كطبقة للنُّبلاء² وذلك ما يشير إليه مرادجه دوسون (Mouradgea d'Ohosson)³ حين يُقسّم الهيئة الاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية إلى أربع مراتب: علماء الشريعة في المرتبة الأولى باعتبارهم حسب القانون طليعة المجتمع، ثم يأتي بعدهم الوزراء والموظفون السامون، ثم الطبقة الوسطى من البرجوازية التي لا تشغل أي منصب عام وتعيش من الصناعة أو ثروتها، وأخيرا عامة الشعب، والذميون⁴.

لفهم الخلفية التاريخية للنظام المؤسسي العثماني ينقلنا ألبرت هـ. ليبير إلى أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حيث يسجل حدثا مهماً في عهد الخلافة العباسية كان له حين تطور أهمية بالغة في التاريخ العثماني؛ فقد استكثر العباسيون من استقدام المماليك الأتراك إلى حاضرة مُلكهم حتى أصبحت لهم شوكة وقوة⁵. قال ليبير عن هؤلاء المماليك الأتراك: بعد أن تم تدريبهم كجنود أصبحوا قادة للجيش وحكاما محليين، وبعد فترة قصيرة من الوقت انتقلت الحكومة المركزية إلى أيديهم⁶ إن تدريب مثل هؤلاء العبيد الأتراك الشباب في قصور الخلفاء والولاة يُشير بوضوح إلى الأساليب

¹ - LA jonquiére : Op.cit, 264.

² - Lybyer : Op.cit, P203.

³. مرادجه دوسون: ولد بالقسطنطينية سنة 1740 في عائلة من أصول أرمنية، كان السكرتير والمترجم الأول للقنصلية السويدية ب إستانبول، ثم أصبح وزيرا مفوضا، ثم كرس نفسه لكتابة التاريخ الذي اشتهر به عن الدولة العثمانية، توفي سنة 1807 بفرنسا ينظر:

Quérard, Joseph-Marie : **La France littéraire, ou Dictionnaire bibliographique des savants**, Tom6, Firmin Didot Frères, Libraires, Paris, 1834, P342.

⁴ - D'ohsson : Op.cit, T1, P50.

⁵. كان ذلك في زمن الخليفة المعتصم قال صاحب كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " في تأريخه لحوادث سنة 220هـ: " اعتنى المعتصم باقتناء الترك، فبعث الى سمرقند وفرغانة والنواحي لشرايهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الدباج ومناطق الذهب وأمعن في شرايهم حتى بلغت عدّتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل: ثمانية عشر ألفا، وهو الأشهر؛ ولأجلهم بنى مدينة سامرا" ينظر: ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج2، ص233.

⁶ . يقتبس ليبير من كتاب سياسة نامه للوزير السلجوقي الكبير نظام الملك الذي ذكر سلم ترقى العبيد التركمان في ظل الدولة السامانية التي حكمت شرق فارس من 874 إلى 999م. قال نظام الملك عن نظام شراء العبيد وتربيتهم للخدمة العسكرية والمدنية " وقد اتبع في الأزمنة القديمة في تربية العلمان وتصنيفهم مُنذُ اليَوْمِ الَّذِي كَانُوا يَتَنَاعُونَ فِيهِ إِلَى أَنْ يَتَرَعَّرُوا وَتَبَوَّأُوا الْمَقَامَاتِ الرَّفِيعَةَ ... إِنْ هَذَا النَّظَامُ مَا زَالَ فِي ظِلِّ السَّامَانِيِّينَ الَّذِينَ يَرْفَعُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ الْعُلَامِ تَدْرِيحِيًّا وَفَقًا لِحُدْمَاتِهِ وَكِفَايَتِهِ وَلِيَاقَتِهِ فَهَمَّ حِينَ يَشْتَرُونَ الْعُلَامَ يَضَعُونَهُ فِي خِدْمَةِ الرِّكَابِ الْعَالِيِ " ويظل في ترقى حسب كفاءته وجدارته إلى أن يتولى الولاية أو الإمارة شريطة ان يبلغ من العمر الحَامِسَةَ وَالثَّلَاثِينَ أَوْ الْأَرْبَعِينَ. ينظر: نظام الملك: المصدر السابق، ص144-145.

العثمانية لاحقاً¹. في إشارة إلى ممالك الدولة العثمانية الذين تمّ تدريبهم ليقودوا الجيوش والإدارة كما سنرى.

يعلق ليبير على نظام شراء العبيد وتدريبهم لتولي المسؤوليات الجسام في المجالين العسكري والمدني والذي انتهج منهجاً عملياً في الخلافة العباسية فقال: "في هذا النظام لتدريب العبيد وإعدادهم للحرب وقيادة الحكومة، وُضِعَتْ على منواله نواة المؤسسة الأساسية للدولة العثمانية، والتي كانت جنباً إلى جنب مع المؤسسة الدينية، تلخّص عملياً نموذج التنظيم الحي الكامل للأمة العثمانية. في عهد السامانيين كان الأولاد الأتراك هم الذين تعلموا على يد العرب والفرس، لكن العثمانيون لاحقاً طبقوا المبدأ نفسه على تعليم الشباب المسيحي"² باعتبار أوروبا المسيحية كانت هي المجال الحيوي للدولة العثمانية منذ أن وطئتها أقدامهم على عهد أورخان.

يقصد ليبير بالمبدأ الذي طبقه العثمانيون على الشباب المسيحي ما يعرف في التاريخ العثماني بنظام الدفشرمة³ الذي أعطى الدولة العثمانية نخبها العسكرية "الجيش الإنكشاري"⁴ الذي أربب

¹ - Lybyer: Op.cit, P22.

² - Ibid, P23.

³ . والدفشرمه ابتكار عثماني يؤخذ بموجبه الأطفال المسيحيين بشكل دوري فيدربوا ليعملوا كانكشارية، ويمكنوا من مناصب في البلاط والإدارة، ولايزال تاريخ ظهور الدفشرمة يسوده الغموض، يرفعه البعض إلى زمن أورخان وهذا خاطئ، أول إشارة واضحة للدفشرمه في المصادر المعاصرة تشير إلى سنة 1395م أي عهد بايزيد الأول، من طرف شخص يدعى إزدور كلابس (Isidore Glabas) يرثو الأطفال الذين احتجزهم الأتراك، الإشارة الثانية سنة 1430م في رسالة سنان باشا لسكان إيونيكا في أنه في حالة استسلامهم لن يأخذ أبناءهم [الكلمة التي تحتها سطر اجتهاد مني لأن الكلمة كتبت بغير الانجليزية ولعلها نقل حرقي من اللغة العثمانية ولكن السياق يقتض ما ترجمته فيما تحته خط] في رسالة كتبها بارتلموس ذو جانو (Bartholomaeus de jano) سنة 1438م تشير إلى أن مراد الثاني هو من أنشأ الدفشرمة، ولكن بالنظر إلى شهادة إزدور كلابس السابقة يمكن تخمين أنها بعد توقفها في سنوات الارتباك بعد أنقره جدها مراد الثاني ضمن خطة إعادة تنظيم الانكشارية. ويفترض أن الدفشرمة أثار جدلاً بين العلماء فيما يخص موافقتها للشرع من عدمه ينظر:

Menage V. L: **DEVSHIRME**, The Encyclopedia of Islam. New Edition, Leiden, EJ. BRILL, Holland, Tome 2, 1991, P210-213 .

⁴ . الإنكشارية (Yeniçeri): ويرسم بالتركية هكذا يكيچاري؛ يكي Yeni بمعنى جديد، جري çeri بمعنى العسكر، أي العسكر الجديد ثم حُرِفَ في العَرَبِيَّةِ فَصَارَ إنكشاري، ارتقى هذا الجيش في النظام وازداد عدده حتى صار لا يعول الا عليه في الحروب وكان هو من أكبر واهم عوامل امتداد سلطة الدولة العثمانية. ينظر: المحامي، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت 1981، ص123. وينظر: سليمان أحمد السعيد: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ب ط، دار المعارف القاهرة، ب ت، ص31.

أوروبا قروناً¹، كما أعطاهما نخبها الإدارية التي قادت الدولة العثمانية بكفاءة عالية واقتدار. الدفشرمة: لغة تعني الجمع، حيث تمَّ أسلمة حصّة الخزينة (الخمس) من الأسرى النصرانيّين المسترقّين بموجب القوانين الدُوليّة السائدة في حينه، وتربيتهم تربية تركية، ثم تطوّرت هذه المؤسسة فوضعت قواعد مفصّلة تُنظّم جمع أبناء العوائل النّصرانية من عُمر ثمان سنوات إلى أربعة عشرة سنة، بإشراف لجنة فيها الأمين ومساعدته والقاضي ومسؤولو المنطقة العسكريين والمدنيين وممثلو الأهالي².

تَحْظُر تلك القواعد القانونية أن يُؤخَذ أكثر من صبي واحد من كل أربعين بيتاً، وتشترط أن يكون الصّبيّ قويا وسليماً وذكياً ومن عائلة معروفة وله إخوة، وألا يكون يتيماً أو راعياً أو أصلع أو أمرّد وأن تُسجّل أسماءهم وعوائلهم وعناوينهم مفصّلة في قيدين، أحدهما محلي والآخر يُرسل إلى المركز ثم يُجمعون في زمر كلٍّ منها حوالي 200 فرد، وتُستحصل موافقة السلطان عليهم، ثم يتلقون دروساً كثيفة في الدين الإسلامي وأصول التربية التركية والتدريب العسكري³، بما يعني تتركبهم.

حول أماكن وفترة جمع الميجندين الجدد وطريقة ذلك يخبرنا ألبرت ليبير بأنّه وفق نظام الدفشرمة كان يتمّ أخذ الأطفال المسيحيين كل أربع سنوات، والمناطق التي كانوا يُؤخَذون منها هي: البلقان هنغاريا الساحل الغربي لآسيا الصغرى، الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر الأسود لكن الشبان الأقوياء أُتي بهم من المناطق الجبلية في ألبانيا وجنوب سلافيا. كما أنّ المكلفين بالتجنيد كانوا يحصّلون من قساوسة القرى المسيحية على قوائم الأولاد المعتمدين، والذين تتراوح أعمارهم بين اثني عشر وعشرين عاماً، ومن ثمّ يُختار الضباط الأفضل من بينهم⁴.

يتحسّر مؤرّخ غربي على الدفشرمة التي انتزعت من أوروبا أجمل شبابها فقال: إنّها أفضع كتلة بشرية تلك التي انتزعتها ديانة مُنتصرة من ديانة مُنهزّمة، وتُشير إلى التدهور الذي بلغته الشعوب المسيحية تحت سيادة العزّة الاستبدادية... بهذا النوع من التجنيد الأجنبي وجدّ العثمانيون من جهة أخرى وسيلة لانتزاع أخصب جزء من الشعوب المسيحية، ومضاعفة قوّاتهم⁵، ويذكر غيره أيضاً بأنّ السلطان يبعث مبعوثيه كلّ خمس سنوات إلى البلاد المسيحية التي فتحها عنوة ليحضرُوا له الأطفال ويطلّعون على سجلات التعميد الكنسي ليعرفوا عدد الأطفال، ومن ثمّ يتنرّعون أفضلهم من بين أيدي

1. أرعب الجيش الإنكشاري أوروبا لدرجة أنّ المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر برجشتال قال أنّ تأسيسه كان: فكرة مرعبة ألف مرة في نتائجها على استقرار أوروبا من اختراع البارود. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom1, P123.

2. كوندوز، أحمد آق وأوزتورك سعيد: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، 2008، ص511.

3. المكان نفسه.

4 - Lybyer: Op.cit, P51-52.

5 - LA jonquiére : Op.cit, P221.

آبائهم، لجعل كثير منهم مرتدين وضحايا هذه الدولة، ومن ثم يُنقلون إلى سَرَاي السلطان¹.

لئن كان ما يذكره هؤلاء عن مأساة النصارى على أيدي المسلمين العثمانيين أصحاب الدفشمرة فيه جانبٌ من الحقيقة؛ على اعتبار أن أي عملية يُنفذها بشر مهما كانت دِيانتُهُم لا بُدَّ وأن يشوهُما بعض الأخطاء والتجاوزات، إلا أن الثابت أيضا أن كثيرا من المسيحيين كانوا سُعداء بتجنيد أبنائهم عبر الدفشمرة ضمن الجيش والإدارة العثمانية؛ فهذا هو ذا ألبرت ليبير يُصرِّح بأن كثيرا من الآباء المسيحيين كانوا يعترضون تجنيد أبنائهم امتيازًا وليس عيبًا، باعتبار المستقبل المضمون لهم إلى حوار السلطان العثماني، وباعتباره مخرجًا من الفاقة².

ثم إنَّ مُجنِّدين يُؤخذون في أعمار بين الثامنة والثامنة عشرة، لا شك أن أُولهم الاثنية والدينية محفورة في ذاكرتهم، فإذا كانوا قد أخذوا عنوة فمن المستبعد أن ينخرطوا في دين جديد ويُقاتلوا من أجله بكل تلك الحماسة التي وصفها الغربيون أنفسهم، من أجل ذلك - كما ذكر مرادجه دوسون - كانت الدولة لا تحتاج إلا نادرا لاستعمال الشدَّة، إذ كان الآباء والأمهات يتوسَّلون كما لو أنهم يطلبون معروفا أن تقبل الدولة أولادهم في الجيش الانكشارية³، ثم أي استعباد هذا الذي يؤول إلى حُكم الدولة الأقوى في العالم والتحكُّم في مصير أحرارها!!! قال كراسي أليفو بعد أن تحدَّث عن عدم وجود طبقة للثبلاء في الدولة العثمانية: "إذا كان العبيد عند قُدَماء اليونان والرومان و حتى عند الأمريكيين لا مكانة لهم، فإن العبيد في تركيا هم من يحكمون الإمبراطورية!"⁴

دمج النظام العثماني لشباب مسيحيين لم يكن هدفه فقط مجرد حُصُوله على ولائهم وطاعتهم أو زيادة لعدد الحُدَم، ولكن كان هدفه قبل ذلك وبعده - كما يذكر ليبير - هو الحصول على مواطنين عثمانيين جدد ومؤمنين جدد يُحاربون لنصرة الإسلام⁵، و قد حقق ذلك غاية أخرى: كَون توظيف الأطفال المجموعين من ذوي الجذور الشعبية في المناصب العسكرية والإدارية العليا بعد تأهيلهم وتدريبهم بدءًا من عصر محمد الفاتح، مَنعُ نُشوء تقليد يعتمد على أصالة النَّسب في إدارة الدولة، ولعب دورا مُهمًا في تطبيع الدولة بطابع المركزية والمشاركة التكافلية، والاستثناء الوحيد من ذلك هو اعتماد أصالة النَّسب في حصر الحاكمة بالعائلة العثمانية⁶.

¹ - Fernel, Gilles : **Observations curieuses sur le voyage du Levant**, Rouen, France, 1703, P381.

² - Lybyer: Op.cit., P54.

³ . دوسون: المصدر السابق، ص145.

⁴ - Alfio: Op.cit, P34.

⁵ - Lybyer: OP.cit, P63.

⁶ . كوندوز: المرجع السابق، ص544.

عن كفاءة واقتدار رجالات الإدارة والجيش التي وفّرها نظام الدفشمرة ينقل لنا لبيير شهادة أحد سفراء البندقية في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ضمّنها تقريره الذي رفعه إلى مجلس شيوخ البندقية سنة 1000هـ/1592م؛ حيث أبدى إعجابه بالحكومة العثمانية ورجالاتها الذين جُنّدوا من أبناء المسيحيين فذكر عن هؤلاء: "إنهم لا يشغلون كل المناصب الحكومية فحسب بل يتولّون قيادة كل جيوش هذه الإمبراطورية العظيمة، بالرغم من أنهم ليسوا من النبلاء بل إنّ أصولهم رعويّة ومن الطبقات المتدنيّة... وهم عبيد السلطان وقد جرت العادة أنّ السلطان يخلق من هذا النوع من الأشخاص أفضل القادة، معطيا إياهم سمعة ومصداقية"¹.

كان قصر السلطان المعروف بالقصر الهمايوني² مدرسة حقيقية لتخريج كفاءات الدولة العسكرية والمدنية، فقد وفّر نظام الدفشمرة الثروة البشرية من شرق أوروبا والأناضول لاحقاً، وتم تطهيرها بالقصر الهمايوني بحيث تحُدّم مصالح الدولة العسكرية والمدنية بكفاءة وامتنياز. كان معظم أولاد النصارى يُجمعون في العصر الذهبي من بين رعايا السلطان الأرثوذكس، وكان أكثرهم لياقة بدنية وعقلية يُتبارون بمثابة إيج أوغلانات - جمع إيج أوغلان أو غلمان البلاط - ثم يُفرض عليهم تدريباً خاصاً في أحد القصور الهمايونية القديمة في بورصة وأدرنه أو في مدارس قصور خاصة في غلطة وفي إستانبول ذاتها، وأخيراً يُسمح لهم بدخول قصر السلطان³ ليترقّوا حسب الكفاءة إلى غاية أن يكونوا في الجناح الخاص للسلطان، ويتم تدريبهم على فنون رجال البلاط وعلى فنون الإدارة والقيادة، لثملاً بخاصة خاصتهم أعلى وظائف الحكومة⁴.

بنية الجهاز الإداري العثماني

بشكل عام فإنّ الجهاز الإداري العثماني الذي يُعتبر السلطان محوره ومصدر شرعيته يتكوّن من ثلاثة أقسام: أهل العلم والشريعة ويرأسهم شيخ الإسلام، وأهل السيف وفئة الكتاب من أهل القلم ويرأسهما الوزير الأعظم، كانت الإدارة المركزية في الدولة العثمانية تترسّم حطّى الدُول الإسلامية السالفة وأُمّودجها المحتذى هو إدارة الخلافة العباسية المتأثرة بالفرس، وفي كل هذه النظم كانت توجد أقسام

¹ - Lybyer: Op.cit, P41.

² .همايون: كلمة تعظيم خاصة لسلطين الدولة العثمانية، ف "هأا" بالفارسية، و"أما" بالتركية تعني طائراً أسطوريا ذا حظ وقدرة اتخذها سلطين الأوغوز الأتراك رمزاً لهم، ومنهم انتقلت للعثمانيين، وقد استعمل مضافاً لمعلقات السلطين فيقال: الذات الهمايوني الطغراء الهمايوني، الجيش الهمايوني. ينظر: صابان: المرجع السابق، ص226.

³ . للتوسع حول المدرسة الإدارية العثمانية التي مثلتها القصور السلطانية ينظر: Hammer: Op.cit, Tom10, PP193-196

⁴ . هاملتون، جب وهارولد باون: المجتمع الإسلامي والغرب، تر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج1، دار المعارف، مصر، 1971 ص82. 83، بتصرف.

رئيسية ثلاثة؛ ففي قمة المثلث نجد الوزير، وفي هرم المثلث نجد كل من النيشانجي والدفتردار¹: الأول يُشرف على كل ما يتصل بالمراسلات وتسجيل الوثائق وإصدار الأوامر واللوائح، والثاني يُشرف على كل ما يتصل باستلام الدخل وإنفاقه وهو بمثابة وزير المالية².

أخذ الجهاز الإداري شكله على عهد محمد الفاتح، وبلغ ذروة اكتماله في عهد سليمان القانوني ونقل ما ذكره لبيبر باعتباره أحد أهم من كتبوا عن النظام الإداري العثماني: مثَّل العثمانيون حكومتهم كخيمة قائمة على أربعة أعمدة³ هي: الوزراء، الدفترداريون، قضاة العسكر، النيشانجيون. ورغم أهمية الأعمدة الأربعة إلا أنّها لم تتحمّل نفس الثقل، وبذلك تفاوتت في أهميتها؛ كان النيشانجي أقلهم شأنًا ومن ناحية أخرى حمل الوزراء العظام من زمن سليمان عبءًا أكبر من أي شخص آخر حتى أنّه يمكن مقارنتهم بالعمود المركزي الذي يحمل الخيمة بأكملها⁴، حتى أنّه بعد عصر سليمان القانوني انتقل مركز الثقل السياسي من السلاطين إلى صدورهم العظام.

بما أنّ تقنين القوانين وضبط المنظومة الإدارية في الدولة العثمانية بدأ مع محمد الفاتح، فإننا نجد في قوانينه تقنينًا لتفويض بعض صلاحياته بالشكل الآتي: "لقد فوضنا إصدار الأحكام تحت طعزائنا الشريفة إلى ثلاث جهات: فالأحكام التي تتعلق بأمور العالم تُكتب إلى العموم بأمر من وزير الأعظم والأحكام التي تتعلق بأمورنا تكتب بأوامر دَفْتَرْدَارِنَا، وأحكام قضايا الشرع الشريف تكتب بأوامر من قضاة عسكرنا"⁵ يُفهم من النص أنّ كلّ الأمور الإدارية والقضائية كانت تحت إشراف السلطان وهو ما سيعمل رجال التنظيمات على تقييده كما سنرى لاحقًا.

ذكر مرادجه دوسون أنه مع ذلك فإن ثمة أمور تكبح سلطة السلطان: "فالسلطان إذ يُباشِر

1 . نيشانجي (Nişancı): هو المكلف بوضع الختم السلطاني على الوثائق الرسمية، يكون عادة من كبار قضاة الدولة، وضمن صلاحياته أنّه المرجع في القوانين القديمة، ومسؤول عن صياغة القوانين الجديدة، وحتى القرن 16 كان يختار من العلماء. ينظر: صابان: المرجع السابق، ص224، بتصرف.

دفتردار (Defterdar): أي ممسك الدفتر، وهي تتكون من كلمتين؛ دفتر بمعنى الدفتر، ودار بمعنى القابض، وهو أكبر منصب للشؤون المالية في الدولة العثمانية، بمثابة وزير المالية. ينظر: المرجع نفسه، ص 113. 114، بتصرف.

2 . هاملتون: المرجع السابق، ص154، بتصرف.

3 . تحدث هامر عن البعد التاريخي والميتافيزيقي للاعتماد على الرقم أربعة في البناء الهرمي الإداري للإمبراطورية العثمانية؛ حملة العرش حسب القرآن هم أربعة [والصحيح أنهم ثمانية]، الرياح الرئيسة التي تجوب العالم أربعة، الأسياد الأربعة الأكثر شهرة الذين يعيرون حياة تأملية أبدية والذين يسمون عند الصوفية بالأوتاد. والخلفاء الراشدين للنبي أربعة، على أساس هذا الرقم أقام محمد الثاني أركان الدولة. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom3, P305.

4 - Lybyer: Op.cit, P163-164.

5 . أكمل الدين: المرجع السابق، ص 150.

سلطته الإدارية بصورة خاصة على أرواح وأموال موظفي الدولة وذلك بمقتضى صفتة الحاكم الأعلى يحقُّ له إنزال العقوبات أو أن يُحاكم بنفسه عمال دولته، أما فيما عدا ذلك فإن الشرع يحُدُّ من إرادته كما تحدُّ منها العادات وتعصبات الأمة"¹.

كما يصرح ألبرت ليبير: كانت الشريعة الإسلامية أكبر قيد أمام استبداد السلطان العثماني، وتعدّ قوانين مقدّسة أعلى من سلطة السلطان؛ قد يتجاوز السلطان أحيانا بنود الشريعة ولكنه لا يتمادى في ذلك لإدراكه بأن ذلك من شأنه أن يفقده عرشه... ويمكن القول أيضا أن حرية السلطان في بعض النواحي كانت تأخذ بالحسبان الشعب العثماني المحافظ جدا والمعتز بترائه². كما يعترف أحد الغربيين المعاصرين بأنّه: في الكيانات السياسية التي نعرفها، لا يُعتبر السلطان العثماني أكثر استبدادية من الحكام المسيحيين، بل ربما يكون أقلهم استبدادا... في أي نظام حكومي يمتدّ ويعمر طويلا في حالة من الازدهار، يمكن الاستقراء بأنه نظام سياسي يضم أشياء حسنة وحكيمة³.

تنقسم الوظائف في الدولة العثمانية مثل وظائف الممالك الأخرى التي سبقتها إلى وظائف عامة ووظائف متعلقة بقصر السلطان "الوظائف الهمايونية"⁴ وتنقسم الوظائف الأولى إلى ثلاث فئات: 1. الوظائف القلمية أو الديوانية. 2. الوظائف السيفية أو الإدارة العليا. 3 - الوظائف العلمية أو وظائف العلوم الشرعية. الصدر الأعظم هو الرئيس الأعلى لموظفي فئة الكتاب من أهل القلم وأهل السيف؛ رئيس موظفي أهل العلم أو العلمية هو المفتي [شيخ الإسلام]. المناصب العامة العليا تخضع للتغيير أو التثبيت السنوي؛ من هؤلاء نجد الوزراء، أمناء سر الدولة، مديرو الدواوين، الوكلاء والمفتشون والمراقبون، والمفتشون وأمناء الخزانة الرئيسيون، والمملاّ الكبار والصغار، والقضاة، والمدرّسون، بينما الموظفون المساعدون مثل: مساعدي مديري الدواوين، والمكلفون بالأمن، والأئمة والخطباء وغيرهم يظنون في مناصبهم⁵.

¹ - دوسون: المصدر السابق، ص68.

² - Lybyer : Op.cit, P26-28.

³ - Porter .M : **Observations Sur La Religion, Les Loix, Le Gouvernement Et Les Moeurs Des Turcs**, Traduites De L'Anglois Par M. Britaunique, Vol 1, Dépends De La Société Typo-Graphique, Neuchatel.1770, P131.

⁴. يُقصد بالوظائف الهمايونية تلك الخاصة بـ "السراي" [قصر السلطان] والتي على الرغم من أهميتها في الدول الشرقية مقارنة بالممالك الأوروبية إلا أنّها لا تتمتع بأي تأثير قانوني على الإدارة؛ التأثير غير القانوني الذي تمنحه المحابة أو المؤامرات دائما لموظفي السراي لا يمكن أن يؤخذ في الاعتبار هنا. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom 17, 1841, P38. الملحق (03) نُظّم السراي العثماني خلال القرنين الـ 17 و 18م. ص609.

⁵ - Ibid, P38-39.

بالنسبة للجهاز الإداري العثماني فتنظيماً يتصدره في مركز الدولة الديوان الهمايوني¹ والأقلام أو الإدارات التابعة له بشكل مباشر أو غير مباشر، حيث يقوم أركان الديوان وهم الوزير الأعظم والوزراء وقضاة العسكر والدفترديون والتوقيعي أو النيشانجي في اجتماعات الديوان نفسه أو في الاجتماعات التي يعقدونها في دواوينهم الخاصة بعد الظهر غالباً بالتنسيق مع الديوان الهمايوني، فيتناولون كافة المسائل الإدارية والقضائية والسياسية والاقتصادية المتعلقة بالأمر داخل البلاد أو بالعلاقات الدولية ويقررون الإجراءات التي يجب أن تتخذ في كل شأن بعد رفعها للسلطان وتصديقه عليها².

بالنسبة للوزارة التي يعرفها صاحب المقدمة بقوله: "هي أمُّ الحُطَط السلطانية والرُّتَب الملوكية لأنَّ اسمها يدل على مطلق الإعانة"³ ذلك "...لأنَّ مَا وَكَّلَ إِلَى الْإِمَامِ مِنْ تَدْبِيرِ الْأُمَّةِ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَةِ جَمِيعِهِ إِلَّا بِاسْتِنَابَةٍ، وَنِيَابَةِ الْوَزِيرِ الْمُشَارِكِ لَهُ فِي التَّدْبِيرِ أَصَحُّ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ مِنْ تَقَرُّدِهِ بِهَا؛ لَيْسَتْ تَطَهَّرَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَبِهَا يَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الزَّلَلِ وَأَمْنَعَ مِنَ الْخَلَلِ"⁴ فقد كان لتلك الوزارة شأن مهم وخطير عبر كل مراحل التاريخ الإسلامي لدرجة أنَّ الكثير من الوزراء الكبار كانوا سلاطين بغير تاج.

في الدولة العثمانية مثل غيرها من الدول الإسلامية كان لمنصب الوزير الكبير شأن عظيم سيما في عصر السلاطين الضعاف بعد سليمان القانوني، وبما أن منصب الوزير الكبير هو المنوط بصاحبه تولى زمام الأمور نيابة عن السلطان باعتباره وكيله المطلق، وهو رأس النظام الإداري العثماني، كما أنه من خلال هذا المنصب الجليل حاول المصلحون وفي القلب منهم فحة الكتاب من أهل القلم - كما سنرى - إحداث تغييرات جذرية في الدولة العثمانية، من أجل ذلك نتحدث بشي من التفصيل عن هذا المنصب الإداري الخطير.

1. الديوان الهمايوني هيئة عرفت من أيام عمر بن الخطاب وتطور عبر التاريخ الإسلامي، والديوان الهمايوني أو السلطاني كان مخولاً بأعلى السلطات في النظام الإداري العثماني، اتضح شكله المؤسسي مع السلطان أورخان وظل في تطوّر حتى اكتمل بناؤه التنظيمي والبروتوكولي على يد السلطان محمد الفاتح، وابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي أخذ الديوان الهمايوني يفقد أهميته لحساب الباب العالي مقر الصدر الأعظم، مع ذلك ظل مستمراً حتى نهاية الدولة العثمانية. ينظر: أكمل الدين: المرجع السابق، ج 1 ص 170-171، بتصرف. ينظر: الملحق (04) مخطّط المؤسسة الحاكمة في الدولة العثمانية. ص 610.

2. أكمل الدين: المرجع السابق، ص 169.

3. ابن خلدون: المصدر السابق، ص 294.

4. الماوردي: المصدر السابق، ص 50.

تطورت الوزارة مع تطور الدولة العثمانية، ويذكر أنّ أورخان أوّل من اتخذ وزيراً له¹ وإن لم يسمّى وزيراً؛ فقد ذكر مرادجه دوسون أنّ الوزراء في بدايات الدولة كانوا يسمون فقط وكلاء²، وتبعاً لما ذكره فإن اسم الوزير برز لأوّل مرة في عهد مراد الأول؛ فقد أعطى مراد الأول سنة 771هـ/1370م، لقب وزير لأوّل مرة للجندي قره خليل³ - يصنف قره خليل ضمن طبقة العلماء - ثم تطوّر الاسم حسب دوسون، حين منح مراد الأول ابن الجندي منصب الوزارة خلفاً لأبيه بلقب الوزير الأعظم سنة 787هـ/1386م⁴. وازداد عدد الوزراء بعد ذلك بحسب زيادة حجم الدولة وكثرة أعبائها.

بمجيئ محمد الفاتح حدث تحوّل مهم للغاية في منصب الوزارة؛ إذ أصبح عدد الوزراء في عهده أربعة؛ يعلّل جوزاف فون هامر (josef von hammer-purgstall)⁵ ذلك في جذور الفكر السياسي الشرقي فقال: في البداية لم يكن ثمة غير وزير واحد، ثم ازدادوا اثنين فثلاثة، ليجعلهم محمد الثاني أربعة. يتمتع الوزير الأعظم من بينهم بالسلطة العليا ودون رقيب، إنه ممثّل السلطان، الرئيس

1. يحدثنا فون هامر أنّ علاء الدين شقيق أورخان حين رفض تقاسم المملكة مع أخيه، عيّنه أورخان وزيراً له، فوافق علاء الدين وتقاسم مع أخيه أعباء مسؤوليات الإمبراطورية كهارون وموسى كما يعتقد الشرقيون. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom1, P110.

2. ويؤكّد مؤلفاً كتاب المجتمع الإسلامي والغرب ما ذكره دوسون سابقاً من أنّه "... في عهد السلاطين الأوّل لم يكن أكبر وزراءهم يُسمّى وزيراً بل برؤانته أو برؤانته جي - وهي كلمة فارسية تعني قائداً أو مفتشاً - وهو اصطلاح أخذه العثمانيون من سلاجقة قونية" ينظر: هاملتون: المرجع السابق، ص156.

3. الجندي قره خليل: المولى العالم الفاضل مؤلّناً خليل الجندي المشتهر بين الناس بجندي لوقره خليل كان رحمه الله من طلبه المولى علاء الدين الاسود وكان هو أول قاض من قضاة العسكر، زمن أورخان خان. ومن نسله خليل باشا وزير السلطان مراد خان والسلطان محمد خان... ولما جلس السلطان مراد الأول على سرير السلطنة جعله قاضياً بالعسكر ثم جعله وزيراً وأميراً الامراء ولقب نجم الدين باشا. ينظر: طاشكيري زاده (ت968هـ): الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1975 ص10 بتصرف. لم يذكر له تاريخ ميلاد ولا تاريخ وفاة، ولكن ربما تكون وفاته سنة 787هـ/1386م، وهي السنة التي من المحتمل أن ولده استخلف فيها بدلا عنه.

4. دوسون: المصدر السابق، ص69.

5. هامر، جوزاف فون هامر (josef von hammer-purgstall): مستشرق نمساوي، ولد سنة 1774م بالنمسا، انتسب إلى الأكاديمية الشرقية بالنمسا سنة 1788، حيث تعلم العربية والفارسية والتركية، شغل عدة مناصب حكومية، كسكرتير للخارجية ثم مترجماً لفتنصل بلاده في إستانبول، وعمل بمصر سنة 1800، أصبح سنة 1807م مستشاراً وترجماناً للبلاط الإمبراطوري النمساوي حتى سنة 1836م عين رئيساً للأكاديمية فيينا سنة 1837م لكنه تخلى عن رئاستها بعد سنتين، توفي في فيينا سنة 1856، ترك مؤلفات كثيرة جداً تزيد عن المائة مجلد وما يخص منها التاريخ، نظام الحكم وإدارة الدولة في الإمبراطورية العثمانية وتاريخ الإمبراطورية العثمانية في عشر مجلدات. ينظر: بدوي، عبد الرحمن: موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت 1993، ص 615613. تعتبر موسوعته الضخمة " تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا " 18 مجلد، أحد أهم مصادر التاريخ العثماني.

الأعلى لجميع المصالح الإدارية، واسطة عقد الحكومة والميسّر لجميع القطاعات. دائما في الشرق سلطة الأمير الذي هو ظلّ الله في الأرض يحكّم من خلال وزيره الأول... فهم أي الوزراء الأوائل ممثلو السلطان بين الشعوب، أما الأمراء فينسحبون إلى متعهم الملكية¹. ومن المتعارف عليه أنّ انسحاب السلاطين إلى المتع الملكية بدأ مع سليم الثاني وبدأ مع الأخير عصر السلاطين الضعاف، وعصر الصدور العظام غير المتوجين.

أصبحت المنظومة الإدارية العثمانية مع محمد الفاتح بما فيها المناصب العليا بيد عبيد ومماليك الدولة الذين يوفّروهم نظام الدفشمرة، بحيث يتم تدريبهم بشكل جيد ودقيق في القصر السلطاني الذي اعتبر بمثابة مدرسة إدارية حقيقية لتخريج رجال دولة أكفاء، وكانت هذه المدرسة الهمايونية مقسمة إلى قسمين هما الأندرون (Enderûn) وهو القسم الداخلي لقصر طوب قايي (Topkapı Sarayı)² وفيه يتم إعداد الإداريين المهرة لمختلف دوائر المؤسسة الحاكمة ويرتقون إلى أعلى المناصب، والبيرون (Birun) وهو القسم الخارجي لقصر طوب قايي³.

ضمن السلطان محمد الفاتح لنفسه بتكريس توظيف عبيده ومماليكه في مفاصل النظام الإداري العثماني⁴ تطوير النظام المركزي الذي سعى له من قبل جدّه بايزيد الأول، وحمى السلطة من بروز أَسْر

¹ - Hammer: Op.cit, tom3, P305.

². طوب قايي: الباب العالي، قصر ضخّم يطل على القرن الذهبي ومضيق البوسفور وبحر مرمرية، له ثلاث ساحات ضخمة يدخل إليها عبر بوابات ضخمة، بناه محمد الفاتح سنة 1468، ليصبح المركز الإداري والتعليمي للإمبراطورية. ينظر: أكمل الدين: المرجع السابق ج2، ص701-702.

³. الأندرون: قسم أطلق على القسم الداخلي من قصر طوب قايي؛ يبدأ من باب السعادة إلى الباب المؤدي إلى الحرم السلطاني وهو يمثّل الخدمات الداخلية للقصر، والعاملين فيه ينتقون بدقة وفق نظام الدفشمرة، وهو بمثابة كلية إدارية، ينشأ فيها الإداريون لمختلف دوائر المؤسسة الحاكمة، ويصلون إلى أعلى المناصب، وقد حُرّم عليهم الزواج ما داموا بالقصر، ولا يخرجون إلا بإذن خاص ينظر: صابان: المرجع السابق، ص 40، بتصرف. أما البيرون: وهو القسم الخارجي للقصر، يبدأ من الباب الهمايوني إلى باب السعادة، ويمثّل التشكيلات الإدارية للقصر أيضا، غير أنه يمثّل الخدمات الخارجية لقصر السلطان طوب قايي، وهو ستة أقسام: قسم العلماء، قسم الأمراء أي حكام الولايات، قسم آغاوات الركاب، قسم المتفرقون وهم مكلفون بمرافقة السلطان والشخصيات المرموقة قسم البلطجية المكلفون بالخدمات العامة بالقصر كالإطفاء وغيرها، قسم الخدمات المتفرقة الأخرى. ينظر: المرجع نفسه، ص69، بتصرف.

⁴. قبل محمد الفاتح كان منصب الصدر الأعظم أو الوزير الأعظم يتولاه الأحرار لا العبيد، وكان أولئك الأحرار ينتمون غالبا إلى طبقة العلماء، وتعطى تبريرات كثيرة للأسباب التي دفعت محمد الفاتح إلى استعمال عبيده ومماليكه في المناصب العليا سيما منصب خطير كمنصب الصدر الأعظم: يحدّثنا مرادجه دوسون عن السبب الذي جعل محمد الفاتح يسند الوزارة إلى مماليكه بأنّه بعد الاستيلاء على القسطنطينية قام السلطان محمد الثاني بسجن وزيره الأعظم خليل باشا - رابع وزير من عائلة جندرلي الذين ظلّ هذا المنصب فيهم دون انقطاع حتى عهد محمد الثاني وكانوا أحرارا من العلماء - بتهمة التآمر مع العدو البيزنطي، ثمّ قام =

تركمانية قوية حاكمة، إلى جانب أنّ اعتماد إسناد الوظائف الإدارية والسياسية والعسكرية لمماليك السلطان على أساس نظام الدفترمة مثل عنصر توازن في الدولة؛ كَوْن فتوحات الدولة في أوروبا - قبل الفتوح الآسيوية في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي - جعلت نسبة غير المسلمين إلى المسلمين عالية جدا، ومن هنا كان من شأن نظام الدفترمة أن يُحدِث التوازن؛ فهو من جهة يوفر للسلطين الحماية من أن يطيح بهم أبناء الأُس العشائرية القوية ومن جهة أخرى يضمن لغير المسلمين من هؤلاء الرعايا مكانا في جهاز الدولة يتناسب مع كثرتهم، وهكذا انحصر وجود المسلمين الأحرار تقريبا في المؤسسة الدينية مؤسسة شيخ الإسلام.

أما صلاحيات كبير الوزراء أو الصدر الأعظم فقد كانت قبل محمد الفاتح غير محدّدة بدقّة وفي كثير من الأحيان كانت وظيفته استشارية فقط، ومع محمد الفاتح وُضِع قانون يحدّد لأول مرة صلاحيات الوزير الأعظم وغيره من موظفي الدولة؛ ضمن الباب الأول المعنون بـ " في بيان مراتب الأكابر والأعيان " وبدأ فيه بتحديد صفة الوزير الأعظم هكذا " أُعْلِم أنّ الوزير الأعظم: هو رئيس الوزراء والأمراء، وأجلُّهم قدرا وأرفعهم مقاما وهو الوكيل المطلق للسلطان، الذي يتصدّر في الجلوس والقيام، ويتقدّم على الجميع"¹.

بهذا صارت صلاحيات الصدر الأعظم واسعة جدا باعتباره ينوب عن السلطان في كل صغيرة وكبيرة من حيث كونه وكيل السلطان المطلق. قال ألبرت ليبير معلقا على الامتيازات الكبيرة للصدر الأعظم: كان منصب الوزير الأعظم مغريا بكل تلك الامتيازات ولكنه صاحبه كما في خطر عظيم حين لا يكون موضع رضا؛ 200 ممن تولوا هذا المنصب خلال 500 عام عشرون منهم أعدموا². أضفى محمد الفاتح على منصب الوزارة العظمى هالة عظيمة، يتضح ذلك من خلال الألقاب

بإعدامه كانت المرة الأولى التي يُعدّم فيها مسؤول بهذا الحجم في الدولة العثمانية، ويعلق دوسون على الحادثة قائله: رأى السلطان محمد الثاني سوء عاقبة تَمركز السلطة كلّها بيد وزير واحد، فأمر بإزالة هذا المنصب العالي ولكنّه لم يتركه شاغرا سوى ثمانية أشهر. ينظر: دوسون: المصدر السابق ص69. بينما نجد تبريرا آخر يذكره المؤرخ العثماني طاشكيري زاده في شقائقه بإيراده للقصة التالية: فقد عرّض السلطان محمد الفاتح الوزارة على معلّمه العالم الكبير المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني " ... فلم يقبل وقال: إنّ من في بابك من الخُدّام والعبيد إنّما يخدمونك لأن ينالوا الوزارة آخر الأمر، وإذا كان الوزير من غيرهم تنحرف قلوبهم عنك فيختل أمر سلطنتك. فاستحسنه السلطان محمد خان وعرض له قضاء العسكر قبله" ينظر: طاشكيري زاده: المصدر السابق، ص 52. ولعلّه عرض عليه الأمر حين تخلّص من خليل باشا ثم هداه رأي معلّمه الكوراني إلى استخدام مماليكه.

¹ خليل ساحلي أوغلي: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا)، إستانبول، 2000، ص533.

² Lybyer: Op.cit, P167.

التي نصَّ قانونه بأن تُسند إلى الوزير الأعظم: " يُكْتَب للوزير الأعظم من الألقاب: الوزير الأعظم الدستور الأكرم، والمشير الأفخم، نظام العالم، ناظم منازم الأمم، أنيس الدولة القاهرة، جليس السلطنة الزاهرة مُدبّر أمور الجمهور بالرأي الصائب، مُتَمّم مَهَام الأنام بالفكر الثاقب، مؤسس بُيَان الدولة والإقبال مخصّص أركان السلطنة والإجلال، المحفوف بضئوف عَوَاطِف الملك الأعلى، الوزير الأعظم أدام الله إجلاله"¹. ألقاب تدلّ على فخامة المنصب وسطوته وقوة الدولة التي يخدمها.

مع ذلك فإنّ الصّلاحيات الواسعة التي أعطيت للوزير الأعظم وُضِعَت في كَفّة توازن مُحكّم بينه وبين الدفتردار - وزير المالية - وقاضي العسكر² ثم أصبح الوزير الأعظم في عهد سليمان القانوني يسمى بالصدر الأعظم اعتمادا على الثقافة الفارسية³ التي تشبّع بها العثمانيون، والتي تجعل موظفي الدولة كما لو كانوا أعضاءا من جسد الحاكم. وظل اسم الصدر الأعظم لصيقا بالوزير الأوّل إلى نهاية الدولة العثمانية تقريبا.

بداية من مطلع القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي وفي عهد أحمد الثالث أصبح السلطان يُعيّن في منصب الصدارة أحد هؤلاء: حاكم إحدى الأيالات أو أحد كبار موظفي العاصمة: أمير البحر، رئيس بيت المال، الكيخيا بك⁴، آغا الإنكشارية السلاحدار آغا⁵، ونادرا ما يختار

¹ . خليل ساحلي أوغلي: المرجع السابق، ص546 . 547.

² - Stanford Shaw: **Empire of the Gazis, The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808**, Tom1, 1Edt, Press Syndicate of the University of Cambridge, Cambridge 1976, P58.

³ . اعتقد استنادا إلى ما ذكره فون هامر أنّ سليمان القانوني استعان بالتراث الفارسي الذي يضرب بجذوره عميقا في الثقافة العثمانية فحين شرح فون هامر لفظة الباشا قال: الباشا كلمة فارسية مكونة من مقطعين: با، وشاه، وتعني قدم الشاه، وهي ترجمة لغرف قديم لقورش ... هذا العاهل نظّر لموظفي مملكته كأجزاء محدّدة في جسده؛ فمثلا: الموظفون المكلفون بالإدارة الداخلية هم عيونهم، رجال الشرطة آذانه، جُباة الضرائب يده، الجنود أقدامه، القضاة لسانه، أخيرا الحواس استخدمت للدلالة على المناصب العليا في الدولة كوزراء الداخلية والشرطة والمالية والحرب والقضاء فالباشا ما هو إلّا رمز لهذه الهيئات المستعارة، رمز لا يجانب الصواب، لأن الباشاوات ... كالوزراء و القادة، هم فعلا أرجل الحاكم. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom1, P212-211. والصدّر هو المقدم على الجميع فناسب أن يسمّى به الوزير الأعظم.

⁴ . كيخيا: أو كتخدا ومعناها صاحب البيت، كلمة فارسية الأصل، متعددة الاستخدام، وتستعمل على من يعمل نائباً أو قائما بأعمال رجال الدولة أو الوزراء. ينظر: صابان: المرجع السابق، ص188.

⁵ . سلاحدار آغا: مدير موظفي الغرفة الخاصة للسلطان، كان يحمل سيف السلطان على كتفه في المراسم الخاصة، ويمشي وراءه ينظر: المرجع نفسه، ص134.

من أقل¹ مرتبة من هؤلاء². لكن كما سنرى لاحقاً أنّ هذا المنصب الكبير والخطير أصبح ألمع وأكثر أهله نفوذاً وتأثيراً بداية من النصف الأوّل من القرن نفسه هم من ينتمون لطبقة فئة الكتاب من أهل القلم.

كثرة مهام وصلاحيات الصدر الأعظم اقتضت أن يكون له أعوان كُثُر، لذلك الصّدارة العظمى مؤسّسة حقيقية تتكون من أقسام ثلاثة تُمثّل في مجموعها دائرة الصّدور الأعظم: وعلى رأس تلك الأقسام: 1. الكيخيا أو الكتخده بك، 2. الرئيس أفندي 3. الشاويش باشي (çavuşbaşı)³؛ الكيخيا بك: هو نائب الصّدور الأعظم يتولّى خاصّة الشؤون الدّاخليّة والعسكريّة ويحمل رتبة باشا بأطواغ⁴ ثلاثة الرئيس أفندي (رئيس الكتاب): هو بمثابة وزير الخارجية، وأمين سر الدولة والمهردار (أي حامل خاتم

1 . يذكر هامر في تاريخه مثالا نادرا لأقل من الرتب التي ذكرها دوسون: بعد العار الذي سبقه إلى العاصمة إثر هزيمته وانسحابه من البغدان كان على الصدر الأعظم سنان باشا أن يستقيل، ويعود إلى منفاه، ويعهد بخاتم الإمبراطورية إلى مدير السراي لالا محمد ابن أحد زعماء صاروخان . في 16 ربيع الأول 1004هـ/19 نوفمبر 1595م. عُيّن مكانه شاويش . هذا الرجل كان في شبابه كاتباً في مكة رفع في عهد مراد الثالث إلى رتبة الدفتردار بتدخل من زوجته مرضعة محمد الثالث، لم يصل في التاريخ العثماني إلى وقت هامر من ضمن مائتين صدر أعظم إلى هذه المرتبة من هو أدنى رتبة إدارية من هذا الشاويش؛ في اثنا عشرة سنة ترقى من مرتبة شاويش إلى الصّدارة العظمى - غير أنه توفي ثلاثة أيام بعد تعيينه فاعتبر موته إشارة سماوية بضرورة إرجاع سنان باشا، صاحب الثمانون عاما ينظر: Hammer: Op.cit ,Tom 7, P311 .

2 . دوسون: المصدر السابق، ص70.

3 . أصلها جاويش أو شاويش وهي تدل على الرسول أو الشخص المكلف بإذاعة أمر السلطان، وكان قدما كالحرس أو الحاجب عند الحكام. بركات مصطفى: الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) 1517-1924م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر 2000، ص188-189، بتصرف. وكلمة باش تعني الرئيس، قال عنه المؤرخ الشهير مرادجه دوسون: يجمع شاويش باشي وظائف مختلفة: فهو نائب رئيس في مجلس عدل الصدر الأعظم، ووزير الأمن العام المكلف بإدخال السفراء إلى السراي، مشير البلاط ورئيس فرقة من الجنود الإقطاعيين. فبصفته نائب الرئيس، يتلقى الشكاوى في الشؤون المدنية والجنايئة ويعقد مجلسا بذلك الخصوص قبل مجلس الباب العالي. يكون على معرفة أولية بجميع القضايا التي يجب عرضها على الصدر الأعظم ذلك اليوم، ويقدم بشأنها ملخصاً بالإجراءات المناسبة سواء بأن يقرر فيها الصدر الأعظم أو تُحال إلى المحكمة المختصة. تحت إمرته 630 محضر يعملون بالمحاكم وكوزير للأمن العام، فإنه ينفذ أحكام القضاة وأوامر الصدر الأعظم، وكحاجب للسفراء، يقوم باستقبالهم في المكان الذي ينزلون فيه، ويرافقهم بالسير على يمينهم إلى السراي أو مقر الصدر الأعظم، يمارس مهام مشير البلاط في السراي في أيام الديوان الهمايوني وفي الاحتفالات الكبرى بالاشتراك مع "كابودجي كهيا سي" أو رئيس حُجّاب القصر. أخيراً كان يقود كتيبة مؤلفة من 200 جندي، وظيفتهم إيصال الأوامر والمراسيم إلى المقاطعات. ينظر: d'Ohsson: Op.cit, Vol 7,1824, P167-168.

4 . طوغ (Tuğ): ذؤابة من وبر الخيول، تعلق على العمامة التي يلبسها أركان الدولة، وهي علامة مميزة لهم حسب مكانتهم. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص149. وربما اتخذ ذؤابة من وبر الحصان إشارة إلى العلاقة القديمة بين الأتراك والخيول، سيما أن الأتراك كانوا منذ القدم محاربين خيالة. ينظر: يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ص373.

السلطان)؛ فكأمين سر الدولة يدون التلخيصات والتقارير التي يرسلها الصدر للسلطان وكمهردار فهو رئيس دائرة الديوان السلطاني المسمى ديوان همايون قلمي¹. وللرئيس أفندي ثلاثة رؤساء مساعدين وهم: ترجمان الباب العالي، الأمدجي، البيلكجي² أخيرا الشاويش باشي: وهو يقوم بعدة وظائف مختلفة؛ فهو نائب الرئيس في مجلس عدل الصدر الأعظم ووزير الأمن العام، وهو الذي يدخل سفراء الدول الأجنبية إلى السراي وهو مشير البلاط، ورئيس فرقة من الجنود الإقطاعيين³.

قبل سنة 1064هـ/1654م كان الصدور العظام يقومون بمهامهم في قصر السلطان ومنذ السنة المذكورة أصبح مقرهم الرسمي بالقرب من السراي ويدعى (باب الباشا (باشا قبوسي)) ومنه اشتقت كلمة الباب العالي⁴؛ فقد أهدى السلطان محمد الرابع صدره الأعظم قصرا رسميا سنة 1064هـ/1654م ليصبح مسكنا ومقرا رسميا للصدور العظام، وديوانا عاما تُمارس فيه السلطة الفعلية ويقوم فيه كبار الموظفين بتصريف كل مهامهم باستثناء المالية. وهكذا أصبح الباب العالي رمزا لانتقال الزعامة في العصور المتأخرة من السلاطين إلى الصدور العظام⁵.

تطرقتنا إلى أهم صلاحيات الوزراء الثلاثة التابعين للصدر الأعظم، بقي أن نعرف حسب مرادجه

1. ديوان همايون قلمي ينقسم بدوره إلى ثلاثة مكاتب هي: مكتب البايك: - والبايالك أملاك يعين ريعها لدفع معاشات الإنكشارية المتقاعدين - وهو مستودع أوراق القوانين المدنية والعسكرية والمعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية، وعنه تصدر كل المراسيم والفرمانات ما خلا ما يتعلق بالمالية. مكتب التحويل: وتحرر فيه براءات حكام الولايات وتقارير جماعة الملا أو قضاة مدن الدرجة الأولى وتقارير الاقطاعات العسكرية. مكتب الرؤوس: وفيه ترسل تقارير رؤساء وكتاب كل الدوائر ورؤساء القبوجي باشي، وأساتذة المدارس الحكومية والعلماء والمشرفون على الأوقاف. وتضم المكاتب الثلاثة 150 موظفا. ولكل مكتب رئيس، وفي المكتب الأول ثلاثة كتاب رئيسيين، يدعى الأول القانوني وظيفته استخلاص القانون من كتاب القوانين العامة يوافق المسألة التي سأل عنها الرئيس أفندي، والثاني يدعى قلمجي: يقوم بكتابة تقارير دائرته، والثالث هو المصحح ووظيفته تصحيح الأوراق المدونة. ينظر: دوسون: المصدر السابق، ص 73. بتصرف

2. ترجمان الباب العالي دوره ترجمة مراسلات سفراء الدول الأجنبية، وترجمة أقوالهم لدى حضورهم للسلطان أو الصدر الأعظم وله دور كبير في توجيه شؤون السياسة الخارجية باعتباره ملما بشؤون الحكومات الأوروبية، فيما مضى كان يتولى هذا المنصب المرتدين، ولكنه منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر أصبح هذا المنصب حكرا على يونانيين القسطنطينية، أما الأمدجي فدوره بصفة خاصة تبيض تقارير ومذكرات الصدر الأعظم المرسلة للسلطان، كما يشرف على جباية ضرائب أصحاب الاقطاعات العسكرية التي يدفعها هؤلاء للرئيس أفندي، فإذا دفعوا يكتب الأمدجي على ورقة الجباية عبارة (أمداد) وهي كلمة فارسية بمعنى استلم ومنها سمي أمدجي، أما البيلكجي، فهو يدير أعمال المكاتب الثلاثة التابعة لدائرة الرئيس أفندي. ينظر: المصدر نفسه ص 75. 76. بتصرف.

3. المصدر نفسه، ص 72 - 76، بتصرف.

4. المصدر نفسه، ص 72، بتصرف.

5. هاملتون: المرجع السابق، ص 162، بتصرف.

دهسون أنّ أولئك الوزراء كان يعمل تحت إشرافهم أمناء سر الدولة الست وغيرهم من موظفي الصدارة العظمى؛ وأمناء سر الدولة الست هم: 1. التذكري الكبير "بيوك تذكري" وهو ناظر الدولة الأول المخوّل بالنظر في العرائض والالتماسات 2. التذكري الصغير "كوتشوك تذكري" وهو ناظر الدولة الثاني المكلف أيضا بالنظر في العرائض والالتماسات. يقفان أيام انعقاد الديوان إلى جنب الصدر الأعظم ويقروّون العرائض والالتماسات المقدّمة إليه بالتناوب، ويسجّلان قراراته بخصوصها. ويؤديان نفس الوظيفة مع شاويش باشي، الذين يقضون معه جزءاً كبيراً من اليوم، ويجرران أوامر الصدر الأعظم المرسلة إلى مختلف المصالح بالعاصمة. 3. السكرتير الأول للصدر الأعظم "مكتوبجي"، يحتفظ بالمراسلات العامة للصدر الأعظم تحت إشراف الكاهيا باي. ويتألّف مكتبه من ثلاثين كاتباً، ومناصب هؤلاء مرغوبة بسبب الترقية. 4. مسؤول التشريفات "تشريفاتجي" وهو المسؤول عن الاحتفالات والمراسيم، ويحتفظ بسجلات احتفالات البلاط والامتيازات المتعلقة بكافة موظفي الدولة، ولديه مساعدين كثر. 5. نائب المستشار "بيلقدجي"، وهو رئيس المكاتب الثلاثة التي تشكل المستشارية الهمايونية. 6. السكرتير الأول للكاهيا "الكاهيا كاتي"، وهو المسؤول عن مراسلاته، بالإضافة إلى تحصيل الحقوق التي تعود إلى هذا الوزير وإلى الصدر الأعظم، ولديه تحت إمرته من عشرين إلى خمسة وعشرين كاتباً¹.

هؤلاء أمناء سر الدولة الستة ووزراء الدولة الثلاثة هم المسؤولون الوحيدون في هذه الدائرة التي تكون مناصبهم سنوية ويعيّنون من طرف السلطان بعد مشاورة الصدر الأعظم. تم تصنيفهم تحت الاسم الجماعي "كبو رجالي" أو رجال الباب العالي، كانوا في السابق الأمناء الخاصين للصدر الأعظم على قدم المساواة مع أولئك الذين ارتبطوا بألقاب مماثلة لخدمة حكام المقاطعات، ولكن عندما تم إلغاء وزراء القبة، تم وضعهم نهائياً في فئة الموظفين العموميين².

للصدارة العظمى إلى جانب ذلك مئات الموظفين الأقل شأنًا يؤدون واجباتهم المحددة قانوناً، جميع هؤلاء الموظفين لديهم مكاتبهم في مقر الصدر الأعظم، حيث يشغلون الطابقيين الأول والأرضي أما الطابق الثاني فهو مخصص للصدر الأعظم وحرمة وخدمه وحاشيته. لذلك فإنّ مقر الصدارة يعج بالكثير من الناس، وبما أنه المقر المركزي للحكومة، يرى المرء باستمرار تدفقاً كبيراً للموظفين من جميع الفئات، الذين يأتون إلى هناك للعمل أو لتقديم واجباتهم للوزراء. من هذا العدد نجد وكلاء الإدارات

¹ - Ibid, P169-170.

² - Ibid, P170.

المختلفة، كبار موظفي قصر السلطان وحكام المقاطعات بالإضافة إلى مترجمي البعثات الأجنبية¹. يجب أن يمر أي عمل مهما كان على أحد وزراء الدولة الثلاثة، باعتبارهم المسؤولين الوحيدون الذين يعملون مباشرة مع الصدر الأعظم؛ إنهم يرونه كل صباح لإبلاغه بمختلف القضايا وتلقي أوامره ولا يقابلونه بقيّة النهار إلا للضرورة، لكن لكل منهم سكرتير² يرسله إلى الصدر الأعظم لاستلام أو لاطلاعه على بعض الأمور الأقل أهمية³. هذه التراتبية والمهرمية الصارمة تضمن مركزية الإدارة والتحكم في مخرجاتها.

يجب أن يلتزم جميع العاملين في الباب العالي بالحضور يوميا من شروق الشمس إلى قبل غروبها بساعة؛ ولا يمكنهم الانصراف دون الحصول على إذن صريح من الصدر الأعظم؛ يقدم أحد موظفيه نفسه عند باب مكتب كل من وزراء الدولة، ويقول بصوت عالٍ وهو ينحني احتراما: "الإذن" أي طلب الاذن بالانصراف، حينها يركبون خيولهم وينصرفوا. ولا توجد عطل إلا في أيام الأعياد⁴ وهو أمر شاق لا يتناسب مع ما هو في عصرنا من حقوق العمال وتحديد ساعات العمل!!

حتى الوزراء والأمناء يجب أن يقضوا صباح هذه الأيام في مكاتبهم، وحتى الكاهيا باي لا يمكنه مغادرة الباب العالي؛ لأنه في حالة غياب الصدر الأعظم يجب أن يحل محله في حالة الحاجة، ويسهر على الحفاظ على أمن العاصمة. عادة ما يتناول كل من الرئيس أفندي والشاويش باشي والتذكرجيا العشاء مع الصدر الأعظم؛ لكن يوم الأربعاء يوم الديوان يتنازلون عن أماكنهم لقضاة العاصمة الأربعة ويوم الجمعة يتم أيضًا استبدال التذكرجيا على طاولة الصدر الأعظم بـ "قاضييا العسكر" اللذين يحضران الديوان، ويقدم دائما الطعام للكاهيا باي من مطبخ الصدر الأعظم، ويحضر مائدته كل من المكتوبجي والتشريفاتجي، كما يدعو الموظفين ذوو المكانة للغداء معه، أما بقية الموظفين فيُجلب لهم طعامهم من بيوتهم. يمكن الوصول إلى الوزراء وأمناء سر الدولة وغيرهم من المسؤولين دائما، ويستقبلون جميع الناس دون تمييز⁵، مما يدل على انفتاح الباب العالي على الرعيّة.

الإصلاحات في المنظومة الإدارية العثمانية

يعتبر أهم إصلاح في المنظومة الإدارية العثمانية ذلك الذي قام به السلطان محمود الثاني الذي

¹ - Ibid, P174.

² - يسمى سكرتير الكاهيا بك بـ "كارا كولاك"، أما سكرتير الرئيس أفندي والشاويش باشي فيدعى "الكيسيدار"، وهما مكلفان

بتحصيل الرسوم المستحقة لصالح رئيسيهما. ينظر: Ibid, P175.

³ - Ibid, P174-175.

⁴ - Ibid, P175.

⁵ - Ibid, P176.

أنشأ المدارس على الطراز الأوروبي، وأرسل الطلاب إلى أوروبا ابتداء من سنة 1242هـ/1827م كان يهدف الطريق لنخبة إصلاحية مدنية وعسكرية، كما قام محمود الثاني كجزء من سياسته المركزية بإجراء تغييرات جادة في هيكل الحكومة المركزية، أعاد بشكل أساسي تنظيم فئة الكتاب والإداريين في القصر وفي الباب العالي؛ فنتيجة للحاجة المتزايدة للتخصص قام بتقسيم الحكومة المركزية إلى وزارات من حيث تم تحويل العديد من المؤسسات القديمة إلى وزارات؛ فمثلاً مؤسسة الكهيا باي "نائب الصدر الأعظم" أصبحت نظارة الداخلية "وزارة الداخلية"، وفي سنة 1252هـ/1836م أصبح مؤسسة رئاسة الكتاب وزارة للخارجية، إلى جانب ذلك تم إنشاء نظارة العدل "وزارة العدل"، ونظارة الأمور المالية "وزارة المالية". أخيراً سنة 1254هـ/1838م لم يعد الصدر الأعظم هو الوكيل المطلق للسلطان كما كان، ولكن تحول لقبه إلى "رئيس الوزراء" (Baş Vekil)¹ جرياً مع التقاليد والأعراف السياسية المعمول بها أوروبا، فكانت تلك من محمود الثاني أول محاولات "أوربة" الإدارة العثمانية.

تشكّل بذلك مجلس للوزراء مؤلف من الوزراء ويقوده رئيس الوزراء لمناقشة المسائل التنفيذية للحكومة، من أجل النظر في كل اقتراح بالتفصيل تم إنشاء ثلاثة مجالس سنة 1254هـ/1838م بناء على توصية من رئيس الكتاب: مجلس ولاية الأحكام العدلية (Meclis-i Vâlâ-yi Abkâm-ı) (Adliye) لمناقشة التنظيمات الخيرية (Tanzîmât-ı Hayriyye) ومبادئ التنظيمات اللاحقة إلى جانب مجلس شورى الباب العالي (Dar-ı Şûra-yı Bâb-ı âli)، ومجلس الشورى العسكري (Dâr-ı Şûrâ-yı Askeri). في الوقت نفسه استبقت الإصلاحات في نظام التعليم مكتب الترجمة (Tercüme Odası) باعتباره الجهاز التعليمي الوحيد لفئة الكتاب من أهل القلم. وأصبح هذا المكتب الذي تم إنشاؤه سنة 1249هـ/1833م مصدرًا للمثقفين والكتاب الإداريين الجدد، ومنه سيخرج رجال التنظيمات².

تغيّرت هكذا بحلول سنة 1251هـ/1835م المنظومة الإدارية العثمانية بشكل جذري بحيث أصبحت دراسة الإدارة العثمانية التي أجراها جوزيف فون هامر والتي ظهرت سنة 1230هـ/1815م قد عفا عليها الزمن تماماً. [أقر هامر نفسه بالتغيير السريع في المنظومة الإدارية العثمانية]. حوالي سنة 1266هـ/1850م كانت الحكومة المركزية العثمانية أي الديوان أو المجلس الخاص أو في الواقع الحكومة الحديثة تتألف من المسؤولين التاليين: 1 - الصدر الأعظم (رئيساً). 2. شيخ الإسلام (Şeyhülislâm)

¹ - Mustafa Gökçek: **Centralisation During the Era of Mahmud II**, Osmanlı Araştırmaları, Sorun 21, Kitap Matbasellik, İstanbul, 2001, Sayfa 252.

² - Loc.cit.

3. وزير الحرب (Serasker). 4. وزير البحرية (Kaptanpaşa). 5. رئيس مجلس الدولة. 6. مسؤول سلاح المدفعية (أيضا حاكم جميع القلاع). 7- وزير الخارجية (ريس أفندي سابقاً). 8. وزير المالية 9- وزير التجارة والأشغال العامة (أنشئت سنة 1838م). 10. مراقب الخزانة (رئيس سك العملة) 11. المشرف على الأوقاف. 12- مستشار الصدر الأعظم (وزير الداخلية أيضاً). 13- وزير الشرطة (كهيا باي سابقاً)¹. لاحظ أنه حتى مع تحديث الحكومة العثمانية إلا أنّ رأس المؤسسة الدينية شيخ الإسلام حافظ على مكانته الإدارية والقانونية القديمة باعتباره ثانياً بعد الصدر الأعظم.

مكانة الصدور العظام في البناء الإداري العثماني

يُمكن القول إجمالاً أنّ وزراء فترة القوة أو العصر الذهبي من عثمان المؤسس إلى سليمان القانوني كانوا رجال دولة بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ فلو تعرّضنا إلى سيرٍ من أصبحوا عبيداً للسلطان وفق نظام الدفشمرة نجد من أوائل الوزراء العظام بعد نهاية وزارة أسرة جنديري، الشهير محمود باشا² الذي يعتبره فون هامر هو والوزير الأعظم محمد باشا القرماني³ يشاطران محمد الفاتح في قوة وازدهار الإمبراطورية⁴.

¹ - Kemal H. Karpat: **Studies on Ottoman Social and Political History Selected Articles and Essays**, Vol 81, Social, Economic and Political Studies of the Middle East and Asia (S.E.P.S.M.E.A.), Brill, Leiden, Boston, Koln, 2002, P260.

² . محمود باشا (.../879هـ /... 1474م): وزير أعظم عثماني، لم يتحدث المؤرخون العثمانيون عن أصوله، بعض المصادر الأجنبية تعود بأصوله إلى الصرب وقيل يوناني وقيل بيزنطي، أسره الأتراك وأصبح لاحقاً في خدمة محمد الثاني. تذهب المصادر الموثوقة إلى أنه رقي للوزارة سنة 1454 بسبب نجاحاته في الحملات العسكرية؛ فقد فتح محمود باشا الصرب سنة 1458 وغيرها. غير أن خلافاً وقع بينه وبين محمد الثاني حول كرمان أدى إلى عزله سنة 1468، ثم أعيد لمنصبه سنة 1470 إلى وفاته. ينظر:

Imber C. H: **Mahmud Pasha**, The Encyclopaedia of Islam. Op.cit, Tome 6, 1991, P69-72.

يعتبره ويل ديورانت الراعي الثاني للفنون والآداب بعد محمد الفاتح، ينظر: ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، تر: زكي نجيب محمود وآخرين، ج (13، 26، 33)، ج 26، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1988، ص 59،
لمزيد من الاطلاع على شخصية محمود باشا ينظر:

Stavrides Théoharis: **The Sultan of vezirs: the life and times of the Ottoman Grand Vezir Mahmud Pasha Angelovic 1453-1474**, The Netherlands, Leiden, 2001

³ . محمد باشا القرماني: نيشانجي توفي سنة 886هـ/1481م، وزير أعظم عثماني ومؤرخ، من سلالة جلال الدين الرومي [ويعتبر من الاستثناءات التي استوزرت من المسلمين الأحرار ومن العلماء، بعد تبني الاستوزار من مجندي الدفشمرة]. أصبح كاتباً في ديوان الوزير محمود باشا ومستشاراً له، ثم أصبح نيشانجي سنة 1464، لمدة اثنا عشر عاماً، سنة 1476 عين كوزير أعظم، في موقعه الجديد ومجربته الإدارية أصبح المؤلف الرئيس لتشريعات محمد الفاتح. كلفه دعم الأمير جم حياته فأعدمه الإنكشارية المؤيدين لبازيد الثاني وذلك سنة 1481، له تاريخ بالعربي عن الدولة العثمانية من عثمان المؤسس إلى سنة 1480. ينظر:

De Groot A.H: **Mehmed Pasha, Karamani**, The Encyclopaedia of Islam, Tom 6, Op.cit P988,989.

⁴- Hammer: Op.cit, Tom8, P43.

يروى صاحب كتاب "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" حادثة تدلّ على قوة شخصية وزراء ذلك العهد؛ ذلك أنّ أحد العلماء التقى محمد الفاتح حين كان متوجّهاً إلى أدرنه، فلما سأل الفاتح العالم عن أحوال مدينته أجابه قائلاً: إنها أصبحت خراباً بعد أن كان بها ستّمائة 600 مفت وثلاثمائة 300 مؤلّف، وأنها كانت بلدة عظيمة معمّورة بالعلم والصلاح، فسأله الفاتح عن سبب تفهقها؟ فأخبره العالم أنه سلّطَ عليها حاكم "... أهان العلماء فتفرقوا، والعلماء بمنزلة القلب من البدن وإذا عرضت للقلب آفة سرى الفساد الى سائر البدن"، فلما سمع السلطان بذلك استدعى وزيره محمود باشا وأخبره خبر العالم ومدينته، وأنّ العالم قال: أنّ خراب المدينة كان بسبب الوزير، فكان رد الوزير الأعظم محمود باشا حاسماً إذ قال: "لا، بل من السلطان. قال: لما؟ قال: لأي شيء استوزرت مثل هذا الرجل؟ فقال السلطان: صدقت"¹.

يُلخّص لنا مؤلفا كتاب "المجتمع الإسلامي والغرب" ما آلت إليه الوزارة بعد العصر الذهبي للدولة إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي: كان الصدور العظام عاجزين عن سد الفراغ الذي تركه سلاطين العصر الذهبي، باستثناء دمادا صوقولولو محمد باشا² الذي حكم الدولة ثلاثة عشر عاماً بعد وفاة القانوني، والأعضاء الأربعة من أسرة كوبرلي الذين أنقذوا الدولة من الانهيار نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي - محمد باشا كوبرلي³ تولى الصدارة من سنة 1066هـ/ 1656م إلى وفاته سنة 1071هـ/1661م خلفه ابنه فاضل أحمد باشا⁴ من سنة 1071هـ/1661م

1 . طاشكيري زاده: المصدر السابق، ص50.

2 . صوقولولو محمد باشا: الملقب بالطويل، (1505 . 1579)، أحد أكثر الوزراء العثمانيين الكبار شهرة، استمر في الصدارة العظمى تحت عهد ثلاثة سلاطين متعاقبين؛ من سنة 1565 إلى سنة 1579. ترقى في المناصب وتزوج بنت سليم الثاني [فأصبح دمادا أي صهر السلطان]. وفي عهد سليم أصبح الرئيس الفعلي للإمبراطورية واستطاع بخبرته الإدارية والعسكرية أن يحفظ للدولة هيبتها الدولية رغم كل الصعاب، وبعد أربع سنوات من حكم مراد الثالث اغتيل سنة 1579. ينظر:

Veinstein G: **Sokollu Mehmed Pasha**, The Encyclopaedia of Islam, Op.cit, Tome 9, 1997 P706-711.

3 . كوبرولو محمد باشا: (1578 . 1661) ألباني، ولد بكوبر بسنجق أماسيا بالأناضول، شغل عدة مناصب، إلى أن دفعت الظروف المعقدة للدولة وصغر سن السلطان محمد الرابع السلطانة الوالدة إلى تعيينه صدرا أعظم سنة 1656، بعد أن وافقت على شرطه في أن تكون له صلاحيات مطلقة، فأنقذ الدولة وضبط أمنها وجيشها وإدارتها ومالياتها، وقبل وفاته طلب من السلطان تعيين ولده فاضل أحمد خلفاً له فوافق السلطان في سابقة هي الأولى في تاريخ الدولة. ينظر:

Is Fahire: **Koprulu Mehmed Pasha**, The Encyclopaedia of Islam, Ibid, Tome 5, 1986, P256-259.

4 . فاضل أحمد باشا: (1635 . 1676) نجل وخليفة محمد باشا كوبرولو. انتمى لأهل العلم، ثم انخرط في فئة الكتاب من أهل القلم، ليتولى عدة مناصب خلال صدارة والده، ليخلف والده في الصدارة العظمى سنة 1661، فتح جزيرة كريت سنة 1668 ينظر: **Fadil Ahmed Pasha**, Ibid, P259-261.

إلى وفاته سنة 1087هـ/1676م، ثم تولى الصدارة ابن أخ محمد باشا كوبرلي فاضل مصطفى باشا¹ من 1101 هـ/1689م إلى 1102 هـ/1691م. وأخيرا حسين باشا عموجه زاده² من 1108 هـ/1697م إلى اعتزاله سنة 1114 هـ/1702م، وأسرة كوبرلي من أصل ألباني وقد برز اسم محمد باشا كوبرلي في إعادة الأمن والسلام للدولة، وبرز فاضل أحمد باشا بسبب مهارته القيادية و فاضل مصطفى باشا وحسين باشا بالقرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي بسبب إصلاحاتهما المالية، وفي عهد حسين وقع صلح كارلوفيتز مع روسيا والنمسا وبولنده والبندقية³.

يُذكر أنّ عدد الصدور العظام في تاريخ الدولة العثمانية منذ إحداث المنصب بلغ مائتين وثلاث وأربعين 243؛ كان عددهم ستة في القرن الرابع عشر، وإحدى وثلاثون في القرن الخامس عشر، وثمان وعشرون في القرن السادس عشر، وبلغ الذروة في القرن السابع عشر ببلوغه ستون صدرا، لينخفض العدد في القرن الثامن عشر إلى سبع وخمسين، ثم سبع وأربعين في القرن التاسع عشر، فاثنتين وثلاثين في القرن العشرين، ليكون مجموعهم مع القرن العشرين 261 صدرا⁴ على اعتبار أن ضمن الـ 243

1 . فاضل مصطفى باشا: (1637 . 1691): هو الأخ الأصغر لفاضل أحمد باشا كوبرولو. سنة 1659 انخرط في خدمة السلطان، وتولى عدة مناصب، إلى أنّ عين صدرا أعظما سنة 1689م. قاد حملات عسكرية ناجحة استرجع من خلالها الكثير مما فقدته الدولة مثل بلغراد سنة 1690م وفي سنة 1691م قاد حملة على النمسا لاسترجاع المجر فقتل في تلك الحملة سنة 1691م وقد قام بإصلاحات مهمة في المالية والقضاء على الفساد والرشوة وأبطل الهدايا التي كانت تقدم للمسؤولين وأقام العدل بين الناس بصرف النظر عن دياناتهم وغيرها من الإصلاحات. ينظر: **Fadil Mustafa Pasha, Ibid, P261-262.**

2 . حسين باشا عموجه زاده: توفي سنة 1702م، هو ابن أخ محمد باشا كوبرولو، كناه ابن عمه فاضل باشا بعموجه زاده أي ابن العم. تولى عدّة مناصب عليا، وفي سنة 1697م وبعد هزيمة العثمانيين في معركة زنتا، استدعي إلى إستانبول ليكون في الصدارة العظمى، وقعت في عهده اتفاقية كارلوفيتز سنة 1699م، ونظرا لكثرة تدخلات شيخ الإسلام فيض الله وتأثيره على السلطان استقال حسين باشا من منصبه سنة 1702م، ليتوفى بعدها بأيام قليلة، تجمع المصادر أنه كان رجل دولة كفؤ. ينظر:

Orhan F. Koprulu: **Amūdja-Zāde Husayn Pasha, Ibid, Tom3, P626-627.**

3 . هاملتون: المرجع السابق، ص158، بتصرف.

4 . أكثر من تكرر اعتلائه منصب الصدارة هو كوجك سعيد باشا (في عهد عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد الخامس 9 مرات) ثم يليه بويوك مصطفى رشيد باشا الذي تكررت صدارته 6 مرات في عهد عبد الحميد الأول. أصغر صدر أعظم سنا هو فاضل أحمد باشا كوبرولو (كان سنه حين تولى الصدارة سنة 1661م 26 عاما)، أقل مدة قضاها شخص في الصدارة هو زورنازن مصطفى باشا 4 ساعات في 1656/3/5، وهناك من قضى فيها عدة أيام أو أسابيع أو شهور، وأطول مدة في منصب الصدارة تعود إلى كل من شقيق السلطان اورخان، علاء الدين باشا 25 سنة (1326.1348) ثم يليه جندي زاده خير الدين باشا 22 سنة (1364 . 1387) ثم ابنه جندي زاده علي باشا 19 سنة (1387 . 1406) ثم يليهم كوبرولو زاده فاضل أحمد باشا 15 سنة (1661 . 1676) ينظر: يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج2، ص337.339.

صدرا من تولى المنصب أكثر من مرة¹.

مع القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي بدأت بوصلة الإصلاحات العثمانية تتجه من الاستلهام الشرقي إلى الاستلهام الغربي، وأمام القوة المتصاعدة لأوروبا وروسيا المقتفية لآثار أوروبا بدأت النخبة العثمانية تدرك شيئا فشيئا أنّها إن لم تواكب التغييرات الكبيرة المتلاحقة في أوروبا فإنّ عليها مواجهة التهديد الوجودي الأكبر للدولة العثمانية برمتها؛ من أجل ذلك أصبح منصب الصدر الأعظم مُعَوَّلًا عليه بدرجة أكبر في إحداث التغييرات الجذرية، وأصبح هذا المنصب الكبير يتبوّؤه غالبا من له دراية واسعة بالشأن الأوروبي، وكانت هذه الميزة أكثر توفرا في فئة الكتاب من أهل القلم باعتبارهم مثّلوا الدبلوماسية العثمانية ووزارتها للشؤون الخارجية.

تطرقنا بشكل موجز لتاريخ الدولة العثمانية لفهم في سياقه خلفية ونشأة المنظومة الإدارية العثمانية والمصادر المختلفة التي استقت منها تراتيبها ونُظُمها الإدارية والسياسية، ثم عرضنا ببعض الإسهاب بنية الجهاز الإداري العثماني وأركانه الأربعة التي قام عليها، وكيف جرى تقنين وضبط صلاحيات الجهاز الإداري العثماني مع السلطان محمد الفاتح، إلى أن اكتمل البناء الإداري على عهد سليمان القانوني كما تطرقنا بإيجاز لأهم الإصلاحات الإدارية على النمط الأوروبي تلك دشّنها محمود الثاني، فأصبحت الحكومة العثمانية بها وزارات متخصصة، لنختم بمكانة الصدور العظام في المنظومة الإدارية العثمانية.

¹ . بنحادة، عبد الرحيم: العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، تح: عبد الرحمن المودن، ط1، النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، 2008، ص11، بتصرف.

المبحث الثالث: فئة الكتاب من أهل القلم في النظام الإداري العثماني

نشأة التدوين وفئة الكتاب من أهل القلم
الرئيس القديم والجديد لفئة الكتاب من أهل القلم
مهام رئيس الكتاب
مكانة رئيس الكتاب وهيكلية مؤسسته
الإصلاحات الإدارية لسليم الثالث ومحمود الثاني

سبق القول أنّ الجهاز الإداري العثماني الذي يُعتبر السلطان محوره ومصدر شرعيته ارتكز على ثلاثة أقسام هي: أهل العلم والشريعة ويرأسهم شيخ الإسلام، وأهل السيف أو "السيفية" وفئة الكتاب من أهل القلم أو "القلمية" ويرأسهما الصدر الأعظم، وبالنظر إلى فلسفة السُلطة والاجتماع عند العثمانيين نجد أنّها قامت على أساس وجود سلطة حاكمة تُدير شؤون الدولة بناء على سُلطة رَقابة وتوجيه تُمثلها المؤسسة الدينية، ونقل هنا ما ذكره إبراهيم متفرقة¹ حول طبقات المجتمع وأدوارها بناء على رؤية فلسفية قديمة تقسم المجتمعات إلى أربع طبقات مثل العناصر الأربعة المكوّنة للطبيعة: " ... من أجل إدارة منظّمة لمصالح الدولة يجب أن يكون كل المجتمع مُقسّم إلى أربعة أقسام: إحداها أهل السيف والأخرى أهل القلم والأخرى الفلاحين والمزارعين، والأخرى الحرفيين والتجار، وعنّان هذه الطبقات جميعاً بيد السلطان، والطبقة الأساسية الداعمة للدولة هم أهل الحرب، وبالتالي يكون السلطان أو الملك والضباط الكبار، والوكلاء، والوزراء والباكلرباي وغيرهم مشمولين في هذه الطبقة. ويقوم على عاتق هذه الطبقة إدارة بقية الطبقات، على ضوء توجيهات ونصائح أهل الشريعة والعلم من أهل القلم الطبقة الثانية وبهذه الطريقة الشعوب تُحكّم بقوانين عادلة، وبقواعد مُنصّفة².

نشأة التدوين وفئة الكتاب من أهل القلم

دُكر سابقاً أنّ الإدارة العثمانية مثلها مثل بقية إدارات ونُظم الدول الإسلامية السابقة أو المعاصرة لها تشكّلت من أقسام رئيسية ثلاثة؛ ففي قمة المثلث نجد الوزير أو الصدر الأعظم وفي هرم المثلث نجد كل من النيشانجي والدفتر دار: الأول يُشرف على كل ما يتصل بالمراسلات وتسجيل الوثائق وإصدار الأوامر واللوائح، والثاني يُشرف على كل ما يتصل باستلام الدخل وإنفاقه وهو بمثابة وزير المالية، وبما أنّه سيتم التركيز في هذا المبحث على فئة الكتاب من أهل القلم خاصة ضمن الجهاز الإداري

¹ - إبراهيم متفرقة (1674-1744): مجري من أبوين بروتستانتين، لجأ كغيره من البروتستانت إلى الدولة العثمانية هروبا من اضطهاد الكاثوليك، وأسلم ربما في حدود سنة 1690، وبعد ثمان سنوات من إسلامه ألف كتابا بعنوان رسالة إسلامية، وكان يتقن الفرنسية والتركية والإسبانية بالإضافة إلى اللغة المجرية، دخل الحياة السياسية سنة 1715، كمترجم لدى الباب العالي، ليصبح حينها متفرقة؛ وهو لقب يطلق في عهد الدولة العثمانية على العاملين بخدمة السلطان، ثم نظرا لنشاطه وبراعته في المفاوضات، وتعدد لغاته أصبح مستشارا ومبعوثا خاصا للسلطان وأجرى مفاوضات مع النمسا وروسيا سنة 1715. كانت له جهود في تنظيم الجهد الحربي ضد النمسا سنة 1735، لتحرير موطنه الأصلي المجر. من أهم أعماله أنه أنشأ أول آلة للطباعة بالحرف العربي في الدولة الإسلامية سنة 1727. للمزيد ينظر: صابان سهيل: إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته، مر: عباس صالح طاشكندى، ب ط، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، 1995، ص 35، 47.

² - Müteferrika Ibrahim: (أصول الحِكم في نظام الأمم) *Traité de la tactique ou méthode artificielle pour l'ordonnance des troupes*, Jean-Thom. De Trattner, Vienna, 1769, P85, 87.

العثماني، وبما أنّ المشرف عليهم هو المسؤول على كل ما يتّصل بالمراسلات وتسجيل الوثائق وإصدار الأوامر واللوائح، وهو المعروف باسم النيشانجي، سننظر في امره هنا؛ فمن يكون صاحب هذا المنصب؟ وكيف نشأ؟ ثم قبل ذلك كيف بدأ التدوين الإداري عند العثمانيين والذي تولّد عنه طبقة فئة الكتاب من أهل القلم؟

يخبرنا التاريخ أنّ الدولة العثمانية بدأت كإمارة حدودية في أقصى الشمال الغربي من الأناضول متاخمة للحدود البيزنطية، وضعها الجغرافي هذا حتمّ عليها التوسع على حساب الأراضي البيزنطية وتحوّلت الإمارة إلى مركز جذب للراغبين في الجهاد والثروة والأراضي الخصبة سيما مع الضغط المغولي الذي دفع الكثير من القبائل التركمانية إلى الهجرة والانضمام إلى إمارة آل عثمان.

نعلم أيضاً أن المحاربين القبليين لم يكونوا وحدهم من ملأ صفوف العثمانيين الأوائل طوال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، إذ سرعان ما بدأ رجال الدولة والعلماء من الإمارات المجاورة - الذين كانوا أقرب جغرافياً وثقافياً إلى سلطنة سلاجقة الروم سابقاً، ويتمتعون بثقافة مدنية بشكل كبير وعلاقات أوثق بالتقاليد والسياسات الفارسية - بالاستقرار في أو حول البلاط العثماني، وكان لهؤلاء دور بارز في تحويل الإمارة العثمانية القبلية إلى مملكة وسلطنة مستقبلية¹. الهيكل الإداري العثماني تشكّل بشكل أساسي من العلماء الذين قدّموا على العثمانيين من الإمارات المجاورة، ولكن وجد رافداً آخر عن طريق البيزنطيين والصرب الذين اعتنقوا الإسلام خاصة من منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي²، وهكذا تعددت وتنوعت الروافد الثقافية التي شكلت إدارة العثمانيين.

استُخدم مصطلح "أهل القلم" في العهود القديمة للإشارة إلى الرجال المتعلمين بشكل عام، وتحت هذا العنوان اندرج حتى فقهاء الشريعة الإسلامية ورؤساء المكاتب وموظفيها، ولكن في وقت لاحق بدأ مصطلح أهل القلم يشير إلى المنظومة الإدارية المدنية العثمانية فقط، أولئك الإداريين الذين تولّوا مهام الدولة التي لم يعد العلماء يؤدونها بصورة مرضية³. وقد رأينا في نص كلام إبراهيم متفرقة أعلاه ما يدلّ على استمرار شمول مصطلح فئة الكتاب من أهل القلم للعلماء والمثقفين والإداريين في أوساط بعض

¹. تشير وثيقة من سنة 1324م ووصف ابن بطوطة لسنة 1331م إلى أن الوفد المرافق للسلطان اورخان ابن عثمان مؤسس الدولة كان يضم بالفعل علماء بارعين متمكنين من اللغتين الفارسية والعربية. ينظر:

Marinos Sariyannis: **Ottoman Political Thought up to the Tanzimat: A Concise History** with a chapter by Ekin Tuşalp Atiyas, Foundation for Research and Technology-Hellas Institute for Mediterranean Studies, Rethymno, Greece, 2015, P20.

² - Ibid, P52.

³ - Şerif Mardin: **The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas (Modern Intellectual and Political History of the Middle East)**, 1Edt, Paperback, Syracuse University Press, USA, 2000, P139-140.

النخبة العثمانية إلى غاية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي.

يعتبر مصطلح القلمية (Kalemiye) الذي اختصت به لاحقاً فئة الكتاب من أهل القلم إلى جانب كونه مصطلحاً تنظيمياً، فإنه أيضاً مصطلح اجتماعي وثقافي؛ فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وبالتدرج تمايزت وتحددت المسؤوليات في الإدارة العثمانية وظهر تخصص معين مع المهام المحددة لأهل السيف أو السيفية (seyfiye) وأهل العلم أو العلمية (ilmiye) والقلمية (Kalemiye) (فئة الكتاب من أهل القلم). في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي عندما لم يعد مصطلح السيفية مستخدماً، وتم تقسيمه إلى قسمين كموظفين عسكريين ومدنيين، نشأ اتصال آخر بين الموظفين المدنيين والقلمية¹.

نعلم أنّ اسم "القلمية" لم يرد في القانون التنظيمي للسلطان محمد الفاتح الذي كان المصدر الأول المهم الذي كشف عن النظام الإداري العثماني؛ ففي هذا القانون نجد أحكاماً مختلفة حول النيشانجي ورئيس الكتاب والكتّبة، بعد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي تم تعريف جميع مسؤولي الديوان الهمايوني والخزانة والدفتر دار خاتمة بأنهم "أرباب القلمية" (kalemiye erbabi)، أظهر التخصص داخل مؤسسات المنظومة الإدارية خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني بواده الأولى مع فصل المالية عن أقلام أو مكاتب الديوان الهمايوني، ومنذ نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي أصبح دور المنتسبين للقلمية [فئة الكتاب من أهل القلم] يظهر ويتطور أكثر فأكثر من حيث أنهم أصبحوا فعالين للغاية في نظام الدولة. في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي شكل رجال القلمية جزءاً مهماً من الطبقة الحاكمة²، وتزايد نفوذهم ودورهم في صناعة القرار ورسم السياسات العامة.

حسب المؤرخ العثماني جودت باشا (Cevdet Pasa)³ فإنّ السبب في التأثير المتزايد الذي تمتع به "فئة الكتاب من أهل القلم" مردّه إلى أنّ معرفة الشؤون الحكومية أصبحت مقتصرة عليهم، في الوقت الذي خسر فيه فقهاء الشريعة الإسلامية وضعهم كرجال تمارسوا في شؤون الدولة. في المقابل يبدو أنّ

¹ - Mehmet İpşirli: **Kalemiye قلميه، Osmanlı bürokrasi sistemini oluşturan çeşitli dairelerin görevlilerini ifade eden bir tabir**, TDV İslâm Ansiklopedisi, cilt 24, Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Araştırmaları Merkezi, Türkiye, 2001, sayfa 248.

² - Mehmet İpşirli: Op.cit, Sayfa 248.

³ - أحمد جودت باشا بن إسماعيل بن علي (1238 - 1312 هـ = 1822 - 1895 م): مؤرخ تركي، من الوزراء. له اشتغال بالعربية. تقدم في المناصب فولّي الوزارة والصدارة الموقّعة ثم نظارة العدلية. وتوفي بالأستانة. وهو صاحب (تاريخ جودت) بالتركية اثنا عشر مجلداً. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج1، ص108.

ثمة عاملين كانا السبب في ارتفاع مكانة فئة الكتاب في تسيير شؤون الدولة على حساب فقهاء الشريعة: الأول أنّ الحاجة إلى الحقائق والأرقام أصبحت ذات أهمية متزايدة في تسيير شؤون الدولة. ثانياً وبما أنّ القانون الدستوري للدولة العثمانية أصبح أكثر تعقيداً بسبب التكاثر السريع للمراسيم والفرمانات، ومع ازدياد أهمية العلاقات الخارجية أصبح الكتاب الإداريون الذين لديهم معرفة بأحدث التطورات يتمتعون بميزة عن العلماء¹.

لعب إنشاء نظام منظم للديوان الهمايوني والمالية (defterdarlık) ومكاتب الدفتر دار خانة دوراً مهماً في تشكيل أرباب القلم. بالنسبة لأولئك الذين سيتم توظيفهم في هذه المكاتب، كان التدريب أثناء الخدمة ضمن علاقة المعلم والطالب (üstât-şâkird) تأخذ الأولوية، وبالتالي يمكن إنشاء اتصال متبادل مباشر. تقليد "الانتساب" (intisap)² له دور مهم في تكوين أرباب القلم. في البداية كان الأشخاص الذين حصلوا على تعليم مدرسي قياسي يشكلون الأغلبية في هذه المهنة، ولكن فيما بعد كان من الضروري أن يتدربوا ويترقوا حسب أصول "الانتساب". هكذا يدخل بالانتساب الشباب الموهوبون الذين حصلوا على مستوى معين من التعليم في المركز وفي الأقاليم، في خدمة الوزراء والأغوات والباشوات³ وبعض العلماء في إستانبول، ويؤدون خدمات الكتابة والتدوين فيثبتون بذلك تميّزهم واستحقاقهم ليكونوا من أرباب القلم. بفضل هذا الانتساب يندمجون في المنظومة الإدارية العثمانية

¹ - Şerif Mardin: Op.cit, P140.

². مبدأ الانتساب مطبق في الكثير من الحرف والمهن في الدولة العثمانية وأساسه أن ينتسب التلميذ أو المتدرب إلى شخصية خيرة في مجالها ليستفيد من خبرتها العلمية والعملية. ولأن الكاتب مُطالب بأعلى درجات النزاهة والشرف باعتباره سيطلع في النهاية على أسرار السلطنة (esrar-i saltanat). وبالتالي يمكن فقط لكبار الشخصيات الذين أثبتوا بالفعل ارتباطهم بالعرش العثماني رعاية وقبول المنتسبين إليهم من المتدربين على الكتابة. ينظر:

Güneş Işksel : **La politique étrangère ottomane dans la seconde moitié du XVIe siècle : le cas du règne de Selîm II (1566-1574)**, Thèse pour l'obtention du grade de docteur de l'EHESS Spécialité : Histoire et civilisations, Sous la direction de professeur : Gilles Veinstein, École des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris, 2002, P124.

³. آغا (Ağa): مصطلح من أصل فارسي، ويعني السيد. وقد استعمله الترك لدلالات كثيرة، منها أنّها كانت تطلق على الضباط الأميين مثل الإنكشارية الذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابة. ومنها أيضاً صاحب المنصب الكبير. وكان هذا اللقب مهماً للغاية في عهد القوة والنفوذ. كما يطلق بشكل عام على منتسبي القصر والجيش. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 17-19، 19.

باشا: كلمة باشا معناها في الأصل قدم الملك أو الشاه ثم صار معناها "مستخدماً"، واستعملت بعد ذلك كلقب لحكام الولايات وأخيراً أصبحت أعلى لقب تشريفي في الدولة. وأطلق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي على الذين يرقون إلى درجة وزير وأمير الأمراء (مير ميران)، كما استخدم للعسكريين الحائزين على رتب أمير اللواء والفريق والمشير، يضاف إليه أنه منح إلى بعض شيوخ القبائل وإلى من كان ذا موقع مرموق. ينظر: المرجع نفسه، ص52.

ويتعلّمون بمرور الوقت الكثير من مرؤوسيه¹، فتجتمع عندهم الخبرة النظرية والعملية.

كان على فئة الكتاب أن يمارسوا الكتابة للاستخدام السياسي والإداري، ومع ذلك فهي كتابة غنية قادرة على إثبات إتقانهم للإجراءات مثل بناء الجملة من خلال النشر المقفى، وإنشاء الديباجات البديعة، والاستخدام الدقيق للاقتباسات وخاصة من القرآن والسنة. نظرًا لأنهم تدربوا في المدارس فإن الكتاب يمتلكون فن الكتابة، وتمثل مهمتهم في جعل هذا الفن متاحًا للسلطان. كان عليهم أن يتقنوا العلوم الأدبية (المعاجم، علم الصرف، النحو، علم دراسة الأساليب الكتابية، البلاغة، علم البيان، علم العروض)، العلوم الإسلامية، وكذلك الجغرافيا والتاريخ².

ينسجم الكتبه مع المعايير التي تضمّنتها مجموعة الكُتب الإنشائية المعروفة بالمنشآت (Münşeat) [وهو الاسم العام للمصنفات التي تجمع جميع أنواع الكتابات الرسمية والخاصة وتظهر مبادئ الإملاء إضافة إلى نصائح عملية حول صنع المداد والقلم ومتعلقات الكتابة]، تعود النسخ الأولى من هذه الأعمال في الأراضي العثمانية إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وهي باللغة الفارسية وتشهد على تأثير التقاليد الإدارية الإيلخانية³. اكتسب تدريس الإنشاء والأسلوب الذي تم غرسه من خلال المنشآت أهمية كبيرة منذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي⁴.

يجب أن يكون المرشح لمنصب المتدرّب ككاتب تحت رعاية أحد أعضاء الإدارة العثمانية "مبدأ الانتساب"، لوحظ هذا المبدأ أيضًا في فروع أخرى من المهن، لكنه كان مهمًا بشكل خاص لمسيرة الكتبه، لأن الكاتب مُطالب بأعلى درجات النزاهة والشرف باعتباره سيطلّع في النهاية على أسرار السلطنة (esrar-i saltanat). وبالتالي يمكن فقط لكبار الشخصيات الذين أثبتوا بالفعل ارتباطهم

¹ - Mehmet İpşirli: Op.cit, Sayfa248 .

² - Güneş Işıksel: Op.cit, P123.

³ . أول مجموعة رسائل عثمانية نجد كتاب: "منهج الإنشاء" (Menahicü'l-inşa) لمؤلف من مدينة أماسيا يدعى يحيى بن محمد (توفي قبل 884هـ/1479م). ويتضمن الكتابة إضافة إلى قواعد اللغة ورسم الحروف إحدى عشرة نسخة من الوثائق الرسمية من عهدي السلطانين مراد الثاني ومحمد الفاتح. العمل الثاني من هذا النوع هو كتاب: "حديقة الإنشاء" (Gülşen-i inşa) من إعداد محمود بن أدهم الأماسي (توفي بعد 897هـ/1492م) تضمن أيضا قواعد اللغة والإنشاء ووضع أمثلة مأخوذة من مناشير السلاطين (menaşir) تطور هذا الأدب بشكل خاص خلال فترة بايزيد الثاني، عندما قام النيشانجي تاج زاده جعفر (Tacizâde Cafer) وهو أديب آخر من مدينة أماسيا برعاية إعداد هذه المجموعات. كانت المجموعات الكبيرة التي وزعت منذ نهاية القرن الخامس عشر في جميع أنحاء الدولة العثمانية في عشرات النسخ، بمثابة مكتبة بلاغية للكتبة يستعينون بها في كتابة الوثائق بأسلوب رسمي ينظر: Ibid, P123-124.

⁴ - Ibid, P123.

بالعرش العثماني رعاية وقبول المنتسبين إليهم من المتدربين، بعد تدريب طويل يحصل الكاتب المتدرّب على إجازة (icazet) لكتابة المراسيم السلطانية¹.

تخرج المتدربون والطلاب ضمن رئاسة الكُتّاب برتبة كاتب، وبالتالي يحق لهم شغل مناصب الكاتب في الحكومة بمجرد حصولهم على التدريب والكفاءة الكافيين، كما يتضح من حفلات التخرج التي تقوم بها رئاسة الكتاب كلما كانت هناك مناصب شاغرة. فوق رتبة الكاتب، يمكن للأعضاء أن يرتقوا عندما تصبح الوظائف شاغرة إلى موظف يتقاضى راتباً ويدعى "خليفة" (halife)، ثم رئيس الخلفاء "سر خليفة" (ser halife)، ثم أمين الكيس (kisedar)، وأخيراً المكتب الرئيسي حاجي (hâce)، هذا الأخير يجعل شاغله أحد كبار أعضاء مؤسسة رئاسة الكُتّاب ويسمى (hâcegân) وهو مساوٍ أو أعلى من رئيس الكتاب في التسلسل الهرمي الرسمي أثناء تقاسم الصلاحيات والتأثير معه في أعضاء المؤسسة². في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي مع الاستخدام الواسع النطاق للمدارس ذات النمط الغربي والتغير في الذهنيات، بدأت فئة الكتاب من أهل القلم يتخرجون من المدارس التي افتتحت حديثاً؛ تأسس مكتب المعارف العدلية (Mekteb-i Maârif-i Adliyye) سنة 1255هـ/1839م سمي سنة 1278هـ/1862م باسم مكتب مخرج الأقلام (Mekteb-i Mahreç-i Aklâm)، ذلك المكتب إلى جانب دار المعارف (Dârülmaârif) الذي تأسس سنة 1265هـ/1849م مثلاً مؤسستين هامتين، حيث تم فيهما من بين دورات أخرى تدريس أصول الكتابة (usûl-i kitâbet)، الكتابات الرسميّة والخصوصيّة (kitâbet-i resmiyye ve husûsiyye) المكاتبات العسكرية (kitâbet-i askeriyye)³.

مكتب الفنون المدنية (Mekteb-i Fünûn-ı Mülkiyye) الذي سمي أيضاً (Mülkiye) (Mektebi, Siyasal Bilgiler Fakültesi) "المكتب المدني، كلية العلوم السياسية"، والذي تأسس سنة 1293هـ/1876م، لعب أيضاً دوراً مهماً في تدريب رجالات فئة الكتاب من أهل القلم من بين أهداف افتتاح مدرسة غلطة سراي السلطانية (Galatasaray Mekteb-i Sultânî) سنة 1285هـ/1868م، نجد هدف تدريب أعضاء فئة الكتاب المؤهلين للمكاتب الحكومية⁴.

بالنسبة لرواتب فئة الكتاب من أهل القلم فقد تمّ في السابق تخصيص جزء من مداخيل التيمار

1 - Ibid, P124.

2 - Stanford J. Shaw: Op.cit, P280-281.

3 - Mehmet İpşirli: Op.cit, Sayfa 248.

4 - Loc.cit.

(Timar) والزعامت (Zeâmet)¹ لصالحهم. بالإضافة إلى ذلك كان لديهم دخل ثانوي يحصلونه من الرسوم المحصّلة من المعاملات الإدارية المختلفة التي ينجزونها مثل التعيينات والعيديات والجوائز. في القرن التاسع عشر تحولت المداخل بشكل عام إلى رواتب، مع كل هذه المداخل يمكن الاعتقاد أن الموظف يتمتع بمستوى عالٍ من الرخاء. كانت فئة الكتاب المعروفة باسم أفندي (Efendi)² ترتدي ملابس ذات خصائص معينة³، تميّزهم عن بقية موظفي الدولة.

لعبت فئة الكتاب من أهل القلم دورًا مهمًا في تشكيل التقاليد المنظومة الإدارية العثمانية، وظهور إجراءات المراسلات الرسمية، وإنشاء سلسلة جديدة من الوثائق والدفاتر الإدارية بما يتماشى مع الاحتياجات⁴، كما قدموا مساهمات كبيرة في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والفن والموسيقى معظم المؤرخين العامين والمؤرخين الرسميين للدولة العثمانية ومعظم من كتبوا عن الإصلاحات هم من هذه الفئة⁵.

1. التيمار: لغة: العناية والرعاية، مرادفها التركي ديريليك، درلك أي الرزق، والتيمار يشير إلى تنظيم هرمي غير وراثي لدعم جيش الفرسان في الدولة العثمانية، ويعتبر نظام التيمار أساس التنظيم الإداري العسكري ومحور الاقتصاد الزراعي في العهد الكلاسيكي 1300 . 1600، ومن خصائص التيمار العثماني أن صاحبه مُطالب بمقابلة جلب فرسان ليشاركوا في الحرب وقت اللزوم. ثم دراسة مفصلة حول التيمار في دائرة المعارف الإسلامية. ينظر:

H. Inalgik: **TIMAR**, The Encyclopaedia of Islam. Op.cit, Tom 10,2000, p503-507.

وقد انقسمت الأراضي التيمارية في الدولة العثمانية إلى ثلاثة: 1 - تيمار وهي التي تقل وارداتها عن 20 ألف آقجة. 2 - زعامت وهي تلك التي تقل وارداتها عن 100 ألف آقجة. 3 - خاص، وهي تلك التي تتجاوز وارداتها 100 ألف آقجة. جرى إلغاء نظام التيمار رسمياً في سنة 1831م وإن كان قد تلاشى في الواقع قبل ذلك. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص76.

2. الأفندي (Efendi): كلمة رومية - بيزنطية انتقلت إلى اللغة التركية منذ عهد السلاجقة، وقد بدئ استعمالها في العقد الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي لدى العثمانيين للدلالة على الإنسان المتعلم والمتقف (نظير كلمة جلبي التركية)، ثم أضحت اللقب الرسمي للأمرء بعد أواسط القرن التاسع عشر الميلادي... كما كان طلاب المدارس العسكرية يخاطبون بها رسمياً، ثم ألغيت الكلمة رسمياً سنة 1924م، استخدمت كذلك لرئيس الكتاب قبل سنة 1839م ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص34.

3 - Mehmet İpşirli: Op.cit, Sayfa 248.

4. كانت مهمة الكتبة هي إصدار الوثائق، وكانوا بارعين في ذلك، شهد بذلك السفير البريطاني في القرن الثامن عشر السير جيمس بورتر (Sir James Porter) (1710-1786م) إذ قال: لا توجد قوة مسيحية يمكنها أن تنافس الباب العالي من حيث العناية والدقة في الأعمال الإدارية في مختلف المكاتب؛ تتم الأعمال بأكثر قدر من الدقة... يمكن العثور على أي وثيقة قديمة التاريخ بسهولة في الباب العالي. إنهم يتحكمون بمهارة وذكاء في سرعة العمل أو بطئه بما يخدم المصلحة العامة". ويؤكد ذلك جوزيف فون هامر إذ قال إن المظهر المادي للوثائق الرسمية كان رائعاً "الأمر الذي يترك كل أنيقة الوثائق الرسمية للدول الأوروبية متخلفة عن الركب". ينظر:

Carter V. Findley: **Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire, The Sublime Porte, 1789-1922**, Princeton University Press, USA, 1980, P87.

5 - Mehmet İpşirli: Op.cit, Sayfa249.

الرئيس القديم والجديد لفئة الكتاب من أهل القلم

نتحدث الآن عن الرئيس القديم لفئة الكتاب من أهل المسمى النيشانجي (Nişancı) ثم الجديد المسمى رئيس الكتاب (Reis-ül küttâb) أو الرئيس أفندي (Reis Efendi)؛ النيشانجي مشتق من الكلمة الفارسية "نيشان" والتي تعني العلامة التي توضع لتمييز شيء ما، والنيشانجي مسؤول عثماني رفيع مكلف بوضع علامة "الطغراء" السلطانية (Tuğra)¹ [ختم السلطان]، وكان عضواً في الديوان الهمايوني، ففي المصادر العثمانية تم ذكره أيضاً باسم: الطغرائي (Tuğraî) و(Tuğrakeş-i ahkâm) والموقع (Muvakki) والتوقيعي (Tevkîi)، وفي دول تركية أخرى وجد من يقوم بوظيفة النيشانجي؛ فعند السلاجقة العظام وسلاجقة الروم وجد الطغرائي، وعند المماليك وجد "كاتب السر" أو "ناظر الإنشاء"، وعند الإيلخانيين وجد أولوج بيتكجي (uluğ bitigci)².

بما أنّ وظيفة النيشانجي الأساسية هي وضع طغراء السلطان على الوثائق الرسمية الصادرة عن السلطان³ إلى رجالات دولته، فإنّ جوزاف فون هامر يحدّثنا في موسوعته الضخمة: "تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا" في المجلد الأول عن كيفية ظهور الطغراء عند العثمانيين قال: أنّه عندما أبرم السلطان مراد الأوّل (حكم خلال 763 - 791 هـ/ 1362-1389م) مع جمهورية رغوza (République de Raguse) اتفاقية تجارية سنة 794 هـ/ 1365م، وعندما حان الوقت للتصديق على الاتفاقية غمس مراد - الذي لم يكن يعرف كيفية التوقيع - من يده في الحبر ثلاثة أصابع معا الوسطى والإبهام والإصبع الصغير ثم ألصقهم في أعلى الاتفاقية كالتوقيع، طريقة التوقيع هذه تم تبنيها من قبل كل السلاطين خلفاء مراد الأوّل. في وقت لاحق فقط قام الخطاطون بتزيين هذا التوقيع الخاص بأحرف متشابكة وكتبوا فيه اسم السلطان الحاكم مصحوباً باسم والده ولقب المنتصر

1. طغراء: أصله طورغاني، وهو بلغة التتار العلامة المرسومة على الرسالة، والطغراء خط مقوس يرسم في أعلى الكتب الملكية، وهو بمثابة التوقيع على الكتاب. غالباً ما يتضمن نعوت الحاكم وألقابه، دخل التركية عن طريق الفرس، ليصبح فن الطغراء في العصرين المملوكي والعثماني من أبرز التقاليد السلطانية في صياغة الأوامر والفرمانات. ينظر: الخطيب مصطفى عبد الكريم: معجم المصطلحات والالقب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، لبنان، 1996، ص307.

2 - Erhan Afyoncu: Nişancı, Osmanlı bürokrasisinde Dîvân-ı Hümâyün üyesi olan üst düzey görevli, TDV İslâm Ansiklopedisi, cilt 33, 2007, Op.cit, sayfa 156.

3. تسمى مراسيم السلطان "خطي شريف" أو "خط همايون" توجد "الطغراء" أعلاها إلى جانب عبارة: "على أن يتم ذلك" المكتوبة بيد السلطان، وبسببها يسمى المرسوم "خطي شريف" ويتميز بذلك عن الفرمان الذي هو مجرد تفويض للسلطة السيادية. ينظر:

Abdolonyme Ubicini et Abel Pavet de Courteille : **État présent de l'empire ottoman : statistique, gouvernement, administration, finances, armée, communautés non musulmanes, etc., etc. D'après le Salnâme (annuaire impérial) pour l'année 1293 de l'hégire (1875-76) et les documents officiels les plus récents**, J. Dumaine, Paris, 1876, P74.

دائمًا، وأصبح الكاتب المسؤول لاحقًا على إصاق هذا الرسم برؤوس الفرمانات والمواثيق يدعى النيشانجي، وهو حافظ أختام الدولة وأصبح مقدّمًا ضمن رجالات الدولة¹.

لا يعرف متى بالضبط وُجد النيشانجي كمؤسسة في الإدارة العثمانية، وتشير بعض الدلائل على أنّ بدايات هذه الوظيفة ربما كانت في عهد أورخان، واستخدم المصطلح في زمن السلطان مراد الثاني في أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كما تحددت صلاحياته وكل متعلقاته في زمن السلطان محمد الفاتح، مع ذلك يمكن الافتراض أنه في بدايات الدولة العثمانية تولى النيشانجي مع مجموعة من الإداريين التابعين له تنفيذ الإجراءات المتعلقة بالشؤون الإدارية والمالية وكذلك التيمار². يُحتمل أنه في عهد السلطان بايزيد الأول تمّ نقل بعض صلاحيات النيشانجي إلى الكتبة العاملين بالديوان الهمايوني (Dîvân-ı Hümâyün)، ومع نمو الدولة واتساعها وزيادة أعباء الشؤون المالية إلى جانب تطور نظام التيمار ترتّب عن ذلك وجود دائرة مالية منفصلة بذاتها بداية من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ونتيجة لزيادة مركزية الدولة تم تأسيس الركن الثالث في المنظومة الإدارية العثمانية المكلف بالشؤون المالية ألا وهو الدفتردارية أو دفترخانة العامرة (Defterhâne-i Âmire) في عهد السلطان محمد الفاتح³، فالمؤسسات والمناصب تزيد وتنقص بحسب حاجة الدول.

وفقا لقانون السلطان محمد الفاتح (Fâtih Kanunnâme) مثل منصب النيشانجي وقاضي العسكر والدفتردار أعلى سلطة في الإدارة المركزية، وهم الأعضاء الرئيسيين في الديوان الهمايوني، يشار إليه في الوثائق بـ "نيشانجي أفندي العزيز" (izzetlü nişancı efendi)، وحتى بداية القرن الثامن عشر كان النيشانجية يُعرفون أيضًا باسم "مفتي القانون الهمايوني" (muftiyân-ı kavânîn-i pâdişahân) لأنهم كانوا على دراية جيدة بقوانين الدولة، كما يمكنهم اقتراح قوانين جديدة عند الضرورة⁴. يذكر في قانون نامه أن القوانين العثمانية ومراسم السلطان يُسأل عنها النيشانجي. وكان مسؤولًا عن جمع

¹ - Hammer: Op.cit, Tom 1, P231.

² - Erhan Afyoncu: Op.cit, Sayfa 156.

³ - Loc.cit.

⁴ . كان لكرماني محمد باشا (Karamânî Mehmed Paşa) الذي ترقى من منصب نيشانجي إلى منصب الصدر الأعظم دور مهم في إعداد قانون محمد الفاتح (Fâtih Kanunnâme)، كما كان للنيشانجي جلال زاده مصطفى الجليبي (Celâlzâde Mustafâ Çelebi) فضل كبير في حركة التدوين القانوني في عهد السلطان سليمان القانوني، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لعب النيشانجي أوثوقيعي عبد الرحمن باشا (Tevkiî Abdurrahman Paşa) دورًا مهمًا في تجميع قوانين التنظيمات والتشريعات... فمثلما تكون الفتوى لشيخ الإسلام في الشريعة، فإن للنيشانجي الكلمة الأخيرة في القانون العرفي. ينظر: Ibid, Sayfa 157.

وحفظ القوانين والتشريعات¹.

لكن تراجعت أهمية النيشانجي تدريجياً بدءاً من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي إلى نهاية الدولة العثمانية؛ عمل تحت قيادة النيشانجي كل من رئيس الكتاب وكتبة الديوان الهمايوني منذ منتصف القرن السابع عشر عندما أصبحت بوابة الباشا (Paşa Kapısı) المعروف بالباب الأصفي (Bâb-ı Âsafi) أو الباب العالي (Bâbîâli) تدريجياً مركزاً إدارياً جديداً لشؤون الدولة، بدلاً من الديوان الهمايوني، وتم نقل بعض الكوادر الإدارية العاملة في هذا الأخير إلى الباب العالي، ليصبح مسؤولوا الباب العالي، مثل رئيس الكتاب ونائب الصدر الأعظم (sadâret kethüdâsı)² والبيلكجي (beylikçi)³ أهم الإداريين، ويصبح رئيس الكتاب رئيس فئة الكتاب بدل النيشانجي⁴، بمعنى أنّ زيادة الأعباء الإدارية والمالية جردت النيشانجي من الكثير من وظائفه، وانتقال الثقل الإداري إلى الباب العالي على حساب الديوان الهمايوني جعله شيئاً فشيئاً منصبا فخرياً، ليُجرّد من رئاسة الكتاب.

حافظ النيشانجي إذاً على مكانته في تنظيم الدولة والتشريعات كمنصب تاريخي فخري قديم وظل النيشانجية أعضاءاً رئيسيين في الديوان الهمايوني حتى إلغاء هذا الديوان، وعلى الرغم من أن رئيس الكتاب أصبح بحكم الواقع سيّد الكتاب، إلا أنه ظل تحت قيادة النيشانجي في التشريعات، لكن بعد إلغاء منصب النيشانجي سنة 1252هـ/1836م تم تسليم مسؤولية وضع "الطغراء" إلى الدفتر أميني (defter emini)⁵، غير أنه ليس من الواضح تماماً ما إذا كان النيشانجية قد ألغيت بالكامل سنة 1252هـ/1836م أو ما إذا كان قد تم تجريدتها فقط من الأعمال المتعلقة بوضع الطغراء؛ ويتبين

¹ - Loc.cit.

² . الكاهيا أو كتحدا أو كيخيا كلمة فارسية بمعنى صاحب البيت، أو ربّ البيت، وقد اصطلح على استخدامه لمن يعمل نائباً أو قائماً بالأعمال، وكان يطلق في البداية على من يشرفون على أعمال رجال الدولة أو الوزراء، ومن ينوبون عنهم، ثم شاعت لتطلق في معناها الواسع على مديري العمال أو المشرفين العاملين في معيّة الكبار، المعتمدين عليهم في إدارة الأمور الخاصة. ينظر: صابان سهيل: المرجع نفسه، ص188.

³ . بايلكجي: المشرف العام على قلم الديوان الهمايوني. وكانت مهام رئيس هذه الدائرة تتلخّص في إرسال الأوراق المتداولة في الديوان إلى أماكنها ومتابعة تدوين دفاتر السجلات، وكتابة الفرمانات والتياشين، وتدقيق المسائل الخاصة بالأقليات أو الدول الأجنبية وحفظ المعاهدات والنظم والقوانين، وكان البايلكجي أهم شخصية في الديوان الهمايوني بعد رئيس الكتاب الذي هو وزير الخارجية ينظر: المرجع نفسه، ص64.

⁴ - Erhan Afyoncu: Op.cit, Sayfa 158.

⁵ . دفتر أميني: مرتبة عسكرية في الجيش العثماني قبل إلغاء الإنكشارية، استحدثت في عهد السلطان محمد الفاتح، عُهد إلى حاملها إحصاء العمارات والأماك العائدة للدولة... وتغيّرت هذه التسمية بعد فترة السلطان سليمان القانوني لتصبح الدفتر دار، وبحسب التنظيمات العثمانية فإن وظيفة الدفتر دار انحصرت في إطار التنظيم المالي، وأصبح شاغل هذه المرتبة مسؤولاً عن سجلات الحسابات وقيود واردات الخزينة فكان بمثابة وزير المالية. ينظر: الخطيب مصطفى عبد الكريم: المرجع السابق، ص183.

أن التصحيحات في دفاتر التسجيل من هذه التواريخ حتى سنة 1326هـ/1908م تم إجراؤها بواسطة النيشانجي، مما يدل على أن النيشانجي كمنصب استمر حتى نهاية الدولة العثمانية¹.

انتقل النيشانجي بهذا الشكل في الفترة الكلاسيكية للإدارة العثمانية من المركز إلى الهامش ومن رئيس إلى مرؤوس، ومن مهيمن على الإدارة العثمانية إلى عضو ثانوي فيها، كل ذلك لحساب مرؤوسه رئيس الكتاب الذي كان على هامش الإدارة العثمانية حتى غدا بمرور الوقت رئيس المنظومة الإدارية العثمانية، والمقدم في طبقة القلمية أو فئة الكتاب، فمن هو رئيس الكتاب؟ وكيف تشكلت مؤسّسة رئاسة الكتاب؟ وكيف على نجمه ليصبح ضمن أعلى سلطة في الحكومة العثمانية؟

تدير رئاسة الكتاب (reisülküttaplık) في الدولة العثمانية كمؤسسة مجموعة من الكتبة في الإمبراطورية العثمانية. ظهرت في القرنين التاسع والعاشر الهجري/ الخامس والسادس عشر الميلادي في الوثائق يشار إليه غالباً باسم رئيس الكتاب (Reis-ül küttâb) ورئيس أفندي (Reis efendi) ويطلق عليه أيضاً اسم رئيس كُتّاب الديوان الهمايوني (Reis-ül küttâb-ı Dîvân-ı Hümâyün) الكتبة الذين دوّنوا مراسلات الديوان الهمايوني - وهي الهيئة الإدارية المركزية في الفترة الكلاسيكية لتنظيم الدولة العثمانية، خارج دائرة المالية - عُرفوا باسم كتبة الديوان الهمايوني، يعملون تحت إشراف رئيس الكتاب والنيشانجي. كما أن تسمية رئيس الكتاب تتوافق أيضاً مع التقاليد المنظومة الإدارية في الدول الإسلامية؛ من المعروف أن مصطلح رئيس الكتاب قد استخدم في عهد الإيلخانيين والمماليك، وكان هناك مسؤولون بالمجلس بلقب "مَلِكُ الكُتّاب" عند سلاجقة الروم. كانت واجباتهم مماثلة لتلك الخاصة بواجبات النيشانجي ورئيس الكتاب عند العثمانيين².

نشأة مؤسسة رئاسة الكتاب عند العثمانيين لا يعرف تاريخها بالضبط؛ فقد تم العثور على أقدم المعلومات حول هذه المؤسسة في "القانون التنظيمي للسلطان محمد الفاتح" (Fâtih Sultan Mehmed'in Teşkilât Kanunnâmesi)، بناءً على ذلك من المقبول القول: أن المؤسسة كانت موجودة قبل فترة محمد الفاتح، ومع ذلك وبسبب الشكوك حول تاريخ هذا القانون، فقد جادل بعض الباحثين في أن ذلك القانون قد تم إنشاؤه في وقت متأخر، وأن الأجزاء التي ورد فيها ذكر رئاسة الكتاب تمت إضافتها لاحقاً على الأرجح في السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان القانوني³

¹ - Ibid, Sayfa 158.

² - Recep Ahishali: **Reisülküttâb**, رئيس الكتاب **Osmanlı bürokrasisinde yazı işlerini yürüten Divan Kalemî'nin âmiri**, TDV İslâm Ansiklopedisi, cilt 34, 2007, Op.cit, sayfa 546.

³ . نجد في مصادر القرن السادس عشر أن رئاسة الكتاب تذكر بشكل لا لبس فيه؛ إذ تشير المعلومات المصدرية حينها أنّ رئيس الكتاب كان موجوداً على الأقل في عهد السلطان سليم الأول؛ إذ ورد في تقويم حيدر جلبي أنّه عند عودة السلطان =

ويدعم هذا الاتجاه أنه تم إنشاء رئاسة الكُتّاب لتخفيف العبء على النيشانجي الذي كان يقوم بهذا العمل بسبب زيادة التقنيات القانونية المختلفة¹، فزيادة القوانين في عهد سليمان القانوني هي التي يفترض أنها استدعت إنشاء مؤسسة رئاسة الكتاب.

أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر كان رئيس الكتاب يعمل تحت إمرة النيشانجي ويشرف على مجموعة من كتبة الديوان الهمايوني، وكان واجبه الأساسي يتمثل في قراءة العرائض بصوت مرتفع على أعضاء الديوان الهمايوني وكتابة تلخيصات للصدر الأعظم وإعداد المراسيم التي يصدرها النيشانجي وكتابة التقارير وإعداد رزنامة المواعيد، وظلت تلك مهامه على مدار القرن السادس عشر، إذ لم يكن هناك تغيير كبير بل زاد حجم العمل فقط².

زيادة كثافة الأعمال على النيشانجي منذ نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر والذي كانت وظيفته الأساسية وضع الطغراء على القرارات، دفعت رئيس الكتاب إلى الانفراد بالإشراف على إدارة كتبة الديوان، وظهرت مع تطور المنظومة الإدارية العثمانية في رئاسة الكُتّاب زُتّب أخرى أقل شأنًا مثل: البيلكجي (beylikçi)، والكيسدار (kesedar)³ والمميز (mümeyyiz)⁴، ومع إنشاء الباب العالي في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي انتقلت إليه رئاسة الكتاب، غير أنها استمرت في نشاطها داخل الديوان الهمايوني⁵.

انتقال رئاسة الكتاب إلى الباب العالي استدعى تكليف رئيس الكتاب بالعديد من المهام الجديدة ومع نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبالتوازي مع مركزية المنظومة الإدارية وزيادة العبء على الصدور العظام بسبب كثافة الشؤون الإدارية، تم نقل العديد من الوظائف الإدارية

سليم إلى استانبول بعد ضم إمارة ذو لقادر في (11 جوية 1515م) دخل استانبول عن طريق ركوب القارب من ميناء (Dil İskelesi)، كما تحرك رئيس الكتاب (لم يذكر اسمه) مع ييري باشا والنيشانجي في قارب منفصل. وذكر نفس المصدر أنه في سنة 921 هـ/1515م تمت دعوة رئيس الكتاب (لم يذكر اسمه) لكتابة ما مجموعه ثلاثين وثيقة، جنبًا إلى جنب مع النيشانجي. وفقًا لهذه المعلومات، فإن الأعمال التي قام بها رئيس الكتاب هي نفس الأعمال التي قام بها صاحب هذا المنصب في السنوات السابقة. بناء عليه يمكن القول أنّ مؤسسة رئاسة الكتاب كانت موجودة على الأقل في فترة السلطان محمد الفاتح مع الأخذ في الاعتبار وجود ديوان يضم كتبة في بدايات الدولة العثمانية. ينظر: Loc.cit.

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ . الكيسدار: هو موظف الأوراق في الدولة العثمانية، سواء التابع للديوان السلطاني والصدارة أو العامل في وزارة المالية. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص191.

⁴ . سوف يجري التفصيل في هذه الزُتّب بعد قليل.

⁵ - Recep Ahishali: Op.cit, Sayfa 546.

بشكل شبه رسمي إلى رئيس الكتاب؛ إذ تولى مثلاً وبشكل مستقل إعداد التلخيصات التي تعطى للصدر الأعظم، وإجراء المفاوضات التمهيدية مع السفراء الأجانب كبدايات لتطور وزارة الخارجية ليصبح رئيس الكتاب أحد المناصب المدنية الرئيسية الثلاثة للباب العالي إلى جانب الصدر الأعظم ونائب الصدر الأعظم المسمى بالكاتخدا باي (kethüdâ bey) والذي كان يمثل الصدر الأعظم في إدارة شؤون المقاطعات العثمانية¹.

على مدار القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي فَقَدَ الديوان الهمايوني أهميته، ورغم تزايد أهمية رئاسة الكتاب خلال هذا القرن إلا أنّ تلك الأهمية لم تنعكس في التشريفات (Teşrifat)؛ فعلى الرغم من أنّ النيشانجي الذي كان رئيساً لرئيس الكتاب في العهد الكلاسيكي فَقَدَ هو الآخر أهميته، إلا أنّه ظلّ السلطة العليا لرئيس الكتاب حتى نهاية هذا القرن، و كان الدفتر دار أعلى سلطة من رئاسة الكتاب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، لكن بنهاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي لم يعد بإمكانه الحفاظ على هذه المرتبة ليصبح في مرتبة أدنى².

تعتبر رئاسة الكتاب من وظائف الخدمة المدنية التي لها خصائص معينة، بالنظر لطبيعة المهام التي تؤديها داخل المنظومة الإدارية العثمانية، ولكن وبالتوازي مع الأنشطة الدبلوماسية المتزايدة للدولة في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي أصبح قسم الشؤون الخارجية المجال الرئيسي لنشاط رئيس الكتاب، مع ذلك كان منحرفاً بشكل وثيق في الشؤون الداخلية؛ فالمراسلات العادية بين الصدر الأعظم والقصر الهمايوني كانت تتم بواسطته، حيث أصبح هذا الأخير عين الصدر الأعظم في القصر وبالتالي أصبح رئيس الكتاب على دراية كبيرة بخصوصيات الدولة³.

هذا الوضع الاستثنائي أعطاه ميزة مختلفة عن بقية الإداريين، وكونه على اتصال دائم بالسفراء الأجانب وغالباً ما يشارك في المفاوضات نيابة عن الدولة، وهي مفاوضات تقتضي حنكة كبيرة لتجنب الدولة الوقوع في مطبات صعبة وخطيرة، كان من المهم أن يتمتع رئيس الكتاب بصفات عالية من الذكاء الحاد وسرعة البديهة ومعرفة جيدة بالثقافة والتاريخ السياسي⁴، إلى جانب الإلمام بالواقع الدولي سيما الأوروبي.

قبل إنشاء الباب العالي كمؤسسة رسمية في منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، كان كتبة رئيس الكتاب والديوان الهمايوني يعملون جزئياً في إقامة الصدر الأعظم، وبعد إنشاء

1 - Loc.cit.

2 - Loc.cit.

3 - Ibid, Sayfa 547.

4 - Loc.cit.

الباب العالي كمقر ثابت للصدر الأعظم أصبح لرئيس الكتاب والموظفين التابعين له مكاتب ثابتة في هذا الباب، ونتيجة أخرى للانتقال إلى الباب العالي تمثلت في رفع تأثير النيشانجي على إداري الديوان الهمايوني إلى حد ما، وبحلول نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي أصبح رئيس الكتاب الموظف المدني الوحيد المعتمد والمسؤول عن مصلحته¹، وبالتالي كان لإنشاء الباب العالي دور حاسم في تطور مؤسسة رئاسة الكتاب.

أدى هذا التطور إلى أن تسمى المصالح الإدارية التابعة لرئيس الكتاب رسمياً بـ "القلم" (kalem) وكذا باسم ديوان القلم الهمايوني (Dîvân-ı Hümâyün Kalemi)، وكان يُطلق على هذا القلم أيضاً اسم "قلم الرئيس" (reis kalemi) نسبة إلى رئيسه، وانتشر مصطلح "قلم الرئيس" خاصة بين الكتبة وكلا الاسمين استخدمتا حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، لكن مع ذلك فإن التعبير الرسمي "ديوان القلم الهمايوني" غطى على اسم "قلم الرئيس"².

مهام رئيس الكتاب

كان لرئيس الكتاب واجبات مختلفة غير المهام التي كان يؤديها مع الفروع أو الأقسام التابعة له؛ فقد كانت الإدارة العامة للباب العالي من بين المهام الرئيسية لرئيس الكتاب، فسيطرة رئيس الكتاب على الأقسام هي نتيجة لتقاسم الواجبات بينه وبين نائب الصدر الأعظم (sadâret kethüdâsı) في إدارة شؤون الموظفين الحكوميين؛ فبينما يتولى نائب الصدر الأعظم إدارة جميع "أغايات" (ağayân)³ باستثناء الشاويش باشي (çavuşbaşı) المرتبط مباشرة بالصدر الأعظم، يتولى رئيس الكتاب المسؤولية عن جميع موظفي الأقسام، وقد اعتاد الصدر الأعظم أن يخاطب رئيس الكتاب ونائبه في علاقاته الرسمية مع هذه الفئات⁴.

كان من مهامه قراءة الخط الهمايوني الذي يوجهه السلطان للصدر الأعظم بصوت عالٍ لسمعه الحاضرون، أو التي يرى الصدر الأعظم فائدة في إعلانها، كما كان من مهامه المهمة الاحتفاظ بسرية بعض الخطوط الهمايونية التي كتبها السلطان عن شؤون الدولة، وقام رئيس الكتاب شخصياً بصياغة

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ . الأغايات اسم أطلق على أغوات عساكر القصر السلطاني المكلفون بمرافقة موكب السلطان وحراسة قصوره. ينظر: الخطيب مصطفى عبد الكريم: المرجع السابق، ص 49، بتصرف.

⁴ - Recep Ahishali: Op.cit, Sayfa 548.

وتقديم البراءات (Berat)¹ ذات القيمة الدبلوماسية العالية التي يجب أن تُمنح لرئيس الوزراء، السر دار الأكرم (serdâr-ı ekrem) [قائد الجيش] والوزراء، أو البايبربايات وخانات القرم، إلى جانب تحصيله لرسوم تلك البراءات عند التسليم، كما كان نائب الصدر ورئيس الكتاب يساعدان الصدر الأعظم في تحديد طاقم الحملة العسكرية، ومن مهام رئيس الكتاب أنه بمثابة رابط الاتصال بين القصر والباب العالي، ومع ذلك مثله مثل جميع المسؤولين باستثناء الصدر الأعظم، لا يملك رئيس الكتاب سلطة كتابة أي خطاب رسمي إلى السلطان مباشرة، ومن مهامه أيضا ربط الاتصال بين الباب العالي ومشيخة الإسلام وكذا بين الباب العالي وخانات القرم²، طبعا هذه المهام الكثيرة يؤديها بمساعدة موظفيه فنحن نتحدث عن مؤسسة رئاسة الكتاب.

يتولى رئيس الكتاب أيضا متابعة القضايا القانونية لغير المسلمين من الرعايا العثمانيين أو القادمين من الخارج والمقيمين في الأراضي العثمانية كمستأمنين. وبالتالي فإن الشؤون الخارجية للدولة العثمانية كانت تدار من قبل جزء من المنظومة الإدارية المركزية الموكله لإدارة رئيس الكتاب لفترة طويلة، مع ذلك كانت رئاسة الكتاب مشغولة أيضا بجزء كبير بما تعلق بالشؤون الداخلية. من جهة أخرى تم إعداد جميع المستندات (المتعلقة بالشؤون الخارجية) وحفظها هنا، باستثناء سجلات نفقات السفراء. يذكر أنه في الفترة الكلاسيكية لم يكن رؤساء الكتاب يشاركون في صنع القرار المتعلق بالشؤون الخارجية بل كانوا معنيين فقط بأعمال التسجيل مثل حفظ سجلات الشؤون الخارجية، وإظهار نصوص المعاهدات القديمة عند الطلب وصياغة نص المعاهدات المقررة³.

قبل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي تم قبول السفراء المؤقتين في اليوم المخصص لهم ضمن قواعد معينة للحضور إلى الباب العالي أو الديوان الهمايوني، لأن السفارات الدائمة لم تكن شائعة جدًا في إستانبول، غير أن العدد المتزايد للسفراء منذ بداية القرن الثامن عشر جعل رئاسة الكتاب تبرز باعتبارها المؤسسة الأنسب للرد على الأنشطة الدبلوماسية لهؤلاء السفراء من قبل الدولة العثمانية فكان بعد ذلك على السفارات المقيمة في الدولة العثمانية أو السفراء المؤقتين من مختلف الرتب التقدم إلى الباب العالي وبالتالي إلى رئيس الكتاب في جميع علاقاتهم مع الدولة العثمانية، كان عليهم التقدم إلى رئاسة الكتاب ليس فقط في القضايا الدبلوماسية، ولكن أيضًا لنقل طلباتهم الخاصة غير الدبلوماسية

¹ - براءة: هي شهادة أو أمر صادر عن الدولة، يقضي بالإذن لحامله في مباشرة العمل المكلف به ضمن دائرة اختصاصه. ينظر: الخطيب مصطفى عبد الكريم: المرجع السابق، ص 71.

² - Recep Ahishali: Op.cit, Sayfa 548.

³ - Loc.cit.

إلى الإدارة العثمانية، وكان طلب الدولة العثمانية إقامة علاقات مع السفراء الدائمين العاملين في الدولة العثمانية في الغالب من خلال رئيس الكتاب أو مترجم الديوان الهمايوني المعين من قبل رئيس الكتاب أو الصدر الأعظم حسب الأهمية الدبلوماسية للموضوع¹، ومن هذه الزاوية كان اشتباك رئيس الكتاب مع القضايا الأوروبية مبكراً، وأكسبه دربة ومرانا في الشؤون والعلاقات الخارجية.

حتى نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي كان رئيس الكتاب مكلفاً بقراءة الالتماسات على السلطان وأعضاء الديوان الهمايوني، وكان برتوكولياً أول من يحضر إلى الديوان وآخر من ينصرف منه، لكن لم يكن مسموحاً له بتقديم التماس إلى السلطان، وكان بالإمكان ترقية إلى منصب النيشانجي أو الدفتر دار².

تمت المصادقة على جميع أوراق التعيين والقرارات والأوامر الإدارية والقواعد التي كتبها الكتاب وفحصها مسؤولون آخرون في النهاية من قبل رئيس الكتاب مع ختمه الخاص، بعد هذا الإجراء يتم تجهيز الأوراق أخيراً بأمر (buyuruldu)³ من الصدر الأعظم ويتم إرسالها إلى النيشانجي إذا احتاجوا إلى ختم السلطان أو الطغراء، وكان رئيس الكتاب يساعد النيشانجي في إعداد المراسيم أو الفرمانات الهمايونية، كما كان يكتب شخصياً الرسائل ذات الطابع السري، ويحتفظ بسجلات لقرارات السلطان والمعاهدات، وكانت جميع المراسلات تحت إشرافه ما عدا الشؤون العسكرية والمالية⁴، علاوة على ذلك كان جزء من وظيفته إعداد قائمة التعيينات للمناصب المختلفة⁵.

¹ - Loc.cit.

² - Gábor Ágoston and Bruce Masters: **Encyclopedia of the Ottoman Empire**, Facts on File, Inc. An imprint of Infobase Publishing, New York, USA, 2009, p 486.

³ - بيورلدي: الأمر، أو التوجيه الكتابي الصادر من لدن الصدر الأعظم أو الوزراء، وسميت به كذلك الأوامر التي أصدرها الصدر الأعظم في ديوان العصرية (أي وقت العصر)، ويطلق على الدفاتر التي تسجل فيها الأوامر بـ دفتر بيورلدي". ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 68. بحسب مرادجه دوسون: إذا كان المرسوم موجّهاً لأحد المقاطعات فإن النيشانجي يضع "الطغراء" الهمايونية في أعلى المرسوم ويسمى المرسوم حينها بـ "الفرمان"، لكن إذا كان المرسوم موجّهاً للمسؤولين داخل العاصمة فإنه يسمى "بيورلد" ويكتفى فيه بتوقيه الصدر العظم فقط. كلمة "بيورلد" تركية، أما "فرمان" ففارسية وكلاهما بمعنى الأمر أو المرسوم التنفيذي. ينظر:

Mouradja d'Ohsson : Op.cit, P162.

⁴ . ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر كان يقوم كل يوم بإعداد التلخيصات والكتابات اللازمة في الباب الآصفي، وبعد أن يُطلع الصدر الأعظم عليها يرسلها إلى السراي. وكان من صلاحياته أن يضع كلمة أو إشارة "صح" على الكتابات التي يجرها هو، مما يعني أنه هو الذي أعد تلك الأوراق، أو اطلع عليها وتأكد من صحة كتابتها. وفي أواخر ذلك القرن كانت الفرمانات التي تحمل الطغراء ولا تحمل تلك الإشارة لا يعتد بأمرها. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص 197.

⁵ - Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P486.

مكانة رئيس الكتاب وهيكلية مؤسسته

اتساع صلاحياته تلك لم تمنحه ميزة أن يكون معدودا ضمن أركان الدولة حتى سنة 1252هـ/1836م، وهي السنة التي أصبح فيه وزيرا للخارجية، قبلها كان فقط واحدا ضمن رجال الباب العالي، لأن أركان الدولة من حقهم أن يُدُلُّوا برأيهم في الديوان ويتصدّروه عند الجلوس، أما رئيس الكتاب فلم يكن من حقه في ديوان الصدر الأعظم أن يفعل ذلك، كما كان يجلس فوق سجادة على الأرض وليس على الأريكة، وكانت لرئيس الكتاب مهمة أيضا في إعداد الأوراق الخاصة بالصرّة الهمايونية (surre-i hümâyün)¹؛ فقد كان عليه في اليوم السابق على خروج محمل الصرة أن يحمل إلى السراي الرسالة الهمايونية (Nâme-i Hümâyün)²، التي حُررت في الباب العالي إلى أمير مكة فيسلّمها لمن يدعى قزقر آغاسي (Kızlar Ağası)³، وتجري هناك مراسم إلباسه [لباسا خاصا] تكريما له، كما جرت العادة عند عزل شيخ الإسلام أن يقوم رئيس الكتاب بتبليغه ذلك الأمر، وليس رئيس الجاويشية "شاويش باشى" تقديرا لمكانة شيخ الإسلام⁴.

نظرًا لأن رئاسة الكتاب كانت تحتل موقعا مهما، فقد اعتبرت في عين الدولة مناسبة لتعيين مندوبين منها للتفاوض باسم الدولة العثمانية أمام الدول الأجنبية. واعتبرت رئاسة الكتاب في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي بمثابة وزارة الخارجية. النجاح الكبير الذي حققه هنا رئيس الكتاب رامي محمد أفندي⁵ حين تم تعيينه كمندوب رئيسي لتوقيع معاهدة كارلوفيتز، أكد بطريقة

1. الصرة الهمايونية (surre-i hümâyün): هي المبالغ المالية التي كانت ترسل من لدن السلاطين العثمانيين إلى مجاوري مكة والمدنية المنورة من الحكام والسادة والأشراف والأعيان والفقراء، وكانت قافلة الصرة تخرج من إستانبول في 12 رجب من كل سنة متوجهة إلى الحجاز. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق ص144.

2. الرسالة الهمايونية (Nâme-i Hümâyün): هي الرسائل التي بعثها السلاطين العثمانيون إلى حكام الدول الأجنبية وكذلك الأمراء التابعين وحكام المناطق ذات الامتيازات الخاصة. ينظر:

Zeynep Tarım Ertuğ: **Nâme-i Hümâyün**, نامه همايون **Osmanlı padişahlarının yabancı hükümdarlara gönderdiği mektuplara verilen ad**, TDV İslâm Ansiklopedisi, (gözden geçirilmiş 3. Basım) EK-2. Cildinde, 2019, Op.cit, sayfa 346.

3. قزقر آغاسي (Kızlar Ağası): وتعني المشرف على دائرة الحرم في القصر السلطاني ويطلق عليه أيضا (آغا دار السعادة) وكان على راس خدم القصر. ولأهمية منصبه كان يأتي بعد شيخ الإسلام مباشرة في الترتيب الرسمي... وكان رئيس الأعوات القائمين على خدمة الحرمين الشريفين، وويصحب الصرة إلى الحجاز سنويا. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص180، بتصرف.

4. أكمل الدين أوغلو: المرجع السابق، ص197.

5. رامي محمد باشا (1654-1707): الصدر الأعظم والمصلح والشاعر العثماني. من أعيان فئة الكتاب من أهل القلم. كان رئيسا للكتاب خلال 1696 و1702. كان عضواً في وفد مفاوضات كارلوفيتز (1698-1699) وأثبت قدرة دبلوماسية عالية في سنة 1703 عين صدرا أعظما، فحاول إصلاح النظام المالي، وإعادة إرساء الأمن الداخلي، انتهت صدارته الكبرى =

ما أهلية رؤساء الكتاب في هذه الأمور، ومهّد الطريق لتعيين رؤساء كتاب آخرين مندوبين في المفاوضات والمعاهدات¹، وقد فتح رامي باشا لفئة الكتاب باب التعيين قي منصب الصدارة باعتباره تاريخياً أول رجل من فئة الكتاب يعين صدرا اعظما.

تضاءلت في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي مكانة الديوان الهمايوني في شؤون الدولة لصالح الباب العالي، وأصبح رئيس الكتاب رجل الدولة الثالث بعد الصدر الأعظم ونائبه مما أكسبه نفوذاً سياسياً، وعلى الرغم من أنه كان من الممكن في السابق ترقيته إلى مناصب مثل حاكم "بيلرباي" ونيشانجي، إلا أنه في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي أصبح من الممكن تعيينه مباشرة للوزارة ثم منها إلى أعلى منصب في المنظومة الإدارية العثمانية؛ منصب الصدر الأعظم²، فتزايد بذلك نفوذه السياسي ليصبح من ذوي الجاه والنفوذ والسلطة.

منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي دفعت الزيادة في حجم عمليات المنظومة الإدارية للدولة إلى أن تظهر مجموعات من الكتبة المتخصصين في مصلحة بعينها تم تحديد واجباتهم داخل رئاسة الكتاب وأصبحت لهم أسماء حسب المجالات التي تخصصوا فيها، عموماً هناك ثلاثة مكاتب أو أقلام تشكّل رئاسة الكتاب:

أ. بايليك قلمي (Beylik Kalemi)³: وهو أول أقلام الديوان الهمايوني وأهمها وهو مستودع اللوائح المدنية والعسكرية والمعاهدات المبرمة مع القوى الأجنبية، فيها يتم إرسال المراسيم والفرمانات

مع ثورة 1703م، ومات في السجن في رودس. ملاحظاته حول المفاوضات مع العصبة المقدسة موجودة في وقائع المصالحة (Vakayi-i Müsâlaha). ينظر: Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P238.

¹ - Recep Ahishali: Op.cit, Sayfa, Sayfa 548-549.

² - Ibid, Sayfa 549.

³ . إلى هذا المكتب أو القلم ترسل القرارات التي تتخذ في الديوان الهمايوني، ومن هذا المكتب ترسل تلك القرارات إلى المكاتب أو الفروع ذات الصلة، يوجد داخل هذا المكتب سجلات تسمى "دفاتر الكتب الهمايونية" (Nâme-i Hümâyûn (Defterleri)، تسجيل فيها أصول الرسائل والتحيات المرسلات إلى السلاطين من قبل حكام مختلف الدول والشخصيات والأشخاص باسم (Defteri)، وردود السلاطين ووزرائهم عليها اسم الرسائل أو الكتب الهمايونية (Nâme-i Hümâyûn). ينظر:

Alp Eren Topal: " **From Decline to Progress: Ottoman Concepts of Reform 1600-1876**" In Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy, Graduate School of Economics and Social Sciences, The Department of Political Science and Public Administration, Ihsan Doğramacı Bilkent University, Ankara, Turkey, June 2017, P170-171.

ويدخل في اختصاص بايليك قلمي إعداد النظم والقوانين العسكرية والمدنية والاحتفاظ بالمعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية وإصدار كافة الأوامر والفرمانات في غير النواحي المالية. ويقوم قلم بايليك قلمي بإمسك عدد من الدفاتر التي ظهرت في تواريخ مختلفة مثل: دفاتر الأحكام، ودفاتر المهمة، ودفاتر الشكاية القديمة (عتيق شكايت)، وغير ذلك. ويساعده موظفون كثير. استمر القلم حتى نهاية الدولة العثمانية. ينظر: أكمل الدين اوغلو: المرجع السابق، ص 198-199.

(ferman) التي ليست من مسؤولية مصلحة المالية "الدفتدار"¹.

ب. تحويل² قلمي (Tahvil Kalemi): في هذا المكتب توجد شهادات الولاية "براءات" وشهادات الملاء أو قضاة المدن من الدرجة الأولى (التحويلات) وشهادات أصحاب الإقطاع العسكري³ ج. رؤوس قلمي (Ruûs Kalemi): هو اسم المكتب الذي ترسل فيه أحكام "رؤوس" موظفي الديوان والجيش والمساجد أي الأئمة والمؤذنين، والخطباء والشيخ والقيمين بناءً على هذه الأحكام يتم إصدار شهاداتهم "براءات"، فقط الأخيرة ليست مكتوبة مثل تلك الخاصة بالولاية والإقطاعيين في المكتب الثاني، ولكن في مستشارية مصلحة المالية⁴. والرؤوس إشارة إلى الأشخاص⁵.

تتكون هذه المكاتب الثلاثة التابعة لرئاسة الكُتّاب من 120 كاتبًا، مقسمة إلى ثلاث فئات: أ. الأمناء "السكرتارية". ب. المحررون أو المبيّضون. ج. الناسخون. يوجد في الفئة الأولى خمسون موظفًا وفي الثانية الذين يستفيد أعضاؤها من إقطاعيات عسكرية كأجرة بلغ عددهم عشرين، أما الثالثة فعددهم خمسون، ويتم دفع راتبهم نقدًا، وبدلاً من "البراءات" يحصلون على الفرمان فقط⁶. على رأس كل قسم من الأقسام الثلاثة لمكتب الديوان الهمايوني، ومرة أخرى كنوع من وظيفة

¹ - Hammer: Op.cit, Tom 17, P44.

². تحويل (Tahvil): ويطلق بشكل عام على الوظيفة الشاغرة الموجهة للوزراء أو أمير الأمراء أو أمير السنجق أو الموالي أو أصحاب التيمار والزعامت أو توجيه وظيفة لهم أو نقلهم إلى وظيفة جديدة. أما استخدامه كمصطلح مالي، فيقصد به دفع دين حكومي إلى مصدر من مصادر دخل الدولة. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص72، بتصرف.

³ - Hammer: Op.cit, P44.

⁴ - Ibid, P44-45.

⁵. رؤوس: الاسم الذي أطلق على ورقة الأهلية لكل موظف في الدولة العثمانية ممن يقبض منها راتبًا، ما عدا الوزراء وأمراء الأمراء وأمراء السنجق وأصحاب الموالي والتيمار والزعامت. حيث يتم تسجيلهم في دفاتر تسمى بدفاتر رؤوس، يحتفظ بها في مكتب رؤوس بالديوان الهمايوني. وكانت شهادة رؤوس على ثلاثة أقسام: 1. رؤوس مكتب الرؤوس: وتتضمن شهادات شيخ الإسلام وقضاة إستانبول وأيوب وغلطة وأسكودار وآغا باب السعادة والعاملين في الأوقاف التي يشرف عليها آغا القصر والأندرن، والعساكر العاملين في القلاع. 2. رؤوس الجيش: وتتضمن الأوقاف التي يشرف عليها الصدر الأعظم، وأفواج الخيالة من أفراد قباي قولو وأفراد المدفعية وغيرها. 3. رؤوس ركاب. وكانت على قسمين: أ رؤوس روزنامجي الصغير: وتتضمن الكتاب في الديوان الهمايوني وأفواج الصيد والبوابين والعريفين في الديوان... إلخ. ب - رؤوس المشاة: وتتضمن أكثرية العاملين في القصر. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق ص121. ونظرا لكونه من أكثر أقلام الديوان الهمايوني ازدحاما بالمعاملات فقد كان يضم عددا من الكتبة والتلامذة (شاگرد) وغيرهم وصل في القرن الثامن عشر إلى 150 موظفا. ينظر: أكمل الدين أوغلو: المرجع السابق، ص200.

⁶ - Hammer : Op.cit, P45.

مساعد الكاتب الرئيسي، جاء المسؤولون المعروفون باسم كيسيدار "حامل الحقيبة" (kisedar)¹، الذين تضمنت واجباتهم حفظ المستندات في أكياس (Kise، Torba) وتحصيل الرسوم المفروضة على إصدار الوثائق الرسمية. بالإضافة إلى ذلك كان طاقم البيليكجي المسؤول عن قلم البايليك يضم أيضاً ثلاثة مسؤولين مشرفين آخرين: كان أحد هؤلاء هو المميّز (Mümeyyiz) أو فاحص الوثائق، الذي قام بفحص الوثائق التي تمت صياغتها في المكتب للتأكد من صحة الأسلوب الرسمي والتوافق مع ما أسماه المستشرق النمساوي فون هامر "روح الدستور"².

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك أيضاً كل من القانوني (kanuncu) وهو خبير في القوانين الصادرة عن الدولة والذي يقوم بفحص كل إجراء للتأكد من توافقه مع تلك القوانين، والمقرّر (ilamcı) الذي أعد تقارير حول الموضوعات الصعبة أو المشكوك فيها حسب الحاجة، لا يبدو أن أيًا من هؤلاء المسؤولين كان موجودًا في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ولم تكن هناك حاجة إلى القانوني قبل أن ينتقل الكتبة من القصر إلى الباب العالي ويفصلون عن رئيسهم النيشانجي³.

اكتسبت الأقلام الثلاثة التابعة لديوان القلم الهمايوني هيكلها الرئيسي في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وفي نهاية هذا القرن حدث تغيير مهم آخر في هيكل ديوان القلم الهمايوني؛ إذ تمّ إنشاء مصلحة جديدة ضمن قسم القلم الميري (Beylik Kalemi) باسم قلم مهمة (Mühimme Kalemi)، وتمت إضافة مكتب أو قلم الآمدي (Âmedî Kalemi)⁴ إلى أقسام ديوان القلم الهمايوني كقسم جديد تحت إشراف الآمدجي (Âmedci) الذي شكل المكتب الخاص

1. هو أهم مساعدي رئيس الكتاب، مهمته المحافظة على الأوراق في قلم الرئيس وإدارة المعاملات والإجراءات وإيصال الأوراق التي تحمل كلمة (رسيد) أي "صح" إلى الجهة المعنية بها، وتحصيل الرسوم الخاصة بالقلم، وتقديم معلومات مكتوبة حول المعاملات والتطورات الخاصة بالصدارة العظمى والمناصب المنوطة بها. ينظر: أكمل الدين أوغلو: المرجع السابق، ص 197-198.

2 - Carter V. Findley: Op.cit, P83.

3 - Ibid, P83-84.

4. آمدي أو آمدي قلمي (Amedi Kalemi): مكتب من مكاتب الديوان الهمايوني، خاص برئيس الكتاب الذي هو وزير الخارجية، يقوم هذا المكتب بكتابة التقارير أو التلخيصات التي يرسلها الصدر الأعظم إلى السلطان، أو مسودات الخطابات التي يرسلها إلى رؤساء الدول، وكتابة المعاهدات الدولية وإعداد بنودها ومحاضر جلساتها وكافة الخطابات التي ترسل لممثلي الدول الأجنبية والقناصل أو الكتابات الموجهة للتجار الأجانب، كما أنّ الخطابات أو العرائض والتقارير والخطابات المشفرة الواردة من ممثلات الدولة العثمانية في الخارج كانت ترسل لهذا المكتب. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 24. اعتبره البروفسور أكمل الدين داوود أوغلو القلم الرابع ضمن أقلام الديوان الهمايوني، وذكر أنه ظل قائما حتى نهاية الدولة العثمانية ينظر: أكمل الدين أوغلو: المرجع السابق، ص 200 - 201. بخصوص مصطلح أمدي، فهو من الفعل الفارسي "وصل"، يقال إنه مشتق من حقيقة أن الآمدي كتب مصطلح (amed) "وصل" في السجلات المناسبة للمقابلة لأسماء المستفيدين الجدد من الإقطاعات للإشارة إلى استلام الرسوم المستحقة عليهم لصالح رئيس الكتاب. ينظر: Carter V. Findley: Op.cit, P84.

أو سكرتارية رئيس الكتاب¹. الكتبة المنتسبون لهذا القلم يعرفون باسم الخليفة (halife) وليس باسم الكتبة كما هو الحال في أقلام الديوان الأخرى².

يندرج تحت المكاتب أو الأقلام التابعة لرئيس الكتاب مكتب بالغ الأهمية - والذي كان اسمياً تحت إشراف الديوان الهمايوني ولكنه في الواقع مستقل تماماً عنه - هو مكتب مترجم الديوان الهمايوني (Divan-ı Hümayun Tercümanı)، ليصبح لاحقاً مترجم الباب العالي، يترجم مترجم الباب العالي المذكرات والوثائق التي يرسلها سفراء الدول الأجنبية إلى الحكومة، ويحضر مقابلاتهم مع رئيس الكتاب ويترجم خطاباتهم في جلسات الاستماع العامة التي يحضر فيها السلطان أو الصدر الأعظم، وله دور كبير في إدارة شؤون السياسة الخارجية، حيث يقوم أحياناً بتوجيه رئيس الكتاب حين يكون الأخير جاهلاً بكل ما يتعلق بأوروبا. في الماضي كان مكتب المترجم الفوري يشغله المعتنقون للإسلام³، ولكن لمدة قرن ونصف أصبح يتولى هذا المنصب أعرق العائلات اليونانية بالقسطنطينية الذين يرتقون من هذا المنصب ليصبحوا حكاماً لمولدافيا وولاشيا (الأفلاق والبغدان)⁴.

كانت سكرتارية الصدر الأعظم (Mektubi) أيضاً تحت سلطة رئيس الكتاب، ويشرف عليها شخص يدعى "المكتوبجي"، وله مساعد رئيسي يدعى "سر خليفة" أو "باش خليفة" (Ser Kalfa, Baş Kalfa) وظيفته: إعداد المسودات الأولية من تسويد (Tesvid) وملخصات (Hulasa) وتبييض (Tebeyyuz)⁵. علماً أنّ التسويد هو كتابة النسخة الأولى وهي المسوّدة أي قبل الزيادات والتنقيحات، والتبييض هو كتابة النسخة الأخيرة للرسالة أو الكتاب.

يتلقى رئيس الكتاب مداخل فقط من حكام المقاطعات الجدد؛ فيدفع له الباشوات مبلغاً قدره 3000 قرش، أما الميرمانيون [وهي درجة من درجات الباشوات تقع تحت رتبة الوزير والبيكرباي والكلمة فارسية الأصل ومختصرة من "أمير أميران" أي "أمير الأمراء"] فيعطونه 500 قرش. لكن رسوم رئاسة الكتاب وما إلى ذلك تعود عليه بفوائد كبيرة⁶ تجعله بالغ الثراء⁷. هذا وكان الزي الرسمي لرئيس

¹ - Recep Ahishali: Op.cit, Sayfa 546.

² - Ibid, Sayfa 547-548.

³. لأخذ صورة مجملة عن هيكلية رئاسة الكتاب ينظر: الملحق (05) مخطط مؤسسة رئاسة الكُتّاب في الدولة العثمانية ص 611.

⁴ - d'Ohsson: Op.cit, P165-166.

⁵ - Carter V. Findley: Op.cit, P84.

⁶ - d'Ohsson: Op.cit, P189.

⁷. من ذلك ما أورده بعض المؤرخين من أن أحد رؤساء الكتاب واسمه سامويد كان مشهوراً بين الأتراك بسبب سلطته وثروته. كان هذا الرجل قد كسب كمية كبيرة من الأشياء الثمينة بحيث يستحيل جردها جميعاً. يكفي القول أنه بعد إعدامه خلال حرب =

الكتاب يتكوّن من عمامة كبيرة مستديرة تسمى "موجريز"، ورداءا بنيا مبطنا بالفرو¹.

الإصلاحات الإدارية لسليم الثالث ومحمود الثاني

كما ذكر أعلاه فقَدَ الديوان الهمايوني أهميته خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وتم نقل مكاتب الديوان تدريجياً إلى سلطة ديوان الصدر الأعظم الذي يعرف بالديوان الثاني (İkinci Divan) ومقرّه بالباب العالي، وقد أخذ بوضعه الجديد هذا تدريجياً اسم الباب الآصفي ليصبح المركز الإداري الرئيسي للحكومة العثمانية، وتم إنجاز كل هذه الإصلاحات بشكل غير رسمي لم يتم عمل أي شيء لتغيير القوانين لتتوافق مع الواقع الجديد أو لتعديل لوائح مكتب الصدر الأعظم لتشمل التزاماته وصلاحياته الجديدة وصلاحيات الديوان الهمايوني المتناقصة، فكانت النتيجة فوضى إدارية، وتسلسلاً مشوشاً للسلطة، وتدهوراً سريعاً ومتزايداً في معايير التدوين والعمل الإداري العثماني والذي ظل على مستوى عالٍ إلى حد ما حتى ذلك الوقت².

لم تُبذل الجهود لضبط النظام الجديد وتنظيمه إلا في عهد السلطان سليم الثالث ولا سيما لإنشاء قنوات منتظمة للسلطة وآليات التحكم الإدارية في دائرة الباب الآصفي الموسعة بشكل كبير للصدر الأعظم، فقد تم تسليم السلطة التنفيذية العليا في الدائرة الموسعة إلى نائبه المسمى كاتخدا باب الآصفي (Kethüda-ı Bâb-ı Âsâfi)، الذي أصبح في الواقع المدير الإداري للحكومة المركزية بمساعدة رئيس الكتاب³.

نقلت على عهد سليم الثالث رسمياً أربعة أقسام من الديوان الهمايوني إلى مكتب الصدر الأعظم وهي: (أ) مكتب الأمدي: الذي يديره أمدي أفندي أو الأمدجي، والذي تم تكليفه بالعناية بالسجلات والمراسلات والمراسيم الصادرة عن الصدر الأعظم، والاتفاقيات والمراسلات مع الدول والرعايا الأجانب

[الدولة العثمانية مع الهابسبورغ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر] بسبب مؤامراته ضد الصدر الأعظم، ومصادرة ممتلكاته من طرف السلطان وُجِدَ أنّ ثروته تكفي لإثراء الصدر الأعظم في حال لو كان هذا الأخير فقيراً. ينظر:

Monsieur Briot : **Histoire de l'état présent de l'Empire ottoman, contenant les maximes politiques des Turcs, les principaux points de la religion mahométane... leur discipline militaire...** Traduite de l'anglois de Monsieur Ricaut, Abraham Wolfgang, Amsterdam, Netherlands, 1670, P143-144.

¹ - Jean-Antoine Guer : **Moeurs et usages des Turcs, leur religion, leur gouvernement civil, militaire et politique**, avec un abregé de l'Histoire Ottomane, Tom2, Merigot & Piget, Paris, 1747, P158.

² - Stanford J. Shaw: **Between Old and New: The Ottoman Empire Under Sultan Selim III, 1789-1807**, Vol 15, Harvard Middle Eastern Studies, Harvard University Press, USA, 1971, P171.

³ - Loc.cit.

على النحو الذي قام به رئيس الكتاب، والاتصالات بين الديوان الهمايوني والسلطان. (ب) قلم البايليك أو (قلم الديوان)، يقوده بايليكجي أفندي، وتتمثل مهامه كما سبق القول في تسجيل مداولات وقرارات الديوان الهمايوني، بما في ذلك سجلات "مهمة" (Mühimme) ومختلف الفرمانات والمراسيم الصادرة عن الديوان. (ج) قلم الرؤوس: المسؤولة عن تسجيل المناصب والخراج، التي يشغلها جميع أعضاء الطبقة الحاكمة باستثناء أولئك الذين يحملون رتبة وزير وبايلرباي وأصحاب الإقطاعيات (التيار والزعامت) (د) دائرة الكيس أو الخزينة: وتسمى أيضاً نيشان قلمي (Nişhan Kalemi) وتحويل قلمي (Tahvil Kalemi)، الذي كان مسؤولاً عن تسجيل حيازة وتحويل جميع الإقطاعيات التي يحتفظ بها مسؤولوا الباب العالي¹.

هكذا ظلت وظائف هذه المكاتب كما كانت دائماً، ولكن الآن تم تحديد واجباتها المميزة وتم إحياء علاقاتها الداخلية وعلاقاتها مع رؤسائها الجدد ولوائحها الداخلية وإعادة صياغتها وإصلاحها لم يتبق للديوان الهمايوني سوى مكتبين فقط وهما: مكتب أو قلم التشريفات (Teşrifat Kalemi)² المسؤول عن المراسم والاحتفالات والمكافآت التي يمنحها السلطان، ومكتب "الوقعة نوز" ³ أو المؤرخ الرسمي للدولة (Vak' anüvis Kalemi)⁴.

أجريت في عهد السلطان محمود الثاني أحد أهم وأكبر الإصلاحات في المنظومة الإدارية العثمانية فقد أدخل محمود إصلاحات كثيرة على الباب العالي الذي كان لما يقرب من قرنين من الزمان المقر الحقيقي للحكومة العثمانية؛ ففي سنة 1252هـ/1836م تم تحويل كل من منصب الكهيا باي ورياسة

¹ - Ibid, P171-172.

² . قلم التشريفات: عُرفت التشريفات [البروتوكول] بأصولها وقواعدها في الدولة العثمانية من قديم، غير أن تنظيمها كإدارة لم يظهر إلا في عهد السلطان سليمان القانوني. إذ زادت قواعدها وأصولها في السراي وفي الديوان الهمايوني والمجالات الأخرى على السواء لتتلاءم مع كبر حجم الدولة وزيادة هيبتها، واقتضى الأمر أن تكون هناك إدارة مسؤولة تتولى مهمة التشريفات حتى لا يقع في المراسم والاحتفالات ما يسيء إلى هيئة الدولة ومكانة رجالها. ينظر: أكمل الدين أوغلو: المرجع الأسبق ص201.

³ . بدأت كتابة التاريخ الرسمي عند العثمانيين بما عُرف بكتابة الشهنامة (شهنامه جيلك) - التي هي نوع أدبي وتاريخي يرجع أصله إلى إيران ويكتب نثراً وشعراً - ومع وجود بعض المحاولات في هذا الموضوع على أيام السلطان الفاتح والسلطان بايزيد الثاني إلا أن ظهور ذلك الجهاز بالمعنى الحقيقي وقع في عهد السلطان سليمان القانوني. وقد تولى هذه الوظيفة منذ أواسط القرن السادس عشر حتى أواسط القرن السابع عارف چلبى (ت 969هـ) وأفلاطون (ت 972هـ) وسيد لقمان (توفي بعد عام 1010هـ) وتعليقي زاده (ت 1008هـ) وحكمي حسن أفندي (توفي بعد عام 1048هـ) وغني زاده نادري (ت 1036هـ) وملهمي إبراهيم (ت 1060هـ). وكانت الأحداث المروية في الشهنامات يجري تصويرها وترتيبها في الغالب بالمنمات الطريفة ... واستمرت تلك الوظيفة من أوائل القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين لمدة متصلة بلغت مائتي عام. ينظر: المرجع نفسه ص202.

⁴ - Shaw: Stanford J. Shaw: Op.cit, P172.

الكتاب إلى وزارتين منفصلتين - على الرغم من بقائهما في نفس مبنى الباب العالي وتؤديان نفس الواجبات - وتم تسميتهما بوزارة الشؤون المدنية والخارجية على التوالي، وبعد ذلك بعامين تم تغيير اسم المكتب القديم للدفتردار إلى وزارة المالية، وانضم الدفتردار نفسه إلى الصدر الأعظم ورئيس الكتاب بصفته وزيراً، وتم تغيير اسم وزارة الشؤون المدنية سنة 1253هـ/1837م إلى وزارة الداخلية، وفي العام التالي تم إلغاء لقب الصدر الأعظم وتم تعيين شاغل الوظيفة باسم رئيس الوزراء، لكن تم استعادة لقب الصدر الأعظم القديم في وقت لاحق¹، كان محمود الثاني يحاول استحداث حكومة عثمانية على الطراز الأوروبي، متأثراً بإصلاحات سلفه سليم الثالث.

بتحوّل مؤسسة رئاسة الكتاب إلى وزارة الشؤون الخارجية (Hariciye Nezâreti) أصبحت مهمة رئاسة الكتاب أو وزير الخارجية² متعلقة بالشؤون الخارجية ولا علاقة له بالشؤون الداخلية، وأصبح لوزارة الخارجية قوانينها وتنظيماتها الخاصة³، وسرعان ما أصبح وزراء الخارجية مؤثرين جدا في مجلس الوزراء، وأصبح منصب وزارة الخارجية الثاني في الهيبة بعد رئيس الوزراء الصدر الأعظم، بل يمكن القول أنه واقعيًا كان وزير الخارجية بطريقة ما "رئيس وزراء الشؤون الخارجية" في حين كان الصدر الأعظم "رئيس وزراء الشؤون الداخلية"، فقد مارس وزراء الخارجية نفوذاً كبيراً؛ لذلك كان من الطبيعي أن يصبح العديد من وزراء الخارجية في منتصف القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي على وجه الخصوص رؤساء وزراء في مناسبات عديدة والعكس صحيح⁴. وأصبحت وزارة الخارجية العثمانية المؤسسة المركزية الوحيدة للمعلومات عن الشؤون الخارجية الأوروبية على وجه الخصوص⁵.

¹ - Bernard Lewis: **The Emergence of Modern Turkey**, 2Edt, Issued under the auspices of the Royal II Institute of International Affairs, Oxford University Press, London Oxford, New York, 1968, P98.

². أصبح آخر رئيس كُتاب السيد عاكف أفندي بوزوقلي (1787-1845م) وزيرا للشؤون الخارجية. ينظر:

A. Nuri Yurdusev: **Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?** 1 Edt, Palgrave Macmillan, Hampshire, England 2004, P 137.

³ - Recep Ahishali: Op.cit, Sayfa 549.

⁴ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P136-137.

⁵. ذكر المؤرخ برنارد لويس أنه توجد: في مكتبة ولاية سكسونية بمدينة درسدن (Dresden) بألمانيا، مخطوطة تركية تحتوي على تاريخ فرنسا من الملك الأسطوري للفرنجة فاراموند (حوالي 365 - 430) حتى عام 1560. تمت ترجمته بأمر من رئيس الكتاب فريدون أحمد باي - المشهور بمؤلفه منشآت السلاطين - . علق برنارد لويس على هذه الترجمة قائلاً: قد يكون هذا العمل هو أول ترجمة لعمل تاريخي أوروبي إلى التركية. تبع ذلك سرد لاكتشاف العالم الجديد، مقتبس من مصادر أوروبية، مما يعكس القلق التركي [العثماني] المتزايد بشأن التوسع الهائل للقوة البحرية الغربية. ينظر:

Bernard Lewis: **Islam in History: Ideas, People, and Events in the Middle East**, New Edt, Open Court, USA, 2011, P120.

تم وضع العديد من مسائل التشريع وحفظ السجلات - التي عالجها سابقاً الديوان الهمايوني ثم الباب العالي تحت سلطة رئيس الكتاب وتحت إشراف الصدر الأعظم - بالكامل الآن تحت اختصاص وزارة الخارجية، وللتعامل مع هذه المهام تم تقسيم الوزارة إلى قسمين رئيسيين، كل منهما تحت إشراف وكيل وزارة "مستشار"، وكل قسم مقسم بدوره إلى إدارات يرأسها كبار الكتبة: كان للقسم الأول قسم الشؤون الخارجية لإدارات للتعامل مع الشؤون الخارجية والتجارة الخارجية واستقبال الممثلين الأجانب بالإضافة إلى الإشراف على الصحافة الأجنبية وغيرها¹.

أما القسم الثاني الذي يتكون بشكل أساسي من أقسام الديوان الهمايوني القديم الذي تعامل مع الشؤون الداخلية فكان له قسمان: الأول: السكرتارية برئاسة كاتب المراسيم العليا الذي أصدر وسجل جميع المراسيم ورسائل السلطان إلى الحكام والمسؤولين الأجانب والاتصالات والمذكرات الأخرى المتبادلة مع الحكومات الأجنبية أو ممثليهم في الباب العالي والمعاهدات ووثائق البراءات (berat) المتعلقة بالتعيين وعزل المسؤولين أو تحويلهم، وإجازات السفر داخل وخارج الدولة. الثاني: قسم أو دائرة المذاهب غير الإسلامية (Mezahib-i Gayr-i Müslim Dairesi) تم تقسيمه إلى أقسام لكل ملة مكلف بإصدار الأوامر المتعلقة بها وبأعضائها من الوزارة نفسها ولكن أيضاً في جميع الإدارات والوزارات الأخرى من الحكومة. بالإضافة إلى ذلك كان هناك قسمان أصغر هما: مكتب الترجمة (Tercüme Odasi)² وقسم المحفوظات في الوزارة (Hariciye Evrak Odasi)، والتي تطورت لاحقاً إلى أرشيفات لجميع أقسام الباب العالي³.

وسَّعت مؤسسة رئاسة الكتاب نفوذها إلى المؤسسات الأخرى للطبقة الحاكمة، لتشمل مصالح أخرى كتبة غير الباب العالي والديوان الهمايوني الذي كان رئيس الكتاب يشرف عليهم بصفة رسمية فقد

¹ - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808-1975**, Vol 2, Edt8, Cambridge University Press, New York, USA, 2002, P72.

² . تم إنشاء قسم الترجمة (Tercüme Odası) سنة 1238هـ/1823م وكان تطورا هاما آخر؛ اضطلع بسدّ العجز في اللغة الأجنبية الذي عانى منه السفراء العثمانيون وأثبت أنه عائق خلال الفترة الأولية، بالإضافة إلى ذلك سيكون القسم "مدرسة" للدبلوماسيين المستقبليين. أحد التطورات الأخرى في هذا الاتجاه كان إنشاء المدرسة الإمبراطورية (Mekteb-i Mülkiye) لتثقيف الإداريين المدنيين سنة 1275هـ/1859م. وأدى ظهور خدمة التلغراف الذي ربط إسطنبول بالقارة في محرم 1272هـ/سبتمبر 1855م إلى تسريع وتيرة الدبلوماسية العثمانية وتقوية الخدمة بين عشية وضحاها، كما حدث في أوروبا من خلال تشديد الرقابة على مهام وزارة الخارجية في الخارج. أصبحت وزارة الخارجية نفسها مؤسسة أكبر وأكثر ازدحاما تدريجيا مع تصاعد حركة الاتصالات. ينظر: A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P137-138.

³ - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P72-73.

فَقَدَّت الخزانة الهمايونية: الخزينة العامرة (Hazine-i Âmire) العديد من وظائفها لصالح الصدارة العظمى، وتُركت باسم سجل أو دفتر الباب (Bab-ı Defteri) للإشارة إلى وظيفتها الرئيسية، حيث تم تعيين معظم وظائفها من قِبَل رئاسة الكتاب، وامتدت سلطة الكتبة أيضاً إلى المؤسسة العسكرية من خلال أعضاء يعملون كسكرتير وأمناء خزينة في السلك العسكري، ويسيطرون على توزيع الأجور والإمدادات ويحصرون الأغوات أكثر فأكثر في الوظائف العسكرية البحتة، وغالبًا ما كان الكتبة الآخرون ينتقلون إلى المؤسسة الحاكمة ليصبحوا حكاما أو وزراء وحتى صدورا عظاما، كل ذلك أثناء خدمتهم تحت تأثير المجموعة التي درّبتهم وأغنتهم¹، وهكذا تغلغت فئة الكتاب من أهل القلم في كامل مفاصل الدولة العثمانية في شقيها المدني والعسكري.

من هنا يرد تساؤل بعض المؤرخين الذين درسوا بعمق أسباب ضعف وانحطاط الدولة العثمانية بداية من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وهو تساؤل وجيه مفاده: رغم الكثير من آمارات الضعف والتحلل الإداري العام والاضطرابات والهزّات - المفضية إلى الانهيار - إلا أنّ كل ذلك لم يؤثّر في انهيار الدولة إلا بشكل بطيء جدا فما تفسير ذلك؟

يجد التساؤل إجابته في وجود طبقة إدارية وُسطى ازداد عددها وتغلّغل في جميع مفاصل المؤسسة الحاكمة، وهُم الكُتّاب؛ فقد شكّلوا دعامة دائمة من الإداريين الذين واصلوا وظيفتهم في إدارة القانون وتنفيذ مهام الإدارة وفق تقاليدهم القديمة، رغم كلّ التحوّلات والفساد الذي استشرى فيمن فوقهم وقد واصل أعضاء هذه الطبقة برئاسة رئيسهم تدريب المتّمنين إليهم بشكل جيّد وعملي²

لقد كانت فئة الكتاب من أهل القلم الجماعة الأكثر تنبُّها لأزمة الدولة، وقد مكّنتهم تنظيمهم الدقيق وانبثاقهم في أجهزة الدولة، من مُلامسة المشاكل الأساسية المحيطة بالعسكرية والخزينة والمؤسسة الحاكمة ككل ومن جهة أخرى فإنّ فئة الكتاب الذين تخصصوا في الترجمة والاتصال بالسفراء الأجانب كانوا مُنتبّهين إلى ما يجري في أوروبا³. لذا كانت مُعظم مشاريع الإصلاح في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وما بعده كما سنرى في الفصل الموالي من تأليف فئة الكتاب.

¹ - Stanford J. Shaw: Op.cit, P282.

² - Stanford J. Shaw: **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey**, Vol1, Op.cit, P280.

³ . خالد زيادة: " دور فئة الكُتّاب الإداريين في علمنة الدولة العثمانية "، مجلة الاجتهاد، العدد 43، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، 1989، ص 169 . 170.

تعرفنا في هذا المبحث على نشأة التدوين بصفة عامة في الدولة العثمانية والروافد الثقافية المختلفة التي أسهمت في بنائها الإداري، وتعرفنا كيف نشأة فئة الكتاب ضمن الإدارة العثمانية، كما تعرفنا على النيشانجي الرئيس القديم لفئة الكتاب نشأة وتطورا، وكيف حل مكانه في المكانة والصلاحيات مرؤوسه رئيس الكتاب الرئيس الثاني للكتابة، تطرقت إلى تاريخ نشأة رئيس الكتاب ثم عرضت صلاحياته ومكانته حسب المصادر العثمانية، وبعدها جرى الحديث حول هيكلية مؤسسة رئاسة الكُتّاب، ثم عرجت للحديث عن أهم الإصلاحات الحديثة للإدارة العثمانية التي جرت على يد السلطانين سليم الثالث ومحمود الثاني، منها بذلك متطلبات الفصل الأول من الأطروحة.

قدمت في الفصل الأوّل: فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي عامة والعثماني خاصة، عبر مباحث ثلاثة ما يجعل تصورنا لفئة الكتاب من أهل القلم واضحا جليا؛ بداية من عرض موجز لتاريخ الإدارة والنظم الإسلامية عامة وعبر العهد النبوي والأموي والعباسي، مروراً بالدول التي اعتبرت سلفاً للعثمانيين؛ الدولة الأيوبية ودولة المماليك والسلاجقة، ثم عرضت موجزاً لتاريخ الدولة العثمانية من عثمان إلى سليمان القانوني الذي بلغ في عهده النظام الإداري العثماني عصره الذهبي كما تطرقت إلى الروافد الحضارية التي استفادت منها الإدارة العثمانية (التراث الإسلامي والفارسي والبيزنطي)، عرضت بعدها لبنية المنظومة الإدارية العثمانية وأهم الإصلاحات التي أدخلت عليها متحدثاً بإيجاز عن مكانة رأس الهرم الإداري العثماني ألا وهو الصدر الأعظم (كبير الوزراء)، يمثل ما سبق الإطار العام الذي ينبغي أن نرى ضمنه فئة الكتاب من أهل القلم، من حيث تحدثت على نشأتهم ونشأة رئيسيهما القديم والجديد (النيشانجي ورئيس الكتاب)، معرجاً على مهام رئيس الكتاب وصلاحياته، ثم الإصلاحات الحديثة على الطراز الأوروبي التي مست الإدارة العثمانية عموماً وفئة الكتاب من أهل القلم خصوصاً وذلك على عهدي سليم الثالث ومحمود الثاني.

الفصل الثاني: فئة الكتاب من أهل القلم ودورهم في الإصلاح قبل اتفاقية
كارلوفيتز سنة 1110هـ/1699م.

المبحث الأول: أدب نصائح الملوك عند العثمانيين

المبحث الثاني: قوجي بك ورسالته الإصلاحية

المبحث الثالث: حاجي خليفة ودستور العمل لإصلاح الخلل

المبحث الرابع: المؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما

تم الارتكاز على معاهدة كارلوفجة أو كارلوفيتز (Karlofça Antlaşması) سنة 1110هـ/1699م كمنعطف تاريخي ولحظة فارقة في التاريخ العثماني، على اعتبار أن هذه المعاهدة في عُرف المطلعين والمهتمين بالتاريخ العثماني عرّت الضعف العثماني المتسّتر وراء المؤسّسات العريقة وجعلته ظاهرا لأعدائها، كما أنّ المعاهدة أعادت رسم الخريطة السياسية والدبلوماسية بين العثمانيين والأوروبيين، وأهم من ذلك أن المعاهدة جعلت العثمانيين يتخلّون عن عقدة التّفوّق التي شغلتهم عن معرفة مقدار التّحوّلات المدهشة عند الأوروبيين ليقفوا منهم أخيرا موقف التلميذ من أستاذه. فما هي تلك المعاهدة ومن هم أطرافها؟

أجبرت الهزيمة العثمانية الكارثية أمام النمسا في زانطة الصربية (Zenta Muharebesi) في 5 جمادى الآخر 1387هـ/11 سبتمبر 1697م، العثمانيين في النهاية إلى البحث عن السلام؛ فوقّعت الدولة العثمانية بعد عامين من تلك الهزيمة المدوّية معاهدة كارلوفيتز بتاريخ 25 رجب 1110هـ/26 يناير 1699م مع النمسا وحلفائها البولنديين والبنادقة برعاية بريطانيا وهولندا، بمدينة سريمسكي كارلوفجي Sremski Karlovci (تقع بصربيا حاليا)، وهي المرّة الأولى التي يوقع فيها العثمانيون معاهدة كقوّة مهزومة، بحيث تنازلت عن جزء من أراضيها للنمسا وبولندا والبندقية، كما ألغيت الجزية التي كانت تدفعها الدول الأوروبية إلى الدولة العثمانية.

أنهت هذه المعاهدة حربا طويلة بين العثمانيين والنمسا (1095-1110هـ/1684-1699م)؛ إذ بدأت هذه الحرب بعد الفشل الثاني للعثمانيين في حصار فيينا 1094هـ/1683م وقد مثّلت هذه المعاهدة بداية حقبة جديدة في العلاقات العثمانية الأوروبية؛ وبموجبها اعترفت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها بحدود خصومها وقبلت بإنشاء حدود واضحة المعالم. اعتبرت هذه المعاهدة أول أسوء المعاهدات في التاريخ العثماني وبداية الانسحاب العثماني من أوروبا، ومعلما تاريخيا لعصر التفكك والانحطاط¹.

¹. ثمة مصادر كثيرة ومراجع تتحدث حول المعاهدة، ينظر حول المعاهدة:

Gabor Agoston and Bruce Masters: **Encyclopedia of the Ottoman Empire**, Infobase Publishing, USA, 2009, P309-310.

طقوش محمد سهيل: تاريخ العثمانيين، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس بيروت، 2008، ص267 - 268.

أستعرض في هذا الفصل جهود فئة الكتاب من أهل القلم في الإصلاح بداية من التنبّه لبدائيات الخلل والفساد في العصر الذهبي عصر سليمان القانوني، ومقدرتهم على تشخيص الخلل ووضع الحلول لتجاوزه، يتم التركيز في هذا الفصل على الجانب النظري متمثلاً في الرسائل والكتب التي وضعها أعضاء فئة الكتاب لتشخيص وعلاج الاختلالات، من خلال ما يعرف بأدب نصائح الملوك، تلك الرسائل والكتب التي رفعوها إلى السلاطين والوزراء رجاء وضعها محلّ التنفيذ.

يتعذر إن لم يكن يستحيل الإمام وعرض كل ما كتبه رجالات فئة الكُتّاب من أهل القلم من رسائل وكتب وتقارير ولوائح وهي بالآلاف المؤلفة يشهد على ذلك أرشيف رئاسة الوزراء وغيرها من الأرشيفات بتركيا، فإنني جريا على قاعدة "ما لا يدرك كله لا يترك جله" اخترت نماذج كاشفة من كتابات فئة الكتاب من أهل القلم، يذهب الكثير من المؤرخين إلى أنّ ما كتبوه يعبر عن عصرهم أولاً، واعتبر مثالا نسج على منواله غيرهم ثانياً، أمثال قوجي بك وحاجي خليفة والمؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما، وغيرهم ممن تعرضت لكتاباته بشكل موجز.

المبحث الأول: أدب نصائح الملوك عند العثمانيين

أدب نصائح الملوك تعريفًا ونشأة

أدب نصائح الملوك في العهدين الأموي والعباسي

أدب نصائح الملوك عند السلاجقة والعثمانيين

خصائص أدب نصائح الملوك الإسلامي

اضطلع الكتاب منذ بواكير الحضارة الإسلامية بمهمّات جسيمة عدا الشؤون الإدارية تقييدا وتحريرا وتوثيقا، إذ تلك مهمّتهم الأولى؛ ومن تلك المهمّات الجسيمة مهمّة تلمّس مواطن الخلل واستشراف مآلات الضعف التي تتعرّض لها الدّول التي كانوا في مركزية جهازها الإداري، إذ كان من الطبيعي بالنظر إلى قربهم من مركز صناعة القرار، وبالنظر أيضا إلى وجود أرشيف الدولة بين أيديهم سواء ما تعلق منه بشؤونها الداخلية أو شؤونها الخارجية أن يدفعهم ذلك الامتياز إلى استشعار المخاطر المحدقة بالدولة قبل غيرهم.

استشعار المخاطر المحدقة بالدولة دفع الكتاب إلى رفع رسائل إلى صناع القرار من سلاطين وملوك وأمراء وحتى وزراء قدّموا فيها - اعتمادا على عصارة فكرهم وتجاربهم وأرشيفاتهم - مواطن الخلل في جهاز الدولة وسبل الإصلاح، مقارنة بين ماضي الدولة المجيد وحاضرها غير الرشيد، مستعملين أحيانا أخرى لغة الإحصاء والأرقام للتدليل على الاختلالات بشكل موضوعي متجرد عن لغة المشاعر والتملّقات، فنتج عن تلك الرسائل والكتابات أدب خاص سمي بـ "أدب نصائح الملوك".

أدب نصائح الملوك تعريفا ونشأة

تعرف دائرة المعارف الإسلامية أدب نصائح الملوك بأنه: نوع من الأدب ظهر في العصور الإسلامية المبكرة، يتضمن نصائح للحكام ورجال الدولة في أمور "السياسة أو تدبير الملك"؛ من حيث التزام الحاكم أمام الله وأمام الرعية، الذي عهد الله إليه الأمانة لإدارة أمورهم في الحرب والجاسوسية والدبلوماسية، الخ. وتتداخل هذه الأعمال الإسلامية من الجانب النظري مع الأخلاق العملية ومع وصايا الحاكم أو الرئيس¹. ويعرفها بعضهم بأنّها المؤلّفات التي يسترشد بها أولي الأمر في سياسة الملك وتدبير أمر الرعية².

يهتم أدب نصائح الملوك كنوع من الأدب السياسي أكثر ما يهتم بالجانب العملي - إذ لا يناقش شرعية الحكم ولا آلية وجوده ولا فلسفته السياسية - فهو يبحث غالبا في آداب السلوك والتعامل ويتناول السياسة العملية النفعية، فيرشد الحكام والأمراء والقادة ويعوّدهم على اتباع تقاليد الحكم وقواعد السياسة، كما يساعد الحاكم المتنقذ في القبض على السلطة بيده لأطول

1. كليفورد إدموند بوزورث (Clifford Edmund Bosworth): نصائح الملوك، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تر: علي يوسف علي مر: محمود الشحات الجندي، ج31، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، 1998، ص9909.

2. عبد الرحمن بدوي: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، ج1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954، ص65.

مدّة ممكنة¹. بذلك يمكن اعتباره دليلاً إرشادياً عملياً لصنّاع القرار.

أدب نصائح الملوك² كان له وجود في الأصول الإسلامية الأولى من باب أن النصيحة فريضة إسلامية عامّة وواجبة بشكل خاص على أرباب العلم والقلم؛ فقد صحّح عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»³ غير أَنَّهُ كَادَبَ لَهُ قَوَاعِدُهُ وَأَصُولُهُ دَرَجَ الْبَاحِثُونَ بِتَأْثِيرٍ مِنَ الْاسْتِشْرَاقِ عَلَى الْاِخْتِلَافِ فِي دَوْرِ التَّأْثِيرَاتِ الْفَارْسِيَّةِ أَوْ الْيُونَانِيَّةِ عَلَى إِيجَادِهِ كَنَمَطٍ أَدْبِي خَالِصٍ وَافِدٍ عَلَى الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وقبل التّطرق إلى آراء الباحثين المختلفة حول الحضارة التي أمّدت الحضارة الإسلامية بأدب نصائح ملوكها، ينبغي القول أنّ الاتصال والتّواصل حتمية إنسانية تاريخية تجسّدت في كل حضارات العالم ولا ينتقص من قدر أي حضارة أنّها جلست من حضارة أخرى أكبر منها شأناً أو أقل مجلس التلميذ من أستاذه، إذ أنّ طبيعة المجموع البشري أياً كان تفرض عليه الدوران حول قاعدة التأثير والتأثر هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الكثير من التراث الإسلامي في المجالات المختلفة لم يدرس بعد بصورة نقدية شاملة من أبنائه بعيداً عن الاتجاهات الاستشراقية التي وجّهت وفرضت نفسها بقوة بحثية خلاقة - بصرف النظر عن نتائجها السلبية أو الإيجابية - على الدراسات التراثية الإسلامية.

مجال الفكر السياسي الإسلامي لا نجد فيه مفاصلة بين الدين والسياسة بتلك الحدّيّة الفارقة التي فرضها صراع الديني والسياسي في المجال المسيحي، لذلك وجدنا أنّ السياسة كانت دائمة الحضور في كتب الفقهاء ممتزجة مع النظام الفقهي الشامل؛ فتمّة حديث عن الإمامة العامّة والقضاء وأموال الجباية والخراج، وواجبات وحقوق الرّاعي والرعية، والجهاد والعلاقات الدّولية، جنباً إلى جنب أبواب العقائد والعبادات. والذين كتبوا عن الفكر السياسي في الإسلام غاب عنهم الكثير من التراث الذي كُتِبَ حول ذلك الموضوع وبعضه لا يزال مخطوطاً⁴.

1. دمج محمد أحمد: مرايا الأمراء أو الحكمة السياسية والأخلاق التعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط، ط1، مؤسستي بحسون ودار المنال لبنان، 1994، ص9.

2. ربما يكون تعميم هذا الاسم على هذا النوع من الأدب التي تخاطب الملوك والأمراء وذوي السلطان مُستلهم من أحد أشهر الكتب التي تناولت هذا الصنف من الكتابة وهو كتاب "التبر المسبوك في نصائح الملوك" لأبي حامد الغزالي (ت505هـ).

3. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت261هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1954، ص74.

4. في دراسة بعض الباحثين في التراث السياسي الإسلامي، تمّ التوصل إلى 307 من المصادر التراثية مباشرة في علم السياسة - كما عرفه المسلمون - منها 105 كتاب مطبوع بنسبة 34.5%، و127 كتاباً لا يزال مخطوطاً بنسبة 41.5%، وذلك بعد حصر الباحث لـ 5% فقط من فهراس المخطوطات الموجودة في العالم والتي صنفت بجميع اللغات وقليل منها كتب بالعربية =

فيما يخص أدب نصائح الملوك في كتب التراث يؤكّد أحد كبار المتخصّصين في التراث السياسي الإسلامي أنّه وبالاطلاع على فهارس المخطوطات تبين أن هناك نحو 300 رسالة وكتاب تدخل في مجال الكتابة السياسية في الإسلام. وبالنظر الأولى أيضا تبين أنّ ثلثي هذه الكتابات تدخل في باب الآداب السلطانية التي يعرفها الأوروبيون تحت اسم مرايا الأمراء¹ (Mirrors for princes) ويعرفها المسلمون تحت اسم أدب نصائح الملوك².

لاحظ المتخصصون أنّ أدبيات نصائح الملوك لها ثلاثة أشكالٍ أو صيغ هي: الحكاية السياسية على ألسنة الحيوانات، وهي تأتمُّ جميعا بكليّة ودمنة التي ترجمها ابن المقفّع سنة 139هـ/756م إلى العربية عن الفارسية، والشكل الثاني هو شكل الكتاب الدليل ذي الفصول: في الملوك في العدل في حُسن السياسة في سياسات الملك مع رعيتته، في الحيلة في الحرب... الخ. وأصل هذه الصيغة كتاب سرّ الأسرار المنحول والمنسوب إلى أرسطو، وقد تُرجم فيما يبدو عن اليونانية في وقت مبكّر يرقى إلى القرن الثاني الهجري في صدر العصر العباسي الأول، وربما أفادت هذه الصيغة أيضا من كتب الملوك (خداي نامه) المترجمة عن الفارسية. والشكل الثالث هو شكل الرسالة أو العهد من الملك لابنه أو من الفيلسوف والحكيم لتلميذه الأمير الشاب. وتنحو هذه الصيغة منحى العهد المنسوب إلى أردشير الأول، ومنحى رسائل أرسطو إلى الإسكندر وهي منحولة أيضا³.

وهو الجزء الذي رجع إليه، وبلغة الإحصاء فإنّ جل من كتبوا حول التراث السياسي في الإسلام استخدموا مصادر محدودة للغاية ينظر: نصر محمد عارف: في مصادر التراث السياسي الإسلامي، دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1994، ص 59، 65.

¹ . ثمّة دراسة مقارنة بين مرايا الأمراء الأوروبية ونصائح الملوك الإسلامية أجرتها البروفسورة ليندا دارلينغ (Linda T. Darling) من جامعة أريزونا الأمريكية بعنوان "مرايا الأمراء بأوروبا والشرق الأوسط" ضمن سلسلة أساسيات ثقافة القرون الوسطى وبداية العصر الحديث التي يشرف عليها البروفسور كلاسن ألبراش (Classen, Albrecht) أستاذ قسم الدراسات الألمانية في جامعة أريزونا الأمريكية ينظر:

Linda T. Darling: **Mirrors for Princes in Europe and the Middle East: A Case of Historiographical Incommensurability**, East Meets West in the Middle Ages and Early Modern Times, De Gruyter, Germany, 2013, P223-242.

وفي نفس السياق أجرى الباحث والأكاديمي عز الدين علام دراسة مقارنة بين أدب نصائح الملوك في الشرق الإسلامي ومرايا الأمراء في الغرب المسيحي. ينظر: عز الدين علام: "أخلاقيات الحاكم بين آداب الملوك الإسلامية ومرايا الأمراء المسيحية"، مجلة الباب، العدد5، المملكة المغربية، ربيع 2015.

² . رضوان السيد: "الآداب السلطانية والسياسة الشرعية" جريدة الشرق الأوسط، عدد 12082، لندن، الثلاثاء 01 صفر

1433هـ/27 ديسمبر 2011. <http://archive.aawsat.com/details.asp?section=17&article=656169&iss.2011>

. [ueno=12082#.WkEI_N9BrIX](http://www.wkEI.org/ueno=12082#.WkEI_N9BrIX)

³ . الموقع نفسه.

قبل التطرّق إلى منابع الحضارية التي وفد منها أدب نصائح الملوك إلى الحضارة الإسلامية من المهم ذكر رأي معتبر قدّمه أحد الباحثين حول البداية الأصلية لهذا الأدب في ديار الإسلام خلافاً للثابت القار في تاريخ الأدب السياسي الإسلامي والذي تقرّر في كتابات المستشرقين ومن تبعهم من الكُتّاب العرب والمسلمين، الذين أجمعوا على أنّ عملية التدوين في هذا الجنس من الكتابة لم تبدأ في دار الثقافة الإسلامية إلا بعد عملية الحوار الثقافي والتبادل الإستمولوجي مع المجالات الثقافية المنقولة إلينا من الحضارات الإيرانية والهندية ومن ثم اليونانية¹.

يقترح الباحث بدلاً عن سنة 123هـ / 741م² - (أو على الأقل في نهايات القرن الهجري الأول) الذي يعتبره الدارسون من المستشرقين ومن لفّ لفهم بداية الكتابة في الأدب السياسي الإسلامي - سنة 38هـ / 658م كبداية للأدب السياسي في الإسلام؛ وهو تاريخ كتابة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عهده للأشتر³؛ إذ يدلّ ذلك العهد على قدرة العقل الإسلامي في التفكير والتأمل بصورة مستقلة بأوضاع المؤسسة السياسية ومن جوانبها المختلفة، كما أن العهد اقترح برنامج إصلاح سياسي دون أن يكون المحرك للكتابة المجلوب الثقافي الوافد، وإن كان الوافد الثقافي له أهميته في الحوار مع تراث الغير⁴ والاستفادة منه نقداً واقتباساً وتطويراً.

1. دراسة الدكتور محمد جلوب الفرحان حول البداية الأصلية لأدب نصائح الملوك من داخل الثقافة الإسلامية شرحها ودلّل عليها في كتابه: العقل العربي الإسلامي والمؤسسة السياسية (مع دراسة وتحقيق كتاب؛ الكلم الروحانية من الحكم اليونانية، لأبي الفرج بن هندو)، ط 1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 2001. كما نشرت في المجلة الإلكترونية أوراق فلسفية جديدة التي يشرف عليها الدكتور فرحان في عددها 14 لشهر آب/أوت سنة 2014، بعنوان: في أدب المرايا السياسية-الاجتماعية الإسلامية.

2. هو التاريخ المفترض أن سالم أبو العلاء وعبد الحميد الكاتب - سنتطرق إليهما فيما يأتي - ترجموا فيه رسائل أرسطو من اليونانية إلى العربية.

3. مالك بن الحارث بن عبد يغوث الأشتر النخعي: من قبيلة يمينية قديمة تدعى مذحج لا يعرف تاريخ ولادته، قال عنه الذهبي في تاريخه: أَحَدُ الْأَشْرَافِ وَالْأَبْطَالِ الْمَذْكُورِينَ. وَكَانَ شَهْمًا مُطَاعًا، زَعْرًا (أي شرس سيء الخلق) أَلَبَّ عَلَى عُثْمَانَ وَقَاتَلَهُ، وَكَانَ ذَا فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ، شَهِدَ صِفِّينَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ. ينظر: الذهبي (ت748هـ): سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ج4 ط3، مؤسسة الرسالة القاهرة، 1985، ص34. وسبب تسميته بالأشتر أنّه شارك في معركة اليرموك ضد الروم، وكان من أبطالها فشتت عينه بالسيف أي شقت جفنها السفلي ولذلك عرف بالأشتر. مات مسموماً سنة 38هـ. ينظر: ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت852هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج6، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص212.

4. فرحان محمد جلوب: " في أدب المرايا السياسية-الاجتماعية الإسلامية، دراسة في أقدم نص سياسي إسلامي (38 هجرية)"، المجلة الإلكترونية أوراق فلسفية جديدة، عدد14، أوت 2014،

عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى واليه على مصر اعتبر واحداً من أدب نصائح الملوك مع فارق وحيد هو أنه في عهد الأشر النصيحة كانت من حاكم إلى واليه، أي من الأعلى إلى الأدنى والغالب في أدب نصائح الملوك أن يكون عادة من الأدنى إلى الأعلى. غير ذلك فإن الباحث يؤكد أنّ الموضوعات التي بحث فيها العهد كان لها حضور بإطارها وتفصيلها في نصوص عديدة من الأدب السياسي الإسلامي، والتي ستُعرف لدى الباحثين بمرآة الأمراء أو نصائح الملوك، بل هو يؤكد وبالاعتماد على دراسته لمختلف نصوص المرآة، أنّ عهد الأشر قد سجل حضوراً قويا في ثنايا تلك النصوص¹.

كتب الإمام علي رضي الله عنه العهد وزود به مالك الأشر الوالي الجديد على مصر ليكون دستوراً وموجهاً له في إدارة شؤون ولاية مصر وتنظيم مختلف جوانبها. ومن خلال رصد عهد الأشر ومقارنته برسائل أدب نصائح الملوك التي جاءت بعده يلاحظ أنّه تضمّن أغلب ما تضمّنته؛ إذ تطرّق إلى أن نجاح الحاكم رهن بضبط سياسته المالية "جباية الخراج"، وتحصين بلاده من العدو عن طريق الجهاد، وتوفير الأمن والاستقرار للرعيّة "استصلاح أهلها" و "عمارة البلاد"² وهي مع غيرها أساسيات استند عليها أدب نصائح الملوك في القرون التي جاءت بعد عهد الأشر.

نتطرّق الآن إلى الروافد الحضارية الأخرى التي استفاد منها الفكر السياسي الإسلامي عامة وأدب نصائح الملوك خاصة: ربما يكون التأثير اليوناني فيما يخص الفكر السياسي أسبق من التأثير الفارسي من حيث كون اليونان أهل كتاب من جهة، ومن جهة أخرى لاهتمام الأمويين الذين آل الأمر إليهم سنة 40هـ/700م بالتراث اليوناني إذ حاضرة ملكهم بالشام، وربما يرجع ذلك إلى الموقف المبدئي³

[%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D9%8A%D8%A9-](#)

[%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D8%A2%D8%A8-2014/](#)

¹. الموقع نفسه، بتصرف يسير. ويذكر الدكتور فرحان كمثل على المصادر المهمة للأدب السياسي الإسلامي والتي سجلت حضوراً للإفادات السياسية التربوية لعهد الإمام علي للأشر كتاب أبو علي مسكويه؛ الحكمة الخالدة (جاويدان خرد)، وقد حقّق هذا الكتاب وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي ونشرته دار الأندلس ببيروت ينظر منه الصفحات 110 - 113.

². لمعرفة المزيد عن عهد الأشر والمقارنة بينه وبين ما كتب بعده في أدب نصائح الملوك ينظر الدراسة القيمة للدكتور فرحان محمد جلوب: المرجع السابق. ويذكر أنّ عهد الإمام علي إلى الأشر نشره الإمام محمد عبده بعنوان: "مقتبس السياسة وسياج الرياسة" كما نشره توفيق الفكيكي بعنوان: "الراعي والرعيّة: المثل الأعلى للحكم الديمقراطي في الإسلام شرح عهد الإمام علي إلى الأشر النخعي حين ولاء مصر".

³. حين وجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله إلى ملوك الدول المجاورة، أرسل دحية الكلبي برسالة إلى هرقل رأس الإمبراطورية البيزنطية سنة 6هـ يدعوها فيها إلى الإسلام فتحدّثنا أغلب المصادر الإسلامية وعلى رأسها صحيح البخاري إلى أنّ هرقل =

من رسالة الإسلام عند حكام فارس وبيزنطة رغم أنّ كلا الأمتين دخلتا في صراع وجودي مع الإسلام. إذ استثنينا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه - مفتتح أدب نصائح الملوك في الفكر السياسي الإسلامي - فإنّ الحكّام المسلمين الذين جاؤوا بعده كان لهم اهتمام بمطالعة ما كُتِب في الحضارات الأخرى من هذا النوع الأدبي الجديد عليهم؛ فهذا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان مغرماً بالاطلاع على سير الملوك الذين سبقوه وسياساتهم، وكان له مترجمون يترجمون له الكتب اليونانية واللاتينية وفيها سير الملوك كالإسكندر ويوليوس قيصر¹ ومن بين الأسباب التي ساعدت على تنشيط عملية الترجمة من اليونانية واللاتينية إلى العربية والعكس عموماً في بدايات العصر الأموي الجدل الديني بين المسلمين أصحاب الدين الجديد وبين أهل الكتاب من المسيحيين².

كان الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو الآخر مهتماً بمطالعة سير ملوك الفرس؛ إذ يذكر لنا صاحب مروج الذهب أنه سنة 123هـ / 741م نُقِلَ لهشام بن عبد الملك من الفارسية إلى العربية كتاباً عظيماً اشتمل على علوم كثيرة من علوم الفرس وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم³. فأدب نصائح الملوك إذا بدأ كاهتمام خاص من الملوك المسلمين الأوائل، وكان الحضور اليوناني أسبق من الحضور الفارسي لأسباب موضوعية ذكر بعضها آنفاً.

أدب نصائح الملوك في العهدين الأموي والعباسي

أولى الكتابات السياسية المنسوبة لفئة الكتاب عاقمة ظهرت في العصر الأموي على يد كتاب ديوان ذلك العصر ويُذكر هنا سالم أبو العلاء⁴ وعبد الحميد الكاتب؛ ما كتبه سالم أبو العلاء كاتب

وقف من النبي موقفاً إيجابياً. بينما تروي مصادر السيرة أنّ إمبراطور فارس كسرى أبرويز كان موقفه سلبياً جداً حتى أنّه مزق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

1. قاري لطف الله: "بدايات الترجمة في العهد الأموي (40-132هـ)"، أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، سوريا، 15-16 أبريل 1982، ص 290.

2. المرجع نفسه، ص 292.

3. المرجع نفسه، ص 295.

4. المعلومات حوله قليلة؛ فهو سالم بن عبد الله ويقال ابن عبد الرحمن أبو العلاء مولى هشام بن عبد الملك وكتبه على ديوان الرسائل، وكان على ديوان الرسائل لهشام وأيضاً للوليد بن يزيد، وكان سالم أستاذاً لعبد الحميد بن يحيى في الكتابة وختنه، وبالتالي كانت العلاقة بينه وبين تلميذه عبد الحميد علاقة وطيدة بالعلم والمصاهرة، لم تذكر المصادر تاريخ ولا مكان ميلاده ولا تاريخ وفاته ولا أصله عدا كونه من الموالي، غير أنّه قد يفهم من عبارة ابن عبدوس الجُهَشْيَارِي (ت 331هـ) أن سالماً توفي في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك وخلفه ابنه عبد الله بن سالم على ديوان الرسائل. ينظر: الجُهَشْيَارِي أبو عبد الله محمد ابن عبدوس (ت 331هـ): الكُتَابُ والوزراء، تح: حسن الزين، ب ط، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، لبنان، 1988، ص 47. ويذكر =

الديوان الرئيس للخليفة هشام بن عبد الملك من رسائل لم يبلغنا منه إلا القليل، ويذكر صاحب الفهرست أنه كان يُتقن اليونانية، وقد ارتبط اسمه هو وعبد الحميد الكاتب بالرسائل المنحولة والمسماة رسائل أرسطو إلى الإسكندر¹. وربما يكون أبو العلاء قد ترجم رسالة أرسطو إلى الإسكندر في واجبات الأمير أو رسالة أرسطو إلى الإسكندر في السياسة². كما ينسب لعبد الحميد الكاتب رسالة في نصيحة ولي العهد³.

غير أن التأثير الفارسي أيضا لم يتأخر عن تلك الحقبة؛ فعبد الحميد الكاتب ذاته باعتبار أصوله كان يجيد اللغة الفارسية؛ إذ يذكر صاحب الصناعتين أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي؛ فحوّلها إلى اللسان العربي⁴. وبالتالي ربما أمكن اعتبار عبد الحميد الكاتب أول من نقل تقاليد الكتابة الفارسية إلى العربية. ويذهب الكثير من الباحثين إلى أن الحضارة الفارسية كان لها القدح المعلى في التأثير على الحضارة الإسلامية⁵.

الكثير من الباحثين الذي خاضوا في البحث السياسي في الإسلام يؤسسون لظهوره مع عهد هشام بن عبد الملك (ت 125هـ) وكاتبه أبي العلاء وعبد الحميد الكاتب⁶، ويتفق كثير منهم إلى أن صرح فن أدب نصائح الملوك تدعّمت أسسه وعلى بنيانه مع بدايات العصر العباسي، مع عالم

ابن النديم في الفهرست: أنّ سالما نقل من رسائل أرسطاطليس إلى الإسكندر. ينظر: ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي (ت 438هـ): الفهرست تح: إبراهيم رمضان، ط2، دار المعرفة، بيروت 1997، ص 149.

1. حول كتابات سالم أبو العلاء وتلميذه عبد الحميد الكاتب ينظر: إحسان عباس: عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، ط1، دار الشروق، عمان، 1988.

2. قاري لطف الله: المرجع السابق، ص 297.

3. ذكر الدكتور نصر عارف في مصادر التراث الإسلامي أنّ الرسالة نشرها عبد الرزاق الحصان في كتابه نظرة عابرة في شمال العراق ينظر: نصر محمد عارف: المرجع السابق، ص 107.

4. العسكري بن مهراّن (ت 395هـ): الصناعتين، تح: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، المكتبة العصرية بيروت، 1998، ص 69.

5. يزعم صاحب تجارب الأمم أبو علي مسكويه (ت 421هـ) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكثر الخلوة بقوم من الفرس يقرأون عليه سياسات الملوك، سيّما ملوك العجم الفضلاء، وسيّما أتو شروان، فإنّه كان معجبا بما، كثير الاقتداء بما ينظر: مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ): تجارب الأمم وتعاقب المهمم، تح: أبو القاسم إمامي ج1، ط2، سروش، طهران، 2000، ص 415.

6. من المترجمين أيضا ومن طبقة الكتاب جبلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك أيضا وصديق عبد الحميد الكاتب وربما شهرة عبد الحميد غطّته كما غطّت أستاذه أبا العلاء؛ فقد نقل جبلة من الفارسية إلى العربية كتابين هما كتاب رستم واسفنديار وكتاب بهرام شوش وموضوعهما تاريخ الفرس وسياسة ملوكهم. ينظر: القاري لطف الله: المرجع السابق، ص 299.

أديب نحرير مخضرم من أكابر رجالات فئة الكتاب من أهل القلم، عاش نهايات العصر الأموي وبدايات العصر العباسي ألا وهو عبد الله بن المقفّع، إذ يعتبره الكثير من الباحثين أول من جرى يراعه متناولاً أدب نصائح الملوك.

كان أبو مُحمَّد عبد الله بن المقفّع (ت142هـ) كاتباً ابن كاتب¹؛ يعرف من كتاب السير أنّه ولي الكتابة لبعض ولاة بني أمية بالعراق. ولما جاءت الدولة العباسية اتّصل بأعمام الخليفة أبي جعفر المنصور (ت158هـ)²، وكان ابن المقفّع واسع الثقافة متعدّد اللغات؛ فقد أتقن العربية³ والفارسية واليونانية وقد أورد عنه صاحب معجم الأدباء أنّه ليس في العجم أدكى من ابن المقفّع ولا أجمع⁴ ومع أنّه لم يعيش إلا ست وثلاثين عاماً إلا أنّه ترك الكثير من الأعمال التي أثّرت على أجيال من جأؤوا بعده.

قال عنه صاحب إخبار العلماء بأخبار الحكماء: هو أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور... وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة⁵

¹ ويذكر صاحب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام أنّ والد ابن المقفّع كان كاتباً ولياً للحجاج خراج فارس، فحان وأخذ من الأموال فعذبته الحجاج فتفقت يده - أي تورمتا واعوجت أصابعهما - فلُقّب المُقَفِّع. ينظر: الذهبي: المصدر السابق، ج3 ص910.

² فكان كاتب عيسى بن علي (ت164هـ) وعلى يديه اعتنق ابن المقفّع الإسلام. ينظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج2 ص151. كما توّلى الكتابة لسليمان بن علي (ت142هـ) أمير البصرة والبحرين وعمان. بل ينقل المؤرخ والطبيب الدمشقي ابن أبي أصيبعة أنّ ابن المقفّع توّلى الكتابة للخليفة أبي جعفر المنصور وترجم له كتباً يونانية. ينظر: ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين (ت668هـ): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** تح: نزار رضا، ب ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص414413.

³ إذ كان مولى لآل الأهم وهم يومئذ أهل الفصاحة والبيان، ونشأ بالبصرة أحد أعظم مراكز الأدب والثقافة العربية حينها. ينظر: خليل مردم بك: **ابن المقفّع**، ب ط، مكتبة عرفة، دمشق، 1930، ص29.

⁴ الحموي: المصدر السابق، ج3، ص1263.

⁵ يعتبر كليلة ودمنة واحداً من أشهر كتب ابن المقفّع ترجمه عن اللغة الفهلوية متصرفاً فيه بأسلوبه. وأصل الكتاب هندي كتب باللغة السنسكريتية وكان عنوانه الفصول الخمسة (ب پنجانترا). وقد أحضر الكتاب إلى إيران في القرن السادس الميلادي ثم ترجم إلى اللغة الفهلوية فالسريانية القديمة سنة 570م، ومنها إلى العربية سنة 133هـ/750م ومن العربية إلى كثير لغات العالم. ينظر: بروان إدوارد جرانفيل: **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي**، تر: إبراهيم أمين الشواربي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص445444. قال عنه عبد الوهاب عزام محقق أقدم نسخة عربية لكليلة ودمنة - وجدت بمكتبة آيا صوفيا بإسطنبول كتبت سنة 618هـ -: قد تنافست الأمم في ادّخاره منذ كتب، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها؛ فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة إلا ترجم هذا الكتاب إليها، وكانت اللغة العربية أصل لكل ما في اللغات الأخرى لأنّ الأصل الفهلوي الذي أخذت عنه الترجمة العربية مفقود، كما فقد بعض الأصل الهندي الذي أخذت عنه الترجمة الفهلوية. ينظر: بن المقفّع عبد الله: **كليلة ودمنة** تح: عبد الوهاب عزام وطه حسين، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014، ص12-13.

وَلَهُ تَأْلِيفٌ حَسَنَةٌ مِنْهَا رِسَالَتُهُ فِي الْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ، وَرِسَالَتُهُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْيَتِيمَةِ فِي طَاعَةِ السُّلْطَانِ¹ وَمِنْ أَعْمَالِهِ أَيْضًا الْأَدَبُ الْكَبِيرُ وَهُوَ مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ السِّيَاسِيَةِ وَفِيهِ كَلَامٌ عَنِ السُّلْطَانِ وَعِلَاقَتِهِ بِالرَّعِيَّةِ وَعِلَاقَةُ الرَّعِيَّةِ بِهِ، وَالْأَدَبُ الصَّغِيرُ حَوْلَ تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَرْوِيضِهَا عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَفِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيرِ الْمُلُوكِ، وَكِتَابُ الدَّرَةِ الْيَتِيمَةِ² وَكِتَابُ خَدَايِنَامِهِ فِي السَّيْرِ " سِيرِ مَلُوكِ الْعَجْمِ " نَقَلَهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ عَنِ الْفَارْسِيَّةِ³.

أَثَّرَتْ كِتَابُ ابْنِ الْمُقَفَّعِ فِي أَدَبِ نَصَائِحِ الْمُلُوكِ وَسِيرِهِمْ فِي التَّرَاثِ السِّيَاسِيِّ وَالْأَدَبِيِّ الْعَالَمِيِّ؛ إِذْ إِلَى جَانِبِ كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةِ الذَّائِعِ الصَّيْتِ نَجَّدَ كِتَابُ «خَدَايِنَامِهِ⁴» فِي سَيْرِ مَلُوكِ الْفَرَسِ وَكِتَابُ «أَثِينِ نَامِهِ» وَهُوَ كِتَابٌ فِي قَوَانِينِ الْفَرَسِ الْقَدَامِيِّ وَرِسُومِ مَلُوكِهِمْ فِي قِيَادَةِ الْجِيُوشِ وَفُنُونِ الْحَرْبِ وَالْأَدَابِ الْعَامَةِ، وَكِتَابُ «التَّاجِ فِي سِيرَةِ أَنْوِ شِرْوَانِ» وَهُوَ كِتَابٌ فِي سِيرَةِ الْمَلِكِ كَسْرِيِّ أَنْوِ شِرْوَانِ وَأَخْلَاقِهِ وَكِتَابُ «نَامِهِ تَنْسَرِ» وَهُوَ كِتَابٌ فِي تَشْرِيعَاتِ الْفَرَسِ الْقَدَامِيِّ، وَالْكِتَابُ الْأَرْبَعَةُ مَفْقُودَةٌ وَقَدْ كَانَ كِتَابُ خَدَايِنَامِهِ مَصْدَرًا أَسَاسِيًّا لْجَمِيعِ سَيْرِ الْمُلُوكِ الَّتِي أَلْفَتْ بِالْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ⁵.

1. القفطي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت 646 هـ): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص170.

2. وقد زعموا أنّ الدرّة اليّيمة ألّفها المقفع ليعارض بها القرآن الكريم غير أن الإمام الباقلاني قال أن كتاب اليّيمة منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة، ويؤكّد أن ليس لابن المقفع كتاب يدعى مدع انه عارض فيه القرآن ينظر: الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ): إعجاز القرآن للباقلاني، تح: السيد أحمد صقر، ط5، دار المعارف المصرية، مصر 1997، ص32.

3. قال عنه المستشرق الإنجليزي الأستاذ براون في تاريخ آداب الفرس: أنه أجل خطرا من كتاب كليلة ودمنة. ويظن المستشرق الإنجليزي الأستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ آداب العرب أن هذا الكتاب كان مثلا للعرب في تدوين التاريخ وهو مفقود. ينظر: خليل مردم بك: المرجع السابق، ص60.

4. ذكّر أنّ المستشرق الإنجليزي الأستاذ براون في تاريخ آداب الفرس ذكر أن كتاب خدينامه أجل خطرا من كتاب كليلة ودمنة ويظن المستشرق الإنجليزي الأستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ آداب العرب أن هذا الكتاب كان مثلا للعرب في تدوين التاريخ وهو مفقود. ينظر: خليل مردم بك: المرجع السابق، ص60. يذكر بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي أنّ المسعودي نقل من كتاب خدينامه في كتابه مروج الذهب ونقل منه أيضا الطبري وابن قتيبة وأبي حنيفة الدينوري وسعيد بن البطريق، ونقح أبو منصور الحسين بن محمد المرغني الثعالبي كتاب خدينامه في كتابه غرر السير، ونقحه أيضا مؤلف مجهول في كتاب: نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب. ينظر: بروكلمان كارل: تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، ج3، ط5، دار المعارف، مصر، 1977، ص96-97.

5. وردت منه فصول وقطع في «عيون الأخبار» لابن قتيبة، وكتاب تاريخ الملوك والأمم للطبري، وكتاب «غرر أخبار ملوك الفرس» للثعالبي، كما كان مصدراً أساسياً لكتاب «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء» لحمزة الأصفهاني، وكتاب الشاهنامه للفردوسي. ينظر: خديجة يوسف جعفر: "خريطة أعمال عبد الله بن المقفع" جريدة الحياة، النسخة الإلكترونية،

رسالة الصحابة إحدى الكتب المهمة أيضا في باب نصائح الملوك كتبها ابن المقفع وضمّنها نصائح للخليفة المنصور في معاملة الجيش الذي يجب قصره على القيام بأعبائه العسكرية ولا يجوز الاستعانة به في تحصيل الأموال والضرائب، وفي معاملة أهل البصرة والكوفة الذي ينبغي مراعاة حقوقهم وإقامة حكم عادل بينهم، وفي معاملة السوريين الذين يجب المحافظة على عواطفهم وأحاسيسهم بالاحتراس والحيطه في معاملتهم، وأخيرا في معاملة حاشيته ومن يحيط به، وكيفية اختيار حاشيته ثم يختم الرسالة بآراء ونصائح في توزيع الأعباء على وجه عادل، وبذل العناية في اختيار الولاة والعمال.

استمرّ بعد ذلك انتعاش أدب نصائح الملوك في القرون التالية؛ ففي زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد وجدنا صاحب كتاب الخراج¹ - وهو أول كتاب وضع في السياسة المالية للخلافة الإسلامية - يُضمّن كتابه توصيات إصلاحية للخليفة ويعرض للكثير من المشاكل الإدارية والمالية والسياسية والاجتماعية، ويضع لها حلولاً بما يُناسبها من الأحكام الشرعية والاجتهادات العقلية ليصبح الكتاب بذلك مرجعا في إنشاء الدولة إداريا وماليا.

اشتهر الخليفة المأمون (ت 218هـ) بشغفه الشديد بالعلم والفلسفة والذي بلغت الترجمة في عصره حدّا لم يعرف لها مثيل قبله، في عهده يسجّل أهل التأريخ رسالة قائده العسكري المحنك طاهر بن الحسين بن زريق ماهان الخزاعي المعروف بذي اليمينين² إلى ولده حين ولّاه الخليفة المأمون على الرقة ومصر وما بينهما، يذكر له فيها كل ما يحتاجه الحاكم في إدارة شؤون البلاد والعباد حتى أنّ المأمون أعجب برسالة طاهر وجعلها دستورا لولّاته في الأمصار³.

[%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D9%81%D8%B9](#)

السبت، 12 أبريل 2014 (01:00 - بتوقيت غرينتش).

1. هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي (113 - 182 هـ / 731 - 798 م) صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. من أهم كتبه كتاب الخراج. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج8، ص193.

2. هو أحد أشهر قوات الخليفة العباسي المأمون، لقبه المأمون ذا اليمينين، قال عنه الذهبي في تاريخه: كان أحد قواد المأمون الكبار والقائم بإكمال خلافته، فإنّه ندّبته، إلى محاربة أخيه الأمين. فسار بالجيش وظفر بالأمين وقتله. ينظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المصدر السابق، ج5، ص94.

3. رسالة ذو اليمينين إلى ابنه عبد الله بن طاهر نقلها على طولها - قرابة العشر صفحات - ابن الأثير وقال عنها: ولما استعمله المأمون كتب إليه أبوه طاهر كتابا جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك، وقد أثبت منه أحسنه لما فيه من الآداب والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، لأنه لا يستغني عنه أحد من ملوك وسوق. ينظر: ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري، عز الدين (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، ج5، ط1 دار الكتاب العربي، بيروت، 1997، ص517-527.

يعتبر أبو عثمان الجاحظ (250هـ) واحداً من أشهر أعلام العصر العباسي¹، وإلى جانب اعتباره أحد أئمة الأدب والبلاغة، فقد استوعب تراث اليونان والفرس الذي ترجم منذ العهد الأموي مروراً بابن المقفع وأنتج مؤلفات كثيرة في علوم مختلفة ويأتي على رأسها فيما تعلق بموضوعنا: كتاب التاج في أخلاق الملوك، وقد ذكر الجاحظ في مقدمته سبب تأليفه وهو تبيان كيف يتعامل الناس بمختلف طبقاتهم ووظائفهم مع الملوك، وكيف يتعامل الملوك مع رعيّتهم، والكتاب كله يدور حول العلاقة النازمة بين الملوك ورعاياهم².

نجد أيضاً من العلامات البارزة في أدب نصائح الملوك ابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ) الذي ينسب إليه كتاب الإمامة والسياسة³ وله تصانيف كثيرة في علوم شتى، وفيما تعلق بموضوعنا له كتاب السلطان يتناول فيه سيرة السلطان وسياسته وكيفية اختيار العمال وآداب صحبة السلطان والمشاورة والرأي وخطورة اتباع الهوى والظن، ثم يعرض لمختلف مؤسسات الدولة مثل الكتاب والعمال والقضاة وكيفية اختيارهم وضوابط عملهم ومراقبتهم ثم يتناول قضية الحجاب وخطورة الظلم وأهمية الطاعة والنصيحة⁴.

توالى ازدهار أدب نصائح الملوك فبحلول منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ظهر

1. توجد تصانيف ورسائل في نصائح الملوك قبل ما كتبه الجاحظ إلا أن شهرة الجاحظ وتصانيفه غطت عليها؛ ومن تلك التصانيف: كتاب تدبير الملك والسياسة لسهل بن هارون (ت 215هـ)، كتاب تقويم السياسة الملوكية والأخلاق الاختيارية لعبد الملك الأصمعي الأديب الشهير (ت 216هـ)، وكتاب سلوك المالك في تدبير الممالك كتبه الشهاب الدين بن أبي الربيع (ت 272هـ) للخليفة المعتصم، وغيرها. ينظر: نصر محمد عارف: المرجع السابق، ص 110-112.

2. وقد أهدى الجاحظ كتاب التاج إلى وزير الدولة العباسية الكبير الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله، للاطلاع على الكتاب محققاً ينظر: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي (ت 255هـ): التاج في أخلاق الملوك، تح: أحمد زكي باشا، ط 1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914. مع الإشارة أن المحقق حسن السندوبي شكك في نسبة الكتاب للجاحظ وسأيره بروكلمان في ذلك. ينظر: السندوبي حسن: أدب الجاحظ، ط 1، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1931، ص 145-152. كما ينظر: بروكلمان كارل: المرجع السابق، ص 126-127.

3. لعلّ القاضي ابن العربي المتوفى سنة 543هـ هو أول من شك في نسبة الكتاب لابن قتيبة في كتابه العواصم من القواصم، وأول من شكك في نسبة الكتاب لابن قتيبة من المستشرقين هو دي جاينجوس (De Gayngos) في كتابه تاريخ الحكم الإسلامي في إسبانيا، والحق الذي يذهب إليه كثير من المحققين وبأدلة قاطعة أنّ ابن قتيبة بريء من كتاب الإمامة والسياسة، وكان الشيخ المحقق طاهر الجزائري (ت 1334هـ) رحمه الله ينقبض صدره إذا نسب أحد هذا الكتاب إلى ابن قتيبة، وقد أورد الأستاذ المحقق محب الدين الخطيب (ت 1969م) سبع حجج يقطع بما أن الكتاب ليس لابن قتيبة. ينظر: ابن قتيبة: الميسر والقداح، تح: محب الدين الخطيب، ط 2، المطبعة السلفية، مصر، 1385هـ، ص 23-24.

4. ينظر: نصر محمد عارف: المرجع السابق، ص 118.

أبو الحسن الماوردي (450هـ) صاحب الكتب السياسية الشهيرة وعلى رأسها كتاب الأحكام السلطانية الذي شرح فيه النظم الإسلامية المختلفة، وكتاب قوانين الوزارة وسياسة الملك، وكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، وكتاب درر السلوك في سياسة الملوك، وينسب له الكثير من الباحثين كتاب نصيحة الملوك والذي ربما يمكن اعتباره أول كتاب في فن أدب نصائح الملوك سمي بهذا الاسم وبالنظر إلى شهرة الماوردي كفقيه سياسي ربما أيضا تكون تسمية أدب نصائح الملوك عند المشتغلين بالفقه السياسي الإسلامي قد أخذت من كتابه ذلك¹.

أدب نصائح الملوك عند السلاجقة والعثمانيين

إذا تجاوزنا الكثير مما أُلّف في الفقه السياسي عامة وأدب نصائح الملوك خاصة، لنصل إلى المؤلفات التي كان لها تأثير كبير في وسط آسيا وبالتالي على السلاجقة سلف العثمانيين فإنّه من الجدير بالذكر أن يذكر كتاب قابوس نامه للأمير عنصر المعالي كيكافوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير² واحدا من كتب أدب نصائح الملوك التي كان لها تأثير كبير في الأدب الفارسي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان لها تأثير واسع في الأدبيات السياسية في شرق العالم الإسلامي، أُلّف الكتاب سنة 475 هـ/1083م³.

يذكر في نفس الاتجاه اثنان من الأعلام المشاهير الذين أسهما بالتأليف في أدب نصائح الملوك

1. نقل الأستاذ الشيخ خضر محمد خضر في تحقيقه لكتاب نصيحة الملوك قول الدكتور فؤاد عبد المنعم في تحقيقه لكتاب التحفة الملوكية بأن أول من أسند نصيحة الملوك إلى الماوردي هو بروكلمان وتابعه آخرون من بعده، ثم عَقِبَ عليه أنّ علماء سبقوا بروكلمان وذكروا هذا الكتاب ضمن كتب الماوردي ومنهم حاجي خليفة في كشف الظنون ... أي قبل أن يولد بروكلمان بأكثر من خمسة قرون. ينظر: الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت450هـ): نصيحة الملوك، تح: خضر محمد خضر، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983، ص20. وقد أجرى المحقق الأستاذ فؤاد عبد المنعم دراسة نقدية مقارنة بين الكتاب وبقية كتب الماوردي السياسية وخلص من خلال بحثه إلى أنّ الكتاب لا تصح نسبته للماوردي. ينظر: فؤاد عبد المنعم أحمد: أبو الحسن الماوردي وكتاب نصيحة الملوك، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر، 1988.

2. هو الأمير عنصر المعالي كيكافوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير عاشر الأمراء الزياريين وسابع ولائهم، حاكم الأسرة الزيارية لا تذكر المصادر الكثير عنه. ويعلم من كتابه أنه كان منحرفا ثم تاب وحج بيت الله الحرام في عمر الخمسين، ولما بلغ الثالثة والستين عاما جمع معارفه وتجاربه في كتاب قدمه إلى ابنه ليعلمه كيف يعيش ويحكم. ينظر: عنصر المعالي كيكافوس (ت462هـ): النصيحة المعروف باسم قابوس نامه، تر: محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1958 ص20-22، بتصرف.

3. كتاب قابوس نامه يضم موضوعات تتصل بمبادئ الأخلاق وقواعدها، ويتألف من 24 فصلا منها صفات الملك والوزير وواجباتهما. ينظر: حسن نافعة وكليفورد بوزورث: تراث الإسلام، تر: حسين مؤنس وإحسان صدقي العمدة، مر: فؤاد زكريا، ج2 عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص275.

وكان لكتاباهما تأثير على الذين جاؤوا من بعدهما، وكان لهما الأثر البالغ في الفضاء العثماني لاحقا ألا وهما الإمام أبو حامد الغزالي صاحب كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك¹ والوزير نظام الملك صاحب كتاب سياست نامه، وكلاهما قدما الكتاب للسلطان السلجوقي أبو الفتح مُلكشاه.

الغالب على التأليف في أدب نصائح الملوك أن تكون بدافع ذاتي من مؤلفها إلى صاحب السلطة تطبيقا لمبدأ الدين النصيحة، ولكنها أيضا وفي أحيان كثيرة كانت بطلب من صاحب السلطة لتدارك الخلل وتوطيد أركان الملك؛ ومثال لنا هنا ما ذكره صاحب كتاب سياست نامه من أنّ الملك السلجوقي طلب من مقرّبيه من كبار رجال دولته سنة 479 هـ/1087م أن يضعوا له كتابا يضم كل شيء "من أنظمة الملك وقواعده وعادات الملوك في عهد ملوك السلاجقة السالفين" من أجل أن يأمر "بأن تطبق الأمور الدينيّة والدينيوية بعد هذا وفق أصولها وقواعدها [لأنّه] يَنْبَغِي ألا يظل أي شيء بعد الآن في مملكتنا ناقصا أو متزلزلا أو أنّ الأمور فيها تسير بخلاف الشَّرْع وأوامر الله تَعَالَى². لأجل ذلك وضع نظام الملك كتابه الشهير "سياست نامه".

يمكن القول أنه من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وفي ظل حكم سلاطين السلاجقة سيطرت ثلاثة أعمال كبيرة كُتبت بالفارسية وأثرت على ما بعدها من كتابات سياسية في أدب نصائح الملوك³ وهي: كتاب قابوس نامه، كتاب سياست نامه، وكتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك⁴ عاكسة بذلك انتقال مركز التأثير السياسي من العراق والشام والجزيرة العربية إلى بلاد

¹ قال صاحب كشف الظنون أنّ الإمام أبو حامد الغزالي ألّفه بالفارسية للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ثمّ عرّبه بعضهم ونقله: محمد بن علي المعروف: بعاشق جلبي إلى التركية ونقل أيضا: علائي بن محب، الشريف الشيرازي لسان بك، من أتباع: بايزيد بن السلطان: سليمان خان وسماه: (نتيجة السلوك). ينظر: حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني (ت 1067هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط1، مكتبة المثنى، بغداد، 1941، ص337.

² نظام الملك: المصدر السابق، ص43.

³ ذكر المستشرق كليفورد إدموند بوزورث بعضا من الكتب التي تأثرت بالأعمال الكبرى الثلاثة ككتاب نصائح شاه رخ للمدعو جلال الدين زكريا القزويني الذي كُتب سنة 813هـ وقدمه للملك شاه رخ بن تيمورلنك (ت851هـ) سلطان هراة، وسمرقند، وشيراز وما وراء النهر من بلاد العجم وغيرها، وكتاب سلوك الملوك لفضل الله روزبهان (ت927) الذي ألّفه ليكون دليلا عمليا لحكام السلالة الشيبانية بفارس. ينظر:

C.E. Bosworth: "Nasihat Al-Muluk", Encyclopedia of Islam, Vol7, Op.cit, P988.

⁴ ترجم كتاب قابوس نامه إلى التركية ثلاث مرات. ينظر: بروان إدوارد جرانفيل: المرجع السابق، ص346. ويعتبر كتاب سياست نامه من أهم المؤلفات الفارسية، نشر أصله الفارسي المستشرق الفرنسي شارل شيفر سنة 1891، وكان من الصعب الحصول على كتاب سياست نامه قبل طبعة شيفر الفارسية لنذرة النسخ المخطوطة منه، ويضم سياست نامه خمسين فصلا تبحث في شؤون الملك وحقوق الملك وواجباته وما يتصل بالإدارات المختلفة التي يعتمد عليها في إدارة البلاد. ينظر: بروان إدوارد جرانفيل: المرجع نفسه، ص259-265.

فارس، في ظل وجود خلافة عباسية رمزية ببغداد وسلطنة سلجوقية في عنقوان قوتها ببلاد فارس. لم تنقطع المؤلفات في أدب نصائح الملوك في شرق العالم الإسلامي وغيره¹، وقام العلماء والوزراء وموظفو فئة الكتاب بواجب النصح بدافع ديني أخلاقي بمقتضى أن الدين التّصيحة، أو إشفافاً وحرصاً على الدولة الإسلامية، أو رغبة في القربى من أصحاب الصولجان. وبصرف النظر إن كان أدب نصائح الملوك مَثَلٌ أداة لتكريس الاستبداد في الشرق باعتبار أغلبه لم يناقش شرعية الحكم أو آلية الوصول إليه² فإن أصحابه حاولوا وضع قواعد عملية مبنية على أسس شرعية وعبر تاريخية لضبط تصرفات أولي القوّة والسلطة لتدور تصرفاتهم على دائرتي العدل والإحسان.

إذا انتقلنا إلى الفضاء العثماني فإنّه لم يكن أقلّ حظاً من جهة وفرة أدب نصائح الملوك سيّما إذا علمنا أنّ العلماء رافقوا بدايات تأسيس الدولة العثمانية وكان لهم دورهم المميّز جدا في النصح والتوجيه، وظلّ الفكر السياسي العثماني رهينا لما سبقه من تراث فكري سياسي عربي أو فارسي وإذا علمنا أنّ عهود ووصايا الأمراء والسلاطين لأولياء عهدهم أو لولاتهم تندرج أيضا ضمن أدب نصائح الملوك، فإنّ التاريخ يسجّل لنا وصيّة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية لوليّ عهده أورخان، تلك الوصية التي عرضناها سابقا والتي رسمت القواعد الأساسية لخلفاء عثمان المؤسّس.

وقد أوصى عثمان ولي عهده بما التزم به هو نفسه، فقد كان عثمان يقربّ إليه العلماء ومنهم عالم عصره وصهره الشيخ أد بالي³؛ فقد كان وقادته يرجعون إليه بالمسائل الشرعية ويتشاورون معه

1. كتب الطرطوشي الفهري (ت520هـ) سراج الملوك وأهداه لوزير الخلافة الفاطمية المأمون البطاحي، وألّف ابن الطقطقي (ت709هـ) الفخري في الآداب السلطانية لفخر الدين عيسى عامل السلطان المغولي غازان على الموصل سنة 701هـ، وكتب الأمير أبو حمو بن زيان (ت791هـ) كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لوليّ عهده عبد الرحمن، وكتب جلال الدين السيوطي (ت911هـ) الرسالة السلطانية وآداب الملوك ورسالة إلى ملوك تكرر، وألّف أبو الفضل محمد بن الأعرج (ت925هـ) تحرير السلوك في تدبير الملوك لسلطان المماليك قنصوه الغوري، وغيرها كثير.

2. تناول ابن خلدون بالنقد لبعض كتب أدب نصائح الملوك في مقدمته الشهيرة؛ فقد انتقد ابن المقفع في كونه ذكر السياسات الملوكية بشكل سطحي غير مدلّل بالبراهين، كما انتقد أبو بكر الطرطوشي صاحب سراج الملوك في كونه لم يستوفي المسائل ولم يوضح أدلتها وإثما استكثر" من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجهر والموبدان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليفة ولا يكشف عن التّحقيق قناعا ولا يرفع البراهين الطّبيعية حجبا إثمّا هو نقل وتركيب شبيهة بالمواعظ وكأنّه حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقّق قصده ولا استوفى مسأله" ينظر: ابن خلدون: المصدر السابق ص52.

3. اده بالي ولد بالبلاد القرامانية وقرأ هناك بعضا من العلوم ثم ارتحل الى البلاد الشامية وتفقه بها على مشايخ الشام وقرأ التفسير والحديث والأصول عليهم، ثم ارتحل الى بلاده واتصل بخدمة السلطان عثمان الغازي ونال عنده القبول التام، وكانوا يرجعون إليه بالمسائل الشرعية ويتشاورون معه في أمور السلطنة... ومات في سنة 726هـ. ينظر: طاشكيري زاده: المصدر السابق، ص6-7.

في أمور السلطنة". كما تذكر المصادر أنّ عثمان اتخذ لنفسه إماما للصلاة وواعظا وقاضيا¹. وقد جرى على ذلك جميع السلاطين العثمانيين؛ وإذا كان محمد الفاتح هو واضع قوانين آل عثمان فإنّه في ذلك مدين لواحد من كبار ففة الكتاب من علماء عصره وزيره محمد باشا القرماني (ت 886هـ).

تطالعنا المصادر والمراجع المتاحة التي جرى تفحصها بعناية عن وجود مصنّفات ورسائل عديدة تنتمي لفئة أدب نصائح الملوك؛ فقد قدّمت ترجمة تركية لكليلا ودمنة للسلطان مراد الأوّل (763هـ-791هـ/1362م-1389م) خليفة أورخان²، وفي عهد بايزيد الأوّل (791هـ-804هـ/1389م-1402م) رابع السلاطين العثمانيين ومع تحوّل الدولة لتصبح دولة إسلامية كبرى أصبحت الحاجة ماسّة لاكتساب نظريات وقواعد إسلامية تعتمد عليها السلطة في إدارة ممتلكاتها المتنامية فكان أدب نصائح الملوك واسطتها نحو تحقيق ذلك³؛ فألّف المولى تاج الدين أحمد الكرمياني الحنفي الشاعر⁴ كتاب إسكندرنامه⁵ وأهداه للسلطان بايزيد، كما ألّف كتاب سليمان نامه لابن السلطان بايزيد الأمير سليمان، وفي عصر بايزيد أيضا أعاد مصطفى شيخ أوغلو⁶ ترجمة كليلا ودمنة، كما ألّف مصطفى شيخ

¹ - Hammer: Op.cit, Tom 1, P75.

² . دخلت كليلا ودمنة للغة التركية للمرة الأولى بأمر من الأمير التركي أومر بك حاكم إمارة آيدين في القرن الرابع عشر الميلادي وتم تحويل هذه الترجمة المنشورة إلى ترجمة منظومة قدّمت للسلطان مراد الأوّل. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ج2 ص227.

³ - Pal Fodor: "State and Society, Crisis and Reform, in 15th—17th Century Ottoman Mirror for Princes", Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, Akadémiai Kiadó, Budapest, N 40, 1986, P220.

⁴ . العالم المولى تاج الدين أحمد الكرمياني الحنفي الشاعر، المتوفى ببلدة أماسية سنة 815هـ. طلب العلم بمصر، ثم عاد إلى بلده واتصل بالأمير ابن كرميان وصار معلّمًا له. ثم صاحب الأمير سليمان بن السلطان بايزيد [العثماني] وتقرّب عنده وحصل له جاه عظيم ونظم لأجله كتابه المسمى بـ"إسكندرنامه". ينظر: حاجي خليفة كاتب جلبي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (ت 1067هـ): سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تح: محمود عبد القادر الأرنؤوط، ج1، ب ط، مكتبة إرسياكا، تركيا، 2010 ص275.

⁵ . ويذهب المؤرخ المجري بال فودور (Pál Fodor) إلى أنّ كتاب إسكندر نامه هو أوّل كتاب عثمانى في أدب نصائح الملوك ينظر: Pál Fodor: Op.cit, P221.

⁶ . شيخ أوغلو مصطفى شاعر عثمانى ربما تكون ولادته سنة 741هـ/1340م؛ فقد ذكر في كتابه كنوز الكبراء الذي كتب سنة 803هـ/1401م أنّ عمره كان 62 عاما، المعلومات عنه قليلة، وتفيد بعض المعطيات إلى أنّه تولى بعض الوظائف في إمارة كرميان ثم التحق بخدمة العثمانيين على عهد بايزيد الأوّل. ربما توفي سنة 816هـ/1413م ينسب إليه عملاقان هما: منظومة شعرية تسمى خورشيد نامه مكونة من أكثر من 7600 بيت أهداها للسلطان بايزيد الأوّل، وكتاب كنوز الكبراء ومحك العلماء وهو كتاب سياسي أخلاقي موجه للسلاطين والولاة والعلماء، كما ترجم كتاب كليلا ودمنة إلى التركية. ينظر:

Kemal Yavuz: ŞEYHOĞLU, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 39, 2010, sayfa 88-89.

أغلو أيضا كتابه كنوز الكبراء ومحك العلماء في السياسة والأخلاق وجعل الباب الأول من كتابه هذا المكوّن من أربعة أبواب باب آداب السلاطين.

في عهد السلطان مراد الثاني (824هـ-855هـ/1421م-1451م) قدّمت له ترجمة تركية للكتاب الشهير قابوس نامه¹، ويطالنا عهد محمد الفاتح (855هـ-886هـ/1451م-1481م) سابع السلاطين العثمانيين بكتابين للمولى مصنّفك² وهما تحفة السلاطين وكتاب التُّحفة المحمودية صنفه لأجل الوزير مُحَمَّد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الفاتح في نصيحة الوزراء، وقد صنّف هذا الكتاب بأمر من السلطان محمد الفاتح³ في إشارة إلى حرص السلاطين على نصيحة أهل العلم.

نتقل إلى عهد بايزيد الثاني (886هـ-918هـ/1481م-1512م) خليفة الفاتح لنجد أنّ ابن كاتب القونوي⁴ كتابه هديّة الملوك، وأهداه للسلطان بايزيد الثاني، وألّف قاضي بَعْدَاد قوام الدّين⁵ كتابيه نصائح الملوك وأحكام السلاطين بالفارسية، وأهداهما لسليم الأول (918هـ-926هـ/1512م-1520م)، وألّف علوان الحموي⁶ كتابه النصائح المهمة للملوك والائمة، و الحموي هذا من العلماء العرب الذين عاصروا دولة المماليك بمصر، وشهدوا سقوطها على يد العثمانيين، وعاش الحموي بعدها في كنف العثمانيين، ورفع كتابه إلى السلطان سليم الأول.

1. ترجمه شخص يدعى مرجمك أحمد. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص228.

2. المولى مصنّفك عليّ ابن مجد الدّين الشاهرودي البسطامي (803-875هـ): وسمي بالمولى مصنفك لاشتغاله بالتصنيف في حدّاته سنه وألّف في لغة العجم للتصغير، وهو من ذرية الإمام فخر الدين الرازي ... صنّف بالفارسية. ينظر: طاشكيري زاده: المصدر السابق، ص100-102، بتصرف.

3. تمّت كتاب كان له صدى كبير عند العثمانيين وإن كان مؤلّفه قد قدّمه لغريمهم حسن الطويل (ت1478م) حاكم إمارة آق قويونلو، والكتاب عنوانه أخلاق جلالي المسمى بلوامع الإشراف والذي ألّفه العالم الشهير في القرن الخامس عشر الميلادي جلال الدين الدواني (ت1503م). ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص228. كما أنّ كتاب تاريخ أبو الفتح للمؤرخ العثماني طورسون بك (ت1499م) أسهم بدوره في إيجاد قاعدة فكرية يقوم عليها الحكم العثماني وفيه الكثير من النصائح للحاكم ينظر: Pál Fodor: Op.cit, P221-222.

4. ابن كاتب سِنَان مُحَمَّد بن سِنَان القونوي (ت 910هـ). ينظر: الباباني إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي (ت 1399هـ): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج2، ط1، وكالة المعارف، إستانبول، 1951، ص225.

5. قوام الدّين يُوسُف بن حسن الحسيني الشّيرازي ثمّ الرُّومي الحنفيّ الشهير بقاضي بَعْدَاد، توفي سنة 922هـ. ينظر: الباباني: المرجع السابق، ص563-564.

6. علوان الحموي هو علي بن عطية بن الحسن بن مُحَمَّد ابن الجواد الهيتي علاء الدّين الشّافعي الصوفي الشاذلي المَعْرُوف بعلوان الحموي (873-936هـ). ينظر: الباباني: المرجع السابق، ج1، ص742 ويدور كتاب "النصائح المهمة للملوك والائمة" حول مفهوم العدل ومراقبة العمال ومنعهم عن ظلم الرعية. ينظر: نصر محمد عارف: المرجع السابق ص198.

عهد سليمان القانوني (926هـ-974هـ/1520م-1566م) العهد الذهبي للدولة العثمانية عرف الكثير من التصانيف التي تندرج في إطار أدب نصائح الملوك؛ ترجم الشيخ عبد الواسع عليسي¹ كليلة ودمنة مرّة أخرى إلى اللغة التركية وهي المسماة همايون نامه، وترجم عاشق جلبي² إلى التركية كتاب الإمام الغزالي التبر المسبوك في نصائح الملوك، ووضع أحمد ابن كمال باشا³ كتابا في السياسة الشرعية وفي عهد سليمان القانوني كان للوزراء نصيبهم أيضا من التصح؛ فقد صنّف المولى قاضي زاده⁴ "الطائف الافكار وكاشف الاسرار" في الأخلاق والأدب وأمور السياسة وأهداها للوزير إبراهيم باشا⁵ وكتب الصدر الأعظم لطفي باشا⁶ آصف نامه في آداب الوزراء باللغة التركية، وقد اعتُبر لطفي باشا أول رجل دولة استشعر علامات التفكك في النظام العثماني، وكان له من الجرأة ما دفعه إلى التصريح بأن شيخ الإسلام الشهير المولى أبا السعود أفندي (ت982هـ) وبعض العلماء في عصره لا يملكون علما يعدل ما بلغوه من شهرة⁷.

اعتُبر آصف نامه من الأعمال التي كان لها تأثير بعيد المدى على تطور أدب نصائح الملوك العثماني؛ فمع كون لطفي باشا من المقربين من سليمان القانوني باعتباره صدره الأعظم وصهره

1. العالم الفاضل المولى علاء الدين علي بن صالح المشهور بعبد الواسع العليسي (ت950هـ): من علماء عصر سليمان القانوني ينظر: طاشكيري زاده: المصدر السابق، ص291، بتصرف.

2. المولى محمد بن بير علي بن محمد بن زين العابدين ابن السيد محمد الحسيني (ت979هـ): الشهير بعاشق جلبي، قاضي بلدة أسكوب. ينظر: حاجي خليفة: سلم الوصول إلى طبقات الفحول، المصدر نفسه، ج3، 203-204..

3. المولى شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا (ت940هـ): كان جده كمال باشا من أمراء الدولة العثمانية فنشأ في بيت العز والمجد، غير أنه اشتغل بطلب العلم. وتولى التدريس والقضاء، حتى تقلّد منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية. من تصانيفه: تواريخ آل عثمان بالتركية ينظر: طاشكيري زاده: المصدر السابق، ص226-228.

4. قاضي زاده حسين بن حسن الرومي الحنفي (ت936هـ): من القضاة. ينظر: الباباني: المرجع السابق، ج1، ص318.

5. إبراهيم باشا (1494-1536م): ابن مسيحي يوناني، اختطفه قرصنة أترك في صغره، ثم بيع لولي العهد سليمان القانوني الذي أعجب به وصار يؤاكله ويلزمه كشقيقه، وقد اعتنق الإسلام، بمجيء سليمان إلى السلطة سنة 1520، ترقى إبراهيم سريعا إلى منصب الصدر الأعظم سنة 1522. لقد تلقى تعليما ممتازا فكان يتقن عدة لغات. زوجه السلطان القانوني شقيقته، وأصبحت له صلاحيات هائلة، وقام بأعمال جلييلة للدولة. ولأسباب مختلفة أمر سليمان بقتل رجله المفضل سنة 1536. ينظر:

Donaldson Jenkins Hester: **Ibrahim Pasha, grand vizir of Suleiman the Magnificent**, P.S. King Et Son, London, 1911, P19,42.

6. لطفي باشا الرومي محمد سعيد بن عبد الحي (ت950هـ): صهر السلطان سليمان القانوني، كان أدبيا فاضلا عزل عن الصدارة ونفى إلى بلدة ديمتوقة ومات بها. له من التصانيف آصف نامه في آداب الوزراء تركي. ينظر: الباباني: المرجع السابق ج2، ص238.

7. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص229.

مع ذلك فإنه أعطى في آصف نامه تقييما صادقا لا هوادة فيه لوضع الدولة العثمانية في عهده¹ لم يكن لطفي باشا مجرّد وزير دولة، بل جمع إلى ذلك سعة العلم والحلم؛ فقد خالط العلماء وأخذ منهم معارف متعدّدة سيما بعد عزله عن الصدارة، وقد ترك الكثير من المؤلفات المعروفة بالعربية والتركية منها على سبيل المثال لا الحصر: آصاف نامه وقانوننامه آل عثمان، تاريخ عثمان، كتاب تنبيه الغافلين وتأكيّد الكاسلين، كتاب تحفة الطالبين، كتاب الكنوز في لطائف الرموز في الأحاديث الأربعين كتاب زبدة المسائل في الاعتقادات والعبادات، رسالة في خصائص أهل السنة والجماعة، رسالة في بيان أهل الأهواء والضلالة، رسالة خلاص الأمة في معرفة الأئمة.

ألّف لطفي باشا رسالته الشهيرة آصف نامه سنة 950هـ/1543م أي في منفاه بعد عزله وتحتوي على خلاصة فكر وخبرة لطفي باشا وتجربته السياسية والإدارية، قدّم فيها رؤيته لما يجب أن يكون عليه الوزراء العظام في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، وذكر في مقدّمها أن الهدف من تأليفها: أن تكون تذكارا لمن سيتبوّؤون منصب الصدارة من بعده، فجعلها متضمنة لآداب الوزارة العظمى ومهام ولوازم الصدارة الكبرى، وقد قسّمها إلى أربعة أبواب؛ الأوّل فيما يجب أن يكون عليه سلوك وخلق من يتولى الصدارة العظمى، وما يجب أن يكون عليه في تعامله مع السلطان والرعية، الثاني في بيان تدبير أمور الحرب، الثالث في بيان تدبير أمور الخزينة، والباب الرابع في بيان تدبير أمور الرعيّة².

بداية من عهد سليم الثاني(974هـ-982هـ/1566م-1574م) يبدأ عهد السلاطين الضعاف، وفي هذا العهد تُرجم كتاب الإمام أبو حامد الغزالي التبر المسبوك في نصيحة الملوك³ كما قام علاء الدين علي بن محي الدين محمد الشيرازي⁴ باختصار التبر المسبوك في نصائح الملوك وألّف دستور الوزراء وأهداه لبعض وزراء السلطان سليم الثاني، وألّف في هذا العهد أيضا كتاب تحفة الولاة والأمراء

¹ - Virginia H. Aksan, Daniel Goffman: **The Early Modern Ottomans Remapping the Empire**, 1Edt, Cambridge University Press, Cambridge, 2007, P149.

². لطفي باشا (968هـ): **خلاص الأمة في معرفة الأئمة**، تح: ماجدة مخلوف، ط1، دار الآفاق العربية، مصر، 2001، ص18.

³. ترجمه المولى محمد بن بير علي بن محمد بن زين العابدين ابن السيد محمد الحسيني، الشهير بعاشق جلبي (979هـ) ينظر ترجمته في سلم الوصول إلى طبقات الفحول لحاجي خليفة: المصدر السابق، ج3، ص203.

⁴. علاء الدين علي بن محي الدين محمد الشيرازي لا تذكر المصادر والمراجع الكثير عنه حتى أن ثمة اختلاف حول تاريخ وفاته حتى أنّ صاحب كشف الظنون يعطي في تاريخ وفاته رأيين متضاربين إذ يذكر مرة أنه توفي سنة 945هـ، وفي موضع آخر يذكر ما يوحي أنه توفي بعد سنة 966هـ؛ على اعتبار أنّه ألّف كتابه دستور الوزراء في سنة 966هـ وأهداه للوزير مصطفى باشا وزير السلطان سليم الثاني. ينظر: حاجي خليفة: المصدر السابق، ج1، ص193، 755.

والأكابر في أساس السياسات الدينية والدينيوية والأدب الفاخر لمحمد بن بابي التركي¹. كما ترجم للتركية كتاب الدرّة الغراء في نصائح الملوك والوزراء².

بدأ الخلل يبدو جليا على الدولة العثمانية مع الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، سيما مع عهد مراد الثالث (982هـ-1003هـ/1574م-1595م) إذ يؤرّخ الكثير من المؤرخين بدايات انحلال الدولة العثمانية من عهد مراد الثالث وخليفته محمد الثالث³ وبالتالي أصبحت الحاجة ماسة جدا لأدب نصائح الملوك؛ إذ من خلاله يتلمّس المصلحون من رجالات الدولة والعلماء مواطن الخلل ومواضع الزلل ويقرعون أجراس الإنذار ويعطون وصفاً لهم لعلاج ما قد يؤدي بالدولة إلى الانهيار.

أحد أبرز الأسماء التي لمعت في أدب نصائح الملوك على عهد مراد الثالث مصطفى بن أحمد بن عبد المولى كاليبوي المعروف بعالي أفندي وعالي الدفتري باعتباره من فئة الكتاب من أهل القلم⁴ فمن خلال أعماله التاريخية الكثيرة وسعة اطلاعه وضع مؤلفاته السياسية الثلاث؛ نصيحة السلاطين الذي ألفه بحلب في شهر ذي القعدة 989هـ الموافق لديسمبر 1581م⁵، كما ألف بإستانبول محاسن الأدب بطلب من مراد الثالث سنة 995هـ/1581م، وختم أعماله في أواخر حياته بكتاب قواعِد المَجَالِس وأدب المَجَالِس⁶.

1. لم أقف على ترجمته وذكر الدكتور نصر محمد عارف أنه لم يقف أيضا على ترجمته إلا أنه ذكر تاريخ وفاته سنة 986هـ وبالتالي عاصر سليم الثاني. ينظر: المرجع نفسه، ص202.

2. ألفه الشيخ محمود بن إسماعيل الجيزي (توفي حوالي 845هـ) لسلطان المماليك أبو سعيد جقمق (ت857هـ)، وترجمه للتركية رجل يدعى ابن فيروز وسماه الغرة البيضاء في نصيحة السلاطين والقضاة والوزراء، وأهداه لسليم الثاني. ينظر: حاجي خليفة: المصدر السابق، ج1، ص741.

3. يذكر جوزيف فون هامر بتعليقا على موت الصدر الأعظم محمد صوقولو في عهد مراد الثالث وهو أحد أهم رجالات الدولة في عهد ثلاثة سلاطين هم سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث: بأن جرائم الانحلال بدأت بالظهور بموت صوقولو غير أنها في عهد محمد الثالث بدأت تعطي ثمارا مميّنة. ويذكر أنّ خراب البناء الحكومي بدأ مع محمد الثالث. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom 8, P43-44.

4. عالي أفندي (948-1008هـ): مؤرخ وشاعر عثماني، كتب أول ديوان شعري أسماه مهروماه وقدمه للأمير سليم خليفة القانوني، تولى عدّة مناصب في الدولة. ترك مؤلفات كثيرة سيما في التاريخ منها: زبدة التواريخ تركي، فتحنامه ردوس في التّاريخ وغيرها. ينظر: Bekir Kütükoğlu : ÂLÎ MUSTAFA EFENDİ, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 2, 1989, sayfa 414-416.

وله كتاب بالتركية على منوال كليلة ودمنة عنوانه صد قصة وصد حصّة. ينظر: المصدر السابق، ج2، ص1076.

5. ذكر المؤرخ العثماني مصطفى نعيما أن عالي أفندي نقل كتاب نصيحة السلاطين وعدّله من كتاب عربي آخر وضعه عبد الرحمن الشيرازي وقدمه لصالح الدين الأيوبي. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص230.

6 - Bekir Kütükoğlu: Op.cit, P415.

الذي يعطي لعالي أفندي موضعا متميِّزا ضمن من كتبوا في أدب نصائح الملوك عند العثمانيين هو حسب بعض المتخصصين نقطتين مهمتين أثارها في نصيحة السلاطين؛ الأولى اقتراحه بأن تكون الوظائف وراثية مدى الحياة لوقف الحروقات والانتهاكات المتزايدة في الوظائف سيما استشارة المحسوبة والرشوة لنيل المناصب، والنقطة الثانية فريدة من نوعها وتمس أحد أركان النظام الكلاسيكي للعثمانيين متمثلا في نظام الدفشمرة¹ الذي يدعو صراحة إلى إلغائه على اعتباره مخالفا للشريعة، وإثما عمل به في الماضي على وجه الاضطرار لزيادة عدد المسلمين².

قبل أن يغادر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي لا بدّ من الحديث عن حسن كافي آقحصاري³ صاحب كتاب أصول الحِكم في نظام العالم، عنوان الكتاب وحده يوحي باضطراب النظام العثماني؛ في كتابه أصول الحكم شخّص أسباب ضعف النظام العثماني وذكر أمورا منها: ضعف السلاطين وهم نظام العالم، الذين بدأوا بالانكماش والانزواء عن الحياة السياسية وقيادة الجيوش وتدخّل الحريم في الشأن السياسي، وانتشار الفساد وتعطيل الشورى والاستبداد بالرأي الوضع المتردّي للجيش وانعكاس ذلك على الداخل في؛ تجاوزات العساكر في حق الرعيّة وإجبارهم للفلاحين على القتال بدلا عنهم، وفي الخارج تمثل في تراجع الانتصارات العثمانية، وتحدّث عن جمود العقلية العسكرية ورفضها للتحديث في مجال الأسلحة الحديثة وأساليب القتال المتطورة. ولم يكنفي بالنقد السليبي بل حاول إعطاء الحلول لتجاوز الخلل⁴.

أعيد ترجمة التبر المسبوك في نصائح الملوك للغزالي⁵ على عهد السلطان أحمد الأوّل (1012هـ-)

¹. إذا علمنا أن مراد الثالث وفي سبيل محاولته إضعاف الإنكشارية نجبة الجيش العثماني الذين أصبحوا خطرا على الدولة انتهك القانون القديم سنة 990هـ/1582م وسمح بتجنيد المسلمين الأحرار ضمن الإنكشارية بعد أن كان هذا ممنوعا عليهم. فهل أخذ برأي عالي أفندي فمهّد له بذلك الإجراء؟

² - Pál Fodor: Op.cit, P225.

³. حسن كافي بن طرخان بن داوود بن يعقوب الزبيبي الآقحصاري البوسني (ت1052هـ): أكمل تعليمه باستانبول، وتولى منصب القضاء عدة مرات في مناطق متعددة بالبلقان، وحج سنة 1592م، وبعد عودته اعتزل القضاء وتفرغ للتدريس، شارك سنة 1003هـ/1595م في معركة آكري الشهيرة والتي قادها السلطان محمد الثالث بنفسه وهزم فيها التحالف المجري النمساوي فخلّد حسن تلك المعركة في كتابه آكري ملحمة سي تاريخه سي (تاريخ ملحمة آكري)، ورغم الانتصار إلا أن ذلك لم يخفي جوانب الضعف بالجيش العثماني لذلك ألف حسن كتابه أصول الحكم في نظام العالم، وأهداه لأحد كبار قادة حملة آكري السردار الحافظ أحمد باشا. ترك الكثير من المؤلفات أغلبها بالعربية وبعضها بالتركية والفارسية. ينظر: الآقحصاري حسن كافي: أصول الحكم في

نظام العالم، تح: نوفان رجا الحمود، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن، 1986، ص5-6. بتصرف

⁴. الآقحصاري حسن كافي: المصدر السابق، ص7-10. بتصرف.

⁵. ترجمه المولى وجودي الحنفي المفتي (ت1021هـ). ينظر: الباباني: المرجع السابق، ج2، ص269.

1026هـ/1603م-1617م)، وفي عهد السلطان أحمد أُلّف كتاب (قوانين ياني شري)¹ قوانين الإنكشارية وذلك سنة 1014هـ/1606م لمعالجة الخلل الذي جعل نخبة الجيش العثماني تنقلب وبالا على الدولة العثمانية بمخالفتها للقوانين القديمة؛ فكثرت بسببها القلاقل والاضطرابات، وأزهقت من خلال تلك القلاقل أرواح بريئة منها بعض كبار رجالات الدولة.

يعتبر عهد السلطان عثمان الثاني (1027هـ-1031هـ/1618م-1622م) عهدا استثنائيا على اعتبار أنّ السلطان عثمان - كان عمره أربعة عشر سنة حين تولى العرش - حمل مشروعا إصلاحيا² يستهدف الجيش الإنكشاري والإدارة والعلماء، ودفع ثمنا له حياته، من حيث اعتباره أوّل سلطان عثماني يقتله جيشه سنة 1031هـ/1622م، وقد شهد عصره القصير قلاقل كثيرة أثارها الإنكشارية. في عهده القصير ظهر كتاب مجهول المؤلّف أيضا عنوانه الكتاب المستطاب؛ ربما كان مؤلف الكتاب من المقرّبين للسلطان عثمان وخشي إظهار اسمه خوفا على نفسه³؛ ويزعم المؤلّف أنه ألّفه مضطرا بعد أن رأى "قوانين السلطنة العثمانية تُنتَهَك؛ وجود عجز في الخزينة، الولاة يمزّقهم الصراع؛ منصب القضاء يمكن الوصول إليه بالرشوة؛ تسرّب الخيانة لبطانة السلطان، تحكّم الطمع وشهوة المال عند العلماء، غياب الأمن عند الرعيّة، باختصار: البدع وكل أنواع المظالم والانتهاكات"⁴. وحاول مؤلّف الكتاب إعطاء نصائحه حول إصلاح الخلل سيما في الصدارة العظمى والجيش⁵.

عهد مراد الرابع (1032هـ-1049هـ/1623م-1640م) وهو واحد من أقوى السلاطين العثمانيين في مرحلة الضعف التي بدأت من عهد سليم الثاني: نشط مجددا أدب نصائح الملوك فقد امتلك مراد الرابع مشروعا إصلاحيا متكاملا، وأعانت الظروف لتنفيذه، حتى أنّه عند وفاته ترك سلطة قوية مستقرة للدولة، ونظاما وطاعة في الجيش لم يشاهد مثلها منذ عهد القانوني حسب هامر⁶.

1. مؤلّف الكتاب مجهول. ينظر: Pál Fodor: Opcit, P228.

2. حسب المؤرخ التركي يلماز أوزتونا فإن فكرة إصلاح الجيش الإنكشاري كانت من بنات أفكار معلم السلطان محمد الثالث خوجه سعد الدين وذلك سنة 1596م، ثم ورث الفكرة معلم السلطان عثمان الثاني المولى عمر أفندي، ومنه انتقلت لعثمان الثاني، هذا الأخير ولقة خبرته تسرّع في تطبيقها دون مراعاة الظروف. ينظر: يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج1، ص460.

3. وقد يعذر في ذلك سيّما إذا علمنا أن الإنكشارية حين ثاروا على عثمان وقبل قتلهم للسلطان قتلوا مستشاريه المقرّبين وعلى رأسهم معلّمه المولى عمر أفندي في أحداث مروّعة. ينظر: Hammer: Opcit, P317-320.

4- Pál Fodor: Op.cit, P230.

5 - Loc.cit.

6. ينظر: أوزتونا يلماز: المرجع السابق، ص485. قال عنه فون هامر: إنّه رغم استبداده إلا أنّ التاريخ يذكر له أنّه كان أقوى من أسلافه الضّعاف. إصلاحاته كلّفت حسب هامر خلال السبع سنوات الأخيرة من حكمه، إعدام أكثر من 50.000 شخص ويمكن أن يصل مجموع ضحاياه خلال عهده إلى 100.000. ينظر: Hammer: Op.cit, P389.

ظهر في عصر مراد الرابع مرة أخرى كتاب بعنوان نصيحة الملوك ألفه رئيس الكُتّاب صاري عبد الله أفندي¹، وأهدي للسلطان مراد كتاب الجواهر المضية في الأحكام السلطانية² وأهدي له أيضا مسلك السلاطين والملوك وتحفة الملوك في السلوك، كما ألف في عهده كتاب قانون نامه سلطاني³ بين عامي 1041هـ-1042هـ/1632م-1633م، وكتاب مجهول المؤلف عنوانه مصالح المسلمين ومنافع المؤمنين⁴. كما أهدى لمراد كتابا "قانون الرشاد" وهو كتاب في الأخلاق والسياسة⁵. غير أنّ أشهر عمل ينتمي لأدب نصائح الملوك في عهد مراد هو الرسالة الشهيرة لأحد أعلام فئة الكتاب مصطفى قوجي بك، والذي لقب مونتسكيو العثمانيين⁶ وهي التي سنخصّها وصاحبها بالذكر في المبحث القادم.

1. صاري عبد الله أفندي (ت 1071هـ): شاعر وأديب عثماني، وهو ابن سيد محمد أحد أمراء المغرب الذين فروا إلى الأستانة في عهد السلطان أحمد الأول وتزوج ابنة محمد باشا أخو الصدر الأعظم خليل باشا: وقد كلفه محمد باشا، وعينه رئيسا للكتاب عام 1037هـ. ولما توفى محمد باشا عين صاري رئيسا للركاب السلطاني عام 1047 هـ وصحب مرادا الرابع إلى بغداد ثم أصبح رئيسا للكتاب مرة أخرى. وشغل صاري عبد الله مناصب أخرى. ألف عدة كتب مبتكرة منها: "نصيحة الملوك". ينظر: م. ت. هوتسما وآخرين: صاري عبد الله أفندي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ج 21، ص 6455-6456.

2. ألفه زين العابدين عبد الرؤوف المناوي (ت 1031هـ)، وأهداه لمراد الرابع ينظر: حاجي خليفة: المصدر السابق، ج 1، ص 617.

3. لا يعرف شيء عن صاحب الكتاب غير اسمه عزيز أفندي ربّما يكون من فئة الكتاب من أهل القلم وربما كان كاتباً بالديوان وتفحص النص يوحى بأنّه كان قريبا من السلطان مراد الرابع؛ فقد كان يوجّه انتقاداته دون خوف من الانتقام الرسمي، يتكون الكتاب من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، يعالج عزيز أفندي في المقدمة شخصية السلطان ومدى تحقّق العدالة فيه، يتناول في الفصل الأول القوانين القديمة المتعلقة بالوزراء حيث يلاحظ أن عدد الوزراء زاد في غير فائدة. ويتحدث بالفصل الثاني عن الإنكشارية وينتقد أيضا الزيادة المفرطة في عددها. في الفصل الثالث يتحدّث عن القادة الأكراد وخدماتهم الجليلة للدولة. الفصل الرابع تحدث عن ضرورة إصلاح فئة العلماء وإعطاء المناصب للجديرين بها. ويقترح عزيز أفندي الحلول الناجعة للرجوع إلى القوانين القديمة التي أعطت للدولة أمجادها. وحثّ السلطان على إبقاء مضمون كتابه سرا حتى يتمكّن من الشروع في أخذ التدابير المقترحة. ينظر:

İnan, K., "Remembering the Good Old Days: The Ottoman Nasihatname [Advice Letters] Literature of the 17th Century", in Institutional Change and Stability Conflicts, Transitions and Social Values, Edited by Andreas Gemes and others, Pisa University Press, Pisa, Italia, 2009, P 119-120.

4. مؤلف هذا الكتاب مجهول أيضا وربما ألف الكتاب بين عامي 1639م و1640م أي نهاية عصر مراد الرابع، وقدّم الكتاب إلى الصدر الأعظم مصطفى كامنكاش باشا، ويتناول الكتاب العديد من الموضوعات قد لا يوجد نظير لها عند معاصريه؛ فهو مثلا ينتقد الجمود على القوانين القديمة ويدعو إلى مراجعة الموقف منها، وهو لا يدعو إلى تجاوزها جملة وتفصيلا ولكنه يدعو إلى تجاوز القوانين التي لم تعد تنسجم مع عصره ومعطياته الجديدة. ينظر: Loc.cit.

5. أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص 80.

6. كتب عنه فون هامر قائلا: أسباب الخطأط الإمبراطورية العثمانية غالبا ما تحدّث عنها الغربيون بصراحة لكن لا أحد عاج تلك الأسباب بحصافة ودراية تامة بحقائق الأمور كقوجي بك الذي عاصر مراد الرابع، كتابه حول الخطأط الإمبراطورية العثمانية جعله يستحق لقب مونتسكيو الترك. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom6, P281-282.

خصائص أدب نصائح الملوك الإسلامي

قبل ذلك نوجز في سبع نقاط أهمّ الخصائص التي تميّز بها أدب نصائح الملوك عبر العصور الإسلامية المختلفة:

1. التأكيد على مركزية القيم الأخلاقية في الشؤون السياسية، باعتبارها سبب ثبات الملك ودوامه وسبب فلاح الراعي وصلاح الرعية. "فالأدب صورة العقل فمن لا أدب له لا عقل له ومن لا عقل له لا سياسة له ومن لا سياسة له لا ملك له"¹.
2. الاستدلال بالكتاب والسنة والاستشهاد بتجارب من مضى من الأمم بغية تقويم المسار وإصلاح الديار. "على الملك أن يسلك طريق الملوك الذين تقدموه ويعمل على سننهم، ويقرأ كتب مواعظهم وقضاياهم، فإنهم كانوا أطول أعماراً، وأكثر تجاربا واعتبارا، وإنهم فرقوا بين الجيد والرديء وعرفوا الجلي من الخفي"².
3. حثّ الحكّام على إعمال الشورى والأخذ برأي أهل العلم والفضل والصالح وأهميّة ذلك في استقرار دعائم سلطنتهم. "لو كانت الملوك تعرف مقدار حاجتهم إلى ذوي الرأى من الناس مثل الذي يعرف أهل الرأى من حاجتهم إلى الملوك، لم أر عجبا أن ترى مواكب الملوك على أبواب العلماء كما ترى مواكب العلماء على أبواب الملوك"³.
4. أغلبها كان يكتب بشكل عفوي من باب إعمال واجب النصيحة لأئمة المسلمين وولايتهم وإشفاقا على بيضة الإسلام، وأقلّها كان يكتب بطلب من ولاة الأمور.
5. يطغى الجانب العملي على غالب مضامينها، وإن شاب بعضها نظريات سياسية مستمدّة من معين الشرع أو من فلسفات غربية أو شرقية.
6. اعتمدت على التوجيه والإرشاد المباشر تارة، ونحت منحى التورية على لسان الحيوان تارة أخرى بحسب صلف ولاة الأمور أو حلمهم.
7. شخّصت العلل واجتهدت في تقديم الحلول.

1. الشيزري جلال الدين عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، العدوي الشافعي (ت 590هـ): منهج المسلموك في سياسة الملوك، تح: علي عبد الله موسى، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1987، ص 169.

2. الغزالي: المصدر السابق، ص 53..

3. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تح: محيي هلال السرحان، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 108.

قدمت في هذا المبحث صورة موجزة عن أدب نصائح الملوك ذلك النوع من الأدب الذي يُعنى بوضع مؤلفات ورسائل يسترشد بها أولي الأمر من سلاطين وأمراء ووزراء في سياسة الملك وتديير أمر الرعيّة، فقدمت تعريفا له وكيف وعلى أي أساس نشأ في البيئة الإسلامية، ثم استعرضت بإيجاز أهم رواده في العهد الأموي والعباسي، وصولا إلى أهم من كتب فيه في عهد السلاجقة ثم خلفائهم من العثمانيين، وختمت بالخصائص التي ميزت أدب نصائح الملوك الإسلامي على اعتبار أن هذا الأدب وجد أيضا بأوروبا باسم مرايا الأمراء (Mirrors for princes)، وغاية ما في الأمر أن هذا الأدب الذي ظهر في بواكير تاريخ الإسلام واستمر إلى يومنا هذا، هو ذاته الذي كتب من خلاله أعلام فئة الكتاب من أهل القلم مصنفاتهم ورسائلهم ولوائحهم وتقاريرهم ورفعوها إلى أولي الأمر من السلاطين والوزراء والحكام، إما تطوعا من أنفسهم أو بطلب من أولي الأمر.

المبحث الثاني: قوجي بك ورسالته الإصلاحية

ترجمة قوجي بك

تقديم رسالة قوجي بك والاهتمام الغربي بها

عرض مضمون رسالة قوجي بك

ترجمة قوجي بك

ذُكر بالموسوعة الإسلامية التركية: أنه على الرغم من الشهرة الكبيرة التي يتمتع بها قوجي بك إلا أنه لا يُعرف الكثير عن حياته. ذكر بعض الباحثين أن قوجي بك ليس اسماً بل لقباً ويعني بالألبانية - على اعتبار ألبانية مصطفى قوجي بك - الأحمر على اعتبار احمرار وجهه، غير أن ذلك غير صحيح مقارنة بالسجلات العثمانية؛ فقد حملت الكثير من الشخصيات اسم قوجي بك كاسم مستقل وليس لقباً طيلة قرون¹.

لا يعرف تاريخ ميلاده غير أنه توفي سنة 1060هـ/1650م، وهو إداري ومنتقف عثماني من فئة الكتاب ولد بمدينة كورتشي (بالألبانية Korça) جنوب شرق ألبانيا، دخل القصر الهمايوني عن طريق نظام الدفشمرة فتلقى تعليمه بالأندرون خلال فترة مراد الرابع، ثم ترقى إلى أعلى منصب في خدمة القصر رئيس الجناح الخاص بالسلطان "أودا باشي" ليصبح واحداً من مصاحبي السلطان مراد الرابع وخليفته وولي عهده السلطان إبراهيم، وقد ترك قوجي بك ملاحظات هامة عن أسباب تدهور الدولة العثمانية والتدابير التي يمكن أن تعيدها إلى مجدها الغابر²، في رسالة من نوع أدب نصائح الملوك واعتبرت من أهم ما كتب إلى وقتها.

يذكر أحد كبار الباحثين في التاريخ العثماني أن قوجي بك بحكم نشأته بالقصر السلطاني كان شاهداً قريباً للأحداث التي شهدتها إستانبول، سيما أول حادثة قتل لسلطان عثماني سنة 1031هـ/1622م، وخلال عشرين سنة فقط تعاقب خمسة سلاطين على العرش العثماني فشكّلت تلك الأحداث الجسام شخصيته وفكره³، نشأ مصطفى قوجي بك بقسم الأندرون وهو القسم الداخلي من قصر طوب قابي قصر السلاطين العثمانيين؛ الذي يبدأ من باب السعادة إلى الباب المؤدي إلى الحرم السلطاني، ويمثّل الخدمات الداخلية للقصر، والعاملين فيه يُنتَقون بدقة وفق نظام الدفشمرة، وهو بمثابة كلية إدارية ينشأ فيها الإداريون لمختلف دوائر المؤسسة الحاكمة، ويصلون إلى أعلى المناصب، وقد حُرّم عليهم الزواج ما داموا بالقصر، ولا يخرجون إلا بإذن خاص⁴، هذا الانضباط والصرامة هو الذي أتاح للدولة مسؤولين شهد لهم أعداؤهم بالكفاءة والافتقار.

نشأته بمدرسة الأندرون التي كانت تُعِدُّ رجال الدولة بشكل عال المستوى، إلى جانب كون

¹ - Ömer Faruk Akün: **Koçi Bey**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 26, 2002, sayfa 143-144.

² - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P155-156.

³ . حرب محمد: المنتقفون والسلطة.. تركيا نموذجاً، ب ط، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2017، ص96، بتصرف.

⁴ . ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 40.

المدرسة تابعة للقصر الهمايوني حيث تُدار دفّة حكم الدولة العثمانية المترامية الأطراف، بالإضافة إلى معاصرتة لخمسة سلاطين بداية بالسلطان أحمد الأوّل وانتهاء بالسلطان محمد الرابع وهي فترة حرجة في التاريخ السياسي العثماني؛ حيث انتقلت السلطة الفعلية بالتدريج من السلاطين إلى صدورهم العظام ولعبت حاشية السلاطين دورا بارزا في التأثير على مراكز صنع القرار، هذه العوامل مجتمعة جعلت منه عقلية جبّارة استطاعت التّفاد إلى العلل الداخلية التي أثّرت تباعا على مكانة الدولة العثمانية على الصعيدين الدولي والإقليمي.

أشارت الموسوعة الإسلامية التركية بأنّ مصطفى قوجي بك تقاعد في أوائل عهد السلطان محمد الرابع ورحل إلى بلدته كورتشي (Korça) جنوب شرق ألبانيا¹ حيث توفي سنة 1060هـ/ 1650م². ولعلّ شعوره بعدم قدرته على تحمّل تبعات الفتن الكثيرة التي عصفت بالدولة أواخر عهد ابراهيم الأوّل - فقد اضطرت مالية البلاد، واستمرّ الجنود الإنكشارية التدخل في شؤون الحكم، فعمت بهم الفوضى والاضطرابات، وخلعت ثورتهم التي اندلعت في (18 رجب 1058 هـ / 8 أوت 1648م) السلطان إبراهيم ليتولى السلطة ابنه محمد الرابع ابن السبع سنوات!! - جعله يؤثّر الراحة فلم يعد بمقدوره أن يقدّم مزيدا من النصح بعد أن أدّى ما عليه كمتقّف تجاه ملّته ودولته وسلطانه.

تقديم رسالة قوجي بك والاهتمام الغربي بها

تعتبر رسالته واحدة من أعظم الأعمال في التاريخ السياسي العثماني في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، شخّص بها نقاط الضعف الذي ألمّ بالدولة، وصاغ الحلول التي تعيدها إلى مجدها السابق، رسالته تلك كانت من وراء شهادة فون هامر له قائلا: أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية غالبا ما تحدّث عنها الغربيون بصراحة لكن لا أحد عالج تلك الأسباب بحصافة ودراية تامّة بحقائق الأمور كقوجي بك الذي عاصر مراد الرابع؛ كتابه حول انحطاط الإمبراطورية العثمانية جعله يستحق لقب مونتسكيو الترك تماما مثلما جعلت المقدمة من ابن خلدون مونتسكيو العرب³، كما أنّ رسالة مصطفى قوجي بك هي أوّل بيان مكتوب ومعروف يقدّم إلى السلاطين بهذا الشكل

¹ - تذكر بعض المراجع المتخصصة بأنّ مصطفى قوجي بك كان له شقيق يدعى هورم بك فرّ إلى روسيا وتنصّر، ثم أصبح من النبلاء بأوكرانيا تحت اسم أوندرج. حفيد هذا الأخير فاسيلي ليونتفيس قوجي باي (ت1708) عمل في خدمة قياصرة روسيا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. ينظر:

Robert Elsie: **A Biographical Dictionary of Albanian History**, I.B. Tauris, London, 2012, P239-240

² - Ömer Faruk Akün: Op.cit, sayfa 143.

³ - Hammer: Op.cit, Tom6, P281-282.

في التاريخ العثماني¹.

اهتمت الدول الغربية بشكل مبكر ولافت برسالة قوجي بك؛ إذ سُرِّبَت نسخة منها من القصر وحصل عليها السفير والمستشرق الفرنسي أنطوان جالان (Antoine Galland)² وأُرسل نسخة منها إلى فرنسا سنة 1084هـ / 1673م³، كما وصلت نسخة منها إلى بطرسبورغ، ولأوّل مرّة تترجم رسالة قوجي بك إلى لغة أجنبية تحديدا الفرنسية من طرف المستشرق الفرنسي فرانسوا (François Péti s) (de La Croix)⁴ لتطبع بعد ذلك في كتاب بعنوان: قانون سليمان المقدّم للسلطان مراد الرابع لإرشاده في الشؤون السياسية والعسكرية مستخلص من أكثر الأرشيفات سرية للأمرء العثمانيين (Canon de Sultan Suleiman, représenté à Sultan Murad IV. Pour son instruction, ou état (politique et militaire tiré des archives les plus secrètes des princes ottomans) سنة 1137هـ / 1725م⁵، ولعلّ اعتبارها من أسرار السلاطين العثمانيين هو الذي جعلها محط اهتمام مراكز الأبحاث ومراكز صنع القرار في عواصم أوروبا: باريس وبرلين وفيينا وبترسبورغ، في وقت كانت أوروبا لا يزال شغفها كبيرا بكل ما يتعلق بالعثمانيين.

سنة 1278هـ / 1861م تنشر رسالة قوجي بك لأوّل مرة بلندن، كما ترجمت لغير اللغة الفرنسية

¹ - İhsan CORA: **Yönetim ve organizasyon bilimi açısından Koçi Bey Risalelerinin analizi: tarihsel bir araştırma**, İstanbul Ticaret Üniversitesi Sosyal Bilimler Dergisi, Yıl, 15, Sayı29, Bahar 2016, sayfa 223.

² . أنطوان غالان (1646-1715م): مستشرق فرنسي، اصطحبه معه السفير دي نوانتل de Nointel الذي عين سفيراً لفرنسا بإسطنبول، ومن هناك بدأ ارتباطه بالشرق، وكثرت رحلاته إليه، اختير سنة 1709 أستاذاً للغة العربية في المعهد الملكي، ترك الكثير من الأبحاث العلمية والتراجم وأهمها ترجمته لألف ليلة وليلة في اثنا عشر مجلداً، وكذا ترجمته للقرآن الكريم. ينظر:

Claude Gros de Boze Paul Tallemant : **Histoire de l'Académie royale des inscriptions et belles-lettres depuis son établissement, avec les eloges des académiciens morts depuis son renouvellement**, Tom 2, Hippolyte-Louis Guerin, Paris,1740, P34,49.

³ - Antoine Galland : **Journal d'Antoine Galland pendant son séjour à Constantinople [1672-1673]**, II, Ch. Scheffer, Paris 1881, P2.

⁴ . فرانسوا بيتي دولاكروا (1652-1713م): مستشرق فرنسي، هو ابن مترجم البلاط الفرنسي للغة التركية والعربية واسمه أيضاً فرانسوا بيتي دولاكروا (1622.1695). لم يبلغ السادسة عشر من عمره حين كلفه وزير الدولة السيد م. كولبار للعمل على كل ما يتعلّق بالمصالح العلمية والفنية والتجارية الفرنسية. أتقن عدة لغات شرقية، عمل بالمغرب والجزائر في الترجمة والدبلوماسية، وترك عدّة أعمال هامة في عالم الاستشراق، من أشهر أعماله كتاب ألف ليلة وليلة ينظر:

Claude Pierre Goujet : **Memoire Historique & Littéraire Sur Le Collège Royal De France : contenant La Notice Historique des Lecteurs & Professeurs Royaux en Médecine, Chirurgie, Pharmacie & Botanique ; en Arabe ; en Droit-Canon, & en Syriaque, depuis la Fondation du Collège Royal jusqu'aujourd'hui**, Augustin-Martin Lottin, Tom3, Paris,1758, PP296,319.

⁵ - Ömer Faruk Akün: Op.cit, sayfa 146.

إلى اللغة الألمانية من طرف المستشرق الألماني بهرناور (Walter Friedrich Adolf Behrnauer)¹ تحت عنوان " رسالة قوجي بك بشأن تراجع عظمة الدولة العثمانية منذ السلطان سليمان العظيم" (Kogabeg's Abhandlung über den Verfall des osmanischen Staatsgebäudes seit Sultan Suleiman dem Grossen) سنة 1278هـ/1861م، كما ترجمت سنة 1314هـ/1896م للغة المجرية من قبل المستشرق المجري جوزيف ثوري (Thúry József)² ضمن كتابه المؤرخون الأتراك " Török Történetírók"، كما ترجمها المستشرق الروسي فاسيلي ديميتريش ساميرنوف (Васи́лий Дми́триевич Смирно́в)³ سنة 1290هـ/1873م إلى اللغة الروسية⁴. يُذكر أن رسالة قوجي بك طبعت ونشرت لأول مرة بتوكيا باللغة العثمانية سنة 1277هـ/1860م، ثم طبعت مرة أخرى سنة 1302هـ/1885م، ليتمّ طباعتها ونشرها بعد ذلك سنة 1358هـ/1939م لأول مرة بالحروف التركية الحديثة من طرف المؤرخ التركي علي كمال أكسوت⁵ (Ali Kemali Aksüt)⁶.

¹. والتر فريديريك أدولف بهرناور (1827-1890م): مستشرق ألماني انصب اهتمامه على الأدب التركي، ترك أعمالاً كثيرة عكست اهتمامه بالأدب التركي منها: مصادر التاريخ العثماني، تأثير الأدب التركي في أوروبا، مقدمة في الجغرافيا العثمانية، لمحة تاريخية عن إحصائيات الإمبراطورية العثمانية. توفي سنة 1890م. ينظر:

Wolfdieter Bihl: **Orientalistik an der Universität Wien: Forschungen zwischen Maghreb und Ost- und Südasiens: die Professoren und Dozenten**, Böhlau Verlag, Wien, 2009, Seite 24-25.

². جوزيف ثوري (1861-1906م): مستشرق ولغوي مجري، اهتم بالتاريخ المجري المبكر وباللغة التركية، سنة 1884 قام برحلة بحثية إلى تركيا، شملت اهتماماته البحثية التاريخ الهنغاري المبكر، والعلاقات بين اللغتين المجرية والتركية، والتاريخ العثماني التركي، وأدب وتاريخ اللغة التركية من آثاره: الأدب التركي في آسيا الوسطى 1904، تعريف باللغة التركية في آسيا الوسطى. ينظر: العقيلي نجيب: المرجع السابق، ج1، ص 904-905.

³. فاسيلي ديميتريش ساميرنوف (1846-1922م): مستشرق روسي، تحوّل على ميدالية ذهبية لبحثه المتميز حول تأثير التتار في روسيا، وتحصل على درجة الماجستير سنة 1873 عن دراسته حول قوجي بك، ليصبح في السنة نفسها أستاذاً مساعداً في قسم الأدب التركي-التتاري، سنة 1887 نال درجة الدكتوراه عن أطروحته "القرم تحت سيادة الباب العالي العثماني قبل بداية القرن الثامن عشر". أثرت دراساته وأبحاثه على جيل من الباحثين الروس. ينظر:

Смирнов, Василий Дмитриевич :

https://ru.wikipedia.org/wiki/Смирнов,_Васи́лий_Дми́триевич#cite_ref-d65916e1fa059558_1-2, 13 мая 2017 в 15 :05.

⁴ - Ömer Faruk Akün: Op.cit, sayfa 147.

⁵. علي كمال أكسوت (1884-1963م): إداري وباحث تركي، اهتم بالتاريخ والجغرافيا، وانتسب لحزب الاتحاد والترقي، تبوأ عدة مناصب إدارية هامة. تقاعد في عام 1934، سنة 1960 عين أستاذاً للأدب بثانوية روبرت بإستانبول. ينظر:

Turgut Akpınar : **AKSÜT, Ali Kemâlî**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 2, 1989, sayfa 297-298.

⁶ - Bernard Lewis: Op.cit, P77.

قدم قوجي بك رسالته أولاً إلى السلطان مراد الرابع سنة 1040هـ/1631م، ثم قدم رسالة أخرى بعد تسع سنوات للسلطان إبراهيم الأول بطلب من هذا الأخير سنة 1049هـ/1640م، وقد تحدّث المؤرخون عن الاختلافات بين رسالة قوجي بك الأولى ورسالته الثانية فعدّوا جملة من النقاط؛ من حيث الحجم: الرسالة الأولى المقدمة إلى مراد الرابع تتكون من مقدمة قصيرة واثنين وعشرين فصلاً أما الرسالة الثانية المقدمة إلى السلطان إبراهيم فتضم تسعة عشر فصلاً فقط¹، وبينما كانت اللغة المستخدمة في الرسالة الأولى لغة عثمانية دقيقة ومليئة بالمعلومات، كانت الثانية بسيطة وعامة²، يمكن تفهّم هذا الاختلاف بالنظر إلى شخصية العاهلين؛ فمراد الرابع كانت شخصيته قوية وكان واسع الثقافة مقارنة مع شخصية إبراهيم الضعيفة التي أثّرت عليها حياة القفص.

يتحدث المؤرخون عن فرق آخر وهو أن الرسالة الأولى يمكن تقسيمها إلى قسمين: القسم الأول تشخيص دقيق للعلل التي أدّت إلى تراجع الدولة، والقسم الثاني سُبُل إصلاحها لتجديد روح الدولة أما الرسالة الثانية فكانت تعليمية مباشرة أكثر منها تشخيصية؛ إذ ضمّت مثلاً كيفية التصرف مع الوزراء وكيفية الرد على الشكاوى وغير ذلك من الأعمال السلطانية³، كما لو أنّها دليل سلوكي إرشادي لسلطان عرف عنه اضطرابه النفسي.

لا ريب أنّ الاختلافات بين الرسلتين سببه اختلاف شخصية العاهلين العثمانيين وظروف عهدهما؛ فالمصادر والمراجع العثمانية ترسم للسلطان مراد الرابع شخصية قويّة ذات ثقافة واسعة أدار الدولة باقتدار شديد؛ فأعاد للدولة هيبتها داخليا وخارجيا. ويعلّق أحد مؤرّخي التاريخ العثماني على حالة الدولة عند وفاة مراد الرابع في شوال 1049هـ/فيفري 1640م بقوله: ترك سلطة قوية مستقرة للدولة، ونظاما وطاعة في الجيش لم يشاهد مثلهما منذ عهد سليمان القانوني⁴.

يذكر المؤرخون بالنسبة للسلطان إبراهيم الأول شخصيته الضعيفة وثقافته المحدودة مقارنة مع أسلافه؛ حيث يذكر المؤرخون أنّه أوّل عاهل لم يُكْمَل تحصيله العلمي والعسكري حين جلس على العرش، كما أنّ خوفه المستمر من أن يُعَدَم من قِبَل أخيه السلطان مراد الرابع جعله عصيبا مضطربا لا يستقرّ على شيء⁵ وشخصيته الضعيفة هذه كلّفته حياته؛ فقد عُزِل عن العرش بتاريخ 18 رجب

¹ - İhsan CORA: Op.cit, sayfa 222.

² - Danışman Zuhuri: **Koçi Bey Risâlesi**, Baskı1, Devlet Kitapları (Türk Kültürü Kaynak Eserleri Dizisi), Millî Eğitim Bakanlığı, İstanbul, 1972, sayfa18.

³ - Ibid, sayfa19.

⁴ . يلماز أورتونا: المرجع السابق، ج1، ص485.

⁵ . المرجع نفسه، ص488، بتصرف.

1058 هـ / 8 أوت 1648م، يُعَدُّ بعد هذا التاريخ بعشرة أيام.

من خلال رسالة قوجي بك الأولى الخالية من التملُّق والصريجة والجريئة في انتقاد جهاز الحكم وتشخيص الخلل بشكل طال حتى عصر العظمة وهو عصر سليمان القانوني، تظهر الشخصية القويّة جدا لقوجي بك، سيّما إذا علمنا الرّعب الذي كان يثيره مجرّد ذكر السلطان مراد الرابع لدرجة أن يصفه أحد المؤرخين العثمانيين بالقول: هو أكبر مستبد في تاريخ تركيا كلّها ... لكن اسمه حفظ النظام وأرجف القلوب لمدة طويلة حتى بعد موته¹. حتّى أنّ إصلاحات مراد كلّفت حسب هامر خلال السبع سنوات الأخيرة من حكمه، إعدام أكثر من 50 ألف أو يزيدون².

رسالة قوجي بك مهمّة لمعرفة النظام الهيكلي للخلافة العثمانية إضافة إلى مؤسّساتها الإدارية ومالياتها وتعتبر الرسالة كاشفة فيما يخص آلية عمل الجهاز الحكومي في عصر القانوني وفي عصر من جاؤوا بعده، كما أنّها تضع أيدينا على نقاط القوّة ونقاط الضّعف من وجهة نظر رجل دولة متمرّس ومطلّع عن قرب على مراكز صنع القرار في الدولة، عدا كونها جاءت في واحدة من أصعب مراحل الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

من المهمّ بمكان معرفة وضع الخلافة العثمانية في الوقت الذي كُتبت فيه الرسالة؛ فقد كانت رقعة الخلافة شاسعة جدا؛ من بلاد فارس إلى بلاد المغرب ومن أوروبا الوسطى إلى الحبشة، غير أنّ داخل الدولة كان هشّا؛ الفساد مستشري في مفاصل الدولة حتى في المؤسّسة الدينيّة، تدخّل الحريم في السلطة إلى جانب تدخل الجيش وكثرة تمردات الإنكشارية الذين جعلوا السلاطين ألعوبة بأيديهم حتى أنّهم تجرّؤوا ولأوّل مرة على قتل سلطان عثماني هو عثمان الثاني، مشاكل كثيرة في المحافظات البعيدة وبعضها حمل دعوى انفصالية، وضعف اقتصادي، إلى جانب سقوط بغداد بأيدي الصفويين، وسلطان تولى السلطة وعمره أحد عشر عاما³.

يمكننا الآن بعد أن عرفنا شخصية مصطفى قوجي بك والعصر الذي عاش فيه والوظائف التي تقلّدها، إلى جانب معرفتنا برساليته الشهيرتين اللتين قدّمهما للسلطانين مراد الرابع وشقيقه إبراهيم الأول وأهميّتهما ضمن جهود إصلاح الدولة وتفادي انهيارها داخليا، سيّما مع تنامي المخاطر

¹. المرجع نفسه، ص 845.

² - Hammer: Op.cit, Tom 9, 1837, P389.

³. تولى مراد الرابع السلطة بعد عزل الإنكشارية لعمّه المنجون السلطان مصطفى الأوّل بتاريخ 15 من ذي القعدة 1032هـ / 11 سبتمبر 1623م، ولصغر سنّه سيّرت والدته السلطنة كوسم مهيكر دقّة الحكم باعتبارها نائبة السلطنة حسب البروتوكول العثماني وسنة 1632 أصبح الحاكم الفعلي للدولة. وبالتالي فإن رسالة قوجي بك جاءت لتبلي حاجة السلطان لمشروع إصلاحه بعد أن تولى السلطة الفعلية للدولة.

والتحدّيات الخارجية، يمكننا بعد ذلك كلّه الحديث في شيء من التفصيل عن مضمون عمل قوجي بك الشهير، مع التركيز على الرسالة الأولى لقوجي بك على اعتبار أن الرسالة الثانية كانت نسخة مصغّرة ومخفّفة التركيز عن الأولى.

عرض مضمون رسالة قوجي بك

يبدأ قوجي بك رسالته الأولى بمقدّمة قصيرة قال فيها أنه منذ فترة طويلة حاول أن يجد فرصة لتقديم نصيحته للسلطان؛ فقد كان ينظر بجزن إلى التدهور المستمر في شؤون الدولة، وانتشار الفساد والفتن، فأوضح أن الشريعة هي أساس تنظيم الملك، وأنّ على السلطان السّير على هداها والتّمسك بالقيم والقواعد المنصوص عليها في قوانين السلاطين السابقين والتصرف وفقا لذلك¹. يفهم من هذه المقدمة أن قوجي بك كتب رسالته من تلقاء نفسه وليس بطلب من السلطان، وإن كان هذا لا ينفي أن يكون السلطان هو من طلب منه النصيحة.

شرع بعد ذلك في التحدّث عن أزهى عصور الخلافة العثمانية عصر السلطان سليمان القانوني إذ من خلال ذلك العصر يمكن أن يوجّه قوجي بك سلطانه لكيفية إدارة الحكم؛ عنوان فصله الأوّل بعد مقدّمته القصيرة هو: كبار الشخصيات العثمانية رحمهم الله وأسكنهم جنّاته؛ مثل الوزراء وأهل الديوان (Divan ehlinin) وغيرهم.

يستهل قوجي بك حديثه في هذا الفصل بالقول: أنّه ليس بخاف على الملك السعيد العادل المجيد وهو الحازم التفكير ذو العقل المنير أنّ الديوان السلطاني كان مصدر العدالة، وأنّ أجداده الأجداد حتى زمن السلطان سليمان كانوا يحرصون على حضور الديوان بأنفسهم، وأداروا شؤون الدولة بشكل شخصي مباشر، قد يكون السلطان سليمان توقف عن الحضور إلى جلسات الديوان الهمايوني، لكنه ظل يقود شخصيا الحملات العسكرية ويسيطر بشكل مباشر على شؤون الحكومة؛ فقد كان على علم بجميع المسائل الهامة في سياسة الدولة، وكان الوصول إليه متاحا ومسموحا به لكلّ من كانت له شكوى أو اقتراح من مرؤوسيه، وكان المقرّبون من السلاطين والمستشارون ذوو خبرة وحكمة، ولم يكن خصيان السلطان وعبيده يتدخلون في شؤون الدولة²، يشير هنا إلى أوّل خلل في زمن القانوني وهو تراخي السلطان في الحضور الشخصي لاجتماع الديوان الهمايوني.

يتابع: الصدر الأعظم وبقية الوزراء كانوا رجال دولة؛ لقد تولّوا على مدى أعمارهم مسؤوليات ووظائف كبيرة وحققوا فيها نجاحات كبيرة، هم يعرفون بشكل جلي كل مناطق الدولة لأنهم خدّموا فيها

¹ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 3-4.

² - Ibid, sayfa 5-6.

سنوات طوال، الصدر الأعظم يُمكنه العمل بزوج مُستقلة في حفظ الأمن ورفاهية السكان من خلال القرارات والأعمال التي يتخذها لصالح الدولة¹، إشارة قوية إلى الصفات الجليلة للصدر العظام السابقين ليبنى عليه وجه مقارنة بصدور عصره.

يواصل بالقول: سابقا جميع من يخدمون تحت إمرة الصدر الأعظم وغيرهم من المسؤولين الكبار في الدولة اشتروا عبيدا لهم واستخدموهم بدل دفع رواتب عند استخدام القرويين وأصحاب المهن، وثمة خطر من وراء استخدام القرويين وأصحاب المهن: أولا إذا استُخدموا في الحرب يتوقفون عن دفع الضرائب (رسوم الرعيّة (rusûm-ı ra'ıyye))، وبالتالي يُقللون من دخل الخزانة والتميمات. ثانيا أنهم إذا اعتادوا ركوب الخيل وحمل السلاح لن يكون بإمكانهم العودة إلى مزارعهم ومهنتهم، ويلاحظ قوجي بك أن معظم المتمردين ينتمون إلى هذا النوع²، يشير هنا إلى مخاطر دخول القرويين والفلاحين إلى الجيش وهو ما كان ممنوعا في الدولة إلى غاية سنة 990هـ/1582م ففسد الجيش بذلك.

يواصل: علاوة على ذلك فإن كبار المسؤولين حكام السناجق والبيلبايات³ احتفظوا بمناصبهم لمدة عشرين أو ثلاثين سنة ولم يُقالوا عنها إلا إذا أساءوا استخدام السلطة أو تورطوا في الرشوة أو غيرها من الجرائم، لذلك انحصرت قواهم في أعمالهم فأتقنوها، وكان هؤلاء المسؤولون يأخذون زمام المبادرة بضرب أعداء السلطان حتى قبل وصول الأخبار إلى العاصمة كما يتضح من أمثلة عديدة ومن المتوقع أن تكون هناك صفات مماثلة عند جميع المسؤولين الحكوميين الآخرين: مثل فئة الكتاب أو موظفي القصر، كل فئة عرفت حدودها ولم تتجاوزها، إضافة إلى ذلك لوحظت قيود صارمة على التيمارات؛ وكان أصحاب السلطان يتقاضون أجورا بدلا من منحهم تيمارات⁴، يعتمد قوجي بك إلى ذكر محاسن النظام ورجالاته زمن سليمان القانوني حتى إذا ذكر العيوب اتضح للنبه أن تلك المحاسن هي المعيار الذي ينبغي الرجوع إليه.

يواصل قوجي بك ويشيد برئيس فئة الكتاب من أهل القلم الذي ينتمي هو إليهم فيقول: رئيس كتبة الديوان تميّز بالمهارة والمستوى المعرفي العالي؛ ميزتان جعلته يخاطب الملوك المحيطين بالدولة باحترافية واقتدار، وكان الدفتردار وكتاب المالية (Defter-i hâkânî ve Mâliye kâtipleri) يتميّزان بالدرية والاستقامة والصدق، وحُجّاب القصر (Dergâh-ı Âli çavuşları) جمعوا بين الخبرة والبراعة

¹ - Ibid, sayfa 6.

² - Ibid, sayfa 6-7.

³ . تقسم الدولة العثمانية إداريا إلى أليات أو ولايات، وكل ولاية تضم سناجق، وكل سنجق به نواح، وكل ناحية بها عدة أفضية جمع قضاء.

⁴ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 8.

في استقبال السفراء، كلّ كان له اختصاصه يؤديه بعناية دون إفراط أو تفريط¹.

ذكر قوجي بك أيضا نقطة غاية في الأهمية تتعلّق بنظام الدفشمرة الذي وقرّ للدولة العثمانية أهم كوادرها السياسية والعسكرية؛ فقد كان يُجلب أفضل الصبيان في البوسنة وألبانيا ويحصلون على تعليم عالي المستوى بالقصور السلطانية، ينشؤون على حبّ السلطان وحبّ التّضحية بسخاء من أجله²، استعان قوجي بك في جميع ما ذكره بأمثلة من الواقع معزّزة بالأرقام والإحصاءات، مما يدل على أنّه كان مطلعاً على وثائق الدولة حين كتب رسالته هذه.

يتحدّث قوجي بك في الفصل الثاني عن التيمارات وأصحابها من العسكريين؛ إذ حين يتحدّث عن العوامل المثالية التي أدّت إلى الانتصارات المجيدة للسلطين السابقين يذكر أنّ العامل الرئيس هو السبهاية³ أصحاب التيمارات حين لم يكن بينهم غرباء أو قرويين أو أبناء المدن، كانوا جميعاً جنوداً وأبناء جنود، ونسب الأخيرين كان يثبت بشاهدين إلى عشرة شهود، ثم إنّه لم تكن تتم ترقيتهم وفق سلّم الرّتب إلا إذا قدّموا خدمات متميزة، ولم يكن مسموحاً لهم بمغادرة مقاطعاتهم، وكانوا في استعداد دائم للمعارك، كان هذا النظام فعالاً لأنّه لم يكن يصدر قرار تملك التيمار من إستانبول لأي أحد إلا باقتراح من حاكم المقاطعة، وهذا الأخير كان يقترحها للجدير بها⁴، وإثبات وجهة نظره قدّم قوجي بك أمثلة عديدة مدعّمة بالأرقام عن التيمارات والجنود السبهاية في مقاطعات مختلفة.

يتحدث في الفصل الثالث عن قواعد الجيش كما كانت محفوظة في زمن المجد، ويستهلّه بحديث عن الحملات العسكرية الهمايونية حيث يذكر بالأرقام أعداد المشاركين من الجنود ومن المكلفين بالدعم اللوجستي في الحملة الهمايونية للسلطان سليم خان الأوّل سنة 981هـ/

¹ - Ibid, sayfa 9.

² - Ibid, sayfa 10.

³ . سباه كلمة فارسية الأصل تعني بالأساس فارس، في الإمبراطورية العثمانية فرقة فرسان إقطاعية خاصة، تمنح قطع من الأرض يجبون ضرائبها من فلاحها لصالح الدولة ويأخذون من ذلك نصيباً محددًا، وعليهم إذا دعوا للحرب تحمل نفقاتهم ونفقات الجنود الذين يجب أن يقدموهم معهم للحرب كل حسب إقطاعه، ويمكن للسبهاية الترقى من التيمار إلى الزعامت وهو إقطاع أكبر، وشكّل السبهاية العدد الأكبر في جيش الإمبراطورية. يرجع تشكيل السبهاية إلى مراد الأوّل وربما إلى أورهان. ينظر:

G.E. Bosworth: **SIPAH**, The Encyclopaedia of Islam. Op.cit, Tome 9, 1997, p656-657

بخصوص نشأة السبهاية قال المؤرخان جب وياون أن منشأها غامض غموض منشأ الإنكشارية، وإن كانا يميلان إلى أنها أسست زمن مراد الأوّل وإنها والسلحدار أقدم من الإنكشارية نشأة. ينظر: هاملتون جب وهارولد باون: المرجع السابق، ص 101.

ويجزم المؤرخ الإيطالي جون ساكريدو (Jean Sagredo) أن مراد الأوّل هو من أنشأ السبهاية وأحدث التيمار. ينظر:

Jean Sagredo : **Histoire De L'Empire Ottoman**, Traduite de L'Italien Par : M. Laurent, voll1, Francois Barois, Paris,1724, P51.

⁴- Danişman Zuhuri: Op.ci, sayfa 11-15.

1574م؛ على سبيل المثال لا الحصر: متفرقة القصر السلطاني (Dergâh-1 Âli müteferrikaları) 124 شخصا، جاوشية القصر السلطاني (Dergâh-1 âli çavuşları) 290 شخصا، كتبة القصر السلطاني (Dergâh-1 âlî kâtipleri) 40 شخصا، كتبة الديوان الهمايوني (Dîvân-1 humâyun) (kâtipleri) 31 كاتباً، كتبة خزينة الدولة (Devlet hâzinesi kâtipleri)¹ 51 كاتباً، الانكشارية (Yeniçeriler) 13599، السيباهية (sipâhiyan) 2210 وغيرهم، بحيث بلغ عدد المشاركين في الحملة 36153 شخصا، وكل مجموعة من هؤلاء كان لها زي خاص وراتب محدد بدقّة كأصحاب التيمارات والزيعامات².

يصف هنا أيضا نظام الدفشرمة الذي وقرّ للدولة العثمانية على مدى قرون نخبتها السياسية والعسكرية، قال قوجي بك: أنّه وفق نظام الدفشرمة كان الأطفال يُجلبون حصريا من ألبانيا والبوسنة وبلغاريا واليونان وأرمينيا دون سواها من الأقاليم، ثم يسجّلون في سجلات خاصة ويوضعون في قصور خاصة بإستانبول لمدة أربع أو خمس سنوات، ثم يوزعون حسب رغبتهم ومميزاتهم في دوائر حكومية مختلفة ليخدموا لمدة سبع أو ثماني سنوات، قدّم قوجي بك معلومات عن الملتحقين بالإنكشارية؛ خدماتهم والممنوعات التي فرضت عليهم، نظام الترقية والعقوبات المترتبة على مخالفتهم وعن تقاعدهم³، وقد عانى مراد الرابع شخصا من فساد الانكشارية.

يشرح قوجي بك في الفصل الرابع أسباب الانحدار؛ بحيث يذكر أنّ الصدور العظام كانوا يعملون باستقلالية تامّة حتى صعود مراد الثالث على العرش 981هـ/1574م؛ فكانوا يمارسون مهامهم دون عوائق أو تدخّلات على الإطلاق، وكان عليهم أن يتعاملوا مع السلطان نفسه، وهو الوحيد الذي كان له حقّ تقييمهم ومساءلتهم، فصار نُدماء السلطان وحاشيته يتعرضون لمصالح الدولة ويكلفون الصدر الأعظم بأمور لا يُقرّها شرع أو منطق، فإذا لم يُجب طلبهم يكيّدون له عند السلطان بالوشاية الكاذبة

¹ . دركاه عالي Dergâh-1 âlî مصطلح كان يستخدم مجازا للدلالة على القصر السلطاني. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق ص111.110. وتنسب له وظائف شتى مثل كتبة القصر السلطاني Dergâh-1 âlî kâtipleri. متفرقة müteferrika: موظفين رفيعي المستوى خدموا في وظائف شتى، قسم كبير منهم كانوا إما مرافقين للسلطان أو مصاحبين لكبار رجال الدولة من الصدور العظام والوزراء والأمراء ينظر: المرجع نفسه، ص200-201. ومنهم متفرقة القصر السلطاني Dergâh-1 Âli müteferrikaları. جاويش Çavuş: نوع من موظفي الدولة استخدموا في وظائف عدة منها خدمة الديوان الهمايوني أثناء انعقاده، ومنهم في الإنكشارية ويسمون جاويش قول ووظيفتهم نقل الأخبار بين القادة والعساكر في ساحات القتال. ينظر: المرجع نفسه، ص80. ومنهم جاوشية القصر السلطاني Dergâh-1 âli çavuşları.

² - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 16-18.

³ - Ibid, sayfa 18-19.

والسعاية فيُنْفَى أو يكون رأسه ثمنا لعصيانه، فاضطر الصدور العظام لاتباعهم ومجاراتهم على أهوائهم فتمادوا في طغيانهم، مما جعل المنصب الكبير للصدارة العظمى محفوفًا بالخطر وفاقدًا لقيمته¹.

كمثال على ما وصل إليه حال منصب دولة له خطره واعتباره ساق قوجي بك نماذج كاشفة من التاريخ القريب للدولة العثمانية توضّح كيف أودت مؤامرات حاشية السلطان وأقاربه برجال دولة كبار؛ فالصدر الأعظم فرهاد باشا² الألباني المولد العثماني المنشأ، واحد من كوادر عصر سليمان القانوني، تولى الصدارة العظمى مرتين، في فترة وجيزة انتهت حياته السياسية معزولاً بوشايات كاذبة ليتمّ إعدامه³، ولاقى الصدر الأعظم حسن باشا المعروف بيمشيحي⁴ المصير نفسه معزولاً فمعدوماً بذات المؤامرات الرّخيصة⁵، وقائمة العثمانيين الذين أزهدت أرواحهم بالوشايات الكاذبة كثيرة.

يتابع: تدخّلات حاشية السلطان وأقرباؤه أدّت إلى إفقاد الدولة رجالات أفذاذ، وقد كوّن أولئك ثروتهم الخاصّة بتدخلهم في التعيينات؛ ليتولّى من ليس بأهل للولاية لمجرّد أنّه أداة طيّعة في يد من عيّنه وانتشرت الرّشوة تبعاً لذلك وبيعت المناصب، وقلّت الأمانة والإخلاص، ولم تعد الكفاءة معياراً لإسناد الوظائف، فتعطّلت التيمارات والزعامات ودمّرت طبقة السبائية، هذا الاتجاه هو الذي قاد الدولة للإفلاس، ولم تعد الانتصارات كسابق عهدها وكثرت المفاسد والفتن⁶، وتلك نتيجة حين يوسّد الأمر لغير أهله.

الفساد لم ينحصر فقط في الناحية العسكرية والإدارية؛ فقوجي بك يشير في الفصل الخامس إلى نصيب طبقة أهل العلم من الفساد العام: بعد ثنائه على السيرة العطرة للسلطين السابقين الذين

¹ - Ibid, sayfa 20.

² . فرهاد باشا: رجل دولة عثماني أصله من ألبانيا، تربي كغيره بالأندرون بالقصر السلطاني بإستانبول، ليصبح من رجال القصر المقربين للسلطان سليمان القانوني، تولى عدة مناصب، وكان له دور بارز في اتفاقية السلام بين العثمانيين والصفويين سنة 1590 التي أنهت حرباً امتدت 12 سنة، تولى الصدارة العظمى مرتين كلاهما خلفاً لمنافسه السياسي سنان باشا: وفي ولايته الثانية في فبراير 1593، ومؤامرات من سنان باشا تم عزله من منصبه في 7 جويلية 1595، واستطاع سنان باشا استصدار فتوى من شيخ الإسلام بإعدامه وتم ذلك في 9 أكتوبر 1595. ينظر:

Mehmet İpşirli: **Ferhad Paşa**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 12, 1995, sayfa 383-384.

³- Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa20-21.

⁴ . حسن باشا الملقب باليمشحي (ت 1603) قائد تركي ألباني الأصل، تولى عدة مناصب. نصبه سنان باشا الصدر الأعظم آغا على الإنكشارية سنة 1594. ثم تولى الصدارة العظمى سنة 1601، وقاد الحملة على المجر، عمل المقربون من السلطان على عزله خشية من تعاطف نفوذه فعزل ثم شقن عام 1603. ينظر: نصار محمد حسين وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، مج3، ط3، المطبعة العصرية، لبنان، 2009، ص 1368.

⁵ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa21-22.

⁶ - Ibid.sayfa 22-23.

اقتدوا بالخلفاء الأربعة الراشدين، قرّر قوجي بك أن الشريعة الإسلامية والدين المبين هما أساس المجد العثماني، وبما أنّ العلماء هم سبب حفظ الشريعة ودوامها، أنزل أجدادنا العلم والعلماء منزلة جلييلة؛ ففي أزمنة المجد عصر أجدادكم السلاطين العظام - مخاطبا السلطان مراد الرابع - كان القانون المرعي بخصوص العلماء هو ألا تُسند المقامات الرفيعة والمناصب الجليلة كمنصب شيخ الإسلام ومفتي الأنام وكذا منسبي قاضي عسكر الروملي والأناضول إلا لمن عُرف عنهم الورع والصدق وغزارة العلم وبمجرد أن يصل أحد العلماء الكبار إلى منصب شيخ الإسلام لا يمكن عزله¹.

شيوخ الإسلام سابقا صدحوا بالحق دون تردّد، وكانوا ملجأ للمظلومين، ولا يتراجعون عمّا اعتقدوا أنّه الحق، وذكر بعدها كمثل الشيخ أبو السعود أفندي شيخ الإسلام في عهد سليمان القانوني وعهد سليم الثاني وأحد مشاهير شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية، فقد ظلّ أبو السعود بمنصبه حتى وفاته، وجميع رجال الشريعة المستقيمين كانوا يظلون في مناصبهم مُددا طويلة ويحظون بمعاش مُزج عند تقاعدهم²، وهذه العناية بالعلماء أمر أوصى به عثمان المؤسس وقننه الفاتح والقانوني.

بعد حديثه عن المسار العلمي الصارم الذي يضمن وجود علماء نابغين ينتقل قوجي بك للحديث عن نقد واقع العلم والعلماء في عصره فقال: أما اليوم فقد تدهورت حتى طريقة التعليم بشكل ملحوظ ثم راح يتحدّث عن مواطن الخلل في مناهج التعليم، ليتحدّث بعدها عن منصب شيخ الإسلام إذ يقرّر أنه منذ نهاية سنة 1002هـ/1594م بدأ منصب شيخ الإسلام يفقد هيئته؛ فقد عيّن وعزل شيخ الإسلام صنع الله أفندي³ عدّة مرات من منصبه، فكان ذلك من بين الأسباب التي دفعت العلماء إلى ربط صداقات مع رجالات الدولة من أجل تأمين وظائفهم، فقلّت تبعا لذلك جرأتهم في الصدع بالحق⁴.

كانت المناصب العلمية في أهلها وكانت حرمة العلماء محفوظة، حتى إذا قال أحدهم: هذا حكم الله خضعت له الرقاب وقال جميع الناس: سمعنا وأطعنا، وكان القضاة عدولاً تدعن لحكمهم النفوس

¹ - Ibid. sayfa 24-25.

² - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa25.

³ . صنع الله بن جعفر (1599 - 1601): شيخ الإسلام ومفتي التخت العثماني في عهد السلطان محمد الثالث وولده السلطان أحمد الأول، الإمام الكبير الفقيه الحجّة. وفتاواه مدونه شهيرة خصوصاً في بلاد الروم. تولى عدة مناصب رفيعة، حتى عين شيخاً للإسلام في أكتوبر 1599، وقد عزل ثم تولى ذات المنصب ثلاث مرات، حج سنة 1611 وتوفي سنة 1612 ينظر: المحيي محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحيي الحموي الأصل الدمشقي (ت 1111هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج2، ط1، دار صادر، بيروت 2015، ص 256-259، بتصرف.

⁴ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa26-27.

في السر والجهر، لكن الصورة تغيرت بتغير أهل العلم؛ إذ أنّ الفساد في المؤسسة الدينية وتملّق أعضائها للمسؤولين الحكوميين وعدم تورّعهم في إعطاء وأخذ الرشوة، أوصل غير الأكفاء إلى مناصب تحتاج إلى جهد علمي كبير لبلوغها، وبذلك كُسر القانون القديم الذي يضمن وصول الأكفاء إلى المناصب وأصبح من لا ينتمي لطبقة أهل العلم بإمكانه دفع مبلغ من خمسة آلاف إلى 10 آلاف أقة¹ ليصبح في وقت قصير قاض أو مُدرّس، فتأثّر مستوى التدريس وفقد العالم الحقّ اعتباره عند الناس، ولم يعد مهاباً ولا مبعجلاً واضطرب ميزان العدالة²، وإذا فسد أهل العلم فسدت الدولة واضطرب أمرها.

يتابع قوجي بك متحدثاً عن القضاء: صار قضاة العسكر يُعزلون بعد مدة قليلة من توليتهم بغير ذنب، فكان أصحاب الطمع والشره منهم يغتنمون الفرصة للاكتساب من المنصب قبل العزل فيوجهون المناصب والرتب العلمية إلى غير أهلها ويبيعون مناصب القضاء، كما بيعت أوراق الملازمة المؤدية إلى رتبة التدريس وأعطيت لكلّ من هبّ ودبّ من غير مراعاة لشروطها، فهرع حتى العوام إلى ابتياع أوراق الملازمة التي تجعلهم علماء ومدرسين ثم قضاة، فامتألت معاهد العلم بالجهالة، حتى لم يكد يتميز العالم من الجاهل، بل صار منصب التدريس الفعلي منصباً اسمياً، والمدرسون لا يذهبون لمدارسهم، وكثّر عدد الذين يُسمّون مدرسين، فانحطّ التدريس بانحطاط المدرّسين³.

صار أبناء الوجهاء والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث صغار، ويترقون لذلك في الوظائف، حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالوراثة، وصارت مدة الولاية للقاضي سنة واحدة، ولم يعد الترشّح لمنصب القضاء أساسه العلم والفضيلة والاستحقاق والأهلية⁴، ويشدد قوجي بك في نهاية هذا الفصل على أن السبيل الوحيد للترشيح لمنصب القضاء يجب أن يكون مبنياً على اعتماد معيار المعرفة والكفاءة وليس المحسوبية أو توريث المناصب، لأنه في الحالة الأخيرة تضيع

1. أقة (Akçe): لغة تعني الضارب للبياض، وأصلها مغولية بمعنى نقد أبيض، وهي قطعة صغيرة من الفضة، ضربت لأول مرة في عهد أورخان 729/1329م، وكانت عملة ممتازة، بحيث انتشرت زمن بايزيد الأول في كامل الأقاليم المجاورة للدولة العثمانية وفي وثيقة لسنة 1866 وُجد أن كل ثلاث آفجات تساوي بارة واحدة - بارة (Para): الاسم العام للنقود، وهو في أصل نقد معدني مضروب في عهد السلطان مراد الرابع، كان أكثر بقليل من 1 غ، وكانت الأقة الواحدة في عهد الفاتح تساوي 3 بارات إلى عهد أحمد الثالث، وكان القرش الواحد يساوي 40 بارة. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 51، بتصرف. وحول أهمية الأقة التي يسميها الغربيون آسبر (Aspre) ينظر:

Eugen Nicolae : **La pénétration de l'aspre ottomane dans les Pays Roumains aux XIV-XVI siècles**, Institut d'archéologie, Bucarest, 14 International Economic History Congress, Helsinki 2006, P1-3.

2- Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 27-28.

3 - Ibid, sayfa 29.

4 - Ibid, sayfa 30.

العدالة ويترك الناس دون حماية من الظلم. ويجادل بأن الترشيحات للقضاء، ينبغي أن تخفّض وتخضع لرقابة صارمة، بعدها لا ينبغي أن ينتظر المرشح طويلا قبل الحصول على وظيفة¹.

يعود قوجي بك في الفصل السادس إلى موضوعه المفضّل التيمارات والزعامات، إذ أنّ المال والاقتصاد هو عصب حياة أي دولة ومصدر رفاها بعد معتقداتها وقيمها، والتيمارات والزعامات كما يذكر الباحثون لم تكن أساس التنظيم الإداري العسكري في الدولة فحسب، ولكنها كانت عاملا حاسما في الاقتصاد الزراعي في العهد الكلاسيكي 699هـ/1008م - 1300 - 1600².

يذكر قوجي بك أنّ ضعف التيمارات والزعامات التي كانت حكرا على السباهية والعسكريين عموما، أصبحت حيازتها عند غير أولئك من الفلاحين وغيرهم ممن يدفع مالا لحيازتها فتولّد عن ذلك فسادا وفتنا كثيرة، يؤرخ قوجي بك لبداية ذلك الفساد من سنة 992هـ/1584م حيث أعطيت التيمارات لغير مستحقيها؛ إذ منح الصدر الأعظم عثمان بن أوزديمير باشا³ تيمارات إيراداتها 3000 آقجة للذين أبلوا حسنا في الحملة العسكرية على الجبهة الإيرانية، مما فتح المجال بعده إلى منح التيمارات بقيمة مالية محدّدة لغير السباهية من العامّة خلافا للقوانين القديمة⁴.

كي نفهم النظام الإقطاعي العثماني القائم على التيمار والزعامات والخاص⁵ والذي يختلف جوهريا عن الإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى، علينا أن نعلم أنّ السلطة العثمانية كانت تملك الأرض وتحوّل الفارس السباهي بأن يكون صاحب الأرض لغرض أن يتكفّل بجمع الضرائب المحدّدة بدقة على الفلاحين الذين يعملون بتيماره، والغرض من هذا هو أن يأخذ السباهي نصيبه من الضرائب كأجر له مقابل

¹ - Ibid, sayfa 30-31.

² - H. INALCIK: TIMAR, Op.cit, p504.

³ عثمان بن أوزديمير باشا (OSMAN PAŞA, Özdemiroğlu) (1527-1585م): رجل دولة عثماني كبير، من رجالات عهد سليم الثاني ومراد الثالث البارزين، والده أوزديمير باشا كان من مماليك مصر الذي تقبلوا الحكم العثماني بعد سقوط المماليك سنة 1517. تقلّد عدة مناصب في الدولة، وكانت له حملات عسكرية وطّدت الحكم العثماني بالقوقاز وبإقليم القرم، كما استطاع هزم الصفويين في معارك كبرى، وأطلق عليه لقب فاتح أذربيجان والقفقاس، عرف له السلطان مراد الثالث قدره فعينه في 25 جويلية 1584 صدرا أعظم، ورغم ذلك واصل جهاده فتحقق له فتح تبريز سنة 1585. ينظر:

Kemal Çiçek: Osman Paşa, Özdemiroğlu, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 33, 2007 sayfa 471-473.

⁴ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 32-33.

⁵ . انقسمت الأراضي الإقطاعية في الدولة العثمانية إلى ثلاثة:

أ - تيمار: وهي التي تقل إيراداتها عن 20 ألف آقجة.

ب - زعامات: وهي التي تقل إيراداتها عن 100 ألف آقجة.

ج - خاص: وهي التي تتجاوز إيراداتها عن 100 ألف آقجة. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص76.

توفير الأمن في منطقتهم، وتجهيز مجموعة من الفرسان كلما كانت هناك حملة عسكرية، فهو بذلك لا يملك الأرض ولا يحق له بيعها أو توريثها، وبالتالي لم يكن مرتبطاً بالأرض بقدر ارتباطه بتأمين وظيفته كمحارب في جيش السلطان.

يذكر قوجي بك أنّ فتح المجال للمقرّبين من حاشية السلطان لإعطاء الإقطاعات لغير مستحقيها قضى على طبقة السباهية، وهم فرسان الدولة الأكثر قوة وقدرة ومجدا وطاعة، فصارت تيمارات السباهية كمرتبات الانكشارية عرضة للنهب والسلب، وزاد عدد العساكر الذين يأخذون المرتبات فاضطرت الدولة إلى زيادة الضرائب، فكان ذلك مدعاة للظلم والاعتداء وإفقارا للأهالي، وأصبحت التيمارات تتوارث، وقلّ بسبب ذلك مردودها على الخزينة، ونظرا للخلل الكبير الذي مسّ التيمار لم يعد بإمكانه توفير مقاتلين أشداء كالسابق، فاستعاض عنه بتجنيد المرتزقة من الطبقات الدنيا، فكان ضررهم في الحرب أكثر من نفعهم، وأصبحت أجورهم عبأ على الخزينة، بل أصبح هؤلاء المجنّدون مادّة التمرّد والقتال في أوقات السلم¹.

كان من مقتضى القانون القديم أن يكون أرباب التيمارات والزعامات من أهل البلاد في السناجق المختلفة، فلما مُنحت لخدمة الوزراء ساءت الحال وجرت الأرزاق على المجهولين ممن لا عمل لهم، ولم يجد أرباب الاستحقاق سبيلاً للشكوى في إستانبول لأن العلة من هناك وطغى المقربون من السلطان وندماؤهم؛ فاغتصبوا بعض القرى والمزارع التي كانت خاصة بالغزاة والمجاهدين وبعض هذه التيمارات خصص لتقاعد أناس صحيحي الأبدان، وقسم اغتصبه أرباب الوجاهة فضموه إلى أملاكهم وسموه بغير اسمه، وصار يناله كل أحد².

مرّة أخرى يجري قوجي بك مقارنة بين الوضع القائم وما كان في الماضي المجيد؛ إذ بلغ الجيش المدفوع الأجر ثلاثة أضعاف ما كان عليه سنة 981هـ/1574م أثناء الحملة العسكرية الهمايونية لمراد الثالث؛ هو الآن 92.206 بدل 36.153، ويعطي بالتفصيل عدد المشاركين في حملات عصره كما فعل من قبل، واضعا عدد المشاركين في كل قسم سابقا ثم حاضرا حتى تسهل المقارنة؛

متفرقة القصر السلطاني (Dergâh-ı Âli müteferrikaları) 124 / 463.

جاوشية القصر السلطاني (Dergâh-ı âli çavuşları) 290 / 932.

كتبة القصر السلطاني (Dergâh-ı âli kâtipleri) 40 / 16.

كتبة الديوان الهمايوني (Dîvân-ı humâyun kâtipleri) 31 / 44.

¹ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 33-34.

² - Ibid, sayfa 34-36.

الإنكشارية (Yeniçeriler) 13599 / 46113.

الجنود السباهية (sipâhiyan) 2210 / 7000. وغيرهم، بحيث بلغ عددهم كما ذكر أعلاه 92.206.

يتساءل قوجي بك هل كان لكل عبد من المشاركين بالحملة مرافق؟ ألا يشكل هذا عبأ على الخزينة؟ الكثير من هؤلاء المشاركين لم يكونوا من الجنود بل كانوا من الرعيّة الذين عانوا من ظلم أصحاب التيمارات، كان الجنود إلى سنة 992هـ/1584م مستقيمين مطيعين ومنضبطين، وحين منح الصدر الأعظم عثمان بن أوزديمير باشا التيمارات لمن أبلوا بلاءا حسنا في القتال كان اجتهاده صائبا ولكن مآل ذلك كان سيئا وخطيرا فيما بعد¹، والقرار الحسن حسن بالنظر إلى مآلاته.

خُزّب نظام التيمار وفسد بحسب قوجي بك بعد صنيع عثمان باشا بتحويله إلى ممتلكات تُورث ودفع الفلاحون ضريبة ذلك الفساد اضطهادا وظلما وتضييقا، وتزايد تقاعس أصحاب التيمارات وتلكؤهم في النّفير للجهاد عند التعبئة العامة، لارتباطهم بالأرض ورؤوسهم للدعة والدنيا، فالدولة التي سعت وبجدية نحو تقليص نفوذ التيماريين من خلال العمل على تحديد مجال العلاقة بالتيمار وفقا لحق الانتفاع المباشر، بالإضافة إلى إعادة التوزيع في الملكية خشية من تركز نفوذ البعض، لم يعد بإمكانها ضمان علاقة عادلة بينها وبين أصحاب التيمارات والفلاحين.

خصّص قوجي بك الفصل السابع لتشخيص الفساد الذي حلّ بالقوة الضاربة للجيش العثماني الحديث هنا عن الإنكشارية (yeniçeri): يؤرّخ قوجي بك بداية تسلل العائمة إلى الإنكشارية بتاريخ 989 هـ/1582م²، ويوضّح ذلك بقوله: في ذلك التاريخ حضرت حشود كبيرة من رجال الدولة والأجانب والعائمة حفل ختان الأمير محمد ابن السلطان مراد الثالث، حفل ضخم استمر شهرين كاملين وشهد في بعض أيامه تدافعا أدّى إلى بعض الوفيات، وفي أثناء هذه الاحتفالات طلب بعض العائمة الانتظام في سلك الإنكشارية ابتهاجا وتيمنا بهذه المناسبة، فصدرت الإرادة السلطانية بذلك، وأمر آغا

¹ - Ibid, sayfa 39.

². ربما حدث خطأ مطبعي أو سهو عند الأستاذ زهير دانيشمان (Danişman Zuhuri) محقق كتاب رسالة قوجي بك إذ نقل أن تاريخ تسلل العائمة إلى الإنكشارية هو سنة 909هـ/1503م على اعتبارها سنة ختان الأمير محمد ابن السلطان مراد الثالث مع أنّ هذه السنة التي أثبتتها تتزامن مع عهد الجد الثالث للسلطان مراد الثالث السلطان بايزيد الثاني، والصحيح الذي تجمع عليه المصادر العثمانية هو أن تاريخ ختان الأمير محمد ابن السلطان مراد الثالث كان سنة 989هـ/1582م وهو تاريخ فتح نظام الإنكشارية للعامة.

الانكشارية¹ بتنفيذ الأمر لكتته اعترض وأعلم السلطان بأن أمره مخالف للقوانين القديمة المرعية وضار بفرقة الانكشارية وهيبتها، فألح بعض النُدَمَاء والمقربين من السلطان الذين لم يتأملوا عواقب الأمور بتنفيذ ذلك، فصدرت به الإرادة السلطانية مرّة أخرى، ففضل آغا الانكشارية الاستقالة على أن يخالف القوانين ويُلجَق الضّرر بالانكشارية، فتولّى مكانه آغا جديد نفذ الأمر فدخل بذلك الخلل في هذه المؤسسة العريقة²، ويدل موقف آغا الانكشارية إلى قوة رجال الدولة تى ذلك الحين.

دخول العامّة والغوغاء من كل جنس إلى فرقة الانكشارية أضعف الروح القتالية لفرقة أرعبت أوروبا قرونا طويلة، ومع الزمن لم يعد قوامها الانضباط العسكري الصارم وحب الجهاد والاستشهاد وصارت المرتبات تجري على خدم المقربين والوزراء، وصار معاش التقاعد الذي كان يعطى للشيوخ والعاجزين من الانكشارية يعطى للشبان والبالغين، فكثرت عديد الإنكشارية بهذا الخلل، حتى عجزت الدولة عن دفع رواتبهم، ولما كانت العامّة والغوغاء لا يقوون على الحرب اضطرت الدولة إلى استئجار من لا غناء لهم، فاختل النظام وضعف الجيش وقلّت بذلك الانتصارات المجيدة³.

الفصل الثامن خصّصه قوجي بك لأحوال الرعيّة؛ حتى بداية سنة 990هـ/1582م كان الفقراء من الرعيّة يدفعون 40 آقجة عن كل بيت كضريبة عوارض (Avariz)⁴، وآقجة واحدة عن كل اثنين من الأغنام، وكان الغلامية (gulâmiye)⁵ لا يأخذون أثناء تحصيلهم لتلك الضرائب أكثر من خمسة آقجات⁶.

ولكن مع زيادة عديد الجيش بدخول العامّة والغوغاء إليه وبالتالي زيادة أجورهم، زادت متطلّبات الخزانة العامّة، وبالتالي زاد العبء الضريبي على الفلاحين عدّة مرات؛ فإذا كان يدفع 40 آقجة عن كل بيت سابقا، الان يدفع 240 آقجة، وقد تصل ضريبة العوارض إلى 300 آقجة، زيادة

1 . آغا الإنكشارية هو رئيس الفرقة وهو هنا فرهاد باش، وعند استقالته رفضا لتطبيق الأمر السلطاني الذي أدخل الخلل على الإنكشارية استبدل بيوسف آغا.

2 - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 41-42.

3 - Ibid, sayfa 43-45.

4 . عوارض (Avariz): إحدى الضرائب العثمانية والرسوم العرفية، وكان اسمها الرسمي «عوارض ديوانية»، وهي الضريبة المالية والعينية والبدنية المفروضة على المجتمع في الحالات الطارئة، ثم استمر وجودها وتحولت في القرن السادس عشر الميلادي إلى ضريبة مالية معينة عرفت بـ «آقجة العوارض»، فألغيت بذلك الالتزامات العينية والبدنية، ولا سيما في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد ألغيت العوارض في فترة التنظيمات. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص156.

5 . غلامية (Gulamiye): الأجرة التي تُدفع لخيانة قايي قولي أثناء تحصيلهم للجزية، وكانت عبارة عن 10 آقجات. ينظر: المرجع نفسه ص159.

6 - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 46.

عن آقجة عن كل شاة، علاوة على ذلك تولّى الانكشارية مهمّة الغلامية في جمع الضرائب، فكثرت مخالفة القوانين، وعظم الظلم وزاد بؤس الشعب، حتى أنّ قوجي بك يقرّر أنّ الظلم والإجحاف الممارس على الرعيّة في عهده لا نظير له، كما يقرّر في جراءة نادرة أنّ السلطان هو من يتحمّل هذا الظلم وليس ممثليه، وأنّ دموع الفقراء المضطهدين تدمر الدّول وتحنق العالم، لأنّ "الدنيا يمكن الحفاظ عليها مع الكفر، ولكن ليس مع الظلم" (Küfür ile dünya durur, zulüm ile durmaz) بهذه الحكمة النادرة يختتم قوجي بك هذا الفصل¹.

يجازف قوجي بك ويقرر في الفصل التاسع أنّ دولة العثمانيين هي دولة الخلافة وستبقى إلى قيام الساعة!! وبالرغم أنّها معرّضة على الدوام لهجوم أعداء الدين والدولة من حولها، إلا أنّها باتباعها لشرع الله كانت تنتصر دائما، أمّا الآن فقد وقعت الكثير من الأمور المخالفة للشرع؛ فترتب عن ذلك الكثير من الإخفاقات العسكرية، وأهدرَ الكثير من المال، كما لحق الكثير من الضرر بالدين والدولة؛ فبداية من سنة 990هـ/1582م فصاعدا، مُنحت المناصب السامية وفقا للرشوة بدلا من الكفاءة، في حين ذهبت التيمارات والزعامات إلى غير أصحابها الطبيعيين كما ذكر سابقا².

ذكر قوجي بك بعدها هزائم الدولة العثمانية التي انحرفت عن أوامر الله وذلك في الغرب أمام النمسا حيث خسروا عدة مدن، كما ذكر الاضطرابات والتمردات الداخلية التي حدثت بداية من سنة 1004هـ/1595م، ودمّرت ونهبت على إثرها عدّة مدن وقرى بالأناضول والشام والعراق معرّجا على سقوط بغداد بأيدي الصفويين، وتدنيهم لضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة، وهزائم الجيش العثماني باليمن، ومردّ كل تلك المخازي حسب قوجي بك هو مخالفة الشرع والقوانين القديمة وظلم الرعيّة³، ولا ريب أنّ مخالفة الشرع يترتب عليها من المفاسد ما لا يخفى على منصف.

في الفصل العاشر يعرض قوجي بك طريقة التصرف مع الإنكشارية حتى تعود إلى سابق عهدها قوّة لصالح الإسلام والدولة، بدل أن تقودها الفوضى إلى أن تكون قوّة لهدم الدولة المحمّدية، حيث قال قوجي بك: إنّ الإنكشارية لا يمكن إعادتهم إلى الجادة باللين والمجاملة؛ فلو تقاضوا كل رواتبهم مقدّما ولُبّيت جميع احتياجاتهم، وتحدث العلماء والشيوخ معهم ليكفّوا عن التمرّد والعصيان، لن يسهم ذلك في انضباطهم، فلا يمكن السيطرة على الإنكشارية إلاّ بإظهار الغلظة والقهر⁴.

يوضّح قوجي بك آلية إخضاع الإنكشارية وردّها إلى السلوك القويم والقانون القديم فيقول؛

¹ - Ibid, sayfa 46-47.

² - Ibid, sayfa 48.

³ - Ibid, sayfa 49-50.

⁴ - Ibid, sayfa 51.

في الماضي استخدم السلاطين العظام فرسان الأتلي بلوك (Altı Bölük Halkı)¹ للسيطرة على الانكشارية والعكس بالعكس، في حين تم استخدام السبهاية أصحاب التيمارات والزعامات للسيطرة على المجموعتين معا؛ وبما أنّ طبقة السبهاية تأكلت في عهدنا في حين نمت الانكشارية بشكل لافت، فالحل يكمن في القضاء على الرشوة والفساد الذي حل بالتيمار وإعطائه لعدد قليل وفق ضوابط صارمة، مع إعادة بناء السبهاية وزيادة عددها، بالتوازي مع تخفيض عدد الانكشارية المدفوعة الأجر وإعادة تأهيلها وفق القوانين القديمة لتعود السلطنة العليّة لسابق مجدها، ويعود سيف الإسلام قاهرا لأعداء الدين².

خصّص قوجي بك الفصلين الحادي والثاني عشر للحديث عن آليات إصلاح التيمارات والزعامات؛ حيث يجب التفتيش عن التيمارات الشاغرة كخطوة أولى، تلك التي يحتفظ بها أصحاب النفوذ من أجل إعادة توزيعها؛ وهذا لا يمكن أن يتم من العاصمة إستانبول، لأن من شأن ذلك أن يؤدي إلى المحاباة والظلم من جديد؛ وبدلا من ذلك يجب تزويد والي كل ولاية بالأوامر السلطانية المناسبة وإجراء عمليات التفتيش في عين المكان، حيث أن السكان المحليين يعرفون السبهايين وأبنائهم والمغتصبين، وبهذه الطريقة قد يبلغ عدد السبهايين مرة أخرى إلى 40 ألف أو 50 ألف رجل أو أكثر؛ وهي مع ذلك رقم أقل مما كان في السابق، ضف إلى ذلك أن الفلاحين وهم أساس نظام التيمار قد انخفض عددهم، بسبب أن بعضهم أصبحوا جنودا مأجورين، والبعض الآخر هرب إلى المدن بسبب الظلم الكبير³.

يضيف قوجي بك: إضافة إلى ذلك فإن التيمارات الشاغرة في القرى يمكن منحها كتيمارات للجنود بدلا من دفع أجورهم نقدا؛ مما سيوفر دخلا ماليا للخزينة، وأكثر من ذلك ستفقد الإنكشارية حينها سلطتها، إلى جانب ذلك ليس كل الأوقاف متوافقة مع أحكام الوقف التي جعلته الشريعة المباركة لخدمة البلاد والعباد، لذا يجب أن يكون الوقف مناسباً للأسباب الخيرية التي أوقف لها، لأننا وجدنا

¹ . فرسان الأتلي بلوك (Altı Bölük Halkı): فرقة الفرسان السداسية تعرف أيضا باسم خيالة عبيد الباب (kapıkulu süvarileri) وهم فرسان أو خيالة النخبة في الجيش العثماني، وهي تنقسم إلى ستة أجنحة هي: السبها (Sipah)، سلاحدار (silâhtar)، علوفيو الميمنة (sağ ulûfeciler)، غلوفيو الميسرة (sol ulûfeciler)، غريبان الميمنة (sağ garipler)، غريبان الميسرة (sol garipler). كانت فرقة الفرسان السداسية نظيرا للإنكشارية، ولعبت دورا هاما في الجيش العثماني. ربما تأسست في عهد السلطان محمد الثاني (1451-1481) غير أن السبهاية كانت أقدم من عهد محمد الثاني. ينظر:

Abdülkadir Özcan: **Altı Bölük**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt2, 1989, sayfa 531.

² - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 52-53.

³ - Ibid, sayfa 54-56.

أنّ بعض الأثرياء القريبين من السلطان وضعوا أيديهم على أملاك الدولة كهدايا، وحوّلوها إلى أوقاف ليضمنوا بهذه الحيلة دخلا ثابتا لأبنائهم، مع أنّ الشريعة لا تقرّ لهم بهذه الأملاك ولا بدخلها، وبالتالي يخلص قوجي بك إلى ضرورة تفتيش وفحص جميع القرى والأوقاف، والنظر في الذي يخالف منها الشريعة والقوانين وتحويلها إلى تيمارات، ويقدر قوجي بك أن رواتب أكثر من 40 ألف إنكشاري قد يتم توفيرها بذلك للخزينة¹.

ربما يكون الفصل الثالث عشر أطرف الفصول إذ يذكر قوجي بك أن شاه إيران الشاه عباس الأوّل² طلب في بداية عهده من مستشاريه جمع المعلومات الدقيقة حول قوّة السلاطين العثمانيين وسرّ انتصاراتهم واتساع دولتهم؟ وقد جمع مستشاروه بعد مدّة الكثير من المعلومات وخصّصوا له ما اعتبر سرّ قوّة السلاطين العثمانيين؛ إذ قالوا له: جعل السلاطين العثمانيين لأنفسهم وكيلا مطلقا هو الصدر الأعظم، وأعطوه الاستقلالية اللازمة لإدارة شؤون البلاد وفق القوانين المرعيّة، ولا أحد يتدخل في صلاحياته، كما عينوا مسؤولين أكفاء لا يعزلون إلاّ بأسباب ظاهرة من فساد ونحوه، وتمتّع جيشهم بالانضباط الشديد مع عدم وجود غرباء في صفوفه، لم تكن لديهم رغبة في الشهرة أو الثروة؛ وتمتعت الرعيّة بالأمن، امتلأت خزينتهم بالمال الحلال؛ إذ لا يدخل الخزينة أي أموال تعود إلى الأوقاف أو اليتامى، أو من جبايات ظالمة للعباد، فاتبع الشاه تلك النصائح وبالتالي حقّق الكثير من النجاحات والأعجاد العسكرية خلال مدّة حكمه³.

الفصل الرابع عشر خصّصه قوجي بك للحديث عن الرشوة؛ يؤكّد قوجي بك أنّ الرشوة هي سبب الفوضى والفساد والفتنة وانخفاض مالية الدولة، بالتالي هي سبب خراب الدولة، لذلك يقترح قوجي بك جملة تدابير كفيلة لاجتثاث ممارسة الرشوة، التي هي جذر كل الشر والفساد؛ قال قوجي

¹ - Ibid, sayfa 57-59.

² . عباس الأوّل (1571 - 1629): شاه فارس (1588 - 1629) يعتبر أحد أعظم ملوك الأسرة الصفوية حرّر الأراضي الفارسية (الإيرانية) من احتلال القوات العثمانية، جعل أصفهان عاصمة فارس، عزّز التجارة ورعى الفنون فبلغت الحركة الفنية الفارسية أوجها في عهده. يعرف بـ "الكبير" The Great. ينظر: منير البعلبكي: معجم أعلام المورّد موسوعة تراجم لأشهر أعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورّد، ط1، دار العلم للملايين بيروت 1992 ص280.

³ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 60-62.

لا بد أن قوجي بك أراد من جهة توظيف التاريخ لإيقاظ حماسة السلطان للتحرك بالأخذ بأسباب القوّة والمجد التي أخذ بها أسلافه ومن جهة أخرى ركّز على العدو القريب الذي أصبح قويا ومقتدرا بسبب أخذه بالأسباب ذاتها التي أخذ بها السلاطين العثمانيين العظام، ولا أدلّ على ذلك من التوصيف البليغ الذي ختم به هذا الفصل إذ قال: السلاطين في هذا العالم كالقلب في الجسم يصلح الجسم إذا صلح القلب (Pâdişahlr âlemin kalbidir. Kalb iyi olunca vücut da iyi olur). ينظر:

Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 62.

بك: إن الخطوة الأولى إذا كان السلطان يريد القضاء على الرشوة تماما هي أن يمنح الصدر الأعظم الاستقلالية؛ ويمنع أي شخص من الأندرون أو البيرون من التّدخّل في صلاحياته، علاوة على ذلك لا ينبغي أن يكون مستخدميه من السبائية أو الإنكشارية، وينبغي تعيين الضباط العسكريين ذوي الخبرة والأمانة والاستقامة كحكام أيالات وسناجق مدى الحياة، ولا يُقالون إلا إذا ثبت في حقهم جرم جسيم، ولكن حتى بطانتهم يجب أن تكون من العبيد وليس لديها تيمارات، كما أنّ الزعامات والتيمارات يجب أن يكون قرار توزيعها صادرا عن اقتراح من البيلربايات وليس من إستانبول¹.

لا ينبغي منح إقطاعات الأربالق والباشماقلق (Arpalıklar ve Paşmaklıklar)² من بين التيمارات المخصّصة والمسجّلة للعسكريين، علاوة على ذلك يجب أن يكون إسناد الوظائف في سلك العلماء والإداريين خاليا من الرشوة؛ ينبغي تحديد وحصر عدد كل تلك الوظائف، فما زاد عن العدد المطلوب يُمنح تيمارات، كما ينبغي استبعاد كل مدرس توظّف في الارتشاء ولو بمقدار بسيط، أما بالنسبة للذين لا يصلحون للخدمة العسكرية فيجب حرمانهم من تيماراتهم إن وجدت وإعطائهم معاشا بدلا عنها³.

جميع التيمارات يجب أن تسجّل تفاصيلها بدقة أينما وجدت، وتعطى البرات (berat)⁴ وفقا لذلك من أجل تسهيل السيطرة على التيمارات في المستقبل. يلاحظ قوجي بك أنّ هذه التدابير لم تكن مطلوبة في الماضي، لوجود الأمانة والاستقامة، غير أنّ الحال في عهده تغيّر وكثر الكذب والاحتيال، لذلك من شأن تلك التدابير القضاء على الرشوة أخذا وعطاءا ورفع لعنة الله عن الدولة الحمديّة إذ أن حضرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: ((لعن الله الراشي والمرثشي))⁵ ((Rüşvet veren ve alana Allah lânet etsin)).

في الفصلين التاليين؛ الخامس والسادس عشر يحاول قوجي بك وصف نظرتة للعصر الذهبي للدولة العثمانية عصر السلطان سليمان الأوّل؛ فبعد أن يلاحظ أنّ الدولة العثمانية بلغت أقصى اتساعها

¹ - Ibid, sayfa 63.

² . آربالق تيمار: [هي] الأراضي التي كانت تمنح لبعض رجال الدولة في فترة وظيفتهم، مضافة إلى رواتبهم الأساسية، ولم يكونوا يتقيدون بالمسؤوليات الخاصة بأصحاب التيمار العادية. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص14. باشماقلق: [هي] الأراضي الميرية من نوع " خاص " الممنوحة لأمهات السلاطين وأخواتهم وبناتهم وزوجاتهم والعاملين المسنين الكبار معهن. ينظر: المرجع نفسه ص56.

³ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 64.

⁴ . برات: كلمة عربية أصلها البراءة وتعني الرسالة، وأطلق في الدولة العثمانية على الفرمانات التي صدرت للتعين على وظيفة أو منح وسام أو نيشان أو امتياز معين وغير ذلك. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص59.

⁵ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 65.

على عهد سليمان خان، وأنّ خزينة الدولة امتلأت أكثر من أي وقت مضى، ويلاحظ أيضا أنّ جذور تراجعها برزت في نفس الفترة؛ وهذا ما يفسّر كيف أنّه على الرغم من أنّ عنوان الفصل الخامس عشر هو عن الكمال الذي بلغته الدولة العثمانية على عهد السلطان سليمان خان إلا أنّ محتواه إطرأ لعصر والده السلطان سليم الأوّل.

يمهّد قوجي بك فصله الخامس عشر بالقول كما هو معلوم للحضرة السلطانية، فإن الدولة العثمانية بلغت أوج قوتها وغناها في عهد المرحوم المغفور له السلطان سليمان خان، وأن العوامل الباعثة على الاختلال ظهرت في عهده أيضا، ولكن لكون الدولة في أوج قوتها، لم تظهر للعيان آنذاك بل بدأت بالظهور بعد بضع سنوات، ثم يذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة وغيرهم من الخلفاء والسلاطين كانوا يباشرون أعمال الحكم بأنفسهم، والأمر نفسه جرى عليه سلاطين الدولة العلية إلى السلطان سليم الأوّل رحمه الله، الذي كان دائم الحضور للديوان، يعرف وزراءه ويعرفونه فيطلع منهم على كل ما يتعلّق بمصالح الدولة؛ فقد كان لديه أربعة وزراء أكفاء ومستقيمين وصلوا إلى مناصبهم وفق نظام ترقيات صارم، وكانوا يبذلون جهدهم في خدمة الدين والدولة¹.

الصدر الأعظم كان مستقلا لا يتدخل أحد في صلاحياته، وكان سليم الأوّل إذا زوّج إحدى بناته لأحد الرجال المهمّين أبعده عن إستانبول؛ بحيث يعينه كحاكم سنجق بعيد مدى الحياة ليخول بينه وبين استغلال القرابة للتدخل في السلطة بالعاصمة، اهتمّ بالجدارة والعدالة وحرص على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وكانت الأموال تجبي بالعدل والميزان، وتصرف في وجوه الخير، ويشرف عليها في كل بلد مفتشين عرفوا بالاستقامة والورع، كان هناك تقيّد صارم بالشرع الشريف والقوانين العثمانية القديمة².

في الفصل السادس عشر شرع يتحدّث عن العلل الخمس التي ظهرت في العهد المبارك لسليمان الأوّل: أولا وقبل كل شيء توقف سليمان عن الحضور الشخصي لجلسات الديوان الهمايوني وبالتالي أصبح غريبا عن وزيره وكبار المسؤولين، ثانيا من خلال تعيين سلحداره وخادمه الخاص إبراهيم باشا في منصب الصدر الأعظم فُتح الباب لكل سلطان أن يرفع رتبة خُدّامه الخواص لهذا المنصب الرفيع من غير أن يكون لهم علم وتجربة ومران طويل، فاعتزّوا بجاههم ورضا السلطان عليهم فاستنكفوا أن يشاوروا أهل الرأي والخبرة، فعمّ الفساد ودبّ الوهن والانحلال في أمور البلاد³.

¹ - Ibid, sayfa 66-67.

² - Ibid, sayfa 67.

³ - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 68-69.

ثالث تلك العلل زوّج السلطان المغفور له سليمان خان ابنته إلى رستم باشا¹ ثم عينه صدرا أعظما ومنحه الحقول والقرى كملكية خاصة، وقد حوّها رستم باشا إلى أوقاف مما جعلها خارج سيطرة الدولة، العلة الرابعة للفساد هو أن رستم باشا مرة أخرى أجّر مُمتلكات الدولة بمبالغ طائلة خلافا للقانون القديم، والأسوأ أنّ هؤلاء المستأجرين كانوا يهودا والذين لا يكثرُ ثون لشيء في سبيلِ استرجاع ما بذلوه من مالٍ من جهاتٍ أخرى، مُرتكبين في سبيل ذلك كلّ أنواع الضرر بالقرويين والمزارعين، وأخيرا غضّ سليمان خان الطرف عن بذخ وزرائه وحاشيتهم وإسرافهم، وسرى هذا التقليد والبذخ والإسراف في بقية مسؤولي الدولة، مما جعل جباية الأموال لا تخضع للقوانين فانتشر الظلم وغُبت الرعية².

الفصول الأخيرة يلخص فيها قوجي بك ملاحظاته واقتراحاته الإصلاحية حتى أنّه يمهد لذلك بإعطاء إشارات إلهية لضرورة الإصلاح بغرض التأثير العميق على وجدان السلطان ليباشر الإصلاحات لجلب الرضى الإلهي؛ إذ يذكر مثلا الحوادث التي وقعت سنة 1039هـ/ 1629م كالصاعقة الرعدية التي ضربت مجلس السلطان وسقوط جدران الكعبة³ أو قلة الذرية الذكور من السلالة العثمانية، كلها رسائل إلهية ينبغي فهم مغزاها والمساورة في إصلاح الخلل⁴.

بعد ذلك يلخص قوجي بك نصيحته بقوله: إذا أعطيت الأوقاف غير الشرعية، والتمارات

1. رستم باشا (906 . 968هـ/ 1500 . 1561م): صدر أعظم عثماني، من المحتمل أن تكون أصوله من البوسنة وتذكر بعض المصادر أنه ربما يكون من كرواتيا أو ألبانيا، جلب إلى القصر السلطاني وفق نظام الدوشرمة. تزوج من مهرماه بنت السلطان القانوني من زوجته روكسلانا سنة 1541م رقي لرتبة وزير ثان، سنة 1544 نجح في أن يكون صدرا أعظم، غير أنه عزل سنة 1553 على خلفية الضجة التي ثارت إثر مقتل نجل القانوني الأكبر مصطفى. غير أنه عاد إلى الصدارة العظمى سنة 1555، وظل في منصبه إلى وفاته سنة 1561. يحتمل بدء الاستسقاء. حسب المصادر كان مسؤولا فاسدا وعرف ببيع المناصب مما شجع على الارتشاء. ينظر:

Christine Woodhead: Rüstem Pasha, The Encyclopaedia of Islam. Op.cit, Tome 8, 1995, p. 640-641.

2 - Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 69-70.

3. يذكر الدكتور حسين مجيب المصرى في كتابه تاريخ الأدب التركي نقلا عن المؤرخ العثماني مصطفى نعيما أنّه في يوم الثلاثاء 14 من شهر ذي القعدة سنة 1039هـ/ 1629م اتمّلت أمتار غزيرة على إستانبول مصحوبة برعود وبرق حتى خاف الناس لشدة الصواعق، وكان مراد الرابع في قصره يطالع قصائد الشاعر العثماني الكبير نفعي ومعه أمير جلبي رئيس الأطباء، فسقطت على مجلسه السلطاني صاعقة عظيمة، حتى انها لعظمتها أصابت وجوه مدرسي الأندرون وكان هولاء عظيماء. ينظر: حسن مجيب المصري: تاريخ الأدب التركي، مطبعة الفكرة، ط1، القاهرة، 1951، ص294. أما بخصوص الكعبة المشرفة فقد شهدت مكة في نفس السنة 1039هـ/ 1629م سيولا استمرت يومان ودخلت المياه إلى المسجد الحرام والكعبة فتصدّعت جدرانها مما استدعى الأمر هدمها وإعادة بنائها في ستة أشهر وأنفقت في سبيل ذلك أموال طائلة. ينظر: الخربوطلي علي حسين: تاريخ الكعبة، ط3، دار الجيل بيروت، 1991، ص 173.174.

4- Danişman Zuhuri: Op.cit, sayfa 71-72.

والممتلكات الخاصة مرة أخرى إلى الفرسان السيباهية البواسل، فإن السلطان سيكون له جيش ضخم لا يقهر؛ وسيخضع أعداء الملة والدولة ويدفعون الجزية، وقد لا نضطرّ لخوض الحروب لأن السفراء الأجانب سيبلغون دولهم بأن العثمانيين: ستون عاما وهم يخلدون للنوم أما الآن فقد استيقظوا للتو من نومهم وبدأوا في إصلاح أخطائهم. (Osmanogulları altmış yıldır gaflet uykusunda) imiş... Biz bilmezdik. Şimdi tam mânâsıyla uyanıp, geçmiş günlerin kusurlarını düzeltmeğe başladı). الدولة العثمانية لديها موارد غنية ليس فقط في المعادن والذهب، ولكن أيضا في الرجال؛ وإذا ما نُقِّدَت التدابير المقترحة فإن الله سبحانه سينصر السلطان ويتوسّع سلطانه إلى أبعد مما يتوقَّع¹.

تلك كانت أهم النقاط التي عرض لها قوجي بك في رسالته الشهيرة؛ فالاضطراب يبدأ برأس السلطة "السلطان"، إذا فسد دب الفساد فيمن تحته، وتحدث قوجي بك بدقة عن نقاط القوة في الدولة العثمانية زمن سليم الأول والخلل الذي بدأ يتسلسل إليها بداية من عصرها الذهبي عصر السلطان سليمان القانوني. والواضح في هذا العمل أن كاتبه كان على دراية بالتاريخ العثماني، ومطلعاً على الوثائق العثمانية المختلفة، ويكتب من منطلق مسؤول عثماني قريب من دوائر صنع القرار، فوضع لأجل ذلك خطة إصلاحاته على قاعدة النسيج على المنوال القديم من منطلق أنّ عصر الأوائل كان عصر العظمة والأعجاز العسكرية المدهشة، وسبب عظمتهم وأمجادهم ارتباط إدارتهم بالشرع الحنيف والقوانين والأعراف العثمانية المرعية التي لا تخالف في جوهرها تعاليم الإسلام، وذلك يوضّح لنا اقتدار فئة الكتاب من أهل القلم في سبر أغوار الخلل الذي يُلمّ بالدولة، وقدرتهم على التشخيص ووضع الحلول والعلاجات.

¹ - Ibid, sayfa 72-74.

المبحث الثالث: حاجي خليفة ودستور العمل لإصلاح الخلل

موجز عن مظاهر الفساد العثماني

ترجمة حاجي خليفة (كاتب جلبي)

عرض مضمون "دستور العمل لإصلاح الخلل"

موجز عن مظاهر الفساد العثماني

التراجع العثماني أصبح ظاهراً للعيان مع الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وهو ما لاحظته أغلب الباحثين في الدراسات العثمانية؛ ذكر المؤرخ الأمريكي بيتر شوجر (Peter Sugar)¹ في كتابه جنوب شرق أوروبا تحت الحكم العثماني 1804-1354 (Southeastern Europe under Ottoman Rule, 1354-1804) المترجم إلى العربية تحت عنوان "أوروبا العثمانية في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة": رغم أنّ جذور تدهور الإمبراطورية العثمانية والأعراض الأولى لهذا التدهور كانت قديمة، إلا أنّ مظهره كانت ملموسةً خلال الثلث الأخير من القرن السادس عشر، ورغم أنّ بعض السلاطين الأقوياء بمساعدة الصّدر العظام من أسرة كوبرلو حاولوا وقف هذا التدهور إلا أنّ تيار التدهور استمرّ دون توقّف حتى مطلع القرن التاسع عشر².

يؤكد واقع الدولة العثمانية المتراجع لحساب القوى الأوروبية ما ذكره الباحث والمؤرخ التركي خليل إينالجيك³ أنّ الإمبراطورية العثمانية لم تعد في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي تلك الإمبراطورية الحيويّة كما كانت عليه في القرن السادس عشر؛ فقد تخطّم نظام التيمار الذي وُلِدَ في ظروف خاصّة بالعُصُور الوسطى بشكل لا يُمكنُ إصلاحه، واستُبدِلَ به جيش مُجهَّز بالبنادق من المرتزقة، وبماليّة مركزية تحوّلت نحو الضرائب المدفوعة نقداً، واستُبدِلت العملة العثمانية بالتقد

¹. بيتر شوجر (1919-1999): مؤرخ أمريكي مجري الأصل. حصل على شهادة البكالوريا من المدرسة الدينية اللوثرية الشهيرة بيودابست والتي خرّجت بعض من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء في العالم. هاجر إلى تركيا بسبب الحرب حيث تعلم التركية وتخصّص في دراسة جنوب شرق آسيا. هاجر إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية. وحصل بها على الدكتوراه في التاريخ ودراسات الشرق الأدنى سنة 1959، ليدرس بجامعة واشنطن في سياتل إلى تقاعده سنة 1989. ترك الكثير من الأبحاث. ينظر:

Deák István: "**Peter F. Sugar, 1919-1999**", Austrian Studies Newsletter, University of Minnesota, Center for Austrian Studies, Vol12, No 2, spring 2000, P8 .

Felak James and Ramet P. Sabrina: "**Remembering Peter Sugar**", REECAS Newsletter, University of Washington, Russian, East European and Central Asian Studies Center, spring 2000, P1.

². شوجر بيتر: أوروبا العثمانية (1804-1354)، في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة، تر: عاصم الدسوقي، ط1 دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1998، ص209.

³. خليل إينالجيك (1916-2016): ولد في إستانبول لعائلة من تزار القرم، هاجرت أسرته من القرم إلى القسطنطينية سنة 1905. حصل بتركيا على الدكتوراه في عام 1943. وحاضر في جامعات مختلفة في الولايات المتحدة كأستاذ ضيف. درس التاريخ العثماني في جامعة شيكاغو بين عامي 1972 و1993. ثم عاد إلى تركيا وانخرط بالتدريس بجامعة بيلكنت. نال عضوية العديد من المؤسسات العلمية الدولية. وله العديد من المؤلفات والأبحاث. ينظر:

Halil İnalçık: http://www.goodreads.com/author/show/2984250.Halil_nalc_k, Dec 20, 2012 10:58am.

الأوروبي¹، وبذلك دَخَلَ الاقتصاد العثماني في فَلَكِ الاقتصاد الأوروبي، ومن ثمَّ كما قال إينالجيك أنهار النظام الاقتصادي المالي العثماني في القرن السابع عشر بسبب الاقصاديات الماركنتلية العُدوانية للدول الأوروبية التي حلَّت محلَّ البنادقة في الشرق. ومن العَوامل التي مهَّدت الطريق لأزمات أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يُمكنُ أن نذكرُ أثرَ الازدياد السكاني والتكنولوجيا العسكرية الأوروبية الجديدة والأزمة المالية والنقدية².

لفت استشرَاء الفساد واستغلاظ أمره في الدولة العثمانية السفير الفرنسي لويس دي هاي³ (louis deshayes) في العقد الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي فكتب في مذكراته: لا أحد حاليا في تركيا ينال منصباً إلا بدفع الكثير من المال، بحيث أنه ما إن يَشغَلَ المنصب حتى يبدأ في العمل على استرجاع ما بذله من مال - الذي اقْتَرَضَهُ غالباً بفوائد عالية - ليكون في خدمة السلطان⁴، فقد أصبح المال مُقَدِّمًا على الكفاءة، حتَّى أنه عندما استقال الصدر الأعظم في ربيع الثاني 1066هـ/فبراير 1656م وتمَّ اقتراح رجل الدولة الكبير محمد باشا كوبرولو، اعْتُرِضَ على الأخير بأنه لا مَالَ له⁵، على أساس أنَّ المناصب أصبحت تباع وتشترى.

انتشار الفساد استدعى ثراء في أدب نصائح الملوك ابتداء من النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي؛ وقد عرضنا نماذج كثيرة عنه في المبحث الأول من هذا الفصل وقد ظهرت رسائل ومصنفات في نصائح الملوك في عهد محمد الرابع (1058هـ-1099هـ/1648م-1687م) وهو العهد الذي عاد فيه صراع أجنحة السلطة بالقصر السلطاني وعودة تدخُّل الجيش في السلطة كلاعب أساسي، بل مشارك فعلي في السلطة فيما عُرف بعهد الأغوات (1058 -

1. إينالجيك، خليل: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المرجع السابق، ص72.

2. المرجع نفسه، ص 68.

3. لويس دي هاي (louis deshayes): بارون فرنسي ومستشار الملك الفرنسي لويس الثالث عشر. تولى عدة مناصب دبلوماسية رفيعة. نشر له كتاب رحلة إلى الشرق بتوجيه ملكي في 1621، وقد نشر بأمر من الملك، وشد ضمن كتابه الكثير من الملاحظات حول الدولة العثمانية. أعدم سنة 1632. ينظر:

Michaud L. G : **Biographie universelle ancienne et moderne, ou histoire par ordre alphabétique, de la vie privée et publique de tous les hommes qui se sont distingués par leurs écrits, leurs actions, leurs talents**, Tom11, L. G. Michaud, Imprimeur Du Roi, Paris, 1814, P182.

4 - Des Hayes de Cournemin : **Voyages du Levant fait par le commandant du Roy en l'année 1621**, par le Sr D.C, Paris, 1624, P266.

5 - Hammer: Op.cit, Tom 10, P378-379.

1061هـ/1648 - 1651م)، وهو عهد تقاسم فيه قادة الإنكشارية السلطة مع قوسيم سلطان¹ فقد نُصّب حفيدها محمد الرابع سلطانا على العرش وعمره سبع سنوات!!

نجد من الرسائل والمصنفات التي ظهرت على عهد محمد الرابع كتاب التبر المسبوك في نصيحة الأخيار والملوك² وكتاب براءة الذمة في نصيحة الأئمة³ وكتاب نصيحة الملوك ترغيبا لحسن السلوك لرئيس الكتاب صاري عبد الله، كتاب دستور الوزراء لپرتوى الرُّومي⁴ وكتاب سلوك الملوك لحقي الرومي⁵ وغيرها، إلا أنّ من أشهرها، تلك الرسالة الصغيرة الحجم العظيمة الجرم التي وضعها واحد من أعمدة الفكر العثماني وأساطين فئة الكتاب من أهل القلم حاجي خليفة، المشهور بكتاب جلبي، ورسالته تلك عنوانها "دستور العمل لإصلاح الخلل"، وقد ألفتها باللغة التركية، فمن هو حاجي خليفة؟ ولماذا وكيف ألفت رسالته تلك؟ وما مضمونها؟

ترجمة حاجي خليفة (كاتب جلبي)

يعرف بكتاب جلبي أو حاجي خليفة، وهو واحد من أبرز علماء المسلمين في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وهو رجل صرّف همته وقضى عمره في تحصيل العلم ونشره. طلب العلم صغيرا واشتغل به طيلة عمره القصير حتى وافته المنية. إن الأساس في التعرف على حياة كاتب جلبي هو ترجمته لنفسه في نهاية كتائبه "سلم الوصول إلى طبقات الفحول" و"ميزان الحق في اختيار الأحق". وسننقل ترجمته بتصرف من خلال ما ورد في مقدمة محقق كتابه سلم الوصول في طبقات

1. قوسيم والده سلطان: تلقب بمهيكير (وجه القمر)، زوجة السلطان أحمد الأول، ووالدة مراد الرابع وإبراهيم الأول، كانت السيدة الأولى ومارست سلطة فعلية على عهد ابنيها مراد الرابع وإبراهيم الأول، وحفيدها محمد الرابع. عززت قوسيم نفوذها السياسي بتزويج بناتها لوزراء مختلفين. بعد وفاة زوجها 1617، عملت على تنصيب مصطفى الأول الضعيف لتمارس سلطتها من خلاله، وكانت ضالعة في عزل وإعدام السلطان عثمان الثاني سنة 1622، زاد نفوذها مع ابنها مراد الرابع سنة 1623، واتهمت بالإطاحة بابنها إبراهيم الأول وإعدامه، وتنصيب حفيدها ابن السبع سنوات محمد الرابع، غير أنه قاسمها السلطة هذه المرة أغوات الإنكشارية الذين خلعوا إبراهيم، ونافستها خديجة طورخان والدة محمد الرابع، دبرت لخلع محمد الرابع وتنصيب أخوه سليمان غير أن المخطط اكتشف مما أدى إلى إعدامها سنة 1651، بعد أن مارست السلطة طيلة 30 عاما. ينظر:

Baysun Cavid: **Kosem Walide**, The Encyclopaedia of Islam. Op.cit, Tome5, 1985, P272-273.

2. ألفه مفتي مدينة بلغراد في البلقان (يوغسلافيا سابقا) الشيخ أبو اليسر علي بن عبد الرحيم المتوفى بعد سنة 1082هـ/1671م. ينظر: نصر محمد عارف: المرجع السابق، ص206.

3. لمؤلفه ابن جلال اليميني الصنعاني المتوفى سنة 1079هـ. ينظر: الباباني: المرجع السابق، ص295.

4. علي فاضل الرُّومي المعروف بپرتوى المُفتي (ت 1076هـ). ينظر: المرجع نفسه، ص761.

5. اسماعيل حقي بن الشَّيخ مصطفى (ت 1137هـ) العالم الصوفي. ينظر: المرجع نفسه، ص219.

الفحول¹:

هو مصطفى ابن عبد الله، وهو يكتفي على غير العادة بذكر اسم والده فحسب، اشتهر بين علماء مدينته باسم "كاتب جلبي"، وبين أهل الديوان باسم "حاجي خليفة" [وكلمة خليفة في المصطلح العثماني تعني أمر القلم ورئيسه] وهو حين يعرّف بنفسه يقول إنه "حنفي المذهب إشرافي المشرب" وقد ولد -حسبما ذكرته والدته- في شهر ذي القعدة عام 1017 هـ (فبراير / شباط 1609 م) في مدينة إستانبول حيث كانت دارهم أيضًا، وهو بحسب قوله: "قسطنطيني المولد والدار"، عمل والده في قسم ال (أندرون) بالسراي العثماني، ثم "خرج" منه بوظيفة ملحقة بزمرة السلحدارية²، وقنعت نفسه بتلك الوظيفة، فكان يشارك في الحروب والأسفار، وكان على دين وخلق مواظبًا على مجالس العلماء والشيوخ حتى إن ليله كان يقضيه في العبادة، ولما بلغ ابنه الخامسة أو السادسة من عمره اتخذ له معلمًا يعلمه القرآن وتجويده، فحفظ نصف القرآن، وتلقى العلم على شيوخ بلده وكذا تعلّم فن الخط، وفي سن الشباب انخرط للعمل مساعدًا "شاگرد" في "قلم محاسبة الأناضول" أحد أقلام الديوان الهمايوني (1032 هـ / 1622 - 1623 م)، وهناك تعلم مبادئ الحساب من أحد خلفاء القلم، وتعلم معها الأرقام وخط "السياقت"³ فأجاده حتى تقدم على أستاذه، شارك كاتب جلبي في حملة العراق سنة 1035 هـ / 1625 - 1626 م، وفي طريق عودته من الحملة توفي والده ثم عمّه.

رافق الجيش العثماني وفي سنة 1043 هـ / 1633 - 1634 م عندما انسحب الجيش إلى حلب لقضاء الشتاء هناك، سافر كاتب جلبي من حلب إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج، وحين عودته كان الجيش آنذاك في ديار بكر ف قضى فصل الشتاء في تلك المدينة بمصاحبة بعض العلماء يتباحث معهم، وفي سنة 1044 هـ / 1634 - 1635 م سافر مع السلطان مراد الرابع في حملته على رَوّان، وروى لنا بالتفصيل مشاهداته وانطباعاته عن تلك الحرب.

وشارك في عدة حملات عسكرية طويلة عشر سنوات فتم له بذلك أمر الحج والجهاد، ثم تفرّغ للعلم تفرغًا تامًا، وطلب العلم على خيرة علماء عصره ومصره، ولما توفي أحد أقربائه سنة 1047 هـ

1. اعتمد محقق كتاب سلم الوصول إلى طبقات الفحول المؤرخ محمود عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله في ترجمة حياة حاجي خليفة على ما كتبه الباحث التركي أورخان شائق جوك (Orhan Şaik Gökyay) في دراسته المطولة عن حاجي خليفة والتي حملت عنوان فحص حياة كاتب جلبي وأعماله (katip celebi hayan ve eserleri hakkında incelemeler).

2. السلحدارية: مجموعة من كبار الضباط الذين يحتفظون بأسلحة السلطان في القصر، ويحملونها له عند خروجه الى الحرب. ويرأسهم السلاحدار آغا فهو مدير موظفي الغرفة الخاصة للسلطان. ينظر: صابان سهيل: لمرجع السابق، ص134.

3. سياقت Siyakat: نوع خاص من الخط المستخدم في الدوائر المالية بالدولة العثمانية، كان يخلو من النقاط ... لم يكن يُلّم بقراءته إلا المتخصصون، وكان الهدف من استخدامه عدم تمكين كل واحد من قراءته. ينظر: المرجع نفسه، ص137.

1638/ م وكان تاجرًا ثريًا ورث عنه عدة أحمال من الأتجة (اسم العملة العثمانية)، فأنفق قدر ثلاثة منها على شراء الكتب والباقي على تعمير وإصلاح دار له كانت تقع في الجانب الشمالي لجامع الفاتح ثم تزوج في السنة نفسها. واستطاع في سنة 1055 هـ / 1645 - 1646 م أن يشهد بنفسه بمناسبة حملة الجيش العثماني على جزيرة كريت كيف يجري إعداد الخرائط ورسمها، ورأى الكتب المؤلفة في ذلك الموضوع، واطلع على كافة الخرائط.

في أواخر سنة 1058 ص (1648 م) حصل على وظيفة "الخليفة الثاني" في القلم الذي كان يعمل فيه، وذلك بتوصية من شيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي إلى الصدر الأعظم صوفي محمد باشا¹ بسبب كتاب تقويم التواريخ، وذلك رغم ما بذله المعارضون له من مساعٍ لرفض طلبه وجهود مادية ومعنوية للحيلولة دون ذلك، وكان عبد الرحيم أفندي² هذا صديقًا ودودًا له، مطلعًا على سرّه، يحادثه في شئون الدولة، ويستعين بمشورته في موضوعات شتى، وقد ظهر عدد كبير من مؤلفاته في غضون تلك السنوات الأخيرة، كما استطاع بمساعدة الشيخ محمد إخلاصي³ أن ينقل إلى التركية بعض الكتب اللاتينية. توفي يوم الجمعة 27 من ذي الحجة سنة 1067 هـ / 6 أكتوبر 1657 م. حظي كاتب جلبي بسمعة طيبة، ونال تقدير الناس واحترامهم في حياته وبعد مماته.

ترك تصانيف كثيرة منها:

1. فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار (بالعربية) وهو أول كتبه.
2. فذلکه (بالتركية) كتبه ذيلًا للكتاب الأول، فهو في التاريخ، ويبدأ من أول عصر المؤلف أي قبل مولده (1017 هـ / 1609 م) من سنة 1000 هـ / 1591 م إلى سنة 1065 هـ / 1654 م وقد رتب الأحداث فيه على السنين، وجعل في نهاية كل سنة ذكر موجز لوفيات رجال الدولة وحياة المشاهير من العلماء والشعراء.

¹. صوفي محمد باشا ويعرف أيضا بمولوي محمد باشا رجل دولة عثماني شغل منصب الصدر الأعظم ووزير المالية. ينتمي إلى الطريقة المولوية وبها عرف، أثناء اضطرابات سنة 1648 للإطاحة بإبراهيم الأول أجبر المتمردون السلطان على تعيين صوفي محمد باشا صدرا أعظما في 8 أوت 1648، وعزل بعدها إبراهيم وأعدم، أحداث مهّدت لعزل صوفي محمد باشا عن الصدارة في 1649 م ثم إعدامه. ينظر:

Uzunçarşılı İsmail Hakkı: **Osmanlı Tarihi III**. Cilt 2, Baskı 6, Türk Tarih Kurumu, Ankara, 2011, sayfa, 395-397.

². هو عبد الرحيم بن محمد مفتي الدولة العثمانية المُتحقق الشهير أحد أعيان عُلماء الزّمان، حج بيت الله الحرام سنة 1025 هـ عين بمنصب شيخ الإسلام ومفتي الأنام سنة 1057 هـ، وقد أفتى في عهده بعزل وإعدام السلطان إبراهيم الأول بناءً على أنه انتهك بعض الحرمات، ثمّ عزل عن الفتيا، وتوفي سنة 1062 هـ.. ينظر: المحيي المصدر السابق، ج2، ص411-412، بتصرف.

³. وهو راهب فرنسي اهتدى إلى الإسلام.

3. تحفة الكبار في أسفار البحار (بالتركية): فقد شهد المؤلف بعينه الهزائم والانكسارات التي لحقت بالعثمانيين، ومدى طغيان الأعداء وغرورهم وكل ذلك نتيجة للتدابير الناقصة والأخطاء التي ارتكبها المسئولون، فروى من خلال هذا الكتاب حياة قباطنة الماضي الشجعان وحروب قراصنة البحر والمجاهدين، ثم الآراء والتدابير التي كان يتخذها بعض المسئولين والعقلاء مستهدفاً تنبيه العثمانيين وإنقاذهم من حالة الفتور التي وقعوا فيها.
4. تقويم التواريخ (بالتركية): وهو تاريخ إسلامي عام، يضم الوقائع والأحداث التي ذكرتها التواريخ المختلفة، منذ هبوط آدم -عليه السلام- إلى الأرض حتى عام 1058 هـ (1648 م) وهو الكتاب الذي أرسل إلى الصدر الأعظم قوجه محمد باشا في نفس سنة الفراغ منه، بواسطة شيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي، وتمت عندئذ ترقية كاتب جلبي إلى درجة الخليفة الثاني.
5. ترجم إلى التركية بمساعدة الشيخ محمد إخلاصي الفرنسي المسلم تاريخ فرنكى ترجمه سى (بالتركية)، وتاريخ قسطنطينيه وقيصره (رونق السلطنة) (بالتركية).
6. إرشاد الحيارى إلى تاريخ اليونان والروم والنصارى (بالتركية): وهو كتاب تاريخ الدول المجاورة لدول المسلمين، وفي تاريخ حكامها ونظم الحكم فيها جمعه كاتب جلبي من الكتب الأجنبية التي حاول ترجمتها، مثل أطلس مينور وغيره، بقصد تعريف المسلمين بأحوال وأوضاع تلك الدول. وهو عبارة عن رسالة تقع في 58 ورقة، وتضم مقدمة وعدة فصول. وجعلها على قسمين، تحدث في الأول عن الأديان في أوروبا، بينما خصص الثاني لعادات وقوانين الحكام فيها كما تحدث عن نظم الإدارة والديمقراطية والجمهورية وأصول الانتخاب، وغير ذلك مما تقدم الغرب فيه وعلاقتهم بالعثمانيين.
7. جهاننما (ومعناه: مرآة العالم) (بالتركية): وهو كتاب يحوز أهمية تتجاوز تصور العثمانيين للجغرافيا، ونقطة تحول عظيمة من نظرة الشرقيين إلى نظرة الغربيين في علم الجغرافيا. وقد جرت ترجمته عدة مرات إلى اللغات الأوروبية، وكان عوناً كبيراً للرحالة الذين زاروا القسم الآسيوي من تركيا، لا سيما في القرن التاسع عشر.
8. لوامع النور في ظلمات أطلس مينور (بالتركية): وهو الكتاب الثاني في الجغرافيا لكاتب جلبي، وهو ترجمة لكتاب أطلس مينور لجغرافيين أوروبيين وهو يتحدث فيه عن جغرافية الدول الأوروبية واحدة واحدة، ابتداءً من القطب الشمالي وجزيرة ايسلاندا، فيذكر الأنهار والجبال والمدن في خليط من المعلومات الجغرافية والتاريخية ونظم الحكم. أما الأقسام المخصصة في الكتاب لآسيا وإفريقيا وأمريكا فهي ليست بهذا التفصيل.
9. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (بالعربية): وهو من أشهر كتبه؛ وهو المعجم

البليوغرافي الضخم الذي استغرق كاتب جلبي عشرين سنة في كتابته بالعربية، وعرف به بين العلماء والباحثين. وقد رتبّه ترتيباً ألفبائياً. فهو يذكر اسم الكتاب في موضعه ثم يتبعه باسم مؤلفه وتاريخ التأليف ويذكر الكتب الأخرى المتعلقة بموضوعه، ثم شروح الكتاب ومختصراته وحواشيه.

10. دستور العمل لإصلاح الخلل (بالتركية): كان كاتب جلبي قد شارك هو الآخر في اجتماع الديوان الهمايوني [لسلطاني] الذي انعقد عام 1063 هـ/1653م بقصد بحث الأسباب التي أدت إلى تناقص الإيرادات وزيادة النفقات في ميزانية الدولة، وإيجاد حلول لعجز الميزانية الذي يقتضي جباية ضرائب العام التالي مقدماً. وباعتباره رجلاً له تجاربه في الحرب والسلم، مع علمه بتاريخ السلف، قام بوضع رسالة في هذا الصدد من مقدمة وثلاثة فصول ونتيجة، ثم جعل لها ذلك العنوان.

11. ميزان الحق في اختيار الأحق (بالتركية): وهو من آخر مؤلفاته: إذ انتهى من تأليفه في شهر صفر سنة 1067 هـ/نوفمبر 1656م. وقد كتبه حول عدة مسائل كانت مثاراً للجدل في أيامه، مثل الخلاف حول حياة الخضر (-عليه السلام-) أو مماته، والتغني، والرقص والدوران والتصلية والترضية، والتبغ أو الدخان، وشرب القهوة، وتعاطي الأفيون والمكيفات، وفقر أو غنى أبوي النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإيمان فرعون، والاختلاف في الرأي حول مكانة الشيخ محي الدين ابن عربي، وسبّ يزيد، والبدعة، وزيارة القبور، والصلاة في ليالي القدر والجمعة الأولى من رجب والنصف من شعبان، والمصافحة والانحناء، والأمر بالمعروف¹.

مثل حاجي خليفة المثال الواضح لشخصية المثقف العثماني، الذي بدأ حياته العلمية بتعلم القرآن الكريم، وتحصيل علوم العربية، والتخصص في علوم الدين، والتمرس بالعلوم الرياضية والطبيعية مع إتقان اللغة الفارسية وأدبها إلى جانب إتقانه للغة العربية، وقد ألف -كعادة العلماء العثمانيين الأتراك ومن سار على نهجهم من مثقفي الدولة العثمانية غير الناطقين بالعربية- باللغتين العربية والتركية في آن معاً، ولا نجد في مؤلفاته إلا نادراً ذلك الأسلوب المسجع الذي هو القاسم المشترك في كافة النصوص النثرية الكلاسيكية التي كتبت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فهو لا يعبأ بتزويق أفكاره ومباحثه الجدلية، ولا يعنى باستخدام التعابير والألفاظ الغريبة، وإنما يميل إلى الكتابة بأسلوب واضح مختصر².

1. حاجي خليفة: سلم الوصول إلى طبقات الفحول، المصدر السابق، ص 9-29، بتصرف.

2. المصدر نفسه، ص 9.

عاش حاجي خليفة عمره كلّ طالباً للعلم ومؤلفاً ومدرساً رغم أنّه عاش ثمان وأربعين سنة فقط (1017هـ - 1067هـ/1609م - 1657م)، وما أطف ما كتبه عنه باحث تركي إذ قال: لن يكون من قبيل المبالغة القول إنه عاش حياته القصيرة نسبياً، ثمان وأربعين عاماً فقط لكتابة أعماله الثمينة... لم يكن كاتب جلي مجرد كاتب للشؤون المالية، ولكن أيضاً كاتب ببيوغرافية العالم الإسلامي المترجمة على مر القرون؛ فكتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لا يزال المورد البيوغرافي الذي هو الأثر القديم المعبر عن الحقبة الكلاسيكية¹.

يعتبره بعض أصحاب كتب التراجم أوّل من فتح نافذة عثمانية على عالم الثقافة الأوروبية² فألى بجانب معرفته بلغات المثقف المسلم بعصره: العربية والفارسية والتركية، تعلّم الفرنسية واللاتينية بهدف الاطلاع على ما كتبه الأوروبيون³، وعرف عنه حرصه الدائم على البحث والتدقيق، كما أن أسلوبه المتشكك دفعه للمقارنة بين المصادر الشرقية والمصادر الغربية⁴. ويظهر دور كاتب جلي كمصلح سياسي وديني واجتماعي في كتابه دستور العمل لإصلاح الخلل وميزان الحق في اختيار الأحق... وخاتمة أعمال جلي هو كتاب ميزان الحق الذي يمكننا تصنيف بعض فصوله ضمن فلسفة التاريخ، وفصوله الأخرى وضعها المؤلف منتهجاً طريق الوسطية والاعتدال ليقدم القول الفصل في بعض القضايا الخلافية التاريخية والعقائدية والاجتماعية والإدارية والسياسية أيضاً⁵.

¹ - Hakan Arslanbenzer: " Katip Çelebi: Ottoman intellectual in the 17th century ", Daily Sabah, <https://www.dailysabah.com/portrait/2014/10/04/katip-celebi-ottoman-intellectual-in-the-17th-century> . 4 October 2014.

² . سنة 1655 قام كاتب جلي بتأليف كتيب بعنوان " المرشد عن الأمور المحيرة في التاريخ اليوناني والروماني والمسيحي " وقد شرح في مقدمته أسباب تأليف هذا الكتيب وهو أن المسيحيين قد ازداد عددهم، وعبروا بسفنهم عبر البحار الشرقية والغربية وأصبحوا أسبداً لعدد من الدول، وكسبوا انتصارات في العالم الجديد (أمريكا)، وانتشروا في موانئ الهند التي سيطروا عليها وبذلك اقتربوا من المناطق العثمانية، ويرى جلي لمواجهة هذا الخطر ضرورة التزود بالمعرفة الحقيقية عن هذه الشعوب المسيحية، ويشكك في مدى صحّة التواريخ الإسلامية عنهم، ومن شأن المعرفة الحقيقية أن تعين على إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها الذي سمح لهؤلاء الكفار إحالة الأراضي الإسلامية إلى مواطن للكفر. وفي كتابه حديث عن النظم الأوروبية للحكومة، والكتاب مكون من تسعة فصول تتعلق بالباباوية والإمبراطورية وفرنسا وإسبانيا والدانمارك وترانسلفانيا والمجر وفينيسيا ومولدافيا. ينظر: لويس برنارد: اكتشاف المسلمين لأوروبا، تر: ماهر عبد القادر، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1996، ص145-146. بتصرف.

³ . حرب محمد: المرجع السابق، ص 75.

⁴ . أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص 77.

⁵ . حاجي خليفة: تحفة الكبار في أسفار البحار، تر وتحر: محمد حرب وتسليم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة

عرض مضمون "دستور العمل لإصلاح الخلل"

بعد أن عرفنا ترجمة صاحبنا ورأي بعض الباحثين في قيمته العلمية نشرع الآن بالحديث عن عمله الذي يعتبر إضافة مميّزة في مكتبة أدب نصائح الملوك الإسلامية عامة والعثمانية بوجه خاص؛ فرسالته "دستور العمل لإصلاح الخلل" تم نشرها بإستانبول سنة 1280هـ/ 1863م كملحق لكتاب قوانين آل عثمان لعين علي¹، وترجمها إلى الألمانية المستشرق الألماني والتر فريدريك أدولف بھرنهاور سنة 1273هـ/ 1857م تحت عنوان: دستور عمل حاجي خليفة مساهمة في التاريخ المالي العثماني (Hâgî Chalfas Dustûru'l-amel. Ein Beitrag zur osmanischen Finanzgeschichte) ونشرت بالمجلة الشرقية الألمانية (Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft)². وترجم كتاب دستور العمل لإصلاح الخلل إلى التركية الحديثة سنة 1402هـ/ 1982م³.

نتساءل بداية عن دوافع حاجي خليفة لكتابة دستور عمله ذاك؟ في رسالته "دستور العمل لإصلاح الخلل" ذكر لنا حاجي خليفة الدافع الأساس الذي جعله يُقدم على كتابة رسالته تلك؛ إذ يذكر أنّ اجتماعاً هاماً عقد في سنة 1063هـ/ 1653م بأمر من السلطان محمد الرابع بحضور كبار رجالات الدولة لمناقشة أسباب العجز المستمر في تمويل الدولة؛ كان السؤال المهم بالاجتماع هو البحث عن السبب الذي جعل دخل الدولة - على غير العادة - غير كاف لتغطية النفقات، وبعد هذا الاجتماع أُجريت تحقيقات في المالية العامة للدولة واعتمدت بعض المسكنات غير الفعالة.

¹. عين علي أفندي القسطنطيني الرُّومي المَعْرُوف بِحَايِبِ الرُّومي، تولى امانة الدفتر ثمَّ صَارَ دَفْتَرِ دَارِ الشَّقِ الْأَوَّلِ، وَتَوَفَّى فِي شَهْرِ صَفْرِ مِنْ سَنَةِ 1156هـ. صنف قوانين آل عُثْمَانَ وَخِلَاصَةَ مَضَامِينِ الدِّيَّوَانِ. ينظر: الباباني: المرجع السابق، ج1 ص767.

² - Bernard lewis: Op.cit, P447.

³. قام بترجمتها الأستاذ علي خان (Ali Can)، تحت عنوان: الطرق التي انتهجها كاتب جلي لإصلاح الخلل في دستور العمل لإصلاح الخلل (Kâtip Çelebi Bozuklukların Düzeltmesinde Tutulacak Yollar (Düsturu l-‘amel fi islahi l-halel)، وهي التي سنعتمدها في تناولنا لمضمون دستور العمل لإصلاح الخلل بهذا المبحث. ذكر الأستاذ محمد حرب في مقدمة ترجمته لكتاب حاجي خليفة تحفة الكبار في أسفار البحار أنه أمم ترجمة كتابي حاجي خليفة: دستور العمل لإصلاح الخلل وكتاب ميزان الحق في معرفة الأحق وانهما سيطبعا قريباً ينظر: حاجي خليفة: المصدر السابق، ص6.

حضر كاتب جلبي بصفته مسؤولاً في الشؤون المالية¹، بعض المناقشات بين كبار رجال الدولة² وبناء على ما سمعه في الديوان ومن منطلق خبرته العريضة بصفته رجلاً قرأ التاريخ وله خبرة في السفر والحضر فقد ألف كتيباً صغيراً في هذا الموضوع عرض فيه آراءه الخاصة وأسباب وسبل علاج الأزمة المالية المزمّنة، سماه "دستور العمل لإصلاح الخلل" وكان أمله كبيراً في أن يستفيد منه رجال الدولة³. رسالة دستور العمل لإصلاح الخلل رسالة صغيرة مكوّنة من سبعة أجزاء قصيرة؛ مقدمة وثلاثة فصول واستنتاج وخاتمة وأخيراً تنبيه وتبشير، استند كاتب جلبي في حججه على أرضية نظرية صلبة مستلهما نظرية ابن خلدون؛ فكون الدولة ككائن حي، إضافة إلى كون المجتمع مبني على أربع ركائز تتوافق مع العناصر الأربعة المشكّلة للأخلاق الأربعة⁴ في الجسم البشري: العلماء، الجيش والتجار والرعيّة فإنّ تطور الدولة يتوافق مع تطور حياة الفرد، هذا الأخير يمر بثلاثة مراحل: عصر النمو وعصر الركود وعصر الانحطاط، وتعتمد مدة هذه العصور على القانون واستقرار كل دولة؛ على سبيل المثال، بسبب القانون القوي للدولة العثمانية مرّ عصر الركود بشكل بطيء، ومع ذلك برزت علامات متزايدة تشير

1. شغل كاتب جلبي لفترة منصب مسؤول عثمانى في قسم تمويل الجيش. وفي هذا المنصب رافق الجيش في رحلاته في الأناضول والقوقاز، والشرق الأوسط، بما في ذلك حملة مراد الرابع لاستعادة بغداد. ينظر:

Miri Shefer-Mossensohn: **Science Among the Ottomans: The Cultural Creation and Exchange of Knowledge**, 1 Edt, University of Texas Press, USA, 2015, P65.

2. إنّها ليست المرة الأولى على ما يبدو التي يدعى فيها كاتب جلبي لاجتماع رفيع المستوى كهذا؛ فقد تم استدعاؤه سنة 1053هـ/1644م لاجتماع ترأسه الصدر الأعظم قره محمد باشا وذلك لاستطلاع رأيه في أمور تتعلق ببعض أنواع السفن الحربية ينظر:

Tuncay Zorlu: **Innovation and Empire in Turkey: Sultan Selim III and the Modernisation of the Ottoman Navy**, 1Edt, Tauris Academic Studies, London- New York, 2008, p167.

3 - Katip Çelebi: **Bozuklukların Düzeltilmesinde Tutulacak Yollar "Düsturu'l-amel li Islahi'l-halel"**, Hazırlayan: Ali Can, Baskı1, Kültür ve Turizm Bakanlığı Yayınları, başbakanlık basımevi, ankara, 1982, sayfa18-19.

ينظر أيضاً على سبيل الاستئناس: Bernard lewis: Op.cit, P217. حاجي خليفة: المصدر السابق، ص6.

4. مذهب الأخلاق الأربعة هو نظام طبي يوناني يشرح تركيب وعمل الجسم على أساس وجود أربعة عناصر مميزة للسوائل في الجسد البشري تعرف بالأمزجة أو الأخلاق كونها تؤثر مباشرة في مزاج الإنسان وصحته، عندما تكون الأخلاق الأربعة في توازن يكون الشخص في صحة جيدة، ووجود فائض أو نقص في إحدى هذه الأخلاق ينتج عنه المرض واختلال مزاج الإنسان والأخلاق الأربعة هي الصفراء السوداء، والبلغم والدم. وجميع العناصر الأربعة موجودة في الدم، وقد صاغ النظرية الطبيب اليوناني الشهير أبقراط واستعملها اليونانيون والرومان والأطباء الفرس، وأصبحت وجهة النظر الأكثر شيوعاً للجسم البشري بين الأطباء الأوروبيين حتى ظهور البحوث الطبية الحديثة في القرن التاسع عشر. ينظر:

William F. Bynum and others: **Dictionary of the History of Science**, 1Edt, Macmillan Publishers Ltd, Basingstoke, Royaume-Uni, 1981, P191-193.

إلى الاقتراب الوشيك للمرحلة الأخيرة : فقد تعطل توازن العناصر التي تضمن الأداء المثالي لجسدها¹. يلخص المؤلف - كما سنرى - في مقدمته أطوار الدولة متبنيًا نظرية ابن خلدون في تاريخ المجتمعات، وفي محاولة لتحليل بنية الدولة العثمانية والمجتمع يستفيد كاتب جلبي من الفلسفة الاجتماعية في علم الأحياء، أو طريقة القياس التشخيصي التي تم اعتمادها ليس فقط من قبل الفارابي وابن خلدون ولكن أيضا من قبل العديد من المفكرين في تاريخ العصور القديمة². فهو يستفيد في مقدمته من المعرفة التجريبية والنظرية³.

تأثر كاتب جلبي بابن خلدون واضح جلبي في مقدمته⁴؛ فهو يستمد منه محور رسالته في كون الدولة لها أعمار كأعمار الكائن الحي؛ إذ ذكر ابن خلدون في مقدمته في الفصل الرابع عشر في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص ما ملخصه: أن عمر الدولة كعمر الفرد 120 سنة فالدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء التّمّو والتّشوّء إلى غايته ... فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التّريّد إلى سنّ الوقوف ثمّ إلى سنّ الرّجوع⁵، غير أنّ ما ذهب إليه ابن خلدون ينقله التاريخ فبعض الدول امتدت وتجاوزت العمر الافتراضي الذي اقترحه ابن خلدون في نظريته، وربما هذا الذي دفع كاتب جلبي - كما سنرى - إلى اقتراح إمكانية تمديد أعمار الأجيال.

يرى كاتب جلبي أنّ الدولة والمجتمع مثل جسم الإنسان؛ فهو يقارن أجهزة الجسم بمؤسسات الدولة والكيانات الاجتماعية، فبالنسبة له فإن الدولة والمجتمع يمكن أن يعيشوا ويحتفظوا بالقوة فقط

¹ - Pal Fodor: Op.cit, P233-234.

² - يذكر برنارد لويس أن المؤرخ الروماني لوسيوس أنيوس فلوريس (Lucius Annaeus Florus) المتوفى سنة 130م ذكر في كتابه حول تاريخ روما أنّ الدولة تمرّ بأربعة مراحل هي الطفولة، والشباب، والرجولة، والشيخوخة. وقد لوحظ أن تاريخ فلوريس كان يقرأ على نطاق واسع بأوروبا في العصور الوسطى. ينظر: Bernard lewis: Op.cit, P447. كما لو أنّه يلمح إلى أنّ كاتب جلبي استقى أفكاره ربما من لوسيوس أنيوس فلوريس.

³ - Hüseyin Gündoğdu: "An Ottoman Scribe and Intellectual: Kâtib Çelebi and the Analysis of His Work *Düstûru'l-Amel li-Islâhi'l-Halel*", Cilt 1, Sayı1, Sosyal Bilimler Araştırmaları Dergisi, ODÜ Sosyal Bilimler Enstitüsü, Türkiye, 2010, Sayfa83.

⁴ - ذكر محمد حرب في مقدمة ترجمته لتحفة الكبار في أسفار البحار أن لحاجي خليفة كتاب بعنوان تكملة ابن خلدون. ينظر: حاجي خليفة: *تحفة الكبار في أسفار البحار*، المصدر السابق، ص46. وقد أشاد حاجي خليفة في موسوعته الضخمة "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" بمقدمة ابن خلدون وقال عنها: كتاب مفيد، جامع منافع لا توجد في غيره. ينظر: حاجي خليفة: *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*، المصدر السابق، ج 2، ص1124.

⁵ - ابن خلدون: المصدر السابق، ص214-215.

إذا كانت هذه المؤسسات في صحة جيدة مثل حالة الجسم الإنساني. وعلى الرغم من تأثره بابن خلدون إلا أنه لا يتعصّب له؛ إذ يدّعي أن حياة الدولة أو المجتمع يمكن أن تطول مع الاحتياطات اللازمة¹ هذا التعديل الطبي الذي أدخله جلبي على نظرية ابن خلدون جعل نظريته أكثر منطقية وانسجاماً مع حقائق التاريخ.

باختصار يعتقد كاتب جلبي أن الدول والمجتمعات تماماً مثل البشر، تصل إلى طور الانحطاط بعد تطورها وتوسّعها، إنه يبني فكره السياسي حول إطالة عمر الدولة؛ فإذا كان التضامن الوظيفي بين العناصر المكونة للمجتمع هو ضمان بقائها مع السياسة العقلانية، فإن هذه الدولة أو المجتمع يمكن أن تستمر لسنوات طويلة، ويستمر رعاياها في ظل الرفاهية.

نشر الآن في ترجمة وتحليل مضمون دستور العمل لإصلاح الخلل مبتدئين بالمقدمة: وقبل الشروع في المقدمة يستفتح رسالته باسم الله وتمجيده، ثم يقدم تلميحات عن مضمون عمله بالقول: أن السياسة الشرعية كافية لإصلاح هيكل الدولة، وفي الواقع ما يؤدّ القيام به في دستوره هو تحديد الخلل واقتراح الحلول ضمن الفهم الإسلامي التقليدي للسياسة، إضافة إلى بعض أفكاره الخاصة، ثم يذكر بعد ذلك السبب الذي دفعه لتأليف كتابه؛ إذ يذكر أنه في سنة 1063هـ/1652م يكون قد مرّ 364 سنة على تأسيس الدولة العليّة العثمانية، وكما جرت النواميس الإلهية وطبيعة العمران والاجتماع البشري ظهرت اختلالات وتنافر في هيكل الدولة. بناء على ذلك دعا السلطان إلى اجتماع حضره كبار رجال الدولة وأعضاء الديوان لمدارسة تلك الاختلالات ووضع حلول لها² وقد حضر كاتب جلبي هذا الديوان الهمايوني المهم كواحد من كوادر فئة الكتاب من أهل القلم.

كان السؤال المهم بالاجتماع هو البحث عن سبب العجز في موازنة الدولة، عجز جعل الإيرادات المالية غير كافية لتغطية النفقات العامة المتزايدة للدولة، مما يؤثّر سلباً على الدولة والريّة وقد أشار كاتب جلبي إلى أنّ موازنة الدولة كانت بحالة جيّدة ومتوازنة في آخر سنة من عهد الصدر الأعظم قاره مصطفى كامنكاش³ 1053هـ/1643م، ومنذ ذلك التاريخ تناقصت الإيرادات وتزايدت النفقات

¹ - Hüseyin Gündoğdu: Op.cit, P86.

² - Katip Çelebi: Op.cit, sayfa18.

³ . قاره مصطفى كامنكاش (1592-1644): رجل دولة عثماني من ألبانيا، التحق بفرقة الانكشارية وبلغ فيه أعلى رتبة آغا الانكشارية، ونظراً لمهارته برمي السهام لُقّب بـ (Kemankeş)، ولقب أحياناً بقاره [ومعناها أسود]. تقلد عدة مناصب إلى أن عينه مراد الرابع صدراً أعظم. أسهم في استرجاع بغداد 1639م، واستمر في منصبه خلال عهد إبراهيم، وحافظ على قوة الدولة رغم ضعف سلطتها إبراهيم، وأجرى إصلاحات مالية، أصبحت فيما بعد أساساً للإصلاح المالي. لكن رغم كل =

طُلب من الحاضرين البحث عن حلول لهذه المعضلة ورفعت الجلسة¹.

في هذا الجو المضطرب ذكر حاجي خليفة أنه قرّر بدافع من الواجب الديني أن يساهم في تشخيص ووضع الحلول للإشكال الكبير الذي عُرض بذلك الديوان الهمايوني ليبرئ ذمته يوم القيامة وجعله مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة وأسماء دستور العمل لإصلاح الخلل: المقدمة تضم حديثنا عن الدولة والفصل الأول يتعلّق بالرعيّة، والفصل الثاني عن الجيش، والفصل الثالث عن الخزينة أو المالية والخاتمة عن الحلول المطلوبة للخروج من الأزمة².

ذكر حاجي خليفة في المقدمة (ÖNSÖZ) أنّ الدولة تعني الملكية والسلطنة وهي تتكوّن من مجموعة أفراد تربطهم قواعد، ووفقا للمتعمّقين في أسرار الطبيعة والذين هم على دراية بتفاصيل المعرفة النظرية والعملية فإنّ ما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع، والله قال في كتابه الكريم: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}³، يمهّد كاتب جلبي بهذا لنظرية ابن خلدون في كون الدولة كائن اجتماعي تمرّ بأطوار تماما مثلها مثل الكائن الحي، وهذه الأطوار أو المراحل هي مرحلة النّمو ثم التوقّف ثم الانحدار، وتختلف هذه الأطوار بحسب اختلاف المجتمعات⁴.

يستدعي كاتب جلبي التاريخ لتوضيح اختلاف تلك الأطوار من مجتمع لآخر فقال: في الماضي نجد أن بعض الدول انهارت في فترة قصيرة من طور التوقّف بسبب الكوارث الكبرى، وبعضها - مثل الدولة العليّة - طال طور توقّفها أو ركودها لأنها تستند إلى هيكل قوي ومبادئ متينة، هذه الأطوار الثلاثة لها خصائصها الخاصّة في الأفراد والمجتمعات⁵. فالدولة العثمانية إذا بحسب كاتب جلبي هي على عهده في طور الرّكود أو التوقّف، ولكن ما يجعلها صامدة هو مؤسّساتها القويّة التي تمثّل هيكل الدولة، إضافة إلى الشريعة التي تمثّل مبادئها المتينة، وهو ما أكّده مؤرخون متخصصون أمثال المؤرخ الأمريكي ألبرت هـ. ليبير.

ما قدمه للدولة إلا أن خصومه من حاشية السلطان حرّضوا الأخير على عزله بتهمة تدبير تمرد الجيش عليه، فقام ابراهيم بعزله ثم إعدامه. ينظر:

Abdülkadir Özcan : **KEMANKEŞ MUSTAFA PAŞA**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 25, yıl 2002, sayfa 248-250.

¹ - Katip Çelebi: Op.cit, sayfa 19.

² - Loc.cit.

³ . سورة نوح، الآية 13-14.

⁴ - Katip Çelebi: Op.cit, sayfa 20.

⁵ - Ibid, sayfa 20-21.

يختتم مقدّمته القصيرة تلك بالقول أن الذين تُلقَى على عواتقهم مسؤولية إيجاد حلول للاختلالات المجتمعية عليهم أن يكونوا مدركين بدقّة لطبيعة تلك الأطوار وتلك الاختلالات، وأنّ لكل مرحلة وعهد علاج خاص به، من أجل تصحيح الوضع واتخاذ التدابير اللازمة، ويرى كاتب جلبي أن العلاج ينقسم إلى قسمين روحاني وجسماني، وأنّ عدم المعرفة الصحيحة للمرض حسب كاتب جلبي سينتج عنه إعطاء الدواء غير المناسب؛ فما يصلح للشيخ الهرم لا يستفيد منه الطفل الصغير¹، يبدو أنّ كاتب جلبي يذهب بعيدا في اعتبار أنّ الدولة كائن حي، لذا فهو يتعامل مع المسألة طبيا.

بعد أن وضع الأساس النظري لرؤيته الإصلاحية شرع يؤسّس فوّه معالم رؤيته تشخيصا ومعالجة بداية من الفصل الأوّل الذي عنوانه بحال الرعيّة (REAYANIN DURUMU) يؤصّل في بدايته قاعدة توضّح أهميّة تحقيق العدالة في الرعيّة؛ فالرعيّة أمانة الله عند السلاطين والأمراء ولا يوجد سلطنة بغير الناس، ولا يوجد الناس بغير الجيش، ولا يوجد الجيش بغير المال ولا مال يجمع بغير الناس، وبدون العدالة لا يوجد الناس². بهذه الطريقة لا يبرز أهميّة شعور الرعيّة بالعدالة فحسب ولكن يجرد السلطان من أي معنى للسلطة دون إقامة العدل في رعيّته، ثمّ يشرع بتوضيح أوجه التشابه بين الفرد والدولة في هذه النقطة.

يقوم المجتمع عند حاجي خليفة أو كاتب جلبي على أربع ركائز هي: العلماء والعسكر والتجار والرعيّة، زمرة العلماء المحترمين تمثّل الدم، وهو العنصر الأكثر أهميّة في الجسم، وهو غذاء القلب اللطيف وبسبب لطافة الدم يمكنه الوصول إلى أصغر نقطة في الجسم البشري، وكما يغذي الدم الجسم عن طريق القلب، فالعلماء أيضا هم في قلب المجتمع يغذّونه بعلمهم ومعارفهم، وكما أنّ القلب قادر على ضمان استمرارية الجسم، فإنّ المعرفة قادرة على ضمان استمرارية المجتمع، من أجل ذلك قال يوسف عليه الصلاة والسلام: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۗ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ}³.

يعتبر جلبي العسكر بمثابة البلغم، والتجار هم الصفراء، والرعيّة هم السوداء، فكما أنّ الأمزجة الأربعة (الدم والبلغم والصفراء والسوداء) عندما تكون في توازن يكون الشخص في صحة جيدة، فالركائز الأربعة للمجتمع (العلماء والعسكر والتجار والرعيّة) حين تكون في توازن مع بعضها البعض يكون المجتمع سليما. انسجام تلك الفئات الأربعة مع بعضها البعض بسبب المصلحة المتبادلة يعكس صحّة وسلامة النظام الاجتماعي وهيكل الدولة. وكما لا تتدهور صحّة الجسم ينبغي أن تكون الأمزجة الأربعة

¹ - Ibid, sayfa 21.

² - Ibid, sayfa 22.

³ - Ibid, sayfa 22-23.

متوازنة كَمَّا ونوعاً، وأي مرض أو خلل سيعني وجود فائض أو عجز في واحدة أو أكثر من هذه الأمزجة الأربعة¹.

الرعيّة تمثّل المرة السوداء؛ إذا حدث وفرغت المعدة من الطعام ولم يتغدى الإنسان لفترة من الوقت فإنه من وجهة نظر طبية تشريحية يمكن أن يصبَّ الطِّحَال بعضاً من السوداء حتى لا تبقى المعدة فارغة؛ السلع بمثابة الغذاء للمعدة وهي مغذية أيضاً لخزانة الدولة، فإذا كانت الرعية بحالة جيدة اشترت السلع فتصب بذلك مالا على الخزينة، وإذا كانت الرعية بائسة بسبب سوء معيشتها تضررت الخزينة، من أجل ذلك حرص من مضى من السلاطين على حماية الرعيّة من التّعسف والابتزاز وحمايتها من الظلم وإقامة العدالة فيها وأظهروا لها الرعاية والمحبة². باختصار يريد كاتب جلبي أن يقول: إن عمل الخزانة كمعدة الكائن الحي، تمارس نفوذاً شاملاً على كامل الجسم. إذا كانت الخزانة فارغة بسبب القهر المفرط للرعيّة، فإن الكائن الحي كله سيعاني.

يصف كاتب جلبي خلافاً آخر تسبّب فيه ظلم الرعيّة - والمقصود بالرعيّة هنا بالأساس الفلاحين على اعتبار أنهم كانوا عماد الاقتصاد العثماني - وهو هجرت القرويين والفلاحين بسبب ثقل الضرائب والابتزاز من القرى والمزارع إلى المدن، وزادت التمردات الجلالية³ وما صاحبها من تجنّب كبير على القرويين من وتيرة الهجرة، حتى أنّ محيط إستانبول صار مزدحماً على عهده بأولئك المهاجرين⁴، ولا شك أن هجرة الفلاحين من أراضيهم أضرتّ بالاقتصاد العثماني القائم بالأساس على الفلاحة، وقد ذكر كاتب جلبي أن السلاطين الأوائل لم يسمحوا بهجرة الفلاحين من قرأهم ووقروا كل الظروف المناسبة لبقائهم

¹ - Ibid, sayfa 23.

² - Ibid, sayfa 23-24.

³ . الجلالية هي فئات من الجند السكبان غير النظاميين الذين انتشروا بالأناضول في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، والذين كانوا يعيشون على نهب الأهالي وسلبهم ولا سيما خلال انشغال الدولة بحروبها في بلاد إيران أو شرقي أوروبا، وقد يكون اسمهم قد أتى من ثورة سياسية دينية قام بها رجل يدعى شيخ جلال عام 925هـ/1519م في أماسيه، وقد تزايد نشاطهم بين 1004هـ - 1019هـ/1596م - 1610م ومنذ سنة 1006هـ/1598م كونوا فرقا كبيرة أجبرت المدن في الأناضول على دفع الجزية لهم وسيطروا على مقاطعات سيواس وذي القدرية وقد تراوح عددهم بين 20 إلى 40 ألف متمرد، وكان من نتيجة وجود الجلالية بالأناضول أن ترك الفلاحون أراضيهم خوفاً وبخثوا عن ملجأ في المدن المحصنة، وفرّ السكان الأكثر ثراءً إلى إستانبول والبلقان وحتى القرم، وتسمى حركة الهجرة هذه في التاريخ العثماني بالهروب الكبير، وتبع ذلك انتشار الجماعة، وسبب وجود الجلالية هؤلاء هو تزعزع الحالة الاقتصادية في الدولة العثمانية وفرار عدد من العسكريين من الجيش أثناء المعارك وتوهم خوفهم من العقاب إلى مرتزقة، وإن كان أمرهم ضعف بعد سنة 1020هـ/1611م، إلا أن صفة الجلالية ظلت كناية عن التمرد العسكري في الدولة العثمانية. ينظر: الأقفصاري حسن كافي البوسنوي (ت1025هـ): أزهار الروضات في شرح روضات الجنات، تح: علي أكبر ضيائي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ص352.

⁴ - Katip Çelebi: Op.cit, sayfa 24.

في أراضيهم، وضرب كاتب جلبي مثالا بمنع السلطان سليمان القانوني الفلاحين بالهجرة عن قراهم وفي حالة ما إذا رغب بزيادة سكان إستانبول كان ينقل إليها السكان من بلغراد التي فتحها سنة 927 هـ/1521م¹.

لجأ كاتب جلبي إلى أسلوب المقارنة للتدليل على كارثة هجرة القرويين إلى المدن تاركين الأراضي الفلاحية بغير عمالة مما أضّر بالاقتصاد العثماني؛ حيث قارن بين الدولة العثمانية وبين عدوها الشرقي اللدود الدولة الصفوية؛ قال كاتب جلبي: سافر كاتب هذا العمل - يقصد نفسه - في الأراضي العثمانية لمدة اثني عشر عاما ابتداء من سنة 1045هـ/1635م، وقد خربت العديد من القرى التي زارها، بينما كان مستبعدا رؤية قرية واحدة مهجورة في دولة فارس على مراحل بين همدان وأصفهان مع أنّها في نهاية طور الركود أو التوقف²، موقفه الانتقائي في اختيار العينات التاريخية مقصود؛ فاختيار الدولة الصفوية يستفز من يقصده بكتابه هذا ويدعوه للإصلاح.

تدهور الريف العثماني إذا بحسب الملاحظة الميدانية لكاتب جلبي كان واضحا للعيان، والسبب حسب كاتب جلبي هو الزيادة الضريبية الضخمة التي أرهقت القرويين، غير أنّ الذي جعل الضريبة تزيد بهذا الشكل التعسفي هو أنّ المناصب بيعت بأثمان باهضة، مما أدى إلى انخفاض مستوى الولاء والنزاهة في الخدمات العامة، وأجبر ذلك المشتريين على ابتزاز الفلاحين من أجل استرداد أموالهم³، زيادة الضرائب لم يكن فقط بسبب الدولة، فقد لعب المتمرّدون "الجلالية" دورا أيضا في زيادة أعباء الرعية.

ذكر جلبي أنه في الماضي تم فصل المسؤولين أو نفيهم أو حتى إعدامهم بتهم الفساد؛ ولكن الآن هذه الممارسات اللعينة، المخالفة للفطرة السليمة والدين، والتي حظرت حتى من قبل الملوك الكافرين أصبحت أساس إدارات الدولة، في الماضي كان المجترئ على هذه الأفعال متخفيا وخائفا، أمّا الآن أصبحت هذه الممارسات علنية ومستشرية، أفلست الخزينة وضعفت معنويات الجيش، وبينما كان الكفار يفرون من جنود الإسلام يحدث العكس الآن، لذلك إذا لم يتم التخلي عن التعسف في فرض الضرائب والبيع الضار للمناصب والعودة إلى إقامة العدالة المفقودة والتراجع عن الأخطاء فالأكيد أن لعنة عصيان الشريعة وانتشار الظلم والقهر سيدمر الدولة وإنا لله وإنا إليه راجعون⁴.

الفصل الثاني خصّصه كاتب جلبي للجيش وعنوانه: حالة العسكر (ASKERİN DURUMU)

افتتحه بالتذكير بنظرية الأخلاط الأربعة فقال: كما ذكر سابقا يتكون الجسم من أربعة أخلاط كل منها

1 - Loc.cit.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4 - Ibid, sayfa 25.

يعادل ففة في المجتمع؛ العسكر مميزاتهم مماثلة ومساوية للبلغم بالجسم؛ فالجسم يحتاج إلى البلغم فهو يؤدي دورا مفيدا وضروريا، ولكن زيادته عن حد الاعتدال مضرة بالجسم، كذلك العسكر يؤدي دورا مهما ومفيدا للمجتمع غير أن زيادة عدده بغير ضابط مضرة¹، وشواهد هذا الضرر في التاريخ العثماني كثيرة جدا، حتى أن بعض أخطر ضررها أودى بقتل أول سلطان عثماني بيد جيشه.

توازن الأخلاط الأربعة يؤدي إلى صحة الجسم، وكذلك استقرار الدولة مرتحن بتوازن تلك الفئات أو الركائز الأربعة من الناس، وعلى الرغم من أن التوازن لن يكون تاما، إلا أنه لا يجب أن يختل بدرجة كبيرة تؤثر على صحة وهيكل الجسم؛ عندما يكبر الإنسان فإن زيادة الرطوبة والبرودة والبلغم أمر طبيعي، فمع الشيخوخة يزداد البلغم، غير أنه في كل مرة يتم خفضه يحدث حيوية جديدة، وإذا لم يخفض تميل بقية الأخلاط إلى التحول إليه - أي إلى البلغم - فوظيفتنا إذا ليس القضاء على البلغم فذلك غير ممكن، بل محاولة السيطرة عليه لتلا يكون مؤذيا².

بعد توضيحه لدور البلغم في الجسم والاختلالات المترتبة حال زيادته على مستوى فيزيولوجية الجسد، أسقط ما يحدث بالكائن البشري على الكائن الاجتماعي - الدولة - من حيث اعتبار الجيش بلغم الدولة؛ من علامات شيخوخة الدولة الزيادة المفرطة للجيش، وقد يهدر الكثير من الجهد للحفاظ على مستوى أقل للجيش كما هو الأمر في حالة البلغم، وسوف ينمو مرة أخرى حتما بالنظر إلى طبيعة المرحلة، ما نأمل هو جعل تعداد الجيش تحت السيطرة لدفع ضرره³.

يعود كاتب جلبي ليستمد من التاريخ القريب عبرة للمستقبل المأمول؛ يروي لنا كيف حاول الصدر الأعظم قاره مصطفى كامنكاش بجد خفض عدد القوات المدفوعة الأجر ليصل إلى مثل عددهم زمن السلطان العظيم سليمان القانوني؛ ففي زمن السلطان سليمان القانوني بلغ تعداد هذه القوات سنة 970هـ/1562م 41.479 عسكري، وبلغت رواتبهم 122,300,000 أقة، ليرتفع العدد سنة 974هـ / 1566-1567م إلى 48.316 عسكري بتكلفة 126,400,000 أقة؛ ليصل في عهد مراد الثالث سنة 997هـ / 1588-1589م إلى 64,425 عسكري مقابل 178,200,000 أقة. وفي سنة 1004هـ / 1595-1596م إلى 81,870 عسكري بتكلفة 251,200,000 أقة؛ وفي سنة 1018هـ / 1609-1610م إلى 91,202 عسكري بتكلفة 310,800,000 أقة؛ وتحت حكم عثمان الثاني (1618-1622م) ومصطفى الأول

¹ - Ibid, sayfa 26.

² - Loc.cit.

³ - Ibid, sayfa 27.

(1617-1618م) ارتفعت القوات إلى 100,000 عسكري، وبعد ذلك بذلت محاولة جادة لتقليل أعدادهم نهاية حكم السلطان مراد الرابع، فانخفض في عهد صدره الأعظم مصطفى كمنكاش سنة 1050هـ/ 1640-1641م إلى 59,257 عسكري، بتكلفة 263,100,000 آقجة ومع هذا التحسن الكبير إلا أنه كان أكثر من السابق¹.

يفهم مما ذكر أعلاه - يتابع كاتب جلبي - أنه من غير المجدي إضاعة الوقت في محاولة الوصول إلى ذات أعداد الجيش التي كانت في زمن السلطان سليمان القانوني، ما ينبغي فعله الآن هو الحفاظ على تكلفة معقولة وذلك بخفض عدد السباهية إلى حدود 20.000 رجل والإنكشارية إلى حدود 30.000 رجل، مع إمكانية زيادة أو خفض فائض المرتبات بمراعاة القانون القديم واتخاذ التدابير اللازمة، وختم هذا الفصل القصير بثقته في أنّ تخفيض عدد القوات المدفوعة الأجر والحفاظ على تكلفة معقولة سيفيد الدين والدولة².

خصّص كاتب جلبي الفصل الثالث والأخير للخزانة عنوانه: حالة الخزينة (Hazine) Durumu)، وبرؤية إسقاطيه تُناظرُ بين الميدان الطبي والميدان الاجتماعي يشرح لنا كاتب جلبي دور الخزينة باعتبارها معدة الكائن الاجتماعي؛ فالسلطان في الدولة يمثل النفس الناطقة، والوزير يمثل قوّة العقل، في حين يمثّل شيخ الإسلام القوّة المدركة، أما الطبقات الأربعة فتمثّل كما ذكر سابقاً الأخلاط الأربعة، وتمثّل سلطة الخزينة قوّة الامتصاص في الجهاز الهضمي؛ فيقوم المصرفيون مقام قوّة الذوق أو الذائقة - من التذوق - وجباة الضرائب مقام قوّة جذب الطاقة، والخزينة مقام القوّة القابضة ووزير المالية أو الدفتدار والكتبة مقام قوّة الهضم في جسم الانسان، وهكذا فإن الطعام المرسل إلى الخزينة تشارك في هضمه جميع تلك القوى بشكل متوازٍ لتوزيعه بعد ذلك لجميع شرائح المجتمع وتستفيد جميع الركائز الأربعة من المال³.

ينتقل كاتب جلبي بعد ذلك بمنظار الطبيب ليصوّر الخلل الذي يضرّ بالتوازن فقال: إذا تضرّرت المرة السوداء - الرعيّة - بغلبة بقيّة الأخلاط الأربعة عليها، ستبقى المعدة فارغة وكذلك الخزينة وإذا فقدت قوى المعدة توازنها فإنّ ذلك سيعود بالضرر الوبيل على المعدة: نفس الشيء يحدث بالكائن الاجتماعي أي الدولة؛ إذا اضطهدت الرعيّة - والمقصود بالرعيّة بالأساس الفلاحين - ستفرغ الخزينة؛ وإذا دخلت الطبقات الأربع في صراع مع بعضها البعض فإن الدولة تتضرّر، والقوى البشرية المذكورة

¹ - Katip Çelebi: Op.cit, sayfa27.

² -Ibid, Sayfa27-28.

³ - Ibid, Sayfa 29.

أعلاه تكون نشطة وقوية حتى نهاية طور التوقّف ومن ثم تبدأ في الضعف تدريجياً، ونتيجة لذلك تبدأ مشاكل الهضم بالظهور؛ وهذا يتزامن مع بقية علامات الشيخوخة¹.

كما أنّ من علامات الشيخوخة في الكائن الحي تحوّل الشعر واللحية إلى البياض بتأثير الشيب فنظيره بالكائن الاجتماعي - يعود كاتب جلبي هنا إلى نظرية ابن خلدون في ضعف الدولة عند حصول الترف² - غلبة المظاهر البراقة؛ فتتبدى شيخوخة المجتمع في انتشار مظاهر الأبهة والترف وتنتشر الألقاب في كل مكان، إذ يبدأ خاصّة وأعيان المجتمع بالتوسّع في الكماليات من لباس ومتاع وألقاب وزينة، وتقلّد العامة خاصّة وأعيان الناس في ذلك بحيث تتزايد نفقات الأفراد فتتمو نفقات الخزينة بشكل مستمر وغير متناسب مع دخلها³.

يقدم كاتب جلبي الدليل بالأرقام غير مكتفياً بالتنظير فالمنطق الإحصائي مقنع في الحجاج؛ في سنة 972هـ/1564م بلغت إيرادات الخزينة العامة 183,000,000 آقجة، بينما كانت النفقات 189,600,000 آقجة، وفي سنة 1000هـ/1591م كانت الإيرادات 293,400,000 آقجة بينما بلغت النفقات 363,400,000 آقجة، وبعد حوالي خمس سنوات بلغت الإيرادات سنة 1006هـ/1597م 300,000,000 آقجة، بينما بلغت النفقات ضعفي ذلك 900,000,000 آقجة، في عهد مراد الرابع بلغت النفقات 600.000.000 آقجة تم تخفيض ذلك مقارنة بالإيرادات سنة 1053هـ/1643م إذ كانت الإيرادات 361,800,000 آقجة بينما النفقات 500,500,000 آقجة، وفي سنة 1060هـ/1650م بلغت الإيرادات 532,900,000 آقجة والنفقات 687,200,000 آقجة. حالياً يهدر من الدخل أكثر من 160.000.000 آقجة، ذكر كاتب جلبي بعد إحصاءاته تلك أن الحفاظ الدائم على توازن الخزينة عن طريق خفض النفقات وزيادة الدخل أمر صعب للغاية، وقد يعتبره أهل الخبرة مستحيلًا إلا إذا تم فرضه بقوة حكيمة، حتى ذلك الحين فإن اتخاذ تدابير لتوازن مؤقت للأزمة المالية سيكون مفيداً⁴.

من أجل إيقاف التدهور في بنية الدولة، وإيجاد حل لعجز الميزانية وحل مشكلة الزيادة المفرطة في القوات المدفوعة الأجر، فإنّ كاتب جلبي يرى أولاً كمرحلة أولى تسكين الجبهة الخارجية أي عدم

¹ - Ibid, Sayfa 29-30.

² . عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً يناقش فيه ذلك؛ الفصل الثالث عشر في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم. ينظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص210.

³ - Katip Çelebi: Op.cit, sayfa 30.

⁴ - Loc.cit.

خوض حروب والتركيز على الجبهة الداخلية، بعد ذلك يذكر كاتب جلبي بأن هناك العديد من الطرق لتصحيح الأمور، ولكن بعض هذه الحلول مستحيل في ظل الظروف الراهنة، والحلول والتدابير الممكنة تحتاج إلى قوّة حكيمة مؤمنة لتنفيذها؛ تلك القوّة تتمثل في وجود الشخص المناسب القوي صاحب السيف (sâhib-i seyf) الذي سيخضع الناس لنهج الطريق المستقيم؛ ثانياً يجب على أعيان الدولة (ayan-ı devlet) أن يفهموا أن السلطان الحقيقي هو الله، والرعيّة والخزينة والجيش ملكه فإذا خضعوا لله واستسلموا له فإنهم سيتصرفون بالحق والعدل وسيتمكنون من إدارة شؤون الدولة بفعالية ثالثاً يجب على الجيش طاعة ضباط ذوو خبرة وولاء تام للدين والدولة، وتحت إرشادهم يحمون الدولة من الخونة والأشقياء كما كانوا يفعلون في الماضي، رابعاً يجب على الصدر الأعظم أي وكيل الدولة (vükela-yı devlet) العمل بحكمة وانسجام للحد من النفقات واستخدام قوّة الجيش كأداة لإنفاذ الشؤون العامة¹.

هذه التدابير في هذه اللحظة تبدو سهلة وبسيطة ولكن من الصعب تطبيقها فهي من قبيل السهل الممتنع (sehl-i mümteni)، لأن هناك عدد قليل جداً من الذين يؤيدون فرض النظام ويكثرثون لإقامة الحق والعدل، وغالبية الأعيان ورجال الدولة يسعون لمصالحهم الخاصة، وبالتالي لا يمكن فرض النظام إلا بوجود شخص حكيم مقتدر، إذا وجد الحاكم الحكيم المتيقظ المستعين بالله فمن الضروري أن يتخذ الاحتياطات اللازمة التي يتعين اتخاذها في شؤون الدولة والبدء في العمل فوراً²، بمعنى أنّ كاتب جلبي يجعل - وهو محق - مناصب الإصلاح كله بيد قوة مقتدرة حكيمة هي السلطان القوي المقدر الحكيم.

قال كاتب جلبي في الخاتمة (SONSÖZ): اليوم دخلت الخزينة قليل، عدد القوات العسكرية كثير الرعية ضعيفة وفقيرة وليس بإمكانها اليوم تحمّل المزيد من الضرائب لصالح الخزينة، يجب على السلطان منح إيراد سنة واحدة لوزير موثوق به من حاشيته، على وعد مسبق بتسديده تدريجياً من دخل السنوات القادمة، هذه المنحة ستعطيه قوة كبيرة، فببإشراف هذا الوزير بالخفض التدريجي الحكيم لعدد القوات العسكرية، ومراجعة السياسة الضريبية، وتخفيض الرواتب العسكرية، وفيما يتعلّق بالنفقات الزائدة يجب تخفيض الموظفين الحكوميين وإعطاء المناصب لأهل الأمانة والثقة (emanetlerde olan) وبهذا تحلّ مشكلة الإسراف في النفقات في غضون السنة أو السنتين، وأخيراً يجب إنهاء الممارسات التّعسفية ضد الفلاحين وتخفيض ضرائبهم بشكل كبير، وذلك بإسناد المناصب ذات الصلة لأهل الخبرة

¹ - Ibid. Sayfa 31.

² - Ibid, Sayfa 32.

الذين لن يقبلوا الرشاوى؛ وعلاوة على ذلك يجب ضمان هذه التعيينات لفترة طويلة، من شأن ذلك أن يجلب الازدهار مرة أخرى للدولة العثمانية العليّة¹.

ينهي كاتب جلبي رسالته الصغيرة دستور العمل لإصلاح الخلل برسالة أمل سماها تنبيهه وتبشير (TENBİH VE TEBŞİR) فقال؛ إنّ هذه الأزمة ليست جديدة في تاريخ هذه الدولة العظيمة؛ فإن التجربة التاريخية تبين أن للدولة العثمانية القدرة على معالجة نفسها بعد الكوارث التي تبدو مأساوية كما حدث بعد هزيمة تيمورلنك أو تمرد الجلالية؛ إذ حين اتخذت التدابير اللازمة بعناية فائقة تم تجاوزها وإذا تم اتخاذ التدابير المناسبة سيتم أيضا تجاوز هذه الأزمة، حضرة السلطان مأوى العالم ومصدر القوة والرفاه، طالما رجال الدولة متحدين في خدمة الدين والدولة ويعملون وفق توجيه الشرع، فبعون الله سبحانه وتعالى ستكون منتصرا متفوّقا على الأعداء، إذا اجتنب الظلم والحيدة عن الحق وتمّ العمل وفق القانون سيتم إنقاذ الدولة العليّة من الخيانة ووضعها في مسار القانون، ويجعلها الربّ العظيم قويّة آمين².

المؤلف في رسالته الصغيرة تلك لا يحاول لفت الانتباه إلى سعة علمه أو مقدرته في تناول الإشكال المراد معالجته؛ فهو لا يبالي في إطراء أو تملق السلطان أو الوزير ولا يبالي في انتقادهم، وبدلا من ذلك فهو يحاول الحديث بموضوعية ومسؤولية، وعلى الرغم من الصيغ التقيية التي ينهي بها كاتب جلبي رسالته غير أنّه من الواضح أن آماله في النجاح كانت ضئيلة على أرض الواقع³، ربما بسبب معرفته بضعف شخصية السلطان محمد الرابع، وفساد الكثير من رجال حاشيته، سيما أنّه يجعل الإصلاح برمته رهن بوجود سلطان قوي.

إدراكه أنّ الحلول تقتضي رجل دولة قوي مردّه إلى قُربه من مراكز صنع القرار، إلى جانب معاشته لتجربة السلطان مراد الرابع الذي أحيا الدولة العثمانية بقوّته وحزمه من جديد، وأمام ناظره أيضا تجربة الصدر الأعظم مصطفى كمنكاش، كل ذلك جعله يركّز على وجود شخص حازم صاحب السيف (sâhib-i seyf) لتنفيذ إصلاحاته وإصلاحات غيره.

لم يرفع كاتب جلبي رسالته دستور العمل لإصلاح الخلل للسلطات إذ لم يشعر حينها بمجديّة رجال الدولة في الإصلاح، ويذكر كاتب جلبي في كتابه فذلك أنّه بعد ثلاث سنوات من تأليف كتابه دستور العمل لإصلاح الخلل أي سنة 1066هـ/1656م، أخذه منه شيخ الإسلام حسام زاده عبد الرحمن

¹ - Ibid, Sayfa 33.

² - Ibid, Sayfa 34.

³ ففي مقال آخر من مصنّفاته (فذلكة)، يعلق على ما ذكره في رسالة دستور العمل قائلا: "بما أنني كنت أعرف أن استنتاجاتي ستكون صعبة التطبيق لم أثير أي جديد حولها. ولكن سيدرك السلطان مستقبلا أنّ تطبيق تلك الاستنتاجات والحلول سيعطيه أفضل النتائج". ينظر: Bernard lewis: Op.cit, P220.

أفندي¹ لكن كاتب جلبي لم يعلق آمالا كبيرة بتطبيق توصياته في المدى القريب².

تشدد رسالة كاتب جلبي القصيرة في الواقع على الإصلاح المالي؛ ومع ذلك فإن قيمتها الرئيسية تكمن في عرض الأفكار السوسولوجية لكاتب جلبي، والتي تتضمن محاكاة طبية جديدة للمجتمع البشري، وتعريف رائد للدولة، وأول مقدمة منهجية للمفهوم الخلدوني عن مراحل الدولة في فلسفة التاريخ العثماني³، غير أنّ كاتب جلبي المتأثر بابن خلدون تجاوز بعقلية طبية الحتمية التاريخية لابن خلدون في مراحل الدولة وحتمية الانهيار، إلى الحديث عن آليات زيادة عمر كل مرحلة باتخاذ التدابير اللازمة والمناسبة لكل مرحلة من مراحل الدولة.

اعتمدت الاصلاحات والتدابير التي طرحها كاتب جلبي في دستوره من بعده من قبيل كُتّابٍ إصلاحيين آخرين، في الواقع إذا كان كاتب جلبي قد قرّر أن تنفيذ الإصلاحات والتدابير الكفيلة باستعادة قوة الدولة لا تكون إلا على يد حاكم مستبد، فإن الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا 1066هـ-1072هـ/1656م-1661م كان هو ذاك الحاكم المستبد الذي تمناه كاتب جلبي والذي استطاع استعادة هيبة وقوة الدولة داخليا وخارجيا⁴، ولربما يكون كوبرلو وخلفاؤه الأقوياء من عائلته قد اطلعوا على رسالة كاتب جلبي، إذ أن كثير من إصلاحاتهم تتوافق مع رؤاه.

استمرّ أدب نصائح الملوك بعد كاتب جلبي⁵، واضطلع الكُتّاب وغيرهم بمهامهم في النصح والتوجيه إدراكا منهم وفقها للواقع الذي انحدرت إليه الدولة العثمانية، محاولين ما وسعهم الجهد إعطاء

¹ . عبد الرحمن بن حسان الدين المعروف بحسام زاده الرومي (ت 1081هـ): شيخ إسلام الدولة العثمانية، كان عالما متبحرا. اتصل بالسلطان مُراد الرابع فقربه إليه، ومنه تعلّم السلطان رمي السهام. ولم يزل مشمولاً بعنايته وهو يترقى في المناصب، حتى عين شيخا للإسلام سنة 1065هـ/1655م، ثم عزل عن منصبه الرفيع هذا سنة 1066هـ/1657م، ثم ولي قضاء الجزيرة بمصر، وأقام بها مدة حياتة مُعظما مبعلا وكان كبراء مصر وعلماءها يهرعون إليه ويعظمون حضرته، وتوفي بمصر. ينظر: الحجي: المصدر السابق، ج 2 ص 351-357، بتصرف.

² - Orhan Şaik Gökyay: **Düstürü'l-amel**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 10, 1994, sayfa 50.

³ - Kâtib Çelebi: **Düstürü'l-amel (Course of measures), A History of Early Modern Ottoman Political Thought, 15th to Early 19th Centuries**, <http://ottpol.ims.forth.gr/?q=content/d%3%BCst%3%BCr%3%BC%E2%80%991-amel-course-measures> .

⁴ - Orhan Şaik Gökyay: Op.cit, Sayfa 51.

⁵ . من الرسائل التي ألّفت كتاب الدر النضير في آداب الوزير ألفه الأديب جاد الله الغنيمي (ت 1101هـ) لأحد وزراء الدولة العثمانية بمصر، وقد كان لفئة الكتاب من أهل القلم في القرن السابع عشر الميلادي دور في التأليف التاريخي إذ أنّ أي حديث عن الإصلاح لا يجب أن يغفل التاريخ؛ فألّف وجهي الكاتِب (ت 1071هـ) كتابا في التاريخ العثماني من سلطنة مُراد الرابع إلى زمانه، وصنّف رئيس الكتاب حسين أفندي البوسنوي (ت 1054هـ) كتاب بدائع الوقائع في التاريخ.

أجوبة مقنعة للأزمة الوجودية التي وصلت إليها الدولة العثمانية العليّة خلال القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر الميلادي وما بعده.

عرضنا في هذا المبحث رسالة "دستور العمل لإصلاح الخلل" وهي رسالة مهمة لأحد أعلام فئة الكتاب من أهل القلم، الشهير حاجي خليفة أو كاتب جلبي، وهي استمرار لأدب نصائح الملوك استعملت فيها مرة أخرى الأرقام والإحصائيات مع الشواهد التاريخية لتكون أكثر إقناعاً لأولي الأمر عالج فيه معتمد على نظرية ابن خلدون في أعمار الدول، منقحا للنظيرة من وجهة نظر طبية لتجاوز الحتمية الخلدونية، مستعينا بنظرية الأخلاط الطبية الأربعة لأبي قراط، وهي نظرية تجاوزها الطب الحديث بعد القرن التاسع عشر الميلادي، خاتما رسالته برسالة أمل بأن الدولة العثمانية قادرة على تجاوز محنته كما فعلت على الدوام، صحيح أنّ كاتب جلبي لم يرفع تقريره للسلطان، لأنه أدرك وهو أحد رجالات الدولة أن السلطان محمد الرابع ضعيف وحاشيته لا خير فيها، ولكن جهده لا شك أنّ تم الإطلاع عليه من طرف بعض رجال الدولة على الأقل بما أنه أعطاه لشيخ الإسلام عبد الرحمن بن حسان الدين المعروف بحسام زاده الرومي

نتناول في المبحث الرابع رسالتان مهمتان لرجلين من فئة الكتاب لم يكن عملهما خالصا في أدب نصائح الملوك ولكن بُنيت النصائح في عملهما ضمن سياق تاريخي؛ الأولى لحسين هزارفن أفندي ورسالته "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"، والثانية لمصطفى نعيما "روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين" المعروف بـ "تاريخ نعيما".

المبحث الرابع: المؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما

ترجمة حسين هزارفن

تقديم كتاب "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"

عرض مضمون "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"

ترجمة نعيما مصطفى

تقديم كتاب "روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين"، المشهور بـ "تاريخ نعيما"

عرض مضمون "تاريخ نعيما"

نسلط الضوء في هذا المبحث على اثنين من المؤرخين العثمانيين البارزين وكلاهما من فئة الكتاب من أهل القلم وكلاهما كانا على اتصال بالحضارة الأوروبية من خلال الترجمة أو الصلة بشخصيات أوروبية عاشت بإستانبول، وميزتهما هنا أنهما جعلتا نصائحهما الإصلاحية المدرجة ضمن أدب نصائح الملوك في تلافيف مصنفاتهما التاريخية، الأول منهما هو حسين هزارفن والثاني هو نعيما مصطفى.

ترجمة حسين هزارفن

ولد حسين بجزيرة كوس (İstanköy)¹، والده يدعى جعفر، ويذكر في بعض المصادر بأنه حسين بن جعفر الكوسي الشهير بهزارفن، تلقى تعليمه بكوس، ثم رحل في سن مبكرة إلى إستانبول حيث أكمل تعليمه، ثم عمل لفترة مع مترجم الديوان الهمايوني الشهير علي أفقي باي²، فاسترعى بنباهته رجال الدولة؛ فدخل في خدمة الصدر الأعظم كوبرولو فاضل أحمد باشا، ورافقه في حملة جزيرة كريت وشغل على الأرجح في تلك الفترة وظيفة أمين الكتاب ثم ما لبث أن ترك الخدمة الحكومية، وتفرغ للعلم والتدريس، وأظهر اهتماما خاصا بالمصادر المعرفية الغربية نظرا لمعرفته باللغة اللاتينية واليونانية؛ وباستخدام هذه المصادر أجرى دراسات حول التاريخ اليوناني والروماني والبيزنطي³.

جمعت صدقات مع بعض المثقفين والمستشرقين والسياسيين الفرنسيين أبرزهم أنطوان غالان الذي كان في خدمة سفير فرنسا لدى السلطان محمد الرابع شارل ماري فرانسوا أولي (Charles Marie François Olier)⁴، وقد دعي حسين أفندي عدة مرات لتناول العشاء بمقر السفارة، وأهدى كتابه

1. جزيرة كوس بالتركية (İstanköy) هي إحدى الجزر اليونانية التي تشكل جزءاً من مجموعة جزر الدوديكانيسيا، خضعت للدولة العثمانية طيلة 387 سنة؛ من سنة 1525م إلى سنة 1912م. وهي موطن الطبيب الإغريقي أبقرات. ينظر:

Aleksandr Petrovich Kazhdan: **The Oxford Dictionary of Byzantium**, Vol2, Oxford University Press, New York, USA, 1991, P1150.

2. علي أفقي باي (1610-1675م): شهرته قبل اسلامه هي ووجسيتش بوبوسكي (Wojciech Bobowski) واسمه البولوني هو (Albertus Bobovius)، وهو موسيقار ومترجم عثماني شهير، من أسرة بولونية بروتستانتية نبيلة، تم أسره من طرف أمراء تتر القرم المسلمين ونقل إلى القسطنطينية حيث عمل ضمن خدم السلطان مراد الرابع، واعتنق الإسلام وأصبح اسمه علي أفقي باي عين رئيسا للمترجمين في ديوان السلطان محمد الرابع، كان يتقن ستة عشر لغة. ترجم الكثير من الكتب. حوالي سنة 1657م أصبح حرا وسافر إلى مصر عاش بها لبعض الوقت ومن المرجح أيضا أنه حجّ إلى مكة المكرمة. ينظر:

Cengiz Şişman: **The Burden of Silence: Sabbatai Sevi and the Evolution of the Ottoman-Turkish Dönmes**, Oxford University Press, USA, 2015, P80.

3 - Mücteba İlgürel: **Hezarfen Hüseyin Efendi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 17, 1998, sayfa 544.

4. شارل فرانسوا (1632-1685): مستشار الملك الفرنسي، ثم سفيرا لبلاده بالقسطنطينية سنة 1673م. كان رجل سياسة وعلم انتهت سفارته سنة 1678م. ينظر:

Emmanuel Michel : **Biographie du Parlement de Metz**, Nouvian, Metz, France, 1855, P392.

تنقيح تواريخ الملوك للسفير الفرنسي، وكانت لحسين هزارفن علاقات مع الكثير من رجالات دول أجنبية أخرى استفاد من ثقافتهم ومكتباتهم، يعتبر حسين أفندي من مريدي الطريقة النقشبندية، توفي على الأرجح سنة 1103هـ/1691م¹.

ربما يكون حسين هزارفن ثاني مثقف عثماني استفاد من المصادر الغربية بعد كاتب جلبي وقد ترك لنا هزارفن الأعمال التالية:

1. تلخيص البيان في قوانين آل عثمان.
2. تنقيح تواريخ الملوك: وهو عبارة عن تاريخ عام مختصر، وهو يضم مقدمة وتسعة فصول وخاتمة، حيث اعتمد على المصادر اليونانية في كتابة ما يتعلق بالتاريخ اليوناني والروماني والبيزنطي كما استفاد من المصادر اللاتينية واستعان بهذا الصدد بكل من باش ترجمان² الديوان الهمايوني بانايوت أفندي³ والمترجم الثاني علي أفقي باي⁴.
- اكتمل تنقيح التواريخ سنة 1083هـ/1673م؛ بالفصل السادس الذي يتعامل مع التاريخ اليوناني والروماني، ويتعرض لبعض الفلاسفة اليونانيين. والفصل السابع وفيه حديث عن القسطنطينية منذ نشأتها مروراً بالعهد البيزنطي. والفصل الثامن وبه حديث عن آسيا والصين والفلبين وجزر الهند الشرقية الهند وجزيرة سيلان (سريلانكا حالياً). والفصل التاسع وفيه حديث عن اكتشاف أمريكا⁵.
3. أنيس العارفين ومرشد السالكين: هو مجموعة قواعد حول الأخلاق والسياسة في قصص قصيرة ألفت سنة 1090هـ/1679م. يوجد منها نسختان واحدة بالفاتيكان، والأخرى بالمكتبة السلিমانيّة بإستانبول.
4. جامع الحكايات: تضم 38 حكاية يوجد منها نسخة بمكتبة متحف قصر طوب قابي.

¹ - Mücteba İlgürel: Op.cit, Sayfa 544.

² . باش ترجمان Baştercüman: كان الديوان الهمايوني به عدد من المترجمين لمختلف اللغات، يقومون بالترجمة بين أركان الدولة وسفراء الدول الأجنبية، بالإضافة إلى ترجمة دعاوى وشكاوى المواطنين الذين يتحدثون بمختلف اللغات، وكان المشرف على هؤلاء المترجمين يطلق عليه باش ترجمان. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 54.

³ . بانايوت أفندي (Panayot Efendi) (1613-1673م): واحد من أهم الشخصيات اليونانية الفنارية نسبة لمنطقة الفناري بإستانبول التي سكنها اليونانيون والتي لعبت أدواراً مهمة في الإدارة العثمانية بداية من القرن السابع عشر سيما فيما يخص الترجمة وهو أول فناري شغل منصب كبير المترجمين في الديوان الهمايوني من سنة 1663م إلى وفاته. وقد عمل سابقاً كمترجم لعائلة هابسبورغ (Habsburg) بإستانبول، وكان يملك مكتبة عامرة بالمخطوطات حسده عليها وزير فرنسا كولبير (Colbert). ينظر:

Franz Pöchhacker: **Routledge Encyclopedia of Interpreting Studies**, 1Edt, Routledge, the Taylor & Francis Group, New York, 2015, P123.

⁴ - Mücteba İlgürel: Op.cit, Sayfa 544.

⁵ - Bernard lewis: Op.cit, P122.

5. محاسن الكلام والحكم في شرح اسم الله الأعظم: كتاب في التصوّف، وهنا ذكر المؤلف أنّه من أتباع الطريقة النقشبندية.
 6. الرسالة الحكمية.
 7. شرح اللمعة النورانية في الأوراد الربانية.
 8. تحفة الإرب النافعة للروحاني والطبيب.
 9. لسان الأطباء في لغة الدواء: كتاب طبي يتكون من جزأين: الجزء الأول به مصطلحات طبية من العربية إلى التركية، والجزء الثاني به مصطلحات من التركية إلى العربية.
 10. ترجمة لغة الهند: هو قاموس تركي فارسي هندي.
 11. تلخيص البيان في تخلص البلدان: هو عمل تاريخي مكوّن من 32 فصلا فيه حديث عن الدول الإسلامية ومشاهير الحكام، كتب بلغة بسيطة حتى يسهل فهمه على الجميع، وتوجد منه نسخة بمكتبة أتاتورك بلدية إستانبول¹.
- قام حسين إلى جانب تلك الأعمال بترجمة كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار (ت646هـ)، إلى جانب كتابة ذيل على كتاب تقويم التواريخ لكاتب جلبي².

تقديم كتاب "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"

فيما يتعلّق بمؤلّفه موضوع مبحثنا هذا بعنوان "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان" فقد كتبه حسين أفندي بناء على طلب من السلطان محمد الرابع ربما سنة 1079هـ/1669م³، وقد قضى حسين أفندي في تأليف كتابه قرابة الخمس سنوات إذ أمّته في بدايات سنة 1086هـ/1675م. استحسن أحد أعلام ذلك العصر قاضي العسكر عزّي محمد أفندي الفلبي⁴ كتاب تلخيص البيان في قوانين آل عثمان، وقام بتقريبه، وفيما يتعلّق بالمصادر الأساسية التي اعتمدها هزرفن في كتابه تلخيص البيان فهي: كتاب آصف نامة للطفي باشا، كتاب قوانين آل عثمان مؤذن زاده عين علي

¹ - Mücteba İlgürel: Op.cit, Sayfa 545.

² - Mücteba İlgürel: Op.cit, Sayfa 545.

³ - M. Fatih Çalışır: "Decline of a Myth: Perspectives on the Ottoman Decline", Tarih Okulu, Sayı 9, Türkiye, Ocak-Nisan 2011, sayfa 46.

⁴ . عزّي مُحَمَّد بن لطف الله بن بيرام زاده زكريا أفندي الشهير بشيخ مُحَمَّد العربي (1039-1092هـ): تولى جده بيرام زاده زكريا أفندي مشيخة الإسلام بالدولة العثمانية، وبعد وفاة أبيه القاضي لطف الله كفله عمّه شيخ الإسلام زكريا زاده يحيى أفندي. اشتهر باسم شيوخه ثم باسم عزّي، كان السلطان مراد الرابع يسأل عنه عمّه كثيرا ويرسل له الهدايا. تولى التدريس والقضاء، وكان مقربا عند السلطان محمد الرابع. ينظر: المحي: مصدر سابق ج4، ص131، 142. بتصرف.

أفندي¹ وكتاب دستور العمل في إصلاح الخلل لكتاب جلبي².

ترجم كتاب تلخيص البيان في قوانين آل عثمان إلى الفرنسية من طرف بوتي دو لاكرو ونشر بباريس سنة 1106هـ/1695م، ونشرت مقتطفات منه باللغة الألمانية في القرن التاسع عشر³. ونشر روبرت أنهغر (Robert Anhegger)⁴ مقتطفات من تلخيص البيان في قوانين آل عثمان باللغة التركية الحديثة في دراسة تحت عنوان وجهات نظر هزارفن حسين أفندي بشأن التنظيم الحكومي العثماني (Hezarfen Hüseyin Efendi'nin Osmanli devlet teşkilâtına dair mülâhazalar) نشرت الدراسة بالمجلة التركية العريقة *Turkyat Mecmuası* في عددها العاشر الصادر سنة 1372هـ/1953م ص 365،393. كما ترجم الكتاب مرة أخرى باللغة الألمانية سنة 1391هـ/1971م⁵. وتم نقل الكتاب من اللغة العثمانية إلى اللغة التركية الحديثة سنة 1418هـ/1998م⁶.

¹ مؤذن زاده عين علي: لا يعرف عنه الكثير؛ فتاريخ ميلاده ووفاته غير معلوم، ويفهم من خلال ما كتبه عن الديوان الهمايوني أنه كان من كتبة هذا الديوان. ألف قوانين آل عثمان سنة 1607م، وألف سنة 1609 كتابه رسالة الوظائف الرتابة ورتب ممالك آل عثمان (Risale-i vazife-horân ve merâtib-i bendegân-i al-i Osman)، دُون فيه جميع المناصب العالية والمنخفضة ومقدار ما يتقاضونه من رواتب من دار الخلافة العثمانية ينظر:

Mehmet İpşirli: **Ayn Ali Efendi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 04, 1991, sayfa 258-259.

²- Mücteba İlgürel: Op.cit, Sayfa 544.

³ - Ibid, Sayfa 545, Sayfa 545.

⁴ . إنهغر روبرت (Anhegger, Robert) (1911-2001): مستشرق ألماني، اهتم بدراسات البلقان والدراسات الإسلامية وتعلم اللغة التركية. في سنة 1940م عمل بتركيا باحثا مساعدا في المعهد الأثري الألماني ثم عمل في وظائف مختلفة. رَوَّج للثقافة التركية من خلال العديد من الأنشطة مثل عقد المؤتمرات وتنظيم المعارض في هولندا. ينظر:

Vildan S. Coşkun: **Anhegger, Robert (1911-2001), Alman Türkologu**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, (gözden geçirilmiş 2. basım) EK-1. cildinde, 2016, Sayfa 100-101.

⁵ . قام الأستاذ هيدروم وورم (Heidrun Wurm) بترجمته إلى الألمانية تحت عنوان المؤرخ العثماني حسين بن جعفر، المدعو هزارفن ومجتمع إستانبول في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

Heidrun Wurm: **Der osmanische Historiker Hüseyin b. Ga'fer, genannt Hezarfen, und die Istanbul Gesellschaft in der zweiten Hälfte des 17.**

⁶ . قامت الباحثة التركية Sevim İlgürel بنقل الكتاب من اللغة العثمانية إلى اللغة التركية الحديثة.

Hezarfen Hüseyin Efendi, Telhisü-l-beyân fî kavanîn-i âl-i Osman, Sevim İlgürel (éd.), Ankara, 1998 .

في مقال بالمجلة التركية أخبار الرسالة (Risale Haber) ذكر البروفسور أحمد آق كوندوز (Ahmed Akgündüz) المتخصص في التاريخ العثماني ورئيس وقف البحوث الإسلامية في مدينة إستانبول أن ترجمة الأستاذة سيفيم إغورل رغم كونه جهدا مشكورا إلا أنه شابه الكثير من الأخطاء في المصطلحات الإسلامية وأيضا في التفسيرات التاريخية. ينظر:

Risale Haber gazetesi Profesör Ahmed Akgündüz ile röportaj,:

<http://www.risalehaber.com/osmanli-tarihine-isik-tutan-eserin-10-cildi-yayinlandi-252026h.htm> , 26 Mayıs 2018 Cumartesi.

يتألف كتاب تلخيص البيان من ثلاثة عشر باباً، هي كما وردت باللغة العثمانية:
الباب الأول: در بيان ظهور دولت سلاطين آل عثمان وتواريخ ايشان.
باب ثاني: در بيان ابتداء بناء إستانبول وآثار قياصرة روم وابنيه جديدة عثمانيه وأوصاف سراي همايون وخزينة عامره ده مصون أولان أشياء متبركه وقوانين خدام سراي ووظائف ايشان.
باب ثالث: در بيان قوانين ديوان همايون وعادات وقانون عيديه سلطانيه در سراي عامره.
باب رابع: در بيان ايراد خزينه عامره مقرره عن مقاطعات وخزينه أطراف ممالك معموره واموال متفرقه سايره ومصارف ومواجبات وغيره وخواص وزراء عظام وسلاطين ذوي الاحترام.
باب خامس: در بيان واردات ومصارف واخراجات اموال غير مقرره ممالك محروسه وتفاوت سنه شمسية وقمرية وبيان عسكر بر وبجر وأحوال اراضى ممالك محروسه.
باب سادس: در بيان قوانين خواص ميرميران وامرا وزعما وارباب تيمار در ممالك محروسه.
باب سابع: در بيان احوال قبو قولى وتقسيم اصناف عسكر وقوانين اوجاق يكيجريان وسباه وطوبيجان وجبه جيان وغيرى.
باب ثامن: در بيان اوجاق ترسانه عامره واحوال ضابطان ترسانه عامره.
باب تاسع: در بيان قوانين خانان قريم وقوانين سفر همايون وقوانين سلطانيه.
باب عاشر: در بيان قوانين علماء كرام ورسوم برات واحكام.
باب حادي عشر: نرخه متعلق قوانينى بيان ايدر.
باب ثاني عشر: در بيان معادين ومماحه وقوانين مخصوصه.
باب ثالث عشر: در بيان سور همايون ووليمه عظمه شاهيه برآى ختان شهزاد كان وتسليم هدايا وزرا وعلما وارباب حرف¹.
معرفة أهم ما جاء في تلخيص البيان نعتمد على الملخص الذي ورد بموقع مشروع البحث (OTTPOL) المتخصص في تاريخ الفكر السياسي العثماني الحديث المبكر، من القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر².

¹ - Robert Anhegger : " Hazerfen Hüseyin Efendi'nin Osmanlı Devlet Teşkilatına Dair Mülâhazaları", Türkiyat Mecmuası, Cilt : IX, İstanbul Üniversitesi, Türkiye, 1951, Sayfa 366-367.

² . تم تأسيس المشروع من قبل معهد الدراسات المتوسطة / مؤسسة الأبحاث والتكنولوجيا - اليونان، وقد تم تمويله من قبل الأمانة العامة اليونانية للبحوث والتكنولوجيا، والذي جمع الأموال من قبل الدولة اليونانية والصندوق الاجتماعي الأوروبي للاتحاد =

عرض مضمون "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"

يبدأ كتاب تلخيص البيان في قوانين آل عثمان بذكر رغبة السلطان محمد الرابع في كتابة القواعد المنظمة للدولة العثمانية على غرار ما كتب في التاريخ العام للمغول والصينيين، وقد ضمّ الكتاب ثلاثة عشر باباً؛ يتناول الباب الأول تاريخ السلاطين العثمانيين بشكل مختصر، ويتناول الباب الثاني مدينة إستانبول وتاريخها معتمداً على المصادر اليونانية، وفيه تعداد للمساجد والمدارس والأسواق وبقية مؤسسات المدينة¹.

يذكر هزارفن في الباب الثالث ما يتعلّق بالقصر السلطاني؛ القواعد والبروتوكولات، عدد الموظفين والخدم ومهامهم وملابسهم وأجورهم؛ إذ يلاحظ مثلاً أن العمائم المتعددة اللّقات استخدمها الجنود في زمن سليمان القانوني تمييزاً لهم عن التجار التي كانت لّقات عمائمهم أقل، ثم أصبحت العمائم المتعددة اللّقات بعد ذلك حكراً على أهل الديوان، ويذكر هزارفن أنّ السلطان يجب أن يعيّن وزيراً كبيراً وحكيماً ذا مروءة وأمانة ويمنحه استقلالية منعا لتدخل أي شخص في شؤونه، ولا ينبغي أن يعدمه السلطان إذا فشل في بعض الأمور نظراً لقلّة الموظفين الذين يتمتّعون بالمواصفات العالية، بعد ذلك يصف الكتاب المتخصّصون في مالية الدولة، كما يصف الديوان الهمايوني ووظائف المنتميين إليه، وكذا بروتوكول الأعياد والاحتفالات بالقصر.

يعود هزارفن في الباب الرابع يعود إلى شخص الصدر الأعظم وهنا ينقل أفكاره بشكل جلي عن الفصل الأول من كتاب آصف نامه للطفّي باشا² ويقدم المشورة، ويصف دخل الوزير، كما يصف سلم الوظائف حسب التسلسل الهرمي بالقصر، كما يذكر بشكل مفصل ميزانية الدولة من حيث إيراداتها ومصروفاتها لسنتي 1070 و1071هـ/1660 و1661م، ويستمر في الباب الخامس بذكر رواتب الجنود، معطياً معلومات عامة عن الجيش العثماني، ومعلومات عن الفرق بين السنة القمرية والشمسية، كما يذكر فتاوى بعض شيوخ الإسلام حول ملكية الأراضي والضرائب³.

الأوروبي في إطار برنامج التعليم التشغيلي والتعلم مدى الحياة (2007-2013 اليونانية الوطنية الإطار المرجعي الاستراتيجي).

اكتمل المشروع في صيف 2015. ينظر: <http://ottpol.ims.forth.gr/>.

وقد اعتمد باحثوا المشروع في ملخصهم على ترجمة الأستاذة سيفيم إغورل (Sevim İlgürel)

Hüseyin Hezarfen Efendi; *Telhîsü'l-beyân fî kavânîni-âli-‘Osmân*, ed. S. İlgürel, Ankara 1998

¹- Sevim İlgürel: *Hüseyin Hezarfen Efendi; Telhîsü'l-beyân fî kavânîni-âli-‘Osmân*, <http://ottpol.ims.forth.gr/?q=content/telhîsü'l-beyân-memorandum-rules>.

². حول لطفّي باشا ينظر المبحث الأول من الفصل الثالث.

³- Sevim İlgürel: Op.cit.

ينتقل هزارفن في الباب السادس إلى حكام الولايات العثمانية، مشيراً إلى أنّ تعيين ولاية عديمي الخبرة يؤدي إلى الظلم، والسلطان هنا يتحمّل مسؤولية ذلك باعتبار أن الولاية وكلاء عنه؛ فالسلطان هو القاضي الأوّل والإمام والحاكم، وينبغي له هنا تسليط عقوبة الإعدام على الولاة الفاسدين ليستقيم وضع الناس، بعد ذلك يشرع هزارفن في تعداد مفصل للوحدات الإدارية والتميمات بالولايات العثمانية ويذكر القواعد المنظّمة للتميمار، هنا يلاحظ هزارفن - في اقتباس واضح من تحليل كاتب جلبي - بأنّ الواجب على الجميع في هذا العالم أن يتّبع سلوكاً معيّنًا للحياة؛ ولحسن تدبير الدولة كما المنزل ينبغي أن يحافظ كل فرد في الدولة على مكانه وفق طبقات منسجمة مع طبيعة العمران البشري، والاختلال في ذلك يكون تبعاً للمراحل التي تمر بها الدولة¹.

خصص هزارفن الباب السابع للإنكشارية، ويأسف بسهولة أن يصبح أي شاب عديم الخبرة أو حتى يهودياً ضابطاً إنكشارياً، ثم يذكر بالتفصيل تاريخ وقواعد وأعداد الإنكشارية، على نفس المنوال يذكر في الباب الثامن سلاح البحرية والترسانة الإمبراطورية مشدداً على أهمية علم الجغرافيا وعلم وصف المياه أو الهيدروغرافيا، مُرجعاً انتصارات الكفار إلى العناية بهذه العلوم مع السلاح².

يتحدث في الباب التاسع عن القرم، ويعطي معلومات مختلفة عن علم الحروب وكيفية تنظيم حملة عسكرية وضرب الحصار وما إلى ذلك، ويخصّص هزارفن قسماً خاصاً في هذا الباب للحديث عن إدارة السلطان للسلطة فقال: يجب أن يكون للسلطان عدد قليل من الأصحاب ولا يسمح لهم بالتدخل في شؤون الدولة؛ في عصور السلاطين السابقين حتى عهد سليمان القانوني، كانت العاصمة مليئة بذوي الحكمة والصدق بحيث كان بإمكان السلاطين الاختلاط بهم بحرية والاستفادة منهم، لكن في منتصف عهد سليمان وإعدامه لولي عهده وأكبر أبنائه بدأ الفساد والاضطراب العام بالدولة، هنا يقدّم هزارفن نصيحته للسلطان ومسؤوليه بضرورة المعرفة الجيدة للعلماء القيمين الصادقين وأولي الخبرة من موظفيهم، وإسناد الوظائف المهمة لهم وبذلك تسود العدالة والرفاهية، كما ينصح السلطان بأن يعمل على أن تحبّه رعيتته من الجنود والفلاحين والعلماء، وأن يتشاور مرة أو مرتين على الأقل في الأسبوع مع ذوي الخبرة، كما عليه أخيراً تفقّد حدود الدولة بانتظام لاستطلاع نوايا الأعداء، وينتهي هزارفن هذا الباب بتعداد للصدور العظام وشيوخ الإسلام³.

يوضح هزارفن في الباب العاشر - مقتبساً مرة أخرى من كاتب جلبي - أنّ العلماء هم أعظم أركان

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

الدولة قيمة وتبجيلا، فهم بمثابة الدم المزاج الطبيعي بالجسد، وبقية طبقات المجتمع تبع لهم، فهم مثل القلب منبع روح الكائن الحي، والذي يوزعها عبر الدم لكافة أنحاء الجسم، إن مقارنة هزرفن للعلماء بروح الكائن الحي إشارة إلى الشريعة الإلهية، فالعلماء هم الوسطاء الذين ينقلونها إلى عموم الناس، فكما أنّ الروح هي مصدر رفاة وحياة الجسد، كذلك الشريعة الإلهية هي مصدر رفاة وحياة المجتمع والدولة (cem'iyet ve devlet)؛ إذا كان الدم فاسدا فإنه يضر الجسد وبالتالي يحتاج إلى تطهيره أو نزع¹.

يقسم هزرفن العلماء إلى فئتين: أهل الشريعة علماء الظاهر (ulemâ-1 zahir) الذين يتبعون منهج النظر (tarîk-1 nazar) في أحكام الشريعة؛ مثل المفتين والقضاة والمعلمين وغيرهم، والقسم الثاني هم أهل الحقيقة علماء الباطن (ulemâ-1 batin) والذين ينتهجون نهج التصفية والتزكية (tarîk-1 tasfiye) وهم الدراويش الصوفيّة ويشير هزرفن صراحة إلى الطريقة النقشبندية والخلوتية²، وهذا التقسيم للعلم مجاف لحقيقة الإسلام ولكن هو مما تسلل إلى الصوفية من الفلسفات القديمة.

يقارن هزرفن بعد ذلك بين منصب شيخ الإسلام ومنصب الصدر الأعظم فقال: يعتبر منصب المشيخة متساويا مع الصدارة العظمى لم يكن أكبر منها؛ ففي بعض الأمور نجد أن منصب الصدارة أعلى من منصب المشيخة كون الصدر الأعظم هو وكيل السلطان المطلق ولديه سلطات كبيرة في الشؤون العامة (hall u akd-i umûr-1 cumhûr)، غير أنّه في نظر السلطان يكون منصب شيخ الإسلام أعلى كونه الرئيس المطلق لأمر الدين (umur-1 diniyede riyâset-i mutlaka sahibi) فهو أعلى مقاما من الصدارة العظمى على اعتبار أنّ الدولة تقوم على أساس من الدين، فشيخ الإسلام هو رئيس الديانة، والصدر الأعظم هو رئيس الدولة والسلطان رئيسهما، ثم يذكر هزرفن تفاصيل حول تاريخ ووظيفة منصب شيخ الإسلام، مشيرا إلى أنّ السلطان متقيّد في الكثير من الأحيان باستشارة شيخ الإسلام، وينهي هزرفن هذا الفصل بذكر المناصب العليا للعلماء، ويحثّ السلطان على ضرورة

¹ - Loc.cit.

² . الخلوتية: هي واحدة من الطرق الصوفية العثمانية ... [تعرف بالتزكية Halveti وبالعبودية: خلواتي] ظهرت الطريقة بمنطقة أذربيجان والشمال الغربي لإيران في أعقاب الغزوات المغولية في القرن السابع الهجري / الثالث العاشر الميلادي، وانتشرت في المقاطعات العثمانية في غضون ثلاثة قرون من ظهورها. لعبت الخلوتية دورًا مهمًا في السياسة العثمانية والمجتمع... يذهب البعض إلى أنّ تنامي دور الخلوتية نتج عن جهد تعاوني واعى بينها وبين الحكومة العثمانية من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي فصاعدا والخلوتي نسبة إلى الخلوة الصوفية ينظر:

John J. Curry: **The Transformation of Muslim Mystical Thought in the Ottoman Empire: The Rise of the Halveti Order, 1350-1650**, Edinburgh University Press, Britain, 2010, P1-2.

الاهتمام بالعلماء ومكانتهم الاجتماعية والمالية¹.

يتناول هزارفن في الباب الحادي عشر أمور السوق وتنظيم الأسعار، وقبل وصف قواعد السوق المختلفة بحسب المهنة، يجادل هزارفن حول ضرورة أن يسيطر الحاكم (hâkim) شخصياً على تلك الأمور الجزئية (cüz'ıyyât) المتعلقة برفاهية الناس؛ مثل تنظيم وضبط الأسعار، فتلك الأمور تنتمي في الحقيقة إلى القضايا العامة (umûr-ı külliye)، وإذا اعتبرها السلطان أو الوزراء أمورا جزئية تافهة وتُركت للقاضي فإن هذا الأخير لا يمكنه تنظيمها بنفسه إذ هي خارج نطاق اختصاصه من حيث كونها تنتمي لأمر السياسة (emr-i siyâset)، وإذا لم تنظم وتضبط الأسعار انحصر الغنى في طبقة من الناس دون عموم الخلق².

ينشر هزارفن في الباب الثاني عشر نصوصاً قانونية مختلفة: القوانين المتعلقة باستخراج المعادن قانون محمد الفاتح، بالإضافة إلى تقريرين عن إدخال القهوة والتبغ إلى الدولة العثمانية (نُسخت عن كاتب جلبي). وأخيراً خصص الباب الثالث عشر لوصف تفصيلي للغاية للاحتفالات سنة 1085هـ / 1675م بأدرنة³، وصف هزارفن وصفاً دقيقاً الاحتفالات التي أقيمت بأدرنة بمناسبة زواج ابنة السلطان وختان ابنه⁴ والتي ربما كان شاهد عيان فيها؛ المآدب، الهدايا الفخمة عروض المسرح والألعاب النارية والمهرجين وعروض الفروسية وأكثر من ذلك بكثير، كل ذلك شكّل لوحة ملكية فخمة وتمت دعوة المسؤولين العثمانيين وكبار الشخصيات وسكان أدرنة إلى الاحتفالات حسب رتبهم، وقدموا عروضهم وهداياهم إلى السلطان والأمراء، وبهذه المناسبة تمّ ختان الكثير من أبناء العوام⁵.

تحليل حسين أفندي هزارفن لنقاط الضعف يتماشى مع نفس الخطوط التي اتبعها أسلافه مع نقاشات حول عزل وعدم كفاءة السلاطين اللاحقين، وضعف الصدر الأعظم، وبيع المناصب والشورور الناتجة عن ذلك، وهو يصر أكثر من قوجي بك وكاتب جلبي على الحاجة إلى حكام أقاليم أكفاء ونزهاء، ويميل أكثر إلى استخدام القوة؛ ويذهب إلى ضرورة أن يستعين السلطان بالجواسيس لمراقبة موظفيه وأعدائه، وألا يتردد في استخدام الخوف كقانون للحفاظ على سلطته ويجب على السلاطين أن يخضعوا لتعاليم الشريعة، فلا يقتلوا أحداً إلا بحكم شرعي... لكن لا ينبغي

¹ - Sevim İlgürel: Op.cit.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

⁴ . ابنته البكر خديجة خاتون وابنه شاه زاده أحمد.

⁵ - Caroline Finkel: **Osman's Dream, History of the Ottoman Empire 1300-1923**, Basic Books, New York, 2005, P226.

لهم إلغاء العقوبة الجسدية التعزيرية تماماً، لأن العقاب شرط من شروط الملكية¹.

يقرّر هزارفن أنّ الخوف الدائم والأمن الدائم ضارّان، وطالما يكون الناس بين الخوف والأمن فإنّ أمور الدولة تكون بخير، وبنفس الروح يصر هزارفن بقوة على التحقيق ومعاينة المسؤولين الجانحين والضباط والعلماء، وهو يشدد على المسؤولية الأخلاقية لشيخ الإسلام وفئة العلماء من أجل رفاهية الدولة والشعب، ويحثهم على الارتقاء إلى مستوى دعوتهم العالية².

اعتبر هزارفن أنّ العصر الذهبي للدولة العثمانية هو عصر السلطان سليم الأول بدلا من السلطان سليمان القانوني - نظرا للسيادة التامة للقانون، وإسناد المناصب للأكفاء فقط، ولعله هنا تأثر بوجهة نظر قوجي بك - وقد شدّد على ضرورة سيادة القانون وأنّ الكفاءة يجب أن تكون الأساس الوحيد لتوزيع المناصب والأراضي، كما دعا لضرورة استعادة مكانة وهيبة العلماء، وأن يراعي القضاة العدالة في جميع قراراتهم³.

ذلك هو حسين هزارفن وتلك نصائحه الإصلاحية التي لم تتعد عن الجو العام لأدب نصائح الملوك الذي ظلّ مكتفيا بالنظرة العثمانية العامة المحكومة بعقدة التّفوّق، والتي ترى أنّ العودة إلى الأطر التقليدية كفيلا بإرجاع الدولة العثمانية إلى سالف عهدها من القوة والمجد التليد بصرف النظر عن التحولات الكبرى التي يشهدها الجار القريب روسيا وأوروبا، وسنرى الأمر ذاته مع المؤرخ الثاني نعيما مصطفى، وهو المؤرخ الأكثر شهرة وشعبية في أواخر القرن الحادي عشر الثاني عشر الهجري/السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من تاريخ الدولة العثمانية.

ترجمة نعيما مصطفى

سنعتمد في ترجمة نعيما مصطفى بالأساس على ما ورد عنه بدائرة المعارف التركية وعلى ما كتبه البروفسور نورمان إيتزكوفيتش (Norman Itzkowitz)⁴ في كتابه الإمبراطورية العثمانية والتراث الإسلامي (Ottoman Empire and Islamic Tradition) وبعض المراجع الأخرى. ولد مصطفى نعيما بحلب بسوريا حوالي عام 1065هـ/1655م، ومصطفى هو اسمه الحقيقي

¹ - Bernard lewis: Op.cit, P220.

² - Loc.cit.

³ - M. Fatih Çalışır: Op.cit, sayfa 46.

⁴ . نورمان إيتزكوفيتش (Norman Itzkowitz) (1931-2019): مؤرخ امريكي بولندي الأصل متخصص في التاريخ العثماني وحصل على عدة جوائز نظير أبحاثه العلمية. من مؤلفاته: الإمبراطورية العثمانية والتراث الإسلامي (Ottoman Empire and Islamic Tradition)، جيران في الصراع: دراسة نفسية-سياسية للعلاقات اليونانية التركية (Neighbors in Conflict: A Psycho-political Study of Greek-Turkish Relations) وغيرها. ينظر صفحته الشخصية بموقع جامعة برينستون: <https://nes.princeton.edu/people/norman-itzkowitz> .

غير أنه يعرف بشهرته نعيما، وهو ينتمي لعائلة انكشارية استقرت في حلب - وأبلى تلك الأسرة بلاءا حسنا في تلك المدينة التجارية الهامة، وكانت عائلته مخرصة ومكرسة نفسها للسلطان¹ - بعد تلقيه تعليمه الأولي بمسقط رأسه، ذهب نعيما إلى إستانبول حوالي سنة 1091هـ/1680م وبفضل نفوذ عائلته التحق بالقصر العتيق بسلك البلطجية - إحدى وحدات النخبة فيلق الخدمة الخارجية حيث تدرّب في هذا السلك كسكرتير² - وإلى جانب دراسته بالقصر تلقى تعليمه أيضا بمسجد بايزيد وفي سنة 1097هـ/1686م التحق نعيما بالديوان الهمايوني ككاتب، ليدخل بعدها تحت رعاية حسين باشا عموجه كوبرلو المعروف براعي العلوم والفنون، ليصبح سنة 1114هـ/1702م وقعة نويس أي المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية³.

كلّف نعيما من طرف الديوان الهمايوني بمهمة محاسب الأناضول القائمة على جرد ومتابعة أوقاف السلاطين والوزراء بالأناضول إلى غاية سنة 1117هـ/1705م. وعيّن سنة 1120هـ/1709م بمنصب التشريفاتي، ثم أعيد تعيينه محاسبا للأناضول سنة 1123هـ/1712م توفي نعيمة سنة 1128هـ/1716م⁴.

ترك نعيما مصطفى تاريخا يعتبره المؤرخون من أهم مصادر التاريخ العثماني، وأكثرها صدقية وموضوعية، ويحمل عمله العظيم هذا عنوان: روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين، وهو المشهور بتاريخ نعيما، ويقع في ست مجلدات. ربما بدأ في تحريره سنة 1110هـ/1699م وأنهى تاريخه سنة 1116هـ/1704م، والحسين الوارد ذكره بالعنوان هو راعيه الصدر الأعظم عموجه حسين باشا كوبرلو لأن الأخير هو من طلب منه كتابته كما سنرى.

¹ - Norman Itzkowitz: **Ottoman Empire and Islamic Tradition**, University of Chicago Press, United States of America, 1980, P 100.

² - Loc.cit.

³ - Mehmet İpşirli: **NAÎMÂ Nعيما, İlk resmî Osmanlı vak 'anüvisi, tarihçi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt: 32, 2006, sayfa 316.

ويذكر سهيل صابان أن نعيما هو ثاني مسؤول عثماني تسند إليه وظيفة وقعة نويس (Vakanuvis) في الدولة العثمانية بعد عبد الرحمن باشا الذي تضمّن تاريخه المسمى " وقايعنامه " الأحداث في الدولة العثمانية من سنة 1648م إلى سنة 1684. عين [نعيما مصطفى] بمنصب وقعة نويس للدولة سنة 1699م [وليس 1702م، وتذهب الدكتورة صورية فاروقي (Suraiya Faroqhi) المتخصصة في التاريخ العثماني إلى أن ذلك كان حوالي 1700م. ينظر: Suraiya Faroqhi: **Approaching Ottoman History: An Introduction to the Sources**, 1Edt, Cambridge University Press, United Kingdom, 1996, P150.] حيث كتب الأحداث الخاصة بالدولة العثمانية لمدة 67 سنة ابتداء من سنة 1572م. ينظر:

صابان سهيل: المرجع السابق، ص 228.

⁴ - Mehmet İpşirli: Op.cit, P316.

تقديم كتاب "روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين"، المشهور بـ "تاريخ نعيمان"

أصل الكتاب أن أحد أبناء العلماء ... قد تناول الأحداث من عهد السلطان أحمد الأول سنة 1023هـ/1617م إلى أيام محمد باشا كوبرلو وتوفي قبل تحريره، فكلف عموجه زاده حسين باشا نعيمان أن يُثَمِّمه ويكون محرراً له "وقعه نويسي"، فقام بالمهمة ناقداً لمواضيع عدة وسماه روضة الحسين، إلا أنه عُرفَ بتاريخ نعيمان وبدأه من سنة 1000-1065هـ/1591-1659م¹. تاريخه يغطي عهود عثمانية سلاطين؛ من مراد الثالث (982-1003هـ / 1574-1595م) إلى محمد الرابع (1058-1099هـ / 1648-1687م).

كان للصدر الأعظم حسين عموجه هدف آخر من وراء تعيين نعيمان بمنصب المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية؛ ذلك أن الصدر الأعظم حسين عموجه كوبرلو شُغل بمهمة صعبة تتمثل في جعل معاهدة كارلوفيتز غير الشعبية مستساغة لدى عامة الشعب العثماني: فقد أدرك حسين باشا أنّ الاستمرار في الحروب بات يشكل تهديداً وجودياً للدولة، لكن الشيء الوحيد الذي افتقده حسين عموجه هو البلاغة للدفاع عن سياسته في الركون للسلام بدل الحرب، ولهذا فقد جتّد نعيمان من أجل هذا الغرض².

عمل نعيمان جاهداً على أن لا يخيّب ظنّ راعيه ونجح؛ فمقدمة حولياته في التاريخ العثماني في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي "روضة الحسين" مثّلت دفاعاً ماهراً عن سياسة حسين عموجه، إذ تظهر فيها براعة نعيمان الأدبية ودرايته بالتراث الإسلامي، وهو يتركز بشكل أساسي على أفكار من سبقوه من العلماء المسلمين خاصة ابن خلدون وكاتب جلبي لإقناع زملائه العثمانيين بأن معاهدة كارلوفيتز التي وُقِّعت في عهد حسين كوبرلو كانت هي المخرج العقلاني الوحيد لإعطاء فرصة لإصلاح الاختلالات الكبرى بالدولة.

أثبت كتاب "روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين" أو "تاريخ نعيمان" شعبيته وموثوقيته على حد سواء (هناك أكثر من عشرين مخطوطة في إستانبول وحدها فقط، البعض نسخ من النسخة المطبوعة) حيث استخدم نعيمان بعناية مصادر متعددة مع مراعاة الموضوعية والصدق³ ولذلك

¹ - رابعة مزهر شاكر ومحمد عبد القادر خريشات: "الكتابة التاريخية عند العثمانيين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر

الميلادي" مج 41، العدد 1، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، 2013، ص 76.

² - Norman Itzkowitz: Op.cit, P 100.

³ - Marinos Sariyannis: Op.cit, P133.

لا غرو أن يثني عليه كبار المؤرخين¹ ويعتمده معظم الباحثين في الفضاء العثماني.

طُبِعَ تاريخ نعيما لأول مرة سنة 1146هـ/1733م بواسطة إبراهيم متفرقة، بينما نُشِرت طبعتان من ست مجلدات خلال القرن التاسع عشر (1281-1280هـ/1864-1866م). نَقَلَ الأستاذ أحمد زهير دانيشمان² تاريخ نعيما من العثمانية إلى التركية الحديثة ونشره سنة 1387هـ/1967م؛ النسخة النهائية المعتمدة الآن لتاريخ نعيما باللغة التركية الحديثة هي التي نشرها الدكتور محمد إيشيرلي³ سنة 1438هـ/2007م بناءً على طبعة 1280هـ/1864م، استخدم معظم العلماء طبعة 1281هـ/1866م⁴.

حول حياة نعيما وعمله هناك دراسات قليلة عكس ما هو مأمول ولائق بسمعة نعيما وتاريخه: الدراسة الكلاسيكية والأكثر اكتمالاً وشهرة هي دراسة توماس لويس (Lewis V. Thomas)⁵ الصادرة عن مطبعة نيويورك الجامعية سنة 1392هـ/1972م بعنوان دراسة حول نعيما (A Study of Naima)⁶، وقد قسّم توماس دراسته إلى ثلاثة أجزاء: حياة نعيما، أفكاره وتاريخه، وسلط الأضواء على العديد من النقاط حول تاريخ وعمل نعيما.

1 . من ذلك ما ذكره الدكتور محمد حرب من أنه: امتاز ببساطة اللغة وصدق القول وأمانة النقل، وقد أقام تاريخه على أساس أن يكون المؤرخ صادق القول، ولا يعطي أدنى أهمية للأراجيف الشائعة على لسان الناس، بل يهتم بالأقوال الموثوقة والمعتمدة التي قال بها رجال يعرفون واقع الوقائع، ... والتي يستفاد منها العبرة التي فيها. ينظر: محمد حرب: المتقفون والسلطة.. تركيا نموذجاً دار البشير للثقافة والعلوم، ب ط، القاهرة، 2017، ص 74-75.

2 . أحمد زهير دانيشمان (1902-1971): تربوي وكاتب تركي، ويعرف أيضا باسمه المستعار زاهد درور. من أعماله: تاريخ الإمبراطورية العثمانية (osmanlı imparatorluğu tarihi) في 14 مجلدا، التاريخ الكبير للإسلام (büyük islam tarihi) في ثلاث مجلدات وغيرها. قام بتحقيق ونشر تاريخ نعيما (naima tarihi) في 6 مجلدات. ينظر:

Biyografya Türkiye Ünlüleri internet Ansiklopedisi: **Zuhuri Danışman**, Başbakanlık Tanıtma Fonu tarafından, <http://www.biyografya.com/biyografi/4190>, 2016.

3 . محمد إيشيرلي (1944-...): مؤرخ تركي، نال شهادة الدكتوراه بين 1971-1976م بجامعة أديرة البريطانية. سنة 1982 أصبح أستاذاً مشاركاً وقدم أطروحة تحمل عنوان "مؤسسة قاضي العسكر في الإمبراطورية العثمانية"، ليصبح أستاذاً مقعد سنة 1988 بعمله المعنون "الالتماس من الزاوية الدبلوماسية" (Diplomatik Açıdan Mahzar). له العديد من المؤلفات. ينظر:

Mehmet İpşirli: <http://www.biyografi.net/kisiyrinti.asp?kisiid=2554>.

4 - Marinos Sariyannis: Op.cit, P132-133.

5 . لويس فيكتور توماس (1914-1965): تلقى تعليمه في التاريخ الكلاسيكي والاستشراق بجامعة شيكاغو ومعهدا الشرقي في عام 1947 التحق بكلية برينستون، من أهم أعماله دراسة حول نعيما (A study of Naima). ينظر:

Lewis Victor Thomas: **Elementary Turkish**, Revised and Edited by Norman Itzkowitz, Dover Language Guides, New York, USA, 1986, iii.

6 - Loc.cit.

ترجم تشارلز فريزر (Charles Fraser)¹ تاريخ نعيما جزئيا في كتابه حوليات الإمبراطورية التركية من 1591 إلى 1659 (Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659) ضمن مجلدين طبعا بلندن مرتين سنة 1247هـ/1832م وسنة 1251هـ/1836م، كما ترجم جزء منها إلى الألمانية عن طريق الأستاذ ألفريد لوبل (Alfred Loebel)² في كتابه عن تاريخ حروب الأتراك 1593-1606 (Zur Geschichte des Turkenkrieges von 1593-1606) ضمن مجلدين طبع ببراغ مرتين أيضا سنة 1316هـ/1899م وسنة 1322هـ/1904م³. وثمة دراسات أخرى حديثة حول نعيما وتاريخه⁴. ما تعلق بأدب نصائح الملوك في تاريخ نعيما الضخم نجده بمقدمته بشكل خاص، وكذا نجده مبنوثا ضمن ثنايا الكتاب؛ جمعها الأستاذ توماس لويس ومعظمها أخلاق عملية موجّهة لراعيه الصدر الأعظم حسين عموجه كوبرلو. إن فلسفة نعيما في التاريخ والسياسة موجودة بشكل رئيسي في مقدمتين له: الأولى مكتوبة بعد 1109 هـ/1698م، عندما كلّفه الصدر الأعظم حسين عموجه بكتابة تاريخه والثانية نجدها في مقدمة الجزء الثاني من تاريخه تتعلق بشكل رئيس بثورة أو واقعة أدرنه (Edirne vak'ası)⁵ 1115هـ/1703م⁶.

كان نعيما يتحدث العربية بطلاقة، ومن ثمّ كان قارئاً دقيقاً لابن خلدون؛ لم ينقل نظريته

1. لم أقف على ترجمته مع طول بحثي، وبما أن كتابه منشور سنة 1832م فهو من أبناء القرن التاسع عشر.

2. لم أقف أيضا على ترجمته مع طول بحثي.

3 - Stanford Shaw: **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey**, Op.cit, Tom1, P320
4. منها دراسة الباحث التركي زكي ارسلانتورك التي حملت عنوان هيكلية المجتمع العثماني في القرن السابع عشر حسب نعيما (Naima'ya Göre XVII. Yüzyıl Osmanlı Toplum Yapısı) صدرت بإستانبول سنة 1997م. ويذكر أن الدكتور زكي أرسلان تورك قدّم رسالته للدكتوراه سنة 1979م وكانت أيضا حول نعيما وعنوانها: مكانة نعيما في علم الاجتماع التركي وأسباب انهيار الدولة العثمانية (Türk Sosyolojisinde Naima'nın Yeri ve Osmanlı Devleti'nin Çöküşü) (Sebepleri).

5. سبب الثورة هو فشل إصلاحات الصدر الأعظم حسين عموجه كوبرلو ليس لخلل بالإصلاحات ولكن بسبب تدخل شيخ الإسلام فيض الله في كل شؤون الدولة، بسبب القة المفرطة للسلطان مصطفى الثاني به، فراح شيخ الإسلام يعين أقاربه في المراكز العليا للدولة وسعى لعرقلة اصلاحات حسين عموجه وعزله، فاضطر الصدر الأعظم للاستقالة سنة 1702م لتخسر الدولة مصلحا كبيرا من آل كوبرلو، وانسحب السلطان من العاصمة إلى أدرنه تاركا تسيير أمور الدولة لشيخ الإسلام فيض الله، فجلب بسوء تدبيره سُخْطَ رجالات المؤسسة الحاكمة والمؤسسة الدينية والجيش، ولأول مرة في التاريخ العثماني يتحالف الجيش والعلماء ضد شيخ الإسلام فاندلعت الثورة في 5 ربيع الأول 1115هـ/18 جويلية 1703، ليُخْلَع السلطان مصطفى الثاني بعد اندلاعها بثلاثة أيام وتُصَيَّب على العرش شقيقه أحمد الثالث، أما شيخ الإسلام فقد مرّقه المتمرّدون هو ونجله فتح الله أفندي. حول هذه الواقعة أو الثورة

ينظر: J. De, Hammer: Op.cit, Tom 13, 1839. P10-12.

6 - Marinos Sariyannis: Op.cit, P133.

في قوانين التاريخ وصعود وانحدار الدول فحسب، بل نقل عنه أيضا مسائل متنوعة مثل التعليم والاقتصاد من ناحية أخرى استخدم نعيما على نطاق واسع الإطار السياسي لكتاب دستور العمل لكتاب جلبي، وبالتالي قدّم نعيما في الواقع أكثر النظريات شمولاً وتفصيلاً فاق ما قدمه أي مؤرخ عثماني، كان لديه هدف واضح أخذه بعين الاعتبار: تبرير إجراءات حسين عموجه في التفاوض على معاهدة سلام كارلوفيتز؛ إذ أكد نعيما أيضا أن السلام قد يكون وسيلة للدولة في مرحلة الضعف لتستعيد مرة أخرى قوتها ومجدها¹.

لمعرفة أهم نصائح نعيما الواردة في مقدمتيه الواردتان بتاريخه الكبير نعتمد مرة أخرى على الملخص الذي ورد بموقع المشروع البحثي (OTTPOL) المتخصص في تاريخ الفكر السياسي العثماني الحديث المبكر من القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر² إلى جانب ما كتبه البروفسور نورمان إيتزكوفيتش، ضمن كتابه الإمبراطورية العثمانية والتراث الإسلامي (Ottoman Empire and Islamic Tradition) وتكمن أهمية ما كتبه البروفسور نورمان إيتزكوفيتش حول نعيما كونه الأمين على التراث الفكري لأستاذه لويس فيكتور توماس صاحب أشهر دراسة حول نعيما (A Study of Naima).

عرض مضمون "تاريخ نعيما"

يبدأ نعيما المقدمة الأولى الأكثر تفصيلاً من المقدمة الثانية بمقال طويل حول كتابة التاريخ يتحدث عن القيمة التعليمية للتاريخ ليس فقط فيما تعلق بالتعاليم الأخلاقية ولكن أيضًا في ما يمكن تسميته بقوانين التاريخ؛ دراسة التاريخ سوف تظهر لنا "ما هي الأسباب والدوافع التي تمكّنتنا من التنبؤ ببداية

¹ - Loc.cit.

² . اعتمد الباحثون في المشروع البحثي (OTTPOL) في ملخصهم على:

تاريخ نعيما الذي حققه الأستاذ إيشيرلي محمد، الصادر سنة 2007م بأنقرة، وعلى الدراسة الشهيرة لتوماس لويس الصادرة سنة 1972م بعنوان دراسة حول نعيمة (A Study of Naima)، وعلى دراسة الباحث التركي الأستاذ يلماز كوتجوك التي تحمل عنوان "تصور جديد لمصادر الفكر السياسي العثماني: رسائل الإصلاح" (Osmanlı siyaset düşüncesi kaynakları ile ilgili yeni bir kavramsallaştırma: Islahatnâmeler) والتي نشرت سنة 2003.

İpşirli, M: *Naîmâ Mustafa Efendi: Târih-i Na'îmâ (Ravzatü'l-Hüseyn fî hulâsati ahbâri'l-hâfikayn*, Ankara 2007.

Thomas, L. V: *A Study of Naima*, ed. N. Itzkowitz, New York, 1972.

Coşkun Yılmaz: "OsmanlıSiyaset Düşüncesi Kaynakları İle İlgili Yeni Bir Kavramsallaştırma: Islahatnâmeler" Türkiye Araştırmaları Literatür Dergisi, cilt 1, sayı 2, 2003 .

ينظر:

OTTPOL: *Naîmâ Mustafa Efendi: Târih-i Na'îmâ*,

<http://ottpol.ims.forth.gr/?q=content/târîh-i-na'îmâ-naimas-history> .

التدهور والانحدار في الحضارة البشرية، والتي نتبأ في وجودها بأن الدولة مفضية إلى انتهاء الحيوية والموت"؛ تاريخ أحداث معينة بدولة ما يخضع لصفات كامنة بها عند نضجها، يستطيع الرجل الذكي النابه من خلال فهم تلك الصفات أن يفهم مسار هذه الدولة وتطورها.

يروى نعيما بعد وضع قواعد علمية أخلاقية للمؤرخين الظروف التي كُلف بموجبها بتصنيف مؤلفه ويمدح معلمه وراعيه عموجه كوبرلو حسين باشا الذي كرس نفسه لخدمته، لينتقل بعد ذلك إلى مدخل محرر بعناية يتكوّن من مقدمة وقسمين: استطراد وملاحظات متعدّدة، ينهيها بمجموعة من الاستنتاجات¹.

يشدد نعيما على فكرة أن الله قد علّم البشرية استخدام تلك الوسائل والطرق التي تتناسب مع كل مرحلة تاريخية؛ فيعلنون الحرب حيناً، ويلجؤون إلى السلام حيناً آخر؛ فيستدعي منطق التاريخ المقارن لتبرير معاهدة كارلوفيتز؛ إذ يقارنها بمعاهدة صلح الحديبية التي عقدها النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - مع قريش - على الرغم من امتلاكه للمعجزات وخوارق العادات التي تمكّنه من التغلب عليهم - ورغم كون معاهدة الحديبية اعتبرت مذلة عند معظم الصحابة إلا أنّه بعد سنتين اتضح أنّها كانت فتحاً للإسلام توجّ بفتح مكة².

أوضح لويس توماس أن الهدف من هذه البداية غير العادية لمقدمة تاريخية كان إسقاطاً مباشراً على المفاوضات التي أجراها حسين باشا والتي انتقدت كثيراً وانتهت بمعاهدة كارلوفيتز 1110هـ/1699م، أراد نعيما من خلال إسقاطه ذلك التأكيد على أن السلام مع الكفار قد يكون خياراً في بعض الظروف وليس بالضرورة نوعاً من الخيانة أو الجبن³، بمعنى أنّه أراد إيجاد نوع من التأصيل الشرعي لمعاهد كارلوفيتز المكروهة شعبياً.

بعد مرافعته المسبوكة جيداً دفاعاً عن معاهدة كارلوفيتز، ينتقل إلى تشخيص حال الدولة والهدف المائل بين عينيه دائماً هو تبرير لجوء الدولة للسلام بدل الحرب لإعطاء فرصة لإصلاح الخلل واسترجاع العافية والاستقرار، لذلك نجده يمزج بين آراء ابن خلدون حول أطوار ومراحل الدولة، وبين آراء كاتب جلبي الطبية حول توازن الأمزجة الأربعة؛ فقد اعتبر الدولة كائناً حياً، والطبيب هو الصدر الأعظم والدولة أيضاً تمر بمراحل مختلفة من الولادة والنمو والانحلال، وتتوقف الصحة الجيدة على توازن الأمزجة الأربعة، بمعنى أن نعيما حدد الطبيب هنا في الصدر الأعظم القوي وليس السلطان الضعيف.

¹ - Ibid.

² - Norman Itzkowitz: Op.cit, P100-101.

³- OTTPOL: Op.cit.

يؤكد ابن خلدون في مقدمته أن السلالة مثل الفرد تنمو ثم تدخل في فترة الركود ثم تتراجع وكل فترة تتوافق مع عمر الشخص والتي حددت بحوالي أربعين عاما، كان ابن خلدون تقليدًا تاريخيًا حيًا بين العثمانيين، الذين أبقوا أفكاره على قيد الحياة حتى أعيد اكتشافه في القرن العشرين من قبل الغربيين والعرب على حد سواء¹، فقد كان العثمانيون أسبق في تنزيل الأفكار الخلدونية على الواقع. يفترض نعيما بالتوسع في نظريات ابن خلدون وجود خمس فترات في حياة الدولة: الفترة البطولية تتزامن مع تأسيس الدولة، فترة التوحيد في ظل السلالة الحاكمة وأتباعها، فترة الأمن والاستقرار ثم فترة الانكماش والتخمة، وأخيرا فترة التفكك والانحلال؛ تحت قارا مصطفى باشا² مهندس الحصار الثاني لفيينا سنة 1094هـ/1683م، دخل العثمانيون المرحلة الرابعة وهي الانكماش والتخمة، وسعى حسين كوبرلو إلى تحفيز الدولة للتعافي من سباتها³.

يستخدم نعيما في تشخيصه للخموم الذي تعاني منه الدولة مفردات القياس الطبي ويعتمد بشدة على آراء كاتب جليبي؛ حيث تتم مقارنة الفئات الأربع للمجتمع بالأمزجة الأربعة للجسم: أهل السيف يمثلون البلغم، ويمثل أهل العلم الدم، أما أهل المهن والحرف (التجار) فهم الصفراء وأخيرا السوداء يمثلها أهل الزراعة⁴، وأهل الزراعة هم عموم الرعيّة باعتبار طبيعة المجتمع العثماني الفلاحية.

يتعلق المشكل الأساسي فيما يخص الحفاظ على التوازن بالجسم بالبلغم والسوداء، والأمر ذاته قياسا على الدولة؛ من الصعوبة بمكان الحفاظ على البلغم (أهل السيف) تحت السيطرة، والمزارعون كما السوداء يتأثرون من خلال نقص التغذية، في العهود الأولى كان السلاطين يحمون الرعيّة (السوداء) من الظلم، أما في العهود اللاحقة وقعت الرعيّة ضحية للظلم وسوء الإدارة، فأثر هذا بدوره على أحد

¹ - Norman Itzkowitz: Op.cit, P101.

² . قارا مصطفى باشا مرزيفونلي (1634-1683م): صدر أعظم عثماني، وفقا للمصادر العثمانية فإن أصله تركي، حسب المصادر فإن والده أوردوج باي استشهد في حملة مراد الرابع على بغداد سنة 1638، فكفله صديق والده محمد باشا كوبرلو، الذي علمه مع ابنه أحمد كوبرلو، وهكذا نشأت العلاقة بينه وبين آل كوبرلو وتحدد مصيره السياسي معهم. شغل عدة مناصب تحت إدارة مربيه محمد باشا كوبرلو، وحين عين الأخير صدرا أعظم في 15 سبتمبر 1656 استدعى قارا مصطفى - الذي تقاعد بسبب مرضه - وعينه في سلك فئة الكتاب بمنصب تلخيصدجي. تعززت علاقته بالسلطان محمد الرابع. بعد وفاة أحمد كوبرلو عين قارا مصطفى باشا مرزيفونلي صدرا أعظم في 3 نوفمبر 1676 إلى 1683. سياسته الداخلية تميزت بالمحافظة، وأدار الدولة وفق مقتضيات اقتصاد الحرب... ومع كراهيته للأجانب إلا أنه كان ملما بالشؤون الأوروبية، جهز نفسه لفتح فيينا وفشل في ذلك فانهى سياسيا ومع الوشايات الكاذبة أمر محمد الرابع بإعدامه. ينظر:

C J Heywood: **KARA MUSTAFA PASHA**, The Encyclopaedia of Islam. Op.cit, Tome 4, 1986, p. 589-592

³ - Norman Itzkowitz: Op.cit, P 101-102.

⁴ - Op.cit, P102.

الأجهزة المركزية للجسم المعدة التي تقابلها الخزينة في الدولة¹.

المقصود هنا كما ورد عند كاتب جلبي أنّ خزينة الدولة تُغدّي بالمال تماما كالغذاء للمعدة فإذا كانت الرعية بحالة جيدة اشترت السلع فتصب بذلك مالا على الخزينة، وإذا كانت الرعية بائسة بسبب الظلم تضررت الخزينة²، ويقوم نعيما بتحليل قصير لطبقة التجار مزاج الصنفاء بالمجتمع، فعندما تكون الأخيرة في حالة توازن مع الأمزجة الثلاثة الأخرى تزيد شهية الجسم، نفس الأمر بالنسبة للتجار؛ عندما يكونون في الوضع الطبيعي يسود النظام والرفاهية بالمجتمع من خلال المبادلات التجارية وتحقيق الوفرة في السلع، ولكن كما هو الحال عندما تكون الصنفاء أقل أو أكثر من المعتاد فإنها تضر الإنسان وبالمثل كلما كان التجار إما مضطهدين أو جشعين طماعين، فإنهم يلحقون الضرر بانسجام المجتمع (cemâl-ı memleket) من خلال إرهاب وإفقار الناس³.

يذهب نعيما بعد ذلك للحدث عن وظيفة الصدر الأعظم فقال: في هذه الحالة وظيفته الصدر الأعظم كما الطبيب هي الحفاظ على التوازن الضروري بين طبقات المجتمع مثلما يحافظ الطبيب على التوازن بين الأمزجة، ويفسّر القياس الطبي حلقة مفهوم العدالة في النظرية الدورية للتاريخ من خلال ربطها بمفاهيم مراحل نمو الجسم مع التوازن الصحي للأمزجة الأربعة⁴.

معتمدا على مقدمة ابن خلدون وبناتقائية واضحة وبعد وصف الأعمار الثلاثة للدولة يحدد بالتفصيل خمس مراحل من ذاك القبيل، ويشرح أن إرادة الله تفسر أن كل "دولة ومجتمع" (devlet ü cem'iyet) تمر عبر مراحل محددة، كل مرحلة منها تتوافق مع سلوكيات مختلفة لرجال الدولة وسمات مختلفة بالمجتمع؛ فالمرحلة الأولى هي "فترة النصر" (zafer vakti)، والتي تكافح فيها الدولة "لتحرير نفسها من أيدي الآخرين وانتزاع السيادة" (eyâdî i i gayrdan intizâ 've mülke) (istîlâ için)، وفي هذه الفترة يكتفي الناس بخشونة وبساطة العيش، ويتميّزون بروح التضامن والعصبية (asabiyyet) التي هي سبب القوة والنصر، يكون الناس والجيش (kavm ve asker) متحدين يشتركون في كل الغنائم ولا يرغب أحد في أن يكون أعلى من غيره⁵.

تعزز الدولة المنتصرة نفسها في المرحلة الثانية "فترة الاستقلال" (istiklal)؛ ويبدأ الحاكم بإبعاد شعبه عن شؤونه، ليكون مستقلاً في قراراته ويمنح عائلته ثروته وقوته، علاوة على ذلك يجمع الحاكم

1 - Loc.cit.

2- Loc.cit.

3 - OTTPOL: Op.cit.

4- Norman Itzkowitz: Op.cit, P102.

5 - OTTPOL: Op.cit.

العبيد ويستخدمهم لمعاقبة أولئك الذين تقودهم نزواتهم للتصرف بشكل سيئ، وهكذا في حين أن هذه العصبية المشتركة كانت ضرورية في بدايات الدولة، فإنها بعد ذلك تقتصر على "العشيرة الخاصة للحاكم" (kavm-i hass)، ويلاحظ نعيماً أنّ معظم السلالات الحاكمة تملك في هذه المرحلة بسبب الصراع العشائري، إلا أن الدولة العثمانية تجاوزت ذلك المصير بسبب أنّ أصحاب وعبيد السلطان سواء كانوا من أهل السيف أو أهل القلم ينشؤون من أجناس مختلفة؛ مختلفين في عاداتهم وطباعهم وملابسهم وآدابهم¹.

تعتبر المرحلة الثالثة مرحلة للاستقرار، حيث السلام والطمأنينة والثقة والأمن، إنه وقت الازدهار حيث يتم الاعتناء بالفقراء والمحتاجين، ويتم احترام الشخصيات البارزة وتكريمها بالمناصب العليا ويجد الشباب الواعد طريقه إلى جهاز الدولة ويزدهر، بينما يتقاضى الجنود والخدم أجورهم في الوقت المناسب وهم على استعداد دائماً للدفاع عن البلاد، ويتصرف الحكام أصحاب الدولة (ashâb-ı devlet) دون أي منافس أو شريك، ويضعون قوانين للمجتمع وتصبح الدولة الآن قوية بما فيه الكفاية للاستغناء التام عن العصبية العشائرية (aşiret ü asabiyet) التي كانت ضرورية في مراحلها المبكرة، وتصبح مناصب الدولة مستقرة ويبدأ المسؤولون في تشكيل سلالات لأسرهم والدفاع عنها ضد المنافسين².

تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة الرضا والتسليم (kanâ't ü müsâleme) حيث يكتفي الناس هنا بأفعال أسلافهم ولا يضيفون شيئاً سوى تقليدهم، تتضخم قوة وثروة الوزراء والوجهاء، ويعيش الجنود في رخاء وازدهار، أصحاب المناصب العليا يضمنون مناصبهم لأنفسهم ولذريتهم، فيخضعون لأهوائهم، وفي الأخير يتنافسون مع بعضهم البعض، ويحكون المؤامرات والمكائد ضد بعضهم البعض علاوة على ذلك يصبح همهم جمع الثروة وبالتالي ينحرفون تدريجياً عن مفاهيم الحكومة العادلة وتبعاً لذلك يبدأ الجيش بالتمرد وعدم الانضباط، ويصبح إرساله إلى الحملات هو السبيل الوحيد لإبقائه تحت السيطرة، لتزيد أعباء الدولة نتيجة لذلك³.

يضيف نعيماً أنّ التدبير الحكيم لهذه المشاكل هو وضع حد للحملات العسكرية، ومحاولة إعادة تنظيم شؤون الدولة بدلاً عن ذلك، مرة أخرى فإن الإشارة إلى سياسي عصره والتلميح إلى السياسة المسالمة لرأيه حسين عموجه واضحة، ومن هنا يزعم أنّ الدولة العثمانية قد وصلت إلى المرحلة الرابعة خلال فترة الحصار الكارثي لفينا سنة 1094هـ/1683م أي في بدايات الحرب الطويلة التي وضعت

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

معاهدة كارلوفيتز نهاية لها¹.

تأتي أخيراً المرحلة الخامسة وهي مرحلة البذخ والإفراط في الإنفاق وصولاً إلى الانهيار، وخلافاً لأسلافهم فإن الناس في هذه المرحلة يسعون بجشع لامتلاك المساكن والملابس الفاخرة، إلى جانب ذلك فإنهم (والمقصود هنا الحكام) يبدؤون باكتساب عدة عادات غريبة؛ إنهم ينفقون المال في أهداف غير مشروعة مثل التباهي ومسايرة النساء في قضاء مصالحنهن ونزواتهن، بينما تراجع لديهم أهمية ازدهار الدولة وحماية الخزينة وتوفير ضروريات الجيش².

حتى الضرائب والرسوم المبتدعة تعجز عن تغطية النفقات؛ وبالتالي على الدولة أن تفرض ضرائب كبيرة على أولئك الذين كانوا في السابق يحصلون على ثروة تحت حمايتها، ومع نمو الاحتياجات يتعين على الدولة اللجوء حتى إلى القروض القسرية، والتي هي في الواقع قريبة جداً من المصادرة (müsadere) فيضطرّ الأثرياء حينها إلى الفرار، يضطر نعيماً للقول بأن الأمور يمكن تعديلها حتى في هذه المرحلة شريطة أن تتوقف الحملات العسكرية أولاً³، التركيز كله على التنفير من الحرب ومآلاتها الخطيرة على وجود الدولة، وبالتالي شرعية ووجود الركون للسلام.

ينتهي الجزء الأول من المقدمة بمخطط حول "دائرة العدالة"؛ حيث تستند السلطة على ولاء الجيش ويستند ولاء الجيش على الثروة، والثروة مصدرها الرعية وتزدهر الرعية بالعدالة، ليؤكد نعيماً مرة أخرى بأن الحملات العسكرية هي العامل الأكثر خطورة على دائرة العدالة فهي تعطلها، والمنطق السليم يقرب بأنه ليس من الحكمة الشروع في حملة عسكرية عند شح الموارد المالية وانقسام الجند؛ ففي مثل هذه الحالات اختار العديد من الحكام في الماضي عقد السلام بدلاً عن الحرب، ولتعزيز وجهة نظره يستدعي التاريخ بحديثه عن الصليبيين الذين استفادوا من الفتنة والحروب بين الحكام المسلمين في الشرق الأوسط واحتلوا الأرض المقدسة، ويستشهد بصلاح الدين الأيوبي الذي انتهز فرصة السلام وتمكن من استعادة الأرض المقدسة حين استطاع أولاً استعادة قوته المالية وتعبئة جيش موحد⁴.

يتوسّع نعيماً بعد ذلك في الحديث حول بعض الطبقات الحاكمة في ضوء نظرية المرحلة: فيعقد فصلاً صغيراً عن "أهل السيف والقلم" مستلهماً من ابن خلدون ويشدّد على أنّ حاجة الدولة إلى أهل السيف في بداياتها أكبر من حاجتها لفئة الكتاب من أهل القلم، إذ تكتفي فئة الكتاب بتنفيذ أوامر السلطان فقط وينطبق الأمر ذاته في المراحل الأخيرة للدولة، ومع ذلك في المراحل الوسطى يجب

1 - Loc.cit.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4 - Loc.cit.

على السلالة الحاكمة التي أصبحت الآن في قمة سلطتها أن تعتمد على فئة الكتاب أكثر من الجيش من أجل السيطرة على دخلها ونفقاتها وتنفيذ قراراتها، في هذه الفترة يحترم الملوك والوزراء كل من العلماء والكتبة ويرعونهم وهم بدورهم يحمون النظام الحاكم وشرف الدولة، ويشتركون في كل اجتماع أو مجلس مهم¹.

المبالغة في احترام العلماء وفئة الكتاب من أهل القلم لا تلحق ضرراً بالدولة، فنادراً ما يتجاوز أهل القلم حدودهم فهم عادة معتدلين في سلوكياتهم، وهم ينشؤون عادة في بيوت تناسب رتبهم وبصفة عامة هم خدم للدولة، على العكس من ذلك رجال السيف؛ فبينما يعرضون حياتهم وأرواحهم للخطر في حروبهم ضد أعداء الدولة، يميلون إلى الاعتماد على الأموال والهدايا التي تعطى لهم من قبل السلالة الحاكمة، وعندما تصبح هذه المكافآت مفرطة بشكل خاص، يعتاد الجنود حينها على الحياة المريحة؛ فتزداد تكاليفهم أكثر فأكثر، ويرغبون في تقليد رؤسائهم في الترف مما يؤدي في نهاية المطاف إلى الديون والفقر، فإذا قامت الدولة بزيادة رواتبهم من أجل مضاهاة نفقاتهم فستصبح الدولة مثقلة بالأعباء، وبالتالي تضطر لزيادة الضرائب على الفلاحين فيفتقر هؤلاء، لأجل ذلك يجب أن يُراعى التوازن بين أهل القلم وأهل السيف مع صرف هدايا ومكافآت حذرة لمن يستحقون².

يتابع نعيمان ويستنسخ حرقياً عن كاتب جلبي في دستور العمل لإصلاح الخلل؛ مع اقتراب نهاية حالة الجمود في الدولة (sinn-i vukûf-ı âhiri) وهو ما يفسر أكثر في المرحلتين الرابعة والخامسة تميل نفقات الدولة إلى التغلب على دخلها، إن موازنة الميزانية مهمة صعبة للغاية ويوافق نعيمان كاتب جلبي في أن استخدام القوة المقنعة (bir kâsirin kasrı) وحده القادر على موازنة الميزانية، لكن بدلاً من نصيحة سلفه التي ركزت على التخفيض التدريجي للمرتبات العسكرية من قبل صدر أعظم قوي يُفضّل نعيمان كما قرّر سلفاً الحاجة إلى التخلي مؤقتاً عن الحرب والحملات العسكرية حتى تتعافى مالية الدولة وتتوازن الميزانية ويستعيد الجيش قوّته³.

يجب على الحكومة خلال فترة السلم أن تهتم بإعادة تنظيم المدن ورفاهية الرعايا خاصة الفلاحين، وبشكل أكثر تحديداً يجب جمع مبلغ مساوٍ لمدفوعات الدولة لسنة واحدة عن طريق جباية الديون المستحقة من ممتلكات الدولة ومن ثم ينبغي خفض النفقات بعناية⁴.

يتحدّث نعيمان طويلاً عن أمجاد الدولة ثم عن هزائمها وانكساراتها سيما بعد فشل الحصار الثاني

1 - Loc.cit.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4 - Loc.cit.

لفيينا، وما يرمي إليه نعيما هو التأكيد مرة أخرى على الحاجة في مثل هذه الظروف إلى فترة من السلام فترة من الاستقرار والأمن، حيث يمكن بإجراءات هادئة وحكيمة فرض النظام واسترجاع الازدهار مجددا؛ يؤكد أن الفلاحين سيستريحون في ظل تخفيف العبء الضريبي، وسيتم ملء الخزانة مرة أخرى بتناقص النفقات، وسيتم إعادة تنظيم الجيش، وأخيراً تحت حكم عموجه حسين باشا كوبرلو تتم استعادة السلام وهنا يثني نعيما طويلا وبصورة مبالغ فيها على مرشده، وكذلك رئيس الكتاب رامي محمد باشا الذي أجرى المفاوضات في كارلوفيتز، معربا عن أمله في أن يمنح هذا السلام للدولة فرصة لاستعادة نظامها وازدهارها¹.

المقدمة الأولى متفائلة؛ تشتمل على أحداث ما بين 1110هـ/1699م (عندما تم توقيع معاهدة كارلوفيتز) و1114هـ/1702م (سنة استقالة عموجه حسين باشا كوبرلو)، بينما الصورة قائمة في المقدمة الثانية المكتوبة بعد وقت قصير من "واقعة أدرنة" من سنة 1115هـ/1703م ويخص الجزء الأكبر من هذه المقدمة للثناء على مسار الإصلاح الذي يتبعه السلطان أحمد الثالث وصدوره الأعظم².

يتحدّث هنا عن وظيفة شيخ الإسلام فيض الله وعن الممارسات الخاطئة والمحسوبة، ويذكر أن فيض الله لم يكن أول العلماء الذين قدموا وظائف لأقاربهم وأتباعهم، ويتابع القول أنّ تلك التعيينات مقبولة إذا كانت في صالح الدولة، لكن يجب أن يتم ذلك بشكل معتدل مع الأخذ في الاعتبار مسألة الكفاءة والنزاهة؛ عرفت في السابق سلالات للعلماء لكنهم تصرفوا بجزر واعتدال في حين سعت عائلة فيض الله إلى السيطرة على كل المناصب، من أصغر منصب إلى أهم المناصب العلمية والإدارية أو حتى إلى الصدارة العظمى³.

يعقب نعيما على الثقة التي منحها السلطان مصطفى الثاني لشيخ الإسلام فيض الله بقوله إن الملوك ربما يكون لديهم أهل ثقة يشرفون على وكلائهم من حيث أنّ أهل الثقة هؤلاء لا يؤذون الدولة، إن مهمة العلماء هي توجيه الوكلاء إلى الطريق القويم وليس فرض مصالحهم الخاصة ومن واجب الصدر الأعظم أن يتصرّف كأعلى منصب من بين جميع المناصب التي يمنحها السلطان لإدارة جميع الشؤون المتعلقة برفاهية الأشخاص والحزينة والجيش وما إلى ذلك، إذ كلما تدخل بعض المقربين من السلطان في صلاحيات الصدر الأعظم لدرجة إلغاء قراراته تقع شؤون الدولة في الفوضى

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

والاضطراب¹.

يواصل نعيما انتقاده لشيخ الإسلام قائلًا: علاوة على ذلك فإن مثل هذا الشخص قد يشرف على ممتلكات ومصالح الناس ويطنى على قوة الصدر الأعظم الوكيل المطلق للسلطان، وصعوده وقوته قد تتعاضد لدرجة أنه سيعتبر شريكا في سلطة السلطان، ليخلص نعيما إلى القول أن من شأن ذلك أن يؤدي إلى الخوف والكراهية وتدميره النهائي، ويضيف نعيما أن الإدارة والسياسة تتطلبان اللجوء إلى الحيل والدهاء (hîle ü sanâyi 'dolabı)؛ كما يجب على رجل الدولة من وقت لآخر التصرف مع العامة بوسائل مختلفة؛ يثيب بعضهم ويهدد بعضهم، بينما تتطلب الحكمة أن يحتفظ بخزينة سرية وقت التقاعد أو الحاجة، وكل هذه السلوكيات كما قال نعيما لا تصلح لكرامة العلماء الذين يفضل لهم الابتعاد عن شؤون الدولة بشكل عام²، كأن السياسة رجس من عمل الشيطان ينزهه منه العلماء.

عند سرده التاريخي لواقعة أدرنة امتدح السلطان أحمد الثالث وسلوكه، مشيرا من بين أمور أخرى أنه بمجرد أن أصبح سلطانا قام بتقليص نفقات القصر، وأخيرا وبعد أن قام أولاً بتعداد الأسباب العميقة التي أدت لواقعة أدرنة وقيم نتائجها، اعتبر أن وقف تدخل أسرة شيخ الإسلام فيض الله في التدخل بشؤون الدولة كان أمرا جيدا، لكن من ناحية أخرى لا يمكن اعتبار التمرد العسكري أمرا جيدا، وبينما وصلت الدولة العثمانية إلى مرحلتها الرابعة أو حتى الخامسة ازداد عدد الأشخاص الذين يتقاضون رواتبهم، وزادت نفقات الدولة لدرجة أن تغطيتها أصبحت مهمة مستحيلة³.

ينتقل نعيما من التشخيص إلى العلاج فيضع وصفة طبية تركز على خمسة مبادئ يمكن أن تنقذ الدولة: أولاً ينبغي على الحكومة أن توازن بين الإيرادات والنفقات، وهو ما يمكن القيام به بشكل أفضل عن طريق خفض النفقات، ثانياً على الحكومة أن تدفع معاشاتها ورواتبها في الوقت المحدد، الأمر الذي من شأنه أن يمنع اندلاع ثورات ضد الحكومة، ثالثاً يجب على الحكومة تطهير الجيش من الانتهاكات وجعله في كامل القوة من أجل مقاومة العدو الأجنبي واستعادة الاستقرار في الداخل، رابعاً يجب على الحكومة إدارة المحافظات بشكل عادل من أجل عودة الازدهار إلى الرعية، وأخيراً يجب أن يكون السلطان متسامياً قدر الإمكان، من شأن ذلك أن يجعل رعاياه يحبونه ويخافونه وبالتالي يطردون من عقولهم أي أفكار لسوء السلوك ثم بعون الله ستختفي المشاكل⁴.

1 - Loc.cit.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4 - Norman Itzkowitz: Op.cit, P 102-103.

اعترف نعيما بأنّ هذه الإجراءات قد تبدو مستحيلة وصعب تنفيذها بدقة في وقت قصير لكنه يمتلك اليقين بأن الدولة العثمانية يمكنها تجاوز حالة الضعف مستلزمة تجارب تاريخ أسلافها في الماضي؛ ففي الوقت الذي كانت فيه الدول الإسلامية تعاني من ضعف حقيقي جرّاء الحملات الصليبية اتّبع صلاح الدين الأيوبي مبادئ وتوجيهات الحكماء ونجح في إعادة تنظيم الجيوش الإسلامية واستعادة القدس في فترة وجيزة من الزمن، ثم يروي نعيما بالتفصيل مزايا اقتراحاته مستشهدا في ذلك بشواهد من قرون تاريخية عثمانية¹.

كانت تلك خلاصة إسهامات هزارفن ونعيما فيما تعلّق بأدب نصائح الملوك فكلاهما قدّم النصح للسلطان ضمن عمل تاريخي، وكلاهما اعتمد على ابن خلدون وعلى توليفة كاتب جلي للفكاك من الحتمية الخلدونية التي تنتهي بموت الدولة كموت كالكائن الحي وفق مدد زمنية محددة، وكلاهما رأيا أن الإصلاحات تحتاج قوة حكيمة متمثلة في السلطان أو الصدر الأعظم، لكن هزارفن كان تركيزه على إجراءات ضبط الميزانية، بينما كان تركيز نعيما على ضرورة وقف الحرب والانخراط في السلام مع العدو الخارجي لترتيب البيت الداخلي، وهي المهمة التي كلفه بها راعيه حسين كوبرلو.

تعرضنا في هذا الفصل لأدب نصائح الملوك في التراث الإسلامي عامة والعثماني على وجه الخصوص، من حيث أن ذلك الأدب عُني بتقديم الإرشادات العملية للسلوك القويم الذي ينبغي لولاة الأمر الانضباط به في إدارة الدولة، إلى جانب تشخيص حال الدولة وتحديد مواطن الضعف واقتراح الحلول العملية الناجعة، وعرضنا بعضا من أبرز كتّاب ذلك الفن، وخصصنا بالحديث بعض مشاهير ذلك الفن من فئة الكتاب من أهل القلم عند العثمانيين؛ قوجي بك وكاتب جلي والمؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما، لأنهم تعبير صادق عن بقية من كتبوا في هذا الفن وهم كثير، بل إن الكثير ممن كتبوا بعدهم نسجوا على منوالهم.

نلاحظ أنّ أدب نصائح الملوك عند العثمانيين ظلّ عموما إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر الميلادي محكوما بالأطر التقليدية؛ بضرورة الاكتفاء بالمرورث الإسلامي العثماني، وعدم الالتفات إلى ما عند بقية الأمم الكافرة إلاّ ما نذر، وفق نظرة يحكمها عداء غليظ أنضجته صراعات القرون الوسطى، وحوّلتها إلى عقدة تفوّق تُعمي عن التّطّلع لجديد الآخرين لذلك ظلّ المفكرون العثمانيون قليلو الإمام بالتحولات الكبرى التي كانت تحدث بالعالم المحيط بالدولة العليّة العثمانية، سيّما أعداؤهم الأوروبيين، وعقدة التفوّق شأنها شأن الحب يعمي ويصم؛ تحول بين الدّول القويّة وبين استشعار المتغيرات فيما حولها.

¹ - OTTPOL : Op.cit.

الفصل الثالث: العثمانيون في المنظر الأوروبي، التأثير والتأثر

المبحث الأول: تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين

المبحث الثاني: التأثير العثماني الأوروبي المتبادل

المبحث الثالث: العثمانيون في عيون الرحالة

نفهم من خلال هذا الفصل الإطار المرجعي الذي تمّ فيه التبادل والثقاف الحضاري بين العثمانيين والأوروبيين بعيدا عن الصراعات والحروب؛ فالعصر الحديث الذي افتتحه العثمانيون بفتح القسطنطينية سنة 857هـ/1453م مُنهين بذلك الإمبراطورية البيزنطية التي ظلت قائمة أكثر من ألف عام، نظروا إلى أوروبا كمجال حيوي للتوسع نحوه باعتبارها دار حرب ضمن ثنائية (مسلم/كافر)، والأوروبيون الذين أفرعهم سقوط روما الثانية نظروا إلى العثمانيين كخطر داهم يهددهم في وجودهم فشنوا عليهم الحملات الصليبية المتوالية ضمن ذات الثنائية، مما يجعل التبادل الحضاري والثقافي أمر صعب ومعقد جدا.

يوضح هذا الفصل تطور نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين بعد امتصاصهم لصدمة سقوط القسطنطينية، ذلك التطور الذي انبنى على فهم طبيعة العدو العثماني الغالب ودراسة دينه وعاداته وهو ما قاد الكثير منهم إلى اعتناق الإسلام اقتناعا أو على قاعدة المغلوب ومولع بتقليد الغالب ومن خلال هذا الفصل أيضا نفهم ذلك التحوّل الذهني الطويل الذي نقل العثمانيين شيئا فشيئا من رفض المغلوب الحضاري من أوروبا التي وصفوها بكفرستان (بلد الكفار)، إلى الاستفادة منهم بداية في الجانب التقني المجرد عن القيم المرتبطة بالهوية الدينية؛ مثل الأسلحة وصك العملة وبعض تقنيات البناء وغيرها، ولأنه لا يمكن غالبا استيراد عالم الأشياء بعيد عن عالم الأفكار، مهدت هزائم العثمانيين في القرن السابع عشر سيما بعد كارلوفيتز إلى النظر إلى الأوروبيين نظرة مختلفة فبدأوا يقتبسون منهم كل شيء من الإدارة والقوانين وحتى العادات، فنفهم بذلك كيف انتقلت النخب العثمانية وفي القلب منهم فئة الكتاب من أهل القلم، من الاستلهام من الشرق إلى الاستلهام من الغرب.

سيكون الحديث في هذا الفصل عن تطوّر نظرة الأوروبيين إلى العثمانيين الذين شاركوهم قارّتهم نظرة تشابكت فيها العلاقات من الصراع الدامي إلى التبادل الثقافي والتجاري، وسنرى كيف استفاد الأعداء من بعضهم، وأيهم كان أكثر انفتاحا على الآخر، وأيهم كان أكثر تأثيرا وتأثرا، وسنكتشف كيف نجح الفن والنسيج في تطوير علاقة غير علاقة المدفع والبارود، سنرى موقف الرحالة الأوروبيين وهم يتوغّلون في دولة شكّلت لدى الكثير منهم ميدانا خصبا للهبة والروعة، فيها سحر الشرق ومخاوفه.

المبحث الأول: تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين

بدايات الاهتمام الأوروبي بالعثمانيين

معنى كلمة "تركي" في المنظور الأوروبي والعثماني

القنوات التي تعرف من خلالها الأوروبيون على العثمانيين

تطور نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين (إيطاليا نموذجا)

نظرة البابوية إلى العثمانيين

استنتاجات حول تطور نظرة الأوروبيين حول العثمانيين

معرفتنا للتشابكات العثمانية الأوروبية سيما في بُعْدِهَا الثقافي مهم جدا لفهم كيف ولما تأثرت الأوروبيون بالعثمانيين بداية، ثم كيف ولما تأثرت العثمانيون بالأوروبيين انتهاء، فما من أمة من الأمم إلا وتأثرت وتأثرت فيمن حولها، فكان التأثير والتأثر سببا في ارتفاعها أو اضمحلالها، فقد كانت أوروبا على موعد مع العثمانيين منذ أن أصبح للسلطان أورخان ابن عثمان المؤسس موطن قدم بأوروبا في غاليبولي، ثم تأكّد وجود العثمانيين بأوروبا حين أُنْهوا الإمبراطورية البيزنطية، واتخذوا عاصمتها القسطنطينية عاصمة لهم باسم إستانبول.

شغل العثمانيون حيّزا كبيرا في التاريخ العالمي مع بسط نفوذهم على القارات الثلاثة (آسيا وأوروبا وإفريقيا) فيما كان يعرف بالعالم القديم؛ فالقبائل التركية التي هاجرت تحت ضغط المغول في الشرق إلى الأناضول بآسيا الصغرى، انتقلت من إمارة تخوم إلى دولة وما لبثت أن صارت قوّة إقليمية فدولة عالمية مترامية الأطراف تدقّ بصولجانها قلب أوروبا بفينينا وعينها على روما وصولا إلى استرجاع قرطبة. يذكر المؤرخون أنّه حتى الفتح العثماني لروما الثانية "القسطنطينية" سنة 1453/857م وخروج الإمبراطورية البيزنطية من الجغرافيا إلى التاريخ، لم يؤدّ استقرار الأتراك بالأناضول وأراضي البلقان في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي إلى إثارة صدى أدبي بأوروبا، فقط إعادة الاستيلاء على الأرض المقدسة [سنة 492/1099م] هو من حشد العقول ورفع الاهتمام بالشرق، لكن سقوط القسطنطينية وتمدّد الدولة العثمانية من شمال إفريقيا إلى حدود بلاد فارس وسهول المجر تحت جعلت ما يسميه المؤرخون الغربيون بـ "الإمبراطورية التركية" القوة الرائدة في العالم، ومع التقدم المستمر للجيش العثماني في البحر الأبيض المتوسط وغزواتهم المتكررة بأوروبا إلى غاية أسوار فيينا في 935/1529م فرضت تركيا نفسها - حسبهم - كعدو هائل لا يقهر¹.

بدايات الاهتمام الأوروبي بالعثمانيين

بدأ الأوروبيون إذ مع فتح القسطنطينية يهتمون بأخبار هؤلاء الذين ورثوا مقاليد التاج البيزنطي والكنائس الشرقية، سيما والأوروبيون كانوا يسعون سعيا حثيثا قبل سقوط القسطنطينية بسنوات لتوحيد كنائس الغرب والشرق تحت مظلة باباوات روما²، وبعد سقوطها فرّ الفارّون منها ومن غيرها من المدن

¹ - Dominique Arrighi : " Le récit de voyage dans l'empire ottoman : traditions et variations dans les Lettres turques de Busbecq (1581-1589)", Camenae, n°1, sorbonne, France, janvier 2007, P1.

² . من ذلك مثلا ما عرف في التاريخ بمجمع فيرارا - فلورنسا (Council of Ferrara-Florence): وهو واحد من مجتمعات مسكونية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية امتد خلال (1438 - 1445)، حيث حاولت الكنيستان اللاتينية والبيزنطية=

التي فتحها العثمانيون، وبدأ يتزايد بذلك الاهتمام الأوروبي بالعثمانيين؛ واحدة من أوائل الرسائل المكتوبة عن العثمانيين في الغرب هو عمل نيكولا ساغوندينو (Nicola Sagundino)¹ الذي كتب سنة 1456م كتابا بعنوان: عن الأصل الذي يُعتقد انحدر الأتراك منه (Liber de familia Autumanorum id est Turchorum) وأهداه لمن أصبح فيما بعد البابا بيوس الثاني (Pius II)² في الفترة (1458-1464م)؛ يذكر ساغوندينو بهذه الرسالة أنّ السلطان محمد الفاتح خطّط لغزو روما بحجة أنّه وريث الإمبراطورية الرومانية بفتحها للقسطنطينية، وردا على ذلك كتب البابا بيوس الثاني ذو النزعة الإنسانية في رسالته إلى الفاتح والتي ظلّت كعمال [لم يرسل قط للفاتح]: أنه إذا أصبح محمد الثاني مسيحيا إذن سيكون من حقه الحصول على لقب الوريث لروما³.

بالنسبة لتاريخ عهدي محمد الفاتح وبايزيد الثاني يعتبر تاريخ جيوفاني ماريا ديغلي أونجيلولي (Giovan Maria degli Angiolelli)⁴ الذي يغطي الفترة حتى سنة 920هـ/1514م بالغ الأهمية

التوصل إلى اتفاق حول اختلافاتهم العقائدية والتوحد، وبعد نقاشات طويلة تم التوقيع على مرسوم الاتحاد بين المجموعتين المسمى: دع السماوات تبتهج (Laetentur Caeli) في 6 يوليو 1439. لكن الاتحاد كان مجرد حبر على ورق. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Council of Ferrara-Florence**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/event/Council-of-Ferrara-Florence> .

لم يكن الاتحاد ضد رغبة رجال الدين اليونانيين البيزنطيين فقط، بل كان أيضاً جزءاً من السياسة العثمانية لصالح الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية (التي ما زالت تحتفظ رسمياً بطابعها المسكوني) ضد الكنيسة الكاثوليكية. ينظر:

Mustafa Soykut: **Image of the "Turk" in Italy, A History of the "Other" in Early Modern Europe: 1453 -1683**, Islamkundliche Untersuchungen (Book 236), Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 2001, Seite 53.

¹ . نيكولا ساغوندينو (Nicola Sagundino) (...-1463م): مؤرخ إيطالي لا يعرف عنه الكثير؛ كان في خدمة جمهورية البندقية بمدينة سالونيك (Thessalonica)، وعندما تم فتح العثمانيون المدينة سنة 1430م وقع في الأسر وظل أسيراً ثلاثة عشر شهرا قبل أن يتمكّن من العودة إلى بلاده. كتابه " عن الأصل الذي يُعتقد انحدر الأتراك منه " أشاد به المستشرق الألماني فرانز بابينجر (Franz Babinger) باعتباره أول محاولة أوروبية لكتابة تاريخ العثمانيين. ينظر:

Theodōros Spandouginos: **On the Origins of the Ottoman Emperors**, Trans: Donald M. Nicol, Cambridge University Press, United Kingdom, 1997, P XXI.

² . بيوس الثاني (Pius II) (1405-1464): تولى البابوية في الفترة (1458-1464م) فشل في توحيد أوروبا في حملة صليبية ضد الأتراك، وفشل في إجراء إصلاحات كنسية واسعة. ينظر:

Joseph Gill: **Pope Pius II**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Pius-II> .

³ - Halil Inalcik: **Turkey and Europe in History**, EREN Press, Istanbul, Turkey, 2006, P178.

⁴ . جيوفاني ماريا ديغلي أونجيلولي (Giovan Maria degli Angiolelli) (1451-1525م): مغامر وتاجر من أهل البندقية شارك كشاب في الدفاع عن نيجروبونتي المحاصرة من قبل محمد الثاني في صيف 1470م، فوقع في الأسر ونقل إلى القسطنطينية ودخل في خدمة العثمانيين حتى سنة 1483م أين عاد إلى وطنه. ألف: التاريخ التركي (Historia Turchesca) نشر لأول مرة سنة 1490م، وهو مصدر جدير بالاهتمام. ينظر:

لكونه تضمن ملاحظات شاهد عيان، باعتباره قضى سنوات بالقصر العثماني كخادم، وعمل آخر مهم أيضا لثيودوروس سبانديجينو كانتاكيسينو (Theodoros Spandouginos Cantacusino)¹ الذي كان من عائلة بيزنطية أرستقراطية، ذهب واستقر بالبندقية بعد فتح القسطنطينية. كتب ثيودوروس كتابه: خطاب ثيودوروس سبانديجينو كانتاكيسينو حول أصل الأمراء الأتراك (Discorso di Theodoros Spandouginos Cantacusino dell'origine de prencipi Turchi) لتشجيع العالم المسيحي على تجريد حملة صليبية، وقدمه سنة 1509م إلى الملك الفرنسي لويس الثاني عشر (Louis XII) (ت1515م)، وفي سنة 1519م قدمه إلى البابا ليو العاشر (Leo X)² وتم تكريس النسخة الإسبانية لتشارلز الخامس (Charles V)³ سنة 1520م. ويبدو أن المؤلف استخدم الحوليات العثمانية في هذا العمل؛ إذ يقترح على الملك الفرنسي أن يفكر في الصفويين كأقوى منافس ضد الأتراك⁴. نجد كتابا آخر حمل عنوان: بيان حول قيم ومواقف وحيل الأتراك (Tractatus de moribus, Georgius de Hungaria) وهو مهم بشكل خاص كمصدر للمعلومات؛ عرّف من خلاله العالم الغربي العثمانيين (condicionibus et nequitia Turcorum) لمؤلفه جورج جوس الهنغاري (Georgius de Hungaria)⁵

A. M. Piemontese: **Angiolello Giovanni Maria**, Encyclopædia Iranica, <http://www.iranicaonline.org/articles/angiolello-giovanni-maria-1451-ca-1525>, August 3, 2011.

1. ثيودوروس سبانديجينو كانتاكيسينو (...؟ - 1538م): مؤرخ يوناني. بعد وفاة والدته أرسله والده ليعيش مع عمته الشهيرة ماريا (Maria) التي تزوجها السلطان مراد الثاني، وبعد وفاة السلطان سنة 1451م منحت حريتها باعتبارها مفضلة السلطان، واعتبرها السلطان محمد الفاتح بمثابة أمه وظلّت على مسيحيته، في هذا الجو قضى ثيودوروس جزءا كبيرا من طفولته فمكّنه ذلك من معرفة الأتراك ومعرفة لغتهم وعاداتهم وحكامهم، ولم يكن متعصبا ضدهم لكنه كان يحذر المسيحيين منهم. ينظر:

Theodoros Spandouginos: Op.cit, P VII-XXV.

2. ليو العاشر (Leo X) (1475-1521م): بابا روما (1513-1521م). رعى الفنون وجعل روما عاصمة للثقافة الأوروبية. أجاز سنة 1515م بيع صكوك الغفران في ألمانيا فأدّى ذلك لإصلاحات مارتن لوثر. ينظر: المرجع نفسه، ص401.

3. تشارلز الخامس (1516-1556م): ملك إسبانيا ورأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1519-1556م) وأحد أعظم الملوك في تاريخ إسبانيا كلها، ألحق هزيمة فظيعة بالجيش الفرنسي، وأسر الملك الفرنسي فرانسوا الأوّل في (24 فبراير 1525)، فراسلت أم الأخير السلطان سليمان القانوني لإطلاق سراح ابنها، فلبّى القانوني طلبها وضغط على تشارلز فأطلق سراحه. ينظر:

Halil Inalcik: Turkey and Europe in History, Op.cit, P155- 156

4 - Halil Inalcik: Op.cit, P178-179.

5. جورج جوس الهنغاري (Georgius de Hungaria) (ولد حوالي 1422 - 1502) أسير حرب مجري أسره العثمانيون خلال واحدة من أكبر مدهاماتهم سنة 1438م على ترانسلفانيا، كان عمره في ذلك الوقت خمسة عشر عاما، ربما يكون كتابه أول كتب الرحلات. قضى في الأسر عشرين عاما حتى أطلق سراحه سنة 1458م، اعتنق الإسلام الصوفي، ولكنه بعد مدة ستة أو سبعة أشهر عاد إلى العقيدة الكاثوليكية، ووصف المعتقدات التركية بأنها "أوهام شيطانية". ينظر =

والإسلام، وقد كتب مارتن لوثر (Martin Luther) (ت1546م) مقدمة لترجمته الألمانية بسبب الاهتمام المتزايد بالعثمانيين اعتباراً من سنة 1453م، وجمع فرانسيسكو سانسوفينو (Francesco Sansovino)¹ الأعمال الرئيسية المكتوبة بإيطاليا عن العثمانيين في مؤلف بعنوان: التاريخ العام لأصل وحروب واستبداد الأتراك (Historia Universale Dell'Origine, Guerre, Et Imperio De Turchi) طبع بالبنديقية سنة 1560م، وأعيد طبعه سبع مرات حتى سنة 1654م².

لعب الفارّون من الفتح العثماني إلى جانب الأسرى دوراً مهماً في نقل وتشكيل صورة العثمانيين في الذهنية الأوروبية، مع ذلك يمكن القول أنّ صورة العثمانيين لدى الأوروبيين لم تشكلها الحروب فقط؛ إذ يذهب بعض المهتمين بالتاريخ العثماني إلى أنّ صورة الإسلام وبالتالي العثمانيين لاحقاً في أوروبا تشكّل أصلها من ثلاثة عناصر: أولها الفتوحات الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وإسبانيا وصقلية بين القرنين الأوّل والثالث الهجري/السابع والتاسع الميلادي، في الأراضي التي كانت تعتبر امتداداً طبيعياً للعالم المسيحي، وتدعمت هذه الفتوحات التي قلّصت حدود العالم المسيحي وحصرته في إطار أوروبا بغزوات العثمانيين بأوروبا الشرقية ابتداءً من أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وتمثل العنصر الثاني في ما سمي بالمشاكل اللاهوتية [أي العقائدية] التي نشأت بظهور الإسلام الدين الأخير في سلسلة الديانات السماوية الذي جاء لتصحيح واستبدال المسيحية كدين عالمي، وتمثّل العنصر الثالث في الافتقار العام للوحدة السياسية بالعالم المسيحي³ - الذي انحصر بأوروبا - بالتزامن مع قمة التوسع الإسلامي، علاوة على قمة الوحدة العثمانية⁴.

معنى كلمة "تركي" في المنظور الأوروبي والعثماني

ينبغي القول قبل الخوض في المصادر التي أسهمت في تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين

Franklin D. Lewis: **Rumi - Past and Present, East and West: The Life, Teachings, and Poetry of Jalâl al-Din Rumi**, 1 Edt, Oneworld Publications, England, 2014, P499.

¹ .فرانسيسكو سانسوفينو (Francesco Sansovino) (1521-1586): يقال أنه كان تحت رعاية البابا يوليوس الثالث (Julius III)، كرس حياته بالكامل للأدب والتأليف. كان كاتباً كبيراً وترك عدة مؤلفات. ينظر:

Thomas Roscoe: **The Italian Novelists: Selected from the Most Approved Authors in that Language: From the Earliest Period Down to the Close of the Eighteenth Century: Arranged in an Historical and Chronological Series**, Vol 3, Edt 2, W. Simpkin and R. Marshall, London, 1836, P105.

² - Halil Inalcik: Op.cit, P179.

³ .كان من المفترض أن تشكل أوروبا في العصور الوسطى وحدة موحدة جامعة مسيحية (Res publica christiana) تحت مظلة البابا والإمبراطور الروماني المقدس، بدأت هذه الوحدة تتلاشى مع صعود الملكيات الوطنية في القرن الخامس عشر. ينظر:

Ibid, P111.

⁴ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 2.

أنّ التركي كان رديفاً للإسلام في نظر الأوروبيين¹؛ فكلمة ترك استخدمت للدلالة على مسلم بصرف النظر عن أصوله العرقية باعتباره عضواً في دولة متنوّعة الأعراق؛ فعبارة "تحوّل إلى تركي" في بعض المصادر معناها أنّه أصبح مسلماً، وهذا ما يؤكّده معظم الباحثين في التراث العثماني، بل يؤكّد أحدهم على أنّه "من أواخر القرن الرابع عشر إلى بداية القرن العشرين كان الأوروبيون يميلون إلى تعريف الإسلام بالإمبراطورية العثمانية، خصوصاً بعد سحقهم للصليبيين سنة 920هـ/1514م، وانتهاء بضمهم لمصر سنة 923هـ/1517م ... فقد أصبح العداء للترك قريناً بالإيمان"²، بمعنى أنّ الأوروبيين نظروا إلى العثمانيين من خلال منظورهم الديني على أنّهم يمثلون الإسلام.

ينبغي أن نعلم أنّ معنى كلمة "تركي" وفق المنظور الكلاسيكي العثماني كان يُنظر إليها غالباً على أنّها إشارة إلى "الترکمان" الرُّحَّل بالأناضول³، وغالباً ما كانت تدلّ على الجلافة والقسوة، وهؤلاء الرُّحَّل لم يكونوا في أي حال من الأحوال من النخبة الحاكمة العثمانية، وعلى الرغم من أنّ كلمة ترك لها معاني ودلالات أخرى، فهل جاءت للدلالة على النخبة العثمانية الحاكمة أو السلطان؟ بعبارة أخرى هل استعمل أعضاء النخبة الحاكمة العثمانية - سواء كانوا من العرق التركي أم لا (نظراً لأن الإمبراطورية

¹. قال المؤرخ الأمريكي ليو كارل براون (Leon Carl Brown): لقد رفض الغرب من جانبه عن عمد استدعاء الإمبراطورية العثمانية باسمها، ووصفوا نظامها متعدد الأديان واللغات والأعراق بأنه "تركي" وحاكمه حاكم "الأترك". إن أولئك الذين حكموا من ضفاف البسفور هم أنفسهم استخدموا كلمة "الترك" بمعنى "ريفّي" أو 'فلاح'، وقال المؤرخ ميتن كونت (İ. Metin Kunt) "على الرغم من أن الإمبراطورية [العثمانية] كان يُشار إليها في كثير من الأحيان باسم "تركيا" إلا أن هذا المصطلح نفسه - إما ككيان سياسي أو جغرافي - كان غير معروف بالكامل في اللغة التركية العثمانية أو في أي من اللغات الأخرى الكثيرة التي يتحدث بها رعاياها داخل حدودها". ينظر:

Gerald MacLean: **Looking East: English Writing and the Ottoman Empire before 1800**, Palgrave Macmillan, New York, USA, pub1, 2007, P5-6.

². رأي ذكره المؤرخ الأمريكي والخبير في تاريخ أوروبا في القرون الوسطى وخاصة الحروب الصليبية كينيث م. سيتون (Kenneth M. Setton) (1914-1995م) ضمن كتابه العداء الغربي للإسلام والنبوءات حول مصير الترك. ينظر:

Kenneth Meyer Setton: **Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom**, Vol 201, American Philosophical Society, Philadelphia, USA, 1992, P17.

³. أحد الروايات الأولى لبندقيين عن الأترك بالأناضول مأخوذة من كتاب الرحالة البندقي الشهير ماركو بولو (Marco Polo) في كتابه (Il Milione) أو رحلات ماركو بولو سنة 1260م. قال: يمكن تمييز ثلاث فئات بين سكان تركمانيا. التركمان الذين يجولون محمد ويتبعون شريعته هم أجلاف ويتصفون بالبلادة. يسكنون بين الجبال وفي الأماكن التي يصعب الوصول إليها، يستهدفون دائماً العثور على مرعى جيد لأبقارهم، حيث يعيشون كلياً على طعام الحيوانات... إلى جانب التركمان نجد اليونانيين والأرمن... إنهم جميعاً خاضعون للخان الأعظم إمبراطور التتار الشرقيين، الذي يعين حكامهم. ينظر:

Marco Polo: **The travels of Marco Polo, the Venetian**, Trans: Manuel Komroff, W. W. Norton & Company, New York, USA, 1934, P24.

العثمانية كانت إمبراطورية متعددة الجنسيات كالإمبراطوريات بالمعنى الكلاسيكي دائماً) - كلمة "ترك" تعبيراً عن أنفسهم؟ غالباً استعملت النخبة العثمانية كلمة ترك بمعنى تحقيري¹.

القنوات التي تعرف من خلالها الأوروبيون على العثمانيين

نقول بعد ذلك أنه عدا الحروب والمعارك فثمة قنوات أخرى تمّ التّعرف من خلالها على العثمانيين يمكن حصرها في سبعة قنوات: كان أولها التجارة سيما إذا علمنا أنّ أول امتياز تجاري عثماني مُنح إلى جمهورية جنوة² سنة 753هـ/1352م وبعد ذلك إلى جمهوريتي البندقية وفلورنسا³، وأول اتفاق تجاري مع موسكو⁴ كان سنة 896هـ/1491م، ثم مُنحت نفس الامتيازات التجارية لفرنسا في 977هـ/1569م، وإنجلترا في سنة 988هـ/1580م، وهولندا سنة 1021هـ/1612م⁵، وهكذا أسهم التجار في التّعرف المباشر على العثمانيين ونقل معارفهم إلى مواطنيهم الأوروبيين.

أسهمت الجوسسة كقناة ثانية في تشكيل صورة العثمانيين في الوعي الجمعي الأوروبي؛ إذ المعروف أنه في صراع الدول والإمبراطوريات تلعب الجاسوسية دوراً حاسماً ليس فقط في تحقيق الانتصارات، بل أيضاً في معرفة العدو من حيث نقاط ضعفه وقوته، وغالباً ما تكون تقارير الجواسيس أكثر موضوعية من غيرها من التقارير والكتابات، ففي زمن الصراع العثماني الأوروبي كان الجواسيس هم مصدر رئيس للمعلومات حول الدولة العثمانية قبل وجود سفارات دائمة⁶.

¹ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 112.

² مدينة وميناء بالبحر الأبيض المتوسط في شمال غرب إيطاليا. تأسست بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وأصبحت جمهورية تديرها جمعية طوعية لجميع المواطنين، وذلك حوالي سنة 1096م. وأصبحت قوة بحرية تجارية تتعامل بندية مع أعظم الملكيات. ضمتها فرنسا إليها سنة 1805م ثم أصبحت ضمن إيطاليا سنة 1861م. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Genoa, Italy**, Encyclopedia Britannica,

<https://www.britannica.com/place/Genoa-Italy> .

³ جمهورية فلورنسا وسط إيطاليا، تأسست كمستعمرة عسكرية رومانية حول القرن الأول قبل الميلاد، كانت عاصمة إيطاليا (1865-1870). ينظر:

John Foot and others: **Florence Italy**, Encyclopedia Britannica,

<https://www.britannica.com/place/Florence> .

⁴ موسكوفي (Muscovy) أو دوقية موسكو الكبرى عبارة عن نظام حكم روسي في العصور الوسطى، كان مركزاً في موسكو بين عامي 1283 و1547. كانت دوقية موسكو الكبرى خليفة إمارة موسكو وسلف روسيا القيصرية. ينظر:

Lars Ulwencreutz: **The Royal Families in Europe V**, Lulu.com, North Carolina, USA, 2013, P88.

⁵ - Halil Inalcik: Op.cit, P110.

⁶ في غياب التمثيل الدبلوماسي بين الدولة العثمانية وإمبراطورية آل هابسبورغ، لجأ شارل الخامس شارلوكان إلى شبكات استخباراتية سرية، كان السفراء رأس حربيها سيما سفير إسبانيا بالبندقية. ينظر =

يمكن اعتبار القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي هو قرن العصر الذهبي للجوسسة لاعتبارات تاريخية ودولية ويمكن ذكر اعتبارين: أولاً اكتسبت المعلومات أو الأخبار نفسها أهمية خاصة في القرن السادس عشر بسبب عوامل متنوعة ولكنها ذات صلة، مثل تطوّر التبادل الدولي وفتح طرق تجارية جديدة، والطباعة والإصلاح، وتأسيس نظام البريد العام وتكثيف العلاقات الإنسانية، فبفضل هذه التطورات اكتسبت الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية والاجتماعية طابعاً دولياً وعالمياً لم تكن تمتلكه من قبل، كما أن الأخبار نفسها وسّعت نطاقها واكتسبت دوراً أكثر وضوحاً في الحياة اليومية للعامة؛ وبذلك سمح التطور العام للثروات والثقافة والتقنية بتكوين مصادر لا غنى عنها لدراسة المعلومات، أما الاعتبار الثاني تمثل في أنّ تطوّر "المنظومة الإدارية" نجم عنه تعقيد وكفاءة آليات الدبلوماسية السرية، وقد شهد هذا القرن العديد من الاتجاهات المصاحبة التي وسّعت من تأثير الحكومات المركزية وتعقيدها وجعلت التجسس أكثر أهمية¹.

نظراً لخطورة الجواسيس على كيانات الدول، فإنّ العثمانيين كانت لهم شبكة استخبارات عالية الكفاءة واتخذوا احتياطات واحترازات عديدة لمنع اختراق كيانهم، وكانت الطريقة الأكثر راديكالية التي انتهجها العثمانيون لمواجهة الجوسسة هي إغلاق الحدود مع الدولة التي كانوا معها في حالة حرب؛ ففي سنة 980هـ/1572م تم إرسال أمر إلى الولاة والقضاة في المناطق الحدودية للسماح بدخول التجار اليهود الذين جاءوا من البندقية إلى الدولة العثمانية مع النصّ على أنه يجب أن يكونوا حذرين من جواسيس البندقية الذين قد يستغلون الفرصة لعبور الحدود التي كانت مغلقة بعد اندلاع الحرب العثمانية - البندقية سنة 978هـ/1570م؛ خلال هذه الحرب أدّى احتمال اختراق عملاء العدو الأراضي العثمانية إلى إغلاق العثمانيين لحدودهم البلقانية بالكامل بدلاً من حدود البندقية فقط، كما أغلقت الحدود إلى غاية بولندا، بعد أن قبض المسؤولون العثمانيون على جواسيس كانوا يحملون خطابات كتبها بطريارك تسالونيكى إلى بولندا وموسكوفي²، وكل ذلك يدل على استشعار العثمانيين العميق لخطر الجوسسة كمصدر مهم للمعلومات.

Jean Aubin et autres : " **Histoire des relations entre l'Europe et l'Orient du XVIe au XVIIIe siècles** ", Livret de la 4e section, l'École pratique des Hautes Études, sciences historiques et philologiques, France, 1981-82, P161.

¹ - Emrah Safa Gürkan: "The Efficacy of Ottoman Counter-Intelligence in the Sixteenth Century", Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, Vol 65, Akadémiai Kiadó, Budapest, Hungary, 2012, P2.

²- Ibid, P4.

تمثلت القناة الثالثة في تشكيل الصورة العثمانية في السفارات، وكان يرافق السفير في الكثير من الأحيان فنانيين وعلماء ورجال دين وهؤلاء جميعا كانوا جسورا لنقل صورة العثمانيين إلى أوروبا ولم يكن السفراء بعيدون عن شبكات التجسس كما هم في كل العصور؛ فقد كان السفراء شخصيات مهمة في عالم التجسس؛ حققوا مكاسب من وراء وصولهم السهل إلى المسؤولين الحكوميين المهمين بفضل الامتيازات الدبلوماسية التي منحتهم حرية أكبر نسبيا للعمل، إلى جانب الوسائل المالية التي مكنتهم من تجنيد جواسيس في العاصمة العثمانية، ولم يكن ذلك خافيا عن العثمانيين¹، والسفراء كمسؤولين حكوميين متعلمين سيكونون جواسيس أكثر خطورة من أولئك المتخفين في مهن أخرى² وعن طريق التجار والسفراء الأوروبيين تعلم العثمانيون حتى العوام منهم على بعض العادات والتقاليد والثقافة الأوروبية.

تمثلت القناة رابعة التي شكّلت صورة العثمانيين لدى أوروبا في الجمهوريات البحرية كالبنديقية وفلورنسا وراكوزا وغيرها، فقد ارتبطت هذه الجمهوريات بعلاقات تجارية ودية مع الدولة العثمانية حتى قبل فتح القسطنطينية، ونظرا لقرىها من حدود العثمانيين كان بمقدور رعايا هذه الجمهوريات التجول بحرية نسبيا داخل الأراضي العثمانية، وكانت هذه الجمهوريات تمارس التجسس أيضا لحسابها أو كانت قوات تجسس خلفية لدول أخرى كإسبانيا، وكان العثمانيون يدركون ذلك كله ويتخذون الاحتياطات المناسبة³.

كانت البنديقية وراكوزا (Ragusa)⁴ الدولتان الرئيسيتان اللتان غذيتهما بقية أوروبا بمعلومات

¹ . مثلا أمر الحاكم العام في مدينة بودا [تابعة للمجر حاليا] بمراقبة الوفد المرافق للسفير النمساوي الذي كان يحضر الجزية للقسطنطينية

لأنه كان يشتبه في وجود جواسيس بين رجاله. ينظر: Ibid, P17.

² - Ibid, P16-17.

³ - ففي القرن السادس عشر الميلادي كانت الخدمة البريدية العادية الوحيدة بين أوروبا والقسطنطينية مملوكة للبنديقية، لذلك عندما اعترض العثمانيون ساعي بريد بنديقي استولوا على الرسائل التي تخص السفراء الآخرين مثل سفراء فرنسا، بالإضافة إلى الرسائل غير الدبلوماسية التي كتبها التجار والعيبد والحجاج. ينظر: Ibid, P20-21

⁴ . تأسست مدينة راکوزا أو دوبروفنيك (Dubrovnik) حوالي سنة 614م تحت اسم راکوزا (Rausa)، أو راکوزيم (Ragusium) من قبل اللاجئين الرومانيين الفارين من المعارك. بعد سقوط روما حكمت راکوزا من قبل الإمبراطورية البيزنطية من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر. وفي الفترة من 1205م إلى 1358م اعترفت بسلطة البنديقية. خضعت لفرنسا سنة 1808م، ثم النمسا سنة 1815م، ثم يوغسلافيا سنة 1918م، وتتبع حاليا لكرواتيا. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Dubrovnik Croatia**, Encyclopaedia Britannica, <https://www.britannica.com/place/Dubrovnik> .

عن الدولة العثمانية¹، وخاصة قبل إنشاء السفارات الفرنسية (1535م) والنمساوية (1547م) والإنجليزية (1578م) والهولندية (1614م) الدائمة في القسطنطينية وضعهما الفريد بين الشرق والغرب وفر لهما ميزة كبيرة. كانا على دراية بالعالمين وعلى الرغم من الحروب العرضية بين البندقية والإمبراطورية العثمانية كان لدى البندقية علاقات تجارية مع بلاد الشام، وحتى في القرن السادس عشر كانت هناك مستعمرات تجارية كبيرة في بعض المدن العثمانية. فيما يخص راکوزا وعلى الرغم من تبعيتها للعثمانيين كانت أيضا شريكا تجاريا مهما، يمكن لمواطني كلتا الدولتان أن يسافروا دون مضايقة نسبياً داخل الدولة العثمانية².

يعتبر أسرى الحروب العثمانية الأوروبية الذين يتمكنون من العودة إلى بلادهم إما عن طريق الفداء³ أو الفرار، قناة خامسة يتم من خلالها نقل طبيعة وأسلوب حياة العثمانيين إلى الأوروبيين والعكس صحيح، وقد رأينا كيف أنّ الأسير الإيطالي نيكولا ساغوندينو الذي كتب سنة 1456م كتابا بعنوان: "عن الأصل الذي يعتقد انحدار الأتراك منه" والذي يعتبر لدى بعض المؤرخين أول محاولة أوروبية في كتابة تاريخ العثمانيين.

عرفنا أيضا من قبل شيئا عن مؤلف كتاب "حول قيم ومواقف وحيل الأتراك" جورج جوس الهنغاري أسير الحرب المجري الذي أسره العثمانيون سنة 842هـ/1438م على ترانسلفانيا، والذي قضى في الأسر عشرين عاما، وقد أطلق سراحه سنة 862هـ/1458م، وخلال تلك الفترة الطويلة انخرط في الطرق الصوفية بعد أن أصبح يشك في معتقداته المسيحية وبدأ في دراسة الإسلام بشكل مكثف وخاصة الطرق الصوفية، ويشرح في كتابه ظروف وعادات ومهارات الأتراك ولكنه بعد مدة ستة أو سبعة أشهر عاد إلى المسيحية والعقيدة الكاثوليكية، ووصف المعتقدات التركية بأنها "أوهام شيطانية".

تمثلت القناة السادسة المهمة التي شكّلت رؤية غالبية العوام الأوروبيين عن العثمانيين في رجال الدين، ولأنّ الحديث عنهم سيأخذ حيزا مهما لاحقا يكفي هنا ذكر مثال واحد من أبرز من يمثّل هذه القناة سيما وأنّ آراءه شكّلت الصورة العثمانية لدى الأوروبيين لقرون عديدة؛ إنّه الكاردينال بيساريون

¹ . لقد عمد العثمانيون إلى الضغط على كليهما ليس فقط لتزويدهم بمعلومات حول الأحداث في العالم المسيحي، بل لئلا يكونا

مصدرا للمعلومات عن العثمانيين. ينظر: Emrah Safa Gürkan: Op.cit, P23, 26.

² -Ibid, P23.

³ . لعب المنصّرون دورا هاما في فداء الأسرى المسيحيين لدى الدولة العثمانية وردّهم إلى بلادهم من خلال جمع الصدقات.

البيزنطي (Cardinal Bessarion)¹ المولود بطرابزون [تركيا] والذي لجأ إلى إيطاليا وتحول إلى الكاثوليكية بعد أن خدم الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية كأسقف نيقية، وفي نهاية المطاف كان كاردينالا بروما، لا تكمن أهميته فقط في كونه يمثل استمرارية العصور القديمة في عصر النهضة الإيطالية بفضل مخطوطاته المأخوذة من أديرة الأناضول والمنقولة إلى إيطاليا، ولكن أيضا لمساهمته بتلك المخطوطات في تأسيس مكتبة سان ماركو (Bibliotheca Marciana) الشهيرة بالبندقية، الكاردينال بيساريون هو إضافة إلى ذلك مؤلف كتابات عدوانية لأمرء أوروبيين ضد الأتراك، إلى جانب كونه مساهما في خلق الصورة الكلاسيكية عن الأتراك بإيطاليا والتي كانت ستستمر حتى القرن الثامن عشر². تمثلت القناة السابعة والأخيرة في الرحالة والذي نتج عنهم أدب الرحلات إلى البلاد العثمانية الذي ازدهر خصوصا في القرن السادس عشر واستمرّ ازدهاره حتى القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من أن اكتشاف العالم الجديد تسبب أيضا في ظهور أدب الرحلة، غير أنّ القصص المتعلقة بالأمريكتين أقل مرتين من تلك المتعلقة بالأراضي العثمانية، وكان لأدب السفر نجاحا كبيرا في النشر: فقد نُشرت بعض الكتب مرات عديدة وفي جميع أنحاء أوروبا في القرن السادس عشر وحده؛ فمثلا كان هناك 91 طبعة لكتاب يتحدث عن الأسرى النمساويين الذين أسرهم الأتراك سنة 932هـ / 1526م وظلّوا بالأسر ثلاثة عشر عاما³.

يتناول الحديث عن العثمانيين في أدب الرحلات العادات والتقاليد والهجاء القاسي ومجموعة من الحكايات التي تستجيب كلّها للمخاوف الأوروبية تجاه التهديد العثماني، بعض الكتب تعتبر أعمالا توجيهية مثل كتاب: الأربعة كتب الأولى في الملاحاة والتجوال الشرقي (Les quatre premiers livres

¹ الكاردينال بيساريو (1403-1472م): رجل دين بيزنطي، عين قسا سنة 1431م. شارك سنة 1438م باعتباره رئيس أساقفة نيسيا في مجمع فيرار [الذي حاولت فيه الكنيستين اللاتينية واليونانية التوصل إلى اتفاق حول اختلافاتهما العقائدية وإنهاء الانشقاق بينهما] تحوّل سنة 1443م إلى الكاثوليكية. وأصبح واحدا من أكثر أعضاء الكنيسة الرومانية نفوذاً وتأثيراً. حاول مرارا حشد حمل صليبية ضد الأتراك، وعمل على نقل التراث الروحي والثقافي للحضارة اليونانية إلى الغرب؛ بعد سقوط القسطنطينية سنة 1453، قرر جمع كل الأدب اليوناني الكلاسيكي والآبائي الكنسي لديه ومنحه كهبة إلى جمهورية البندقية التي اعتبرها وطنه الثاني. ينظر:

Morimichi Watanabe and others: **Nicholas of Cusa: A Companion to his Life and his Times**, ashgate publishing limited, England, 2011, P83-85.

²- Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 24.

³. عنوانه باللاتينية: إذلال السجناء المسيحيين الذين يعيشون تحت رحمة الأتراك (De afflictione tam captivorum quam) Bartholomeo Georgij (etiam sub Turcae tributo viventium Christianorum مؤلف مجهول يدعى (Hongaro) طبع أول مرة بباريس سنة 1544م. ينظر: Dominique Arrighi: Op.cit, P1.

Nicolas (des navigations et peregrinations Orientals) لصاحبها نيكولاي دو نيكولاي (de Nicolay)¹ الذي كلف بمهمة تجسسٍ لصالح ملك فرنسا هنري الثاني، وبعض الكتب أخذت منحى علميا مثل كتاب: ملاحظات حول العديد من المفردات والأشياء التي لا تنسى تلك التي عُثر عليها باليونان وآسيا ويهوذا ومصر والجزيرة العربية وبلاد أجنبية أخرى (Les observations de plusieurs singularité et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Égypte, Arabie et autres pays étrangers) للدبلوماسي وعالم النبات الفرنسي بيير بيلون (Pierre Belon)²، وبعضها ركزت على أمور تجارية مثل المؤلف الضخم للكاتب الإنجليزي ريتشارد هيلكوت (Richard Hakluyt)³ والذي حمل عنوان: الملاحات والرحلات والاكتشافات الرئيسية للأمة الإنجليزية (The Principal Navigations, Voyages and Discoveries of the English Nation) حيث يتحدث في جزئه الأول عن رحلاته الشخصية إلى الهند وسوريا والجزيرة العربية، وهدف هذا الكتاب هو توفير أداة مهنية للملاحين والتجار الإنجليزي في نهاية القرن السادس عشر⁴. بعض كتب الرحلات تلك كان لها طابع دفاعي عن الأتراك مثل كتاب: جمهورية الأتراك (La république des Turcs) للمستشرق والدبلوماسي الفرنسي غيوم بوستل (Guillaume

1 . نيكولاس دي نيكولاي (1517-1583): رحلة فرنسي وجغرافي الملك الفرنسي، في سنة 1551م رافق السفير الفرنسي غابرييل دارامون في سفارته الثانية إلى القسطنطينية، حيث أجرى المسوحات الطبوغرافية للمواقع المختلفة التي زارها، ألف العديد من الكتب. ينظر:

François Pouillon : **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, Karthala Editions, Paris, 2012, P764-765.

2 . بيير بيلون (1517-1564): عالم طبيعيات فرنسي، أسهم في بدايات علم الأجنة الحديث وعلم التشريح المقارن. وفي ظل رعاية الكاردينال فرانسوا قام بجولة في بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط (1546-1648م) من أجل تحديد الحيوانات والنباتات والأماكن والأشياء التي وصفها الكتاب القديم. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Pierre Belon, French Naturalist**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Pierre-Belon> .

3 . ريتشارد هكلويت (1552-1616م): جغرافي إنجليزي، معروف بتأثيره السياسي وكتابات الضخمة وتشجيعه المستمر للتوسع الإليزابيثي في الخارج ولا سيما استعمار أمريكا الشمالية. ينظر:

Gerald Roe Crone: **Richard Hakluyt, British Geographer**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Richard-Hakluyt> .

4 - Dominique Arrighi : Op.cit, P1.

Postel¹) ويهدف من خلال ثنائه على الأتراك إلى دفع المسيحيين لإصلاح ممارساتهم الدينية²، هذا التنوع في دوافع وأهداف الرحالة والرحلات أثرى المعرفة بالعالم العثماني بصرف النظر عن مدى موضوعية تلك المعرفة من عدمه.

ما كان ينقص الكثير من المسافرين والرحالة والدبلوماسيين والتجار ورجال الدين وغيرهم ممن زاروا البلاد العثمانية هو عدم معرفتهم بلغة اتقاهم للغة التركية أو العربية، إذ اللغة وسيلة ضرورية وفعالة لحسن فهم ثقافة وتراث الآخر، وكان أولئك العابرون للحدود العثمانية يتواصلون مع طبقات المجتمع عبر مترجمين من اليونانيين أو اليهود، وفي وقت لاحق الأرمن: التواصل مع المسلمين العرب أو الأتراك بشكل مباشر من الأمور النادرة³، ويقتصر على عدد قليل من الأفراد عند كلا الطرفين وحاجز اللغة من بين أهم المور التي جعلت التبادل المعرفي بطيئا بين العثمانيين والأوروبيين.

تطور نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين (إيطاليا نموذجا)

سيتم التركيز من أجل أخذ صورة شاملة وواضحة عن تطوّر صورة العثمانيين في الوعي الجمعي الأوروبي على إيطاليا باعتبارها تمثّل عموم أوروبا بسبب ثقلها الحضاري والديني، وسيتم التركيز على روما وجمهورية البندقية، الأولى باعتبارها مقر السلطة البابوية وتمثّل بذلك وجهة نظر الديانة المسيحية الكاثوليكية التي يدين بها غالبية شعوب أوروبا، والثانية تمثّل وجهة نظر علمانية إلى حد ما. تطوّر وجهة نظر الإيطاليين تجاه العثمانيين سنتعرّف عليها من خلال كتاب: "صورة "الترك" بإيطاليا، تاريخ "الآخر" في بواكير أوروبا الحديثة 1453-1683م" (Image of the "Turk" in

1. غيوم بوستل (1510-1581م): مستشرق فرنسي من الأوائل. دخل في خدمة شقيقة ملك فرنسا فرانسوا الأول الأميرة مارجريت دي نافار، فكلفته بعد موافقة الملك برحلة لجمع المخطوطات بالشرق، فبدأ بمصر ثم إستانبول، وأتقن هناك اللغة التركية ودرس اللغة العربية واللغة الحبشية. سنة 1539م أصدر كتاب: النحو العربي حيث أثنى في مقدمته على العربية وعلى علماء العرب واعتبر اللغة العربية لغة عالمية. وله كتاب جمهورية الترك. ورسم فيه صورة مثالية للمجتمع العثماني. ينظر: بدوي عبد الرحمن: موسوعة المستشرقين، المرجع السابق، ص 138، 135، بتصرف.

2 - Dominique Arrighi : Op.cit, P2.

3 . تغيّر هذا الوضع في القرن السابع عشر مع تنامي وتزايد العارفين باللغات الشرقية في أوروبا؛ فقد فهم الغربيون سيما الفرنسيون أنه من الضروري امتلاك الأدوات اللازمة لمعرفة أفضل بالشرق وسكانه بشكل مباشر؛ لذلك وتقليدا للبنادقة الذين أسسوا مدرسة جيوفاني للغات (Scuola degli Giovanni delle Lingua) ، تأسست في سنة 1669م بالسفارة الفرنسية بالقسطنطينية مدرسة شباب اللغة (Ecole des Jeunes de Langue) والتي سوف تصبح فيما بعد مدرسة اللغات الشرقية (l'École des Langues orientales). ينظر:

Mantran Robert : " L'évolution de la vision de l'Orient par les Occidentaux du XVIe siècle au XVIIIe siècle ". Cahiers de la Méditerranée, N°35-36,1987. Villes, voyages et voyageurs en Méditerranée [Actes des colloques de Nice, France, décembre 1987, juin 1988], p120.

للدكتور (Italy, A History of the "Other" in Early Modern Europe: 1453 -1683) مصطفى سويكوت (Mustafa Soykut)¹ أستاذ التاريخ الحديث للشرق الأوسط بتركيا، ودراسته تلك مهمة كونها أوّلا من متخصص، وثانيا اعتمد فيها على أرشيف البابوية والبنديقية فهي بذلك دراسة مصدرية.

تعكس المصادر الإيطالية وربما أفضل من المصادر المعاصرة الأخرى المخاوف من العثمانيين الذين أخضعوا كامل البلقان تقريبا في منتصف القرن الخامس عشر، فالوجود العثماني لم يكن فقط يهدد ويُضعف الوجود التجاري للبنديقية في شرق البحر الأبيض المتوسط، ولكن كان أيضا يمثّل تهديدا لشبه الجزيرة الإيطالية مع التوغلات البحرية للقراصنة تحت الراية العثمانية، علاوة على التوغل الكبير للقوات العثمانية سنة 878هـ/1473م في دي تيرافيرما (بالإيطالية: Domini di Terraferma) [الممتلكات البرية الخاضعة لجمهورية البندقية، بإقليم فينيتو شمال شرق إيطاليا]، وفتح أوترانتو (Otranto) في جنوب إيطاليا قبالة سواحل ألبانيا في سنة 885هـ/1480م، فليس من المستغرب إذا وجود وفرة من الأدبيات الرسمية والشعبية عن الأتراك بدءا من النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي إلا أن تلك الأدبيات تزايدت في القرن السادس عشر الميلادي مع زيادة قوة العثمانيين، وبلغت ذروتها تحت حكم السلطان سليمان القانوني²، على اعتبار عهده مثل ذروة التمدد العثماني بأوروبا.

واحدة من أكثر الحقائق طرافة فيما يتعلّق بالمصادر التي أعطت معلومات عن الأتراك للجمهور الإيطالي عامة هي أنّه - كما جرت العادة في تلك الأيام - تم نسخ العديد من الكتب عن الأتراك من بعضها البعض دون ذكر مصادر تلك المعلومات، كان الفضول حول الأتراك مرتفعاً جداً في هذه الفترة، كما أنّ الانشغال بالشهرة وكذلك المال أنتج كمية هائلة من الكتب والمخطوطات والنشرات ومذكرات السفر عن الأتراك³، وذلك مؤشر قوي على زيادة الاهتمام الشعبي بالعثمانيين في أوساط النخب الأوروبية.

¹ - هو أستاذ التاريخ الحديث المبكر في قسم تاريخ الشرق الأوسط، بجامعة الشرق الأوسط التقنية (Doğu Teknik Üniversitesi) بأنقرة. حصل على درجة الدكتوراه من جامعة هامبورغ (Hamburg) بألمانيا. حصل على جائزة الباحث العلمي المتميز من الأكاديمية التركية للعلوم عن بحثه: إيطاليا والعثمانيين. له عدّة أبحاث ومؤلفات بالإيطالية والألمانية والإنجليزية. ينظر:

Prof. Dr. Mustafa Soykut, <http://hist.metu.edu.tr/prof-dr-mustafa-soykut> .

² - Mustafa Soykut: Image of the "Turk" in Italy, A History of the "Other" in Early Modern Europe: 1453 -1683, Op.cit, Seite 2.

³ - Ibid, Seite 3.

يجب اعتبار التقارير النهائية (relazioni)¹ لسفراء البندقية أو مندوبي الجمهوريات الإيطالية الأخرى مستثناة من الأعمال المذكورة أعلاه؛ فقد كتبت تلك التقارير لأغراض سياسية أو تجسسية أو لمجرد استخدام أفكار براغماتية عملية لتعزيز الأهداف السياسية أو التجارية² وقد اتّسمت التقارير النهائية "رولازيوني" بنوع من الموضوعية والحياد مقارنة بغيرها من المصادر التي تحدّثت عن العثمانيين؛ إذ كان ذلك مهماً من جهة أنه ليس على السفراء إعطاء معلومات مضلّة أو مبالغ فيها عن البلدان التي يعملون بها سيما إذا كانت حالة السلم كثيراً ما تعقبها حالة الحرب.

عندنا مثال جيد عن الكتب المكتوبة للمثقفين في ذلك الوقت هو كتاب: العادات والأعراف الخاصة بحياة الأتراك (I costumi et i modi particolari de' Turchi) لرحالة يدعى لويجي باسنو الزاري (Luigi Bassano da Zara)³ الذي نُشر بروما سنة 1545م⁴، ويُذكر أيضاً نصاً مماثلاً تقريباً لكتاب لويجي مع بعض الإضافات تم نشره بالبندقية سنة 1654م حرره الكونت مايولينو بيساسيوني (Maiolino Bisaccioni)⁵ تحت عنوان: التاريخ العام لجذور إمبراطورية الترك (Historia Universale dell'origine et imperio de'Turchi) كإعادة طبعة أخرى للكاتب البندقي السابق الذكر فرانثيسكو سانسوفينو، وهذا يدل على وجود طلب عن المعلومات حول الأتراك

1. كانت التقارير النهائية المسماة باللغة الإيطالية (Relazioni) تقارير يقدمها سفراء البندقية العاملين في الدول الأجنبية وتحتوي على وصف للظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية الحالية للبلد الذي كانوا فيه سفراء. تمتعت تلك التقارير بسمعة فريدة من نوعها من بين الشهادات التاريخية. إذ كثيراً ما كان ينظر إلى سفراء البندقية على أنهم نزيهون وشهود عدول للبلاطات التي خدموا فيها، ويكتبون تقاريرهم تلك في كثير من الأحيان على نحو محايد كتقييمات غير منحازة وموثوق بها بشكل كامل وإن كان هذا الحكم قد تغير نوعاً ما. حول هذه التقارير ينظر:

Dursteler.R. Eric: "Describing or distorting the "Turk"? The relazioni of the venetian ambassadors in Constantinople as historical source", Acta Histriae, issue: 19, voll-2, Slovenia, 2011.

² - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 3.

³ . لويجي باسنو دا زار (Luigi Bassano da Zara) (1510-1552): رحالة إيطالي. لا يعرف عن شخصيته الكثير. سوى نتف ذكرها بكتابه بأنه من مدينة زادار التي كانت تحت حكم البندقية منذ 1409م. ينظر:

Madsen Peter: "Luigi Bassano", Christian-Muslim Relations 1500 - 1900, http://referenceworks.brillonline.com/entries/christian-muslim-relations-ii/luigi-bassano-COM_26562 , 28 August 2018.

⁴ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 3-4.

⁵ . الكونت مايولينو بيساسيوني (Maiolino Bisaccioni) (1582-1663): مؤرخ إيطالي من عائلة نبيلة. شغل بعض المناصب المدنية والسياسية في مختلف المدن الإيطالية. ثم استقرّ أخيراً بالبندقية حيث كرس نفسه للأدب الذي جلب له المال والشهرة والأوسمة. ينظر:

Luigi Fassò: Bisaccioni Maiolino, Enciclopedia Italiana, http://www.treccani.it/enciclopedia/maiolino-bisaccioni_%28Enciclopedia-Italiana%29/ .

منذ قرن بعد نشر كتاب مماثل تقريبا. كما يشير إلى حقيقة أن المعلومات حول الأتراك التي تم تداولها في الوسط الفكري لم يتم تحديثها دائما وعادة ما تكون غير مباشرة¹.

لم يكن هذا بالتأكيد هو الحال بالنسبة للرسائل الإخبارية لسفراء البندقية التي تصل على الأقل مرة واحدة من العاصمة العثمانية، إلى جانب التقارير النهائية "رولازيوني" التي يكتبها كل قنصل لدى عودته إلى البندقية، وعلى الرغم من أن تقارير السفير تفيد بأن البابوية كان لها بعثات وعادة ما كان المنصرون هم مصادر البابوية، إلا أنه لم يكن لروما أيضا علم جيد بالأوضاع داخل الإمبراطورية العثمانية، وبوصف البندقية "الدولة الأكثر حُطوة" بين الدول الإيطالية، هناك سبب وجيه لفكرة أن أهل البندقية تشاركوا أحيانا المعلومات مع بعض الدول الإيطالية الأخرى، حيث أن الكمية الكبيرة من تقارير النهائية "رولازيوني" للبندقية الموجودة بمكتبة الفاتيكان تشير إلى الحضور البارز للمندوبين البنادقة بروما².

يذكر بعض المؤرخين عن الحياة السياسية لأرستقراطي البندقية أن "السفارات - العادية وغير العادية - كانت جزءا من الشرف الفخري للبنادقة؛ من ذلك أن منصب البايو (bailo)³ بإستانبول كان الأعرق والأكثر أهمية، وأكثر منصب تشرّب له أعناق الأرستقراطي البندقي"⁴.

توجد نسخ من التقارير النهائية "رولازيوني" بكثرة بمدينة البندقية وفي مدن أخرى بعيدة مثل روما وأكسفورد. وذلك هو أحد الأسباب التي جعلت "رولازيوني" - ليس فقط التي يكتبها سفراء البندقية ولكن أيضا تلك التقارير التي كتبها إيطاليون بأسلوب "رولازيوني" - لها تأثير كبير من سنة 1550م إلى بداية 1700م في تشكيل الصورة التركية [العثمانية] بإيطاليا وكذلك بأوروبا؛ ففي سنة 1500م كان هناك أعمال مشهورة لأشخاص مثل سفير هابسبورغ أوجير غيسلين (Augier Ghislain de)

¹ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 4.

² - Loc.cit.

³ . البايو (Bailo) هو ممثل جمهورية البندقية ورئيس رعاياها بالخارج بما في ذلك الإمبراطورية العثمانية، يشرف البايو على العدالة لمواطني بلده، ويجمع الضرائب والرسوم الجمركية، ويشرف على التجارة وهو جهة الاتصال الرسمية للسلطات المحلية. كلمة بايولو (Bailo) جمع (baili) مشتقة من الكلمة اللاتينية (baiulus) بمعنى الحاجب واستخدمت لأول مرة في الترجمة اللاتينية للوثائق العربية خلال القرن الثاني عشر الميلادي [السادس الهجري]. وتم الاحتفاظ بوظيفة البايولو سنة 1453م عندما [فتح] العثمانيين القسطنطينية وجعلوها عاصمة لهم. وكان يعين لمدة ثلاث سنوات. فُرِضَ على البايولو إرسال معلومات للبندقية ليس فقط عن السياسة وشؤون المستعمرات ولكن أيضا عن أسعار وكمية البضائع المباعة في الأسواق المحلية. كان البايولو أكثر أهمية من القنصل على الرغم من أنه يشاركه في بعض الوظائف، وإذا كان كلاهما يعيش في نفس البلد الأجنبي فإنّ البايولو هو الرئيس المباشر للقنصل. ينظر:

Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P72-73.

⁴ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 4.

(Busbecq¹) وخطاباته التركية، ومع ذلك ظلت "رولازيوني" أكثر تأثيراً في عصرها نظراً لثراء وكمية معلوماتها وكثرة أعدادها، كانت البندقية بمثابة صانع الرأي الأوروبي لصورة العثمانيين بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ليس فقط من أجل توافر التقارير النهائية "رولازيوني"، ولكن أيضاً بفضل تدفق المغتربين البيزنطيين عليها والأدب الذي أنتجوه².

نظرة البابوية إلى العثمانيين

وجود طفرة في الأدبيات الكهنوتية والدنيوية بعد سقوط القسطنطينية لا ينفي حقيقة أن الخلفية التي ساعدت على خلق صورة الإسلام في العقل الإيطالي كانت موجودة بالفعل قبل سنة 1453م؛ ففي أعماله الرائدة يقدم المؤرخ الإيطالي ألساندرو دانكونا (Alessandro D'Ancona)³ وثائق ممتازة عن تطور صورة الإسلام كبدعة ونحلة شيطانية (secta diabolica)، وبعبارة أخرى الانحطاط الشيطاني للمسيحية، يُصَوِّرُ محمد [صلى الله عليه وسلم] بمجموعة متنوعة من الصور؛ من صورة وكيل الشيطان إلى كاردينال الفاتيكان المعزول الذي أسس دينه المنحرف⁴!!

يبدو أن صورة الإسلام التي تم إنشاؤها بإيطالية وكذلك بالعقل الأوروبي العام كانت مشوهة للغاية⁵، فوفقاً لبعض المؤرخين فإنّ الزّاهب الإيطالي ريكولودو بينيري دامونت كروس (Ricoldo Pennini da Monte Croce)⁶ "تعرف على الإسلام والمسلمين خلال رحلاته في سوريا وبلاد فارس

1. أوجير غيسلين (1522-1592م): دبلوماسي نمساوي، كلف بسفارة إلى الدولة العثمانية من سنة 1555 إلى غاية 1562 وأصبح مستشاراً في بلاط الإمبراطور فرديناند بفينينا ومعلماً لأحفاده. خلال فترة إقامته بالقسطنطينية كتب أفضل أعماله المعروفة (الرسائل التركية) وهي عبارة عن مجموعة من المراسلات الشخصية مع صديقه الدبلوماسي النمساوي نيكولاس ميشولت وتضم بعض أدبيات الرحلة. تصف هذه الرسائل مغامراته في السياسة العثمانية ولا تزال واحدة من المصادر الرئيسية للبلاط العثماني. ينظر:

Edourd Marren : *À la mémoire de Ogier Ghislain de Busbecq 1522-1592*, La Belgique horticole : Annales de botanique et d'horticulture, Liège, Belgique, 1875, VI-VII.

2 - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 4-5.

3. ألساندرو دانكونا (1835-1914): مؤرخ للأدب الإيطالي، لكنه كتب بحثاً جيداً عن «أسطورة محمد في الغرب» أبرز دراساته تتعلق بنشأة وتطور المسرحية الدينية. ينظر: بدوي عبد الرحمن: المرجع السابق، ص343.

4 - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 15.

5. يذكر صاحب موسوعة المستشرقين نقلاً عن ألساندرو دانكونا في دراسته: أسطورة محمد في الغرب (صلى الله عليه وسلم) وقد نشرها في: الجريدة التاريخية للأدب الإيطالي (Giornale italiana letteratura della Storico) (العدد 13، سنة 1889م، ص 199 وما يليها): وفي هذه الدراسة يبين دانكونا وحدة الأسطورة التي زوّرها القوم في أوروبا عن سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكيف أُنشئت على قالب الأساطير الخاصة بكبار المبتدعين في المسيحية... دراسة دانكونا هذه تفيده في معرفة تطور الفكرة التي تكونت في أوروبا عن النبي محمد وعن نشأة الإسلام، وهي فكرة مبنية على أكاذيب وأساطير ابتدعها رجال الكنيسة المسيحية في الشرق والغرب معا للظن في النبي محمد نبي الإسلام. ينظر: بدوي عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص343-244. الذي كان العثمانيون أهم ممثليه في المخيال الأوروبي.

6. بينيري ريكولودو دامونت كروس (1243-1320م): راهب دومينيكي ومبشر عنيف الخصومة ضد الإسلام. أرسله البابا نقولاً الرابع إلى الشرق. له كتاب بعنوان: الجدل ضد المسلمين والقرآن وكتاب عن أسفاره في الشرق. ينظر: بدوي عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص306.

وبلاد ما بين النهرين، ومكث طويلاً في بغداد حيث ربما يكون قد بدأ ترجمة للقرآن مع ذلك عند عودته إلى إيطاليا كان أكثر اهتماماً بتدريس أخطاء الإسلام من محاولة زيادة التفاهم بين إخوانه المسيحيين والمسلمين¹، وما كان لذلك التفاهم أن يكون مع أجواء العداء الشديد للعثمانيين الذين يتوسعون على حساب أوروبا رافعين راية الإسلام.

ينتهي عمل ألساندرو دانكونا في منتصف القرن الخامس عشر، وهو بالتحديد العهد الذي يكون فيه "الوصول إلى المعرفة الأساسية عن الثقافة الإسلامية قد انخفض بشكل ملحوظ بعد حوالي سنة 1330م، ولا يمكن إحيائه حتى القرن السابع عشر، بعبارة أخرى فإن ذروة التفاعل بين الأتراك والإيطاليين - والذي امتد من سنة 1453م إلى نهاية القرن السابع عشر - يقع تقريباً في الفترة التي انخفضت فيها إمكانية الوصول إلى معلومات موثوقة عن الإسلام، إلى أن تم استعادة الوثائق في القرن السابع عشر، لذلك ليس من المستغرب أن تتزامن هذه الفترة من ندرة المعلومات الموثوقة عن الإسلام، مع ذروة التوسع العثماني في قلب أوروبا، تليها تراجع العثمانيين ابتداء من نهاية القرن السابع عشر، والذي تم تحديد الإسلام فيه أكثر بالترك؛ توفر رسالة البابا بيوس الثاني - كونه واحداً من أكثر الدعاة حماسة للحملة الصليبية ضد الأتراك في عصره - إلى محمد الفاتح (Epistola ad Mahumetem) واحدة من الأدلة المميزة لاعتبار الترك مرادفاً للإسلام في النصف الثاني من القرن الخامس عشر²، والأصح أنهم اعتبروا أهم ممثلين للإسلام.

استخدم العديد من الكُتّاب الإيطاليين الكُتّاب المقدس والمقارنات الدينية لتبرير الصراع ضد العثمانيين؛ كالذي نجده في خطاب مكتوب إلى ملك المجر ماتياس كورفينوس (Matthias Corvinus)³ من قبل مارسيلو فيسينو (Marsilio Ficino)⁴ سنة 1480م، والذي دعاه فيه لحمل

¹ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 16.

² - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 18- 19.

³ . ماتياس كورفينوس (1443-1490م): هو ماتياس الأوّل ملك المجر (1458-1490م) ولقب بكورفينوس بمعنى الغراب (اللاتينية corvus) مستمد من شعاره. ينظر:

Lajos Elekes: **Matthias I, KING OF HUNGARY**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Matthias-I> .

⁴ . مارسيلو فيسينو (1433-1499م): الفيلسوف واللاهوتي واللغوي الإيطالي. ترجماته وتعليقاته على كتابات أفلاطون وغيره من المؤلفين اليونانيين الكلاسيكيين أسهمت في ظهور عصر النهضة الأفلاطوني الفلورنسي الذي أثر على الفكر الأوروبي لمدة قرنين. رُسم فيسينو قسّاً سنة 1473م وتم تعيينه لاحقاً كمسؤول كنسي بكاتدرائية فلورنسا.

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Marsilio Ficino**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Marsilio-Ficino> .

السلاح ضد الترك، حيث رسم مارسيلو تشابهاً بين ماتياس وموسى محرر اليهود من الظالم فرعون¹!!
يمثل كتاب: "رسالة إلى محمد" (Epistola ad Mahumetem) التي لم يتم إرسالها أبداً إلى السلطان العثماني محمد الفاتح، جزءاً من الأدب الغريب للغاية بسبب أفكارها الغربية من مثل تحويل "العدو اللدود للمسيحية" إلى مسيحي يدين بالولاء إلى يسوع، بالإضافة إلى العديد من الحقائق الخاطئة التي كانت عند بيوس في كون السلطان العثماني هو سلطان العالم الإسلامي كله!! ومع ذلك فإن المهم هو المحتوى الإيديولوجي لـ "رسالة إلى محمد"، والذي يفترض مرة أخرى - وفقاً لبعض المؤرخين - أنه نُظِرَ من خلالها للأتراك أو الإسلام على النحو التالي: لقول القليل منذ كارثة فارنا (Varna)² بدأ إنيا سيلفيو (Enea Silvio) [البابا بيوس الثاني لاحقاً] في الحلم بالحملة الصليبية ومنذ كارثة فارنا بدأ التناقض بين العالم المسيحي والإسلام يأخذ شكله الدقيق، ليس فقط كصراع سياسي ديني عسكري بل بشكل أدق كتباين غير قابل للشفاء بين الثقافة والحضارة من ناحية و البربرية من ناحية أخرى عندما سقطت القسطنطينية بكى (Enea Silvio) على الموت الثاني لهوميروس³.

أعدت "رسالة إلى محمد" فرض صورة الإسلام المرادفة للأتراك من قبل السلطة المباشرة للبابا وقد تبين أن تلك الفكرة مستوحاة من عمليتين أساسيتين: الأوّل للكاردينال نيكولو دا كوزا (Niccolo da Cusa)⁴ في كتابه: تنفيذ القرآن (Cribratio Alcorani)، والآخر لجيوفاني توركماندا (Giovanni Torquemada)⁵ في كتابه: نقد المبادئ الخاطئة للمحتال محمد (Contra principales errores perfidi Machometi) [كتبه بناء على طلب من البابا كتقرير أولي لمجمع مانتوفا] وهذا

¹ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 19-20.

² . معركة فارنا في 10 نوفمبر 1444م انتصار عثماني بقيادة السلطان مراد الثاني على الحملة الصليبية التي دعا لها البابا يوجين الرابع (Eugene IV) وقادها ملك بولندا والمجر، وهدفت الحملة إلى إنقاذ القسطنطينية من السقوط بيد العثمانيين، ووقف توسيع سيطرة العثمانيين على البلقان. انتصر العثمانيون على هذه الحملة الصليبية. ينظر:

Tony Bunting: **Battle of Varna**, Encyclopedia Britannica,

<https://www.britannica.com/event/Battle-of-Varna>

³ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 20.

⁴ . نيكولو دا كوزا (1401-1464م): ألماني، فيلسوف ولاهوتي ورياضي، ترقى في سلك الكهنوت وانضم إلى مجمع بازل الكنسي سنة 1432م، كان من أنصار البابا يوجين الرابع. ينظر: بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج3، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996، ص 345-346.

⁵ . جيوفاني توركماندا (1388-1468): إسباني، انضم إلى النظام الدومينيكي. كان له دور في الدفاع عن البابوية، ترقى لمنصب الكاردينال. ترك العديد من الآثار منها: كتاب تأملات (Meditationes) الذي أصبح أول كتاب مصوّر طبع في إيطاليا. وكتب في الجدل بما في ذلك دحض "أخطاء" الإسلام، وغيرها. ينظر:

Morimichi Watanabe and others: Op.cit, P215-216 .

الأخير واحد من أنصاره الرئيسيين في فكرة الحملة الصليبية (جنباً إلى جنب مع الكاردينال بيساريون (Bessarion)) [سابق الذكر] في مجمع مانتوفا (Mantova)¹ الشهر².

من المفترض أن يكون بيوس قد تلقى المعلومات عن الإسلام الموجود في رسالته من هذين العاملين المذكورين، حتى أنه قام بنسخ بعض أجزاء من كتاب جيوفاني توركماندا في كتابه "رسالة إلى محمد" في كتاب آخر أقل شهرة بعنوان: تمييز آسيا وأوروبا من طرف بيوس الثاني (La Discritione de l'Asia et Europa di papa pio II) [نشر في البندقية سنة 1544م، وألّفه قبل رسالة إلى محمد ما بين 1453 و 1461]، يقدم بيوس الثاني سرداً عن الكيفية التي ينظر بها إلى الأتراك في ذلك العهد بعد فترة قصيرة من سقوط القسطنطينية وقال: إنه تم إنقاذ آسيا من عبادة الأوثان على عهد الرومان وعاشوا تحت الإنجيل المقدس ولكن كل ذلك فسد بقدوم الترك؛ ولم يعد يوجد هناك مسيحيون حقيقيون، وعلى الرغم من تواجد العديد من اليونانيين الذين ترعرعوا في ظل الطقوس المسيحية إلا أنهم فصّلوا أنفسهم عن قواعد الآباء القديسين القدامى، ولا يميلون لسماع الكنيسة الرومانية أمّ جميع المؤمنين³، يعكس كلام البابا المقت الشديداً للعثمانيين⁴ وتحميلهم مسؤولية شرود مسيحيي آسيا عن الإنجيل.

هذا الموقف من الكرسي الرسولي المناهض للأتراك، الذي ينظر إليهم فيه كتجسيد لمناهضة المسيح، وكتهديد رهيب لأمن أوروبا الذي ينبغي أن يتحد كل المسيحيين من أجل دفعه، استمرّ

¹ . اجتماع دعى له البابا بيوس الثاني الأمراء المسيحيين في 1 جويلية 1459م بمدينة مانتوفا (Mantua) [مدينة شمال إيطاليا في إقليم لومبارديا] لدراسة الخطر التركي. ولكن جهوده باءت بالفشل.

² - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 20.

³ - Ibid, Seite 20-21.

⁴ . إن مقارنة نموذجية لصورة الأتراك في النصف الثاني الخامس عشر الميلادي فصاعداً تنعكس في الكتاب النادر للبابا بيوس الثاني: "تمييز آسيا وأوروبا من طرف بيوس الثاني"، في كتابه هذا يصف الأتراك على هذا النحو:

"حول أصل ونسب ومعيشة ولباس وعرف الأتراك: أُحْدِثُ الكثيرين في عصرنا وليس الكتاب أو الشعراء بل بالأحرى المؤرخين الذين ما زالوا متورطين في خطأ التفكير بأنّ الأتراك ينحدرون من توكرس (Teucres) ، أعتقد أنهم يفترضون هذا لأن الأتراك يمتلكون حصن طروادة (Troy) الذي كانت موطن توكرس (Teucres)، مع أنّ توكرس ينحدر أصله من جزيرة كريت (Crete) إن الشعب التركي جُلّف و بربري: من حيث أصلهم وتطورهم - رغم أنّه في تطورهم قد يكون لهم نسبة - أنا لا أفترض أنهم غريون تماماً، والآن وبعد أن انتصر هؤلاء الناس بقوة كهذه وهيمنا على آسيا واليونان، قاموا بتفريق اللاتين والمسيحيين ... الأتراك ... كان موطنهم الأصلي وراء جبال البرينية (Pyrenean) [سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، بين فرنسا وإسبانيا] [كذا!] على المحيط الاسكندنافي. إنهم أناس قساة ومنحطون، ومتحمسون لكل أنواع الترف؛ فهم يأكلون الأشياء التي يعافها غيرهم؛ مثل لحوم الحيوانات البرية والذئب والنسور ولا يتحرّجون من إظهار سواهم". ينظر:

Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 116-117.

على هذا الحال حتى نهاية القرن السابع عشر، ومع ذلك وبالعودة إلى البندقية شهد علم التاريخ فيها لوحدها فترة خصبة جداً مثلتها الكتابات حول "شيء من الأتراك" (cose de "Turchi") بين القرن السادس عشر ونهاية القرن السابع عشر؛ بعض أشهر المؤلفين لهذا النوع من الأدب بالبندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر هم: فرانثيسكو سانسوفينو (Francesco Sansovino) وجيوفاني ساجريدو (Giovanni Sagredo)¹ ولازارو سورانزو (Lazzaro Soranzo)² إلى أن نصل إلى تَغْيُر صورة الأتراك خاصة بعد فشل الحصار الثاني لفينا في نهاية القرن السابع عشر والذي مثله العمل الجديد لجيوفاني دونا باتيستا الذي نُشر لأول مرة عام 1688³.

مخطوطة الفاتيكان المعنونة ب: المحمديون لجيوفاني باتيستا جيغلي إلى قداسة البابا باولو الخامس رومانو أصل تركيا والقسطنطينية، الأوامر والقوانين المحمدية (Il Maomettano di Gio Batta Gigli) Origine della Turkia et Alla Santità dil Sigre Papa Paolo Quinto Romano Giovanni (Costantinopoli, ordini et leggi mahomettani) بقلم جيوفاني باتيستا جيغلي

¹ . جيوفاني ساجريدو (1617-1582م): دبلوماسي ومؤرخ وشاعر وأديب من البندقية. ترك الكثير من تقارير (Relazioni) وله كتاب: مذكرات تاريخية حول السلاطين العثمانيين (Memorie istoriche di monarchi ottomani) طبع سنة 1673م وغيرها. ينظر:

Encyclopedia: **Sagrèdo, Giovanni**, Enciclopedia Italiana, <http://www.treccani.it/enciclopedia/giovanni-sagredo/> .

² . سورانزو لازارو (...-1602م): قاض وشاعر وكاتب من أبناء البندقية، ينتمي سورانزو إلى واحدة من أبرز العائلات العريقة والنبيلة بالبندقية والتي تولى أفرادها العديد من المناصب الرفيعة كقضاة وسفراء وقادة وأساقفة إلخ. سافر إلى الدولة العثمانية كمبعوث خاص سنوات 1575، 1576، 1582م وعيّن البابا كليمنت الثامن في منصب بابوي فخري. أشهر أعماله هو كتابه عن الدولة العثمانية بعنوان العثماني "L'Ottomanno" الذي كتبه [على الأرجح بتمويل من البابا كليمنت الثامن] سنة 1596م. ينظر:

David Thomas and John Chesworth: **Christian-Muslim Relations A Bibliographical History, Western and Southern Europe (1600-1700)**, Vol 8, BRILL, Leiden, Boston, 2016, P 652-653.

والعنوان الكامل لكتاب العثماني (L'Othomanno) هو: العثماني للازارو سورانزو حيث نجد التفاصيل الكاملة ليس فقط حول سلطة سيد الترك الكبير الحالي محمد الثالث، ومبادئه ومخططاته ضد المسيحية، وما يمكننا فعله لمواجهة؛ ولكن نجد به مختلف الشعوب والمواقع والمدن والمسالك، مع تفاصيل أخرى ضروري معرفتها لفهم الحرب الحالية ضد المجر.

(L'Ottomanno di Lazaro Soranzo, doue si dà pieno ragguaglio non solamente della potenza del presente signor de' Turchi Mehemeto III de gl'interessi, ch'egli ha con diuersi precinpi, di quanto machina contra il christianesimo, et di quello che all'incontro si potrebbe a suo danno oprar da noi; ma ancora di varij popoli, siti, città, e viaggi, con altri particolari di stato necessarij a sapersi nella presente guerra d'Ongheria).

³ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 117-118.

¹(Battista Gigli) المكرسه للبابا بول الخامس (Paul V)² والتي يعود تاريخها إلى سنة 1613م تؤكد هذه المخطوطة صورة نبي الترك التي يشترك فيها جميع أعضاء الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت فوفقا لجيجلي كان محمد نبي الشيطان الكذاب [حاشاه صلى الله عليه وسلم]، رجل شرير ذو الأصول الغامضة ربما كان فارسياً أو عربياً!! كان والده عابدا للوثن وكانت والدته من أتباع النبي إسماعيل، وكان يعرف الشريعة العبرية القديمة!! وكنتيجة لذلك فقد مال هذا الشخص إلى دين أبيه ودين أمه على السواء!! وانتهى به الأمر إلى أن يكون لاوثني ولايهودي!! لذلك قال جيجلي أن محمد تعلم من كلا والديه ثقافته وشريعته ثم تخلى عنهما ليؤسس هرطقته³!! واضح أنه لا يكتب من خلال مطالعات دقيقة، وإنما من خلال حقد دفين.

يواجه المرء في العديد من المصادر المباشرة غير المنشورة فضلا عن العديد من المنشورة، إلى جانب المواد المشهورة عن وجهات نظر الكاثوليكية تجاه الإسلام، الحاجة إلى تبرير شن الحرب ضد الأتراك فضلا عن تبرير شن الحرب في حد ذاتها؛ في جزء نابع من المناقشات اللاهوتية حول ما إذا كانت الحرب مشروعة في الديانة المسيحية سيما وفي معتقدتهم أن المسيح قال: " مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَأَعْرِضْ لَهُ الْآخَرَ أَيضًا"⁴، شعر اللاهوتيون الكاثوليك حتمًا بالحاجة إلى تقديم مبررات لشن حرب ضد الأتراك على الرغم من أن الأسباب الكامنة وراء ذلك كانت نتيجة الفقدان السريع للأراضي، وعدم وجود استجابة مناسبة لتحدي العثمانيين بتشكيل وحدة بين الدول المسيحية، في مثل هذه الحالة كانت الحملة الصليبية هي السياسة الشرقية الوحيدة المتينة التي استحدثتها البابوية وأصبح العداء للترك تقريبا قضية إيمان⁵، وبالتالي فالحرب الصليبية هي أداة بابوية سياسية بصبغة دينية.

يجب أن يكون هناك تمييز بين وجهات النظر الكاثوليكية عن الإسلام التي طرحها أناس مثل جيوفاني باتيستا جيجلي الذي كتب ضد الإسلام ومثليه الأكثر شراسة العثمانيين من أجل الدعاية الدينية إلى حد كبير، والتي لا تعتمد على الموضوعية، وتلك التي كتبها سفراء البندقية الذين كتبوا بشكل

¹ . لم أقف على ترجمته.

² . البابا بول الخامس (1552-1621م): ولد ومات بروما تولى البابوية في الفترة (1605-1621م). في عهده تمت محاسبة العالم الفلكي جاليليو ووضع رسالة كوبرنيكوس حول نظرية مركزية الشمس للنظام الشمسي على فهرس الكتب المحرمة (Librorum Prohibitorum) ... مذنب بمحاباة أقاربه، ومسؤول عن ثروة عائلته الفاحشة. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Pope Paul V**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Paul-V> .

³ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 23.

⁴ . إنجيل لوقا 6: 29.

⁵ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 23-24.

موضوعي نسبيا حول هذا الموضوع، والواضح أنّ كل من أراد تحقيق شعبية سريعة كتب عن الأتراك ليس فقط من بين العديد من الكتاب والشعراء، بل بطريقة مماثلة حتى من بين أعضاء الكنيسة الكاثوليكية الذين فعلوا الشيء ذاته لأغراض الدعاية¹.

ينبغي التأكيد على أنّ المعلومات الجيدة لبعض الوثائق التاريخية سواء كتبها رجال دين أمثال مارسيلو مارشيسي (Marcello Marchesi)² و فيراري باولو دا لاغني (Friar Paolo da Lagni)³ أو تلك التي كتبها سفراء البندقية كتقارير "رولازيوني" مدينة في دقّتها أولاً إلى الملاحظات المباشرة لكُتّابها، وثانياً إلى الطبيعة البراغمية لأغراضها، إلى جانب ذلك نجد أنّ معظم كتابات أدب الرحلات أو تقارير "رولازيوني" السفراء نشرت الجوانب التي يمكن ملاحظتها ظاهرياً من دين الأتراك، بدلا من تقديم تفسيرات لاهوتية مبتكرة أو دراسة جادة عن الإسلام⁴، وذلك لم يكن ممكناً مع روح العداوة الشديد والانتصارات المدوية للعثمانيين في الفضاء الأوروبي.

المحاولات المبتكرة في دراسة الإسلام بالإضافة إلى الثقافة العثمانية سنجدّها في نهاية القرن السابع عشر في أعمال بايلو (bailo) البندقية⁵، بالإضافة إلى بندقي آخر هو المثقف توديريني⁶ (Toderini)

¹ - Ibid, Seite 31.

² . مارسيلو مارشيسي (ت 1613م): أحد دعاة الحملة الصليبية ضد الأتراك. شغل عدة مناصب كنسية، وكتب "خمس رسائل في الحرب ضد الأتراك" كرسها للبابا ولغيره من ملوك وزعماء أوروبا ينظر: Ibid, P29-30.

³ . لم أقف على ترجمته، إلا أنّه من خلال عنوان مخطوطته كان راهبا كابوشيا ضمن الرهبنة الكاثوليكية، وعنوان مخطوطة فيراري باولو دا لاغني هو: مذكرة من الراهب الكبوشي (frà Paolo da Lagni) إلى البابا (Innocenzo XI) حيث يتم توضيح ضرورة المبادئ المسيحية لكبح الترك بإعلان الحرب عليهم.

(Memoriale di frà Paolo da Lagni cappuccino al pontefice Innocenzo XI nel quale si dimostra la necessità de' Principi Cristiani di prevenire il Turco col dichiarargli la guerra)

⁴ - Ibid, P33.

⁵ . هو جيوفاني باتيستا دونادو (1627-1699م): من أسرة عريقة عضو مجلس الشيوخ البندقية، وعيّن بايلو البندقية في إستانبول (1684-1680م)، وهو صاحب أوّل كتاب عن الأدب التركي بعنوان: ملاحظات بخصوص الأدب التركي (Della letteratura dei Turchi osservazioni) نشر بالبندقية سنة 1688م. ينظر:

Mónika F. Molnár: "Nuova visione degli intellettuali italiani sulla cultura musulmana del Seicento: Giovanni Battista Donado e Luigi Ferdinando Marsigli sulla letteratura e scienza dei Turchi", dell'assegno di ricerca 'János Bolyai' dell'Accademia delle Scienze d'Ungheria e del fondo di ricerca OTKA PD 105020, Ungheria, 2012, P58.

⁶ . هو جيمباتيستا توديريني (1728-1799م): كاتب إيطالي (انخرط في اليسوعيين وشغف بالدراسات الأثرية، ورافق السفير أو البايو (Garzoni) إلى القسطنطينية سنة 1781م، وظل هناك خمس سنوات، درس الأدب التركي، وأخذ على عاتقه تعليم أوروبا أنّ الأتراك لديهم دور الطباعة والمكتبات والأكاديميات، وأنّ أدبهم لا يقلّ روعة عن أدب غيرهم من الشعوب. وقد ربطته =

الذي عاش في القرن الثامن عشر¹، ويمكن القول أنّ هذه الأعمال المبتكرة والمستنيرة تشترك في الخصائص التالية: أولاً تستند المعلومات التي تقدّمها للقارئ عن الإسلام إما على الملاحظة المباشرة أو على المصادر الموثوقة، ثانياً أسلوب كاتبها يبتعد عن التعصّب فهي ليست مثل تلك الأعمال المكتوبة من أجل الجدل اللاهوتي والتي يكون معظم مؤلّفيها إمّا غير مطلّعين على الإسلام أو أنهم يحرفون حتى الحقائق البسيطة عن حياة محمد ورسالته².

إن الأعمال ذات الطبيعة السياسية لها بعض العناصر المشتركة في طريقة تقديم صورة المسلمين الأتراك والإسلام، إنّها مصادر فعالة بخصوص المرتدين والشعوب المسيحية في الإمبراطورية العثمانية بالإضافة إلى عرض الاختلافات في فهم وتأويل الإسلام بين رعايا الدولة العثمانية؛ في عمله الممتاز الذي ينتمي لتقارير التجسس لصالح البندقية، لم يعد موقف لازارو سورانزو في كتابه العثماني (L'Othomanno) بعد الآن مجرد رؤيا لانقسام ما يسميه "طائفة محمد"، ولكن تقريراً مستنيراً وعملياً حول كيف يمكن للمرء أن يستفيد من الاختلافات داخل مسلمي الدولة العثمانية، بالإضافة إلى البحث عن نقاط القوة والضعف لديهم³.

يكتب لازارو سورانزو ما يلي حول موضوع المرتدين (أي الذين اعتنقوا الإسلام) فقال: الأتراك الأصليين على الرغم من أنهم لا يسيؤون التصرّف تجاه الأتراك المرتدين، مع ذلك فإنهم يشعرون بالاشمئزاز والسخط، لدرجة أنه لن يكون من المفاجئ إذا ما قام هؤلاء بانتفاضة في يوم ما خاصة إذا وجدوا من يقودهم، والسبب في ذلك: هو أنّهم يرون أن كل المناصب العسكرية التي تجلب الثروة والمجد بيد هؤلاء المرتدين⁴، وهو موقف مفهوم بالنظر إلى الحروب الدينية بأوروبا حينها.

من بين أعضاء الكنيسة الذين عارضوا الفكرة الكلاسيكية للحملة الصليبية ضد الأتراك بأيّ ثمن، نجد إيراسموس الروتردامي (Erasmus of Rotterdam)⁵؛ إيراسموس في كتابه: مسألة الحرب

علاقات مع أدباء وعلماء عثمانيين وما إن نشر كتابه الأدب التركي (Letteratura Turchesca) [في ثلاث مجلدات سنة 1787م] حتى ترجم لعدة لغات. ينظر:

Turquie-culture : Giambattista Toderini, découvreur de la littérature turque,
<http://www.turquie-culture.fr/pages/lettres-turques/biographies/giambattista-toderini-decouvreur-de-la-litterature-turque.html> , 1 février 2008.

¹ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 33.

² - Ibid, Seite 37.

³ - Ibid, Seite 38.

⁴ - Loc.cit.

⁵ - إيراسموس الروتردامي (1469-1536م): يعتبر أكبر باحث في عصر النهضة بالبلدان المنخفضة. ينظر:

James D. Tracy: Desiderius Erasmus, Encyclopedia Britannica,
<https://www.britannica.com/biography/Desiderius-Erasmus> .

العدوانية مع الأتراك (Consultatio de Bello Turcis inferendo) الصادر سنة 1530م يقدم أفكاره الخاصة عن كيفية إجراء حرب مقدسة ضد الأتراك، بالإضافة إلى تلميحات لتصوّره الخاص عن الأتراك من وجهة نظر لاهوتية¹.

تباينت وجهات نظره بشكل كبير مع أعضاء الكنيسة في إيطاليا، ومع معظم الأعمال التي يمونها الفاتيكان، أو مع أولئك الذين يؤيدونها، وبالرغم من أنّ رؤية إيراسموس لا تمثل صورة إيطالية للإسلام والأتراك، غير أنّه نظراً لأهمية إيراسموس في تاريخ الفكر الأوروبي، من المفيد سماع ما قاله عن هذه المسألة وعلى وجه التحديد تناقض رؤيته مع الصورة الإيطالية للإسلام²: [...] رغم صحّة القول: أن ليس كل حرب ضد الترك عادلة، فإن عدم مقاومة الترك ليست سوى خيانة المسيحية لصالح أعداءها الأكثر وحشية، وترك إخواننا في الاستعباد الذي لا يستحقّونه، عندما تسمع الجماهير الجاهلة بالأتراك المذكورين يصبحون على الفور غاضبين ومتعطشين للدماء، ويصفونهم بالكلاب وأعداء المسيحية ينسون أن [الأتراك] هم أولاً بشر، وثانياً أنهم نصف مسيحيين³.

يعلّق إيراسموس على رأي لوثر ضد من يقاتلون الترك فقال: "أعود الآن إلى أولئك الذين يعتقدون ما يعتقد لوثر [بروتستانت] بأن أولئك الذين يقاتلون ضد الأتراك يتمردون ضد الله، لأن الله يستخدم الأتراك لمعاقبتنا على خطايانا، يعلّق علماء اللاهوت بباريس على هذا الرأي على النحو التالي: "يتم الحكم على هذا الافتراض بأنه خاطئ من كل النواحي، ولا يتوافق مع الكتاب المقدس". ليس من الصواب أن نقول ذلك، وهذا ليس مُدَاناً فحسب، بل أُعلِنُ أنه يتعارض تماماً مع الحقيقة ما لم أكن مخطئاً قال المعلقون إنّ الحرب ضد الأتراك يمكن أن تكون شرعية أو غير شرعية وفقاً للظروف⁴.

فيما يتعلق برأي إيراسموس بأن الأتراك "نصف مسيحيين" رغم أنّ سبب هذا الوصف ليس واضحاً في المخطوطة بحد ذاتها، فإن سبب هذه الألفاظ الموجودة أيضاً عند غيره من الكتاب قد يكون مردّه إلى حقيقتين: الأولى هي الافتراض السائد من أنّ الإسلام دين محمد (صلى الله عليه وسلم) كان في الحقيقة بدعة أو فرقة من المسيحية!! والحقيقة الثانية هي الآيات القرآنية التي زودت علماء الدين المسيحيين بهذا الافتراض؛ إذ جاء ذلك من الآيات القرآنية التي اعترفت بالمسيح ابن مريم نبي الله الحق ولكن ليس ابن الله، فبينما اعتمدت الحقيقة الأولى على المعتقدات الشعبية السيئة المغلوطة

¹ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 39.

² - Loc.cit.

³ - Ibid, Seite 39-40.

⁴ - Ibid, Seite 40.

والأساطير، إلى جانب التشويه المتعمد للحقائق، فإن الحقيقة الثانية هي جهد لاهوتي لبيان بطلان الإسلام أمام المسيحية¹، على أساس أن الإسلام ما هو إلا صورة سيئة معدلة عن المسيحية. الصورة التي تمتع بها الإسلام في نظر الإيطاليين تغيرت مع الاختلافات الدقيقة في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي؛ في كتابات بييترو بوسينيلو (Pietro Businello)² وجيمباتيستا توديريني (Giambattista Toderini)؛ الأول كان سكرتير السفير البندقي جيوفاني دونا (Giovanni Dona)³ في استانبول، ومقالاته التي جمعها سنة 1746م عن الإمبراطورية العثمانية بعنوان: رسائل إخبارية عن قوانين الترك المتعلقة بالدين والحكومة فيما تعلق بالجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية (Lettere informative delle cose de Turchi riguardo alla religione et al governo) (civile militare e politico, economico)، تشكل وفقا لبعض المؤرخين واحدة من معالم الصورة الجديدة للترك في نظر أهل البندقية⁴.

وعلى الرغم من أن الرسالة الإخبارية (Lettere informative) لبوسينيلو كانت مختلفة تمامًا عن سوابقها في جودة ودقة المعلومات التي قدمتها للقارئ، وبقدر ما كانت خالية من الأحكام المسبقة التقليدية عن الإسلام التي كانت لدى الإيطاليين، لم يفلت بوسينيلو من الصورة العامة التي تقول إن الإسلام قد تم تأسيسه على أهداف سياسية فقط، وأنه كان موجهاً فقط نحو غايات سياسية؛ وكتب أن هذا هو سبب توسعه وأنه لهذا السبب تم تكييفه مع مسائل الدولة، وهكذا

¹ - Ibid, Seite 41.

² . بييترو بوسينيلو (1705-1765): دبلوماسي بندقي، تقلد عدة مناصب؛ غادر إلى القسطنطينية سنة 1742م ليعمل مع بايلو البندقية وظلّ هناك حتى سنة 1745م، حيث استطاع خلال مدة إقامته ان يجمع بصر كمية كبيرة من الأخبار عن العثمانيين وضعها سنة 1744م ضمن كتاب: "رسائل إعلامية عن أعمال الأتراك فيما يتعلق بالدين والحكومة المدنية العسكرية والسياسية والاقتصادية"

(Lettere informative delle cose de Turchi riguardo alla religione et al governo civile militare, politico, et economico)

رجم الكتاب إلى الألمانية ونشر سنة 1778م. ينظر:

Paolo Preto: **Busenello Pietro**, Dizionario Biografico degli Italiani, Vol 15, (1972),

Enciclopedia Italiana,

[http://www.treccani.it/enciclopedia/pietro-busenello_\(Dizionario-Biografico\)/](http://www.treccani.it/enciclopedia/pietro-busenello_(Dizionario-Biografico)/).

³ . جيوفاني دونا (1691 - 1766): دبلوماسي إيطالي عين بايلو البندقية لدى الباب العالي بإستانبول سنة 1742م. وهو غير جيوفاني دونا باتيستا (1627-1699م) السابق الذكر والذي عين أيضا بايلو لدى الباب العالي سنة 1681م. ينظر قائمة بايلو وسفراء البندقية في موقع السفارة الإيطالية بأنقرة:

https://ambankara.esteri.it/ambasciata_ankara/ambasciata/ambasciatore/baili.html.

⁴ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 43.

وعلى الرغم من أن بوسينيلو اعترف بحضارة الأتراك على أنها حضارة جيدة، تستحق الاهتمام والتقدير إلا أن وجهات نظره حول الإسلام لا تزال متأثرة بجُطَبِ عُمَرُها قرونا من الزمن، مفادها فساد صحة الإسلام كدين إلهي بسبب طبيعته الدنيوية والسياسية¹، على الرغم من أن المسيحية مع البابوية كانت غارقة في السياسة.

أما بالنسبة إلى جيمباتيستا توديريني وكتابه الذي يقع في ثلاث مجلدات بعنوان الأدب التركي "Letteratura Turchesca" الذي نشر بالبندقية سنة 1787م، فلا يزال العمل الأكثر تفصيلاً وعمقاً وربما لم يكتب مثله أي إيطالي حتى ذلك الحين، كتب هذا الكتاب بعد أكثر من قرن من الحصار الثاني لفيينا عام 1683م، وبعد قرن تقريبا من ظهور كتاب جون باتيستا دونا، بعنوان حول أدب الأتراك (Della Letteratura de' Turchi)، وعلى الرغم من أن عمل توديريني كان مدروساً بعناية كبيرة، إلا أنه لا يزال يقدم الإسلام لقارئ عصره وفق وجهة النظر التي لا تعترف بأصالة الإسلام كدين شرعي، ولا يزال يصور محمد على أنه الكذاب الذكي في أحسن الأحوال².

بشكل عام بين سنتي 1453م و1683م تمتع الإسلام في نظر الإيطاليين بسوء فهم جزئي وتمّ التلاعب جزئياً بصورته ليظهر كطائفة زائفة أو كدين يعود إلى أصول وثنية، بحيث أنّ وجوده مثّل تهديداً للعالم المسيحي إن لم يكن للمسيحية نفسها، فتواريخ مثل 465هـ/1072م؛ الفتح النورمندي لمدينة باليرمو (Palermo) [شمال غرب جزيرة صقلية الإيطالية] يمثّل البداية، وسنة 897هـ/1492م؛ سقوط غرناطة واندراس الوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية علامة على الانتهاء من تمرير رايات الإسلام من الأيد العربية إلى الأيد التركية بأوروبا³.

سقوط القسطنطينية سنة 857هـ/1453م يشير إلى قرب حدوث تهديد للإسلام تجاه المسيحية على أيدي الأتراك، وعلى الرغم من وجود وجهات نظر موالية إلى حد ما عن الإسلام ومحاولات متروكة لفهمه - كتلك التي نجدها في تقارير "رولازيوني" لسفراء البندقية كاستثناء - مع ذلك لم تصبح اتجاهها عاما إلا بعد الإدراك الأوروبي بأن الإمبراطورية العثمانية لم تعد تشكل تهديداً عسكرياً هائلاً للعالم المسيحي، ظهر ذلك في الدفاع عن فيينا سنة 1094هـ/1683م والذي تم تنظيمه من قبل البابا

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, Seite 43-44.

³ - Ibid, Seite 44.

إنوسنت الحادي عشر (Blessed Innocent XI)¹ على شكل حرب صليبية².

بالنسبة لروما تعتبر الفترة التي مرت بين سقوط القسطنطينية حتى عصر الإصلاح في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي فترة لمحاولات تنظيم حملات صليبية مختلفة لإنقاذ العالم المسيحي من الكفار؛ ومع بداية الإصلاح ونهاية حرب الثلاثين عاما³ كان يجب حل المسألة التركية في نفس الوقت مع المسألة البروتستانتية؛ كان هذا إما في شكل استهداف للبروتستانت في إطار التحريض على الحرب ضد الأتراك⁴، أو في شكل خطاب إيديولوجي أو خطاب "الوحدة المسيحية" لاتخاذ إجراء عسكري موحد ضد الأتراك والبروتستانت⁵ من أجل تحويل الصدام العسكري المستمر بين البروتستانت والكاثوليك إلى الأراضي العثمانية⁶.

¹ . بليسد إنوسنت 11 (1611-1689م): تولى البابوية في الفترة (1676-1689م)، قوى ميزانية الفاتيكان، وأسهم في فشل حصار العثمانيين لفيينا سنة 1683م. اعتبر البابا إنوسنت 11 أبرز الباباوات في القرن السابع عشر. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Pope Blessed Innocent XI**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Blessed-Innocent-XI> .

² - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 45.

³ . حرب الثلاثين عاما (1618-1648) في التاريخ الأوروبي هي سلسلة من الحروب خاضتها دول أوروبية مختلفة لأسباب مختلفة بما في ذلك المنافسات الدينية والحضارية والإقليمية والتجارية. وعندما انتهت بمعاهدة وستفاليا عام 1648م تغيرت خريطة أوروبا بشكل لا رجعة فيه. كان ظاهرها صراعا كاثوليكي بروتستانت، وكان باطنها تنافس سياسي على السيطرة. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Thirty Years' War**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/event/Thirty-Years-War> .

⁴ . نجد ذلك عند مارسيلو مارشيسي (Marcello Marchesi) ضمن رسائله الخمس في الحرب ضد الأتراك سيما الرسالة الأولى الموجهة للبابا بول الخامس، حول مخطوطة مارشيسي ينظر: Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 80-81

⁵ . نجد ذلك عند بيتريكا من سونينو (Angelo Petricca da Sonnino) في مخطوطته سالفة الذكر والمعونة بـ

(trattato del modo facile d'espugnare il Turco e discacciarlo dalli molti Regni che possiede in Europa)

حول أفكار المخطوطة ينظر: Ibid, Seite 84-87

ينقل مصطفى سويكوت عن المستشرق الإيطالي (Aldobrandino Malvezzi) (ت 1961م) في كتابه الإسلامية والثقافة الأوروبية (L'Islamismo e la cultura Europea) توثيقه لوضع البروتستانتية والكالفينية في نفس السياق مع الإسلام بإيراده لمقولتان لشخصيتان كاثوليكيتان من أشرس الشخصيات المنتقدة للإصلاحيين في القرن السابع عشر؛ ينقل عن اللاهوتي الفرنسي (Dupréau Gabriel Prateolus) (1511-1588م) في كتابه هيلينكوس، أبجدية الهراطقة (Helencus alphabeticus) (haereticorum) في طبعته الثانية لسنة 1605م: " لقد تمّ تجديد الحمديّة في زماننا من قبل لوثر وتلاميذه "، وينقل عن المستشرق الإيطالي (Lodovico Maracci) (ت 1700م) في ترجمته للنص الكامل للقرآن من العربية إلى اللاتينية المنشور سنة 1689م قوله: " الكالفينيون والأسرايون (Sacramentists) [طائفة مسيحية إصلاحية ظهرت سنة 1520م] هم أبناء وتلاميذ محمد!!" ينظر: Ibid, Seite 111 .

⁶ - Ibid, Seite 110-111.

السياسة الرسمية للكرسي الرسولي نحو الإمبراطورية العثمانية كانت سياسة العداوة المستمرة والدعوات إلى الحروب الصليبية الجديدة، مقترنة بجهد خلق عدو مشترك للمسيحية، مع الأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الدول المسيحية لم يكن لديها الكثير من القواسم المشتركة فيما يتعلق بمصالحها السياسية خاصة بعد الانشقاق البروتستانتي¹، وهذا سبب فشل الكثير من الحملات الصليبية ضد العثمانيين، إضافة إلى الاستغلال العثماني للصراعات الدينية المسيحية الأوروبية.

جاء في الرسالة الأولى من الرسائل الخمسة التي كتبها مارسيلو مارشيسي في الحرب ضد الترك: " نفى بعض الزنادقة المسيحيين شرعية شن الحرب، ناهيك عن الحرب ضد الأتراك، علاوة على ذلك كان لوثر يعظ بجنون بالقول ليس فقط بترك شن الحرب ضد الأتراك، ولكن حتى بعدم مقاومتهم لكي لا نعارض الإرادة الإلهية؛ لأن الله بواسطتهم [أي الأتراك] يؤدّبنا"²!! وبغض النظر عن المضمون السياسي لهذه الدعاية المعادية للترك، فقد صور الأتراك أيضا باعتبارهم برابرة جفافة وكما هو الحال في جميع الأدب المعادي للترك بمباركة "صنع في روما" فإنّ معظمه كان ثمرة خيال خالص؛ لا يقوم على معانيات ورحلات في الإمبراطورية العثمانية، أو على وثائق محكمة، غير أنّه اكتسى هالة قوية ملحوظة مقارنة بأعمال البنادقة³، وذلك أنّ الدعاية الدينية غالبا تتفوق على غيرها من الدعايات لأنها تقوم على دعاوى إيمانية.

كتب مارسيلو مارشيسي في الرسالة الثالثة: " أولئك الذين ذهبوا [إلى تركيا] قالون أشياء عن الترك عكس ذلك: بما أن [الأتراك] لديهم دين واحد وملك واحد وشكل حكومة متفردة، وبما أن هناك القليل من التّبئّل بينهم - وأكثر من ذلك بسبب تعدد الزوجات - فإنهم يتكاثرون وليس لديهم الكثير من الفنانين أو من المشتغلين بالأشياء غير المجدية أو غير المرغوب فيها... ليس لديهم أدباء أو محامون أو وعّاظ متشابهون، وحتى لو كان لديهم فإن المناقشات بينهم قليلة جدا وموجزة غير أنّهم يُكرّسون أنفسهم جميعا لفن الحرب ويستثمرون وقتهم ومالهم فيه⁴.

هنا يرى المرء وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية فيما يتعلق بالعثمانيين؛ ففي حين أن الأتراك غير متحضرين وبربريين، فإن الشعور بـ "الحسد الأوروبي" (European envy) يتبلور حول منظمتهم العسكرية العليا، والهدف من استهزائهم هو عدم قدرة الأوروبيين على تنظيم أنفسهم سياسيا وعسكريا لهزيمة الأتراك، وفي حين يتم تصوير الترك كحيوان لا يعرف حتى ملذات "الفراء والملابس والأبجّة"

¹ - Ibid, Seite 119.

² . دعوى شبيهة بدعوى بعض الطرق الصوفية بالجزائر بحرمة مقاتلة فرنسا لأن ذلك قدر الله الغالب، ويجب التسليم لقدرة الله.

³ - Loc.cit.

⁴ - Ibid, Seite 119-120.

فإن الدول الأوروبية "توبّخ" من قبل الله من أجل التساهل المفرط في هذه الأشياء نفسها¹.

إذا كان الإيطاليون وفي القلب منهم روما قد لعبوا دوراً محورياً في تشكيل صورة الترك لدى الأوروبيين، فإنّ البندقية كانت لها إسهام كبير في تشكيل صورة الأتراك العثمانيين في العقل الأوروبي أولاً بسبب ممتلكات البندقية في شرق البحر الأبيض المتوسط، والروابط التجارية الحيوية التي كانت لها من خلال العديد من الجزر التي تمتلكها، وثانياً كانت تصورات البندقية فعالة بسبب الدور الذي لعبته بأوروبا خاصة من النصف الثاني من القرن الخامس عشر حتى نهاية سنة 1600م كمكتب إعلامي لأوروبا بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان للبندقية تمثيلاً دبلوماسياً بالقسطنطينية² قبل قرون من فتح الأتراك للمدينة سنة 1453م³.

يجب أن يكون هناك تمييز بين الأعمال المكتوبة عن الأتراك من قبل البندقية وتلك الأعمال المكتوبة في نفس الموضوع من قبل رجال الكرسي الرسولي بروما؛ ومع ازدحام أعمال رجال الإكليروس المسيحي بالحديث الجامح المثير للحملة الصليبية ضد الأتراك، نجد أنّ الأعمال المكتوبة في البندقية - على الرغم من أنها كانت سلبية بشكل عام - كانت على الأقل ترى الأتراك كعدو نبيل أو منافس⁴، كان هذا بالتأكيد مشفوعاً برغبة البندقية في الحفاظ على مصالحها في الشرق - ومعظمها ذات طابع تجاري - والتي كان الحفاظ على السلام لأجلها أكثر أهمية من إطلاق رسائل إيديولوجية ترضية للعالم المسيحي مثلما فعلت روما⁵.

¹ - Ibid, Seite 120.

² . تمكنت البندقية من الحصول على قدر كبير من التمثيل الدبلوماسي ببيزنطة بعد الحملة الصليبية الرابعة وفتح القسطنطينية من قبل اللاتين سنة 1204م، بفضل المصرفيين البنادقة وبفضل الدوق دوج إنريكو داندولو (Enrico Dandolo) الذي يوجد مقبرته اليوم على الجانب الأيمن من الرواق داخل آيا صوفيا بإستانبول. ينظر: Ibid, Seite 113.

³ - Loc.cit.

⁴ . كما قال المؤرخ الأمريكي تشارلز أ. فرازي (Charles A. Frazee) في كتابه الكاثوليك والسلطين (Catholics and Sultans) في إشارة إلى الكاثوليك اللاتينيين الذين عاشوا في غالاتا (Galata) وهي أكبر التجمعات التي تألفت من الجنويين والبنادقة: "لم يحدث اختلاف كبير بالنسبة لهم فيما لو كان حاكم القسطنطينية يونانياً أو تركياً، يمكنهم التعامل مع أي شخص يسمح لهم بمتابعة أعمالهم التجارية في ربوع الشرق". على عكس رجال الدين في روما؛ رجل مثل تودريني مؤلف كتاب أدب الترك الذي هو نفسه واحداً من رجال الدين كان أكثر تسامحاً مع الأتراك مثل سلفه حيوفاني دونا باتيستا، معترفاً بحضارة الأتراك اعترافاً بمنافس نبيل، ربما بسبب وسطه الثقافي الأكثر تسامحاً في البندقية وكذلك بسبب صورة القرن الثامن عشر المتغيرة عن الأتراك؛ والتي لم تعد صورة التركي الرهيب بعد أن تركت هذه الصورة لصالح صورة التركي الرومانسي، المرتبطة بمواضيع غرائب الشرق وكذلك بدء فترة من الدراسات الجادة في علم التركيات. ينظر: Ibid, Seite 118-119.

⁵ - Ibid, Seite 118.

لم تجرؤ الأعمال الأدبية للبنادقة على النظر في الجوانب المتحضرة لدى العثمانيين إلا بعد فشل حصار فيينا الثاني؛ تم تغيير صورة التركي الذي لا يقهر بعد سقوط القسطنطينية إلى صورة التركي المقهور بعد معركة ليبانتو، تلاها استوعاب العقل الأوروبي للترك في العقود التالية بعد الفشل في فيينا سنة 1683م كتركي غير ضار في القرن الثامن عشر، ثم بلغت الصورة ذروتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أصبح الترك الرجل المريض في أوروبا¹، بمعنى أنّ تجاوز الأوروبيين لها جس الخوف من العثمانيين بعد انتصارتهم عليهم هي التي جعلت صورة العثماني أو التركي كما يفضلون تسميته، تتغير.

بعد هذه المرحلة التركية غير الضارة نرى أن البنادقة بدأوا في الكتابة عن صورة للترك كان من المقرر لها أن تنتج في الأدب البندقي القادم في القرن الثامن عشر لا سيما بعد معاهدة پساروفيتش² في 1718م مواضيع تهتم بالحياة اليومية والثقافية للأترك دون أن تفسدها مواضيع " ترتبط مباشرة بأمور الحرب أو مستوحاة من الكراهية الحشوية"؛ في كتابه ملاحظات بخصوص الأدب التركي يمكن اعتبار جيوفاني باتيستا دونادو ممثلاً لهذا الاتجاه المستقبلي في الأدب البندقي حول الأترك بالرغم من أن تاريخ 1688م وهي السنة التي تم فيها نشر كتاب: ملاحظات بخصوص الأدب التركي هو تاريخ قريب العهد بهزيمة فيينا، ولكنه مثل بدايات النظر لرومانسية الشرق وإظهار الإمبراطورية العثمانية كمكان لأغاز الشرق الناعم³.

نلمس نغمة موضوعية متبصرة في تعبير دونادو حين قال: "كان يُعتقد أن انشغالي الأساسي هو كيف لتلك القوة الهائلة - التي كنت قريباً منها - والتي تجعل نفسها أكثر تعقيداً من أي وقت مضى تبيد الآخرين دون أن تعاقب من قبل أي أمة حتى الآن؟ لم يكن ذلك ما أرمي إليه بأي شكل من الأشكال، كان أكثر ما يشغلي هو اكتشاف نقاط ضعفها وقوتها، طالما أنه لا شيء يظل للأبد

¹ - Ibid, Seite 127.

² . معاهدة پساروفيتش (Passarowitz): تمت في 21 جويلية 1718م؛ وقعت الاتفاقية في ختام الحروب النمساوية التركية (1716-1818) والبندقية التركية (1716-1818) في پساروفيتش (تقع بصربية). فقدت الإمبراطورية العثمانية بموجبها أقاليم كبيرة في البلقان لصالح النمسا مما يمثل نهاية للتوسع العثماني باتجاه الغرب. تنص المعاهدة على سلام دام أربع وعشرين سنة بين الإمبراطورية العثمانية والنمسا. وتم التوقيع في نفس الوقت على معاهدة تجارية تركية- نمساوية منحت على إثرها النمسا امتيازات تجارية في الإمبراطورية العثمانية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Treaty of Passarowitz**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/event/Treaty-of-Passarowitz> .

³ - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 127.

فتلك طبيعة العالم "1.

لم تحظ أي حادثة في تاريخ أوروبا القرن السابع عشر باهتمام أكبر من الحصار التركي الثاني لفينا، الذكرى المئوية سنة 1783م وكذلك في سنة 1883م أنتجت وفرة من المؤلفات حول هذا الموضوع، حول هذه السنوات تقريباً يفرض جيوفاني باتيستا دونادو نفسه في الأدب عن الإمبراطورية العثمانية، تم انتخاب دونادو سفيرا بالقسطنطينية في 19 ماي 1680م، وفي سنة 1683م تمت إعادته إلى البندقية لتجاوزه تفويضه كسفير²؛ إذ كان يشتبه في عقده اتفاقيات سرية مع العثمانيين، وثبتت براءته، قرأ دونادو تقريره "رولازيوني" حول مهمته بالقسطنطينية في مجلس شيوخ البندقية في 20 أوت 1684م، وكان تقريره آخر التقارير حتى معاهدة سلام كارلوفيتز³.

فقط بعد سنة 1094هـ/1683م أصبح واضحاً للأوروبيين أن الأتراك لم يعد لديهم الاستعداد بعد الآن ولا القدرة العسكرية للقيام بغزو أوروبا بأكملها، ناهيك عن قدرتهم على غزو روما ليصبحوا أسيادا لروما عاصمة العالم (Roma caput mundi)، كان ذلك لا يزال تصور الإيطاليين عشية سنة 1683م. تمّ تحديد السياسة الدولية جزئياً بسبب الضعف الداخلي للعثمانيين نحو مطلع القرن السابع عشر⁴، وهي ذات الفترة التي بدأ فيها العثمانيون يبحثون عن سبب تفوق أعدائهم عليهم.

التوازن الأوروبي الجديد للقوة والاستقرار النسبي بوسط أوروبا، النظام الذي تحقق سنة 1648م بعد عقود من الصدامات بين البروتستانت⁵ والكاثوليك، مع اقتترانه بتعزيز قوة الدول القومية القديمة

¹ - Loc.cit.

² . وفقاً لكينيث إم سيتون (Kenneth M Setton) تمتع دونادو بعلاقات وثيقة مع الوزير الأول قارا مصطفى باشا ابتداء من سنة 1682م، فقد كان من مصلحة الأخير الحفاظ على علاقات وثيقة مع البندقية بسبب خطته لمهاجمة هابسبورغ، فقد "أعقد الهدايا على دونادو" كما أن البندقية والعثمانيين كانوا في سلام لأكثر من عقد من الزمان، والذي لم يكن من المفترض أن يعكر عشية الحصار الثاني لفينا، الذي كان في السنة التالية. ينظر: Ibid, Seite128.

³ - Ibid, Seite127-128.

⁴ Ibid, Seite111.

⁵ . أخذت البروتستانتية موقفاً مسانداً للعثمانيين باعتبار أن العثمانيين وقّروا لها الحماية، وكانوا سبباً في تمكّنها وانتشارها بأوروبا؛ لوثر في رسالته المنشورة سنة 1530م والمسمّاة برسالة حول دين وأخلاق الترك (Libellus de ritu et moribus Turcorum) يقارن الأتراك بالمسيحيين ويحترم اتصافهم بفضائل مثل التواضع ومعيشتهم البسيطة وكوّنهم جيرون بالاحترام. يشير لوثر إلى نقطة يقبلها المؤرخون اليوم؛ قال: إن الظروف المعيشية للفلاحين في أوروبا الشرقية كانت سيئة للغاية لدرجة أنهم رحبوا في بعض الأحيان بالأتراك كمنقذين. ينظر: Ibid, P176-177. في كتابه "الحرب ضد الترك" (On War against the Turk) الصادر سنة 1528م يشجع لوثر سياسة "عش واركه يعيش" "دع التركي يؤمن ويعيش كما يشاء كما يسمح المرء بأن تعيش البابوية والمسيحيين الزائفين الآخرين". في الواقع يبدو لوثر صديقاً تماماً تجاه الأتراك عندما قال: "يقال إن الأتراك هم من بين المؤمنين الودودين، والحريصين على قول الحقيقة. وأعتقد أنهم ربما يتمتعون بفضائل أفضل من ذلك" ينظر =

مثل فرنسا وإنجلترا. علاوة على ذلك فإنّ تمديد السيادة الأوروبية على المستعمرات التي تم غزوها حديثاً خارج أوروبا فتح تدريجياً حقبة حيث يتم الآن نقل المسألة الأوروبية وحرّباها إلى العالم بأسره، كل ذلك لم يؤسس فقط الأرضية لصورة التنوير الأكثر ملاءمة للترك، ولكن أيضاً خلق تغييراً ملموساً في الموقف الأوروبي تجاه المسألة التركية؛ وليس من قبيل المصادفة أن ولادة الاستشراق بالمعنى الحديث والتّركّة (Turquerie)¹ تمّت في هذه الفترة وأصبحت جزءاً من النظرة الأوروبية للشرق².

عادت المسألة العثمانية التي لم تتحول قط إلى قضية "حملة صليبية شاملة للمسيحية" بعد بداية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي - إذا استثنينا الصدمات العسكرية المعزولة بين العثمانيين والقوى الأوروبية - إلى جدول الأعمال عشية الحرب العالمية الأولى بلغة سياسية مختلفة وليس تحت مسمى "الحملة الصليبية" بعد الآن، ولكن تحت مسمى "رجل أوروبا المريض"، كانت هذه فترة استنزاف للقتال في المستعمرات بين القوى الأوروبية خارج أوروبا، ومرة أخرى فترة قصيرة من نقل اللازمة المألوفة لحرب "العالم المتحضر" ضد "الطغاة" القدامى³.

استنتاجات حول تطور نظرة الأوروبيين حول العثمانيين

في نهاية كتابه خلص الدكتور مصطفى سويكوت إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها فيما يلي: هناك العديد من الاستنتاجات المستندة على البحث الحالي، نقسمها لفتين: الفئة الأولى من الاستنتاجات هي فئة عامة تتعلق بطبيعة الصورة؛ أولاً: كانت صورة "الترك" سلبية بشكل عام بأوروبا حين كانت الإمبراطورية العثمانية في أوجّها بين سقوط القسطنطينية والحصار الثاني لفيينا

Jae Jerkins: "Islam in the Early Modern Protestant Imagination, Religious and Political Rhetoric of English Protestant-Ottoman Relations (1528-1588)", Eras, 13Edt, Issue 2, Monash University, Melbourne, Australia, June 2012, P6.

لكن كل من مارتن لوثر وجون كالفين المؤسسين الرئيسيين للإصلاح البروتستانتي أظهرها عداء ملحوظ في نزاعاتهما اللاهوتية ضد الإسلام بعد الحصار العثماني الأول لفيينا المجاورة سنة 1529م في زمن السلطان سليمان القانوني. بالنسبة للوثيرة الألمانية كان النبي

محمد (صلى الله عليه وسلم) لا لبس في أنه ابن الشيطان مع أنه "الثاني في الشر بعد البابا"!!! ينظر: Ibid, P4-5.

¹. لتتركة (Turquerie) هو مصطلح يطلق على الشره الأوروبي للثقافة العثمانية. جزء من الاستشراق العام الذي ساد في أوروبا الغربية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، برز "التتركة" في القرن الثامن عشر عندما تم استبدال تهديد الغزو التركي بالرغبة في البضائع التركية. كما هو الحال مع العديد من الموضوعات المستوحاة من العوالم الأجنبية. ينظر:

Katie Campbell: "Turquerie - an orientalist fantasy", cassone The International Online Magazine of Art and Art Books, October 2014, <http://www.cassone-art.com/magazine/article/2014/10/turquerie-an-orientalist-fantasy/?psrc=architecture-and-design>.

² - Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 111.

³ - Loc.cit.

كانت هذه الصورة استمرارًا للعداء القائم بين الحضارتين المسيحية والإسلامية حتى سقوط القسطنطينية والذي لم يتبلور إلا في شخصية "الترك" (أي العثمانيين) بعد عام 1453م، ثانياً: كان هناك تغير تدريجي لكن مستمر نحو الأفضل في الصورة المذكورة أعلاه بدءاً من الركود العسكري للإمبراطورية العثمانية بأوروبا من سنة 1683م فصاعداً¹.

تتعلق الفئة الثانية من الاستنتاجات بوظيفة هذه الصور المختلفة التي تم إنشاؤها بإيطاليا بين سنتي 1453 و 1683م؛ فيما يتعلق بالجوانب السياسية للصورة التركية، تشير الفترة بين 1453م و 1517م بما في ذلك تمرد لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى الفترة التي احتفظ فيها الأتراك بصورتهم القائمة فعلياً ليس فقط كعدو للمسيحية، ولكن أيضاً واعتباراً من سنة 1453م فصاعداً كتهديد وشيك وكبير للعالم المسيحي؛ جهود جلب الوحدة إلى أوروبا تحت رعاية وكلاء الكنيسة الرومانية واستعادة السلام المسيحي اكتست أهمية غير مسبوقة بعد سنة 1453م². الكثير من كتابات رجال الدين مثلت الذراع الإيديولوجي للإصلاح المضاد الذي اعتبر "الحرب ضد الترك" فرصة ممتازة لاستخدامها كوسيلة لتحويل الانتباه عن الانقسامات والحروب الدينية والسياسية المستمرة بأوروبا؛ من الغريب أن الكنيسة الرومانية نفسها اعتبرت الهراطقة البروتستانتين وكذلك الأتراك الكفار أهدافاً "لحملة صليبية" محتملة، وبهذه الطريقة دفعت الأهمية المتناقضة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى استخدام العدو التركي التقليدي كمحاولة لاستعادة السيطرة في أوروبا التي لم تعد تحكمها الكنيسة الأم فقط؛ عواقب حرب الثلاثين سنة تنهض كدليل واضح على هذا التشرذم الديني والسياسي بأوروبا³، وبالتالي يجب النظر إلى الحروب الصليبية ضد العثمانيين على أنها سياسية أكثر منها دينية.

الأثار الثقافية للصورة التركية في الفترة المذكورة أعلاه تقدم للمؤرخ وجهة نظر سلبية تماماً مع بعض الاستثناءات القليلة للسفراء البندقيين، وعدد قليل من الرّحالة الذين ذهبوا إلى الإمبراطورية العثمانية وعانوا واقعها بشكل شخصي، حملت صورة العصور الوسطى السلبية بالفعل عن "المسلم" بعض التقدير للترك بين النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ونهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، تم تكثيف هذه الصورة فقط من خلال التقدم العسكري السريع ووجود الدولة العثمانية كنموذج وحيد مماثل لأعجاز الإمبراطورية الرومانية السابقة كما كان ينظر إليها في الثقافة الإنسانية الإيطالية⁴.

1 - Ibid, Seite148.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4 - Ibid, Seite148-149.

كان الرواد الذين يبشرون بالصورة التركية المتغيرة في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي هم البنادقة دونالدو وبوسينلو، وكلاهما من العائلات البارزة في الطبقة الإدارية للبندية ولعل التغيير الأكثر تطرفاً حدث في كتاب الأدب التركي (Letteratura Turchesca) لتوديريني وهو رجل دين، حاول توديريني القضاء على الأحكام المسبقة ضد الأتراك في كتابه الأدب التركي فيما يتعلق بعصر التنوير الجديد بالكلمات التالية: " قبل الدخول في دراسة الأدب التركي يجب أن أزيل خطأ كبيراً شائعاً لا يزال متجذراً بأذهان العديد من الأوروبيين المثقفين الذين يكتبون عن محمد من منطلق شعور قوي أنه أغلق كل طرق العلم بتشريع مشدد خوفاً من أن يتطرق الأذى إلى مذهبه إذا تم نشر العلوم؛ جعل الجهل تقريبا قاعدة بين شعبه وعلى أساس ذلك وجدت الديانة الإسلامية الشاذة¹!!

بعد ذلك يوضح توديريني رؤية النبي محمد صلى الله عليه وسلم في طلب العلم فقال: "... سيتضح من كلماته الخاصة التي يزعم أنّها وحي!! إذ قال: "إنه مشروع للمسلمين أن يمتلكوا كل العلوم" وفي مقولة أخرى له قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين"، والجملته المشهورة المكتوبة على مكتبة فاتح القسطنطينية تقول: "دراسة العلوم فرض إلهي على المؤمنين الحقيقيين"، لذلك يُرى بوضوح إلى أي مدى نجافي الحقيقة حين نعتقد أن محمداً أراد أن يمنع العلم عن شعبه ويقيهم مدفونين في الجهل [.....] البيئة العلمية والمواتية للأتراك ... تجعلهم يمتلكون مذهباً في العديد من العلوم وينتجون الأدب الممتع"².

يتحدث توديريني عن الشغف العلمي الذي لمسّه عند الأتراك: " أعرف اثنين من السادة والأدباء الأتراك يكتبون ويقرؤون باللغة الإيطالية والعديد غيرهما ممن هم أكثر استعداداً للتحدث بها، لقد سألتني مهندس فرنسي بارز لأترجم له بلغتنا [يقصد باللغة الإيطالية] جزءاً من أطروحة في الجبر لأحد العثمانيين الذي كان ضليعاً بالجبر، وسألني شاب تركي ناضج بدفء كبير عن الجداول اللوغاريتمية لجيب ظل الزاوية وجيب ظل التمام واستفسر آخر عن التقويم الفلكي من العام الحالي 1785م ويسألون أحيانا أخرى عن أشياء غير عادية وغريبة"³.

هناك أهمية أخرى لإيطاليا فيما يتعلق بالصورة التركية مردّها إلى حقيقة أنه ليس فقط العديد من الأعمال المكتوبة في إيطاليا تمّ نسخها بين القرن الخامس عشر ونهاية القرن السابع عشر

¹ - Ibid, Seite 149-150.

² - Ibid, Seite 150-151.

³ - Ibid, Seite 151-152.

في أجزاء أخرى من أوروبا، ولكن أيضاً تواصل النسخ في القرن الثامن عشر أيضاً؛ وكانت الأعمال الشهيرة للإيطاليين مثل كتاب تودريني المذكور آنفاً ومخطوطة بوسينيلو رسالة إخبارية (Lettere informative) تتمتعان بعدد كبير من القراء خارج إيطاليا، وربما قد حظيت الرسالة الإخبارية بروج في الأجزاء الأوروبية الناطقة بالألمانية أكثر مما لقيته حتى في وطنها الأم البندقية؛ تمت ترجمتها ونشرها مرتين بألمانيا في سنة 1771-1772م بمدينة أولم (Ulm) [تقع جنوب غرب ألمانيا] ومرة أخرى سنة 1778م بمدينة لايبزيغ (Leipzig) [شرق ألمانيا]، وهذا يدل على الدور المركزي لإيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر في نشر الصورة التركية بأوروبا، وهناك استنتاج آخر هو الدور الواضح الذي لعبته الكنيسة الرومانية في خلق الصورة التركية - على أقل تقدير في أوروبا الكاثوليكية كسلطتها الروحية - من خلال العملية المحسوبة جيداً للصراع الأيديولوجي والسياسي الذي مرت به باستخدام العداء الموجه نحو الأتراك¹.

كانت الصورة التركية في القرن الثامن عشر في إيطاليا وأوروبا بشكل عام بحسب عصر التنوير صورة "تركيا الغربية"، ولم يعد ينظر إليها على أنها عدو القرون الماضية الشرس، ومع ذلك ما هو مهم في الدراسة الحالية هو أنه ابتداءً من القرن الثامن عشر فصاعداً² بدأت الجهات الأوروبية الأكثر أهمية سياسياً مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا بتشكيل الصورة التركية في أوروبا، الصورة الغربية الإيجابية نسبياً التي خلقتها القوى الأخيرة أصبحت في القرن التاسع عشر تصور العثمانيين بصورة "رجل أوروبا المريض" في الواقع تم تقاسم مصير جميع الإمبراطوريات متعددة الجنسيات في أوروبا مثل هابسبورغ، وبحلول نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الإمبراطورية العثمانية قد انتهت³.

ذلك هو مسار تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين، مسار تحكّم في صياغته التوسع العثماني على حساب أوروبا من جهة، وتحكّم فيه من جهة ثانية الرؤيا الدينية التي فرضها الخطاب البابوي، ولم يتعد عنها الخطاب البروتستانتي كثيراً سيما بعد حصار فيينا الأول بقيادة سليمان القانوني، ظهر بعض التغيير في الصورة العامة للعثمانيين بعد أن تأكّد تآكل قوّتهم العسكرية الساحقة بعد فشل حصار فيينا

¹ - Ibid, Seite 152-153.

² . تمثل معاهدة ساروفيتش في سنة 1718م فترة تراجع فيها كل من الإمبراطورية العثمانية والبندقية بالإضافة إلى البابوية كمثلين سياسيين حاسمين بأوروبا؛ مع معاهدة ساروفيتز أتمت البندقية حربها الأخيرة ضد العثمانيين، وخسرت شبه جزيرة موريا (Morea) لحساب العثمانيين بعد أن تمكنت من الاستيلاء عليها قبل عقدين من الزمن مع معاهدة كارلوفيتز في عام 1699م، وفي سنة 1797م فقدت البندقية استقلالها باستيلاء النمسا عليها وخرجت بشكل دائم كمثل من المشهد السياسي الأوروبي. ينظر:

Ibid, Seite 153 .

³ - Loc.cit.

الثاني، وأصبح يتكوّن شيئاً فشيئاً اتجاه ينحو إلى معرفة العثمانيين بصورة أكثر تعقّلاً، على اعتبارهم رجل أوروبا المريض الذي ينبغي معرفة أوجاعه قبل الإجهاز عليه.

غير أنّه وبصرف النظر عن تطوّر تلك الصورة إلا أنّ ذلك لم يمنع من وجود تأثيرات متبادلة بين العثمانيين والأوروبيين وفق نظرية التأثير والتأثر الناظمة للحراك البشري على اختلاف الأمكنة والعصور، وبما أنّ الإنسان مدني بطبعه وكائن اجتماعي بالسليقة، فإنّ العلاقة الواحدة التي يحكمها العداء تكاد تكون حديث خرافة يمجّها العقل ويرفضها منطق التاريخ، لذلك سنرى تعدد العلاقات مكرّساً بين العثمانيين والأوروبيين مع البدايات الأولى لسقوط حلم توحيد القسطنطينية وروما تحت قيادة البابا، وانتقال مفاتيح آيا صوفيا إلى أيدي غير مسيحية بل معادية لها.

المبحث الثاني: التأثير العثماني الأوروبي المتبادل

بدايات التأثيرات الأوروبية العثمانية المتبادلة بعد سقوط القسطنطينية

تأثير العثمانيين ودورهم في تشكيل المشهد الديني بأوروبا

الفن ودوره في تجسير العلاقات الأوروبية العثمانية

التأثير المتبادل للسفارات الأوروبية العثمانية

التأثير العثماني في الأدب الأوروبي

التأثيرات على الجانب العثماني

التأثيرات على الجانب الإنجليزي

فلسفة الاقتباس الإسلامي من الغرب

تأثيرات القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي

في هذا المبحث نلظر كيف استفاد العدوّن المتجاورين (العثمانيين والأوروبيين) من بعضهما البعض في الحرب كما في السلم؛ إذ جُبل البشر على الرّكون والانجذاب لبعضهم البعض من حيث أنّ الإنسان مديني بطبعه، فتتج عن ذلك قانون التسخير الإلهي {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} ¹، ورغم أنّ المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب، إلّا أنّ ذلك لا يمنع الغالب أحيانا أن يستفيد من المغلوب وفي التاريخ شواهد لذلك كله {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} ².

لم تبدأ العلاقات العثمانية الأوروبية بالحرب ولكنها بدأت بالتجارة وكانت الجمهوريات البحرية الإيطالية بوابة العلاقات الأورو عثمانية؛ فقد ذكرنا سابقا أنّ أول امتياز عثماني من الامتيازات التجارية مُنح قبل فتح القسطنطينية قرابة المائة سنة إلى جمهورية جنوة سنة 753هـ/1352م، وبعد ذلك إلى جمهوريتي البندقية وفلورنسا، وتعززت التجارة أيضا بعد فتح القسطنطينية رغم ما أصبح يمثله العثمانيون حينها من تهديد على كامل أوروبا؛ فقد أعطيت نفس الامتيازات التجارية لفرنسا في سنة 977هـ/1569م وإنجلترا في سنة 988هـ/1580م وهولندا في سنة 1021هـ/1612م.

سيطرت العثمانيين الكاملة على المضيق (الدردينيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور) سنة 857هـ/1453م منحهم موقعًا استراتيجيًا في السيطرة الكاملة على تجارة البحر الأسود ودول أوروبا الشرقية (على سبيل المثال غزو مستعمرات جنوة في شبه جزيرة القرم سنة 880هـ/1475م وأول اتفاق تجاري مع موسكوفي (Muscovy) سنة 896هـ/1491م). ويمكن القول أنه في الفترة ما بين 906-1308هـ/1500-1790م لعبت الدولة العثمانية التي تضم أراضيها آسيا الصغرى والبلقان والأراضي العربية في الشرق الأوسط، واحدا من أهم الأدوار في المجال الاقتصادي لتنمية أوروبا ³.

إنّ العلاقات التجارية من شأنها أن تفرض نوعا من التعايش الذي يتجاوز في جوهره الخلافات العقدية والإيديولوجية والقومية، ومع الأرباح والمنافع المتبادلة يحدث التأثير والتأثر ويعاد صياغة العلاقات على أساس استبعاد الحرب قدر المستطاع لصالح استدامة السلام قدر المستطاع، ومع السلام تزدهر التجارة وتتعزيز الدبلوماسية ويزدهر معها تبادل المنافع، وينظر كل طرف إلى كيفية الاستفادة من الطرف الآخر، ومع التجارة تزدهر الفنون، ويمكن اعتبار الفنون أهم مدخل للتبادل الثقافي بين الشعوب

¹. سورة الزخرف، الآية 32.

². سورة آل عمران، الآية 140.

³ - Halil Inalcik: Op.cit, P111.

وسنرى فيما يأتي حقيقة ذلك ابتداء من عصر محمد الفاتح ثم الذين جاؤوا من بعده¹.

تاريخ التأثيرات الثقافية الأوروبية على العثمانيين يظهر في فترات مبكرة ويجب مناقشتها في المراحل التالية: البداية كانت في القرنين الثامن والتاسع الهجري/الرابع والخامس عشر الميلادي جنبا إلى جنب مع التأثيرات البيزنطية واليونانية، وخصوصا عندما كان النفوذ الإيطالي قويا؛ شهدنا تحولا واسعا لليونانيين إلى الإسلام، والزواج مع النساء اليونانيات، وتوظيف اليونانيين على نطاق واسع في المجالات السياسية والمالية والتجارية من قبل محمد الفاتح، كل ذلك ترك آثار غير قابلة للمحو في حياة وثقافة العثمانيين.

بدايات التأثيرات الأوروبية العثمانية المتبادلة بعد سقوط القسطنطينية

كان محمد الفاتح مثله مثل الأمراء الإيطاليين يرحب ويحوي العلماء والفنانين اليونانيين والإيطاليين في بلاطه، بالإضافة إلى ذلك أنشأ مكتبة القصر للأعمال الكلاسيكية القديمة اليونانية والملايين، وحتى لو كان من المبالغة اعتبار الفاتح كحاكم عصر النهضة لا يمكن إنكار تأثيراته الثقافية الهامة جدا في عصر النهضة الإيطالية؛ فليس من قبيل المصادفة أن الرسامين الإيطاليين الكبار زاروا القصر العثماني وبعضهم قدّم مشاريع كبرى للسلطان العثماني، وكان لمحمد الفاتح جدران أسقف مزينة بحدادية الرسامين الإيطاليين، ويمكن اعتبار الأزياء الفاخرة بإيطاليا هي المرحلة الأولى من التتركة (الموضة التركية) في الغرب².

يعتبر السلطان محمد الفاتح في عصره واحداً من الحكام النادرين الذين غيروا مجرى تاريخ العالم غير أنه لا يُعرف عنه إلا القليل بخصوص رعايته للفنون والعلوم التي تركت آثارا عميقة في العالم الغربي

¹ . سنعمد في هذا المبحث على الدراسة القيّمة المعنونة ب: الإمبراطورية العثمانية وأوروبا: لقاءات ثقافية (The Ottoman Empire and Europe: Cultural Encounters) للبروفسورة كونزال رندا (Günsel Renda) وهي مؤرخة تركية متخصصة في تاريخ الفن العثماني وتفاعلات الثقافة الأوروبية العثمانية، ومديرة سابقة لقسم تاريخ الفن بجامعة حجة تبة (Hacettepe Üniversitesi) بأنقرة، ومستشارة سابقة لوزارة الثقافة والسياحة التركية، وهي حالياً أستاذة مساعدة في قسم الآثار وتاريخ الفن بجامعة كوتش (Koç University) بإستانبول وباحثة مقيمة بالمؤسسة الثقافية التركية. والدراسة قدّمت بمؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة (Foundation for Science Technology and Civilization) ببريطانيا في ديسمبر 2006م. الدراسة المشار إليها أعلاه نشرت لأول مرة ضمن كتاب (the Cultural Contacts in Building a Universal Civilisation: Islamic Contributions) الذي أشرف عليه البروفسور إحسان اوغلو، والذي طبع بإستانبول سنة 2005م من طرف مؤسسة (IRCICA) تحت عنوان: أوروبا والعثمانيون: التفاعلات في الفن (Europe and the Ottomans: Interactions in Art)، كما سنعمد على كتاب تركيا وأوروبا في التاريخ (Turkey and Europe in History) للمؤرخ والباحث التركي خليل إينالجيك المتخصص في التاريخ العثماني.

² - Halil Inalcik: Op.cit, P151.

والشرقي؛ كان محمد الفاتح مهتما بالتاريخ القديم والثقافة الغربية منذ سن مبكرة، وكان أول حاكم عثماني لديه علاقات ثقافية مع الغرب، أثرى مكتبته بعدد كبير من الكتب العلمية بلغات مختلفة في مجالات الجغرافيا والطب والتاريخ والفلسفة؛ من بينها الأناجيل والأعمال اليونانية الكلاسيكية رسم جيورجوس الترابيزوني (George of Trebizond)¹ خريطة العالم للسلطان مستفيدا من كتاب الجغرافيا للفلكي والرياضي الإغريقي الشهير بطليموس².

توجد بقصر توبكابي بإستانبول نسخة لاتينية من كتاب الجغرافيا (Geographike) الشهير لبطليموس، ونسخة مترجمة بالإيطالية من طرف برلانجيري فيورنتينو (Berlinghieri Fiorentino)³ مخصصة لمحمد الفاتح، كما وصلت الخرائط الإيطالية والكتالونية وكتاب الملاحة البحرية (Portolan chart) إلى القصر في هذه الفترة، وبالإضافة إلى الكتب العلمية والخرائط وجدت النقوش الإيطالية التي تُصوّر المشاهد الأسطورية والدينية طريقها إلى مكتبة السلطان⁴.

أراد محمد الفاتح الذي تابع التطورات في الفن والعلم بعصر النهضة أن يخلد صورته الخاصة به على ميداليات وصور شخصية، مثل الحكام اليونانيين والرومانيين وإنساني عصر النهضة الذين كانت صورهم متاحة للتبادل الدبلوماسي والثقافي؛ طلب فنانيين من عدة حكام إيطاليين فكان الفنان الإيطالي كوستانزو دا فيرارا (Costanzo da Ferrara)⁵ أول فنان يصل إلى القصر العثماني مبعوثا من قبل ملك نابولي⁶.

¹ - جيورجوس الترابيزوني (1396-1486م): باحث إنساني بيزنطي وعالم يوناني، نفوذه الأكاديمي ونظرياته حول القواعد والنقد الأدبي، ساهمت بشكل كبير في الإنسانية الإيطالية وعصر النهضة. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **George of Trebizond, Byzantine humanist**, Encyclopaedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/George-of-Trebizond> .

² - Günsel Renda: " **The Ottoman Empire and Europe: Cultural Encounters**", Foundation for Science Technology and Civilization, United Kingdom, December 2006, P2.

³ - برلانجيري فيورنتينو (1440-1500م): إنساني وجغرافي إيطالي. ينظر:

Roberto Almagià: **BERLINGHIERI**, Francesco, Enciclopedia Italiana, http://www.treccani.it/enciclopedia/francesco-berlinghieri_%28Enciclopedia-Italiana%29/ .

⁴ - Günsel Renda: Op.cit, P2.

⁵ - كوستانزو دا فيرارا (1450-1524): رسام وصانع ميداليات إيطالي. تم استدعاؤه إلى إستانبول لرسم صورة للسلطان من المحتمل أنه ظلّ في القسطنطينية حتى وفاة السلطان عام 1481. وتم منحه وسام فارس. ينظر:

Julian Raby: "**Pride and Prejudice: Mehmed the Conqueror and the Italian Portrait Medal**," Studies in the History of Art, issue 21, Italian Medals, ed. J. Graham Pollard, 1987, P 176.

⁶ - Günsel Renda: Op.cit, P3-4.

ازداد التبادل السياسي والثقافي بعد اتفاق السلام مع البندقية سنة 884هـ/1479م؛ طلب السلطان محمد الفاتح من دوق البندقية عجلة البرونز التي تصنع الميداليات ورساما؛ ف جاء جنتيلي بليني (Gentile Bellini)¹ وعمل لدى السلطان بإستانبول؛ صنع ميداليات بها صورة السلطان محمد الفاتح² ورسم لوحات أخرى ومناظر للمدينة، علاوة على ذلك من المعتقد أن السلطان قد أرسل ميدالية من تلك الميداليات إلى لورنزو دي ميديتشي (Lorenzo dei Medici)³ الذي كانت تربطه به علاقات جيدة؛ فقد اعتقل محمد الفاتح بإستانبول زعيم مؤامرة بازي⁴ ضد دي ميديتشي⁵.

أسس البنادقة والجنويين مستعمرات مستقلة بالقسطنطينية وغلطة وفي شبه جزيرة القرم وعلى جزر بحر إيجه وفي اليونان خلال فترة انهيار الإمبراطورية البيزنطية، وحظروا على السكان المحليين المشاركة في التجارة الخارجية الكبرى، ألغى محمد الفاتح السيطرة السياسية للإيطاليين في الشرق لكنه اعتبرها ضرورية لمواصلة العلاقات الاقتصادية معهم، البندقية التي كان لها شبه احتكار تجاري بين الشرق الأدنى وأوروبا بفضل الامتيازات العثمانية التي وقّرت لها التجارة الحرة في الشرق خلال القرنين

1. جنتيلي بليني (1429-1507م): رسام إيطالي أرسله دوق البندقية سنة 1479م إلى القسطنطينية كرسام ببلاط محمد الفاتح أهم أعماله هناك صورة محمد الثاني 1480م. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Gentile Bellini**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Gentile-Bellini>.

2. الملحق (06) صورة لمحمد الفاتح رسمها الفنان الإيطالي جنتل بيليني (Gentile Bellini). ص 612.

3. لورنزو دي ميديتشي (Lorenzo dei Medici) (1449-1492م): الملقب بلورنزو الإيطالي العظيم، رجل دولة وحاكم فلورنسي وراع للفنون والآداب، أكثر آل ميديتشي شهرة. كانت ابنته مادالينا متزوجة من ابن البابا إنوسنت الثامن. حصل لابنه جيوفاني على رتبة كاردينال من البابا إنوسنت الثامن، ليصبح ابنه فيما بعد بابا باسم ليو العاشر (Leo X). ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Lorenzo de' Medici, Italian-Statesman**, Encyclopedia Britannica <https://www.britannica.com/biography/Lorenzo-de-Medici>.

4. مؤامرة بازي (Pazzi) (26 أبريل 1478)، مؤامرة فاشلة للإطاحة بحكام ميديتشي في فلورنسا. وهي الأكثر دراماتيكية من كل المعارضة السياسية لعائلة ميديتشي. كانت المؤامرة بقيادة عائلة بازي (Pazzi) المنافسة بفلورنسا، تحالف البابا سيكستوس الرابع وابن أخيه جيرولامو رياريو، وكذلك رئيس أساقفة بيزا (Pisa) فرانشيسكو سالفاتي الذي رفض لورينزو الاعتراف به، تم تنفيذ محاولة لاغتيال الإخوة ميديتشي خلال قداس في كاتدرائية فلورنسا في 26 أبريل 1478م، فقتل جوليانو دي ميديتشي، لكن لورينزو تمكن من الدفاع عن نفسه والفرار بجروح طفيفة وفي الوقت نفسه حاول بقیة المتآمرين السيطرة على الحكومة، لكن منعهم سكان فلورنسا؛ تم تعقب المتآمرين بلا رحمة وقتل العديد منهم (بما في ذلك رئيس أساقفة بيزا) على الفور. أدى فشل المؤامرة مباشرة إلى حرب استمرت عامين مع البابوية التي كانت كارثية بالنسبة لفلورنسا، لكن التأثير الأكثر أهمية كان تعزيز قوة لورنزو الذي لم يستطع فقط التخلص من أخطر أعدائه، بل أظهر أيضاً أنه يتمتع بالدعم القوي من الناس. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Pazzi conspiracy**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/event/Pazzi-conspiracy>.

⁵ - Günsel Renda: Op.cit, P4.

التاسع والعاشر الهجري/الخامس والسادس عشر الميلادي هي مدينة لهذا التعاون في ازدهارها ونجاحاتها الثقافية الرائعة خلال تلك القرون¹.

عندما دخل الفاتح في حرب ضد البنادقة في الفترة ما بين 868-884هـ/1463-1479م وافق على منح امتيازات تجارية لتجار دولة فلورنسا وأبدى اهتماما كبيرا بها، الفلورنسيين الذين تبادلوا القماش الصوفي الثمين في بورصا مع الحرير الفارسي يُدينون إلى حد كبير في ثرائهم وازدهارهم لهذه التجارة في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، تطورت هذه التجارة بعد سنة 868هـ/1463م؛ ففي سنة 906هـ/1500م كانت لدى الشركات الفلورنسية بما في ذلك عائلة ميديتشي وكالات تجارية في بيررا، وبورصا، وأدرنة، احتفل الفلورنسيون في غلطة بانتصارات محمد الفاتح ضد البندقية، إضافة إلى ذلك حضر السلطان عيدا في قصر امينو كارلو مارتيلي (emino Carlo Martelli) في بيررا (Pera) بإستانبول وأبدى اهتماما وثيقا بالعلاقات مع فلورنسا²، كان من مصلحة محمد الفاتح ضمان عدم توحد الجمهوريات الإيطالية والبابوية بروما، ومعاملتها تلك لجمهورية فلورنسا تفهم في هذا السياق.

في هذه الفترة كان التبادل التقني بين إيطاليا والعثمانيين في مستوى متقدم؛ جلب السلطان بايزيد الثاني مهندسين من جنوة لينبوا له أكبر السفن التي أبحرت في البحر الأبيض المتوسط [لذا كانت] كل التعابير البحرية العثمانية مستعارة تقريبا من اللغة الإيطالية، وكانت التجارة العثمانية حيوية لكلا الجانبين وظهرت أول التجمعات الأوروبية في الشرق الأوسط بهذه الطريقة، ويُذكر أنّ ما مجموعه خمسة آلاف عائلة من البندقية استقرت بالشرق الأوسط في نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ونتيجة لهذه العلاقات الوثيقة ظهر ما يمكن تسميته بنوع من الأوربة (نسبة لأوروبا) حتى في نمط الحياة والعادات، نمط انتشر إلى حد ما بين الطبقة العثمانية العليا في القرن نفسه؛ إذ نجد في كتب التاريخ العثماني مجهولة المؤلف التي تعكس ردود أفعال الناس العاديين المحافظين؛ كان هؤلاء مستائين بشدة من أولئك الذين حُلِّمَتْ لحاهم وشواربهم مثل الأوروبيين³، وإن كان ذلك نادرا في هذه الفترة المبكرة التي كان فيها العثمانيون قوة عالمية.

¹ - Halil Inalcik: Op.cit, P151.

² - Ibid, P152.

³ - Loc.cit.

نجد فيما يتعلق بالتأثير الأوروعثماني المتبادل، أن الفترة الإيطالية تبعت الفترة الفرنسية بين القرنين العاشر والثاني عشر الهجري/السادس والثامن عشر الميلادي؛ فمنذ أن بدأ الانتصار الفرنسي-العثماني ضد هابسبورغ حوالي سنة 931هـ/1525م ازدهرت التجارة في بلاد الشرق وبدأ التأثير الثقافي المتبادل على الرغم من محدوديته¹.

ألقى تشارلز الخامس هزيمة فظيعة بالجيش الفرنسي في بافيا شمال إيطاليا، وأخذ الملك الفرنسي أسيراً في 2 جمادى الأولى 931هـ/24 فبراير 1525م، ونقله إلى سجن بمدريد، هنا فرنسا شئنا أم أبينا سعت إلى خلاصها بتحويلها على القوة العظمى في الشرق: فبضغط من السلطان سليمان القانوني حرّر الإمبراطور تشارلز فرانسوا الأول في 20 ربيع الأول 932هـ/14 يناير 1526م بشرط أن يتخلى الأخير عن تطلعاته بإيطاليا؛ تم العثور على طلب المساعدة من أم الملك الفرنسي والاستجابة التي أرسلها السلطان سليمان في المحفوظات الفرنسية ونُشرت².

مقارنة طيف واسع من العلاقات الأوروبية العثمانية في المجال السياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري أظهر أن التأثير المتبادل بين أوروبا والعثمانيين كان في الواقع واسعاً جداً وعميقاً؛ لعب التحالف العثماني الفرنسي دوراً حاسماً في ظهور الخريطة السياسية الأوروبية في العصر الحديث ثم إنّ تأثير الدولة العثمانية المهيمنة على الشرق الأوسط في القرن السادس عشر كان واضحاً في تشكيل الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي، ومع ذلك بدأت الدولة العثمانية في الانحدار التدريجي وبدأت تعتبر غربياً كدولة تقليدية متخلفة من العصور الوسطى مقارنة بأوروبا التي تتطوّر بسرعة في كل مجال فيما يتعلق بالجيش والتكنولوجيا في الفترة التي تلت القرن السادس عشر³.

إنها حقيقة كون العثمانيين كانوا موضع اهتمام كبير من طرف الأوروبيين في المجال السياسي والعسكري منذ البداية؛ فقد بدأت دول أوروبا في خوض حروبها بدءاً من القرن الثالث عشر من خلال تأجير جماعات عسكرية مرتزقة محترفة بدلاً من استخدام الجيوش الإقطاعية، فبادئ ذي بدء كانت هذه الجماعات المرتزقة تعمل تحت اسم الكوندوتيريرو (Condottiero) [كلمة إيطالية تطلق على زعيم المرتزقة]؛ واحدة من هذه الجماعات الكوندوتيريرو التي تقدّم خدمة مقابل رسوم كانت الشركة الكاتالونية الشهيرة روجر دي فلور (Roger de Flor) التي كانت تستخدم في خدمة بيزنطة بين 1303-1304م ضد الأتراك الذين غزوا الأناضول الغربية.

¹ - Ibid, P153.

² - نص الرسالة من أم الملك إلى السلطان سليمان ورد سليمان عليها منشور في كتاب إينالجيك ينظر:

Ibid, P155- 156.

³ - Ibid, P164-165.

من ناحية أخرى ولأن الحدود التركمانية كانت تضم أفضل المحاربين في هذه الفترة، استأجرت الدولة البيزنطية والبلقان الجماعات المرتزقة التركمانية (أشهرها جماعة إسحاق التي تعاونت مع الكاتالونيين وواستولت معهم على أثينا)، وقد أصبح هؤلاء المحاربون الأتراك المرتزقة معروفين باسم توركوبولوا (Turcopouloi) في بيزنطة ورودس في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، تنافست الجمهوريات الإيطالية مع بعضها البعض في استخدام الجنود التركمان المرتزقة، وعندما اضطرّ 500 جندي تركي قوي في مدينة أوترانتو (Otranto) جنوب إيطاليا إلى الاستسلام لملك نابولي سنة 1481م دخلوا في خدمته وقدموا خدمات فعالة ضد القوات البابوية، كان العثمانيون أول من أسس جيشاً دائماً حصل على أجر من خزانة السلطان وكان دائماً تحت قيادته¹، وكان ذلك في زمن أورخان بن عثمان المؤسس.

تأثير العثمانيين ودورهم في تشكيل المشهد الديني بأوروبا

توضح وثائق قصر توبكاي بوضوح أنه عندما غزا العثمانيون المجر سنة 933هـ/1526م وواجهوا هابسبورغ وسط أوروبا أصبحوا مُراقِبين نشطين؛ يراقبون عن كثب تصرفات الإمبراطور شارل الخامس وشقيقه فردناند (Ferdinand) ويتابعون التطورات السياسية بأوروبا، وهكذا كانوا يحاولون الاستفادة من كل نوع من القوى الانفصالية أو الحركات الناشئة بأوروبا في تنافسهم من أجل التفوق على هابسبورغ؛ في سنة 940هـ/1533م قال الصدر الأعظم إبراهيم باشا للسفير النمساوي: لم يكن العالم المسيحي مقسماً كما هو عليه اليوم²، وهذا يظهر بشكل واضح مدى اهتمامهم ودقة معرفتهم بما يدور بأوروبا، وذلك مهم لاستغلاله في خدمة مصالحهم العليا.

وما يوضّح اهتمام العثمانيين بمجريات الأحداث بأوروبا وتأثيرهم الكبير في تشكيل وجه أوروبا الحديث موقفهم مثلاً من البروتستانتية والدول التي تبنتها؛ فقد تتبّعوا البروتستانتية منذ بداياتها الأولى ولا أدلّ على ذلك من التقرير الاستخباراتي العثماني (No. E. 7671 Topkapi Palace Archives) الذي قدّم إلى السلطان سليمان القانوني وبه معلومات عن مارتن لوثر وكفاحه ضد إمبراطور آل هابسبورغ جاء فيه: "أطلق رجل يدعى مارتن لوثر مُعتقداً شخصياً، وعارض الاعتقاد غير الصالح للملك الإسباني الملعون، وجمع ثلاثين ألف جندي"، وحارب ضد الإسبان في "سان بورغو (San Borgo) [شمال غرب إيطاليا] بالقرب من بازيليا (Bazilya)"³.

¹ - Ibid, P165.

² - Ibid, P174.

³ - Loc.cit.

فالبروتستانتية مدينة في تجذرها بأوروبا ونجاحاتها إلى العثمانيين؛ إذ يتفق المؤرخون بشكل عام على أن الضغط العثماني على هابسبورغ لعب دوراً حاسماً في انتشار وترسيخ البروتستانتية، وهذا ساعد في تقدم العثمانيين بأوروبا¹. في سنة 907هـ/1502م تم نشر الجريدة الأولى جريدة الأخبار (Neue Zeitung)² لإعطاء أخبار عن الأتراك في مقال بعنوان التركي المساعد "Türken pluclein" لمجهول قال المؤلف ما يلي: "إن أفضل مسار للعالم المسيحي هو الركوع والإشادة بالسلطان القوي، يمكننا الوثوق به ليحكمنا بالعدالة والشهامة"³، هكذا كان آل عثمان يمثلون أملاً لبعض شعوب أوروبا.

تم الاعتراف بتأثير الإسلام على اللوثرية في الغرب؛ ومرّد ذلك راجع إلى بعض أوجه التشابه بين الإسلام والبروتستانتية كحرية العبادة، والسمة الفردية في الاعتقاد، وأوجه التشابه الأخرى حتى أنّ البروتستانتية على انحرافها اعتُبرت نوعاً من الإسلام، في المذهب التوحيدي المسيحي الذي انتشر في المجر كانت فكرة إله واحد على عكس عقيدة الثالوث هي السائدة، كتب لوثر في رسالته سنة 936هـ/1530م وتسمى رسالة حول دين وأخلاق الترك (Libellus de ritu et moribus Turcorum) يقارن فيها الأتراك بالمسيحيين ويحترم اتصافهم بفضائل مثل التواضع ومعيشتهم البسيطة وكونهم جديرون بالاحترام (رغم أنّ لوثر قرأ القرآن الكريم وترجمته وحاول أن يثبت أن الإسلام ليس ديناً حقيقياً)، يشير لوثر إلى نقطة يقبلها المؤرخون اليوم وهي أن: الظروف المعيشية للفلاحين في أوروبا الشرقية كانت سيئة للغاية لدرجة أنهم رحّبوا في بعض الأحيان بالأتراك كمنقذين⁴، على اعتبار أنّ العثمانيين بشهادة المؤرخين كان في هذه الحقبة حريصين جداً على مصلحة الفلاحين العثمانيين.

يؤكد المؤرخون اليوم بالإجماع على حقيقة أن البروتستانت حصلوا على تنازلات مهمة من الهابسبورغ الكاثوليك بسبب الضغط العثماني الوشيك من الشرق، وفي وقت لاحق عندما كانت ملكة إنجلترا البروتستانتية إليزابيث الأولى (1558-1603) تحت تهديد الأرمادا الإسبانية حاولت الاستنجد بالبحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط ضد إسبانيا، ويمكن أن تتضاعف الأمثلة لإظهار مدى أهمية الدور الذي لعبته الدولة العثمانية في الحفاظ على توازن القوى بأوروبا في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وبشكل عام اتبعت الدولة العثمانية سياسة تهدف إلى ضمان

¹ - Ibid, P175.

² - هي أول جريدة ظهرت بأوروبا، وكان ذلك بألمانيا سنة 1502. ينظر:

Georg Gartner and others: **Multimedia Cartography**, Springer Science & Business Media, Berlin, Heidelberg New York, 2013, P11.

³ - Halil Inalcik: Op.cit, P176.

⁴ - Ibid, P176-177.

ألا تصبح أي من القوى الأوروبية قوية بما يكفي لتوحيد أوروبا تحت سيطرتها¹، بما يسمى سياسة تفتيت القوى وتشتيت المحاور.

كان دعم البروتستانت والكالفينيين² أحد المبادئ المستقرة في السياسة العثمانية بأوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ فقد حرّض سليمان سنة 959هـ/1552م الأمراء البروتستانت بألمانيا ضد البابا وإمبراطور آل هابسبورغ؛ وكتب في رسالته لهم أنه هو نفسه على وشك الشروع بحملة عسكرية ضدّهما، ووعد وأقسم أنهم لن يتعرضوا للأذى عندما يدخل ألمانيا، كان فيليب ملانكتون (Philip Melanchthon)³ على اتصال مباشر مع بطريك إستانبول الذي كان في الواقع ممثلاً عن السلطان، ولاحقاً في رسالة إلى الأمراء اللوثريين بالبلدان المنخفضة وفي الأراضي الأخرى الواقعة بإسبانيا عرض السلطان عليهم العون العسكري ورأى أنهم قريبون منه؛ من حيث كونهم لا يعبدون الصور، ويؤمنون بإله واحد ويحاربون ضدّ البابا والإمبراطور، وفي ظل الحكم العثماني تم نشر المذهب الكالفيني (Calvinist) بحرية في المجر وترانسيلفانيا، التي أصبحت معقلاً للكالفينيين ومذهب الموحدين (Unitarian)⁴ في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، لقد قيل بشكل مقنع أن الضغط العثماني على هابسبورغ كان عاملاً مهماً في توسيع البروتستانتية بأوروبا⁵.

تصف الملكة إليزابيث نفسها في رسالتها المرسلة بتاريخ شعبان 987هـ/أكتوبر 1579م إلى مراد الثالث - تمّت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية وطبعت في المجموعة الرئيسية لريتشارد هاكليوت (Richard Hakluyt) سنة 1589م - ب"المدافع الأقوى والأكثر عدوانية للإيمان المسيحي ضد عبّاد الأصنام الكاثوليك"، وهي بذلك تسعى بوضوح لتصوير البروتستانت كمجموعة أقرب إلى أتباع النبي الذين لا يتم تصنيفهم في العقل العثماني ضمن المسيحيين عباد الأصنام، ربما ساعد خطاب الملكة إليزابيث الساعي لعقد تحالف أنجلو-عثماني ضد الكاثوليكين في إقناع مراد الثالث بالتوقيع

¹ - Ibid, P111-112.

² . نسبة إلى جان كالفن (1509-1564م): المصلح واللاهوتي الفرنسي. سنة 1533م تحوّل من الكاثوليكية إلى مناصر لمارتن لوثر (البروتستانتية)، استقر بجنيف وكانت له رسالة للدفاع عن الإصلاحات البروتستانتية كان ذلك سنة 1539 أشهر كتبه، كتاب تأسيس الديانة المسيحية (Institutio Christianae religionis). ينظر:

John W. de Gruchy: John Calvin: **Christian Humanist and Evangelical Reformer**, Wipf and Stock Publishers, USA, 2013, P79, 111.

³ . فيليب ملانكتون (1497-1560م): الصديق المقرب لمارتن لوثر ورفيقه في الإصلاح. ينظر:

Joseph Stump: **Life of Philip Melanchthon**, Pilger Publishing House, Reading, Pa, New York, 1897.

⁴ . مذهب مسيحي لا يؤمن بعقيدة التثليث.

⁵ - Halil Inalcik: Op.cit, P120-121.

على اتفاق التجارة الأولي "الامتيازات" في جمادى الأول 988هـ/جويلية 1580م والذي من شأنه في النهاية أن يمنح الإنكليز حق الوصول إلى الموانئ العثمانية مباشرة دون أي إهانة أو تكاليف حين الاضطرار إلى رفع العلم الفرنسي أو دفع ثمن الخدمات القنصلية الفرنسية¹.

كان الإنجليز يتاجرون بالسلاح والبضائع الصوفية مع العثمانيين، بينما كان العثمانيون يتاجرون معهم بالسكر والفاكهة، قامت إنجلترا حتى بتصدير القصدير والرصاص والذخيرة إلى الدولة العثمانية لاستخدامها في صب المدافع، ومن عجيب المفارقات أن القصدير والحردة المعدنية التي باعها إنجلترا البروتستانتية إلى العثمانيين جاءت من تفكيك الأجراس والتماثيل المعدنية للمباني الكاثوليكية²!! لقد تابع مراد الثالث في الحقيقة سياسة سلفه سليمان القانوني الرامية إلى الاستثمار في الصراعات الدينية الأوروبية ونجح في ذلك.

جاءت مع التجارة سوق القصص الشرقية الغربية وارتفعت أسهم أروع كُتّاب ومسرحيي إنجلترا إلى مستوى كبير؛ مسرحية تيمور (Tamburlaine) للكاتب المسرحي كريستوفر مارلو (Christopher Marlowe)³ سنة 1587م، مسرحية معركة القصر (The Battle of Alcazar) لكاتبها جورج بيبل (George Peele)⁴ سنة 1594م، ومسرحيات تيتوس أندرونيكوس (Titus Andronicus) سنة 1588م وتاجر البندقية (Merchant of Venice) سنة 1596م، وعطيل (Othello) سنة 1603م، للكاتب الشهير وليام شكسبير، كلها مؤشرات على تزايد انكشاف إنجلترا على الهوية والثقافة الإسلامية وقد أشاد الكُتّاب الإنجليز في أوائل القرن السابع عشر بالعثمانيين على أنهم ذوو مهابة وقوة ومدنية؛ أحدهم قال أن المسافر الإنجليزي "لم يعثر على مشهد أفضل من تركيا"⁵.

تصرفات الكنيسة الكاثوليكية جعلت الأمور أكثر سوءاً للقوى المسيحية؛ فعندما ذهب العثمانيون والفرس إلى الحرب سنة 986هـ/1578م، أصدر البابا غريغوري الثالث عشر حظراً بابويا

¹ - Gerald MacLean: Op.cit P46.

² - Jae Jerkins: Op.cit, P12.

³ . كريستوفر مارلو (1564-1593): أديب إنجليزي، صدر أمر اعتقال مارلو في 18 ماي 1593. ربما اعتقل بسبب مزاعم

التجديف، وتم طعنه حتى الموت من قبل مجرم يدعى فريزر. من أعماله يهودي مالطا، إدوارد الثاني. وغيرها. ينظر:

Christopher Marlowe: **Four Plays: Tamburlaine, Parts One and Two, The Jew of Malta, Edward II and Dr Faustus**, Edit: Brian Gibbons, A&C Black, London, 2014, P1-2.

⁴ . جورج بيبل (1556-1596م): كاتب مسرحي إنجليزي إليزابيثي، جرب العديد من أشكال الفن المسرحي: الرعوي، والتاريخ،

والميلودراما، والمأساة، والفلكلوري، والاستعراضية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **George Peele**, Encyclopedia Britannica,

<https://www.britannica.com/biography/George-Peele> .

⁵ - Jae Jerkins: Op.cit, P12.

على المسيحيين الذين يتاجرون بالأسلحة مع المسلمين، لقد فوّت هذا القرار فرصة تجارية مربحة بشكل كامل على كل من إسبانيا وفرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة¹، ولا يفهم قرار البابا، إذ كان يمكنه بالمثل استغلال الصراع السني الشيعي.

عزّز هذا الحظر البابوي في نفس الوقت من قوّة الروابط بين العثمانيين والبروتستانت؛ إذ واصلت إنجلترا تجارتها مع العثمانيين ولم تشعر بأي وخز للضمير في رفضها للأوامر الجيوسياسية للفايكان بعد فشل الأرمادا الإسبانية سنة 1588م في اجتياح إنجلترا، وسّعت إنجلترا تجارتها واستعمارها باتجاه الأمريكتين والهند والصين، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى نجاحها المالي من خلال ازدهار تجارتها مع العثمانيين، وجدت دول بروتستانتية أخرى وهي هولندا وألمانيا الرخاء الاقتصادي العالمي في القرون القادمة من خلال مواصلة الرغبة البروتستانتية في الاتجار بالأسلحة مع المسلمين وغيرهم من غير المسيحيين².

الرغبة المشتركة في الحماية وتبادل المنافع الاقتصادية والثقافية مع العثمانيين فرضت ضرورة أن تلعب الدبلوماسية دوراً في تبني خطاب للتقارب الايديولوجي بين المسلمين والمسيحيين خشية أن تتعرض طموحاتهم السياسية والاقتصادية المشتركة، إن إبرام مثل هذه الاتفاقيات السياسية والعسكرية يتطلب قدراً كبيراً من البراعة خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الزعماء الدينيين مثل لوثر وكالفن أصبحوا معارضين أشداء للإسلام³، وهكذا كان هدف السياسيين والدبلوماسيين الأوروبيين هو إيجاد تفسير حول هذه المعارضة، على اعتبار أنّ المسلمين لم يكونوا الأشرار الذين وصفهم لوثر وكالفن بعد حصار 1529⁴، إذ بعده شعر لوثر وكالفن أنهم معنيون أيضاً بالخطر العثماني.

لتحقيق التقارب بين الإسلام والبروتستانتية استدعى السياسيون الإنجليز وأوروبا الوسطى التشابهات المتصوّرة للإسلام بالبروتستانتية، بينما شيطنوا في الوقت نفسه عدوهم السياسي والديني المشترك الكاثوليكية، وجد البروتستانت المبكرون عدة طرق لمقارنة أنفسهم بالإسلام بشكل إيجابي: أولاً رفض كل من البروتستانتية والإسلام فكرة الرهبانية وهي سمة بارزة للكاثوليكية، وقد كرّس الحل الشهير

¹ - Ibid, P13.

² - Ibid, P14.

³. يرصد المهتمين بالحركة البروتستانتية أنّ موقف لوثر وكالفن تغيّر إلى معاداة العثمانيين بعد حصار سليمان القانوني لفيينا سنة 1529/935م.

⁴ - Jae Jerkins: Op.cit, P14.

للملك هنري الثامن (Henry VIII)¹ للأديرة الإنجليزية فكرة رفض الرهبانية عند البروتستانت وهو ما يتفق في الإسلام مع الحديث الشريف " لا رهبانية في الإسلام"²، واشتركا معا (الإسلام والبروتستانتية) أيضًا في رفض عبادة التماثيل مع اهتمام برفض الصور الدينية في أماكن العبادة، إن هذه الصور عند كل من البروتستانت والمسلمين تنتقص من العبادة الصحيحة المجردة لله والتي لا يمكن ولا ينبغي اختزالها في صورة، استخدم كل من العثمانيين والإنجليز الخطاب الديني استخدامًا سياسيًا متكررًا عن طريق شيطنة العبادة الوثنية "المزعومة" للكنيسة الكاثوليكية³.

يمكن إرجاع الرفض المشترك لتقديس الصور والتماثيل بين البروتستانت والمسلمين إلى دعاية لوثر سنة 1528م؛ حيث تحدّث عن "طهارة الترك؛ بحيث لا يتحملون أي صور أو تماثيل" ويثني على المسلمين باعتبارهم "أقدس حتى ممن يرفضون الصور من بيننا بينما يتسامحون مع وجودها على الخواتيم والحلي - بينما "الترك لا يتحملون أيًا منها ولا يختمون سوى حروف على عملاتهم المعدنية"⁴، وهكذا كان لوثر يُجسّر العلاقات الدينية مع العثمانيين.

استغلت الملكة إليزابيث سنة 988هـ/1580م هذه الأيدلوجية المشتركة عندما ذكرت مراد الثالث في مراسلاتها الدبلوماسية بأن كلا من البروتستانت والمسلمين يتقاسمون الرفض الديني لتقديس الرموز والتماثيل، في المراسلات السياسية استخدم الإنجليز والعثمانيون الحجة القائلة بأنهم: "كانوا على حد سواء يكرهون" تقديس التماثيل "التي يمارسها ملك إسبانيا"، كتبت إليزابيث الأولى رسالة إلى مراد تصف نفسها بأنها "المدافع الأقوى عن" الإيمان المسيحي ضد كل عبادة التماثيل التي يقدها أولئك الذين لا يستحقّون العيش كمسيحيين بينما يعلنون أنفسهم زورا أنهم أتباع المسيح⁵. بذلك

¹ . هنري الثامن (Henry VIII) (1491-1547م): ملك إنجلترا (1509-1547م) ابن الملك هنري السابع، ووالد الملكة إليزابيث الأولى كان نزاعا إلى الاستبداد متعطشا للدماء، تزوج ست مرات، تسبب طلاقه من زوجته الأولى كاترين أوف أراغون وزواجه من آن بولين في نشوب أزمة عنيفة بينه وبين البابا كليمنت السابع، فأدى ذلك إلى انفصال كنيسة إنجلترا عن سلطة البابوية وحل هنري الأديرة وعين نفسه رأسًا لكنيسة إنجلترا سنة 1534م. لتتحول إنجلترا إلى البروتستانتية. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق ص478-479، بتصرف.

² . لا يوجد ولا يصح حديث بهذا اللفظ، ولكن جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في معرض نهيه لعثمان بن مظعون رضي الله عنه عن الاختصاء قوله عليه الصلاة والسلام: "يا عثمَانُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَنَا بِالرَّهْبَانِيَّةِ الْحَنَفِيَّةِ السَّمْحَةَ". ينظر: أبو القاسم الطبراني (ت 360هـ): المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد، ج6، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ب ت، ص62. وهو حديث ضعيف.

³ - Jae Jerkins: Op.cit, P14-15.

⁴ - Ibid, P15.

⁵ - Loc.cit.

وجد البروتستانت في العثمانيين حليفاً قويا ضد تهديدات البابوية وملوك أوروبا الكاثوليك، ووجد العثمانيون في البروتستانت أداة للحيلولة دون وحدة أوروبا ضد مصالحهم.

الفن ودوره في تجسير العلاقات الأوروعثمانية

عودة إلى الفن؛ فمن خلاله انتقل التأثير العثماني إلى إيطاليا ومنه إلى أوروبا؛ فقد استخدم الرسام بيليني بالإضافة إلى العديد من الرسامين الآخرين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بقيادة الرسامين البنادقة شخصيات ترتدي أزياء تركية في لوحاتهم التي تصور مشاهد من الكتاب المقدس من المعروف أنه في هذه الفترة تم استيراد الأقمشة والسجاد العثماني إلى إيطاليا من قبل التجار الإيطاليين، علاوة على ذلك تم إنتاج أقمشة مماثلة لتلك في بعض المدن الإيطالية، السجاد التركي المصنوع باللوحات الأوروبية في القرن الخامس عشر دليل على شعبيته¹.

خليفة محمد الفاتح السلطان بايزيد الثاني لم يكن على ما يبدو مهتماً كوالده بالرسم الأوروبي لكنه كان على اطلاع على أنشطة الفنانين الإيطاليين، وطلب خدمات معمارية وهندسية من بعضهم؛ كتب ليوناردو دا فينشي (Leonardo da Vinci) رسالة إلى السلطان بايزيد يقدم فيها اقتراحاً لجسر عائم على القرن الذهبي؛ في الواقع تم العثور على رسم لمشروع جسر ضمن مذكرات ليوناردو كما أعد مايكل أنجلو (Michelangelo)² نموذجاً لنفس الجسر، حتى أنه فكر في القدوم إلى إسطنبول³.

السلطان بايزيد الثاني على عكس والده لم يكن لديه اهتمام بالصورة. ومع ذلك من المثير للاهتمام ملاحظة أن أول سلسلة مرسومة من لوحات السلاطين العثمانيين تم إنتاجها في أوروبا كانت خلال فترة حكمه؛ تُنسب هذه السلسلة من اللوحات التي تنتهي مع بايزيد الثاني إلى الفنان فيليكس بيتانشيوس (Felix Petancius)⁴ الذي رسم اللوحات بالاعتماد على المعلومات التي قدمها وفد

¹ - Günsel Renda: Op.cit, P4.

² . مايكل أنجلو (1475-1564م): نحات عصر النهضة الإيطالي، الرسام والمهندس المعماري والشاعر الذي مارس تأثيراً لا نظير له على تطور الفن الغربي. ينظر:

Creighton E. Gilbert: **Michelangelo**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Michelangelo> .

³ - Günsel Renda: Op.cit, P5.

⁴ . فيليكس بيتانشيوس (1455-1522م): أحد الدبلوماسيين المتمرسين في عصر النهضة، وهو إنساني وكاتب ورسام ممنمات كان يتمتع بقيمة كبيرة في البلاط المجري. أرسل في بعثات إلى البلاط الملكي الفرنسي والبنديقية ورودس وكلها متصلة بالحرب ضد العثمانيين والتي استمرت من عام 1500 حتى عام 1503. وفي أثناء هذه البعثات الدبلوماسية يبدو أن بيتانشيوس قد قام بتأليف جميع أعماله: تاريخ تركيا (Historia Turcica) سنة 1501م، وفي العام التالي: الأتراك الذين يهاجمون أو يزحفون =

السفارة المجرية الذي زار استانبول سنة 901هـ/1495م، في هذه السلسلة الحزونية الشكل وضعت صوراً أول السلاطين العثمانيين السبعة حتى السلطان بايزيد الثاني في ميداليات، هذه الأمثلة تثبت الاهتمام المتزايد بأوروبا بلوحات السلاطين العثمانيين بعد السلطان محمد الفاتح¹.

أدى توسع الإمبراطورية العثمانية في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي على عهد سليمان القانوني نحو أوروبا الوسطى، علاوة على الدور الهام الذي لعبه العثمانيون في ميزان القوى الأوروبي إلى زيادة الاهتمام والقلق تجاه العثمانيين؛ يواجهنا نهجان مختلفان تجاه العثمانيين في الفن والثقافة الأوروبية بالقرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي: النهج الأول تمثل في الكتب والمواد التي تم إنتاجها والتي تعبر عن ردة فعل خائفة من القوة الساحقة والمهددة للعثمانيين؛ تم إعداد المنشورات الدعائية المتحيزة ضد سياسة التوسع العثماني في الصحف والنشرات المنشورة في الدول الجرمانية وكانت هناك صور ذات محتوى سياسي سلبي عنهم².

تمثل النهج الثاني في منشورات وأعمال فنية أكثر موضوعية تتناول الدولة والثقافة العثمانية؛ كتب العديد من الأوروبيين الذين جاءوا إلى الدولة العثمانية بأغراض سياسية ودبلوماسية مختلفة كتباً عن الإمبراطورية العثمانية، وزوّدت كتبهم بلوحات رسمها الفنانون الذين رافقوهم أو من قبل الفنانين المحليين الذين كلفوهم بها بإستانبول، في الواقع أصبحت كتب السفر والكتب المصورة المرتبطة بالإمبراطورية العثمانية منتشرة على نطاق واسع في أوروبا بعد فترة سليمان القانوني، وقد شملت الحياة اليومية العثمانية والأزياء، لتصبح مصادر وثائقية للإمبراطورية العثمانية في هذه الفترة³.

عندنا على سبيل المثال بيتر كيك فان آيلست (Pieter Coecke van Aelst)⁴ من مدينة أنتويرب (Anvers) [تقع حالياً ببلجيكا] الذي جاء إلى العاصمة العثمانية سنة 940هـ/1533م لمصلحة مصنع كوبلان (gobelin) ببروكسل لبيع المفروشات، ظلّ بإستانبول لفترة من الزمن وقام برسم

Genealogia Turcorum) (Quibus itineribus Turci sint aggrediendi) وكتاب: أصل أباطرة الترك (Genealogia Turcorum imperatorum) أهدى الكتب الثلاثة لفلاديسلا الثاني ملك المجر. في 1512م أرسل إلى القسطنطينية لإطالة فترة التهدة

بين المجر والإمبراطورية العثمانية. ينظر: David Thomas and others: Op.cit, Vol 7, P50-51.

¹ - Gunsel Renda: Op.cit, P5.

² - Ibid, P5-6.

³ - Ibid, P5-6.

⁴ . بيتر كيك فان آيلست (1502-1550): فنان فلمنكي من القرن السادس عشر كان متعدد المواهب؛ سنة 1533م قام برحلة إلى القسطنطينية. ينظر:

سلسلة من الرسومات المتعلقة بالعثمانيين، كما قام عالم الكوزموغرافيا نيكولاس دي نيكولاي¹ الذي رافق السفير الفرنسي إلى إستانبول سنة 960هـ/1553م برسم العديد من الرسومات التي توثق الأزياء العثمانية وأصبحت هذه اللوحات المطبوعة بمذكراته في ليون سنة 1568م مصدراً وثائقياً لكثير من الفنانين في السنوات اللاحقة².

قام مليشيوور لوريش (Melchior Lorichs)³ من فلنسبورغ (Flensburg) [تقع حالياً بألمانيا] الذي جاء مع سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة أوجير غليسن دي بوسيك إلى البلاط العثماني بإنتاج أكثر اللوحات واقعية في تصوير فترة سليمان القانوني، تمثل رسومات مليشيوور بانوراما إستانبول؛ شملت مختلف المناطق والشوارع والمعالم الأثرية بإستانبول، إلى جانب الأزياء ووثائق مهمة مصوّرة للإمبراطورية العثمانية في هذه الفترة⁴.

يعتبر سليمان القانوني بلا ريب واحداً من أكثر الحكام العثمانيين الذين تمّ تصويرهم بأوروبا؛ وذلك بسبب الدور الكبير الذي لعبه في السياسة الأوروبية طوال فترة حكمه التي استمرت طيلة ستة وأربعين عاماً، وتحالف خلالها مع ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي هزمه هابسبورغ في سنة 933هـ/1526م، وحملة سليمان المجرية ضد هابسبورغ هي أهم حدث سياسي في هذه الفترة، وقد سهّل الضغط العثماني على هابسبورغ الكاثوليكية بهذه الطريقة انتشار البروتستانتية ونجاح الدعوة الدينية لمارتن لوثر، في الواقع أصبحت لوحات السلطان أكثر انتشاراً في أوروبا بعد حملة موهاكو وحصار فيينا سنة 936هـ/1529م⁵، فكان الفن بذلك يجسّد القوى الفاعلة على المسرح السياسي.

في سنة 933هـ/1526م رسم آلبرخت دورر (Albrecht Durer)⁶ صورة السلطان سليمان

¹ . نيكولاس دي نيكولاي: رحالة فرنسي وجغرافي الملك الفرنسي. تمت ترجمته سابقاً.

² - Günsel Renda: Op.cit, P6.

³ . مليشيوور لوريش (1526/27 - 1583م): رسام وناشر دانمركي من أصل ألماني. انضم سنة 1551م أثناء حكم سليمان القانوني إلى دوق النمسا فرديناند الأول (Ferdinand I) في سفارة ألمانيا إلى الباب العالي، وظلّ هناك قرابة الأربع سنوات، حيث قام برسم معالم المدينة ومختلف أعراق البلاد وأزيائها، ومشاهد من الحياة العسكرية العثمانية. ينظر:

Ioli Vingopoulou: **LORICHS, Melchior. Konstantinopel unter Sultan Suleiman dem Grossen aufgenommen in Jahre 1559 durch Melchior Lorichs aus Flensburg nach der Handzeichnung des Künstlers in der Üniversitats-Bibliothek zu Leiden...**, Munich, R. Oldenbourg, 1902. <http://eng.travelogues.gr/collection.php?view=263> .

⁴ - Günsel Renda: Op.cit, P6.

⁵ - Ibid, P6-7.

⁶ . آلبرخت دورر (1471-1528): رسام وفنان ألماني. يعتبر عادة أفضل فناني عصر النهضة الألمانية كان تابعا مخلصا للوثر إنه واحد من أكثر الفنانين نفوذاً في بلاده. ينظر:

Eberhard Ruhmer: **Albrecht Dürer, german artists**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Albrecht-Durer-German-artist> .

ورسم تيزيانو فيتشيليو (Tiziano Vecellio)¹ الفنان البندقي صورة تمثل لسليمان، وتوجد صورة مثيرة للاهتمام رسمها أكوستينو فينسيانو (Agostino Veneziano)² سنة 941هـ/1535م تصوّر السلطان بخوذة مزينة بالجواهر الثمينة، هذه الخوذة على شكل تاج، تكفلت عائلة كاروليني (Caorlini) - وهي عائلة من صاغة المجوهرات بالبندقية - سنة 938هـ/1532م بصناعة تلك الخوذة لأن سليمان القانوني أراد ارتداء تاج إمبراطوري مثل الغربيين لإظهار تفوقه على الحكام الأوروبيين؛ وتشير المصادر إلى أن السلطان ارتدى هذا التاج حقا في حفل حضره سفراء هابسبورغ في مدينة نيس (Nis) [الصربية] قبل حملة 938هـ/1532م³.

كانت الفتوحات والحياة الشخصية للسلطان سليمان مصدر إلهام للعديد من الأعمال الأدبية والباليه والأوبرا في أوروبا بعد القرن السادس عشر، ولم يقتصر الأمر على السلطان فقط، بل شمل زوجته حُرْم سلطان (Roxelana)⁴ والصدر الأعظم إبراهيم باشا الذين كانا أيضا ضمن المسرحيات

¹ . تيتيان أو تيزيانو فيتشيليو (1490-1576م): وهو أعظم رسام بعصر النهضة الإيطالي في مدرسة البندقية. واكتسب شهرة دولية باعتباره رسام بورتريه. ينظر:

Harold E. Wethey: **Titian**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Titian> , LAST Updated Aug 23, 2018.

² . أكوستينو فينسيانو (1490؟ - 1540؟): فنان بندقي، المعلومات حوله قليلة، كان تلميذا للنقاش والفنان الإيطالي الشهير ماركانتونيو ريموندي (Marcantonio Raimondi). ينظر:

Donata Minonzio : **DE MUSIS**, Agostino, detto Agostino Veneziano, Dizionario Biografico degli Italiani, Vol 38, 1990, Enciclopedia Italiana, [http://www.treccani.it/enciclopedia/de-musi-agostino-detto-agostino-veneziano_\(Dizionario-Biografico\)/](http://www.treccani.it/enciclopedia/de-musi-agostino-detto-agostino-veneziano_(Dizionario-Biografico)/) .

³ - Gunsel Renda: Op.cit, P7.

⁴ . روكسلانا: هي خورم أي الضاحكة حسب المصادر العثمانية، محظية سليمان القانوني ثم زوجته، يعتقد أنها روسية الأصل اختطفها التتار وبيعت في تركيا لحساب حريم السلطان، ارتفعت في الحريم سريعا حتى أصبحت خاصكي السلطان أي الأثيرة لديه فقد أنجبت للسلطان ولده الأول سنة 1521م، ثم ولدت له عبد الله وسليم وبايزيد، وابنة وحيدة هي مهرماه، كان لها حضور قوي في السياسة العثمانية؛ يتهمها الكثيرون بأنها المخرضة على قتل النجل الأكبر لسليمان وولي عهده الأمير مصطفى سنة 1553م كما تتهم أنها من وراء مقتل الصدرين إبراهيم باشا وقاره أحمد باشا، توفية سنة 1558. ينظر:

Yermolenko Galina: Roxolana “**The Greatest Empresse of the East**”, The Muslm World, Volume9, April 2005 PP3-5.

والنصوص، وكتب سيرفانتيس (Cervantes)¹ ولوب دي فيغا (Lope De Vega)² المؤلفان الأسبانيان المشهوران العديد من المسرحيات حول الأتراك، كانت أشهر مسرحيات سيرفانتيس وأهمها على الإطلاق مسرحية السلطانة العظيمة، ومسرحية صفقة القسطنطينية (La Gran Sultana y El Trato de Constantinopl)³.

تركت علاقات سليمان وتحالفه السياسي مع فرنسا علامات عميقة على كلا الجانبين؛ نصَّ التحالف العثماني الفرنسي على توسع العثمانيين وسيادتهم في البحر الأبيض المتوسط وقد بدأ علم الجغرافيا عند العثمانيين مع بدأ حملاتهم البحرية؛ مما لا شك فيه أن العثمانيين كانوا يستخدمون الخرائط البرتغالية والكاتالونية والإيطالية التي وصلت إلى العاصمة العثمانية، وقد رسم رسّام الخرائط العثماني الشهير بييري رايس (ت 1554م) خريطة العالم التي فقدت الآن باستثناء جزء منها بالاستفادة من خريطة كريستوفر كولومبس، وذلك نتاج هام للتبادل الثقافي في البحر الأبيض المتوسط، كما كتب بييري رايس كتابه: كتاب الملاحة البحرية (Kitab-i Bahriye) في هذه الأجواء، والمناظر التي وردت بالكتاب هي معيار اللوحات الطوبوغرافية العثمانية التي تطورت كنوع منفصل⁴.

رسم مطرقجي نصوح (Matrakçı Nasuh)⁵ المؤرخ والرسّام العثماني الشهير زمن سليمان خلال وصف الحملة المجرية للسلطان وحملة الأدميرال بربروسا في البحر المتوسط، الدول والمدن والبلدات والموانئ

¹ . ميغيل دي سرفانتس (1547-1616م): الروائي الأسباني والكاتب المسرحي والشاعر، مبدع رائعة دون كيشوت (Don Quixote) وأهم وأشهر شخصية في الأدب الإسباني. وقع أسيرا هو وشقيقه بيد بحارة الجزائر. وقد حاول الفرار مرارا دون جدوى وأخيرا أطلق سراحه بفضيلة كبيرة سنة 1580م، وأثر أسرته في أعماله الأدبية اللاحقة. ينظر:

Anne J. Cruz Edward C. Riley: **Miguel de Cervantes, Spanish writers**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Miguel-de-Cervantes> .

² . لوب دي فيغا (1562-1635): كاتب مسرحي إسباني شهير، مؤلف ما يصل إلى 1800 مسرحية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Lope de Vega, spanish-author**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Lope-de-Vega> .

³ - Günsel Renda: Op.cit, P7.

⁴ - Günsel Renda: Op.cit, P7-8.

⁵ . مطرقجي نصوح (ت1564م): ناصوح بن عبد الله السلاحي المطرقي والمعروف اختصارا مطرقجي ناصوح باي، لا يعرف تاريخ ميلاده، كان عازفًا وكاتبًا وفارسًا عثمانيًا شهيرًا أنتج كتبًا مهمة في العديد من المجالات. اخترع لعبة عسكرية تسمى مطرقه، وهي نوع من الرسوم المتحركة للمعركة للتدريب على الحرب. ولأنه كان أحد الفرسان ذوي أيضا بالسلاحي. اخترع مطرقجي نوعًا جديدًا من الخط العربي الخطي يسمى قلمي ديواني "kalem-i divânî". يتم مقارنة مطرقجي نصوح باي بليوناردو دافينشي. ينظر:

Salim Ayduz: **Nasuh Al-Matrakî, A Noteworthy Ottoman Artist-Mathematician of the Sixteenth Century**, Foundation for Science, Technology & Civilisation, <http://www.muslimheritage.com/article/nasuh-al-matrak%C3%AE-noteworthy-ottoman-artist-mathematician-sixteenth-century> .

المختلفة التي مرّت بها الجيوش العثمانية ووثق طبوغرافيا هذه المناطق، بعبارة أخرى منذ تلك الفترة بدأت صور متعلقة بأوروبا بالظهور على الرسم العثماني؛ حيدر رايس نجاري¹ وهو رسّام آخر في نفس الفترة لم يصور السلاطين² فحسب بل رسم أيضا لوحات للعاهلين الأوروبيين الرئيسيين الملك تشارلز الخامس والملك فرانسوا الأول³.

زادت الامتيازات التجارية التي منحها السلطان سليمان للدول الأوروبية في حجم العلاقات الثقافية في كلا الاتجاهين؛ زاد حجم التبادل التجاري مع فرنسا وإنجلترا وهولندا وكذلك البندقية ففي الوقت الذي اشترى العثمانيون الأسلحة من أوروبا، وجد السجاد العثماني والأقمشة والسيراميك والورق الرخامي والجلود الزبائن في أوروبا، في فترة قصيرة من الزمن تم تشكيل ورشات محلية بأوروبا لتقليد السجاد والسيراميك العثماني؛ يكفي النظر إلى أعمال الرسامين في القرن السادس عشر مثل هانز هولباين (Hans Holbein)⁴ أو لورنزو لوتو (Lorenzo Lotto)⁵ لملاحظة مدى انتشار السجاد العثماني، علاوة على ذلك وبسبب السجاد المستخدم في هذه اللوحات تمّ تصنيف السجاد العثماني على أنه سجاد هولباين أو لوتو - نسبة للرسامين - في القرنين السادس عشر والسابع عشر تم إنتاج سجاد اوساك (Uşak) [مدينة تركية] بإنكلترا وبلجيكا تحت اسم السجاد التركي، وتم صنع نسخ من السيراميك الإزنيقي [نسبة لمدينة إزنيق (İznik) التركية] في مراكز مثل ليغوريا وبادوا بإيطاليا⁶.

¹ . حيدر رايس نجاري (1494-1572م): هو واحد من أشهر الرسامين الموهوبين في الدولة العثمانية. القائد البحري العثماني والشاعر والرسام الذي اشتهر باسم نجاري (Nigari). رسم صور السلاطين العثمانيين والملوك الأوروبيين. ينظر:

Institut du Monde Arabe (Paris), Metropolitan Museum of Art (New York, N.Y.): **Venice and the Islamic World, 828-1797**, Trans: Deke Dusinberre, Yale University Press, USA, 2007, P296.

² . يعتقد أن سلسلة من لوحات السلطان العثماني التي رسمها نجاري وصلت إلى فرنسا خلال حملة باربروسا المتوسطية سنة 950هـ/1543م؛ أعطيت هذه الصور من قبل خير الدين بربروس إلى الأدميرال الفرنسي فرجينيو أورسيني (Virginio Orsini) ينظر: Günsel Renda: Op.cit, P8.

³ - Loc.cit.

ينظر: (الملحق 07) صورة لملك فرنسا فرانسوا الأول رسمها الرسام العثماني حيدر رايس نجاري. ص 613.

⁴ . هانز هولباين الأصغر (1498-1543م): رسام ومصمم ألماني مشهور، سنة 1537م أصبح الرسام الرسمي للملك هنري الثامن ملك إنجلترا. ينظر:

Craig S. Harbison: **Hans Holbein the Younger, German Painter**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Hans-Holbein-the-Younger> .

⁵ . لورنزو لوتو (1480-1556م): رسام إيطالي في أواخر عصر النهضة، المعروف بلوحاته الدينية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Lorenzo Lotto**, Italian Painter, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Lorenzo-Lotto> .

⁶ - Günsel Renda: Op.cit, P8-9.

مثال مثير للاهتمام للتبادل الثقافي مع أوروبا هو الترتيب الذي وضعه الصدر الأعظم صوقولو محمد باشا من خلال سفير البندقية بإستانبول؛ في عهد السلطان مراد الثالث، أراد صوقولو - الذي من المفترض أنه اطلع على التاريخ المصوّر للأسر المالكة بأوروبا - أن يكون للسلطين العثمانيين تاريخاً مصوّراً مشابهاً لنظيره بأوروبا، فكلف الرسام والشاعر الرسمي للبلاط العثماني في عهده نقاش عثمان¹ بإعداد كتاب يحتوي على المعلومات المتعلقة بجميع السلطين العثمانيين مرفقاً بصورهم²، ولحاجته لصور السلطين العثمانيين السابقين الذين تمّ تصويرهم كسلسلة بأوروبا - وقد سمع صوقولو محمد باشا أن مثل هذه السلسلة موجودة بالبندقية - طلب من سفير البندقية جلب هذه السلسلة إلى إستانبول هذه اللوحات الزيتية وصلت إلى إستانبول سنة 987هـ/1579م، ومعظمها لا تزال محفوظة في متحف قصر توبكابي، استخدم نقاش عثمان هذه السلسلة كما استفاد من بعض النصوص التاريخية ودرس الأزياء الأصيلة للسلطين السابقين المحفوظة بالقصر أو في ضريحهم ثم رسم السلطين الإثني عشر من السلطان عثمان إلى السلطان مراد الثالث³.

التأثير المتبادل للسفارات الأوروعثمانية

ظهرت مع زيادة العلاقات الدبلوماسية بأوروبا صورة أكثر واقعية للدولة العثمانية في الفن الأوروبي بالقرن السابع عشر؛ ينعكس ذلك بشكل خاص من خلال اللوحات التي رسمها الفنانون المرافقون للسفارات الأوروبية إلى البلاط العثماني: وفد السفارة النمساوية إلى السلطان مراد الرابع من قِبَل الملك النمساوي فرديناند الثاني سنة 1038هـ/1628م، صوّر الفنانون المرافقون لها حفلات الاستقبال والاجتماعات التي حضرها السفير⁴.

حين تم إرسال السفير الفرنسي جان دو لاهاي إلى إستانبول سنة 1051هـ/1641م لتجديد

1. نقاش عثمان: رسام منمنمات عثماني من القرن السادس عشر، عكست أعماله عصره بشكل واقعي لا توجد معلومات عن حياته. كان رسام القصر العثماني. نجد منمنمات نقاش عثمان في كتاب ألفه المؤرخ الرسمي للقصر سيد لقمان عنوانه: كفاية الإنسانية في الشمائل العثمانية (Kiyâfetü'l - insaniye fi Şemâiliişl - Osmaniye) فيه سرد لاثنتي عشر سلطاناً حتى مراد الثالث. ينظر:

Nakkaş Osman Hayatı, Eserleri, Kimdir, Hakkında Bilgi: <http://sosyolojisi.com/nakkas-osman-hayati-eserleri-kimdirhakkında-bilgi/45668.html>.

2. (الملحق 08) صورة سليمان القانوني للرسام العثماني نقاش عثمان في كتابه قيادة الإنسانية في الشمائل العثمانية الصادر سنة 1579م. ص.614.

3 - Günsel Renda: Op.cit, P9.

4 - Günsel Renda: Op.cit, P10.

الامتيازات، رسم الفنان الفرنسي جورج دو لاشابيل (George de Ia Chapelle)¹ الذي كان يرافق السفير الكثير من الرسومات، مركزاً بشكل خاص على النساء في الدولة العثمانية، ضمنها في كتابه المعنون: مجموعة من صور مختلفة للسيدات المهّمات بالعاصمة إستانبول (Recueil de divers portraits de principales dames de la Porte du grand turc)، الذي طبع سنة 1648/1058م، في خلفية صور جورج دو لاشابيل للنساء نرى مشاهد من مختلف مناطق مدينة إستانبول، وقد رسم أحد الرسامين المرافقين للسفير السويدي كليس رالم (Claes Ralamb) المبعوث إلى السلطان محمد الرابع في 1657/1068م لوحات تصور السلطان والوزراء والشخصيات البارزة وهي معروضة بمتحف (Nordiska) بستوكهولم².

كان للسفراء الذين بعثهم العثمانيون إلى العواصم الأوروبية أيضاً نصيب في العلاقات الثقافية مع الأوروبيين، فقد أثارت زيارات وفود السفارات العثمانية إلى أوروبا اهتماماً كبيراً؛ كان لسفارة سليمان آغا³ الذي أرسله السلطان محمد الرابع سنة 1669/1080م إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر تأثيراً كبيراً للغاية بالأوساط الفرنسية؛ إذ بعد تلك السفارة بدأت الأزياء التركية تُرتدى في الحفلات التَنَكُّرِيَّة التي كانت تنظّم بالبلاط الفرنسي، كما أضاف المؤلف المسرحي والشاعر الفرنسي الشهير مُؤلِّير (ت1673م) احتفالاً تركياً لمسرحيته التي تدعى "البرجوازي النبيل" وصور "سليمان آغا" كشخصية كوميدية⁴.

يقال أن سليمان آغا كان يقيم بقصر مزخرف على الطراز العثماني حيث تم تقديم الوجبات اللذيذة والقهوة للزوار، وقد أسهم ذلك في انتشار القهوة بفرنسا؛ بدأ استخدام القهوة بأوروبا اعتباراً من القرن السابع عشر الميلادي، وتشير المصادر إلى أنّ القهوة وصلت إلى البندقية حوالي سنة 1615م

1. جورج دو لاشابيل: فنان فرنسي. عاش بإستانبول لعدة سنوات، في الفترة التي كان فيها جان دي لاهاي سفيراً لفرنسا في الباب العالي (1639-1660). ينظر:

Ioli Vingopoulou : **La Chapelle, George de. Recueil de divers portraits des principales dames de la Porte du Grand Turc, tirée au naturel sur les lieux...**, Paris, Chez Blond [1648 ?], Travelogues Travellers Views Places – Monuments – People Southeastern Europe – Eastern Mediterranean Greece – Asia Minor – Southern Italy 15th - 20th century, Aikaterini Laskaridis Foundation, <http://eng.travelogues.gr/collection.php?view=362> .

2- Günsel Renda: Op.cit, P10.

3. هو سليمان آغا مصطفى رجاء: المعلومات حوله قليلة جداً ولولا سفارته هذه ما علم أمره، كانت وظيفته روستانجي أي بستاني السراي، عمل كـ "متفرقة" [وهو الرجل المصاحب للسلطان لحراسته وخدمته] كان مبعوث السلطان محمد الرابع إلى ملك فرنسا سنة 1669م.

4 - Günsel Renda: Op.cit, P10.

وافتححت أول المقاهي سنة 1630م، وبعد فترة قصيرة أصبحت واسعة الانتشار في لندن أيضاً، ويعتقد أن القهوة أصبحت شعبية بفيينا بعد حملة 1683م، وأن المقهى الأول هناك افتتح بواسطة الكونت كلوتشيتزكي (Count Kolschitzky)¹ وهو مترجم من أصل بولندي، ومع ذلك يجب أن تكون القهوة معروفة سنة 1075هـ/1665م خلال زيارة السفير قارا محمد أغا² إلى فيينا، كان لوفد سفارة قارا محمد أغا تأثير كبير على الموسيقى؛ استخدم الملحنون الأوروبيون أحياناً ألحان الفرقة الموسيقية العسكرية التركية، ويعتبر كتاب "سياحة نامه" الذي قدمه أوليا جلبي³ الذي رافق قارا محمد أغا إلى أوروبا أول كتاب من تأليف تركي مرتبط بأوروبا⁴. ومنذ ذلك الحين بدأ العثمانيون في التعرف بشكل أفضل على أوروبا والثقافة والعلوم الأوروبية.

¹ . إحياء لذكرى حصار فيينا سنة 1683م، وكجزء من هذه الذكرى يدرس أطفال المدارس النمساوية قصة البطل جورج فرانز كلوتشيتزكي (Georg Franz Kolschitzky) البولندي، الذي كان له دور بطولي في الدفاع عن مدينة فيينا أثناء حصار العثمانيين لها سنة 1683م. كان كلوتشيتزكي مغامراً سافر على نطاق واسع في المقاطعات العثمانية حيث كان يعمل كمساعد أو مترجم في عواصم الشرق. لحسن الحظ بسبب معرفته باللغة والعادات التركية تمكن من التطوع بالخدمة في فيينا كجاسوس في 1 أوت سنة 1683م تحول كلوتشيتزكي وخادمه ميلهايلوفيتش متنكرين في ثياب الأتراك حول المعسكر التركي شمال غرب المدينة يجمعان المعلومات حول العدو. لقد أثبتت المعلومات التي تم جمعها عن حجم قوات العدو وتصرفاتها أنها لا تقدر بثمن أو هكذا تصوّر القصة. تضيف الأسطورة أنه بعد فشل الحصار طلب أعيان المدينة من فيينا مكافأة كلوتشيتزكي، طلب كلوتشيتزكي بمكر أن يمنح فقط أكياس " علف الجمل " التي تركها الأتراك المنسحبين، وتم منحه أمينته، و" علف الجمل " كان في الواقع خمسمائة رطل من حبوب القهوة الخضراء التي كان يعرف هو وحده فضائلها وطرق استخدامها مما تعلمه في رحلاته إلى الشرق، وهكذا افتتح أول مقهى بفيينا والمعروف باسم "الزجاجة الزرقاء". ينظر (الملحق 09) صورة أول مقهى بفيينا، ص615، رغم جاذبية هذه الروايات إلا أنه يعتقد اليوم أن ثمة مقهيين كان يعملان بفيينا ربما قبل الحصار سنة 1683م؛ ينظر:

Bennett Alan Weinberg and Bonnie K. Bealer: **The World of Caffeine: The Science and Culture of the World's Most Popular Drug**, Routledge, New York, London, 2002, P45-46.

² . قارا محمد باشا (ت 1684م) كان سفيرا عظيما للإمبراطورية العثمانية بفيينا في 1665/1666. لا يعرف مسقط رأسه ولا تاريخ ميلاده. أبرم الصدر الأعظم كوبرلو فاضل أحمد باشا اتفاقية سلام معاهدة فسفار مع إمبراطورية هابسبورغ بعد معركة القديس كوثارد الخاسرة. لتأمين معاهدة السلام تم الاتفاق على تبادل السفراء الكبار. فتم اختيار قارا محمد آغا وهو عضو في فريق النخبة من المتفرقة للقيام بهذه المهمة. عُيّن في عام 1683م مع الوزير الأول قارا مصطفى كقائد للجيش أثناء حصار فيينا. بعد هزيمة العثمانيين تولى الدفاع عن قلعة بودا حيث لقي حتفه. ينظر:

Stefan Schreiner: **Die Osmanen in Europa. Erinnerungen und Berichte türkischer Geschichtsschreiber**, Verlag Styria, Graz, Wien, Köln, 1985, Seite 189, 196.

³ . أوليا جلبي (1611-1684م): واحد من أكثر المسافرين العثمانيين شهرة سافر إلى جميع أنحاء أراضي الإمبراطورية العثمانية والأراضي المجاورة طيلة أربعين عاما. تحت رعاية البلاط العثماني بدأ رحلاته التي خلّدها في مؤلفه الكبير: كتاب السياحة (سياحتنامه) أو (Seyahatnâme). ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Evliya Çelebi, Turkish Traveler and Writer**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Evliya-Celebi> .

⁴ - Günsel Renda: Op.cit, P10.

التأثير العثماني في الأدب الأوربي

ترجمت العديد من الكتب العلمية من أصل أوروبي إلى اللغة العثمانية في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي؛ قام كاتب جلبي بترجمة كتاب يدعى: أطلس مينور، كتبه جان بلو (Jean Bleau) الجغرافي الهولندي، كما ألف جلبي الكتاب المسمى: وصف العالم (جيهان نامة)، وهو مصدر جغرافي هام وكذلك كتاب: إرشاد الحيارى إلى تاريخ اليونان والنصارى، وهو كتاب متعلق بالتاريخ اليوناني والمسيحي. في القرن السابع عشر ورد إلى القصر العثماني عدد كبير من النقوش والكتب الأوروبية وتم العثور على شخصيات ترتدي أزياء أوروبية في الألبومات التي أعدت على عهد السلطان أحمد الأول في بداية القرن السابع عشر¹.

بدأ إنتاج الألبومات المصورة خاصة تلك التي تتناول فن الأزياء في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وأصبح مرحبا بوجودها بتركيا في تلك الفترة، وقد أطلق الإنكليز على تلك الألبومات اسم: كتاب الزي (Costume Book) وكذلك اسمها الألمان: كتاب الزي (Trachtenbuch) كان هناك أحياناً نص قصير تمهيدي، ولكن معظم الوقت كان هناك فقط تعليق موجز باللغة الإيطالية أو الفرنسية أو الإنجليزية. ومعظم رسومات الألبومات كانت من إنجاز فنانيين محليين، على الرغم من أن بعضها رسمت من قِبَل فنانيين أوروبيين².

كانت الكتب المنتشرة على نطاق واسع في أوروبا حول تركيا والأترك هي مصادر الزخارف التركية التي استخدمها العديد من الفنانين الأوروبيين في القرن السابع عشر؛ على سبيل المثال استخدم بيتر بول روبنز (Peter Paul Rubens)³ الفنان الفلمنكي الشهير هذه الألبومات عند رسم الأزياء

¹ - Ibid, P11.

² - Loc.cit.

³ . بيتر بول روبنز (1577-1640م): الرسام الفلمنكي الذي بلغت شهرته إلى درجة تكليفه بمهمة دبلوماسية بحثاً عن سلام بين إنجلترا وإسبانيا كخطوة أولى نحو التفاوض على تسوية مع الجمهورية الهولندية التي كانت حليفة لإنجلترا. ونجح بذلك في عقد معاهدة سلام سنة 1630م. كان روبنز واحداً من أكثر الفنانين الغربيين تنوعاً وتعدداً وإثارةً وإنتاجاً. وامتد تأثيره الأسلوبى العميق على مدى ثلاثة قرون. ينظر:

Charles Scribner: **Peter Paul Rubens Flemish Artists**, Encyclopedia Britannica,

<https://www.britannica.com/biography/Peter-Paul-Rubens> .

التركية. ومنها رسم الهولندي رامبرانت (Rembrandt)¹ الشخصيات التركية كذلك².

بعد أن منح العثمانيون امتيازاتهم التجارية للهولنديين سنة 1021هـ/1612م، وصل السجاد العثماني والمعادن والسيراميك إلى هولندا، وبدأت الزخارف العثمانية بالظهور بالفن الهولندي تم إنتاج البلاط والسيراميك مع الزخارف العثمانية في ورشات مدينة دلفت (Delft) الهولندية وكانت الزخرفة بأزهار التوليب هي الزخارف الأكثر شعبية، وقد طوّر عالم النبات كارلوس كلوسوس (Carolus Clusius)³ - وهو هولندي يعمل بالبلاط النمساوي بفينا - نوعية من التوليب قادرة على تحمل صعوبة المناخ في المناطق المنخفضة كهولندا اعتماداً على أبصال أرسلها إليه السفير النمساوي بوسك (Busbecq) إلى فيينا في القرن السادس عشر من تركيا، وأخذ التوليب إلى هولندا، وألّف كلوسوس كتباً حول هذه الزهرة، وأصبح التوليب جزءاً من الحياة اليومية بهولندا، وفي فترة قصيرة من الزمن جعل شغف التوليب الذي أطلق عليه تاريخياً اسم جنون التوليب (tulipomania) الزهرة موضوعاً شائعاً للرسامين الهولنديين⁴.

أصبحت الموضوعات التركية منتشرة في الأدب وفنون المسرح والرسم والديكور، وخاصة الروايات والباليه والأوبرا التي تصور الشخصيات التركية في الديكورات الرائعة، وأصبح ارتداء الأزياء التركية في الحفلات الراقصة من الموضة وكذا امتلاك لوحات للأزياء التركية، استخدمت الزخارف التركية حتى في الأثاث والخزف، وهكذا بدأ هذا التأثير التركي بفرنسا في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وانتشر أيضاً في المراكز الأوروبية الأخرى وسمّي بالتترّكة (Turquerie)، وكان التأثير التركي كبيراً في الأدب الأوروبي⁵.

كتب فولتير (Voltaire) (ت1778م) كتابه المسمى: بحث في الأخلاق وروح الأمم (Essai

¹ - رامبرانت هارمنسزو فان ريجن (1606-1669م): الرسام الباروكي ومصمم المطبوعات الهولندي، واحد من أعظم رواة القصص في تاريخ الفن اعتبر رائد الحركة الرومانسية. وأصبح رمزاً للعظمة الهولندية. ينظر:

Ernst van de Wetering: Rembrandt Van Rijn Dutch Painter, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Rembrandt-van-Rijn> .

² - Günsel Renda: Op.cit, P11.

³ - كارلوس كلوسوس (Carolus Clusius) (1526-1609م): اسمه بالفرنسية (Charles de L'Écluse). عالم النبات الهولندي الذي ساهم في إنشاء علم النبات الحديث. كانت زراعته لزهور التوليب في الحديقة النباتية هو بداية صناعة التوليب الهولندي. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Carolus Clusius French Botanist**, Encyclopedia Britannica <https://www.britannica.com/biography/Carolus-Clusius> .

⁴ - Günsel Renda: Op.cit, P11.

⁵ - Ibid, P12.

(sur les mœurs et l'esprit des nations) يصف خصائص مختلف البلدان مباشرة بعد زيارة سعيد أفندي، وعالج الكاتب المسرحي الفرنسي شارل سيمون فافارت (Charles-Simon Favart) (ت 1792م) العلاقة بين السلطان سليمان وزوجته خورم سلطان في كوميديا عنوانها: سليمان الثاني أو السلاطين الثلاثة (Les Trois Sultanes)، تشير المصادر إلى أن فافارت كان لديه ملابس جلبت من الإمبراطورية العثمانية لزوجته الممثلة التي لعبت دور زوجة السلطان سليمان روكسيلانا¹.

نجد أول عمل من أعمال أوبرا الهند المتوددة (Les Indes galantes) الأربعة للموسيقار الفرنسي جان فيليب رامو (Jean-Philippe Rameau)² والذي تم تنظيمه لأول مرة سنة 1735م بباريس كان يسمى التركي السخي (Le Turc généreux)، انتشرت الشخصيات والألحان التركية في نهاية القرن الثامن عشر مع الموسيقار الألماني الشهير موزارت (Mozart) (ت 1791م) في الأوبرا الشهيرة: اختطاف من سراي الحريم (Die Entführung aus dem Serail)، وهناك أيضا أوبرا غير منتهية من تأليفه أيضا تدعى زيد (Zaide)، وتعالج موضوع السلطان سليمان، وقد استخدم كل من الموسيقار النمساوي جوزيف هايدن (Joseph Haydn)³ وموزارت بيتهوفن (Beethoven) (ت 1770م) الألحان التركية⁴.

تدرج ألحان الفرقة العسكرية العثمانية في قسم الأوركسترا في نهاية السيمفونية التاسعة لبيتهوفن ووضع الموسيقار الإيطالي جوساف فيردى (Giuseppe Verdi)⁵ ألحان أوبرا القرصان (Il Corsaro) الممثلون الحقيقيون لحركة التتركة (Turquerie) في الفن الأوروبي هم الفنانون الأوروبيون الذين جاءوا

¹ - Gunsel Renda: Op.cit, P12.

² . جان فيليب رامو (1683-1764م): الملحن والمنظر الموسيقي والمسرحي الفرنسي في الفترة المتأخرة من العصر الباروكي. اختط طريقه كموسيقار. أسس للانسجام الموسيقي، الذي هو أساس معظم كتب الانسجام في القرن العشرين. ينظر:

Alan S. Curtis : **Jean-Philippe Rameau, French composer**, Encyclopedia Britannica <https://www.britannica.com/biography/Jean-Philippe-Rameau> .

³ . جوزيف هايدن (Joseph Haydn) (1732-1809م): الملحن النمساوي الذي كان واحدا من أهم الشخصيات في تطوير النمط الكلاسيكي في الموسيقى خلال القرن ال 18. كتب نشيد: ليحفظ الله القيصر، الذي أضحى بعد ذلك النشيد الوطني الألماني. أطلق عليه اسم أبي السمفونية لأنه قام بتطويرها. ينظر:

Karl Geiringer and others: **Joseph Haydn Austrian Composer**, Encyclopedia Britannica <https://www.britannica.com/biography/Joseph-Haydn> .

⁴ - Gunsel Renda: Op.cit, P12.

⁵ . جوساف فيردى (Giuseppe Verdi) (1813-1901م): مؤلف الأوبرا الإيطالي البارز في القرن التاسع عشر. مؤلف أوبرا عابدة (Aida) (1871) [والتي ألفها ماجورًا من الخديوي إسماعيل لحفل افتتاح قناة السويس] ينظر:

Joseph Kerman and Dyneley Hussey: **Giuseppe Verdi Italian composer**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Giuseppe-Verdi> .

إلى إستانبول في القرن الثامن عشر وعاشوا هناك لفترة من الزمن، يُشار إلى هؤلاء باسم "رسامي البوسفور" (Les peintres du Bosphore)¹ عملوا عمومًا في دوائر السفارات الأوروبية بإستانبول أو زودوا كتب الرحلات التي كتبها الأوروبيون بالصور.²

جلبت العلاقات الجديدة بين العثمانيين والأوروبيين في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي العديد من الدبلوماسيين والتجار والمسافرين والفنانين إلى العاصمة العثمانية، ومع الاهتمام المتزايد بالتاريخ وعلم الآثار في هذا القرن بلغ جمع التحف والفضول ذروته، وجاء العديد من المسافرين إلى الدولة العثمانية للبحث، وكان من بين هؤلاء الباحثين المهندسين المعماريين والرسامين فنمت سوق مذكرات الرحالة المرفقة بالصور في أوروبا؛ وتبعًا لذلك فإن معظم الفنانين العاملين في دوائر السفارات وحتى السفراء أنفسهم غالبًا ما ينتجون مثل هذه الكتب المصورة.³

المهندس ميلان أنطوان إيغناس (Melling, Antoine Ignace)⁴ الذي دعاه السلطان سليم الثالث إلى إستانبول نهاية القرن، وقضى حوالي عشرين عاما بإستانبول، رسم المناظر الطبوغرافية من مختلف أحياء إستانبول وتم نشرها ضمن كتابه المعنون: رحلة مدهشة بالقسطنطينية وعلى ضفاف مضيق البوسفور (Voyage pittoresque de Constantinople et des rives du Bosphore) أنطوان لورانت كاستلان (Antoine-Laurent Castellan)⁵ مهندس معماري فرنسي آخر جاء

¹ . من بين رسامي البوسفور أولئك الرسام الفرنسي جان باتيستا فانمور (Jean-Baptiste van Mour) الذي أقام أطول فترة بإستانبول وعمل مع سفراء أوروبيين مختلفين. وقد قام بتكليف من السفير الفرنسي ماركيز دو فيريول بطباعة لوحاته المرسومة في كتاب نشر سنة 1714 بعنوان مجموعة مائة صورة تمثل الشعوب المختلفة في الشرق (Receuil de Cent Estampes representant différentes nations de Levant)، ينظر: Gonsel Renda: Op.cit, P13.

² - Ibid, P12-13.

³ - Loc.cit.

⁴ . ميلان أنطوان إيغناس (1763-1831م): المهندس المعماري والرسام والنحات والرحالة الفرنسي. زار القسطنطينية سنة 1784م وظلّ بها ثمانية عشر عامًا، وأصبح مقربًا من السلطانة خديجة شقيقة سليم الثالث، ودخل في خدمتها لسنوات عديدة وكان مسؤولًا على بناء قصرها وكذا تصاميم ملابسها ومجوهراتها. ترك عدّة أعمال فنية عن القصر السلطاني والحياة العثمانية. ينظر:

Fabienne Heullant : **Le voyage d'Antoine-Ignace Melling dans le Midi de la France**, Atlas topographique des villes de Gaule méridionale, Centre Camille-Jullian, Cnrs, Aix-Marseille université, Paris, 24 Apr 2018, P6-15

⁵ . أنطوان لورانت كاستلان (1772-1838): مهندس ورسام ونقاش وكاتب فرنسي، رافق كرسام بعثة فرنسية إلى القسطنطينية في عهد سليم الثالث، لم تتمكن البعثة من تحقيق أهدافها واضطر أعضاءها إلى الفرار في مواجهة الحرب والوباء والحرائق والثورة إلا أن كاستلان نشر انطباعاته عن هذه الرحلة في نص مكتوب على شكل رسائل الأزياء التي توزعت في ثلاث مجلدات مع العديد من النقوش المستندة إلى رسوماته. ينظر:

إلى استانبول بمهمة هندسية سنة 1797م ونشر رسوماته عن اليونان والإمبراطورية العثمانية ضمن كتابه: خطابات حول اليونان والدردينيل والقسطنطينية (Lettres sur la Grèce, l'Hellespont et Constantinople en 1811)¹.

تم إلى جانب مذكرات السفر المصورة هذه نشر العديد من كتب الأزياء في هذا القرن وعلى الرغم من أن هناك بعض كتب الأزياء رسمها رسامون أوروبيون فإن معظمها إنما أنتجها فنانون محليون، كما كان الحال في القرون السابقة، مثال آخر مثير للاهتمام بالسويد هو صورة السلطان عبد الحميد الأول التي وضعت على جدار قاعة بقصر جريشولم (the Gripsholm Chateau) بالقرب من ستوكهولم أضافها الملك جوستاف الثالث (Gustav III)² سنة 1770م؛ فقد أراد جوستاف الثالث تصوير نفسه مع الحكام الأوروبيين العظماء المعاصرين له فجعل منهم السلطان العثماني³.

التأثيرات على الجانب العثماني

عودا إلى الجانب العثماني مرة أخرى، نحن نعلم أنه في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي استقر التجار والوكلاء المسلمون بإيطاليا، وتم تخصيص قصر فونداكو دي تورثشي (Fondaco dei Turchi) الشهير للإقامة السكنية للتجار المسلمين⁴، كما سُجِّل وجود نساء من أصل تركي في بلاط الملكة الفرنسية ماريا دي ميديشي (Marie de Médicis)⁵ ينسجون لها السجاد التركي في سنة 1568م بباريس شكل صانعو السجاد المسلمون شركة لنسج السجاد التركي ويبدو أن إنتاج الشركة توقف تماماً في القرن السابع عشر⁶.

تشكل في القرنين السابع والثامن عشر بفرنسا تجمُّع تركي كبير من العبيد الذين استخدموا في تجديف السفن. في نهاية القرن السابع عشر استخدم أكثر من ألف شخص كعبيد بالأسطول

Minor – Southern Italy 15th - 20th century, Aikaterini Laskaridis Foundation, <http://eng.travelogues.gr/travelogue.php?view=309&creator=1169878&tag=9769> .

¹- Gysel Renda : Op.cit, P14.

² . جوستاف الثالث (1792-1746م): ملك السويد في الفترة من 1771 حتى وفاته. قام بإصلاحات متعددة، وعزز حرية التجارة وحرية الرأي، وأسس الأكاديمية السويدية، والمسرح السويدي القومي، ودارا للأوبرا ومعاهد لتعليم الموسيقى والرسم. اغتيل في أوبرا ستوكهولم حيث كان يشهد إحدى الحفلات الفنية. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص306.

³ - Gysel Renda: Op.cit, P14.

⁴ - Halil Inalcik: Op.cit, P147.

⁵ . ماريا دي ميديشي (1575-1642) ملكة فرنسا وزوجة الملك الفرنسي هنري الرابع، وهي ابنة الملك فرانسيسكو الأول دي ميديشي، نفيت إلى مدينة (Blois) الفرنسية مدة ثم شاركت في الكثير من الأحداث. ينظر:

Philip Mansel and Torsten Riotte: **Monarchy and Exile the Politics of Legitimacy from Marie de Médicis to Wilhelm II**, 1 Edt, Palgrave Macmillan, England, 2011, P17.

⁶ - Halil Inalcik: Op.cit, P147-148.

الفرنسي، وكان عشرون بالمائة من بين هؤلاء أتراكا. وقد شاركوا في الحياة الاجتماعية بجرية؛ فزاهم يُديرون المقاهي والمراكب، فقد كانوا على اتصال يومي بالسكان المحليين بمرسيليا. وسُجِّلَ أنَّ بَعْضَهُمْ أرسل أموالاً لأسرته. على الجانب الآخر نجد مجموعة مثيرة للاهتمام من الفرنسيين الذين أصبحوا أسرى لدى العثمانيين وعاشوا بينهم، ثمَّ تمَّ إنقاذهم فيما بعد بفدية. علاوة على ذلك كان هناك الفرنسيون الذين ظلُّوا لفترة طويلة من الزمن في خدمة القناصل والسفراء بالموانئ العثمانية والذين عادوا بعد ذلك إلى فرنسا، وبطبيعة الحال نقلوا العادات التي لاحظوها هناك لبلدانهم¹.

نعلم من مخزونات القصر العثماني أنه ابتداءً من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي تم استيراد سجاد الأناضول الغربي واستخدامه كسلعة فاخرة بالقصور الفرنسية، تم استخدام السجاد ليس فقط على الأرضيات ولكن أيضا على الطاولات والكراسي، شكلت تجارة السجاد ابتداء من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي جزءا كبيرا من التجارة ليس فقط مع الفرنسيين ولكن أيضا بين الدول الأوروبية والإمبراطورية العثمانية².

لا يمكن فهم تاريخ صناعة المنسوجات القطنية والحريرية الأوروبية دون الأخذ بالاعتبار تأثير المشرق من جانب النسيج وتقنيات الصباغة والتصميم؛ حتى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي استوردت أوروبا السلع القطنية الخشنة والناعمة من الهند والدولة العثمانية. بدأت جماهير الناس بأوروبا تستهلك السلع المصنوعة من القطن بعد سنة 1111هـ/1700م، وعندما وصل الاستهلاك إلى أحجام كبيرة أنشأت كل من الدول الأوروبية التجارية صناعة للقطن وبدأت في تقليد المنتجات الشرقية³.

لا يمكن لأوروبا المنافسة في الأسعار لأن تكاليف العمالة كانت منخفضة في هذه الصناعة بالهند وتركيا، فبدأ الأوروبيون بالتفكير في كيفية التغلب على هذه المنافسة في تكلفة العمالة، فدفع هذا الضغط الاقتصادي المخترعين لاكتشاف المحرك البخاري واستعماله في صناعة القطن، كان هذا الوضع في أوروبا أحد العوامل الهامة للثورة الصناعية، أسرار اللون القرمزي التركي في الصباغة لم تُحلَّ إلا بعد جهود مكثفة، وجُلبَ سرّاً خبراء من غير المسلمين من الأراضي العثمانية إلى أوروبا⁴.

بينما كان التجار والدبلوماسيون الموالون لإليزابيث يصلون أولاً إلى إستانبول وأزمير، كانت الصورة العثمانية عن المسيحيين الأوروبيين تأخذ في كثير من الأحيان صورة المهتدين للإسلام؛ يذكر الرحالة

1 - Ibid, P148.

2 - Ibid, P149.

3 - Ibid, P150.

4 - Loc.cit.

الأوروبيون الأوائل بانتظام عن تعرضهم للسخرية والهجوم بالحجارة وحتى أسرهم ببساطة لأنهم مسيحيون تجرّأوا على الدخول إلى دار الإسلام، ومع ذلك كان المسلمون المتعلمون يعرفون عن المسيحية أكثر بكثير مما عرف الإنجليز المثقفون عن الإسلام، وقد تم الترحيب بأهل الكتاب في الإسلام، وتم الترحيب بالمسيحيين واليهود في الدولة العثمانية في وقت لم يكن يُتسامح فيه مع أي من المجتمعات اليهودية أو الإسلامية بإنجلترا¹، ولا بمعظم أوروبا.

تأسست في بغداد خلال سنة 968هـ/1560م أول مدرسة عثمانية رائعة لإنتاج الكتب والمنمنمات²، وتمّ بها إنشاء عدد من أعظم الأمثلة على فن المنمنمات العثماني المبكر؛ وقد تضمنت هذه المكتبة كتاب: " حديقة السعداء" للشاعر العراقي محمد بن سليمان المعروف بلقب فضولي البغدادي³ وهو تاريخ مشهور في النثر والشعر العثماني يذكر فيه شهداء آل البيت بكربراء - رتبة على عشرة أبواب وخاتمة في مصائب الأنبياء من آدم إلى الخاتم ثم الخمسة النجباء، والخاتمة في سبي العترة الطاهرة - ورجع منه أكثر من ثمانين نسخة على طول وعرض الدولة العثمانية، سبعة وسبعين لا تزال موجودة إلى يومنا بتركيا⁴.

يوجد في نسخة من حديقة السعداء موجودة بالمكتبة البريطانية صورتان من المنمنمات اللتان توضحان عمل فضولي، رُسمتا ببغداد في نفس الوقت الذي كان فيه الانجليز يقيمون علاقات تجارية رسمية، يمكننا أن نلمح في الصورتين شيئاً من العداوة المتوقع تجاه الأوروبيين داخل المجتمع العثماني؛ في الصورة الأولى⁵ تخيل الفنان المشهد قبل أن يتم إنقاذ النبي إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من خطة الملك النمرود الشريرة لإلقاءه في النار، حيث يظهر بالصورة ثلاثة أوروبيين يرتدون قبعات سوداء ذات حواف عريضة ومؤخرات فضفاضة وهم يسحبون حبال المنجنيق الذي سيُقدّف به النبي إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) إلى النيران، هذه القبعات في أيقونة الفن العثماني في ذلك الوقت تُجسّد قبعات القنّس التي يرتديها المستعمرون البرتغاليون الذين استقروا بالحيط الهندي، وعند مدخل مبنى يقع

¹ - Gerald MacLean: Op.cit P47.

². أسّسها حسن باشا نجل الصدر الأعظم صوقولو محمد باشا.

³. محمد بن سليمان (885-936هـ/1480-1556م): يعتبر على نطاق واسع أكبر شاعر غنائي في اللغة التركية الأذربيجانية ترك 15 مؤلفاً باللغة العربية والفارسية إلى جانب التركية الأذربيجانية، اشتهر باسم " فضولي ". كان شيعي المعتقد على مذهب الاثنا عشرية، كان تحت رعاية القادة الصفويين قبل سقوط بغداد بأيدي العثمانيين فانتقل ولاءه بعدها إلى العثمانيين. ينظر:

FOZŪLĪ, MOHAMMAD <http://www.iranicaonline.org/articles/fozuli> , Encyclopædia Iranica, January 31, 2012.

⁴ - Gerald MacLean: Op.cit, P48-49.

⁵. (الملحق 10) صورة تخطيطية لإلقاء النبي إبراهيم في النار من كتاب فضولي حديقة السعداء. ص 616.

على يمين الصورة نشاهد شخصيات أخرى - بعضها بالزي الأوروبي الحديث بما في ذلك القبعات السوداء ذات الحواف الواسعة، وأعلاه نشاهد في الداخل إبليس متنكراً كرجل عجوز يتحدث مع النمrod ويراقب محاولة حرق النبي العظيم إبراهيم¹.

في الصورة الثانية² يتخيل الفنان النبي زكريا (عليه الصلاة والسلام) والد يوحنا المعمدان [يحي] (عليه الصلاة والسلام) وهو يجتبي في شجرة يتم قطعها بينما تقف شخصيات مسلحة من أمم مختلفة حولها؛ حيث نشاهد العديد من الأوروبيين يرتدون أزياء خاصة بأزمنة وأماكن مختلفة، ويبدو أن إبليس الذي كان متنكراً مرة أخرى في زي رجل عجوز يرتدي عباءة سوداء وهو يوجه أحد الأوروبيين المعاصرين ليستل سيفه في اللحظة التي ستسقط فيها الشجرة ويتعثر النبي زكريا (عليه الصلاة والسلام)، بعض الشخصيات ترتدي الخوذات الرومانية، بينما يرتدي آخرون الدروع الحجرية والمنغولية، بالإضافة إلى اختلاف الزي وأغطية الرأس، استخدم الفنان أيضاً شعر الوجه وظلال لون البشرة لتمييز مجموعة متنوعة من الأجناس، بما في ذلك شكل عمامة واحدة؛ من الواضح أنهم جميعاً يمثلون أعداء الإسلام في صورة زكريا، بشكل خاص نجد شخصيات من الشرق الأقصى وآسيا الوسطى إلى جانب الأوروبيين جميعهم في خدمة إبليس، يلعب الفن هنا دوراً في تحفيز العداء ضد الأوروبيين باستجلاب للماضي التاريخي الأسطوري إلى العالم المعاصر حيث قوى الشر التي يقودها إبليس تعمل باستمرار من خلال وكلاء بشريين أجناس متميزين³.

هناك نسخ مصورة أخرى لعمل فضولي من أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي لا تتضمن صوراً للأوروبيين بين أعداء الإسلام، وبالفعل فإن الفنانين العثمانيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر نادراً ما يصورون الأوروبيين على الإطلاق، فإذا ظهر الأوروبيون في الصور العثمانية فإثماً يظهرون كجنود مدرّعين يتعرضون لهجوم من قبل القوات العثمانية المتفوقة، أو كدبلوماسيين يركعون أمام السلاطين العثمانيين، أو صور أزياء رجال ونساء يعرضون أزياء أوطانهم⁴.

تغيّر الوضع عند أوائل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي؛ إذ يبدأ الفنان العثماني برسم الأوروبيين دون تحيّر نلمس ذلك في رسومات عبد الجليل جلبي المعروف باسم ليفني (Levni)⁵

¹ - Gerald MacLean: Op.cit, P49.

². (الملحق 11) صورة تخيلية لإلقاء النبي زكريا في الشجرة من كتاب فضولي حديقة السعداء، ص 617..

³ - Gerald MacLean: Op.cit, P49.

⁴- Ibid, P51-52.

⁵ . عبد الجليل ليفني (...- 1732): الرسام العثماني الأكثر شهرة في الفترة المشهورة بعهد التوليب أوائل القرن الثامن عشر ذهب في شبابه إلى إستانبول حيث درس الرسم بمدرة الرسم بقصر توبكاي [تأسست في عهد محمد الفاتح=

في سنة 1132هـ / 1720م ابتكر ليفني أقدم صور فردية لزوّار الإمبراطورية العثمانية الأوروبيين يُظهرهم وهم يرتدون أزياءهم القومية دون سياقات مُهينة أو شيطانية¹.

يظهر في إحدى صور ليفني الفردية رجل مرح ذو مظهر جذاب يرتدي معطفاً أحمرًا جميلًا ويحمل حقيبة مطرزة² وهي صورة من سلسلة صور الأزياء التي يعرضها ليفني والتي تظهر رجالًا ونساءً أوروبيين يشاركون في أنشطة يومية كجزء من حياة إستانبول، تلك الصورة - جنبًا إلى جنب مع صورة مرفقة بالمكتبة البريطانية - تم تصنيفها تحت عنوان " أنيق أوروبي"³ تظهر صورة رجل مهذب للغاية وتعابير معتدلة بسيطة، صور ليفني تلك مثلها مثل صور السفراء الأوروبيين الذين أدرجهم ليفني في رسوماته التوضيحية بكتاب: سرورنامة لسنة 1132هـ / 1720م ليست غريبة أو منقّرة للآخرين⁴.

تنتمي لوحات ليفني إلى وقت كانت فيه إستانبول مدينة عالمية بالكامل مع مجتمع دولي مزدهر لكن إذا تذكرنا الرسوم التوضيحية المرافقة لشعر فضولي التي تشكلت خلال العقود الأخيرة من القرن السادس عشر عندما بدأ الإنجليز بالوصول بأعداد كبيرة، فإن التحولات في الطريقة التي ينظر بها الفنانون العثمانيون إلى الأوروبيين تشير إلى أن الأشكال السابقة من الصور النمطية أثبتت أنها قابلة للتعديل⁵.

التأثيرات على الجانب الإنجليزي

نجد على الجانب الإنجليزي أنّه بحلول منتصف القرن السادس عشر كانت الموضة الأوروبية لتجميع صور الشخصيات المرموقة ومشاهير الشخصيات الأسطورية والتاريخية قد انتشرت بين القطاعات الأكثر ثراءً في المجتمع الإنجليزي، جرت العادة على تعزيز المكانة الاجتماعية من خلال عرض لوحات أو زخارف مطرزة تحتوي على صور للملوك الإنجليز والأجانب، ترسخ ذلك التقليد بقوة بين الأرستقراطية الإنجليزية، وفي الوقت الذي اعتلت فيه إليزابيث العرش انتشر "تقليد" جمع وعرض الصور المرسومة

مدرسة (Nakkashane-i Rum) كانت أكاديمية بقصر توكياي خاصة بفن المنمنمات [ليصبح بعدها الرسام الرسمي للقصر في عهد السلطان مصطفى الثاني، ويحتمل أنّه استمر بمنصبه حتى في زمن السلطان أحمد الثالث. تتكوّن روايته من أكثر من 100 منمنمة ضمّتها مخطوط يحمل عنوان: سرورنامة وهي (Surname-i Vehbi) [ويسمى أيضًا كتاب يوم الختان، يصف المهرجانات التي دامت خمسة عشر يومًا بمناسبة ختان أربعة أبناء السلطان أحمد الثالث]. ينظر:

Satyavrat Nirala : **Abdülcelil Levni**, Encyclopaedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Abdulcelil-Levni> ,

¹ - Gerald MacLean: Op.cit, P52.

². (الملحق 12) صورة لرجل أوروبي من قبل الفنان العثماني المعروف باسم ليفني (Levni) سنة 1720م، ص618.

³. (الملحق 13) صورة "الأنيق الأوروبي" من قبل الفنان العثماني المعروف باسم ليفني (Levni) سنة 1720م، ص619.

⁴ - Gerald MacLean: Op.cit, P52.

⁵ - Gerald MacLean: Op.cit, P52.

على ما يبدو بين النبلاء وصولاً إلى الطبقات الوسطى. وكانت هذه الصور تضمّ صور الأتراك العظام¹. من اللوحات التي تمثل السلاطين العثمانيين المحتفظ بها في إنجلترا، هي تلك التي رسمها هانز إيورث (Hans Eworth)² وهي أقدم عمل ناجح معروف³ يوضح العديد من السمات الأكثر شيوعاً لهذه الصور⁴، ويحتمل أنّ هانز قد اعتمد في رسم صورته على الفنان الفلمنكي بيتر كويكه فان أيلست⁵ لدى زيارته إلى إستانبول سنة 1533م⁶، حيث صور السلاطين العثمانيين كانت منتشرة في جميع أنحاء أوروبا وفي إنجلترا خلال مطلع القرن السادس عشر⁷.

لم تكن لوحات الرسامين المرسومة والمحفورة هي المصادر الوحيدة، أو بدقة أكثر هي الأقدم بين نظيراتها البصرية لتزويد الإنجليز عن ثراء وقوة الثقافة العثمانية؛ فقبل أن يصبح جمع صور حكام العالم شكلاً مألوفاً للإشارة إلى ثروة المرء ووضع الاجتماعي، فإنّ حيازة وعرض الملابس الحريرية باهظة الثمن والسجاد التركي سمح لطبقة النبلاء المتصاعدة بإعلان تفوقهم الاجتماعي⁸.

خلال عهد هنري الثامن (1509-1547م) أصبحت موضة تبني مظاهر الزي العثماني وجمع السجاد الشرقي سمة بارزة للحياة في البلاط؛ من المؤكّد أنّ هنري وحاشيته كانوا يستمتعون بالظهور بالملابس العثمانية لإثارة إعجاب الزائرين الأجانب، يبدو أنّ هنري فضّل ارتداء الزي العثماني كلباس احتفالي وكذا حفلاته التنكرية؛ في دراسة عن كيف أثّرت تصاميم الملابس العثمانية على اللباس الغربي في القرن السادس عشر، لوحظ كيف يُظهر رسم هنري الثامن سنة 1542م أنّ الملك الإنجليزي اعتمد استخدام "صفوف من الأشرطة الأفقية" لتشكيل "رباطات مميزة" على معطفه يمكن مشاهدة مثلها على القفطان من أواخر القرن الخامس عشر في مجموعات توبكابي بإستانبول، وتظهر بانتظام في لوحات عثمانية مصغرة للسلطان سليمان⁹.

¹ - Ibid, P28.

² . هانز إيورث (1520-1574م): رسام هولندي نشط بإنجلترا. ينظر:

Ian Chilvers and others: **The Oxford Dictionary of Art**, Edt 4, Oxford University Press, New York, USA,2009, p209-210.

³. (الملحق 14) صورة للرسام الهولندي المقيم بإنجلترا هانز إيورث (Hans Eworth) ص 620.

⁴ - Gerald MacLean: Op.cit, P28.

⁵ - بيتر كويكه فان أيلست (Pieter Coecke van Aelst) فنان فلمنكي. تمت ترجمته وحوله ينظر:

Jo Eldridge Carney: **Renaissance and Reformation, 1500-1620: A Biographical Dictionary**, 1 Edt, Greenwood Press, Westport, Connecticut, London, 2001, P89-90.

⁶- Gerald MacLean: Op.cit, P29.

⁷ - Ibid, P31.

⁸ - Ibid, P32, 34.

⁹ - Ibid, P34.

امتد الابتهاج الذي أبداه هنري الثامن في التزيّن بالأزياء والإكسسوارات العثمانية إلى العروض العامة للمنسوجات العثمانية كلما انتقل خارج الدوائر الداخلية للبلاط؛ فعندما يسافر الملك كانت أمتعته تضم ما لا يقل عن خمسة وستين سجادة من صنع تركيا - وهي عبارة تستخدم في المخزون الملكي لتسمية سجاد معقوف صنعه نساجو الأناضول أو المصريون أو السوريون أو الفارسيون بدلاً من السجاد الأوروبي الصنع - وتشير قوائم جرد ممتلكات هنري التي تم وضعها سنة 1539م إلى أنّ السجاد التركي كان يُستخدم فوق الطاولات، وعلى الأرضيات في مختلف الحجرات الملكية كان هنري يمتلك ما مجموعه 801 سجادة، منها ما لا يقل عن 550 مدرجة على أنها "صناعة تركية"¹، ولا شك أنّ ذلك يمكن أن يسمى هوس السجاد الشرقي أو السجاد التركي عند هنري.

لم يكتب هنري الثامن بامتلاك مجموعة هائلة من السجاد العثماني، بل اتجه إلى تصوير نفسه وهو يقف على سجادة ملونة أناضولية التصميم؛ تمّ إحصاء ما مجموعه ثلاثة عشر صورة شخصية لهنري معظمها مستمدة من لوحة جدارية رسمها سنة 1537م الرسام هانز هولباين (Hans Holbein the younger)² بقصر وايت هول (Whitehall) - هو قصر الملك هنري الثامن بلندن دمّرت النيران سنة 1698م - ويظهر الملك هنري في تلك الصور واقفاً على سجادات عثمانية مختلفة، بالتأكيد لم يتم تصوير أي ملك آخر مع هذا العدد الكبير من السجاد المختلف والمثير للاهتمام، وربما لم يتخذ أي فنان آخر موضوعه رسم ملك على كل هذا العدد من السجاجيد³.

ما تشير إليه تلك الحقائق المختلفة هو أنه بالنسبة للإنجليز وابتداءً من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر فإنّ معرفة الثقافة والمجتمع العثماني والرغبة في السلع العثمانية⁴ انتشرت

¹ - Ibid, P35.

² . ولد هانز هولباين الأصغر بمدينة أوغسبورغ (Augsburg) [جنوب غرب ألمانيا حالياً] سنة 1497 أو 1498. أصبح رسام البلاط على عهد هنري الثامن، وقد أكسبه رسم الملك هنري وحاشيته شهرة كبيرة. ينظر:

Jo Eldridge Carney: Op.cit, P192-194.

³ - Ibid, P35.

⁴ . التجارة الإنجليزية مع الدولة العثمانية أثّرت بشكل إيجابي كبير على سوق العمل وعلى المواضع وعلى تجارة التجزئة مثل الطلب الهائل على زبيب جزيرة زاكينثوس [تابعة حالياً لليونان] كلّ ذلك أسهم بشكل كبير جداً في دخول الثقافة العثمانية بشكل عام وواسع إلى الحياة اليومية بإنجلترا في ذلك الوقت. وكما يشير المؤرخ البريطاني ماثيو ديموخ (Matthew Dimmock) فإن إشارات وليام شكسبير (William Shakespeare) "الداخلية غير الرسمية" إلى "الوسائد التركية المتداولة باللؤلؤ" و "النسيج التركي" تشهد على "الطبيعة المألوفة للسلع المادية العثمانية". وبحلول القرن الثامن عشر كما أظهرت المؤرخة البريطانية ماكسين بيرج (Maxine Berg) تخيل البريطانيون أنهم أصبحوا محلّ حسد كل أوروبا للثروة التي جلبتها التجارة والسلع الشرقية التي اشتروها. ينظر:

Ibid, P44.

من الديوان الملكي وطبقة النبلاء إلى الطبقات المتوسطة المزدهرة من خلال التبادل والمحاسبة والأعمال الحرة. لهذا قد نضيف أنه بالنسبة لأولئك الذين لم يغادروا إنجلترا فإن مذكرات الرحالة إلى الأراضي العثمانية قد زادت من إمامهم بفخامة تلك الدولة، وأنماط الحياة التي تحسد عليها الإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي تم استيعابها على نطاق واسع في العديد من جوانب الثقافة الفرنسية والإسبانية والإيطالية¹. إنَّ المواقف تجاه الأوروبيين الذين يعيشون داخل الأراضي العثمانية قد تغيرت بشكل واضح من بعض النواحي مع التعايش والألفة؛ استمرت التطورات في التجارة والسياسة الخارجية في تقديم أسباب وجيهة مكّنت مسيحيي أوروبا والمسلمين العثمانيين من تقبّل اختلافاتهم العقديّة؛ التعاون بين إليزابيث ومراد الثالث ضد إسبانية وغيرها من الدول الكاثوليكية لأسباب استراتيجية وتجارية تولّد عنه التعايش المبني على حسن التفهم والاحترام²؛ نرى أنّه في مراسلات إليزابيث مع نساء أقوياء في بلاط السلطان مراد الثالث تم تكريم الملكة الإنجليزية بألقاب مثل "ملكة اللوثريين" و "وريثة الملكة ماري"، توحى مثل هذه الألقاب في القرن السادس عشر كيف فهم البلاط العثماني واحترام الأشكال المختلفة للمسيحية أفضل بكثير مما فهمه معظم الأوروبيين في ذلك الوقت عن الإسلام³.

توسعت إلى جانب تجارة بلاد الشرق المتنامية، المصالح الإنجليزية في البلاد العثمانية إلى ما وراء الأديان والتجارة إلى مجموعة متنوعة من السجلات الثقافية: أراد الناس معرفة مستقبل العثمانيين، وكان هناك عرض منتظم للكتابة لخدمة هذا الاهتمام بحلول منتصف القرن السابع عشر، بالنسبة لصحافة لندن لم يؤد اندلاع الحرب الأهلية سنة 1642م بأي حال من الأحوال إلى فتور إنكليزي تجاه الثقافة العثمانية، بل تمّ إعادة تعديل المواضيع العثمانية لتناسب مع الغايات السياسية والاجتماعية الفورية

¹ - Loc.cit.

² . أثبت أول ممثلي شركة المشرق (the Levant Company) العاملة لدى بلاط مراد الثالث - وليام هاربورن وإدوارد بارتون (William Harborne and Edward Barton) - نجاحًا هائلًا في تأسيس اتفاقيات تجارية لصالح التجار الإنجليز، وسرعان ما أصبح بعض أفراد الجالية المغتربة لاعبين مهمين في الجدل السياسي للدولة العثمانية. في سنة 1595-1596 ذهب إدوارد بارتون إلى حد الاتفاق على الانضمام إلى محمد الثالث في حملاته العسكرية بالمجر من أجل الإشراف على عودة السجناء المسيحيين فاكتمل بالتالي احترام العثمانيين دون المساس بسمعته بين أبناء بلده؛ عند وفاة بارتون أمر السلطان [محمد الثالث] بحمل جثته في أهبّة كاملة لدفنه في جزيرة هيبيلي-آدا (Heybeli-ada) إحدى جزر الأمراء في بحر مرمرية. وبعد وفاته بعشر سنوات تحدّث المرشد البروتستانتي ويليام بيدولف (William Biddulph) بفخر كيف ترك بارتون شهرته الخالدة خلفه في تلك البلدان إلى يومنا هذا، ودفن في أرض الإغريق، على بعد اثني عشر ميلا من القسطنطينية وهي تدعى جزيرة بارتون (Bartons Island) حتى يومنا هذا. كان هذا هو الإغراء الاحتفالي للقوة الإمبريالية لدرجة أن مرشد بروتستانتي متدين مثل بيدولف قد يشعر بالسرور والتكريم عندما يحظى مواطنه بالاحترام والرضى التام من سلطان مسلم عظيم. ينظر: Gerald MacLean: Op.cit, P53-54.

³ -Ibid, P52-53.

الأحداث السياسية الرئيسية في تلك الفترة من الحرب الأهلية حتى استعادة الملكية تم تسجيلها جميعاً في المطبوعات المعاصرة التي تتناول عادةً القضايا السياسية الإنجليزية مع أوجه التشابه بالتاريخ العثماني المعاصر¹.

ظهرت في سنة 1649م - في نفس السنة التي أعدم فيها الملك تشارلز الأول - النسخة الإنجليزية الأولى من القرآن الكريم، وفي نفس السنة ظهرت طرقة فرنسية بباريس؛ إذ نُسجِح حوار خيالي بين شعبي تشارلز الأول والسلطان إبراهيم الأول - كلا الملكين تم إعدامهما من طرف المقربين منهما في تاريخ متقارب - يتنزهان في شارع الشانزليزيه (Champs Elysée)؛ حتى في فرنسا كانت أحداث السياسة الإنجليزية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسياسة العالمية².

ظهر سنة 1656م كتاب: تأملات سياسية حول حكومة الأتراك (Political Reflections Upon the Government of the Turks) للكاتب الإنجليزي فرانسيس أوزبرن (Francis Osborne)³ ، وفي سنة 1660م كتب مجهول من وكلاء الإنجليز بإستانبول أشار لنفسه بـ (M. B) رسالة من هناك عنوانها: تعلّم من الترك أو تعليمات وارشادات مرسله من الجيش التركي بالقسطنطينية إلى الجيش الإنجليزي بلندن بإخلاص ونزاهة (Learn of a Turk, or, Instructions and advise sent from the Turkish Army at Constantinople, to the English Army at London faithfully and impartially communicated) نصح فيها الجيش الإنجليزي بالتعلّم من الترك ورحّب بالعودة إلى الملكية، وأياً يكن هذا الشخص فقد أثبت العثمانيون أنفسهم بأنهم نموذج تسعى الدولة الإنجليزية إلى الاقتداء به⁴.

قراءة المناشير ومناقشة القضايا السياسية في حينها والتي جرت عادة بالمقاهي، يثير سؤالاً عن قصة كيف وصلت القهوة والمقاهي إلى مسرح الأحداث بلندن وأكسفورد غالباً خلال سنة 1650م؟ أشاد الفيلسوف الألماني وعالم الاجتماع المعاصر يورغن هابرماس (Jürgen Habermas)⁵

¹ - Ibid, P58.

² - Loc.cit.

³ . فرانسيس أوزبرن (1593-1659): رغم سمعته الأدبية الكبيرة إلا أن تفاصيل سيرته الذاتية غير معروفة. كان من أنصار البرلمانيين ولم يكن ملكياً؛ نزعته الإلحادية جلبت له انتقادات كثيرة؛ سنة 1658م قدم رجال الدين بجامعة أكسفورد التماساً إلى نائب رئيس الجامعة لحرق كتاب أوزبرن الأكثر شعبية نصيحة لابن (Advice to a son) الذي نشر سنة 1656. فرفض الطلب. ينظر: David Thomas and others: Op.cit, P336-337.

⁴ - Loc.cit.

⁵ . يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) (-1929): فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر. يعتبر هابرماس الفيلسوف الألماني الأكثر أهمية في النصف الثاني من القرن العشرين؛ تم تعريف هابرماس مفكراً اجتماعياً وسياسياً مؤثراً بشكل كبير =

بملياد المجال العام الحديث بقوله: مكان تبلورت فيه المؤسسات الديمقراطية الأولى، وأصبح الناس فيه قوة سياسية للتغيير، اعتبر هابرماس هذه المؤسسات (المقاهي) كإبداع إنجليزي¹. فهل حقا كان كذلك؟ سيكون من الأدق فيما يتعلق بثقافة المقاهي الحديث عن أصول الحداثة العثمانية أكثر من الحداثة الإنجليزية؛ كانت القهوة والمقاهي الإنجليزية استيراداً عثمانياً؛ جاءت القهوة إلى الدولة العثمانية من اليمن في شبه الجزيرة العربية وغالباً عبر مصر، وكانت مصدراً مربحاً لعائدات الضرائب عندما فتح سوريان أحدهما من حلب والآخر من دمشق أول مقهى بإستانبول سنة 1554/961م بالقرب من مسجد رستم باشا²، كانت القهوة التي تشرب في الأماكن العامة سمة من سمات الحياة الإسلامية منذ عدة عقود.

كان هناك مقهى بمكة بحلول سنة 917هـ/1511م، وآخر بالقاهرة بحلول سنة 939هـ/1532م. ابتداء من عهد سليمان الثاني (1098-1103هـ/1687-1691م) تم فرض ضريبة إضافية على بيع القهوة، في بداية القرن السابع عشر أعرب الرحالة في إستانبول وإزمير وحلب من أمثال يليام بيدولف (William Biddulph)³ عن دهشتهم في الطمأنينة التي يشرب بها المسلمون الشراب الداكن والمر المسمى "coffa" أو "cauphe" بدلاً من النبيذ أو المشروبات الكحولية الأخرى في سنة 1657م أي بعد خمس سنوات من افتتاح أول مقهى بلندن نُشِرَ كتيباً يمتدح الخصائص الطبية للبن والتبغ وفوائدهما الصحية واللذان قد وصلا لملء الرئات - جمع رئة - الإنجليزية من مستعمرات العالم الجديد⁴.

أصبحت المقاهي شائعة في المدن الإنجليزية خلال أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن

مع النظرية الاجتماعية النقدية التي طورها في العشرينات من القرن العشرين بمعهد الأبحاث الاجتماعية في فرانكفورت أم ماين (Social Research in Frankfurt am Main) بألمانيا، والمعروف أيضاً باسم مدرسة فرانكفورت. أثرت أعماله بقوة على العديد من التخصصات بما في ذلك دراسات الاتصال والدراسات الثقافية والنظرية الأخلاقية والقانون واللغويات والنظرية الأدبية والفلسفة والعلوم السياسية والدراسات الدينية وعلم الاجتماع والنظرية الديمقراطية. ينظر:

Martin Beck Matustik: **Jürgen Habermas German Philosopher**, Encyclopedia Britannica

<https://www.britannica.com/biography/Jurgen-Habermas> ,

¹ - Gerald MacLean: Op.cit, P58.

² - Loc.cit

³ - ويليام بيدولف (1599-1609م): مرشد بروتستانتى عيّنته حكومة بلاده قسيساً للإنجليز المقيمين بحلب. زار وليام كل

من الجزائر وطرابلس الغرب، والإسكندرية، ودمشق، والقدس. توفي بإنجلترا. ينظر:

Olivier Salmon : **Alep dans la littérature de voyage européenne pendant la période ottomane (1516-1918)**, Tom 2, Alep, Syrie, 2011, P801.

⁴ - Gerald MacLean: Op.cit, P59.

عشر، وعندما أطلق كل من ريتشارد ستيل (Richard Steele)¹ وجوزيف أديسون (Joseph Addison)² نشرتهما الدورية [سنة 1709، 1711 على التوالي] توقع كل منهما أن تقرأ مجلتيهما (Tatler) و (The Spectator) خلال العقد الأولين من القرن الثامن عشر بصوت مرتفع بالمقاهي وأن يتم مناقشتها علناً³.

الأصول العثمانية في المقهى لم تختف بين عشية وضحاها؛ حملت العديد من المقاهي أسماء من مثل "رأس الترك" (the Turk's Head)، وفي بعض الأحيان كان المالكون يرتدون زي الأتراك أو العرب، بل وفي بعض الحالات كان هؤلاء المالكين من المشرق، كان من المؤلف أن ترى حتى عملاء المقاهي الإنجليز يرتدون عمامة؛ في الواقع أصبحت العمامة العثمانية بديلاً مألوفاً عن الشعر المستعار في كل مكان من قبل الرجال بعد استعادة الموضة، تظهر صور العديد من الكُتّاب والفنانين وهم يرتدون العمامة⁴، بذلك يكون للعثمانيين دور في صناعة الرأي العام الأوروبي.

عندما زارت السيدة ماري وارثلي مونتاجي (Mary Wortley Montagu)⁵ الحمام النسائي

¹. ريتشارد ستيل (Richard Steele) (1672-1729م): صحفي إيرلندي من عائلة بروتستانتية نبيلة. التحق بالمدرسة العريقة (Charterhouse) بلندن حيث التقى صديقه ورفيق دربه جوزيف أديسون (Joseph Addison)، حيث أصبحا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بمقهى الطفل بلندن. سنة 1709 أصدر ريتشارد مجلّة (The Tatler)، التي اشتهرت بكامل أوروبا. كانت المجلة تستقي أخبارها من حديث المقاهي وتصدر ثلاث مرات في الأسبوع، بعدها أصدر مع زميله جوزيف صحيفة (The Spectator)، ثم مجلة (the Guardian). أصبح ستيل عضواً بالبرلمان سنة 1713، 1715 تقاعد سنة 1724 بمنزل زوجته إلى وفاته. ينظر:

Sir Richard Steele: **Richard Steele**, T. Fisher Unwin, London, 1894, P VIII, IXIX.

². جوزيف أديسون (Joseph Addison) (1672-1719): كاتب وشاعر ومسرحي إنجليزي. زميل ريتشارد ستيل، وأحد المساهمين معه في انشاء مجلات (The Tatler) و (The Spectator). انخرط في العمل الحكومي وانتمى لحزب الأحرار. فوز حزب الأحرار مجدداً سنة 1705 أعطاه مكان قوية في السلطة خدم بها نفسه وصديقه ستيل؛ حيث عين وكيل وزير الخارجية وقد بدأ يساعد صديقه ستيل في كتابة المسرحيات من سنة 1705، كما ساهم في تعيين صديقه ستيل رئيس تحرير الجريدة الرسمية (London Gazette). انتخب سنة 1708 بالبرلمان. ثم اعانه في مجلة (The Spectator) التي كانت تصدر ست مرات في الأسبوع. ألف ايديسون أحد أنجح مسرحياته (tragedy Cato). تم تعيينه في أبريل سنة 1717م وزيراً للخارجية، غير أنه استقال في العام التالي بسبب المرض. بسبب النزاع حول مشروع قانون لتقييد طبقة النبلاء، اتخذ هو وصديق طفولته ستيل ريتشارد وجهتين مختلفتين فصلت بين الصديقين خلال السنة الأخيرة من حياة أديسون. ينظر:

Donald F. Bond: **Joseph Addison**, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Joseph-Addison> .

³ - Gerald MacLean: Op.cit, P59.

⁴ - Loc.cit.

⁵. ماري وارثلي مونتاجي (Mary Wortley Montagu) (1689-1762): كاتبة وشاعرة إنجليزية، أصيبت في صدر شبابها بالجذري وفي سنّها الأخيرة بالسرطان. عاشت فترة بالقسطنطينية بوصفها زوجة السفير البريطاني فيها، فهتمت الإسلام ووقفت منه موقفاً مستنيراً. أشهر آثارها: رسائل من الشرق نشرت سنة 1763م بعد وفاتها. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 443.

في مدينة صوفيا (Sofia) [عاصمة بلغاريا حالياً] في سنة 1717م كانت متحمسة لفكرة وجود مساحة عامة يمكن للنساء فيها الاجتماع كما يفعل الرجال لتبادل "كل أخبار المدينة" معتبرة الحمامات النسائية مقاهي للنساء حيث يتم تداول جميع أخبار المدينة، وخلصت بحماس إلى أنّ المرأة العثمانية بعيدا عن كونها مظلومة من قبل المستبد التركي، تتمتع بقدر من الحرية أكبر من النساء الإنجليزيات. كما أنّها صوّرت نفسها في "عاداتها التركية" وهي عبارة عن ثوب حريري مزخرف بشكل متقن يمكن رؤيته في متحف فيكتوريا (Victoria) وألبرت (Albert)¹.

اتخذت المؤثرات العثمانية على الثقافة الإنجليزية من خلال استعادة الحكم الملكي وتنصيب تشارلز الثاني، بوضوح العديد من الأشكال المختلفة التي ساعدت على تشكيل الشخصية الوطنية والشعور - بعد الاتحاد مع اسكتلندا سنة 1707م وولادة بريطانيا العظمى - بمكانة إنجلترا في العالم بالقرن الثامن عشر، عادت المناقشات حول الشؤون العثمانية بشكل يعيد النظر في الموضوعات الكبرى² المنسجمة مع رغبة بريطانيا العظمى وطموحها من وجهات النظر السياسية الجديدة³.

الأشكال الأدبية التي تطورت في العقود التالية لاستعادة الملكية، كان هناك شيء من الدلالة على العناصر العثمانية والإسلامية؛ يظهر ذلك في جميع أنحاء الدراما البطولية لجون درايدن (John Dryden)⁴ وغيره، فكلمًا وُجِدَت الفراغات الوهمية للإمبراطورية المنشودة يتم ملؤها بالأباطرة المسلمين والمغول؛ في رواية أرونوكو (Oroonoko) تتخيل أفرا بان (Aphra Behn)⁵ حياة ملك غربي

¹ - Gerald MacLean: Op.cit, P59.

² . في سنة 1660م كانت الخلافات مستمرة حول معاني الحرية والاستبداد في التسوية السياسية الجديدة؛ بالنسبة إلى الملكيين وأصحاب حكم الكفاءات كانت الهياكل العسكرية المتعددة الأعراق التابعة للإمبراطورية العثمانية غير السوية تشبه إلى حد كبير الجمهورية الإنجليزية المهزومة مؤخراً التي قادها طاغية يدعى أوليفر كرومويل (Oliver Cromwell) الذي يشبه جيشه الإنكشارية نخبة الجيش العثماني، وفقا للملكيين، أعاد تشارلز الملكية إلى أمة عانت طويلا من الطغاة الملحد الذين يشبهون جدا أولئك الذين حكموا من إسطنبول. ينظر: Ibid, P60.

³ - Loc.cit.

⁴ . جون درايدن (1631-1700): شاعر وناقد وكاتب مسرحي إنجليزي، يعتبر أبا للنقد الإنجليزي تميّز أسلوبه النثري باليسر والوضوح ومن أجل ذلك عُدَّ "أول كاتب إنجليزي حديث". ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 187.

⁵ . أفرا بان (1640-1689م): كاتبة مسرحية وروائية وشاعرة إنجليزية، كانت أول امرأة إنجليزية معروفة تكسب رزقها بالتأليف والكتابة. وظّفت من قبل الملك تشارلز الثاني في الاستخبارات بحلول سنة 1666. كتبت العديد من المسرحيات والروايات، أشهر أعمالها روايتها القصيرة أرونوكو (Oroonoko) سنة 1688م؛ تروي قصة أمير إفريقي مستعبد زعمت أفرا بان أنّها عرفته بأمريكا الجنوبية. ساعد ارتباطها بموضوعات العبودية والعرق والجنس على تطوير الرواية الإنجليزية ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Aphra Behn**, Encyclopaedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Aphra-Behn> .

إفريقي وتشببهه بحياة ذلك السلطان العثماني المكتملة بمؤامرات القصر والحريم والرقص المثير، وأحياناً تصوّر الدولة العثمانية كنموذج للاستبداد الأبوي والطغيان، كانت دولة العثمانيين أيضاً موقعاً للحريات التي لا يمكن تصورها بإنجلترا؛ هذا ما وصفته السيدة ماري وارثلي مونتاجي عندما صحت "التقدير المثالي أو الغباء الشديد لكل الكُتّاب الذين قدموا مذكرات رحلاتهم"، وصرّحت قائلة: "إنني أنظر إلى النساء التركيات باعتبارهن الشعب الحر الوحيد في الإمبراطورية"¹.

بين القرنين العاشر والثاني عشر الهجري/السادس عشر والثامن عشر الميلادي حينما نظر الإنجليز شرقاً إلى الدولة العثمانية فإنّ ما رأوه بانتظام كان نموذجاً للحليف الاستراتيجي ضد الإسبان، وهو نموذج للحكم الاجتماعي والسياسي الذي كثيراً ما يجلب العار لنفسه، وهي إمبراطورية تبدو وكأنّها تعمل بدون عناء للسيطرة على الأراضي والبحار الشاسعة، بالإضافة إلى كونها نموذجاً للثقافة والحضارة ومصدراً للسلع الكمالية التي أصبحت أساسية بشكل متزايد للحياة اليومية الإنجليزية، وفي الوقت نفسه كانت هناك وجهات نظر أخرى استمرت في تصعيد الخلافات الدينية إلى مسائل للطعن والعداء، والتي اعتبرت العثمانيين براءة متغطرسين، مستنزيين لمواردهم الخاصة، وكوكلاء للشيطان في سعيهم للإطاحة بالدين المسيحي، وهذا في الواقع يمثّل البنية المتناقضة المميّزة للحسد؛ أي الاعتراف بتميّز الآخر اعترافاً يميل إلى توليد الكراهية الخبيثة².

فلسفة الاقتباس الإسلامي من الغرب

نعلم بالعودة إلى الجانب العثماني أنّ المسلمين في الفترة الكلاسيكية اعتبروا أنّ أي شيء يأتي من العالم المسيحي (من أوروبا التي وصفوها بكفرستان [بلد الكفار]) مثيراً للاشمئزاز، اعتبرت الدوائر المحافظة تقليد الإفرنج (الأوروبيين) تجديفاً وكفراً، حدث التغيير الأول في الموقف تجاه الحضارة الأوروبية بعد معاهدة كارلوفيتز سنة 1110هـ/1699م والتي وثقت الهزيمة العثمانية ضد أوروبا، بقدر ما يتعلق الأمر بتبادل العناصر الثقافية وهي عملية مستمرة بين جميع الثقافات، فإننا نعني بالعناصر الثقافية جميع الأشياء الثقافية من الأسلحة إلى الأزياء والإدارة العامة، بالرغم من أنّ العثمانيين قبلوا العناصر التقنية فقط حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، فقد بدأوا بعد ذلك بالاقتراب من الغرب في أمور الإدارة والقوانين وحتى العادات³، ودون ضابط في الكثير من الأحيان تعبيراً عن حالة الضعف والوهن التي تلبست بهم بعد كارلوفيتز.

1 - Gerald MacLean: Op.cit, P61.

2 - Loc.cit.

3 - Halil Inalcik: Op.cit, P141-142.

نجد النظر في أولئك الذين يفصلون بين العناصر الثقافية وأنظمة القيم، وبعبارة أخرى ما تعلق بالهوية الدينية وما كان محايداً، إن رفض العناصر التي تحدد الهوية الثقافية للغرب قوي خاصة في فترة الانهيار، يمكننا وضع جميع الوسائل التقنية والتكنولوجية والعلوم الإيجابية ضمن الفئة المحايدة؛ كل ما تعلق بهذه الفئة من تصنيع الأسلحة وصك العملة إلى إدارة الجمارك وغيرها لم يخشى العثمانيون خلال فترة توسعهم ولم يترددوا في اقتباسها من الغرب؛ منذ البداية لم يترددوا في تبني ابتكارات تساعد على زيادة كفاءتهم العسكرية، من ناحية أخرى فإن التقنيات التي نسميها محايدة وأولئك الذين يستخدمونها يدخلون في عملية التثاقف مع أصحاب تلك التقنيات؛ الطبقة العثمانية العليا عندما تتبنى الاتجاهات الثقافية الغربية فإنها في نفس الوقت شغنا أم أينا بدأت أيضاً في تقليد العادات المتعلقة بأسلوب الحياة، ولهذا السبب ظهرت في نفس الفترة ردود الأفعال الجماهير التقليدية والمحافظة من الناس¹. إذ لا يمكن غالباً استيراد عالم الأشياء بعيد عن عالم الأفكار.

العلماء المسلمين الذين أجازوا الإصلاحات اعتمدوا على توسيع مفهوم الاستفادة من الأسلحة والأدوات لتشمل جميع أنواع الوسائل والعلوم والتقنية ضمن مبدأ إجازة كل ما من شأنه جلب مصلحة لفائدة بقاء الإسلام والمجتمعات الإسلامية، منذ نشأت الدولة العثمانية دخلت في عملية التثاقف مع أوروبا وفقاً لذلك المبدأ؛ تم تحويل التراجع في الروم إيلي (Rumelia) ضد غزو الصليبيين سنة 848هـ/1444م إلى حالة من الذعر في صفوف العدو؛ فالحكام العثمانيين لم يترددوا في تبني أسلحة وتكتيكات الحصم في ذلك الوقت؛ فتكتيك حرب حصن العربات (wagenburg)²

¹ - Ibid, P142.

² . قلعة العربة الألمانية (Wagenburg) وبالتركية طابور (tabur) وبالجزرية (szekér tábor) قلعة أو حصن العربة عبارة عن ترتيب دفاعي لعربات الحرب المربوطة ببعضها البعض بالسلاسل، محمية بواسطة درع خشبي ثقيل. كانت هذه "المركبات المدرعة" المتأخرة في العصور الوسطى محصنة برمادة السهام والمدافع البدوية وهي تحمي من هجوم الفرسان. استخدم لأول مرة في الحرب الأهلية البوهيمية بعد 1419م من قبل الهوستيين (Hussites) (أتباع اللاهوتي الإصلاحية يان هوس (Jan Hus) و (1369-1415م))، تم تقديم تكتيك قلعة العربة إلى العثمانيين من قبل المجريين خلال (1443-1444م). حملة البلقان للبطل الوطني المجري يانوس هونيادي (János Hunyadi) (1407؟ -1456). قام هونيادي، الذي كان حينها حاكم ترانسيلفانيا (كانت حينها مقاطعة حدودية في شرق المجر الآن في رومانيا)، باستعمال حوالي 600 عربة يديرها مرتزقة تشيكيين ضد الأتراك العثمانيين وبحلول نهاية النزاع عرف العثمانيون كيفية محاصرة طابور أي قلعة العربة المسيحية، وهو ما يسمى بالمصادر العثمانية بعد الاستخدام المجري (szekér tábor) أو معسكر العربة في معركة فارنا (Varna) (10 نوفمبر 1444م) هزم العثمانيون جيش الصليبيين واستولوا على حصن عربات الحرب والاسلحة المسيحية في حين أن السرعة التي عدل بها العثمانيون طريقتهم في القتال إلى تكتيكات خصومهم المسيحيين أمر لافت للنظر. ينظر: Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P587.

على سبيل المثال اعتمد في ذلك الوقت وأصبح واحداً من أهم عوامل الفتوحات العثمانية¹.

تأثيرات القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي

لعبت فئة الكتاب من أهل القلم دوراً تثقيفياً واضحاً في التاريخ العثماني؛ فبينما حاول العلماء أن يضمنوا التكامل التام مع أحكام الشرع، كانت فئة الكتاب عُرضةً لأفكار براغماتية مثل الاحتياجات الوشيجة للدولة والمجتمع؛ بالنسبة لفئة الكتاب وخاصة بعد سنة 1112هـ/1700م كان اتخاذ جميع أنواع التدابير لتوفير الأمن وتحسين الدولة أكثر أهمية من أي شيء آخر، وحتى ذلك الوقت كان يتم توفير الأسلحة والمرافق الدفاعية والأساليب العسكرية من خلال أساليب عملية تمثلت في التدريب المهني، لكن لاحظ الإصلاحيون من فئة الكتاب في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي أن هذا لم يكن كافياً، فعرض الفرنسيون الذين كانوا يبحثون عن حليف في الشرق ضد هابسبورغ والروس على كبار المسؤولين العثمانيين في ذلك الوقت استعدادهم لنقل وتدريب التكنولوجيا الغربية وبالتالي لعبت المصلحة السياسية والعسكرية للغرب أيضاً دوراً مهماً في التغريب العثماني، تم تقديم العلوم الإيجابية المطورة في أوروبا لأول مرة كخدمة ضمنَ التدريس النظامي في مدارس الهندسة².

يعتبر القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي فترة توازن، وبشكل أكثر دقة عصر توازن القوى في التاريخ الأوروبي؛ قَبْلَ كل من العثمانيين والأوروبيين شروطاً متساوية ورغبوا في التعرف على ثقافات بعضهم البعض بعد هزيمة فيينا في سنة 1094هـ/1683م، في النمسا تم استخدام الزخارف التركية في الفنون البسيطة والهندسة المعمارية وما تعلق بالحياة اليومية، العثمانيون بعد هزيمة فيينا انفتحوا بوعي لأول مرة على الغرب وتقبلوا التفوق التقني للغرب وأرسلوا سفراء إلى الدول الأوروبية لفترات زمنية أطول، ليس فقط للحوار السياسي ولكن أيضاً لتوفير المعلومات في مجالات التكنولوجيا والعلوم والثقافة³، أرادوا إلى حد ما "أوربة" جزء من الحياة العثمانية لعلها تعالج بعض أزماتهم المتفاقمة سيما في الجانب العسكري.

أرسل السلطان أحمد الثالث السفير محمد جليبي⁴ سنة 1133هـ/1721م إلى بلاط الملك لويس

¹ - Halil Inalcik: Op.cit, P143.

² - Ibid, P144-145.

³ - Günsel Renda: Op.cit, P11-12.

⁴ - محمد جليبي يرميسركز (1660-1732م): كان ابن الجورجي سليمان آغا رئيس مرابي كلاب صيد السلطان [زغارجي] وهي وظيفة مهمة داخل الإدارة العثمانية بسبب قربها من السلطان. وكان والده عثمانيا وليس مستجلبا وفق نظام الدفشمرة. انضم إلى سلك الإنكشارية ولأنه انضم إلى الكتيبة 28 عرف باسم يرميسركز (Yirmisekiz) [رقم 28]. تمت ترقيته إلى رتبة عقيد وكبير ضباط البلاط ثم تم تعيينه مشرفاً على مسبك المدفع. كتب يرميسركز الشعر تحت الاسم المستعار فايز (Feyzi)=

الخامس عشر بفرنسا؛ بالإضافة إلى واجباته الدبلوماسية، لاحظ محمد جلبي التطورات العسكرية والتكنولوجية وشارك في الأنشطة الاجتماعية والثقافية، وألّف كتاب (سفرنامه) عند عودته إلى إستانبول، كما جلب محمد جلبي من فرنسا كتباً تتعلق بالهندسة المعمارية وبعض المخططات والرسومات. هذه النقوش والرسومات مع شروحات باللغة التركية العثمانية وخاصة تلك المتعلقة بقصر فرساي والحدائق محفوظة الآن في متحف قصر توبكابي¹.

تشير المصادر إلى أن محمد جلبي أبدى بفرنسا اهتماماً بالموسيقى، وحضر الأوبرا والحفلات الموسيقية. وقد أثارت زيارات كل من محمد أفندي وابنه سعيد أفندي² الذي تم إرساله مع البعثة نفسها بعد عشرين عاماً في سنة 1154هـ/1742م، اهتماماً كبيراً في باريس بالهدايا التي قدموها والأزياء التي ارتدوها إلى جانب عاداتهم، وتسببت هذه الزيارات في أن يصبح الفرنسيون أكثر قرباً من الأتراك، أصبحت الموضوعات التركية منتشرة في الأدب وفنون المسرح والرسم والديكور، وخاصة الروايات والباليه والأوبرا التي تصور الشخصيات التركية في الديكورات الرائعة³.

تركت العلاقات الدبلوماسية والتجارية والثقافية الجديدة التي أقيمت مع الدول الأوروبية في القرن الثامن عشر بصمات عميقة في البيئة الفنية العثمانية؛ العديد من الكتب والأغراض من أصل أوروبي وصلت إلى القصر، إلى جانب ذلك تم نقل العديد من الهدايا والنقوش والمخططات

في سنة 1718م شهد توقيع معاهدة باساروفيتش كمندوب مفوض ثاني تم تعيينه كأول سفير عثماني في باريس في 29 أوت 1719م. كانت أهم مؤهلاته كونه عثمانياً ذا خلفية إنكشارية؛ رجل متعلم ولديه خبرة اقتصادية، وواحد ممن لهم خبرة بالغرب كدبلوماسي عثماني سابق، كان لديه معرفة بالعلوم الدينية مع القدرة على فهم العلوم الفيزيائية. [توفي بقرص] ينظر:

Fatma Müge Göçek: **East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century** (Studies in Middle Eastern History), Oxford University Press, New York, Oxford, 1987, P12.

Ebru Boyar and Kate Fleet: **A Social History of Ottoman Istanbul**, 1 Edt, Cambridge University Press, New York, USA, 2010, P XIX.

¹ - Günsel Renda: Op.cit, P12.

² . محمد سعيد أفندي (1696-1761م): رجل دولة ودبلوماسي عثماني، رافق والده محمد جلبي يرميسر في سفارته إلى باريس سنة 1720/1721م وكان سكرتيره الشخصي وتفاعل مع المجتمع الفرنسي أكثر من أبيه، تولى الصدارة العظمى لمدة قصيرة من 25 أكتوبر 1755م إلى 1 أبريل 1656م، وقد تمّ إيفاده في سفارة ثانية إلى باريس سنة 1742م، وتولى بعثة دبلوماسية أخرى إلى السويد وبولندا سنة 1733م، افتتح سنة 1726م أول مطبعة عثمانية تنتج كتباً بالحروف العربية مع شريكه إبراهيم متفرقة (1674-1747). ينظر كل من:

Ebru Boyar and Kate Fleet: Op.cit, P 69.

Feza Günergun and Dhruv Raina: **Science between Europe and Asia: Historical Studies on the Transmission, Adoption and Adaptation of Knowledge**, Boston Studies in the Philosophy and History of Science, Vol 275, Springer Science & Business Media, London, New York, 2010, P111.

³ - Günsel Renda: Op.cit, P12.

والتصاميم المعمارية من فرنسا من قبل السفراء محمد جلبي وسعيد أفندي، كما طلب الصدر الأعظم إبراهيم باشا¹ من السفير الفرنسي ماركيز دو بوناك (Marquis de Bonnac)² الحصول على التصاميم والمصوّرات المعمارية الفرنسية، والتي كان معظمها متعلقاً بقصر فرساي، مما ترك أثراً كبيراً على المباني التي شيدت خلال عهد التوليب، مثال على ذلك نجده في قصر السعادة الذي بدأ بناؤه بالقرن الذهبي سنة 1722 والذي يمكنه منافسة القصور الفرنسية³.

غير أنه لم تحدث تغييرات كبيرة بعمارة المساجد، بشكل أكثر دقة لم تتغير المخططات ولكن ظهر التغيير بالواجهات الخارجية والأبواب والنوافذ وعلى المنافذ والزوايا الداخلية للمناير حيث نصادف زخارف منحنية على الأسلوب الباروكي والروكوكو الأوروبي وكذا أصدافاً وخرائيشاً، يُعد مسجد نور عثمانية (Nuruosmaniye Camii) المبني في الفترة (1748-1755) هو المسجد الوحيد من بين المساجد الذي يظهر فيه هذا الأسلوب ويسمى غالباً "الباروك العثماني"، لا شك أن هناك حاجة إلى فترة زمنية محددة لأي تغيير هيكلية في العمارة العثمانية التي كان لها تقليدها العريق⁴.

كانت هناك حاجة أيضاً إلى فترة انتقالية لفن الرسم العثماني؛ فقد جلبت الحاجات والأذواق

¹ . داماد إبراهيم باشا نوشهري (Nevşehirli) (1666-1730م): الصدر الأعظم العثماني، ولد بمدينة نوشهر [في منطقة الأناضول الوسطى بتركيا] فنسب إليها. ترقى تدريجياً إلى أن استدعي في عهد السلطان مصطفى الثاني إلى قصر أدرنة حيث أتيحت له الفرصة للتعرف على الأمير أحمد ويصبح محل ثقته وأمين سره. بعد أحداث سنة 1703م عاد إلى إستانبول مع أفراد الأسرة الحاكمة ليعين إبراهيم أفندي ككاتب بدار السعادة، وظيفة ظل بها ستة سنوات، شغل منصب وكيل وزاري في الشؤون الإدارية شارك بمعركة (Petervaradin) سنة 1716م ضد النمسا، ترقى بعد ذلك إلى أن صار برتبة وزير. وتزوج بفاطمة سلطان بنت السلطان احمد الثالث ليمنح لقب دامادا (أي صهر السلطان) ثم تولى الصدارة العظمى سنة 1718م، استطاع خلالها عقد معاهدة سلام مع النمسا في 21 جويلية 1718م معاهدة (Pasarofça)، والالتفات إلى الإصلاحات الداخلية وإصلاح مالية الدولة وبدأت التأثيرات الأوروبية بقوة فيما يسمى بعصر التوليب (1718-1730م)؛ غير أن الحروب مع إيران وروسيا والبذخ الذي سارت عليه الدولة على حساب الشعب ومعارضة المحافظين لحركة التغريب أنتج ثورة الألباني الباترونا خليل سنة 1730م التي أنهت حكم أحمد الثالث وصدرة الأعظم إبراهيم باشا الذي قتل بالقصر السلطاني في نفس العام ونصب السلطان محمود الأول. ينظر:

Münir Aktepe : **Damad İbrahim Paşa, Nevşehirli (ö. 1143/1730), Osmanlı sadrazamı, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 8, 1993, sayfa 441-443.**

² . ماركيز دو بوناك (1672-1738م): دبلوماسي فرنسي. كان سفيرا لفرنسا على التوالي في: مملكة السويد وبولندا ومملكة إسبانيا بين (1711-1713)، سفيرا في الدولة العثمانية بين (1716-1724) وسويسرا بين (1726-1733). ترك مذكرات حول سفارته بالقسطنطينية. ينظر:

Charles Henri Auguste Schefer : **Mémoire historique sur l'ambassade de France à Constantinople** par Le Marquis De Bonnac : publié avec un précis de ses négociations à la Porte Ottomane, Ernest Leroux, Paris, 1894, P V, LXVIII.

³ - Günsel Renda: Op.cit, P14-15.

⁴ - Ibid, P15.

الجديدة التي تطورت مع الاهتمام الذي أثاره الفن الأوروبي في دوائر القصر العثماني، جلبت نكهة جديدة إلى فن الرسم، ولا شك أن الفنانين الأوروبيين الذين أثبتوا أنفسهم بالعاصمة العثمانية كان لهم تأثير بالغ في خلق بيئة فنية جديدة من حيث التقنية ومحتوى اللوحة المرسومة؛ تم استبدال المنمنمات العثمانية¹ بشكل تدريجي بلوحات الرسومات المائية، والأهم من ذلك تم إدخال الرسم المنظوري² على المنمنمات، كما شمل التغيير الموضوعات أيضاً؛ تم استبدال المنمنمات ذات الموضوعات التاريخية بقصص ذات محتوى خفيف ومشاهد من الحياة اليومية والمناظر الطبيعية والبورترية والتركيبات الزهرية³، يتكفل الفن غالباً بتغيير الأذواق وقد ينجر على هذا التغيير تغيير في العادات.

التطور الأهم الذي لوحظ بالرسم العثماني في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي هو إدخال اللوحات القماشية؛ جميع السلاطين الذين حكموا خلال النصف الثاني من هذا القرن كانت لوحاتهم مرسومة بالزيت على قماش، علاوة على ذلك وبدءاً من السلطان سليم الثالث قام السلاطين بتوزيع صورهم الخاصة؛ فقد علم السلطان سليم الثالث أن الحكام في أوروبا تبادلوا صورهم كهدايا فاتخذ لنفسه صورة خاصة منقوشة، وكانت توزع على كبار الشخصيات في الإمبراطورية والحكام الأوروبيين والسفراء وقد تم إرسال نسخة منها إلى نابليون⁴.

النظر إلى العلاقات الأوروبية العثمانية على مر القرون يشير بوضوح إلى أن العلاقات الثقافية بقيت بثبات وراء التطورات السياسية والاقتصادية، مع ذلك فإنه من بين بقية المجتمعات الإسلامية كان العثمانيين دائماً أقرب صلة مع العالم المسيحي الغربي، إن الطريقة التي تنعكس بها هذه العلاقات في الفن والثقافة منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي تظهر اختلافات وفقاً للتحالفات السياسية والانتصارات والهزائم، والعلاقات الدبلوماسية وحتى الشخصيات الراحية للفن⁵.

مع ذلك حافظت العلاقات الثقافية الأوروبية العثمانية على طابعها الأحادي، وبصورة أدق

¹ - هو فن رسم صور ذات مقاسات صغيرة ومنفذة بألوان حارة تناسب الرسائل والمخطوطات القديمة. ينظر: علي عبد الله مرزوق: "المهرجان العربي للأعمال الفنية الصغيرة"، مجلة الفيصل، العددان 385-386، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية 1 جويلية 2008، ص 92.

² - الرسم المنظوري هو فن عرض الأجسام المشاهدة على سطح مستو بوضعية ثلاثية الأبعاد كما تراها العين وفق شروط معينة. حول الرسم المنظوري ينظر:

Carillan-Goery et Dalmont : **Applications de la géométrie descriptive aux ombres, à la perspective, à la gnomonique et aux engrenages** par Théodore Olivier, Vol11, Carillan-Goery et Dalmont, Paris,1847, P161.

³ - Günsel Renda: Op.cit, P15.

⁴ - Ibid, P16.

⁵ - Ibid, P20.

لم يكن هناك تأثير أوروبي عميق في الثقافة والفن العثمانيين حتى القرن الثامن عشر غير أنه بعد القرن الثامن عشر حاول كل من العثمانيين والأوروبيين أن يكونوا أكثر قرباً من بعضهم البعض بشروط متساوية، وكانوا أكثر إلهاماً لبعضهم البعض؛ التأثير الأوروبي الذي يخرق الفن العثماني بالتوازي مع موضحة التتركة (Turquerie) النامية في أوروبا هو مؤشر ملموس على هذه العلاقات دفعت الموازين السياسية في القرن التاسع عشر العثمانيين إلى التغريب المكثف وكانت الثقافة الأوروبية أكثر تأثيراً، إنها حقيقة أن التفاعلات الثقافية العثمانية الأوروبية التي تطورت عبر التاريخ ساهمت بمحتوى غني لكل من الفن الأوروبي والعثماني وتشير إلى أن الثقافات المختلفة يمكن أن تخلق توليفات قوية¹.

كانت تلك جولة موجزة للتأثيرات العثمانية الأوروبية المتبادلة وهي مهمة لفهم البيئة التي أدت إلى التطورات التي حدثت في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي بعد معاهدة كارلوفيتز التي تعتبر نقطة تحوّل في التاريخ العثماني خاصة وفي تاريخ العالم الإسلامي بشكل عام، وهي أيضا نقطة تحوّل في العلاقات الأورو عثمانية من حيث كونها فتحت الباب واسعا للتيار التغريبي الذي أصبح أعضاء فئمة الكتاب من أهل القلم كما سنرى قاداته الجدد، خاصة مع وجود أولى السفارات العثمانية الدائمة بالعواصم الأوروبية بداية من القرن نفسه.

قبل الحديث عن التوجّهات العثمانية الجديدة التي ارتكزت على الانفتاح على أوروبا والاقتراب منها سيما في المجال العسكري بداية من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، إلى محاولة النّسج على منوالها وصولاً إلى علمنة الدولة والمجتمع في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي، نأخذ جولة سريعة فاحصة في أدب الرحلات الأوروبي لنرى كيف رأى الرحالة الأوروبيون هذه الدولة التي امتلأوا منها رعباً ونسجوا حولها الأساطير، وكانت رجُلهم القوي المرعب قبل أن تصبح رجلهم المريض.

¹ - Loc.cit.

المبحث الثالث: العثمانيون في عيون الرحالة

أسباب ودوافع ازدهار أدب الرحلات

الرحالة الإيطاليين الأربعة

موجز للعلاقات العثمانية الإنجليزية

الرحالة الإنجليز الأربعة

لطالما كانت الدولة العثمانية مركز جذب للغرب طوال تاريخها، ولأسباب مختلفة زارها المسافرون الغربيون، وألّفوا ونشروا عنها عددًا كبيرًا من المجلات والنشرات والكتب ومذكرات الرحلات بناءً على انطباعاتهم وملاحظاتهم وخبراتهم ومهامهم وما إلى ذلك، غير أنّه وكما ذكرنا سابقاً لم يكن ثمة صدى أدبي للعثمانيين بأوروبا إلا بعد فتح القسطنطينية سنة 857هـ/1453م وانتهاء حلم توحيد شرق المسيحية بغربها على يد العثمانيين، كما أنّ فرض العثمانيين أنفسهم على الساحة السياسية والعسكرية والثقافية والدينية الأوروبية حين توغّلوا في شرق أوروبا، وتمدّد سلطانهم ليشمل بلاد فارس وشمال إفريقيا، نتج عنه ضرورة معرفة من هم أصحاب هذه الدولة العظمى؟

أسباب ودوافع ازدهار أدب الرحلات

تولّد عن تلك الحالة الجيوسياسية نوعاً أدبيّاً جديداً في حد ذاته هو أدب الرحلات إلى بلاد العثمانيين؛ أدب ازدهر خلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي واستمر بنجاح حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وقد شهد النصف الثاني من الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي عشر ليس فقط زيادة في مؤلفات أدب الرحلات ولكن زيادة أيضاً في عدد الطباعات¹، وربما تكون باكورة هذا الأدب بدأت مع الرحالة المغربي جورجوس الهنغاري والرحالة الإيطالي جيوفاني ماريا ديغلي أونجيلولي، وكذا الرحالة الإيطالي لويجي باسانو الزّاري².

أصبح الرحالة بعد نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وسطاء ثقافيين يؤثرون في مجتمع المنشأ، وكان السبب من وراء ازدهار أدب الرحلات بهذا القرن وما بعده هو تطوّر أساليب الإبحار الجديدة وسرعتها ورخص ثمنها، وبالتالي زاد عدد الناس الذين يستطيعون تحمل تكاليفها بحثاً عن منظور جديد للعالم إلى جانب توسيع سوق الكتب المطبوعة؛ فمثلاً مثل العقدين الأخيرين من القرن نفسه نقطة تحول مهمة لشبه الجزيرة الإيطالية التي شهدت لأول مرة انفجاراً حقيقياً في تداول المعلومات، كانت البندقية المكان الرئيسي لإنتاج الطباعة الرخيصة المخصصة للتداول الواسع، نتيجة للتحول في نشاط الطباعة التقليدية وتطور سوق الطباعة، كان تأثير الطابعات الجديدة على المجتمع أكبر بكثير حتى من الإقبال على شراء البضائع الفاخرة التي ميّزت العهود السابقة، وأسهم تطوّر الطباعة في تشكيل رأي عام أولي؛ أصبح الجمهور الجديد منتبهاً لمستجدّات الأحداث، وعلى دراية بقيمة

¹ - Filomena Viviana tagliaferri: " Subjects in between: three different ways of translating experience by Italian travelers in late 17 th - early 18 th century Ottoman space", Cahiers de la Méditerranée, n° 88, Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, Université Nice Sophia Antipolis, France, juin 2014, 332.

². تم ذكرهم في المبحث السابق.

ما يطبع، ولم يعد القارئ راض عن المعلومات العامة، كان يميل إلى وضع الأخبار في إطار تاريخي، ويريد التحقق من حقيقة الادعاءات التي يتم تقديمها¹.

قبل عرض بعض ما قدّمه الرحالة عن العثمانيين ينبغي سوق بعض الملاحظات متعلقة بطبيعة تلك الرحلات وبعض دوافع أصحابها والتي نفهم من خلالها لماذا شهد أدب الرحلات ازدهارا ملحوظا بداية من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، مع أنّ البدايات المحتشمة سجلت منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي؛ بداية يمكن القول أنّ مذكرات الرحالة لم تكتب فقط بناء على الخبرة الشخصية؛ لأنّه إذا بدأت القصص أحيانا أثناء الرحلة فجميعها ستكتمل عند عودة صاحبها من رحلته، وأحيانا بعد عودته بسنوات، علاوة على ذلك فإن قصة الرحلة تكون بالضرورة مصحوبة بالاقتباسات والتلميحات والمقارنات، ويقتبس الواحد منهم من المؤلفين القدامى بقدر ما يقتبس من المؤلفين المعاصرين، علاقة الرحلة إذا ليست تعبيرا عن العلاقة بين الذات والعالم ولكنها مجرد ترتيب لمعرفة سابقة².

أمر آخر مهم كان دافعا للسفر والترحال عند المثقفين، وهو أنّ تطوّر العقل النقدي بالغرب والرغبة في زيادة المعرفة التي تجلّت في النزعة الإنسانية، إلى جانب عصر النهضة، دفع الرجال إلى إعادة اكتشاف الشرق اللاتيني وخاصة الشرق اليوناني القديم مصدر المعرفة، والصعوبة الحقيقية هنا هي أنّ هذا المصدر في هذا الوقت كان مستقرّا في الأراضي التي تخضع للمسلمين، الظاهر أنّ الدافع الذي قاد المثقفين للبحث والتنقيب في بلاد العثمانيين هو البحث عن أسس الحضارة الغربية وبالتالي معرفة العالم اليوناني القديم وثقافته: أليس العالم الإسلامي في جزء منه وريث الحضارات القديمة؟ ألا يبدو تحت سلطة العثمانيين مثل عالم منظم ومحروس³؟

نشأت رحلات القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي من هذه الخلفية لاستكشاف أوضاع الشرق، وعن طريق مقارنة تاريخية أثرية وحتى ثقافية دينية أصبح العالم الذي كان مخفيا ظاهرا بعيون الرّحالة والمراقبين السياسيين أو الدينيين، وفي ظلّ دولة جديدة؛ في المرحلة الأولى وبسبب عدم قدرتهم على التحليل العميق سوف يُعجبون، حتى أنّه بالنسبة للبعض منهم لا يستبعد أنّه أمام دولة مثالية مقارنة بما يوجد في الغرب حيث الاضطرابات السياسية والدينية التي تقود إلى ازدياد الحكومات المسيحية⁴، ومبعث ذلك هو عقدة النقص تجاه دولة كانت إلى عهد قريب قوية مقتدرة.

1 - Filomena Viviana tagliaferri: Op.cit, 331-332.

2 - Dominique Arrighi : Op.cit, P2.

3 - Mantran Robert: Op.cit, p118.

4 - Loc.cit.

لكن رؤية الشرق هذه على الرغم من النوايا الحسنة الواضحة، لا تزال سطحية للغاية خاصة فيما يتعلق بالدين الذي لا يُنظر فيه سوى إلى الجوانب الخارجية؛ المظاهر المختلفة عن تلك الخاصة بالدين المسيحي، وبسبب عدم قدرتهم على التعامل مع اللغة العربية أو اللغة التركية، بحيث مرة أخرى يؤدي وزن الثقافة والتقاليد الغربية إلى رفض شبه تام لما يمثله الشرق في ذلك العصر، والذي يمثّل في نظر غالبية الرحالة مجرّد صورة مشوّهة للقيم القديمة وتبعاً لذلك للقيم الغربية، باستثناء أداء الحكومة العثمانية التي توصف بالصرامة وروح العدالة والتسامح لدى قادتها، والتي من الواضح أنّها على التقيض مما هو عند حكومات وقادة الغرب¹.

كان يتوجّب على المسافرين والدبلوماسيين والتجار في كثير من الأحيان التواصل مع العثمانيين عبر مترجمين من اليونانيين أو اليهود والأرمن كما ذكر سابقاً، مع ذلك يقول أحد المؤرخين يظنّ هناك فضول حول الشرق: فَتَحَتْ حكم سليمان العظيم بكل روعته ومع أننا لا نفهمه بالضبط ولكننا نُعجَبُ به ونحترّمه ونتمنى مثله لأنه بالإضافة إلى غزواته العسكرية وإدارته المتحضرة فهو يقدّم مشهداً لعالم ثري مع إنجازات معمارية رائعة النمط، وحيث تجدد التجارة الدولية أسواقاً واسعة، عالم متحضر بمعنى أنه يمثّل تراثاً سياسياً وثقافياً إن لم يكن دينياً من الماضي: ميراث الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية تراث الثقافة اليونانية واضح في المعرفة العلمية والفلسفية والتاريخية عند العرب والأتراك².

كل ذلك أدّى إلى الرغبة في معرفة أعمق بالشرق، وهو ما سيصبح أمراً واقعاً في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي؛ من المؤكّد أن الرحالة الذين يذهبون الآن إلى الشرق هم أكثر تسلّحاً بالعلوم: في المجال الديني يبدأ فهم ما هو الإسلام بشكل أفضل؛ تظهر الترجمة الأولى للقرآن باللغة الفرنسية تلك التي كتبها أوندري راير (André Du Ryer)³ في سنة 1057هـ/1647م، وأوّل

¹ - Ibid, P119.

² - Ibid, P119-120.

³ . مستشرق ودبلوماسي فرنسي (1580-1660م): كان قنصلاً عاماً لفرنسا بمصر، وأتقن العربية والتركية والفارسية، من أعماله: مبادئ نحو اللغة التركية (باللغة اللاتينية نشر ببارس سنة 1633م)، ترجمة القرآن (L'Alcoran de Mahomet) [أول ترجمة كاملة للقرآن في اللغة الأوروبية العامية (الفرنسية)] وصنّف معجماً تركياً لاتينياً لا يزال مخطوطاً في المكتبة الوطنية بباريس. ينظر: بدوي عبد الرحمن: المرجع السابق ص327. بتصرف يسير.

ترجمة لاتينية جيدة كتبها لويس مرتشي (Louis Marracci)¹ ظهرت سنة 1109هـ/1698م².

إضافة إلى ذلك لم تعد الدولة العثمانية بُعْبَعًا مُهَدَّدًا في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي؛ هزيمة ليبانتو (Lepanto) في سنة 979هـ/1571م وعلى الرغم من أنها لم تؤدي في الواقع إلى أي خسارة للأراضي العثمانية إلا أنها أول هزيمة كبيرة عانى منها العثمانيون، فهي بذلك تُمَجِّدُ على نطاق واسع في الغرب³: بعد ذلك الصعوبات العسكرية التي واجهها العثمانيون في وسط وشرق

¹. لويس مرتشي (1612-1700م): عالم وراهب ومستشرق إيطالي. كان محل تقدير البابا إينوسنت الحادي عشر. كان له دور كبير في تحرير الإنجيل بالعربية، ونشر بروما سنة 1671م في ثلاث مجلدات. اشتهر بترجمته للقرآن إلى اللاتينية (Alcorani Textus Universus Arabicè et Latine) في مجلدين، نشر سنة 1698م. ينظر:

John Aikin: General Biography: Or Lives, Critical and Historical, of the Most Eminent Persons of All Ages, Countries, Conditions, and Professions, Arranged According to Alphabetical Order, Vol 6, G. G. and J. Robinson, Londohhh.,hyhn, 1807, P533.

² - Mantran Robert: Op.cit, P120.

³. نلمس نموذجاً للنشوة والتمجيد في فترة ما بعد ليبانتو من خلال القصيدة الإيطالية التالية لشاعر بنديقي مجهول قال فيها:

Ben, sier Selin, sela sta de veluo
La cricca de sti nostri batizai
sessanta mile turchi, e renegai
con tresento to vele se anda in bruo
Carante, aspetta l'aneme al paluo
D'Ali, Piali co i altri A laberlai
Fa che' l Miches, con quei to Bassai
Miedega la schincada che ti (ha) abuo
Che pensavistua a metter a minchion
La Italia e Spagna, con la to canaia
e a Christo creder che puoda Macon
Roma, l'A quila e'l Lion con le sgiffe
passar el stretto no stima una paia
Si che aspetta a sentir, tof, taffe, e tiffe.

قمت بترجمتها كالتالي:

حسنًا، سيد سليم.

لقد كانوا من خيرة عصبة المعمدين لدينا [المسيحيين]:

ذهب ستون ألف تركي والمرتبون، مع ثلاثمائة من مراكبك الشراعية إلى البحر

شارون (Charon) ينتظر أرواحهم في مستنقع الجحيم:

علي، بيالي، مع غيرهم من أبناء الرب.

ودّع محمدك (!) الآن،

مع ذلك الباشا التابع لك، أدرك الهزيمة التي مرتت بها.

ما الذي ظننته؟ هل ظننت أنه كان بإمكانك خداع إيطاليا وإسبانيا مع أوغادك؟

هل تعتقد أن محمد يمكنه أن يهزم المسيح؟

يمكن لروما [بيوس الخامس] والنسر [إسبانيا] والأسد براثنه [البندقية] اجتياز المضيق [الدردنيل] بسهولة =

أوروبا، التمرد داخلي أول إعدام لسultan عثماني (عثمان الثاني سنة 1031هـ/1622م)، إضافة إلى البطء المذهل في غزو جزيرة كريت (24 سنة) كل ذلك أدى شيئاً فشيئاً إلى تآكل عظمة الدولة العثمانية¹.

نتناول الآن العثمانيين من وجهة نظر بعض الرحالة الأوروبيين؛ سنختار أربعة من إيطاليا وأربعة من إنجلترا، الإيطاليين لهم خلفية كاثوليكية والإنجليز ذوو خلفية بروتستانتية، منهم من هو غير معروف ومنهم الأرستقراطي، ومنهم ذو الأصول المتواضعة، ومنهم ابن رئيس الأساقفة، ومنهم الثري، ومنهم الدبلوماسي، والثمانية يمثلون وجهة نظر عموم الرحالة الأوروبيين، وثمانيتهم يمثلون المدى الزمني من النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي.

الرحالة الإيطاليين الأربعة

بداية بالإيطاليين نستفتح بالرحالة جيوفاني بيترو بيتوني (Giovanni Pietro Pittoni) المؤلف غير المعروف لرحلة إستانبول التي طبعت لأول مرة بالبندقية سنة 1684م عنوان مذكراته هو: تاريخ أو البيان الصحيح عن الحالة الراهنة لمدينة القسطنطينية (Historia o' sia vero e distinto ragguaglio sullo stato presente della città di Costantinopoli) تمت إعادة طبع الكتاب ببعض الإضافات مرتين في العامين التاليين وهو يشمل وصفاً للمدينة وحياة السلطان والشعائر الإسلامية ووصفاً للدردينيل والبسفور²، وقد ضمّن مذكراته بعض الشخصيات العليا العثمانية كصورة السلطان محمد الرابع وصدرة الأعظم مصطفى قارا كوبرلو³.

تظهر حقيقة أن الكتاب أعيد طبعه مرتين في فترة قصيرة جداً من الزمن، بوضوح أن الموضوع كان جذاباً، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار العمر القصير لكتاب طباعة رخيص، المعلومات الوحيدة

هكذا ستسمع أصوات مدافعهم وبنادقهم وسيوفهم.

والمقصود بسليم السلطان سليم الثاني، الذي وقعت المعركة في عهده سنة 1571م، أما شارون (Charon) فهو في الأساطير الإغريقية المراكبي الذي يحمل النفوس المدانة على متن سفينة من خلال مستنقع جحيم ستيكس (Styx). وروما في إشارة إلى البابا بيوس الخامس، ومثل النسر شعار إسبانيا، وكان الأسد شعار جمهورية البندقية، القصيدة لشاعر بندقية مجهول، توجد ضمن مخطوطات مكتبة (Miscellanea Marciana) بالبندقية المعنون بـ معركة ليبانتو في الأغاني الشعبية المعاصرة (La Battaglia di Lepanto nei Canti Popolari Dell' Epoca). ينظر:

Mustafa Soykut: Op.cit, Seite 125-127.

¹- Mantran Robert: Op.cit, Seite 120.

²- Filomena Viviana tagliaferri: Op.cit, P336.

³. ينظر (الملحق 15) و(الملحق 16)، ص621، 622. على التوالي.

التي لدينا حاليًا حول المؤلف مشتقة من مقدمة الطابعة؛ فوفقًا لها تأثر جيوفاني بيترو بما يسمى "التوق إلى التحقيق في أمور هذا العالم الواسع، على الرغم من أن التحقيق في ذلك بعيد المنال وصعب"¹. ومن أجل إرضاء ذلك التوق سافر بعيداً عن المنزل "دون اعتبار لراحة الوطن وتقلبات الحظ [...] من خلال إطلاق نفسه في المحيطات العاصفة والتجول في المناطق البعيدة والقاسية"، سوف يسافر جيوفاني بيترو في النهاية إلى آسيا، عبر جزء كبير من أفريقيا وسيتعرف على أوروبا بتفصيل كبير ربما لهذا السبب كان معروفًا بالاسم فقط في دور النشر بالبندقية، حيث قضى معظم حياته مسافراً خارج المدينة².

شدّد ناشر كتاب جيوفاني بيترو في مقدمته على أهمية المعرفة القائمة على الملاحظات المباشرة؛ ومن المثير للاهتمام حقا أنّ يذكر أن الملاحظة المباشرة كانت تهدف إلى تمكين القراء من اكتساب المعرفة الحقيقية دون مغادرة منزلهم وبلدهم، إلا أن الكفاءة والراحة كانت لصالح "أعين العقول الفضولية" وهي عبارة مثيرة للاهتمام تركز على اهتمام الطابعة بتحديد المتلقين المحتملين لمنتجها من خلال عنصر الفضول الفكري، وعلاوة على ذلك فإن هذا المدخل يمكن أيضاً أن يشهد على الاتجاه الحقيقي لتفضيل القراء لأدب الرحلات في تلك الفترة³، بدلا من كتب الدعاية الدينية أو السياسية.

تعتبر رحلة جيوفاني نصًا تَسْهُل قراءته، وتستهدف جمهورًا غير متخصص، مع ذلك سيكون من الخطأ تجاهل المعلومات التي قدمها على أنها سطحية أو عامة؛ يتّضح ذلك في القسم المتعلق بالدين الإسلامي الذي جرت العادة على أنه من الموضوعات الأكثر تأثراً بالسرد التعسفي في حديثه حول الطقوس والشريعة المحمدية بشكل عام يبدو المؤلف على اطلاع واسع عن الإسلام والاختلافات الأساسية بين العبادة وممارسات السنة والشيعة⁴.

أدرك المؤلف بشكل دقيق أن الإسلام دين توحيد عظيم، وأن محمداً نبي للمؤمنين وليس إلهًا؛ نقطة يُسَاءُ فهمها كثيراً بأوروبا حينها فيما يتعلق بالإسلام، ذكر موسى ويسوع المسيح كأنبيا مسلمين وأشار إلى الروابط بين الإسلام والمعتقدات اليهودية والمسيحية، وراح يقارن بين تلك المعتقدات في نقاط تَشَارِكها واختلافها، تركيز الانتباه على هذه المعتقدات المشتركة ساعد على تصوير الإسلام بشكل محترم⁵، وغالبا حين يتم مقارنة الأديان بشكل موضوعي يأخذ الإسلام مكانه اللائق به.

1 - Ibid, P336-337.

2 - Ibid, P337.

3 - Loc.cit.

4 - Loc.cit.

5 - Ibid, P337-338.

جيوفاني يُثني على نظام الحَمَّامات بإستانبول، ويثني على الصلاة عند المسلمين ويعتبرها أفضل من مُعَادِلِهَا عند المسيحيين، ويعبّر عن تقديره الكبير للطريقة التي يتبّعها الأتراك داخل المسجد ويُدلي بعدة ملاحظات حول موقفهم المحترم والجاد؛ لاحظ أن الأتراك لا يبصقون ولا يسعلون ولا يتكلمون أو يتطلّعون لشيء داخل المسجد، وأنهم كذلك يمنعون الحيوانات من دخول مكان الصلاة ولاحظ أنّ الصّمت مُطبّق بالمسجد على الرغم من امتلائه بالناس، ولولا صوت الامام يَحِيلُ إليك أنّه لا أحد بالمسجد، وهذا التقدير يحمل ضمناً إدانة لسلوك الأوروبيين في كنائس اليوم، والتي يتعاملون فيها كما لو كانت أماكن للتجمعات الاجتماعية وليس أماكن للصلاة، لم يجد جيوفاني غَضَاضَةً في وصف العثمانيين على أنهم يمتلكون صفات إنسانية عظيمة، بالإضافة إلى هويّة ثقافيّة محترمة¹.

هكذا نجد من بين الرحالة الأوروبيين بعضاً من المنصفين حتى حين يخوضون في موضوع الدين والذي يُعتبَرُ من بين أكثر المواضيع حساسية وأكثرها افتقاراً للموضوعية في رؤى الأوروبيين عموماً متأثرين بذلك بالبروباغندا (Propaganda) الدينية للخطاب البابوي الذي تكرّس في الوعي الجمعي بنجاح طيلة قرون، سيما بعد تأسيس مَجْمَع تبشير الشعوب (Congregatio pro Gentium Evangelizatione)² ذراع الدعاية الكاثوليكية سنة 1622م وكان لنشاطاته المكتنفة تأثير كبير على المناخ الفكري العام بأوروبا وغيرها.

نتاول مذكرتان لرجلين آخرين من الرحالة الإيطاليين يشتركان معا في الإدانة القويّة للأتراك من وجهة نظر أخلاقية؛ يصورانهما كبرابرة، وكلاهما اختلط بالأتراك في حياته اليومية؛ الرحالة البولوني الإيطالي لويجي فرديناندو مارسيلي والرحالة جيوفاني فرانسيسكو جيميلي كاريري (Giovanni Francesco Gemelli Careri)³. كانت رواياتهما في السفر مختلفة تماماً كما اختلفت تجارتهما؛

¹ - Ibid, P339.

² . مجمع تبشير الشعوب (Latin: Congregatio pro Gentium Evangelizatione) تأسس بتاريخ 6 جانفي 1622 تحت إشراف البابا غريغوريوس الخامس عشر، تحت اسم المجمع المقدس لنشر الإيمان (Sacrée congrégation pour la propagation de la foi) وقد توفي البابا غريغوريوس الخامس بعد تأسيسه بأشهر قليلة، ولكن المجمع استمر مع خليفته البابا أوربان الثامن، والمجمع هو قسم الإدارة البابوية المكلف بنشر الكاثوليكية وإدارة شؤون الكنيسة في الدول غير الكاثوليكية. مهمته هي نشر الإيمان المسيحي وتسوية الأمور المتعلقة بالكنيسة الكاثوليكية في الدول غير الكاثوليكية. حول هذا المجمع الكنسي ينظر: Catherine Martin : **Les compagnies de la propagation de la foi (1632-1685) : Paris, Grenoble, Aix, Lyon, Montpellier : étude d'un réseau d'associations fondé en France= au temps de Louis XIII pour lutter contre l'hérésie des origines a la Révocation de l'Edit de Nantes, Librairie Droz S.A, Genève, 2000, P24.**

³ . لويجي فرديناندو مارسيلي (1658-1730م): أرستقراطي بولوني، كان المفوض الإمبراطوري في مفاوضات سلام كارلوفيتز ورئيس اللجنة المشتركة في الاتفاقيات الدبلوماسية المكلفة بترسيم الحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والهابسبورغية =

في الوقت الذي أورد مارسيلي تجارب سفره في سيرته الذاتية، ضمّن جيميلي كاريري تجاربه ضمن كتابه رحلة حول العالم (Giro del mondo) واحدة من أولى المؤلفات على الإطلاق التي كانت وتسمت رحلة حول العالم¹.

وضع مارسيلي في المجتمع العثماني كزميل لسفير البندقية بالقسطنطينية يفسر لنا لماذا وعلى الرغم من فطنته فإن تصويره للبيئة المحلية هو نوع من الرسم الصارخ بالأبيض والأسود؛ إذ يبدو كما لو أن موقعه المميّز كعضو في السلك الدبلوماسي للبندقية قد قطعه عن الاتصال المباشر بالسكان المحليين؛ فعند مارسيلي يتميز الأتراك أساسا بالقسوة والشهوانية وقبل كل شيء الجشع².

أبدى مارسيلي كثيرا ازدياده للثقافة العثمانية التي اعتبرها مُضَلَّةً وغامضة ومخادعة، مدفوعة بالرغبة في الحصول على مكاسب مادية، كان العثمانيون في السيرة الذاتية لمارسيلي هم مثال للبربرية وهو يشير لهم باستخدام نعت "البرابرة"، لم يَنجُ أحد وعلى جميع المستويات الاجتماعية من انتقاداته اللاذعة؛ فقد وصف الأتراك على أنهم يفتقدون للَبَاقَة وبكوتهم غير صادقين، وحين يصف الصدر الأعظم المشهور مرزيفونلي قارا مصطفى باشا، يقدّمه كمثال لـ "الغطرسة اللانهاية" على الرغم من أن المؤلف بشكل غير مُتَوَقَّع للقارئ يعترف بأنه "رجل موهوب عظيم"³، وقد يكون المتعطرس موهوبا.

بينما رأينا كيف كان مارسيلي متحاملا ضد البيئة الاجتماعية العثمانية، وعادةً ما يحكم على الأتراك كمجموعة وليس كأفراد، يمكننا مع ذلك ملاحظة حساسية المؤلف للقدرّة الفكرية للعثمانيين كأفراد؛ فقد أصبح هذا التصرف تجاه الثقافة الفكرية العثمانية أكثر تعقيدا وتورّطا بشكل مباشر مع شخصية حقيقية تعرّف عليها مارسيلي خلال إقامته بإستانبول؛ ربطته بها صداقة مفعمة بالتقدير العميق، كانت تلك شخصية رجل يدعى حسين أفندي الذي يصفه بأنه "الأكثر ثقافة بالقسطنطينية" تقديره الكبير لهذا الرجل كان بسبب معرفته الواسعة (رجل الألف علم) - كما وصفه - فارتبط معه بحب وصداقة حقيقتين، صداقة وحب غذّتهما المناقشات حول السياسة والدين والفلسفة الأخلاقية لقد دهش مارسيلي من قدرة صديقه على دعم الإسلام بحُجج قويّة - زائفة مع ذلك كما قال - ومهاراته الجدلية الرشيقة. وبالفعل بقيت الهوية الدينية أضعف نقطة في العلاقة، كما كتب مارسيلي

أما جيوفاني فرانسيسكو جيميلي كاريري (1651-1725م): رحالة إيطالي، بدأ في 14 جوان 1693م رحلة حول العالم استمرت خمس سنوات، وهو ثان إيطالي يكمل رحلة حول العالم. ينظر: Ibid, P343.

¹ - Filomena Viviana tagliaferri: Op.cit, P343.

² - Loc.cit.

³ - Filomena Viviana tagliaferri: Op.cit, P343-344.

أن مثل هذا الرجل الواسع الاطلاع بشكل مثير للإعجاب جعلني أفكر في كثير من العطف حول سوء حظ المحمدين، كان تسامح مارسييلي عمليا أكثر منه نظري وعلى الرغم من أحكامه المسبقة غير أنّها لا يمكن أن تُبدد الانطباع بأنه مُولع حقاً بإستانبول العثمانية وثقافتها¹.

أمّا تجربة جيوفاني فرانسيسكو جيميلي كاريري فكانت مختلفة عن تجربة مارسييلي من نواح كثيرة؛ كانت رحلة جيميلي كاريري حقيقية وشخصية تتحرّك بدون جهاز دبلوماسي، وتنعكس شخصيته على عمله بشكل واقعي جدا: كان لجيميلي كاريري لقاءات عميقة مباشرة مع الأتراك وليس سطحية يجب أن نشير إلى أنّ اللقاء هنا يُجسّد التجربة نفسها، إنّها تجربة جسمانية للغاية تمت من خلال لقاءات حقيقية مع أناس مختلفين؛ غالباً ما أبلغ المؤلف عن تفاعلاته مع شخصيات التقاها على طول الطريق وفي كثير من الأحيان كانت الظروف التي جرت فيها هذه اللقاءات بعيدة عن المثالية، واستنكر كاريري حقيقة أنّ المسافرين المسيحيين في الدول الإسلامية غالباً ما يُجبرون على تحمّل الانتهاكات وأنهم قد يتعرضون أيضاً لخطر الاستعباد إذا عثر الضباط العثمانيين على أحدهم من غير جواز مرور مستخرج من إحدى القنصليات بالإمبراطورية العثمانية، وأكّد أنّ هذه التعاملات كانت شائعة حتى عند السفر إلى أوروبا خاصة في أوقات الحروب².

كما هو الحال مع غيره من المؤلفين فإن كاريري يسمّ الأتراك بالبربرية، في الوقت الذي يعايشهم ويختلط بهم بدرجة كبيرة، أحد أكثر الأوصاف البليغة كانت وصفه لشخص يُدعى آغا الصيّدي (نسبة لمدينة صيدا بלבنا) شخصية متشرّدة، والتي تجسد الصورة النمطية للعثمانيين لدى المؤلف، في الحادثة الأولى يتم تقديم قنفذ البحر للآغا خلال التوقف في رحلة من رودس إلى أزمير غير أنّه لم تكن للآغا فكرة عن كيفية تناوله؛ كتب كاريري: "هذا البهيمة - يقصد الآغا - شوى القنفذ على النار كما لو أنّه سمكة، وبالفعل تظهر بلادته من خلال تصرفاته وأقواله؛ فقد كانت له حية مُستخضر الأرواح أو بالأحرى كان كعنزة ترعى بين بهائم الغابة³.

هذه الصورة البليغة عززتها الحادثة الثانية: ذات مرّة في إزمير، دعا جيميلي الآغا لشرب كوب من الشوكولاته الثمينة؛ وبعد أن تناول الآغا كوب الشوكولاته اشتكى - بنشوة الذي لم يسبق له تذوق مشروب مماثل (ربما بتغير عقله بسببه أو بسبب دخان التبغ) - مني بشدة قائلاً إنني أعطيته بعض الخمر السامة لجعله مجنوناً ومحروماً من العقل، وبالتأكيد إذا استمر التأثير سيدفعني للزهد

¹ - Ibid, P344.

² - Loc.cit.

³ - Ibid, P345.

في الشوكولاته وإعطائها للحمار¹.

الحادثتان تعرضان كيف أنّ الترك غير معتادين على المأكولات البحرية التي تحظى بتقدير كبير في الثقافة اليونانية وجنوب إيطاليا، أو على المشروبات الأمريكية العصرية، افتقر الكاتب للكياسة غير أنّه رغم ذلك يمكننا ملاحظة أنه في كلتا الحالتين كان هناك عرض لطعام ثمين وبصورة راقية، هذا يشهد لنا أنه على الرغم من كل الإساءة والتّعوت المهينة - الماعز والبهيمة والحمير - وهي قوية بما يكفي لتصنيف الكتاب ضمن فئة "الاستشراق"، مع ذلك ثمة رغبة حقيقية عند المؤلف للتواصل الحقيقي مع الآغا².

أثناء رحلته غالباً ما شعر جيميلي بعزلة شديدة وانقطاع عن التواصل الاجتماعي، وعانى الكثير من عدم قدرته على التواصل مع سكان الإمبراطورية العثمانية؛ عند كتابة رحلته إلى رودس كتب: "لقد جئتُ أرضاً، أتمس التخفيف من حزني لرؤية نفسي بين الأتراك واليونانيين دون أن يكونوا قادرين على فهمي"³، والغربة دائماً لها ضغوطها وإكراهاتها سيما عند جهلك بلغة القوم.

تعامل لويجي فرديناندو مارسيلي مع ذلك مع رجل عثماني موهوب "حسين أفندي" جعله يستكثر وجود أمثاله في بلاد العثمانيين، أو اعتبره استثناء مدهشاً في مجتمع البرابرة، نجد أنّ جيوفاني فرانسيسكو جيميلي كاريري وجد ضالته في الآغا الصيدي البليد الذي اعتبره نموذجاً مثالياً لبربرية العثمانيين رغم ذلك خففت اللقاءات المباشرة لجيميلي كاريري شيئاً من لا معقولية الموقف تجاه الآخر المختلف دينا وثقافة، مما يثبت أنّ التواصل الحقيقي بين البشر يخفف من حدة التّحيز الصارخ.

نختم الحديث عن الرحالة الإيطاليين بالرحالة جيوسي سوريو (Giuseppe Sorio) ابن مدينة فيتشنزا (Vicenza) شمال شرق إيطاليا، المولود بها سنة 1663م لعائلة ثرية جداً بدأ السفر في أوروبا قبل نهاية القرن، أولاً إلى باريس ثم إلى لندن، تمّ سجنه بإنجلترا بتهمة كونه موالياً لفرنسا (Francophile) وأُفرج عنه سنة 1702م، وبالعودة إلى إيطاليا انطلق على الفور تقريباً في رحلة جديدة حيث زار هولندا و "الشرق" في 30 أبريل 1705م، وشرع في رحلة إلى إستانبول والأرض المقدسة ومصر وشمال إفريقيا⁴.

مسار رحلاته صعوداً وهبوطاً بأوروبا وحول البحر الأبيض المتوسط، يُشير إلى أنّ السّفر لسوريو كان تقريباً جزءاً من طبيعته، إنه النّمودج الحقيقي لمسافر عصر التنوير؛ يمتلك ثقافة واسعة، ومهارات

1 - Loc.cit.

2 - Loc.cit.

3- Loc.cit.

4 - Ibid. P347.

لعوية، وقبل كل شيء اعتقاد قوي بأن الفضول الصادق هو البوابة الوحيدة للمعرفة. في بعض الأحيان أدى ذلك إلى تجاوز حدود اللبّاقة؛ هذا هو الحال في لقاءه المباشر مع مومياء سنة 1707م وبدون أي مقدمات تعهّد "بعدم تحييط أي من تلك الجثث" مشتكياً من أن العملية قد تسببت له بـ "المزيد من القرف أكثر مما كنت أعتقد"، وأفاد أيضاً أن السكان المحليين سخروا منه لأنه جاء "من الجانب الآخر من العالم" فقط للقيام بمثل هذا الأمر¹.

تصرّفه ذاك قد يبدو صادماً لجمهور متحضّر، إلا أنه يكشف عن الرغبة في التجربة والوقوف موقف شاهد العيان، هذه الرغبة موجودة أيضاً في الرسالة التي كتبها سوريو من استانبول حيث يبدو منفتحاً بشكل لا يُصدّق ويُعطي تقريراً مُفصّلاً عن ثقافة الآخر؛ شخصيّة صاحب التقرير لا تعلق على المشهد، ويتم إعطاء الأولوية لملاحظات غير مُتحيّزة للواقع؛ بخلاف المسافرين الآخرين الذين ناقشناهم، كتب سوريو هذا التقرير كرسالة إلى صديقه² لإعلامه وأصدقائهم المشتركين من النخبة المثقفة بمشاهداته، ولم يكن في الأصل مقصوداً للتداول على نطاق واسع، كتب في بداية تقريره: "إذا تمكّنت بصراحة من مغادرة القسطنطينية دون تقديم أي تقرير لأصدقائي فسوف أُعفي نفسي من ذلك عن طيب خاطر"³.

هذه المدينة الاستثنائية بالكاد يمكن وصفها، ربما يُعبّر عنها فقط من خلال الإعجاب على الرغم من أن وصف إستانبول كان شائعاً في أدب الرحلات، فإنّ مذكرات سوريو فريدة نوعاً ما؛ فإنه يعرض بوضوح استثنائي، وعقلية متفتحة تتجاوز حتى ما نجده عند غيره من الكتاب المتميّزين في مذكرات سوريو نجد أخيراً التعبير البسيط عن التجربة الحقيقية المعاشة كقيمة مطلقة كما ذكر أنه لا يريد إعطاء قيمة لأي شيء إذا لم يشهده بنفسه.

تحدث في إحدى المناسبات عن قصر توبكابي فقال: "لن أذكر شيئاً عن التوزيع الداخلي للشقق حيث لا يمكن لأحد الدخول، حتى لا يتم تكرار العديد من الأشياء غير المؤكّدة التي يتحدّث عنها جميع الكتاب الآخرين بما يفوق الخيال: لذلك سأكتفي بالتحدّث باختصار عن الأجزاء التي يمكن رؤيتها"، وحين زار آيا صوفيا والتي عادة ما يُقارن الأوروبيون بين قبابها وقباب كنيسة القديس بطرس

1 - Loc.cit.

2 . نُشرت الطبعة الأولى في عام 1853م بعنوان: وصف القسطنطينية: رسالة من جيوسي سوريو مسافر من فيتشيزا (Descrizione di Costantinopoli: Lettera di Giuseppe Sorio viaggiatore vicentino)، كما يمكن أن نقرأ في المقدمة: طلب منه كتابتها من قبل "بعض الأصدقاء من أجل الزواج المواتي"، هذه التفاصيل مهمة للغاية؛ فهي تشير إلى كيف يمكن أن يكون التقرير المطبوع عن السفر في الشرق كهديّة ثمينة للأعراس. ينظر: Ibid, P347.

3 - Loc.cit.

بالفاتيك كان ذهب بعيدا بقوله: "لا أريد أن أقارن بين الأذواق التي تبدو جيدة بالنسبة لي"¹.

نجد أنّ الموقف المتميّز للغاية الذي يدفعه للكتابة فقط عمّا شاهده وعائنه هو بنفسه يتعلّق مع ما نعتبره أفضل خصاله وهي عقلية تقدير الثقافات الأجنبية، وقد أدّت مهارات سوريو في المراقبة التي غذتها عملية المعاشة المستمرة، إلى تطوير فكري عال للمعاني الجوهرية لثقافة الآخر، فعلى الرغم من أنّ الاستبداد العثماني كان يعتبر مسؤولاً عن السماح بسقوط إستانبول بالانحلال، بالمقارنة مع روعة وعظمة العصور البيزنطية المثالية، فإنّ سوريو خفف هذه الصورة من خلال القول بأن إدارة السلطة لا تزال تترك "مكاناً للرأفة والاعتدال"، فقال: على الرغم من أنّ المدينة لم تعد كما كانت تحت الأباطرة المسيحيين، إلا أنّ إستانبول ظلّت واحدة من أجمل المدن في العالم، علاوة على ذلك لم يستخدم أبداً لفظ "البرابرة" في الإشارة إلى العثمانيين².

توجد طريقتان لوصف الآخر: من خلال أوجه التشابه والاختلاف، تم مزجها معا لإنتاج نتيجة فائقة؛ حيث أقر المؤلف بشرعية نظام قيم مختلف، وحسب كلماته فإنّ التّعصّب هو الذي أعطى الأوروبيين نظرهم القاصرة جدا للعادات التركية، ومع ذلك عندما نواجه المساجد العثمانية "سوف نُقدّر جمالها إذا لم نُحلّ صِفَةً بربرية الأتراك بتحريف إدراكنا"، هذا المقطع المذهل وإدراكه المُعلن لنسبية القيم الثقافية تجعل سوريو متقدّماً على جميع معاصريه تقريباً³، ذلك أن الإنصاف عزيز مع البيئة العدائية.

قال سوريو أنّ "من يريد أن يعرف الأخلاق الحميدة للآخرين يجب أن يضع جانباً ذوقه الخاص ويدرّسها دون أي تعصّب"؛ فوفقاً لسوريو كان من غير المجدي تحديد ما إذا كان المنزل التركي جميلاً أو قبيحاً وفقاً للمعايير النموذجية للمجتمع الأوروبي الباروكي، حتى وجهاء وأكابر المجتمع العثماني لم يشاركوا "الرغبة في الخلود" التي دفعت العائلات النبيلة في أوروبا إلى بناء قصور صُمّمت لتدوم "إلى الأبد"، كان غياب الأرستقراطية العرقية في الدولة العثمانية غريباً جداً على عقلية النخبة الأوروبية؛ إذ لم يلاحظ الرحالة في كثير من الأحيان وضع الاستراتيجيات من قبل النخبة العثمانية للسّماح بنقل ممتلكات العائلة وتأمين نوع من الخلافة في السلطة تبعاً للنسب⁴، وتلك من شمائل قيم الإسلام التي جعلت مجتمعاته متميزة على من حولها.

أشار سوريو إلى أنّ الأتراك لديهم أولويات ثقافية أخرى، وأنهم صمّموا مُنتجات ثقافتهم وفقاً

1 - Ibid, P348.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4 - Ibid, P349.

لاحتياجاتهم الخاصة؛ إذا كان خان المسافرين (Caravanserraglio) "الذي نُطْلِقُ عليه البيوت أو مُستودَعَاتِ التِّجَارِ (fondaco) [...] لا يَضُمُّ ضِمْنَ محتوياته لوحات فاصولو (Fasolo)¹ إذا لم يكن أنيقا مثل فندق ديديتشي (Fontego dei Tedeschi)² بالبندقية، فهي مع ذلك ضخمة البناء وبها العديد من المرافق الضرورية. بالتأكيد أحد المنازل على مضيق البوسفور "سيكون سخيفا إذا كان على نهر برينتا (Brenta) [شمال إيطاليا]، ولكنّ النظر بعمق إلى "ذوق الأمة دون الانغلاق على الهندسة المعمارية لدينا"، سيجعلنا نراه مُرِحًا وَمُنْتَظَمًا بشكل جيد. حتّى أنّ مفهوم الراحة كان نسبياً، فإنّ "طرق الحياة الطبيعية [...] بعيدة جداً عن حياتنا، وأنّ الوسائل والأدوات اللازمة لنا لراحة الحياة لا فائدة منها"³.

تقديم أوجه الشبه ذات الصلة بواقع القراء أسلوب استخدمه سوربو للتأكيد على الاختلاف والتنوع الثقافي الذي واجهه، تصوّر التنوع في نظام قيمي مختلف تمّ رسمه بكل تعقيداته مع تقريبه لعقلية القراء من خلال أمثلة مألوفة، مكّنه من فتح عقولهم لأسلوب جديد في التفكير، ويمكن اعتبار سوربو المثقف التنويري تعبيرا صادقا عن الرحالة الذي وضع تعصّبه جانبا وراح يبحث من منظور إنساني مُتَجَرِّد عن المعرفة الحقيقية بالأخر المختلف من منطق المعاينة وحُسن التّفهّم.

موجز للعلاقات العثمانية الإنجليزية

نتناول بعد أن رأينا عيّنة من الرحالة الإيطاليين ورأينا تنوعاً في وجهات نظرهم بين المتحيّز واللامتحيّز بين الموضوعي ونقيضه، عيّنة أخرى لا تختلف جغرافيا إذ تنتمي إلى أوروبا، ولكنها تختلف في الخلفية الدينية وتبعاً لها الثقافية إلى حد ما، ولئن كانت إيطاليا سبّاقة إلى نسج علاقات مع الدولة العثمانية حرباً أو سلماً، فإنّ إنجلترا عموماً نسجت علاقات متشابهة إلى حد ما بعد ذلك بقرنين على الأقل.

نعطي قبل عرض أفكار الرحالة الإنجليزي الأربعة لمحة موجزة عن علاقة إنجلترا بالدولة العثمانية

¹. جيوفاني أنطونيو فاصولو (Giovanni Antonio Fasolo): (1572-1530) رسام إيطالي من مدينة فيتشنزا (Vicenza) ينظر:

Nebahat Avcioglu and Emma Jones: **Architecture, Art and Identity in Venice and its Territories, 1450-1750: Essays in Honour of Deborah Howard**, Ashgate Publishing Ltd, Farnham, England, 2013, P140.

². هو مبنى جميل يعود تاريخه لعصر النهضة، يقع شمال إيطاليا، على حافة القناة الكبيرة وشارع ساليزدا (Salizzada)، وقد كان في فترة تاريخية سابقة مستودعا للتجار الألمان (Tedeschi). ينظر:

Marie-Josée Ramos : **Venise, Carnets de route Marcus**, Editions Marcus, France, 2004, P94.

³ - Filomena Viviana tagliaferri: Op.cit, P349.

باعتبارها دولة أوروبية بعيدة عن المجال الحيوي العثماني، ولكونها أيضاً بعيدة عن المجال الديني الكاثوليكي السائد في أوروبا، فعلى الرغم من أنّ الجيش العثماني لا يكاد يشكّل تهديداً على إنجلترا البعيدة إلا أنّنا وجدنا رجال الكنيسة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي يُشجّعون فكرة أنّ الإيمان المسيحي يتعرّض للهجوم من قِبَل الترك، وأنّ "الترك" أصبح مرادفاً للإسلام؛ ففي سنة 1565م افتتح أسقف مدينة سالزبوري (Salisbury) غرب انكلترا صلاة يوم الأربعاء والجمعة بطلب الرحمة من الرّب لئُجَنَّبَ المسيحيين من أن يقعوا في يد الأتراك أو أن يغضب الرّب عليهم بسبب ذنوبهم فيقع ميراثُ المسيح في يد الأتراك¹، لاحظ أن البروتستانت عموماً أخذوا موقفاً عدائياً من العثمانيين بعد حصار سليمان القانوني لفيينا.

أصبحت ذنوبُ الإنجليز بحلول منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي... هي المادة العظيمة للقوة العسكرية العثمانية، وبالتالي وبمثل هذه الأفكار عبّر الطقوس الشعائرية فإنّه من غير المفاجئ أن يكون الإنجليز قد أقاموا خيالات غريبة ومخيفة عن المسلمين والعثمانيين بما في ذلك الفكرة الخرافية التي ترى أنّ الشكل المثلي للقسطنطينية وتلاها السبعة كانت أدلةً رمزيةً على الطبيعة الشيطانية للحكم العثماني².

بحسب المؤرخين فإنّه ابتداءً من منتصف القرن السادس عشر وطوال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي فإنّ معرفة الثقافة والمجتمع العثماني والرغبة في السلع العثمانية انتشرت من الديوان الملكي وطبقة النبلاء إلى الطبقات المتوسطة المزدهرة من خلال التبادل والمحাকা والأعمال الحرة، لهذا قد نضيف أنه بالنسبة لأولئك الذين لم يغادروا إنجلترا فإنّ مذكرات الرحالة إلى الأراضي العثمانية قد زادت من إمامهم بفخامة تلك الدولة، وأنماط الحياة التي تُحسّد عليها الإمبراطورية الإسلامية العظيمة³.

بحلول أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي كان تخيل شكل من أشكال الاتفاق الأنجلو-عثماني بديلاً اقتصادياً جيداً للتجارة على عهد إليزابيث الأولى (1558-1603م) وكذا لغيرهم من رجال الدولة لكن أيّ تحالف مع الإسلام يتطلّب مُبرراً؛ عندما جلست إليزابيث على العرش كانت التجارة مع الشرق مُقيّدة من جميع الجهات من قبل الدول الكاثوليكية المتنافسة، بحيث وصلتها البضائع الشرقية في الغالب عبر فرنسا وأنتويرب (Antwerp) [تابعة حالياً لبلجيكا] في السفن الشراعية للبنديقية، في حين أن التجارة المباشرة عن طريق سُفن الشّحن الإنجليزية لم تُعفها فقط الأساطيل الإسبانية

¹ - Gerald MacLean: Op.cit, P1-2.

² - Ibid, P2.

³ - Loc.cit.

المعادية ولكن أيضا المعاهدة العثمانية الفرنسية سنة 942هـ/1536م، والتي بموجبها اعتبرت فرنسا راع جميع المسيحيين في أراضي الدولة العثمانية¹، وبالتالي يتوجب على جميع السفن التي ترغب بالتجارة مع العثمانيين رفع العلم الفرنسي لتكون تحت المراقبة والحماية الحصرية للسفير الفرنسي بإستانبول².

سعي إليزابيث الطموحة للتحالف مع العثمانيين كان من شأنه أن يكسبها الدعم التمشيط من السلطان ضد سُنن الشَّخْن الإسبانيّة، وفي الوقت نفسه يَسْمَحُ للتَّجَار الإنجليزي بالتداول التجاري المباشر مع العثمانيين بدون تدخل من القنصلية الفرنسية، بالنسبة لإليزابيث فإن تشجيع العدوان العثماني على إسبانيا الكاثوليكية في البحر الأبيض المتوسط كان وسيلة غير مُكَلِّفَة لمحاولة إضعاف عَدُوِّهَا الأكبر في البحر، مع تبرير التَّعَامُل التجاري مع الكافر العثماني³.

بدأ إسبانيا عدوة إنجلترا في سنة 990هـ/1582م ببناء أرمادا جديدة، وفي ضوء المشروع العسكري الجديد لإسبانيا ومع عدم وجود تهديد تركي وشيك للأراضي الإنجليزية، اتَّخَذَت إليزابيث الأولى حُطوة جريئة لإرسال أوّل سفير إنجليزي إلى القسطنطينية لعقد اتفاق مع السلطان العثماني مراد الثالث، تم اختيار وليام هاربون (William Harborne)⁴ لهذه المهمة، حيث سافر إلى القسطنطينية سنة 1570م مع تجار شركة المشرق التجارية الإنجليزية⁵.

كان هدف إليزابيث النهائي هو إقناع مراد بإيهاام إسبانيا بأنه يريد مهاجمتها، بحيث يكون لدى إنجلترا الوقت للتَّحْضِير لصدِّ الهجوم الإسباني على الساحل الإنجليزي، ومع أنّ التَّحَالف الأنجلو-عثماني المقترح من قبل إليزابيث لم يتم تحقيقه أبداً، إلّا أنّ التجارة بين إنجلترا والإمبراطورية العثمانية ازدهرت

¹. توالى الامتيازات بعد ذلك لصالح فرنسا؛ ففي سنة 1604م أصبح الملك الفرنسي حامياً رسمياً لرجال الدين الكاثوليك والحُجَّاج إلى الأرض المقدسة، على الرغم من أن هذه الامتيازات كانت تُمنح بانتظام للفرنسيسكان بكنيسة القيامة بفلسطين، فإن هذه هي المرة الأولى التي تحصل فيها سلطة مسيحية أوروبية [فرنسا] على هذا النوع من الامتياز من سلطان عثماني. امتياز آخر أعطي للفرنسيين في سنة 1673م من شأنه تمديد الحماية الفرنسية على كامل أراضي الإمبراطورية العثمانية. ينظر:

Radu Andrei Dipratu: "Catholics in the Ottoman Empire Through the Eyes of English Travelers in the 17th Century", Turkey & Romania: A History of Partnership and Collaboration in the Balkans, 4th International Balkan Conference, Bucharest, between 15 and 18 October 2014, Matbaacılar Sitesi, Topkapı, Istanbul, November 2016, P108.

²- Gerald MacLean: Op.cit, P44-45.

³ - Ibid, P46.

⁴. وليام هاربون (1542-1617): أوّل سفير إنجليزي إلى الدولة العثمانية سنة 1582م، كان له دور كبير في مفاوضات الامتيازات التجارية الإنجليزية التي أسفرت عن تشكيل شركة المشرق سنة 1579م. أرسلته الملكة إليزابيث سفيرا لها إلى السلطان العثماني محمداً بهدايا ثمينة بما في ذلك ساعة ثمينة جدا. ينظر:

Kenneth Parker: **Early Modern Tales of Orient: A Critical Anthology**, Routledge, London and New York, 2013, P41,52

⁵ - Jae Jerkins: Op.cit, P10-11.

تحت ظل شركة المشرق¹، وهكذا فُتِحَتْ مع الملكة إليزابيث الأولى صفحة العلاقات الرسمية بين إنجلترا والدولة العثمانية، وُفْتُحَ معها باب البلاد العثمانية تجاه الإنجليز؛ حتى أنه خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، بدأت السفن الإنجليزية في تأكيد مصالحها التجارية والعسكرية في البحر الأبيض المتوسط لأول مرة في التاريخ²، وخلال فترة طويلة من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي جاء الآلاف من الرجال والنساء الإنجليز والأيرلنديين والأسكتلنديين للعيش في بلدات وموانئ البحر الأبيض المتوسط³.

الرحالة الإنجليز الأربعة

نتناول بعد هذا الموجز عن نشأت العلاقات الإنجليزية العثمانية، كيف رأى الرحالة الإنجليز الدولة العثمانية؟ وهل ابتعدت رؤاهم عن غيرهم من الرحالة الأوروبيين؟ نتناول أربعة رحالة أيضا نبدأ بتوماس دالام (Thomas Dallam)⁴؛ توماس دالام الذي تكمن شهرته في كونه صانع الأورغون البديع الذي أهدته الملكة إليزابيث الأولى إلى السلطان العثماني محمد الثالث⁵.

كان توماس دالام رجلا بسيطا من عامة الشعب الإنجليزي؛ لم يكن من النخبة المثقفة ولا من رجال الدين، كما أنه لم يكن من التجار المحترفين، بل لم يخطر بباله أنه سيسافر خارج وطنه إلى قلب عاصمة العثمانيين ليجد نفسه قريبا من سلطانهم محمد الثالث، لقد ساقه قدره ليدخل تاريخ العلاقات الإنجلوعثمانية من أوسع أبوابها؛ فآلة الأورغون الموسيقية ذات الأنايب المزودة بساعة التي

¹ - Ibid, P11.

² - Jae Jerkins: Op.cit, P27.

³ - Gerald MacLean: Op.cit, P64.

⁴ . توماس دالام (1575-1630م): حداد إنجليزي، انتقل إلى لندن وانتمى إلى نقابة الحدادين (Blacksmiths Guild). كمهندس ماهر تخصص دالام في صناعة آلة الأورغون الموسيقية ذات الأنايب. جاءت فرصته العظيمة عندما عرفت الملكة إليزابيث عن آلة الأورغون البديعة التي صممتها بمنطقة وايت هول (Whitehall) فأذهل الملكة لدرجة أنها أدركت بدكاء أنها ستقدم هدية مثالية لإرضاء السلطان العثماني الجديد محمد الثالث. سافر دالام مع آلة الأورغون، وقد جعله نجاحه في سفرته هذه محبوبا لدى السلطان، بل كان ناجحا جدا لدرجة أن السلطان قدّم له عروضاً مغرية للبقاء في خدمة البلاط العثماني. حيث أصبح الموسيقار والحداد الشاب لفترة طويلة أهم إنكليزي في البلاط العثماني. ولعدة أسابيع حاسمة كان دالام أكثر أهمية من سفير إليزابيث الجديد هنري ليلو (Henry Lello). ترك توماس دالام مذكرات رحلته إلى إسطنبول وتحمل عنوان: رواية موجزة عن رحلتي من الحاضرة الملكية بلندن نحو مضيق بحر مرمرة وما حدث خلال الطريق

(A brefe Relation of my Travell from The Royall Cittie of London towards The Straite of mariemediteranum and what hapened by the way)

ينظر: Gerald M. MacLean: Op.cit, P3-4.

⁵. من أجل معرفة شكل الساعة ومكوناتها ينظر (الملحق 17)، ص 623.

صنعها كانت أكثر من مجرد هدية من ملكة إلى سلطان؛ لسنوات وموظفو شركة المشرق الإنجليزية يحتون الملكة إليزابيث على إرسال هدية قيمة مناسبة من شأنها أن تشجع محمد الثالث على إعادة منح الامتيازات التي تسمح لشركة المشرق بمواصلة التجارة المباشرة مع الموانئ العثمانية السفير الجديد هنري ليلو (Henry Lello)¹ لن يتم الاعتراف به رسمياً من قبل السلطان محمد الثالث حتى يتلقى الهدية². كان تقديم الهدايا إلى السلطان الجديد مهم جداً؛ بهذه الطريقة سيكون هنري ليلو سفيراً رسمياً واجهت شركة الشرق صعوبة في اختيار الهدايا المناسبة للسلطان لأن الهدية التي تُقدّم للسلطان يجب أن تكون فريدة ومميزة. تم الاتفاق على أن هدية الملكة يمكن أن تكون ساعة فقط. اقترح إدوارد بارتون سابقاً أن ترسل الملكة إليزابيث "ساعة على شكل ديك" سمع بارتون أن هذه الساعة كانت في إحدى قصور الملكة، كانت هناك حاجة إلى شيء أكثر إثارة لإقناع السلطان. في النهاية قرّرت شركة المشرق تقديم شيء جديد وهو أورغون ذو أنابيب ذاتي التشغيل مع ساعة³، وصلت الهدايا والرسائل

¹ . هنري ليلو: دبلوماسي إنجليزي لا يعرف عنه الكثير قبل توليه سفارة بلاده بإستانبول؛ بعد توليه منصب سكرتير إدوارد بارتون (Edward Barton) - ثان سفير إنجليزي بالدولة العثمانية بعد وليام هاربون (William Harborne) أول سفير إنجليزي بالدولة العثمانية - أصبح السير هنري ليلو ثالث سفير إنجليزي لدى العثمانيين. من المعروف أنه لم يكن محط إعجاب ساكنة إستانبول بسبب تكبره. بعد الموت المفاجئ للسفير بارتون أصبح هنري ليلو سفير إنجلترا سنة 1607م حيث شهد عهد السلطان محمد الثالث (1595-1603) والسلطان أحمد الأول (1603-1617) على التوالي، كما شهد في إنكلترا عهد الملكة إليزابيث الأولى (1533-1603) والملك جيمس الأول (1603-1625). ينظر:

Başak Çeliktemel: "A Study of the Third English Ambassador Henry Lello's Report on the Ottoman Empire (1597-1607)", the degree of Master of Arts in History, the Graduate School of Social Sciences, Istanbul Bilgi University, Turkey, 2012, P33-34, 45.

² - Gerald M. MacLean: **The Rise of Oriental Travel: English Visitors to the Ottoman Empire, 1580-1720**, 1 Edt, Palgrave Macmillan, Great Britain, 2004, P9.

³ . تعكس توصية السفير إدوارد بارتون في اللحظة الأخيرة بأن تكون الهدية ساعة الدور المهم للساعات الميكانيكية في تاريخ الدبلوماسية العثمانية الحديثة المبكرة؛ بدأت هذه العادة في القرن الخامس عشر؛ فعندما هزم محمد الفاتح البندقية سنة 1477م أمر بأن يرسل البنادق صانعي الساعات إلى إستانبول كجزء من معاهدة السلام. اهتم سليمان الأول أيضاً بالساعات الميكانيكية؛ فمعاهدة السلام التي أبرمها مع النمسا سنة 1547م تضمنت جزية سنوية أو كما سماها النمساويون مجازاً بالهدية التركية (Türkenverehrung) وقد تمثّلت الجزية في مبلغ كبير من المال إلى جانب الساعات. تم بناء عدد كبير من هذه الساعات الميكانيكية من قبل صانعي الساعات في جنوب ألمانيا بمدينة أوغسبورغ (Augsburg)، وبدو أن تلك الجزية تضع معياراً تنافسياً لصنع الساعات؛ لأنه مقابل هذه الساعات تم قياس جهاز دالام، في الواقع وكما يؤكد المؤرخ النمساوي (ت1975م) في الوقت الذي كُلف فيه دالام ببناء آله "هناك حاجة إلى شيء أكثر إثارة لإقناع السلطان الذي كان يملك الآن في قصره ما كان يجب أن يكون أكبر مجموعة من الساعات الآلية في الوجود". ينظر:

Eric L. De Barros: **The Gatekeeping Politics of "Good" Historicism: Early Modern Orientalism and "The Diary of Master Thomas Dallam"**, College Literature, vol 43, N4, Johns Hopkins University Press, USA, 2016, P635.

بعد حوالي أربع سنوات [وهو أمر مثير للسخرية] والتي تم إرسالها من لندن في مارس 1599م في سفينة هيكتور، تسليم الأورغون ذو الأنايب كان المهمة الرئيسية الأولى لهنري ليلو¹.

واجه هنري ليلو تحدّ كبير تمثّل في محاولة خلق علاقة بينه وبين السلطان محمد، مماثلة للعلاقة الوثيقة التي كانت قائمة بين السفير السابق إدوارد بارتون والسلطان السابق مراد الثالث؛ عندما توفي مراد سنة 1595م كتب بارتون على الفور إلى الملكة إليزابيث للضغط عليها لإرسال هدية في أسرع وقت ممكن، بحلول وقت وفاة بارتون نفسه بعد عامين، لم تصل أي هدية وكانت العلاقات الأنجلو عثمانية في خطر².

أرادت الملكة إليزابيث الأولى والسفير الجديد هنري ليلو من السلطان محمد أن يمنح القنصلية الإنجليزية السيطرة على السفن الهولندية في الموانئ العثمانية، وكان الفرنسيون يريدون هذا الامتياز أيضا مع وجود سلطان جديد ووفاء السفير بارتون وسفير جديد غير مجرّب، كانت إليزابيث وتجارها حريصين على تحفيز التجارة في تحدّ للفرنسيين، مع الاستمرار في المفاوضات الدبلوماسية المتعلقة بالجهد البحري الأنجلو-عثماني المشترك ضد إسبانيا³. كان توماس دالام غافلا عن كل هذه الظروف والملاسات السياسية، بل لم تكن تعنيه.

توجد في أرشيفات الدولة الإنجليزية رسالة مكتوبة إلى الملكة إليزابيث الأولى في عام 1599م نقرأ فيها المقطع التالي: "هذه هي الهدية الضخمة والغريبة لُرسِل إلى عظيم الترك [السلطان] والتي ستثير دون شك الكثير من التعليقات، وستُفاجئ الدول الأخرى خاصة الألمان"⁴، هذه العبارات الواردة بالرسالة تشير بوضوح إلى أهمية إنجاز توماس دالام بصنعه لآلة الأورغون واعتبارها مفتاحا أساسيا لإعادة الحياة الدبلوماسية بين الإنجليز والعثمانيين.

قام دالام شخصيا بتسليم الأورغون عن طريق البحر إلى بلاط السلطان بإستانبول خلال رحلة استمرّت من سنة 1599م إلى 1600م، وبعد العديد من المغامرات عاد سالما إلى أرض الوطن كان من الممكن نسيان هذا الإنجاز منذ زمن بعيد، لولا يوميات دالام المكوّنة من حوالي ثمانين صفحة والتي تصف تقريبا كل التفاصيل من مغادرته إنجلترا حتى عودته، يومياته هذه عنوانها: رواية موجزة عن رحلتي من الحاضرة الملكية بلندن نحو مضيق بحر مرمرة وما حدث خلال الطريق (A brefe Relation of my Travell from The Royall Cittie of London towards The Straite of

¹ - Başak Çeliktemel: Op.cit, P34.

² - Gerald M. MacLean: Op.cit, P9.

³ - Loc.cit.

⁴ - James Theodore Bent: **Early Voyages and Travels in the Levant**, Ashgate Publishing Limited, England, 2010, P XVI.

طُبِعَتْ سنة 1893م وقد أُلْهِمَتْ هذه المذكرة أحياناً كُتَّاباً آخرين، ركَّزوا غالباً على آتته الموسيقية الأوروغون¹.

كان جميع كُتَّاب السفر الإنجليز الأوائل تقريباً على عكس توماس دالام مشاركين بشكل مباشر في التجارة، وإذا اعتبرنا دالام من الطبقة الوسطى، فإن الأمر يبدو أكثر غرابة حيث أنه لم يكتب على أمل أن يكون كتابه "الأكثر مبيعاً"، كما فعل المجري جورجيفيتس بارتوليمو [ذكر في المبحث الأول] الذي ترجمت روايته إذلال السجناء المسيحيين الذين يعيشون تحت رحمة الأتراك] وأعيد طبعها ما لا يقل عن 88 مرة بين أول نشر لها في 1544م إلى سنة 1600م السنة التي عاد فيها دالام إلى وطنه².

قرار دالام بعدم نشر مذكراته أمر لافتٌ جداً، سيما في وقت كانت كتابات الانجليز الذين سافروا إلى البلدان الشرقية والإسلامية تثير اهتماماً كبيراً³. لذلك من الغريب أن يُفَرِّزَ دالام الاحتفاظ بمذكراته لنفسه، أو ربما كتبها لأجل عائلته فقط. وكانت إحدى عواقب تحفُّظه على مذكراته التي تروى مُعَاوَرَتُهُ إلى إستانبول أن تظلَّ المذكرات في طي النسيان قُرَابَةً ثلاثة قرون⁴.

اهتم دالام رغم حبه لوطنه بالأجانب وعاداتهم الثقافية الغربية. جمع بين الحس المرهف اللبق والملاحظة لقراءة المشهد المحلي. كان لديه غريزة للفهم والتواصل عن طريق الإيماءات والإشارات عندما لا توجد لغة مشتركة، مهارة جعلت منه ضيفاً مُرَحَّباً به حتى في المآزق المعادية المحتملة هذه الخصائص جعلت منه مسافراً طبيعياً جريئاً ولكن نادراً ما كان متهوراً ومتحمساً في رحلاته لكنه استطاع بشكل غريزي أن يظل بعيداً عن الخطر، تحدث عن لقاءاته مع مجموعة واسعة من الناس الآخرين⁵.

¹ - Gerald M. MacLean: Op.cit, P4.

² - Loc.cit.

³ .كانت المخطوطة غير معروفة حتى 11 نوفمبر 1848م، عندما اشتراها المتحف البريطاني من جامع مخطوطات يدعى هنري رودس. مع ذلك ظلت غير مكتثرة لها ولا لصاحبها، وحتى عندما كتب الموسيقي وأمين المكتبة البريطاني ويليام باركلي سكويز (William Barclay Squires) (ت1927م) دراسته حول توماس دالام ضمن الدراسات التي تُنَشَرُ بقاموس السير الوطنية (Dictionary of National Biography) سنة 1888م لم يعرف سكويز ولا أي من مساعديه أن "أكبر فرد في العائلة الكبيرة من بُنَاة الأوروغون الإنجليزي" بدأ مسيرته الفنية بحمل هدية ملكية إلى إستانبول من إليزابيث الأولى إلى محمد الثالث. إلى أن قام الرحالة وعالم الآثار البريطاني ثيودور بينت (Theodore Bent) (ت1897م) بتحرير مخطوطة دالام لحساب جمعية هيلكوت سنة 1893م، حينها فقط أصبح معروفاً أنّ دالام هو صانع الأوروغون الذي أهدي للسلطان محمد الثالث. ينظر: Ibid, P5.

⁴ - Ibid, P4-5.

⁵ - Ibid, P9.

كان مسار الرحلة التي استمرت ستة أشهر على متن السفينة هيكتور فخر الأسطول الإنجليزي عامراً بالمخاطر؛ نجوا من هجمات القراصنة، ومرّوا على جبل طارق وتوقفوا بضعة أيام بالجزائر حيث واجهتهم بعض الصعوبات مع السلطات هناك، بالجزائر كانت أول مواجهة لدالام مع مجتمع مسلم في سياق وصف السوق المزدهر "للتجارة والسلع الكبيرة" للجزائر العاصمة، لاحظ دالام تنوع الناس: "رأينا مورس [مغاربة] مختلفين. . . عدد كبير من اليهود، ولكن أكبر عدد كان من تركيا، والكثير من هؤلاء الأتراك كانوا من المسيحيين المرتدين من كافة الأمم، ولكن كان معظمهم من الإسبان والإيطاليين والجزر الأخرى المجاورة، الذين يضطرون إلى الارتداد عن دينهم هروبا من حياة الأسر حيث العبودية والبؤس، لكن في بعض الأحيان يصبح هؤلاء المرتدون أكثر بربرية وسوءاً، يستمتعون بكل خطيئة"¹. مثله في ذلك مثل المستشرقين لا يتصوّر دالام أن يعتنق مسيحي الإسلام عن اقتناع بمبادئه ولكن فقط تحت باب الضرورة.

يمتد حُكمه الديني أيضاً إلى المسلمين الأصليين؛ بعد أن يرسل حاكم الجزائر اثنين من الثيران وثلاثة خرفان إلى السفينة هيكتور كتعويض عن احتجاز قائدها عقابا له لعدم عرضه هدية السلطان يشرح دالام أن الحيوانات كانت هزيلة للغاية ثم قال: "لأنهم يعتقدون أنّ الأمور السيئة لديهم جيدة بالنسبة للمسيحيين. إنهم جميعاً بشكل عام يستخدمون جميع الوسائل الشرعية وغير الشرعية لابتزاز المسيحيين"². واضح أنّ ملاحظاته نابعة عن خلفية وأفكار مسبقة تجاه العثمانيين، بدليل أنّه حتى الموت الذي هو من طبيعة الحياة فسّره دالام بأنّه عقاب إلهي؛ فعند وفاة أربعة أشخاص من طاقم السفينة بالإسكندرونه (İskenderun) [مدينة تقع على البحر المتوسط جنوبي تركيا] اعتبر دالام أن ذلك كان عقاباً إلهياً للإنجليز الذين دخلوا إلى حدود إمبراطورية تقع في منطقة غضب الرب وتأكد له ذلك عند دخول إسطنبول ووفاة شخصين آخرين من طاقم السفينة³.

بعد الجزائر مرّوا بمالقا وجزيرة زاكينثوس اليونانية، ومنها إلى الإسكندرونه حين رست السفينة قبالة سواحل الإسكندرونه رأى دالام الجيش العثماني لأول مرة: "جنود دمشق وهم جزء من الجيش التركي العظيم" كان مشهدهم أكثر سحرًا من كونهم تهديدا للعالم المسيحي. على الرغم من ذلك كان قُرْبهم من السفينة هيكتور لمدة أسبوعين مثيرا للمخاوف: "لم نغامر بفتح أيّ من بضائعنا" خشية أن يستولي عليها الجنود. أتاح التأخير لدالام فرصة كبيرة للإعجاب بأنشطتهم. أراد دالام التحدّث معهم

¹ - Eric L. De Barros: Op.cit, P631.

² - Loc.cit.

³ - Ibid, P632-633.

أو على الأقل التّعرف إلى بعضهم، لكنه كان محبباً " لأنني لم أكن أستطيع التواصل معهم، ولم يكن بمقدور أي شخص معرفة عدد الإنكشاريين البواسل"¹، بعده اتّجهت السفينة هيكتور إلى جزيرة رودس. كانت من بين الصفات التي جعلت من دالام جاذباً للعثمانيين موهبته الموسيقية؛ فهو ليس مُصمّم وباني آلات الأورغون فقط بل كان أيضاً يتقن العزف؛ فقد قدّم عرضاً موسيقياً باستعمال أورغون صغير على متن السفينة هيكتور في أحد الليالي بميناء جزيرة رودس حضره نائب الحاكم العثماني لجزيرة رودس وحاشيته مع بعض اليهود، كان ذلك أوّل عرض موسيقي لدالام جلب له العديد من الدعوات لإقامة عروض موسيقية أخرى. من الواضح أن الترحاب زاد من ثقة دالام بين الغرباء وفي وقت لاحق فقط سوف يُسجّل خوفه من أن يستبقه الأجانب فعلياً عندهم².

كان على دالام عند وصول السفينة هيكتور إلى ميناء إستانبول³ التعامل مع اثنين من أكبر التحديات: عرض جهازه على محمد الثالث والتعامل مع هنري ليلو وكيل شركة المشرق الذي كان ينتظر بعصبية لتنصيبه كسفير؛ لم يُدعى ليلو رسمياً إلى تقبيل يد السلطان لأنّه لم يتم إرسال أي هدية من إليزابيث، ومن وجهة نظر ليلو كان دالام وآلته الموسيقية "الأورغون" حاسمين للمفاوضات المعقّدة مع السلطان لتجديد الامتيازات، لذا من وجهة نظر ليلو اعتمدت مهمته بالكامل على نجاح دالام والهدايا⁴. مما يؤشّر إلى الأهمية البالغة للهدايا في المجال الدبلوماسي في ذلك العصر.

ظل دالام غافلاً عن الأزمة المحتملة في الدبلوماسية الأنجلو-عثمانية، لكنه استاء بشكل متزايد من موقف ليلو تجاهه عندما وجد نفسه في موقف لا مفرّ منه بين السفير والسلطان. ومن الجدير بالذكر أنه لم يُذكر أبداً في مذكراته "ليلو" بالاسم، ولكنه يشير إليه إمّا بـ "السفير" أو أحياناً بسخرية "سيدي اللورد"⁵، وقد تشاجر دالام مع ليلو في اجتماعهم الأول في يوم الجمعة 17 أوت 1599م؛ حيث أُخذت الصناديق التي بها آلة الأورغون إلى "بيت السفير بمدينة جالاتا"، وتم تخصيص غرفة خاصة

¹ - Gerald M. MacLean: Op.cit, P25-26.

² - Ibid, P26-27.

³ . بعد أربع سنوات من التأخير كان وصول سفينة هيكتور المحمّلة بالهدايا الإنجليزية قد أثار قلق بايلو البندقية من أنّ حقبة جديدة من العلاقات الأنجلو-عثمانية ستدمر تجارة البندقية، واعتبر البايو أن هذه السفينة ستحدث ضرراً "بالعالم المسيحي وسوف يفتح أعين الأتراك على أشياء لا يعرفونها". وزاد غضب بايلو البندقية من جرأة الإنجليز في تثبيت مواقعهم لدى العثمانيين بعد أن علم بحُطّط هنري ليلو لتأسيس كنيسة بروتستانتية في بيرّا (Pera) وهي منطقة تقع على الجانب الأوروبي من إستانبول بتركيا] فأصر البايو على أنه "سيبذل كل جهد ممكن من أجل إفشال هذا التصرف المفرط والمتكبر للإنجليز، الذي سيسعى إلى زرع بذور الكالفينية حتى في هذه البقعة". ينظر: Ibid, P34,36.

⁴ - Ibid, P33.

⁵ - Loc.cit.

"لإعادة تركيب الأورغون الضخم وتهيئته بشكل مثالي قَبْلَ نقله إلى السراي"، عندما فُتِحَت الصناديق بدا أن مهمّة هنري ليلو بأكملها ستنتهي بكارثة؛ فالكثير من الهدايا قد تعفّنت وتلّفت بسبب أنها ظلّت أكثر من ستّة أشهر داخل الصناديق، كما تضرّرت بعض أجزاء الأورغون، وكانت هناك ثقبوب وخدوش في جميع أنابيبه بسبب آثار الرطوبة والحرارة، أمام غضب ليلو وإلقاء المسؤولين على دالام رفع الأخير التّحدي بأنّه سيعيد بناءه في مدّة وجيزة¹، وفعلا أعاد بناءه بنجاح بعد عشرة أيام، وقام بتفكيك الأورغون ونقله من ييرا لإعادة تجميعه داخل السراي السلطاني².

استغرق دالام أربعة أيام فقط لإعادة تركيب الأورغون ذو الأنابيب في الغرفة المعينة بالسراي وتمكّن خلالها من تناول الطعام مع مساعديه داخل السراي لمدة شهر؛ أعطي لهم الخبز الأسود مع لحم الضأن المسلوق والزبادي والكثير من الفواكه الطازجة، سجّل دالام: "أكلت كل يوم بالسراي وكل يوم أعطونا العنب بعد الوجبة" وأعرب عن شيء من الإثارة في وجوده داخل القصر [الهمايوني] طوال هذا الوقت، وقد قام في مذكرته بوصف ما رآه من القصر؛ غرفه وقاعاته وحدائقه وأروقته وأبوابه³.

كان هناك خلاف حاد بين الحرفي دالام والسفير هنري ليلو؛ حتى أنّ السفير أوضح لدالام أنه مجرّد حرفي، وأنّه سيدفع الثمن غاليا إذا لم تحظى آتته بإعجاب السلطان محمد الثالث، وأنّ عليه التواضع وأنّ لا يتوقّع مكافأة من السلطان، ولا حتى رؤية السلطان، وشرح له خطّرات الاقتراب من السلطان، وخطّرت أنّ يُعطيه ظهره. غير أنّه أثناء مقابلة الوفد الإنجليزي للسلطان فاز الحرفي على السفير؛ إذ ظل السفير ينتظر خارجا الإذن بمقابلة السلطان بينما دخل دالام إلى داخل القصر لأجل تهيئة آتته الموسيقية ليُشاهدّها السلطان⁴.

جاء السلطان وحاشيته لمشاهدة الأورغون ذو الأنابيب المزوّد بالساعة وتهاويل أخرى تتحرّك ميكانيكيا، اقترب السلطان من لوحة المفاتيح، ولاحظ أنّ المفاتيح كانت تتراجع أثناء الأداء دون أن يلمسها أحد، سأل عمّا إذا كان أي شخص يعرف كيف يستخدمها؟ طُلب من دالام التّقدّم باتجاه الآلة تقدّم متهيّبا حضرة السلطان، غير أنّ الذي حدث كان عكس مخاوفه لقد جلس السلطان بالقرب مني؛ واعتقدت أنه كان يجتذب سيفه ليقطع رأسي"، لقد حصل على خمس وأربعين قطعة ذهبية من يد السلطان نفسه. يمكن لدالام الادّعاء بأنّ لقاءه مع السلطان محمد هو أوّل لقاء مباشر

¹ - Ibid, P35.

² - Ibid, P36.

³ - Ibid, P36-37.

⁴ - Ibid, P38-40.

وحميم بين رجل إنجليزي عادي وإمبراطور عثماني¹، بينما نال الحربي الشاب دالام رضا السلطان كان ليلو السفير ينتظر خارجا تقييل يد السلطان²، اكتشاف دالام لوداعة السلطان تؤكد القاعدة الشريفة التي مفادها ليس الخبر كالمعاينة، فكثير ما وصف الغربيون السلاطين العثمانيين أنهم يقتلون بإسراف لأدنى ريبة.

أعجب السلطان بدالام وقدم له عروضاً مغرية للبقاء في خدمة البلاط العثماني حتى أنّ السلطان عرض عليه اختيار اثنين من محظياته، كان عليه أن يختار زوجة وأطفالا ينتظرون عودته إلى إنجلترا وبعد مرور عشرة أيام، تمت دعوته لجولة في عُرف السلطان، وهي تجربة لم يُسمح بها من قبل لأحد من الغربيين في تلك الأيام، وبصرف النظر عن الغرف المليئة بالزخارف والخزائن المليئة بالملابس رأى ووَصَفَ محظيات السلطان، وقد سمح له برؤية جوارى السلطان في إطار محاولة إغرائه للبقاء في البلاط العثماني³.

تعرف دالام على رجلين إنجليزين يعيشان بإستانبول: الأول منهما كما قال كان مترجمهم واسمه فينش (Finche) اعتنق الإسلام، أحبه دالام كثيرا ووصفه بـ"صديقنا الموثوق"، وقد رافقهم في طريق عودتهم حتى الحدود العثمانية لغرب اليونان، وأنقذهم مرارا من مؤامرات اللصوص والأخطار الطبيعية على طول الطريق، وقد ذكره حين ودّعه بقوله: "هنا على شاطئ البحر افترقنا ومترجمنا أو التركي الذي كان دليلنا من القسطنطينية، على الرغم أنه تركي غير أنّ اسمه الصحيح كان فينش، ولد بشورلي (Chorley) بمقاطعة لانكشير (Lancashire) [شمال شرق إنجلترا]⁴، من الواضح أن دالام شعر أن رجلاً إنجليزي المولد قد يصبح "تركيًا" [أي مسلماً]، ومع ذلك يظل صديقاً موثوقاً لأنّ ما تمّ التأكيد عليه في النهاية كان "اسمه الصحيح" ومكان ولادته.

غير أنّ الرجل الإنجليزي الثاني - وقد تحوّل أيضا إلى تركي أي مسلم - الذي تمّ تعيينه لمرافقته كمترجم بالسراي السلطاني، وعلى الرغم من أنّه قضى معه عدّة أسابيع فقد أثبت أنّه ليس أهلا لثقة دالام وشعر أنّ حياته معه ستكون على المحك⁵، ولا علاقة للإسلام وقيمه بشذوذات البشر.

هكذا رأينا أنّ دالام لم يسلم من الخلفيات المسبقة حول العثمانيين التي روّجت لها الدعاية

¹ - Ibid, P41.

² - بفرحة السلطان بصنيع دالام أصبح الأخير مؤقّتا أهم رجل إنجليزي بإستانبول. حاول السفير ليلو أن ينقذ ماء وجهه؛ في وقت لاحق من ذلك المساء - وبعد أن أجّل موعد مقابلته مع السلطان - بعد تلقي تقرير مفصل عن أداء دالام اعترف ليلو على مضض أنه لو قام أحدهم بإعلامه "كان قد منح 30 أو 40 ليرة. أو ملابس لدالام". لم يسجل دالام ما إذا كان قد تلقى الملابس أو قيمتها. ينظر: Ibid, P43

³ - Ibid, P44-45.

⁴ - Ibid, P11.

⁵ - Ibid, P11-12.

المسيحية، تلك التي اضطلع بها رجال الدين بحماسة منقطعة النظير، رغم ذلك لم يكن قاسيا جدا في أحكامه مقارنة مع غيره ممن لهم خلفية دينية أو ثقافية كبيرة، وربما لعبت مهمته دورا مساعدا في تجسير العلاقة بينه وبين العثمانيين، ثم إن موقف السلطان الحميمي معه خفف من ذهنه الصورة الصارخة للسلطان قاطع الرؤوس بلا سبب، تلك الصورة التي يفضلها العقل الاستشراقي غالبا حين يتناول بالحديث سلاطين آل عثمان.

نتقل إلى الرحالة جورج سانديز (George Sandys)¹ وكتابه: رواية رحلة بدأت 1610م على وصف للإمبراطورية العثمانية ومصر والأراضي المقدسة والأجزاء النائية من إيطاليا، ووليام ليشجو (Thomas Dallam)³ وكتابه الذي يحمل عنوان: الحديث الجامع للمغامرات النادرة والرحلات المؤلمة طوال تسعة عشر عامًا من اسكتلندا إلى الممالك الأكثر شهرة في أوروبا وآسيا وأفريقيا (The total discourse of the rare adventures & painfull peregrinations of long nineteen years travels from Scotland to the most famous kingdoms in Europe, Asia and Africa) نشر لأول مرة سنة 1632م.

بالنسبة لجورج سانديز لم يتعد في رؤيته للإسلام عن الصورة النمطية المألوفة التي نسجها رجال الدين عبر قرون؛ فوالد محمد (صلى الله عليه وسلم) وثني وأمه يهودية!!! عن طريق السحر تزوج ربة عمله - يقصد أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها - ليصبح قائد طائفة من العرب، زعم أنه مبعوث

¹ . جورج سانديز (1578-1644م): رحالة وكاتب إنجليزي، هو الابن الأصغر لرئيس الأساقفة إدوين ساندي (Edwin Sandys) درس بأكسفورد سنة 1589م، وأصبح مترجماً بارعاً وشهيراً في الشعر الكلاسيكي. شرع جورج في رحلته الأولى في ماي 1610م عبر أوروبا متجها إلى القسطنطينية، وعاد إلى لندن بحلول مارس 1612م. بدأ نشر مذكرات رحلاته سنة 1615م، يمثل جورج سانديز النظام التركي على أنه متسامح دينياً. لم يصور الأتراك على أنهم "الآخرون" أو الشر، على الرغم من أنه رأى

إمبراطوريتهم في حالة ركود وفشل. ينظر: David Thomas and others: Op.cit, P171-173

² . أعيد طبع رحلة جورج سانديز أربع مرات من سنة 1615 إلى 1632م وذلك يدل على شهرتها بين القراء. ينظر:

Ibid, P127.

³ . وليام ليشجو (1582-1645م؟): رحالة ومؤلف أسكتلندي. الرحلات المعروفة لليشجو أخذته ليس فقط إلى الأراضي العثمانية وشمال إفريقيا، ولكن في سن مبكرة طاف أوروبا وجزرها. وقد ترجمت رحلاته المفصلة إلى لغات مختلفة وصلت إلى الجمهور في جميع أنحاء أوروبا. كان متعصباً ليس فقط ضد الكاثوليكية، ولكن أيضاً ضد المسلمين والكاثوليك الإسبان والإيطاليين واليهود والمسيحيين الشرقيين والأيرلنديين الذين تلقوا جميعاً قدراً كبيراً من النقد. حين عاد إلى اسكتلندا نشر الطبعة الكاملة والشاملة لرحلاته: الخطاب العام للمغامرات النادرة (The total discourse of the rare adventures) سنة 1632م. ينظر:

David Thomas and others: Op.cit, P244-245.

من قبل الله بشريعة جديدة باعتباره النبي الأخير، وأنه أعظم من المسيح كما أنّ المسيح أعظم من موسى، وعاش في كهف لمدة عامين حيث قام بمساعدة من سرجيوس الراهب النسطوري وعبد الله اليهودي بتأليف "مذهبه اللعين" . . . وهو خليط من الديانات المختلفة¹، مؤسف أن تصدر هذا الهراء عن خريج جامعة أكسفورد العريقة، ولكن التعصب يعمي ويصم.

قال: أساس دينهم القرآن وهو مكتوب بالعربية ويجب ألا يُكْتَبَ أو يُقرأ بلغة أخرى، ومع ذلك تمّ تغييره لا سيما من طرف محمد الثاني!!! [السلطان العثماني محمد الفاتح]، الأتراك يُقدِّرون القرآن الكريم ليس أقلّ من تقدير اليهود للعهد القديم وتقدير المسيحيين للعهد الجديد؛ فهم لا يلمسونه أبداً بأيديهم غير نظيفة، ويقبلونه ويحتضنونه ويقسمون عليه، ويشرح سانديز بعض أحكام القرآن وعبادات المسلمين ويذكر عن الزكاة أنّ القرآن الكريم يحضّ على الصدقة التي يستفيد منها المسيحيين واليهود أيضاً، وحتى "الطيور والوحوش"².

لا يرغب سانديز بالاعتراف بأن الإسلام يسمح بالتفكير العقلاني؛ وهكذا في إشارة إلى ابن سينا يخلّص إلى أنّ الفيلسوف الذي يحظى بالكثير من الإعجاب في أوروبا لا يمكن إلاّ أن يوفّق بين الإيمان والعقل من خلال وضع الإيمان جانبا، ثم يضيف قائلاً: على الرغم من أنّه في اللاهوت المسيحي قد تكون الحقيقة الدينية فوق العقل، إلاّ أنّها لا تتعارض مع العقل والفلسفة، غير أنّه في الإسلام كانت أحاديث محمد (صلى الله عليه وسلم) فوق العقل³!!

وصف في مقطع لاحق لقاءه مع الحجاج المسلمين الذين يتوجّهون إلى مكة المكرمة يكتب سانديز بإيجابية أكثر عن الطوائف الدينية المتنافسة " التي رغم كونها تبدّع بعضها البعض غير أنّها لا تنتهك حقوق بعضها البعض"⁴ ربما في تلميح مقارن للصراع بين الطوائف المسيحية سيما الكاثوليك والبروتستانت.

تحدث عن "رجال الدين" العثمانيين فقال عن المفتي: " أعلى مسؤول ديني في الإمبراطورية التركية مساويا للباباوات القدامى"، "ينهض الإمبراطور حين يقترب منه المفتي ولا يتخذ أي قرار قبل استشارته" ويصف سانديز النظام القضائي، ويذكر عدم امكانية شهادة اليهودي والمسيحي في حق مسلم، ويذكر أنّ الرشوة التي لم تكن في السابق، قد أفسدت القضاء ثم يتحدّث عن الأشراف "الذين ينحدرون من نسل محمد (صلى الله عليه وسلم) والذين يتميّزون بلون لباسهم الأخضر، ويعاقب أي مسيحي

¹ - David Thomas and others: Op.cit, p 176.

² - Ibid, P176-177.

³ - Ibid, P177.

⁴ - Ibid, P177-178.

يرتدي اللون الأخضر عن قصد أو عن غير قصد بنزع ملابسه وقد يتعرّض للضرب أيضاً¹. فيما يتعلق بـ "العادات التركية، إلخ" يقدّم سانديز أحد أقدم الأوصاف للمتزوجات المسلمات والنساء في الأدب الإنجليزي حيث يقدم معلومات عن ملابسهن واستخدام مستحضرات التجميل ويذكر سانديز أنّ النساء عندما يغادرن المنزل لزيارة القبور أو زيارة الحمامات العامة "فإنهن يغطّين رؤوسهن لأن القرآن يمنعهنّ من إظهار جمالهنّ لأيّ كان عدا أزواجهنّ"، ولا يرافقهنّ إلاّ الصبيان دون الثانية عشر أو الخصيان، سمع سانديز أن العلاقات الجنسية بين النساء تجري في "المقصورات الصغيرة" بهذه الحمامات²، يحب الغربيون قديماً وحديثاً إبراز الشهوانية في الثقافات الأخرى. يصف كيف يحتفظ مالكو المقاهي بـ "الأولاد الجميلين" لجذب الزبائن، يُلمّح إلى الميول المثلية الذكورية "على الرغم من أن السلطان قد أعدم ثمانية من خُدّامه بسبب اللواط"، يعامل الرجال جواريهم باحترام تقريباً مثل زوجاتهم، ولا يفرقون بين أولادهم من الجارية والزوجة، ويذكر أنّ "الرجال قد يطلقون الزوجات سعياً وراء الملذات"³.

خصّص سانديز أربع صفحات لوصف السلطان أحمد الأوّل، المشار إليه في جميع أنحاء النص بالطاغية؛ فعلى الرغم من حجم الدولة العثمانية وألقاب السلطان الكبرى يعتقد سانديز أن لدى السلطان ضِعفاً أساسياً وهو أنّه لا يسمح لأحد بتجميع الكثير من الخبرة في القيادة، أو بمعنى آخر يفتقر السلطان إلى ما يشير إليه سانديز بـ "النّبلاء"؛ الأتراك أنفسهم نادراً ما "يعملون في القيادة أو مصالح الدولة"، في حين أن القادة عادةً ما ينتقلون من منصب إلى آخر، وبالتالي يقضون في تلك التّنقلات وقتاً أكثر مما يقضونه في عملهم⁴، وذلك حق، وهو من أوجه الفساد التي تعرض لها كما رأينا أعلام فئة الكتاب من أهل القلم.

يعود سانديز إلى النقطة المؤرّقة في الفضاء المسيحي الأوروبي نقطة الصراع الديني، ويلمّح إلى ذلك من طرف خفي؛ ففي جميع أنحاء النص يشير سانديز مراراً وتكراراً إلى أنه "يُترك لغير المسلمين حرية العبادة كما يشاءون"، ويتجلى اهتمامه بالطوائف المسيحية المختلفة ويصف بالتفصيل معتقداتهم وعباداتهم؛ يصف الروم الأرثوذكس والأقباط والأرمن والموارنة واليعاقبة وغيرهم، وكيف أن جميع أتباع هذه الطوائف يحتفلون بعيد الفصح في القدس "وفقاً لعاداتهم المختلفة" ودون ضغينة⁵، هذا التسامح

1 - Ibid, P178.

2 - Ibid, P178.

3 - Loc.cit.

4 - Ibid, P178-179.

5 - Ibid, P179.

في حينها كان أمرا مدهشا للعقل الغربي.

كان سانديز مراقبًا دقيقًا لما رآه، ترك وصفا مفصلاً وآسرا في كثير من الأحيان عن اللباس والعادات والأخلاق، فضلا عن المباني والأماكن، تمثل مذكراته مثالا مبكراً لنوع جديد من روايات السفر التي تتجاوز الصور المثيرة والاستقطابية في الغالب للأشخاص والأماكن الغربية المسجلة لتحفيز خيال القراء، إلى إعداد تقارير موضوعية، ومع ذلك كان لديه أيضا أهدافا براغماتية: أولاً أراد سانديز أن يعثر غيره من الرحالة على كتاب مفيد كدليل للأماكن التي تمت زيارتها، ثانياً أعرب عن أمله في أن أرباب العمل المحتملين يانكلترا سوف يعترفون به على أنه عالم حكيم ومتعلم قادر على إدارة ممتلكاتهم، يؤكد بعض الباحثين على أنّ قراء سانديز المقصودين كانوا أعضاءا في طبقة النبلاء، وأنه كتب "يؤكد" موقعه في هذه الطبقة، ربما كان لسانديز أهدافا سياسية من حيث تقديم الدروس التي قد تتعلمها إنجلترا حول كيفية حكم المستعمرات المستقبلية: يجب أن يكون المسؤولون من ذوي الخبرة من رجال طبقة النبلاء أو الطبقة الأرستقراطية¹.

رأينا عند سانديز بعض الإشارات الاستشراقية كإشارته للميول المثلية عند العثمانيين، وعدم توافق الإسلام مع العلم والفلسفة وهي مقولة رائجة حتى اليوم، وكيف عاب على العثمانيين افتقارهم لطبقة النبلاء، وتحكم العبيد في مفاصل الدولة، مع أنّ ما عابه سانديز أثنى عليه الكثيرون قبله وبعده على أنه سبب قوة العثمانيين الذي جعلوا معيار الترقية هو الكفاءة لا الدم، ورأينا تصويره لطغيان السلطان التركي، رغم ذلك قدّم سانديز وجهات نظر إيجابية بخصوص التسامح الديني وتعايش مختلف الطوائف والمذاهب الدينية تحت ظل ذلك الحاكم الذي وصفه بالطاغية، ذلك التسامح والتعايش الذي حُرمت منه أوروبا وكلفها عقودا من الصراعات الدينية، كما نظر بإيجابية إلى وضع المرأة بين العثمانيين، ويذكر بعض الباحثين أنّ "سانديز كان أول مسافر إنجليزي يركّز على النساء في الإمبراطورية العثمانية ويقدم تقريرا مفصلا عن عاداتهن الاجتماعية وسلوكهن"². كما أثنى على نظام الحمامات العامة لدى العثمانيين، وقد حاول سانديز أن يكون متوازنا رغم أنه لم يتحرّر من الآراء المسبقة.

بالنسبة للرحلة وليام ليثجو في مذكرات سفره التي يبلغ مجموع صفحاتها 507 صفحة، وهي طبعة مُوسّعة من كتاب سابق لليثغو أكثر جاذبية وصدقا، وهي عبارة عن رحلة قيّمة ومؤلة كُتبت سنة 1614م، وقد أهدى ليثغو كتابه الأوحده إلى الملك الإنجليزي تشارلز الأول، على أمل الحصول على الرعاية الملكية لجهوده الأدبية، والتعويض عن معاناته العقلية والجسدية. يصف ليثغو

¹ - Ibid, P179-180.

² - Ibid, P180.

الإسلام والمسلمين والعلاقات المسيحية الإسلامية في عدة أقسام من كتابه¹.

تتضمن هذه النسخة الموسعة أوصاف رحلات ليثغو الثلاثة الكبرى؛ اثنان منها إلى الأراضي والإمبراطوريات الإسلامية، أو كما عبّر عنها في المقدمة "رحلاته المملّة والفضوليّة، في أفضل وأسوأ أجزاء العالم" يتتبع النص في أغلب الأحيان - وهو الأسلوب التقليدي لكتابة السفر - حُطَى ليثغو بطريقة منهجيّة من خلال تقريره الطويل والاعتيادي ضدّ من يُصادفُهم من اليهود واليسوعيين والروم الأرثوذكس وغيرهم من المسيحيين الشرقيين².

يمثّل الإسلام والمسلمون محورًا رئيسيًا للكتاب؛ واجهه لفترة وجيزة من بعيد كتهديد للسفن التركية المعادية والقراصنة المغاربة، وأكثر حميميّة في أوقات الفراغ كما في وجبات العشاء المهذّبة مع الإنكشاريين المرتدين المعروفين من أبناء الوطن السابقين، ورفاق القافلة المدخنين للتبغ. وأوصافه للشعوب مؤطره إلى حد كبير جغرافياً، تنتقل من الإيطاليين إلى الأمم الشرقية عند وصوله إلى مناطق سيطرتهم. في كتابه توسّع ليثغو في أحكامه السابقة بشأن وضع اليونانيين، لينضمّ إلى جوقه المؤلفين المعاصرين الذين ينظرون إليهم نظرة سلبية [باعتبارهم مرتدّين وفي أحسن الأحوال أتباع مخلصين للعثمانيين]³.

تكثر في الكتاب المواضيع المسيحية-الإسلامية هناك وصف لإستانبول وكنيسة آيا صوفيا " تم تحويلها الآن إلى مسجد، وأصبحت تابعة للمحمديين بأسلوب شيطاني"، والتي تمكّن ليثغو من زيارتها برفقة إنكشاري. يأتي بعد ذلك سرد قصير للسّمات الرئيسيّة للعقيدة الإسلامية وتصوير نقدي وإن لم يكن أصيلاً لحياة محمد (صلى الله عليه وسلم) والذي يتضمن عناصر مألوفة من الجدالات المسيحية في القرون الوسطى المتأخرة؛ على سبيل المثال "كان محمد محتالاً لأبوين يهوديين ومسيحيين مختلطين، وقد تأثر براهب يدعى سرجيوس وعانى من الصّرَع" كما يُصوّر ليثغو محمد على أنه محتال جعل الناس يؤمنون به وبشخصيته الناعمة، رغم أنّ ليثغو يخلط بعض جوانب حياة النبي بما في ذلك مكان موته. في مختلف مراحل العمل ليثغو يُقدّم المسلمين كأناس سُدّج بسطاء ضلّلوا بسهولة بواسطة رجال الدين المنافقين⁴.

نرى أنّ وجهات نظر ليثغو الإجمالية حول "الأترك" ودولتهم سلبية، فهي في نظره قوة فاسدة مُستعبدة ومُسيئة لشعوبها، ويشدد على القيمة الكبيرة لكتابه على أساس أنّه يُقدّم شهادته كشاهد عيان ويقدم رؤى جديدة. مع ذلك فإن العديد من الموضوعات التي طرقتها بعيدة عن الابتكار

1 - David Thomas and others: Op.cit, P232-233.

2 - Ibid, P233.

3 - Loc.cit.

4- Ibid, P233-234.

بما في ذلك تصويره للإسلام. إن نهج ليثغو في تقديم الإسلام كان متجانسا متجاهلا على سبيل المثال الانقسامات بين السنة والشيعة: حَقَّضَ التَّنَوُّعَ الكبير في الإسلام إلى عدد قليل من الأعراق: المغاربة والأتراك والبدو العرب. حيث يمثّل المسلمون في الغالب خطراً على المسافر المسيحي، خاصة البدو العرب في طرق القوافل¹.

نختم بهنري بلونت (Henry Blount)² ومذكراته تحمل عنوان: رحلة إلى الشرق (A Voyage into the Levant) شملت رحلته المسار من إنجلترا إلى البندقية، إلى دالماتيا وسلوفانيا والبوسنة والمجر ومقدونيا وبيساليا وتراقيا وروودس ومصر والقاهرة: مع ملاحظات خاصة بشأن الحالة بتزكيا وحالة الناس في ظلّ هذه الإمبراطورية، نشرت لأول مرة في 1636م في جزئين يضمّان رحلات المؤلف من 1634-1635م، المجلد الأول سردي والآخر تحليلي³، وهو أمر مبتكر تماماً نظراً لأنّ غيره من الرحالة يخلطون رواياتهم مع تحليل للتاريخ العثماني والمجتمع، ربما تكون رحلة بلونت هي أشهر رحلة إنكليزية معروفة للإمبراطورية العثمانية في هذه الفترة⁴.

لفت هنري بلونت نظرنا إلى طريقته في المعرفة؛ إذ يُصِرُّ أنّ المعرفة الحقيقية لا يمكن اكتسابها إلا من خلال الخبرة والملاحظة الدقيقة التي لا يمكن العثور عليها في كتابات الآخرين بسبب أنّ "الروايات في جزء كبير منها خاطئة، ناتجة عن معلومات خاطئة أو مضلّلة أو مصلحية... لذلك أنا أرغب إلى حد ما في الاطلاع على الأمة التركية ليس من خلال قراءة كتاب عنها، ولكن من خلال المجازفة وتحمل كل مشاق السفر، لأحصل على معرفة بالعين المجردة دون انبهار أو مجاملة أو تحيُّز أو إلغاز يشوّش على العقل" ومن أجل حسن معرفة الأمة العثمانية نجد أنّ هنري بلونت يعيش مع السكان المحليين، ويتحدث في بعض الأحيان مع النساء والأطفال، ويتجنّب السفر مع رفاقه أبناء

¹ - Ibid., P234-235.

². هنري بلونت (1602-1682م): محامي ورحالة إنجليزي. خريج أكسفورد سنة 1618م. في سنة 1629م قدم طلباً للحصول على إذن للسفر، فقام بجولة في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا على مدار ثلاث سنوات. في سنة 1634م أبحر إلى تركيا راغباً في معرفة حقيقة الأتراك وهل هم فعلاً برابرة أم أنّها ثقافة تختلف عن ثقافته. روايته لرحلته: رحلة إلى بلاد الشرق نُشرت عام 1636م بعد عودته إلى إنجلترا أصبح بلونت عضواً في النخبة الملكية (The Honourable Band of Gentlemen Pensioners) لتشارلز الأول ملك إنجلترا سنة 1639م كان الملك يحب كتابه. صنّف ضمن أصحاب الفكر الحر، وقيل إنه كان يميل نحو مكافحة الكهنوتية، عيّن في عهد جيمس الثاني عمدة لمقاطعة هارتفوردشير في سنة 1666م، وهو المنصب نفسه الذي شغله والده. ينظر: David Thomas and others: Op.cit, P244-245.

³. اعتبر الباحث والمؤرخ الإنجليزي البروفسور جيرالد ماكلين (Gerald Maclean) أنّ الجزء الثاني من هذا العمل هو علامة تبشر باستشراق عصر التنوير. ينظر: Gerald M. MacLean: Op.cit, P165.

⁴ - Radu Andrei Dipratu : Op.cit, P111-112.

وطنه وغيرهم من المسيحيين، ويرتدي الزي المحلي، ويتصرّف أحيانا كجاسوس ليجمع المعلومات والملاحظات، ويرفض الدخول في نزاعات دينية أو يتحدث كثيرا عن بلده، يوظّف إنكشاري للإرشاد والسلامة¹، يعني كل ما يتيح له الحكم بموضوعية، وقد كانت الموضوعية عزيزة في ذلك الوقت إذا تعلق الأمر بالعثمانيين وخاصة الإسلام.

كان بلونت مدرّكا أيضا لما أسماه "الغرور" حول تفوّق ثقافة الشخص، وكيف يمكن أن يؤدي ذلك إلى تشويه الطريقة التي يُنظر بها إلى الآخرين، وحاول أن يحمي نفسه من هذا "التعصّب الجاهل"² فهو بذلك يُظهر استعداد كرجل من النبلاء لتقبّل وتفهمّ الخلفيات الثقافية للعثمانيين حتى وإن خالفت قناعاته الذاتية، ولعلّ ما يؤكّد ذلك ما جاء في بدايات مذكراته إذ قال أنّه بعد أن تجوّل بأوروبا لم يجد اختلافا كثيرا عما كان يعرفه من قبل، لذلك قرّر الاتجاه نحو الجنوب الشرقي حيث ممتلكات الأتراك الذي يبدو أنّهم "الشعب الوحيد المعاصر الأعظم تأثيرا"، ويرى أنه لا يمكن أن يكون هناك "مشهد أفضل" إثارة لاهتمام المسافر من تركيا، لأن الأتراك وضعوا أساسا لإمبراطوريتهم "كما لم يفعل أي شعب آخر على الإطلاق"³.

كانت غايته هي وصف "دين الأتراك ومبادئهم وسياستهم" دون الخلفية التي تمّ تكريسها على أنّهم برابرة، وليس على أنّهم حضارة أخرى تختلف عن حضارتنا، كما كان مهتمّا بالتعرف على الجاليات الدينية الأخرى التي تعيش بين العثمانيين خاصة اليهود الذين وصفهم بـ "التعصّب والوضاعة"، كما كان يتطلّع لمعرفة قوة وانضباط الجيش العثماني، وقد وصف الإمبراطورية العثمانية بقوله أنّها على الأرجح "أعظم تجمع للبشرية في هذه الأوقات"، أراد أن يعرف كيف تمّ استيعاب هذا التنوع الكبير⁴، فالتعاشيش بين مختلف الأعراق والديانات في الدولة العثمانية كان لغزا لدى الكثير من الغربيين.

تعاقد بلونت مع جندي عثماني إنكشاري كمرشد وأبحر من البندقية باتجاه إستانبول - كان يسميها (Stambole) ويدلّ معناها كما قال على "الإيمان" و "الوفرة" - في 7 ماي 1643م استغرقت الرحلة اثنان وخمسين يوما، لدى وصوله أقام في البداية مع عائلة مسلمة، ثم بعد تغيير ملابسه أقام مع عائلة مسيحية، ورفض دعوة من أحد الباشوات العثمانيين لشرب القهوة أثناء توجّه هذا الباشا لمعركة ضد بولندا، وسبب رفضه هو أنّ البولنديين كانوا مسيحيين على الرغم من الخلاف المذهبي معهم وقال أنّه كان بإمكانه تلبية الدعوة باعتباره قانونا رجلا إنجليزيا، والإنجليز ليس فقط حلفاء السلطان

1 - Gerald M. MacLean: Op.cit, 127- 128.

2 - David Thomas and others: Op.cit, p190.

3 - Ibid, P246.

4 - Loc.cit.

بل لهم سفير بإستانبول، وصرّح أن الملك الإنجليزي تشارلز الأول يعبّر السلطان أعظم ملك في العالم وعلّق أن ذلك قد يكون صحيحاً وقد لا يكون صحيحاً¹، كنوع من الاحتراز وتحري الدقة.

يصف بلونت طوال مذكراته ما يراه باهتمام واضح وغالباً بإعجاب؛ قال مثلاً " كان أغرب ما وجدته بين البحارة الأتراك هو لطفهم البالغ"، مستعدين لتقديم يد المساعدة "بهذا الصبر وبلطف وكرم كذلك"، يجمعهم دائماً الاحترام مع الود الحقيقي، وكتب أيضاً: " لا يوجد شعب أكثر تهدياً في التحيّة" من الأتراك " إذا جمعتك بهم الطريق"، ويصف كيف يتمّ تجنيد الجنود الإنجليز من الشباب المسيحي الواعد، ثم يتمّ تدريبهم و"ترقيتهم لأعلى المناصب" بالجيش².

تحدّث عن الإسلام فقرّر أنّ العلاقة بين المسيحية والإسلام بدأت مع بدايات الأخير؛ إذ يصف بلونت الحوار الذي دار بين الملك جبريل (عليه السلام) و "نبيهم" حوار مكتوب بالعربية و"يعطيه كلمة الله" [في إشارة إلى المسيح كلمة الله وروحه]، ثم قال أنّ منع ترجمة القرآن الكريم حافظ على استخدام اللغة العربية وعلى "غموض الدين"، أدّت الاختلافات في تفسير القرآن إلى نشوء طوائف مختلفة بين المسلمين، كلّ أمة تفسّر القرآن وفق سجيّتها؛ وبالتالي يفسّره " التتار ببساطة، العرب والمغاربة بشكل خرافي، الفرس بإبداع، والأتراك بحرية أكبر!!" كان قد سمع إقراراً من الكثيرين بأنّ "الفرس كانوا الأفضل من بين المحمّديين!!" الأمر الذي "يجعل الجنود الأتراك أكثر جرأة ضدّ المسيحيين من الفرس!!" الحماسة والخبث والازدراء تصاحبهم في المعركة ضدّ المسيحيين ولكن فقط "العصبية القومية" ضدّ الفرس³ إنّما الاختلاف المذهبي بين السنة والشيعة.

تظهر موضوعيته حين علّق على الطريقة التي عومل بها بشكل سيء عندما كان يرتدي الزي المسيحي: يذكر بلونت أنه قد يكون من الضروري للأتراك الحفاظ على حالة العداء تجاه المسيحيين لأنهم في نزاع عسكري مستمرّ ضدّهم، ويوضح أنّ حالة العداء بين الترك والفرس لم تكن دائمة فقد أخبره بعض الإنكشاريين أنّهم ذهبوا للحرب ضدّ الفرس مكرهين⁴، على اعتبار أن الفرس وإن كانوا شيعة فهم مسلمون، وكان الجيش العثماني يفضل القتال دائماً ضدّ أوروبا حيث الكفر الصريح.

يصف بلونت ما يسميه بتعاليم الإسلام المُبهجة التي تمنحه الجاذبيّة؛ فالله لم يمنح الشهوة الجنسية للإنسان ليُشعره بالإحباط ولكن ليستمتع بها، ما دام السّماح بتعدّد الزوجات يضمن ارتفاع معدل المواليد وهو "أساس جميع الإمبراطوريات العظيمة"، وبالمثل فإنّ تحريم الخمر "يقوي الجندي ويمنع

1 - Loc.cit.

2 - Ibid, P247.

3 - Loc.cit.

4 - Loc.cit.

الفوضى"، "وضع محمد دينه!! ليتناسب مع الطبيعة البشرية، وتجنب الخرافات والاعتماد على المعجزات التي يمكن أن تكون مُلَقَّعة!! تبشيره بجنة الفردوس يُعَلِّي الأمل على الخوف"، "أولئك الذين يموتون بالمعركة موعودون بالجنان الخصبة، والعذارى الجميلات في انتظارهم"، وبصرف النظر عن سوء معاملة المسيحيين، فإنّ "الرديلة الوحيدة بين الأتراك هي اللواط! على الرغم أنّهم لم ينظروا إليه كـرديلة!!! وقبل إنهاء حديثه عن الدين التركي يتحوّل إلى موضوع الخلاص الأخرى؛ الجحيم محجوز لأولئك الذين لا يعترفون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) بينما تنتظر الجنة هؤلاء المسلمين الذين تفوق حسناتهم سيئاتهم، لذلك يشارك الأتراك في العديد من الأعمال الخيرية ويوقفون في تركيا مستشفيات ومساجد ممتازة¹.

تحوّل بلونت بعد أن وصف عبادات المسلمين، إلى وصف القضاء، ويعلق بأنّه إذا ثبت فساد أي مسؤول فإنّه يتمّ التعامل معه بشدّة، يتابع بلونت وهو يناقش العدالة العثمانية: "إن أحد سماتها البارزة هي سرعة التنفيذ"، على الرغم من أنّ القانون يُستخرج من القرآن، إلّا أنّه "لا كتاب بشكل واضح لقانون معين" ولا يطبق القضاة محتوياته حرفياً ولكن "من خلال [الاستنباط]"²، بل كانت هناك قوانين مكتوبة منذ عهد القانوني.

يصف بلونت كيف أن الأتراك عندما يستولون على أي بلدة جديدة يبنون على الفور حمامات عامة لأنّ النظافة تعتبر علاجاً للمرض، نظامهم الغذائي دسم جداً، سجيّة التركي "سخية ومُحِبّة ونزيهة" والجزء الوحيد من "الظلم البغيض" الذي وجدّه فيهم هو عاداتهم في شراء أي مسيحي يجذونه كعبد؛ يذكر بلونت أنّه كان عليه في كثير من الأحيان إشهار سلاحه للحفاظ على حرّيته الخاصة، ولم يكن ليكون له أيّ حلّ إذا قرّر مرشده الإنكشاري بيعه³، وهذا أمر مبالغ فيه في إجراءات البيع كانت تتم وفق قوانين معلومة.

يشرح بلونت أن الأتراك لا يقتلون الناس بسبب دينهم، ولكنهم يفرضون أعباء ضريبة ثقيلة على غير المسلمين، بحيث يصبح هؤلاء مع مرور الوقت مُدركين بأنهم "عاطلين وبائسين، وأنهم هدف للضريبة ومهزومين" فيدفع ذلك العديد منهم إلى اعتناق الإسلام!! من ناحية أخرى نادراً ما يتحوّل الأتراك إلى مسيحيين، وبالعودة إلى سؤاله الافتتاحي حول ما إذا كان الأتراك بربريين أو حضارة مختلفة؛ أشار إلى أنّه "غالبًا ما يكون من الغرور في الأمة أن تفكّر بأنّها أكثر مدنية وعبقريّة من الأمم الأخرى

¹ - Ibid, P247-248.

² - Ibid, P248.

³ - Loc.cit.

وأن ترى الآخرين على أنهم مؤمنون بالخرافات أو أغبياء؛ احتقر المصريون اليونانيين، والإغريق احتقروا الرومان"، وهنا يبدو أنه يجيب عن سؤاله بالإيجاب: الدولة العثمانية هي حضارة أخرى، تختلف عن حضارته الخاصة ولكن ليست بربرية¹.

وصفت مذكرات الرحالة هنري بلونت بأنها محاولة مبكرة وربما الملاحظة التجريبية الأولى للعالم العثماني²، يدرك بلونت وجهة النظر الأوروبية المتحيزة للعالم العثماني التي تسمه بـ "البربرية" ويفترض بدلا عن ذلك أنها حضارة أخرى مختلفة لها خصوصيتها، ولكن ليس بالضرورة أقل شأنا، وعلى عكس العديد من الأوروبيين الذين يكتبون عن العالم الإسلامي عارض بلونت التعميمات حول الإسلام مشيراً إلى أن القرآن خاضع لتفسيرات مختلفة تتراوح من التفسيرات "الخرافية" إلى التفسيرات "الليبرالية"³. تتناقض مذكرات بلونت بشكل حاد مع أوصاف أخرى معاصرة أو شبه معاصرة للدولة العثمانية التي لم ترى فيها إلا الطغيان والظلم والبطالة واضطهاد المسيحيين، ولا تجد شيئاً يمكن أن يُمدح أو يُعجب به في الفضاء العثماني؛ فقد وصّف بلونت سوء معاملة المسيحيين لكنه حاول أن يتفهّم ذلك ضمن السياق الإمبراطوري لنظام سياسي صُمم للانخراط في حرب مستمرة ضد المسيحيين⁴ وهو الذي نسميه في الإسلام عقيدة الولاء والبراء التي تحفظ للمسلم دينه وهويته.

يبدو أنّ بلونت تجنّب في حديثه عن الإسلام استخدام مصطلحات مثل "نبي زائف" و "مُفبرك" و "مُعادي للمسيحية"، كما اختار ألا يتضمن حديثه عن الإسلام أي أساطير شعبية كما أنه لا يشير إلى القرآن باعتباره مجموعة من المواد المسيحية واليهودية السابقة، ويصف الإسلام على أنه مصمم للتوافق مع طبيعة البشر، وأظهر تفاعلاً مرحاً بحديثه عن بعض "التعاليم المبهجة" كما لم يلجأ إلى أي لوم صريح لسلوك محمد (صلى الله عليه وسلم) المعنوي أو إدانته باستخدامه للسياق كان بلونت مُنفتِحاً حول ما أعجبه في الأتراك، ووصفه لدينهم يفتقر إلى أي تقييم سلبي رغم أنه يرى أنّ الإسلام من وضع محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه!!! تكمن الأهمية الرئيسية لمذكرات بلونت بهدفه في رؤية الآخرين كما يرون أنفسهم، أو في مواجهة الخلفيات الشائعة، أو على الأقل التحقّق لمعرفة ما إذا كانت لها جذور في الواقع⁵.

¹ - Ibid, P249.

² - كما وصفت من قبل بعض الباحثين بأنها التجسيد العملي لفلسفة فرانسيس بيكون التجريبية التي تفترض أنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة إلا من خلال التجربة، وأن التعميمات يمكن أن تستند فقط إلى الملاحظة. ينظر: Loc.cit.

³ - Loc.cit.

⁴ - Ibid, P249-250.

⁵ - Ibid, P250.

نرى أنه لا يدافع عن السفر من أجل الترويج للإيمان الديني، بل من أجل تعزيز المعرفة عن طريق البحث العقلاني الذي سيبدد كما كان أصنام القبيلة، من خلال تحويل فهم الإمبراطورية العثمانية من منظور ديني إلى إطار مرجعي تجريبي، لم يكن إنجاز بلونت يقتصر على إزالة الغموض عن الحقائق الثابتة المتأصلة في التحيز القومي، ولكن أيضاً لتقديم طرق لفهم العثمانيين، وفهم كيف ازدهرت إمبراطوريتهم بطرق عملية ومفيدة. علاوة على ذلك يصف بلونت السفر باعتباره تمريناً على إعادة البناء الذاتي الذي يجب أن يبدأ - إذا أُريدَ له النجاح - مع تعليق التصورات والمواقف المحليّة المعيارية، والتفكير خارج الدين الأصلي وبعيدا عن الشائعات¹.

أظهر الرحالة الثلاثة (جورج سانديز، وليام لينغو، وهنري بلونت) درجة عالية من الفضول تجاه تعايش العديد من الديانات في المقاطعات العثمانية؛ يجب على المرء أن يتذكر أنه في هذه الفترة لم يكن يُسمح لليهود بالاستقرار بإنجلترا، وحتى لو كانت بعض الاتفاقيات بين الحكام الإنجليز والمغاربة قد سمحت للتجار المسلمين بممارسة دينهم بحريّة بإنجلترا - وهو ما لم يكن على وجه الحقيقة - فإنه إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر كان المسلم في بريطانيا ملتزماً بأن يكون "هدفاً للسخرية المسيحية والاضطهاد والعنف"².

يُقدّر الرحالة الثلاثة الحرية التي تُتيح للمسيحيين ممارسة دينهم في الإمبراطورية العثمانية حتى أنّ وليام لينغو يتهم اليونانيين بالكذب حول تعرّضهم للاضطهاد من قبل السلطان، ويذكر هنري بلونت أن سكان صقلية يتدمرون وقالون: إنّ اليونانيين عاشوا أكثر سعادة تحت حكم الترك من الصقليين تحت حكم الإسبان، وبطريقة مماثلة في جنازة زوجة السفير توماس غلوفر (Thomas Glover) بإستانبول عام 1612م، طرح الواعظ ويليام فورد (William Forde) السؤال التالي: "تركي يسمح بشرح إنجيل المسيح. البابا ومحاكم التفتيش تدين ذلك فمن هو الرجل الأفضل؟"³

أعجب الرحالة البروتستانت بالتعايش الديني في الإمبراطورية العثمانية، ومقارنة بالتعصب الذي أظهره البابا أو بعض الملوك الكاثوليك تجاه البروتستانت وحتى تجاه المسيحيين الشرقيين، يمكن للمسافرين النظر إلى السلطان العثماني باعتباره بطلاً للتسامح الديني، أجواء التسامح تلك كانت محط إعجاب الكثير من الرحالة الغربيين، غير أنّ الكثير منهم ربط ذلك التسامح بطبيعة الشرقيين، أو مكر السياسيين وليس بتعاليم الإسلام.

¹ - Gerald M. MacLean: Op.cit, P134.

² - Radu Andrei Dipratu : Op.cit, P112.

³ - Ibid, P114.

يذكر وليام ليثغو أن الأتراك ليس لديهم أيُّ اعتبار للمسيحيين أكثر من اهتمامهم بالكلاب وكثيراً ما يتحدثون عن "الشعب المسيحي المنكوب تحت حكم هؤلاء الكفار"¹، وتجد شيئاً من ذلك أيضاً عند هنري بلونت، وتعليل ذلك هو أنه لا يجب أن ننسى أنه رغم كون المسيحيين أحراراً في حياتهم وممارسة دينهم في الدولة العثمانية، إلا أنّ نظرة الأوروبيين إلى الإسلام كانت لا تزال ترى فيه التهديد الأكبر، ولا يزال خطاب الحرب المقدسة مألوفاً جداً بلندن خلال القرن السابع عشر، يجب أن يُقَابَلَ كلُّ تصريح إيجابي عن مكانة المسيحية داخل الإسلام بتقارير القمع والعبودية، هذه ميزة مشتركة لجميع كتب الرحلات الثلاثة، إنَّهم يُثْنُونَ على حقيقة أنّ السلطان يسمح لمختلف الأديان بممارسة شعائرها الدينية في جميع مقاطعاته الواسعة ولكن لا ينبغي الثناء على أسلوبه الأكثر حُبّاً - حسب وصف هنري بلونت - ذاك الذي يستخدمه لإخماد المسيحية².

نستنتج أنّ أوّل ما يمكننا استخلاصه من الرحلات الثلاثة هذه هو اختلاف الوضع الفعلي لغير المسلمين في الدولة العثمانية من منطقة إلى أخرى؛ كان الأوروبي الغربي (الإفريقي) عادة أكثر أماناً في البلقان أو في المدن الكبرى منه في الصحراء ومسارات الحج المعروفة. وكما هو متوقع فإن قوانين السلطان كان من الأرجح أن يدعمها القضاة المعيّنون رسمياً أكثر من القبائل المحلية الجامحة. لكن مبادئ الشريعة التي حدّدت تقليدياً وضع أهل الذمّة منذ عهد الخليفة عمر كانت محترمة حتى عند البدو. يجب أن نضع في اعتبارنا ثانياً أنه حتى لو بدأ هؤلاء الرحالة الثلاثة منفتحين عندما يتعلق الأمر بالحقائق الدينية، فإنهم كانوا أبناء أوائل العصر الحديث، وكانوا يعيشون ويفكرون وفقاً لعصرهم؛ العصر الذي كان فيه البروتستانت والكاثوليك لا يزالون يتقاتلون في وسط أوروبا ومحاولين نقل هذه المعركة حتى إلى أراضي المسلمين؛ كان الكاثوليك يحاولون منع انتشار الهرطقة بين المسيحيين الشرقيين، بينما أراد البروتستانت الحفاظ على إخوانهم الشرقيين وحتى مسيحيي شمال إفريقيا من البدع الكاثوليكية.

بالإضافة إلى الصراع الديني كان هناك خوف من أن الكاثوليكية جاءت مع الاستبداد الإسباني قوّة دينية أخرى كانت تقاتل ضد الإسلام، على الرغم من أن الحملة الصليبية الفعلية لم يعد لها وجود إلا أن الحديث عن الحرب المقدسة ما زال قائماً، وبناء على ذلك كان على رواية العثمانيين المتسامحين تجاه المسيحيين أن تتناقض مع روايات سوء المعاملة والمضايقة، من المؤكد أننا لا نستطيع أن نقارن بين فهمنا الحالي للتسامح الديني مع التسامح الديني العثماني في القرن السابع عشر؛ السماح للمسيحيين بممارسة عقيدتهم، على الرغم من فرض بعض القيود مثل منع دقّ الأجراس، ومنع إظهار الصليب أمام

¹ - Ibid, P114-115.

² - Ibid, P115.

الجمهور، وبناء كنائس جديدة وما إلى ذلك، لكن مع ذلك أظهرت الدولة العثمانية درجة معينة من الحرية الدينية التي لم يجدها الرحالة الأوروبيون في أي مكان آخر.

بالمقارنة لجأ الملوك الإسبان بعد استعادة الأندلس إلى إرغام المسلمين على الارتداد عن دينهم وفشلوا في النهاية في دمج رعاياهم المسلمين السابقين في مجتمعاتهم؛ تم ترحيل الموريسكيين من شبه الجزيرة الإيبيرية خلال 1609-1614، في حين رحّب العثمانيون برعاياهم المسيحيين وأدججهم في نظامهم القانوني، فاعتنقوا الثقافة العثمانية، نجد أنّ الموريسكيين رفضوا الثقافة الأوروبية، من وجهة النظر هذه فإن التسامح الديني العثماني ليس مفهومًا صالحًا فحسب ولكنه يمثل أيضًا قصة نجاح.

نلاحظ في الختام أن التجربة المباشرة جعلت المسافرين على اختلاف لغاتهم وطوائفهم المسيحية أحيانًا أكثر حساسية تجاه "الآخر" وأخرى أقل؛ يعتمد ذلك على الخلفية الثقافية للرحالة وكذا على الشخصية والعقلية، ولم تكن الرحلة لتجعل الناس أكثر انفتاحًا، ولكنها منحتم أداة لاختبار تحيزاتهم - في هذه الحالة نحو العثماني غير المؤمن والبربري - مما أسفر على نتائج متباينة ومع ذلك فهي تكشف لنا موقف عموم الأوروبيين المتأثرين بالدعاية الدينية المسيحية تجاه العثمانيين.

حاولت في هذا الفصل وضع تصور واضح للإطار الحضاري الذي يمكننا من خلاله فهم انتقال العثمانيين من استلهام أفكار الإصلاح السياسي من الشرق قبل معاهدة كارلوفيتز إلى استلهامها من الغرب بعد تلك المعاهدة، وكذلك لفهم كيف تنتقل الأفكار مع عالم الأشياء تبعاً لقوة الدولة وضعفها، وذلك عبر المباحث الثلاثة لهذا الفصل؛ بداية من تطور نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين والتي غذتها بشكل سلبي جدا الدعاية البابوية بروما، تلك النظرة التي أصبحت أقل سلبية بداية من هزيمة العثمانيين في الحصار الثاني بفيينا إلى أن تحولت إلى شكل إيجابي مع موجة غرائبية الشرق في القرن الثامن عشر الميلادي حين أصبحت الدولة العثمانية مجرد رجل أوروبا المريض.

غير أن هذه النظرة الأوروبية المتطورة تجاه العثمانيين لا يجب أن تجعلنا نغفل عن التأثير العثماني الأوروبي المتبادل الذي تم بسطه في المبحث الثاني بحيث أن العثمانيون أثروا أيضا من ناحية إيجابية على ازدهار التجارة والفن والأدب والاقتصاد في الكثير من الدول الأوروبية، والبروتستانتية مدينة في رسوخها بأوروبا إلى دعم العثمانيين، والرأي العام الأوروبي مدين في تواجدته إلى مقاهي العثمانيين كما أن الأوروبيين أثروا أيضا إيجابا على الفن والاقتصاد والتجارة بالدولة العثمانية، وإن ظلت النظرة الأوروبية العامة تجاه العثمانيين مليئة بالكثير من السلبية.

الفصل الرابع: جهود فئة الكتاب من أهل القلم بعد كارلوفيتز
وقبل التنظيمات

المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم والصدارة العظمى قبل عهد التنظيمات
المبحث الثاني: السفراء و" السفارات نامه " (اعادة اكتشاف أوروبا)
المبحث الثالث: أبو بكر راتب أفندي ومحمد سعيد خالد أفندي

أتناول في هذا الفصل جهود فئة الكتاب من أهل القلم بعد معاهدة كارلوفيتز (Karlofça) في 26 شعبان 1110هـ / 26 يناير 1699م أين أصبح الضعف العثماني مُنذرًا بانحيار الدول وقبل بديّة عهد التنظيمات سنة 1255هـ/1839م التي أريد من خلاله إصلاح الدولة العثمانية على النمط الأوروبي لاستعادة قوتها وريادتها، نستطلع فيه الدور الذي اضطلعت به فئة الكتاب من أهل القلم قرابة قرن ونصف في فتح أبواب الدولة العثمانية على رياح التغيير الأوروبية، نرى فيه التحول الكبير الذي طرأ على سلم الترقيات بحيث أتاح لرئيس الكتاب ولأوّل مرة في التاريخ العثماني أن يصل إلى أعلى منصب في المنظومة الإدارية العثمانية منصب الصدر الأعظم، وكيف استطاعوا من خلاله زيادة التأثيرات الأوروبية في السياسة والمجتمع العثماني، كما نرى الدور الذي لعبته تقارير "سفارت نامه" التي كتبها السفراء من فئة الكتاب من أهل القلم في جعل تبني الإصلاحات على الطريقة الأوروبية هي القاعدة وليس الاستثناء، كما نرى جانباً من بدايات الصراع الإيديولوجي بين التغريب والمرجعية الإسلامية حتى ضمن فئة الكتاب من أهل القلم.

المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم والصدارة العظمى قبل عهد التنظيمات

معاهدة كارلوفيتز الكارثة التي أيقظت العثمانيين

فلسفة الإصلاح العثماني

الصدور العظام من فئة الكتاب من أهل القلم (إحصائياً)

نوشهري دماذا إبراهيم باشا وعهد التوليب

الصدر الأعظم خليل حميد باشا

الصدر الأعظم محمد سعيد غالب باشا

يعلمنا التاريخ أنه إذا كانت الحكومات ككيانات سياسية تتناسب مُدَّتُهَا وتماشُكُهَا وقُوَّتُهَا مع القواعد التي تقوم عليها، وأتَمَّ مهْدَدَة بالانحياز مهما كانت عظمتها حين لا تستجيب أو لا يُنح لقواعِدُهَا تلك أن تستجيب لضرورات تطوُّرِهَا، فإنَّ الدولة العثمانية لم تستجب قواعدها لضرورات تطوُّرِهَا، ليس لخلل في تلك القواعد ولكن لروح المحافظة والجمود التي جعلت الدولة تتكلس كما لو أنَّها تريد من الزمن أن يتوقَّف عند عصرها الذهبي!!!

معاهدة كارلوفيتز الكارثة التي أيقظت العثمانيين

كانت البداية المؤلمة في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي؛ إذ تميَّز بتوقيع معاهدة كارلوفيتز (Karlofça) في 26 شعبان 1110هـ/ 26 يناير 1699م؛ وهي المرَّة الأولى التي يوقَّع فيها العثمانيون معاهدة كطرف مُنْهَزِم¹، وفقدت الدولة العثمانية بِمُوجِبِ هذه المعاهدة قسماً واسعاً من أوروبا الشرقية، وتأكَّد للأوروبيين ضَعْفَ عُرْمَائِهِم العثمانيين، لتتحوَّل الدولة من مُرْبِع الهجوم إلى مُرْبِع الدِّفاع، ومن مَوْقِع الفَاعِلِ الدُّوَلِي إلى مَوْقِع المَفْعُولِ به دُولِيًّا، من حيث أصبحت مجرد "مسألة شرقية" على مشرحة القوى الأوروبية.

يعتبر مبدأ التَّفَوُّق العسكري والفتح الإسلامي وتوسُّع دار الإسلام على حساب دار الحرب هو المبدأ والقاعدة التي انبنت عليها السياسة الخارجية للدولة العثمانية، غير أنَّ معاهدة كارلوفيتز² قلبت الموازين، وجعلت الدبلوماسية والتفاوض سلاحاً جديداً كان ينبغي للعثمانيين إعطائه عناية متزايدة لتقليل الخسائر أمام قوى أوروبية معادية وتزويد قُوَّتِهَا يوماً بعد يوم، وترى أنه من حقِّها الانتقام لقرون

1. بحسب الأكاديمي والباحث التركي ألب إرن توبال (Alp Eren Topal) تم تقسيم عصر الانحدار العثماني إلى ثلاث مراحل: "مرحلة الركود" وهي الفترة من وفاة الصدر الأعظم صوقولو محمد باشا سنة 987هـ/1579م إلى معاهدة كارلوفيتز سنة 1110هـ/1699م، و"مرحلة التراجع" التي استمرت حتى معاهدة جاسي (Treaty of Jassy) سنة 1206هـ/1792م و"مرحلة الانحياز" حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ينظر:

Alp Eren Topal: " **From Decline to Progress: Ottoman Concepts of Reform 1600-1876** " In Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy, Graduate School of Economics and Social Sciences, The Department of Political Science and Public Administration, Ihsan Doğramacı Bilkent University, Ankara, Turkey, June 2017, P21.

2. يتفق المؤرخون على أنَّ الهزائم العسكرية هي التي صدمت العثمانيين وجعلتهم يبحثون عن السر وراء تفوق أعدائهم وانحزامهم؛ كتب عميد علم الاجتماع التركي شريف ماردن: في قلب عملية التحديث العثماني تكمن مشكلة السياسة العسكرية: استمرار الهزائم العسكرية وخسائر الأراضي حفز العثمانيين للبحث عن العوامل الكامنة وراء التفوق العسكري الغربي ففي وقت مبكر من القرن السابع عشر أصبح رجال الدولة العثمانيين يدركون أن إدارة الإمبراطورية تركت الكثير مما هو مرغوب فيه ومع ذلك ففي القرن الثامن عشر فقط وفيما يتعلق بالإصلاح العسكري تم تأسيس الاتصال مرة واحدة وإلى الأبد بين الإصلاح وأوروبا، مع الأخذ بالاعتبار جوانب من محاولات تحديث الدولة العثمانية. ينظر: Şerif Mardin: Op.cit, P134-135.

من الهيمنة العثمانية على أوروبا.

من أجل ذلك تعاضم شأن فئة الكتاب من أهل القلم عن شأن أرباب العلم والسيف معا بداية من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي؛ لقد كانت فئة الكتاب الجماعة الأكثر تنبُّها لأزمة الدولة، وقد مكّنتهم تنظيمهم الدقيق وانبثاقهم في أجهزة الدولة، من مُلامسة المشاكل الأساسية المحيطة بالقضايا العسكرية والمالية وبالمؤسسة الحاكمة ككل، ومن جهة أخرى فإنّ فئة الكتاب الذين تخصصوا في الترجمة والاتصال بالسفراء الأجانب كانوا مُنتبّهين إلى ما يجري بأوروبا¹، لذا كانت مُعظم مشاريع الإصلاح في هذا القرن وما بعده من تأليفهم وتحت إشرافهم كما سنرى لاحقا.

عرفنا سابقا أنّ أسباب تزايد حاجة الدولة العثمانية إلى فئة الكتاب من أهل القلم وهو كونهم باتوا الخبراء الموثوقين في الشؤون الحكومية، وأنّ الحاجة إلى الحقائق والأرقام التي كانت بحوزتهم أصبحت ذات أهمية متزايدة في تسيير شؤون الدولة، إلى جانب أنّ القانون الأساسي للدولة العثمانية والذي أصبح أكثر تعقيدا بسبب التكاثر السريع للمراسيم والفرمانات ومع ازدياد أهمية العلاقات الخارجية أصبح منتسبوا فئة الكتاب الذين لديهم معرفة بأحدث التطورات يتمتعون بميزة استثنائية على بقية فئات السلطة الحاكمة.

مثير للاهتمام أيضاً أن نلاحظ بهذا الصدد أنّ جميع الإصلاحيين العثمانيين الكبار بين عامي 1132هـ/1720م و1255هـ/1839م كانوا يشغلون في وقت ما منصب وزير الشؤون الخارجية (Reis ül-Küttab)² - الذي سنتعرّف عليه بالتفصيل فيما هو آت - المثال الأبرز هنا هو مفاوض العثمانيين البارع لمفاوضات كارلوفيتز رئيس الكتاب رامي محمد باشا، هذا الأخير فرض مزيدا من الهيبة والاحترام لطبقة فئة الكتاب وجعل كفتهم ترجح على غيرهم في الإدارة العثمانية، فكيف كان تمثيله للوفد المفاوض؟

فتحت البعثة الدبلوماسية العثمانية في تمام الساعة التاسعة من صباح يوم السبت 10 جمادى الأولى 1110هـ الموافق لـ 13 نوفمبر 1698م، مفاوضات مع الوفود الممثلة لدول الرابطة المقدسة (مملكة هابسبورغ، بولندا، موسكو، والبندقية) في موقع بلدة كارلوفيتز الصربية المدمرة (يوغوسلافيا سابقا)، كانت مناسبة هذه المواجهة هي تسوية المطالبات الإقليمية وتمييز الحدود بين إمبراطورية آل هابسبورغ وحلفائها من جهة، والسلطان من ناحية أخرى، على خلفية القرارات التي فرضتها الحرب

¹ . خالد زيادة: المرجع السابق، ص 169 . 170.

² - Şerif Mardin: Op.cit, P142-143.

الدائرة رحاها على مدار الأربعة عشر عامًا الماضية في ساحات القتال بشرق وجنوب شرق أوروبا¹. واجهت الدولة العثمانية لأول مرة كما ذكر سابقا موقفا كهذا؛ التفاوض من موقف ضعف كطرف منهزم في الحرب، وهكذا شكلت الانتكاسات العسكرية مشكلة جديدة وفريدة من نوعها أمام عدم توقع مثل هذا الموقف لم يطور العثمانيون الجهاز الرسمي للاتصال الدبلوماسي، ولا فيلق الموظفين المدربين اللازمين للتفاوض على السلام، ومع ذلك وعلى الرغم من المعوقات الواضحة للدولة العثمانية من حيث الأفراد المدربين تدريباً جيداً على تعقيدات التفاوض على السلام، وظروف كارثة عسكرية تكاد تكون كاملة، فقد اضطلعت البعثة العثمانية المكلفة بمهمة كارلوفيتز بمسؤولياتها بشكل مثير للإعجاب دون المساس بمصالح السلطان²، كما هو الحال مع أي قوة تواجه كارثة عسكرية كانت الأهداف العثمانية محصورة في الحصول على أفضل شروط سلام ممكنة.

مثل رئيس الكتاب رامي محمد باشا البعثة العثمانية بكارلوفيتز³، كانت المفاوضات شاقة ومعقدة دامت شهرين كاملين، وقد أظهر رامي محمد باشا قدرات دبلوماسية عالية في التفاوض من أجل سلام عادل وغير مهين لكرامة الدولة العثمانية⁴، كانت الدولة العثمانية بحاجة إلى السلام لترتيب أوضاعها الداخلية، رغم أنّ معاهدة كارلوفيتز كانت بحاجة إلى من يحسن تسويقها للشعب العثماني حينها⁵. قال المؤرخ التركي خليل إينجليك: في سنة 1110 هـ / 1699م كان سلام كارلوفيتز الذي أنهى

¹ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P89.

² - Ibid, P90.

³ . رافقه كبير مترجمي القصر العثماني اليوناني (Aleksandros Mavrokordatos) (1641 - 1709). ينظر: Ibid, P93. كما رافق البعثة العثمانية إلى كارلوفيتز فرقة عسكرية مؤلفة من أكثر من 1200. إلى جانب أربعين سفينة وخمسة عشر قارباً لحمل المؤن. كان القيصر إمبراطور آل هابسبورغ وربما حلفاؤه أيضاً يفضلون الاجتماع بفينينا، غير أنّ العثمانيين رفضوا ذلك بإصرار، ربما لتجنب الضغوط السياسية غير المبررة وتجنب احتمال مواجهة الإهانات على أيدي خصومهم المنتصرين إذا ثبت أنهم متشدّدون على طاولة المفاوضات - كما حدث في 1688-1689 عندما أهيئت البعثة العثمانية بعد مفاوضات غير ناجحة. أصر العثمانيون على عقد المؤتمر بالعراء، في مكان ما بالقرب من الحدود العثمانية، فكانت كارلوفيتز. ينظر: Ibid, P110-111.

⁴ . في تقرير ممثل البندقية في مفاوضات كارلوفيتز الدبلوماسية (Carlo Ruzzini) (1653 - 1735) يلاحظ أنّه يبدي أولاً إعجابه بقدرة العثمانيين على التحول بشكل دراماتيكي من الحرب إلى التفاوض كوسيلة لتسوية النزاعات مع جيرانهم ومن ثم يعبر عن الإحباط بسبب تصرفهم على طاولة المؤتمر. ينظر: Ibid, P104.

⁵ . كما رأينا سابقاً عبّر الصدر الأعظم حسين عموجه كوبرلو الذي وقعت مفاوضات كارلوفيتز في عهده، واحداً من فئة الكتاب من أهل القلم وهو مصطفى نعيما بمنصب المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية، بهدف جعل المعاهدة غير الشعبية مستساغة لدى عامة وخاصة الشعب العثماني. وكما سبق ذكره في المبحث الرابع من الفصل الثالث، فقد ألف مصطفى نعيما كتاب "تاريخ نعيما" للدفاع عن سياسات الصدر الأعظم حسين، وعن صوابية معاهدة كارلوفيتز. فانظر إلى أهمية فئة الكتاب؛ أحدهم يفاوض في كارلوفيتز باسم الدولة العثمانية (رامي باشا)، والآخر يستخدم علمه لتبرير تلك المعاهدة (مصطفى نعيما).

فترة أزمة غير مسبوقة بداية عهد جديد في التاريخ العثماني؛ بدأ الموقف العثماني الذي كان يتنازل للغرب حتى الآن، وبدأت ثقافته تفسح المجال لفضول محترم لتلك الثقافة الغربية وإنجازاتها، وأعقب ذلك رغبة في فهم الغرب ومعرفته بشكل أفضل، والأهم من ذلك اكتشاف سر نجاحه في الحروب الأخيرة كان هذا التغيير الأساسي في الموقف العثماني تجاه الغرب هو البداية الحقيقية في تركيا لما أصبح يعرف لاحقًا باسم عملية التغريب¹، ففي الفترة التي تلت سلام كارلوفيتز كان العثمانيون قد قبلوا بالفعل حقيقة تدهور دولتهم العلية، وكانت مسألة التراجع موضوع نقاش ساخن في الأوساط الفكرية بإستانبول².

بعد أن كان رئيس الكتاب هو رئيس مكتب السجلات والمكاتب في الديوان الهمايوني (Divan Hümayun¹)، وضع تحت تصرفه الآن إدارة ملفات الشؤون الخارجية بعد النجاح الذي حققه رامي محمد باشا في مفاوضات كارلوفيتز. وحين تولى رئيس الكتاب رامي محمد باشا الصدارة في 08 رمضان 1114هـ/25 جانفي 1703م، كان بذلك أول صدر أعظم يتولى هذا المنصب الرفيع من طبقة فئة الكتاب من أهل القلم، وكان ذلك إيدانا بتزايد نفوذ هذه الطبقة في المنظومة الإدارية العثمانية.

أراد رامي محمد باشا - دبلوماسي كارلوفيتز القدير - القيام بإصلاحات جدية لاستعادة تنظيم الإدارة، وكالعادة حاول كرأس المؤسسة الحاكمة أن يكسب دعم وتأييد المؤسسة الدينية، لكنه كان أمام شيخ إسلام يتصرف كسلطان، فقرر أن يسقط فيض الله أفندي³ حفاظا على الدولة، فحرض

¹ - Halil Inalcik: **The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire Essays on Economy and Society**, Indiana University Turkish Studies and Turkish Ministry of Culture Joint Series, Vol9, Indiana Univ Turkish Studies Department, USA,1993, P412.

² - Ibid, P413.

³ . محمد فيض الله أفندي (1639 . 1703): شيخ الإسلام ومدرس السلطان ووكيله، عيّن سنة 1669 معلما للأمير مصطفى ابن محمد الرابع، وترقى سريعا في سلك العلمية، وعيّن سنة 1686 قاضي عسكر الروم إيلي، عزل بعد قليل من منصبه لإدائه في المشاركة في تمرد ضد السلطان محمد الرابع، ولما عزل شيخ الإسلام دباغ أفندي إثر ثورة الجيش ضد محمد الرابع عيّن فيض الله شيخا للإسلام في 14 فبراير 1688، غير أنه عزل بعد أيام قليلة بسبب ضلوعه مع المتمردين في الثورة، ونفي إلى أرضروم، حيث ظلّ هناك حتى تولى تلميذه السلطان مصطفى الثاني العرش سنة 1695، ليعيّن من جديد شيخا للإسلام في 25 ماي 1695م وليصبح الرجل الأكثر نفوذا في الدولة؛ فقد مارس نفوذا كبيرا على مصطفى الثاني، وعيّن في المناصب ذوي قرابته والمقربين له ومكّن لأبنائه في المناصب العليا، بل ضمن لابنه فتح الله منصب شيخ الإسلام بعده كسابقة في التاريخ العثماني، وبعد الخسائر الفادحة للدولة أمام القوى الأوروبية والتي انتهت بأسوأ اتفاقية للعثمانيين سنة 1699، حُمل فيض الله جزءا كبيرا من ذلك باعتباره أفسد الإدارة، حينها قامت ثورة الجيش المسماة بواقعة أدرنة (Edirne Vak'ası) التي بدأت بإستانبول وامتدت وصولا إلى حيث السلطان بأدرنة، وانتهت بخلع مصطفى الثاني وقتل فيض الله سنة 1703م بطريقة بشعة. ينظر:

Mehmet Serhan Tayşi: **Feyzullah Efendi Seyyid, (ö. 1115/1703), Osmanlı şeyhülislâmı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 12, 1995, Sayfa 527-528.

على ثورة قوائمها الجيش والعلماء، فأطيح برأس شيخ الإسلام وخُلِع السلطان¹، غير أنّ هذه الثورة كلّفته منصبه وأوشكت أن تكلفه حياته.

فلسفة الإصلاح العثماني

حاول الكثير من الباحثين وضع تصورات وتبريرات لفهم الإطار العام الذي تزايد ضمنه نفوذ فئة الكتاب من أهل القلم في دواليب الإدارة العثمانية بداية من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، غير أنّ رأي أفضل من تحدث في ذلك هو عميد علم الاجتماع التركي شريف ماردين (Şerif Mardin)² في دراسته القيّمة " نشأة فكر الشباب العثماني : دراسة في تحديث الأفكار السياسية التركية " (The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas)، يقول شريف: أولاً كانت الصدمة التي تعرض لها العثمانيون عندما أدركوا أن الدولة العثمانية تتدهور وخاصة الصدمة التي سببها الهزائم المستمرة التي عانوا منها في أواخر القرن الثامن عشر، وكانت صدمة شديدة ومؤلمة للغاية؛ ومردّد ذلك هو أنّ إيديولوجية الفتح كانت جزءاً من المعتقد الديني الإيمان بالحرب كوسيلة لنشر الإسلام لأنه بالإضافة إلى ذلك لعب التوسع الإقليمي دوراً مهماً في تأسيس الإمبراطورية العثمانية، في الواقع كانت خسائر الأراضي تعني خسائر في الإيرادات، في وقت كان فيه رجال الدولة العثمانيون مهتمين للغاية بعملية التدهور الاقتصادي وانعدام النجاعة المالية، لذا شكّل الإدراك المروع للانحدار العثماني القوة المحركة وراء كل حركة الإصلاح العثماني³.

بدأت القناعات بالتغيير - بالتزامن مع الإدراك المرير للتفوق الغربي - تتشكل تدريجياً بحيث كان من الضروري التخلي عن المفهوم السابق للإصلاح؛ كإعادة التأكيد على الممارسات العثمانية الأقدم

1 . يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج1، ص 589 . 590، بتصرف.

2 . شريف ماردين (Şerif Mardin) (1927-2017م): من عائلة تركية عريقة ينتهي نسبه إلى آل بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم. درس بالولايات المتحدة الأمريكية، جامعة ستانفورد في العلوم السياسية. وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ستانفورد (Stanford University) سنة 1958م. درّس في عدّة جامعات تركية وأمريكية. أنتج ماردين عشرات الأبحاث، وكان الرئيس المؤسس لجمعية العلوم الاجتماعية التركية ((Türkiye Sosyal Bilimler Derneği (TSBD)). تم تكريمه مرتين؛ الأولى من قبل جامعة الشرق الأوسط التقنية بأقترعة سنة 1993م، والثانية من قبل أكاديمية العلوم التركية (TÜBA) في سنة 2016. وكان عضواً فخرياً بأكاديمية العلوم التركية (TÜBA). ينظر:

Hakan Arslanbenzer: " Şerif Mardin: Sociologist of modern Islam ", Daily Sabah Portrait,Istanbul, Published 29.03.2019, 00:45, Updated 07.07.2019,18:07,
<https://www.dailysabah.com/portrait/2019/03/29/serif-mardin-sociologist-of-modern-islam> .

³ - Şerif Mardin: Op.cit, P135.

والأكثر "نقاء" وإعادة تأهيلها، لم يكن أحد متأكداً تماماً من العهد الذي عملت فيه الحكومة العثمانية في حالتها "النقية"، لكن ذلك العهد كان مثالياً بالتأكيد واحتفظ الإصلاحيون بذكراه في عقولهم لفترة طويلة حتى بعد الربع الأول من القرن التاسع عشر عندما لم يعد من الممكن الضغط بشكل مقنع جداً للعودة إلى المثل الأعلى للنظام العثماني القديم، فإنّ الذكرى لم تفقد جاذبيتها ووجدت أصداء لها لدى الشباب العثمانيين¹.

تعني عملية التحديث تغييرات في ممارسات الدولة العثمانية، وتنطوي على التخلي عن الصورة المثالية لتلك الممارسات، لذا كانت تلك العملية مليئة بالاحتجاجات وإعادة التقييم والتشنجات والثورات، واحد من بين المؤثرات التي جعلت هذا التطور التاريخي صعباً للغاية تمثل في الصراع الخفي للسلطة المختبئ وراءه؛ في هذا النضال كانت المنظومة الإدارية العثمانية [وفي القلب منها فئة الكتاب] التي دعمت أول إصلاح أصلي - أي مستمد من النموذج الإسلامي - ثم غربي التوجه تعمل ضد مجموعات التأثير الأخرى في الدولة أي الإنكشارية والعلماء والسلطان نفسه في النهاية².

حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي عندما لم يعد الضغط من أجل إصلاحات جوهرية قابلاً للمنافسة كان موقف أغلبية النخبة الحاكمة من الإصلاحات قائماً على وصفات قديمة عمرها 1000 عام، لذلك ليس من المستغرب أنه بحلول منتصف القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي لم يبق أي أثر للتفاؤل الذي ميّز أسلوب الكتابة حتى في أكثر الأزمات خطورة لدى أفضل ما كتب في أدب نصائح الملوك، وليس من قبيل الصدفة أنه في سنة 1094هـ/1683م أصبح من الواضح أن تفكك الدولة العثمانية كان عملية لا رجعة فيها والتي يُعدّ من بين أسبابها العديدة التشخيص غير الكافي للأزمة والإصلاح، والعجز الديني أو بعبارة حديثة الإحياء الأيديولوجي³، ما نسّميه في أيامنا هذه بعجز في تجديد الخطاب الديني والسياسي⁴.

فهم الإطار العام لفلسفة الإصلاحات بالدولة العثمانية في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي وما بعده، والمعوقات والتحديات التي واجهت تلك الفلسفة الإصلاحية، يُعيننا على تصوّر

¹ - Ibid, P135-136.

² - Ibid, P136.

³ - Rhoads Murphey: "Westernisation in the eighteenth-century Ottoman empire: how far, how fast?", journal Byzantine and Modern Greek Studies (BMGS), Volume 23, Issue 1, University of Birmingham, Britain, 1999, P239-240.

⁴ - ليس العجز عجز في الدين الذي ارتضاه الله لعباده، إنما العجز في القدرة على استنباط ما ينسجم مع المستجدات مما بثه الله في كتابه ورسوله في سنته، لذلك احتاجت الأمة لمجددين كل مائة عام.

واضح للجهد المُضني الشاق الذي بدله رجالات الإصلاح وفي القلب منهم رجالات فئة الكتاب فقد دفع بعض أولئك المصلحين العظام أرواحهم ثمنا لتلك الإصلاحات ومن بينهم سلاطين وصدور عظام.

الصدور العظام من فئة الكتاب من أهل القلم (إحصائياً)

عدد الصدور العظام على طول فترة البحث من أول رجل من فئة الكتاب من أهل القلم يتبوؤ هذا المنصب الرفيع السيد رامي محمد باشا (Rami Mehmed Paşa) الذي تولاه خلال الفترة (8 رمضان 1114 - 10 ربيع الآخر 1115 هـ / 1703/01/25 - 22 أوت 1703) إلى آخر رجل من فئة الكتاب يتولى هذا المنصب، وَصَدَرَ في عهده أول دستور عثماني خلال الفترة من (3 ذو الحجة 1293 هـ / 1876/12/19 م - 22 محرم 1294 هـ / 5/ 1877/02 م)، في هذه الفترة (163 سنة و11 يوم)¹ شغل منصب الصدارة العظمى 88 شخصاً، 18 شخصاً منهم تولّوها أكثر من مرّة؛ 18/11 تولّوها مرتان، 18/3 تولّوها ثلاث مرات، 18/1 تولّوها أربع مرات، 18/2 تولّواها 5 مرات، و 18/1 تولّوها 6 مرات. وعدد المنتسبين لفئة الكتاب من بين من تولوا الصدارة في هذه الفترة هو: 88/26 صدراً، سبعة منهم تولّوها أكثر من مرّة². كما نسجّل أيضاً أنّ أكبر مدّة قضائها صدر أعظم في منصبه من بين الـ 88 صدراً أعظماً كانت من نصيب فئة الكتاب أيضاً³، يذكر

¹ قائمة الصدور العظام مع تاريخ تصويبهم (Nasb tarihleriyle birlikte Osmanlı Sadrazamları) من رامي محمد باشا سنة 1703 م إلى حلمي إبراهيم باشا سنة 1806 م. ينظر:

Jan Reyhman and Ananiasz Zajaczkowski : **Osmanlı - Türk diplomatikası el kitabı**, (Handbook of Ottoman - Turkish diplomatics), T.C. Başbakanlık, Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu : 10, İstanbul, 1993, P235- 237.

² وهم على التوالي: 1. عزّة محمد باشا (İzzet Mehmed Paşa) مرتان لمدة (ستتان و5 أشهر و6 أيام). 2. محمد أمين رؤوف باشا (Mehmed Emin Rauf Paşa) 5 مرات لمدة (15 سنة و7 أشهر و6 أيام). 3. خوجا مصطفى رشيد باشا (Koca Mustafa Reşid Paşa) 6 مرات لمدة (7 سنوات وشهر). 4. محمد امين عالي باشا (Mehmed Emin Âli Paşa) 5 مرات لمدة (8 سنوات و3 أشهر). 5. كاتشجيزاده فؤاد باشا (Keçecizade Fuat Paşa) مرتان لمدة (4 سنوات وشهر و3 أيام). 6. محمود نديم باشا (Mahmud Nedim Paşa) مرتان لمدة (سنة واحدة و7 أشهر و11 يوماً). 7. مدحت باشا (Mithat Paşa) مرتان لمدة (4 أشهر و6 أيام). ينظر: (الملحق 18)، ص624.

³ . وهم: 1. محمد أمين رؤوف باشا (Mehmed Emin Rauf Paşa) 15 سنة و7 أشهر و6 أيام). تولي الصدارة خمس مرات. 2. نوشهري دمادا إبراهيم باشا (Nevşehirli Damat İbrahim Paşa) (12 سنة و5 أشهر). أطول مدّة في مرة واحدة دون انقطاع. 3. كور يوسف ضياء الدين باشا (Kör Yusuf Ziyaüddin Paşa) (8 سنوات و11 شهراً و4 أيام) تولي الصدارة مرتان. 4. محمد أمين عالي باشا (Mehmed Emin Âli Paşa) (8 سنوات و3 أشهر) تولي الصدارة خمس مرات. 5. خوجا مصطفى رشيد باشا (Koca Mustafa Reşid Paşa) (7 سنوات وشهر). وهو الشخص الوحيد الذي =

أنّ عدد السلاطين العثمانيين في فترة البحث 13 أوّهم السلطان مصطفى الثاني تولى العرش بتاريخ 21 جمادى الآخرة 1106هـ/ 6 فبراير 1695م إلى السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى العرش في 10 شعبان 1293هـ/ 31 أغسطس 1876م¹.

يلاحظ من تلك الإحصائيات أن عدد أعضاء فئة الكتاب ممن تولوا الصدارة خلال فترة البحث (163 سنة و 11 يوم) هو 26 صدرا اعظما، أي بنسبة 29.55%، وأنّ 16 من بين 26 صدرا أعظما من فئة الكتاب شغلوا منصب المسؤول عن الشؤون الخارجية إما رئيسا للكتاب أو وزيرا للخارجية لاحقا، ورغم قلة عددهم مقارنة بغيرهم، إلا أنّهم مثّلوا ما يمكن تسميته بـ "القلة الهائلة" التي كانت أبعد وأقوى تأثيرا من غيرها في فترة البحث، بل كان لها تأثير بالغ على مصير الدولة العثمانية وتحولها إلى جمهورية.

يبرز حقيقة ما تقرّر من أهميتهم في مستقبل الدولة قبل عهد التنظيمات أنّ أحدهم على سبيل المثال فتح على الدولة العثمانية نافذة تطل منها على أوروبا الجديدة، وبات عهده المعروف بعهد التوليب معلّما رئيسا في مسيرة تغريب الدولة العثمانية؛ إنّه نوشهري دمادا إبراهيم باشا الذي مكث صدرا أعظما لأطول مدة من بين جميع الصدور العظام الـ 88 في فترة البحث، ودون انقطاع (12 سنة و 5 أشهر)، وآخر مهّد الطريق لإصلاحات سليم الثالث وهو رئيس الكتاب خليل حميد

تولى الصدارة في هذه الفترة 6 مرات. 6. خوجا محمد راغب باشا (Koca Mehmed Ragıp Paşa) (6 سنوات وشهران و28يوماً) تولى الصدارة مرة واحدة.

ومن بين 88 صدرا تولوا الصدارة خلال فترة البحث نجد أنّ 47 منهم تولّوها لمدة تقل عن السنة الواحدة منهم 10 من أصل 18 من أهل القلم. أقل مدّة قضاها صدر أعظم محسوب على أهل القلم كانت من نصيب السيد نايلي عبد الله باشا (Naili Abdullah Paşa) شهرين و 6 أيام خلال (8 شعبان 1168هـ/ 19 ماي 1755م - 17 ذي القعدة 1168/ 24 أوت 1755م). وأقل مدّة على الإطلاق قضاها صدر خلال مدة البحث من بين 88 صدرا أعظما كانت من نصيب السيد خوجا إبراهيم باشا (Hoca İbrahim Paşa) يوم واحد!!! خلال (11 ربيع الاول 1125 هـ/ 6 أبريل 1713م - 12 ربيع الاول 1125هـ/ 7 أبريل 1713م). للاطلاع على قائمة كاملة بأسماء الصور العظام ينظر:

Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P IXXVII - IXXXIV

¹. للاطلاع على قائمة السلاطين العثمانيين الـ 37 ينظر: الملحق (01) شجرة سلاطين آل عثمان، ص 607.

باشا¹ إلى جانب رئيس الكتاب محمد سعيد غالب باشا² الذي رافق بعضا من إصلاحات محمود الثاني ويذكر بعد ذلك أنّ أبرز رجالات التنظيمات إلى أبو الدستور العثماني كما سنرى كانوا من فئة الكتاب.

نوشهري دمادا إبراهيم باشا وعهد التوليب

حين تولى نوشهري دمادا إبراهيم باشا³ الصدارة العظمى في الفترة (9 جمادى الآخرة 1130هـ/9 ماي 1718م - 4 ربيع الآخر 1143هـ/16 أكتوبر 1730م) كان ثاني شخصية من فئة الكتاب يتبوؤوا هذا المنصب الرفيع بعد رامي محمد باشا، وكما ذكر سابقا مكث نوشهري دمادا إبراهيم باشا أطول مدّة في هذا المنصب مقارنة بجميع الصدور العظام الذين تولّوا هذا المنصب خلال فترة البحث، ومن المهم جدا حتى نفهم الإضافة التي قدّمها دمادا إبراهيم باشا، ونحدّد موقعه ضمن سلسلة رجال الدولة الذين فتحوا أبواب أوروبا أمام الدولة العثمانية من حيث صارت الخلافة الإسلامية مجرد جمهورية تركية، أن نفهم الوضع والبيئة السياسية التي عمل من خلالها إبراهيم باشا، إذ هنا أيضا

1. خليل حميد باشا (1736-1785م): رجل دولة عثماني أصله من إسبرطة [اليونان]. كان واحدا من رجال الدولة العثمانيين القلائل الذين أدركوا واقع انحطاط الدولة العثمانية سيما بعد معاهدة كارلوفيتز 1699م، ومعاهدة كيتشوك كايبارجي سنة 1774م مع روسيا المنتصرة. التحق بدائرة الكُتّاب بديوان الباب العالي ككاتب مساعد للبيليكجي (beylikçi)، وقد ترقّى ضمن فئة الكتاب حتى اكتسب خبرة في تنظيم إدارية الدولة وكيفية إدارتها. حتى عيّن صدرا أعظما سنة 1782م، دامت صدارته العظمى بنجاح لمدة عامين وأربعة أشهر أجرى خلالها أهم إصلاحات عسكرية وإدارية وغيرها في القرن الثامن عشر. عزل ثم أعدم في 27 أبريل 1785م. بسبب اتهامه بالتدبير للإطاحة بعبد الحميد الأوّل وتنصيب سليم الثالث على العرش. ينظر:

Kemal Beydilli: Halil Hamîd Paşa, (ö. 1199/1785), Osmanlı sadrazamı, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 15, 1997, sayfa 316-318.

2. محمد سعيد غالب باشا (1763-1829م): رجل دولة عثماني. ترقى في سلك فئة الكتاب حيث بدأ العمل سنة 1791م ككاتب مجلس (meclisi kâtipliğiyle)، وأرسل سنة 1802م كمفوض إلى باريس بسبب الحملة الفرنسية على مصر، التقى بنابليون بونابرت وشارل موريس تاليران سعى لإقامة السلام بين الدولتين من أجل تنشيط علاقات الصداقة التي كانت قد قطعتها الحملة الفرنسية على مصر. وكان من مهامه بفرنسا غير إعادة بناء الصداقة القديمة وتوفير الضباط والخبراء الفرنسيين اللازمين لتنفيذ برنامج النظام الجديد (Niz'm-Cedîd). تمّ توقيع معاهدة السلام في 25 جون 1802م. عين رئيسا للكتاب ثلاث مرات آخرها سنة 1812م، ثم عيّن في أعلى منصب وهو منصب الصدر الأعظم في 14 ديسمبر 1823م حتى 14 سبتمبر 1824م. تظهر السفارات نامة التي تركها مدى براعته الدبلوماسية كمحاور محنك رغم عدم معرفته باللغات الأجنبية، يمكن القول أن غالب باشا كان مؤسس الدبلوماسية التركية الحديثة. ينظر:

Orhan F. Köprülü: Galip Paşa, Mehmed Said, (1763-1829), Osmanlı sadrazamı, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 13, 1996, sayfa 329-331.

Ercüment Kuran: Mehamed Sa'id Ghalib Pasha, Ottoman statesman, The Encyclopaedia of Islam, New Edition, The International Union of Academies, Vol 6, MAHK—MID, E.J. Brill, Leiden, 1991, P1003-1004.

3. الملحق (19) صورة نوشهري دمادا إبراهيم باشا، ص 625.

تنطبق قاعدة الحكم على الشيء فرع عن تصوّره.

كانت بداية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي نقطة تحول في تطور الدولة العثمانية؛ انتهى عصر الغزوات المظفرة، لتعقبها انتكاسات عسكرية قلّصت حدود الدولة العثمانية بدلاً عن توسّعها كما كان يحدث سابقاً بفضل الجيش العثماني المرهوب الجانب، لقد بدأت سلطة السلطان في المقاطعات البعيدة تتضاءل بما يتناسب مع بُعدها عن إستانبول، وأوروبا التي كانت ترمق الدولة العثمانية من موقع الضعيف الخائف صارت شيئاً فشيئاً تأخذ موقع الفاعل المقتدر الذي يحدّد مصير العثمانيين، وعلى الرغم من الانهيار التدريجي طويل المدى للدولة العثمانية وتراجعها، فإن العناصر المحافظة جعلت أي نوع من إصلاح النظام مسألة معقدة للغاية.

بعد حروب العُصبة المقدسة والوراثة الإسبانية، وبعد الحرب الشمالية العظمى (Great Northern War)¹، وبعد كارلوفيتز وثورة 1703م أو واقعة أدرنه التي أطاحت بالسلطان مصطفى الثاني، وبعد الحروب مع روسيا والنمسا والبندقية كان هناك سلام في أوروبا الغربية وعلى طول الحدود الغربية للإمبراطورية العثمانية، كانت مناخات السياسة الدولية تهيؤ فرصة للتقارب بدل الصراع والحروب. اعتلى في تلك الظروف السلطان أحمد الثالث العرش خلفاً للسلطان المعزول مصطفى الثاني سنة 1115هـ/1703م، وكرس السنوات الأولى من حكمه لتأمين قاعدة سلطته ومعاقبة قادة التمرد

¹. العصبة المقدسة سنة 1684م (Holy League) تحالف أقيم بإلحاح من البابا إينوسنت الحادي عشر (Innocent XI) ضد الدولة العثمانية في حرب امتدت خلال الفترة من 14 جويلية 1683 حتى 26 يناير 1699م وضمنت العصبة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبولندا وجمهورية البندقية، استمرت العصبة حتى توقيع معاهدة كارلوفيتز سنة 1699م. ينظر: ويل ديوزانت: المرجع السابق، ص 86 - 87.

حرب الوراثة الإسبانية هي حرب نشبت في (1702 - 1714) وكانت صراعاً أوروبياً كبيراً بدأ بموت آخر ملوك أسرة آل هابسبورغ الملك الإسباني كارلوس الثاني سنة 1701م، حيث كان وريثه الوحيد هو فيليب الخامس حفيد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ادعى ليوبولد الأول رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة بأنه الأحق بعرش إسبانيا بينما ادعى لويس الرابع عشر بأنه الأحق به انضمت انكلترا وهولندا في حلف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة لمنع التوسع الفرنسي. لتصبح كل أوروبا والإمبراطورية العثمانية من الناحية العملية مشغولة بهذه الحرب. وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة أوترخت سنة 1713 ومعاهدة راسات سنة 1714م. ثبتت هاتان المعاهدتان خريطة أوروبا لمدة ستة وعشرين عاماً. ينظر: المرجع نفسه، ج34، ص 225 - 235.

بحسب الموسوعة البريطانية هي الحرب الشمالية الثانية والتي تسمى أيضاً الحرب الشمالية العظمى (1700-1721) الصراع العسكري الذي تحدت فيه روسيا والدنمارك والنرويج وساكسونيا-بولندا سيادة السويد في منطقة البلطيق؛ حيث توسّعت السويد في سواحل بحر البلطيق خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، واستفترت الدول المجاورة. أسفرت الحرب عن تراجع النفوذ السويدي وظهور روسيا كقوة رئيسية في تلك المنطقة. ينظر:

وفيما يتعلّق بالعلاقات الخارجية حاول الباب العالي اتباع سياسة الحياد. لكن عندما هزم الروس الملك السويدي شارل الثاني عشر¹ خلال حرب الشمال العظمى واضطرا الأخير للجوء إلى الأراضي العثمانية فأصبحت الدولة العثمانية متورطة في النزاع سنة 1123هـ/1711م؛ أدى الرفض العثماني لتسليم تشارلز الثاني عشر للروس إلى حرب بروث (Pruth)²، وفي هذه المرحلة استهدف العثمانيون استعادة الأراضي المفقودة في معاهدة كارلوفيتز؛ أسفرت الحرب ضد البندقية (1126-1130هـ/1714-1718م) وهابسبورغ (1128-1130هـ/1716-1718م) إلى استعادة شبه جزيرة المورة باليونان من ناحية، ولكن خسر العثمانيون بلغراد من ناحية أخرى: معاهدة باساروفيتجا (Pasarofça Antlaşması) في 1130هـ/1718م³. وإذا كانت كارلوفيتز قد قلصت إلى حد كبير النفوذ العثماني في شرق ووسط أوروبا، من حيث أصبحت النمسا بعد ذلك القوة المهيمنة، فإنّ معاهدة باساروفيتجا التي فقدت الدولة العثمانية بموجبها أراضي كبيرة في البلقان أمام النمسا، مثّلت نهاية للتوسع العثماني غرباً، وفرضت سلاماً مع النمسا لمدة خمس وعشرين عاماً.

اعتلى دمادا إبراهيم نوشيهري في هذه الظروف السياسية أعلى منصب في المنظومة الإدارية العثمانية ليصبح ثاني صدر أعظم من فئة الكتاب بعد رامي باشا، وكما استهلّ رامي باشا عهده بمعاهدة كارلوفيتز للسلام، استهلّ دمادا إبراهيم باشا عهده بمعاهدة سلام مع النمسا والبندقية هي معاهدة باساروفيتجا التي وقّعت في 23 شعبان 1130هـ/21 جويلية 1718م، بعد شهرين وأربعة عشر يوماً من تنصيبه صدراً أعظماً.

كانت ظروف السلام إذا هي أقوى عامل في إيجاد تجربة دمادا إبراهيم باشا، إلى جانب طول

1. شارل الثاني عشر (Charles XII) (1682-1718م): ملك السويد (1697-1718م)، يعتبر أحد عباقرة الحرب في مختلف العصور هزم الدانمارك وروسيا سنة 1700م، وبولندا سنة 1704م، ولكنه هزم بعد ذلك أمام روسيا في معركة بولتافا سنة 1709م فلجأ إلى [الدولة العثمانية]، وبقي فيها حتى سنة 1714م. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 256.

2. أقنع شارل الثاني عشر اللاجئ عند السلطان أحمد الثالث هذا الأخير بأن قوة روسيا المتزايدة، التي لا يكبحها الآن كابح في الشمال، ستتحدى هيمنة الترك على البحر الأسود والبوسفور إن عاجلاً أو آجلاً، فأعلن السلطان الحرب على روسيا، فاضطرّ بطرس الأكبر إلى الاستلام ووقع معاهدة بروث في 1 أوت 1711م التي قضت بأن أن يسلم قلعة آزوف بالبحر الأسود ويسمح لشارل بالعودة إلى السويد في أمان. ينظر: ويل ديورانت: المرجع السابق، ج 33، ص 37-38.

3. جرت مفاوضات في (Passarowitz) جنوب شرق بلغراد، بوساطة سفيرى بريطانيا وهولندا كما حدث في معاهدة كارلوفيتز (Karlowitz) وهما دولتان تجاريتان كانتا حريصتان على إحلال السلام في المياه المضطربة في شرق البحر المتوسط. على حساب العثمانيين حافظت النمسا على بلغراد وتيميشوارا [غرب رومانيا]، هذه التسوية أعادت حدود المجر وكرواتيا إلى مواقعها قبل حملات السلطان سليمان القانوني. ينظر: Caroline Finkel: Caroline Finkel: Op.cit, P337.

مدّة مكثه في منصبه العالي بعيدا عن الخوف من عزل السلطان، وعلاقته الخاصة بالعائلة العثمانية؛ فقد تولّى إبراهيم باشا الصّدارة لأطول فترة في عهد السلطان أحمد الثالث، هذا الأخير الذي تعاقب أربعة عشر صدرا أعظما في عهده¹؛ وقد مكث صدرا أعظما أكثر من ثلث مدّة سلطنة أحمد الثالث التي دامت قرابة الثلاثين عاما (من 9 ربيع الآخر 1115هـ/ 22 أغسطس 1703م إلى 19 ربيع الأوّل 1143هـ/ 2 أكتوبر 1730م)، وانتهت صدارته بنهاية عهد السلطان أحمد الثالث.

تشبهه علاقة دمادا إبراهيم باشا نوشهري بالسلطان أحمد الثالث إلى حد كبير علاقة شيخ الإسلام فيض الله بالسلطان مصطفى الثاني في مطلع القرن الثامن عشر، وكان إبراهيم باشا قادراً على استخدام السلطان أحمد الثالث بنفس طريقة فيض الله مع السلطان مصطفى الثاني لصالح عائلته الممتدة؛ كان لأفراد أسرة دمادا إبراهيم باشا نفوذ كبير، حيث احتكر رجاله المناصب في مجلس الديوان الهمايوني: كان صهره نائبا له، وآخر كان أدميراً كبيراً، وهو نفسه تزوج فاطمة سلطان ابنة السلطان أحمد وأعضاء آخرين من عائلته تزوجوا من الأميرات الثلاث الباقيات من آل عثمان، وحتى قبل أن يصبح صدرا أعظما كان داماد إبراهيم باشا يرتب الزيجات بين أفراد أسرته والأسرة العثمانية، ويعمل على بناء شبكة من أتباعه، فلم يكن لديه أي منافسين².

شهد عهد إبراهيم باشا استقرارا حكوميا ملحوظا بسبب طول مدّة القيادات العليا في مناصبها³؛ فقد تولّى نوشهري داماد إبراهيم باشا الصّدارة العظمى لمدة تزيد عن الاثني عشر عاماً وهي فترة نادرة جدا من الاستقرار في المنصب الحكومي، تقارب فترة صدارة فاضل أحمد باشا⁴ وقد

¹ . تولاهما أحدهم فقط مرتين وهو: بلتاجي محمد باشا (Baltacı Mehmed Paşa)

² - Caroline Finkel: Op.cit, P348.

عيّن دمادا إبراهيم باشا من رأى فيهم منافسين محتملين في مناصب بأقاصي الدولة العثمانية تماما كما فعل شيخ الإسلام فيض الله بالمنافسين المحتملين؛ فقد عيّن إبراهيم باشا أفرادا من عائلة كوبرلو (Köprülü) الشهيرة - عبد الله باشا وإسعد باشا (أبناء فاضل مصطفى باشا)، والصدر الأعظم السابق نعمان باشا - بمناصب في أقاصي الدولة. ينظر: Loc.cit.

³ . تتألّف القيادة العليا في الهرم السلطوي العثماني من: الصدر الأعظم، شيخ الإسلام، وزير المالية، مسؤول الشؤون الخارجية رئيس الكتاب (Reisülküttab)، الأدميرال الكبير ووزير الشؤون الداخلية وهو نائب الصدر الأعظم. ينظر:

Müge Göçek Fatma: Op.cit, P147.

⁴ . تعتبر فترة فاضل أحمد باشا كوبرلو أطول فترة صدارة مستمرة دون انقطاع من القرن السادس عشر إلى إلغاء الخلافة العثمانية إذ تولاهما لمدة تقارب الخمسة عشر عاما (1661.1676م)، ويعتبر الدمادا إبراهيم باشا نوشهري صاحب ثان أطول فترة مستمرة دون انقطاع خلال الفترة ذاتها.

تولى شيخ الإسلام بينتشيهرلي عبد الله أفندي¹ منصبه خلال ذات الفترة لمدة اثني عشر عاماً (1130 - 1143 هـ/1718-1730م)².

توجد إلى جانب ذلك كلة نقطتان مهمتان في شخصية إبراهيم باشا؛ الأولى اهتمامه بالأدب والفنون سيما التاريخ، والشغف والاهتمام بالتاريخ عادة يمنح الشخص حاسة قوية في حب الاستطلاع والمتابعة والتقصي، والنقطة الثانية شكّلها قربها من مركز صناعة القرار باعتباره شغل منصب نائب الصدر الأعظم لمدة سنتين من سنة 1128 هـ/1716م، وبالتالي معرفته بالشأن الأوروبي وانعكاسه على الدولة العثمانية، ولّد ذلك عنده شغف آخر حول ما الذي غير أوروبا وجعلها تفرض على الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها معاهدتين مذلتين (كارلوفيتز، باساروفيتجا).

بخصوص شغفه بالتاريخ ففي عهده وبناء على أمر مباشر منه تم إجراء أول محاولة منهجية للعثمانيين لتجميع العلماء رسمياً بغرض الترجمة وذلك في سنة 1130 هـ/1720م؛ فتشكّلت مجموعة الترجمة تلك من العلماء والشعراء والكتاب والموظفين المدنيين رفيعي المستوى وشيوخ الصوفية، والتي يمكن وصفها بالمجموعة الخاصة، ويصل عددها في بعض الأحيان إلى ثلاثين شخصاً وتأتي رواتبها من خزانة الدولة، وعلى الرغم من أن هذه المجموعة من العلماء لم يكن لها أي وضع قانوني إلا أن أنشطتها كانت ناجحة خاصة بمراعاة ظروف العصر الذي وجدت فيه³.

اضطلعت هذه المجموعة الخاصة بترجمة العديد من الأعمال التاريخية والفلسفية إلى التركية وكذلك بعض كتب أرسطو من اليونانية إلى العربية، ساهمت هذه الترجمات في إحياء التعليم الكلاسيكي والأنشطة الثقافية خلال ما يعرف بـ "عهد التوليب"، ومثلت هذه المجموعة من العلماء أول محاولة للدولة لإنشاء مؤسسة فكرية عثمانية بدون إطار قانوني، فكرة إنشاء هذه المجموعة الخاصة صاغها

¹ - بينتشيهرلي عبد الله أفندي: تاريخ ميلاده غير معروف. بعد اتمام دراسته زاول التدريس في عدة مدارس عثمانية كبرى، وشغل عدّة مناصب قضائية. عين بينتشيهرلي عبد الله أفندي بتوصية من داماد إبراهيم باشا شيخاً للإسلام. ظلّ شيخاً للإسلام اثنا عشر سنة وأربعة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وكانت علاقته قوية بالسلطان أحمد الثالث والصدر الأعظم دمادا إبراهيم باشا نوشهرلي غير أنّه في السنوات الأخيرة لصدارة إبراهيم تحوّل إلى أشدّ معارضيه، عزل من منصبه في 30 سبتمبر 1730، حج بيت الله الحرام وتوفي سنة 1743م. يعتبر عبد الله أفندي من أهم الشخصيات في عصر التوليب فق دعم بفتاويه الانفتاح على الابتكارات الغربية من بينها فتواه الشهيرة التي أجاز فيها إنشاء المطبعة وطباعة الأعمال غير الدينية، جمعت فتاويه في كتاب بحجة الفتاوى. ينظر:

Mehmet İpşirli : **Abdullah Efendi, Yenişehirli, (ö. 1156/1743), Lâle Devri'nin meşhur şeyhülislâmı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 1, 1988, sayfa 100-101.

² - Caroline Finkel: Op.cit, P349.

³ - Ekmeleddin İhsanoglu: **Science, Technology and Learning in the Ottoman Empire, Western Influence, Local Institutions, and the Transfer of Knowledge**, the Variorum Collected Studies Series, Ashgate Publishing Limited, Great Britain, 2004, P164.

نوشهري داماد إبراهيم باشا، الذي كان مدفوعاً باهتمامه الخاص بالتاريخ، إضافة إلى نيته تقديم ترجمات لكتب التاريخ إلى السلطان أحمد الثالث¹.

فيما تعلق بالشأن الأوروبي؛ فقد سافر داماد إبراهيم باشا بنفسه إلى فيينا سنة 1130هـ/1718م للتصديق على معاهدة باساروفيتجا، وكان على علم جيد بكل ما يمكن تعلمه من خارج الحدود العثمانية²، وقد لاحظ دماذ إبراهيم باشا الغرب عن كثب أكثر من سابقه من الصدور العظام واجتمع كثيراً مع السفراء الإنجليز والهولنديين والفرنسيين بإستانبول، قام بتنظيم حفلات استقبال وحفلات إضافية تكريماً للسفراء الغربيين إلى جانب الاستقبال الهمايوني المعتاد، ولأول مرة يتم إرسال السفراء العثمانيين إلى فيينا وباريس لمتابعة التطورات في الغرب والإبلاغ عنها، انعكس هذا الاهتمام المتزايد بالغرب في المصطلحات العثمانية المستخدمة لمخاطبة القادة الغربيين: فبالإضافة إلى العبارات المعتادة³ تحتوي فرمانات السلطان الآن على عبارات إضافية مثل "صديقنا العزيز العظيم" أو "صديقنا العظيم" ليصبح عهد صدارة إبراهيم باشا إجمالاً بمثابة أول تغيير في موقف العثمانيين تجاه الغرب؛ من الغطرسة إلى المسالمة، ومن اللامبالاة إلى الاهتمام، ومن موقع المتحكّم إلى موقع المشارك، ويعتبر العديد

¹ - Ibid, P165.

² - Caroline Finkel: Op.cit, P341.

وأثناء توليه منصب نائب الصدر الأعظم نيشانجي محمد باشا وتحديدًا سنة 1717م ووفقاً للمؤرخ النمساوي فون هامر زار فرنسي يدعى هوغينوت روشفورت (Huguenot Rochefort) العاصمة العثمانية مع مجموعة من البروتستانت الفرنسيين للحصول على إذن من الحكومة التركية لإنشاء مستعمرة لطائفة الهوغونوت في الأراضي الأوروبية للإمبراطورية، ومن أجل إظهار المزايا المتبادلة في حال سمحت الدولة العثمانية بإنشاء مثل تلك المستعمرة رَفَعَ هوغينوت روشفورت تقريراً للحكومة العثمانية سنة 1717م، تقريراً عنوانه: مشروع لإنشاء فرقة من المهندسين في خدمة الباب العالي (Projet pour l'établissement d'une troupe d'ingénieurs au service de La Porte) اقترح بعض التعهدات من أجل المنفعة الاقتصادية والعسكرية للبلاد؛ اقترح تزويد الحكومة بمجموعة من الفنيين العسكريين، وعرض تعليم الشباب العثماني الأساليب العسكرية الحديثة. أشار روشفورت إلى أن البروتستانت هم أفضل الحرفيين والتجار، وأن مهاراتهم ستكون مفيدة في الانتعاش الاقتصادي للبلاد. واقترح أن تقوم مستعمرات طائفة الهوغونوت بإنتاج المواد الخام محلياً وبالتالي زيادة ثروة البلاد، حاول روشفورت تعزيز حججه بالإشارة إلى أن دين البروتستانت كان أقرب إلى دين المسلمين، وأن الهوغونوت الذين تعرّضوا للاضطهاد من طرف الحكام الكاثوليك، يأملون أن يجدوا الطمأنينة والعون والعبادة بحرية لدى الأتراك المتسامحين. ينظر: Hammer: Op.cit, Tom 15, 1839, P348-356.

وقد فكّر إبراهيم باشا بشكل جدّي بتبني تلك المقترحات، غير أنّ السفير الفرنسي الماركيز دي بوناك (Marquis de Bonnac) نجح في منع تبني خطط روشفورت. ينظر: Şerif Mardin: Op.cit, P137.

³. مثل: افتتاح الأمراء العظام الأسوياء، مختار الكبراء في الملة المسيحية (iftihar ül ümera il üzzam il iseviye muhtarül kübera il f'il millet il mesihiye)، صاحب أذبال الحشمة والفكر، صاحب دليل المجد والاعتبار، مصلح مصالح جماهير الطائفة النصرانية. (mesalih-i cemahir ül taifet il nasraniye). ينظر: Müge Göçek Fatma: Op.cit, P148.

من المؤرخين هذا العهد بمثابة المرحلة الأولى من التحديث في تركيا¹.

يسمى المؤرخون عهد صدارة إبراهيم باشا بعهد التوليب (Lale Devri)² وكان الاهتمام الغالب بجانب أزهار التوليب الحفاظ على السلام الداخلي والخارجي، كما ازدهرت الكتابات التاريخية والأدبية وترجمات الأعمال الشرقية والغربية، حيث تمتع العثمانيون بالسلام ووجدوا وقتاً للبحث عن الأسباب وراء الهزائم العثمانية الأخيرة، واتباعاً للتوصية الرئيسية لأدب نصائح الملوك حاول إبراهيم باشا الحفاظ على السلام بأي ثمن أثناء إصلاح الدولة العثمانية.

كيف نسج دماذا إبراهيم باشا أول خيط في شبكة العلاقات مع أوروبا؟ وضمن أي سياقات تاريخية تم له ذلك؟ كان العثمانيون بحاجة إلى الانخراط عبر الدبلوماسية الأوروبية لتشكيل تحالفات مع القوى الغربية، زادت الحاجة إلى هذا الانخراط في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي عندما بدأ العثمانيون في مواجهة الهزائم في الغرب، حاول الصدر الأعظم نوشهيري داماد إبراهيم باشا الحفاظ على السلام من أجل تدريب جيش الدولة العثمانية على فنون الغرب العسكرية، كما حاول استكشاف قيمة الاتصالات مع الغرب، وصرح بأنه يجب تقييد النمسا وروسيا، وذلك ممكن من خلال توحيد الجهود مع فرنسا.

نُقل³ عن إبراهيم باشا قوله: " إنَّ الإمبراطوريتان [الفرنسية والعثمانية] باتَّحادهما [بمكْنهما] ترتيب العالم بشكل لا يمكن لأي كان تقويضه طالما ظلَّ التفاهم الوثيق قائماً بينهما؛ إن قوة الإمبراطورية الألمانية مردّها فقط إلى الأقاليم المجمعّة التي يمكن تفكيكها بسهولة، ومنذ وقت ليس بالبعيد كان ينظر إلى [الإمبراطور الألماني] في أوروبا على أنه ليس أكثر من مجرد عمدة فيينا، قد حصل مؤخراً على جزء من صقلية حيث تباهى بحصوله على قوات بحرية، لكن قوات فرنسا الموحدة إلى جانب قوات حضرة

¹ - Ibid, P8-9.

² . أول من أطلق هذه التسمية على عهد صدارة إبراهيم باشا نوشهيري هو المؤرخ التركي أحمد رفيق أطيناي (Ahmet Refik Altınay) (1881-1937م) في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته: (Lale Devri)، بسبب الاهتمام الكبير بتربية زهور التوليب [أوالأقحوان أو الخزامى أو الزنبق] خلال هذه الفترة. ينظر: Ibid, P8.

³ . نقل هذا الخبر من تقرير ضابط البحرية الملكية الفرنسية بيار بلويت دوكاملي (Pierre Blouet de Camilly) (1666-1753) الذي عيّنه ملك فرنسا لويس الخامس عشر قائداً لإحدى السفينتين اللتين رافقتا السفير العثماني إلى فرنسا يرمي سكين محمد جلي أفندي أثناء عودته إلى إستانبول في 19 أكتوبر 1721م. اقتبس النص من التقرير المفصّل لمهمة بيار بلويت دوكاملي الذي نشره المؤرخ الفرنسي أرمان غاستيه (Armand Gasté) (1838-1902) في كتابه:

"Le Journal de bord du chevalier de Camilly, Retour à Constantinople de l'Ambassadeur Turc Méhémet Effendi, juillet 1721 – mai 1722.

السلطان سوف تبقى هذه القوة في مكانها وتدمرها قبل أن تتمكن من الطيران بأجنحتها¹.

رأى إبراهيم باشا في فرنسا مدخلا إلى أوروبا الجديدة، واختيار فرنسا مبعثه العلاقات القديمة مع هذه الدولة من عهد سليمان القانوني. ظهرت الحاجة إلى إرسال سفير عثماني إلى فرنسا أيضا لعدة أسباب: في المقام الأول أراد العثمانيون كبح أطماع النمسا من خلال توقيع تحالف مع فرنسا، وكان فرسان مالطا ينهبون باستمرار السفن المسلمة، فأراد العثمانيون من فرنسا الضغط على الفرسان لوقف النهب، ومن الناحية التقنية أراد العثمانيون مراقبة الحضارة الفرنسية لمعرفة سر نجاحها العسكري، ونظرا لأن الفرنسيين لم يشتبكوا قط بالعثمانيين في أي صراع حديث، فإنهم بذلك لم يشكّلوا تحديا للكبرياء العثماني يتطلّب ردا ومقاومة لمراقبة المجتمع الفرنسي، وهذه الأسباب لم يكن من الممكن ولا كان ينبغي لفرنسا أن تكشف عنها بسبب ردود الفعل التي كانوا سيواجهونها من العثمانيين ودول أخرى، فكانت الأسباب الظاهرة للسفارة العثمانية إلى فرنسا هي نقل الترخيص العثماني لفرنسا من أجل إصلاح كنيسة القيامة، والتفاوض من أجل الإفراج عن العبيد العثمانيين المحتجزين في السفن الفرنسية².

توقيت السفارة كان سيئا بالنسبة لفرنسا؛ من الناحية السياسية كانت فرنسا تحاول الاقتراب من النمسا وليس تشكيل تحالف ضدها، وعلى الجانب المالي كانت وزارة الخزانة الفرنسية فقيرة وكان على بنك رويال بنك (Royal Bank) تعليق المدفوعات مما أثار اضطرابات عامة، بالإضافة إلى ذلك كان الطاعون يقتل الآلاف بفرنسا وكان موسم الحصاد سيئا، بسبب هذه العوامل أرسل وزير الخارجية الفرنسي خطابا في 4 محرم 1133هـ/4 نوفمبر 1720م طلب فيه من السفير الفرنسي بإستانبول بإثناء العثمانيين عن إرسال سفير من خلال استغلال حجة الطاعون، وصلت رسالته إلى القسطنطينية بعد رحيل السفير العثماني³.

قال السفير الفرنسي لدى إستانبول في غضون ذلك أثناء انتظار أوامر فرنسا لإبراهيم باشا إنه إذا اختار الباب العالي شخصا ذا أهمية متوسطة لإرساله فلن يساعده في رحلته، ولكن إذا تم إرسال مسؤولا رفيعا فسوف يفعل كل ما بوسعه لتسهيل الرحلة، أعاد الباب العالي النظر في اختياره وعين

¹ - Müge Göçek Fatma: Op.cit, P8.

² - Ibid, P9-10.

تم إخطار ماركيز دي بوناك السفير الفرنسي لدى الباب العالي بالترخيص خلال مقابلة مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا. قيل له أيضا أن السلطان أظهر رغبة في إرسال سفير إلى الملك الفرنسي لإخطاره بذلك وصرح بوناك بأنه "يجب تأجيل مغادرة السفير حين الانتهاء من إصلاح الكنيسة، وأنه لم يكن لديه أي أمر إمبراطوري بشأن هذا الموضوع، على الرغم من أنه لا يشك في أن السفير سوف يستقبل بشكل مثير للإعجاب بعد إشارات الصداقة الرائعة التي أرسلها السلطان للملك من قبل" بعد هذه المقابلة تم تعيين رئيس الحجاب قارا إنجي سفيرا لفرنسا، ولكن كانت عليه تحفظات من السفير الفرنسي. ينظر: Ibid, P10.

³ - Loc.cit, P10.

رسميًا سفيراً عثمانياً آخر إلى بلاط الملك الفرنسي الصغير لويس الخامس عشر (ت1774) السيد يرميسكيز محمد جلي أفندي¹، الذي جرى الحديث عنه سابقاً.

أراد إبراهيم باشا لتلك الأسباب مجتمعة أن يؤسس تحالفاً وثيقاً مع فرنسا؛ أعطى لفرنسا ترخيصاً من أجل إصلاح كنيسة القيامة بالقدس، كذريعة لإرسال سفارة وإقامة علاقات دبلوماسية جديدة معها. كانت تلك الذريعة بذاتها مهمة لفرنسا؛ فقد انتظر لويس الرابع عشر (1715م) هذا الترخيص لمدة ثمانية وعشرين عاماً، ومات دون الحصول عليه²، ويبدو أن إبراهيم باشا كان يولي أهمية كبرى لمعرفة سر تفوق دول أوروبا على العثمانيين أكثر من أي شيء آخر.

انطلق في سنة 1133هـ/1720م يرميسكيز محمد جلي أفندي³ إلى باريس مع فرمان يمنح السلطان بموجبه فرنسا إذناً بإصلاح كنيسة القبر المقدس "كنيسة القيامة" في القدس، كان بالإمكان إرسال هذا الخبر بسهولة أكثر حتى مع السفير الفرنسي بإستانبول، ولكن تم توجيه يرميسكيز محمد جلي أفندي من قبل الصدر الأعظم دمادا إبراهيم باشا نوشهرلي "لزيرة القلاع والمصانع، وإجراء دراسة شاملة عن وسائل الحضارة والتعليم، وتقديم تقرير عن تلك المناسبة للتطبيق في الدولة العثمانية" في الواقع كان أول مبعوث رسمي ثقافي عثماني⁴، وقد نفذ يرميسكيز تعليمات الصدر الأعظم وأطلعته بكل ما شاهدته في فرنسا.

خلافًا للتصور التقليدي الحديث - إذ لا يزال الكثير من المهتمين بالتاريخ العثماني يؤمنون بوجود شكل مبكر من "الستار الحديدي" - النخبة الحاكمة العثمانية لم تفقد الاتصال بأوروبا؛ كانت المشكلة أن هذه الاتصالات بقيت ضمن مجموعات نخبوية صغيرة والتي لم تكن قادرة على التأثير في عملية صنع القرار ولم تصبح جزءاً من الفهم المشترك حتى الربع الثاني من القرن الثامن عشر⁵. وهي الفترة التي بدأ

¹ - Müge Göçek Fatma: Op.cit, P10.

كان الفرنسيون راضين عن السفير؛ وصف السفير الفرنسي بإستانبول ماركيز دي بوناك محمد أفندي في رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بقوله: "يبدو لي رجلاً بارعاً، ضليعاً في شؤون الإمبراطورية، وله معرفة بالأجانب إنه رجل يبلغ من العمر خمسين عاماً، ذو وجه لطيف، ولحية سوداء طويلة بدأ يكسوها الشيب. إنه مؤدب للغاية ميزة ينذر وجودها هنا". ينظر: Ibid, P10-12.

² - Müge Göçek Fatma: Op.cit, P8.

³. ينظر: (الملحق 20) صورة ليرميسكيز محمد جلي أفندي، ص626.

⁴. عاد يرميسكيز محمد جلي أفندي الذي ترأس سفارة إلى فرنسا، عاد إلى إستانبول سنة 1721م بعد أن شاهد بعض المؤسسات العلمية الفرنسية الجديدة وحديقة النباتات ومتحف التشريح ومرصد باريس، والتقى ببعض المثقفين والعلماء. ينظر:

Ekmeleddin Ihsanoglu: Op.cit, P165.

⁵ - Mesut Uyar and Edward J. Erickson: **A Military History of the Ottomans: From Osman to Atatürk**, Praeger Security International, An Imprint of ABC-CLIO, LLC, Santa Barbara, California, USA, 2009, P112.

فيها رجالات فئة الكتاب يمارسون فيها تأثيراً أكبر من خلال تبوؤهم لمنصب الصدارة العظمى.

كانت ملاحظات يرميسكيز محمد جلبي مؤثرة في تشجيع أولئك الذين يصلون الآن إلى السلطة في الدولة على تقدير فائدة التواصل السلمي مع الغرب، كان العثمانيون دائماً متقبلين للابتكار التكنولوجي إذا بدا أنه يلي حاجة عملية، ويمكن استيعابه ضمن العادات الثقافية لهم ومن الأمثلة المبكرة استخدامهم للمدافع حتى قبل حصار القسطنطينية، والأسلحة النارية المحمولة يدوياً في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، كان لتبادل السلع كالساعات والنسيج والخزف بين الدولة العثمانية والغرب تاريخ طويل يمتد إلى عصر النهضة كما رأينا في الفصل السابق، غير أنّ تلك السلع في عهد صدارة نوشهري داماد إبراهيم باشا أصبحت متاحة بدرجة أكبر من أي وقت مضى، بفضل التحسن في التجارة¹ وتطور وسائل النقل.

شهد عهد السلطان أحمد الثالث أكبر عدد من البعثات الدبلوماسية خلال فترة البحث² قرابة 20 بعثة دبلوماسية قادها 12 سفيرا، منهم من تولّى رئاسة أكثر من بعثة، والملاحظ أنّ نصف هذه البعثات الدبلوماسية (10) كانت خلال عهد التوليب عهد صدارة دمادا إبراهيم باشا، وكانت وجهة البعثات الدبلوماسية في عهد إبراهيم باشا إلى كل من: فرنسا، بولندا، البندقية، روسيا، السويد النمسا وهذا المعطى الإحصائي يدلّ على رغبة في استطلاع جديد أوروبا.

حاول السفراء الذين تم إرسالهم إلى باريس وفيينا بفضل العقل الباهر لإبراهيم باشا وبسبب الضرورة السياسية، أن يُبشّروا بإنجازات الحضارة الأوروبية بمجرد عودتهم إلى بلدهم، هذا هو السبب في أن عهد التوليب مثّل حقبة استيقاظ رائعة للعثمانيين، كانت هذه هي المرحلة الأولى من ظهور الحضارة الأوروبية في الشرق³، وبهذا الزخم الكبير، وكانت بتوقيع أحد أهم رجالات فئة الكتاب في عصره الصدر الأعظم دمادا إبراهيم باشا نوشهري.

خلال عهد التوليب ومقارنة بالقرون السابقة، يمكن القول أن الدولة العثمانية بقيادة إبراهيم باشا فتحت نفسها أمام أوروبا كما لم يحدث أن فعلت من قبل؛ بدأت التأثيرات الحديثة الأوروبية عامة والفرنسية خاصة تجر لها مكانا لأول مرة في الفضاء العثماني؛ حيث بنيت القصور على النمط الفرنسي وكذا الحدائق بتأثير من سفارة محمد جلبي إلى باريس وغيرها من السفارات إلى أوروبا، وتم إنشاء أول دار طباعة عثمانية سنة 1139هـ/1727م، وتأسست مصانع الخزف والنسيج والورق وغيرها

¹ - Ibid, P342.

² . ينظر: (الملحق 21) جدول عدد السفارات والسفراء العثمانيين مرتب من أكثر العهود إلى أقلها سفارات، ص 627.

³ - Şerif Mardin: Op.cit, P138.

وتم انشاء وحدات لإطفاء الحرائق بإستانبول تابعة لفيلق الانكشارية، والكثير مما تم ذكره سابقا. يعتبر المؤرخون أنّ تأسيس المطبعة كان أحد أهم الابتكارات في عهد التوليب، كان اليونانيون واليهود في إستانبول يطبعون بالفعل منذ نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولكن فقط باللغة العبرية والأرمنية واليونانية واللاتينية¹، ويتساءل المؤرخ العثماني بجوي إبراهيم أفندي² في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وهو مجري الأصل عن سبب عدم توفر الكتب المطبوعة لقراء اللغتين العربية والعثمانية، وكان أحد مواطنيه ويدعى إبراهيم متفرقة هو الذي أخذ زمام المبادرة وأنشأ أول مطبعة، بدأ بطباعة الخرائط، وفي سنة 1726م قدم مقالا يتضمن تفاصيل مشروعه إلى دمادا إبراهيم باشا نوشهرلي، كان الحكم الشرعي للشيخ الإسلام موافقا وجاءت موافقة السلطان³، ليبدأ عصر الطباعة العثمانية الرسمية.

أثر إنشاء المطبعة - رغم أنّه لم يكن إصلاحًا عسكريًا - بعمق على نظام التعليم العسكري في العقود القادمة، كما أنّه وفر دراسة حالة لفهم الفجوات والمشاكل الهيكلية للإصلاحات والإصلاحيين العثمانيين⁴؛ علّمت النخبة الحاكمة العثمانية أهمية الطباعة والمطابع في وقت متأخرة بحوالي 300 سنة في الواقع قامت العديد من الأقليات بالفعل بتأسيس مطابعها؛ على سبيل المثال أنشأ لاجئون يهود من إسبانيا مطبعة سنة 900هـ/1495م جالبين بذلك خبرتهم المتراكمة إلى الإمبراطورية، ومن جهة أخرى أصبحت إمارة ترانسلفانيا التابعة للدولة العثمانية مركزًا مهمًا للطباعة في أوروبا الشرقية خلال القرن السادس عشر، ولكن لم يكن لذلك المركز تأثير على الإمبراطورية العثمانية، ومع كل ذلك عوّضا

¹ - Jakub Mazanec: **The Ottoman Empire at the Beginning of Tanzimat Reforms, Prague Papers on History of International Relations**, Faculty of Arts, Charles University in Prague, Faculty of Historical and Cultural Sciences, Institute of East European History, Vienna University, 2016, P22.

² . من أعلام أهل القلم ولد إبراهيم بجوي أفندي بمدينة بيجه (Pécs) في المجر سنة 982هـ/1574م. لهذا السبب اشتهر بالبجوي نسبة للمدينة. المعلومات المتعلقة بحياته تأتي من كتاباته. التحق بعمّه فرهاد باشا بايلرباي بودين. عمل كاتبًا أثناء وجوده مع لالا محمد باشا، واستعمله الأخير في بعض المهام الرسمية حين صار صدرا أعظما، كما عمل في خدمة الصدر الأعظم محمد درويش باشا، وشركس محمد باشا. له تاريخ عرف بتاريخ بجوي (Peçevî Tarihi) يؤرخ فيه لعهد سليمان القانوني حتى عهده هو، وكان من أوائل المؤرخين العثمانيين الذين استخدموا مصادر أوروبية مكتوبة. ينظر:

Erika Hancz : **Peçuyulu İbrâhim (ö. 1059/1649 [?]) Osmanlı tarihçisi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, cild 34, 2007, sayfa 216-218.

³ - Caroline Finkel: Op.cit, P366-367.

صدر فرمان الذي منح الإذن لإنشاء هذه المطبعة لتطبع على وجه التحديد كتبنا عن "التاريخ والطب والعلوم الفلسفية وعلم الفلك والجغرافيا" في سنة 1140هـ/1727-1728م. ينظر: Şerif Mardin: Op.cit, P138.

⁴ - Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P113.

من استخدام المعرفة والخبرة الفنيّة المحليّة فضّلت الحكومة استيرادها¹، يمكننا رؤية تكرار هذا الأمر - عدم القدرة على استخدام المعرفة والخبرة المحليّتان - مرارا وتكرارا في تاريخ الإصلاحات العثمانية ممّا ينجّر عنه تأخير التّقدّم بمئات السنين.

لم تلي مطبعة متفرّقة توقعات مؤسسيها؛ نُشر الكتاب الأول الذي كان عبارة عن قاموس بعد عامين من إنشاء المطبعة، وتمكنت المطبعة من نشر 17 كتاباً فقط، منها ثلاثة كتب فقط تتعلق بالعلوم خلال ستة عشرة عامًا من وجودها، وذلك مؤشّر واضح على مشكلة بنيويّة ثانية؛ كان المصلحون العثمانيون يميلون إلى توجّهي الحذر الشديد ولم تكن لديهم الشجاعة لمواجهة المعارضة والجمهور العام وبسبب هذا المسّلك لم تكن النتائج الفعلية لمشروعات الإصلاح سوى طيف لطموحاتهم الأصليّة لا تلي التوقعات وتؤثر بشكل مُتقطّع في النظام على المدى الطويل².

خلافًا للاعتقاد الشائع لم تُظهر المؤسّسة الدينيّة³ والمخافِطون سوى رد فعل محدود على الطباعة ولم يُعرقلوا هذا الإصلاح، ومع ذلك فشلت الطباعة الجديدة في التّعبير عن اهتمامات ومصالح المسؤولين الحكوميين والمتقنين والجمهور، وبالتالي لم يتحقّق الطّلب على مُنتجاتها، لم تكن المطبعة قادرة على بيع حتى عناوينها المحدودة وسرعان ما أفلست، وفقد أنصارها الاهتمام بها كمشروع وذلك مؤشّر على المشكلة البنيويّة الثالثة؛ غالبًا ما فقد الإصلاحيون العثمانيون المتعطّشون للتّغيير الاهتمام والحماسة بعد فترة وجيزة من إطلاق مشروع إصلاحي لينتقلوا إلى غيره من المشاريع الأخرى مُتناسين الأسباب الدّاعية لتأسيس المشروع، ودون أن يُؤلّوا الاهتمام الكافي بمصيره على المدى البعيد⁴.

لعب إبراهيم متفرّقة دورًا ثانويًا ولكنه حاسم؛ من حيث أنّه لم يُؤسس المطبعة فقط بل أَلّف كُتبيًا مهما حاول فيه تقديم الأسباب الحقيقيّة لتفوّق أوروبا؛ بعد وصف الجوانب الهامة للتّنوير والبنية السياسية الجديدة للدول الأوروبية، حاول إبراز أوجه القصور العثماني، واقترح أن أكبر مشكلة في الإمبراطورية ليس الجهل على نطاق واسع بكل ما يصدر من أوروبا، ولكنه بالأحرى الاستخفاف الخطير بالتطوّرات العلميّة والتكنولوجية الحيوية الجديدة، وأثر ذلك بدوره على الجيش الذي تخلّف عن الرّكب بسبب عدم وجود هيئة ضباط مدربة ونظام قيادة وتحكّم فعالين، وحاول متفرّقة أيضا شرح بعض طلائع القوات

¹ - Ibid, P113-114.

² - Ibid, P114.

³. كان شيخ الإسلام بينيشيهرلي عبد الله أفندي رجل عصره، كان منفتحًا على الابتكارات الأوروبية لذلك مكث في المشيخة قرابة الاثنا عشر عامًا، ومثّل نموذجًا للعالم المتجاوب مع واقع عصره.

⁴ - Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P114.

المسلحة الأوروبية الحديثة وعرض أول الترجمات العثمانية لعدّة مصطلحات عسكرية أوروبية رئيسية¹. معظم ما طبع بمطبعة متفرقة وشريكه نجل يرميسكيز محمد جلبي أفندي، وابنه محمد سعيد أفندي (الذي رافق والده في سفارته إلى فرنسا سنة 1133هـ/1720م) كان حوليات عثمانية ولكن كان هناك أيضاً قاموس عثماني عربي وقاموس فارسي عثماني وقواعد عثمانية-فرنسية وتاريخ أفغانستان - حظر السلطان طباعة الكتب الدينية حتى لا يوقف الكتابة عن العمل - لم تعمل مطبعة متفرقة إلا بشكل متقطع بعد وفاة مؤسسها وأغلقت في نهاية المطاف في سنة 1211-1212هـ/1796-1797م، بعد أن طبعت 24 عنواناً فقط - معظم النسخ المطبوعة يبلغ عددها 500 نسخة - خلال 64 عامًا من وجودها، لا يبدو أن نهايتها كانت نتيجة للمعارضة الصريحة للطباعة بالأحرف العربية وإنما بسبب قلة الاهتمام بين عدد قليل من الذين يمكن أن يقرأوا، والذين يبدو أنهم فضلوا المخطوطات التي كتبت باليد عن غيرها².

ثمّة فرضية طويلة الأمد في الفترات الكلاسيكية للتاريخ العثماني مفادها أنّ التغريب (garphılaşıma) في الإمبراطورية العثمانية بدأ مع أوائل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي؛ وفقا للرأي التقليدي بدأت الدولة العثمانية تشعر بآثار التنوير الأوروبية مع إنشاء مطبعة متفرقة سنة 1139هـ/1727م، واكتسبت من ذلك الحين زخماً متصاعداً مع السنين اللاحقة، لتحقق نوعاً من الذروة في ظل حكم السلطان الإصلاحى سليم الثالث (الذي حكم في (1203-1222هـ/1789-1807هـ))³، وهي فرضية تحتاج إلى الكثير من الحجج للصمود، سيما إذا علمنا أنّ تأثير الطباعة كان محدوداً في بواكيرها بالدولة العثمانية.

1 - Ibid, P114.

2 - Caroline Finkel: Op.cit, P367.

3 - Rhoads Murphey: Op.cit, P116.

بحسب مقال نشر سنة 1940م بإستانبول عنوانه: حركات التغريب قبل التنظيمات (1718-1839) "التنظيمات الأولى": بمناسبة الذكرى المئوية الأولى. (: Tanzimat I' in Tanzimattan evvel garphılaşıma hareketleri (1718-1839)) من قبل المؤرخ التركي أنور ضياء كارال (1906-1982م) فإنّ مصطلح التغريب أوتعبير ضياء كارال (garphılaşıma) أصبح شائعاً في التأريخ الحديث في سياق ما قبل القرن العشرين قبل كتابات الحدائين مثل عالم الاجتماع التركي ضياء كوك ألب (1876-1924م). من المرجح أن يكون مفهوم التغريب قد استخدم بشكل سلبى؛ للانتقاص أو للسخرية أكثر منه في المعنى الإيجابي. في تقدير كارال كان بالإمكان تلمّس التغريب - بمعناه الإيجابي مقابل المعنى السلبى - بالإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر في سبع مجالات متميزة تتراوح بين الشؤون العسكرية والإدارية والأنشطة الثقافية والفكرية. وعلى الرغم من أن كارال يشير بشكل سريع إلى التطورات التي حدثت خلال عصر التوليب في بداية القرن، إلا أن الجزء الأكبر من أدلته مأخوذة من عهد سليم الثالث الذي تولى العرش سنة 1789م. ينظر: Ibid, P119-120.

ابتكار آخر مهم شهده عهد التوليبي؛ قبل أوائل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي كان الإنكشاريون هم الذين استُخدموا "كرجال مطافئ"، وفي بداية هذا القرن اخترع مهندس فرنسي اعتنق الإسلام وتسمّى باسم جارتشك داوود (Gerçek Davud) مضخة إطفاء الحرائق (Tulumba) أثبتت أنّها مفيدة جدا في إطفاء الحرائق. نتيجة لذلك قام الصدر الأعظم دمادا إبراهيم باشا نوشهري آنذاك بتأسيس وحدة إطفاء الحرائق (Tulumba ocağı) مكونة من رجال الإنكشارية ووضع على رأسها جارتشك داوود بعد أن منح الأخير رتبة آغا (ağa)، بعد حل وحدة إطفاء الحرائق سنة 1241هـ/1826م بسبب إلغاء الإنكشارية، أنشأ كل حي بإستانبول وحدة إطفاء حرائق خاصة¹.

كان عهد التوليبي من جميع النواحي نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية لأنه للمرة الأولى لم يتقبّل معظم أعضاء النخبة الحاكمة التفوق العسكري الأوروبي فحسب، بل أدركوا أيضا الحاجة إلى فهم الأسباب الكامنة وراءه². غير أنّ عهد التوليبي باعتباره تجربة وليدة في عمر الدولة العتيذة حمل بذورا قاتلة عجلة بالنهاية المساوية لرائده دمادا إبراهيم باشا نوشهري!!!

كانت بداية النهاية مع سفارة يرميسكين محمد جلبي، هذا الأخير أدّى واجبه الشاق بنجاح خلال فترة توليه منصبه كسفير مُفوّض لفترة قصيرة خلال (1129-1132هـ/1717-1720م)؛ زار خلالها عدّة أماكن بفرنسا، وأشار بعناية لجميع التفاصيل مع انطباعاته، بطريقة ما كانت ملاحظاته بمثابة صُور سريعة للمجتمع والمؤسسات الفرنسية، لكن من المدهش أنه لم يهتم كثيرا بالأمور العسكرية ولم يكتب أي شيء تقريبا عن الجيش الفرنسي، ولم يُقدّم أي ملاحظات عسكرية ملموسة، ومع ذلك فإن عودة محمد جلبي مرفوقا بالمواد التي جلبها معه ولدت حماسا داخل النخبة الحاكمة العثمانية والطبقات الفكرية.

كانت أخباره الرئيسية محل تقدير كبير من قِبَل الحكومة وكان لها تأثيرات عميقة على السياسة العثمانية، ولكن لسوء الحظ تم نسيان السبب الحقيقي وراء سفارة محمد جلبي واستقرّ بالأذهان نوع

¹ - Ebru boyar and Kate fleet: Op.cit, P83-84.

² . خلال الصدارة العظمى لإبراهيم باشا قدّمت للسلطان واحدة من الوثائق الأولى المعروفة التي توضّح أسباب التفوق الغربي؛ صيغت على شكل حوار بين ضابط أجنبي وضابط تركي. (نجد نص الحوار في دراسة المؤرخ التركي فائق رشيد إيونت (Faik Reşit Unat) بعنوان: تقرير الإصلاح في عهد أحمد الثالث (Ahmet III devrine ait bir Islahat Takriri) المنشور بالمجلة التاريخية التركية (Tarih vesikalari) العدد الأوّل لسنة 1941م، ص107-121).

من المهستيريا الفرانكوفيلية¹؛ فبدلاً من التركيز على الأهداف الأساسية للبعثة فضّلت النخبة العثمانية الحاكمة تقليد العادات والأذواق الفرنسية الرفيعة من خلال بناء قصور وحدائق فاخرة على الطراز الأوروبي (دون نسيان الجنون بزهرة التوليب)، وباستيراد كميات كبيرة من السلع الاستهلاكية الفاخرة² هذا الهوس بتقليد الكماليات الحضارية عدا كونه يعزل النخبة الحاكمة عن رعاياها، فإنّه يُعْمِي عن تلمّس أسبابها وحقائقها وصولاً إلى الاقتباس الذكي لصنع رفاه حضاري حقيقي.

لقد أصبح قصر سعد آباد (Sa'dabad)³ رمزاً لعهد التوليب بالدولة العثمانية، كما أصبح رمزاً عند عامة الشعب للفجور وعظائم الأمور التي تُسَخِّطُ الخالق⁴؛ أنفقت نخبة إستانبول ثروتها على أنواع

¹. لما زار يرميسكيز محمد جلبي حدائق فرساي، وتحوّل فيها بواسطة عربة مفتوحة على عجلتين، علّق قائلاً: إنّ القول المأثور الجميل:

"الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" قد أصبحت واقعا. ينظر: Ebru Boyar and Kate Fleet: Op.cit, p245.

²- Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P112-113.

³. قصر سعد آباد (Sa'dabad) هو القصر الصيفي الذي بناه السلطان أحمد الثالث بمنطقة كاغد خانة (Kâğıthane) سنة 1722م، وكان يشار إليها بمديقة التوليب (Lalezar). أصبحت المنطقة التي أنجزت وتُسمى سعد آباد في سنة 1723م أكثر المناطق الترفيهية شهرة في تلك الفترة وأثرت بشكل كبير على التاريخ العثماني وأسلوب الحياة والفن والأدب. ينظر:

Ebru Erbaş Gürler: **istanbul'da Sanat**, Mimari, EI Sanatı, Resim, Müzik, 7. Uluslararası Türk Kültürü Kongresi, Türk ve Dünya Kültüründe İstanbul, Bildiriler IV, Atatürk Kültür Merkez, 1Baskı, Şebnem Ercebeci Çınar, Türkiye, 2011, sayfa 141.

⁴. كان أحمد نديم (1681 - 1730م) شاعر بلاط أحمد الثالث سلطان أحد أشهر الشعراء العثمانيين الذي يرمز شعره إلى الرفاهية والجمال الذين أوجدهما عهد التوليب، كما يرمز شعره إلى انحلال الأخلاق، والثناء على الظرافة والمجون بالنسبة له كانت حدائق سعد آباد هي الملاذ الأخير والمهرب نحو حياة من الجمال والظرف والميوعة الأخلاقية:

هيا تُبْهَج هذا القلب التّعيس

يا شجر السرو المتمايل هلّم بنا إلى سعد آباد

القارب ذو المجاذيف الثلاث جاهز عند الرصيف

يا شجر السرو المتمايل هلّم بنا إلى سعد آباد

هيا نضحك، هيا نرقص، لنستمتع للنهاية بهذا العالم

هيا نشرب من النافورة مياه الجنة العذبة

هيا نرى مياه الحياة تتدفق من الجرار

يا شجر السرو المتمايل هلّم بنا إلى سعد آباد

هيا نتجوّل بجانب البركة

هيا نأتي لبيهرنا هذا القصر السّمّاي

هيا نغزّد، هيا نروي

يا شجر السرو المتمايل هلّم بنا إلى سعد آباد

هيا نستأذن أمك في إجازة كما لو كنا سنذهب لصلاة الجمعة =

غريبة من زهور الأفحوان وقصور المتعة وحفلات الحداثق المضاعة بالشموع المثبتة على ظهور السلاحف كان جنون التوليب مصحوبًا باستهلاك مبالغ فيه، وشهية للأزياء والسلع الأجنبية، في عين الجمهور الممتعض سارت هذه التجاوزات المتباهية جنبًا إلى جنب مع الاختلالات الأخلاقية الأخرى بما في ذلك الوجود السافر للنساء¹، كل ذلك كان من شأنه أن يجعل المجتمع المحافظ ينقلب على أولياء أمره.

بعد حوالي ستين عامًا وصف مؤرخ عثماني² دمادا إبراهيم باشا نوشهيري بأنه: " بينما كان ينغمس في ملاهيه الخاصة سمح بازدهار الفاسدين وقتل المحاربين الجيدين وكان صديقًا للكافرين كان ذلك الرجل مدمنًا على ملذات سعد آباد³"، لقد كشف تدمير قصر سعد آباد مباشرة بعد تولي محمود الأوّل العرش⁴، إلى أي مدى ارتبط هذا القصر بالحكم الفاسد والباذخ والليبرالي لأحمد الثالث؛ فقد أمر محمود الأوّل المنادين بالمدينة بالإعلان إلى كل من له جناح أو قصر بمنطقة كاغد خانة (Kâğıthane) أن يهدمه بنفسه⁵، كما لو أنه نجس لا يتعامل معه إلا أصحابه.

جاء الزخم الأساسي المضاد للإصلاح من الإنكشاريين الذين كانوا يشعرون بسبب الأجر غير المنتظم بآثار التدهور الاقتصادي العام للبلاد، وتحالفت معهم الطبقات الأكثر فقرا بالعاصمة؛ في الثورة على الوضع برمّته، عبّر الإنكشارية عن المظالم الاجتماعية، لكنهم أيضاً عبّروا عن اشمئزازهم من الحياة

دعونا ليوم واحد نرتاح من القدر القاسي
هيا تنتزه على الرصيف عبر الدروب المخفية
يا شجر السرو المتمايل هلّم بنا إلى سعد آباد
أنت وأنا والعازف سنريح
وإذا أذنت يا نديم المحبّ بجنون
دع بقیة الأصدقاء يسعدون في هذا اليوم

يا شجر السرو المتمايل هلّم بنا إلى سعد آباد. ينظر: Ebru boyar and Kate fleet: Op.cit, P231-332
شكا أحد أئمة مسجد آيا صوفيا ويدعى حنفي أفندي إلى السلطانة الوالدة أم السلطان أحمد الثالث بأن صوت الطبول والمزامير والقيثارات والأعواد الصادرة من القصر كان عاليًا لدرجة أنه يعلو على صوت الأذان، وبأن المؤذنين غير قادرين على أن يسمعوا الأذان من مئذنة مسجد آيا صوفيا. ينظر: Ebru boyar and Kate fleet: Op.cit, P183.

¹ - Virginia H. Aksan and Daniel Goffman: Op.cit, p225.

². هو المؤرخ العثماني أحمد جاويد (Ahmed Cavid) (ت 1803م).

³. ينظر الملحقين (22، 23)، وهما يظهران منطقة كاغد خانة (Kâğıthane) وقصر وحديقة سعد آباد (Sa'dabad) بإستانبول سنة 1720م. ويظهر فيهما التأثير الوروي على الإنسان والمعمار العثماني، ص 628، 629، على التوالي.

⁴. كان محمود الأوّل قد فصل نفسه رمزياً عن "عهد التوليب" في بداية حكمه؛ إذ بعد تنصيبه بثلاثة أيام على العرش أمر بهدم أقوى رموز عهد التوليب قصر سعد آباد. ينظر: Caroline Finkel: Op.cit, P365.

⁵ - Ebru boyar and Kate fleet: Op.cit, P232.

المرفهة التي عاشها وقادها المسؤولون العثمانيون، وبالأخص الأشكال الغربية التي اتخذتها هذه الرفاهية وما رافقها من أمور تخدش الحياء العثماني العام، لم ير العامة من الناس في العاصمة أي صلة بين عهد التوليب وبين مشاكلهم وهمومهم اليومية.

الذي أشعل فتيل ما عرف بثورة خليل باترونا¹ التي أنهت عهد التوليب ورموزه، هو تورط الباب العالي شرقاً في الحرب ضد إيران 1136هـ/1723م؛ احتل العثمانيون الأجزاء الغربية من إيران لكن المقاومة القبلية والهجمات المضادة الإيرانية الناجحة على الأراضي العثمانية أثارت الاضطراب بإستانبول²، أدى الاستياء الشعبي من مجازر الصفويين وعجز الباب العالي عن الرد إلى جانب الاستياء من زيادة الضرائب، بالموازاة مع نمط الحياة الباذخ والواضح للنخبة الحاكمة والذي اعتبر مخالفاً للشريعة³ إلى ثورة أنهت ليس فقط عهد التوليب ولكن أنهت معه وبشكل بشع أهم رموزه وعلى رأسها دمادا إبراهيم باشا نوشهري⁴، وزاد كره الشعب وجزء كبير من النخبة العثمانية المحافظة لكل مجلوب من الغرب.

عزل السلطان أحمد الثالث بعد أيام قليلة من المذبحة البشعة لرجال دولته، ونصّب ابن أخيه

1. خليل باترونا (Patrona Halil) قائد انتفاضة 1730م التي أطاحت بالسلطان أحمد الثالث وصدده الأعظم دمادا إبراهيم باشا منهيًا بذلك ما عرف بعهد التوليب؛ باترونا خليل إنكشاري من ألبانيا قاد ثورة في 28 سبتمبر 1730م بحجة أن السلطان وصدده الأعظم خالفوا الشريعة حين تنازلوا عن الأراضي السننية لإيران الشيعية، سرعان ما انضم إليه العلماء والانكشارية والشعب كانت نتيجتها قتل الصدر الأعظم وتنازل السلطان أحمد الثالث عن العرش لمحمود الأول، مع ذلك ظلّ باترونا وأتباعه يثيرون الشغب بالعاصمة إلى أن استدعاهم محمود إلى القصر لمناقشة حملة جديدة ضد الفرس فتمّ خنقهم بالقصر وذلك في 24 نوفمبر 1731م. فتبدد أتباعهم وعاد السلام مرة أخرى لاستانبول. ينظر: Stanford J. Shaw: Op.cit, P239-240

1- Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P114-115.

2. استولى الصفويون على تبريز وارتكبوا فيها ضدّ السنّة مقتلًا عظيمًا بشعة في 12 أوت 1730م/ 27 محرم 1143هـ.

3. من أجل إضفاء الشرعية على ثورتهم ضموا إليهم بعض أهل العلم، منهم قاضي القدس سابقاً سمانجي زاده أفندي غير أنّ الذي كان له تأثير بينهم هو مدرّس يدعى إبراهيم أفندي، أصبح الأخير هو مفتي المتمرّدين. ينظر:

Munir Aktepe: **Patrona isyani 1730**, Edebiyat Fakültesi Basimevi, Istanbul, 1958, P141-142.

4. حاصر المتمرّدون القصر وطالبوا بتسليمهم 37 مسؤولاً ليردّوا عن التّهم الموجهة إليهم: كان الصدر الأعظم واحداً من بين المطلوبين إضافة إلى صهره، إلى جانب شيخ الإسلام بينتشيهرلي عبد الله أفندي وآخرين. أما شيخ الإسلام بينتشيهرلي فتم نفيه إلى جزيرة بوزكادا بتركيا، وعيّن مكانه فوراً الشيخ ميرز زاده شيخ محمد أفندي، الذي أصدر فتوى بإعدام دمادا إبراهيم باشا وصهره، وتمّ إعدامهم وتسليم جثثهم للمتمرّدين لتنقل إلى ساحة ميدان السلطان أحمد، ولأنّ جثّة إبراهيم باشا كانت مشوّهة الوجه سرت شائعات بأنّ إبراهيم باشا حي محتبئ بالقصر. ينظر: Ibid, P150-152. فقيدوا الجثة بحمار وجروها إلى الباب الهمايوني، وطالبوا بالجثة الحقيقية للصدر المعدم، فأعطيت لهم. في وقت لاحق دفع الشاعر والمؤرخ شاعر بك المال إلى بعض المتمرّدين لجمع قطع من جسد راعيه دمادا إبراهيم باشا نوشهري ودفنها سرّاً ليلاً في الحديقة بالقرب من المكتبة والنافورة التي بناها إبراهيم باشا. ينظر:

.Ebru boyar and Kate fleet: Op.cit, P96

محمود الأول سلطانا جديدا للدولة العثمانية، يمكن اعتبار ثورة باترونا التي ضمت الإنكشارية والعلماء - قَدَمَي كل الثورات والتمردات الناجحة في تاريخ العثمانيين - إلى جانب التجار والعامّة أوّل ثورة محافظة ضدّ الإصلاحات ذات الميول الغربية.

هكذا أسهم رجل الدولة إبراهيم باشا نوشهري على وضع اللبنة الأولى في العلاقات الجديدة بين الدولة العثمانية وأوروبا، فكان بذلك أوّل صدر أعظم عثماني ينظر إلى أوروبا كعنصر لا غنى عنه في سياسة الدولة العثمانية بدلاً من مجرد منافس يجب إخضاعه في أحسن الأحوال أو سحقه وذلك بصرف النظر عن عجزه عن سبر أغوار التجربة الأوروبية بحيث ظلّ عالقا في مظاهرها من حيث جلب إليه سخط رعاياه وإن كان محطّ إعجاب آخرين.

على الرغم من أن نيوشهري داماد إبراهيم باشا كان موضع إعجاب الزوار الأوروبيين لإستنبول كمصلح مستنير حاول جر العثمانيين إلى العالم المعاصر، إلا أن المعلقين العثمانيين في ذلك الوقت كانوا أقل رضا عنه. المؤكّد أن التزامه الواضح بالسلام لم يرضي بعض شرائح المجتمع، التي رأت من زاوية موقفها الدفاعي عن الدولة العثمانية الخيانة في كلّ ما كان يمثّله دمادا إبراهيم باشا، وفي أحسن الأحوال كان معظم المؤرخين العثمانيين في القرنين الثامن والتاسع عشر يلقون بالمسؤولية على دمادا إبراهيم باشا في إدخال الأفكار الأجنبية، وفي فرض الضرائب المفرطة وتكريس المحسوبية، نظروا إليه كمبدّر لموارد الدولة، ومتسامح للغاية تجاه الحياة الاجتماعية الباذخة بما فيها من حدائق وقصور عليّة القوم، ومسؤولا في أسوء الأحوال عن بث روح الدعارة والفجور في العلاقة بين الرجال والنساء، كما أعرب كتّاب الحوليات عن أسفهم للفرصة التي أتاحت للعوام للمشاركة في هذه المتع وتقليد رؤسائهم¹.

الصدر الأعظم خليل حميد باشا

الشخصية الثانية المهمّة بعد دمادا إبراهيم باشا نوشهري هو الصدر الأعظم خليل حميد باشا² الذي اعتبره المؤرخون أعظم صدر أعظم إصلاح في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي على الإطلاق³ مهّد بإصلاحاته الطريق لأعظم سلطان إصلاح في القرن نفسه أيضا وهو السلطان

¹ - Caroline Finkel: Op.cit, P349-350.

². ينظر: (الملحق 24) صورة الصدر الأعظم خليل حميد باشا، ص630.

³. وصفه مؤرّخ الدولة العثمانية ورئيس الكتاب أحمد واصيف أفندي (17.. - 1806م) بالمجدّد " صاحب المائة " (sâhib-i mia) في إشارة إلى الحديث الشريف الذي رواه أبو داود في سننه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا).

سليم الثالث، ويشتهر في أنه كان ضالعا في المخطط الذي كان سيسفر عن خلع السلطان عبد الحميد الأول وتنصيب ابن أخيه السلطان سليم الثالث، فدفع حياته ثمنا لأجل ذلك، وهو سادس رئيس كتاب يتولى الصدارة بعد رامي محمد باشا¹.

قبل الحديث عن أهم إنجازاته الإصلاحية وأهم خطواته للانفتاح على أوروبا، ينبغي وضعه في سياق الأوضاع السياسية التي تولى فيها الصدارة؛ كان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي في أوروبا عهدا ظهرت فيها كيانات سياسية جديدة، وكان العثمانيون أيضا قد تمسكوا بسياسة السلم تجاهها عاما وتخلّوا عن سياسة الجهاد القديمة، إلا أنهم عندما كانت تفرض عليهم الضرورة حربا لم يتورّعوا عن خوضها، ومع ذلك فإنّ الحاجة الماسّة إلى مناخ السلم والاستقرار قد شكّلت خطوط السياسة العريضة لا سيما لدى رجال الدولة من ذوي الأصول المنظومة الإدارية، وكان للصعوبات التي واجهها العثمانيون في أوروبا دورا في ذلك. وقد لعبت كل هذه الأمور دورا مهما في تأسيس مرحلة السلم الطويلة التي امتدّت ثلاثين عاما تقريبا عقب نجاح العثمانيين ضد الغرب سنة 1152 هـ/1739م² وقد أدرك الجميع أهمية الدبلوماسية في مسألة توازن القوى في أوروبا، وظهر بوضوح أنّ الحروب ليست وحدها هي الحاسمة في كل وقت³.

تجدّدت الحرب العثمانية الروسية مرّة أخرى بين سنتي 1182 هـ/1768م و1188 هـ/1774م، والتي اندلعت بسبب خلاف عثماني روسي بشأن الخلافة الملكية في بولندا، وأسفرت الحرب عن كارثة للعثمانيين وأثارت عواقب سياسية واسعة النطاق، خلال هذا الصراع الطويل وصل أسطول البلطيق الروسي إلى شرق البحر الأبيض المتوسط وأحرق الأسطول العثماني سنة 1184 هـ/1770م

1. 1. رامي محمد باشا (Rami Mehmed Paşa). 2. نايلي عبد الله باشا (Naili Abdullah Paşa). 3. خوجا محمد راغب باشا (Koca Mehmed Ragıp Paşa). 4. توقيع حمزة حميد باشا (Tevkii Hamza Hamit Paşa). 5. ياغلي قجه زاده محمد أمين باشا (Yağlıkçızade Mehmed Emin Paşa).

2. هي معاهدة بلغراد في سبتمبر 1739م، إحدى اتفاقيتي السلام اللذين أبرمتهما الإمبراطورية العثمانية لإنهاء حرب استمرت أربع سنوات مع روسيا وحرب استمرت عامين مع النمسا حليفة روسيا. أرادت روسيا ترسيخ أقدامها في البحر الأسود، فأعلنت الحرب سنة 1735م وتبعتها النمسا سنة 1737م. بسبب الفشل العسكري أبرمت النمسا سلامًا منفصلاً في سبتمبر سنة 1739م متنازلة للعثمانيين عن شمال صربيا (مع بلغراد) وولاشيا الصغيرة (جنوب رومانيا). واضطرت روسيا إلى عقد سلام مخيب للآمال في نفس الشهر: بحيث تصبح أزوف التي استولوا عليها منطقة منزوعة السلاح، ولن يكون لروسيا سفن حربية على بحر أزوف أو البحر الأسود. وفرت هذه المعاهد التي كانت بوساطة وضمانة فرنسية السلام النسبي حتى سنة 1768م. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Treaty of Belgrade 1739**,

<https://www.britannica.com/topic/Russo-Turkish-wars>.

3. أكمل الدين إحسان أوغلي: المرجع السابق، مج 1، ص 66.

بميناء مدينة تشيشمي (Çeşme) على بحر إيجه غرب تركيا، كما حرّض الروس على ثورة يونانية في المورة سنة 1184هـ / 1770م؛ تم احتلال شبه جزيرة القرم وشواطئ البحر الأسود المجاورة سنة 1185هـ / 1771م؛ واخترقت القوات الروسية أقصى الجنوب حتى بلغاريا سنة 1188هـ / 1774م ففرضت تلك الوقائع وغيرها¹ معاهدة كوتشوك كينارجيك في 13 جمادى الأولى 1188هـ / 21 جويلية 1774م².

تضمّنت المعاهدة المذلّة للعثمانيين الاعتراف باستقلال خانية القرم، ضم روسيا لشواطئ البحر الأسود، زيادة النفوذ الروسي بالقوقاز، حرية دخول السفن التجارية الروسية إلى موانئ البحر الأسود والاعتراف بروسيا باعتبارها حامية للسكان الأرثوذكس في ولاشيا ومولدافيا وفي جزر بحر إيجه، لقد أظهرت هذه الحرب بوضوح تفوق روسيا العسكري على العثمانيين، وكذلك تصميمها على تكريس هيمنتها على البلقان من خلال ترسيخ نفسها كحامية للسكان الأرثوذكس العثمانيين، لقد أدرك مسيحيو البلقان ضعف الدولة العثمانية وبدأوا ينظرون إلى روسيا كداعم لآمالهم الانفصالية، ولم يعد بمقدور الدولة العثمانية أن تلعب دور القوة العظمى في أوروبا الشرقية³ وكانت تلك بداية تحوّلها إلى مجرّد مسألة شرقية.

أدت الحرب التي أعلنها العثمانيون سنة 1200هـ / 1786م ضد روسيا على أمل استعادة شبه جزيرة القرم إلى المزيد من الخسائر الإقليمية؛ هاجم النمساويون - الذين أدركوا وجود فرصة للتوسع - البوسنة وشمال بلغاريا ومولدافيا، لكن تم إعادتهم إلى أراضي هابسبورغ، ومع ذلك هزم الروس العثمانيين في منطقة بيسارابيا في أوروبا الشرقية وفي شمال القوقاز (1202 - 1204هـ / 1788 - 1790م) منذ سنة 1204هـ / 1791م سعت جميع الأطراف إلى السلام - أصبحت النمسا وروسيا قلقتين بشأن انعكاسات الثورة الفرنسية على أوروبا - وانتهت الحرب سنة 1205هـ / 1792م، وحافظ السلام بين الدولة العثمانية وهاابسبورغ في معاهدة زيتشتوفا (Ziştovi Antlaşması)⁴ سنة 1204هـ / 1791م

¹ - ثورة بوغاتشيف داخل روسيا (1773-1774) هي التي أجبرت كاترين الثانية على الدخول في محادثات سلام. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica : **Yemelyan Pugachev Russian Leader**, <https://www.britannica.com/biography/Yemelyan-Pugachev> , Last Updated: Oct 7, 2019.

² - Selçuk Akşin Somel: Op.cit, P CI.

³ - Loc.cit.

⁴ . معاهدة صلح أبرمت بعد حرب وقعت بين عام 1788 و 1791 بين الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا والمجر. ينظر: حسين مجيب المصري: معجم الدولة العثمانية: يحتوي من الأسماء ما تتعقد صلته بالأترك العثمانيين على امتداد تاريخهم مع الشرح والتأصيل بحيث تبدو صورة لحياقتهم في شتى جوانبها وحضارتهم الإسلامية في أخص مظاهرها وفيه تراجم لرجالهم من الأعلام في تاريخ الإسلام، ط1، الدار الثقافية للنشر، مصر، 2004، ص71.

على الحدود السابقة للحرب وحصل الروس على بيسارابيا الشرقية في سلام جاسي (Yaş) سنة¹ 1205هـ / 1792م²، بعد ذلك لم تعد الدولة العثمانية قادرة على حماية نفسها دون مساعدة من قوى أجنبية.

الملاحظ أنّ الدولة العثمانية بعد سنة 1152 هـ/ 1739م وبعد السلام الذي فرضته انتصاراتها على روسيا والنمسا - سلام دام قرابة الثلاثين عاما - لم تعمل على استغلال ذلك الوقت لتطوير نفسها عسكريا، في الوقت الذي كانت فيه إمبراطورة روسيا كاترين الثانية (Catherine II) (ت 1796م) تعد جيشها وتجهزه للحرب والقتال وتصلح من شأن دولتها لتحقيق حلمها في الاستيلاء على إستانبول أصيبت الدولة العثمانية خلال فترة السلام تلك بحالة استرخاء فاقمت وضعها داخليا وخارجيا؛ خلال الفترة ما بين 1152هـ/ 1739م و 1182هـ/ 1768م وهي السنة التي تجددت فيها الحرب مع روسيا تولى الصدار العظمى ستة عشر شخصا بمعدّل صدر لكل سنتين!!! بل وجدنا في هذه الفترة من تولى الصدارة لمدة ستة عشر يوما فقط!!!³ وذلك مؤشّر واضح على عدم استقرار في سلسلة القيادة العليا مما يوجب انعكاسات سلبية على الدولة.

تذكر ملاحظة أخرى مهمّة جدا وهي أنّه خلال القرن الثامن عشر وإلى حد ما النصف الأوّل من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، تناوب على الصدارة والقيادة العليا زمرة الحرب المؤيدين لفكرة الحدود غير الثابتة، المشبعين بثقافة الفتح والجهاد التي قامت عليها الدولة العثمانية وزمرة السلام التي تدرك أنّ الواقع قد تغيّر وأن موازين القوى لم تعد تتيح فرصة توسّع دار الإسلام على حساب دار الكفر، وقد كانت غالبية زمرة السلام من فئة الكتاب⁴ لأسباب وجيهة؛ كونهم يدركون

1. معاهدة جاسي (Yaş Antlaşması) في 9 يناير 1792م، في ختام الحرب الروسية العثمانية في 1787-1792م؛ تأكّدت فيها الهيمنة الروسية في البحر الأسود. دخلت كاترين الثانية الحرب متصورة تقسيم الإمبراطورية العثمانية بين روسيا والنمسا وإحياء الإمبراطورية البيزنطية (اليونانية) بإستانبول. لكنّ خطتها فشلت بسبب انسحاب النمسا من الحرب وفق معاهدة زيتشتوفا (Ziştovi Antlaşması) في أوت 1791م، إلى جانب عدم وجود دعم منظم وواسع النطاق من قِبَل المسيحيين في البلقان. أكّدت معاهدة جاسي معاهدة (Küçük Kaynarca) السابقة سنة 1774م بين الدولتين. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Treaty of Jassy 1792**,
<https://www.britannica.com/event/Treaty-of-Jassy> .

2- Selçuk Akşin Somel : Op.cit, P CI- CII .

3. هو تريافي حاجي محمد باشا خلال (9 أوت 1746 - 24 أوت 1746م). خلال هذه فترة السلام هذه تولى الصدارة أربعة عسكريين، و8 من فئة الكتاب منهم أربعة رؤساء كتاب، 1 بستانجي، و3 مسؤولين على اسطبلات السلطان.

4. رأينا كيف عمل مهندس معاهدة كارلوفيتز 1699م رامي باشا من أجل الخروج من الحرب بأقل الخسائر، رأينا نوشهري دمادا إبراهيم باشا في معاهدة باساروفيتجا 1718م التي كرّست سلاما طيلة 12 عاما، والذي تولى توقيع معاهدة بلغراد=

اختلال موازين القوى لصالح أوروبا أكثر من غيرهم بسبب حقيقة كونهم مسؤولون عن الشؤون الخارجية وفي تماس مباشر مع أوروبا الجديدة هذا أولاً، وثانياً ثقافتهم واطّلاعهم على أدب نصائح الملوك الذي استمرّ إلى نهاية الدولة العثمانية، وأحياناً كثيرة كانوا هم كاتبوه وأغلبه كان يدعو للسلام من أجل إصلاحات داخلية ناجعة.

تولى خليل حميد باشا في ظل تلك الظروف الدولية والسياسات السياسية منصب الصدارة العظمى من 26 محرم 1197هـ/31 ديسمبر 1782م إلى 21 جمادى الآخرة 1199هـ/30 أبريل 1785م مدة سنتين وأربعة أشهر، تزامنت صدارة خليل حميد باشا مع السنوات التي وصلت فيها الأزمة مع روسيا إلى ذروتها بسبب قضية خانية القرم؛ ضم روسيا لشبه جزيرة القرم سنة 1197هـ/1783م والاستعدادات غير الكافية للدولة العثمانية للحرب، وزاد الوضع تعقيداً حين طلبت روسيا من الدولة العثمانية الاعتراف بضمّها للقرم، وفي اجتماع سري عقد في 24 محرم 1198هـ/18 ديسمبر 1783م حضره كبار رجالات الدولة العثمانية إلى جانب العلماء تمّ قبول مذكرة تعترف لروسيا بضم جزيرة القرم لتجنّب الحرب التي كانت ستنتهي لا محالة بالهزيمة، شكّل التطوّر الأخير مع روسيا المحرك الأساسي للإصلاح العسكري العثماني الذي كان من أولى أولويات خليل حميد باشا¹.

كان خليل حميد باشا ميّالاً بشدّة للسلام من أجل تنفيذ مشروعه الإصلاحية، إذ لا معنى للإصلاح وطبول الحرب تنذر بالخراب، لكنه كان بحاجة إلى حشد تأييد لوجهة نظره هذه، وكان ذلك سبب دعوته للاجتماع السري، وسبب سرّيته لتجنب المناقشين أي ضغوط داخلية وخارجية، سيما إذا تمّ الاتفاق على السلام والاعتراف بضم روسيا لشبه جزيرة القرم، حضر الاجتماع العدو اللدود لخليل حميد باشا زعيم حزب الحرب إذا صح التعبير، حسن باشا جزائري² أدميرال البحرية العثمانية

1739م التي جلبت سلاماً دام قرابة الثلاثين عاماً هو الصدر الأعظم حاجي إيواز محمد باشا، وكان يمكن لمدة السلام الطويلة تلك أن تكون أقصر لولا الصدر الأعظم خوجا راغب باشا الذي تولى الصدارة خلال (1757-1763) وجنّب الدولة العثمانية الانخراط في حرب السنوات السبع (1756-1763) والتي شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا ثم إسبانيا والبرتغال، كما عزّز راغب باشا السلام مع بروسيا سنة 1761م. وهكذا فمعظم محطات السلام الكبرى كان وراءها فئة الكتاب من أهل القلم.

¹ - Kemal Beydilli: Op.cit, cilt 15, 1997, sayfa 317.

² حسن باشا جزائري (1715-1790م): الملقب بأبي شنب، هو من الأعلام في التاريخ العثماني. ولد في شمال القفقاس سنة 1715م، وجرى به أسيراً إلى تركيا، فتبنته عائلة غنيّة، ولما شبّ انخرط في سلك العسكرية، وأظهر كفاءته العسكرية والإدارية وسبب تسميته بالجزائري أنه عيّن لبعض الوقت رئيساً لميناء الجزائر، عيّن قبودان درايا "أدميرالاً" للبحرية العثمانية سنة 1770م. عيّنه سليم الثالث صدراً عظماً سنة 1789م. توفي بشومينو بالبلقان بعد حرب خسرها ضد روسيا سنة 1790م. ينظر: شفيق اسماعيل: أبطال.. مقاتلون.. قادة، ط1، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا 2007، ب ص، بتصرف.

إلى جانب ضباط الجيش وممثلي العلماء، وقد ذكّرهم خليل حميد بأنّه مستعد للتضحية بنفسه من أجل الدين والدولة، وجادل عن ضرورة السلام في هذه الفترة بالذات، وقد تمكّن من إقناع الحاضرين فصوّتوا لصالح السلام¹، مما يعني الاعتراف لروسيا بضمّها لشبه جزيرة القرم.

بدأت بعد ذلك مرحلة جديدة من السلام، وكان لدى خليل حميد باشا مشروع إصلاحى متكامل، محوره الانفتاح المدروس على أوروبا لتعزيز وضع الجيش كأولوية، سيما مع تربيص روسيا بالدولة العثمانية، غير أنّ مشروعه على ما يبدو كان يتجاوز مجرد الاهتمام بالجيش، وتختلف تجربة خليل باشا عن تجربة نوشهري دمادا إبراهيم بشكل كبير، الأوّل افتقر إلى مشروع إصلاحى واضح رغم طول عهد صدارته، بينما امتلك الثاني مشروعاً إصلاحياً واضحاً لم يمهله القدر لتنفيذه.

لا ريب أنّ خليل باشا استفاد في مشروعه الإصلاحى من أدب نصائح الملوك الذي ألفه أعضاء فئة الكتاب الذين سبقوه، ومن تقارير السفراء الذين توالوا من عهد السلطان أحمد الثالث إلى عهد السلطان عبد الحميد الأوّل وعددهم يزيد عن السبعين سفيراً² ونذكر علمين بارزين من أعلام عصره استفاد منهما خليل باشا في إنضاج رؤيته وتأسيس مشروعه الإصلاحى؛ الأوّل منهما هو سليمان بيناه أفندي³، وهو من رجالات فئة الكتاب من أهل القلم.

ألف سليمان بيناه أفندي كتاب تاريخ اضطرابات مورة (Mora ihtilali tarihçesi)؛ الثلث الأوّل من تاريخه يروي فيه تفاصيل الاضطرابات التي وقعت في شبه جزيرة المورة جنوب اليونان التابعة حينها للدولة العثمانية، وقعت الاضطرابات في سنتي 1183-1184هـ / 1769-1770م بعد أن وصف بالتفصيل وقائع هذه الاضطرابات التي كان فيها شاهد عيان، انتهج فيما بقي

¹ - Virginia H. Aksan: Op.cit, p43.

². ينظر: (الملحق 25، 26) جدول سفراء الدولة العثمانية خلال فترة البحث، وجدول السفراء الذين تركوا سفارت نامه (فترة البحث)، ص 631، 637، على التوالي، أكثر من خمسين سفيراً انتموا إلى فئة الكتاب من أهل القلم، ومن بين 30 سفارت نامه - 26 منها كتبها سفراء من فئة الكتاب من أهل القلم - كتبت من عهد السلطان أحمد الثالث إلى بدايات عهد السلطان عبد الحميد الأوّل، نجد أنّ 27 منها كتبت قبل صدارة خليل حميد باشا وأغلب الظن أنّه اطّلع على بعضها على الأقل واستفاد منه.

³. بحسب موقع مشروع البحث (OTTPOL) المتخصص في تاريخ الفكر السياسى العثمانى الحديث المبكر، من القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر. فإنّ سليمان بيناه أفندي (1740-1785م) هو نجل إسماعيل أفندي اليونانى الأصل، وُلد سليمان بإستانبول سنة 1740م ودخل في خدمة ديوان الكتاب. ودخل في خدمة الصدر الأعظم كوتشوك مصطفى باشا وكان يعمل كاتباً في عدة فروع، وشهد أحداث ثورة 1769/1770م في مورة. توفي بإستانبول سنة 1785م في نفس السنة التي أنهى فيها مؤلّفه تاريخ ثورة المورة (Mora ihtilali tarihçesi). ينظر: Marinos Sariyannis : Op.cit, P143.

وسليمان بيناه أفندي هو والد يوسف أغا أفندي (ت 1824م) المتعاون الوثيق مع سليم الثالث وأول سفير عثمانى دائم بلندن (1793-1796). ينظر: Ibid, P144.

من الكتاب نهج أدب نصائح الملوك¹ لم يتطرق سليمان بيناه أفندي إلى إصلاح الجيش فقط بل تطرق إلى مجالات شتى مثل التخطيط العمراني للمدن والإصلاح الضريبي، وتنظيم ملكية الأراضي وتشجيع الإنتاج المحلي، ويدعو ليس فقط إلى إحياء مطبعة متفرقة بل إلى إنشاء الكثير منها، ولم يكن لدى بيناه أفندي مشكلة في الاستفادة من الغرب².

لم تكن أفكار وأطروحات سليمان بيناه أفندي معزولة عن محيطها أو عن صنّاع القرار في الدولة العثمانية؛ إذ يمكن رؤية انعكاس لبعض أفكاره مثل تشجيع التصنيع المحلي بدل الملابس الأوروبية والهندية، أو إحياء مطبعة إبراهيم متفرقة في الإصلاحات التي تم تنفيذها أثناء صدارة خليل حميد باشا، الذي أُعدم في سنة 1199هـ/1785م وهي ذات السنة التي اكتملت فيها أطروحة بيناه أفندي وتوفي فيها صاحب الأطروحة نفسه.

والعلم الثاني الذي أثار في فكر خليل حميد باشا وشكل مع غيره رافدا مهما لمشروعه الإصلاحية

1. ملخص الكتاب نجده في موقع مشروع البحث (OTTPOL)؛ الكتاب يحمل أحيانا عنوان: مجموعة سليمان بيناه أفندي (Süleyman Penah Efendi mecmuası) وأحيانا تأريخ ثورة مورة (Mora ihtilâli tarihi) وأحيانا ثورة مورة التاريخية (Mora ihtilali tarihçesi). يبدأ أطروحته بالحديث عن "نظام الأقاليم" (nizam-ı ekâlim). ويبدأ بفصل كبير مفصل عن "الطبقة العسكرية"، حيث يمكن للمرء أن يرى مؤثرات ابن خلدون، كما يقتبس من المؤرخ العثماني مصطفى نعيما: عن الأعمار الثلاثة للدولة وتشابها مع جسم الإنسان. بعدها يضع تدابير واقتراحات من أجل إصلاح الخلل. ويلاحظ أن الدول لديها ثلاث مهام فقط وهي الحفاظ على الخزانة وازدهار رعاياها وتنظيم الجيش وضبطه. يتحدث بشكل مطول عن الإصلاحات العسكرية يتطرق بعدها إلى ضرورة التخطيط العمراني الجيد للمدن خاصة إستانبول وذلك من شأنه تقليل أضرار الحرائق. كما يتطرق للإصلاحات الضريبية من أجل ضريبة عادلة ودخل جيد للخزينة، يتحدث عن تنظيم ملكية الأراضي، كما يتطرق إلى تشجيع إنتاج السلع المحلية. ثم يتحدث عن طائفته من فئة الكتاب من أهل القلم وضرورة حسن اختيارهم وتدريبهم تحت رئاسة رئيس الكتاب كما يتحدث عن أهمية الجغرافيا، وأهمية توفير نسخة رخيصة من الجغرافيا العالمية المطبوعة متاحة لجميع الرعايا الغني كما الفقير والسبيل إلى ذلك هو إنشاء المزيد من المطابع كالتالي أنشأها إبراهيم متفرقة. الجزء الأخير من أطروحته يخصصه للتجارة. في نهاية الرسالة يدعو لإنشاء مدارس ومكتبات ومساجد في مدن المقاطعات بدلاً من إستانبول. ينظر:

Penah Efendi, Süleyman: **Penah Efendi Mecmuası (Penah Efendi's Manuscript), 1785/86**, Manuscripts: Fatih Millet Ktp. Ali Emiri Ef. 677-1737, <http://ottpol.ims.forth.gr/?q=content/penah-efendi-%CE%BCecmuas%C4%B1-penah-efendis-manuscript>.

2. إذ يبحث بيناه أفندي حتى في التجربة الإسبانية في الأمريكتين عن نماذج أو خطط سياسية. يمكن للمرء أن يرى حتى اقتراحًا خجولًا بتقليد الجيوش الغربية. إن تركيزه على الاقتصاد (بدلاً من الموارد المالية؛ من حيث إنه يدعو إلى إنشاء مراكز تصنيع جديدة وتفضيل البضائع المحلية ضد تلك المستوردة)، وتخطيط المدن على وجه الخصوص، فريد من نوعه تقريباً في الأدب العثماني، في حين أنه كان في اقتراحه القاضي بإلغاء نظام التيمار وخصخصة قطع الأراضي الصالحة للزراعة سابقاً لزمانه بأكثر من نصف قرن (بالنظر إلى أن الملكية الخاصة للأراضي الصالحة للزراعة، بعد عملية طويلة طوال أربعينيات القرن التاسع عشر، تم تأسيسها فقط بموجب قانون الأراضي لعام 1858م). ينظر: . Marinis Sariyannis: Op.cit, P140, 143-144..

هو أحمد رسمي أفندي¹ المؤرّخ والسفير العثماني، اتصالات الأخير مع أوروبا إلى جانب معرفته الدقيقة بالاختلالات العميقة في الدولة العثمانية كونه كان قريبا جدا من دائرة صنع القرار، جعلته يقدم مجهوده الفكري لصالح الإصلاح ومواكبة التطور الحاصل بأوروبا، ولم يكن الانفتاح على أوروبا بالأمر الهين السهل²، فقد كان التيار المحافظ الغالب يعارض الاستعانة بالكفار.

يعتبر أحمد رسمي أفندي أول سفير عثماني في بروسيا سنة 1176هـ/1763م، حيث حضر هناك استعراضا للجيش البروسي، وقد كتب سفارت نامه (sefaretname) تؤرّخ لسفارته تلك، شغل أحمد رسمي أفندي طوال الحرب الروسية العثمانية 1182-1188هـ/1768-1774م منصب نائب الصدر الأعظم عوض زاده خليل باشا³، الذي قدم له مقالته الأولى حول الشؤون العسكرية سنة

1. أحمد رسمي أفندي (1700-1783م): ولد في جزيرة كريت. ولدى وصوله إلى إستانبول لإنهاء دراسته أقام تحت رعاية رئيس الكتاب مصطفى أفندي، قبل أن يصبح صهره لاحقا. خدم الدولة في عدّة مناصب، دبلوماسية ومالية في نهاية حرب السنوات السبع تم إرساله سفيرا إلى برلين (جولية 1763م) لاستطلاع مدى تأثير التقارب الروسي البروسي على المصالح العثمانية. ترقى بعدها في المناصب. وشارك في المفاوضات التي أسفرت عن معاهدة (Küçük Kaynarca). كان اهتمامه منصبا على التاريخ وترك عدّة أعمال منها: 1. خليفة الرؤساء (Halikatü'r-rüesâ) الذي كتبه تخليدا لذكرى رابعه وصهره رئيس الكتاب مصطفى أفندي. وترك تقريرا لسفارته (Sefâretnâme) بفينينا وله خلاصة الاعتبار (Hülasat el-itibar) سنة 1781م، سجل فيه آراءه وانتقاداته وانطباعاته عن الحرب العثمانية الروسية التي كان حاضرا فيها. وغيرها. ينظر:

Bekir Kütükoğlu: **Ahmed Resmi (ö. 1783), Osmanlı devlet adamı ve tarihçisi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 2, 1989, sayfa 121-122.

2. يخبرنا المؤرّخ الرسمي للدولة العثمانية زمن السلطان عبد الحميد الأوّل السيد أحمد واصيف أفندي أنّه في سنة 1784م في مقال قصير بعنوان الرسالة (Risâle) كتبه بأمر من السلطان عبد الحميد الأوّل أنّ دوق مونتورينسي لوكسمبورغ أرسل إلى السلطان عبد الحميد الأوّل رسالة بإذن من الملك الفرنسي. ذكر فيها أن الخسائر الإقليمية العثمانية كانت بسبب عدم كفاية تدريب جيشها وأن قواتها كانت غير مهيأة في العلوم العسكرية. ومن ثم اقترح الدوق في رسالته إرسال بعثة فرنسية لتعليم الجيش العثماني طرق التحصينات وفن استخدام المدفعية. كان عبد الحميد يميل لقبول العرض الفرنسي وأعطى موافقة حذرة، مع ذلك طلب من المؤرخ واصيف أفندي إعداد منشور يضمّن كل ما يتعلّق بالجيش المسيحية. الرسالة (Risâle) ترفض وبشدّة المساعدة الفرنسية وسبب الرفض الاختلاف بين طبيعة الجيش العثماني والجيش المسيحية. ويعقّب المؤرخ قائلا: إن وحدة جيشنا والتزامه بالجهاد يضمن النصر حتى وإن ساد الكفار من وقت لآخر. ولا يعتقد واصيف أن جنود الجيش العثماني سوف ينحرفون لتعلم فنون العدو. ينظر:

Ethan Lewis Menchinger: **An Ottoman Historian in an Age of Reform: Ahmed Vâsif Efendi (ca. 1730-1806)**, A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Near Eastern Studies, University of Michigan, USA, 2014, P126-127.

3. ولد سنة 1724م بإستانبول، وهو نجل الصدر الأعظم حاجي عوض زاده محمد باشا المشهور بفتح بلغراد - لأنّه استعادها من النمساويين سنة 1739م - حج البيت، وتولى عدة مناصب حتى عيّن صدرا أعظما سنة 1769م. تعرضت الدولة في عهده إلى كارثتين عسكريتين في حربها مع روسيا. وأرسل إلى السلطان يستأذنه في مفاوضات السلام، بناء على نصيحة نائبه أحمد رسمي أفندي. وبعد إخفاقات عسكرية عزل عن الصدارة في 20 ديسمبر 1770م. توفي في 20 ديسمبر 1776م. ينظر =

1769م مستندا فيها جزئياً إلى تجربته في برلين (تم ذكر كلمة "تجربة" (tecrübe) مراراً وتكراراً في مقدمة المقالة)¹، مما يدل أنه كان يكتب مستفيداً من تجاربه الكثيرة.

يعدّ رسمي أفندي في مقالته بعض المسائل المتعلقة بترتيب الحملة العسكرية، واللوجستيات العسكرية للجيش، وتنظيم الرواتب وعدد رجال الإنكشارية، ويقترح أيضاً "في حالة أن هذه التدابير لا تحقق نتائج" إنشاء فيلق خاص مكوّن من "ألفي رجل يتم اختيارهم من بين أدنى طبقات السكان" مع هذا الاقتراح المثير للإعجاب المخفي بشكل متواضع ضمن ستة أسطر من أصل اثنان وعشرين صفحة، يثبت رسمي أفندي أسبقيته في إصلاح ما يسمى بالنظام الجديد (Nizam-i Cedid)².

يعالج في رسالته الثانية شأن السياسة الدولية؛ استكمل رسالته سنة 1772م من خلال مزيج من التأثير الخلدوني وإظهار الخبرة الدبلوماسية، ويجادل عن ضرورة واهمية السلام من خلال نقاش فلسفي وسياسي طويل، يجادل بأنه إذا تجنبت الدولة العثمانية حرباً جديدة واحتوت نفسها بالدفاع عن حدودها، فسوف تسحب روسيا بالضرورة جيوشها وأسطولها وتسعى إلى معاهدة سلام إن النصائح الواردة في عمله الأخير خلاصة الاعتبار (Hülâsatü'l-i'tibâr) وهو سرد للحرب العثمانية الروسية الكارثية التي وقعت في الفترة ما بين 1182-1188هـ/1768-1774م، مأخوذة في الغالب من مقالته لسنة 1189هـ/1769م³، وقد أتمّ كتابه هذا سنة 1195هـ/1781م وفي هذه السنة كان خليل حميد باشا نائباً للصدر الأعظم.

نتطرق بعد ذلك إلى أهمّ إسهامات خليل حميد باشا في عمر صدارته القصيرة: نظراً للتهديد الروسي المتواصل سيما بعد التنازل العثماني عن شبه جزيرة القرم، وأطماع الروس في إستانبول ذاتها كان على خليل حميد باشا أن يجعل إصلاح الجيش سيما البحرية أولوية لا تحتمل الانتظار؛ من أجل ذلك راسل الحكومة الفرنسية طالباً منها المساعدة على إرسال بعثة من الفنيين⁴ لإنشاء نظام دفاعي جديد وتدريب العثمانيين على تقنيات ومبادئ بناء السفن الحديثة لتجاوز النظام التقليدي لبنائها، وإعادة

Fikret Sarıcaoğlu : **İvazzade Halil Paşa (ö. 1190/1776), Osmanlı sadrazamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 23, 2001, sayfa 494-496.

¹ - Marinos Sariyannis : Op. cit, P161.

² - Loc.cit.

³- Ibid, P161-162.

⁴ . طبعاً لم يكن خليل حميد أول من طلب فنيين فرنسيين؛ فمنذ سنة 1732م تمّ تكليف الفرنسي الماركيز دي بونيفال (Marquis de Bonneval) (1675-1747) - الذي اعتنق الاسلام وأصبح اسمه أومبارجي أحمد باشا - بتشكيل سلاح المدفعية، في سنة 1734م وبناء على نصيحة بونيفال تم افتتاح مدرسة للهندسة ("Hendesehane") بالعاصمة إستانبول لتدريب المهندسين العسكريين. ثم تلتها عدة أمور مشاهمة. ينظر: Şerif Mardin: Op.cit, 143

إنشاء البحرية العثمانية الحالية إن أمكن وتحديثها وفقاً للمعايير الأوروبية¹.

لقد تمّ الاستعانة بالخبرة الفرنسية منذ سنة 1144هـ/1732م إلا أنه لم يتم استخدام الفنيين الفرنسيين بشكل كبير حتى مجيء خليل حميد باشا سنة 1196هـ/1782م²؛ استفاد خليل باشا من الخبراء الفرنسيين مدرّبين ومهندسين في إصلاحاته العسكرية؛ حيث تمّ له بمساعدتهم إعادة تنظيم فرقة المدفعية ومسبكة المدافع والتّرسانة البحرية، كما ساعده على إنشاء مدرسة للهندسة لتدريس الفنون العسكرية الحديثة، ولذلك الغرض تمّت ترجمة العديد من الكتب الفرنسية ذات الصلة إلى اللغة العثمانية³، وقام الاستراتيجيون والفنيون العسكريون والمهندسون ورسامو الخرائط الفرنسيين بإصلاح الحصون وإنشاء المدارس⁴ وتدريب الموظفين ووضع مخططات لحماية مضيق البوسفور⁵.

رتّب خليل باشا مشروعاً مع السفير الفرنسي شوازل غوفيه (Choiseul-Gouffier)⁶ ربما يمثّل أوّل بعثة علمية إلى أوروبا؛ فقد كان من المقرّر أن يتمّ إرسال ثلاثين شاباً عثمانياً إلى باريس لتعلّم علوم الغرب، لكن لم يُكتب لهذا المشروع التّجّاح⁷ ربّما بسبب العزل المبكّر لخليل باشا ثمّ إعدامه، كما قام خليل حميد باشا بإعادة إحياء مطبعة إبراهيم متفرقة⁸.

لم تكن مهمة الإصلاحات العسكرية الواسعة لخليل حميد باشا سهلة كما قد يتبادر للذهن بل كانت مهمّة شاقة ومحفوفة بالمخاطر؛ من جهة كانت تحتاج إلى غطاء مالي كبير تعجز عنه الموارد

¹. بناء على طلب خليل حميد باشا أرسلت الحكومة الفرنسية خبيراً صناعة السفن المهندس الفرنسي جان جاك سيباستيان لو روي ودو ريس وتساعدتهما إلى إستانبول. ينظر: Tuncay Zorlu: Op.cit, P79.

² - Niyazi Berkes : Op.cit, 58.

³ - E. Z. Karal : « **La Transformation de la Turquie d'un empire oriental en un état moderne et national** » Cahiers d'histoire mondiale, vol 4, no. 2, 1958, P429.

⁴. افتتاح مدرسة الهندسة البحرية الهمايونية (Mühendishane-i Bahri-i Hmmayun) ومدرسة التحصينات (Istihkam Mektebi) لتأهيل الضباط. ينظر: Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P6.

⁵ - Virginia H. Aksan: Op.cit, p64.

⁶. شوازل غوفيه (1752-1817): من عائلة أرستقراطية عريقة. رئيس الأكاديمية الفرنسية سنة 1783م، سفير فرنسا بالبندقية خلال 1784-1791م. عارض الثورة الفرنسية وهاجر سنة 1792م إلى روسيا، حيث تمّ تعيينه مديراً للأكاديمية الروسية للفنون والمكثبات الإمبراطورية. وأصبح مقرباً من كاترين الثانية. ينظر: François Pouillon: Op.cit., P214-215.

⁷ - Léonce Pingaud : **Choiseul-Gouffier : la France en Orient sous Louis XVI**, Alphonse Picard, libraire, Paris, 1887, P84.

⁸. عندما عرضت مطبعة متفرقة للبيع سنة 1784م - بعد وفاة إبراهيم متفرقة سنة 1747م، توقفت المطبعة وتمّ إهمال طباعة الكتب تمامًا - قام رئيس الكتاب واصيف أحمد أفندي بشرائها بالاشتراك مع زميله بايلكجي رشيد أفندي. رحّب الصدر الأعظم خليل حميد باشا بهذه الخطوة واعطاها الترخيص اللازم للعمل، وهكذا استأنفت المطبعة عملها من جديد سنة 1784م. ينظر:

Mücteba İlgürel: **Vâsıf Ahmed Efendi (ö. 1806), Osmanlı vak 'anüvisi ve devlet adamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, cild 42, İstanbul, 2012, sayfa 536.

الشحيحة للخزينة العثماني حينها، وثانيا رَفُضَ التيار الغالب المحافظ للاستعانة بالأجانب في المصالح العامة سيما الجيش؛ كان خليل باشا يشجّع بحفاوة البعثة الفرنسية ويزورهم في موقع عملهم، رغم أن شيخ الإسلام¹ والعلماء ازدروا البعثة ومدبرسيها واعمالها واعتبروا وجودها فضيحة، واستمروا في طلب إعفائها من مهمتها. واضطرّ أفراد البعثة إلى التّنكّر في غير أزيائهم ليتجنّبوا الإهانات في شوارع المدينة². كان خليل حميد باشا مدركا للصعوبات الاقتصادية التي تواجهها الإمبراطورية، فحاول منع استيراد المنسوجات الفاخرة من أوروبا والهند، وتعزيز إنتاج هذه المنسوجات داخل الإمبراطورية، خطّط أيضا لزيادة الإنتاجية الزراعية من خلال تحسين المحاصيل، وحاول خليل باشا تقييد السيطرة الروسية على تجارة البحر الأسود بفتح هذه المنطقة أمام التجارة الدولية³، كان خليل باشا قد خطط على ما يبدو لتقديم إصلاحات إدارية واسعة النطاق.

أوضح مرادجه دوهسون الذي كان مترجماً في السفارة السويدية سنة 1217هـ/1784م، بأنّ خليل حميد باشا كان لديه مشروع إصلاح جذري من شأنه إعادة تشكيل الدولة بالكامل؛ وبناءً على ما نقله كان خليل حميد باشا يخطط لزيادة الإنتاج مع تحسين واسع في المجال الزراعي، ويسعى إلى اتّخاذ سلسلة من التدابير للقضاء على جميع أنواع الاختلال والتعطيل في الإدارة، بالإضافة إلى الجيش كان مهتمًا بشكل خاص بالبحرية وكان يحاول الحصول على مساعدة السويد لتطوير هذا المجال، فكّر خليل حميد باشا في فتح البحر الأسود - الذي أصبح الآن بجزءا عثمانيا روسيا بعد معاهدة التجارة الروسية العثمانية لسنة 1216هـ/1783 - أمام السفن التجارية لجميع الدول من أجل وضع حد للتفوق الأحادي الجانب لروسيا⁴.

هكذا وضع خليل حميد باشا بإصلاحاته تلك - رغم الصعوبات وقصر مدّته في الصّدارة - حجر الأساس لإصلاحات السلطان الإصلاحية سليم الثالث (1203 - 1222هـ/1789-1807هـ)

¹ . شيخ الإسلام في تلك الفترة هو دوري زاده محمد عطا الله أفندي، تولى المشيخة لمدة سنتين (1783 - 1785). ولد سنة 1729م. وهو نجل شيخ الإسلام دوري زاده مصطفى أفندي. عين شيخا للإسلام في 20 ماي 1783م في حفل حضره الصدر الأعظم خليل حميد باشا، عرف بمواقفه الشديدة تجاه روسيا، وانتقد تردد السلطان والصدر الأعظم في مسألة الحرب ضدها، تمت إقالته في 31 مارس 1785 للاشتباه في ضلوعه مع خليل حميد باشا في قضية خلع السلطان عبد الحميد الأول وتنصيب سليم الثالث. توفي في طريقه إلى الحج بجاليبولي سنة 1785م، قيل بسبب مرض، وقيل مات مسموما. ينظر:

Mehmet İpşirli: **Dürrîzade Mehmed Atullah Efendi (ö. 1199/1785) Osmanlı şeyhülislâmı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 10, 1994, sayfa 37-38.

² - Léonce Pingaud: Op.cit, P100.

³ - Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P113-114.

⁴ - Kemal Beydilli: Op.cit, sayfa 317.

وقضى نخبه غير مقصّر ولا مفرط في التّهوض بالدولة العثمانية، وسواء كان ضالعا في مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد الأول وتنصيب ابن أخيه سليم الثالث أم لا، يظلّ فضله على الإصلاحات والانفتاح على أوروبا غير قابل للنقاش.

الصدر الأعظم محمد سعيد غالب باشا

نختم هذا المبحث بثلاثة الأثافي، صدر أعظم آخر من فئة الكتاب كان لتقرير سفارته بباريس بالغ الأثر في إصلاحات سليم الثالث، ورافق بعض إصلاحات السلطان محمود الأوّل، وقدّم له خدمة جليّة لولاها لظلت إصلاحات محمود الثاني تراوح مكانها، ويعتبره الكثير من المؤرخين مؤسساً للدبلوماسية التركية الحديثة¹ إنّه الدبلوماسي والصدر الأعظم محمد سعيد غالب باشا.

يعتبر عهد سليم الثالث على المستوى الداخلي عهدا واعدة على اعتبار أنّ سليم الثالث كان ملتزماً تماماً بالإصلاح ليس فقط للحفاظ على سلامة دولته، ولكن بشكل خاص لاستعادة أمجادها السابقة، كان ذكياً بما فيه الكفاية ليقن أنه لإنجاز مهمته تلك يجب أن يحاكي التقدم التقني لأوروبا لذلك حاول ترتيب وتحديث بعض المؤسسات الأساسية في دولته على نموذج القوى الأوروبية.

كان الهدف الأساسي للبرنامج الإصلاحي لسليم الثالث أمام التهديد والتربّص الروسي² هو تجديد القوة العسكرية للدولة لذلك ينبغي التأكيد على أنّ جميع الإصلاحات الأخرى بما في ذلك الإصلاحات في ميدان الدبلوماسية، كانت تهدف بطريقة أو بأخرى إلى المساهمة في تحقيق ذلك الهدف³، غير أنّ سليم الثالث كان يدرك أنّ الشؤون الحكومية كانت مترابطة فيما بينها بحيث لا يتحقّق النّجاح المطلوب إلاّ بحزمة إصلاحات متكاملة أمام هذه الرؤيا الواعية أصبحت الدبلوماسية على عهد سليم الثالث واحدة من الفروع الحيوية للحكومة العثمانية، محتلة بذلك مكاناً

¹ . منهم المؤرخ التركي الدكتور أورهان الكوبريللي (1920-2006م) في مقالته عنه، بالموسوعة الإسلامية التركية ينظر:

Orhan F. Köprülü: Op.cit, sayfa 329-331.

ومنهم: المؤرخ التركي أرجومانت كوران (1920-2009) في مقالته عنه بدائرة المعارف الإسلامية البريطانية. ينظر:

Ercüment Kuran: **Mehamed Sa'id Ghalib Pasha**, The Encyclopaedia of Islam, Op.cit, Vol 6, P1004 .

² . كانت معاهدة زيتشتوفا 1791م مهمّة جدا كونها أنهت آخر الحروب بين العثمانيين والنمسا التي أصابها الوهن هي الأخرى وأصبحت هي أيضا تشعر بالتهديد الروسي لها. ومع هذه المعاهدة أصبحت روسيا هي أقرب وأخطر جار للعثمانيين.

³ . كان سليم الثالث يريد بعزم صادق مواصلة الحرب مع روسيا واستعادة القرم غير أنّ حالة الفوضى المتفاقمة التي كانت عليها الجيوش العثمانية لم تكن تبعث على الأمل في استمرار الحرب بنجاح. ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلو: المرجع السابق، ص78.

كبيراً في مشاريع إصلاح السلطان ومستشاريه¹.

خارجياً تزامن عهد سليم الثالث (1203-1222هـ/1789-1807م) مع الثورة الفرنسية (1789-1799م) والتي كان لها تأثير كبير على عموماً أوروبا، وغيرت بعمق مسار التاريخ الحديث مما تسبب في تراجع عالمي للممالك والإمبراطوريات ذات الحكم المطلقة لحساب الحكم الجمهوري الذي يبشر بالحقوق المتساوية للمواطنين وتقييد سلطة الحكومات، إن الخريطة السياسية الأوروبية بعد الثورة الفرنسية تختلف عنها قبلها، فقد انعدم التوازن السياسي في ظل هيمنة فرنسا على أوروبا وهو ما أشعل ما يعرف تاريخياً بحروب نابليون².

مستت فرنسا بناها الدولة العثمانية بحملتها على مصر والشام (1211-1214هـ/1798-1801م) ففضت بذلك على تحالفها القديم مع الدولة العثمانية، وضربت إصلاحات سليم الثالث في مقتل إذ كان مهتما بالتعاون مع فرنسا، ومع نهاية الحملة الفرنسية وانسحابها من مصر، كان سليم الثالث مرة أخرى بحاجة إلى إحياء التحالف العثماني الفرنسي، وهنا برز لأول مرة اسم الدبلوماسي العثماني محمد سعيد غالب أفندي (باشا لاحقاً).

فقد شهدت سنة 1215هـ/1802م ما يعرف تاريخياً بمعاهدة أميان (Treaty of Amiens)³ التي أعطت فرصة للسلام لمدة سنة واحدة في الحروب النابوليونية الممتدة من سنة 1799م إلى 1815م، قضت المعاهدة التي لم يحضرها ممثل الباب العالي في بعض بنودها بانسحاب بريطانيا من مصر (الإسكندرية)، وقد أرسل سليم الثالث رجله الموثوق غالب أفندي الذي كان محط استحسان معظم السفراء الأجانب بإستانبول للتفاوض باسم الدولة العثمانية لضمان حقوق العثمانيين، وإعادة

¹ - Thomas Naff: " Reform and the Conduct of Ottoman Diplomacy in the Reign of Selim III, 1789-1807 ", Journal of the American Oriental Society, USA, Vol 83, No 3, Aug - Sep 1963, P295.

² . حروب نابليون (Napoleonic Wars): هي سلسلة من الحروب بين فرنسا نابليون والتحالفات المتبادلة بين القوى الأوروبية الأخرى والتي نتج عنها هيمنة فرنسية قصيرة على معظم أوروبا. دامت 23 عامًا انتهت مع هزيمة نابليون في معركة واترلو 1815 ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Napoleonic Wars**, European History, <https://www.britannica.com/event/Napoleonic-Wars/The-Congress-of-Vienna-and-the-Hundred-Days> .

³ . معاهدة أميان (27 مارس 1802): وهي اتفاقية موقعة في منطقة (Amiens) [شمال فرنسا]، من قبل بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وجمهورية (Batavian) [هولندا]، لتحقيق السلام في أوروبا لمدة 14 شهرًا خلال حروب نابليون. استعادت فرنسا وحلفاؤها معظم مستعمراتهم، ووافقت فرنسا على إخلاء نابولي والولايات البابوية، وكان على البريطانيين إعادة مصر إلى الدولة العثمانية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Treaty of Amiens France [1802]**, <https://www.britannica.com/event/Treaty-of-Amiens-1802> .

العلاقات مع فرنسا، وقد أمضى غالب أفندي اتفاقية سلام منفصلة مع فرنسا دون أي مشاور مع بريطانيا وروسيا اعتراضاً على توقيع الأخيرتين لمعاهدة أميان دون حضور ممثل الباب العالي، وقّع غالب أفندي معاهدة السلام مع الفرنسيين في 24 صفر 1217هـ / 25 جوان 1802م¹.

فتحت معاهدة أميان الباب مرّة أخرى أمام التعاون العثماني الفرنسي لا سيما في المجال العسكري؛ إذ كان العثمانيون يعولون كثيراً على الدور الفرنسي في تأمين أنفسهم من روسيا وأطماعها² التي لا تنتهي، واستطاع سليم أن يستأنف مشروعه الإصلاحية الضخم مع تجدد السلام مع فرنسا، وقد رفع محمد سعيد غالب أفندي تقريراً لسفارته بفرنسا إلى إستانبول كان له تأثير كبير على جهود الإصلاح التي بذلها سليم³.

غير أنّ سنة 1220-1221هـ/1805-1806م كانت نقطة تحوّل في عهد السلطان سليم الثالث؛ ظهرت معارضة قوية بالروم إيلي ضد النظام العسكري الجديد لسليم الثالث، وتجدد الحرب ضد روسيا وحليفاتها بريطانيا⁴ سنة 1221هـ/1806م، حوادث دفعت التيار المحافظ - وفي القلب منه الإنكشارية - الرافض للتقارب مع الغرب عموماً وفرنسا خاصة إلى الثورة ضد حكم سليم الثالث⁵

¹ - Stanford J. Shaw: **Between Old and New the Ottoman Empire under Sultan Selim III, 1789-1807**, Op.cit, P279,281.

². مع التقارب البريطاني الروسي حينها، كان أمام سليم الثالث أن يضمن تحالفاً مع فرنسا، لذا وافق على إعطاء غالب أفندي الإذن بأن يوافق على الشرط الذي طلبه الفرنسيون، ورفضه غالب أفندي إلا إذا وافق عليه السلطان، وتمثّل الشرط في: فتح المضيق والبحر الأسود أمام السفن التجارية الفرنسية. ينظر: Ibid, P281.

³. تقريره مكون من 32 صفحة باللغة التركية العثمانية المكتوبة بالحروف العربية، قام المؤرخ التركي إسماعيل حقي أوزون تشارشي أوغلو (1888-1977) بترجمته كاملاً إلى اللغة التركية الحديثة ونشرته الجمعية التاريخية التركية (Türk Tarih Kurumu) في مجلتها العريقة النشرة (Belleten) سنة 1937 م ضمن المجلد الأوّل العدد الثاني تحت عنوان: السفير الاستثنائي آمدي غالب أفندي ورسائل باريس المشفرة (Âmedi Galib Efendinin Murahhaslığı ve Paris'ten Gönderdiği Şifreli Mektuplar). ينظر:

İsmail. Hakkı Uzunçarşılıoğlu : " **Âmedi Galib Efendinin Murahhaslığı ve Paris'ten Gönderdiği Şifreli Mektuplar** ", Belleten, Türk Tarih Kurumu, Cilt 1, Sayı 2, Türkiye, Nisan 1937, P357-442.

⁴. التحالف الروسي البريطاني في هذه الفترة أملاه الخوف من فرنسا نابليون بونابرت.

⁵. استغلّ المتمرّدون خروج الصدر الأعظم إبراهيم حلمي باشا إلى الحرب ضد روسيا، وقد توفّي شيخ الإسلام صالح زاده أسعد أفندي الَّذي كَانَ معضداً للسلطان على ادخال الإصلاحات العسكرية، وتَوَلَّى مَكَانَهُ قَاضِي عَسْكَرِ الرُّومِ إِيَلِي شَرِيفِ زَادِه عَطَا اللهُ مُحَمَّدَ أَفْنَدِي وَكَانَ عَلَى الصِّدِّدِ مِنْ سَلْفِهِ، فَاتَّحَدَ مَعَ مِصْطَفَى بَاشَا قَائِمِ مَقَامِ الصِّدْرِ الأعظم ولغيف من العلماء على السعي في ابطال النظام العسكري الجديد قائلين أنه بدعة مخالفة للشريعة، فاندلعت الثورة بتحرير من شيخ الإسلام وسالت الدماء ولما علم سليم بذلك حل النظام الجديد لتهدئتهم وصرّف العساكر النظامية لكن لم يكتفِ الثائرون بل قرروا عزل السلطان خوفاً من أن =

فخلعوه ونصّبوا ابن عمّه مصطفى الرابع ولم يلبث أن خلع هو الآخر ونصّب أخوه السلطان محمود الثاني.

كيف بدأت الظروف الجديدة التي عمل من خلالها محمد سعيد غالب، سيّما وأنّه كان من المقربين لسليم الثالث؛ فقد شغل في عهده منصب رئيس الكتاب للمرة الأولى من منتصف شعبان 1221هـ/أكتوبر 1806 إلى 10 جمادى الأولى 1221هـ/25 جويلية 1806م، وأسهم بقوة في إصلاحات سليم الثالث، وبالتالي كان من المغضوب عليهم والضالين في عُرف التيار المحافظ؟ بعد قُرابة السنة من خلع سليم الثالث فرّت مجموعة من رؤساء المكاتب بقيادة سكرتير الشؤون الخارجية من مقر القيادة العامة للجيش الإنكشاري ولجأت إلى جيش القائد العام لمحافظة الدانوب علمدار مصطفى باشا¹ بمدينة روستشوك عُرف هؤلاء المسؤولون في التاريخ العثماني باسم "رفاق روستشوك"، تمكّن هؤلاء من تنظيم الثورة المضادة التي خلعت مصطفى الرابع ونصّبت على العرش أخوه محمود الثاني².

تولى الإداريون من جماعة "رفاق روستشوك" إدارة الدولة على الرغم من أن علمدار باشا عين بمنصب الصدر الأعظم لامتلاكه القوة العسكرية، وقد اعترف علمدار باشا نفسه بأنّه كان رئيسًا عسكريًا صوريًا يستخدمه الإداريون للحصول على السلطة، بمجرد استعادة السلطة سرعان ما تخلص

يعود لتنفيذ مشروعه وساعدهم على ذلك شيخ الإسلام الذي أفتى "بأن كل سُلطان يدخل نظامات الافرنج وعوائدهم ويحجر الرعية على اتباعها لا يكون صالحًا للملك". واستمرت هذه الثورة يؤمّن ثم عزل سليم، وكانت مدّة حكمه 19 سنة. ينظر: المحامي محمد فريد بك (ت 1338هـ): تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، لبنان، 1981، ص 392 - 393، بتصرف.

¹ . علمدار مصطفى باشا (1765 - 1808م): ويعرف أيضا ببايرقتار مصطفى باشا من أعيان روستشوك (Rusçuk) [رابع أكبر مدينة في بلغاريا حاليا]. أول صدر أعظم للسلطان محمود الثاني (1808-1839م) بدأ علمدار مصطفى مسيرته الرسمية في السلك الإنكشاري. عارض برنامج إصلاح السلطان سليم الثالث، إلا أنّه فيما بعد أصبح من المؤيدين لإصلاحاته، وفي أعقاب ثورة الإنكشارية 1807م ضد السلطان سليم وإصلاحاته، وجد بعض أبرز أنصار السلطان المخلوع ملجأ عند علمدار مصطفى في 28 جويلية 1808م، اقتحم علمدار مصطفى باشا القصر الهمايوني رفقة جيشه غير أنّه وجد أنّ سليم الثالث قد قتل ونصب مصطفى الرابع على العرش، فخلع الأخير ونصب أخاه محمود الثاني على العرش، ليصبح هو الصدر الأعظم. ربما كان أهم عمل لعلمدار بهذه الصفة هو إعداد وثيقة الاتفاق (Sened-i Ittifak) في 7 أكتوبر 1808. التي تمت مناقشتها بحضور العديد من أعيان الروم إيلي والأناضول وكانت تهدف إلى تأمين الدعم الإقليمي للسلطان الجديد وصدوره الأعظم وللإصلاحات العسكرية المخطط لها، وعقد اتفاقية سلام مع روسيا، غير أنّه سرعان ما اندلع تمرد إنكشاري آخر في 14 نوفمبر 1808م ضد السلطان الجديد وصدوره الأعظم، فقتل علمدار إلا أن السلطان محمود الثاني نجح في الاحتفاظ بالعرش ينظر:

Gábor A'goston and Bruce Alan Masters: Op.cit, P 29-30 .

² - Şerif Mardin: Op.cit, P145-146.

المتآمرون من أعدائهم في صف العلماء - الذين حرّضوا على خلع سليم الثالث - بالإضافة إلى إداري سامي واحد على الأقل تعاون مع مصطفى الرابع¹.

إعادة تنشيط برنامج تدريب التشكيلات العسكرية الجديدة وفق النموذج الأوروبي في غضون عام أدى إلى ثورة إنكشارية، ثورة انتحرت على إثرها علمدار مصطفى باشا، هذه الظروف المأساوية التي رافقت عهد محمود الثاني دفعته إلى العمل بحذر شديد، وفي ظل تلك الظروف ومع أنه استسلم للانكشاريين بعد ثورتهم وخضع لتأثير العناصر المضادة للإصلاح لفترة من الزمن، إلا أنه بات مقتنعا في نهاية المطاف بضرورة إلغاء الإنكشارية² باعتبارها أصبحت أكبر عقبة في وجه الإصلاح وإنقاذ الدولة العثمانية.

كان محمد سعيد غالب عضوا نشطا في جماعة "رفاق روستشوك" التي وضعت محمود الثاني على العرش، لقد أيد بقوة جهود الإصلاح التي قام بها علمدار مصطفى، وحين قتل الأخير بسبب تمرد الإنكشارية، امتنع المتمردون عن إعدام غالب أفندي لسمعته الطيبة، وربما لعدم رغبة المتمردون في تغيير فئة الكتاب من أهل القلم³، وقد تولى غالب أفندي في العهد الجديد منصب رئيس الكتاب مرتين: الأولى خلال (20 صفر 1223هـ/16 أبريل 1808 - 25 جمادى الآخرة 1226هـ/جويلية 1811م) والثانية خلال (1 صفر 1229هـ/22 يناير 1814م - منتصف رجب 1229هـ/جويلية 1814م).

قدّم غالب أفندي لمحمود الثاني ثلاث خدمات جليلة لولاها لظلت إصلاحاته تراوح مكانها: الأولى أنهت الحرب العثمانية الروسية (1221-1225هـ/1806-1812) بتوقيعه باسم الدولة العثمانية معاهدة بوخارست، كان يشغل حينها نائبا للصدر الأعظم⁴، وقد أحسن التفاوض مع الروس مستغلا على ما يبدو قرب هجوم نابليون بونابرت على روسيا، وعند الباحثين استحقّ غالب أفندي لقب والد الدبلوماسية التركية الحديثة لدوره في مفاوضات معاهدة بوخارست⁵، لقد فاض الروس بثبات وقوة لضمان حقوق الدولة العثمانية⁶.

¹ - Ibid, P146.

² - Loc.cit.

³ - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P8-9.

⁴ - Orhan F. Köprülü: Op.cit, sayfa 30.

⁵ - Virginia H. Aksan: Op.cit, P228.

⁶ .كانت رغبة الصرب هي الاستقلال التام عن الدولة العثمانية بمساعدة روسيا، وكان الموقف الروسي اتجاه استقلالهم متذبذبا؛ إذ أنّ روسيا وعدتهم بالاستقلال التام، ثم عاد الروس في ظل الأعمال العدائية الروسية العثمانية في مارس 1809م إلى صيغة الحكم الذاتي الصربي تحت ظل العثمانيين بضمانة روسية معترف بها من قبل السلطان. ومع ذلك أجبرت الحرب الوشيكة مع =

ثاني خدمة جلييلة قدّمها غالب أفندي إلى محمود الثاني كانت تخليصه من زعيم التيار المحافظ وأخطر شخصية كانت ترعب محمود الثاني وتعيق تقدّمه في الإصلاحات، إنّه محمد سعيد خالد أفندي¹ بلغ من قوّة نفوذه في الدولة أنّ أطلق عليه العائمة اسم شيخ الدولة (devlet kâhyası)؛ فقد كان من وراء عزل صدرين أعظمين، وشيخين من شيوخ الإسلام، وكان من أشدّ المعارضين للإصلاحات على التّمط الغربي عموماً والفرنسي خصوصاً، وكان بالغ النفوذ في صفوف الإنكشارية، شكّل محمد سعيد غالب أفندي أحد أبرز معارضيه² وقد استغلّ غالب أفندي حملة خالد أفندي ضد علي باشا الألباني (Tepedelenli Ali Paşa)³ - حاكم منطقة يانينا (Yanina) شمال اليونان - سنة 1820م والتي انتهت بمقتل علي باشا وأدّت إلى بدايات الثورة اليونانية في مارس 1821م، استغلّها كذريعة للتخلّص من خالد أفندي، باعتباره أضرّ بحملته تلك بمصالح الدولة وعرضها للخطر فتمّ عزله ونفيه في نوفمبر 1822م، ليقتل في منفاه بعد مدّة قليلة⁴، وبمقتل شيخ الدولة خالد أفندي فسح المجال لسلطان الدولة محمود الثاني ليمارس حكمه فعلياً.

الخدمة الجلييلة الثالثة واليد البيضاء التي قدّمها غالب أفندي ليس لمحمود الثاني فحسب، بل للدولة العثمانية ولجهود الإصلاح التي جاءت بعده، تمثّلت في دوره الكبير في القضاء على الإنكشارية أهم

فرنسا الروس على تقليص مطالبهم فيما يتعلق بمدى الحكم الذاتي الصربي. إن التخفيف من المطالب الروسية حول صربيا يرجع جزئياً على الأقل إلى المقاومة الشديدة للمفاوض العثماني غالب أفندي لفكرة الحكم الذاتي الصربي؛ مما جعل الروس يتخلّون عن مطلب الضمانة الروسية ويقبلون مسوّدّة الدولة العثمانية المتعلّقة بصربيا. ينظر:

Victor Taki: **Limits of Protection: Russia and the Orthodox Coreligionists in the Ottoman Empire**, The Carl Beck Papers in Russian and East European Studies, No. 2401, The Center for Russian and East European Studies, University Center for International Studies, University of Pittsburgh, April 2015, P30-31.

1. محمد سعيد خالد أفندي (1760-1822): رجل دولة عثماني مثّل التيار المحافظ في الدولة العثمانية ستعرّف على المزيد من سيرته وأفكاره في المبحث الأخير من هذا الفصل.

2. إلى جانب الأدميرال محمد خسرو باشا ورئيس الكتاب جانب محمد بسيم أفندي (1817-1821) الذي جمع بين أفضل عناصر الثقافات الغربية والإسلامية. ينظر: Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P 9.

3. علي باشا التبليبي (1744-1822): والذي يعرف بأسد يانينا، حاكم منطقة يانينا (Yanina) شمال اليونان منذ 1788م. مدد حكمه داخل أراضي الدولة العثمانية لتشمل ألبانيا ومقدونيا، إبيروس، نيساليا، وموريا. والده من زعماء ألبانيا، استطاع بالقوّة والبطش السيطرة على الألبان والمسيحيين اليونان. وبدأ يتصرّف كحاكم مستقل وتعامل معه الفرنسيون والبريطانيون على هذا الأساس، وكان مفتوناً بهم على أمل جعل يانينا قوّة بحرية. بحلول سنة 1819م كان السلطان محمود الثاني العازم على مركزية حكومة إمبراطوريته، يعمل على إقالته واغتiale. وتمّ له ذلك أخيراً. كانت يانينا في عهد علي باشا المركز الأول للثقافة اليونانية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Ali Paşa Tepelenë Ottoman**, <https://www.britannica.com/biography/Ali-Pasa-Tepelene> .

4 - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P8-9.

عصا عرقله عجلة الإصلاحات وأنهدت حياة الكثير من المصلحين: سلاطين وصدور عظام وعلماء¹ كانت الإنكشارية عصا التيار المحافظ الرافض للإصلاحات الغربية وكان خطرهم يزداد قوة كلما تحالفوا مع العلماء.

لجأ محمود الثاني في 10 ربيع الثاني 1239هـ / 13 ديسمبر 1823م إلى خادمه الموثوق محمد سعيد غالب باشا وعينه صدرا أعظما على أمل أن تجربته في الشؤون الخارجية ستمكّنه من حل المشكلات التي تسببت فيها الثورة اليونانية، وأنه سيساعد السلطان على وضع خطط لتدمير فيلق الإنكشارية، كرس غالب باشا نفسه لهاتين المهمتين؛ عمل على تأمين تدخل جيش والي مصر محمد علي باشا لإخماد ثورة اليونان²، واستخدام الهزيمة السابقة التي تعرّض لها الإنكشاريون على يد الثوار اليونانيين لزيادة تشويهم، وإقناع معظم العثمانيين وجماهير الشعب أن الإنكشارية أصبحت بالية جدا ولم يعد بمقدورها إنقاذ الدولة، سيما وجيش والي مصر محمد علي الذي أخذ ثورة اليونان كان مدربا على النمط الأوروبي، ووضع غالب أفندي أيضا رجال السلطان في فيلق عبيد الباب (Kapıkulu Ocağı)³، تحضيرا لليوم الذي سيتم فيه القضاء على الإنكشارية.

إدراكا منه بمؤامرات القصر التي لا تنتهي ومن منطلق أنه ينتمي لفئة الكتاب ولن يتمكن من قيادة الجيش عندما تحين ساعة تسوية الأمر مع الإنكشاريين، رأى غالب باشا الذي يعرف أقدار الرجال أنّ هذه مهمّة القضاء على الإنكشارية ليست بحاجة إلى رجل من فئة الكتاب (Katıplıktan)

1. منذ أواخر القرن السادس عشر بدأ الخلل يتسرّب إلى الإنكشارية بسبب عاملان رئيسان: الأول هو انحراط مجندين فيها بشكل يُخالف قوانينها، والثاني هو إجحام خلفاء سليمان القانوني عن قيادة الحملات العسكرية بأنفسهم، مما أدى إلى فقدان سيطرتهم على نخبتهم العسكرية فأدّى هذا إلى ازدياد إحساس الإنكشارية بقوّتهم فأصبحوا يُؤثّرون على أقدار الامبراطورية في ناحيتين: تحديد الفتوحات، والتأثير على التعاقب على العرش. ينظر: Lybyer: Op.cit, P93.

2. ساعد قرب محمد علي من الأسواق الأوروبية ودعم فرنسا له إلى جانب العائدات الضخمة التي حصل عليها في أن يقيم جيشا منظّما وأسطولا جبارا... وكان جيشه مدّربا على الطريقة الأوروبية، وتجاوزت إصلاحاته العسكرية والتعليمية بكثير إصلاحات سليم الثالث، بسبب تخلص محمد علي المبكر من المعارضة الداخلية متمثلة في المماليك سنة 1811م استطاع محمد علي بجيشه الحديث إخماد الثورة باليونان. ينظر: نينل إلكساندروفنا دولينا: الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، تر: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999، ص 27-28 بتصرف.

3. الاسم العام للجنود الرتبة الذين يشكلون القوى المركزية للإمبراطورية العثمانية وهم يعملون بقصر السلطان ويرتبطون به مباشرة. [مثل الحرس الجمهوري في وقتنا]. ينظر:

Abdülkadir Özcan : **Kapıkulu, Osmanlı Devleti'nin merkez kuvvetlerini teşkil eden maaşlı askerlerin genel adı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 24, 1996, sayfa 347.

(gelme) بل تحتاج إلى رجل جريء وشجاع (ceri ve pekgözlü)¹ قوي متمرس ذو خبرة عسكرية فعرض على السلطان محمود الثاني أن يعزله عن الصدارة ويستبدل به العسكري الموهوب حاكم سيلبيستر (Silistre) [شمال شرق بلغاريا] بندرلي سليم محمد باشا². فأرسل السلطان محمود في طلبه فوصل محمد سليم إلى إستانبول متنكرا في زي رسول التتار فتم تعيينه صدرا أعظما في 14 سبتمبر 1824م³ وقد اكتسب بندرلي سليم محمد باشا الخبرة العسكرية في القتال ضد الروس وكذلك في سوريا وطرابلس⁴ وهكذا وضع غالب باشا الرجل المناسب⁵ الذي خلّص الدولة من نخبتها العسكرية الفاسدة⁶.

¹ - Murat R. Şiviloğlu: **The Emergence of Public Opinion: State and Society in the Late Ottoman Empire**, 1 Edt, Cambridge University Press, UK, 2018, P44.

² - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P9.

بندرلي محمد سليم سيرى باشا (1771 - 1831): ينسب لمدينة بندر بمولدوفا شرق أوروبا. بدأ بندرلي حياته المهنية كإنكشاري بسيط ثم ترقى حتى بلغ الرتب العليا وقاد القوات العسكرية في فارنا ودمشق وتونس وكان بمنطقة سيلبيستر - حيث كان ينسق القوات العسكرية ضد المتمردين في شمال البلقان - حين استدعي من طرف السلطان محمود الثاني ليتولى الصدارة. حيث تولاهما ما بين 15 سبتمبر 1824 حتى 26 أكتوبر 1828م، وأهم اعماله حينها هو القضاء على الإنكشارية. توفي بدمشق سنة 1831م. ينظر:

Christine M. Philliou: **Biography of an Empire: Governing Ottomans in an Age of Revolution**, University of California Press, London, 2010, P221.

³ - Virginia H. Aksan: Op.cit, P315.

⁴ - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P9.

⁵. في سياق مماثل تم إحداث تغيير في قمة هرم مؤسّسة العلماء سنة 1825م؛ تم استبدال شيخ الإسلام مكّي زاده مصطفى قاسم أفندي - كان حينها شيخا للإسلام للمرة الثانية (1823 - 1825) - بالشيخ قاضي زاده محمد طاهر أفندي (1825 - 1828)، بذات الحجة وهي كون الأخير رجل المهمة القادمة والأقدر عليها من مكّي زاده. ينظر:

Murat R. Şiviloğlu: Op.cit, P44.

⁶. لقد كان بندرلي عند حسن ظن غالب باشا وأنجز المهمة بنجاح؛ ففي نهاية شهر ماي 1826م اجتمع الصدر الأعظم باندرلي محمد سليم باشا بشيخ الإسلام محمد طاهر أفندي وأغا الإنكشارية محمد جلال الدين إلى جانب أعضاء بارزين من العلماء وأطلعهم على البرنامج الإصلاحى للسلطان، ارتكز النقاش حول فساد وعدم انضباط الإنكشارية، وفشل السلاطين السابقين في إصلاحها. اقترحوا تشكيل فيلق من الجنود باسم (Eşkıncı Ocağı) قوامها الإنكشارية أنفسهم، وأعقب ذلك إنشاء محضر التزام بالإصلاح المتفق عليه وقّعه الجميع، وكذلك كتب شيخ الإسلام فتوى تجيز ما اتفقوا عليه. ونقلت الفتوى واللوائح والمحضر إلى ثكنات الإنكشارية حيث تليت عليهم جميع الوثائق والفتوى. وقّع المزيد على محضر الالتزام حوالي 209، ما يقرب من ثلثيهم كانوا من ضباط الإنكشارية. تم إعداد المستند نفسه بعناية فائقة لإضفاء الشرعية على الإصلاح والانضباط العسكري كواجب ديني، يتوافق مع القرآن الكريم. بعد أيام في 14 جوان 1826م، تمردت الإنكشارية بحجة أنّ الفيقل الجديد ما هو إلا خطة للقضاء عليهم. كان بندرلي قد جهّز الخطة البديلة وهي القضاء عليهم، فقصفهم بالمدفعية بعد أن حاصروهم في ثكناتهم بتاريخ 15 جوان 1826م في يوم مشهود سمي باسم الواقعة الخيرية (Vak'a-yi hayriye). في 17 جوان 1826م ألغيت الإنكشارية رسميًا واستبدلت بالعساكر المحمدية المنصورة. ينظر: Virginia H. Aksan: Op.cit, P317, 319.

هكذا رأينا كيف خدمت فئة الكتاب من أهل القلم في القرن الثامن عشر بنشاط لدفع الدولة العثمانية باتجاه الانفتاح على أوروبا، من عهد التوليب الذي فتح الباب للمؤثرات الغربية، إلى عهد خليل حميد باشا الذي جعل أوروبا محور إصلاحاته الكبيرة ممهدا بذلك الطريق للمشروع الإصلاحي الضخم لسليم الثالث، ختاماً بمحمد سعيد غالب باشا¹ الذي أزاح أهم عقبة عرقلت جهود الإصلاح طيلة القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر متمثلة في الانكشارية، ليصبح طريق الإصلاح والانفتاح على أوروبا في عهد التنظيمات تحت السيطرة شبه الكاملة لفئة الكتاب من أهل القلم. وبعد أن رأينا جهود فئة الكتاب قبل التنظيمات في الصدارة، سيتم التطرق في المبحث الموالي إلى جهودهم في السفارة، فقد شكّلت السفارات والبعثات الدبلوماسية إلى أوروبا - والتي كان معظم أصحابها المؤثرين من تلك الفئة كما سنرى - رافداً قوياً لنفاذ التأثيرات الغربية في مفاصل "دار الإسلام" وتشرب النخبة العثمانية لهذه التأثيرات رويداً رويداً حتى حدث ذلك الانقلاب الكبير والعجيب الذي عصفت بالخلافة الإسلامية واستقرّ بها في الجمهورية التركية.

¹ . يعتبر المؤرخ التركي إسماعيل حقي أوزون تشارشي أوغلو (1888-1977) المتخصص في التاريخ السياسي للإمبراطورية العثمانية، أنّ محمد سعيد غالب باشا هو مؤسس مدرسة سياسية شكّلت سياسات الدولة الإصلاحية لأكثر من قرن، ضمّت هذه المدرسة قامات كبيرة من أمثال مصطفى رشيد باشا ووزير الشؤون الداخلية المشهور بيتريف باشا (Pertev Paşa). وتخرّج على يد مصطفى رشيد باشا كل من محمد أمين عالي باشا وفؤاد باشا وهما من أبرز السياسيين في هذه المدرسة، والذين قادا ما يعرف بعهد التنظيمات. ينظر: İsmail. Hakkı Uzunçarşılıoğlu: Op.cit, P359.

المبحث الثاني: السفراء و " السفارت نامہ " (اعادة اكتشاف أوروبا)

من تاريخ السفارة والبعثات الدبلوماسية عند العثمانيين
السفارات الدائمة في عهد سليم الثالث
الدبلوماسية في عهد محمود الثاني
السفراء و "السفارت نامہ"

تعرف الدبلوماسية على أنّها " إدارة العلاقات بين الدول بالطرق السلمية " ¹ هذا بالنظر على أنّها وسيلة لتجنّب الحرب أو إيقافها، ومع أنّ الدبلوماسية أحيانا قد تكون أداة للتحضير للحرب مع ذلك فالدبلوماسية أوسع معنى من مجرد ارتباطها بالصراع، إذ هي تتسع لمختلف أنواع العلاقات فتشمل بين جنباتها العلاقات الفنية والثقافية والعلمية وحتى الرياضية، وبذلك المعنى الخاص وهذا المعنى الواسع، فإنّ الدبلوماسية كأداة للتواصل قديمة قدم البشرية، وفي الحالة العثمانية فإنّ الدبلوماسية من حيث كونها تعتمد على المبعوثين والسفراء بدأت مع بدايات الدولة العثمانية.

من تاريخ السفارة والبعثات الدبلوماسية عند العثمانيين

وفق الدبلوماسي والمستشرق جوزيف فون هامر الذي وضع قائمة شاملة للسفارات المتبادلة بين الدولة العثمانية وخمسين دولة أوروبية وآسيوية وإفريقية، ضمن عمله التاريخي الضخم المجلد السابع عشر: تاريخ الإمبراطورية العثمانية منذ نشأتها إلى عهدنا الحاضر (Histoire de l'empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours)، فإنّ أول سفير عثماني يبعث إلى دولة أجنبية كانت وجهته مصر وذلك سنة 797هـ/1394م وأول سفير من دولة أجنبية يتّجه صوب الدولة العثمانية (حين كانت مدينة أدرنة هي العاصمة العثمانية) كان من الإمبراطورية البيزنطية سنة 746هـ/1346م².

لم يكن لعواصم الدولة العثمانية في عصر التوسع "بورصة وأدرنة" مبعوثين أوروبيين دائمين تم إرسال أول مبعوثين دائمين إلى إستانبول من جنوة والبندقية فقط بعد [فتح] القسطنطينية سنة 857هـ/1453م³ عندما حوّل العثمانيون دولتهم إلى دولة عالمية، لكن العثمانيين أقاموا علاقاتهم

¹ - Sir Ernest Satow: A Guide to Diplomatic Practice, Ravenio Books, London, 1917, P1.

² - Hammer: Op.cit, Tom 17, P138,159-160.

رغم أنّ القائمة الشاملة للسفراء من وإلى الإمبراطورية العثمانية (83 صفحة) التي نشرتها المؤسسة البحثية النمساوية الخاصة دون خوان أرشفة فيينا (Don Juan Archiv Wien) عبر موقعها على شبكة الأنترنت - والتي اعتمدت في وضعها على مجموعات متنوعة من المصادر؛ منها أيضا ما كتبه جوزيف فون هامر في تاريخه بنسخته الألمانية التي ألفها خلال الفترة (1827-1835) والمعونة ب: تاريخ الامبراطورية العثمانية (Geschichte des Osmanischen Reiches)، إلى جانب ما كتبه المؤرخ التركي فائق رشيد أونان (1899-1964) ضمن كتابه المعنون ب: السفراء العثمانيين ومذكراتهم سفارت نامه (Osmanlı Sefirleri ve Sefâretnâmeleri) - ترجع أول سفير عثماني إلى مصر هو سنة 1318م في عهد مؤسس الدولة العثمانية عثمان ابن أرطغرل ابن سليمان شاه. ينظر:

Suna Suner: The General Index of the Ambassadors to and from the Ottman Empire, in: Don Juan Archiv Wien online: <http://archive.donjuanarchiv.at/go/bot/> .

³ . فيما يخص التبادلات الدبلوماسية الأولى بين الإمبراطورية العثمانية ودول أوروبا فقد أرسلت الدولة العثمانية أول مبعوث لها إلى أوروبا سنة 1384م حيث أرسلت مبعوثا مجهولا إلى البندقية. ووفقا لفون هامر فإنّ أوائل المبعوثين الأوروبيين إلى =

مع الدول الأوروبية عن طريق دبلوماسية مخصصة أي مؤقتة لغرض محدد حتى عهد سليم الثالث (1203-1222هـ/1789-1807م) عندما أرسل الأخير مبعوثين دائمين إلى أوروبا¹.

مع نمو العثمانيين بسرعة نتيجة للغزوات في الروم إيلي والأناضول وتوسيع سيادتهم في البحر الأسود وسواحل البحر الأبيض المتوسط، أرسلت الدول الإيطالية مثل البندقية وجنوة وميلانو الذين كانت لهم مصالح مهمة في هذه المناطق، مبعوثين لإقامة علاقات دبلوماسية، وبعد أن حدد العثمانيون سياساتهم واستراتيجياتهم التي ينبغي اتباعها ضد الغرب والشرق وخاصة بعد أن أصبحت علاقاتهم

الدولة العثمانية هم على النحو التالي: أرسلت جمهورية البندقية تحت إدارة دوق جيوفاني دولفين (doge Giovanni Dolfin) (حكم 1356-1361م) كل من ليوناردو كونتاريني (Leonardo Contarini) ومارينو فينير (Marino Venier) في عام 1360م. أرسلت المملكة الرسولية المجرية (the Apostolic Kingdom of Hungary) خلال حكم سيجموند (Sigismund of Luxemburg) الذي حكم خلال (1387-1437م) مبعوثا مجهولا سنة 1394م. أرسلت جمهورية جنوة تحت حكم دوق بيترو دي كامبوفريغوزو (doge Pietro di Campofregoso) الذي حكم خلال (1445-1450م) مبعوثا مجهولا أيضا سنة 1451م. أرسلت مملكة بولندا في عهد كازيمير الثاني ياغيلون (Casimir II Jagiellon) (1447-1492م) أرسل مبعوثا يدعى (Wurocimovieki) سنة 1476م. أرسلت مملكة نابولي في عهد فرديناند الأول (1458-1494م) مبعوثين مجهولين سنة 1479م، 1485م. أرسلت دوقية موسكو الكبرى خلال عهد إيفان الثالث (Ivan III) (1462-1505م) مبعوثا يدعى (Michael Plesttschejef) سنة 1495م. أرسلت دوقية ميلانو (Duchy of Milan) تحت حكومة لودوفيكو ماريا سفورزا الملقب بالأسمر (1489-1508م) أنجيلو دي لافالو (Angelo de Lavallo) إلى القسطنطينية. أرسلت مملكة البرتغال في عهد يوحنا الثالث (John III) (حكم 1521-1557م) أودواردو كاتانيو (Odoardo Cataneo) سنة 1544م. أرسلت الإمارة الكبرى لترانسيلفانيا (the Grand Principality of Transylvania) في عهد يوحنا سيغيسموند زابوليا (John Sigismund Zápolya) (1556-1571م) نيكولاس أورباي (Nicolas Orbay) وفرانز بالوغ (Franz Balogh) في 1568. ينظر:

Don Juan Archiv Wien International Symposium: **Ottoman Empire and European Theatre, VII. Culture of Politics or Cultural Politics - Act Two: Representation, Theatricality and Cultural Transfer in the Ottoman-European Diplomatic Relations, on the 630th Anniversary of the first Ottoman Envoy to Venice in 1348**, Forschungsverein für Theater- und Kulturgeschichte, Under the patronage of Exc. Hasan Göğüş Ambassador of the Republic of Turkey in Vienna & Exc. Dr. Klaus Wölfer Ambassador of the Republic of Austria in Ankara, Don Juan Archiv Wien, Vienna, 5-6 June 2014, P2.

¹ - Seyfi Kenan: **The Education of an Ottoman Envoy during the Early Modern Period (Seventeenth and Eighteenth Centuries), Ottoman Empire and European Theatre, VIII. Culture, Diplomacy and Peacemaking: Ottoman-European Relations in the Wake of the Treaty of Belgrade (1739) and the Era of Maria Theresia (r.1740-1780)**, International Symposium organized by Don Juan Archiv Wien, Under the patronage of: Exc. Hasan Göğüş: Ambassador of the Republic of Turkey in Vienna, & Exc. Dr. Klaus Wölfer: Ambassador of the Republic of Austria in Ankara, In cooperation with:

Pera Museum Istanbul ,The UNESCO International Theatre Institute in Vienna (ITI), and The Austrian Cultural Forum in Istanbul, Pera Museum, İstanbul,

<http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2015/symposia-full-programme-2015.html#c9477> . May 28-29, 2015.

مع أوروبا أكثر تواتراً، تم تكثيف الاتصالات الدبلوماسية مع الدول المجاورة باستخدام السفراء وفق توازنات دقيقة. لقد حددت هذه العلاقات الدبلوماسية وأثرت على بعض الاعتبارات القانونية والدينية والسياسية؛ مثل ما إذا كانت الدول التي يتصلون بها دولة صديقة أو عدوة، مسلمة أو غير مسلمة إلى جانب الاعتبارات المذهبية (سنية - شيعية / بروتستانتية - كاثوليكية). وكانت تلك العلاقات تخضع لتوجيه الشريعة¹.

اعتُمدت السفارات الدائمة واسقَرَّ عليها العمل في أوروبا مع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، واتخذت الدول الأوروبية لنفسها سفارات دائمة بإستانبول بداية من هذا القرن² غير أنّ الدولة العثمانية لم تتخذ لها سفارات دائمة بالعواصم الأوروبية حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فقد كانت ترى نفسها القوة العظمى - وكانت كذلك إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي - التي تستطيع جلب سفراء الدول لعاصمتها دون أن تُكَلِّف نفسها عناء التصرف وفق قاعدة المعاملة بالمثل.

خدم وضع عدم اتخاذ سفارات دائمة الدولة العثمانية في حال قوّتها، إذ جعلها ذلك غير ملزمة بالقواعد السياسية والدبلوماسية التي انبنت عليها التفاهات الأوروبية، مما أتاح لها فرصة للتحرّك وفق مصالحها بحريّة، وإذا كانت السفارات الدائمة وسيلة لتوفير المعلومات لعواصم الدول الأوروبية التي تقيمها بإستانبول، فإنّ الدولة العثمانية كان لديها مصادر مختلفة للمعلومات والتواصل منذ البداية فقد كانت تعين سفراء فوق العادة (fevkalâde elçi) أو مؤقتين لإبلاغ عواصم الدول بمن تولى العرش فيها أو في حالات الحرب أو التفاوض على شروط السلام، وهؤلاء السفراء كانوا يقدمون للبابا العالي معلومات عن البلدان التي عادوا منها أثناء قيامهم بواجباتهم³.

مثل مع ذلك أمراء وحكام مختلف الدول التابعة والخاضعة للدولة العثمانية⁴ مصدراً لمعلوماتها

¹ - Mehmet İpşirli: **ELÇİ, Bir devleti temsil etmek üzere başka bir devlet nezdinde görevlendirilen diplomat**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 11, 1995, sayfa 8.

² . أرسل البنادقة مبعوثيهم إلى إستانبول منذ سنة 1454 أو 1455م، وأرسلت بولندا مبعوثيها منذ 1475م، وروسيا منذ 1497م، وفرنسا منذ 1525م، والنمسا منذ 1528م، وإنجلترا منذ 1583م، وهولندا منذ 1612م. ينظر:

Hammer: Op.cit, P 136,156.

³ - Mehmet İpşirli: Op.cit, Sayfa 9.

⁴ . على سبيل المثال جمهورية راغوزا (1358-1807م) بسبب الوضع الصعب في البحر الأدرياتيكي، وبعد فتح القسطنطينية سنة 1453م أصبحت الجمهورية الصغيرة نقطة اتصال مهمة جداً للإمبراطورية العثمانية مع الغرب، ازدهرت مدرسة المترجمين براغوزا، حيث تخرّج عدد من الخبراء في اللغة التركية والدبلوماسيين، وفي كل عام - (من سنة 1458م إلى سنة 1803م) - كان يتوجّه إلى القسطنطينية مجموعة من المترجمين رفقة أعضاء من مجلس شيوخ راغوزا لدفع الجزية، وتجديد الاتفاقات مع =

عن أوروبا. كما تمّ الحصول على عدد هائل من المعلومات المتنوعة عن أوروبا عن طريق العائلات اليونانية الفناريّة¹، والتجار الذين سافروا إلى بلدان غربية وشرقية مختلفة لأغراض تجارية وأخرى تجسّسية وتمّ تقييم تلك المعلومات الواردة في الديوان الهمايوني (Dîvân-ı Hümâyûn)، علاوة على أنّ الديوان الهمايوني ومن بعده الباب العالي استغلّوا بمهارة تضارب مصالح السفراء الأجانب المقيمين بإستانبول والتنافس الذي كان بينهم للحصول على معلومات دبلوماسية دقيقة للغاية².

إذا كانت الدولة العثمانية قد أرسلت سفراء ومبعوثين إلى عواصم دول أوروبية وغير أوروبية في زمن الحرب والسلم، فما هي الأسباب التي دعته لإرسالهم، وكيف كانت تختارهم وما كانت رتبهم وكيف كان يتمّ تدريبهم، وما هي مهامهم؟

تمثلت الأسباب التي دعت العثمانيين إلى إرسال سفراء استثنائيين إلى العواصم الأوروبية في الإعلان عن تولّي سلطان جديد أو الإعلان عن انتصاراتها أو احتفالاً بتتويج أحد ملوك أو أباطرة أوروبا أو لمناقشة شروط السلم أو لإرسال النصّ المعتمد لمعاهدة ما أو لتأكيد الصداقة وحل النزاعات الحدودية التي تنشأ من وقت لآخر إلى جانب الردّ على مختلف الرسائل، أو بناءً على طلب دولة أجنبية³.

بناء على ما تقدّم يمكن حصر مهام السفراء العثمانيين الاستثنائيين والمؤقتين في ثمان نقاط: كان السفراء العثمانيون يملكون الصلاحيات التالية:

السلطان العثماني من أجل ضمان الحماية العثمانية. تمّ النظر إلى راغوزا باعتبارها عاصمة عمليات التجسس. واعتبرت راغوزا بمثابة المسرح المثالي لتمثيل العثمانيين في الغرب. ينظر:

Luca Scarlini: **Il Gran Teatro di Ragusa: The city as a stage of East-West relations from the 16th to the 18th century**, Don Juan Archiv Wien International Symposium: Ottoman Empire and European Theatre, VII. Culture of Politics or Cultural Politics - Act 2: Representation, Theatricality and Cultural Transfer in the Ottoman-European Diplomatic Relations, <http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2014/symposia-full-programme-2014.html> .

¹ . الفناريون أو يونانيو الفنار (Phanariots) مصطلح يشير إلى النخبة اليونانية أبناء العائلات الأرستقراطية، الذين احتلوا موقعًا سياسيًا واجتماعيًا مؤثرًا في الإمبراطورية العثمانية من القرن السابع عشر وحتى حرب الاستقلال اليونانية في عام 1821. وقد سكنت هذه النخبة بحج الفنار في مدينة إستانبول، وحج الفنار كان تقليدياً مركز الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية، حيث تتواجد البطريركية الأرثوذكسية منذ سنة 1586م احتل الفناريون تقليدياً أربع وظائف ذات أهمية كبرى في الدولة العثمانية: وهي كبير مترجمي القصر، وترجمان الأسطول، وحكام (voievods) مولدوفيا (Moldavia) ووالاشيا (Wallachia). بفضل معرفتهم باللغات الأوروبية أصبحوا مستشارين ومترجمين لأفراد أسرة السلطان أو للوزراء أو حتى للسلطان نفسه ينظر:

.Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P457

² - Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 9.

³ . أنينل ألكساندرو فنادولينا: المرجع السابق، ص 44-45.

1. إبلاغ العواصم الأوروبية عن اعتلاء سلطان جديد للعرش.
 2. تسليم نص التصديق على الاتفاقيات.
 3. التأكيد على العلاقات الودية والنيات السلمية.
 4. تقديم المقترحات الخاصة بإقرار العلاقات السلمية في حالة وجود خلافات.
 5. تقديم عروض إقرار السلام في زمن الحرب.
 6. تقديم الهدايا وردود السلطان على رسائل الحكام الأوروبيين.
 7. ترضية السفراء الأجانب الذين وجهت إليهم إهانات إبان وجودهم بإستانبول.
 8. رد الزيارات التي يقوم بها سفير أوروبي فوق العادة وغيره من الشخصيات.
- اختيار المبعوثين العثمانيين في البداية كان يتم اختيارهم عموماً من ضباط القصر الهمايوني الذين يشكلون فرقة الجاويش (Çavuş)، ثم تمّ اختيارهم من الإداريين والمثقفين، وكان هناك بعض عدم اليقين بشأن الرُتب، لكن في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي تمّ تبني المصطلحات الأوروبية لوصف رُتب رؤساء البعثات العثمانية؛ السفير، الوزير المفوض، القائم بأعمال السفارة... هذه التسميات قدمت على التوالي: السفير الكبير (Sefir-i Kebir) أو (Büyük Elçi)، وزير مفوض (Orta Elçi) أو ببساطة سفير (Sefir) وأخيراً القائم بأعمال السفارة (Maslahatgüzar)¹، وغالبا ما كان يتمّ اختيار السفير وفقا لشهرته ورتبته، وأحيانا كان يتمّ اختياره من بين الأشخاص الذين يحسنون لغة البلد التي أرسلوا إليها، وأيضا من الأشخاص الذين كانوا على دراية بوضع وسياسة الدول الأوروبية² ويتمّ تزويدهم بالمعارف التي تمكنهم من أداء مهامهم³.

¹ - Azmi Süslü: " Un aperçu sur les Ambassadeurs ottomans et leurs sefaretname ", Tarih Araştırmaları Dergisi, Sayı 25, Cilt 14, Ankara Üniversitesi Dil, Tarih-Coğrafya Fakültesi, Tarih Bölümü, Türkiye, 1981, P234.

² - Ibid, P234-235.

³ . كانوا يتلقون التدريب العملي تحت إشراف رئيس الكتاب أو مكتب أميدي (Amedi Kalemi) (مساعد رئيس الكتاب في القرن الـ 18م). اكتسبوا تعليماً فكرياً قوياً من خلال القراءة والمناقشة المتعمقة والواعية للكثير من الكتب منها على سبيل المثال: كتاب "مجموعه منشآت السلاطين" (Mecmûa-i Münşeâtü's-selâtin) لأحمد ابن تد القادر المشهور باسم فريدون أحمد باي (ت 991هـ/1583م)، كتاب همايون نامه الترجمة التركية لكليلا ودمنة، مقدمة ابن خلدون، كتاب "أخلاق ناصري" لنصير الدين الطوسي (ت 672هـ/1274م)، وكتاب الأخلاق العالية لقنالي زاده علي جلبي (ت 980هـ/1572م)، فضلا عن قائمة من الكتب التكميلية بما في ذلك الفقه والأخلاق والرياضيات ومواضيع أخرى في فن السياسة. ينظر:

Seyfi Kenan: **The Education of an Ottoman Envoy during the Early Modern Period (Seventeenth and Eighteenth Centuries)**, Ottoman Empire and European Theatre, VIII. Culture, Diplomacy and Peacemaking: Ottoman-European Relations in the Wake of the Treaty of Belgrade (1739) and the Era of Maria Theresia (r.1740–1780), International Symposium organized by Don Juan Archiv Wien, Under the patronage of: Exc. Hasan Göğüş: =

نعرف إجمالاً أنه على الرغم من إرسال أهل أو أرباب السيف (seyfiye erbabi) وأهل أو أرباب القلم (kalemiye erbabi) إلى أماكن مختلفة كسفراء، إلا أنه يتم تعيين أعضاء من أرباب العلم (ilmiye erbabi) في كثير من الأحيان كسفراء وفقاً لمكانتهم وبلدهم؛ تم إرسال سفراء من أهل العلم على وجه الخصوص إلى دول إسلامية مثل إيران وأوزبكستان والمغرب، قد يكون السبب الرئيسي لذلك هو أن سفراء الدول الإسلامية يواجهون مجموعة واسعة من الأسئلة الدينية أينما ذهبوا، واستمر هذا التقليد حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي¹.

اختيار السفراء منذ القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي تم من بين أولئك الذين مارسوا وظيفة في وزارة الخارجية وأولئك الذين أصبحوا وزراء للخارجية، أولت الحكومة العثمانية المزيد من الأهمية لعلاقاتها الدبلوماسية منذ اللحظة التي أصبحت تحتاج فيها إلى دعم حلفائها لإصلاح تراجعها، ومن أجل إعطاء أهمية أكبر وتألّق للبعثات الدبلوماسية، أعطيت رتب جديدة للسفراء العثمانيين؛ تم منحهم ألقاب مثل "حاكم الروم إيلي أو الأناضول"، "السكرتير الأول"، "الوزير الهمايوني" وبعد ذلك "وزير الخارجية" ... وحين عودتهم وفقاً لمدى نجاحهم في مهماتهم، يتم ترقيتهم إلى مناصب أعلى أو يحتفظون بالألقاب التي حصلوا عليها قبل مغادرتهم².

ارتدى المبعوثون العثمانيون في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي عمامة (sarık) وأردية عادة حمراء وزرقاء مع قفطان، بعضهم كان يرتدي الفرو، والبعض كان يرتدي خنجراً مرصعاً ولكن بعد تبني الطربوش (fes) في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، بدأ السفراء يرتدون الطربوش وأزياء سوداء، في قانون نامه توقيعي (Tevkîl Kānunnâmesi)³ تحت بند قانون

Ambassador of the Republic of Turkey in Vienna, & Exc. Dr. Klaus Wölfer: Ambassador of the Republic of Austria in Ankara, In cooperation with: Pera Museum Istanbul, The UNESCO International Theatre Institute in Vienna (ITI), and The Austrian Cultural Forum in Istanbul, Pera Museum, İstanbul, <http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2015/symposia-full-programme-2015.html#c9477> May 28-29, 2015.

¹ - Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 9.

² - Azmi Süslü: Op.cit, P235-236.

³ . تم جمع القوانين المنظمة للبروتوكولات لأول مرة في عهد السلطان محمد الفاتح، وكان النيشانجي بداية من القرن السادس عشر هو المخول بتفسير قوانين البروتوكولات وضبطها، غير أنه خلال هذه الفترة لم تكن المراسيم مكتوبة تفصيلاً كانت مجرد قواعد أساسية محدّدة. لكن في عهد محمد الرابع وصدارة مرزوفولي قارا مصطفى باشا أمير التوقيعي عبد الرحمن عدي باشا (1630-1692) بإعداد قانون يمكن اعتباره أول مجلة بروتوكولية عثمانية مستقلة، تنظّم وتضبط كل ما يتعلّق بأمر التشريفات والمراسيم البروتوكولية ينظر =

السفير (Kānûn-ı Elçiyân) يذكر بالتفصيل متى يستقبل السفراء بالديوان الهمايوني والاختلافات في المراسم بين السفراء المسلمين والمسيحيين¹.

تمّ إعطاء عناية خاصة لاختيار الهدايا التي يحملها السفراء معهم؛ فقد تمّ إنشاء مصلحة لهذا الغرض بقصر طوب كايي بإستانبول تحت اسم خزانة السفارة (Elçi Hazinesi)، وتمّ تسجيل كل الهدايا في سجلات خاصة تسمى دفاتر الخزينة (Hazine Defterleri)، يمكننا أن نرى من خلال هذه السجلات أن الحكومة العثمانية لم تتردد في إرسال أغلى الهدايا وأكثرها تكلفة، حتى في حالة الأزمات المالية؛ في هذا السياق تذكر الهدايا التي لا تقدر بثمن والتي تمّ إرسالها إلى فيينا في أعقاب معاهدة (Passarowitz) الموقعة سنة 1130هـ/1718م. ومن المثير للاهتمام أيضاً أن نلاحظ أن معظم السفراء حملوا معهم خطابات من السلطان إلى أصحاب الدول التي أرسلوا إليها، يوضح تحليل هذه الخطابات أنها تحتوي عموماً على جزأين: الأول مكرس للتعبير عن الصداقة أو العلاقات الودية القائمة بين الدولتين المعنيتين، والثاني للبعثة التي يكون السفير مسؤولاً عنها، كان على كل سفير أن يهتم ليس فقط بنقل الرسالة، ولكن أيضاً بتسليمها إلى سلطات البلاد المعنية باحترام خاص².

من ناحية أخرى من المعروف أن وفود السفارات العثمانية المتجهة إلى الدول الأجنبية كانت تقدّم استعراضاً أمام السلطان؛ قام وفد مكون من 300 شخص بقيادة المؤرخ رشيد محمد أفندي³ قبل رحيله إلى إيران سنة 1140هـ/1728م، باستعراض أمام أحمد الثالث الذي كان يشاهدهم بأحد أجنحة قصره، وفي هذا العرض سلّمه الصدر الأعظم دمادا إبراهيم باشا نوشهري الرسالة الهمايونية (Nâme-i hümayun) التي يتوجّب عليه نقلها إلى الشاه الإيراني⁴.

كانت السفارات العثمانية كما الأجنبية تضمّ عشرات وأحيانا مئات الأشخاص؛ هناك قوائم

Filiz Karaca: **Teşrifat**, Osmanlı Devleti'nde protokol anlamında kullanılan terim, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 40, İstanbul, 2011, sayfa 570-571 .

¹- Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 9-10.

² - Ibid, P236.

³. ربما ولد سنة 1670م بإستانبول، تلقى تعليماً جيداً، ثم ترقى بعد ذلك ودرّس عبر مدارس مختلفة. سنة 1714م عيّن في منصب المؤرخ الرسمي للدولة في عهد الصدر الأعظم دمادا شهيد علي باشا، حيث كلّفه الأخير بكتابة التاريخ العثماني. ليعيّن سنة 1723م قاضياً بجلب. عندما بدأت العلاقات بين إيران والدولة العثمانية في التدهور، تم إرساله كمبعوث للحاكم الإيراني أشرف شاه، كتب شخصياً الرسالة التي سيتم إرسالها إلى شاه إيران تحت إشراف الصدر الأعظم، بعد ثورة باترونا خليل سنة 1730م، تمّ نفيه ثم عاد بعدها لإستانبول وتوفي سنة 1735م. ينظر:

Fatih Günay: **Râşid Mehmed Efendi (ö. 1148/1735), Osmanlı vak'anüvisi, şair ve münşi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 34, İstanbul, 2007, sayfa 463-465.

⁴ - Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 11.

يحتفظ بها حول وفد القادمين من أوروبا، كان الوفد الأوروبي عموماً مترجمين فوريين، وسكرتير وكتاب آخرين إلى جانب الطبيب والجراح والقسم والحلاق والطباخ والعديد من الخدم، علاوة على الرّسّامين والرّحالة والعلماء والتجار الذين يتطوّعون بالانضمام إلى وفد السفارة على نفقاتهم الخاصّة، كما عينت الإدارة العثمانية مترجمين مسلمين وعدد من الإنكشاريين والرقباء (çavuş) وغيرهم من المسؤولين في لجان السفارة، كان وفد السفارة العثمانية كبيراً، وهذا يتغير وفقاً لحاجة وأهمية السفارة¹.

كان على السفراء الأجانب اتباع إجراءات معينة للتفاوض مع الباب العالي؛ كان على السفير أن يرسل مترجمه الخاص إلى الباب العالي ويقابل رئيس الكتاب ويطلب إذنا لمناقشة موضوع ما، فيتّم إبلاغ السلطان، بعدها يتمّ عقد لقاء يحضره قاضي العسكر وقاضي إستانبول وغيرهما من المسؤولين أحد أهم قواعد الدبلوماسية يتمثّل في قاعدة التبادل والمعاملة بالمثل² فيما يتعلّق بتقديم الهدايا ومستوى السفير والوفد المرافق له وعدد الموظفين وقبول السفراء في القصر وأماكن الاجتماعات وما إلى ذلك كل ذلك كان مرعياً في العلاقات الدبلوماسية بين العثمانيين والأوروبيين³، ومع القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي وضعت اللوائح والقوانين الدولية التي تضبط وتنظّم عمل السفراء بين الدول⁴.

كانت السفارات إذا منذ بدايات الدولة العثمانية مؤقّته في زماها ومكانها، ومحدّدة في مهامها وكان العثمانيون منذ القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي يكتفون باستقبال البعثات الدبلوماسية والدوائر القنصلية الدائمة حتى عهد السلطان الإصلاحية سليم الثالث في نهاية القرن الثاني

¹ - Ibid, Sayfa 12.

² . من الأمثلة البارزة على مراعاة قاعدة المعاملة بالمثل والتي تعد أيضاً أحد المفاهيم الأساسية للدبلوماسية الحديثة، رحيل السفير العثماني عبد الكريم باشا والسفير الروسي ريبينين (Repinin) من إستانبول وموسكو بعد معاهدة كيتشوك كاينارجي في 1774م حيث حدث التبادل في بلدة خوتين (Hotin) غرب أوكرانيا، تعد اليوميات التي يشرح فيها كل من السفراء المفاوضات حول المراسيم التي أقيمت في إستانبول وموسكو أشمل مصادر المعاملة بالمثل. ينظر: Ibid, Sayfa 13.

³ - Loc.cit.

⁴ . تم وضع أول لائحة بشأن البعثات الدبلوماسية في مؤتمر فيينا لسنة 1815م وتم اعتماد أحكام جديدة مع بروتوكول إيكس لاشايل (Aix-la-Chapelle Protokolü) لسنة 1818م، وفقاً لهذه اللوائح التي اعتمدها الدولة العثمانية تم قبول ثلاث درجات كسفراء: سفير كبير (büyükelçi) ، سفير برتبة وزير مفوض (orta elçi) وقائم بأعمال السفارة (maslahatgüzar) كما تمّ تقنين وضع السفير المقيم (mukim elçi) كما تمّ في الاجتماعات اللاحقة اتخاذ قرارات بشأن التنفيذ بين الدول، وتأكيد وترسيخ مبدأ المعاملة بالمثل، وأساس التمثيل الدبلوماسي المتساوي والمتكافئ بين الدول، كما تمّ التأكيد على أن يقدّم السفراء أوراق اعتمادهم لرؤساء الدول، وأن تكون نفقاتهم على ذمّة وزارة خارجيّتهم، كما تمّ تحديد مهام السفراء في الدول من حيث كونها تتركز على ثلاث نقاط رئيسية هي: التفاوض والمراقبة والرعاية. ينظر: Ibid, Sayfa 13-14.

عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، ولم تكن لديهم رغبة في الرد بالمثل بسبب عقدة التّفوق، فيما يمكن تسميته بـ "الدبلوماسية الأحادية الجانب" إلا أنّ ذلك الوضع تغيّر مع سليم الثالث.

السفارات الدائمة في عهد سليم الثالث

بداية نلقي بعض الضّوء على مؤسسة الشؤون الخارجية العثمانية، فنقول: إنّه لم يكن للدولة العثمانية وزارة أو مؤسسة مختصّة بالشؤون الخارجية قبل القرن السابع عشر، إذ باعتبارها القوّة العظمى في العالم إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي تقريبا لم تكن ترى في أوروبا سوى دار الحرب، مجالا حيويا لنشر الإسلام والفتح، ولم يكن السلطان العثماني يرى أحدا من ملوك أوروبا ندّا له، تبعا لذلك لم تكون ثمة أهميّة لوجود مؤسسة تُعنى بالشؤون الخارجية.

غير أنّه مع بداية تقهقر قوّة العثمانيين سيما بعد كارلوفيتز أصبحت الدولة شيئا فشيئا عاجزة عن حماية نفسها إلاّ بمساعدة أعداء الأمس، وأصبح أعداء الأمس شيئا فشيئا أكثر قوّة لدرجة أصبحوا يتحكّمون في مصير العثمانيين، هنا بدأت الحاجة إلى الاهتمام بالخارج ليس باعتباره دار حرب، ولكن باعتباره دار حضارة قادمة، وهكذا تزامن تشكّل مؤسسة الشؤون الخارجية بتقهقر شؤون الدولة الداخلية، وحاجتها للتعلّم من أعدائها لغرض إصلاح ذاتها وضمّان وجودها.

تعود الجذور التاريخية لوزارة الخارجية أو نظارة الخارجية العثمانية (Hariciye Nezâreti) كما رأينا في الفصل الأوّل إلى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، عندما فقد الديوان الهمايوني أهميته وانتقلت إدارة الدولة إلى الباب العالي، بذلك الانتقال أصبح رئيس الكتاب وموظفو الديوان الهمايوني تحت مسؤولية الباب العالي بدل القصر الهمايوني، وبذلك أصبح الباب العالي المركز الإداري للدولة، حيث بدأ الديوان بالانعقاد فيه بعد الظهر تحت رئاسة الصدر الأعظم ومناقشة مشاكل الدولة.

ذكرنا في الفصل الأوّل أنّه بسبب الاحتياجات المنظومة الإدارية المتزايدة تولى رئيس الكتاب مسؤولية المهام الإدارية الجديدة التي افتتحت بالديوان الهمايوني، وتولى مهام سكرتير الصّدر الأعظم والديوان، كما بدأ يلعب دورًا أكبر في العلاقات الخارجية للدولة التي أصبحت أكثر أهمية خلال هذه الفترة، كان رئيس الكتاب سابقا هو المسؤول عن الاتصال وتسجيل الاتفاقيات مع الدول الأجنبية ورئيس المترجمين بالديوان الهمايوني الذين كانوا يعيّنون في ذلك الوقت من اليونانيين الفناريين.

أظهر التفوق العسكري والاقتصادي للدول الأوروبية في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي وخاصة بعد معاهدة (Küçük Kaynarca)، أنه من الضروري الالتزام باتخاذ ترتيبات معينة

في الدولة العثمانية وفقاً للأساليب الأوروبية، محاولات سليم الثالث فتح سفارة وقنصليات في لندن وباريس وفيينا وبرلين منذ سنة 1207هـ/1793م وقبول العثمانيين لإجراءات دبلوماسية دائمة وممثلة للطرفين على النطاق الأوروبي تعود إلى ذلك الالتزام¹.

ما هي أول دولة اختارها العثمانيون ليدشّنوا فيها عهد السفارات الدائمة؟ وما الأسباب التي دعّتهم لاختيارها؟ وكيف كانت تلك التجربة التي أعاد محمود الثاني إحياءها؟ لا شك أنّ الدارس للتاريخ العثماني وتاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية يدرك أنّ فرنسا كانت ستكون القبلية الأولى لسفارات العثمانيين المقيمة، فقد ارتبطت فرنسا بالدولة العثمانية بتحالف استراتيجي بداية من عهد سليمان القانوني، ضف إلى ذلك العلاقات السرية التي ربطت سليم الثالث حين كان ولياً للعهد مع لويس السادس عشر (ت 1793)². مع كل ذلك فإنّ سليم الثالث اختار لندن لتكون أول موطئ قدم لسفاراته الدائمة. لماذا حدث هذا التحوّل وما دواعيه؟

لولا الثورة الفرنسية في سنة 1203هـ/1789م لكانت فرنسا بالتأكيد هي أول وجهة للسفراء العثمانيين المقيمين حديثاً، وذلك بسبب الصداقة التقليدية بين فرنسا والدولة العثمانية التي تعود كما رأينا إلى أوائل القرن السادس عشر، وبالنظر إلى قرب السلطان سليم الثالث الشخصي من الفرنسيين والصداقة التقليدية مع فرنسا، لكن مع الثورة لم يكن السلطان راغباً في إثارة ضغائن القوى الأوروبية الكبرى التي رُوّعتها الثورة الفرنسية وحروب نابليون، ومع ذلك واجه سليم الثالث مشكلة مرة أخرى عندما أرسل النظام الفرنسي الجديد ممثلين رفيعي المستوى إلى إسطنبول لطلب اعتراف دبلوماسي

¹ - Carter V. Findley : **Hariciye Nezâreti Osmanlı Devleti'nde 1836'da kurulan ve Cumhuriyet döneminde Dışişleri Bakanlığı adını alan teşkilât**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 16, İstanbul, 1997, sayfa 179.

رسمياً لم تتبادل الدولة العثمانية السفراء المقيمين حتى أواخر القرن الثامن عشر، والباحثين الذين يأخذون هذا كدليل على الازدراء العثماني للدبلوماسية الأوروبية لا يطرحون هذا السؤال: " لو حاول الباب العالي إرسال سفير دائم إلى العواصم الأوروبية قبل ذلك فما هو موقف البلاطات الأوروبية حينها؟" لم تبدي البلاطات الأوروبية الكثير من الحماس لوجود سفراء عثمانيين مقيمين في عواصمها... إنّ الدبلوماسية المقيمة الأحادية كانت تتناسب مع كلا الجانبين؛ فقد رفضت وزارة الخارجية البريطانية محاولة عثمانية لإرسال سفير دائم إلى لندن قبل يوسف أغا أفندي. ينظر: Nuri Yurdusev Ahmet: Op.cit, P30.

² . راسل سليم الثالث حين كان ولياً للعهد الملك لويس السادس عشر بشكل مستمر، هناك العديد من الرسائل المعروفة التي تم تبادلها بينهما، تغطي هذه الرسائل مجموعة واسعة من المواضيع السياسية والدبلوماسية والثقافية. ينظر:

Karim Ben Smida: **Between Paris and the Bosphorus. Diplomatic and cultural correlations in the early years of the French Revolution (1787–1793)**, Don Juan Archiv Wien International Symposium: OTTOMAN EMPIRE & EUROPEAN THEATRE, VI, Culture of Politics or Cultural Politics: Ambassadors as Cultural Actors in the Ottoman-European Relations, <http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2013/symposia-full-programme.html> .

وهو الأمر الذي كانوا في أمسّ الحاجة إليه بعد عزلتهم في أعقاب الثورة مباشرة، أعلنت الدولة العثمانية التي تُظهر على الأرجح أول عرض هام للبراعة الدبلوماسية في هذا العصر الجديد، أنها ستعترف بالنظام الفرنسي الجديد فقط بعد أن تعترف به أيُّ قوّة أوروبية أخرى؛ اعترف العثمانيون بالنظام الفرنسي الجديد بعد بروسيا¹.

بسبب المضايقات والمضاعفات التي سببتها الثورة الفرنسية كانت لندن أول من استقبل سفيرًا عثمانيًا دائمًا؛ بريطانيا العظمى "النجم الصاعد" في سماء الدبلوماسية الأوروبية منذ القرن السابع عشر احتلت موقعًا مؤثرًا داخل الدولة العثمانية، حيث كانت ممثلة من قبل السفراء المقيمين بإستانبول منذ 1583م²، لقد نجح السفراء البريطانيون بشكل استثنائي بطبعهم الأنيق مع الحكام الشرقيين وعلى النقيض من التصادمات الكارثية غير المتواترة بين المسؤولين العثمانيين وممثلي بعض الدول الأخرى فإن صبر الدبلوماسيين البريطانيين ولباقتهم مكّنتهم من تفادي مثل تلك التصادمات³، إضافة إلى ذلك كانت بريطانيا العظمى قد توسطت في مناسبات عديدة منذ القرن الماضي لإصلاح السلام بين العثمانيين والنمساويين، وبالتالي زيادة نفوذها مع الباب العالي، فقد كانت وسيطًا مهمًا مع هولندا في معاهدة كارلوفيتز.

¹ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P133.

² . تتمتع بريطانيا والدولة العثمانية بتاريخ طويل من العلاقات الدبلوماسية؛ تم تأسيس العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين الدولتين في عهد إليزابيث الأولى (1558-1603) والسلطان مراد الثالث (1574-1595)، كانت العلاقات السياسية والدبلوماسية والتجارية والثقافية بين الإمبراطوريتان العثمانية والبريطانية جيدة بشكل عام، وكان للسفراء البريطانيين لدى الباب العالي دورًا نشطًا في ذلك. ينظر:

Mehmet Alaaddin Yalçinkay: **The cultural role of ambassadors in Ottoman-British Diplomatic Relations (1793-1800)**, Don Juan Archiv Wien International Symposium: OTTOMAN EMPIRE & EUROPEAN THEATRE, VI, Culture of Politics or Cultural Politics: Ambassadors as Cultural Actors in the Ottoman-European Relations, <http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2013/symposia-full-programme.html> .

³- A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P133.

دشنت الدولة العثمانية وبمشورة بريطانية¹ بعثاتها الدبلوماسية الدائمة لأول مرة في تاريخها بلندن² بدل باريس، لاعتبارات فرضتها التحوّلات العميقة التي حدثت بفرنسا بزوال الملكية وقيام الجمهورية وهو الحدث الذي أثر على كامل أوروبا التي دخلت في صراع دام أكثر من عقدين مع فرنسا نابليون لإلجام مارد الثورة الفرنسية وأفكاره الثورية من أن يجتاح الممالك والإمبراطوريات. غير أنّ سليم الثالث ما لبث أن أنشأ بعثات دبلوماسية دائمة في عواصم أوروبية أخرى؛ فيينا 1209هـ/1795م وبرلين 1209هـ/1795م وباريس 1210هـ/1796م.

غير أنّ الدارسين للتجربة العثمانية المتعلقة بالسفارات الدائمة يحكمون عليها بالفشل، فلماذا لم ينجح أوّل السفراء العثمانيين الدائمون؟ تزامنت محاولة السلطان سليم الثالث للدبلوماسية المقيمة مع فترة انهارت خلالها الدبلوماسية في أوروبا بشكل مؤقت تحت تأثير الثورة الفرنسية والحروب النابليونية التي أعقبت ذلك، غير أنّه عدى الثورة الفرنسية وارتداداتها كانت ثمّة أسباب أخرى كثيرة أولاً كان من الطبيعي عادة ألا تكون دبلوماسية السلطة الضعيفة قوية؛ فقد واجه السفراء العثمانيون الجُدّد المهمة الصعبة المتمثلة في تمثيل دولة في طور الانحدار، وقد كان يُنظرُ للدولة العثمانية في أوروبا على أنّها الدولة التي كانت تعامل السفراء الأجانب بتعالٍ خلال عهد تفوّقها، لا يمكن أن تتوقع موقفاً مختلفاً تماماً لسفرائها في وقت تراجعها، وثانياً لم يتخذ السلطان سليم الثالث التدابير الكافية؛ لم يتضمن مشروعه إنشاء وزارة خارجية لتنسيق أنشطة دبلوماسيه في أوروبا، وثالثاً لم يتلقّ السفراء العثمانيون الأوائل ما يكفي من التقدير والدعم من حكومتهم؛ كان هناك تأخيرات لا مبرر لها في تلقي تعليمات الباب العالي، ولم يكونوا على علم كاف بما يجري في الوطن³.

1. بسبب عدم معرفة كيفية إرسال الممثلين الدبلوماسيين إلى الدول الأجنبية عند ممارسة السفارة الدائمة. تمّ عقد لقاء استشاري في 10 جويلية 1793م حضره السفير البريطاني بإستانبول السير روبرت آنسلي (Sir Robert Ainslie) ورئيس الكتاب محمد رشيد أفندي، وقاضي العسكر الروم إيلي تاتارجيق عبد الله أفندي، حيث نوقش الإجراءات الواجب اتباعها لتعيين السفير وسمعة هذا السفير لدى حكومة المملكة المتحدة، ورتبة واسم السفير المناسب، وتكلفة السفارة وكل ما يتعلّق بها. ينظر:

Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 9.

2. أنشأت الدولة العثمانية سنة 1793م أول سفارة دائمة لها بإنجلترا عن طريق إرسال يوسف أغا أفندي (1744-1824) الذي مثل وصوله إلى لندن في 21 ديسمبر 1793 حدثاً مهماً باعتباره تدشيناً لأول علاقات دبلوماسية متبادلة في التاريخ العثماني. أول سفراء عثمانيين دائمين بلندن هما: يوسف أغا أفندي (السفير 1793-1797) وإسماعيل فروح أفندي (السفير 1797-1800). ينظر:

Mehmet Alaaddin Yalçınkay: Op.cit,

<http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2013/symposia-full-programme.html>.

3 - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P134.

رابعاً بما أنّ الدبلوماسية لم تُصبح بعد مهنة في الدولة العثمانية، فإنّ السفراء الأوائل لم يكونوا على دراية جيدة بالشؤون الدولية، العديد من رجال الدولة المقتدرين - وليس الدبلوماسيين المحترفين - المؤهلين لتمثيل بلدهم يفضلون البقاء في المنزل مع تَوَقُّع وجود منصب رفيع المستوى في الحكومة، فبعد كل شيء كان العمل كسفير في الخارج مهنة جديدة لم يكن يُعرف عنها إلا القليل، ولذلك كانت تُعتَبَر مهنة غير مرموقة بما يكفي لترك التيار السياسي الرئيسي في العاصمة لأجلها، وخامساً تم اختيار السفراء الأوائل أساساً من بين المسؤولين الذين تخصصوا في المسائل المالية وبصرف النظر عن افتقارهم إلى المعرفة المهنية بالشؤون الدبلوماسية، فإنهم لم يتقنوا حتى لغة أجنبية؛ هذا العامل زاد حتماً من دور المترجمين في سفاراتهم وكانوا في معظمهم من غير المسلمين، وبالتالي قد يواجه السفراء خطر أن يصبحوا "أداة" في أيدي مترجمهم¹.

كعامل سادس كانت التكاليف المالية لإدارة السفارة مرتفعة للغاية بالنسبة للإمبراطورية العثمانية المتضعضعة، وقد علّقت الحكومة العثمانية أهمية كبيرة على التضحية بأي شيء عندما كان شرف وعظمة الدولة على المحك، وقد صدرت تعليمات صارمة للسفراء العثمانيين الأوائل بعدم قبول أي عرض من الطرف الآخر لتغطية نفقاتهم بمجرد عبور الحدود، وقد صدرت تعليمات لهم أيضاً بأن يكونوا ليبراليين مسرفين في اختيار أثن الهدايا لتقديمها إلى مضيفيهم، وهو عمل رأت فيه إستانبول مرة أخرى مظهراً لعظمة وثراء الدولة، مع ذلك وعلى الرغم من رواتبهم المرتفعة جداً في البداية (التي تم تحديدها من قبلهم في وقت سابق من الخدمة الحكومية)، لم يتم منح السفراء الأموال اللازمة لتغطية نفقاتهم، ولن يكون تخصص السفراء الأوائل في المسائل المالية كافياً لإيجاد "معجزات" خارج هذه الوسائل المقيدة².

عامل سابع هو أنّ السفراء الأوائل لا يملكون ما يمكن تسميته بـ "الضمان المهني"؛ وهذا يعني أنه على الرغم من أنه كان من المتوقع عادة أن يعملوا لمدة ثلاث سنوات في الخارج، فقد تم استدعاء البعض منهم قبل تمام المدّة كلما اختلفوا مع رؤسائهم في الوطن لأسباب مزاجيّة عموماً، إلى جانب ذلك اضطر السفراء الأوائل لبعض الوقت إلى ترك عائلاتهم في منازلهم على الرغم من أنّ الحكومة كانت ترعاهم³.

ونظراً للأسباب المذكورة أعلاه سيكون من الطبيعي جداً ألا يكون السفراء العثمانيون الأوائل

1 - Ibid, P135.

2 - Loc.cit.

3- Loc.cit.

ناجحين بشكل خاص في تقييم الأحداث بشكل صحيح في العواصم التي تمركزوا فيها، باستثناء إثارة بعض الاهتمام بالدولة العثمانية في الدول التي تواجدوا بها؛ المثال النموذجي هنا هو الفشل الكبير لأوّل سفير دائم بباريس سيد علي أفندي¹؛ ففي أقل من شهر بعد الغزو الفرنسي لمصر - التي كانت لا تزال جزءاً من الدولة العثمانية - أبلغ السفير إستانبول أنّ فرنسا ليس لديها أي نيات عدائية على الإطلاق ضد بلاده وأنها تريد فقط الاستيلاء على مالطا، كانت الحكومة العثمانية قد علمت بالنوايا الفرنسية المتعلقة بمصر فقط من خلال مصادر أخرى، ما هو أكثر إثارة للاهتمام هو أنّ السفير العثماني سيّد علي أفندي لم يكن على علم بالغزو الفرنسي لمصر إلا بعد أن أبلغته حكومته!!²

مع كل ذلك لم يكن من الممكن إنشاء نظام مناسب للشؤون الخارجية أو إنشاء آلية لصنع القرار قادرة على تحديد السياسات الخارجية المتناسكة وخلق موظفين متخصصين في الشؤون الخارجية، وعلى الرغم من أنّ رئيس الكتاب في هذه الفترة بدأ يجمع خيوط الشؤون الخارجية بيده إلا أنه لم يتم إعداد أي بنية تحتية للقيام بسياسة خارجية دائمة، علاوة على ذلك يوضّح عمل السفارات أنّ فهم نظام التمثيل لم يثبت بعد³؛ فقد كان من مهام السفراء في ذلك الوقت تمثيل الدولة العثمانية في الدول الأوروبية، غير أنّهم بدلا من ذلك انشغلوا بتجميع الأفكار من أجل الإصلاح والتّعريف بالدول الأوروبيّة في الدولة العثمانية

على الرغم من أن السفراء الدائمين الذين أرسلوا إلى المراكز الأوروبية الرئيسية، مثل لندن وباريس

1. مورالي سيد علي أفندي (1797-1802): من فئة الكتاب من أهل القلم، أصله من قرية مورالي (Morali) [بمحافظة آيدن جنوب غرب تركيا]. يتحدث اليونانية ويتحدث الفرنسية قليلاً. خدم وترقى في قلم المالية (Maliye Kalemi). أرسل إلى باريس في سبتمبر 1796م، بناءً على إصرار المبعوث فوق العادة الفرنسي (Raymond de Verninac-Saint-Maur)، والسفير الفرنسي (Jean-Baptiste). تم استقبال السيد علي بحماس في فرنسا وأصبح مركز اهتمام الجمهور من مارسيليا إلى باريس. هجوم نابليون بونابرت على مصر في جويلية 1798م جعل سيد علي في موقف صعب جعل سليم الثالث يقول عنه: "يا له من أحقق" وخلال سفارته تلك وقع ضحية خيانة المترجمين اليونانيين الذين كانوا ينقلون الأسرار العثمانية إلى فرنسا. واجه سيد علي صعوبات في فرنسا بعد هجومها على مصر إذ ظلّ في شبه إقامة جبرية بفرنسا ومُنع من المغادرة وعانى من مشاكل مالية خفف من حدّتها التاجر الجزائري بكري. مع ذلك حاول تاليران عقد اتفاقية سلام مع علي أفندي لتجنب الخطر الروسي الإنجليزي، فوَقعت معاهدة سنة 1801م، لكن الاتفاقية لم تكن مرضية لسليم الثالث فأرسل غالب أفندي مفوضاً أعلى حيث تم التوصل إلى سلام في 25 جوان 1802م، بعد عودته شغل بعض المناصب، لكنه أعدم في 1809م، بسبب أنه كان من بين الذي حثوا محمود الثاني على قتل أخوه مصطفى الرابع. ترك (Sefâretnâme) وكتاب مختصر احوال فرنسا (Muhtasar Fransa Ahvâli). ينظر:

Kemal Beydilli : Seyyid Ali Efendi (ö. 1809) Osmanlı devlet adamı, ilk dâimî Paris sefiri, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 37, İstanbul, 2009, sayfa 45-47.

2 - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P136.

3 - Carter V. Findley: Op.cit, Sayfa 179.

وفيينا لم يحققوا النتائج المرجوة، إلا أنّ هذه التجربة الأولى أسهمت في نشوء الدبلوماسيين المؤهلون ببقاء الكوادر الشابة التي رافقت السفراء الدائمين الأوائل لمدة طويلة بأوروبا، وتعلّموا خلالها اللغات الأجنبية وتعرّفوا على الغرب بطرق مختلفة. بعد بضع سنوات تم تعليق عمل السفارة الدائمة بسبب حرب الاضطرابات الداخلية والصراع على العرش، لكنها استؤنفت في سنة 1250هـ / 1834م في عهد محمود الثاني ولم تنقطع مرة أخرى¹.

الدبلوماسية في عهد محمود الثاني

مواصلة في الجهود الإصلاحية لسليم الثالث، اتخذ خليفته محمود الثاني خطوات مهمة في تنظيم نظام الشؤون الخارجية؛ أولاً وبعد تبين ضلوع بعض المترجمين اليونانيين لدى الباب العالي في ثورة اليونان بتعاونهم مع المتمرّدين²، تمّ الاستغناء عن خدمات المترجمين اليونانيين وأنشئت غرفة ترجمة الباب العالي (Tercüme Odası) لتدريب المترجمين الفوريين المسلمين سنة 1236هـ / 1821م³ هذه المؤسسة التي بدأ تطورها الحقيقي فقط في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أعيد النّظر فيها أثناء

¹ - Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 9.

². وقبل ذلك ثبت خيانة بعض أولئك المترجمين؛ فقد عمل المترجم العثماني اليوناني (Godrika) - وهو المترجم الخاص لأول سفير عثماني دائم بباريس مورالي سيد علي أفندي - لحساب فرنسا وقدم لوزير الخارجية الفرنسي شارل موريس تاليران نسخاً من جميع المراسلات التي أرسلها الباب العالي إلى علي أفندي. ينظر: Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 9.

وفي سنة 1821م عند اندلاع التمرد اليوناني في شبه جزيرة البيلوبونيز جنوب اليونان أعدم قسطنطين موروزي وهو مترجم لدى الديوان الهمايوني الذي صودرت رسائله إلى المتمردين في الاشيا ومولدافيا، وتم إلقاء القبض على مترجمين يونانيين آخرين هما هانسيرليز ميهيلاككي وألكساندر مافروكورداتو وأعدما أيضاً في 16 أبريل 1821م. مما جعل الشك يلقي بظلاله على جميع المترجمين فاستغني عن خدماتهم جميعاً، وأغلق القسم الكبير للمترجمين الفوريين اليونانيين. ينظر:

Ali Akyildiz : Tercüme Odası, Osmanlı Devleti'nde 1821 Rum İsyanı'ndan sonra kurulan ve devletin tercüme işlerini yürüten birim, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 40, İstanbul, 2011, sayfa 504.

³. من أجل القيام بأعمال الترجمة تم إحضار أحد معلمي مدرسة الهندسة بولغاري زاده يحيى أفندي وابنه روح الدين محمد أفندي، لتعليم موظفي ديوان القلم للتعامل مع الوثائق اليونانية والفرنسية، لكن نظراً لقلّة خبرته تم تعيين اليوناني القبرصي ستافراكي أريستارشي وهو يوناني محاميد كمتّرجم فوري وطُلب من يحيى أفندي والموظفين الآخرين الإشراف على ترجمات أريستارشي ومنعه من تعلم أي شيء خارج مهامه، لكن عزل أريستارشي بعدها وتم استبداله بيحيى أفندي الذي عمل على إعطاء دروس في اللغة لتدريب المترجمين الفوريين فأنشئت بذلك غرفة الترجمة. بعد وفاة يحيى أفندي تم تعيين باشوكا إسحاق أفندي عضو مدرسة الهندسة البحرية الهمايونية الذي كان قادراً على التحدث باللغة اليونانية واللاتينية بالإضافة إلى بعض اللغات الأوروبية كمتّرجم فوري، وعيّن خليل إسرار أفندي عضو ديوان القلم الهمايوني مساعداً له، لم يكن باشوكا إسحاق أفندي موفّقاً في عمله، من أجل ذلك قام رئيس الكتاب بيرتيف محمد سعيد باشا بإقالته سنة 1830م وحل محله خليل إسرار أفندي. وهكذا انتهت فترة المترجمين ذوي الأصل الهندسي وبدأ رجال فئة الكتاب من أهل القلم العمل في غرفة الترجمة. ينظر: Loc.cit.

هزيمة الجيوش العثمانية من قبل والي مصر محمد علي باشا في قونية سنة 1248هـ/ 1832م ومعاهدة هنكار إسكله سي (Hünkâr İskeleyi Antlaşması)¹ مع الروس سنة 1249هـ/ 1833م، وبدأت غرفة الترجمة - التي ستعتبر نقطة انطلاق بالنسبة لأولئك الذين سيصعدون إلى وزارة الخارجية، أو حتى إلى الصدارة العظمى في فترة التنظيمات - تكتسب أهمية منذ سنة 1833م².

قرّر محمود الثاني أمام ضغط القضية المصرية وضغط العلاقات الخارجية إحياء السفارة والتنظيمات القنصلية التي تراجعت بعد سليم الثالث؛ فبدأ سنة 1250هـ/ 1834م بإعادة إحياء السفارات الدائمة في العواصم الأوروبية، وهكذا استمر التمثيل الدبلوماسي في الدولة العثمانية إلى الجمهورية التركية ولم ينقطع منذ 1246هـ/ 1830م إلى غاية عصرنا الحاضر³.

زادت أهمية غرفة الترجمة (Tercüme Odası) وأصبحت بمثابة المدرسة الحديثة التي يتخرّج منها الجيل الجديد من فئة الكتاب من أهل القلم؛ كانت الغرفة مؤلفة من مترجم الديوان الهمايوني (Dîvân-ı Hümâyün tercümanı) واثنان من مساعديه، ومع استمرار الأزمة المصرية وزيادة العلاقات الخارجية زادت أهمية الغرفة، فزاد عدد الفريق المدير للغرفة، وحين أعيد العمل بالسفارات الدائمة سنة 1250هـ/ 1834م، وأرسل محمود الثاني سفراء إلى العواصم الأوروبية مثل باريس ولندن وفيينا زوّد تلك السفارات بمترجمين من غرفة الترجمة⁴.

أتيح لخريجي غرفة الترجمة المرافقين للسفارات العثمانية الدائمة الفرصة لتطوير لغتهم وخبراتهم في البلدان التي زاروها وإقامة علاقات مع الدوائر الدبلوماسية، ومع التطورات اللاحقة بدأ عدد الأفراد في الزيادة عندما ازدادت الحاجة إلى الدبلوماسيين الذين يتحدثون اللغات، وأصبح جميع الذين ينتمون إلى وزارة الخارجية لاحقاً من المسلمين⁵، وتظهر وثيقة مؤرخة في 28 ذو الحجة 1256هـ/ 20 فبراير

1. معاهدة هانكار إسكيليسي (8 جويلية 1833) هي تحالف دفاعي مدته ثمان سنوات، تم توقيعه بين الدولة العثمانية وروسيا في قرية هانكار إسكيليسي بالقرب من إستانبول، حيث أصبحت الإمبراطورية العثمانية افتراضياً تحت حماية روسيا في مواجهة الهزيمة على يد المتمرد والي مصر محمد علي باشا، تكمن الأهمية الحقيقية للمعاهدة في بند سري يقصر المساعدات العثمانية لروسيا على إغلاق مضيق الدردنيل في وجه "أي سفن حرب أجنبية" باستثناء سفن روسيا، أثارت المعاهدة شكوك القوى الأخرى خاصة بريطانيا، تخلت روسيا عن امتيازات الدردنيل عندما وقعت اتفاقية لندن للمضائق سنة 1841م. ينظر:

Treaty of Hünkâr İskeleyi Ottoman Empire-Russia [1833],

<https://www.britannica.com/event/Treaty-of-Hunkar-Iskeleyi> .

2 - Carter V. Findley: Op.cit, Sayfa 179.

3 - Loc.cit.

4 - Ali Akyildiz : Op.cit, P504-505.

5. يذكر أن شخصيتين من أبرز شخصيات فئة الكتاب من أهل القلم التي ستدير لاحقاً عهد التنظيمات بجدارة واستحقاق تخرجتا من هذه الغرفة أو المدرسة وهما: محمد أمين عالي باشا وفؤاد باشا (Keçecizâde Fuad Paşa).

1841 أن الغرفة قد اكتمل تطورها بالكامل من حيث الموظفين والتنظيم؛ في ذلك التاريخ كانت الغرفة مكوّنة من ثلاثين شخصاً بمن فيهم مترجم فوري¹.

تمّ في 29 ربيع الآخر 1271هـ/19 يناير 1855 تعيين مسؤول في الغرفة للتواصل مع سفراء الدول الكبرى، وتم إنشاء قسم تابع لغرفة الترجمة باسم تحريرات أجنبية (Tahrîrât-ı Ecnebiyye) لتسهيل ترجمة الوثائق والعثور على الوثائق عند البحث عنها، في 24 ذو الحجة 1272هـ/26 أوت 1856م خضعت غرفة الترجمة لترتيب شامل، وتم تحويل الغرفة إلى مدرسة لغات كاملة، وتم تفصيل قواعد الحضور، ولأول مرة تم فتح فصل اللغة الإنجليزية بالإضافة إلى أربعة فصول للتدريس باللغة الفرنسية، خلال هذه الفترة كانت الفرنسية عادة هي لغة الدبلوماسية والمراسلات الدولية².

تدرّس في الفصول الفرنسية قواعد اللغة الفرنسية والجغرافيا والتاريخ وحساب النفاضل والتكامل وما إلى ذلك، وفي فصل اللغة الإنجليزية تقدّم دروس الترجمة والمحادثة، دخلت اللغة الإنجليزية لمنهج غرفة الترجمة بسبب موقع المملكة المتحدة النشط في السياسة العالمية خلال هذه الفترة، في 15 شوال 1273هـ/8 جوان 1857م تم قبول مترجمين باللغة الإنجليزية في الغرفة، بعد سنة 1302هـ/1885م ضمّت الغرفة تحت إشراف مترجم الديوان الهمايوني مترجمي اللغات العربية والألمانية والروسية والصربية والبلاغرية، وهكذا ظلّت الغرفة تعمل حتى انهيار الدولة العثمانية³.

قدّم محمود الثاني إصلاحات أكثر أهمية في السنوات الأخيرة من حكمه كما سبق أن رأينا؛ فقد أعطى رئيس الكتاب لقب "وزير الشؤون الخارجية"، وأجرى تغييرات تنظيمية وأنشأ وزارة الشؤون الخارجية سنة 1252هـ/1836م، في الوقت نفسه تحول منصب نيابة الصدر الأعظم إلى وزارة الداخلية، ثم في سنة 1254هـ/1838م قام السلطان الذي أسس وزارة المالية (Maliye Nezâreti) بتحويل منصب الصدر الأعظم إلى رئيس الوزراء (başvekil)، كان هدفه تعزيز مركزه وجمع السلطة في يده، لكن خليفته عبد المجيد الأوّل (1255 - 1277هـ/1839 - 1861م) الذي لم يكن لديه مثل هذا الهدف السياسي، أعاد سنة 1255هـ/1839م منصب الصدر الأعظم، وكان أول رجل دولة ورئيس كتاب يحمل لقب وزير الخارجية هو محمد عاكف باشا⁴.

¹ - Ali Akyildiz: Op.cit, P 505.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

⁴ محمد عاكف باشا: من أكابر فئة الكتاب من أهل القلم، التحق بقلم الديوان الهمايوني بمساعدة عمه رئيس الكتاب مصطفى مظهر أفندي سنة 1814. ترقى في سلك فئة الكتاب حتى عين سنة 1832م رئيساً للكتاب. عندما تم تغيير اسم

السفراء من فئة الكتاب من أهل القلم

بعد هذه الجولة المختصرة حول تاريخ نظام السفارة وتطور جهازها جهاز الشؤون الخارجية نعطي صورة موجزة أيضا للسفراء العثمانيين قبل السفارات الدائمة وبعدها، وما خلفوه لنا من مذكرات سفاراتهم المسماة السفارات ناميه (Sefâretnâme)¹، مع التركيز هنا دائما على الفترة المحددة من بعد اتفاقية كارلوفيتز إلى سنة صدور الدستور العثماني سنة 1293هـ/1876م، إذ أنّها الفترة التي شهدت انفتاحا جديدا على أوروبا جديدة، والتي لعبت فيها تقارير السفراء ومذكراتهم دورا أساسيا في نقل صورة أوروبا إلى النخبة العثمانية.

بنظرة إحصائية² نجد أنّ عدد السفارات والسفراء من سنة 1115هـ/1703م إلى سنة 1293هـ/1876م قرابة 173 سنة هو 113 سفارة أو بعثة دبلوماسية، وعدد السفراء هو 80 سفيرا بعضهم ترأس أكثر من بعثة، وعدد السفراء من فئة الكتاب من أهل القلم من بين السفراء الثمانين هو 59 سفيرا، أي أكثر من نصف السفراء هم من تلك الفئة. وقد شملت فترة البحث أعلاه 13 سلطانا من السلطان مصطفى الثاني (1106-1115هـ/1695-1703م) إلى السلطان

رئيس الكتاب إلى وزير الشؤون الخارجية (Umur-â Hâriciyye Nezâreti) أصبح أول وزير للشؤون الخارجية سنة 1835م عزل ونفي سنة 1840م، وعفي عنه سنة 1842م. حج سنة 1844م وتوفي لدى عودته من الإسكندرية. ينظر: Abdullah Uçman: *Âkif Paşa (1787-1845), Türk devlet adamı, şair ve münşî*, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 2, İstanbul, 1989, sayfa 261-262.

¹ سفارات ناميه مؤلفة من قسمين: سفارات وأصلها من كلمة السفر العربية، وتأخذ أيضا معنى "زيارة دبلوماسية" ومن الكلمة الفارسية "ناميه" التي تعني "رسالة" أو "كتاب" أو "كاتب" أو "كتيب" أو "دليل". السفارات ناميه هي مذكرات الرحلة أو البعثة الدبلوماسية التي اعتاد السفراء على كتابتها - غير تقاريرهم الرسمية التي يرفعونها للسلطان - أثناء أو أبعد بعثاتهم الدبلوماسية. ينظر:

Azmi Süslü: Op.cit, P236.

² ينظر (الملحق 21) و (الملحق 25)، ص 627، 631؛ تمّ استخلاص تلك الإحصائيات من الفهرس العام للسفراء من وإلى الإمبراطورية العثمانية (The General Index of the Ambassadors to and from the Ottoman Empire) الذي أعدته المؤسسة العلمية البحثية النمساوية (Don Juan Archiv Wien). ونشرته عبر موقعها على شبكة الأنترنت، ويعدّ فهرسها أشمل فهرس عام للسفراء من وإلى الإمبراطورية العثمانية (83 صفحة)؛ كما تمّ الاسترشاد بالجدول الذي أعدته الباحثة الأكاديمية النمساوية الدكتورة سونا سونر (Suna Suner) لصالح مؤسسة (Don Juan Archiv Wien) وعنوانه ب: سجل ونظرة عامة على السفارات ناميه (مذكرات السفراء) وسفراء القرن الثامن عشر العثمانيين (1700-1800). (A Register and Overview of Sefâretnâmes and Eighteenth Century Ottoman Envoys & Ambassadors (1700-1800)). ينظر:

- <https://db.donjuanarchiv.at/pub/DJA/BOT.pdf>

- <https://db.donjuanarchiv.at/pub/DJA/Sefaretnames.pdf>

وتمّ الرجوع للموسوعة الإسلامية التركية وكذا لدائرة المعارف الإسلامية البريطانية لمعرفة تراجم السفراء لتحديد من ينتمي منهم لأهل القلم وقد أخذ مني ذلك وقتا ليس بالقليل.

عبد الحميد الثاني (1293-1327هـ/ 1876 - 1909م).

نجد إذاً حللنا إحصائياً عدد البعثات والسفراء عبر 13 سلطاناً أنّ أكثر البعثات كان على الترتيب: عهد السلطان سليم الثالث (1203-1222هـ/ 1789-1807م) 21 سفارة قادها 15 سفيراً، 13 منهم من فئة الكتاب، وكانت وجهات السفارات كالآتي: (8 فرنسا، 5 بروسيا 4 النمسا، 3 بريطانيا، 1 روسيا)، ويليه في المرتبة الثانية السلطان أحمد الثالث (1115هـ - 1143هـ/ 1703 - 1730م) 19 سفارة قادها 12 سفيراً، 9 منهم من فئة الكتاب، وتبدو تلك الإحصائيات منسجمة مع العهدين.

يؤكد المؤرخون أنّ سليم الثالث هو أهم سلطان مصلح في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وكانت عنده قناعة عميقة حتى قبل توليه العرش بأنّ الإصلاح العثماني بات ضرورة حتمية وأنّ بوصلة هذا الإصلاح باتجاه الغرب لا الشرق، ومراسلاته المبكرة مع ملك فرنسا لويس السادس عشر تقوم شاهدة على ذلك، فمن الطبيعي أن تكثر السفارات في عهده، ويلاحظ أنّ أغلب السفارات توجهت لفرنسا، رغم أن الثورة الفرنسية مثّلت صدمة لسليم الثالث كونها أنهت حياة صديقه لويس السادس عشر، إلى جانب أنّه صاحب ابتكار السفارات الدائمة.

نعلم أيضاً أنّ عهد السلطان أحمد الثالث هو عهده التوليب الذي انفتحت فيه نافذة هبّت منها رياح الغرب على وجه الشرق العثماني، فمن الطبيعي إذاً أن تكثر السفارات في عهده والملاحظ في التسعة عشر سفارة التي كانت في عهد أحمد الثالث أنّ أكثر من نصفها؛ 10 سفارات كانت في عهد الصدر الأعظم نوشهري دمادا إبراهيم باشا مفتتح عهد التوليب، وكانت وجهاتها على الترتيب: (5 النمسا، 4 روسيا، 3 البندقية، 3 السويد، 2 بولندا، 2 فرنسا). بينما كانت وجهة السفارات العشر زمن نوشهري إبراهيم باشا هي على الترتيب: (4 روسيا، 2 البندقية 1 السويد، 1 بولندا، 1 فرنسا، 1 النمسا)، ومن الطبيعي أن تكون النمسا وروسيا هي الوجهة المفضلة على عهد أحمد الثالث، فقد سحق العثمانيون على أيديهما ومعهما تمّ توقيع معاهدة كارلوفيتز الشهيرة وكان تراجع عدد السفارات بعد ذلك مردّه إلى استقرار السفارات الدائمة أو إلى انشغال الدولة بحروبها سيما مع النمسا وروسيا، أو بسبب الصراع بين التيار المحافظ والتيار الإصلاحية.

كان نوشهري دمادا إبراهيم باشا أول صدر عثماني لم ير بأساً في أن يجعل استكشاف أوروبا محورا للسياسة الخارجية العثمانية؛ بناء عليه كانت له اتصالات منتظمة كما رأينا سابقاً مع السفراء الأوروبيين بإستانبول، وبدأ ولأوّل مرّة بإرسال سفراء عثمانيين إلى الخارج، إلى باريس وفيينا والسويد

ليس فقط للتوقيع على الاتفاقيات الدبلوماسية أو بناء تحالفات عسكرية أو توقيع معاهدات ولكن أيضا لمعرفة مفاتيح التطور الأوروبي خاصة العسكري، فأرسل السفراء إلى أوروبا¹ وطالبهم بأن يرفعوا إليه تقارير سفارتهم، فشكّلت خطوته هذه أول اختراق في الستار الحديدي العثماني، وأول نافذة يطلّ منها العثمانيون على أوروبا الجديدة، تنازلا لحقيقة أن العثمانيين لم يعد بإمكانهم تجاهل التطورات الداخلية التي تحدث في أوروبا.

بدأ الاتجاه الإصلاحية منذ زمن إبراهيم باشا نوشهرلي ييتمّ وجهه باتجاه أوروبا بشكل نهائي ومستمر على الرغم من النكسات المؤقتة، وأصبح الإصلاح على النمط الأوروبي يحظى بالاهتمام المستمر أيضا عند أعلى المستويات الحكومية، والذي يمكن أن يفسّر استمرارية السياسة العثمانية بإرسال السفراء إلى أوروبا بشكل دوري مع تعليمات دقيقة لرفع تقارير عن آخر التطورات الأوروبية على جميع المستويات؛ الحكومية والاجتماعية والاقتصادية، وفي مجال الفنون والحرف اليدوية؛ فبين سنة 1132هـ/1720م ونهاية سنة 1254هـ/1838م بالضبط قُدِّمت هذه التقارير حول حالة الشؤون الأوروبية إلى الباب العالي، على الرغم من العديد من الاحتجاجات المضادة للإصلاح التي وقعت في الفترة نفسها²، مما يدل على رغبة أكيدة في إعادة استكشاف أوروبا رغم كل الصعوبات.

خلال الفترة من سنة 1115هـ/1703م إلى سنة 1293هـ/1876م أي قرابة 173 سنة أوفد العثمانيون سفارات وبعثات دبلوماسية إلى 16 كيان سياسي ما بين إمبراطورية ومملكة وجمهورية وهي على الترتيب: جمهورية البندقية 1700م، الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا) 1703م فرنسا 1707م، السويد 1709م، بولندا 1719م، روسيا 1722م، الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا) 1763م، نابولي (إيطاليا) 1740م، المجر 1748م، إسبانيا 1783م، بريطانيا 1793م اليونان 1840م، هولند 1854م، بلجيكا 1857م، مملكة سردينيا 1857م، الإمبراطورية النمساوية المجرية 1870م³.

عدد البعثات والسفارات الدبلوماسية لتلك الكيانات السياسية هو بالترتيب كالآتي: روسيا 20 سفارة، الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا) 20 سفارة، فرنسا 15 سفارة، النمسا 14 سفارة

¹ . وهكذا ذهب يرميسيكيز جلي محمد أفندي إلى باريس (1720-1721) وسلحدار إبراهيم باشا إلى فيينا (1719م) وكابيجياشي نشلي محمد أفندي إلى موسكو (1722-1723م) و مصطفى آغا كوزبكي إلى السويد (1727م). ينظر: (الملحق 25)، ص 631.

² - Şerif Mardin: Op.cit, P142.

³ . ينظر: (الملحق 25)، ص 631.

بولندا 9 سفارات، الإمبراطورية النمساوية المجرية 7 سفارات، جمهورية البندقية 6 سفارات السويد 5 سفارات، الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا) 5 سفارات، المجر 3 سفارات، إسبانيا سفارتان اليونان سفارتان، وسفارة واحدة لكل من: نابولي (إيطاليا)، بريطانيا، هولندا، بلجيكا مملكة سردينيا وبما أنّ المعوّل عليه هو إعطاء نظرة موجزة عن السفارات العثمانية سنتناول بشيء من التفصيل عن سبع وجهات أوروبية هي بحسب عددها وأهميّة الدوّلة في زمانها: روسيا، الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فرنسا، النمسا، بروسيا، إسبانيا، وبريطانيا.

نعلم أنّ علاقة الدولة العثمانية بهذه الكيانات السبع قديمة، وتعتبر روسيا في هذا السياق الأقدم من بينهم في الاتصال الدبلوماسي بالعثمانيين؛ إذ يؤرّخ فون هامر أوّل مبعوث روسي للعثمانيين بسنة 900هـ/1495م، بينما يؤرّخ أوّل مبعوث عثماني إلى روسيا سنة 927هـ/1521م¹، كما يؤرّخ أوّل مبعوث نمساوي (الإمبراطورية الرومانية المقدّسة) إلى العثمانيين سنة 926هـ/1520م، وأوّل مبعوث عثماني إلى النمسا سنة 942هـ/1535م²، وأوّل مبعوث بروسي (الإمبراطورية الرومانية المقدّسة) إلى العثمانيين يؤرّخ بسنة 951هـ/1544م، وأوّل مبعوث عثماني إلى بروسيا يؤرّخ بسنة 1177هـ/1763م³، وأوّل مبعوث فرنسي إلى العثمانيين مؤرّخ بسنة 941هـ/1534م، رغم أنّ قنصل البندقية أشار إلى وصول مبعوث فرنسي إلى البوسنة سنة 931هـ/1525م، وأوّل مبعوث عثماني لفرنسا يؤرّخ له بسنة 977هـ/1569م⁴، وأوّل مبعوث إسباني للباب العالي كان سنة

¹ - Hammer: Op.cit, P151, 164.

أرسل القيصر الروسي إيفان الثالث النقيب ميشال بلاستشيف (Michel Plestcheieff) إلى بلاط بايزيد الثاني. وأرسل السلطان سليمان القانوني إسكندر باي إلى القيصر فاسيلي الثالث إيفانوفيتش (Vasili III Ivanovich) ابن إيفان الثالث.

² - Ibid, P135, 158.

أرسل فرديناند الأول إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة لاحقا كل من جيو هوبوردنسكي (Jean Hobordnsky) وسيجموند ويكسلبارغ (Sigismond Weixelberger) إلى السلطان سليم الأوّل، وأرسل سليمان القانوني ميميش تشاوشي إلى فرديناند الأوّل.

³ - Ibid, P150, 164.

من المفترض أن ألبرشت بروسيا (Albrecht von Preußen) أوّل دوق لبروسيا سنة 1525م هو من أرسل مبعوثه (Hauden) إلى سليمان القانوني من أجل عقد اتفاقية صداقة، على أساس أنّ بروسيا تبنت البروتستانتية رغم كونها داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدّسة الكاثوليكية.

⁴ - Ibid, P140, 160.

على أساس أن سليمان القانوني كان من وراء تحرير ملك فرنسا فرانسوا الأوّل من سجن إمبراطور هابسبورغ بمدريد سنة 1525م فقد قامت علاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، على إثرها كان المبعوث الفرنسي الأوّل إلى الدولة العثمانية سنة 1534م، وربما قبله سنة 1525م. وأوّل مبعوث عثماني إلى فرنسا كان سنة 1569م حيث أرسل مترجم القصر محمود باي سفير سليم الثاني إلى ملك فرنسا شارل التاسع (Charles IX).

971هـ/1564م. وأول مبعوث عثماني إلى إسبانيا يؤرّخ له بسنة 1059هـ/1649م¹، وأول مبعوث إنجليزي إلى العثمانيين كان سنة 989هـ/1581م. وأول مبعوث عثماني إلى إنجلترا يؤرّخ له بسنة 1028هـ/1619م².

أرسلت أول سفارة لروسيا في فترة البحث ما بعد كارلوفيتز سنة 1134هـ/1722م؛ حيث أرسل السلطان أحمد الثالث كاييجياشي نشلي محمد أفندي³ إلى القيصر بطرس الأكبر (ت1725) لنقل احتجاج السلطان من بعض الأنشطة الروسية العدائية التي تهدد السلام بين الدولتين. كتب نشلي محمد أفندي خلال سفارته الروسية (1134-1135هـ/1722-1723م) تلك سفارت نامه روسيا (Rusya Sefaretnamesi) قسّمها لأربعة أقسام: القسم الأول حوى شرحا لمهمته الدبلوماسية، في القسم الثاني بعد المغادرة من إستانبول يقدّم معلومات حول القلاع والمدن التي مرّ بها ويتم نقل الأحداث والمتاعب والأماكن التي شوهدت خلال الرحلة إلى موسكو بطريقة صادقة وساخرة وصولا إلى تفاصيل دخول بعثته إلى موسكو⁴. في القسم الثالث من السفارت نامه يذكر الأحداث التي وقعت في موسكو؛ المراسيم المفاوضات

¹ - Ibid, P140, 160.

في سنة 1564م رجل من جزيرة خيوس (Khíos) - جزيرة يونانية في شمال بحر إيجه قبالة السواحل التركية القريبة من إزمير - يدعى فرانشي (Franchi) تفاوض مع الباب العالي لعقد معاهدة لصالح إسبانيا، وأول مبعوث عثماني إلى إسبانيا هو تشاويش أحمد سنة 1649م لإعلان اعتلاء محمد الرابع العرش.

² - Ibid, P134, 158.

سنة 1581م افتتح التاجر والدبلوماسي سفير إليزابيث الأولى وليام هاربورن أول مفاوضات مع الباب العالي في عهد السلطان مراد الثالث، وأول مبعوث عثماني إلى إنجلترا هو حسين تشاوشي سنة 1619م للإبلاغ عن اعتلاء عثمان الثاني العرش.

³. بناء على مشروع المؤرخين العثمانيين (Osmanlı Tarihçileri Projesi) - الذي أطلقه في خريف سنة 2003م مركز دراسات الشرق الأوسط (Center for Studies on the Middle East) (CMES) بجامعة هارفارد (Harvard) أمريكا - فإنّ المعلومات حول حياة نشلي محمد أفندي محدودة للغاية، وعلى الرغم من أن تاريخ الميلاد غير معروف إلا أنه من المفهوم أن مكان الميلاد هو مدينة نيش (Niš) جنوب صربيا، يذكر المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية وشيخ الإسلام جلي زاد قاسم أفندي (ت 1760) أن نشلي محمد أفندي تم إرساله كوزير مفوض (orta elçi) لتوصيل رسالة من السلطان أحمد الثالث إلى روسيا حول بعض الأنشطة العدائية الروسية. وفقا لبعض المصادر فإنّ نشلي بعد سفارته خدم في عدّة مناصب حكومية ثم عزل ونفي إلى مدينة قسطنطيني (Qastamonu) حيث قضى بها خمس سنوات ابتداء من سنة 1725م، بعد تمرد باترونا خليل سنة 1730م أطلق سراحه وعيّن في بعض المناصب الثانوية. ينظر:

Aydın Mertayak: **Nişli Mehmed Aga**, Osmanlı Tarihçileri Projesi, Center for Studies on the Middle East, Harvard University, University of Chicago, USA, Ağustos 2008,

<https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/nisli-mehmed-aga> .

⁴ - Aydın Mertayak: Op.cit, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/nisli-mehmed-aga> .

الحفلات التي أقيمت على شرفه، زيارات مجاملة وعن تقديمه للرسالة السلطانية ورسالة الصدر الأعظم كما ذكر فيها مناقشات السفراء الأجانب مع الروس، وذكر بعض ما يتعلق بالحياة الخاصة للقيصر بطرس الأكبر، يجتم حديثه في القسم الرابع بمراسيم رجوع بعثته ويضمّنه بعض الأمور المثيرة للاهتمام؛ يلاحظ أن السفير الروسي ذكر أنّ فرنسا وإسبانيا ستتحدان وتشنان حرباً ضد النمسا، الأمر الذي سيكون بمثابة تطور مهم لمصالح روسيا، كما يذكر بالتفصيل العروض العسكرية لجيش القيصر، ومآدبه الرسمية¹.

يوجد سفير ثاني من فئة الكتاب هو شهدي عثمان أفندي² توّرخ سفارته (1171-1172هـ/1757-1758م) وكانت مهمّته الأساسية في هذه السفارة هي إعلام إمبراطورة روسيا إليزابيث بخبر تولّي السلطان مصطفى الثالث عرش الدولة العثمانية، وقد ترك لنا شهدي عثمان أفندي مذكرات سفارته (Sefaretname-i Rusya) التي أطلع النخبة العثمانية من خلالها على واقع روسيا. تعد سفارت نامه شهدي أفندي الأثر الوحيد المكتوب له، كتبها خلال سفارته الروسية في 1 ربيع الثاني 1171هـ - 20 ربيع الثاني 1172هـ / 13 ديسمبر 1757م - 20 ديسمبر 1758م، وقسمّ السفارت نامه إلى أربعة أقسام: القسم الأول خاص بالدعاء وطلب العون من الله ويصف في القسم الثاني رحلته من إستانبول إلى سان بطرسبرغ، ويتضمّن القسم الثالث التّطوّرات الدبلوماسية والسياسية خلال إقامة السفير في سان بطرسبرغ كما تطرّق إلى المناقشات حول الأسرى الأتراك في روسيا، ويصف في القسم الرابع رحلة العودة من سان بطرسبرغ إلى إستانبول³.

¹ - Loc.cit.

² . من خلال السفارت نامه التي كتبها خلال (1757-1758) وجاءت فيها العبارة التالية: " لا يمكنني هدم خمسين عاما من عبادتي" فلا بدّ أن عثمان شهدي أفندي وُلد في نهاية القرن السابع عشر، ويكون حين كتابته لتلك الجملة في الستينات من عمره. وفقاً للسفارت نامه تم إرساله إلى روسيا سنة 1757م للإعلان عن جلوس مصطفى الثالث على العرش (1757-1774). وقد كانت هذه رحلته الثانية إلى روسيا؛ فقد ذهب سنة 1730م ككاتب في بعثة أمين محمد باي (ت1750م) للإعلان عن اعتلاء محمود الأول العرش (1730-1754م). ذكر المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية سيد محمد حكيم (ت1771 أو 1772م) الذي قدّم بعض المعلومات عن عثمان في كتابه وقائع نامه (Veqayiname) أنّه شغل منصباً مهماً من مناصب فئة الكتاب من أهل القلم وهو (zümre-i hacedan-ı divaniden) تحت إشراف أمين محمد باي، وذكر المؤرخ واصيف أفندي (ت 1807م) أنّه شغل منصب (çavuşlar kâtibi). في سنة 1769م أصبح كبير المحاسبين (baş muhasebeci). توفي سنة 1769م. ينظر:

Türkan Polatçı: **Şehdi Osman**, Osmanlı Tarihçileri Projesi, Center for Studies on the Middle East, Harvard University, University of Chicago, USA, Ağustos 2008, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/sehdi-osman> .

³ - Türkan Polatçı: Op.cit, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/sehdi-osman> .

وصف بدقة ما شاهده من قلاع بنيت حديثا وغيرها من المشاهد التي مرّ بها خلال سفارته تلك وقد عبّر خلال رحلته على كل من رومانيا ومولدافيا وعبر نهر الدانوب الذي كان متجمّدا بسبب الشتاء إلى بولندا وأوكرانيا وأعطى تفاصيل أكثر من غيره عن العاصمة الروسية والقلاع الجديدة التي أنشئت بها، ووفقًا للتعليمات التي كلفته بها إستانبول قام شهدي أفندي - الذي كان يحاول العثور على الأسرى المسلمين بروسيا ويعمل على إطلاق سراحهم - بحماية فتاة تركية أتاحت لها الفرصة لمقابلته في ملابس رجاليّة، وعلى الرغم من كل اعتراضات الروس لم يسلمها لهم وأرسلها لبلادها، في وقت لاحق لجأ إليه أيضا سجين تركي ووضعه تحت حمايته غير مكترث بالاعتراضات الروسية ووصل إلى سان بطرسبورغ عبر موسكو¹.

عيّن له مترجم فوري يوناني الأصل من قبل الروس يدعى كوستانتين (Kostantin)، في اليوم التالي نقل له مسؤول البروتوكولات (Mihmandar) المراسيم التي عليه اتّباعها؛ ووفقا للبروتوكول سيتم إرسال السفير والوفد المرافق له إلى روسيا في زيارة ترحيبية، لم يكن شهدي أفندي راضيا عن بعض المراسيم التي رأى فيها نوعا من الإذلال وأعرب عن استيائه، وبعد مفاوضات طويلة يبدو أن النزاع قد تم حله، بعدها يصف شهدي أفندي دخوله إلى بطرس برغ وما رافقه من مراسيم والحفل الذي نظّم له في 4 ذو قعدة 1171هـ / 10 جويلية 1758م، وقد التقى شهدي أفندي الإمبراطورة إليزابيث وبعد ذلك أقيمت وليمة على شرف السفير في القصر حيث يصف الموسيقى والرقص والصّخب الذي بدى له غريبا، كما شاهد سكان القصر الروسي طعام السفير العثماني وجناحه².

أتيح له زيارة حدائق القصر، وشاهد عروض مسرحية وموسيقية فرنسية، كما زار أحواض بناء السفن والقلاع، كما زار متحف الدولة ببطرسبرغ إلى جانب المطبعة، في 16 ذو الحجة 1171هـ / 21 أوت 1758م حظي بزيارة وداع للإمبراطورة إليزابيث التي سلّمتها في مظاهر احتفالية رسالة إلى السلطان مصطفى الثالث، عاد إلى إستانبول في 20 ربيع الثاني 1172هـ / 20 ديسمبر 1758م³. فيما يتعلّق بالإمبراطورية الرومانية المقدسة⁴ فقد حافظ الباب العالي على علاقته بفيينا بشكل

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

⁴ . الإمبراطورية الرومانية المقدّسة (Sacrum Romanum Imperium) شهدت فترتين: الفترة الأولى عندما توجّ البابا ليو الثالث شارلمان بوصفه إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدّسة في 25 ديسمبر 800م، تاريخيا يمكن القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدّسة الأولى انتهت مع وفاة الإمبراطور الروماني المقدس شارل البدين في 888م، على الرغم من أنّ بعض الكاروللينجيين نجح في كسب التاج الإمبراطوري في أوقات لاحقة. الفترة الثانية: تأسّست الإمبراطورية الرومانية المقدّسة في القرن العاشر =

مكتّف؛ تم إرسال سبعة مبعوثين إلى فيينا - أكثر من أي وجهة أوروبية أخرى - بعد معاهدة بلغراد سنة 1152هـ/1739م حتى نهاية القرن الثامن عشر، إلى أن تمّ تعيين أول سفارة دائمة بها سنة 1212هـ/1797م، تؤرّخ أوّل بعثة عثمانية إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة في فترة البحث بسنة 1115هـ/1703م، وستناول أكثرها تأثيرا وأقربها إلى ذلك التاريخ بعثة مصطفى خطّي أفندي¹ الذي أرسل إلى فيينا سنة 1161هـ/1748م.

كان العمل الوحيد لمصطفى خطّي هو السفارت نامه الذي كتبه خلال سفارة فيينا بين محرم 1161هـ/يناير 1748 ومحرم 1162هـ/يناير 1749، يصف مصطفى خطّي بالتفصيل في السفارت نامه الأحداث التي مر بها وشاهدها من إستانبول إلى فيينا، يتكون عمله أيضا من أربعة أجزاء؛ في الجزء الأول بعد معاهدة السلام في بلغراد سنة 1152هـ/1739م وبعد وفاة شارل السادس (Charles VI)² 1153هـ/1740م يصف الصراعات الداخلية (حرب الوراثة النمساوية) بالنمسا والأسباب التي تجعل هذه السفارة ضرورية ومهمّة³.

الميلادي مع عائلة توتو وبقيت حتى سنة 1806م وبعدها ظهرت القيصريّة الألمانية والنمساوية. ينظر: نصري ذياب خاطر: تاريخ أوروبا الحديث ط1، الجنادرية للنشر والتوزيع، الأردن 2011، ص29، بتصرّف.

¹ . مصطفى خطّي أفندي: من فئة الكتاب من أهل القلم، على الرغم من أن تاريخ ميلاده غير معروف بدقة إلا أنه ربما ولد في أوائل سنة 1680م، يعرف بكنيته "خطّي"، نشأ في مهنة فئة الكتاب، وبدأ حياته المهنية كاتباً بديوان والي الرقة، شغل عدّة مناصب، وحين تولى منصب (nişancı) أرسل في سفارة إلى النمسا سنة 1748م وزياراً مفوضاً (orta elçi)، ثم تولى مناصب عدة حتى تولى سنة 1756 منصباً في دائرة المالية وعزل سنة 1757م بسبب إصابته بالشلل وتوفي في 1760 أو 1761م. ينظر:

A. İbrahim Savaş: **Mustafa Hatti**, Osmanlı Tarihçileri Projesi, Center for Studies on the Middle East, Harvard University, University of Chicago, USA, Ağustos 2005, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/mustafa-hatti> .

² . شارل السادس (1685-1740م): رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1711-1740م). أدت مطالبته بعرش إسبانيا إلى توريط الإمبراطورية في حرب الوراثة الإسبانية (1701-1714م). عمل على ضمان ارتقاء ابنته ماريا تيريزا عرش النمسا من بعده، فتسبب في نشوب حرب الوراثة النمساوية (1740-1748م). ينظر: البعلبكي: المرجع السابق ص255.

³ - A. İbrahim Savaş: Op.cit, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/mustafa-hatti> كان السبب وراء رحلة المبعوث في المقام الأول هو تأكيد معاهدة سلام بلغراد (العثمانية النمساوية) سنة 1739م، مع الإمبراطور الروماني المقدسة الجديد فرانسيس ستيفن الأول (Francis Stephen I) (حكم 1745-1765م). إلى جانب نقل تمثنة السلطان بتتويج فرانسيس كإمبراطور 1745م، وكذا زوجته ماريا تيريزيا (Maria Theresia) المتوجة ملكة لهنغاريا سنة 1741م، وكذا تحسين العلاقات التجارية بين البلدين. ينظر:

Frank Huss (Vienna): "Auf türkische Art prächtig aufgeputzt" — The visit to Vienna by the extraordinary Ottoman Envoy, Chaddi Mustafa Effendi, in the year 1748, Don Juan Archiv Wien International Symposium: OTTOMAN EMPIRE & EUROPEAN THEATRE I, I. W.A.Mozart & Sultan Selim III: Op.cit. <http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2008/symposia-full-programm.html> .

يصف في هذا القسم بالتفصيل المراسيم التي سبقت رحلته من إستانبول؛ البروتوكول المتبع في تسلّمه من الصدر الأعظم الرسالة الهمايونية التي ستسلّم للإمبراطور فرانسيس الأول (Francis I) وزوجته الإمبراطورة ماريا تيريزا (Maria Theresa)¹ ومراسم تسلّم الهدايا الهمايونية التي يحملها وفد السفارة معه، ثم يصف طريقه مع الوفد المرافق² إلى فيينا، حيث يصف المدن والقرى ويذكر بعض الأحداث التاريخية³.

يبدأ الجزء الثاني برواية رحلته تفصيلاً من مغادرته إستانبول إلى دخول وفد السفارة إلى فيينا ويذكر كيف أنّه قبل دخول وفد السفارة إلى فيينا جاء الإمبراطور والإمبراطورة إلى مكان قريب من وفد السفارة حيث تناولوا العشاء، والجزء الثالث مكرّس لتقديم الهدايا والرسالة الهمايونية، ويناقش هذا الجزء أيضاً بتعمق محادثات السفير مع الإمبراطور والإمبراطورة النمساوية، يصف الأعياد والمراسيم وحفلات الأوبرا التي دعي لها⁴، ودعوته لمشاهدة كسوف الشمس، وزيارته للمرصد والوسائل المختلفة التي يضمّها⁵

1. فرانسيس الأول (1708-1765م) رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1745-1765م). تزوّج ماريا تيريزا سنة 1736م. حجبته زوجته بشخصيتها القوية ومن أجل ذلك كان أثره في سياسة الدولة ضئيلاً. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق ص321. ماريا تيريزا (1717-1780م): أرشيدوقة النمسا، وملكة هينغاريا وبوهيميا. زوجة الإمبراطور فرنسيس الأول، رقيت عرش آل هابسبورغ بعد وفاة أبيها شارل السادس (1740م) فنشبت بسبب ذلك حرب الوراثة النمساوية. ينظر: المرجع نفسه، ص407. 2. تألف وفد السفارة العثمانية من حوالي مائة شخص، بما في ذلك عازفي الأبواق، قيّم الإسطنبول وسائس الخيل، الإمام وديوان أفندي، بالإضافة إلى ما يقرب من الخمسين من الخيول والعربات الثمينة، كلها مكسيّة باللون الأحمر. ينظر:

Frank Huss (Vienna): Op.cit,

<http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2008/symposia-full-programm.html> .

3 - A. İbrahim Savaş: Op.cit, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/mustafa-hatti>

4. مما قاله في السفارت نامه وصف لحفلات الأوبرا التي حضرها: "لديهم في بلادهم بعض الألعاب المعروفة باسم الأوبرا "أو" الكوميديا" وأماكن لمشاهدتها مكوّنة من أربعة إلى خمسة طوابق حيث يجتمعون فيها بعد الظهر وبحضور الإمبراطور والإمبراطورة في غرفة خاصة، هناك تقدّم الفتيات النمساويات والشبان وهم يرتدون الملابس المذهبة والمتعددة الألوان، عروض راقصة، بحركات غريبة وقد يقدّمون قصصاً تاريخية عن الحب والصداقة مثل رواية ألكساندر". ينظر:

Stéphane Yerasimos : **Explorateurs de la modernité. Les ambassadeurs ottomans en Europe**, Genèses, 35, France, 1999. P74.

5. يصف خطي بعض العجائب التقنية التي رآها بالمرصد فقال: واحدة من الحيل التي اختبرناها كانت على النحو التالي: كانت هناك غرفتان متجاورتان. في واحدة منها كانت هناك عجلة وعلى تلك العجلة كرتان كبيرتان من الكريستال. إلى هذه كانت تعلق اسطوانة جوفاء أضيق من القصب تمرّ بها سلسلة طويلة إلى الغرفة الأخرى. عندما انقلبت العجلة هبت ريح حارة عبر السلسلة إلى الغرفة الأخرى، حيث ارتفعت من الأرض، وإذا لمسها أي رجل ضربت تلك الريح إصبعه وقلصت جسده بالكامل. الأمر الأكثر روعة هو أنه إذا كان الرجل الذي لمستته أمسك رجلاً آخر بيده وأمسك هذا بدوره رجلاً آخر وهكذا حتى عشرين أو ثلاثين رجلاً فسيشعر كل منهم بالصدمة نفسها التي شعر بها الرجل الأول. لقد جربت ذلك بنفسي. ولأن كل شيء مجرد لعبة لم نجد أنه من المفيد البحث عن مزيد من المعلومات حول هذا الموضوع. ينظر =

إلى جانب مؤسسات وشخصيات مختلفة¹، وعند زيارة القصر الصيفي للإمبراطور (Schönbrunn sarayını) يصف علاقة الإمبراطورة ماريا تيريزيا بأطفالها الصغار يصف في الجزء الرابع والأخير استعدادات العودة والهدايا الإمبراطورية التي ستقدم للسلطان والصدر الأعظم²

حدث أول تفاعل بين الدولة العثمانية وبروسيا في سنة 1113هـ/1701م عندما أرسل العثمانيون بعثة من خمسة عشر شخصاً للاحتفال بتتويج فريدريك الأول³ ملكا على بروسيا ومنذ ذلك الحين تطورت العلاقات بين الدولتين ببطء حتى واجهت كلاهما مشاكل مع روسيا في نهاية القرن الثامن عشر، ساعدت بروسيا العثمانيين بشكل فعال في مفاوضات السلام التي أنهت الحرب العثمانية الروسية في الفترة 1182-1188هـ/1768-1774م، وتبع ذلك إبرام تحالف دفاعي بين بروسيا والدولة العثمانية سنة 1204هـ/1790م عندما كان العثمانيون يقاتلون ضد كل من النمسا وروسيا، ونتيجة لذلك التحالف انسحبت النمسا والمجر من الحرب سنة 1205هـ/1791م، وبعد فترة وجيزة وقّع العثمانيون والروس على معاهدة جاسي سنة 1206هـ/1792م، وحين أنشأ سليم الثالث سفارات

Bernard Lewis: **What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response**, Oxford University Press, Oxford, New York, USA, 2002, P63.

¹. كانت له مقابلة مع رئيس مجلس الحرب الكونت يوهان جوزيف فيليب فون حراش (Count Johann Joseph Philipp von Harrach) في 27 ماي 1748م، ومقابلة مع جلالة الإمبراطور والملكة في وينر بورغ (Wiener Burg) المقر الرئيسي للإمبراطورية في 6 و10 جوان 1748م. وقام بزيارة للمعرض والخزينة الإمبراطورين، وشارك في نزهة للصيد والاستجمام، كما زار أماكن ومباني مختلفة مثل مدرسة اليسوعيين (Collegium der Gesellschaft Jesu)، ومجمع فن الرياضيات (die aldasige Mathematische Kunst=Sammlung). ينظر:

Frank Huss (Vienna): Op.cit,

<http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2008/symposia-full-programm.html> .

² - A. İbrahim Savaş: Op.cit, <https://ottomanhistorians.uchicago.edu/tr/historian/mustafa-hatti> ذكرت الدورية النمساوية (Wienerische Diarium) في تاريخ 14 سبتمبر 1748م أن "المبعوث التركي الاستثنائي خطي مصطفى أفندي كانت له مقابلة وداع مع جلالة الإمبراطور" وفي غضون أيام قليلة انطلق عائدا إلى القسطنطينية. تم تجديد معاهدة سلام بلغراد التي كان من المفترض أن تظل سارية المفعول لمدة أربعين عامًا. إلا أن الحرب تجددت سنة 1788م، تم توقيع معاهدة (Sistova) في 4 أوت 1791م. في ذلك التاريخ أنشأ السلطان الإصلاحى العثماني سليم الثالث في سياق إصلاحاته أول تمثيل دبلوماسي دائم للإمبراطورية العثمانية في البلاط الامبراطوري. ينظر:

Frank Huss (Vienna): Op.cit,

<http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2008/symposia-full-programm.html> .

³. فريدريك الأول (Frederick I) (1657-1713م) أولا ملوك بروسيا (1701-1713م). وقف إلى جانب النمسا وإنجلترا وهولندا ضد فرنسا. شجّع الثقافة ورعى رجال الفكر وعلى رأسهم الفيلسوف لايبنتز (Leivnitz). ينظر: البعلبكي: المرجع السابق ص323.

دائمة في العواصم الأوروبية الكبرى من أجل تقليل العزلة الدبلوماسية لدولته، وكجزء من هذه السياسة قام بتعيين أول سفير دائم له ببروسيا سنة 1213هـ/1797م¹.

نجد على الجانب الآخر أنّ بروسيا كانت أسبق من الدولة العثمانية في تأسيس سفارة لها بإستانبول؛ فقد عمل فريدريك الثاني² على تأسيس تمثيل دبلوماسي قوي منذ سنواته الأولى فأرسل سفارات دائمة إلى العديد من العواصم، على خلاف أسلافه الذين رأوا وجود سفارات دائمة لهم في البلاطات الأجنبية أمرا ثانويا، وسبب اختلافه عن أسلافه يرجع إلى كونه أول من اعتبر بروسيا دولة منفصلة تمامًا عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بل إنه تصور دولة بروسية أكثر قوة من الإمبراطورية نفسها، ومن أجل فرض وجوده سياسيا كان يدرك وجوب كسب حلفاء وأن الطريقة الأكثر فعالية لكسبهم كانت تعيين السفارات في عواصم الحلفاء المحتملين، من أجل ذلك أسس أول سفارة بروسية دائمة³ بإستانبول سنة 1168هـ/1755م⁴.

فيما يخص أول ممثل دائم للمصالح العثمانية ببروسيا كريتلي عزيز علي أفندي⁵ فنقلنا عن جمعية

¹ - Edip Öncü: **The Beginnings of Ottoman-German Partnership: Diplomatic and Military Relations Between Germany and the Ottoman Empire Before the First World War**, A Master's Thesis of Arts in History, Thesis Supervisor: Stanford J. Shaw, Department of History, The Institute of Economics and Social Sciences, Bilkent University, Ankara, September 2003, P5.

قاد البعثة الدبلوماسية العثمانية لسنة 1701م إلى بروسيا قاسم سعيد أفندي وهو أول سفير عثماني لمملكة بروسيا بعده جاء أحمد إبراهيم رثمي سنة 1763م. ثم أحمد سعيد عزمي أفندي سنة 1791م، وكان جميعهم سفراء مؤقتين، إلى أن عين كريتلي عزيز علي أفندي سنة 1797م كأول سفير دائم ببرلين عاصمة بروسيا.

² فريدريك الثاني الكبير (1712-1786م): ملك بروسيا (1740-1786م). آمن على الرغم من نزوعه إلى الاستبداد، بأنّ الدولة وجدت لخدمة الفرد وتأمين رفاهيته. قوى الجيش وجعله أقوى قوة ضاربة في القارة الأوروبية، عرف برعايته للفلاسفة وأهل الفن. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص323.

³ أول ممثل بروسي بإستانبول سنة 1755م كان كارل أدولف فون ريكسين (Karl Adolf von Rexin) وبصرف النظر عن مهمته السياسية التي تمثلت في دراسة إرادة السلطان نحو بدء العلاقات الدبلوماسية، فإنّ مهمته تعلّقت أساسا بتعزيز مصالح التجارة البروسية في الشرق. ينظر:

Charalampos Minaoglou: "The Prussian diplomatic network in Constantinople during the 18th century", the conference "Balkan Worlds III: Power Networks in the Imperial and Post-Imperial Balkans (18th - 20th c.)", Thessaloniki, The University of Macedonia, Greece, 6-8 October 2016, P1.

⁴ - Loc.cit.

⁵ هو ابن دفتر دار التخميسي محمد أفندي. ولد بجزيرة كريت - ولهذا عُرف بالكريتلي - جنوب اليونان. بما أنّه حين توفي كان له من العمر تسعة وأربعين عاما فمن المحتمل أنه ولد سنة 1749 أو 1750. انضم إلى (Dîvân-ı Hümâyün hâcegânı) وهو ديوان كبار مسؤولي فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة، في عام 1796 تم إرساله إلى الحكومة البروسية كأول سفير دائم (dâimî elçi) بلقب وزير مفوض فوق العادة، وظلّ يمثّل الدولة العثمانية في هذا المنصب من 4 جوان 1797م حتى =

تاريخ برلين (Verein für die Geschichte Berlins)¹ وصل عزيز أفندي إلى برلين في 9 ذو الحجة 1211هـ/4 جوان 1797م في عيد العنصرة². لكن الاستقبال الكبير المتوقع للسفير لم يحدث؛ تم الحكم على المستوى الدبلوماسي لعلي عزيز أفندي من قبل الوزارة البروسية على أنه مجرد مبعوث عادي وليس سفيرا، وسبب سوء الفهم هذا هو رسالة خاطئة من السفير البروسي بإستانبول تؤكد كونه مجرد مبعوث عادي، كان هذا التقييم الخاطئ على وصول عزيز أفندي من قبل السلطات البروسية محرجا بالفعل³، وبعد تدخل من السفارة الفرنسية تم التعامل مع عزيز أفندي كسفير يحظى بكل الامتيازات التي يحظى بها السفراء⁴.

استقبله الملك فريدريك ويليم الثاني (Frederick William II)⁵ في 20 ذو الحجة 1211هـ/15 جوان 1797م وتسلم منه أوراق اعتماده، إلى جانب الهدايا الهمايونية للملك والملكة وأعضاء من العائلة المالكة، لم يكن لفريدريك ويليم الثاني ومجلس وزرائه أي خيار سوى الإعراب عن الأسف الشديد للسفير بشأن سوء الفهم الذي حدث والاعتذار، ونتيجة لذلك تم احترام البروتوكول بدقة ولم يكن لدى علي عزيز أفندي أي شكاوى بخصوص المعاملة الدبلوماسية⁶.

وفاته ببرلين 1798م ودفن بها. أعماله: ترك كتابا بعنوان مخايلات (Muhayyelât) تعلم عزيز أفندي اللغة اليونانية وبعض الألمانية. وله كتاب في التصوف عنوانه يدعى الواردات (Vâridât). ولد قصائد صوفية. ينظر:

M. Orhan Okay: **Aziz Ali Efendi (ö. 1213/1798) Devlet adamı, şair ve mutasavvıf**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 4, İstanbul, 1991, sayfa 333-334.

¹. تعتبر جمعية تاريخ برلين (Verein für die Geschichte Berlins) التي تأسست سنة 1865م أقدم جمعية لتاريخ برلين عاصمة بروسيا ثم الإمبراطورية الألمانية. أطلقت سنة 1997م موقعها الإلكتروني الذي يؤرخ لتاريخ برلين. ينظر:

<https://www.diegeschichteberlins.de/>

². عيد العنصرة (Pentecost) ويسمى أيضا (Whitsunday) - جاءت عبارة عيد العنصرة من كلمة (pentecostē) اليونانية وتعني "50 يوم" - وهو احتفال كنسي كبير، يحتفل به في يوم الأحد الذي يصادف اليوم 50 من عيد الفصح. وهو يحيى ذكرى نزول الروح القدس على الرسل والتلاميذ الآخرين بعد صلب يسوع وقيامته وصعوده يسوع، ويمثل بداية مهمة الكنيسة المسيحية في العالم. ينظر: The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Pentecost Christianity**,

<https://www.britannica.com/topic/Pentecost-Christianity>

³. لاحظت مسؤولة البلاط البروسي (Oberhofmeisterin) السيدة صوفي ماري كونتيس فون فوس (Sophie Marie von Voß) في مذكراتها في 5 جوان 1797م: "وصل السفير التركي في الرابع من الشهر، لكنه لم يُعتمد بعد". ينظر:

H. Achmed Schmiede: **Efendi, Ali Aziz, Tod des türkischen Botschafters Ali Aziz Efendi**, <https://www.diegeschichteberlins.de/geschichteberlins/persolichkeiten/persoentlichteitag/872-efendi-ali-aziz.html>

⁴ - Loc.cit.

⁵. فريدريك وليم الثاني (1744-1797م): ملك بروسيا (1786-1797م). اتسعت في عهده رقعة بروسيا. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص324.

⁶ - Loc.cit.

شارك بعدها عزيز أفندي في احتفالات البلاط البروسي، وكان حضوره مميّزا ومسلّيا، وتبادل بربلين الأفكار مع علماء وأدباء بروسين، تستند سمعة علي عزيز أفندي ككاتب في المقام الأول على كتاب مخايلات (Muhayyelât)، يمثل هذا العمل من الناحية العملية حجر الزاوية في الأدب التركي الحديث ويعتبر عزيز أفندي بما تركه من أعمال أدبية وقصائد تركية وفارسية إلى جانب كتاب خلاصة الأفكار (Hülâsatü'l-Efkâr) وتقرير سفارته مؤسس الأدب التركي الحديث¹.

تعدّ العلاقات العثمانية الفرنسية واحدة من أطول العلاقات الدبلوماسية الأوروبية، حيث أنّها بدأت في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ولم تنقطع إلا لفترة وجيزة دامت ثلاث سنوات (1213-1216هـ/1798-1801م) أثناء الحملة الفرنسية على مصر، وقد أملت الضرورات السياسية في هذا القرن وسقوط ملك فرنسا فرانسوا الأوّل في الأسر بمدريد إلى أن تمدّ فرنسا يدها إلى سليمان القانوني لإنقاذ التاج الفرنسي من هيمنة آل هابسبورغ، ومن خلال تحرير العثمانيين لملك فرنسا دُشنت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

يمكن القول أيضا أنّ الضرورات السياسية أملت على العثمانيين في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي أن تكون فرنسا وجهتهم المفضّلة لاستكشاف أوروبا الجديدة ومعرفة سر انبعاثها القوي؛ انبعثت الشرارة الأولى لذلك التقارب كما رأينا مع سفارة يرميسكيكز جلبي محمد أفندي (1132-1133هـ/1720-1721م) إلى باريس، التي دشنت عهد التولييب الذي فتح نافذة يطلّ منها العثمانيين على مباحج أوروبا وبدائع قصر فرساي، لتبلغ العلاقة ذروتها في القرن الثامن عشر في عهد أهم سلطان إصلاح في ذلك العهد، سليم الثالث.

نتناول شخصية كان لها أثرها الكبير في البلاط العثماني والنخبة العثمانية على السواء وهو نجل السفير العثماني الشهير يرميسكيكز محمد جلبي ومرافقه في سفارته إلى باريس سنة 1132هـ/1720م إنّّه محمد سعيد باشا يرميسكيكز جلبي² رافق والده في سفارته، ثم بعد قرابة العشرين عاما كان سفيرا لبلده

¹ - Loc.cit.

². أرسل سفيرا إلى السويد، ونتيجة لجهوده تم تحقيق التحالف العثماني-السويدي في وقت لاحق. شارك كمندوب في الوفد العثماني المتفاوض في مباحثات (Nemirov) [مدينة تاريخية بأوكرانيا] سنة 1737م من أجل عقد سلام وإنهاء الحرب العثمانية الروسية النمساوية (1735-1739). [لم تنجح المباحثات في عقد السلام] بعد توقيع معاهدة بلغراد سنة 1739م، تم تكليفه بتحديد الحدود مع النمسا وعمل على ذلك لمدة عامين تقريبا. تم تعيينه سفيرا لدى فرنسا في جوان 1741م برتبة ولقب بايلرباي الروم إيلبي. وأطلقت سفارة سعيد أفندي موجة جديدة من الهيام بالترك (Turquerie) من باريس إلى أوروبا، عاد محمد سعيد من باريس في أوائل أكتوبر 1742م وتم تعيينه في منصب نيشانجي في نفس السنة، ثم تولى عدة مناصب إلى أن عيّن في منصب الصدر الأعظم في 25 أكتوبر 1755م. ولكن بعد خمسة أشهر تم عزله ونفي إلى جزيرة كوس (İstanköy) اليونانية. عفي عنه =

بباريس مرّة أخرى، كان أكثر مراقبة لفرنسا من والده، وأكثر قدرة على الانخراط في الحياة الثقافية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة على اعتبار أنّه تولى سفارة بلاده إلى روسيا والسويد قبل فرنسا، وكانت مهمته الحقيقية بفرنسا هي التحقيق في كيف أصبحت فرنسا وبلدان أوروبا الغربية الأخرى أكثر نجاحا من الدولة العثمانية.

كانت سفارة سعيد أفندي (باشا لاحقا) إلى باريس من سنة 1154هـ/1741م إلى 1155هـ/1742م، فما الذي اهتمّ به هناك، وما الذي شاهده؟ رغم أنّه لا يوجد بين أيدينا تقرير سفارته إلى فرنسا فهو مفقود، إلّا أنّه بالاعتماد على ما كتب عنه بالجرائد والدوريات الفرنسية المعاصرة وغيرها من التقارير الدبلوماسية والوثائق الأرشيفية¹ يتيح لنا إعادة بناء تفاصيل إقامته هناك، ومعرفة ما الذي أثار اهتمامه، وما الذي نقله إلى العثمانيين.

لاحقا وتوفي بمرعش [جنوب تركيا] في نوفمبر 1761م. تسببت الكتب والملابس والأثاث الذي جلبه من هذا فرنسا إلى إستانبول في انتشار الأزياء الغربية بالعاصمة العثمانية، وانفتح عهد جديد في المنمنمات التركية بتأثير اللوحات التي أحضرها معه من باريس كتب محمد سعيد تقريبا حول سفارته بالسويد، نشره (İskender Yanko Hoçi) ومن المفترض أنّه كتب تقريبا عن سفارته بفرنسا لكنّه مفقود. ينظر:

Erhan Afyoncu: **Mehmed Said Paşa, Yirmi Sekiz çelebizâde (ö. 1175/1761) Osmanlı sadrazamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 28, İstanbul, 2003, sayfa 524-526.

¹ من المؤسف للغاية أنه لم يصلنا أي تقرير من نوع سفارت نامه عن إقامة سعيد محمد بباريس، حديثا ذكرت الباحثة الفرنسية (Hélène Desmet-Grégoire) في كتابها الديوان السحري: الشرق التركي في فرنسا في القرن الثامن عشر (Le Divan Magique L Orient Turc En France Au XVIIIe Siecle) الصادر بباريس سنة 1994م: على الرغم من أنه من دون وجود سفارت نامه لمحمد سعيد لن يكون من الممكن معرفة ما رآه وما فعله بالضبط، ولكن في الواقع فإنّ التقارير الصحفية والرسائل وأنواع أخرى من التقارير المعاصرة - على سبيل المثال: رسائل السفير السويدي (Count Carl Gustav Tessin) (1695-1770م) التي نشرت في كتاب مشاهد باريس والبلاط الفرنسي 1739-1742: رسائل غير منشورة من كارل غوستاف كونت تيسينو (Tableaux de Paris et de la Cour de France, 1739-1742 : lettres inédites de Carl Gustaf, comte de Tessin) - تمكنا بقدر كبير من إعادة بناء تفاصيل الرحلة إلى جانب إقامته بباريس وتبادل الهدايا الفخمة بينه وبين لويس الخامس عشر (1715-1774م). ينظر:

Seyfi Kenan: **The Education of an Ottoman Envoy during the Early Modern Period (Seventeenth and Eighteenth Centuries)**, Ottoman Empire and European Theatre, VIII. Culture, Diplomacy and Peacemaking: Ottoman-European Relations in the Wake of the Treaty of Belgrade (1739) and the Era of Maria Theresia (r.1740-1780) , International Symposium organized by Don Juan Archiv Wien, Under the patronage of: Exc. Hasan Göğüş: Ambassador of the Republic of Turkey in Vienna, & Exc. Dr. Klaus Wölfer: Ambassador of the Republic of Austria in Ankara, In cooperation with: Pera Museum Istanbul, The UNESCO International Theatre Institute in Vienna (ITI), and The Austrian Cultural Forum in Istanbul, Pera Museum, İstanbul,

<http://www.donjuanarchiv.at/veranstaltungen/symposia/symposia-2015/symposia-full-programme-2015.html#c9477>, May 28-29, 2015.

زار سعيد أفندي برفقة والده المكتبات الباريسية التي تضم العديد من الكتب المطبوعة سنة 1133هـ/1721م، فافتتح في إستانبول سنة 1138هـ/1726م أول مطبعة عثمانية تُنتج كتبًا بأحرف عربية مع شريكه إبراهيم متفرقة، وعلى خطى والده، أصبح سعيد أفندي سفيراً عثمانياً بباريس في الفترة (1154-1155هـ/1741-1742م)، سمح له ذلك بزيارة المكتبات وقاعات العرض العلميّة وورش العمل بحثًا عن المستجدات التقنية¹.

عرض أمامه في بعض صالات العرض العلمية التي زارها تجارب مختلفة لألعاب الطبيعة (jeux de la nature)، والأجهزة الميكانيكية المختلفة، ورسومات من النباتات والحيوانات ونماذج تشريحية وتوليد النار بالمرايا، وكان قد زار أيضا معرض صغير للحيوانات المستوردة من الهند الشرقية، شاهد تجارب عديدة لاستعمال المرايا في حرق قطعة من الخشب تحت الماء وصهر الماس، وقد طلب أخذ العينات لتقديمها إلى السلطان، وزار أيضًا أقسام الكيمياء والفيزياء والتاريخ الطبيعي والرياضيات واستفسر عن الأجهزة العديدة المعروضة هناك، أولئك الذين كانوا حاضرين خلال زيارته تلك قاموا بتدوين الأسئلة التي طرحها حول الآلات وأقروا باهتمامه بالعلوم الدقيقة ومع ذلك فقد كان ميله النبيل وتذوقه للعلوم والفنون المفيدة استثنائيًا مقارنة بالشخصيات العثمانية البارزة².

يذكر أنّه بعد أيام قليلة من وصوله إلى باريس زار سعيد أفندي مع ابنه معمل سيور نيكولاس بيون (Sieur Nicolas Bion)³ بحي (quai de l'Horloge) بجزيرة المدينة (Île de la Cité) في نهر السين بباريس، وهناك درس كل أداة باهتمام كبير وتداول حول اختيار أكثر الأدوات إثارة للفضول والأكثر إفادة وكمالاً جلبها إلى إستانبول، وتم الاتفاق على أن الأدوات المختارة سوف يتم تصنيعها بواسطة سيور نيكولاس بيون نفسه، بحيث تكون بدقة قصوى، استغرق تصنيع الآلات أكثر من ثلاثة أشهر، وخلال هذه الفترة تحدث السيد بيون بشكل متكرر مع سعيد أفندي من أجل التوافق على الأذواق والآراء، كان سعيد أفندي راضيًا جدًا عن الآلات وأظهرها لشخصيات مرموقة بعناية خاصة، واحتفظ بها مثل المجوهرات الثمينة في صندوق وكانت مفاتيح الصندوق تحت رعايته⁴.

عند عودته إلى إستانبول أحضر معه 22 مدفعًا فرنسيًا لتدريب طلاب المدرسة التي افتتحها

¹ - Feza Günergun and Dhruv Raina: Op.cit, P111.

² - Ibid, P112.

³. لم أف على ترجمته، سوى إشارة كاشفة من أنّه مهندس الملك الفرنسي للأدوات الرياضية بحي (quai de l'Horloge). ينظر: René-Joseph Tournemine et autres : **Mémoires pour l'histoire des sciences et des beaux-arts**, Vol 38, Society of Jesus, France, 1710, P538.

⁴ - Feza Günergun and Dhruv Raina: Op.cit, P113.

هو مباراجي أحمد باشا، كما أحضر معه آلة لحساب كسوف الشمس وكتيب لكيفية عملها ترجم بطلبه من الفرنسية إلى التركية، ويبدو أن معجم المصطلحات النباتية والحيوانية التي جمعها في إستانبول سنة 1166هـ/1753م يشهد على أن اهتمامه يتجاوز العلوم الرياضية، وكان وجود مجهر مبتكر من بين الهدايا التي قدمها الملك لسعيد أفندي والتي قد تشير إلى أن السلطات الفرنسية قد أدركت فضول السفير حول الأدوات العلمية¹.

بالنسبة للعلاقات العثمانية الإسبانية فقد أثرت عليها لوقت طويل مأساة سقوط الأندلس وسقوط آخر معاقل الإسلام بغرناطة في 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492م، فقد مثلت هذه المأساة الكبرى هماً ثقيلاً لدى العثمانيين، سيّما مع رسائل الاستغاثة التي كانت تصل إلى البلاط العثماني مع أهل الأندلس²، وكانت الظروف المعقّدة تحول بينهم وبين مد يد العون لاستنقاذ الأندلس.

خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي حاربت إسبانيا والدولة العثمانية من أجل الهيمنة في البحر الأبيض المتوسط، ومثلت معركة ليبانتو 979هـ/1571م أول هزيمة بحرية عثمانية حيث فاز الأسطول الصليبي بقيادة إسبانيا (المتحالف مع جمهورية البندقية والولايات البابوية) على الأسطول العثماني، وإذا كانت أول محاولة إسبانية للتقارب مع الدولة العثمانية كانت كما ذكر سنة 971هـ/1564م، فإنّ أول خطوة دبلوماسية عثمانية نحو إسبانية تؤرّخ في سنة

¹ - Ibid, P113.

² . أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477م - أي قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاما - سفارة إلى إستانبول، شرحوا الوضع المأساوي لأهل الأندلس للسلطان محمد الفاتح، وناشدوه التّدخل لإنقاذهم، غير أنّه لم يستطع أن ينجدهم لأنّه هو أيضا كان مضطرا إلى مواجهة تحالف صليبي على رأسه البابا سيكستوس الرابع (Pope Sixtus IV) (1471-1484م). وبعد وفاة الفاتح استنجد الأندلسيون بابنه بايزيد الثاني (1480-1511م)، إلا أن بايزيد كان مشغولا بأزمات داخلية وخارجية كثيرة منعتة من نجدة أهل الأندلس منها صراعه مع أخيه جم (1481-1495م)، وحره مع المماليك في أدنة سنة (1485-1491م)، إضافة إلى حربه مع ترانسلفانيا والمجر والبندقية، ثم مواجهة تحالف صليبي آخر بقيادة البابا يوليوس الثاني (Pope Julius II) (1503-1513م). مع ذلك أرسل بايزيد الثاني رسالة إلى البابا يوليوس الثاني يعلمه بأنّه سوف يعامل النصرى في إستانبول وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصّر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين بغرناطة. وأرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رابيس إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486م، فقام كمال رابيس بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى الدولة العثمانية. ينظر: أحمد محمد عطيات: الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، ط 1، أمواج للطباعة والنشر، الأردن، 2012، ص 122-123، بتصرف.

وللاطلاع على رسالة أهل الأندلس للسلطان بايزيد الثاني ينظر: أبو العباس المقرئ التلمساني (ت 1041هـ): أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون، ج 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، ص 108-

1059هـ/1649م. غير أنّ العلاقات الدبلوماسية الفعلية بين البلدين بدأت في 7 شوال 1196هـ/14 سبتمبر 1782م عندما تم توقيع اتفاقية السلام والصدّاقة والتجارة¹، وبدأ معها تبادل الهدايا والإبداع الثقافي الذي لم يكن من الممكن تخيله في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي.

نتناول أول سفير عثماني إلى إسبانيا في القرن الثامن عشر ألا وهو رجل الدولة والمؤرخ الرسمي للدولة العثمانية والشاعر والسفير ورئيس الكتاب أحمد واصف أفندي (Ahmed Vasif Efendi)² أمّا عن الخلفية التي من أجلها كانت سفارته إلى إسبانيا، يذكر العالمون بالتاريخ والعلاقات الدولية أنّه في سنة 1184هـ/1770م تعرّضت البحرية العثمانية لضربة موجعة من طرف الأسطول الروسي الذي عبر المحيط الأطلسي ودخل البحر الأبيض المتوسط عبر مضيق جبل طارق وأحرق السفن العثمانية

¹ - United States. Department of State: **Capitulations of the Ottoman Empire: Report of Edward A. Van Dyck, Consular Clerk of the United States at Cairo, Upon the Capitulations of the Ottoman Empire Since the Year 1150**, Vol 1, Washington Government printing office, 1881, P18.

². أحمد واصف أفندي: ولد ببغداد. وتلقّى بها أول تعليمه، في شبابه عمل بعض الوقت في المكتبات الخاصة ببغداد، وحاول كسب لقمة العيش عن طريق نسخ المخطوطات. ثم أصبح أمين مكتب والي حلب جول أحمد باشا زاده علي. ثم تم تعيينه محرراً لرسائل القائد العسكري لجهة خوتين [غرب أوكرانيا] أباطة محمد باشا، خلال مهمته هذه شهد الحرب العثمانية الروسية (1768-1774م) والنضال من أجل شبه جزيرة القرم. سنة 1771م وقع في الأسر ونقل إلى بطرسبورغ. في ذلك الوقت حدث بروسيا ثورة بوغانشوف. ولهذا السبب أطلق سراح واصف أفندي بعد تسعة أشهر في الأسر لنقل رسالة كاثرين الثانية إلى الباب العالي. وهذه المصيبة كانت منحة سمحت له بالتّرقّي إلى أعلى المناصب، ووسعت مشاركته في المفاوضات السياسية آفاقه وأصبح متخصصاً بشكل متزايد في الشؤون الخارجية. في جوان 1772م دخل في سلك مهم من أسلاك فئة الكتاب من أهل القلم هو (hâcegân). رافق واصف أفندي ككاتب رئيس الكتاب عبد الرزاق باهر أفندي كبير المندوبين لمواصلة مفاوضات السلام مع روسيا في نوفمبر 1772م اشترى واصف أفندي دار الطباعة إبراهيم متفرقة مع شريكه بيلكجي رشيد أفندي، ومنح الترخيص اللازم لافتتاح المطبعة من جديد سنة 1784م. عُيّن في منصب المؤرخ الرسمي للدولة في نوفمبر 1783م. في سنة 1770م تعرّضت البحرية العثمانية لضربة موجعة من الأسطول الروسي الذي أحرق السفن العثمانية التي كانت راسية بميناء (Çeşme) بازمير. من أجل ذلك أرسل واصف أفندي سنة 1782م سفيراً فوق العادة لإبرام اتفاقية صداقة وسلام إلى إسبانيا. تولى بعد ذلك عدة مناصب في سلك فئة الكتاب وفي النهاية تقلّد أعلى منصب في سلك أهل القلم منصب رئيس الكتاب في 4 أوت 1805م. ظلّ في منصبه هذا إلى أن أعياه المرض في سبتمبر 1806م، فعزل عن منصبه، ثم توفي في 17 أو 20 أكتوبر سنة 1806م. أعماله: من أهم أعمال واصف أفندي "محاسن الأعصار وحقائق الأخبار" المعروف أيضاً باسم تاريخ واصف (Vasif Târihi) الذي يؤرخ فيه للأحداث من سنة 1774م إلى جلوس سليم الثالث على العرش حتى 1805م. كتب العديد من الرسائل واللوائح منها الكبير الحجم ومنها الصغير. كتاب محاسن العسكر الجديد (Muhassenât-ı Asker-i Cedîd). كتاب يندرج ضمن أدب العزاء والتسلية عن النفس تسليت نامه أو كتاب التسليه "Tesliyetnâme" الذي قدّمه إلى سليم الثالث بعد هجوم الفرنسيين على مصر في جويلية 1798م. ونجد سفارت نامه إسبانيا بتاريخ جودت باشا. وقد تمّ ترجمة "سفارت نامه إسبانيا" إلى اللغة الألمانية والفرنسية والروسية والبولندية. ينظر: Mücteba İlgürel: Op.cit, cild 42, sayfa 535-537.

الرّاسية بميناء (Çeşme) بإزمير، ومع تنامي القوّة البحرية الروسية، وتنامي تهديدها للمصالح العثمانية سعت الدولة العثمانية إلى تكثيف العلاقات بينها وبين إسبانيا والمغرب لضمان أمنها عبر مضيق جبل طارق فأرسلت سنة 1782م واصف أفندي سفيرا فوق العادة لإبرام اتفاقية صداقة وسلام وتجارة.

ترك لنا أحمد واصف أفندي تقريرا عن زيارته إلى إسبانيا، تلك السفارة التي دامت عشرة أشهر لا يناقش في تقريره "سفارت نامه إسبانيا" مسار سفارته بالتفصيل فحسب، بل يصف أيضًا الاحتفالات الرسمية والأحداث الجارية، وآراءه كأول مبعوث عثماني إلى إسبانيا حول هذا البلد وسكانه. في مواجهة شعب أجنبي يظهر واصف أفندي قبل كل شيء تمسكه القوي بالثقافة العثمانية، ويظهر جليا انعكاس مأساة الأندلس في تقريره، وربما قسوة أحكامه على الشعب الإسباني نابع من تلك المأساة أيضا.

يخبرنا واصف أفندي في سفارت نامه إسبانيا عن ظروف استقباله¹؛ يوم الأحد 15 رمضان 1201هـ/ 1 جويلية 1787م غادر من منطقة (Tophane) [حي في إستانبول على طول مضيق البوسفور] باتجاه إسبانيا، وفي الأربعاء 9 شوال 1201هـ/ 25 جويلية وصلوا إلى خارج بلدة تسمى برشلونة عاصمة مقاطعة كاتالونيا على شواطئ إسبانيا، ويخبرنا أنّ وجودهم تصادف مع فرض السلطات الإسبانية حجرا صحيا على بعض المناطق بسبب الوباء، وبسبب ذلك كانت هناك أوامر صارمة بعدم السماح للقادمين من مصر أو إستانبول أو إفريقيا بالمرور عبر الحجر الصحي واعتذر خفر السواحل الإسبانية لهم وأعلموهم أنّه ليس لديهم خبر من السلطان الإسبانية بوجود سفارة عثمانية².

يخبرنا بعد ذلك عن اعتذار السلطات الإسبانية ببرشلونة للسفارة العثمانية، وقبول واصف أفندي لاعتذارهم، وجاء جمع غفير من الناس لمشاهدة وفد السفارة العثمانية من بعيد متعجبين منهم ومن هندامهم، وقد ظلوا في مكانهم سبعة وعشرين يوما حتى جاء أطباء الملك وقاموا بفحص الوفد فردا فردا للتأكد من سلامتهم الصحية، ثم أذن لهم بالتحرّك مع كامل الأبهة الرسمية، ورغم أنّ مكان الحجر

¹ . المقتطفات المعروضة هنا من " سفارت نامه إسبانيا " نقلت عن الترجمة الإنجليزية التي قام بها الباحث البريطاني المهتم بالتاريخ العثماني الدكتور إيثان منشينجر (Ethan Menchinger) الأستاذ بجامعة مانشستر البريطانية اعتمادا على نصّها التركي العثماني بتاريخ احمد جودت، ونشرها في كتابه: (First of the Modern Ottomans: the Intellectual History of Ahmed Vâsif) الذي صدر سنة 2017. كما نشر في المجلة الدولية للتاريخ وغيرها. ويعلق الدكتور إيثان منشينجر على ترجمته تلك بأنّه بعد مقارنتها مع نصّها الأصلي الموجود بمتحف قصر توبكابي بإستانبول (Topkapı Sarayı Müzesi) فإنّ المؤرخ العثماني أحمد جودت قام باختصارها في تاريخه، وعليه فالنص الأصلي أطول وأكثر تفصيلا. ينظر:

Ethan Menchinger: *The Sefaretname of Ahmet Vasif Efendi to Spain, Ahmet Vasif Efendi'nin İspanya'ya Dair Sefaretnamesi*, History Studies, International Journal of History, Vol 2, Issue 3, 2010, P351.

² - Ibid, P351-352.

الصحي كان على بعد ربع ساعة فقط من برشلونة، إلا أن الحشود التي جاءت للفرجة جعلت الموكب يتحرك ببطء واستغرقوا خمس ساعات للوصول إلى مقر إقامتهم، وذكر هنا شيئا من تاريخ المدينة الإسلامي، ووصف حصونها وخوف أهلها الدائم من الجزائريين¹.

يصف في طريقه إلى مدريد لمقابلة الملك شارل الثالث (Charles III)² القرى والمدن التي مرّ عليها، ويصف الحشود التي خرجت للتفريج عليهم، كما يصف النزعات التي حدثت بسبب بعض الأخطاء البروتوكولية، ويظهر عدم تسامح واصف أفندي بالإخلال بأي جزئية تنقص من هيبة وسيادة الدولة العثمانية التي يمثلها³، ثم يصف موكبه حين دخل إلى مدريد، ويصف بالتفصيل مظاهر الأبهة التي أحيط بها موكبه، ويصف مراسيم استقباله البهيج من طرف الملك وأبنائه والتبلاء وكبار الشخصيات كما يصف الاحتفاء الشعبي بالسفارة العثمانية إذ قال: " بالنسبة لجمهور المتفرجين فإنه لا يوصف؛ إلى جانب ازدحام خمسة أو ستة أشخاص على شرفات كل منزل يطل على الشارع، فقد سدّ الناس الشارع العريض - عريض بما يكفي لمرور خمس عربات معا - فمرّ موكبنا من خلالهم بصعوبة، كانت هناك شائعات بأنّ الناس استأجروا الشرفات بمائة قرش لمشاهدة الموكب"، ويصف بعد ذلك كيف استقبلهم الملك، ومراسيم تسليم الرسالة الهمايونية له، كما أفصح له عن سبب سفارته وهو تعزيز الصداقة بين البلدين⁴، يصف واصف أفندي الشعب الإسباني بالشعب الحشن، ربّما بسبب أزمة الهدايا التي طلبت لتعطى لكبار مسؤولي الملك والتي حدث حولها تفاوض طويل كاد يفضي إلى أزمة لولا تدخل الملك⁵.

يحدثنا واصف أفندي بعد ذلك عما له علاقة بموضوعنا أي حول مشاهداته فيما له علاقة بالتطور الأوروبي والحياة الأوروبية الجديدة: إذ يحدثنا أنّه والوفد المرافق له بناء على توجيه الملك تشارلز الثالث زاروا حديقة شهيرة، بها الكثير من الشجيرات وأيضاً العديد من حمامات السباحة والتماثيل الرائعة وأيضاً بناء على وصية الملك تكفل القائد العام للمدفعية والمسؤول عن الترسانة ومسبك الأسلحة ومستودع الأسلحة باصطحابنا إلى مدينة شقوبية (Segovia) [شمال مدريد] للمراقبة والزيارة

¹ - Ibid, P352.

² - تشارلز الثالث (1716 - 1788م) ملك إسبانيا خلال (1759-1788) وملك نابولي باسم شارل السابع خلال (1734-1759م)، أحد "المستبدّين المستنيرين" (enlightened despots) في القرن الثامن عشر، ساعد في قيادة إسبانيا إلى إحياء ثقافي واقتصادي قصير. ينظر:

John Lynch: Charles III King of Spain, <https://www.britannica.com/topic/church-and-state>

³ - Ethan Menchinger: Op.cit, P353.

⁴ - Ibid, P354.

⁵ - Ibid, P355.

تمّ استقبالهم وإقامة وليمة على شرفهم ثمّ قاموا بزيارة الأكاديمية العسكرية، قال عنها: بالإضافة إلى كونها مليئة بالأدوات المتعلقة بالرياضيات، كانت هناك رسومات على جدران الأكاديمية لحصار الحصون، والهجوم على القلاع، ومناورات الجيش وحشد القوات، كان المدربون مشغولون بتدريب الطلاب، يدعم الملك هؤلاء المدربين وطلابهم ويشاركه أغلبية التّبلّاء، لقد قدموا تدريبات استعدوا لها طيلة شهر تتعلق بالألغام والمدفعية ورغم كونهم لم ينفذوها بسبب حرارة الجو إلا أنّ كفاءتهم كانت واضحة. وباعتبار مدينة شقُوبية مدينة أثرية قديمة فقد شاهد بها آثارا ملوك الإسلام الغابرين¹.

يحدثنا أنّه رافق الملك المسن في رحلة صيد بجوار قصره الذي يدعى إسكوريال (Escorial) (45 كم عن مدريد) ثمّ قال: لأن المكان الذي يسمونه إسكوريال كان في الأصل ديرًا، فإنه يحتوي على مكتبة بداخله؛ عندما غزا المسيحيون بلاد الأندلس جمعوا كتب المسلمين وأودعوها في مجموعتين داخل الدير؛ أحرق أحدها والذي كان يضمّ حوالي 12000 مجلّدًا، يوجد الآن حوالي 5000 مجلد وقد حصلنا على كتالوج العناوين المطبوعة. الكتب الإسلامية ذات قيمة كبيرة، أمّا كتبهم فهي في مرتبة أدنى، لقد استعرضنا كتبنا: كان هناك حوالي عشرة نسخ من القرآن الكريم بالخط القديم وما لا يحصى من الكتب في الفقه والعقيدة والأحاديث النبوية. لقد شعرنا بالأسى والحزن الكبير².

يتحدّث عن استغراب مضيفيهم من عاداتهم في الأكل، كما أثنوا بشدة على الموسيقيين والمغنين المرافقين للوفد العثماني، وبأمر من الملك دعانا جميع الأثرياء إلى تناول الطعام، وقد شعرنا بالملل بسبب موسيقاهم الغربية، وعلى الرغم من أن هذا يتعارض مع ممارساتهم فقد زارنا رئيس الوزراء في مقرّ إقامتنا ثلاث مرات، وألمح أنّ هذا كان تشريفا خاصا بمقام دولتنا العلية³.

يصف الشعب الإسباني بالتّعالي والكبر والغرور، والتّعصّب لعقيدتهم الزائفة، ويتحدّث عن الظروف البائسة لرعيّة الملك، كما يتحدّث عن الأكاديميات العسكرية المنتشرة في عدة أماكن لتدريس شؤون الحرب، وقال أنّ مشاة الإسبان أفضل من سلاح الفرسان ومعظمهم من الأجانب ويوجد أيضًا عدد كبير من المدارس، إلا أن الشعب لا يميل إلى العلوم أو التعليم لدرجة أنه لا يوجد بينهم طبيب ماهر، كما يسهب في الحديث عن فتح المسلمين للأندلس وكيف توسّعوا فيها وأقاموا فيها صرح حضارتهم، ثم كيف ضعف أمرهم، وكثر ملوكهم وأصبحوا يستعينون بالكفار ضد بعضهم البعض حتى سقطت الأندلس⁴.

1- Ibid, P356.

2 - Ibid, P357.

3 - Loc.cit.

4 - Ibid, P358.

هكذا نرى أنّ مأساة الأندلس كانت حاضرة وطاقية في " سفارت نامه إسبانيا " حتى لكأنّ واصف أفندي يرى تلك المأساة وقد انبعثت أمام ناظره عياناً؛ وكأنّه يعاين كيد الإسبان ومخططاتهم في سبيل اجتثاث الإسلام من أرض امتدّت جذوره فيها عبر ثمانية قرون، ويعاين استعانة ملوك الأندلس بالكفار النصارى ضدّ بعضهم البعض، ويرى صرح تلك الحضارة الباهرة يتهاوى أمامه شيئاً فشيئاً فإذا الأندلس كباقي الوشم في ظاهر اليد.

ننتقل إلى بريطانيا وقد علمنا سابقاً أنّ جذور هذه العلاقات تمتدّ إلى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مع أوّل سفير إنجليزي سنة 991هـ/1583م، كما يؤرّخ أول مبعوث عثماني إلى إنجلترا بسنة 1028هـ/1619م. وقد علمنا الظروف التي جعلت الدولة العثمانية تقرّر إرسال أوّل سفير دائم لها إلى لندن وليس إلى باريس، متجاوزة قدم علاقاتها مع فرنسا لحساب بريطانيا ظروف أملاها الواقع الجديد لفرنسا بعد ثورتها التي قلبت أوضاعها وأوضاع أوروبا بأكملها.

أوّل سفير عثماني دائم مقيم بأوروبا وبلندن كان من فئة الكتاب وهو يوسف آغا أفندي¹

¹ . نعلم في معرفة سيرة حياة يوسف آغا أفندي على ما كتبه الأكاديمي والمؤرخ التركي المتخصّص في التاريخ العثماني وتاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية الأستاذ الدكتور محمد علاء الدين يالتشنيكيا. ضمن كتابه: أوّل سفارة عثمانية دائمة في أوروبا: سفارة يوسف آغا أفندي في لندن (1793-1797) (The first permanent Ottoman Embassy in Europe: the embassy of Yusuf Agâh Efendi to London (1793-1797))، ودراسته عن يوسف آغا أفندي، ضمن موسوعة سير وإسهامات العثمانيين (Yaşamları ve Yapıtları ile Osmanlılar Ansiklopedisi) المجلد الثاني. إلى جانب ما كتبه المؤرخ العثماني ثريا باي محمد (1845-1909م) في كتابه السجل العثماني (Sicill-i Osmani) المجلد الرابع، الذي حقّقه وأضاف إليه الدكتور نوري أكباير: يوسف آغا أفندي (1744-1824م): ولد ونشأ بشبه جزيرة المورة (Morea). وكانت أسرته تسمّى مورالي نسبة إلى شبه جزيرة المورة. ومن المؤكّد أن يوسف وعائلته من أصول تركية مسلمة ومن العائلات العريقة بالمورة؛ نجد في الأرشيف أنّ جدّه مصطفى أفندي ووالده سليمان بناه أفندي وشقيقه عثمان أفندي وسيد علي أفندي كتبت أسماءهم بإضافة المورالي. أفراد عائلته خدموا في مختلف مناصب الخدمة المدنية العثمانية؛ فعلى سبيل المثال كان والده سليمان بناه أفندي كاتباً في البلاط العثماني، وشقيقه الأكبر عثمان أفندي رئيساً للإدارة المالية بين 8 سبتمبر 1794م و19 مارس 1795م و16 نوفمبر 1806م و9 أبريل 1807م. كما تمّ تعيين السيد علي أفندي سفيراً لدى باريس بين سنتي 1797م و1802م. ينظر:

Mehmet Alaaddin Yalçınkaya: **The first permanent Ottoman Embassy in Europe: the embassy of Yusuf Agâh Efendi to London (1793-1797)**, Center for Ottoman Diplomatic History, The isis press, istanbul, turkey, 2010, P29-30

مع انتقال الأسرة إلى إستانبول بدأ يترقّى ضمن فئة الكتاب من أهل القلم، ثم تمّ تعيينه كأول سفير دائم للدولة العثمانية في لندن في 23 يوليو 1793م إلى منتصف سنة 1797. لدى عودته قدم يوسف آغا للسُلطان سليم الثالث رسالة الملك جورج الثالث وأبلغ السلطان شفها عن بعض ما يتعلّق بسفارته. ينظر:

Mehmet Alaaddin Yalçınkaya: "Yusuf Agâh Efendi", Yaşamları ve Yapıtları ile Osmanlılar Ansiklopedisi, Cilt 2, Baskı 1, Yapı Kredi Kültür ve Sanat Yayıncılık, İstanbul, 1999, P680-681=

من عائلة خدمت الدولة العثمانية من خلال مناصب شتى قبل مغادرته إستانبول تلقى يوسف آغا أفندي تعليمات صارمة من قبل الباب العالي بعدم قبول أي مصاريف سفر قد تقدمها الحكومة البريطانية. فقد كان في نيّة الحكومة العثمانية البدء بلندن كمهمة "تجريبية" تبني على أساسها لاحقا تمثيلها الدبلوماسي في بقية العواصم الأوروبية، وبعد سفارة يوسف آغا تم إرسال السفراء العثمانيين المقيمين إلى عواصم أخرى أيضاً: برلين وفيينا وباريس¹.

غادرت البعثة² بقيادة يوسف آغا أفندي إستانبول في 9 ربيع الاول 1208هـ/14 أكتوبر 1793م. اجتازت بوخارست (رومانيا) ثم بودا (المجر) إلى فيينا، ثم واصلوا السفر عبر ألمانيا وبلجيكا إلى ميناء أوستند (Ostend Port) [بلجيكا] من أجل اجتياز القناة الإنجليزية والوصول إلى ميناء دوفر (Dover Port) [جنوب شرق إنجلترا] في 16 جمادى الاولى 1208هـ/19 ديسمبر 1793م³.

وصول يوسف آغا أفندي والوفد المرافق له إلى بريطانيا العظمى كان يتتبع بدقة في كل من الدولة العثمانية وبريطانيا العظمى؛ يمكننا أن نرى ذلك في أرشيفاتهما؛ أبلغت صحف تلك الفترة مثل جريدة إيسويتش (The Ipswich Journal) [تأسست سنة 1132هـ/1720م] وجريدة ذي تايمز (The Times) [تأسست سنة 1199هـ/1785م] قراءها عن موعد ورحلة يوسف آغا أفندي؛ في 15 صفر 1208هـ/21 سبتمبر 1793م نقرأ بين أعمدة جريدة التايمز عبارة: " سفارة الباب العالي العثماني تنطلق من القسطنطينية في بداية هذا الشهر" وكتبت جريدة إيسويتش في 1 صفر 1208هـ/7 سبتمبر 1793م: "السفير التركي سيأتي إلى لندن بعد فترة زمنية قصيرة". كما نقرأ في التايمز: " وصل ظهر اليوم السبت سفير تركيا إلى بلاط لندن يوسف آغا أفندي مع سبعة من مرافقيه إلى فندق رويال بال مال (The Royal Hotel, Pall mall) حيث استقروا في الوقت الراهن، حتى

بعد إنهاء مهمته سفيرا بلدن، شغل عدّة مناصب، وفي جوبلية 1811م عيّن نائبا للصدارة العظمى. بعد قمع العصيان الوهابي أرسل إلى مكة سنة 1812م مبعوثا فوق العادة وأميناً للصرة الهمايونية [مساعدات السلطان لفقراء مكة والمدينة]. بعد عودته من الحجاز شغل منصب نيشانجي (nişancı). وفي سنة 1817م عيّن للمرة الثانية نائبا للصدارة. توفي سنة 1824م. ينظر:

Mehmed Süreyya; **Sicill-i Osmani, soruşturma**: Nuri Akbayar, Cilt 4, Tarih Vakfı Yurt Yayınları, İstanbul, 1996, Sayfa 621.

¹ - Nuri Yurdusev Ahmet: Op.cit, P134.

² . ضمّت البعثة الدائمة خمسة عشر شخصا منهم: السكرتير الأول (sır kâtibi) محمود رائيث أفندي، وإيمانويل برسياني (Emanuel Persiani) المترجم الفوري الأول، وغريغوريو فاليريا (Greogorio Valeria) المترجم الفوري الثاني، ومحمد درويش أفندي كمترجم فوري، وأمين الخزانة محمد درويش أفندي والإمام محمد طاهر أفندي وأخيرا يانكو ساورود (Yanko Savrud) ينظر: Mehmet Alaaddin Yalçınkaya: Op.cit, P681.

³ - Loc.cit.

يتم إعداد مقر إقامة السفير "، من ناحية أخرى تمت الإشارة إلى الأخبار المتعلقة برحلة يوسف آغا في أرشيف الدولة العثمانية؛ إذ نقرأ: يوسف آغا أفندي الذي كان مديناً في الديوان الهمايوني عُين بتصريح مكتوب سفيرا بدولة بريطانيا ووصل إلى لندن التي كانت مقراً لملك إنجلترا في 19 ديسمبر 1793م¹.

وصل يوسف آغا أفندي وحاشيته إلى لندن في 19 جمادى الأولى 1208هـ/21 ديسمبر 1793م عن طريق مدينة كانتربري (Canterbury) [جنوب إنجلترا] وتوقفوا في فندق سانت جيمس رويال (St. James's Royal Hotel) حتى ترتيب مبنى السفارة في منطقة أديلفي (Adelphi) بلندن بعد عدة أيام قام يوسف آغا أفندي بزيارة وزير الخارجية اللورد جرينفيل (Lord Grenville)² وتمت الموافقة على تقديم أوراق اعتماده إلى ملك بريطانيا جورج الثالث (George III)³ في 6 جمادى الآخرة 1208هـ/8 يناير 1794، تم تقييم وجود سفارة دائمة في لندن على أنه أمر مفيد تماماً من قبل شركة المشرق (The Levant Company) التي تأسست سنة 989هـ/1581م لتطوير تجارة ما وراء البحار في منطقة الدولة العثمانية وتم ترتيب العشاء الخاص والرائع على شرف أول سفير تركي دائم من قبل نفس الشركة في 13 جمادى الآخرة 1208هـ/15 يناير 1794م؛ بعد لقائه برئيس الوزراء ويليام بيت (William Pitt)⁴ في نفس اليوم، كانت مهماته الدبلوماسية سريعة وكثيرة تم قبوله من قبل ملك بريطانيا العظمى في 16 جمادى الآخرة 1208هـ/18 يناير 1794م، وبعد ذلك التقى بأعضاء

¹ - Merve Kardelen Bilir: **Yusuf Agâh Efendi and the first permanent embassy of the Ottoman State in London**, (Bogazici University, Istanbul, Turkey), academia.edu, USA, https://www.academia.edu/28321683/Yusuf_Ag%C3%A2h_Efendi_and_the_first_permanent_embassy_of_the_Ottoman_State_in_London , P13-14.

² . وليام ويندهام جرينفيل (1759-1834) أول بارون جرينفيل، ابن جورج جرينفيل (George Grenville) رئيس الوزراء (1763-1765). درس بأكسفورد (Oxford). وتولى عدة مناصب حكومية إلى أن بلغ منصب رئيس الوزراء (1806-1807). ومن بين أهم أعماله إلغاء تجارة الرقيق البريطانية في الخارج. ينظر:

Robert Eccleshall and Graham Walker: **The Biographical Dictionary of British Prime Ministers**, 1 Edt, Routledge, London, 1998, P98-101.

³ . جورج الثالث (1738 - 1820): ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا (1760-1820)، خلال السنوات الأخيرة من حياته (من 1811) كان مجنوناً بشكل متقطع وكان ابنه جورج الرابع بمثابة الوصي على العرش. ينظر:

John Steven Watson: **George III, King of Great Britain**, <https://www.britannica.com/biography/George-III> LAST UPDATED: Nov 13, 2019.

⁴ . وليام بيت "الأصغر" (1759-1806). رئيس وزراء بريطانيا مرتين في (1783-1801) و (1804-1806). تأسست سمعة وليام بيت كوزير مستنير متعاطف مع الإصلاح المالي والإداري والدستوري والإنساني في الثمانينيات من القرن الثامن عشر ينظر: Robert Eccleshall and Graham Walker: Op.cit, P85.

مجلس اللوردات والشخصيات البارزة والدبلوماسيين والسفراء والدوقات ... إلخ¹.

بينما تمت رحلة يوسف أغا أفندي على الأرض، كان ينتظر سفينة تنقل هدايا الدولة العثمانية لملك بريطانيا العظمى، ويمكن رؤية محتوى الهدايا في الأرشيفات من هذا القبيل "كهدايا همايونية سيتم إرسال 5 خيول مصرية وتركمانية إلى بريطانيا عن طريق البحر في هذا التاريخ ... " سميت هذه السفينة باسم كولومبو فورتونا من راغوزا (Colombo Fortuna of Ragusa)، وغادرت من إستانبول في 6 ربيع الأول 1208هـ/11 أكتوبر 1793م ووصلت إلى لندن بعد حوالي 8 أشهر، لأجل ذلك تأخر التقديم الدبلوماسي الرسمي لأغا أفندي أمام الملك والملكة البريطانيين لمدة ستة أشهر بسبب تأخر تلك السفينة. في هذه الأثناء حافظ يوسف أغا أفندي على الاتصال بالقصر الملكي والدوائر السياسية؛ تمت الموافقة عليه في حفل الاستقبال مع سفير إسبانيا وهولندا في قصر سانت جيمس في 6 جمادى الآخرة 1208هـ/8 يناير 1794م².

وفقاً لتقارير التايمز وجريدة لندن (London Gazette)، كان مجتمع لندن مهتماً جداً بيوسف أغا أفندي: "كانت منطقة بول مال (Pall mall) [بلندن] بالأمس مليئة بالعربات لرؤية سفير تركيا ينتقل إلى القصر الملكي سانت جيمس"، أخيراً قدّم يوسف أفندي الرسالة الهمايونية (Nâme-i hümayûn) والعديد من الهدايا مثل البنادق الذهبية وأربعة خيول عربية وخنجر مزخرف لجورج الثالث وعائلته الملكية، ورئيس الوزراء وليام بيت ووزير الخارجية اللورد جرينفيل ودبلوماسيين مهمين آخرين في قصر سانت جيمس³.

بذل يوسف أغا أفندي قصارى جهده لأداء مهامه كما يجب في لندن؛ كان من بين إنجازاته ترتيب إرسال بعض الضباط البريطانيين إلى إستانبول الذين وافقوا على العمل من أجل إعادة تنظيم

¹ - Mehmet Alaaddin Yalçınkaya: Op.cit, P680.

² - Merve Kardelen Bilir: Op.cit, P14-15.

ذهب السفير إلى قصر سانت جيمس (St James's Palace) مع موكب صغير في قافلة من عشرات العربات، يرافقه الخدم والحشم، تتقدمهم مجموعة من الجنود لإبعاد الحشود عن الطريق. وقد استقبلهم في القصر موكب من الجنود، وتم اصطحاب السفير إلى قاعة البلاط الرئيسية عند الباب كان يحيط به اللورد تشامبرلين (Lord Chamberlain) [وهو المكلف بالمراسيم بالقصر الملكي] على يمينه وكونت جيرزي (Earl of Jersey) على يساره. عند دخوله القاعة قام بثلاثة "إنحاءات" لتحية الملك تم تخليد هذه اللحظة في لوحة الرسام الأمريكي المقيم بلندن ماذر براون (Mather Brown) التي تهدف إلى إعطاء صورة جديدة للموقع العثماني في العالم الدبلوماسي أواخر القرن الثامن عشر؛ السفير العثماني يظهر متواضعاً أمام ملك بريطاني. بعد ذلك ألقى يوسف أغا خطاباً ترجم من قبل المترجم الخاص به، وقبّل أوراق اعتماده ثم سلّمها إلى اللورد جرينفيل، ردّ عليه الملك وانسحب السفير منحياً ثلاث مرات مرة أخرى. ينظر: Michael Talbot: Op.cit, P141.

³ - Merve Kardelen Bilir: Op.cit, P15.

الإمبراطورية العثمانية، وقد دفع لهم يوسف أفندي 10.000 قرش من مخصّصاته الخاصة¹، كما حافظ على موقف الحياد الذي تبنته الدولة العثمانية تجاه الصراع البريطاني الفرنسي، وقد أثرى وجوده الحياة الثقافية بلندن².

منذ بداية القرن التاسع عشر أصبحت فرنسا ثم بريطانيا مركزي جذب للإصلاحات العثمانية في مختلف المجالات، ومن الواضح أن العديد من تقارير يوسف آغا أفندي كان لها تأثير، لأنها قدمت معلومات وملاحظات تفصيلية عن الإدارة والمؤسسات في بريطانيا، تم جمع تقارير ومراسلات يوسف آغا أفندي وكتابات الباب العالي عن إنجلترا وأول سفارة دائمة في لندن على شكل سفارت نامه (Sefaretname) بأمر من الصدر الأعظم³، وكان عنوانها حوادث نامه إنجلترا (Havadisname-i İngiltere)، يلقي هذا العمل الضوء على الأنشطة الدبلوماسية ليوسف آغا أفندي كسفير مثل التقارير السياسية. وقد استقى يوسف آغا أفندي في مهمته معلومات مباشرة وأبدى ملاحظات موضوعية حول الإدارة والتطورات العسكرية والمالية والاقتصاد البريطاني⁴.

يمكن مع الأخذ بعين الاعتبار الإصلاحات العسكرية العثمانية فيما يعرف بالنظام الجديد (Nizam-i Cedid) تقييم المعلومات المفصلة ليوسف أفندي حول البحرية البريطانية على أنها ممتازة؛ احتوت أيضًا على علاقات شخصية ربطت بين يوسف آغا أفندي والقائد المتقاعد للبحرية البريطانية

¹ - Nuri Yurdusev Ahmet: Op.cit, P148-149.

نعلم أيضا من وثيقة بريطانية مؤرخة في 25 جوان 1795م بقلم روبرت ليستون (Robert Liston) السفير البريطاني في إستانبول أن ميكانيكيًا بحريًا يدعى ريتشارد وايت (Richard White)، ظهر أيضًا في إستانبول وتم نقله إلى الخدمة نتيجة خطاب توصية قدمه له يوسف آغا أفندي السفير التركي في لندن ينظر: Tuncay Zorlu: Op.cit, P95.

². كان لسفارة يوسف آغا أفندي إلى بريطانيا آثارًا ثقافية على الحياة الأوروبية كغيره من السفراء العثمانيين بالعواصم الأوروبية الأخرى: حين أعرب يوسف آغا عن نيته زيارة حدائق رانيلاغ (Ranelagh) وفوكسهول (Vauxhall) في لندن لمشاهدة الألعاب النارية، تم الإعلان عن هذا الحدث بين أعمدة جريدة التايمز في 24 جويلية 1794م: "بعد أن أشار السفير التركي إلى نيته زيارة الحدائق يوم غد، سيكون هناك حفل كبير". ليس من قبيل المبالغة أن كل هذه الأحداث في لندن يمكن تسميتها بالهوس التركي والأزياء التركية، لأن هذا الاهتمام الهائل بالثقافة التركية قد ارتد إلى موضوعات المسارح والمواكب والكتب وحتى الزي العسكري للفرقة العسكرية. بعد وصول يوسف آغا إلى لندن، عرضت مسرحيتان: "يوم في تركيا" و "حصار بلغراد" تم عرضهما على التوالي بالأوبرا الملكية في 1794م. وقد رسمت صورة زيتية ضخمة ليوسف آغا أفندي. ينظر:

Merve Kardelen Bilir: Op.cit, P18

³. الصدر الأعظم المقصود هو عزّت محمد باشا تولى الصدارة ما بين 21 أكتوبر 1794 حتى 23 أكتوبر 1798

⁴ - Merve Kardelen Bilir: Op.cit, P20.

الأدميرال لورد هود (Admiral Lord Hood)¹، في الوقت نفسه يمكن ملاحظة أن تقارير يوسف آغا عن النظام السياسي البريطاني مثل البرلمان والحكومة والتاج والنظام المالي البريطاني كانت شاملة إلى حد ما. في هذا الصدد اعتبرت تقارير يوسف آغا جديرة بالاهتمام بالنسبة للباب العالي بسبب نقطتين أساسيتين؛ أولاً تأسيس الهيكل العام للسفارات بناء على أنشطة أول سفارة دائمة، وثانياً هدايا قصر إنجلترا ورواتب ومصروفات موظفي السفارة كل ذلك من شأنه وضع نموذج وإجراءات موحدة لسفارات الدولة العثمانية الدائمة في بقية العواصم في أوقات لاحقة².

أدى يوسف آغا أفندي مهمته بتفان وبقدر عال من الاحترافية والأمانة، وبذلك لاقى استحسان ملك بريطانيا وكذا السلطان سليم؛ في سنة 1212هـ/1797م بعد ما يقرب من أربع سنوات من الخدمة تلقى أول سفير عثماني مقيم في لندن يوسف آغا أفندي أمراً بالعودة إلى إسطنبول. في ترجمة عثمانية لرسالة من جورج الثالث (حكم من 1760 إلى 1820م) إلى السلطان سليم الثالث، طلب فيها جورج الثالث من العثمانيين مواصلة إرسال السفراء إلى التاج البريطاني، وأثنت الرسالة أيضاً على يوسف آغا وقدراته بالقول: " لقد علمنا من رسالتكم الإمبراطورية إلينا أن المسؤول المقيم في بلاط صاحب الجلالة، يوسف آغا أفندي الحكيم والمتميز، عليه العودة وفقاً لطلبكم الرفيع، خلال فترة إقامته قام السفير المذكور بشكل يفوق الوصف بتوطيد وترسيخ التوافق التام بشأن التآلف والانسجام الذي استمر لحسن الحظ لفترة طويلة بين دولتكم الرفيعة ودولة بريطانيا العظمى"³.

قام يوسف آغا أفندي بزيارة وداع للملك جورج الثالث في 25 محرم 1212هـ/ 19 جويلية 1797م. غادر لندن في 8 صفر/1 أوت عن طريق البر؛ بعد عبور القناة الإنجليزية، اتجه إلى فيينا براً ووصل إلى إسطنبول في 24 ربيع الاول 1212هـ/15 سبتمبر 1797م على متن قارب عبر نهر الدانوب والبحر الأسود. في حفل حضره رجال الدولة، وبحضور السلطان سليم الثالث قدم يوسف آغا للسلطان رسالة الملك جورج الثالث، وأبلغ السلطان شفهيًا عن بعض ما يتعلّق بسفارته⁴ وهكذا أنهى

¹ . صموئيل هود (Samuel Hood) (1724-1816): الأدميرال البريطاني الذي خدم خلال حرب السنوات السبع والحروب

الأمريكية وحروب الثورة الفرنسية. في سنة 1796م تم تعيينه مديراً لمستشفى غرينتش وهو منصب شغله حتى وفاته. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Samuel Hood, 1st Viscount Hood, British Admiral**, <https://www.britannica.com/biography/Samuel-Hood-1st-Viscount-Hood>

² - Ibid, P21.

³ - Michael Talbot: Op.cit, P43.

⁴ . إن مراسلات السفير يوسف آغا مع السلطان سليم الثالث، المحفوظة في مخطوط مع ملاحظات السلطان سليم الثالث على الهامش، دليل على اهتمام السلطان بتلك التقارير، واهتمامه الشديد بإعادة تشكيل الدولة العثمانية على النماذج الأوروبية. ينظر:

Virginia H. Aksan: Op.cit, P226.

يوسف أغا أفندي سفارته الأولى بلندن¹.

يهمنا قبل انهاء الحديث عن سفارة لندن الحديث عن السكرتير الأوّل ليوسف أغا أفندي، وأحد رجالات فئة الكتاب من أهل القلم البارزين الذين تولّوا أعلى منصب في سلك الفئة، منصب رئيس الكتاب، ونال تقدير السلطان سليم الثالث، والوحيد من بين السفراء الذين تركوا سفارت نامه مكتوبة بالفرنسية مع غيرها من المؤلفات التي كانت مرشدة لسليم الثالث في إصلاحاته أو منافحة عن إصلاحاته، وبلغ من تأثره بالغرب وبريطانيا على وجه التحديد أن أطلق عليه معاصروه لقب الإنجليزي إنه محمود رائف أفندي².

تم تعيينه سكرتيرا أول لأوّل سفير عثماني بإنجلترا يوسف أغا أفندي، وكان له من العمر حينها

¹ - Mehmet Alaaddin Yalçinkaya: Op.cit, Sayfa 681.

في نوفمبر 1796م عين الباب العالي إسماعيل فروح أفندي سفيرا مقيما جديدا في لندن، بدلا عن يوسف أغا أفندي. غادر إسماعيل إستانبول في 9 أبريل 1797م، ووصل إلى لندن في 23 جويلية. ينظر: Loc.cit

². أحد أعلام فئة الكتاب من أهل القلم؛ رائف محود أفندي يشتهر باسم "الإنجليزي". كان من الرواد في عهد إصلاحات سليم الثالث عهد النظام الجديد (Nizîm-ı Cedid). بعد الانتهاء من دراساته الكلاسيكية، بدأ العمل [تحت رعاية رئيس الكتاب محمد رشيد أفندي] في أحد فروع سلك فئة الكتاب من أهل القلم وهو (Tahvil Kalemi). وفي سنة 1793م انتقل إلى قسم سكرتارية الصدر الأعظم بالباب العالي، وعندما أنشئت أوّل سفارة دائمة بلندن بقيادة يوسف أغا أفندي في 12 أوت 1793م عين محمود أفندي ضمن وفد هذه السفارة سكرتيرا للسفير يوسف أغا. ظلّ في لندن حتى سنة 1797م. شغل عدة مناصب وكلف بعدة مهام رسمية. أصبح في أوت 1800م رئيسا للكتاب، ثم شغل مناصب أخرى، إلى أن قتل أثناء عصيان كابكشي (Kabakçı isyanı) في 25 ماي 1807. كان مهتما بشكل خاص بالحقوق الدولية والتاريخ، والجغرافيا، ورسم الخرائط، والعلوم السياسية، وتابع تطور الوضع في أوروبا. تعلّم اللغة الفرنسية قبل ذهابه إلى لندن. نال تقدير السلطان سليم الثالث. كان ناجحا في مهمته رئيسا للكتاب، والقضايا التي عاجلها في مهمته هذه تعتبر جزءا لا يتجزأ من قضايا الإصلاحات. ترك عدة مؤلفات وترجمات منها: كتاب بالفرنسية في فوائد الجغرافيا بعنوان: (Ucâletü'l-coğrafiyye). كما ألف كتابا بالفرنسية يتضمن ملاحظاته عن الوضع في إنجلترا ومدينة لندن بعنوان: (Journal de voyage de Mahmoud Raif en Angleterre). أهم أعمال محمود رائف فيما يتعلق بالنظام الجديد هو كتابه باللغة الفرنسية: "جدول اللوائح الجديدة للإمبراطورية العثمانية" (Tableau des Nouveaux Reglements de L'Empire Ottoman) نشر سنة 1798م بمطبعة (Mühendishâne Matbaası). وقد تبين لاحقا أنّ محمود ليس هو من ترجم الكتاب إلى الفرنسية، وأنّ الترجمة الفرنسية تستند على كتابه المعنون ب: نموذج المناظم الجديدة لسليم خان (Nümune-i Menazım-i Cedid-i Selim Hani). وربما أريد بالترجمة الفرنسية عرض الإصلاحات على الأجانب. وتمت ترجمتها إلى الألمانية بعنوان: "عرض لأحدث اللوائح في الإمبراطورية التركية بقلم محمود ريف أفندي" (Darstellung der neuesten Verordnungen im türkischen Reiche von Mahmud Raif Effendi) ونشرت ببرلين سنة 1802م. وقد ترجم السفير والمؤرخ اللبناني خالد زيادة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونشر سنة 1985م بعنوان: "التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية". ينظر:

Kemal Beydilli: Mahmud Raif Efendi (ö. 1807), Osmanlı reîsülküttâbı ve islahat yazarı, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 27, İstanbul, 2003, sayfa 382-383.

اثنان وثلاثين عاماً، قضى عدة سنوات في تعلم الجغرافيا والتاريخ والسياسة الغربية، وكذلك تعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية، شغل رائييف أفندي منصب رئيس الكتاب خلال (1215-1220هـ/1800-1805م)، ليصبح المستشار الأول للسلطان سليم الثالث في الشؤون الخارجية، والمسؤول الأول عن التواصل مع السفراء والفنيين الأجانب بإستانبول، مع ذلك كانت وظيفته الأكثر أهمية غير رسمية؛ من حيث كونه كان رائداً في الجهود المبذولة لنشر التقدم التقني الغربي في صفوف الطبقة الحاكمة العثمانية وكسب دعمهم أو على الأقل قبولهم بإصلاحات سليم¹.

من خلال ترجمة الكتب الغربية إلى التركية، واستيراد واستخدام الملابس والأثاث الغربي وتقليد أعراف وعادات الغربيين الذين يعيشون بالعاصمة إستانبول، قدم محمود رائييف أفندي وسيلة حيوية لنقل الأفكار والعادات الغربية إلى الطبقة الحاكمة العثمانية، كان دائماً الأقرب إلى البريطانيين ومقلداً لأدبهم لدرجة أن معاصريه أطلقوا عليه اسم محمود الإنجليزي قُتل أخيراً على أيدي حراس أحد الحصون على طول مضيق البوسفور عندما حاول إلزامهم بلبس الزي الأوروبي الجديد بناءً على تعليمات سيده السلطان سليم الثالث، الأمر الذي أدى إلى ثورة ضد السلطان في ماي 1807م².

سفارت نامه محمود رائييف أفندي أو مذكراته بإنجلترا التي كتبها بنفسه باللغة الفرنسية تحمل عنوان: "يوميات رحلة محمود رائييف أفندي إلى إنجلترا، التي كتبها بنفسه (Journal du voyage de Mahmoud Raif Efendi en Angleterre, écrit par lui même) أكثر شمولاً بكثير من تقارير السفير يوسف آغا أفندي حيث قدم أولاً بعض المعلومات عن رحلة البعثة العثمانية من إستانبول عبر النمسا وألمانيا وبلجيكا، كما تغطي يومياته بدايات السفارة في لندن، حيث يقدم معلومات مختصرة عن العائلة المالكة وأنشطتها في القصر. يقدم وصفاً حقيقياً وممتعاً للملك جورج الثالث، ثم يوضح بالتفصيل سير عمل المؤسسات البريطانية بما في ذلك البرلمان والقوات المسلحة ومجلس الوزراء والأحزاب السياسية والمؤسسات التجارية والحياة الاجتماعية والثقافية في ذلك الوقت، وأخيراً يصف مدينة لندن بقصورها وحدائقها وكنائسها ومستشفياتها ومدارسها ومصانعها³.

يعتبر محمود رائييف أفندي ممثل المنظومة الإدارية الجديدة ذات الأهمية البالغة للإصلاح العثماني في النصف الأول للقرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، تتضمن روايته وصفاً لمجلس العموم واللوردات، والجيش والبحرية الإنجليزية، مع التركيز بشكل خاص على السفن والترسانات وأحواض

¹ - Stanford J. Shaw: **Between Old and New, The Ottoman Empire under Sultan Selim III, 1789-1807**, Op.cit, P89.

² - Loc.cit.

³ - Nuri Yurdusev Ahmet: Op.cit, P177- 178.

السفن. إلى جانب الوصف المكثف للاقتصاد الإنجليزي ومدينة لندن¹، ترك محمود رائييف أفندي الكثير من الأعمال منها ما يتعلّق بالجغرافيا وفوائدها، ومنها ترجماته للخرائط الجغرافية، ومنها ما يتعلّق بأدب الرحلات.

أهم أعمال محمود رائييف أفندي ما تعلّق بالنظام الجديد للسلطان سليم الثالث؛ إذ أنّه ألّف حوله كتاب باللغة الفرنسية عنوانه: "جدول اللوائح الجديدة للإمبراطورية العثمانية" (Tableau des Nouveaux Reglements de L'Empire Ottoman): يتكون الكتاب من مقدمة وخمسة عشر فصلاً وخاتمة، وقد ضمّنه العديد من اللوحات والرسومات، ونُشر سنة 1213هـ / 1798م بمطبعة مدرسة الهندسة بإستانبول (Mühendishâne Matbaası)².

يذكر في مقدمة الطبعة الفرنسية نيّته في أن يكون مفيداً لوطنه منذ بدايات التحاقه بالخدمة في مكاتب الباب العالي، ويذكر أنّ السياسة أهم ما اجتذبه، وأنّه أدرك الحاجة إلى القيام برحلة إلى أوروبا وتعلّم لغة أجنبية، ورغم أنّه كان يرى تحقّق أمنياته بعيداً، إلّا أنّ اختياره لمنصب السكرتير الأوّل لأوّل سفير عثماني مقيم بلندن فتح له المجال ليرى أمانيه تتحقّق، كان كما قال في المقدمة مصمّماً على تعلم اللغة الفرنسية لأنها لغة العالم في عهده، ويذكر أنّه بمجرد ما بدأ يتفهّم هذه اللغة زادت عند الرغبة للتعرّف على كل جديد بأوروبا، وكوّس نفسه بالكامل لدراسة الجغرافيا والتاريخ والسياسة والقانون العام، وراح يملأ أوقات فراغه بملاحظة كل ما يتاح له حول النظام المالي للقوى الأوروبية، عن حالتها العسكرية، عن قواتها البحرية، باختصار كل ما يتعلّق بالحكومة، ويذكر بامتنان شديد بأنّ كل ما كان يفعله ويتعلّمه بأوروبا كان برعاية سامية من السلطان سليم الثالث³.

هكذا رأينا أنّ الدولة العثمانية منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي كانت ترسل مبعوثين وسفراء إلى العواصم الأوروبية لأغراض محدّدة وفق منظورها كقوة لا نظير لها فيما جاورها، ولكن حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي لم يشعر الباب العالي بحاجته إلى تأسيس سفارات دائمة بالعواصم الأوروبية الرئيسية، وهو أمر كان يخدم الدولة العثمانية وكذا الأوروبيين كما علمنا وقد حدث التغيّر الجذري في الفكر الدبلوماسي العثماني تجاه أوروبا نتيجة لضعف موقعها السياسي واختلال ميزان القوى لصالح أعدائها.

¹ - Virginia H. Aksan: Op.cit, P226.

² - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 383.

³ - Mahmoun Rayf Efendi : **Tableau des Nouveaux Reglements de L'Empire Ottoman composé par Mahmoud Rayf Efendi, ci-devant Secrétaire de l'Ambassade Impériale près de la Cour d'Angleterre**, sous la direction de : Abdurrahman Efendi, la nouvelle imprimerie du Génie, Constantinople, 1798.

إدراك رجال الدولة العثمانية بتدني مرتبة الدولة في ميزان القوى الدولية جعلها تنفتح على مسألة إقامة سفارات دائمة من أجل الاطلاع عن كثب حول ما يحدث داخل أوروبا الجديدة؛ فرأينا أنه ابتداءً من عهد سليم الثالث أصبح هناك اتجاه لتبني السفارات الدائمة بالعواصم الأوروبية لنقل ما سمي بروح أوروبا إلى الجسد العثماني الذابل، وتعزز الأمر مع محمود الثاني بإنشاء وزارة الخارجية ومكتب الترجمة، حيث لعب السفراء العثمانيون وفي مقدمتهم الذين انتموا لفئة الكتاب من أهل القلم من موقعهم كوسطاء بين الشرق والغرب خلال القرن الثاني والثالث عشر الهجري/الثامن والتاسع عشر الميلادي دورًا أساسيًا في نشر الأفكار والحداثة الأوروبية بين النخب العثمانية، وبتزويد رواد الإصلاح بما يحتاجونه من أفكار ومشاريع إصلاحية أوروبية للقيام بأعباء إصلاحاتهم.

المبحث الثالث: أبو بكر راتب أفندي ومحمد سعيد خالد أفندي

نظرة عامة حول السفارت نامہ (Sefâretnâme)
ترجمة رئيس الكتاب ومعلم السلطان أبو بكر راتب أفندي
سفارة أبو بكر راتب أفندي إلى فيينا
ترجمة شيخ الدولة محمد سعيد خالد أفندي
موقف خالد أفندي من الغرب والإصلاحيين

بعد أن رأينا الأدوار الكبيرة والخدمات الجليلة التي قدّمها منتسبوا فئة الكتاب من أهل القلم في الصدارة والسفارة في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، والنصف الأوّل من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي قبل التنظيمات، نتطرّق في المبحث الأخير من الفصل الرابع إلى عيّنة من السفراء الذين أسهموا بأفكارهم في إحداث نقلة نوعية بطرح الأفكار الغربية على النخبة العثمانية من خلال تقاريرهم ولوائحهم وما خلفوه من سفارت نامه، هذه الأخيرة التي سيتمّ الحديث عنها هنا بمزيد من التفصيل نظرا لإسهامها في نقل روح أوروبا إلى القصر الهمايوني والباب العالي.

نظرة عامة حول السفارت نامه (Sefâretnâme)

تعتبر كتب السفارت نامه (Sefâretnâme) من أهم مصادر الدبلوماسية العثمانية إلى جانب كونها من أهم الآثار الماديّة على مدى اهتمام السفراء بنقل أوضاع أوروبا الجديدة إلى الطبقة الحاكمة والنخبة العثمانية، فقد تزايدت أهمية معرفة سر تطوّر أوروبا وتفوّقها على العثمانيين بداية من القرن الثامن عشر وما بعده، فكانت المهمة الرئيسة لأولئك السفراء إلى جانب الشؤون اليومية للسفارات أن يتعلّموا بقدر الإمكان عن البلدان التي أرسلوا إليها؛ وهذا يشمل اللّغة والمجالات المختلفة؛ عسكرية واجتماعية وثقافية واقتصادية، ويدوّنوا ما تعلموه وخبروه ولاحظوه ليستفيد منه صانع القرار. سجّل معظم السفراء العثمانيون تجاربهم في ما يعرف بسفارت نامه أو تقرير سفارت (Sefâret takrir)، وعلى الرغم من أن لدينا أمثلة مبكّرة من كتب السفارات يعود تاريخها إلى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولاحقا إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، إلاّ أنّه لم يكن من الشائع لدى السفراء أو حاشيتهم أن يكتبوا حسابًا عامًا لأسفارهم والملاحظات والتجارب التي عاشوها، إمّا اكتفوا بالمراسلات الرسمية، تمت كتابة معظم كتب أو تقارير السفارات الموجودة في القرنين الثاني والثالث عشر الهجري/الثامن والتاسع عشر الميلادي بواسطة سفراء مؤقتين ومقيمين قضا عدة أشهر في مناصبهم، وقد تمت كتابة هذه التقارير في شكل تقرير مفصّل أو على شكل رسائل أو كُتبيات أو على شكل كتاب حوادث؛ حوادث نامه (Havadisnâme) وتلخيص (telhise)، وأحيانا في صورة لائحة (layiha)، وجميعها تندرج تحت مُسمّى السفارت نامه وصل إلينا بشكل جزئي أو كلي أكثر من 45 سفارت نامه، وعلى الرغم من وجودها بشكل رئيسي في تركيا، إلاّ أنّ بعضها يوجد في المكتبات ودور المحفوظات بفرنسا والنمسا وألمانيا ومصر¹.

¹ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P175.

يُذكر أنّ أول أسماء هذه السفارات نامه أو مذكرات المبعوثين هي سفارت نامه خوجا غياث الدين نقاش¹ المعروف بـ نقاش، الذي أرسل إلى الصين في 822-824هـ/1419-1421م وعنوان مذكراته: عجائب اللطائف، سفارة نامه الصين (Hitay Sefaretnamesi ،Acaibü'l-Letaif)² وآخرها حسب علمنا هي ما كتبه أحد أعلام فئة الكتاب من أهل القلم محمد طاهر منيف باشا³ بعنوان رسالة إيران (İran Risâlesi) وذلك بتاريخ 1289-1294هـ/1872-1877، وتحتوي معظم السفارات نامه على سرد للرحلة التي تمت، ووصف البلدان وشعوبها التي يمر بها السفير والبعثة الدبلوماسية التي يتولى مسؤوليتها، بينما تركز بعضها فقط للمهمة الدبلوماسية للسفير، إنّ السفارات

¹. لم أقف على ترجمته.

² - كاثاي (Hitay) وهو الاسم الذي أطلقه الأوروبيون في العصور الوسطى على شمال الصين، والكلمة مشتقة من الخيتاي أو الخطا وهي اسم القبائل التي هاجرت إلى جنوب شرق منغوليا في القرن العاشر الميلادي لغزو جزء من منشوريا وشمال الصين ينظر: The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Cathay, Medieval Region, China**, <https://www.britannica.com/topic/Mongol> .

وخوجا غياث الدين نقاش هو مبعوث سلطان الدولة التيمورية شاه رخ بن تيمورلنك ميرزا (1405-1447م) في مهمة إلى الصين التي حكمها سليل أسرة مينغ الإمبراطور يونغلي (1402 - 1424م). وقد ترجمها إلى التركية العثمانية مؤرخ الدولة الرسمي والشاعر وشيخ الإسلام قاسم أفندي جلي زاده (ت 1760م) سنة 1729م بأمر من دمادا إبراهيم باشا نوشهري. ينظر:

Don Juan Archiv Wien International Symposium: **Ottoman Empire and European Theatre, VII. Culture of Politics or Cultural Politics** - Act Two: Representation, Theatricality and Cultural Transfer in the Ottoman-European Diplomatic Relations, on the 630th Anniversary of the first Ottoman Envoy to Venice in 1348, Forschungsverein für Theater- und Kulturgeschichte, Under the patronage of Exc. Hasan Göğüş Ambassador of the Republic of Turkey in Vienna & Exc. Dr. Klaus Wölfer Ambassador of the Republic of Austria in Ankara, Don Juan Archiv Wien, Vienna, 5-6 June 2014, P3.

³. اسمه الحقيقي هو محمد طاهر. يختلف في تاريخ ميلاده من (1824-1825م) إلى (1830-1831م) بدأ تعليمه الأول بمدرسة نور عثمانى (Nuruosmaniye) بعنتاب [جنوب تركيا]، ثم واصل دراسته بالقاهرة، تعلّم هناك العربية كما تعلم الفارسية وتعرّف بمصر على الثقافة الأوروبية وبدأ هناك تعلم اللغة الفرنسية. عمل في ديوان القلم بالمجلس الكبير (Meclis-i Kebîr) (Kalemi) بدمشق لمدة سنتين. ثم انتقل إلى إستانبول سنة 1852م، وأصبح مترجماً للغتين العربية والفارسية في غرفة ترجمة الباب العالي (Bâbîâlî Tercüme Odası). في سنة 1855م عيّن كاتب ثاني بسفارة برلين، ثم كاتب أول (başkâtip) بالسفارة وهناك تعرف على الحضارة الغربية وقرأ أعمال مفكري التنوير البارزين، في سنة 1857م عاد منيف محمد من برلين ودخل غرفة الترجمة للمرة الثانية، عمل كاتباً بجريدة الحوادث ثم تقلّد عدّة مناصب من بينها رئيس مجلس المعارف الكبير (Meclis-i Kebîr) (i Maârif) سنة 1869م، سفير طهران مرتين آخرها سنة 1894م وهي آخر مهمة رسمية له. توفي في 6 فبراير 1910م. ترك عدّة مؤلفات ورسائل ومقالات منها: ديوان شعر بعنوان: (Dâstân-ı Âl-i Osmân)، وكتاب في القانون بعنوان (Hikmet-i Hükük)، وهو أول دراسة في مجال القانون في تركيا. تاريخ حكماء اليونان، رسالة إيران (İran Risâlesi)، ترجم بعض أعمال فولتير، كما ترجم رواية البؤساء لفكتور هوجو. ينظر:

Ismail Dogan: **Münif Mehmed Paşa (1830-1910), Osmanlı devlet adamı, eğitimci ve düşünür**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 32, İstanbul, 2006, sayfa 9-12.

نامه حسب المعلومات التي تقدّمها لنا، تكتسي أهمية كبيرة سواء من وجهة نظر التاريخ الدبلوماسي أو السياسي وكذلك من وجهة نظر الأدب العثماني وعادات البلدان المعنية¹.

كتب السفارت نامه هي تقارير كتب فيها المبعوثون العثمانيون ملاحظاتهم وتصوراتهم

¹ - Azmi Süslü: Op.cit, P236.

الباحث والمؤرخ التركي الدكتور عزمي سوسلو في بحثه : لمحة عامة عن السفراء العثمانيين ومذكرات سفرهم "سفارت نامه" (Un aperçu sur les Ambassadeurs ottomans et leurs sefaretname) المنشور في مجلّة الأبحاث التاريخية (Tarih Araştırmaları Dergisi) بجامعة انقره (Ankara Üniversitesi) في عددها 25 المجلّد 14، وضع قائمة بالسفراء الأتراك وسفارت نامه الخاصة والمصادر التي أشارت لتلك السفارت نامه مصنّفة بحسب الدول والعواصم الأجنبية الأوروبية وغير الأوروبية نذكر فقط البعثات التي تركت سفارت نامه: إنجلترا منذ سنة 1619م إلى 1896م (26 بعثة) ثلاثة سفارت نامه/ النمسا منذ 14م إلى 1895م (72 بعثة) 9 سفارت نامه/ بخارى بعثتان سفارت نامه واحدة/ الصين بعثة واحدة سنة 1419م سفارت نامه واحدة/ إسبانيا منذ 1787م إلى 1899م (6 بعثات) سفارت نامه واحدة/ فرنسا منذ 1559م إلى 1902م (55 بعثة) 7 سفارت نامه/ إيطاليا منذ 1838م إلى 1880م (7 بعثات) سفارت نامه واحدة/ المغرب منذ 1606م إلى 1787م (5 بعثات) 2 سفارت نامه/ فارس منذ 1508م إلى 1902م (57 بعثة) 7 سفارت نامه/ بولونيا منذ 1443م إلى 1758م (20 بعثة) 2 سفارت نامه/ بروسيا منذ 1764م إلى 1778م (3 بعثات) 2 سفارت نامه/ روسيا منذ 1514م إلى 1889م (33 بعثة) 8 سفارت نامه/ السويد منذ 1714م إلى 1902م (8 بعثات) سفارت نامه واحدة/ مجموع كل السفارت نامه لهذه البعثات هو 45. ينظر: Ibid, P237-249.

أول بعثة عثمانية كانت باتجاه الشرق تحديدا مصر سنة 1396م، مع أنّ مرادجه دوهسون يذكر أنّ البعثة العثمانية إلى مصر كانت قبل ذلك التاريخ بسبع سنوات، سنة 1389م حين بعث السلطان بايزيد الأول سفارة مهيبة إلى الخليفة العباسي بالقاهرة محمد الحادي عشر، مع رسائل التبرّجيل والهدايا الثمينة، من أجل أن يتألّ مُباركته وتنصيبه سُلطانا على المناطق التي ورثها عن أسلافه.

ينظر: Mouradja.D'Ohsson: Op.cit, Tom1, P233-234.

وربما تكون بعثة سنة 1396م بعثة ثانية لإبلاغ الخليفة بالقاهرة بنصر السلطان بايزيد الأول على التحالف الصليبي في معركة نيقوبوليس الشهيرة. وحسب جدول عزمي سوسلو أولى البعثات العثمانية باتجاه أوروبا كانت سنة 1410م إلى بيزنطة ثم البندقية سنة 1417م. وإذا استخلصنا من جدولها فقط البعثات الدبلوماسية العثمانية إلى الدول الأوروبية انطلاقا من 1703م إلى نهاية القرن التاسع عشر فإنّها بالترتيب كما يلي: النمسا من 1703م إلى 1895م (37 بعثة) 5 سفارت نامه/ فرنسا منذ 1707م إلى 1902م (47 بعثة) 7 سفارت نامه/ بولونيا من 1710م إلى 1758م (6 بعثات) 2 سفارت نامه/ نابولي سنة 1711م/ السويد منذ 1714م إلى 1902م (8 بعثات) سفارت نامه واحدة. / روسيا منذ 1721م إلى 1889م (28 بعثة) 8 سفارت نامه / بروسيا منذ 1764م إلى 1778م (3 بعثات) 2 سفارت نامه / إسبانيا منذ 1787م إلى 1899م (6 بعثات) سفارت نامه واحدة. / برلين منذ 1790م إلى 1897م (17 بعثة). إنجلترا من سنة 1793م إلى 1896م (25 بعثة) 3 سفارت نامه / اليونان منذ 1836م إلى 1897م (21 بعثة) إيطاليا منذ 1838م إلى 1880م (7 بعثات) سفارت نامه واحدة / هولندا منذ 1853م إلى 1897م (4 بعثات) / بلجيكا منذ 1857م إلى 1902م (3 بعثات). مجموع البعثات طوال قرابة قرنين من سنة 1703م إلى 1902م هو 213 بعثة، وعدد السفارت نامه 30. أكثر الدّول الأوروبية التي توجّهت لها البعثات العثمانية هي: فرنسا (47 بعثة)، النمسا (37 بعثة)، روسيا (28 بعثة)، إنجلترا (25 بعثة). ينظر:

(الملحق 26) جدول السفراء الذين تركوا سفارت نامه (فترة البحث)، ص637.

عن البلدان التي ظلوا فيها في مهمة رسمية، وهي تختلف عن رسائلهم الشخصية أو الرسائل الرسمية ولا تحتوي على أي ذكر للأسرار¹، وعلى الرغم من عدم وجود نموذج قياسي لكتابة السفارت نامه فإنها بشكل عام تعتبر مذكرات سفر السفراء العثمانيين، ضمت بين ثناياها وصف الحقائق والترجمات السريعة والانطباعات الفورية والمحادثات مع الوزراء واللقاءات مع الأمراء والملوك، يختلف محتوى السفارت نامه وفقاً للوضع الاجتماعي والسياسي والاهتمامات والخلفية التعليمية للمبعوثين، ووفقاً لغرض الزيارة وظروف المهمة².

تختلف مع ذلك بعض كتب السفارت نامه أو التقارير نامه في طبيعتها عن غيرها من الكتب والتقارير، فهي تتجاوز الأوصاف الجغرافية والمشاكل المتعلقة بأساليب البروتوكول وقواعده، ويتركز اهتمامها في القوة الهيكلية (بما في ذلك الاقتصادية والعسكرية والإدارية) ومستوى تطور الدول مع مجموعة متنوعة من الابتكارات التي تمت ملاحظتها، توفر هذه التقارير معلومات داخلية وتقدم لمحة عامة عن الدول الرائدة في أوروبا مثل فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا فضلاً عن تحليل وتفسير السفير لبعض مشاهداته وتقييماته للتطورات الخاصة بأوروبا.

تشبه السفارت نامه بشكل ملحوظ إلى حد ما التقارير النهائية (Relazioni)³ لسفراء البندقية على الرغم من أن الدولة العثمانية لم تُلزم مبعوثيها بكتابة تقارير من نوع سفارت نامه، على عكس ما كان معمولاً به في جمهورية البندقية التي ألزمت سفراءها بكتابة تقرير نهائي عند تمام خدمتهم الرسمية فقد كان مفهوماً لدى السفراء العثمانيين أن ثمة حاجة إلى تقريرهم خاصة في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي عندما كان هناك حاجة متزايدة للتحويل الشامل داخل الدولة العثمانية، وقد حملت السفارت نامه معرفة مباشرة بأوروبا وزوّدت القادة العثمانيين بمعلومات دقيقة بشكل عام عن نظرائهم الأوروبيين. في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي عندما ظهرت علامات الانحطاط على الدولة العثمانية لعبت كتب السفارت نامه دوراً حاسماً في تزويد السلاطين العثمانيين - الذين أرادوا تحديث الدولة من أجل استعادة مجدها السابق - بالمعرفة السليمة حول أوروبا في المجالات الإدارية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية.

¹ . ذلك الوضع لم يختلف كثيراً عن وضع كتابات سفراء الدول الأجنبية الذين قدموا إلى الدولة العثمانية باستثناء ستيفان جيرلاخ (Stephan Gerlach) (1546-1612م) أحد أعضاء السفارة النمساوية، ففي مذكراتهم تحدّث هؤلاء السفراء عن جمال إستانبول وروعة المساجد والقصور والوضع الاجتماعي والاقتصادي للشعب والهيكل الإداري، لكنهم لم يتطرقوا لمهامهم السياسية والدبلوماسية. ينظر: Mehmet İpşirli: Op.cit, sayfa 14 .

² - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P175-176.

³ . حولها ينظر: الفصل الثالث: العثمانيون في المنظور الأوروبي، التأثير والتأثر. المبحث الأول: تطور نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين.

رأينا سابقا كيف تم التّعرف على الشعب البريطاني ونظامه بفضل التقارير الكثيرة التي قدمها السفير يوسف آغا أفندي وسكرتيره العام محمود رايف أفندي، فقد اهتم يوسف آغا أفندي كما رأينا بشكل رئيسي بالشؤون البريطانية والأوروبية، حيث كان يلحّص ما جاء في الصحف مع تعليقاته حول ما جاء فيها، وتمكن العثمانيون من تعلّم تفاصيل قيّمة عن نظام الدولة النمساوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة مع جميع مؤسساتها التي يحكمها آل هابسبورغ من خلال ذلك النوع من السفارات نامه، ومن خلالها أيضا تمّ التّعرف على نظام الدولة البروسية وأسلوب حياة وعادات وأخلاق سكانها¹، وكذا فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية المركزية والهامشية.

قدّمت كل تقارير السفارات نامه والعديد من المصادر الأخرى معرفة مهمة بأوروبا بأمانة قيّمة وساهمت باستفاضة في أنشطة الإصلاحيين لإعادة تنظيم المؤسسات العثمانية وتحسينها وفقاً للأساليب الأوروبية، بالتأكيد سرّع ذلك من عملية التغريب، وأفضل مثال على ذلك، الجهود التي بذلت في سبيل تطوير الدبلوماسية العثمانية وصولاً إلى إنشاء وزارة الخارجية العثمانية وفقاً لنظيراتها الأوروبية، من زاوية أخرى يمكن اعتبار السفارات نامه مصدراً مهماً لدراسات التاريخ المقارن للحضارات؛ من حيث كونها تعكس تصورات العالم الشرقي حول تطور جميع المجالات في الأراضي الأجنبية، من وجهة النظر هذه يمكنها تزويدنا بمفاهيم مثيرة للاهتمام لفهم العلاقات الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية

¹. من خلال سفارات نامه مصطفى أفندي وأبو بكر راتب أفندي تعرّف العثمانيون على النمسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ زوّد مصطفى أفندي العثمانيين بمعلومات خاصة عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث يصف تكوين الإمبراطورية بما في ذلك الدول الخاضعة لها وتنظيم السلطة فيما بينها وبين تلك الدول الخاضعة، ويتحدّث عن كيفية تنويع الإمبراطور، وموقفه تجاه جيرانه والدول الأخرى، عائداته العادية والاستثنائية، القوة المالية والعسكرية للإمبراطورية، درجات طبقة النبلاء وامتيازاتهم وعلاقاتهم مع الإمبراطور، كما أنه يقوم بتحليل مهم جداً للنظام الاقتصادي للإمبراطورية الرومانية المقدسة، يذهب أبو بكر راتب أفندي إلى أبعد من ذلك ويقارن أنظمة الحكم في الإمبراطوريتين، مما يعطي بعض الأفكار لتحسين النظام العثماني، من المعتقد أنّ هذه السفارات نامه وخاصة اللائحة (layiha) الكبيرة لأبي بكر راتب أفندي قد اقترحت برنامجاً شاملاً على السلطان وقدّمت إسهاماً مهماً جداً في حركة تحديث الدولة العثمانية خلال فترة حكم سليم الثالث. ينظر:

A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P176-177 .

المثالان المهمان اللذان تمكّن من خلاهما العثمانيون تصوّر نظام الدولة البروسية هما سفارت نامه كل من أحمد رسمي أفندي وأحمد عزمي أفندي؛ على الرغم من أن كتاب سفارت نامه أحمد رسمي أفندي صغير نسبياً إلا أنّه يُلحّص أداء نظام الدولة النمساوية بكل مؤسساتها، يقوم أحمد عزمي أفندي بتحليل دقيق للغاية مثل أبو بكر راتب أفندي ويقدم تقريراً مفصلاً بشكل استثنائي عن الهيكل الاقتصادي والاجتماعي والعسكري والإداري للدولة البروسية، وكذلك عن أسلوب حياة وعادات وأخلاق سكانها. توصيفه وتصويره لملك بروسيا فريدريك الأكبر يقدمان أدلة مثيرة للاهتمام حول طبيعة التصورات العثمانية للقيادة والإدارة بشكل عام وتقديم بعض الإسقاطات حول كيفية تصرف الحاكم من أجل رفاهية شعبه. ينظر: Ibid, P177.

والثقافية بين الدولة العثمانية ودول أوروبا، ونظرًا لأن السفارات نامه تمثل الانطباعات الأولى للمبعوثين العثمانيين، فقد تتضمن أيضًا بعض التفاصيل البالغة الأهمية في جميع المجالات لدارسي التاريخ الأوروبي. تجدر الإشارة إلى أنّ كل تقارير السفارات نامه كتبت باللغة التركية العثمانية ما خلا سفارت نامه محمود رايف أفندي "يوميات رحلة محمود رايف أفندي إلى إنجلترا، التي كتبها بنفسه (Journal du voyage de Mahmoud Raif Efendi en Angleterre, écrit par lui même) التي كتبت باللغة الفرنسية¹، ربما ليطلع عليها عدد قليل من النخبة العثمانية المهتمة بالغرب، والكثير من تلك التقارير ترجمت إلى اللغات الأوروبية الفرنسية والإنجليزية والألمانية وقليل منها ترجم إلى اللغة العربية.

كانت تلك نظرة عامة حول السفارات نامه كتراث مادي أسهم في تنوير السلطة الحاكمة والنخبة العثمانية بالتغيرات الحاصلة بأوروبا، ورغم غلبة التيار المحافظ فإنّ ملاحظات وتقييمات كتبة السفارات نامه وغيرها من التقارير واللوائح نجدها حاضرة بقوة في عهد التنظيمات التي اعتمدها الدولة العثمانية انطلاقًا من سنة 1255هـ/1839م، لقد كانوا بلا ريب سفراء الحداثة والتغريب الناعم في الدولة العثمانية، وساهموا شيئًا فشيئًا في تغيير الرؤى والأفكار وحتى الأذواق.

نظرًا لأهمية دور السفراء وتقاريرهم في عملية الإصلاح العثماني؛ إذ ما كان لعهد التوليب أن يبرز نجمه لولا سفارة محمد جلبي يرميسكيز وإخوانه السفراء وتقاريرهم، وما كان لأهم صدر أعظم مصلح في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي أن يظفر بمكثدا لقب لولا تقارير السفير أحمد رسمي أفندي وأضرابه من السفراء، وأعظم سلطان مصلح في نهاية القرن نفسه مدين في فلسفته الإصلاحية لرجالات فئة الكتاب وعلى رأسهم السفراء الذين مثلوا بجدارة واستحقاق الجسر الحضاري بين شرق يتداعى وغرب يستيقظ، نظرًا لكل ذلك وجب تسليط الضوء على علّم من أعلام السفارة كان إسهامه مميزًا في ذلك السياق ألا وهو: أبو بكر راتب أفندي.

ترجمة رئيس الكتاب ومعلم السلطان أبو بكر راتب أفندي

أبو بكر راتب أفندي أحد رجال الدولة البارزين وأحد أعلام فئة الكتاب من أهل القلم رئيس الكتاب وسفير العثمانيين بفيينا ومعلم وصديق السلطان سليم الثالث وأهل ثقته، جاء في ترجمته أنّه: ولد في سنة 1162هـ/1749م في مدينة طوسيه (Tosya) [شمال تركيا بين البحر الأسود ووسط الأناضول]، كان والده السنكري علي أفندي مدرّسًا بمدرسة في طوسيه، تلقى تعليمه الأوّل بمسقط رأسه على يد والده، ذهب في سن الخامسة عشر إلى إستانبول من أجل الحصول على تعليم أفضل

¹ - Ibid, P187.

هناك باعتبارها عاصمة الدولة العثمانية، انتمى بعدها إلى [فئة الكتاب] أو سلك القلمية نواة المنظومة الإدارية العثمانية، بدلاً من سلك العلمية حيث العلماء، ومع ذلك خلال السنوات التي قضاها في المنظومة الإدارية واصل راتب أفندي دراساته، قام بتحسين لغته العربية والفارسية خلال هذه السنوات لدرجة مكنته من قرض الشعر باللغتين، يجب أن نضع في اعتبارنا أن المنظومة الإدارية كانت أيضاً بمثابة مركز للتعلّم في الدولة العثمانية، دخل مكتب الأمدي (Âmedî kalemi) تحت إشراف أدهم أفندي¹ الذي أصبح مدرس راتب أفندي في المنظومة الإدارية، بعد وفاة أدهم أفندي سنة 1177هـ/1763م واصل العمل في نفس المكتب².

عندما تولى خليل حميد باشا منصب رئيس مكتب الأمدي واصل راتب أفندي العمل تحت إمرته، كانت الفصائلية سمة المنظومة الإدارية العثمانية في ذلك الوقت؛ انتسب راتب أفندي إلى فصيل بقيادة خليل حميد باشا المصلح الكبير [كما علمنا من قبل]، وربما كان موقف راتب أفندي تجاه مشاكل الدولة العثمانية قد تأثر بخليل حميد باشا، عندما تم تعيين الأخير بمنصب التذكري الكبير (Büyük Tezkireci)³ في ربيع الآخر 1193هـ/ماي 1779م تولى راتب أفندي رئاسة مكتب الأمدي في العام نفسه، بالإضافة إلى ذلك عندما تولى خليل حميد باشا منصب الصدر الأعظم خلال (1196-1199هـ/1782-1785) عزز منصبه كرئيس لمكتب الأمدي، وعلى الرغم من إعدام حميد باشا سنة 1199هـ/1785م، ظلّ راتب أفندي في نفس المكتب حتى سنة 1202هـ/1788م⁴.

تم تعيينه كاتب السباهية (sipah kâtibi) وهو منصب أقل نفوذاً مقارنةً بمنصب الأمدجي في سنة 1202هـ/1788م احتفظ بمنصبه كاتب السباهية لفترة قصيرة وشارك في الحملة ضد روسيا بصفته كاتب السلحدار (silahdar katibi) سكرتير القسم الثاني من وحدات سلاح الفرسان بالقصر الهمايوني، حقيقة أن راتب أفندي شغل منصبه كرئيس لمكتب الأمدي لفترة طويلة هي سبع سنوات ربما كان له تأثير حاسم على تفكيره، فقد كان هذا المكتب مسؤولاً عن إعداد التقارير التي سيقدمها

¹ . لم أقف على ترجمته.

² - Bayram, Fatih: **Ebubekir Ratib Efendi as an Ottoman envoy of knowledge between the east and the west**, In Partial fulfillment of the requirements For the Degree of Master of Arts in History, The Institute of Economics and Social Sciences, Bilkent University, September 2000, P7.

³ . مدير المكتب الخاص بالصدر الأعظم أو الوزراء الآخرين، أو المسؤول عن الأمور الكتابية في الديوان الهمايوني. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص73.

⁴ - Bayram, Fatih: Op.cit, P8.

الصدر الأعظم للسلطان، الأهم من ذلك كان مكتب الأمدي مسؤولاً أيضاً عن إعداد مسودات لخطابات يرسلها الصدر الأعظم إلى الملوك وكبار المسؤولين في الدول الأجنبية¹.

نظراً لمهاراته في الكتابة بخط "تعليق" (Talik hattı)² قام راتب أفندي بتدريس الخط للأمير سليم، كما ساعد سليم بشكل كبير في كتابة رسائله إلى ملك فرنسا لويس السادس عشر خلال (1200-1201هـ/1786-1787) في الوقت الذي كان يشغل فيه منصب رئيس مكتب أميدي المسؤولاً عن إعداد الرسائل لإرسالها إلى قادة الدول الأجنبية³.

صداقة راتب أفندي مع سليم أثمرت عندما تولى الأخير العرش باسم سليم الثالث إذ عين راتب أفندي تذكرجي أولاً (Tezkire-i Evvel) سنة 1222هـ/1789م، وما لبث أن دعا السلطان راتب أفندي إلى القصر ليعينه في منصب مهم، غير أن راتب أفندي رفض الحضور للقصر!!! بسبب أن القمر كان على برج العقرب في ذلك اليوم!!! فقد كان يؤمن بعلم التنجيم!!! فأمر السلطان الغاضب بأن يظل راتب أفندي في منصبه الأول، وبعد فترة وجيزة تم نفيه إلى جزيرة بوركادا [شمال بحر إيجه]، ربما بسبب الصراع بين النخبة في المنظومة الإدارية العثمانية، أثناء إقامته في بوركادا أرسل راتب أفندي رسالة إلى السلطان يستعطفه وطلب منه العفو وأن يخدم في أي منصب بالجيش، فغفر له السلطان وعينه كاتباً لدى الإنكشارية (yeniçeri kâtibi)، ومن المثير للاهتمام أن السلطان لم يعينه في منصب بإستانبول ربما بسبب خصوم راتب أفندي، بدلاً من ذلك انضم إلى الإنكشارية بمدينة سيلبيسترا شمال شرق بلغاريا جنوب نهر الدانوب⁴.

عين في نهاية سنة 1206هـ/1791م سفيرا بفينينا، وبعد عودته من فيينا تم تعيينه بمنصب كبير المحاسبين (başmuhasebeci) سنة 1209هـ/1794م، ثم في سنة 1210هـ/1795م رئيساً للكتاب نظراً لخدماته الكبيرة ومعرفته بشؤون الدولة، ومع ذلك فإن أولئك الذين عارضوا أفكاره المبتكرة زادوا من نشاطهم ضده؛ وبعد خمسة عشر شهراً استطاعوا إثارة السلطان ضده، فعزل من منصبه بافتراءات وشائعات ونفي إلى جزيرة رودس في ربيع الأول 1211هـ/سبتمبر 1796م، لم تنجح

¹ - Bayram, Fatih: Op.cit, P8.

² . هو نوع من النصوص تم تطويره من خطي التوقيعي والرقعي في إيران. أطلق على النمط الجديد لهذه الكتابات الناتجة عن التغيير في إيران والبلدان الواقعة في الجزء الشرقي من إيران اسم الأسلوب التعليق الجديد (yeni üslûba ta'lik). وقيل أنه سمي تعليق لأنه لا يزال معلق بين خطي التوقيعي والرقعي. دخل إلى القصر العثماني مع محمد الفاتح. ينظر:

M. Uğur Derman : Ta'lik تعليق، *Altı çeşit yazının dışında İran'da ortaya çıkan kadîm bir yazı türü*, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 39, 2010, sayfa 507.

³ - Bayram, Fatih: Op.cit, P9- 10.

⁴ - Ibid, P11-12.

محاولات بعض أصدقائه للحصول على عفو لصالحه من السلطان، وأعدم أبو بكر راتب أفندي برودس بعد ثلاث سنوات في المنفى في 5 صفر 1214هـ / 8 جويلية 1799م، ترك راتب أفندي بالإضافة إلى شعره بثلاث لغات عملين هما سبب شهرته: السفارت نامه، واللائحة الكبيرة (Büyük Lâyiha)¹. تلك سيرة حياة رجل أفنى حياته في خدمة الدولة العثمانية، ودفع حياته ثمنا لصراع الأجنحة المقيت داخل المنظومة الإدارية العثمانية، ولم يكن أول ضحاياه ولا كان الأخير، عاصر راتب أفندي اثنين من أهم شخصيات القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي في الدولة العثمانية: الصدر الأعظم الإصلاحى خليل حميد باشا، والسلطان سليم الثالث، ولا ريب أن تأثير خليل حميد باشا كان كبيرا عليه باعتباره خدم تحت إمرته لمدة طويلة، مما رشّحه ليكون أكثر حاشية السلطان سليم الثالث نفوذا وتأثيرا في إصلاحاته.

يُعتبر السلطان سليم الثالث عادةً المصلح الأكثر أهمية في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، ولكنه مدين في جزء كبير من إنجازاته إلى الجهود الإصلاحية السابقة للصدر الأعظم الأوائل وبينما كان السلطان سليم لا يزال وريثا للعرش شرع في مراسلة ملك فرنسا لويس السادس عشر فيما يتعلق بنوع الإصلاح الذي سيكون مناسباً أكثر للدولة العثمانية، كما أرسل سرا مبعوثاً شخصياً إلى البلاط الفرنسي ومرة أخرى يبدو من خلال هذه المراسلات أنّ الذي شجّع سليم عليها هو أبو بكر راتب أفندي وكيل الدولة للشؤون الخارجية، الذي بدأ العمل من ذلك الوقت مع سليم².

ظهرت أول نظرية إصلاحية بمذكرة أبو بكر راتب أفندي إلى سليم استهدفت إعادة صياغة الممارسات العسكرية العثمانية، أعلن أبو بكر راتب أفندي بأنها "إصلاح يتمشى مع ممارسة أسلافي" ولكن في سنة 1205هـ/1791م وبعد ترؤسه لبعثة دبلوماسية إلى فيينا قام أبو بكر راتب أفندي خلالها بفحص الجيش والإدارة النمساوية، فغيّر رأيه وانبرى لتشجيع فكرة تبني الدولة العثمانية لأهم التقنيات العسكرية الأوروبية³، بعد أن عاين الفرق بين الجيش الحديث والجيش العثماني القديم.

أحدث سفارة أبو بكر راتب أفندي إلى فيينا انقلابا في فكره، وحاول بشغف المستكشف ألا يكتفي بنقل الأفكار الجديدة التي بمرته هناك بل عمل ما في وسعه على مساعدة السلطان سليم الثالث على تنفيذها على أرض الواقع، لكن قبل ذلك ما هي الظروف التي حدثت فيها هذه السفارة؟

¹ - Sema Arikian: *Ebubekir Râtib Efendi (ö. 1214/1799) Osmanlı Devleti'nin son geçici Avusturya elçisi ve sefâretnâme müellifi*, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 10, İstanbul, 1994, sayfa 278.

² - Şerif Mardin: Op.cit, P144.

³ - Loc.cit.

وكيف سمح إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة باطلاع أعدائه العثمانيين على مكنن القوة الجديدة لهابسبورغ؟؟

سفارة أبو بكر راتب أفندي إلى فيينا

تشارك إمبراطورية هابسبورغ في تاريخ طويل ومثير للجدل مع الدولة العثمانية وعلى الأخص على الأراضي في جنوب ووسط أوروبا، وقبل ما يزيد قليلاً عن مائة عام من زيارة أبو بكر راتب أفندي لفيينا حاول الجيش العثماني فتح فيينا سنة 1094هـ/1683م، ولا يزال ذلك التاريخ محفوراً في ذاكرة المنضوين تحت حكم هابسبورغ بعد مرور مائة عام؛ فقد تم الاحتفال بالذكرى المئوية للحصار في سنة 1197هـ/1783م بالعديد من الأوبرات والمسرحيات والقصائد، حتى أن المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر المتوفى سنة 1272هـ/1856م قد وصف جرساً في مسقط رأسه مدينة غراتس (Graz) [جنوب شرق النمسا] بأنه كان يرنّ ثلاث مرات يومياً لتذكير السكان بالتهديد العثماني¹.

استمرت آخر حرب بين هابسبورغ والعثمانيين من سنة 1201هـ/1787م إلى سنة 1205هـ/1791م؛ كان ذلك نتيجة لتحالف بين روسيا وإمبراطورية هابسبورغ، رأى هؤلاء في تحالفهم مع روسيا ضد العثمانيين ضماناً ضد الحكم البروسي في أوروبا الوسطى، ومن ناحية أخرى وفي ظل كاثرتين العظمى كانت الاستراتيجية الإمبريالية لروسيا تتمثل في الوصول إلى البحر المتوسط عن طريق الحصول على موانئ بحرية على البحر الأسود، كان لدى كاثرتين أيضاً رؤية للدولة الأرثوذكسية كبديل عن الدولة العثمانية، إن التحالف مع روسيا في هذه الاستراتيجية من شأنه أن يضمن لهابسبورغ المكاسب الإقليمية المحتملة في البلقان².

مع ذلك لم تسر الأمور كما كان مخططاً لها؛ بدأت الحرب في ذي القعدة 1201هـ/ أوت 1787م بعد عدة سنوات من ضم روسيا لشبه جزيرة القرم، انضمت إمبراطورية هابسبورغ إلى روسيا ضد الدولة العثمانية، وبدأت الدولة العثمانية وهابسبورغ يفقدان أعداداً كبيرة من القوات، وارتفعت أسعار المواد الغذائية، ولم تعد الحرب تحظى بشعبية كبيرة في إمبراطورية هابسبورغ، فوقعت بروسيا معاهدة تحالف مع الإمبراطورية العثمانية، مهددة بالدخول في الحرب، وعندما بدا أن الخصمين - بروسيا وإمبراطورية هابسبورغ - على وشك الدخول في حرب، توفي إمبراطور هابسبورغ جوزيف الثاني

¹ - Lela Gibson: **Diplomacy and Cultural Exchange: Ebubekir Ratib Efendi's Mission to Vienna, 1792**, Conference Ottoman-European Exchanges in Commerce, Finance, and Culture, Newnham College, University of Cambridge, 28 - 30 March 2011, P2.

² - Loc.cit.

(Joseph II)¹، وبدأ خليفته ليوبولد الثاني (Leopold II)² في البحث عن مخرج من هذه الحرب وشجّعه على ذلك وجود مشكلة في الغرب حيث هدّدت الثورة الفرنسية النظام السائد في القارة الأوروبية، ففتّح أمامه الطريق لعقد معاهدة سلام زيسستوف مع الدولة العثمانية في 5 ذو الحجة 1205هـ/ 4 أوت 1791م، هذه المعاهدة لم تغير بشكل كبير حدود ما قبل الحرب بين هابسبورغ والدولة العثمانية، على الرغم من احتلال قوات هابسبورج لبلغراد لفترة قصيرة، ستكون هذه هي الحرب الأخيرة بين هابسبورغ والدولة العثمانية³.

بعد هذا التاريخ الطويل من الصراع لماذا تكشف إمبراطورية هابسبورغ أسرارها العسكرية للإمبراطورية العثمانية؟ الجواب يكمن في التطورات التي حدثت بفرنسا، والتي جعلت الخصمين السابقين أقرب لبعضهما البعض، كان نظام هابسبورج يبحث عن حليف جديد، فمع تأزم الأوضاع بفرنسا التي ستعكس لا محالة على أوروبا عامة وعلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة خاصة؛ فقد كانت أخت ليوبولد الثاني ماري أنطوانيت⁴ هي ملكة فرنسا؛ وكان من الواضح في سنة 1205هـ/ 1791م أن الثورة كانت تهديداً حقيقياً جداً لأمنه، ستكون مسألة وقت فقط قبل أن تدخل إمبراطورية هابسبورج الحرب ضدّ فرنسا⁵، في الواقع ستعلن فرنسا الحرب ضد النمسا خلال زيارة أبو بكر راتب أفندي وستنضم بروسيا إلى جانب النمسا بحلول صيف سنة 1206هـ/ 1792م - بعد أن يغادر أبو بكر راتب أفندي فيينا - وستبدأ حرب التحالف الأولى⁶.

¹ جوزيف الثاني (1741-1790) ملك ألمانيا (1764-1790)، ورأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1765-1790) يعتبر أحد الطغاة المستنيرين في القرن الثامن عشر. عمل على عصنة الإمبراطورية، فألغى القنانة وأصلح نظام الضرائب، ونشر التعليم، ورفع القيود عن التجارة. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 162.

² ليوبولد الثاني (1747-1792) رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1790-1792). ملك بوهيميا وهنغاريا (1790-1792). يعتبر أحد أبرز الطغاة المستنيرين في القرن الثامن عشر. ينظر: المرجع نفسه، ص 402.

³ - Lela Gibson : Op.cit, P2-3.

⁴ ماري أنطوانيت (1755-1793): أميرة نمساوية. بنت ماري تيريزا والإمبراطور فرانسيس الأول تزوّجت الدوق دي بيري ولي عهد فرنسا سنة 1770م. حتى إذا ارتقى زوجها عرش فرنسا سنة 1774م بوصفه الملك ليس السادس عشر، أصبحت ملكة فرنسا (1774-1792). أعدمت بالمقصلة خلال الثورة الفرنسية. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 407.

⁵ - Lela Gibson : Op.cit, P6.

⁶ - Ibid, P7.

حروب نابليون استدعت تحالفات أوروبية لصد خطر الثورة الفرنسية وخطر نابليون؛ حين أعلنت فرنسا الحرب على الإمبراطورية الرومانية المقدسة في 20 أبريل سنة 1792م تشكّل التحالف الأوروبي الأول ضدها. ثم تشكّل التحالف الأوروبي الثاني ضدها سنة 1799م وانضمت إليهم الدولة العثمانية بسبب احتلال نابليون لمصر ينظر:

ستجبر الثورة الفرنسية من ناحية أخرى الدولة العثمانية على البحث عن حلفاء جدد أيضا بعد تحالفها لقرون مع فرنسا؛ فقد قدمت الملكية الفرنسية منذ فترة طويلة مستشارين للجيش العثماني ففي بداية الثورة الفرنسية تبنى الباب العالي سياسة الانتظار والترقب تجاه فرنسا، وقدم راتب أفندي تقريرا عن الوضع في فرنسا من فيينا، والذي وصفه بأنه "صعود الرعاع" الناجم عن المشاكل المالية داخل الحكومة الفرنسية، وباستخدام المزيد من الإصلاحات الدبلوماسية في عهد سليم الثالث أعلنت الدولة العثمانية رسمياً تبنيها لسياسة الحياد لأول مرة في حرب التحالف الأوروبي الأولى ضد فرنسا، ومع ذلك فإن الحكومة العثمانية ستخاطر في النهاية بحرب التحالف الأوروبي الثاني مع غزو نابليون لمصر وهي ولاية عثمانية¹، مما أحدث قطيعة مؤقتة في تحالف طويل من عهد سليمان القانوني

دفعت الثورة الفرنسية وظهور نابليون الطموح ليوبولد الثاني إلى البحث عن سلام مع العثمانيين بتشجيع من بريطانيا، وهذا التغيير في التحالفات الدبلوماسية والعسكرية هو الذي جعل الإمبراطورية الرومانية المقدسة تقترب من العثمانيين وتفتح أمام سفيرهم راتب أفندي مؤسساتها المختلفة ربما خوفاً من أن تلجأ الدولة العثمانية للتحالف مع حليفها القديم فرنسا فيكون ليوبولد الثاني بين فكي كمشاة فالهواجس الأمنية غالباً تفرض على السياسيين تغيير قواعد التشابك والاشتباك بحكم الضرورة.

فرض هكذا السلام نفسه بين الدولتين، ونصّت إحدى بنود معاهدة زيسستوفا (Ziştovi Antlaşması) على تبادل السفراء بينهما، وفي هذا السياق جاءت سفارة أبو بكر راتب أفندي إلى فيينا، ولا ريب أنّ اختياره رئيساً للبعثة الدبلوماسية العثمانية إلى فيينا لم يكن ضربة حظ أو خبط عشواء، بل كان عن دراية تامة لدى سليم الثالث بأقدار الرجال، وإمكاناتهم، سيّما وهو يعرف قدرات راتب أفندي مذ كان ولياً للعهد، وهو بمثابة معلّمه وصديقه ومحلّ ثقته.

تنفيذا لاتفاقية السلام أرسل سليم الثالث مبعوثاً مفوضاً (orta elçi) هو معلّمه وصديقه أبوبكر راتب أفندي ليسلم رسالة صداقة وتعزيز للسلام إلى الإمبراطور ليوبولد الثاني، رغم القطيعة التي استمرت بينهما لأزيد من عام ونصف، وهو ما يدلّ على ثقة سليم الثالث براتب أفندي، كانت المهمة الأساسية لراتب أفندي هي استطلاع وفحص الأمور بشكل مباشر في أوروبا مع تعليمات لدراسة الأوضاع بالنمسا وجمع معلومات عن البلدان الأوروبية الأخرى²، كانت مهمته الثانية تلك بالغة الأهمية بالنسبة لجهود سليم الثالث في إصلاحاته الرامية للنهوض بالدولة العثمانية واستعادة مجدها الغابر.

¹ - Lela Gibson : Op.cit, P7.

² - Bernard Lewis: **The Emergence of Modern Turkey**, 2 Edt, Royal institute of International Affairs, Oxford University Press, London Oxford, New York, 1967, P57.

أرسل راتب أفندي إلى فيينا برتبة كبير المحاسبين (baş muhasebeci)، وهنا يقول بعض الباحثين المهتمين بسيرة أبو بكر راتب أفندي: رغم أنه يمكن القول أنّ راتب أفندي كان على دراية بالشؤون الأوروبية بسبب اتصاله مع غير المسلمين بمكتب الآمدي، مع ذلك سيكون من الخطأ الافتراض أنه كان يتقن لغة أوروبية¹ ولست أدري ما الخطأ في هذا الافتراض في إنسان احتك طويلاً بمترجمي السفراء الأجانب² وشهد له بالذكاء والعزيمة وحب العلم.

يدلّ على حظوة راتب أفندي عند السلطان سليم الثالث الأسلوب الجديد الذي تعامل به سليم بخصوص الهدايا وخطابه الموجه للإمبراطور ليوبولد الثاني؛ فوفقاً للتقاليد العثمانية فإن السفراء العثمانيين إذا تواجدوا خارج إستانبول حين تكليفهم بمهمة السفارة، كان يتوجب عليهم الحضور للعاصمة لاستلام الرسالة الهمايونية (Nâme-i hümayûn) والهدايا التي ستقدم إلى الحاكم وكبار المسؤولين في الدول الأخرى، غير أنّه من المثير للاهتمام أنّ راتب أفندي الذي كان متواجداً بمدينة سيلبسترا شمال شرق بلغاريا لم يأتي إلى إستانبول، بل أمر السلطان سليم الثالث بأن ينقل له حيث هو الرسالة الهمايونية والهدايا³، ربما كان السبب في ذلك هو خوف السلطان من أي مؤامرات ضد راتب أفندي بإستانبول بسبب الصراع الفصائلي داخل نخبة المنظومة الإدارية العثمانية⁴.

غادر راتب أفندي بلدة شومن (Şumnu) شمال شرق بلغاريا في وهي بلدة وحصن ببلغاريا في 12 ربيع الاول 1206هـ / 9 نوفمبر 1791م. ذهب إلى فيينا عن طريق مدينة روسه (Rusçuk) شمال شرق بلغاريا ومدينة بوخارست جنوب شرق رومانيا، وبلدة سيبين (Sibin) جنوب ترانسيلفانيا

¹ - Bayram, Fatih: Op.cit, p12.

² ذكرت الباحثة التركية سما أركان (Sema Arikan) في دراستها عن أبي بكر راتب أفندي بالموسوعة الإسلامية التركية أنّه حاول في فترة وجوده بمكتب الآمدي تعلّم بعض اللغات الأوروبية بسبب احتكاكه بمترجمي السفراء الأجانب. ينظر:

Sema Arikan: Op.cit, sayfa 277.

³ بسبب الأخبار التي أفادت أنّ المبعوث النمساوي إلى إستانبول البارون فون هربرت (Baron von Herbert) لم يكن يحمل معه هدايا للسلطان العثماني، فقد تم استرجاع الهدايا من راتب أفندي قبل مغادرته سيلبستريا، وأمر بتقديم الرسالة الهمايونية فقط لإمبراطور هابسبورغ وهكذا اتبع العثمانيون مبدأ المعاملة بالمثل في مواجهة مثل هذا الحدث، رغم أنّ ذلك الأمر قد أغضب راتب أفندي. ينظر: Bayram, Fatih: Op.cit, p13

بالإضافة إلى تقارير أبو بكر راتب أفندي الخاصة، هناك ثلاثة مصادر نمساوية تؤرخ لمهمته بفيينا: الأولى هي صحيفة فيينا (Wiener Zeitung) الرسمية في ذلك الوقت. والثاني هو محفوظات بلاط هابسبورغ، من خلال سجل المستشار والدبلوماسي والمترجم البارون إيغناز لورانز السترومري (Ignaz Lorenz von Stürmer): فقد سجل إيغناز النشاطات اليومية للمبعوث العثماني - وأحياناً كل ساعة (!). المصدر الثالث الذي يبحث في مهمة راتب أفندي بفيينا هو السيرة الذاتية لجوزيف فون هامر المستشار الشهير الذي كان طالباً بفيينا في ذلك الوقت. ينظر: Lela Gibson: Op.cit, P4.

⁴ - Bayram, Fatih: Op.cit, p13.

حيث علم هناك بوجود مستشاران تابعان لإمبراطورية هابسبورغ، ولم يكن رجال الدولة العثمانية يعرفون بوجود مستشارين لإمبراطورية هابسبورغ¹، يوضح هذا المثال أن رجال الدولة العثمانية لم يكونوا مهتمين جدًا بالشؤون الداخلية لدولة هابسبورغ.

استمرت رحلة راتب أفندي ثلاثة أشهر للوصول إلى فيينا - جمادى الآخرة 1206هـ/ فبراير 1792م - وسلّم الإمبراطور ليوبولد الثاني رسالة السلطان بعد خمسة عشر يوماً من وصوله إلى فيينا. لكن ليوبولد الثاني توفي في 8 رجب 1206هـ/ 1 مارس 1792م، بعد خمسة أيام من استلام رسالة السلطان، وخلفه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة نجله الأكبر فرانسيس الثاني (Francis II)²، قرر راتب أفندي مقابلة الإمبراطور الجديد وحصل على موافقة الحكومة العثمانية استمرت إقامته بفيينا 153 يوماً، وغادر فيينا في شوال 1206هـ/ جوان 1792م³.

تكونت البعثة الدبلوماسية التي رافقت راتب أفندي إلى فيينا من 112 رجلاً؛ تضم مترجماً وصهره والعديد من الطهاة والخدم⁴، وقد أثارت البعثة بكل المقاييس الكثير من الاهتمام بفيينا؛ فمند عشرين عاماً لم يزر سفير عثماني فيينا⁵، فون هامر أن حاشية السفارة العثمانية كانت الهدف الرئيسي للفضول الفييني في ذلك الوقت، وانتشرت تقارير عن أدق تفاصيل السفارة العثمانية في جميع أنحاء المدينة حتى على الطريقة التي تناول بها المبعوث العثماني الغليون في المأدبة الملكية! تنافس النبلاء الذين قاتلوا أيضاً في الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية على دعوة أبو بكر أفندي للحفلات والمسرحيات والصالونات، غالباً ما زارهم ونقل في سفارت نامه العديد من أخبار الحفلات والمسرحيات والاجتماعات التي حضرها، في بعض الأحيان قام راتب أفندي بنفس الشيء من خلال دعوة شخصيات بارزة إلى بيته للاستماع إلى عروض آلات الساز الوترية الموسيقية العثمانية، كان الناس يشعرون بالفضول تجاه راتب أفندي إلى درجة أن مكان إقامته - حسب مترجم هابسبورغ البارون إيغناز لورانز (Stürmer,)

¹ - Loc.cit.

² . فرانسيس الثاني (1768-1835م): آخر أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1792-1806م). بعد الهزيمة التي أنزلها به نابليون بونابرت في أوسترليتز سنة 1805م حُلّت الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وفي أعقاب مؤتمر فيينا سنة 1815م أيدت سياسة مستشاره مترنيخ الرجعية فعمد إلى قمع الحركات التحررية وأعاد الكنيسة للكاثوليكية بعض سلطاتها المفقود. ومع ذلك فقد عرف برعايته للفنون والعلوم. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 321.

³ - Bayram, Fatih: Op.cit, p14.

⁴ - Lela Gibson : Op.cit, P1.

⁵ - Ibid, P4.

1 (Ignaz Lorenz Freiherr von) - كان مزدحماً ليلاً ونهاراً بالضيوف، وبلغ الأمر مداه إلى الدرجة التي دفعت صحيفة فيينا الرسمية (Wiener Zeitung)² إلى نشر إعلان في بداية شهر رمضان تحذر فيه الناس من إزعاج أبو بكر راتب أفندي في منزله حتى لا يوضع في موقف حرج يقدم فيه الطعام لضيوفه المتسربين وهو صائم³.

لكن أبو بكر راتب أفندي لم يكن بفيينا للتواصل الاجتماعي، خلال النهار زار المؤسسات التي كانت نتاج إصلاح هابسبورغ، في الواقع لم تكن الدولة العثمانية وحدها من فكرت في الإصلاح في القرن الثامن عشر بل تم إدخال سلسلة من الإصلاحات في إمبراطورية هابسبورغ في عصر "الحكم المطلق المستنير"؛ أجرت ماريا تيريزا إصلاحات عسكرية واقتصادية، وقام ابنها جوزيف الثاني بمواصلة إصلاحاتها بإصلاحات سياسية أكبر، زار راتب أفندي المؤسسات التي كانت في الأساس نتاج هذه الإصلاحات⁴.

كانت اهتماماته الرئيسية هي المؤسسات والمصانع العسكرية، أشياء يمكن تكرارها في الدولة العثمانية، أراد أن يرى بنفسه كيف تعمل مؤسسات هابسبورج هذه، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها، وكان نظراؤه بهابسبورج يعلمون أن هذا ما كان يفعله، حتى أن صحيفة فيينا الرسمية ذكرت أن راتب أفندي استمر في "التعرف على الفنون المفيدة - حسب رأيه - وطلب رؤية المؤسسات العامة الأكثر أهمية في النظام، يتضح ذلك من خلال حقيقة أنه يزور كل يوم أحد المرافق المحلية والمؤسسات الخاصة المفيدة ..."⁵.

زار راتب أفندي الأكاديمية الإمبراطورية للهندسة (K. K. Ingenieur Akademie) حيث

1 . البارون إيغناز لورانتز (1752-1829م): قانوني ودبلوماسي ومستشرق ومترجم نمساوي، مؤلف معجم مينينسكي (Meninski'schen Lexikons). انضم سنة 1780م إلى البعثة الدبلوماسية بالقسطنطينية. عين مترجماً فوراً سنة 1789م. ثم عين مبعوثاً إلى القسطنطينية سنة 1802م. ظلّ في هذا المنصب حتى سنة 1818م. ينظر:

Schlitter, Hanns, "Stürmer, Ignaz Lorenz Freiherr von" in: Allgemeine Deutsche Biographie, 37 (1894), S. 49 [Online-Version]; URL:

<https://www.deutschebiographie.de/pnd117677965.html#adbcontent> .

2 . صحيفة فيينا (Wiener Zeitung): هي أقدم صحيفة يومية في العالم لا تزال تصدر حتى يومنا، صدرت لأول مرة في 8 أوت 1703م تحت اسم يوميات فيينبة (Wienerisches Diarium). أخذت الصحيفة اسم صحيفة فيينا (Wiener Zeitung) منذ سنة 1780م. ينظر:

Der Standard: **Die älteste Tageszeitung der Welt, Erschien erstmals 1703 als "Wienerisches Diarium"**, <https://www.derstandard.at/story/1258068/die-aelteste-tageszeitung-der-welt> , Redaktion 1. April 2003, 12:50.

3 - Lela Gibson: Op.cit, P5.

4 - Ibid, P6.

5 - Loc.cit.

تم تدريب الطلاب على الرياضيات والهندسة المتعلقة بالعلوم العسكرية ولا سيما المدفعية، أكاديمية الهندسة هي واحدة من المؤسسات التي استفادت من إصلاحات ماريا تيريزا؛ تضم الأكاديمية بين جنباتها مكتبة رياضية ومجموعة من الأدوات العلمية والتي اطلع عليها راتب أفندي عن كتب بعد الإبلاغ عن الزيارة أشارت صحيفة فيينا إلى أن مسؤولي هابسبورغ كانوا "يبدلون جهداً لاطلاع المسلم الفضولي بكل الأماكن المهمة"¹.

زار راتب أفندي أيضا الأكاديمية العسكرية الإمبراطورية (k. k. Militärakademie) في 17 شعبان 1206هـ/20 أبريل 1792م وهو نفس اليوم الذي أعلنت فيه فرنسا الحرب على النمسا، واحتاج إلى إذن مباشر من إمبراطور هابسبورغ لزيارة هذه الأكاديمية، وأحضر معه عشرين من أعضاء الوفد المرافق له على نفقته الخاصة، كان هذا جزءاً مهماً جداً من زيارته نظراً لأن الأكاديمية العسكرية كانت جزءاً من إصلاح هابسبورج العسكري في منتصف القرن الثامن عشر وأنتجت بعضاً من كبار القادة العسكريين، أعجب راتب أفندي بما رآه في الأكاديمية العسكرية لدرجة أنه أخبر مضيفيه بإمكانية تسجيل ابنه بالأكاديمية الهندسية إذا كان بإمكانه الحصول على إذن مناسب من السلطات العثمانية² وهذا يدل على مدى اهتمامه وإعجابه بهذه الأكاديمية العسكرية.

لكن ربما كانت المؤسسة التي أحدثت انطباعاً أكبر على أفندي هي الأكاديمية الإمبراطورية الشرقية (k.k. Orientalische Akademie)، وقد لعب طلاب هذه الأكاديمية دوراً رئيسياً في مساعدة راتب أفندي باعتبارهم أصبحوا مصدر معلوماته، الأكاديمية هي أيضا نتاج إصلاحات هابسبورغ تأسست في سنة 1166هـ/1753م من قبل ماريا تيريزا كجزء من إنشاء إدارة مركزية لسياسة هابسبورغ الخارجية، كان هدفها تدريب الشباب كمتترجمين بلغات الشرق الأوسط³.

زار راتب أفندي الأكاديمية الشرقية في منتصف إقامته بفيينا في 29 رجب 1206هـ/22 مارس 1792م. وصل حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، ورحب به أقدم طالب في الأكاديمية بكلمة ترحيب باللغة العثمانية، كما أجرى جميع الطلاب الآخرين محادثات قصيرة أظهروا فيها قدراتهم اللغوية بعد ذلك نُظمت عدة عروض علمية لصالح راتب أفندي وتم شرحها له باللغة العثمانية وكانت العروض عبارة عن تجارب الكهرباء والهواء، كان أبرز ما حدث في العروض هو الإطلاق المتزامن لأربعة وعشرين مسدساً كهربائياً تم ربطها بالبطاريات بواسطة سلك نحاسي⁴، بدايات الأسلحة الأوتوماتيكية.

1 - Ibid, P7-8.

2 - Ibid, P8.

3 - Loc.cit.

4 - Ibid, P9.

المثير للاهتمام أن يقود هذه العروض جوزيف فون هامر الذي أصبح فيما بعد المستشرق النمساوي الشهير جوزيف فون هامر بورغستال؛ كان هامر طالبًا بالأكاديمية الشرقية أثناء زيارة راتب أفندي، وكان هامر ابن مسؤول من مدينة غراتس النمساوية، أرسل إلى الأكاديمية الشرقية بفيينا في سن الخامسة عشرة، وحين زار راتب أفندي الأكاديمية كان هامر في السنة الثالثة من الدراسة وكان له من العمر ثمانية عشر عامًا، كتب هامر في سيرته الذاتية أن راتب أفندي هنأه بعد أن عرض التجربة قائلاً إنه: " سيصبح رجلاً عظيمًا"، وأضاف هامر بتواضع في سيرته الذاتية أن توقع راتب أفندي لم يتحقق، على الرغم من أن هامر أصبح مستشرقًا مشهورًا، إلا أنه لم يصل أبدًا إلى رتبة سفير وهو ما كان يقصده راتب أفندي حسب هامر¹.

يحتل وصف راتب أفندي للأكاديمية الشرقية من بين جميع الأماكن التي زارها بفيينا أطول نطاق في سفارت نامه خاصته؛ وصف راتب أفندي زيارته للأكاديمية ومعرفة الطلاب باللغات وتحدث عن قصيدة كتبها عن الأكاديمية - تشير التقارير المحلية أيضًا إلى حماسه، فقد مكث هناك حتى الساعة التاسعة مساءً - تشيد قصيدته بقدرات الطلاب اللغوية والعروض العلمية، وأعطى نسخة من قصيدته تلك للأكاديمية حيث تم وضعها بإطار وعلقت في مكان بارز من مبنى الأكاديمية، نُشرت ترجمة القصيدة في وقت لاحق بالمجلة الشرقية كنز الشرق (Fundgruben des Orients) التي قام بتحريرها جوزيف فون هامر².

استخدم طلاب الأكاديمية الشرقية كمتترجمين ومساعدين خلال زيارة راتب أفندي حيث أمكنه الاعتماد عليهم للحصول على معلومات بلغته الأم، علق هامر أن زيارة راتب أفندي كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها الطلاب بالعثمانيين وجها لوجه، على الرغم من أنهم قضوا عدة سنوات في تعلم اللغة العثمانية، اشترى المبعوث العثماني العديد من الأدوات العلمية والهندسية بفيينا، وكان طلاب الأكاديمية الشرقية يأتون إلى منزله مرتين في الأسبوع للاتفاق معه عن كيفية العمل، كانوا حاضرين أيضًا في لقاء راتب أفندي مع الإمبراطور ليوبولد الثاني، كما وصف هامر مساعدا آخر للمبعوث العثماني هو مرادجه دوهسون³ الذي أصبح لاحقًا أحد أهم المؤرخين في التاريخ العثماني.

تشير التقارير المحلية أيضًا إلى أن دوهسون كان في كثير من الأحيان ملازمًا لراتب أفندي وقال هامر إن دوهسون ينتمي إلى الدائرة الأكثر ثقة لدى راتب أفندي، وقال أيضًا إن دوهسون كان يومياً

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, P10.

³ - Loc.cit.

تقريباً في منزل المبعوث العثماني، وقد ساهم دوهسون بشكل كبير في العمل الموسوعي لراتب أفندي حول الإمبراطورية العثمانية، وقد تطلبت مدة هذا العمل الكثير من المساعدة من مخبر محلي، وكان يكافأ على مساعدته، عاد دوهسون إلى إستانبول وكان عضواً في لجنة سليم الثالث للإصلاح العثماني¹.

سرد راتب أفندي قصة رحلته من إستانبول إلى فيينا، وكتب تقارير حول مواضيع سياسية وعسكرية مختلفة مثل "الثورة الفرنسية وآثارها على؟ فرنسا، النمسا، بروسيا، روسيا والسويد" "أساطيل الدول الأوروبية مقارنة بالأسطول العثماني" وضع ضباط الجيش في النمسا" وهلم جرا لكن عمله الرئيسي تمثل في وثيقة من 490 صفحة تصف الإدارة العسكرية والمدنية النمساوية².

ينقسم التقرير المعني إلى قسمين رئيسيين: الأول منهما (200 صفحة) يتعلّق بالقوات المسلحة النمساوية. يتكون هذا الجزء من ثلاث مقدمات وأحد عشر فصلاً وخاتمة تتناول المقدمات الثلاث "المبادئ الأربعة للتنظيم العسكري" و "تنظيم وزارة الجيوش" و "التعليم العسكري". عناوين الفصول: "مصادر التجنيد"، "تعليم الضباط" "الأكاديميات العسكرية"، "وضع الجيش في حالتي الحرب والسلام" "وحدات الجيش والقيادة والمعدات"، "إدارة الجيش"، "الطبقات العسكرية"، "إمدادات الجيش" "الضباط"، "حركات الجيش في الميدان"، "القوات المساعدة"، وتضم الخاتمة لمحة عامة عن الجيوش الأوروبية³. العناية بالجانب العسكري في أوروبا كان من أهم أولويات الدولة العثمانية.

يستعرض الجزء الثاني وهو موسوعة حقيقية جميع جوانب الحياة النمساوية بحسّ عال في المواجهة والنقد الذاتي، يحدد المؤلف في البداية أن الشخص الذي يدفع ضرائبه ويطيع القوانين في أوروبا يتمتع بكامل حقوقه في التحرك والملبس والتنقل... إلخ، فكرة الحرية الفردية في مقابل القيام بواجبات تجاه الدولة والتي ستكون أساس إصلاحات التنظيمات، والتي سيتم اعتمادها انطلاقاً من سنة 1255هـ/1839م⁴.

¹ - Ibid, P11.

² - Stéphane Yerasimos: Op.cit, P76.

كتب راتب أفندي تقريرين عن إقامته بفيينا والتي استمرت من فبراير إلى جويلية 1792م. الأول كان اسمه سفارت نامه، حيث سجّل فيه الرحلة التي قام بها إلى فيينا والتفاعلات المثيرة مع الشخصيات البارزة في الحفلات الراقصة والمسارح... إلخ. يعد تقريره الثاني المعروف باللائحة (Layiha) أطول بكثير من السفارت نامه؛ به تفاصيل ومعلومات حول الهياكل العسكرية والإدارية لهايسبورج. أشار المؤرخ الأمريكي كارتر فينديلي إلى أن اللائحة تم تنظيمها بنظام تصنيف موسوعي. لم يكن هذا النوع معروفاً في ذلك الوقت في الإمبراطورية العثمانية وربما تمت كتابته بمساعدة مرادجه دوهسون. ينظر: Lela Gibson: Op.cit, P4.

³ - Ibid, P76-77.

⁴ - Ibid, P77.

يذكر في الفصل الخاص بالمحاكم أنه لا يتم اتباع الشريعة الدينية خارج الزواج وأنه حتى الوراثة لا يتم تنظيمها وفقاً للمبادئ الدينية (كما هو الحال في الإسلام)، ويتعلق الفصل التالي بالمستشفيات ويستطرد حين يؤكد على حرية المرأة وأهميتها في الأسرة والمجتمع، وينتقل إلى وصف عيادة الولادة بضواحي فيينا حيث يمكن لجميع النساء أن يلدن دون أن يُطلب إليهن اسم وهوية والد الطفل¹.
تحدث من خلال وصفه للمستشفيات عن دولة الرفاه، ويمضي المؤلف بالقول أنه في أوروبا لا يوجد أي رجل يتمتع بالقدرة الجسدية بدون عمل، وأنه يتم استدعاؤه للعمل حتى في الحقول أو الحرف وغيرها، ومن ناحية أخرى يتم دعم المعوقين من قبل المجتمع، ويبدأ في وصف الاقتصاد بعرض موارد الإمبراطورية والموارد الخاصة بالمناجم - حيث يرافق الاستخراج دراسات بمدرسة المناجم والملاحة - وضرائب التبغ - وهي احتكار - الجمارك والضرائب والتجارة، وأصر في عدة مناسبات على الاهتمام الذي أبداه النمساويون كما فعل الأوروبيون الآخرون لضمان إنتاجهم الخاص مع التقليل من الاستيراد جهد الإمكان، هذا هو حال بروسيا كما قال التي اضطرت لشراء الأقمشة من الخارج وتطوير الكثير من مصانعها إلى أن أصبحت دولة مصدرة للأقمشة، ثم يعطي وصف للمصانع النمساوية وصادراتها إلى الأراضي العثمانية، وفي هذا الفصل نفسه من الاقتصاد يتم الحديث بإيجاز عن المؤسسة الائتمانية، مع تحديد أن أولئك الذين يرغبون في إنشاء عمل تجاري أو متجر أو فندق يمكنهم الحصول على الائتمان².

يدور الفصل التالي حول الطرق والخدمات؛ في هذا الفصل يقدم راتب أفندي ما سيكون الدرس العظيم الذي سيجلبه السفراء العثمانيون من أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر؛ ففي الدول الحديثة يزيد عدد الخدمات المقدمة للمواطنين كلما زاد دخلها، علاوة على ذلك بالنسبة للسفير فإن الضرائب التي تفرضها الدولة ليست انتهاكات تعسفية، ولكن عقلانيتها وانتظامها مسؤولية متبادلة؛ تنشئ الدولة هذه الخدمات وتحافظ عليها لمصالحها الخاصة ومصالح رعاياها، بالمقابل يجب على المستفيدين أن يساهموا في صيانة تلك الخدمات، وبالمثل لا يوجد محسوبة فيما يخص الخدمات من يأتي أولاً تقدّم له الخدمة أولاً، والجميع يدفع مقابل الخدمات المقدمة وفقاً لجدول محدد مسبقاً لضمان النظام في الدولة الحديثة يتم المحافظة على مبدأ المساواة وإلغاء الامتيازات³.

خصص فصلاً آخر للبنوك تعرّض فيه للسندات والأسهم والاكنتاب في البورصة، كما ذكر أيضاً

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, P77-78.

³ - Ibid, P78.

الإيرادات الحكومية المختلفة مثل ورقة ختم الضريبة الثابتة (le papier timbré) واليانصيب، في النهاية يعرض راتب أفندي جدولاً للإيصالات من الميزانية النمساوية، وخلال هذه الفصول قدم المؤلف ضمناً الحجة التي سيتم توضيحها بعد عشرين عاماً بواسطة السفير العثماني لدى فرنسا نابليون السيد عبد الرحيم محب أفندي¹: "كلما وضعوا قاعدة [...] لأمتهم، فإنهم يوقرون في النهاية دخلاً لدولتهم" إنه اكتشاف المبدأ الذي سيحكم إصلاحات التنظيمات: لإنشاء دولة مزدهرة من الضروري ضمان ازدهار السكان².

أهملت معلومات سفارة أبو بكر أفندي سليم الثالث أن ينخرط في الدبلوماسية الأوروبية ويتبنى منطق السفارات الدائمة، مقارنة راتب أفندي بين أنظمة الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية نتج عنه بعض الأفكار لتحسين النظام العثماني³. من المعتقد أن سفارت نامه راتب أفندي وخاصة لائحته الضخمة اقترحت برنامجاً إصلاحياً شاملاً ساهم في تحديث الدولة العثمانية في عهد سليم الثالث وساهمت في وضع ما عرف في عهد سليم الثالث بالنظام الجديد، وكان لها الدور الكبير في فكرة سليم عن السفارات الدائمة بعواصم أوروبا.

1. عبد الرحيم محب أفندي الذي لديه آراء رائعة حول الهيكل العلمي والتقني والاجتماعي في العالم الغربي، لديه عملان يندرجان تحت باب السفارات نامه: أولهما خلال السنوات الست التي قضتها في باريس جمع الرسائل التي تلقاها من الصدر الأعظم وردّه عليها. ثانيهما يقدم من خلاله معلومات قيمة عن الإدارة الداخلية لفرنسا والحياة الاجتماعية للفرنسيين. نُشر العمل بالفرنسية سنة 1920م من قبل (Bertrand Barailles) تحت عنوان: تركي في باريس؛ رواية سفر ومهمة محب أفندي السفير الاستثنائي للسلطان سليم الثالث (Un Turc à Paris, Relation de voyage et de Mission de Mouhib Effendi,) ينظر: (Ambassadeur Extraordinaire du Sultan Selim III).

Ali İhsan Gencer: **Abdürrahim Muhib Efendi (ö. 1821), Osmanlı Devleti'nin üçüncü Paris büyükelçisi**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild1, sayfa 292-293.

2 - Loc.cit.

3. في تقريره وصف التكنولوجيا العسكرية الجديدة في أوروبا، والتي وصفها بالنظام الجديد (nizam-i cedit). في النهاية أنشأ سليم فرقة عسكرية جديدة معروفة بنفس الاسم. تم تشكيل الجيش الجديد في سنة 1794م واستخدم الأساليب الغربية في الزي الرسمي والمعدات والتدريب، وقد بنى الباب العالي أيضاً خمسة وأربعين سفينة حربية حديثة. كما التحق بالنظام الدبلوماسي للدولة الأوروبية وأنشأ سفارات دائمة في أوروبا وانضم رسمياً إلى الائتلافات الأوروبية. ينظر: Lela Gibson: Op.cit, P3.

ومن المثير للدهشة أن الإصلاح الأكثر أهمية ودائماً في فترة النظام الجديد (Nizam-I Cedit)، هو إنشاء أول مدرسة عسكرية حديثة للدولة العثمانية؛ تم إطلاقه سنة 1795م دون ضجة ولم يكن معروفاً حتى لبعض الإصلاحيين. لم تكن المدرسة الهمايونية للهندسة العسكرية (Mühendishâne-i Bahrî-i Hümayun) أول أكاديمية عسكرية حديثة فحسب، بل كانت أيضاً أول مدرسة ثانوية حديثة في الدولة العثمانية. على الرغم من أنها بنيت على بقايا وإرث مختلف إصلاحات المدارس الفنية العسكرية الماضية، فقد تم تصميمها من قبل اثنين من الإصلاحيين هما: أبو بكر راتب أفندي والمترجم الرسمي للسفارة السويدية مرادجه

دوهسون. ينظر: Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P123.

استخدم راتب خيرات العسكارية وحدد بشكل فعال قوة هابسبورغ المستندة على التدريب الأكاديمي، وأشار إلى أن الاندماج الناجح للتكنولوجيا العسكرية في الوحدات القتالية يتطلب وجود ضباط مؤهلين تأهيلاً عالياً، كانت هناك حاجة إلى هؤلاء الضباط ليس فقط لقيادة الرجال في القتال، ولكن أيضاً لتدريبهم وفقاً لمتطلبات ديناميات الحرب الجديدة، وأوضح أنه إذا أرادت الحكومة أن يكون لها جيش قوي، فليس أمامها من خيار سوى إنشاء مؤسسة أكاديمية عسكرية واحدة على الأقل لتدريب الضباط، حتى أنه وضع لها اسماً: الأكاديمية العسكرية¹.

نظراً لأن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك الخبرة الفنية اللازمة، فقد أوصى راتب أفندي باتباع مثال القيصر الروسي بطرس الأكبر كما يجب استيراد أعلام الفكر والمدرسين وغيرهم من المتخصصين من أوروبا، وأنهى تقريره بجملة استفزازية "لقد فعلها الروس، لماذا لا نفعلها نحن أيضاً؟"²

أصبح راتب الشخص الأكثر تأثيراً في تنفيذ الإصلاحات العسكرية في ذلك الوقت؛ أحضر شخصياً مجموعة من المستشارين العسكريين الأوروبيين خلال فترة ولايته القصيرة كرئيس للكتاب (16 ذي القعدة 1208هـ/14 جوان 1794 - 15 صفر 1211هـ/19 أوت 1796م) وتم إنشاء تشكيلات عسكرية جديدة وفقاً للنموذج الأوروبي عُرفت بالنظام الجديد (Nizâm-ı Cedîd)، فيما يخص إعادة التنظيم الإداري انحصر في بعض التدابير لتحسين نظام الضرائب ولكن تم نشر مقالة واحدة على الأقل وباللغة الفرنسية تصف هذه المحاولات وتُعلن للعالم التغييرات التي حدثت خلال فترة حكم سليم³.

وقع أبو بكر راتب أفندي لسوء الحظ ضحية مؤامرات القصر الداخلية وأعدم في 24 جمادى الآخرة 1214هـ/22 نوفمبر 1799م، مصير راتب المأساوي أمر حاسم لفهم مشكلة ذات أهمية خاصة في الإصلاحات العثمانية؛ لطالما نظر كبار المسؤولين العثمانيين من منظور مصالحهم الشخصية والزّم التي انتموا إليها، وأصبحت الإصلاحات نفسها وسيلة لكسب المزيد من القوة والهيبة والدخل بغض النظر عن مزايا أي مشروع أو فرد؛ إذا كان للنجاح القدرة على الإضرار بمصالحهم تراهم يسارعون إلى تخريبه أو تشويهه بأي طريقة، ظلت صراعات الزّم الداخلية والقضايا الشخصية أكثر المشاكل ديمومة وتدميراً طوال تاريخ الإصلاحات العثمانية⁴، لقد كانت الفاتورة البشرية لهذا الصراع النخبوي الفصائلي باهضة، وأضرت بشكل كبير بديمومة الإصلاحات.

1 - Ibid, P120.

2 - Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P121.

3 - Şerif Mardin: Op.cit, P145.

4- Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P121.

من المعلوم بالضرورة أن البشر يختلفون، وينذر إجماعهم على رأي واحد، والإصلاح في الدولة العثمانية كان يواجه دائما من أغلبية محافظة كان الجيش عامة والإنكشارية خاصة سندا في مواجهة القلة الهائلة التي اضطلعت بالإصلاح. وإلى جانب الجيش والإنكشارية كان التيار المحافظ يضم أغلب العلماء إلى جانب بعض من فئة الكتاب والأعيان وعامة الناس، وأغلب الثورات الناجحة ضد الإصلاحات كان الإنكشارية والعلماء نواتها الصلبة.

ترجمة شيخ الدولة محمد سعيد خالد أفندي

نأخذ مثلا من التيار المحافظ لفهم من خلاله البيئة التي كانت تتطور من خلالها مشاريع الإصلاح في الدولة العثمانية؛ مثالنا هنا يجمع بين فئة الكتاب من أهل القلم وأهل العلم، رجل انتمى إلى أولئك وهؤلاء، وعاصر أهم المصلحين في عصره الصدر الأعظم حميد خليل باشا والسلطان سليم الثالث وكان نافذا في بلاط محمود الثاني لدرجة أن الأخير لم يبرز إلا عند وفاته، إنه محمد سعيد خالد أفندي.

ولد محمد سعيد خالد أفندي في إستانبول سنة 1173هـ/1760م، وكان نجل القاضي كيرمي حسين أفندي¹، وعلى الرغم من أن اسمه الحقيقي هو محمد سعيد إلا أنه اشتهر منذ بواكير حياته باسمه المستعار "خالد"، كان خالد أفندي عصاميا كوالده، انتمى في البداية إلى سلك القضاء بوساطة من شيخ الإسلام محمد شريف أفندي²، لكنه التحق فيما بعد بخدمة رئيس الركاب الهمايوني محمد رشيد أفندي³، ثم عمل لمدة نائبا لحاكم لمنطقة لاريسا (Yenişehir) [شمال وسط اليونان] ثم عاد

¹. لم أقف على ترجمته.

². محمد شريف أفندي (1717-1790) هو نجل شيخ الإسلام أبو إسحاق زاده محمد أسعد أفندي وحفيد شيخ الإسلام أبو إسحاق إسماعيل أفندي. ووالدته هي ابنة شيخ الإسلام ميرز زاده شيخ محم أفندي. عيّن بمنصب شيخ الإسلام مرتين الأولى في 21 جويلية 1778م، والثانية في 19 أوت 1778م. له كتاب (فصول الآراء في شأن الملوك والوزراء). ينظر:

Tahsin Özcan: **Mehmed Şerif Efendi (ö. 1204/1790) Osmanlı şeyhülislâmı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 28, 2003, sayfa 531-532.

³. بحسب الموقع الأكاديمي معجم السير الذاتية لمشروع الأدب التركي (Türk Edebiyatı İsimler Sözlüğü Projesi) فإن محمد رشيد أفندي (1753-1798م): هو نجل خوجا زاده جعفر فوزي أفندي أحد أمناء الديوان الهمايوني، سنة 1768م انضم لفئة الكتاب من أهل القلم، عندما تم عزل خليل حميد باشا من منصب الصدر الأعظم سنة 1785م، عزل رشيد أفندي من منصبه باعتباره من مؤيديه غير أنه عيّن لاحقا رئيسا للكتاب لثلاث مرات كان أولها سنة 1786م. ينظر:

Mehmet Fatih Köksal: **Râşid, Mehmed Râşid Efendi, (d.1167/1753-54-ö.1212/1798)**, divan şairi, Türk Edebiyatı İsimler Sözlüğü, <http://www.turkedebiyatıisimlersozlugu.com/index.php?sayfa=detay&detay=1012> , Madde Yazım Tarihi: 22.11.2013.

إلى إستانبول وانتمى إلى الطريقة المولوية وارتبط بشيخ غلطة الشيخ غالب دادا المولوي¹، وسرعان ما أصبح مقرباً من الشيخ غالب واستكمل تعليمه على يده².

أثناء خدمته لبعض الوقت في سكرتارية بعض رجال الدولة ربطته صلوات ببعض اليونانيين الفناريين ممن يعملون في قسم الترجمة بالديوان الهمايوني، واستفاد منهم لدرجة أنه أرسل سنة 1218هـ/1803م سفيرا إلى فرنسا برتبة كبير المحاسبين (Baş Mühasib)³ ووزيرا مفوضا (orta elçi)، حيث مكث هناك مدة ثلاث سنوات، وعند عودته إلى إستانبول سنة 1221هـ/1806م عين في منصب رفيع من مناصب فئة الكتاب وهو نائب البيلكجي، ليصبح سنة 1222هـ/1807م رئيسا للكتاب⁴.

بناءً على اتهام السفير الفرنسي سيباستاني (Sebastiani)⁵ لخالد أفندي بوجود علاقات سرية تربطه ببريطانيا، تمّ عزله ونفيه إلى كوتاهي في 8 محرم 1223هـ/ 5 مارس 1808م في الحقيقة كان محظوظا بهذا الوضع؛ حيث تم التخلص من السلطان مصطفى الرابع في 5 جمادى الآخرة 1223هـ/28 جويلية 1808م، وسمح له بالعودة إلى إستانبول في شعبان 1224هـ/سبتمبر 1809م، بعد ذلك أرسله محمود الثاني السلطان الجديد إلى بغداد في مهمة إعدام حاكم بغداد سليمان باشا الصغير الذي

1. غالب دادا المولوي (1757-1799): أصبح سنة 1791م شيخ مولوية غلطة بإستانبول، وعرف بغالب دادا. ومن خلال منصبه هذا تطورت علاقته وصدافته بالسلطان سليم الثالث. شارك في أحداث عصره الاجتماعية والسياسية، وكان مؤيدا لما عرف بالنظام الجديد. له عدة مؤلفات صوفية. ينظر:

Muhammet Muhsin Kalkışım : **Şeyh Galib (ö. 1213/1799), Klasik Türk şiirinin son dönem büyük şairlerinden**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 39, İstanbul, 2010, sayfa 54-57.

2- Abdulkadir Özcan : **Hâlet Efendi (1760-1822) Osmanlı devlet adamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 15, İstanbul, 1997, sayfa 249.

3. هو رئيس باش محاسبة: وهي أهم دائرة من دوائر المالية في الدولة العثمانية. أنشئت في بدايات القرن السابع عشر الميلادي. وهي المراقب المالي الأول في الدولة، وكانت منظمة في حساباتها للغاية. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص56.

4- Abdulkadir Özcan: Op.cit, sayfa 249.

5. سيباستاني فرانسوا هوراس باستياني (1775-1851): هو ابن قس ثري أراد له والده أن يكون راهبا فجاءت الثورة الفرنسية لتجعله عسكريا، أصبح عقيدا سنة 1799م، وأصبح بعد خدماته المميزة مقربا من بونابرت، وترأس عدة بعثات دبلوماسية مهمة وحساسة، في بلاد الشام ومصر وألمانيا، وفي القسطنطينية خلال (1805 - 1808م)، حيث عقد تحالف بين سليم الثالث ونابليون لإفشال مخطط الإنجليز لتهديد القسطنطينية سنة 1807م. أصبح وزيرا للخارجية سنة 1830م. ينظر:

Germain Sarrut and Bourg Known Saint-Edme : **Biographie Des Hommes Du Jour, Industriels, --Conseillers-D'Etat, --Artistes, --Chambellans, --Députés, --Prêtres, --Militaires, --Ecrivains, --Rois, --Diplomates, --Pairs, --Gens de justice, --Princes, --Espions fameux, --Savans**, Tom 1, Henri Krabe, Paris, 1835, p236- 243

تمرد ضد الدولة واستبداله بنائبه¹، فنجح في مهمته، مما جعله مقرباً ومفضلاً لدى السلطان فعينه الأخير نائبا للصدر الأعظم ومستشارا له سنة 1226هـ/1811م فزاد بذلك نفوذه في السلطة، حتى سَمَّاه الناس بشيخ الدولة (devlet kâhyası)، ولعب دورا كبيرا في تنصيب وعزل رجال الدولة²، وكذا في إضعاف نفوذ الأعيان بالأناضول والروم إيلي لحساب تقوية سلطة المركز بإستانبول³.

تورّط في بعض أمور الفساد وبالإضرار بمصالح الدولة، كما تورّط في القضاء على علي باشا الألباني الحاكم العثماني القوي والوحيد الذي كان بمقدوره إخضاع المتمردين اليونانيين⁴، كان من وراء فصل صدرين من الصدور العظام، واثنين من شيوخ الإسلام⁵، ثم بسبب الأحداث التي أعقبت مقتل علي باشا الألباني واضطراب الأوضاع باليونان، وتحت تأثير خصمه محمد سعيد غالب باشا تم عزله ثم نفيه إلى قونية حيث أعدم بأمر من السلطان محمود الثاني⁶.

يصفه معاصروه بالمتوحش عديم الرحمة، وكان مقربا للإنكشارية رافضا لأيّ تغيير في وضعهم وعارض محمود الثاني دائما في محاولته تحديث الجيش، وخوّفه من تمرّد الإنكشارية، إلى جانب ذلك تميّز بكرهه لأوروبا وكل ما يأتي منها خاصة بعد سفارته لفرنسا، وقاد التيار المحافظ وأثر على السلطان محمود الثاني، في الرسائل التي بعث بها من باريس خلال سفارته ذكر أنه لم يستطع العثور على حقيقة أوروبا التي أشاد بها الجميع، وأنه يريد التخلص من هذه الأرض الكافرة في أقرب فرصة

1. لم أقف على تفاصيل ترجمتهما إلا أنّ المؤرخ العراقي عباس العزاوي (1890-1971م) ذكر في موسوعته " موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين" المجلد السادس: أنه بعد مقتل والي العراق المملوكي علي باشا الكهية سنة 1807م تولى الأمر من بعده ابن أخته سليمان باشا الصغير وأقره السلطان العثماني على حكم العراق التي حكمها ثلاثة سنوات (1807-1810م) وذكر أنّ سبب تغير السلطان محمود الثاني عليه هو كونه أصبح ذا نفوذ يتجاوز حتى ولايته إلى جانب أنّه لم يكن يدفع كل ما عليه من الضرائب إلى العاصمة إستانبول. ينظر: عباس العزاوي المحامي: موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، حكومة الماليك، مج6 ط1، الدار العربيّة للموسوعات، العراق، 1935، ص 213، 226، 232، 233 237، 250.

2- Abdulkadir Özcan: Op.cit, sayfa 250.

3. عادت معظم الأراضي في الأناضول وروم إيلي والمناطق الشمالية السورية إلى سيطرة الحكومة المركزية، باستثناء علي باشا الألباني الذي تمّ التخلص منه أيضا لاحقا. ينظر: Virginia H. Aksan: Op.cit, P286.

4. كان رد علي باشا الألباني بعد هجوم الجيش العثماني عليه بقيادة خالد أفندي هو إذكاء انتفاضة بين المتمردين اليونانيين في أراضيه من خلال توقيع اتفاق للمساعدة المتبادلة مع قادتهم. صمد علي باشا لمدة عامين وتوفي متأثرا بجروحه في 24 يناير 1822م. حمل خالد أفندي مسؤولية التمرد اليوناني الذي اندلع وانتشر باليونان ومولدافيا وغيرها. ينظر: Ibid, P288.

5. الصدرين الأعظمين هما: بندري علي باشا تولى الصدارة خلال (21 أبريل 1821م - 30 أبريل 1821م) وحاجي صالح باشا تولى الصدارة خلال (30 أبريل 1821 - 11 نوفمبر 1822م). أمّا شيوخ الإسلام فهما: مكي زاده مصطفى قاسم أفندي تولى مشيخة الإسلام خلال (1818-1819م) وخليفته الشركسي خليل أفندي تولى المشيخة خلال (1819-1821م).

6- Abdulkadir Özcan: Op.cit, sayfa 250.

ممكنة، ووصف أولئك الذين رأوا وأحبوا فرنسا بأنهم أتباع وجواسيس فرنسيين، ووصف أولئك الذين لم يروها وأحبوها وأثنوا عليها بأنهم حمقى آمنوا بما كتبه عنها الفرنجة أو أحد أتباع دينهم¹.

اعتنق خالد أفندي الطريقة المولوية وحول منزله إلى مكان تجمع فيه الشخصيات البارزة في عصره حيث حدثت هناك المساجلات العلمية والأدبية، في الوقت نفسه كان متحدثاً جيداً وشاعراً وأجرى مناقشات مع شعراء عصره، كان الشاعر العثماني المولى كادجي زاده عزت² واحداً من أهم أصدقائه إلى جانب المؤرخ الرسمي لمحمود الثاني، شيخ زاده أسعد أفندي³، ترك أوقافاً كثيرة من المسؤولين العثمانيين، وجمع شعره في ديوان بعنوان زينة المجالس ونشر بإستانبول سنة 1258هـ/1842م⁴.

تلکم كانت سيرة موجزة عن خالد أفندي، ويتضح من خلالها قوة شخصيته، وعلاقاته الواسعة مع رجال الدولة في عصره من العثمانيين والأوروبيين، وكذا علاقاته مع النخبة العثمانية، ويظهر من خلال سيرته أيضاً نفوذه الواسع في الدولة العثمانية لدرجة أن يسميه معاصروه بشيخ الدولة؛ فقد كان الأمر التّاهي في بدايات عصر محمود الثاني، ومثل عقبة في وجه الإصلاحيين، وكان واحداً من أهم قيادات التيار المحافظ، إلى جانب كونه أهم داعم للحفاظ على الإنكشارية دون تحديث حتى أن عزله وقتله فتح الباب أمام تدمير الإنكشارية التي كانت أهم عقبة في وجه الإصلاحات.

¹ - Ibid, sayfa 251.

² . كاتجز زاده عزت مولى (Keçecizade İzzet Molla) (1786-1829): هو آخر ممثلي الشعر الديواني في القرن التاسع عشر. من عائلة علمية أصلها من قونية. وهو والد فؤاد باشا أحد أبرز رجالات التنظيمات، تعرّف على خالد أفندي. وعن طريق شيخ الإسلام صالح زاده أسعد أفندي، عُيّن في عدة مناصب وبفضل صداقته بخالد أفندي عيّن سنة 1820م قاضياً بعلطه. ظلّ مخلصاً لخالد أفندي حتى بعد عزل الأخير ونفيه ثم قتله سنة 1822م. عيّن قاضياً لمكة سنة 1825م ثم قاضي إستانبول سنة 1826م. وشغل مناصب أخرى. من أعماله: ديوان بحر الأفكار، وديوان (Dîvân-ı Hazân-ı Âsâr)، وكتاب اللوائح، كتبه بناء على طلب من السلطان محمود الثاني وهو أقرب إلى أدب نصائح الملوك. ينظر:

Naci Okcu: **İzzet Molla, Keçecizade (1786-1829), Divan şiirinin XIX. Yüzyıldaki son temsilcilerinden**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 23, İstanbul, 2001, sayfa 561-563.

³ . أسعد أفندي (1789-1848م): المؤرخ الرسمي العثماني. تابع أسعد تعليمه بالقدس ومصر. وبعد وفاة والده عاد إلى إستانبول وتابع دراسته على يد خالد أفندي، ثم شغل عدة مناصب كان أهمها على الإطلاق منصب المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية. شغل هذا المنصب في 29 سبتمبر 1825م إلى وفاته سنة 1848م. كرمه محمود الثاني بسخاء عندما أُلّف كتابه أسّ النصر (Üss-i Zafer) حول تدمير الإنكشارية، عين سنة 1831م أول ناظر لأول جريدة عثمانية (Takvîm-i Vekâyi)، أرسل سفيراً إلى إيران سنة 1835م، وبعد إعلان التنظيمات كان عضواً في مجلس ولاية الأحكام العرفية ترك مكتبة نادرة ضمّت 4000 مخطوط. وترك عشرات المؤلفات والأشعار والترجمات. ينظر:

Ziya Yılmaz: **Esad Efendi, Sahafılar Şeyhizâde(1848-1789) Osmanlı vak‘anüvisi ve Takvîm-i Vekâyi‘ nâzırı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 11, İstanbul, 1995, sayfa 341-345.

⁴ - Abdulkadir Özcan: Op.cit, sayfa 251.

موقف خالد أفندي من الغرب والإصلاحيين

شهد موقف خالد أفندي من الغرب عامة وفرنسا خاصة تغييرًا ملحوظًا من موقف المؤيد إلى موقف المعارض الشديد؛ إذ بحسب الباحثة الأمريكية المهتمة بالتاريخ العثماني الدكتورة ستيفانيا كوستاش (Stefania Costache)¹ في أطروحتها للدكتوراه بجامعة إلينوي الأمريكية والموسومة ب: في نهاية الإمبراطورية: الحكم الإمبراطوري، والتنافس بين الإمبريالية و "الحكم الذاتي" في والاشيا ومولدافيا (1780 - 1850) (At The end of Empire: Imperial Governance, inter-) (imperial rivalry and "autonomy" in Wallachia and Moldavia (1780s-1850s) فإنّ خالد أفندي دعم خط العمل المؤيد لفرنسا بالقسطنطينية حتى معاهدة تيلسيت (Treaty of Tilsit)²الفرنسية الروسية³.

تعود أسباب تأييده لفرنسا ربما إلى أنّها كانت جزءًا رئيسًا في مشروع السلطان سليم الثالث الإصلاحية، يضاف إلى ذلك تأييد شيخ الطريقة المولوية بغلطة شيخ غالب المولوي شيخ خالد أفندي لإصلاحات سليم الثالث المتأثرة بالنمط الفرنسي، أمّا انقلاب موقفه بالنظر إلى أنّ اتفاقية تيلسيت التي وقعت بتاريخ 2، 4 جمادى الأولى 1222هـ/ 7، 9 جويلية 1807م، كونها جاءت بعد نهاية عهد سليم الثالث 21 ربيع الأول 1222هـ/ 29 ماي 1789م على يد التيار المحافظ وكونه عايش الفرنسيين عن قرب من خلال منصبه سفيرًا للدولة العثمانية بباريس خلال (1217- 1221هـ/1802-1806م)، ورأى في فرنسا ما جعله يمجت الغرب وكل ما له صلة به، وقد انضمّ لدى عودته إلى المحافظين الذين أطاحوا بسليم الثالث.

1. ستيفانيا كوستاش مؤرخة متعدد اللغات تشمل اهتماماتها البحثية: نظريات الإمبريالية، ومفاهيم التنمية، وتاريخ الأعمال والعلاقات الدولية والتاريخ الأوروبي، وتاريخ جنوب شرق أوروبا، والتاريخ العثماني. أستاذة محاضرة بجامعة إلينوي. لها عدة أبحاث وكتب منشورة ينظر: <https://illinois.academia.edu/StefaniaCostache/CurriculumVitae>

2. معاهدات تيلسيت يومي (7، 9 جويلية 1807م) وهما اتفاقيتان وقعتا من طرف فرنسا مع كل من روسيا وبروسيا (على التوالي) بمدينة تيلسيت (Tilsit) شمال بروسيا [تابعة لروسيا حاليًا]، بالمعاهدة أصبحت فرنسا وروسيا حليفين وقسمتا أوروبا بينهما، مما قلّص مساحة كل من النمسا وبروسيا. لكن سنة 1810م، اكتشف القيصر الروسي أن التحالف وفق النظام القاري يضر بالتجارة الروسية بشكل خطير، فقام بفتح الموانئ الروسية أمام السفن المحايدة، وغزا نابليون روسيا في جوان 1812م. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Treaties of Tilsit**, European History,

<https://www.britannica.com/topic/Treaties-of-Tilsit>

³ - Stefania Costache: **At The end of Empire: Imperial Governance, inter-imperial rivalry and "autonomy" in Wallachia and Moldavia (1780s-1850s)**, Dissertation Submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in History, The Graduate College, The University of Illinois, Urbana-Champaign, USA, 2013, P84.

يذكر أنّ الاتفاقية وقّعت في عهد ابن عم سليم الثالث السلطان مصطفى الرابع الذي لم تدم سلطنته طويلا (21 ربيع الأول 1222هـ - 4 جمادى الآخرة 1223هـ/ 29 ماي 1807م -28 جويلية 1808م)، ويذكر المؤرخون أنّ خالد أفندي انتقل من تأييد فرنسا إلى مساندة بريطانيا لهذا السبب تمّ نفيه إلى مدينة كوتاهية (Kütahya) غرب تركيا بداية سنة 1223هـ/1808م وظلّ هناك خلال الإطاحة بـمصطفى الرابع والهيمنة الوجيزة للصدر الأعظم علمدار مصطفى، لذلك كان قادراً على خدمة محمود الثاني في سنواته الأولى¹.

يمكننا أن نفهم موقف خالد أفندي من الغرب عامة وفرنسا خاصة من خلال بعض المقتطفات من رسائله بفرنسا إلى بعض أصدقائه بإستانبول؛ كتب قال: "أطلب منك أن تدعو الله من أجل عودتي الآمنة من أرض الكفار، لأنني أتيت إلى باريس، لكنني لم أرى في بلاد الفرنجة حتى الآن ما يتحدث عنه الناس ويشيدون به؛ أين هي تلك الروائع الأوروبية التي يتحدثون عنها وأين هي حكمة الفرنجة؟ لا أعرف، سبحان الله أعجب لعقول ومعتقدات هؤلاء الناس!!! من الغريب أن بلاد الفرنجة التي ملأوا آذاننا بالثناء عليها لفترة طويلة، لم نجد لها مختلفة عما سمعنا فحسب، بل هي على العكس تماما عمّا سمعنا"²، حديثه هذا فيه إدانة لكل التيار الإصلاحية، ونسف لكل جهودهم.

يعطي نصيحة بعد ذلك لكشف حقيقة المغرمين بأوروبا فقال: "إذا أتني شخص ما على بلاد الفرنجة إمّا بنية تخويفك أو تضليلك فاسأله هذا السؤال: "هل زرت أوروبا أم لا؟" إذا أجابك: "في الواقع، لقد ذهبت إلى هناك واستمتعت لفترة من الوقت"، فهو بالتأكيد موال وجاسوس للفرنجة وإذا أجاب: "لا، لم أزرها ولكن أعلم عنها من خلال كتب التاريخ"، فهو أحد أمرين: إما أنه حمار يصدّق كل ما يكتبه الفرنجة، وإمّا أنّه يمتدح الفرنجة بسبب التعصّب الديني"³!!!

إنّما الرؤيا العثمانية القديمة التي تنطلق من عقدة التّفوّق المتوارثة من عهد الفتوحات العظيمة التي بلغت أوجّها زمن سليمان القانوني، وبخصوص السؤال القديم: "لماذا تتراجع الدولة العثمانية؟" الذي تمّ طرحه لاحقا بشكل مغاير هو: "لماذا تتراجع الدولة العثمانية وتتقدّم أوروبا، وما سر النجاح الأوروبي؟" لبعض الوقت بدا أنّ السر يكمن في المصنوعات الأوروبية والأجهزة الفنية، والتي كانت المزايا الوحيدة لطاغم من البرابرة البغيضين، يعبر خالد أفندي السفير المخضرم في باريس، عن وجهة النظر هذه في أكثر صورها فظاظة: "يعلم الله أن عقولهم ومستوى فهمهم يجعل الفرق بينهم وبين أهل الإسلام

¹ - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P8.

² - Bernard Lewis: Op.cit, P69.

³ - Loc.cit..

يشبه الفرق بين المراكبي والكتبة بيننا¹، استراتيجياتهم وسياساتهم بسيطة؛ يمكن للمرء أن يستشف ما يريدون القيام به حتى قبل أن يبدأوا بالعمل عليه، هذه النجاحات التي حققوها ولم نحققها سببها فقط قلة حماستنا، فهم ليس لديهم جنود شجعان مثل جنودنا، ولا وزراء مثل وزرائنا، وضباط المدفعية لدينا هم أكثر كفاءة من ضباطهم، رأس مالهم هو الكلام فقط!!!² واضح أن خالد أفندي يتحدث بتعصب أعمى يجعله يستهين بخصومه.

يقدم نصيحة لضرب الاقتصاد الأوروبي في مقتل فيقول: "إني أرى والله أعلم أنه كندبير طارئ يجب لمرة واحدة كل ثلاث أو أربع سنوات تخصيص مبلغ 25000 أقجة، وخمسة مصانع لإنتاج السعوط والورق والكريستال والقماش والخزف بالإضافة إلى إنشاء مدرسة للغات والجغرافيا، ثم في غضون خمس سنوات ستتوقف تجارتهم لأنها تركز حاليا على هذه السلع الخمس، عسى الله أن يهب بعض الحماس لأسيادنا أمين"³.

نظر خالد أفندي إلى الاقتصاد وخاصة الصناعة على أنه مصدر جديد للثروة وبالتالي الفعالية العسكرية في نهاية المطاف، وعزى تطوّر أوروبا إلى اعتمادها على الصناعة دون النظر إلى الروح العلمية التي بدأت تسود في مفاصل الدولة والمجتمع الأوروبي، وإلى الماضي قدما نحو زوال الإمبراطوريات وتكريس حق المواطنة، وأهمية الرأي العام في صناعة السياسات. ويتضح أنّ ما رآه في باريس جعله حين عودته إلى إستانبول شخصا كارها للغرب وكل ما يمتّ به بصلة، لقد بذل خالد أفندي كل ما في وسعه لنقل هذه الكراهية والمنظور المهين إلى أذهان العثمانيين الذين لم يعرفوا أوروبا وتساءلوا عنها⁴.

تولى خالد أفندي السفارة العثمانية بفرنسا خلال (1217-1221هـ/1802-1806م) وهي فترة اتّسمت بالحروب النابوليونية (1799-1815م) التي كانت امتدادا للثورة الفرنسية والتي أفضت إلى تولي نابليون بونابرت السلطة ثم تكريس نفسه إمبراطورا سنة 1219هـ/1804م وقيام الإمبراطورية الفرنسية الأولى التي انتهت بهزيمة نابليون سنة 1230هـ/1815م، لقد غيرت الثورة الفرنسية وجه فرنسا وأوروبا وكان لها تأثير كبير على الصعيد العالمي لاحقا.

1. المراكبي أي الذي يتولى قيادة القوارب الصغيرة في النهر، والكتبة هم فئة الكتاب من أهل القلم نخبة الإدارة العثمانية، ويقصد أنّ الفرق شاسع بين العقل الأوروبي والعقل الإسلامي.

2 - Bernard Lewis: Op.cit, P131.

3 - Loc.cit.

4 - Ahmet Dönmez: **Karşılıklı Diplomasiye Geçiş Sürecinde Osmanlı Daimî Elçiliklerinin Avrupa'da Yeniden Tesisi 1832-1841**, TC. Yüksek Lisans Tezi, Selçuk Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Tarih Anabilim Dalı, Yakınçağ Tarihi Bilim Dalı, Konya, Türkiye, 2006, Sayfa 146.

اتّسمت الثورة الفرنسية برغبة روادها إلى تصديرها ونشر أفكارها في العالم باستغلال الطباعة بطباعة الصحف والمنشورات والكتب الدعائية، وتدريب وتجنيد المؤمنين بأفكارها للدعاية لصالحها عبر أوروبا وغيرها سيما الدولة العثمانية، وقد أولى الفرنسيون لغرض الدعاية تلك أهمية بالغة لتدريب كوادر يحسنون التعامل مع اللغات الشرقية¹ فقد كان الشرق كميدان للتنافس مع القوى الأوروبية مهمًا جدا في السياسة الخارجية لفرنسا ما بعد ثورتها.

سعى خالد أفندي السفير العثماني بباريس جاهدا في هذه البيئة الدولية النشطة للتصدّي للدعاية الفرنسية التي كان يرى فيها خطرا على الدولة العثمانية العليّة، نجد ذلك في بعض ما كتبه خالد أفندي إلى الباب العالي الآتي: " في الأيام الأولى للجمهورية ومن أجل إغواء البسطاء وإثارة الفتنة حاول الفرنسيون تقديم أنفسهم كمسلمين، وادعوا أنهم لهذا السبب قاموا بتدمير الكنائس. فلما لم يجدوا ذلك كافيا قاموا بنشر بعض أعمال فولتير، ووفقًا لبعض التقارير أدرك الفرنسيون بعد ذلك أن تلك المنشورات لم تكن ذات جدوى بالنظر إلى أنّ رعايا الدولة العثمانية لم يكونوا يعرفون اللغة الفرنسية. لذلك جهّزوا عددا من الكتب المترجمة إلى اليونانية والأرمنية والتركية تبرز مزايا الجمهورية والحرية، وحاولوا نشرها في المحافظات العثمانية؛ بالإضافة إلى ذلك أرسلوا واحداً أو اثنين من العملاء الخاصين إلى معظم جزر البحر المتوسط لإثارة الفتنة"². واضح أن خالد أفندي كان متابعا جيدا لحجم ونوعية الدعاية التي تقدّمها فرنسا الثورية داخل المقاطعات العثمانية.

تعرية الدعاية الفرنسية لم تكن كافية بالنسبة لخالد أفندي فاقترح سبل مواجهتها: " إجراء تحقيق في الجزر وإصدار أوامر من السلطة العليا للكنيسة لمنع الرعايا المسيحيين من قراءة مثل هذه الكتب

¹. تتضح الأهمية التي توليها الجمهورية الفرنسية للتدريب على اللغات الشرقية من خلال إنشاء المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية (Ecole Nationale de Langues Orientales Vivantes) في باريس سنة 1795م، هذه الدعاية للجمهورية الفرنسية واضحة من التعليمات والأنشطة، وكذلك من التاريخ الشخصي لسفراء الجمهورية بالدولة العثمانية؛ فقد حاول السفراء الفرنسيين التأثير على الباب العالي بعقد اجتماعات وتوزيع منشورات دعائية لصالح أفكار الثورة الفرنسية. وفي 4 أبريل 1795م قررت فرنسا إعادة إحياء المطبعة الفرنسية بالقسطنطينية، لتحقيق أقصى استفادة لصالح الجمهورية الفرنسية، كان الهدف من المطبعة خدمة هدفين مهمين على حد سواء: إعلام الأمم الشرقية بشؤون الجمهورية، وتوعية العثمانيين بالمصالح التي تشغل أوروبا وتلهمها، في سنة 1796م ظهرت الجريدة الفرنسية الرسمية بالقسطنطينية. استمر هذا النشاط حتى سبتمبر 1798م أي بداية الحرب ضد فرنسا عندما تمّ اعتقال موظفي السفارة الفرنسية ومصادرة المطبعة من طرف السلطات العثمانية. بعد سلام سنة 1802م، أعاد الفرنسيون إحياء المطبعة لطباعة الدعاية والرسائل الإخبارية من جميع الأنواع. ينظر:

Bernard Lewis: "The Impact of French Revolution on Turkey, Some Notes on the Transmission of Ideas", Journal of World History, Vol 1, No. 2, London, January 1953, P116-117.

² - Ibid, P117.

إذا ظهرت، ثمة إشارة في رسالة خالد أفندي أنه تم بالفعل العثور على "مظاهر فتنة" بين اليونانيين وأن البطريرك اليوناني قد تلقى تعليمات بقمعها، عند استلام رسالة خالد أفندي تم إرسال أمر مماثل يحظر هذه الكتابات إلى كل من موريا وكريت والجزر اليونانية الأخرى¹، من المعروف أن هذه الدعاية كانت موجهة إلى اليونان، وأشارت بعض المصادر العثمانية إلى أنه سنة 1222هـ/1807م دخل من فرنسا "كتيب غريب للغاية وغير عادي"²، كتب باللغة الفرنسية وقد ترجم إلى التركية والعربية وطبع في باريس بهذه اللغات لتوزيعه في الدولة العثمانية؛ كان الكتيب بعنوان "خطاب من المؤذن عثمان إلى أخيه في الدين"³!!! وهي نفس الدعاية التي استعملها بونابرت حين احتل مصر.

كتب خالد أفندي أيضا عن قادة فرنسا الثورية قائلا: "نظراً لأن الفرنسيين أصبحوا دون ملك [بعد إعدام الملك لويس السادس عشر] تعذر عليهم إنشاء حكومة، علاوة على ذلك وبسبب المدّة الزمنية التي ظلّوا فيها دون ملك، فإن معظم المناصب العليا يشغلها حثالة الناس، وعلى الرغم من بقاء عدد قليل من النبلاء، لا تزال السلطة الفعلية بيد الرعاع، وبسبب ذلك عزّ عليهم تنظيم الجمهورية لا يمكن بأي حال من الأحوال للأمة أن تتوقع ولاء أو صداقة هؤلاء الناس"، نابليون الذي وصفه بأنه "كلب وحشي يسعى لنقل نفس الاضطراب الذي تعاني منه أمتة الملعونة إلى بقية الأمم"، ويصف شارل موريس تاليران (Charles-Maurice de Talleyrand)⁴ باعتباره "محاكاة ساخرة لكاهن" والبقية مجرد قطاع طرق⁵.

مثّلت نظرية ابن خلدون من جهة أخرى أكثر النظريات نموذجية لوجهات نظر خالد أفندي فيما يتعلق بعصره سيّما مع بداية الحرب اليونانية من أجل الاستقلال سنة 1236هـ/1821م؛ فقد أعلنت

¹ - Loc.cit.

² . أشار إلى ذلك المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية خلال (1205-1223هـ/1791-1808م) أحمد قاسم أفندي. رغم أنّ مؤلّف الكتيب يزعم أنه مسلم إلا أنّ قاسم أفندي لم يصدّق ذلك وصبّ جام ازدرائه على هذا الكتيب باعتباره دعاية سمجة وغير مؤثّرة يصوّر الكتيب روسيا على أنها العدو الأزلي للإسلام والأتراك، في حين يتم الإشادة بالفرنسيين وخاصة بونابرت بوصفهم حلفاء وأصدقاء للإسلام، كان من الواضح أن هدف الكتيب هو تشجيع الأتراك على القتال ضد روسيا، بالنسبة إلى قاسم أفندي يمثّل الكتيب محاولة لإرباك وتضليل المجتمع الإسلامي، وهو يشبهه بالمنشورات التي نشرت بمصر أيام الحملة الفرنسية لخداع وإفساد وتضليل "المغفلين من البدو والفلاحين في مصر". ينظر: Ibid, P118.

³ - Ibid, P117.

⁴ . شارل موريس دو تاليران (1754-1838م): سياسي وأسقف فرنسي، حرمه الكرسي البابوي من شركة المؤمنين لتعاطفه مع الثورة الفرنسية، تولى وزارة الخارجية (1797-1807م) في عهد حكومة الإدارة وعهد نابليون بونابرت. ثم تولاه من جديد سنة 1814م، ومثّل بلاده في مؤتمر فيينا (1814-1815م). ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص136.

⁵ - Bernard Lewis: Op.cit, P123.

الحكومة العثمانية العود إلى " الدولة البدوية " [نظرية ابن خلدون] كعلاج للهزائم العسكرية، وبالفعل وتحت تأثير خالد أفندي نص أمر همايوني على أنه على الرغم من أن المسلمين قد تحولوا إلى مرحلة الحياة المستقرة - والتي هي مرحلة الجيل الثاني في الدولة حسب ابن خلدون - فإن عليهم الآن العودة إلى مرحلة البداوة كأجدادهم (وبالتالي الحرب)، وبعد بضعة أشهر حث فرمان آخر المسلمين أيضاً على حمل السلاح والامتناع عن الترف والبذخ، "وتبني نموذج أهل البدو والريف" (bedeviyyet ve seferiyyet suretini istihsal)؛ فتجول سكان إستانبول المسلمون في ثياب تشبه ثياب الحرب وشنوا هجمات على المسيحيين (بما في ذلك الرعايا الأجانب)، حتى تم حظر هذه السلوكيات بشكل صارم بعد بضعة أشهر¹، كان هذا تنويجا للخلدونية العثمانية، وتمثلاً صارخاً للأفكار الخلدونية لم يتوقعه ابن خلدون نفسه، وقد كان ابن خلدون مرجعية عثمانية معتمدة بشكل متكرر في جزء كبير من الفكر السياسي والتاريخي من منتصف القرن السابع عشر فصاعداً.

عرضت في هذا المبحث نموذجاً مؤيداً للإصلاحات متمثلاً في أبي بكر راتب أفندي وكانت ملاحظاته الأوروبية - باعتبار سفارته إلى فيينا - مهمة في إنضاج المشروع الإصلاحى للسلطان سليم الثالث، وكان له إسهام لا ينكر فيما عرف بالنظام الجديد الذي أريد منه إصلاح الجيش العثماني على الطراز الأوروبي، كما قدمت وجهة نظر محافظة ومناقضة لتوجه الإصلاحيين من قلب فئة الكتاب من أهل القلم متمثلاً في شيخ الدولة خالد أفندي، الذي لم يستطع محمود الثاني مباشرة إصلاحاته على الطراز الغربي حتى أعدمه، لقد مقت خالد أفندي الغرب واستخف بالعقل الأوروبي عامة والفرنسي خاصة وأدان بشدة المعجبين بهذا الغرب الكافر، وهكذا أخذنا صورة تمثل الرأي والرأي الآخر فيما تعلق بالإصلاح من داخل النخبة العثمانية ومن فئة الكتاب أنفسهم.

¹ - Bernard Lewis: Op.cit, P168.

تمثلت مهمة الفصل الرابع برمته في إعطاء صورة كاشفة لجهود فئة الكتاب من أهل القلم بعد معاهدة كارلوفيتز 1110هـ / 1699م التي اقتنع رجال الدولة العثمانيين بعدها لضرورة التعلم من أعدائهم، وضرورة معرفة سر تفوقهم وانتصاراتهم العسكرية خاصة، تعرفنا على الفلسفة التي قام عليها الإصلاح العثماني بسبب كارثة كارلوفيتز، ورأينا كيف وصل رجالات فئة الكتاب لأول مرة في التاريخ العثماني إلى منصب الصدر الأعظم في شخص محمد رامي باشا، وكيف اتجهوا غربا بشغف شديد سمي عهد التوليبي الذي مثلهم فيه الصدر الأعظم نوشهري دمادا إبراهيم باشا، وعرفنا تأثيرهم البالغ في السياسة العثمانية الداخلية والخارجية من موقعهم كصدور عظام أو كسفراء في دول أوروبية، وتحديثنا عن تطور السفارة والدبلوماسية العثمانية وعن مذكرات السفراء المسماة سفارت نامه ودورها في إطلاع النخبة العثمانية الحاكمة على التطورات التي تشهدها أوروبا الصاعدة، وختمنا بأن قدمنا نموذجين من رجالات فئة الكتاب وجه إصلاحه وآخر غربي لمعرفة حجم السجال الدائر حول الإصلاح في النخبة العثمانية، أوضح الفصل الرابع جهود فئة الكتب الإصلاحية قبل عهد التنظيمات 1255هـ / 1839م ومهمة الفصل الأخير عرض جهودهم التي أثرت في الدولة والمجتمع بعد التنظيمات.

الفصل الخامس: فئة الكُتّاب من أهل القلم والانفتاح الإصلاحي
على أوروبا الجديدة

المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم وخط شريف كلخانة 1255هـ/1839م

المبحث الثاني: فئة الكتاب من أهل القلم وخط همايوني 1272هـ/1856م

المبحث الثالث: فئة الكتاب من أهل القلم والدستور العثماني 1293هـ/1876م

يعتبر هذا الفصل الأخير: فئة الكُتّاب من أهل القلم والانفتاح الإصلاحي على أوروبا الجديدة بمثابة تنويع لجهود فئة الكتاب من أهل القلم التي استمرّت طيلة قرنين من الزمن - إذا احتسبنا ذلك من سنة 1039هـ/1630م إلى 1255هـ/1839م - في تشخيص علل الدولة العثمانية وتقديم الأدوية والحلول المستمدّة من الشرق، ثم المغتربة من الغرب، نفحص خلال هذا الفصل التصاعد التدريجي الكبير للتغريب من خلال مراسم وفرمانات وخطوط هي في مجموعها ما عُرف بالتنظيمات حيث بدأت في هذه المرحلة تتشكل رؤى الدولة الحديثة التي فيها رقابة على تصرفات السلطان الإدارية وفيها فصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتشكّلت فيها المجالس والبرلمان وبدايات الصحافة وتشكّل الرأي العام العثماني، وكل ذلك بدفع كبير من فئة الكُتّاب من أهل القلم الذين حاولوا من خلال موقعهم في الصدارة العظمى ووزارة الخارجية تقنين ما اقتبس من الغرب، محاولين عرضه وفق مبررات وصيغ شرعية ليتشرّبه المجتمع العثماني المحافظ جرعة فجرعة، فلم تكن المهمة سهلة كما سنرى، فحين تضعف الدّول تصبح هويّتها الدينية طوق نجاتها، فَيَحُولُ التّعصّب لها بينها وبين تجديد ذاتها بما يحفظ هويّتها تلك.

المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم وخط شريف كلخانة 1255هـ/1839م

مفهوم التنظيمات وتحديد زمنيا
الجهد الإصلاحى لمحمود الثانى والتنظيمات
سيرة رجل كلخانة مصطفى رشيد باشا
تفكيك مصطلح فرمان خط شريف كلخانة
فرمان كلخانة والمؤثرات الداخلية والخارجية
أجواء إعلان خط شريف كلخانة
مضمون خط شريف كلخانة
تحليل مضمون خط شريف كلخانة
ردود الأفعال الداخلية والخارجية على فرمان كلخانة
خط كلخانة وانعكاسه على فئة الكتاب من أهل القلم
حصيلة ما تحقق بعد خط كلخانة إلى سنة 1272هـ/1856م

كانت الدولة العثمانية واحدة من أطول الكيانات السياسية عمرا في التاريخ، وكان أحد أسباب طول عمرها هو تسامحها وحسن إدارتها لمجتمعات متنوعة عرقيا ودينيا بالقارات الثلاثة قدر العثمانيون التنوع الديني وحكموا رعاياهم من خلال نظام الملل؛ لكل فئة أو ملة دينية محاكم مستقلة خاصة بها، ويمكنها التشريع وفقاً لقوانينها الدينية، وفي القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بلغت الدولة العثمانية عصرها الذهبي كقوة عالمية عظمى، ولكن بحلول منتصف القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ضعفت إلى حد كبير، وعانت من خسائر عسكرية متزايدة وبدأت أراضيها تتقلص شيئاً فشيئاً، وأصبحت الثورات الداخلية والمكائد الخارجية شائعة، وبدأ أن نهيار الدولة مسألة وقت فقط، دفعت هذه الحقائق السلاطين الإصلاحيين وصدورهم العظام للبحث عن حلول جديدة لمشاكل الدولة العثمانية العلية.

مفهوم التنظيمات وتحديد زمنها

تعتبر التنظيمات في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي وبداية القرن الذي يليه الأساس لجميع حركات التحديث في الدولة العثمانية، ولم يكن عهد التنظيمات في البداية يهدف إلى إحداث تحول راديكالي في الدولة والمجتمع ولكن كان هدفه التحديث، بغية تعزيز الأسس الاجتماعية والسياسية والعسكرية للدولة، وقد تميز ذلك العهد بمحاولات متعددة لتحديث الدولة العثمانية وتأمين سلامتها الإقليمية ضد الحركات القومية الانفصالية الداخلية، والقوى العدوانية الخارجية؛ فقد شجعت الإصلاحات النزعة العثمانية بين المجموعات العرقية المتنوعة في الدولة، وسعت الإصلاحات إلى تحرير رعايا الدولة من غير المسلمين ودمج غير الأتراك بصورة شاملة ضمن نسيج المجتمع العثماني من خلال تعزيز حرياتهم المدنية ومنحهم المساواة في جميع أنحاء الدولة، وأمام التفوق الغربي حاول مثقفو النخبة العثمانية إقامة مصالحة بين مبادئ الغرب والشرق في إطار المبادئ الإسلامية.

يعتبر عهد التنظيمات بذلك علامة فارقة في مسيرة محاولات الإصلاح العثماني التي بدأت نظيرياً قبل كارلوفيتز مع رسائل قوجي بك وغيرها، وتأكدت وتعززت عملياً مع كارلوفيتز بداية من النصف الأول من القرن الثامن عشر، ومن أجل تحديث الدولة ومحاولة سد الفجوة التي اتسعت منذ القرن السابع عشر مع الغرب، تم إجراء إصلاحات جريئة مثلت التنظيمات فيها الذروة الإصلاحية، وما يميز التنظيمات هو توجهه بوصلة الإصلاحات رسمياً باتجاه الغرب بدل الشرق، وكان ذلك استجابة للمخاوف المتزايدة لرجال الدولة والمثقفين العثمانيين من الأزمة الوجودية للدولة العثمانية، بالنظر إلى التطور المذهل في أوروبا.

استهدفت التنظيمات مواجهة التدهور العسكري واستعادة السلطة المركزية والمساواة بين الرعايا العثمانيين المسلمين وغير المسلمين وصولاً إلى مفهوم المواطنة العثمانية، وزيادة الموارد المالية من خلال زيادة كفاءة تحصيل الضرائب وتوحيدها وضمان عدالتها، علاوة على تحديث المنظومة الإدارية العثمانية لتستجيب لمطالب العصر الجديد، كان المقصود النهائي هو بناء دولة حديثة على غرار الدول الأوروبية. بداية يذهب أغلب المؤرخين إلى وضع فترة التنظيمات (Tanzimât Dönemi) في الإطار الزمني من 1255هـ/1839م إلى سنة 1293هـ/1876م، فإلى أي مدى يمكن أن يكون هذا التحديد دقيقاً؟ وقبل ذلك ما المقصود بالمصطلح العثماني: "التنظيمات" (Tanzimât) لغة واصطلاحاً؟ ومن هم الآباء الحقيقيون الذي أطلقوا شعلة التنظيمات التي مهدت في النهاية للتغيير الراديكالي الذي نقل الدولة من طور الخلافة العثمانية إلى طور الدولة الأتاتوركية؟

نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية (İslâm Ansiklopedisi) التركية التي تشرف عليها المؤسسة الوقفية التركية لدائرة المعارف الإسلامية (Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi) المعروفة اختصاراً (TDV İslâm Ansiklopedisi) التابعة لوزارة الشؤون الدينية التركية، فإنّ مصطلح "التنظيمات" (Tanzimât) هو صيغة الجمع من كلمة "تنظيم"، ومعناه لغويًا: الترتيب (düzenlemek) والتصنيف (sıraya koymak) والإصلاح أو التحسين (ıslah etmek) ومعناه اصطلاحاً: "إعادة تأهيل الإدارة المدنية وإعادة تنظيمها" (mülkî idareyi ıslah ve yeniden organize etme)، كما يشير المصطلح إلى الفترة التي تم خلالها اتخاذ هذه الترتيبات أو الإصلاحات¹ وإعادة تأهيل الإدارة المدنية وإعادة تنظيمها هدفه إعداد الإدارة بشكل جديد يوائم التحديث الذي يراد له أن يعمّ الدولة العثمانية في شتى المجالات، لتصبح دولة حديثة على غرار الدول الأوروبية.

نجد حين الحديث عن الإطار الزمني لعهد التنظيمات أنّ الأبحاث الحديثة كشفت بشكل عام أن تحديد البداية بإعلان خط كلخانة الهمايوني (Gülhane Hatt-ı Hümayunu) أو ما يعرف بفرمان التنظيمات (Tanzimat Fermanı) الذي أعلن في 26 شعبان 1255هـ/ 3 نوفمبر 1839م، يمكن تصويبه وإرجاع بداية تلك الفترة إلى سنة 1245هـ/1830م، وأمّا بخصوص نهاية عهد التنظيمات فإنّ القضية مثار جدل؛ إذ يمكن وضع عدّة تواريخ: بداية من سنة 1288هـ/1871م عندما توفي الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا، إلى سنة 1294هـ/1877م عندما تمّ نفي أحمد شفيق مدحت

¹ - Ali C. Akyildiz: **Tanzimat, تنظيمات, Sultan Abdülmecid'in yayımladığı mülkî ıslahat programı ve bunun uygulandığı dönem**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 10, 2011, sayfa 1.

باشا¹، أو سنة 1295هـ/1878م عندما تمّ حل البرلمان أو مجلس المبعوثان²، أو سنة 1298هـ/1881م عندما تمّ إنشاء إدارة الدين العام العثماني³، مع ذلك يمكن اعتبار أنّه بجل مجلس المبعوثان سنة 1295هـ/1878م، تم تشكيل فكرة عامة بأن عهد التنظيمات قد انتهى⁴.

الجهـد الإصلاحي لمحمود الثاني والتنظيمات

فهم التنظيمات⁵ والمناخ الذي أفرزها يدفعنا للنظر في أعمال السلطان محمود الثاني بعد قضائه على الإنكشارية⁶ سنة 1241هـ/1826م والتي كانت تمثّل أهم عقبة في تاريخ الإصلاح العثماني وحينها يمكن القول أنّ التنظيمات بدأت مع محمود الثاني أو أنّ أواخر عهد محمود الثاني كانت بالنسبة للتنظيمات كالمقدمة بين يدي المتن؛ فمع سنة 1245هـ/1830م قام السلطان بتغيير التنظيم الإداري المركزي بالكامل، وجعل التنظيمات ممكنة من خلال توسيع نطاق الحكومة العثمانية إلى ما هو أبعد من حدودها التقليدية؛ ليشمل الحق وحتى واجب تنظيم جميع جوانب الحياة وتغيير مفهوم الإصلاح العثماني من المفهوم التقليدي لمحاولة الحفاظ على المؤسسات القديمة واستعادتها، إلى مفهوم حديث من خلال استبدال تلك المؤسسات القديمة بمؤسسات جديدة بعضها مستورد من الغرب، فمتى وكيف تبلورت الرؤية الإصلاحية التي تستلهم الغرب نموذجاً عند السلطان محمود الثاني؟

1. سنعرض سيرة كل من محمد أمين عالي باشا وأحمد شفيق مدحت باشا في المبحث الثاني والمبحث الثالث من هذا الفصل.

2. مجلس المبعوثان هو بمثابة أول برلمان عثماني، مثلت هذه الهيئة إلى جانب مجلس الأعيان ما عرف بمجلس العموم العثماني اجتمع البرلمان رسمياً في 19 مارس 1877م، ثم حلّه السلطان عبد الحميد الثاني في 14 فبراير 1878م. حول مجلس المبعوثان ينظر: روجي ياسين الخالدي: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012، ص 34، 42.

3. إدارة الدين العام العثماني (Düyun-u Umumiye-i Osmaniye Varidat-ı Muhassasa İdaresi) هي مؤسسة مستقلة أنشأها العثمانيون حين أجبروا على قبول ضوابط مالية جديدة؛ إذ بموجب مرسوم محرم 1299هـ/ديسمبر 1881م تم تخفيض الدين العام العثماني من 191 مليون جنيه إسترليني إلى 106 مليون جنيه إسترليني، وتم تخصيص بعض الإيرادات لخدمة الدين العام، وتم إنشاء إدارة الدين العام العثماني بسيطرة أوروبية لتسديد الديون العثمانية المستحقة للدول الأوروبية. ينظر:

Malcolm Edward YappStanford Jay Shaw: **Ottoman Empire Historical Empire, Eurasia And Africa**, <https://www.britannica.com/place/Ottoman-Empire>

4 - Ali C. Akyildiz: Ibid, sayfa 1.

5. في تركيا تعني كلمة التنظيمات (Tanzimat) القوانين، اللوائح، المراسيم، قواعد تنظيمية. وتستخدم للإشارة إلى فترة من التاريخ العثماني (1839-1878) تم خلالها تنفيذ عدد كبير من الإصلاحات السياسية والاجتماعية المستوحاة من الغرب في الدولة العثمانية. ... إنها فترة تذكّرنا بأوربة الجيش والخدمة المدنية، والمسؤولين الجدد الذين يرتدون المعاطف والطرايش بدلا من الجلباب الفضفاض وعمائم أسلافهم قبل التنظيمات. ينظر: Şerif Mardin: Op.cit, p3.

6. يمكن القول أن ما حول الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر لم يكن بداية فترة الإصلاح الشهيرة بالتنظيمات سنة 1839م ولكن تدمير الإنكشارية سنة 1826م من قبل محمود الثاني. ينظر: Ebru Boyar and Kate Fleet: Op.cit, P90.

يبدو أن التاريخ الرئيسي فيما يتعلق بموقف السلطان محمود الثاني من الإصلاحات ارتبط بالإخفاق في الحرب الروسية سنة 1243هـ/ 1828م والتي شارك فيها السلطان بنفسه رغم نصيحة بعض رجال الدولة بأن لا يفعل، عندئذ فقط أدرك محمود أن الإصلاحات العسكرية في الدولة لم تكن كافية، وأن إعادة تأسيس "العودة إلى المألوف" كانت غير كافية أيضاً، في هذا الوقت يمكن ملاحظة بداية الإصلاحات الهيكلية الجادة في الدولة¹، ويمكن أن نلاحظ أيضاً بداية اتخاذ أوروبا بشكل رسمي كنموذج مُلهِم للإصلاح.

كانت جهود محمود الثاني الإصلاحية تجابه بقوة ثانية غير الإنكشارية وهي قوة العلماء المحافظين إذ مثّلت هذه القوة إلى جانب الإنكشارية أهم قوتين محافظتين شكّلتا مع العصا الدائمة في عجلة الإصلاح العثماني؛ وثابتٌ تاريخياً أنّ جميع الثورات التي تحالف فيها العلماء مع الإنكشارية كلّت بالنجاح، عكس الثورات التي انفرد بها أحدهما فقد كان من السهل حينها إخمادها، إلى جانب أنّ العلماء كانوا يمثّلون المرجعية الدينية والعقدية لعموم الشعب العثماني المحافظ بطبعه.

رأينا بسبب ذلك أن محمود الثاني بعد أن أزاح من طريقه إحدى القوتين المحافظتين؛ الإنكشارية وأنشأ بدلا عنها السلك العسكري الجديد المسمى العساكر المحمدية المنصورة، راح يعمل بجد لتقليل أظافر العلماء، لكونه كان يسعى لتوسيع إصلاحاته لتشمل الحياة المالية والإدارية والتعليمية وحتى الاجتماعية والثقافية، ومن أجل توفير مصادر تمويل لبرنامج الإصلاحية وابتداءً من سنة 1228هـ/ 1813م وضع تدريجياً جميع إيرادات "الأوقاف" الرسمية وغير الرسمية ضمن مؤسسة واحدة هي نظارة الأوقاف الهمايونية (Awkâf-ı Humayun Nezareti) وذلك سنة 1247هـ/ 1831م² لم يكن غرضه من هذه الخطوة تمويل برنامج الإصلاحية فقط، بل سعى من خلالها إلى السيطرة على العلماء من خلال السيطرة على الأوقاف، وبالتالي يسهل عليه توجيههم وفق السياسات الجديدة للدولة.

قام محمود من خلال هذه السياسة بإعداد العلماء وبعض قادة الطرق الصوفية العاملين لدى الحكومة، ومن أجل الأغراض الاقتصادية في المقام الأول تم الاستيلاء على أكبر الالتزامات وأكثرها

¹ - Şerif Mardin: Op.cit, P149.

² - Seyfettin Erşahin: **Islamic Support on the Westernization Policy in the Ottoman Empire: Making Mahmud II a Reformer Caliph-Sultan by Islamic Virtue Tradition**, Journal of Religious Culture (Journal für Religionskultur), No 78, Ed. by / Hrsg. von Edmund Weber, in Association with / in Zusammenarbeit mit: Matthias Benad, Institute for Irenics / Institut für Wissenschaftliche Irenik Johann Wolfgang Goethe-Universität, Frankfurt, Deutschland, 2005, P2.

أهمية وإدارتها بواسطة خزينة مالية عسكرية جديدة هي خزينة المقاطعة (Muqata'at Hazinesi) وتم إنشاء خزينة مماثلة (Tershane Hazinesi) لدعم سلاح البحرية، وقد فرضت بعض الأعباء الاقتصادية على المتاجر والأسواق في شكل ضرائب مثل ضريبة الجهاد (Rusumat-i Jihadiyye)¹.
أولى محمود الثاني اهتماماً متزايداً للتعليم وافتتح مراكز تدريب للجيش الجديد وفيلق الحرس الإمبراطوري (Hassa Ordusu)، وضمن إصلاحاته وعلى الرغم من المعارضة القوية أرسل محمود المجموعة الأولى من 150 طالباً إلى العديد من المراكز الأوروبية مثل إنجلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا سنة 1242هـ/1827م، تهدف الإصلاحات التعليمية بشكل كبير إلى تكوين نخبة جديدة متعلمة على الطراز الغربي كبديل للنخبة المتعلمة في المدرسة أي العلماء².

حرص السلطان محمود الثاني على عدم إغضاب العلماء من خلال تحديدهم المباشر أو تغيير وضعهم؛ في مرحلة ما من سنة 1247هـ/1830م جرت محاولة لخفض مرتبتهم في بروتوكول الدولة لكن استياء العلماء تسبب في إلغاء ذلك، لكن ما تم القيام به هو تقديم المزيد من الامتيازات لموظفي الباب العالي، وهكذا تسارع صعود الإداريين فئة الكتّاب من أهل القلم إلى السلطة مباشرة بعد إلغاء الإنكشارية، وتم وضع الزي الرسمي لموظفي الباب العالي، وزادت المناصب التي تضم موظفي الدولة بينما ظل عدد المناصب التي يشغلها العلماء ثابتاً أو حتى انخفض، نشأ هذا الموقف الأخير عندما تم دمج إحدى الإدارات الخاضعة لولاية شيخ الإسلام في إحدى إدارات الباب العالي حيث تم إنشاء وزراء جدد اضطلعوا بمهام كان يمارسها العلماء، وتمّ تعزيز وضع الإداريين³، من هنا بدأت فئة الكتّاب أهل القلم تعلقو مكانتها عن أهل العلم من العلماء.

فيما يتعلق بالإصلاحات الاجتماعية بدأ محمود بتغيير مظهر الجنود، وبعده مظهر المدنيين سنة 1241هـ/1826م؛ تم اعتماد السترة والسراويل الغربية كزي رسمي موحد للعساكر المحمدية المنصورة، بعد فترة من التردد بين العلماء وغيرهم من الشخصيات في الدولة وبناء على أوامر السلطان أجاز العلماء سنة 1243هـ/1828م ارتداء الطربوش، ليتوسّع السلطان تدريجياً في نطاق إصلاح الملابس⁴، على أساس أنّ تغيير المظهر خطوة أولى لتغيير الجوهر.

بدأت في هذه الأثناء القصور العثمانية ومنازل الباشوات تزين وتوثق على الطراز الأوروبي وبدأت السلوكيات والعادات الاجتماعية الغربية بالظهور خاصة في الحياة الاجتماعية لأفراد الطبقة

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ - Şerif Mardin: Op.cit, p150.

⁴ - Seyfettin Erşahin: Op.cit, P2.

العليا في الدولة؛ بدأت هذه الفئة الاستمتاع بالترفيه والاستجمام على الطراز الغربي، في السفارات الأجنبية بالعاصمة إستانبول بدأ العثمانيون بالرقص مع زوجات السفراء¹!!

أدخل السلطان البروتوكول الأوروبي على استقبال الدبلوماسيين الأجانب، وبمبادرة من السلطان تم التخفيف من اللحية كمظهر تقليدي إسلامي، بل حتى حلقتها بالكامل في بعض الأحيان، أصبحت سروج الأحصنة الأوروبية موضة ورموز تبجيل بالعاصمة، اعتاد الناس على أنّ يومي الاثنين والخميس يومي عطلة بالدولة، فجاء مرسوم محمود ليرسم يوم الخميس فقط كيوم عطلة بالأجهزة الحكومية²، كان المقصود إحلال الروح الأوروبية تدريجياً في جسد الأمة العثمانية.

قام محمود الثاني بتحسين الاتصالات لسياسته المركزية وحملته الدعائية؛ في 23 ربيع الآخر 1247 هـ / 1 تشرين الأول 1831م صدرت أول صحيفة عثمانية هي تقويم وقايع (Takvim-i Vekayi) لشرح "الشؤون الداخلية والخارجية للدولة العلية والتغييرات الجارية"، وأخيراً يجب أن نذكر أنه في سنة 1248هـ/1832م أصبحت صورة السلطان إلزامية في المكاتب الحكومية وعلى الرغم من أنه وفقاً لرأي أغلبية العلماء فإن مثل هذه الممارسة محظورة في الشريعة تم إرسال صورة محمود الثاني إلى مكتب شيخ الإسلام³.

نفهم تماماً أن محمود الثاني كان في موقف صعب؛ بتجاوز برنامج الإصلاح العسكري الدفاعي عن طريق تبني الممارسات الاجتماعية والثقافية الأوروبية، لذا واجه محمود معارضة شديدة من مختلف شرائح المجتمع العثماني، فالإصلاحات تهدد في المقام الأول إلى حد ما المصالح الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لطبقات اجتماعية مختلفة، علاوة على أن ذلك أدى إلى إثارة نزاعات أيديولوجية في المجتمع كانت الشرائح المستاءة مستعدة للتعبير عن غضبها وقلقها فيما يتعلق بالإصلاحات عند أي فرصة سانحة؛ فعلى سبيل المثال كما قال مؤرخ معاصر⁴: "بسبب غياب الجيش النظامي انتصر الروس في الحرب (في إشارة إلى هزيمة سنة 1244هـ/1829م) واستولوا على أدرنة في إستانبول، عزا بقية الإنكشارية ومناصريهم هذه الهزيمة إلى تدمير الإنكشارية وفشل الجيش الجديد، لذلك قاموا بمناهضة دعاية الإصلاح، حتى أنّهم تجرأوا إلى حد ما على التظاهر ضد السلطات في شوارع إستانبول"⁵.

لوحظ في بداية حركة الإصلاح أنّ جمهور العلماء كانوا مؤيدين للسلطان، ومع ذلك فقد ظهرت

1 - Ibid, P3.

2 - Loc.cit.

3 - Loc.cit.

4. هو المؤرخ العثماني مصطفى نوري باشا (ت1879م).

5 - Seyfettin Erşahin:Op.cit, P3.

مرحلة جديدة في العلاقات بين السلطان والعلماء حتى قبل الهزيمة أمام روسيا سنة 1244هـ/1829م؛ كانت هناك شائعات تفيد بأن بعض أئمة الصلاة والخطباء في الجيش ستم تنحيتهم، أثارت هذه السياسة عدم الرضا خاصة بين العلماء الأقل مرتبة، وبعد الحرب مع روسيا بدأ النقد الذاتي بالعاصمة من جهة اعتقد السلطان ومقرّبيه من الإصلاحيين أن هناك حاجة إلى المزيد من الإصلاحات لتعزيز الجيش، ومن ناحية أخرى اعتقدت المجموعات المستاءة أن فشل الجيش كان نتيجة للتشبه بالكفار علاوة على ذلك فإن العواقب الاقتصادية لسياسة مصادرة إيرادات الأوقاف دفعت العلماء ذوي المكانة المنخفضة إلى جانب المعارضة، قال مؤرخ معاصر إنه في سنة 1244هـ/1829م انتقد العديد من خطباء المساجد الإصلاحات في خطبهم سيما في شهر رمضان المبارك¹، لهذا السبب تم استبعاد عدد كبير من العلماء، في سنتي 1244هـ/1829م و1245هـ/1830م قام العديد من العلماء غير الراضين بالانضمام ودعم المتمردين في جميع أنحاء الدولة².

لم يكن تنفيذ برنامج الإصلاح الغربي مهمة سهلة في مجتمع إسلامي تقليدي بدون مشاركة ودعم العلماء؛ فقد واجه السلطان محمود الثاني في البداية أزمة شرعية خلافته في عيون الرعايا المسلمين³ في سبيل ضمان مساندة العلماء وبعض شرائح المجتمع اتبع محمود الثاني طريقين: فمن ناحية اتبع شخصياً وبشكل متعمّد سياسة دينية حيث قام ببناء وترميم عدد كبير من المساجد والتكايا، وكثيراً ما كان يحضر صلاة الجمعة وينشر أحياناً فرماناً يدعو فيه الناس إلى التزام الشريعة، جعل التعليم الابتدائي الإسلامي إجبارياً لجميع الأطفال؛ وعيّن العلماء الصغار أئمة في جيشه الجديد، وضاعف

¹. احتج الصوفية علنا على الإصلاحات؛ على سبيل المثال في سنة 1244هـ/1829م خلال صلاة الجمعة وبحضور شيخ الإسلام عبد الوهاب أفندي وغيره من كبار الشخصيات في الدولة، لعن درويش غريب شيخ الإسلام متهماً إياه بتحريض السلطان على تبني شعائر زائفة، وأوقف الدرويوش المعروف باسم الشيخ سشلي (Sachli) محمود الثاني في طريقه وصرخ فيه: "السلطان الكافر والله سيحاسبك على كفرك فأنت تدمر الإسلام وتعرضنا للجنة النبي". ينظر: Ibid, P4.

² - Loc.cit.

³. لغرض الدعاية أمر السلطان محمود شيخ الإسلام بكتابة رسالة تُفسّر فيها نظرية طاعة ولي الأمر ومناقب الأسرة العثمانية واستجابة لذلك كتب شيخ الإسلام ياسين زاده عبد الوهاب أفندي نظريته عن طريق جمع خمسة وعشرين حديثاً نبويًا مع بعض التعليقات تحت عنوان خلاصة البيان في طاعة السلطان (Khulastu'l-Bayan fi 'itaati's-Sultan). إن تاريخ نشر الرسالة سنة 1247هـ/1831م تاريخ مهم ذلك أنّ سلطة السلطان كانت مهددة من قبل المعارضة. وقد جرى في النهاية توزيع الرسالة في العاصمة والمراكز الرئيسية للدولة، تم شرح هذه الرسالة من قبل عالم شهير هو مفتي بغداد محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الألوسي (ت 1270 هـ/1854م) ضمن كتابه: التبيان في شرح البرهان في طاعة السلطان، لتأكيد ونشر نظرية طاعة السلطان لدى الجمهور العربي، وكان ذلك بإيعاز من والي بغداد علي رضا باشا. ينظر: Ibid, P15.

رواتبهم ليضمن ولاءهم¹، وقد أفلحت جهوده إلى حد ما من الحد من خطر العلماء على جهوده الإصلاحية، كان محمود على ما يبدو كمن يعرض المجتمع إلى صدمات حضارية مدروسة ليتقبلوا إصلاحات أوروبية الروح.

أسس محمود كلية الطب حيث سادت التأثيرات الغربية القوية على المواضيع المدروسة وعلى هيئة التدريس ولغة التدريس المتمثلة باللغة الفرنسية، وهذه المدرسة على عكس سابقاتها استمرت لوقت طويل، من سنة 1250هـ/1834م تم إرسال مجموعات صغيرة من طلاب الطب والجيش للدراسة في باريس ولندن وفيينا. قام محمود بإجراء إحصاء سكاني، وألغى الإقطاعيات العسكرية المتبقية، وأنشأ نظامًا للحجر الصحي، وزاد من إرسال البعثات الدبلوماسية المنتظمة إلى الخارج وأسست في عهده أول جريدة رسمية عثمانية: المراقب العثماني (Le Moniteur Ottoman)² والتي سرعان ما تبعها طبعاتها باللغة التركية تقويم وقايع (Takvim-i Vekayi)³، تمثل هذه الأخيرة بداية الصحافة التركية التي نمت بسرعة كبيرة في نصف قرن التالي.

شكل الطربوش والزي الرسمي الجديد والجريدة الرسمية التي طبعت فيها اللوائح والتعيينات الجديدة العلامات الخارجية لمنظومة إدارية تم إصلاحها ببطء على النمط الغربي، والتي انبثقت أساسًا عن أعمال محمود الثاني، تمت إزالة بعض الأنظمة التقليدية، كما تم إعادة تصنيف هرمية الموظفين المدنيين، ليعلن محمود أنه لن يكون هناك المزيد من المصادرات التّعسّفية لممتلكات المسؤولين المتوفين، وحاول تثبيط الفساد ودفع الأجور بانتظام، مع نهاية فترة حكمه قام بتغيير مسميات بعض من وزرائه لتتوافق مع الأعراف الدبلوماسية الأوروبية؛ فأنشأ وزارات الخارجية والداخلية والخزانة (المالية). هؤلاء الوزراء وغيرهم كانوا أعضاءا بالمجلس الخاص (Meclis-i Has) الذي كان يهدف إلى أن يكون أشبه بمجلس الوزراء الأوروبي منه بالديوان الهمايوني القديم، كان كل وزير مسؤولاً عن إدارة وزارته⁴.

تولى ذلك المجلس الخاص وظيفته ولكن كان للسلطان الحق في تعديل الوزراء كما يشاء دون التأثير بالضرورة على موقف الصدر الأعظم الذي ترأس ذلك المجلس، وقد ألغي لقب الصدر الأعظم أو الوزير الأعظم (Sadr-i aam أو vezir-i azam) لفترة وجيزة لصالح لقب رئيس الوزراء (Baş

¹ - Ibid, P4.

² . جريدة أسبوعية مكتوبة بالفرنسية ونشرت لأول مرة سنة 1831م حرّرها الصحفي الفرنسي ألكساندر بلاك (Alexandre Blacque) (1794-1837) بأمر ودعم محمود الثاني. كانت أول جريدة رسمية للدولة العثمانية. ينظر:

Leon De Rosny : **Revue orientale et américaine**, Vol 1, Challamel Ainé, Paris, 1859, P131.

³ - Roderic H. Davison: **Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876**, Princeton University Press, USA, 1963, P27.

⁴ - Ibid, P27-28.

(Vekil)، ولكن تم استعادة اللقب القديم سنة 1255هـ/1839م¹، ربما للإبقاء ظاهرياً على بعض الخصوصية لإدارة أريد لها أن تكون أوروبية أكثر منها عثمانية.

أنشأ محمود أضا في أوائل سنة 1254هـ/1838م المجلس الأعلى للأحكام القضائية: مجلس ولايات الأحكام العدلية (Meclis-i Vâlâ-y Ah Ahkâm -1 Adliye)، وعادة ما يطلق عليه في الغرب "مجلس العدل الكبير" (Grand Council of Justice) وهو المجلس الذي كُلف بالبحث الشامل والتحضير للقوانين الجديدة، هذا المجلس هو الذي سيخضع لسلسلة من التحولات خلال الثلاثين سنة القادمة، وسيكون أول هيئة حكومية مركزية تجسّد مبدأ التمثيل من خلال ضم أشخاص مختارين من الأقليات غير المسلمة. هذا هو المجلس الذي ظهر سنة 1285هـ/1868م كمجلس شورى الدولة {Şûrâ-yı Devlet} مماثل للنموذج الأوروبي في ذلك العهد².

إنشاء مكتب الترجمة (Tercüme Odasi)³ في القسم الذي أصبح يعرف لاحقاً بوزارة الشؤون الخارجية⁴ كان أحد ابتكارات محمود الثاني التي وُلدت من المشكلة العملية المتمثلة في تكثيف العلاقات الدبلوماسية مع القوى الغربية، وكان لهذا الابتكار نتائج تفوق بكثير ما كان يمكن توقعه في ذلك الوقت عمل ذلك المكتب كمدرسة حقيقية على تأطير كفاءات عثمانية تُحسن التعامل مع لغات الدول الأوروبية، ومن ثمّ تحسّن تشرب الثقافة الأوروبية، وقد تخرّج من هذا المكتب أهمّ رجالات الإصلاحات من فئة الكتّاب من أهل القلم كما سنرى لاحقاً.

بما أنّ بوصلة الإصلاح باتت باتجاه الغرب، قام السلطان محمود الثاني بإعادة تفعيل الدبلوماسية المقيمة سنة 1250هـ/1834م، وبعد ذلك بعامين قام بتأسيس نظارة أمور الخارجية أو وزارة الخارجية (Umur-u Hariciye Nezareti)؛ لقد كان إصلاحاً كبيراً، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها التّعامل مع الشؤون الخارجية من قبل وزارة منفصلة بدلاً من إدارة مرتبطة مباشرة بمكتب الصدر الأعظم أصبح الآن المكتب المسؤول عن الشؤون الخارجية أكبر بكثير مع تشكيل إدارات جديدة، وسرعان ما أصبح وزير الخارجية مؤثراً جداً في مجلس الوزراء، والثاني في الهيبة بعد الصدر الأعظم (Sadrazam)

¹ - Ibid, P28

² - Loc.cit.

³ من هذا المكتب برز الإداريون العثمانيون الشباب الذين تقلّدوا مناصب مهمة في وزارة الخارجية وفي الإدارات الأخرى بل أصبح بعضهم صدوراً عظاماً، ساهم سكرتيران من مكتب الترجمة في تأسيس أول نظام تلغراف للإمبراطورية العثمانية في خمسينيات القرن التاسع عشر؛ وكان هناك طالبان سابقان آخرا من نفس المكتب من بين المعلمين الأوائل للمدرسة التي تم إنشاؤها سنة 1859م لتدريب مسؤولي المقاطعات، وكان من بين خريجي مكتب الترجمة ذاك كل من: عالي باشا وفؤاد باشا وأحمد وفيق باشا ونامق كمال بك وغيرهم. ينظر: bid, P29.

⁴ - Ibid, P28.

في الواقع كان وزير الخارجية بطريقة ما "رئيس وزراء الشؤون الخارجية" في حين كان الصدر الأعظم "رئيس وزراء الشؤون الداخلية"، هذا الموقف المرموق لوزير الخارجية سوف ينخفض إلى حد ما في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي في ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني (1293-1327هـ/1876-1909م)¹، وهذا التغيير الذي أنتج منصب وزير الخارجية سيكون له أثر كبير في فرمان 1255هـ/1839م وما بعده كما سنرى.

الإسهام الحقيقي لعهد محمود الثاني في تطوير الإصلاح والتغريب في الدولة العثمانية تمثل في عدد من البدايات التي فتحت إمكانات للمستقبل، عوضاً عن الإصلاحات الفعلية التي تحققت بحلول سنة 1255هـ/1839م، العديد من جهود محمود كانت غير فعالة نسبياً؛ في الواقع لقد فشل في القضاء على الفساد والمصادرة ودفع الأجور بانتظام، جيشه الجديد والمدارس الجديدة كانت بدائية، وهناك أيضاً وجه للصحة في اتهامه بأنه بدأ من الجانب الخاطئ؛ حين ركّز على تغيير المظاهر بدل الجوهر كتغييره القسري للملابس الرسمية، على الرغم من كونه كان مدركاً أنّ تغيير المظهر الخارجي كان بمثابة إعداد نفسي لمزيد من التغييرات الأساسية².

تمّ مع ذلك فتح قنوات واسعة لتدفق الأفكار الغربية، بالإضافة إلى ذلك فإن رغبة محمود الثاني في ضمان معاملة رعاياه وفق مبدأ المساواة بصرف النظر عن عقيدتهم مهّدت الطريق للإعلان الرسمي لمبدأ المساواة العثماني³ في السنوات 1255هـ/1839م وما بعدها، ونُقِلَ عن محمود قوله: "أنا أميز بين رعاياي؛ المسلمون في المسجد والمسيحيون في الكنيسة واليهود في الكنيس، وغير ذلك لا يوجد فرق بينهم"⁴، إنّها نوع من البدايات العلمانية التي أملتّها الآن عقدة النقص أمام الغرب بعد أن تحكمت في العثمانيين لقرون طويلة عقدة التفوق على الغرب.

تمثلت أكثر أعمال محمود الثاني فعالية وتأثيراً فوراً في التدمير وليس البناء؛ من خلال إبادة

¹ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P136-137.

² - Roderic H. Davison: Op.cit, P30.

³. يذكر رودريك دافيسون (Roderic H. Davison) على هامش كتابه أنّ الدكتور التركي رشاد كاينار ذكر في كتابه: مصطفى رشيد باشا والتنظيمات (Mustafa Reşid Paşa ve tanzimatı) نقلاً عن رجل الدولة والصحفي العثماني عبد الرحمن شريف أفندي (ت1925م) ضمن مقالاته المجموعة تحت عنوان (Tarih Musahabeleri): أننا نجد أساس مبدأ المساواة في مرسوم سنة 1826م المتعلق بإلغاء الإنكشارية؛ حيث حثّ محمود رعاياه المسلمين وحدهم على الأخوة، جاء في فرمان = "فلتكن كل طوائف المسلمين وصغار وكبار المسؤولين والعلماء وأعضاء التشكيلات العسكرية الأخرى وعامة الناس مثل الجسد الواحد فلينظروا إلى بعضهم البعض كإخوة في الإيمان.." ثم يعلق رودريك دافيسون عن ذلك بقوله: لكن هذا ربما يكون مجرد إعادة تأكيد لمذهب الأخوة والمساواة بين جميع المؤمنين كما ذكر النبي في القرن السابع. ينظر: Ibid, P31.

⁴ - Loc.cit.

الإنكشارية وسحق سلطة الإقطاعيين ساهم كثيراً في الحفاظ على وحدة الدولة والسيطرة المركزية عليها وهو الهدف الأساسي لجميع الإصلاحيين، وبالمثل رفع محمود اثنين من أهم الكوابح للممارسة التعسفية للسلطة من قبل الحكومة المركزية، فقد تم مع محمود قلب التوازن القديم وإن كان فاسداً، تقع السلطة الآن بيد القصر والباب العالي، وبالتالي زادت احتمالات الاضطهاد المباشر للشعب من قبل الحكومة المركزية، إذ يمكن أن تكون سلطة الحكومة المركزية جيدة أو سيئة¹، الأمر يتوقف على طبيعة من يمارس السلطة، وإن كان الهدف من وجود سلطة مركزية هو السيطرة على التغيير المنشود وتعميمه.

عمل محمود الثاني أيضاً على إعداد الكوادر الجديدة التي ستحمل على عاتقها ما بات يعرف بعهد التنظيمات؛ ففي نهاية عهد محمود الثاني سنة 1254هـ/1838م تم تأسيس مدرسة مصممة خصيصاً لتدريب الموظفين في المكاتب الحكومية: مكتب المعارف العدلية (Mekteb-i Maârif Adliye)، حيث تم تدريس اللغة الفرنسية وكذلك الجغرافيا والرياضيات وغيرها من المواد²، فقد كان محمود مدركاً أنّ التعليم أساس أي إصلاح، وأنّ تغيير المنظومة الإدارية القديمة يحتاج كفاءات إدارية جديدة.

يختلف إضفاء الطابع التغريبي المؤسسي في عهد محمود الثاني إلى حد كبير عن المحاولات السابقة لمواجهة الأفكار الأوروبية، فلأول مرة ظهر التغريب كسياسة رسمية مرتبطة بإصلاح إداري واسع ونفذت بقوة صارمة، وفرت المدارس الجديدة القوة البشرية اللازمة لإحداث فارق كبير في تغيير اتجاه البوصلة العثمانية غرباً، كان لتلك التغييرات المهمة تأثير دائم على الجيل الجديد الذي بلغ مرحلة النضج في عهد محمود الثاني، وأرسى الأسس لكوادر حركة التنظيمات المستقبلية، لقد كان للسلطان محمود الثاني بذلك الفضل الكبير في وضع أسس التنظيمات.

عندما توفي محمود الثاني سنة 1255هـ/1839م كانت أعماله الإصلاحية قد بدأت للتو وأضحت دولته مهددة بانتصارات محمد علي باشا في مصر، فخلفه ابنه عبد المجيد الأوّل وهو صبي في السادسة عشر من عمره!! تميز عهد السلطان الجديد بزيادة جهود الإصلاح والتغريب في العديد من المجالات، لكن عبد المجيد على عكس والده لم يكن هو المحرّك المباشر للجهود الجديدة؛ حداثة سنّه وقلة خبرته حين اعتلى العرش العثماني فضلاً عن شخصيته الضعيفة إلى حد ما كلّ ذلك ساهم في هيمنة الباب العالي؛ فمرسوم الإصلاح الشهير الصادر في 26 شعبان 1255هـ/ 3 نوفمبر 1839م الذي صدر باسم السلطان لم يتم إصداره بمبادرة منه، ولكن كان من وراء إصداره رجل الدولة اللامع

¹ - Ibid, P31-32.

² - Ibid, P33.

وأحد أساطين فئة الكتّاب السيد مصطفى رشيد باشا وزير الشؤون الخارجية¹.

سيرة رجل كلخانة مصطفى رشيد باشا

قبل التطرّق لمرسوم خط شريف كلخانة الذي يعتبر حدثاً مفصلياً في التاريخ العثماني عموماً وتاريخ الإصلاح خصوصاً، وجب أن نتطرّق إلى سيرة رجل الدولة اللامع ووزير الخارجية وأحد أبرز رجال فئة الكتّاب من أهل القلم في عصره السيد مصطفى رشيد باشا؛ نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية التركية فإنّ خوجا مصطفى رشيد باشا ولد بحى داوود باشا بإستانبول بتاريخ 16 شوال 1214هـ/ 13 مارس 1800م، وهو معروف بلقب الشيخ (Koca) والكبير (Büyük)، والده يدعى مصطفى أفندي تولى منصب الروزنامجي (rûznâmçeci) بأوقاف السلطان بايزيد الثاني، تلقى تعليمه الأول عن والده على الرغم من استمراره في مدرسة حي داوود باشا لفترة من الوقت، إلا أنه لم يتلق تعليماً منتظماً وكان عصامياً يدرس نفسه بنفسه، بعدما فقد والده في سن مبكرة تولى صهره سيد علي باشا الإمبرطلي² تربيته؛ وعندما عيّن سيد علي باشا بمنصب سرعسكر بشبه جزيرة المورة باليونان رافقه رشيد وكذا رافقه حين عيّن حاكماً بولاية خدانديكار (Hüdâvendigâr) بالأناضول، ومنطقة قوجه ايلي (Kocaeli) شرق إستانبول، وحين تولى صهره علي باشا الإمبرطلي منصب الصدر الأعظم لفترة وجيزة خلال (1235 - 1236هـ/ 1820-1821م) تولى رشيد منصب أمين الختم (mühürdar)³ وأصبح موظفًا مدنياً⁴، مشواره مع صهره أكسبه الكثير من الدربة والخبرة.

بعد إقالة السيد علي باشا وتقاعده بمنزله بإستانبول، أصبح رشيد تحت رعاية صديق صهره بيلكجي عاكف أفندي⁵ وعُين ضمن سلك فئة الكتّاب بالباب العالي (Bâbîâlî Mektûbî Kalemi)، وبفضل عاكف أفندي تقلّد رشيد منصب أمين ختم الصدر الأعظم بندرلي محمد

¹ - Ibid, P36.

² . سيد علي باشا الإمبرطلي (1756-1826م): تولى منصب الصدارة العظمى في عهد محمود الثاني لفترة وجيزة بين 15 يناير 1820م و26 مارس 1821م، خلال تمرد علي باشا الألباني ومنظمة الأصدقاء (Filiki Eterya) السرية باليونان. بسبب عدم كفاءته في التعامل مع التمرد تمّ عزله عن منصب الصدارة. تم تولى بعدها عدة مناصب إلى أن أُجبر على الإقامة بحى مال تبة (Maltepe) بإستانبول حيث توفي سنة 1826م. هو صهر وقيل عم مصطفى رشيد باشا. ينظر:

Seyyit Ali Paşa: <https://peoplepill.com/people/seyyid-ali-pasha/?PageSpeed=noscript>

³ . مهردار (mühürdar): الاسم الذي أطلق على الشخص المسؤول الذي يقوم بالحفاظ على الأختام الخاصة برجال الدولة والقيام بختم الأوراق التي تتطلبها. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص217.

⁴ - Kemal Beydilli : **Mustafa Reşid Paşa (1800-1858), Osmanlı sadrazamı, Tanzimat döneminin önde gelen devlet adamlarından**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 31, İstanbul, 2006, sayfa 348.

⁵ . بيلكجي عاكف أفندي أول رئيس كتاب يصبح وزيراً للخارجية، تمت ترجمته سابقاً.

سليم سيرى باشا¹ وانضم معه إلى الجيش خلال الحرب العثمانية الروسية في الفترة (1243-1244هـ/ 1828-1829م)، هناك لفت رشيد انتباه السلطان محمود الثاني من خلال تقاريره التي كان يرسلها له لمجريات أحداث المعارك والقتال على الجبهة².

شارك سنة 1244هـ/1829م بمحادثات "سلام أدرنة"³ كباش كاتب (başkâtip) ثم رقي إلى أهم مكتب لفئة الكتاب؛ مكتب الأمدي. بهذا المكتب تعرّف على رجل الدولة البارز رئيس الكتاب بجوي محمد سعيد باشا⁴ هذا الأخير الذي قدرّ عالياً مواهب رشيد، وأخذه معه إلى مصر ككاتب ثاني أثناء المفاوضات مع محمد علي باشا سنة 1245هـ/1830م. وهكذا واجه رشيد المسألة المصرية التي من شأنها أن تترك الدولة في وضع صعب للغاية مستقبلاً، عند عودته تقلّد سنة 1246هـ/1831 منصباً نائب الأمدي، وفي جويلية 1247هـ/1832م تقلّد منصب الأمدي بعد انتصار القوات المصرية في قونية، شارك رشيد في اجتماعات مع إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا في كوتاهية في (شوال - ذو الحجة 1248هـ/مارس-ماي 1833م)⁵.

تم إرساله في 9 ربيع الاول 1250هـ/جويلية 1834م سفيراً إلى باريس برتبة وزير مفوض فوق

¹ . تمت ترجمته في الفصل الرابع المبحث الأول.

² - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 348.

³ . محادثات سلام أدرنة أفضت إلى معاهدة أدرنة في 14 سبتمبر 1829م، معاهدة اختتمت الحرب الروسية التركية "العثمانية" 1828-1829م، وقعت في مدينة أدرنة. عززت موقف روسيا في أوروبا الشرقية وأضعفت موقف الدولة العثمانية. تنبأت المعاهدة إلى اعتماد الدولة العثمانية في المستقبل على ميزان القوى الأوروبي، كما تنبأت إلى تقسيم ممتلكاتها بالبلقان في نهاية المطاف. ينظر: **The Editors of Encyclopaedia Britannica: Treaty of Edirne 1829,** <https://www.britannica.com/event/Treaty-of-Edirne> .

⁴ . بجوي محمد سعيد باشا (1785-1837): هو ابن عائلة شريفة أصلها من الحجاز واستقرت بالقرم ثم هاجرت إلى إسطنبول بعد تلقيه للدراسات الشرعية بإسطنبول، حصل على رؤوس قلمي (Ruûs Kalemi) [شهادة أهلية للعمل بديوان الكتاب من أهل القلم] سنة 1804م، بمساعدة بيلكجي قساداري حاجي احمد أفندي الذي كان أحد أقاربه من جهة والدته، وهو من لقبه ببجوي (Pertev). ومن رؤوس قلمي ترقى إلى قلم الديوان الهمايوني، وإلى مكتب سكرتارية الصدارة العظمى (Sadâret Mektûbî Odası). خلال عمله لفت انتباه رئيس الكتاب غالب أفندي، وعندما ذهب الأخير إلى بوخارست كرئيس للمندوبين لإبرام معاهدة سلام مع الروس سنة 1811م أخذ معه بجوي أفندي كاتباً. وبصبح بعدها تحت رعاية غالب أفندي ليرتقي سنة 1820م إلى مكتب الأمدي، ثم رئيساً للكتاب في 24 مارس 1827م إلى 1830م. اتم بتضليل السلطان في الشؤون الروسية واليونانية. بعد إنشاء وزارة الداخلية (Umûr-ı Mülkiyye Nezâreti) في 11 مارس 1836م أصبح بجوي = وزيراً للداخلية نظراً لصراع الأجنحة الدائم داخل الحكومة العثمانية تم نفي بجوي باشا إلى أدرنة بعد عزله من منصبه في 12 سبتمبر 1837م وأصدر عدوه الدؤوب عاكف باشا قراراً بإعدامه. فأعدم بأدرنة في نوفمبر 1837م. ينظر:

Carter Vaughn Findley : **Pertev Mehmed Said Paşa, (1785-1837) Osmanlı devlet adamı,** TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 34, İstanbul, 2007, sayfa 233-235.

⁵ - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 348.

العادة (fevkalâde orta elçi) لمناقشة الوضع بالجزائر التي احتلها الفرنسيون سنة 1245هـ/1830م، أتيحت له الفرصة للقاء الأمير مترنيخ (Prens Metternich)¹ بفيينا وحاول الحصول على دعم النمسا في قضيتي مصر والجزائر، وحاول بشكل خاص الترويج لجعل الدعاية لصالح الدولة العثمانية في الصحافة الفرنسية وكسب الرأي العام ضد والي مصر محمد علي باشا، عاد إلى إستانبول في ذي القعدة 1250هـ/مارس 1835م، ثمّ عين سفيرا دائما (dâimî elçi) بباريس في جويلية من نفس السنة، في جمادى الآخرة 1252هـ/سبتمبر 1836م تمّ تعيينه سفيرا بلندن، فعمل بشكل أساسي على كسب دعم إنجلترا القوة العسكرية والاقتصادية العظيمة في ذلك الوقت وعلى الرغم من أن بريطانيا العظمى لم تتخلّى عن مبدأ الحياد فيما يتعلق باحتلال الجزائر، إلا أنّها وقفت إلى جانب الدولة العثمانية في لجم طموحات والي مصر محمد علي باشا².

خلال السنوات الثلاثة التي قضاها مصطفى رشيد بباريس ولندن حَيَّرَ خلالها الدبلوماسية الأوروبية، وتحسنت لغته الفرنسية، واكتسب خبرة من خلال التفاوض مع كبار رجال الدولة، أصبح مستشارا لدى وزارة الخارجية سنة 1252هـ/1836م، ثم تقلّد منصب وزير الخارجية في 10 ربيع الآخر 1253هـ/13 جويلية 1837م، ولعب دوراً هاماً في توقيع اتفاقية تجارية عثمانية إنجليزية في 26 جمادى الأولى 1254هـ/16 أوت 1838م، والتي نصّت على إلغاء الاحتكار في الدولة العثمانية وذلك من أجل كسب دعم بريطانيا العظمى العسكري والسياسي ضد محمد علي باشا، ثم تمّ تعيينه سفيرا إلى لندن بمهمة تشكيل تحالف بريطانيا، يُزَعَمُ أن هذا التعيين طلبه هو بسبب الخوف من أن يتغير موقف السلطان، علاوة على المعارضة التي تشكلت بسبب آرائه بشأن التحسين العام للهيكل الإداري للدولة³، والذي كان سيهدد مصالح بعض رجالات الدولة.

عاد إلى إستانبول في 29 جمادى الآخرة 1255هـ/8 سبتمبر 1839م بعد اعتلاء عبد المجيد الأوّل العرش، ولعب دوراً نشطاً في حل المشكلة المصرية التي وصلت إلى مستوى عالٍ بسبب هزيمة نزيب، كما عمل على إعلان مرسوم التنظيمات في 26 شعبان 1255هـ/3 نوفمبر 1839م وبمساعدة بريطانيا العظمى تمّ التأكيد على حكم محمد علي باشا في مصر وأنه خاضع قانونيا للدولة

¹ - الأمير مترنيخ (1773-1859): سياسي نمساوي وزير خارجية النمسا ومستشارها (1809-1848). يعد واحدا من ألمع رجال السياسة الذين عرفتهم أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. قاوم الحركات التحررية، وسيطر على مؤتمر فيينا الذي عقد لإعادة رسم خريطة أوروبا إثر سقوط نابليون بونابرت، وجعل من النمسا إحدى أعظم الدول الأوروبية. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص 416.

² - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 348.

³ - Loc.cit.

العثمانية، كما حدد مقدار الرسوم السنوية التي ستدفعها مصر للخزانة العثمانية، وأصر على أن تترك الشؤون المالية تحت إشراف دفتر دار (defterdar) يرسل من إستانبول، ومع ذلك تسببت هذه القضية في إقالته في 8 صفر 1257هـ/31 مارس 1841م بسبب القلق من تجدد النزاع، وأرسل سفيرا إلى باريس للمرة الرابعة في 27 جمادى الاولى 1257هـ/16 جويلية 1841م¹.

عمل خلال هذه السفارة على معالجة المشكلات التي نشأت مع نهاية التوسّع المصري في سوريا، وخاصة جلب نظام جديد لجبل لبنان، عاد إلى إستانبول في 2 صفر 1259هـ/3 مارس 1843م، ثم تم تعيينه حاكماً لأدرنة لكنه لم يقبل ذلك، وبعد فترة من الوقت أعيد سفيرا إلى باريس كان يرغب في تحديد الوضع الجديد الممنوح للبنان خلال فترة السفارة هذه بين 5 محرم 1260هـ/25 يناير 1844 و23 شوال 1261هـ/24 أكتوبر 1845م. في 23 شوال 1261هـ/24 أكتوبر 1845م تم تعيينه وزيرا للخارجية، حقيقة أن والي مصر محمد علي باشا جاء إلى إستانبول لإظهار ولائه خلال وزارته للخارجية فتحت أمامه باب الصدارة العظمى سنة 1262هـ/1846م².

خلال فترة صدارته القصيرة واصل جهده في تحديث الدولة؛ تم استحداث المحكمة التجارية المختلطة (Karma ticaret mahkemesi)، تم حظر التعذيب، أنشئت وزارة المدارس العامة أو وزارة التعليم (Mekâtib-i Umûmiyye Nezâreti) يتزامن بناء مبنى الأرشيف (Hazîne-i Evrâk) مع هذا الوقت، وعلى الرغم من إقالته من الصدارة في 25 جمادى الاولى 1264هـ/28 أبريل 1848م بسبب تم وجّهت إليه من طرف خصومه السياسيين بالقصر، غير أنه أعيد تعيينه صدر أعظما مرة ثانية في 13 رمضان 1264هـ/12 أوت 1848م، ثم تم إقالته مرة أخرى في 4 ربيع الاخر 1268هـ/26 يناير 1852، ثم أصبح للمرة الثالثة صدرا أعظما في 14 جمادى الاولى 1268هـ/5 مارس 1852م حتى 19 شوال/5 أوت من نفس السنة³.

لعب دورًا مؤثرًا في افتتاح مجمع أو أكاديمية العلوم (Encümen-i Dâniş) الذي أنشئ في رمضان 1267هـ/جويلية 1851م، ومع ذلك لم يكن من الممكن لهذه المؤسسة أن تتطور كأكاديمية للعلوم مثل مثيلاتها بأوروبا، وتابع عن كذب الارتباك الذي انتشر في جميع أنحاء أوروبا بسبب صراعات 1264هـ/1848م رفض المطالبات الروسية بتسليم اللاجئيين القوميين الهنغارين والبولنديين بالدولة العثمانية، وخلق جوًا إيجابيًا عن الأتراك في أوروبا، وقد سهل ذلك مشاركة الدول المعنية خلال حرب

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, Sayfa 448-449.

³ - Ibid, Sayfa 449.

القرن (1269-1272هـ / 1853-1856م) بدعم من الاتجاهات الليبرالية في أوروبا، والرأي العام في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية بعد عزله من الصدارة العظمى، تمّ تعيينه بمنصب وزير الخارجية للتغلب على الأزمة التي بدأت بإرسال الأمير ألكسندر منشكوف (Aleksandr Menshikov)¹ إلى إستانبول في 6 شعبان 1269هـ/14 ماي 1853م، لقد كان المفتاح لرفض المقترحات الروسية التي أرادت ضمان سيطرتها على الأرثوذكسية باتفاق رسمي².

تم تعيينه صدرا أعظما للمرة الرابعة في 3 ربيع الاول 1271هـ/23 نوفمبر 1854م، وبمجرد أن أثارت معارضته لمشروع قناة السويس ردة فعل فرنسا، حتى تم إعفائه من مهامه بسبب السياسة الخارجية في 15 شعبان 1271هـ/2 ماي 1855م، كان عليه متابعة التطورات الهامة من الخارج؛ مثل استمرار حرب القرم، وإعداد مرسوم الإصلاح في 12 جمادى الآخرة 1272هـ/18 فبراير 1856م ومعاهدة باريس في 24 رجب 1272هـ/30 مارس 1856م، ويعتبر انتقاده لرسوم الإصلاح واحدا من متابعاته وهو بالخارج، تم تعيينه للمرة الخامسة صدرا أعظما في 4 ربيع الاول 1273هـ/1 نوفمبر 1856م، ثم عزل مرة أخرى بضغط من فرنسا في 11 ذو الحجة 1273هـ/1 أوت 1857م، غير أنّه ما لبث أن عيّن صدرا أعظما للمرة السادسة في 4 ربيع الاول 1274هـ/22 أكتوبر 1857م التي مرّت بسلام مع جميع خصومه السياسيين، وتوفي في 21 جمادى الأولى 1274م/7 يناير 1858م إثر نوبة قلبية، قبره بجوار مدرسة مسجد السلطان بايزيد³.

بسّط مصطفى رشيد باشا أسلوب كتابة المراسلات الرسمية وكتابتها باللغة التركية العامية (kaba Türkçe) بحيث يفهمها الجميع، وتزوج مصطفى رشيد باشا مرتين؛ الأولى بنت أحد رجال الدولة المصرية أمينة هانم، ثم طلقها وتزوج امرأة ثرية تدعى عديلة هانم كان لديه خمسة أبناء: محمد جميل من زوجته الأولى، محمود مظهر وأحمد جلال وعلي غالب وصالح من زوجته الثانية، وتقلّد محمد جميل باشا منصب سفير بباريس ثلاث مرات، وعمل ابنه الأصغر صالح بك بسكرتارية وزارة الخارجية ومكتب

¹. ألكسندر دانييلوفيتش منشكوف (1673-1729): شخصية سياسية روسية بارزة خلال وبعد عهد بطرس الأول العظيم جنرال وإداري موهوب، أصبح في نهاية المطاف أقوى مسؤول في الإمبراطورية الروسية لكن جشعه وطموحه اللامتناهي أدى في النهاية إلى سقوطه. ربط تحالف مع كاترين أرملة بيتر، التي أصبحت الإمبراطورة سنة 1725م وعندها أصبح الحاكم الفعلي لروسيا تم اعتقاله لاحقا وتجريده من رتبته وممتلكاته ونفي إلى سيبيريا حيث توفي. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Aleksandr Danilovich Menshikov, Russian Statesmen**, <https://www.britannica.com/biography/Aleksandr-Danilovich-Menshikov> ,

² - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 449.

³ - Loc.cit.

الآمدي¹.

يذكر أنّ مصطفى رشيد باشا الذي أرسل سفيرا إلى أوروبا منذ سنة 1250هـ/1834م وتقلّده لدى عودته منصب وزير الخارجية في 21 شوال 1252هـ/28 يناير 1837م، لعب دورا بارزا في الكثير من إصلاحات محمود الثاني؛ فقد أوضح للسلطان أفكاره واقتراحات رجال الدولة الفرنسيين والإنجليز، خاصة أفكار وزير الخارجية اللورد بالمستون (Lord Palmerston)² رجل الدولة الفرنسي أدولف تيير (Adolphe Thiers)³، ونجح في إقناع السلطان بضرورة قبول تركيا في محفل الدول الأوروبية وإدخالها في الحضارة الغربية، كان الوزير الشاب في الواقع مدرّكًا تمامًا للمخاطر التي هددت الدولة العثمانية، فأوضح لمحمود الثاني أنه من الضروري طمأنة أوروبا وكسب ثققتها، وهكذا أجرى محمود الثاني سلسلة من الإصلاحات في المجالات السياسية والاجتماعية والقانونية تبعًا لأفكار رشيد باشا قام بتعديل نظام الحكم من خلال إنشاء وزارات ومجالس لإعداد مشاريع القوانين. أعاد تنظيم الإدارة والنظام القضائي والشرطة والخدمات الصحية، أدخل عادات الغرب وأعرافه في البلاد⁴، تلك كانت سيرة الرجل وبعض أعماله نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية التركية⁵

السؤال الآن هو كيف ظهر فرمان خط شريف كلخانة؟ وهل هو نتيجة ضغوط خارجية أم محض نتاج لتفاعل الرؤى المؤيدة للإصلاح والمعارض له داخل النخب السياسية العثمانية الحاكمة؟ أم أنّه نتاج جهد رجل واحد متمثلا في مصطفى رشيد باشا؟

تفكيك مصطلح فرمان خط شريف كلخانة

نحاول بداية تفكيك مصطلح مرسوم أو فرمان خط شريف كلخانة؛ مصطلح فرمان (Ferman) بحسب المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية هو الأمر السلطاني الرسمي المكتوب الصادر

¹ - Ibid, Sayfa 350.

² . اللورد بالمستون (1784-1865م): سياسي بريطاني. من أركان حزب الأحرار (Whigs) ووزير الخارجية لثلاث مرات: (1830-1834م)، (1835-1841م)، (1846-1851م). رئيس الوزراء مرتين: (1855-1858م)، (1859-1865م). لعب دورا بارزا في الشؤون الأوروبية. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص92، بتصرف.

³ . تيير، لويس أدولف (1797-1877م): سياسي ومؤرخ فرنسي. رئيس الجمهورية (1871-1873م). وبذلك كان أول رئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة التي أعلنت إثر هزيمة بلاده في الحرب الفرنسية-البروسية. أشهر مؤلفاته: تاريخ الثورة الفرنسية (Histoire de la Révolution française) في عشر مجلدات (1823-1827م). ينظر: المرجع نفسه، ص151.

⁴ - Bayram Kodaman : **Les Ambassades de Moustapha Réchid Pacha à Paris**, Conseil suprême d'Atatürk pour Culture, Langue et Histoire Publications de la Société Turque D'Histoire, Serie VII, No. 123, Imprimerie de la Société Turque D'Histoire, Turquie, 1991, P 26.

⁵. (الملحق 27) صورة مصطفى رشيد باشا، ص640.

لمعالجة قضية من القضايا، ويمثله في المعنى عبارة: حكم وتوقيع ومنشور والكلمات العثمانية (يارلغي) و(نيشان) و(برات)، كان يتم تدوينه بالخط الديواني في الديوان الهمايوني، ويسجل ملخص فرمان في سجل الديوان، ويشتمل عادة على ختم أو طُغراء¹ السلطان ونوع فرمان، والسبب الذي أدى إلى إصداره، والغرض منه بعبارة صريحة إلى جانب تاريخ صدوره وكان يصادف في بعض الأحيان أن نجد تعليقا بخط السلطان على فرمان².

فنقلا عن المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية فإنّ مصطلح خط شريف (Hatt-1 Şerifi) أو الخط الهمايوني باللغة العثمانية (خطي همايون) (hatt-1 hümayûn) هو الاسم العام الذي يطلق على الأوامر الصادرة عن السلاطين بخط أيديهم أو ما حرّره الكتّاب وأمضاه السلطان، كما أنّه يطلق على التعليقات المدونة من لدن السلاطين على الملخصات المقدمة من الصدور العظام، ويطلق كذلك على الأوامر الصادرة من السلاطين ابتداء، وقد سمي الخط الهمايوني بالخط الشريف أيضا³.

يتكون مصطلح "كلخانة" (Gülhane) من كلمتين جول (Gül) بمعنى الورد وكلمة خان (hane) بمعنى مكان أو دار، والمعنى الكلي دار أو مكان الورود؛ وهو ساحة بإستانبول تمتد من قصر أو سراي بورنو (Sarayburnu) إلى أسوار قصر طوبكابي (Topkapı) المطلّة على بحر مرمرة، وسميت بذلك نظرا لكونها كانت حدائقا للزهور⁴، وتُسبب خط شريف كلخانة إلى المكان الذي قرأ فيه مصطفى رشيد باشا في 26 شعبان 1255هـ/3 نوفمبر 1839م فرمان السلطان عبد المجيد (1839-1861)⁵ يذكر أنّ مصطلح "خط" و "فرمان" يعني المرسوم.

فرمان كلخانة والمؤثرات الداخلية والخارجية

يحسن بدابة أن نجيب - قبل معرفة مضمون خط شريف كلخانة وانعكاساته وآثاره - على سؤال هل كان إصدار فرمان كلخانة نتيجة ضغوط خارجية أم محض نتاج لتفاعل الرؤى المؤيدة للإصلاح والمعارض له داخل النخب السياسية العثمانية الحاكمة؟ أم أنّه نتاج جهد رجل واحد متمثلا في مصطفى

1. طغراء (Tuğra): هي الشعار الذي يتخذه كل سلطان من السلاطين العثمانيين علامة له وتوقيعا. كان يدوّنه بالمعاهدات والفرمانات والخطوط الهمايونية وغيرها من الوثائق. يقوم موظف يدعى النيشانجي أو التوقيعي بكتابة طغراء السلطان في أعلى وسط الوثيقة. صابان سهيل: المرجع السابق، ص149، بتصرف.

2. المرجع نفسه، ص162، بتصرف.

3 - المرجع نفسه، ص 101، بتصرف.

4. المرجع نفسه، ص192، بتصرف.

5. المرجع نفسه، ص101-102، بتصرف.

رشيد باشا؟

يرى فريق من الباحثين والمهتمين بالتاريخ العثماني أنّ خط شريف كلخانة كان نتاجا للدينامية الداخلية بين صناع السياسة العثمانية الداخلية وليس نتاج الضغوط أو التأثيرات الخارجية، ويرون أنّ خط شريف كلخانة أكبر من أن ينسب إلى شخص واحد مهما كانت ألمعيته وكفاءته وقدراته ونأخذ من هذا الفريق الباحث التركي الدكتور علي أكيل ديز¹ وهو باحث متخصص في التاريخ العثماني عامة وفي التنظيمات خاصة وعمل بالأرشيف العثماني، نلخص رأيه المنشور في دراسته القيمة المعنونة ب: التنظيمات ما يلي:

" في الأدبيات الخاصة بالتنظيمات يحتل مصطفى رشيد باشا مكاناً مركزياً للغاية في عملية إعداد وإعلان خط همايون كلخانة، ليس من المعقول الادعاء بأن مثل هذا التحول الهام تحقق بمبادرة من إداري شاب دون اتفاق جدي بين القصر والعلماء والمدنيين والمنظومة الإدارية العسكرية بالرغم من الدور البارز لمصطفى رشيد باشا، في الواقع أعلن السلطان عبد المجيد في 6 جمادى الأولى 1255هـ/17 جويلية 1839م في خطاب جلوسه على العرش إلى جانب خطوط أخرى عن ضرورة احترام القانون والعدالة في الحياة العامة، وتجنب الفساد والرشوة وضمن سلامة الحياة والملكية، إن عودة مصطفى رشيد باشا من لندن إلى إستانبول بعد حوالي شهر ونصف من هذه الخطوط تظهر أن مبادئ كلخانة قد تم إثباتها باتفاق الإداريين الآخرين في العاصمة العثمانية، وبصرف النظر عن ذلك فإنه بعد عودة رشيد باشا وقبل إعلان التنظيمات تم عقد مجلس سيادي بالباب العالي برئاسة الصدر الأعظم كوجا خسرو باشا² وبأمر من السلطان عبد المجيد، وحضر هذا المجلس ثمانية وثلاثون من كبار المسؤولين إلى جانب العلماء ووافق السلطان على المبادئ التي أقرها المجلس وبحسب محضر (mazbata) هذا المجلس فإنّ نصف الذين أيدوا المبادئ كانوا من العلماء، الملاحظ أنّ ذلك المبادئ الواردة في المحضر وخط شريف كلخانة متشابهة تقريباً، وهذا يدل على أنه ليس من الصحيح أن ينسب برنامج

¹ . على أكيل ديز (Ali C. Akyildiz) باحث وأكاديمي تركي. في سنة 1995 فاز بجائزة التشجيع عن كتابه الإصلاح في الجهاز المركزي العثماني في عصر التنظيمات (Tanzimat Dönemi Osmanlı Merkez Teşkilâtında Reform) في مسابقة نظمتها الجمعية التاريخية التركية. له عدة بحوث ودراسات منشورة في عدة مجلات محكمة دولية. كما له عدة مؤلفات ينظر: **Biyografya beta: Ali Akyıldız (Historian) Historian, Yazar:** <https://www.biyografya.com/biyografi/16374> .

² . خسرو باشا محمد (؟ - 1855/1271): صدر أعظم عثماني، ارتقى في المناصب بعد اعتلاء سليم الثالث العرش، ونظرا لخبرته الإصلاحية عينه محمود الثاني سر عسكر لجيشه الجديد " الجيش الحمدي المنصور " سنة 1827م فقام بإصلاحه وتدريبه عين صدرا أعظما لفترة قصيرة بين 2 جويلية 1839م و8 جوان 1840م. ينظر:

İnalçik, Halil: **Khosrew Pasha Mehmed**, The Encyclopaedia of Islam, Op.cit, Vol 7,1979 P35-36.

إصلاح مهم مثل مرسوم التنظيمات إلى مصطفى رشيد باشا وحده¹، وأن المرسوم نشأ كمنتج للديناميات الداخلية للدولة العثمانية بدلاً من التأثيرات الخارجية².

إذا بحسب الدكتور علي أكيل ديز فإنه رغم الدور الريادي لمصطفى رشيد باشا في صياغة خط شريف كلخانة إلا أنه لا يمكن الزعم أنّ المبادئ التي تضمّنها المرسوم الشهير كانت من بنات أفكار رشيد باشا وحده، أو نتاج جهده الشخصي، فالحقيقة أنّ كما قال أنّ بعضاً من تلك المبادئ ذكرها السلطان قبل ذلك في خطاب العرش، وعقد اجتماع بأمر من السلطان عبد المجيد برئاسة الصدر الأعظم ولفيف من الإداريين والعلماء لأجل تحيينها وضبطها والتعاهد على العمل بها، بل إنّ بعض تلك المبادئ سيما المساواة بين أبناء الوطن الواحد بصرف النظر عن الديانة والقومية وردت كما رأينا منذ عهد محمود الثاني، لكن ومع كل ذلك هل ينفي هذا وجود تأثير ما لقوى غربية في ترسيخ تلك المبادئ إذا استبعدنا إنشاءها؟

نعلم بداية أنّ فرمان خط شريف كلخانة قام مصطفى رشيد باشا بصياغته وكتابته بنفسه³ والمعروف عن مصطفى رشيد تأثيره الكبير بالغرب عموماً سيما بريطانيا⁴؛ وحقيقة أن مصطفى رشيد باشا رأى أن بقاء الدولة العثمانية مرهون باستغلال التوازن بين الدول الأوروبية الكبرى أمر ذو أهمية حيوية في تحديد التوجه الرئيسي للسياسة الخارجية، كان يؤمن بالتفوق الاقتصادي والعسكري لبريطانيا على الدول الأخرى، وضبط تصرفاته بناءً على هذه الحقيقة عندما كان في السلطة، وبهذا كان حريصاً على دعم وحماية إنجلترا، وبسبب تزايد نفوذ فرنسا بشكل كبير أثناء حرب القرم وبعدها كان لا بد من إزالته من السلطة، ونظرًا للخطر الروسي كان عليه أن يأخذ بالاعتبار سياسات هاتين الدولتين

1. يذهب في هذا الاتجاه مؤلفا دائرة معارف الإمبراطورية العثمانية (Gábor Ágoston) و (Bruce Masters) إذ قالوا: لا يمكن اعتبار مصطفى رشيد المهندس الوحيد لهذه الإصلاحات. قدم السلاطين العثمانيون في هذه الفترة محمود الثاني وعبد المجيد الأول بالإضافة إلى رجال دولة آخرين مساهمة قيمة في هذه العملية ولا ينبغي تجاهلهم. على الرغم من أنه كان يتم تمثيله أحياناً بمبالغة كـ "نبي الحضارة". ينظر: Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P414.

2 - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 2.

3. يشير إلى ذلك الأكاديمي التركي الدكتور بايرم كودمان في كتابه: سفارات مصطفى رشيد باشا بباريس (Les Ambassades Bayram Kodaman: Op.cit, P 29). ينظر: (de Moustapha Réchid Pacha à Paris).

4. وجود مصطفى رشيد باشا بأوروبا (باريس ثم لندن) سفيراً منذ سنة 1834م؛ وتعلّمه اللغة الفرنسية واطّاعه على العلوم الحديثة للبلدان الأوروبية التي أرسل إليها، علاوة على دراسته للمؤسسات وأنظمة الحكم وعادات دبلوماسية الدول، واحتكاكه بالأوساط الليبرالية ورجال الدولة الفرنسيين والإنجليز وتعلّمه منهم كل ما من شأنه تنوير الحكومة العثمانية حول ما تعلق بالتقدّم الأوروبي، كل ذلك فهم منه رشيد باشا سيما مع تجربة الأزمة المصرية، بأنه بدون مساعدة أوروبا ستكون الدولة العثمانية في خطر. ينظر:

Ibid, P27.

وأصبح لبريطانيا وفرنسا أهمية متزايدة في السياسة الداخلية والخارجية العثمانية¹.

اعتقد مصطفى رشيد باشا أن الدولة العثمانية تمرّ بأزمة وجودية هي الأخطر في تاريخها ولا يمكنها البقاء إلا بالتعاون الكامل مع بريطانيا، واعتقاده هذا انعكس في تفضيله الدائم لمصالح بريطانيا على حساب القوى الأوروبية الأخرى، بل على حساب الدولة العثمانية نفسها!! وقد قاومت فرنسا وروسيا سياسات رشيد باشا التفضيلية تجاه بريطانيا مما تسبب في إقالاته المتتالية من مناصبه الدبلوماسية وموقعه كصدر أعظم، وانتقده خصومه العثمانيين إلى حد كبير بسبب موقفه المؤيد لبريطانيا والعواقب الاقتصادية المؤسفة للامتيازات الممنوح لأول مرة للتجار البريطانيين في معاهدة بالتا ليماني² (Baltalimanı Antlaşması).

ضمنت تلك الاتفاقية لبريطانيا نظامًا للتجارة الحرة وشكّلت خطراً كبيراً على الدولة العثمانية سيما وقد عقدت الدول الأوروبية لاحقاً اتفاقيات مماثلة مع العثمانيين، مما أدّى إلى انخفاض عائدات الجمارك وزاد عدد التجار الأجانب داخل البلاد وزادت مشاركتهم في التجارة الداخلية، وترتّب عن هذا الوضع إثارة دعاوى قضائية متعلقة بهم مما شكّل مشكلة كبيرة، مما دفع إلى تشكيل محكمة تجارية خاصة لمعالجة تلك الشكاوى.

ألغت الاتفاقية جميع احتكارات الدولة العثمانية في التجارة الخارجية، ومنع حظر تصدير أي سلعة، وسمحت للتجار البريطانيين بالاستقرار في أي مكان في أراضي الدولة العثمانية على الرغم من أنها رفعت بالفعل التعريفات الجمركية على الواردات والصادرات بشكل طفيف إلا أن الاتفاقية ألغت التعريفات الداخلية على التجار البريطانيين الذين ينقلون البضائع بين المقاطعات العثمانية³ بقيت

¹ - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 350.

² . معاهدة بالتا ليماني (Treaty of Balta Limanı) التجارية: هي اتفاقية موقعة بين الدولة العثمانية وبريطانيا العظمى في 16 أوت 1838م والتي ألغت الاحتكارات التجارية التي فرضتها الدولة. حصل التجار البريطانيون على الحق في تبادل المنتجات العثمانية تحت نفس الشروط التي يتمتع بها التجار المحليين، فتح الاتفاق التجاري لسنة 1838م الأسواق المحلية العثمانية أمام التجار البريطانيين، وبعد ذلك بوقت قصير أبرمت اتفاقات مماثلة مع فرنسا وبلدان أخرى، كان هذا يعني تحريكاً فعالاً للتجارة العثمانية وضربة أخيرة للنقابات الحرفية المحمية تقليدياً من قبل الدولة، وفي الوقت نفسه حُرّم والي مصر محمد علي باشا من الوسائل المالية لتخصيص الموارد لجيشه وللصناعة المحمية من قبل الحكومة. ينظر: Selcuk Aksin Somel: Op.cit, P302.

³ . كانت الصناعة البريطانية راسخة بالفعل في ذلك الوقت وكان الرأسماليون البريطانيون يبحثون عن اتفاقيات تجارة حرة تسمح لهم ببيع سلعهم المصنعة في الخارج برسوم جمركية منخفضة بينما يشترون المواد الخام من الخارج دون عوائق ضوابط التصدير، كان هناك الكثير من النقاش بين المؤرخين حول تأثير معاهدة التجارة الحرة المبكرة هذه على إنتاج الحرف اليدوية العثمانية. ومع ذلك بحلول نهاية القرن التاسع عشر كانت السلع المصنعة البريطانية الرخيصة قد حلت محل العديد من الأشياء التي كانت تُنتج سابقاً =

هذه التعريفات الداخلية سارية المفعول بالنسبة للتجار العثمانيين والتجار من الدول الأوروبية الأخرى كان لهذا التفاوت آثار طويلة المدى حيث اتبعت دول أوروبية أخرى مثال إنجلترا وحصلت على امتيازات ضمن معاهدات مماثلة. سعى التجار العثمانيون غير المسلمين إلى التحايل على البنود التمييزية لمثل هذه الاتفاقات من خلال الحصول على الحماية من القوى الأوروبية. جعل هذا في نهاية المطاف التجار المسلمين العثمانيين في وضع غير مؤات لأنهم وجدوا أنفسهم مستمرين في دفع الضرائب التي كان منافسهم الأجانب معفيين منها. كما أنهت المعاهدة قدرة الدولة العثمانية على تحديد التعريف الجمركية من جانب واحد؛ حيث كان عليها التفاوض على أي تغييرات مستقبلية في الرسوم الجمركية مع بريطانيا العظمى¹.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا لماذا سعى ووافق رشيد باشا على اتفاقية تضرّ على المدى المتوسط والبعيد بمصالح الدولة العثمانية؟ لقد تزامنت المعاهدة مع التهديد الذي كانت تواجهه الدولة العثمانية من جانب والي مصر القوي محمد علي باشا الذي أصبح يسيطر ليس فقط على مصر بل سوريا أيضاً، وفي 2 ربيع الاول 1254هـ/25 ماي 1838م توترت الأمور مجدداً عندما أعلن محمد علي - الذي كبر سنّه وحرص على ضمان الحكم في سلالته - عزمه على تأسيس نفسه كملك مستقل، حشد محمود جيشه مرة أخرى لكن هذه المرة كان الفرنسيون يعارضون تغيير الوضع الراهن فتراجع محمد علي²، مع ذلك ضلّ خطر محمد علي باشا قائماً، إلى جانب خطر العدو اللدود القديم روسيا.

اعتقاد مصطفى رشيد باشا الجازم بأنّه لا خلاص للدولة العثمانية في أزمته الوجودية الخطيرة إلاّ بالاعتصام بجبل بريطانيا إن جاز التعبير، فإنّه ومن أجل ضمان تحالف وثيق معها لجأ إلى إقناع السلطان محمود الثاني بضرورة إعطاء امتيازات تجارية جديدة لبريطانيا، تجعلها بمثابة الراعي الرسمي للدولة العثمانية والمنافع عنها في المحافل الدولية وسندها في الأزمات الداخلية والخارجية، وعلى قدر ضخامة هذا الهدف كانت ضخامة الامتيازات والتنازلات.

أفضت الأزمة اليونانية التي بدأت أزمة داخلية وسرعان ما تحوّلت إلى أزمة دولية في النهاية إلى استقلال وانفصال اليونان عن الدولة العثمانية سنة 1245هـ/1830م، وأدّت إلى سوء العلاقات

في ورش عثمانية. بالإضافة إلى ذلك كان الميزان التجاري بين الدولة العثمانية والغرب يميل لصالح الأخير مما أدى إلى عجز الدولة العثمانية عن سداد قروضها الأجنبية سنة 1876م. ينظر: Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P43.

¹ - Ibid, P143.

² - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P50.

مع بريطانيا، سيما مع توقيع العثمانيين مضطرين على معاهدة هنكار إسكله سي¹ بإستانبول سنة 1248هـ / 1833م للتحالف مع روسيا، هذه الأخيرة التي فرضت هذه المعاهدة خشية من أن يحل محمد علي باشا القوي محل السلالة العثمانية المتداعية، غير أنّ تلك المعاهد أثارت مخاوف بريطانيا وبقية القوى الأوروبية الأخرى.

استفادت بريطانيا في النهاية من هذا الوضع بالذات؛ وعمل وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون ووزير الخارجية العثماني مصطفى رشيد باشا على إبرام معاهدة بالتنا ليمان التجارية في جمادى الأولى 1254 هـ/أوت 1838م والتي تم بموجبها تأكدت الامتيازات البريطانية القديمة في الدولة العثمانية وتم توسيعها، أدى تجدد الاهتمام التجاري البريطاني بالشرق الأوسط إلى نهاية عدم ثقة محمود الثاني بالسياسة البريطانية، فأقام معها علاقة أوثق أمّدت الدولة العثمانية على المدى البعيد بالدعم الذي تحتاجه في أعنف أوقات الأزمة²، وقد ضمنت الدولة العثمانية بهذه المعاهدة وقوف بريطانيا إلى جانبها في لجم خطر محمد علي باشا³.

ولد خط شريف كلخانة في هذه البيئة السياسية ولا يستبعد عاقل التأثير الأجنبي في صدور المرسوم وإعلانه ولو كان المرسوم مخاض تفاعلات السياسة الداخلية العثمانية، ومن بين تلك الإشارات على التأثير الأجنبي ما ورد في مقابلة أجراها مصطفى رشيد باشا مع اللورد بالمرستون قبل بضعة أشهر من إقرار خط شريف كلخانة وبعد وفاة السلطان محمود الثاني مباشرة⁴، حيث ذكر رشيد باشا لرجل

¹ . تم التطرق لهذه المعاهدة في الفصل الرابع المبحث الثاني، وهي معاهدة أملتها الحرب العثمانية المصرية (1831 - 1833) بعد أن استولى محمد علي باشا على بلاد الشام وجزيرة العرب وكرت وهدّد إستانبول نفسها، وأمام تعاطف فرنسا وبريطانيا مع محمد علي، أرسل قيصر روسيا نيكولاي الأول جيشاً لمساعدة العثمانيين تحت قاعدة جار ضعيف (العثمانيين) خير من جار قوي (محمد علي إذا استولى على إستانبول). التدخل الروسي أنقذ الدولة العثمانية ودفع محمد علي لتوقيع معاهدة سلام في كوتاهية في ماي 1833م.

² - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P50.

³ . خوفاً من تفكك الدولة العثمانية تفاوضت القوى الأوروبية بمعاهدة لندن في جويلية 1840م، وعن طريق هذه المعاهدة خسر محمد علي باشا سوريا وأضنة لصالح العثمانيين مقابل الحكم الوراثي لمصر. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Ibrahim Pasha Viceroy of Egypt**,

<https://www.britannica.com/biography/Ibrahim-Pasha#ref257132>.

⁴ . يضاف إلى ذلك تعليقات رجل الدولة والسفير العثماني بفيينا صادق رفعت باشا (1807 - 1857) حول موضوع الإصلاح في الدولة العثمانية والتي تزودنا بمواد مهمة للغاية لتفسير معنى فرمان 1839م، وتتيح لنا تقييم طبيعة الإصلاحات التي أعقبت إعلانه، يبدو أن جميع مشاريع الإصلاح التي أعدها صادق رفعت باشا والمدرجة في أعماله المختارة مستوحاة بشكل أساسي من تقرير كتبه بفيينا بعد وقت قصير من وصوله. في هذا التقرير أوضح الممارسات الإدارية الأساسية ومبادئ الحكومة التي يعتقد أنه من مصلحة الدولة العثمانية تبنيها. تشير كل من الأدلة الخارجية والداخلية إلى أن الأمير مترنيخ الذي كان آنذاك =

الدولة البريطاني أنه قد أثار حفيظته بشكل خاص المعاملة القاسية التي عامل بها سيده السلطان محمود الثاني وزرائه، ومن بين هؤلاء الإداريين ذوي المكانة العالية الذين واجهوا مصيراً لا يحسدون عليه، ذكر مصطفى رشيد باشا راعيه ومعلمه السابق بجوي محمد سعيد باشا¹.

نعلم أنّ خط شريف كلخانة الذي صاغه رشيد باشا بنفسه، إنّما صاغه مباشرة بعد رجوعه من سفارته بلندن²؛ فقد أقنع السلطان الجديد عبد المجيد الأوّل الذي تولى العرش في 18 ربيع الآخر 1255هـ/ 1 جويلية 1839م بضرورة الاستمرار في طريق الإصلاحات التي تم تخطيط مبادئها العامة من قبل والده محمود الثاني، لضمان الدعم وثقة الدول الغربية من جهة، ومنع الطموح السياسي لروسيا في البلقان من ناحية أخرى³، فكان خط شريف كلخانة ترجمة عملية لطمأنة أوروبا عامة وبريطانيا بشكل خاص التي أصبحت بمثابة الرّاعي الرسمي للدولة العثمانية، مع تأكيد حقيقة أنّ رشيد باشا كتب

مستشاراً للإمبراطورية النمساوية قد لعب دوراً مهماً في مساعدة رفعت باشا على بلورة مفاهيمه لسياسات الإصلاح المفيدة مقابل سياسات الإصلاح غير المستحسنة أو الخطيرة. إن هذا الدليل إضافة إلى المواد الموجودة بالفعل والتي تُظهر الصلة الوثيقة بين رشيد باشا ومترنيخ توفر لنا أهم فكرة لفهم أفكار رفعت ورشيد وبالتالي فهم خط همايوني كلخانة نفسه. يتألف الدليل الخارجي للتأثيرات النمساوية على أفكار رفعت السياسية من عدد من الرسائل المتبادلة بين ميترنيخ ومثله لدى الباب العالي البارون ستورمر (Baron Sturmer)، حيث عبّر في إحداها مباشرة عقب إعلان خط كلخانة عن بعض المبادئ لإنقاذ الدولة العثمانية والتي طلب نقلها إلى رشيد باشا. ينظر: A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P178.

¹ - Ibid, P158-159.

عمل وزير الخارجية البريطاني اللورد بالميرستون بقوة لإعادة الدولة العثمانية كلاعب قوي في الساحة الدولية بعد إصلاحها كنظام ليبرالي حديث لتستخدمها بريطانيا كعنصر توازن دولي في مجابهة القوى الكبرى فرنسا وروسيا والنمسا، وطوال أزمة العثمانيين مع محمد علي باشا واصل بالميرستون الاعتقاد بأن إصلاح الدولة العثمانية احتمال واقعي، حتى أن معركة نزيب الكارثية التي نشبت بين الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا والجيش العثماني في 24 جوان 1839م وانتهت فيها الجيش العثماني ووفاة محمود الثاني لم تقوض ثقة بالميرستون بإمكانية إعادة تأهيل الدولة العثمانية. كتب بالميرستون إلى سفيره بإستانبول (John Ponsonby) (1770-1855م) ناسباً له دور الدافع وراء صدور مرسوم خط شريف كلخانة قائلاً: "كان مرسومك خط شريف خطوة سياسية كبيرة." لقد أعلن بقوة قائلاً: "إنّ خط شريف كان له تأثير كبير على الشعور العام هنا وفي فرنسا على حد سواء. لم أياس أبداً من رؤية تركيا تعيد نفسها مرة أخرى كعنصر أساسي في ميزان القوى". ينظر:

Evan Braden Montgomery: **In the Hegemon's Shadow: Leading States and the Rise of Regional Powers**, 1Edt, Cornell University Press, Ithaca and London, 2015, P51.

². هناك في لندن أعجب رشيد باشا بأسلوب الحكم الدستوري البرلماني، وصار من أشدّ الدعاة له حماسة. فعزم على أن يرتفع [بالدولة العثمانية] إلى مصف الدول المتقدمة، من طريق دستور ينص بلغة العصر على حقوق المواطنين الأساسية، ويعلن إلغاء المساوئ الأكثر بروزاً في إدارة الدولة، وهكذا يكتسب عطف إنجلترا وفرنسا، ويأمن على الدولة العثمانية من عدوان روسيا ذات الحكم المطلق، ويسمو - بصورة خاصة - على محمد علي [والي مصر] في نظر الرأي العام الأوروبي. ينظر: كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص561.

³ - Bayram Kodaman: Op.cit, P29.

مرسوم خط شريف كلخانة لمواصلة وتوسيع الإصلاحات التي تم تنفيذها بالفعل استجابة للمشكلات والاحتياجات العثمانية، وبعد ذلك كله يمكن التّطرق لإعلان خط شريف كلخانة ومضمونه وردود الأفعال الداخلية والخارجية حوله وانعكاساته.

أجواء إعلان خط شريف كلخانة

يعتبر خط شريف كلخانة بمثابة دليل برنامج الإصلاح العثماني الذي طوره مصطفى رشيد باشا بناء على إصلاحات محمود الثاني التي أسهم فيها هو شخصياً، وقد قام بتطوير وتعديل هذا الخط وفق تجربته وملاحظاته وملاحظات من سبقوه وعلى ضوء الاحتياجات الحالية للدولة العثمانية، مستلهما أفكاره بلا ريب من وحي التجربة الغربية، تمّ التحضير جيداً للحظة إعلان هذا الخط وإخراجه للشعب العثماني وكذا للعالم الخارجي، باعتباره حدث كبير له ما بعده.

تمّ إعلان خط شريف كلخانة للأمة العثمانية في 26 شعبان 1255هـ / 3 نوفمبر 1839م بميدان كلخانة تحت جدران قصر توبكابي - مركز إقامة سلاطين الدولة العثمانية - الجهة المواجهة لبحر مرمرية في الطرف الشمالي للحديقة والذي يحمل نفس الاسم حتى اليوم، حيث صعد وزير الخارجية مصطفى رشيد باشا على منصة احتفالية وقرأ مرسوم كلخانة الذي افتتح عهد التنظيمات على الحاضرين من كبار موظفي الدولة والعلماء والبطارقة اليونانيين والأرمن وكبير الحاخامات والتجار والسفراء الأجانب وغيرهم، شاهد السلطان عبد المجيد حفل إعلان خط كلخانة من جناح قصر كلخانة (Gülhane Kasrı)¹، تمّ حفل الإعلان بأبهة كبيرة تليق بحدث تاريخي هام.

تألّفت الوثيقة التي عرضها مصطفى رشيد على الحاضرين بكلخانة على وثيقتين: الأولى هي البروتوكول (mazbata) أو النص نفسه الذي تم إعداده تحت إشراف مصطفى رشيد باشا بالباب العالي من قبل مجلسه الاستشاري، والوثيقة الثانية هي بيان تصريح السلطان (irade)² ويشمل موافقته على إنشاء أنظمة أو مؤسسات جديدة من شأنها (1) ضمان أمن الحياة والشرف والممتلكات لرعاياه (2) إنشاء نظام منتظم لتقييم وجمع الضرائب (3) تطوير أساليب جديدة لضمان وجود نظام عادل

¹ - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 2.

² - إرادة (İrade): الأمر السلطاني، وقد بدئ باستخدام هذا المصطلح سنة 1832م. فقد كان عرض أحد المواضيع على السلطان يتم بعرض ملخص موجز عنه عليه، فتسمى مذكرة العرض أو التلخيص، ويسمى كاتبه الملخص، فيقوم السلطان بقراءته ويبدى رأيه في الموضوع، فهذا التعليق من السلطان يسمى الخط الهمايوني، أما بعد 1832م أصبح المستشار الخاص للسلطان هو المخاطب في المعروضات الموجهة للسلطان، فيقوم بقراءة الخطاب على السلطان وبعد الانتهاء منها يبدى السلطان رأيه في الموضوع شفاهة فيدوّنه المستشار في أسفل الخطاب ذاته بشكل مائل، وهذا ما سمي بالإرادة. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص 27.

للتجنيد والتدريب وصيانة قواته المسلحة¹، بسماع الحاضرين للخط الهمايوني أدركوا أن خطوة مهمة قد اتخذت في اتجاه تحديث الدولة العثمانية²، وأن الدولة مقبلة على عصر جديد مختلف من الرخاء. بعد قراءة رشيد باشا للخط الهمايوني، بدأت المظاهر الاحتفالية التي من شأنها إبراز مدى أهمية هذا الحدث الكبير في تاريخ العثمانيين؛ فذبحت الأضاحي وأطلقت القذائف المدفعية، وأعلن السلطان عبد المجيد أنه سيلتزم بالمبادئ المعلنة بفرمان كلخانة، ويتعهد بذلك في غرفة الخرقه الشريفة (Hırka-i Şerif Dairesi)³، وبحسب المرسوم كان يتعين أيضا على كبار المسؤولين والعلماء أداء اليمين على احترام ما جاء في خط كلخانة، بحيث يعاقب من لا يمتثلون مهما كانت مرتبتهم بعد خمسة أيام من إعلان كلخانة، تقرر أن يبدأ كبار العلماء وكبار رجالات السلطان - الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقائد الجيش سر عسكر ومشير دار السكة (darphâne müşiri) ووزير الخارجية (hariciye nâzırı) - مهامهم بأداء اليمين أمام السلطان⁴، وهو برتوكول جديد لم يكن معمولا به سابقا.

فكر رجال التنظيمات لاحقا في إقامة نصب تذكاري في المكان الذي تم فيه الإعلان عن هذا المرسوم، حتى أنهم حددوا شكله، ومع ذلك تم التخلي عن هذه الفكرة على أساس أنه سيكون من الصعب على الجمهور زيارته لأنه سيقى داخل حدود القصر، ولم يتم تنفيذ فكرة إقامة النصب التذكاري التي ظهرت على جدول الأعمال لفترة من الوقت في ساحة بايزيد (Beyazıt Meydanı)⁵.

¹ - Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw: Op.cit, P59-60.

² - Şerif Mardin: Op.cit, p155.

³ . دائرة أو غرفة الخرقه الشريفة نسبة إلى البردة الشريفة التي أوصى بها النبي عليه الصلاة والسلام إلى التابعي الجليل أويس القرني وهي غير البردة الشريفة خرقه السعادة (Hırka-i Saâdet) التي أهداها النبي الأكرم إلى الصحابي الشاعر كعب بن زهير ويحتفظ بها في غرفة خاصة (Has Oda) بقصر توبكابي، والتي اهتم بها السلاطين عناية خاصة جدا، وكانوا يعظمونها، ويحملونها معهم في حروبهم، وكان يقام لها حفل رسمي شعبي للنظر إليها في 15 رمضان من كل عام، أما الخرقه الشريفة التي أهديت لأويس القرني فيحتفظ بها مسجد سمي باسمها وهو جامع الخرقه الشريفة (Hırka-i Şerif Camii)، بداية قام السلطان عبد الحميد الأول ببناء غرفة خاصة (hırka-i şerif dairesi) بمنطقة الفاتح بإستانبول للحفاظ على البردة بها، ثم سنة 1851م بنى السلطان عبد المجيد الأول جامع الخرقه الشريفة الذي يحتفظ فيه بالبردة الثانية. ينظر

Nurhan Atasoy: **Hırka-i Saâdet**, خرقه سعادت، Hz. Peygamber'in Topkapı Sarayı'nda Mukaddes Emanetler Dairesi'nde korunan hırkası, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 17, İstanbul, 1998, sayfa 374-377.

⁴ - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 3.

⁵ - Loc.cit.

مضمون خط شريف كلخانة

نلاحظ بقراءة مضمون ما ورد في خط شريف كلخانة¹ أنه استهل بمقدمة تؤكد على مكانة الشرع الحنيف في قيام ورسوخ الدولة العثمانية، وأنّ سبب ضعف الدولة في المائة وخمسين سنة الأخيرة من عهد السلطان عبد المجيد الأوّل هو ابتعادها عن الشرع: " لا يخفى على عُموّم النَّاس أن دولتنا العلية من مبدأ ظُهورها وهي جارية على رعاية الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعيّة المنيفة بِتَمَامِهَا وَلِذَا كَانَتْ قُوَّة ومكانة سلطتنا السنيّة ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد العاية وقد انعكس الامر مُنذُ مائة وخمسين سنة بِسَبَبِ عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة"² وهي مقدمة تطمئن عموم الشعب العثماني والمسلمين منهم خاصة بأنّ خط شريف كلخانة لا يتعد عن الشرع بل يغترف منه ويريد عودة صحيحة إليه.

يؤكد السلطان في خط شريف كلخانة على رؤيته الشرعية وهدفه من المرسوم بالقول: " وبما أن الممالك التي لا تكون ادارتها بحسب القوانين الشرعيّة لا يمكن ان تكون ثابتة كانت افكارنا الحيزيّة المملوكية منحصرة في اعمار الممالك واتحاد ورفاهية الأهالي والفقراء من يوم جلوسنا"³، ويشير إلى أنّه باتخاذ الأسباب ووضع قوانين جديدة ستحصل الفائدة المرجوة بإعادة الدولة العثمانية إلى قوتها ورفاهها في مدة زمنية قصيرة؛ "لتحصل بمشيئة الله تعالى الفائدة المفضودة في ظرف خمس أو عشر سنين واعتمادا على المعونة الالهية واستنادا على الامدادات الروحانية النبويّة قد رُوي من الآن فصاعدا أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها ادارة ممالك دولتنا العلية المحروسة"⁴.

يوجز بعدها قبل أن يفصل الخطوط الأساسية للقوانين الجديدة بقوله: " والمواد الاساسية لهذِهِ القوانين هي عبارة عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومُدّة استخدامهم لأنه لا يوجد في الدنيا أعز من الروح والعرض والناموس والمال"⁵ فالغاية الكبرى للقوانين الجديدة هي أن يشعر كل فرد في الدولة العثمانية أنّه آمن على روحه وعرضه

1. لرؤية الصورة الأصلية لخط شريف كلخانة ينظر (الملحق 28)، ص 641، ولقراءة النص الكامل لخط شريف كلخانة ينظر ترجمته من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية التي قام بها المحامي محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا (1868 - 1919م) وعرضها في كتابه: تاريخ الدولة العلية العثمانية. نقلا عن كتاب: أس انقلاب، لأحمد مدحت أفندي.

2. المحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا (ت 1338هـ): المرجع السابق، ص 481.

3. المكان نفسه.

4. المكان نفسه.

5. المكان نفسه.

وناموسه (أي شرفه) وماله، وضبط الضريبة وتوحيدها، وتنظيم كيفية التجنيد العسكري من أجل أن يقوى ولاء كل فرد للدولة والملة، أو بتعبيره تزداد عنده "الغيرة على الدولة والمملكة وتزداد محبته للوطن"¹، فالهدف هو زيادة ارتباط وولاء كل أبناء الدولة على اختلاف دياناتهم وأعراقهم بدولتهم.

تحدّث بعد ذلك عن أهم مصادر الجباية في الدولة العثمانية وهو الخراج وضرورة تحسين طرق جبايته "وأما مادّة تعيين الخراج فكل دولة لا بُد أن تكون محتاجة إلى العساكر وسائر المصاريف المُقتَضِيّة للمحافظة على ممالكها وهذا لا تيسر إدارته إلا بالنقود، والنقود لا تحصل إلا من الخراج، فلا غرو أن ننظر إلى تحسّن هذه المادّة"² فالغنى نظام الالتزام³ الجائر مع "تعيين خراج مُناسب على قدر اقتدار وأمالك كل فرد من أفراد أهالي المملكة، ولا يُؤخَذ شيء زيادة عن المُقرّر من أحد ما"⁴، أي وضع نظام ثابت لجباية الضرائب.

ألغى خط شريف كلخانة أيضا عقوبة الإعدام بدون محاكمة، والتي كانت تُورَق على الخصوص الإداريين العثمانيين وفي القلب منهم فئة الكتّاب من أهل القلم، وأمّنهم على أموالهم من المصادرة؛ فجاء في الخط: "ولا يجوز بعد الآن إعدام وتسميم أرباب الجرح جهارا أو حُفِيّة بدون أن تنظر دعاويهم علنا بكل دقة بمقتضى القوانين الشرعيّة، ولا يجوز مُطلقا تسلط أحد على عرض وناموس [شرف] آخر، وكل إنسان يكون مالكا لماله وملكه ومتصرفا فيهما بكمال الحرّية ولا يمكن أن يتدخل في أموره شخص آخر"⁵، وفي ذلك إدانة للفساد الذي آل إليه القضاء في الدولة العثمانية وإدانة بعض انتهاكات السلاطين السابقين.

جرى التأكيد على مبدأ المساواة بين الرعية العثمانية دون تمييز ديني في شمولها بالمساعدات السلطانية، بقوله: "وتمتاز سائر تبعيّة دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الأخرى بمساعدتنا هذه الملوكية بدون استثناء، وقد أعطيت من طرفنا الملوكي الأمانة التامة في الروح والعرض والناموس والأمال

1. المكان نفسه.

2. المحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا: المرجع السابق، ص482.

3. التزام (İltizam): هو تكليف شخص واحد يدعى متعهد أو (ملتزم) بجباية الضرائب من عامة الشعب في منطقة محددة، مقابل دفعه مسبقا مبلغ مالي للدولة، ثم يحصلها مع أضعاف مضاعفة من سكان منطقته بمساعدة قوات حكومية. وقد بدئ بهذا النظام منذ القرن السابع عشر الميلادي، وكان له تأثير سيئ على المجتمع العثماني، لكن تأثيره على الحكومة العثمانية كان إيجابيا نظرا لحصولها على الأموال عن مصادر دخلها مقدما. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق، ص35، بتصرف.

4. المحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا: المرجع السابق، ص482.

5. المكان نفسه.

بِمُقْتَضَى الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ لِكُلِّ أَهْلِي مَمَالِكِنَا المَحْرُوسَةِ"¹. ومقصوده بالمساعدات من خلال سياق الخطاب هو مجموع الأحكام التي ستساعد في ضمان أمن الأفراد على أنفسهم وأعراضهم وشرفهم وأموالهم وعلى أنّ الضريبة ستؤخذ وتؤخذ بمقدار عادل يشمل الجميع دون تمييز.

أشار الفرمان أيضا إلى تفعيل مجلس الأحكام العدلية وزيادة عدد أعضائه بحسب الحاجة، وسيناط بهذا المجلس إصدار التشريعات والقوانين الناظمة لما فيه حفظ أمن الأفراد وأعراضهم وأموالهم وتنظيم الضريبة والتجنيد العسكري، يعني دور المجلس سن القوانين التي تُفَعِّلُ خط شريف كلخانة في واقع الناس وأنّ هذا المجلس يجتمع " في بعض الأيام الَّتِي سَتُعَيِّن، وجميعهم يبدون أفكارهم وآراءهم بِالْحُرِّيَّةِ التَّامَّةِ بِدُونِ تَحَاشٍ"² أي بدون خوف، وكل قانون يصدر عن المجلس يرفع للسلطان للمصادقة عليه " وكَلِمَا تَقَرَّرَ قَانُونٌ يَعْضُرُ لَطَرْفِنَا المَلُوكِي لِتَتَوَيْجِ عَالِيهِ بِخَطِنَا المَلُوكِي حَتَّى يَكُونَ دَسْتُورَا لِلْعَمَلِ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ"³ لضمان العمل بخط شريف كلخانة والقوانين التي سيسنها مجلس الأحكام العدلية لتفعيل الخط الهمايوني يؤكّد السلطان ذلك بقوله: " وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ القَوَانِينِ الشَّرْعِيَّةِ سَتُوضَعُ لِإِحْيَاءِ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ وَالْمَلِكِ وَالْمَلَّةِ فَسَيُؤْخَذُ الْعَهْدُ وَالمِيثَاقُ اللَّازِمُ مِن قَبْلِنَا المَلُوكِي بِعَدَمِ وُقُوعِ أَيِّ حَرَكَةٍ مُخَالِفَةٍ لَهَا وَسَنُحَلَفُ قَسَمًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ فِي أَوْدَةِ الحُرْقَةِ الشَّرِيفَةِ بِحُضُورِ جَمِيعِ العُلَمَاءِ وَالوَكَلَاءِ وَسَيُصِيرُ تَحْلِيفُهُمْ أَيْضًا، وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ مَنْ خَالَفَ هَذِهِ القَوَانِينِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الوَكَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ أَوْ أَيِّ إِنْسَانٍ كَانَ مَهْمَا كَانَتْ صِفَتُهُ سَيَجْرَى تَوْقِيعُ العُقَابِ اللَّازِمِ عَلَيْهِمْ بِدُونِ رِعَايَةِ رُتْبَةٍ وَلَا خَاطِرٍ، وَسَيُصِيرُ تَدْوِينُ قَانُونِ جَزَاءٍ مُخْتَصِّ بِذَلِكَ"⁴، وفي ذلك تأكيد على وجود إرادة سياسية قوية وجازمة لتنفيذ الفرمان.

تطرّق الفرمان بعد أن تبّه على خطر الرشوة " لِأَنَّهَا أعْظَمُ سَبَبٍ لِخَرَابِ المَلِكِ وَمَقْوَتَةٌ شَرْعًا"⁵ وأكّد على وضع قانون خاص للقضاء عليها ومعاقبة مرتكبيها، تطرّق إلى أنّ هذا الخط الهمايوني سيتمّ تبليغه إلى جميع سكان العاصمة إستانبول وجميع سكان الدولة العثمانية والسفراء الأجانب " فَكَمَا أَنَّهُ سَيُصِيرُ إِعْلَانِ إِرَادَتِنَا المَلُوكِيَّةِ هَذِهِ لِأَسْتَانَةِ وَلِكَافَةِ أَهْلِي مَمَالِكِنَا المَحْرُوسَةِ، يَلْزَمُ أَنْ تَبْلُغَ أَيْضًا لِسَفَرَاءِ الدَّوْلَةِ المُنْتَحَبَةِ المَوْجُودِينَ بِالأَسْتَانَةِ لِيَكُونُوا شُهُودًا عَلَى دَوَامِ هَذِهِ الإِصْلَاحَاتِ إِلَى الأَبَدِ إِنْ شَاءَ اللهُ

1. المرجع نفسه، ص 483.

2. المكان نفسه.

3. المكان نفسه.

4. المكان نفسه.

5. المكان نفسه.

تَعَالَى¹، ومن شأن تعميم فرمان وفرضه وضبط القوانين وفقه أن يجعله دستوراً نوعاً ما. ختم خط شريف كلخانة بالدعاء بالتوفيق للعاملين بمقتضاه، واللعنة والسخط على المخالفين لما جاء فيه: "ونسأل مَالِك الممالك أن يلهمنا التَّوْفِيقَ جَمِيعاً وأن يصب على كل من خالف هذه القوانين المؤسسة سَوَاطِيفَ النَّقْمَةِ وأن لا ينجح له أعمالاً مدى الدَّهْرِ آمين"²، والدعاء تأكيد على الصبغة الإسلامية للفرمان، وذلك مهم ليتقبله عموم العثمانيين. ذلك ملخص لمضمون خط شريف كلخانة الشهير.

تحليل مضمون خط شريف كلخانة

الملاحظ أنّ خط كلخانة لم يكن تشريعاً بل كان بياناً للنوايا الإصلاحية التي أطلقها السلطان ومن ورائه مصطفى رشيد باشا لعموم الشعب العثماني، والدليل هو أنّ السلطان دعا فيه إلى "وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا العلية المحروسة"، وترك صلاحية وضع تلك القوانين إلى مجلس الأحكام العرفية، أي أنّه خوّل المجلس تحويل نواياه إلى قوانين وتشريعات جديدة تتوخّى إدخال بعض الإصلاحات الإدارية، مثل إلغاء الالتزام والضرائب الجزافية وتوحيدها بضريبة عادلة وإلغاء الاحتكار، وتوحيد التجنيد العسكري وتنظيمه بطريقة عادلة والقضاء على الفساد والرشوة لقد تم التعبير عن هذه النوايا من قبل، لكن ما شكّل علامة فارقة في خط كلخانة هو تعهد السلطان بتوسيع الإصلاحات لتشمل جميع رعاياه دون تمييز ديني أو عرقي.

كتب المستشرق الألماني كارل بروكلمان (ت1956) تعليقا عن خط شريف كلخانة مفاده: "ولقد كان للاعتبار المزدوج القاضي باسترضاء مشاعر الأمة الإسلامية واكتساب عطف النصارى أثره في ما انساق إليه واضع الوثيقة [مصطفى رشيد باشا] من تناقض يتمثل في تمجيد السنن الإسلامية القديمة [يقصد قوانين الشريعة] بوصفها السبيل الصحيح لانقاذ الدولة، ثم في إشارته - رغم ذلك - بضرورة الأخذ بالدساتير [يقصد القوانين] الحديثة ابتغاء القضاء على المساوئ الناشئة عن مخالفة تلك السنن والإخلال بها"³.

يشير بروكلمان هنا إلى صدر خطاب خط كلخانة الذي جاء فيه: "لا يخفى على عُموم النَّاس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رِعايَةِ الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشَّرْعِيَّة المنيفة بِنَمَامِهَا، وَلَدَا كَانَتْ قُوَّةً ومكانة سلطتنا السَّنِيَّة ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد الغَايَةِ وقد

1. المكان نفسه.

2. المرجع نفسه، ص483-484.

3. كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص561-562.

انعكس الأمر مُنذُ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشَّرْع الشريف وَلَا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر¹ ثم قوله: "واعتماداً على المعونة الإلهية واستناداً على الإمدادات الروحانية النَّبَوِيَّة قد رُؤِيَ من الآن فصاعداً أهمية لُزوم وضع وتأسيس قوانين جَدِيدَة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا العلية المحروسة"².

كتب الخطاب في الواقع بشكل أريد له ألا يثير ضجة أو ردود أفعال قوية في صفوف المسلمين العثمانيين: عامّة كانوا أو رجال دولة محافظين أو العلماء؛ حيث أكد على أن الابتعاد عن الشرع هو سبب ضعف الدولة، وأنّ القوانين الجديدة التي يراد استحداثها ستكون بذلك مستمدّة من الشرع، وبذلك لم يتم ذكر أن القوانين الجديدة أو بعضها سينقل من الغرب³، بل تمّت الإشارة فقط إلى الاختلالات التي ستستهدف تلك القوانين الجديدة إصلاحها، مثل الضرائب، والأمن على الروح والشرف والمال والعرض، واضح أن السلطان ومن ورائه مصطفى رشيد باشا كان يتحرّك بحذر.

يمكن تقييم مرسوم التنظيمات ضمن الخطوط الهمايونية التي أعلنها السلاطين عند اعتلاء العرش والمسمّاة عدالت نامه (adâletnâme) المطبقة منذ فترة طويلة في التقاليد الإدارية العثمانية؛ ومع ذلك جلب مرسوم كلخانة ابتكارات لتغيير البنية التقليدية للدولة بشكل جذري، كانت المساواة بين المسلمين وغير المسلمين هي الخطوة الأولى في مشروع كبير لتشكيل أمة عثمانية، والتي اقترحت لمنع انفصال غير المسلمين عن الدولة العثمانية، والذين أظهروا موقفاً قومياً جنبا إلى جنب مع الثورات اليونانية والصربية⁴ وبالتالي كان خط كلخانة يستهدف تحويل الرعايا المسلمين والمسيحيين واليهود إلى مواطنين عثمانيين ولاؤهم للدولة والسلطان.

دشّن خط شريف كلخانة ما عرف بعهد التنظيمات، وبذلك مثلت مجموعة إصلاحات التنظيمات على مدار الأربعين سنة القادمة محاولة لتحديث الدولة، وتراوحت هذه الإصلاحات من إعادة تنظيم النظام التعليمي إلى تنظيم العلاقات بين الطوائف على جميع مستويات البنى الاجتماعية

1. المحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا: المرجع السابق، ص481.

2. المكان نفسه.

3. يرى الدكتور بيرام كودمان أنّ مصطفى رشيد باشا أراد بلا شك من خلال نشر تلك المبادئ الحديثة في خط شريف كلخانة منح وجه جديد وشخصية ليبرالية للدولة العثمانية، التي ما زالت محكومة وفقاً للمبادئ الدينية ومبادئ القرون الوسطى، وإذا لم تأخذ في الاعتبار حقيقة أن رشيد باشا في إعداد خط كلخانة كان يستوحيه من الأفكار الليبرالية للغرب، ومن مبادئ حقوق الإنسان

فسيكون من الصعب فهم الروح الثورية الليبرالية وحتى المدنية لهذا الفرمان. ينظر: Bayram Kodaman: Op.cit, P 30.

4 - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 3.

والسياسية، يلخص كارتر فيندلي (Carter Findley)¹ ما حدث خلال عهد التنظيمات: " استجابات السياسات العثمانية خلال تلك الفترة للحدثة العالمية الناشئة في جانين: الجانب المههد (القومية الانفصالية في البلقان الإمبريالية في آسيا وإفريقيا) والجانب الجذاب (الأمل في التغلب على التخلف العثماني من خلال محاكاة التقدم الأوروبي)، كانت التنظيمات في وقت الأزمة مما يعني ضمناً الانهيار الوشيك والإصلاحات المتسارعة مما يدل على التجديد"².

احتوى خط شريف كلخانة على ابتكارات قانونية ذات أهمية تاريخية؛ من خلال ضمان الأمان التام للحياة والشرف والممتلكات، مما يعني بشكل غير مباشر الإلغاء التام لمصادرة ممتلكات كبار الموظفين، والتي كانت مُدَوَّنة سنة 1254هـ/1838م قد قيدها فقط بشكل غامض، وبشكل أكثر صراحة من خلال فقرة تضمن عدم إعدام أي شخص متهم دون محاكمة علنية، فقد أعاد مرسوم كلخانة تأكيد حكم سنة 1254هـ/1838م بشأن العقوبة غير القضائية، على الرغم من أن الدوافع التي تكمن وراء صياغة هذه البنود قد تنطوي على مصلحة طبقة المنظومة الإدارية، إلا أن مرسوم كلخانة لم يعد يحمل طابعا طبقياً إدارياً فقط كقانون سنة 1254هـ/1838م³.

تجاهل مرسوم كلخانة الانقسام بين الطبقة الحاكمة والرعايا، ووسّع نطاق تطبيق هذه الأحكام وجميع الأحكام الأخرى لتشمل جميع شعوب الدولة العثمانية المسلمة وغير المسلمة على حد سواء تتضمن الوثيقة شيئاً لم تذكره أبداً بوضوح تام، وقلة من رعايا السلطان كانوا على استعداد لفهمه أو التعايش معه، تمثل ذلك في: محو الانقسام المستمر بين الحاكم والرعايا، وفتح حقبة جديدة

¹ - كارتر فيندلي (1941م - لا زال حياً): المؤرخ الأمريكي المتخصص في التاريخ العثماني، والأستاذ بقسم التاريخ بجامعة ولاية أوهايو الأمريكية، مجال بحثه هو تاريخ الحضارة الإسلامية، مع التركيز على الإمبراطورية العثمانية والشرق الأوسط الحديث. أحدث كتاب لفيندلي هو كتاب: "تنوير أوروبا حول الإسلام والعثمانيين: مرادجه دوهسون ورائعته"، (Enlightening Europe on Islam and the Ottomans: Mouradgea d'Ohsson and His Masterpiece)، نشره سنة 2019. وهو أول دراسة شاملة للتاريخ الضخم للمستشرق الأرميني ثم الدبلوماسي السويدي مرادجه دوهسون (1740-1807) المعنون بـ: (Tableau Général de l'Empire Ottoman) في سبع مجلدات. ينظر:

The Ohio State University, Department of History: **Carter V. Findley, Humanities Distinguished Professor, Emeritus Faculty**, <https://history.osu.edu/people/findley.1> .

² -Mehmet Ali Dogan: **American Board of Commissioners for Foreign Missions (ABCFM) and "Nominal Christians": Elias Riggs (1810-1901) and American missionary activities in the Ottoman Empire**, A dissertation submitted to the faculty of The University of Utah in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Middle East Studies/History, Department of Languages and Literature, The University of Utah, USA, May 2013, P80.

³ - Carter V. Findley: **Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: The Sublime Porte, 1789-1922**, Op.cit, P146.

من المساواة بين مختلف الجماعات العرقية والدينية في الدولة العثمانية¹.

يهدف خط كلخانة باعتباره أول وثيقة من برنامج التنظيمات إلى تعزيز الصورة العثمانية في نظر حلفائها بأوروبا الغربية، نظرًا لأن الرأي العام في الغرب اعتبر المعاملة العثمانية لرعاياه المسيحيين مسألة بالغة الأهمية تحول دون الاتفاق الدولي، فقد أكد رشيد باشا مستشار السلطان القدير في هذا الشأن أن خط كلخانة قد وعد بثبات بأن يتمتع جميع الرعايا العثمانيين المسيحيين والمسلمين بالمساواة التامة، ونصّت القوانين الجديدة اللاحقة على أن نفس مدونة القوانين تنطبق على الجميع، وأن تكون المحاكمات علنية، وأنه لن يتم منح أي ميزة للرعيّة المسلم على المسيحي، وأن القوات المسلحة ستكون مفتوحة للجميع!! من الواضح أن مثل هذه الإصلاحات كانت تعني التخلي عن الشريعة الإسلامية وقد شعر المسلمون المخلصون بالذهول، تسببت معارضتهم في عزل رشيد باشا، لكنه عاد بعد ذلك إلى السلطة عن طريق وظائف أخرى².

قام مصطفى رشيد باشا من خلال خط كلخانة بتقييد تصرفات السلطان، وعزا اقتراح القوانين إلى مجلس ولاية الأحكام العدلية، ووفقًا لرشيد باشا فإنه من خلال تطبيق كل هذه المبادئ فإن الشعوب العثمانية التي تجمعها رابطة الأخوة والمساواة أمام السلطان، لن تتمرد على الدولة التي أصبحت حامية لها، وسوف ينمو اقتصاد البلد وسيصبح السكان أكثر ثراء، و سوف تنمو باطراد مصادر الدخل وقوة الدولة العثمانية، باختصار كان الهدف هو تقوية الدولة العثمانية واستعادة الاستقرار، وتنمية البلاد وازدهارها³، عن طريق تكييف الأنظمة والمؤسسات العثمانية مع المعايير الأوروبية الحديثة.

قام مجلس ولاية الأحكام العدلية المعروف باختصارًا بمجلس ولاي (Meclis-i Vâlâ) الذي أنشئ سنة 1254هـ/1838م وأعيد تنظيمه بموجب مرسوم خط كلخانة وزاد عدد أعضائه وصلاحياته، قام بوظيفة إصلاحية مهمة رفقة مؤسسة وزارة الخارجية خلال فترة التنظيمات؛ وجميع الابتكارات التي نفذت تقريبًا في خلال السنوات الخمس عشرة الأولى كانت تحت إشراف هاتين المؤسستين، وكان المجلس نفسه بمثابة المحكمة العليا؛ إذ يملك سلطة مراقبة ما إذا كانت اللوائح مطبقة

¹ - Loc.cit.

² - Charles A. Frazee: **Catholics and Sultans, The church and the Ottoman Empire 1453-1923**, 1Edt, Cambridge University Press, London, New York, New Rochelle, Melbourne Sydney, 1983, P225,

³ - Bayram Kodaman: Op.cit, P 31.

أم لا¹، كان المجلس مهتمًا بكل شيء من سن القوانين واللوائح إلى فض النزاعات على الأراضي². قبل النظر في علاقة خط كلخانة بطبقة فئة الكتاب باعتبار زعيمهم مصطفى رشيد باشا أسهم في إخراجهم وأشرف بنفسه على صياغته، ثمّة سؤال يفرض نفسه، ما هي ردود الأفعال الداخلية والخارجية على فرمان كلخانة؟

ردود الأفعال الداخلية والخارجية على فرمان كلخانة

تم الإعلان عن مرسوم التنظيمات للبلاد بأكملها عن طريق النسخ المرسل إلى حكام الولايات وعن طريق جريدة تقويم الوقائع (Takvîm-i Vekâyi)، طُلب من حكام الولايات جمع وجهاء الناس في الساحات وقراءة المرسوم عليهم، وإخبار الجميع بمحتواه "بشكل جيد ومؤثر" والتنفيذ الفوري لمبادئه بخلاف ما تعلّق بالشؤون المالية والعسكرية والتي سيتم تحديد التفاصيل المتعلقة بها لاحقًا، وذلك لأن الحكومة كانت قلقة من سوء تفسير المرسوم والثورات في البلاد³، وحُقّ لها أن تقلق فتاريخ الإصلاحات على النمط الغربي يخبرها أنّه تمّ إعدام مسؤولين كبار من بينهم سليم الثالث.

ردود الفعل الداخلية على خط كلخانة تشير إلى أنّ كل مجموعة من الرعايا العثمانيين فسرت المرسوم من وجهة نظرها الخاصة؛ كره المسلمون الحقوق الجديدة الممنوحة لغير المسلمين، ومن ناحية أخرى كانت توقعات وآمال غير المسلمين أكبر مما جاء في فرمان، وعلاوة على ذلك أثار المرسوم حفيظة العلماء والأعيان وحتى حكام الولايات الذين رأوا فيه تضاربًا مع مصالحهم، فحرّضوا الناس بقولهم بأن الشريعة قد انتهكت وأن المسلمين تمّ تسويتهم بـ"الكفار"، ولم تكن الحكومة مستعدة لذلك بشكل جيد كجزء من تنفيذ إصلاحات التنظيمات، لذلك لم يتم تنفيذ الإصلاح المقترح في جميع أنحاء البلاد دفعة واحدة⁴، ولكن بشكل رئيسي في أماكن مثل أدرنة وبورصة وإزمير وأنقرة وأيدن وقونيا

1. حاول المجلس معاقبة الإداريين السامين المعارضين للإصلاحات مثل خسرو باشا وعاكف باشا، ونافذ باشا، وطاغر باشا، وحسب باشا على أساس أنهم كانوا يتصرفون ضد التنظيمات. ينظر: Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 4.

2 - Loc.cit.

3 - Ibid, Sayfa 3.

4. فمثلا أدرجت منطقة طرابزون [شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود] ضمن المناطق المعنية بتطبيق خط كلخانة، لكن نظرا للاضطرابات التي شهدتها المنطقة احتجاجا على المرسوم تقرّر تأجيل تنفيذه بها، ولم تدرج مجددا ضمن المناطق المعنية بتطبيق التنظيمات إلا سنة 1847م. منذ مارس 1845م تم إدراج مقاطعتي أرضروم وديار بكر في نطاق المناطق المعنية بالتنظيمات واندلعت ثورات في منطقة وان (Van) [شرق تركيا] ومحيطها، وتم قمع تمرد بدر خان باي الرافض للتنظيمات الذي بدأ في منطقة جزيرة ابن عمر [جنوب شرق الأناضول] وتم إعادة تنظيم إدارة المنطقة. ينظر: Ibid, Sayfa 5. ونجد بعض تلك التعليقات في قرى الأناضول النائية في كتاب الرحالة وعالم الآشوريات والسياسي البريطاني أوستن هنري لايارد (Austen Henry Layard) (1817 - 1894م) المعنون بـ " اكتشافات في أنقاض نينوى وبابل، مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء: وهو =

وسيؤاس باعتبار قريها النسبي من العاصمة إستانبول من حيث يمكن التحكّم بما قد يحدث هناك بسهولة¹.

تمّ تضمين ولاية مصر التي تعاني من مشاكل خطيرة مع إستانبول وبعيدة جداً عنها في المناطق التي طُلبَ منها تطبيق المرسوم؛ وطلب من محمد علي باشا تطبيق التنظيمات في مصر بموجب مرسوم 30 رمضان 1255هـ/6 ديسمبر 1839م، أعلن محمد علي باشا أنه سيعلن المرسوم، وأنه طبق هذه المبادئ من قبل لبعض الوقت في أماكن تحت إدارته، وينطوي هذا الموقف من الطرفين تجاه بعضهما البعض في الواقع على استعراض للسلطة والمنافسة².

نجد أن الطبقة المستفيدة من النظام القديم والتي تضررت مصالحها من النظام الجديد الذي منعها من إيرادات الخزينة، والتي ستدفع بموجب النظام الجديد المزيد من الضرائب بسبب تحديد معدل الضريبة على أساس الدخل، مع فقدانها للإعفاءات الضريبية، هذه الطبقة مثل حكام الولايات المتسلم (mütesellim)، الأشراف (eşraf)، الأعيان (âyan)، الصيرفي (sarraf)، الملتزم (mültezim) الفويفودا (voyvoda)، أثارت الناس ووضعت الكثير من العقبات من أجل فشل التنظيمات إضافة إلى ذلك تمرد البلغار بشكل خطير في صفر 1257هـ/ أبريل 1841م وحدثت بعض حوادث القتل، ولم تتمكن مجالس الولايات من الاجتماع بانتظام، نظراً لمقاومة الأعيان والأشراف - الذين أرادت الحكومة رفع أيديهم عن إدارة المقاطعات - للتغيير، يضاف إلى تلك المشاكل عدم وجود موظفي تحصيل ضرائب مؤهلين، كل ذلك أدى في النهاية إلى إلغاء التنظيم المالي الجديد أوائل سنة 1258هـ/1842م

نتيجة لبعثة استكشافية ثانية قام بها مسؤولو المتحف البريطاني:" من تلك التعليقات ما ذكره أوستن حين زار بحيرة كولا شايلو بقرية بيرو (Piron) شرق الأناضول التي يسكنها أكراد وأرمن، حيث وجد الكثير منهم عيونهم مريضة بسبب رجل فارسي ادعى أنه طبيب أخذ منهم المال وأعطاهم دواءً أضرّ بعيونهم، فقال له كردي شرس المظهر معلّقا على حادثة الطبيب الفارسي: " لكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل في زمن التنظيمات اللعينة". ينظر:

Layard, Austen Henry: **Discoveries in the ruins of Nineveh and Babylon; with travels in Armenia, Kurdistan and the desert: being the result of a second expedition undertaken for the Trustees of the British Museum, Vol 1**, John Murray, London, 1853, P20.

ونجد أيضا تعليقا آخر لشيخ قرية بمنطقة أخلاط (Ahlal) بمحافظة بدليس (Bitlis) في منطقة شرق الأناضول الذي تحدث بازدرآء عن الفرنجة وعن التنظيمات. ينظر: Loc.cit. وتحدث أوستن لدى زيارته الثانية للموصل قائلاً: " لقد تم إدخال التنظيمات في منطقة الموصل، وعلى الرغم من أن العديد من لوائحها قد تم تجنبها، وأن أعمالا تعسفية ما زالت ترتكب من حين لآخر، إلا أنه حدث تحسن ملحوظ في مجمل معاملات السلطات مع رعايا السلطان". ينظر: Ibid, P97-98.

¹ - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 3.

² - Loc.cit.

والعودة إلى نظام الالتزام¹.

تم التخلي عن بعض العلامات الخارجية التي تميّز المسيحي واليهودي كرتبة من الدرجة الثانية دون معارضة؛ مثل شريط القماش الأسود الذي كان من المفترض أن يتم ربطه سابقاً بالطربوش أو اشتراط نزول غير المسلمين عن دوابهم عندما يمرّون أمام مسلم²!! كان هناك حتى بعض الهجرة من اليونان المستقلة إلى المحافظات العثمانية، حيث وجد اليونانيون مطالب الحكومة العثمانية أقل قمعية، وبالمثل عاد الأرمن الذين هاجروا إلى القوقاز أو أجبروا على القيام بذلك أو تم إغرائهم من قبل الروس بعد الحرب الروسية العثمانية بين سنتي 1243، 1244هـ / 1828، 1829م إلى الدولة العثمانية كلّما سنحت لهم الفرصة، بحثاً عن الحرية الكبيرة التي تمتعوا بها في ظل الحكم العثماني، باختصار تم تحقيق بداية نحو المساواة والعثمانية وإدارة منظمة وحكومة تمثيلية وتغريب عام؛ ولكن مسار التنمية في المستقبل كان غير مؤكّد إلى حد ما³، كما لو كان خط كلخانة أول بالون اختبار لجس نبض المجتمع العثماني تجاه ما هو آت.

تعتبر بعض المعارضة لتحقيق ما جاء به مرسوم كلخانة مردّها إلى التسرّع الذي بدأ به رشيد باشا؛ كان لديه شعور بأنّه يعيش فرصة حقيقة للإصلاح ويجب اقتناصها قبل فوات الأوان، تم تبرير تسرّع رشيد باشا بسبب الوضع الدبلوماسي؛ حيث كان التهديد المصري للدولة العثمانية هو الذي أدى سنة 1255هـ/1839م وأوائل سنة 1256هـ/1840م إلى الدعم غير المستقر لرجال الدولة الآخرين لبرنامج رشيد باشا، وعندما تدخلت القوى الكبرى باستثناء فرنسا وطردت محمد علي من سوريا وأعادته إلى حدود مصر، ولم يعد الإصلاح ضرورياً كسلاح دبلوماسي، حينها أصبحت معارضته الداخلية أكثر انفتاحاً وأكثر نشاطاً، لم يتراجع رشيد باشا عن الصراع ضد خصومه الذين ذهبوا إلى حد اتهامه بأنّ لديه ميولاً جمهوريّة، لكن رشيد باشا واجه معارضة شديدة عرقلة بشكل دوري جهود الإصلاح

¹ - Ibid, Sayfa 4.

². كان رد الفعل الأولي بين السكان الأتراك مؤيّدا لعود الأمن على الحياة والممتلكات والإصلاح الضريبي وإصلاح التجنيد الإجباري تلاه رد فعل معاكس موجه في المقام الأول ضد مبدأ المساواة، وقالوا إن الشريعة الإسلامية المقدسة يجري تحريمها. اعتبر المتعصبون أن السيد رشيد باشا لا يهتم بالدين، وكانوا غير راضين عنه بسبب اتصالاته المتزايدة مع الأوروبيين ". اتخذت الاعتراضات الإسلامية شكل اضطرابات عامة في بعض مدن الأناضول، وفي إستانبول تم التعبير عن الآمال في كون والي مصر محمد علي سوف ينقذ الحكومة العثمانية من النفوذ الأوروبي وسيطرة "الإفرنجي" رشيد باشا، فضلاً عن التعبيرات بأن المساواة كانت ببساطة مخالفة للنظام الطبيعي، كمثال اقتاد مسيحي مسلماً إلى مركز الشرطة ليشكوا من أنّ المسلم عبّره بوصف الكافر، فقال أمين الشرطة للمسلم: "يا ابني ألا تعلم؟ يوجد الآن تنظيمات؛ لا ينبغي أن يقال للكافر يا كافر!!" كيف يمكن أن يكون النظام الجديد مقبولاً إذا كانت

الحقيقة البسيطة كما رأها المسلمون لا يمكن التحدث بها علانية؟ ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P43.

³ - Ibid, P50-51.

كلما عيّن وعزل ثم عيّن وعزل من منصبه¹.

تحدثنا عن ردود الفعل الداخلية أمّا خارجياً فقد كانت للفرمان ردود أفعال متباينة؛ كان الرأي العام البريطاني والفرنسي إيجابياً² بينما كان موقف النمسا وروسيا سلبياً، فقد انتقد رئيس الوزراء النمساوي الأمير مترنيخ الإصلاحات خوفاً من أن يواجه مطالب مماثلة في بلاده، خصوصاً ما تعلق بتحديد صلاحيات السلطان وكبار المسؤولين، ومن ناحية أخرى اتخذت روسيا موقفاً سلبياً تجاه القرارات الجديدة بسبب القلق من أنها ستُعزز السياسة الداخلية والخارجية للعثمانيين وتزيد من أنشطة إنجلترا وفرنسا في الدولة العثمانية³، إلى جانب خوفها من أن تؤدي هذه الإصلاحات لضرب سياستها المشجعة على انفصال القوميات التابعة للدولة العثمانية.

بدا الأمر بالنسبة للعديد من الأوروبيين حسب شريف ماردين، كما لو أنّ السلطان سقط فجأة في الميل المعاصر للملوك الفاسدين القدامى الذين منحوا شعبهم دستوراً، من وجهة نظرهم كان هذا بلا شك "شيئاً جيداً"، وإن لم يكن يمثل إنجازاً باتجاه التغريب (Westernization)، وحتى ردود الفعل المتأخّرة كانت مدهشة؛ قرر الرياضي والفيلسوف الفرنسي أوغوست كونت (Auguste Comte) (ت1798م) بعد تقييم هذا التطور غير المتوقع لوضع سنوات أن الإمبراطورية العثمانية كانت المختبر السياسي والاجتماعي الذي كان يحلم به؛ لقد كان هنا بلداً يمكن أن تصبح فيه "ديانة الإنسانية" منارة لتوجيه العمل الحكومي كما قال: في طريق إعادة الصياغة الكاملة للمجتمع، لقد أظهر قادة الإمبراطورية العثمانية أنهم يؤمنون بالإصلاحات "الفعالة"⁴.

خط كلخانة وانعكاسه على فئة الكتاب من أهل القلم

ننظر بعد استعراض ردود الفعل الداخلية والخارجية حول خط كلخانة، في الكيفية التي خدم بها المرسوم طبقة فئة الكتاب؛ صحيح أنّ خط كلخانة لم يكن فرماناً طبقياً وإنما جاء لعموم الشعب العثماني على اختلاف طوائفه ومملكه، إلا أنّ الكثير من الباحثين يرون في بنوده خدمة أكيدة للإدارة العثمانية وتحديدًا لفئة الكتاب من أهل القلم؛ فمنذ سنة 1253هـ/1837م كان مصطفى رشيد باشا الممثل الوحيد للإدارة من فئة الكتاب، والمدافع عن الأفكار الليبرالية وآراء هذه الطبقة الإصلاحية في الحكومة

¹ - Ibid, P43-44.

² . لقد كانت ردّة فعل بريطانيا أكثر إيجابية؛ فقد ساعد خط شريف كلخانة في حل القضية المصرية لصالح العثمانيين، من خلال معاهدة لندن الموقعة في 15 جويلية 1840م والتي قدمت الدعم للعثمانيين ضد مصر من قبل جميع الدول الأوروبية باستثناء فرنسا ينظر: Gábor Ágoston and Bruce Masters: Op.cit, P413.

³ - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa3.

⁴ - Şerif Mardin: Op.cit, P155-156.

العثمانية، وكان يسعى إلى جعل سلطة الدولة بأيدي إداريين إصلاحيين، في الواقع عندما حدّد سلطة السلطان وحظر مصادرة الممتلكات والإدانة أو الإعدام دون محاكمة كان يفكر بلا ريب في كبار المسؤولين في الدولة¹، باعتبارهم أكثر من عانى من هذه التصرفات التعسفية.

صحيح أنّ الوزراء والباشوات وكبار مسؤولي الدولة تمتّعوا بامتيازات كثيرة، إلاّ أنّهم لم يكونوا آمنين على حياتهم وممتلكاتهم، علاوة على ذلك كانوا محرومين من السلطة السياسية وكانوا تحت رحمة السلاطين العثمانيين، وهذا يدل على أن المنظومة الإدارية العثمانية كانت لا تزال تعاني من آثار قرارات السلاطين التعسفية، لذلك عندما تواصلت هذه الطبقة الإدارية - المهتمة والقلقة على مستقبلها (حياتها وكرامتها وثروتها) - في مناسبات مختلفة منذ القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي مع الغرب وتعرّفت على طريقة حياة البرجوازية الأوروبية كانت مؤيدة لتحديث الدولة العثمانية من خلال تقليد المؤسسات والأنظمة الغربية، ومؤيدة لضمان الأمن الكامل للرعايا العثمانيين فيما تعلق بحياتهم وممتلكاتهم².

إذا كان خط كلخانة قد تم إعداده في المقام الأول كأداة لجعل الدولة العثمانية تعمل بكفاءة أكبر، بوضع حد للمراسيم السلطانية غير الخاضع للرقابة، وتوسيع دائرة صنع القرار، إلاّ أنّ الجانب الخاص الذي استهدفه خط كلخانة تمثّل في إعطاء فئة الكتّاب من أهل القلم لدى الباب العالي صلاحيات أكثر شمولاً أكثر من أي زمن مضى، ويمكن فهم ذلك الجانب الخاص بشكل أفضل من خلال تحديده بدقة أكثر من أي وقت آخر قضية حماية "الحياة والممتلكات والشرف"، وهي المسألة التي كانت مركز تفكير رشيد باشا حين وضع وثيقة خط كلخانة، فعند الفحص سيتبين أن أهم عنصر في نوايا السيد رشيد هو جعل مسؤولي الدولة العثمانية يتمتّعون بحماية القوانين الدستورية التي سيتعهد السلطان نفسه باحترامها، وعلى حد تعبير رشيد باشا الخاص تمنى الاستفادة من مزايا "النظام الراسخ بشكل ثابت"³، وفي الحقيقة رأينا أنّ التصرفات التعسفية للسلاطين قد كانت من وراء خسارة الدولة لمصلحين كباراً من أمثال حميد باشا وبجوي باشا وغيرهما.

ليس هناك شك في أنه منذ بعض الوقت قبل إعلان خط كلخانة، وبينما كان محمود الثاني لا يزال على قيد الحياة، كان رشيد باشا قد انزعج بشدة من الطريقة القاسية التي نفذ بها محمود الثاني إصلاحاته، والتي كان يعتقد أنها بسبب تصرفات السلطان غير الخاضعة للرقابة لم يعطي الإصلاح خلال

¹ - Bayram Kodaman: Op.cit, P31-32.

² - Ibid, P31.

³ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P157.

عهدده كامل الفائدة المرجوة منه¹، ولقد دفع معلم مصطفى رشيد باشا وزعيم الإصلاحيين بجوي باشا حياته ثمنا لتلك التصرفات فتمّ إعدامه، قربانا لصراع أجنحة السلطة الذي كان يغديه السلطان نفسه. يؤكد الدكتور كارتر فيندلي الخدمة التي قدّمها خط كلخانة لفئة الكتاب بقوله: وهكذا فتح مرسوم كلخانة مجموعة واسعة من المشكلات المرتبطة بإعادة الهيكلة العامة للمجتمع العثماني، بمعنى أدق أدى المرسوم في الوقت نفسه إلى تنفيذ سلسلة من التدابير التي تسببت في أقل من عقد من الزمن في تغيير أكثر عمقا في الحالة الجماعية لفئة الكتاب أكثر مما كان يمكن أن يحدث في أي فترة مماثلة².

سعى رشيد باشا من خلال خط كلخانة إلى ضمان سيادة الباب العالي وفي القلب منه فئة الكتاب في إدارة البلاد، من أجل ذلك سعى رشيد باشا إلى تشكيل كادر جديد من الموظفين المواليين للسلطة المركزية من جهة، وتحرير موظفي الإدارة من تأثير العلماء الذين عارضوا الإصلاحات على النمط الأوروبي من ناحية أخرى، ومن أجل تحقيق هذا الهدف أنشأ مجلسًا للتعليم العام (Meclis-i Maârif-i Umûmiyye) يهيمن عليه الإداريون، وأسس مدارس ثانوية الرشدية (Rustiyé) تم إعداد برامجها وفقًا لاحتياجات الباب العالي، باختصار اعتقد رشيد باشا أنه كان يقوم بتحديث الدولة العثمانية بواسطة فريق من الإداريين المنضبطين الذين سيطبقون الإصلاحات وفقًا لمبادئ خط شريف كلخانة على الإدارة، في الواقع بإصدار ذلك الخط بدأ عهد التنظيمات الذي سيطر عليه الإداريون "فئة الكتاب" الذين كانوا حتى سنة 1293هـ/1876م مدافعين عن الإصلاحات وحركة التغريب في تركيا³، مع التأكيد أنّ التغريب في بداياته هنا لم يكن معناه استبعاد الإسلام.

حصول ما تحقق بعد خط كلخانة إلى سنة 1272هـ/1856م

أخيرا ما الذي تحقّق فعليا من مسيرة الإصلاح التي أطلقها خط شريف كلخانة إلى حدود سنة 1272هـ/1856م تاريخ صدور خط همايوني؟؟؟ لقد اضطلع السلطان عبد المجيد الأوّل شخصيا بمتابعة تنفيذ فرمان كلخانة؛ إذ تلقى رشيد باشا أمرا من السلطان بالتأكّد من التنفيذ الكامل

¹ - Ibid, P158.

² - Carter V. Findley: Op.cit, P146.

يوضح كارتر فيندلي خطة محمود الثاني في جعل فئة الكتاب أدواته الصلبة لممارسة هيمنته السلطانية على القرار بالقول: من ناحية حاول محمود الثاني تقييد الباب العالي كمركز للسلطة وتقليص نفوذه إلى مجرد آلية بسيطة لممارسة الهيمنة السلطانية في الوقت نفسه ولجعل فئة الكتاب أداة أكثر فاعلية لتحقيق غرضه، قام بتغيير شروط الخدمة التقليدية داخلها بشكل جذري. لم يتخلى هو ولا مرسوم كلخانة صراحة عن المفهوم التقليدي للخدمة الرسمية، لكنه قدم لموظفيه ضمانات قانونية ذات طبيعة لم يعرفوها من قبل ومهما كانت نقاطها غير الواضحة فإن هذا التحول المفاجئ قد ساهم بشكل فعال في اختفاء خدمة الكتبة القديم أهل القلم (kalemiye) إلى أشكال جماعية جديدة لما أصبح يعرف تدريجيًا باسم الإدارية المدنية (mülkiye) ينظر: Ibid, P146-147.

³ - Bayram Kodaman: Op.cit, P32.

للإصلاحات¹، ولم يكتفي السلطان بتفويض غيره بمسؤولية مراقبة تنفيذ الإصلاحات بل إنّه سنة 1260هـ/1844م زار بنفسه كل من مدينة أزميت وبورصة وجاناكلي وجزر الأمراء (Adalar) للوقوف بنفسه على تنفيذ الإصلاحات والاستماع شخصياً إلى شكاوى الناس²، كذلك زار السلطان مدينة أدرنة وفارنا (Varna) [بلغاريا حالياً] في 4 جمادى الأولى 1262هـ/29 أبريل 1846م للتفتيش؛ وأبلغ شكاوى الناس للحكومة مع أوجه القصور التي وجدها خلال الرحلة³.

إجمالاً تركزت الإصلاحات المدنية في مجالات ثلاث: (1) الإدارة المحلية: تم إنشاء نظام إدارة مقاطعة مماثل لنظام فرنسا؛ وفقاً لذلك تم تقسيم الدولة العثمانية إلى أقاليم أو أيالات (Eyalet) وقسمت الأيالات إلى مقاطعات أو سناجق (sancak) وقسمت السناجق إلى مناطق أو أقضية (kaza) وقسمت المناطق إلى نواح (Nahiyé) والنواحي مؤلفة من مجموعة من القرى، وعيّن على رأس كل أيالة حاكم أو محافظ، غير أنّ سلطاته كانت محدودة بسبب تعيين قيادة عسكرية ودفتردار (المسؤول عن الشؤون المالية للمقاطعة)، بالإضافة إلى ذلك تم إنشاء مجلس مختلط مؤلف من ممثلين محليين إلى جانب الحاكم. (2) التنظيم المالي: في هذا المجال تم قبول نظام التحكم المركزي⁴ سيتم جمع جميع الضرائب من الآن فصاعداً باسم خزانة الدولة وسيتم دفع جميع نفقات الدولة من قبل الخزانة⁵. وفقاً لهذا النظام، تقرر: أ) تعهد الشؤون المالية للمقاطعة (السنجق) إلى قابض ضرائب عام ب)

¹ - Loc.cit.

² . كان التفتيش عن مدى تطبيق الإصلاحات في المقاطعات على جدول الأعمال منذ الأشهر الأولى من التنظيمات. في 28 مارس 1840م عُيّن عضو مجلس والاي عارف حكمت باي لتفتيش الروم إيلي، وشركسي محمد أفندي لتفتيش الأناضول. قدم المفتشون تقارير مفصلة للحكومة. ينظر: Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 4.

³ - Ibid, Sayfa 5.

⁴ . ألغي نظام الالتزام وأسندت مهمة تحصيل الضرائب من العاصمة إلى محصلي الأموال (muhasıl-ı emvâllere) الذين أعطيت لهم صلاحيات واسعة، ووفقاً لهذه اللوائح أعيد إنشاء وزارة المالية في 19 يناير 1840م للتعامل مع الشؤون المالية للأماكن التي تم فيها تطبيق التنظيمات، وبقيت المناطق التي تم فيها تطبيق النمط القديم تحت مسؤولية مديرية المالية أو دفتردارية الخزينة العامة (Hazâin-i Âmire defterdarlığı) وفي أبريل 1840م تم إلغاء الدفتردارية (defterdarlık)، ليعاد إسناد الأمور المالية مرة أخرى لنظارة أو وزارة المالية في غضون ذلك في 9 سبتمبر 1840، تم تشكيل مجلس المحاسبة المالية (Meclis-i Muhâsebe-i Mâliyye) كمرفق مساعد لوزارة المالية. تم تحديد مبادئ عمل محصلي الضرائب بموجب المرسوم الصادر في 25 يناير 1840م ولأجل جمع الضرائب تم إنشاء مجلس كبير (büyük meclis) في مراكز السناجق، يمثل فيه جميع الطوائف المسلمة وغير المسلمة وتشكيل مجالس على مستوى المقاطعات والأقضية والقبضات، وإنشاء مجالس صغيرة تتكون من خمسة أعضاء في المدن والقرى تم تحديد أصحاب الدخل المنخفض (ednâ) المتوسط (evsat) والأعلى (âlâ)، لتحصيل هذه الضرائب بحسب الدخل وتحصيلها من خلال عمداء المدن (kocabaşılar) وإرسالها إلى المركز. ينظر: Ibid, Sayfa 4.

⁵ - Bayram Kodaman: Op.cit, P32-33.

تعيين المسؤولين وجباة تحصيل الضرائب في المنطقة (القضاء). ج) توسيع صلاحيات مجالس التّواح المسؤولة عن حساب المبلغ الذي يتعين على كل فرد دفعه، وكذلك إنشاء مجالس الأقاليم كانت هذه التدابير والمبادئ المالية المنصوص عليها في خط كلخانة بلا شك بعيدة عن التّحقّق بصورة مرضية، ذلك أنّ رشيد باشا لم يكن يملك برنامجا محددا في هذا المجال، وكان يعتقد أنه يحل الصعوبات من خلال تقليد النظام المالي للحكومة الفرنسية. ومع ذلك فقد أصدر الأوراق النقدية لأول مرة في تركيا¹.

(3) التنظيم القضائي: تم اعتماد قانون العقوبات الفرنسي والقانون التجاري مع بعض التعديلات تم إنشاء محاكم مدنية وتجارية مؤلفة من مسلمين ومسيحيين في إستانبول ثم في المدن الكبرى²، في سنة 1262هـ/1846م صدر قانون إداري يحدد واجبات ومسؤوليات موظفي الدولة وكذلك العقوبة الواجب تطبيقها في حالة المخالفة. تم قبول قانون العقوبات الجديد في 16 رمضان 1267هـ/14 جويلية 1851م³.

نعلم أنّ واحدة من أهم البنود في مرسوم التنظيمات هي ما تعلق بالقضايا العسكرية؛ فمنذ إلغاء الإنكشارية تم تجنيد الجنود بشكل عشوائي ولم يتم تحديد مدة الخدمة العسكرية؛ تمّ البدء بمعالجة هذا الملف سنة 1259هـ/1843م؛ فتمت مناقشة اللوائح الجديدة من قبل جمعية مؤقتة مؤلفة من قادة الجيش والعلماء والوزراء، في 12 شعبان 1259هـ/6 سبتمبر 1843م تقرر تحديد الأشخاص الذين سيتم تجنيدهم عن طريق القرعة، وحُدّدت المدة الفعلية للخدمة العسكرية بخمس سنوات، وأن يستبدل كل سنة 20٪ من الجنود الحاليين بجنود جدد، علاوة على ذلك تم تقسيم الجيش إلى خمس جيوش

¹ - Ibid, P33.

السبب من وراء إصدار الأوراق النقدية هو أنّه حين تم إلغاء جميع الضرائب والإتاوات العينية أو النقدية التي كان يتلقاها حكام المقاطعات والمسؤولون الإقليميون الآخرون تحت أسماء مختلفة، لوحظ انخفاض كبير في إيرادات الخزانة. أرادت الحكومة تغطية العجز المالي فأصدرت النقود الورقية، وفي يناير 1840م تم إطلاق أول نقود ورقية بنسبة فائدة قدرّت بـ 12.5٪. ينظر:

Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 4.

² . في 3 ماي 1840م تم نشر قانون عقوبات (ceza kanunu) من أربعين بندا. أثار عدم إلغاء عقوبة الإعدام المفروضة على المرتدين في هذا القانون رد فعل الأوروبيين. رغم ذلك كان القانون يستلهم القانون الأوروبي. أبلغت الحكومة اللوائح التي وضعتها للشعب والمسؤولين رسميا عن طريق جريدة تقويم وقائع (Takvîm-i Vekâyi) والجريدة شبه الرسمية جريدة حوادث (Cerîde-i Havâdis) التي صدر العدد الأوّل لها في 31 جويلية 1840م. وعلاوة على ذلك تم إبلاغ اللوائح الهامة للجمهور عن طريق ورقة واحدة تسمى ورقة مخصوصة أو خاصة (varaka-i mahsûsa). من أجل مخاطبة أوسع للناس تم نشر المضمون في تقويم وقائع وجريدة الحوادث باللغة الأرمنية والتركية والعربية. في 23 أكتوبر 1840م تم إنشاء وزارة البريد (Posta Nezâreti) تابعة لوزارة التجارة، وهكذا مع المراسلات الرسمية المرسلة إلى الأناضول والروم إيلي، تمّ قبول تداول الرسائل عن طريقها لأول مرة، وتمّ تعيين مديري البريد في المراكز الرئيسية بالمقاطعات. ينظر: Loc.cit.

³ - Bayram Kodaman: Op.cit, P33.

هي: الجيش الخاص جيش دار السعادة، جيش الروم إيلبي، وجيش الأناضول، وجيش شبه الجزيرة العربية، وتم إنشاء مجلس عسكري لكل فرع من الفروع الخمسة، وفي سنة 1261هـ/1845م تم إنشاء مديرية الأمن (Zaptiye Müşiri) لتوفير الأمن لإستانبول وإسكودار (Üsküdar) وبوغازيبي (Boğaziçi)¹.

تم إجراء الإحصاء العام للسكان سنة 1260هـ/1844م وحُدد عدد السكان العثمانيين بحوالي 35 مليون نسمة، وفي السنة ذاتها صدر فرمان تصحيح المعيار (Tashîh-i Ayâr Fermanı) بحيث حددت قيمة 1 ليرة ذهبية (altın lira) بقيمة 100 قرش فضي (gümüş kuruş)، وتم إدخال النظام المعدني المزدوج، مع نهاية سنة 1260هـ/1844م ومن أجل توفير مصادر جديدة لتمويل الخزانة تقرر طباعة أوراق دماغ (damga) تسمى (Evrâk-ı sahîha)، وقد تم استخدامها في معاملات مثل الاقتراض والسندات والعقود وتم بيعها بالقيمة المدرجة عليها².

تمت وبمبادرة من رئيس مجلس والاي أحكام عدلية دعوة ممثلين مسلمين وغير مسلمين من كل مقاطعة إلى إستانبول لمناقشة مشاكل المقاطعات في سنة 1261هـ/1845م، وركزت القضايا التي أعرب عنها الحاضرون بالمجلس على مسائل الضرائب والنقل، ونتيجة لذلك قرّر المجلس إرسال خمسة مجالس إصلاح أو إعمار (imar meclisi) مؤقتة إلى الأناضول والروم إيلبي، وقد عرضت تلك المجالس تقاريرها على مجلس والاي، وظل هذا المشروع المهم غير مكتمل³.

تدخل رجال التنظيمات متأخرين في قضية التعليم، وهو العامل الأهم في نجاح الإصلاحات وأعلن السلطان عبد المجيد سنة 1261هـ/1845م بضرورة توسيع المدارس، وشدد على العلاقة بين نجاح الإصلاحات والتعليم، على هذا الأساس أعد مجلس مؤقت (Meclis-i Muvakkat) خططاً لفتح مدارس للصبيان (sıbyan mektepleri)، وثانويات أو رشديات (rüşdiyelerle) ودار الفنون (dârülfünun)، وفي 4 رجب 1262هـ/27 جوان 1846م وتحت إشراف مجلس والاي ووزارة الخارجية أصبحت الشؤون التعليمية التي كانت تحت سيطرة شيخ الإسلام تحت سيطرة الحكومة وتم إنشاء مجلس المعارف العمومية (Meclis-i Maârif-i Umûmiyye)، في 25 ذي القعدة 1262هـ/13 نوفمبر 1846م تم إنشاء وزارة التعليم أو وزارة المعارف العمومية (Maârif-i Umûmiye Nezâreti) لتنفيذ قرارات مجلس المعارف العمومية⁴، وهكذا يمكن القول أنه تم اعتماد

¹ - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 4.

² - Ibid, Sayfa 5.

³ - Loc.cit.

⁴ - Loc.cit.

مدنية التعليم بفصله عن مشيخة الإسلام.

أعيد التنظيم الإقليمي في سنة 1262هـ/1846م وزاد عدد الولايات، وفي 8 شوال 1262هـ/28 سبتمبر 1846م تم تعيين مصطفى رشيد باشا صدرا أعظما، وتم إنشاء الأرشيف الحكومي (Hazîne-i Evrâk) بالباب العالي، مما أسهم في تصنيف وحفظ الوثائق، ونُشر سالنامه الدولة (devlet salnâmesi)¹ لأول مرة سنة 1263هـ/1847م، وتم افتتاح أول مدرسة ثانوية، كما تم تحويل المحكمة التجارية إلى محكمة مختلطة، اختار السفراء نصف أعضائها الأربعة عشر وفي سنة 1266هـ/1850م تم نشر أول دورية أو مجلة تركية طبية باسم وقائع طبية (Vekâyi-i Tibbiyye) بواسطة المدرسة الطبية (Mekteb-i Tibbiyye)².

نُشر في فترة التنظيمات قانون نامه تجارة (Kānunnâme-i Ticâret) مستمد من ترجمة وتكييف القانون التجاري الفرنسي لسنة 1222هـ/1807م في بابه الأول والثالث، وهو أول ترجمة تتم من قانون الدول الأوروبية، وتصطدم هذه الاقتباسات من القانون الأوروبي وخاصة الفرنسي في بعض الأحيان مع الشريعة الإسلامية؛ كما هو الحال مثلا مع الفائدة "الربا"، تم الوصول إلى معلم هام في النقل الحضري في أواخر سنة 1266هـ/1850م، وتم إنشاء الشركة الخيرية (Şirket-i Hayriyye) لتشغيل البواخر في مضيق البوسفور، كما تم إنشاء مجمع العلوم (Encümen-i Daniş) سنة 1267هـ/1851م لإعداد وتأليف وترجمة الكتب، ومع ذلك تم التضحية بهذه المؤسسة بسبب الصراعات السياسية دون أن تكون قادرة على العمل بفعالية باستثناء بعض الأعمال مثل تاريخ جودت (Târîh-i Cevdet)³، حاول القانون الجنائي الجديد (ceza kanunu) التغلب على جوانب القصور في القانون الجنائي السابق، وأهم جانب من هذا القانون الجديد أنه كان بالإمكان للجميع فهمه⁴.

تم تقديم أول قرض خارجي للدولة العثمانية سنة 1270هـ/1854م على إثر استمرار حرب القرم، ليصبح الاقتراض الخارجي فيما بعد أداة تمويل استخدمها رجال الدولة العثمانيون في أغلب الأحيان، بعد الحرب واعتراف روسيا بالهزيمة، كشفت الكثافة السكانية التي سببها جيوش الحلفاء التي

1. سالنامه: مصطلح مركب من كلمتين فارسيّتين: (سال) وتعني السنة، (نامه) وتعني الرسالة أو الكتاب، فهي بذلك "الكتاب السنوي" ويقصد بها الكتب السنوية التي لخصت أهم حوادث الدولة العثمانية العلمية والإدارية والعسكرية بشكل خاص والتي نشرت من قبل الدولة منذ سنة 1847م حتى سنة 1918م، وهي 75 كتابا. ينظر: صابان سهيل: المرجع السابق ص131.

2 - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 5.

3. أحمد جودت باشا بن إسماعيل بن علي (1822 - 1895م) تمّت ترجمته بالفصل الرابع: جهود فئة الكتاب من أهل القلم بعد كارلوفيتز وقبل التنظيمات، المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم والصدارة العظمى قبل عهد التنظيمات.

4 - Ali C. Akyildiz: Op.cit, Sayfa 5.

قدّمت إستانبول عن مشاكل في البنية التحتية للمدينة، لذا تمّ إنشاء إدارة محلية باسم (şehremaneti) لتتعامل مع صيانة ونظافة وجمال المدينة وكان ذلك في 11 ذي القعدة 1271 هـ/25 جويلية 1855م¹.

أنشئ في 4 محرم 1271 هـ/26 سبتمبر 1854م المجلس العالي للتنظيمات (Meclis-i Âlî-i Tanzîmât) والذي تولى أحد مهام مجلس والاي (Meclis-i Vâlâ) وهو التشريع، تاركا القضاء لهذا الأخير، اللجنة التي أنشأها مجلس التنظيمات في العام التالي لتطوير قانون مدني تمكّنت فقط من إعداد جزء من كتاب البيوع (Kitâbü'l-Büyû) بعنوان النص الأساسي (Metn-i Metîn) والذي تلاشى قبل إكمال المهمة، بالإضافة إلى ذلك صدر الكتاب الثاني من القانون التجاري الفرنسي تحت اسم كتاب قانون نامه الإفلاس (kitabı İflâs Kanunnâmesi)².

انتشار التلغراف³ دفع باتجاه إنشاء مديرية التلغراف (telgraf müdürlüğü) في 11 رجب 1271 هـ/29 مارس 1855م مرتبطة بمكتب الصدر الأعظم، وبعد سبعة أشهر تم ترجمة لغة اتصال التلغراف التي كانت بالفرنسية إلى اللغة العثمانية، وفي 4 ذو الحجة 1271 هـ/17 أوت 1855م تأسست مدرسة معلم خانة نواب (Muallimhâne-i Nüvvâb) لتعليم وتدريب نواب القضاة شاركت الدولة العثمانية أيضًا في معرض باريس الدولي سنة 1271 هـ/1855م، إحدى النقاط التي يجب ملاحظتها في هذه الفترة هي محاولة تبسيط لغة المنظومة الإدارية⁴، وفي سنة 1272 هـ/1856م تم إنشاء بنك عثماني، وبين سنتي 1261 هـ/1845م و1285 هـ/1868م كان التعليم مدنيا بالكامل تقريبًا⁵.

تلك هي حقيقة خط شريف كلخانة وغاياته وردود الأفعال حوله علاوة على انعكاساته الداخلية والخارجية، وقد كان لفئة الكتّاب من أهل القلم ممثلين في زعيمهم مصطفى رشيد باشا القدر المعلى في إنجاز وإنجاز ما ترتّب عنه من تشريعات وقوانين، ويمكن استخلاص بعض قناعات رشيد باشا السياسية الأساسية من مذكرة بالمرستون بشأن محادثته مع رشيد. فالتسلسل الذي طرحه رشيد باشا

¹ - Ibid, Sayfa 5-6.

² - Ibid, Sayfa 6.

³ . دخل البرق "التلغراف" الذي تم اختراعه سنة 1837م إلى الدولة العثمانية خلال حرب القرم. أمر السلطان عبد المجيد بوضع خط بين إستانبول وأدرنة بعد إدخال التلغراف من قبل الأمريكيين سنة 1847م، وتم افتتاح الخط الممتد إلى شومن (Şumnu) [بلغاريا حاليا] سنة 1855م. وفي الوقت نفسه بنى البريطانيون خطوط تلغراف عسكرية بين فارنا-القرم وفارنا-إستانبول، والفرنسيون أشأوا خط فارنا-شومن والروس-بوخارست. ينظر: Loc.cit.

⁴ - Loc.cit.

⁵ - Şerif Mardin: Op.cit, P163.

لإدخال الإصلاحات يشير إلى تأثير مفكري التنوير الأوروبي عليه: "في هذه الأثناء ومع إدارة المؤسسات الجديدة بحكمة وفطنة، سيختبر الجميع الفوائد الحقيقية لنظام ثابت، حيث سيتناقص الاستبداد، وتزيد محبة الناس للحكومة، وسيزيد تفهم الشعوب للابتكارات المفيدة والنافعة"، وفي وقت لاحق كان على رشيد باشا توضيح ما كان يعنيه بـ "الابتكارات" بإعلانه أن "طريق الحضارة" الذي تم تبنيه في الدولة العثمانية يركز على "التعليم" و "احترام القوانين"، كان رشيد باشا يعني القانون الأساسي وليس قانون الشريعة، الذي كان ينوي الالتفاف عليه¹.

كان رشيد باشا يميل إلى التغريب ويرى فيه "طريق الحضارة" الذي فيه خلاص الدولة العثمانية لقد تأثر بالغرب لدرجة أنه كان من أوائل أعضاء الماسونية² التي أنشأها الأجانب بتركيا³ غير أنه كان بحق رجل دولة من الطراز الرفيع⁴، استكمل ما بدأه سيده محمود الثاني رغم كل الصعوبات وكيد المنافسين، بنى لنفسه مسكنا جميلا في حي بالتا ليومان على خليج الساحل الأوروبي للبوسفور وجهزه على الطراز الأوروبي بكل وسائل الراحة والرفاهية، وتمّ تزيينه بمحذاق جميلة منسقة على النمط الأوروبي⁵

¹ - Ibid, P175.

² . بحسب دراسة الدكتور عصمت برهان الدين عبد القادر حول الماسونية في الدولة العثمانية المعنونة بـ "تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839-1918م" فإن اليهود والدوغة (المرتدون) هم أول من أسسوا محافل الماسونية بالدولة العثمانية؛ فقد أسس أتباع شيناي ليفي (1626-1676م) أول محفل ماسوني سنة 1675م وعلى منواله انتشرت محافل كثيرة بالدولة العثمانية، وأسس أول محفل ماسوني بإستانبول سنة 1717م على عهد السلطان أحمد في عهد التوليب، وقد ارتبط محفل إستانبول بفرنسا، وقد انتمى إليه الصدر الأعظم دمادا إبراهيم باشا نوشهري، كما انتمى إليه أيضا محمد جلبي يرميسيكيز وإبراهيم متفرقة. وقد انتعشت الماسونية بعد ذلك إلا أن شعر السلطان محمود الأول بخطرها فمنعها وأغلق محافلها وضيق عليها. غير أنها عادت للانتعاش في عهد سليم الثالث، الذي تزعم بعض الكتابات أنه اعتنق الماسونية وقد انتعشت الماسونية التي كانت تتبع للمحافل الفرنسية والإنجليزية والإيطالية واستمر انتعاشها في عهد التنظيمات، وقد كان من أتباعها مصطفى رشيد باشا وعلي باشا وفؤاد باشا وغيرهم. ينظر: عصمت برهان الدين عبد القادر: "تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839-1918م"، مجلة المجمع العلمي، ج 1، مج 48، بغداد 2001، ص 211، 217. مع ملاحظة أنّ الماسونية بأفكارها الإنسانية وتوريثها عن مشروعها الفتوي كانت مشروعاً جاذباً للكثير من الشخصيات الكبيرة التي رأت فيها مشروعاً يخدم البشر والحضارة الإنسانية.

³ - Şerif Mardin: Op.cit, P116.

⁴ . يذهب المؤرخ التركي يلماز أورتونا إلى أنّ رشيد باشا هو المؤسس الأصلي للإدارية والدبلوماسية التركية الحديثة، وكان يرى أن بقاء الدولة العثمانية مرهون بأربعة أمور هي: الدين الإسلامي، سلطان بني عثمان، العاصمة إستانبول، التركية كلغة رسمية آمن بضرورة العمل بروح الفريق وأعدّ نخبة من رجال الدولة من أهل القلم من أمثال علي وفؤاد وجودت باشا وغيرهم. يلماز أورتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 59-60.

⁵ - The Hon. William N Bruce: **Sir A. Henry Layard G.C.B., D.C.L, Autobiography and Letters from His Childhood Until His Appointment as H.M. Ambassador at Madrid, With A Chapter on His Parliamentary Career** BY the RT. Hon. Sir Arthur John Otway, Vol 2, J. Murray, London, 1903, P87.

وثمة من يعتبره "أبو التنظيمات"¹ وإن كان محمود الثاني هو الأجدر في رأي بهذا اللقب، ويثار هنا سؤال هو إلى أي مدى يمكن اعتبار مصطفى رشيد باشا أوّل مسؤول عثماني فتح رسمياً باب العلمانية على الدولة العثمانية بقصد أو بغير قصد؟ إشكال يحتاج إلى بحث وتعمّق، ليس هذا موضعه.

¹ .مانتران رويير: تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي، ج2، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، 1992، ص67.

المبحث الثاني: فئة الكتاب من أهل القلم وخط همايوني 1272هـ/1856م

حول مصطلح الخط الهمايوني

الشخصيات الثلاثة التي أعدت الخط همايوني

ترجمة محمد أمين عالي باشا

ترجمة كاتبه زاده محمد فؤاد باشا

ترجمة السير ستراتفورد كانينج (Sir Stratford Canning)

الظروف السياسية التي صدر فيها خط همايوني

كيف صدر خط همايوني أو فرمان الإصلاحات؟

مضمون فرمان الإصلاحات

تحليل مضمون فرمان الإصلاحات

ردود الأفعال الداخلية والخارجية حول فرمان الإصلاحات

العقبات التي أثرت على نجاح فرمان الإصلاحات

رأينا فيما يخص خط شريف كلخانة أنه كان وليد تفاعل الرّوى داخل المنظومة الإدارية العثمانية وأنّ التأثير الأجنبي في صدوره لم يكن بتلك القوّة بحيث يُنسبُ له، ونواجه الآن وضعاً مختلفاً إذ أنّ خط همايوني 1272هـ/1856م كان وليداً للتدخل الأجنبي المباشر كما سنرى، وبدى كما لو أنّه شكر للحلفاء الأوروبيين الذي ساعدوا العثمانيين في حربهم ضدّ روسيا في حرب القرم هذا من جهة، ومن جهة أخرى أُريدَ لخط همايوني أن يُجيب عن احتجاجات القوى الأوروبية التي رأت أن خط شريف كلخانة لم يطبق بالشكل المطلوب سيما فيما تعلق بالمساواة بين رعايا الدولة العثمانية المسلمين والمسيحيين، وهي النقطة التي ظلّت دائماً البوابة الكبرى للتدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية العثمانية.

حول مصطلح الخط همايوني

بداية وجب التنبيه على أنّ مصطلح الخط همايوني ينطبق على فرمان خط شريف كلخانة وأيضاً على فرمان 1272هـ/1856م؛ على اعتبار أنّ الخط همايوني (Hatt-ı Hümayûn) هو كما علمنا سابقاً مرسوم رسمي للسلطان يسبقه سطر مكتوب بيده: "يتم الأمر وفقاً لذلك"، ومن خلال هذا الخط مارس السلاطين تاريخياً صلاحياتهم التشريعية حيث لم يرد نص شرعي، وبحلول القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي أصبحت هذه الخطوط تنطبق ببساطة على الأوامر التي أصدرها السلطان بشأن الإصلاحات الأساسية، مع التذكير أنّ مصطلح "خط" يقابله مصطلح مرسوم.

يُشير الغربيون عادة إلى مرسوم سنة 1255هـ/1839م باسم خط شريف (Hatt-ı Şerifi)، وهو الاسم الذي ورد في الترجمة الفرنسية الرسمية التي وزعها الباب العالي على الدبلوماسيين الأجانب وقت إعلان المرسوم، لكن هذا الاسم لا يستخدم عادةً من قِبَلِ الكُتّاب الأتراك الذين يسمّونه أيضاً باسم خط همايوني كما هو الحال في النص التركي لسنة 1255هـ/1839م، أو فرمان كلخانة أو فرمان التنظيمات (Tanzimat Fermanı)¹، لكن من المفيد اتباع المصطلحات الغربية المعتادة لتجنب أي لبس بينهما، وسأستعمل غالباً طيلة هذا المبحث المصطلح الذي تعارف عليه الأتراك لوصف خط همايوني 1856م أي فرمان الإصلاحات (Islahat Fermanı).

1. تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ مصطلح الخط همايوني في إشارة إلى المرسوم أو فرمان الذي سنبحثه في هذا المبحث هو الاسم الذي أرسله الباب العالي رسمياً إلى مؤتمر باريس للسلام في سنة 1272هـ/1856م، وكتب على النصوص التركية الموزعة بعد الإعلان عنه مباشرة، لكن الأتراك دائماً ما يطلقون عليها اسم فرمان الإصلاحات (Islahat Fermanı)، وتسمّيه العامة فرمان الامتيازات (imtiyaz fermanı) ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P53.

الشخصيات الثلاثة التي أعدت الخط همايوني

قبل الحديث عن خط همايوني 1272هـ/1856م أو فرمان الإصلاحات (Islahat Fermanı) والملابسات التي أفرزته، ينبغي التطرّق إلى سير الشخصيات الثلاثة التي كان لها اليد الطولى في استصداره وهم: اثنان من ألمع شخصيات فئة الكتّاب من أهل القلم في ذلك العصر وهما: محمد أمين عالي باشا و كاتجى زاده محمد فؤاد باشا (Keçecizade Mehmet Fuat Paşa)، إلى جانب أشهر سفير أوروبي وأكثرهم نفوذا بإستانبول؛ السفير البريطاني ستراتفورد كانينج فيسكونت ستراتفورد (Stratford Canning, Viscount Stratford) المعروف باسم السير ستراتفورد كانينج (Sir Stratford Canning).

ترجمة محمد أمين عالي باشا

ولد محمد أمين عالي باشا بحسب دائرة المعارف الإسلامية التركية بمنطقة ميركان (Merican) بإستانبول سنة 1229هـ/1814م، كان والده علي رضا أفندي يعمل بوابا لسوق مصر (Mısır Çarşısı) [ثاني أكبر الأسواق التقليدية بإستانبول]، وبدأ يأخذ دروساً في اللغة العربية بعد تعليمه الأول بمدرسة الحي ولكن بعد وفاة والده كان عليه أن يترك تعليمه، وفي سنة 1245هـ/1830م التحق بديوان القلم الهمايوني من خلال صديق للعائلة، وحصل هناك على الاسم الذي اشتهر به: عالي (Âli) بسبب قصر قامته أو بسبب مواهبه الفريدة، التحق سنة 1248هـ/1833م بغرفة الترجمة وفي سنة 1250هـ/1835م رافق وفدا دبلوماسيا عثمانيا لتهنئة الإمبراطور النمساوي فرديناند الأول باعتلائه العرش، وذهب إلى فيينا ككاتب ثاني حيث ظلّ هناك سنة ونصف تعلم خلالها اللغة الفرنسية¹ وتعهيدات مهنة الدبلوماسية، ثم تم إرساله إلى بطرسبورغ سنة 1252هـ/1837م ثم أرسل في سنة 1253هـ/1838م إلى لندن بصفته نائب سكرتير السفير مصطفى رشيد باشا، وعندما ذهب الأخير من لندن إلى باريس تولى عالي أفندي منصب القائم بأعمال (maslahatgüzar) سفارة لندن وبعد وفاة محمود الثاني واعتلاء السلطان عبد المجيد الأول العرش عاد عالي إلى إستانبول رفقة مصطفى رشيد باشا وبدأ العمل كمترجم لدى الديوان الهمايوني².

¹ . درس الفرنسية لساعات طويلة في حديقة السفارة بفيينا. وكان يشعر بالأسف دائماً لأنه لم يتعلم أبداً اللغة العربية، على الرغم من أنه درسها مع أحمد جودت باشا. اعتذر في إحدى المرات لجودت باشا لكتابته باللغة التركية المبتذلة (kaba Türkçe) بدلاً

من استخدام التعبيرات العربية. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P84.

² - Kemal Beydilli: Âli Paşa, Mehmed Emin (1814-1871) Osmanlı sadrazamı, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, Cilt 2, 1989, Sayfa 425.

كانت معرفته بمصطفى رشيد باشا وعمله معه وتقدير الأخير ورعايته له سببا رئيسا في صعوده السريع؛ في سنة 1255هـ/1840م تم تعيينه مستشارا بوزارة الخارجية، ثم تم إحضاره إلى سفارة لندن سنة 1256هـ/1841م وظلّ بها لمدة ثلاث سنوات، وعندما عاد لوطنه أصبح عضوا بمجلس والاي (Meclis-i Vâlâ)، وشغل منصب وكيل وزارة الخارجية حين ذهب مصطفى رشيد باشا إلى باريس، وحين عاد الأخير تولى عالي منصب مستشار بوزارة الخارجية، وعندما أصبح رشيد باشا صدرا أعظما سنة 1261هـ/1846م عيّن عالي وزيرا للخارجية مع لقب باشا، وحين عزل رشيد باشا عن الصدارة سنة 1263هـ/1848م نقل عالي باشا من وزارة الخارجية إلى رئاسة مجلس ولاية الأحكام العدلية، ومع ذلك عندما أعيد تعيين رشيد باشا في نفس السنة صدرا أعظما للمرة الثانية عيّن عالي باشا للمرة الثانية أيضا وزيرا للخارجية¹.

تقلّد عالي باشا في سنة 1267هـ/1852م أكبر منصب في الدولة منصب الصدر الأعظم خلفا لرشيد باشا وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، حيث شكّل فريقا حكوميا جديدا وعيّن صديقه كاتجبي زاده محمد فؤاد باشا وزيرا للخارجية، فاعتبر ذلك كإشارة لنهاية عهد مصطفى رشيد باشا رغم أنّ العلاقة بينهما لم تنقطع، وتم عزله في نفس السنة من منصب الصدر الأعظم، وعيّن حاكما لإزمير (İzmir) ثم خداوندكار (Hüdâvendigâr) سنة 1269هـ/1854م، وبعد ذلك بوقت قصير تم تعيينه رئيسا للمجلس الأعلى للتنظيمات (Meclis-i Âlî-i Tanzîmat) الذي أنشئ حديثا مع احتفاظه بمنصبه كحاكم لخداوندكار، ثم أصبح خلال حرب القرم وزيرا للخارجية للمرة الثالثة وفي نهاية الحرب أرسل إلى فيينا لتثبيت بروتوكول السلام (barışın protokolünü)، ثم عيّن صدرا أعظما للمرة الثانية سنة 1270هـ/1855م، ومثّل الدولة العثمانية في نهاية حرب القرم بمؤتمر باريس للسلام، ووقع المعاهدة في 29 ذو الحجة 1272هـ/30 مارس 1856م².

بسبب صدور مرسوم الإصلاحات (Islahat Fermanı) في 12 جمادى الآخرة 1272هـ/18 فبراير 1856م الذي أعلن تزامنا مع مؤتمر باريس، والاتهامات بأنّه لم يدافع بالشكل المطلوب عن مصالح الدولة العثمانية بمؤتمر باريس - حيث تم انتقاده بشدة من طرف راعيه السابق مصطفى رشيد باشا في ربيع الاول 1273هـ/نوفمبر 1856م - تمّ عزله عن الصدارة وتعيين مصطفى رشيد باشا في ربيع الآخر 1273هـ/ديسمبر 1856م، فرفض عالي باشا اقتراح تعيينه وزيرا للخارجية ولكن في ذو الحجة 1273هـ/أوت 1857م قبّل المنصب عند إقالة رشيد باشا عن الصدارة، وهكذا أظهر

¹ - Loc.cit.

² - Loc.cit.

بوضوح استيائه من رشيد باشا، لكن مع ذلك لم يهنأ عالي باشا طويلاً فقد أعيد تعيين رشيد باشا مرة أخرى بمنصب الصدر الأعظم في صفر 1274هـ/أكتوبر 1857م¹، وهذا التعيين والعزل المتكرر كانت تتدخل فيه القوى الكبرى في الكثير من الأحيان.

تم تعيين عالي باشا صدرا أعظما عند وفاة مصطفى رشيد باشا في جمادى الآخرة 1274هـ/جانفي 1858م؛ لمدة عام واحد، وتم عزله من منصبه في 14 جمادى الآخرة 1275هـ/18 يناير 1859م بعد عجزه عن إيجاد حل للضائقة المالية الشديدة التي عانت منها الدولة وانتقاده للهدر والتكاليف المفرطة للقصر، بعد إقالته تم تعيينه مجدداً رئيساً للمجلس الأعلى للتنظيمات، وأثناء سفر الصدر الأعظم محمد أمين باشا القبرصي² إلى الروم إيلي، تم تعيين عالي باشا قائم مقام (صدر أعظم بالنيابة)، ثم تمّ تعيينه للمرة السادسة وزيراً للخارجية سنة 1277هـ/1861م³.

عُيّن عالي باشا صدرا أعظما للمرة الرابعة في 30 محرم 1278هـ/6 أوت 1861م، بعد وقت قصير من اعتلاء السلطان عبد العزيز العرش، ولكن سرعان ما تم عزله في 20 جمادى الأولى 1278هـ/22 نوفمبر 1861م، قَبِلَ الصدر الأعظم الجديد فؤاد باشا منصب الصدارة العظمى بشرط أن يتولى صديقه عالي باشا وزارة الخارجية، فتولاها للمرة السابعة وظل بمنصبه هذا ستة سنوات، عين بعدها في 7 شوال 1283هـ/11 فبراير 1867م صدرا أعظما للمرة الخامسة، ليواجه التمرد بجزيرة كريت وصربيا؛ على الرغم من القيام بعمل عسكري لقمع التمرد الكريتي، فإن دعم التمرد من طرف فرنسا وروسيا جعل من الصعب قمعه، وقد حاول عالي باشا إنهاء التمرد بالذهاب شخصياً إلى الجزيرة متّبعا بهذا الصدد نفس سياسة التكتيك المعتادة؛ حيث منح سكان الجزيرة نوعاً من الامتيازات الجديدة من أجل إنهاء دعم وتدخل القوى الأجنبية، ومع ذلك فقد جرّت عليه سياسته المهادنة في كل من كريت وصربيا الكثير من الانتقادات من قبل خصومه السياسيين⁴.

¹ - Ibid, Sayfa 425-426.

² . محمد أمين باشا القبرصي (1813-1871م): من مواليد قبرص، كان في الواقع نتاج التعليم القديم والجديد. كان واحداً من آخر تلاميذ مدرسة القصر القديم في عهد محمود الثاني. التحق بعد ذلك بالجيش الجديد الذي أنشأه محمود الثاني بعد تدمير الإنكشارية، وترقى إلى أن بلغ رتبة جنرال. تم الانتهاء من تدريب في فرنسا، نظراً لمعرفته باللغة الفرنسية واليونانية والتركية عين سفيراً لفترة قصيرة في المملكة المتحدة، وكلف بمهمة بسانت بطرسبرغ سنة 1855م. أصبح صدرا أعظم لأول مرة لمدة ستة أشهر سنة 1854م، وفي نهاية حرب القرم تصرّف كصدر أعظم حين كان الصدر الأعظم الفعلي عالي باشا في مؤتمر باريس للسلام سنة 1856م. وقد ترأس محمد أمين حينها حفل إعلان خط همايوني في نفس السنة. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P103 .

³ - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 426.

⁴ - Loc.cit.

كان عالي باشا - خاصة بعد معاهدة باريس - مُدركًا لسياسة نابليون الثالث القاضية بدعم الحركات القومية، والتّغييرات الطارئة في سياسة بريطانيا، وسعي روسيا إلى انتهاز أي فرصة للتخلص من التزامات معاهدة باريس، كما كان مدركًا للتغيرات الهيكلية بأوروبا، إلى جانب معرفته عن كتب ضعف الدولة العثمانية وعجزها، من أجل ذلك كله أدرك ضرورة اتخاذ مسار تسوية في السياسة الخارجية، كما أراد اتباع سياسة داخلية تتماشى مع التنظيمات والإصلاح، لكن موقفه السلبي وإهماله إعداد كوادرات قوية تتحمّل المسؤولية أدّى إلى ظهور موقف خطير، مثل حقيقة أن المسؤوليات اضطلع بها قلة من المسؤولين، وأخيرًا بعد وفاة فؤاد باشا سنة 1286هـ/1869م تولى عالي باشا الشؤون الخارجية أيضًا واستفرد بإدارة الدولة بحزم من ذلك التاريخ حتى وفاته¹.

تمتّع رجل الدولة عالي باشا بنفوذ وتأثير كبيرين في جميع أنحاء البلاد، ومارس تأثيرًا كبيرًا على السلطان عبد العزيز، كان يراعي الأصول والرسميات والتشريفات، وكان معروفًا جيدًا في أوروبا، مع إيلاء اهتمام كبير لحماية شرف وكرامة الباب العالي، التطورات الخطيرة التي عانت منها الدولة في السياسة الخارجية للدولة، وحجم وتعقيد المشاكل الداخلية، وزيادة الضائقة المالية وثقل الرقابة المالية والسياسية المفروضة من الخارج، انتقادات المعارضة السياسية سيما العثمانيون الجدد (Yeni Osmanlılar)² التي طالت السلطان نفسه، انتهاء برغبة عالي باشا في أن يكون رجل الدولة الوحيد، كل هذا جعل تقييم الحياة السياسية لعالي باشا مثار جدل بشكل كبير، وأدى إلى أن تكون

1. مع ذلك فقد وقف بصلافة تجاه أطماع حاكم مصر إسماعيل باشا للاستقلال التام بمصر، وقاوم لفترة طويلة البلغار الذين تركوا الكنيسة اليونانية لتأسيس بطريركية خاصة بهم، وعارض محاولات الأرمن الكاثوليك للارتباط بالبابوية. وعلى عكس مصطفى رشيد باشا المرتبط ببريطانيا، كان عالي باشا مؤيدًا للسياسة الفرنسية. ينظر: Loc.cit

2. العثمانيون الجدد جمعية سرية غالب أعضائها من الشباب العثمانيين. بدأت بالتبلور سنة 1865م بإستانبول، كان هدفها إحداث تغيير في الإدارة العثمانية للتخلص من الحكم المطلق وتعزيز الدستورية. الاسم الذي أعطوه لأول مرة لأنفسهم كان على ما يبدو اتفاق محيّ الوطن " (İttifak-ı hamiyet)، وبحلول سنة 1867م أصبح اسمها جمعية العثمانيين الجدد. كان الكثير منهم موظفين بمكتب الترجمة. وكان بعضهم منتميا بلا شك لفئة الكتّاب من أهل القلم ويذكر هنا عبد الحميد ضياء الدين (ت1880م). حول العثمانيون الجدد ينظر ما كتبه الكاتب والصحفي والناشر التركي أبو الضيا توفيق باي (ت1913م) في دراسته (Yeni Osmanlılar)، المنشورة بجريدة (Yeni tasvir-i efkâr) وهي تلك اعتمد عليها معظم المؤرخين الأتراك عمومًا حول دراسته تلك. ينظر: Ebuzziya Tevfik: "Yeni Osmanlılar," Yeni tasvir-i efkâr, 20 June 1909.

وينظر أيضًا ما كتبه شريف ماردن في كتابه: نشأة الفكر العثماني الشاب (The Genesis of Young Ottoman Thought).

حياته الخاصة موضوعاً للشائعات¹.

ترك عالي باشا الذي لم يكن محبوباً فراغاً بعد وفاته، وتم إدراك أهميته كرجل دولة قادر بفضل خبرته الواسعة على منع الكوارث المستقبلية التي تعرّضت لها الدولة²، توفي في 22 جمادى الآخرة 1288هـ/7 سبتمبر 1871م ودفن بوقفه بجامع السليمانية بإستانبول³. وقد ترك عالي باشا وصية سياسية للسلطان قبل وفاته⁴.

1. علّق الدكتور رودريك دافيسون عن الكتابات التي تناولت سيرة حياة عالي باشا قائلاً: ... إنّنا لا نجد سيرة كاملة لرجل بارز مثل عالي باشا الذي يقارب في أهميته السياسية للإمبراطورية العثمانية أعلاماً من أمثال رجل الدولة والسياسي الألماني أوتو فون بسمارك أو رجل الدولة والمؤرخ الفرنسي أدولف تيير أو رجل الدولة والسياسي الإنجليزي بينجامين دزرائيلي. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P88 .

2. شكّلت شخصيته القوية تحدياً للسلطان عبد العزيز في أواخر سنة 1860م، لكنّه لم يجد بديلاً عنه؛ فحين حثّه أحد مسؤولي القصر على عزل عالي باشا من منصبه أجابه السلطان: "من الذي سأعنيّه بدلاً عنه؟". ينظر: Ibid, P85.

ينظر (الملحق 29) صورة رجل الدولة محمد أمين عالي باشا، ص 642.

3 - Kemal Beydilli: Op.cit, Sayfa 426.

4. وصية محمد أمين عالي باشا السياسية التي تنسب إليه كتبها سنة 1871م قبل وفاته بمدة يسيرة جداً، وتمّ توجيهها للسلطان عبد العزيز، أثّرت الشكوك حول هذه الوصية التي نُشرت لأول مرة سنة 1910م، وقد نشرت باللغة الفرنسية وليس باللغة التركية بعنوان الوصية السياسية (Testament politique) مع توقيع (Aali Pacha) في نهايتها، ظهرت في قسمين في أعداد متتالية من المجلة الأدبية الفرنسية (La Revue de Paris) في نفس السنة ظهرت أيضاً في كتيب مستقل. لقد كانت أصالتها منذ ذلك الحين مثار جدل. لم تصل المناقشات حولها إلى نتيجة مرضية. حول الجدل المثار تجاه قضية وصية عالي باشا ينظر:

Roderic H. Davison: 'The Question of Ali Paşa's Political Testament', International Journal of Middle East Studies, the Middle East Studies Association of North America (MESA), USA, Vol 11, Issue 2, April 1980, pp 209-225.

ولا تختلف وصية عالي باشا في خطوطها العريضة كثيراً عن وصية فؤاد باشا - التي سنعرض لها حين الحديث عن سيرة فؤاد باشا - فهي أيضاً وصية رجل يوشك أن يخرج من الدنيا، فهو يبدوها بقوله: "مولاي، عشية مغادرة هذا العالم حيث كرسنا أنا وفؤاد بمشيئة الله واتباعاً لأوامركم جزءاً كبيراً من حياتنا لتوجيه شؤون البلاد، لدينا واجب أخير لنؤدّيه من خلال نوع من الوصية السياسية نتركها لجلالة السلطان. نبيّن فيها ما فعلناه وما نأمله، الحالة التي وجدنا فيها الدولة العلية والحالة التي نتركها فيها. نقدم إلى مولانا السلطان البرنامج الذي أردنا متابعته أنا وفؤاد" إلا أن وصية عالي باشا كانت أطول من وصية صديقه فؤاد باشا، وتطرّق فيها إلى إنجازاته "واستشهد فيها بالتاريخ الأوروبي للبرهنة على أسباب تقدّم الدول الأوروبية، وتطرّق لتوازن القوى الجديدة وموقع الدولة العثمانية منها، تطرّق لقضايا الفساد وقضايا الإصلاح، قام بتشخيص مواطن الضعف والقوة بالدولة، تطرّق أيضاً إلى مبدأ المساواة وإصلاح العدالة والتعليم والمالية والزراعة والصناعة والتجارة والجيش ونظام المواصلات. للاطلاع على الوصية كاملة ينظر:

Aali Pacha : "Testament politique", La Revue de Paris, 17e Année, Tome 2, Bureaux de la Revue de Paris, Paris, Mars-Avril 1910, P505-524 .

كاتجي زاده محمد فؤاد باشا

يعتبر كاتجي زاده محمد فؤاد باشا (Keçecizade Mehmet Fuat Paşa) الشخصية الثانية التي أسهمت في استصدار فرمان الإصلاحات، وهو الصديق المقرب لعالي باشا وكلاهما من تلاميذ مصطفى رشيد باشا، اسمه الأصلي محمد فؤاد، ولد بإستانبول في 5 صفر 1230هـ/17 يناير 1815م. والده هو الشاعر الشهير كاتجي جي زاه عزت مولى (Keçecizâde İzzet Molla)¹، تعلم أولاً اللغة العربية والفارسية ليتمكّن من متابعة تعليمه، لكن عند نفي والده إلى مدينة سيواس (Sivas) كان عليه أن يدخل المدرسة الطبية (Mekteb-i Tıbbiyye) في سن مبكرة؛ وبما أنّ التعليم بهذه المدرسة كان باللغة الفرنسية فقد تعلّم هذه اللغة أيضاً بعد تخرجه برتبة طبيب نقيب (doktor yüzbaşı)، بعدها وبتشجيع من مصطفى رشيد باشا غيّر مهنته والتحق في شعبان 1253هـ/نوفمبر 1837م بمكتب الترجمة بالباب العالي (Bab'ı Ali Tercüme Kalemi)، وفي سنة 1255هـ/1839م تمت ترقيته إلى مترجم أوّل (mütercim-i evvel)، وعيّن بسفارة لندن بمنصب سكرتير أوّل (başkâtib)، وظلّ هناك سنتين، عمل في السنة الثانية تحت إشراف عالي أفندي [باشا لاحقاً]، كما عمل لبعض الوقت قائماً بأعمال (maslahatgüzar) سفارة لندن².

تم إرسال فؤاد أفندي - الذي عاد إلى البلاد بعلمه وخبرته - إلى مدريد سنة 1260هـ/1844م لتبليغ رد السلطان عبد المجيد على رسالة إيزابيلا الثانية (Isabella II)³ ملكة إسبانيا ولتعزيز روابط الصداقة بين الدولتين، كما توجه في نفس التاريخ إلى البرتغال لإبلاغ تحيات السلطان لملكة البرتغال الشابة⁴، تم تعيين فؤاد أفندي الذي أقام بإسبانيا والبرتغال لأكثر من عام، مترجماً بالديوان الهمايوني في رجب 1261هـ/جويلية 1845م، ثم ما لبث أن تمت ترقيته إلى أعلى مكتب لفئة الكتاب مكتب الأמידجي بالديوان الهمايوني (Dîvân-ı Hümâyün âmedci)⁵.

¹ . كاتجي جي زاه عزت مولى (1786-1829) هو آخر ممثلي الشعر الديواني في القرن التاسع عشر. تمت ترجمته سابقاً.

² - Orhan Fuad Köprülü: **Fuat Paşa, Keçecizade (1815-1869) Osmanlı sadrazamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, Cilt 13, 1996, Sayfa 202.

³ . إيزابيلا الثانية (1830-1904م) ملكة إسبانيا (1833-1868م). اتسم عهدها بالاضطراب وعدم الاستقرار، وبسيطرة السياسيين العسكريين على شؤون الحكم. خلعت عن العرش سنة 1868م. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق ص80.

⁴ . ماريا الثانية (1819 - 1853م)، ملكة البرتغال (1834-1853م). تميز عهدها بالصراعات بين المعتدلين والمحافظين.

توفيت ماريا أثناء الولادة تاركة العرش لابنها الأكبر بيتر الخامس الذي كرس له الكثير من الرعاية. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **Maria II Queen of Portugal**,

<https://www.britannica.com/biography/Maria-II>

⁵ - Orhan Fuad Köprülü: Op.cit, Sayfa 202.

حين اندلعت ثورة الاستقلال التي شنها المجريون ضد النمسا سنة 1264هـ/1848م ووصلت الثورة إلى الأفلاق تم إرسال فؤاد أفندي إلى بوخارست ليضمن الأمن العام، وحين قضت النمسا بمساعدة روسيا على الثورة المجرية والتمرد البولندي، فرّ القوميون المجريون والبولنديون إلى الدولة العثمانية، وطالبت كل من روسيا والنمسا تسليمهم، ومع رفض الباب العالي تسليمهم هددت بالحرب فقررت الحكومة العثمانية إرسال فؤاد أفندي الذي كان ببوخارست إلى القيصر الروسي سفيراً مفوضاً فوق العادة (fevkalâde murahhas büyükelçi) من أجل تسوية الأمر سلمياً، فوصل فؤاد أفندي الذي أخذ رسالة السلطان إلى بطرسبورغ في 19 ذي القعدة 1265هـ/5 أكتوبر 1849م وتفاوض مع المسؤولين الروس والقيصر شخصياً وحلّت المسألة سلمياً، ونتيجة لهذا النجاح تم رفع رتبته وتعيينه بمستشارية الصدارة العظمى (sadâret müsteşarlığı) في 14 محرم 1266هـ/29 نوفمبر 1849م¹. أرسله الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا في 16 جمادى الآخرة 1268هـ/6 أبريل 1852م إلى مصر للنظر في مدى تطبيق لوائح التنظيمات، ولحل بعض القضايا في العائلة الحاكمة المصرية عائلة محمد علي باشا، وقد رافقه مرة أخرى أحمد جودت باشا، ومكث بمصر مدة ثلاثة أشهر ونصف تمكن خلالها من زيادة الضريبة السنوية من 60,000 كيس (kese)² إلى 80,000 كيس بالاتفاق مع الحاكم المصري عباس حلمي باشا (ت1854م)، فقدّر السلطان له هذه الخدمة، لذا مباشرة بعد عودته من مصر وبعد تعيين عالي باشا صدراً أعظم عينّه وزيراً للخارجية في 23 شوال 1268هـ/9 أوت 1852م³.

تجدّد في هذه الأثناء النزاع حول الأماكن المسيحية المقدسة بالقدس بين فرنسا وروسيا، وكان فؤاد باشا ميّالاً فيها للفرنسيين، وصرّح أنّ الوضع في القدس سيظلّ على ما هو عليه أي لصالح الفرنسيين

1. حصل فؤاد أفندي الذي عاد إلى استانبول في 11 أبريل 1850م على وسام الامتياز (imtiyaz nişanı) بعد ثلاثة أو أربعة أشهر قضاها باستانبول ذهب إلى بورصة للتداوي من الروماتيزم واصطحب معه أحمد جودت أفندي [باشا لاحقاً] خلال شهر مكثه هناك ألف رفقة جودت أفندي كتاباً بعنوان: قواعد اللغة العثمانية (Kavâid-i Osmâniyye)، فضلاً عن إعداد القانون الداخلي لمشروع الشركة الخيرية، أول شركة ملاحية عثمانية للقيام بالملاحة بين مرسى إستانبول والبسفور، وبعد عودته من بورصة عُيّن بأكاديمية العلوم (Encümen-i Dâniş) التي تشكلت في منتصف سنة 1850م. ينظر: Loc.cit

2. كيسه: تطلق على كيس من جلد يوضع فيه قدر من العملة الذهبية أو الفضية، ثم أطلق هذا الاسم من بعد على الوحدة النقدية وقد تغيرت هذه الوحدة النقدية على مر الزمان؛ ففي عهد محمد الفاتح كان الكيس يحتوي ثلاثين ألف آقجة وفي منتصف عصر السلطان سليمان القانوني كان الكيس يحوي عشرين ألف آقجة ... ودام التعامل النقدي بالأكياس إلى سنة 1877م ثم ألغيت وحدة الكيس وحلت محلها وحدة (القروش). ينظر: حسين مجيب المصري: المرجع السابق، ص115.

3 - Orhan Fuad Köprülü: Op.cit, Sayfa 202.

وأن مفتاح كنيسة بيت لحم سيعطى للمسيحيين اللاتين [الذين ترعاهم فرنسا] موقفه هذا جرى عليه ردود فعل غاضبة من طرف روسيا، وحين زار الأمير ألكسندر منشكوف (Prince Menshikov)¹ الذي جاء إلى إستانبول في 20 جمادى الأولى 1269هـ/28 فبراير 1853م من أجل تقديم مطالب روسيا بشأن الأماكن المقدسة والمسيحيين الأرثوذكس رعايا الدولة العثمانية، لم يتم زيارة فؤاد أفندي في مخالفة للإجراءات الدبلوماسية، وبعد ذلك استقال فؤاد أفندي من منصبه والذي استمر فيه أكثر من سبعة أشهر، وتوقع فؤاد باشا أنّ الضغط الروسي سينجرّ عنه أزمة كبرى، وقد كان محقاً إذ أن الباب العالي برفضه لمطالب منشكوف كان مضطراً لإعلان الحرب على روسيا في 2 محرم 1270هـ/4 أكتوبر 1853م².

حاول اليونانيون خلال حرب القرم دعم التمرد المحلي في الأراضي العثمانية القريبة منهم وبدأوا بتهديد الحدود بإيروس (Epir) في منطقة يوانينا (Yanya) [جنوب شرق أوروبا] وتيساليا (Tesalya) في منطقة ترحالا (Tirhala) [شمال شرق اليونان]، فتم تكليف فؤاد أفندي للتعامل مع هذه القضية؛ بعد مغادرة إستانبول في 2 جمادى الآخرة 1270هـ/1 مارس 1854م أثبت لأول مرة أنه كان قائداً عسكرياً جيداً بالإضافة إلى دبلوماسيته؛ إذ استطاع القضاء على التمرد والتهديد في منطقة يوانينا في 4 رجب 1270هـ/1 أبريل 1854م، وتم تعيينه عضواً بالمجلس الأعلى للتنظيمات الذي تمّ تأسيسه حديثاً، بينما كان لا يزال يعالج وضع التمرد، وعندما عاد إلى إستانبول أصبح رئيساً لذلك المجلس³.

عندما أصبح عالي باشا صدراً أعظماً في 15 شعبان 1271هـ/2 ماي 1855م قام بتعيين فؤاد باشا للمرة الثانية بمنصب وزير الخارجية مع احتفاظه برئاسة المجلس الأعلى للتنظيمات، مع ذلك ولكثرة أعماله تمّ عزله من رئاسة المجلس الأعلى للتنظيمات، وبعد التوقيع على معاهدة باريس في 24 رجب 1272هـ/30 مارس 1856م التي أنهت حرب القرم، اندلع نزاع بين بريطانيا وفرنسا أثناء تحديد الحدود مع بيسارابيا (Besarabya) [منطقة جغرافية تقع في أوروبا الشرقية]، على إثر ذلك وبضغط من السفير البريطاني اللورد ستراتفورد كانينج تمّ عزل عالي باشا وإعادة تعيين مصطفى رشيد باشا صدراً

1. ألكسندر مينشيكوف (1787-1867): قائد القوات الروسية في النصف الأول من حرب القرم. أرسل في سنة 1853م في مهمة خاصة إلى إستانبول؛ أدى إصراره على الاعتراف بالحكومة الروسية كحامي للرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية إلى انهيار المفاوضات بين روسيا والدولة العثمانية واندلاع حرب القرم (1854-1856م). ينظر

Les éditeurs de l'Encyclopaedia Britannica: Aleksandr Sergeevich, Prince Menshikov, commandant militaire russe, <https://www.britannica.com/event/Crimean-War> .

2 - Orhan Fuad Köprülü: Op.cit, Sayfa 202.

3- Ibid, Sayfa 202-203.

أعظما في ربيع الاول 1273 هـ/نوفمبر 1856م بناء عليه قدّم فؤاد باشا استقالته، وبعد تسعة أيام تم تعيين فؤاد باشا عضواً بالمجلس الأعلى للتنظيمات ثم عين رئيساً له في ذو الحجة 1273 هـ/أوت 1857م¹.

عند تعيين عالي باشا للمرة الثالثة صدرا أعظما أصبح فؤاد باشا وزيراً للخارجية للمرة الثالثة في 26 جمادى الاولى 1274 هـ/11 يناير 1858م، وكانت إحدى مهامه الأولى تتعلق بالإدارة الجديدة لإقليم أفلاق وبغدان (Eflak Boğdan) [رومانيا]، وكان المفوض المنتدب في مؤتمر باريس الذي انعقد لحل هذه المشكلة، وظلّ بباريس بين شعبان وربيع الأول 1274 هـ/أبريل وأكتوبر 1858م، وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا سعداء بتعيين فؤاد باشا الذي وجدوه في البداية قريباً من سياساتهم، إلا أنهم شعروا بخيبة أمل عندما عارض الباشا اندماج أقليمي أفلاق وبغدان [شمال نهر الدانوب]، ومع ذلك وحتى لا يفقدوا فؤاد باشا تماماً منحوه وسام الشرف من الدرجة الأولى².

عالج فؤاد باشا خلال وزارته للخارجية القضية اللبنانية؛ الأحداث اللبنانية التي بدأت في 8 ذي القعدة 1276 هـ/27 ماي 1860م نتيجة استفزازات دروز لبنان المدعومين من بريطانيا للمسيحيين الموارنة المدعومين من فرنسا، أثارت انعكاسات مبالغ فيها بأوروبا أرسل الباب العالي فؤاد الباشا إلى لبنان لمنع تدخل أوروبي محتمل³، ونجح في معالجة هذه القضية نجاحاً كبيراً.

أثناء وجود فؤاد باشا في سوريا توفي السلطان عبد المجيد الأول، قام السلطان الجديد عبد العزيز بدمج مجلس والاي (Meclis-i Vâlâ) والمجلس الأعلى للتنظيمات (Meclis-i Âlî-yi Tanzîmat) وعين فؤاد باشا رئيساً في 7 محرم 1278 هـ/14 جويلية 1861م، بعد ذلك بوقت قصير عينه وزيراً

¹ - Ibid, Sayfa 203.

² - Loc.cit.

³ - وصل فؤاد باشا - الذي أعطيت له سلطات واسعة - إلى بيروت في 14 جويلية 1860م مع 3000 جندي، وعلم أن الأحداث امتدت إلى دمشق وأن حوالي 500 مسيحي لقوا حتفهم خلال الأحداث. تناول فؤاد باشا أولاً قضية دمشق التي بدت أسهل لحلها؛ مر من بيروت إلى دمشق وأعدم 167 شخصاً تورّطوا في تلك الأحداث، ولإثبات حياديته لم يتورّع عن إعدام والي دمشق ومساعديه رمياً بالرصاص، من أجل الحيلولة دون تدخل فرنسا. ومع ذلك تسبب هذا الوضع في ردود فعل ضد فؤاد باشا في كل من دمشق وإستانبول. في هذه الأثناء أرادت فرنسا أن يتصرف فؤاد باشا ضد الدروز في أقرب وقت ممكن. كان فؤاد باشا المتخوف من تدخل فرنسا بالقوة يحاول كسب الوقت. استسلام القادة الدروز المذبذبين في وقت غير متوقع سهّل عمل فؤاد باشا وسمح له بالتصدي لرؤساء الدروز؛ وهكذا فتح طريق التفاوض؛ رفض فؤاد باشا اقتراح البريطانيين بإنشاء خديوية [إمارة] سورية والتي ستشمل أيضاً جبل لبنان، معتقداً أنّ قبول هذا المقترح قد يؤوّل إلى انفصال جبل لبنان عن الدولة العثمانية. ووفقاً للاتفاقية الموقعة في 9 جوان 1861م بعد مفاوضات طويلة أنشئت متصرفية جبل لبنان التي يحكمها مسيحي عثماني يعينه السلطان بموافقة أوروبية. وهكذا ظلت سوريا تحت الحكم العثماني لمدة نصف قرن آخر. ينظر: Loc.cit.

للخارجية للمرة الرابعة، وفي 20 جمادى الأولى 1278هـ/22 نوفمبر 1861م عينه السلطان بمنصب الصدر الأعظم، ولما جاء فؤاد باشا إلى إستانبول من سوريا في 19 جمادى الآخرة/21 ديسمبر وتولّى منصبه الجديد، قام أولاً برفع تقرير إلى السلطان بخصوص الإجراءات التي اعتبرها ضرورية لتصحيح الأوضاع المالية التي كانت تشكّل عبأ كبيراً، وكان من شأن تلك الإجراءات أن تحلّ مشكلة العجز في الميزانية الذي استمر لمدة سبع سنوات وبلغ 344000 كيس بين نهاية سنة 1277هـ/ (1860-1861م)¹.

استقال فؤاد باشا من منصب الصدارة العظمى في 12 رجب 1279هـ/2 يناير 1863م لعدم تمكّنه من إصلاح الموارد المالية كما أراد وزادت الحالة القومية المتزايدة في الروم إيلي الوضع سوءاً، كما استقال معه عالي باشا وبعض رجالات الدولة، وجاءت هذه الاستقالة الجماعية من أجل أن يظهروا للسلطان أنهم لن يقبلوا تولّي المسؤولية ما لم يتم منحهم سلطات أوسع، ومع ذلك لم يتمكن هؤلاء المستقيلون من الثبات على موقفهم حتى النهاية؛ بناء على إصرار فؤاد باشا قام السلطان عبد العزيز بتعيينه رئيساً لمجلس ولاية الأحكام العدلية بعد أسبوع واحد من استقالته، ثمّ عين سر عسكر ليرافق السلطان عبد العزيز إلى مصر في 25 شعبان 1279هـ/14 فبراير 1863م².

لازم فؤاد باشا السلطان عبد العزيز خلال رحلته إلى مصر والتي دامت من 14 شوال 1279هـ/3 أبريل 1863م حتى 14 ذي القعدة / 2 ماي، لدى عودته قرأ السلطان بإزمير الخطاب الذي أعده فؤاد باشا، كما أثار فؤاد باشا إعجاب السلطان أيضاً بالحفل الذي نظمه بإستانبول من أجل ذلك حصل على لقب المساعِد الأكرم (yâver-i ekrem) للسلطان لأول مرة في التاريخ العثماني. في نفس السنة عين الصدر الأعظم للمرة الثانية، وظلّ في منصبه بنجاح لمدة ثلاث سنوات ثم عزل من منصبه في 21-22 محرم 1283هـ 4-5 جوان 1866م بسبب معارضته الشديدة لزواج السلطان عبد العزيز من ابنة الخديوي إسماعيل (ت1895م) حاكم مصر³.

ظلّ فؤاد باشا ثمانية أشهر مبعدا عن السلطة، ومع تعيين عالي باشا صدرا أعظما في شوال

¹ . قام فؤاد باشا الذي سيطر شخصياً على الخزانة، بزيادة الإيرادات جزئياً بالتدابير التي اتخذها وأشار في تقريره إلى أنه يمكن تحقيق زيادة بنحو 865000 كيس مقارنة بالسنة الماضية مع الاستقرار وبعض الشروط التي قدمها البريطانيون، تمت إزالة النقود الورقية من التداول ومع ذلك لم يكن بالإمكان وضع ميزانية متوازنة بسبب زيادة النفقات في ميزانية (1861-1862م). وعلى الرغم من كل جهوده استقال فؤاد باشا من منصب الصدارة العظمى في 2 يناير 1863م، بسبب عدم تمكّنه من إصلاح الموارد المالية كما أراد، وزادت الحالة القومية المتزايدة في الروم إيلي الوضع سوءاً. ينظر: Loc.cit.

² - Loc.cit.

³ - Orhan Fuad Köprülü: Op.cit, Sayfa 203.

1283هـ/فبراير 1867م عيّنه الأخير وزيراً للخارجية للمرة الخامسة، ورافق بهذه الصفة السلطان عبد العزيز خلال رحلته إلى باريس وإنجلترا من 19 صفر إلى 7 ربيع الآخر 1283هـ/ 21 جوان إلى 7 أوت 1867م، فاقمت هذه الرحلة من مرض فؤاد باشا الذي كان قلبه يعاني، ورغم تحسن صحته قليلاً بعد عودته لإستانبول واستراحته لبعض الوقت بقصره الصيفي، إلا أنّ صحته تدهورت بشكل كبير عند توليه إلى جانب منصبه وزيراً للخارجية منصب نائب الصدر الأعظم بسبب مغادرة عالي باشا إلى جزيرة كريت في جمادى الآخرة 1284هـ/أكتوبر 1867م، بناء على نصيحة الأطباء قضى فصل شتاء سنة 1285هـ/1868م في مدينة نيس (Nice) جنوب فرنسا، حيث توفي بها في 29 شوال 1285هـ/ 12 فبراير 1869م¹، تمّ إحضار جثمانه إلى إستانبول على متن سفينة حربية خصّصتها الحكومة الفرنسية في 17 ذي القعدة 1285هـ/28 فبراير 1869م، ودفن بجوار المسجد الذي بني في شارع باي خان بمنطقة السلطان أحمد بإستانبول، وتم بناء ضريح على قبره لاحقاً² وترك هو أيضاً وصية للسلطان عبد العزيز قبل وفاته بقليل³.

¹ - (الملحق 30) صورة رجل الدولة فؤاد باشا كاتشي جي زاده، ص 643.

² - Ibid, Sayfa 203-204.

³ . بعد أشهر قليلة من وفاته نُشرت الوصية بعنوان "وصية نامة السياسية لفؤاد باشا" (Fuad Paşa'nın Siyasî Vasiyetnâmesi) لأول مرة في صحيفة (The Levant Herald) باللغتين الإنجليزية والفرنسية بإستانبول. ووفقاً للصحيفة قدم فؤاد باشا وصيته التي كتبها قبل وفاته ببضعة أيام إلى أحد معارفه لينقلها إلى السلطان عبد العزيز، ولكن تم فتحها ونشرها قبل وصولها ليد السلطان. الوصية التي كانت موجهة للسلطان والتي كان يجب أن تكون مكتوبة باللغة التركية، كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية والفرنسية!!! أثّرت إشكالية إن كانت الوصية لفؤاد باشا أثناء نشرها في الصحف؛ قام البريطاني جيمس لويس فارلي (James Lewis Farley) (ت 1885م) المعروف كصديق مقرب لفؤاد باشا بنشر وصيته في كتاب له نُشر سنة 1875م [عنوان الكتاب: تراجع تركيا مالياً وسياسياً (The Decline of Turkey Financially and Politically)]، وادّعى فيه أنّه حصل على وصية فؤاد من حفيده عزّت باي. تم نشر الوصية في وقت لاحق في صحيفة (La Revue de Paris) سنة 1896م وذكر الناشر أن عارف باشا قام بترجمتها من التركية وقدمها للصحيفة مصطفى حكمت حفيد فؤاد باشا، وقامت الصحيفة بمراسلة حفيد فؤاد باشا مصطفى حكمت باي تستفسره عن الوصية فذكر الأخير أنّ الوصية كتبت في الأصل باللغة التركية وهي عنده المؤرخ العثماني محمد غالب باي (1863-1935) الذي ترجم في وقت لاحق الوصية من الفرنسية ونشرها سنة 1911م، ذكر أنّ مضمون الوصية متناغم مع أفكار فؤاد باشا. ينظر: Ibid, Sayfa 204.

كتب فؤاد باشا وصيته السياسية (Siyasi Vasiyetnâmesi) للسلطان عبد العزيز وهو على فراش الموت بمدينة نيس الفرنسية سنة 1869م. جاء في مقدمتها: "مولاي السلطان لم يبق من عمري إلا بضعة أيام أو ربما بضع ساعات، أرغب في تكريسهم لأداء واجب مقدس فاسمحوا لي بأن أعرض على جلالتهم أفكاري الأخيرة... يمكنكم في هذه الحالة الاستماع لي بثقة فالأصوات التي تتبعث من القبور تعبر دائماً عن الحق. لقد كلفكم الله بمهمة مجيدة ومليئة بالمخاطر ومن أجل تحقيق مهمتكم بجدارة يجب على صاحب الجلالة أن يتقبل قبل كل شيء حقيقة عظيمة ومؤلمة، مفادها أنّ الدولة العليّة العثمانية في خطر". ينظر =

يعتبر فؤاد باشا أحد الشخصيات الثلاثة المهمة في فترة التنظيمات؛ ففي حين اشتهر مصطفى رشيد باشا بشكل عام كمؤيد للسياسة البريطانية، اشتهر عالي باشا وفؤاد باشا من خلال كونهما مؤيدين للسياسة الفرنسية، على الرغم من الاختلاف الكبير في الخلفية العائلية إلا أن عالي باشا وفؤاد باشا شكّلا ثنائيا ممتازا، وارتبط مصيرهما ببعضهما البعض ارتباطا وثيقا، لم يتبع فؤاد باشا سياسة موالية لفرنسا بشكل أعمى، على الرغم من أنه وصل بشكل عام إلى السلطة عندما سادت السياسة الفرنسية¹. معلوم أن رشيد باشا كان ميّالا إلى بريطانيا، وعالي باشا ميّالا إلى فرنسا إلا أنّ فؤاد باشا اختار منتصف الطريق بين الرجلين ولم يربط مصلحة الدولة بطرف دولي واحد على سبيل المثال في مؤتمر باريس سنة 1858م وفي قضية دمشق سنة 1861م، لم يكن متجاوبا مع الطرف الفرنسي وفي الكثير من المرات كان ينال قبول السفير البريطاني، وعلى الرغم من تحرّره العقلي فقد كان دائما ضد الأفكار

Fouad Pacha : " **Testament Politique de Fouad Pacha** ", La Revue de Paris, 3e Année, Tome 6, Bureaux de la Revue de Paris, Paris, Novembre-Décembre 1896, P126.

حول الوصية السياسية (Siyasi Vasiyetnâmesi) لفؤاد باشا وأصالة الوثيقة وصحة نسبتها لفؤاد واللغة التي كتبت بها ومكان وتاريخ النشر وهي مسائل أثير حولها نقاش طويل ينظر مقالة المؤرخ الأمريكي رودريك. ه دافيسون (1917-1996م) والتي تحمل عنوان: مسألة الوصية السياسية لفؤاد باشا ("The Question of Fuad Pasa's 'Political Testament'") المنشور بمجلة (Belleten) التي تصدرها الجمعية التاريخية التركية (Türk Tarih Kurumu) منذ سنة 1937م. ينظر:

Roderic H. Davison: "**The Question of Fuad Pasa's 'Political Testament'**", Belleten, Cilt 23, Sayı 89, Türkiye, 1959 Ocak, Sayfa119-136 .

¹ . أوجز الدكتور رودريك دافيسون الفروق بين عالي باشا وفؤاد باشا بالشكل التالي: كان زميل عالي باشا كدجسي زاده محمد فؤاد باشا، مختلفا تماما عنه لدرجة أنّ المرء قد يتساءل كيف التقيا معًا ومع ذلك فقد استكملا بعضهما بعضا بشكل جميل، وعُرفا كشريكين متوافقين ومتشاكسين على حدّ سواء. كان عالي باشا قصير القامة وضعيف البنية، وكان فؤاد باشا طويلًا ووسيمًا، كان عالي باشا متحفّظًا وصامتًا، بينما فؤاد باشا منفتحًا ثرثارًا، كان عالي باشا مُدققًا مهتمًا بالتفاصيل بينما كان فؤاد باشا يهمل التفاصيل أحيانًا، كان علي حذرًا ومترددًا فيما يتعلّق بالمستحدثات، بينما فؤاد باشا أكثر مغامرة وأقل حذرًا؛ كان عالي باشا مرن ولبق أمام السلطان، بينما نجد فؤاد باشا أحياناً فظ في نصحته أو معارض صارم لرغبات السلطان؛ كان عالي باشا مستبد وغيور إزاء المنافسين، بينما فؤاد باشا أقلّ ميلا للاستبداد واستبعاد الآخرين عن السلطة. صاغ فؤاد باشا بعض الفرق بينه وبين غريمه على شكل طُرقة والتي يقارن فيها بين موقفه من السلطان عبد العزيز وموقف عالي باشا والمترجم محمد رشدي باشا قال فؤاد باشا: "عندما نصل إلى حافة النهر ونريد العبور إذا رأيت جسرًا قفزت عليه فورًا. أما عالي باشا فيبدأ في البحث عمّا إذا كان الجسر بحالة جيّدة أم لا ويبحث عن أفضل مكان للعبور، أما رشدي باشا فلن يبطأ الجسر إلا بعد أن تعبّه كتيبة عسكرية" ووصف أحمد جودت باشا بفظاظة فؤاد بأنه "رجل يحب الابتكار والابتداع في كل قضية". كان فؤاد باشا أكثر غريبة في عاداته الشخصية من عالي باشا وأكثر ميلا للتغريب؛ تجلّى هذا الاتجاه ليس فقط في شؤون الدولة، ولكن حتى في الأمور الصغيرة؛ على سبيل المثال استهان فؤاد باشا بالعادات الإسلامية حين اتّخذ تمثالا في حديقة بيته كان من المناسب تمامًا تسميته بـ "الإفرنجي باشا" مقارنة بعالي باشا. وصرّح لأحد الصحّفيين قائلاً: " لقد كان الإسلام لقرون أداة رائعة للتقدم في وقته أمّا اليوم هو ساعة متأخرة ويجب ضبطها". ينظر:

Roderic H. Davison: **Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876**, Op.cit, P87-88,91.

القومية لتأثيرها على مصالح الدولة، لذا كان يتابع عن كثب تطوّر قوميات أوروبا، ومع ذلك جادل في أنه يمكن تجنب هذه الأفكار إذا تم التعامل مع الرعايا غير المسلمين على قدم المساواة، ويذكر أخيراً أنه انتمى للماسونية مثل زميله عالي باشا¹.

ترجمة السير ستراتفورد كانينج (Sir Stratford Canning)

الشخصية الثالثة والأخيرة التي كان لها دور بارز في ظهور فرمان الإصلاحات هي شخصية أجنبية من أكثر الشخصيات نفوذاً في تاريخ الدبلوماسية الغربية إلى ذلك العهد؛ إنها شخصية السفير البريطاني ستراتفورد كانينج فيسكونت ستراتفورد (Stratford Canning, Viscount Stratford) المعروف باسم السير ستراتفورد كانينج (Sir Stratford Canning).

ولد كانينج في 6 يناير 1788م وتوفي في أوت 1880م، كان نجل تاجر بلندن يدعى ستراتفورد كانينج، تلقى تعليمه بكلية إيتون (Eton College) بإنجلترا وجامعة كامبريدج، وفي سنة 1807م عندما كان لا يزال طالباً، حصل على وظيفة ككاتب مبتدئ بوزارة الخارجية بواسطة ابن عمه جورج كانينج (George Canning)² الذي كان آنذاك وزيراً للشؤون الخارجية كانت مهمته البسيطة تتمثل في نسخ الخلاصات والرسائل المرسله والمستلمة من الحكومات الأجنبية في سجل المحفوظات الوطنية

¹ يتداخل تاريخ الماسونية في الدولة العثمانية مع تاريخها السياسي المضطرب وانحدارها التدريجي، ابتداءً من سنة 1820م تم تنظيم عدد من المحافل الماسونية من وقت لآخر في أجزاء مختلفة من الأراضي العثمانية، لا سيما في القسطنطينية ... وسوريا وفلسطين وفي بلاد ما بين النهرين وفي غيرها بموجب أوامر من المحفل الماسوني الكبير بإنجلترا وغيرها من المحافل الإيطالية والإسبانية والفرنسية ومع ذلك كانت الماسونية على ما يبدو معروفة في تركيا قبل ذلك التاريخ بقرن من الزمان؛ حيث قال كاتب الرسالة التي ظهرت في صحيفة سانت جيمس المسائية (St James Evening Post) بتاريخ 24 ماي 1738م: "نسمع من القسطنطينية أن محافل سميرنا وحلب قد ازدادت بشكل كبير وأنه تم قبول العديد من الأتراك المميزين فيها". أول محفل معترف به في الدولة العثمانية كان في حلب في 3 فبراير 1748م. تم التضييق على المحافل في عهد محمود الأول والثاني، كما تم التضييق على الماسونية في عهد عبد الحميد الثاني، انخرطت عدّة شخصيات رفيعة في الماسونية كان من بينها السلطان مراد الخامس، شيخ الإسلام موسى كاظم أفندي وشيخ الإسلام محمود اسعد أفندي والصدور العظام مصطفى رشيد باشا ومدحت باشا وفؤاد باشا وعالي باشا وغيرهم، وينبغي الإشارة إلى أنّ الماسونية أغرت بمبادئها الإنسانية الكثير من الشخصيات قبل أن تعرف حقيقتها لاحقاً، حول الماسونية في الدولة العثمانية ينظر كتاب: تاريخ محافل الماسونية في جميع أنحاء العالم:

Dudley Wright: **Gould's History of Freemasonry throughout the World, Under the Supervision of:** Melvin M. Johnson and J. Edward Allen, Vol 3, Charles Scribner's Sons, New York, 1936, P313- 317.

² جورج كانينج (1770 - 1827م): رجل الدولة البريطاني المعروف بسياساته الليبرالية كوزير للشؤون الخارجية (1807-1809/1822-1827) وكرئيس للوزراء لمدة أربعة أشهر سنة 1827م. ينظر:

Arthur C.V.D. Aspinall: **George Canning, British Statesman,**

<https://www.britannica.com/biography/George-Canning> , Last Update: Apr 8, 2020.

وحصل على راتب حوالي 1500 جنيه إسترليني سنوياً¹.

تم تعيينه في سنة 1808م سكرتيراً للبعثة الخاصة للسير روبرت آدير (Sir Robert Adair)² إلى القسطنطينية، وعندما تم إرسال الأخير للتفاوض على شروط السلام بين إنجلترا والباب العالي في أبريل 1809م تم تعيينه سكرتيراً للسفارة بالقسطنطينية، وفي 12 جويلية 1810م بينما كان عمره 22 عامًا فقط أصبح وزيراً مفوضاً، في سنة 1812م استقال من بعثة القسطنطينية للعودة إلى الكلية لإكمال دراسته، وحصل على دبلوم ماجستير الآداب سنة 1813م، وقد كلف بحضور مؤتمر فيينا في 1814-1815م وقبِلَ في نفس الوقت مهام الوزير بمدينة برن (Berne) [عاصمة سويسرا حالياً وذلك بعد تحريرها من فرنسا نابليون]، وفي سنة 1820م أرسله وزير الخارجية اللورد كاستليريج (Lord Castlereagh)³ وزيراً مفوضاً للولايات المتحدة لتسوية مسألة الحدود الشمالية الغربية؛ فلم يكن ناجحاً في مهمته هذه ورفضت الحكومة البريطانية التصديق على الالتزامات التي قطعها⁴.

أرسله جورج كانينج - الذي أصبح مرة أخرى وزيراً للخارجية - في سنة 1824م في مهمة خاصة إلى روسيا تتعلق باليونان ولضبط خط الحدود بين بريطانيا وأمريكا الروسية (Russian America)⁵

¹ - Unknown author: **Appleton's' Annual Cyclopaedia and Register of Important Events of the year 1880, Embracing Political, Civil, Military, and Social Affairs; Public Documents; Biography, Statistics, Commerce, Finance, Literature, Science, Agriculture, and Mechanical Industry**, New Series, Vol 5, D. Appleton & Company, New York, USA, 1887, P603.

². أدير السير روبرت (1763-1855): سياسي ودبلوماسي بريطاني، نجل روبرت أدير طبيب الملك جورج الثالث. أرسل مبعوثاً للقسطنطينية سنة 1809م وعاد منها سنة 1810م. نشر مذكرات هذه المفاوضات في مجلدين بعنوان: المفاوضات من أجل سلام الدردنيل في 1808-9 (The Negotiations for the Peace of the Dardanelles in 1808-9). منح أعلى وسام بريطانيا سنة 1831م. ينظر:

H. C. G. Matthew and Brian Howard Harrison: **Oxford Dictionary of National Biography: In Association with the British Academy: From the Earliest Times to the Year 2000**, Aaron-Amory, Volume 1, 1 Edt, Oxford University Press, UK, 2004, P189-190.

³. روبرت ستيوارت، فيكونت كاسليريج (1769—1822): رجل دولة إيرلندي. تقلد منصب وزير الخارجية البريطاني (1812-1822)، كان مشاركاً رئيسياً في مؤتمر فيينا سنة 1815م، وكان مفهوم الوفاق الأوروبي إلى حد كبير من إنشائه، وكان تأثيره كبيراً لتعزيز ممارسة الدبلوماسية عن طريق نظام المؤتمرات في 12 أوت 1822م انتحر كاسليريج. ينظر:

Norman Gash: Robert Stewart, **Viscount Castlereagh, Irish Statesman** ,

<https://www.britannica.com/biography/Robert-Stewart-Viscount-Castlereagh-2nd-marquess-of-Londonderry> .

⁴ - Unknown author: Op.cit, P603.

⁵. اسم الممتلكات الاستعمارية الروسية في الأمريكتين من 1733 إلى 1867 التي هي اليوم الولاية الأمريكية ألاسكا وكاليفورنيا ومينائين في هاواي. في القرن 19 تحلّت روسيا عن الكثير من ممتلكاتها، وفي سنة 1867م باعت روسيا آخر ممتلكاتها المتبقية إلى الولايات المتحدة بمبلغ 7.2 ملايين دولار.

تسبب بعض سوء التصرف من ستراتفورد كانينج تجاه الدوق الأكبر نيكولاس¹ - الذي أصبح فيما بعد إمبراطورًا نقلاص الأول (Nicholas I) - إلى نفور الأخير من كانينج؛ وبعد بضع سنوات رفض الإمبراطور اعتماد أوراق ستراتفورد كانينج سفيراً في بلاطه، وظل الأخير خلال إقامته الطويلة بالقسطنطينية معارضاً عنيفاً للسياسة الروسية، وفي سنة 1826م عينه جورج كانينج سفيراً بالقسطنطينية، حيث تمتع هناك بسلطة وهيبة لا نظير لهما، وعندما فشل في الحصول على تنازلات من السلطان محمود الثاني نيابة عن اليونانيين، ذهب إلى إنجلترا في إجازة².

عاد إلى منصبه سنة 1827م ولكن عندما انقطعت العلاقات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية بعد معركة نافارين عاد إلى إنجلترا واستلم وسام صليب الحمام الكبير (The Grand Cross of the Bath) تقديراً لخدماته، في سنة 1830م استقال من سفارة القسطنطينية، وتقاعد مرة أخرى بمعاش وانتخب عضواً بمجلس العموم، وفي العام التالي قَبِلَ من وزير الخارجية اللورد بالمرستون إرساله في سفارة خاصة إلى القسطنطينية لتسوية نزاع حول الحدود اليونانية، وفي سنة 1831م تم إرساله في مهمة خاصة إلى إسبانيا والبرتغال³.

تقاعد في السنوات اللاحقة تقاعداً نسبياً، على الرغم من أنه مثل الدائرة الانتخابية (King's Lynn) [بمقاطعة نورفك (Norfolk) شرق إنجلترا] بمجلس العموم البريطاني، وحين تولى السير روبرت بيل (Sir Robert Peel)⁴ للمرة الثانية منصب رئيس الوزراء سنة 1841م قام وزير الخارجية الجديد اللورد أبردين (Lord Aberdeen)⁵ بإعادة تعيين كانينج بمنصبه السابق سفيراً بالقسطنطينية، حيث ظلّ بمنصبه هذا مدة سبعة عشر عامًا، رغم أنّ الحكومة البريطانية تغيّرت أربع مرات خلال هذه الفترة

1. نقلاص الأول (Nicholas I) (1796-1855م): قيصر روسيا (1825-1855). عرف برجعته الشديدة؛ حتى لقد عدّه بعض المؤرخين رمزا للحكم الاستبدادي. سحق ثورة الديسمبريين (Decembrists) سنة 1825م، وساعد النمسا على سحق الثورة في هنغاريا سنة 1849م انتهى عهده بهزيمة روسيا في حرب القرم (Crimean War). ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص457.

2 - Unknown author: Opc.cit, P603.

3 - Loc.cit.

4 . بيل السير روبرت (Sir Robert Peel) (1788-1850م): سياسي بريطاني. رئيس الوزراء (1834-1835) (1841-1846م). ينظر: البعلبكي المرجع السابق، ص131.

5 . جورج هاميلتون-جوردون (1784 - 1860): وزير الخارجية البريطاني ورئيس الوزراء (1852-1855) الذي شاركت حكومته في حرب القرم ضد روسيا (1853-1856). ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **George Hamilton-Gordon, 4th earl of Aberdeen, Prime Minister of United Kingdom**, <https://www.britannica.com/biography/George-Hamilton-Gordon-4th-earl-of-Aberdeen> .

مما جعل كانينج مهيمنا بشكل كبير على مستشاري السلطان¹.

كان الصديق المخلص لمصطفى رشيد باشا ومؤيداً لجميع إصلاحاته، واستعمل نفوذه بشكل منتظم لتحسين وضع المسيحيين البروتستانت في تركيا، عاد إلى إنجلترا في أوائل سنة 1858م، وقد سبق أن تمت ترقيته سنة 1852م إلى طبقة النبلاء (The Peerage) بلقب (Viscount Stratford of Redcliffe)، وبعد توليه منصبه بمجلس اللوردات، شارك بنشاط في المناقشات حول مسائل السياسة الخارجية، وحصل على وسام عال هو وسام (Knight of the Garter) في 11 ديسمبر 1869م، وخلال الصراع العثماني الروسي من سنة 1875 إلى 1878م قدم في مقالات بصحيفة "تايمز" (Times) بلندن عدة مساهمات مثيرة للاهتمام لحل المسألة الشرقية، ألف مجموعة من القصائد بعنوان "ظلال الماضي" (Shadows of the Past) التي تعكس أحداث أكثر من نصف قرن، نشرها سنة 1865م، وترك كتباً فيه ملخص للحجج الداعمة لاعتناق المسيحية تحت عنوان "لماذا أنا مسيحي" (Why I am a Christian) نُشِرَ سنة 1873م².

كان للسفير البريطاني ستراتفورد كانينج تأثير كبير على رجال الدولة العثمانية وهو أمر ذكره الكثير من المؤرخين؛ كان له تأثير كبير ليس فقط على مصطفى رشيد باشا ولكن أيضاً على بقية رجال الدولة العثمانية، وقد أشار المؤرخ العثماني أحمد جودت باشا إلى ذلك حين قال: "لقد تدخل السفير البريطاني كانينج منذ فترة طويلة في إجراءات الباب العالي"³، وقد نما النفوذ البريطاني بسرعة بفضل الشخصية القيادية للسفير ستراتفورد كانينج الذي كان مصدر قلق كبير لروسيا⁴، لعب اللورد ستراتفورد كانينج السفير الإنجليزي في الدولة العثمانية دوراً مهماً في السياسة العثمانية⁵؛ لقد أثر على رشيد باشا

¹ - Unknown author: Opc.cit, P603.

² - Loc.cit.

³ بالتركية: " İngiliz elçisi Canning öteden beri Bâb-ı Âlî'nin icraatına müdahale eylerdi " ينظر:

Aksun Ziya Nur: **Osmanlı Tarihi Osmanlı Devleti'nin Tahlilli Tenkidli Siyasi Tarihi**, Cilt 3, Ötüken Neşriyat A.Ş, İstanbul, 1995, Sayfa 341.

⁴ - Benedict Humphrey Sumner: **Survey of Russian History**, Duck Worth, London, 1944, P 414.

⁵ . لقد تم الاعتراف بجهوده داخل مجلس العموم البريطاني؛ قال السير إدmond بيكيت دينيسون (Sir Edmund Beckett-Denison) (1787 - 1874) بجلسة البرلمان البريطاني المنعقدة في 5 ماي 1856م: " لكن السلطان نفسه من تلقاء نفسه قام بعمل مهم نحو تنشيط موارد إمبراطوريته. لقد وضع حدا لجميع الفروق المهنية بين رعاياه؛ لقد منح قوانين متساوية لجميع فئات شعبه؛ لقد رفع المسيحيين إلى هذه المكانة العادلة الذي يجب أن يشغلوها. كانت تلك إصلاحات كبيرة وهامة وسخية... جزء كبير من تنفيذ هذه الإصلاحات الكبيرة كان بسبب التأثير الراسخ لسفيرنا في القسطنطينية ". ينظر:

Sir Edmund Beckett-Denison: **The Treaty of Peace**, vol 141, HC Deb 05 May 1856, cc2037-114. UK Parliament beta website: <https://api.parliament.uk/historic-hansard/commons/1856/may/05/the-treaty-of-peace> .

في العديد من النقاط السياسية، وربما كان إقرار المساواة في الحقوق بين المسلمين والمسيحيين بسبب تأثيره ذلك¹، وخلال فترة خدمته الطويلة في الباب العالي خلال العقدين الخامس والسادس من القرن التاسع عشر أظهر كانينج من الكفاءة والتأثير ما أكسبه لقب السفير الكبير (Büyük Elçi)، واستخدم المسيحيون الذين عاشوا تحت حمايته لوصفه لقباً أعلى بكثير عندما تحدثوا عنه؛ إذ أطلقوا عليه لقب سلطان السلطان "Padişah of the Padişah"².

كان كانينج بروتستانتيًا متحمسًا، وكان يؤمن بإيمانًا راسخًا بأن الحضارة والإنسانية ستأتي إلى الشرق فقط مع انتشار مذهبه ومعتقداته هناك، بالإضافة إلى وجود إيمان قريب من التعصب كان كانينج يمتلك شخصية متغطرة وبلا لباقة مما تسبب له في الكثير من الإحراج والاستياء والكرهية ليس فقط بين الوزراء الأتراك ولكن أيضًا بين زملائه الأوروبيين³، ومع ذلك " كانينج لم يكن لديه ميل أصلي للأتراك، كان أول من أعرب عن أمله القوي في طردهم من أوروبا مع (الحقبة والأمتعة)⁴.

الظروف السياسية التي صدر فيها خط همايوني

بعد أن تعرّفنا عن كتب على الشخصيات التي كان لها الدور الأبرز في استصدار فرمان الإصلاحات، وهي شخصيات تدرّجت في المناصب السامية، وتشكّلت عندها خبرات عالية، نعرّج بعد ذلك على الظروف والبيئة التي نبت من خلالها ذلك فرمان؛ حتى بداية حرب القرم 1270هـ/1853م كانت ثمار الإصلاح قليلة بشكل مخيب للآمال، رشيد باشا الذي كان منذ سنة

ولا أدلّ على تأثيره الكبير على صنع القرار العثماني من أنه سنة 1856م طلب عالي باشا من لندن ثلاث مرات أن تعزل سفيرها لدى الباب العالي اللورد ستراتفورد رغم كون الأخير من نواح كثيرة قدّم خدمة كبيرة للإمبراطورية العثمانية، وحجّة عالي باشا في طلبه ذلك هو أنّ اللورد ستراتفورد يتدخل بشكل سافر سيئ في الشؤون الداخلية لدرجة أنّ الباب العالي فقد مكانته في أعين العامة

ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P71.

ونجد تعبيرًا عن ذلك التدخل بطريقة فؤاد باشا الساخرة إذ حين شكل مصطفى رشيد باشا حكومته بعد رفض عالي وفؤاد باشا تولي أي وزارة فيها، قام رشيد باشا بتعيين ابنه علي غالب وزيراً للخارجية في ربيع سنة 1857م - وكان علي غالب هذا متزوجًا من فاطمة البنت الكبرى للسلطان - كما عين ابنه الثاني محمد سيسيل سفيرًا عثمانيًا في باريس. علّق فؤاد باشا ساخرًا كعادته على هذه الحكومة التي وقعت في قبضة عائلة رشيد: " من الواضح أننا على وشك أن نصبح مسيحيين؛ لدينا الأب رشيد باشا والابن علي غالب الذي انبثق من الأب واللورد ستراتفورد الذي يكشف لنا الروح القدس من خلال وساطة مترجمه الأول غير

اللطيف م. ريفيلاكوي (M. Revelaki) " ينظر: Ibid, P45, 52, 82.

¹ - Halide Edib Adıvar: **Memoirs of Halide Edib**, 1Edt, John Murray, London, 1923, P 241.

² - Stanley Lane-poole: **The Life of the Right Honourable Stratford Canning**, Vol 2, Longmans, Green, London, 1888, P54-55.

³ - (الملحق 31) صورة السفير البريطاني بالدولة العثمانية (1842-1858) السير ستراتفورد كانينج، ص 644.

⁴ - Niyazi Berkes: Op.cit, P149.

1255هـ/1839م وزيراً للخارجية مرتين وصدرًا أعظم ثلاث مرات، أعرب عن أسفه من التّراخي والتّعصّب الذي أدى إلى إبطاء التقدم عندما كانت هناك حاجة لاتخاذ إجراءات سريعة لقد فقد هو نفسه على ما يبدو بعض حماسه الإصلاحية في نهاية هذه الفترة¹.

نتطرق بشكل موجز عن حرب القرم (Kırım Savaşı) لأنها كانت الدافع الأقوى من وراء صدور فرمان الإصلاحات؛ بدأت حرب القرم بأزمة بشأن الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين بين الكنيسة اللاتينية المدعومة فرنسيا، والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية المدعومة روسيا وقد كان لفرنسا امتياز قديم يعود تاريخه إلى زمن الحروب الصليبية في حماية مسيحيي الشرق، وضمان سلامة الحجاج إلى الأماكن المقدسة، وقد اعترف العثمانيون لهم بذلك الامتياز منذ سيطرتهم على البلاد العربية لكن ورغم ذلك كانت هناك مشاكل دائمة بين القساوسة اللاتين الكاثوليك والأرثوذكس حول الأماكن المقدسة وكانت الدولة العثمانية دائما تسعى لحفظ التوازن بين الطوائف المسيحية.

سعت فرنسا على الدوام إلى الضغط على العثمانيين لحفظ وتوسيع امتيازاتها في الأماكن المقدسة ورعاية مسيحيي الشرق الكاثوليك وأبرمت مع العثمانيين عدة معاهدات بذلك الشأن سيما معاهدة 1153هـ/1740م²، وكانت روسيا من جهة أخرى تسعى لتجريد الكاثوليك من هذا الامتياز واعطائه للأرثوذكس لما بينها وبينهم من الوحدة المذهبية لتتمكن بواسطتهم من بث سياستها ونشر نفوذها بين رعايا الدولة العثمانية الأرثوذكس الذين يزيد عددهم عن العشرة ملايين، وبالتالي يكونون ذراعها التي تنفذ بها سياستها الخارجية، ونظرا لاشتغال فرنسا بحروب الثورة ثم الحروب النابوليونية إلى جانب ضعف الحكومة العثمانية، زيادة على ثورة 1848م التي شملت تقريبا كل أوروبا، نظرا لكل ذلك ضعفت فرنسا عن حماية مسيحييها فتعدى القساوسة الأرثوذكس على امتيازات القساوسة الكاثوليك فنشبت أزمة بين فرنسا وروسيا³.

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P49.

² . معاهدة أبرمت بين السلطان محمود الثاني وملك فرنسا لويس الخامس عشر وهي تثبيت للفرمان الذي منح للاتين سنة 1690م وذلك نتيجة لضعف الدولة العثمانية وحاجتها إلى دعم فرنسا ضد النمسا وروسيا، من خلال المعاهدة اعتبرت فرنسا حامية لكل المسيحيين بالشرق. تثبت هذه المعاهدة حقوقا طويلة الأمد للفرنسيين باعتبارهم حماة لرعاياهم الكاثوليك في أراضي الدولة العثمانية. ينظر: عبد الجبوري أحمد حسين: **القدس في العهد العثماني، 1640-1799م**، دراسة سياسية عسكرية، إدارية اقتصادية، اجتماعية، ثقافية، ج2، ط1، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، 2011، ص97-98.

³ . استغلت فرنسا انتهاك امتيازاتها وطالبت بتوسيعها لمحاكمة النفوذ الروسي في الشرق، ولكن روسيا هدّدت الباب العالي إذا تمّ تعديل تلك الامتيازات وتوسيعها، بل وطالبت بامتيازات مشابهة لامتيازات فرنسا لحماية أرثوذكس الشرق. شكّل الباب العالي لجنة من عدّة أعضاء مختلفي المذهب لفصلها بمقتضى المعاهدات القديمة وهذه اللجنة قررت بعد عدّة اجتماعات مُتَوَالِيَةً =

لم ترسخ الدولة العثمانية لمطالبات روسيا فأعلنت الأخيرة الحرب في 1 محرم سنة 1270هـ/4 أكتوبر سنة 1853م، حاولت فرنسا التوسط ولما أدركت إصرار روسيا على الحرب سرعان ما أعلنت فرنسا وبريطانيا¹ الحرب ضدها إلى جانب الدولة العثمانية في 27 جمادى الآخرة 1270هـ/27 مارس 1854م، ونشبت معارك ضخمة في عدة جبهات أثناء حرب القرم، واتفقت فرنسا وبريطانيا مع النمسا لدخول الأخيرة الحرب ضد روسيا في 2 ديسمبر 1854م، فأرسلت النمسا مذكرة إلى روسيا تدعوها لقبول شروط الصلح وإنهاء الحرب وإلا التحقت هي وغيرها من الدول الأوروبية بالحرب ضدها ماطلت روسيا فيما واصلت شن الحرب، إلا أنه في هذه الأثناء توفي القيصر الروسي نيقولاس الأول في 2 مارس 1855م وخلفه في الحكم ابنه إسكندر الثاني² الذي شعر بعدم قدرة بلاده على مواصلة الحرب، سيما بعد انضمام مملكة السويد والنرويج وإيطاليا الحرب ضدها، فقرر التفاوض للسلام، فانعقد لذلك الغرض مؤتمر باريس في 18 جمادى الثاني 1272هـ/25 فبراير 1856م³

بأولوية الكاثوليك في امتلاك عدّة كنائس وأديرة، فعارضت روسيا في نفاذ هذه الاتفاقية المؤرخة في 6 فبراير 1852 وهددت الباب العالي بالحرب لو أمر بنفاذها، فتددت الدولة في انفاذها لكن من جهة أخرى شددت فرنسا في التمسك بحقوقها التي قررتها اللجنة وأمام هذا الوضع اضطرت الدولة العثمانية لتنفيذ مضمون قرار اللجنة، استغلت روسيا هذا الوضع لإعلان الحرب لتحقيق مطامعها بالقوة وحاولت جلب تأييد بريطانيا إلا أنّ الأخيرة لم تطاوعها حرصا على مصالحها فكانت حرب القرم في 4 أكتوبر سنة 1853م. ينظر: المحامي محمد فريد بك: المرجع السابق، ص 491، 497، بتصرف.

¹. يذهب بعض المؤرخين إلى تحميل السفير البريطاني سترااتفورد كانينج مسؤولية اندلاع حرب القرم نظرا لنفوذه وتأثيره الكبير على الحكومتين العثمانية والبريطانية، ونظرا لعداوته الشخصي لقيصر روسيا نيقولاس الأول، حتى أنّ المؤرخ البريطاني هارولد وليام فازيل تيمبرلي (Harold William Vazeille Temperley) (1879-1939)، اعتبر سترااتفورد كانينج الوسيط البشري الذي سبب حرب القرم بضغطة على العثمانيين للمضي في طريق الحرب دون السلام. ينظر:

Herkless J. L: "Stratford, The Cabinet and Outbreak of the Crimean War", The Historical Journal, Vol 18, Issue 3, British, September 1975, P499.

². ألكسندر الثاني (1818-1881): إمبراطور روسيا (1855-1881). بعد حرب القرم التي أظهرت تخلف روسيا، وضع ألكسندر برنامجا كبيرا للإصلاحات الداخلية. ينظر:

W.E. Mosse: **Alexander II, Emperor of Russia**,

<https://www.britannica.com/biography/Alexander-II-emperor-of-Russia> , Last Updated: Apr 25, 2020.

³. المحامي محمد فريد بك: المرجع السابق، ص 497، 512، بتصرف.

كان من مخرجات مؤتمر باريس قبول الدولة العثمانية أخيرا كجزء من نظام الدول الأوروبية؛ فقد نصّت المادة 7 من المعاهدة على ذلك إذ ورد بها: "يُسمح للباب العالي بالمشاركة في مزايا القانون والنظام الأوروبي العام". ومع ذلك فقد كان ذلك متأخرا بعض الشيء لأن الدولة العثمانية وفي نفس المعاهدة قد أدركت ضعفها بقبول حماية القوى الأوروبية الكبرى لها، وعلاوة على ذلك ثمّنت المادة 9 صدور الخط الهمايوني من خلال اعتراف القوى الأوروبية "بالقيمة العالية" له، وبالتزامهم بعدم التّدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P4.

استمرت حرب القرم أكثر من عامين ونصف، حاربت فيها الدولة العثمانية منفردة في السنة الأولى منها، وكانت الحرب الوحيدة التي فاز بها العثمانيون ضد روسيا في القرن التاسع عشر بفضل تحالفها مع بريطانيا وفرنسا¹.

كيف صدر خط همايوني أو فرمان الإصلاحات؟

علمنا البيئة السياسية التي تأثرت بها وتمخض عنها فرمان الإصلاحات نلقي الآن الضوء على كيفية صدوره والجهة الأجنبية التي تعتبر بمثابة الراعي الرسمي لفرمان الإصلاحات، بداية وبشكل عام استخدمت بريطانيا وفرنسا وضعهما كحلفاء للدولة العثمانية في حرب القرم وحثًا العثمانيين على المزيد من التغريب والتطبيق الأكثر فعالية لمبدأ المساواة، في نهاية الحرب أدّى ضغطهم إلى صدور فرمان الإصلاحات².

كانت التغييرات من سنة 1203هـ/1789م على عهد سليم الثالث إلى سنة 1272هـ/1856م على عهد عبد المجيد الأوّل نتيجة لاستجابة تدريجية وطبيعية من القادة العثمانيين للضغوط الاجتماعية والسياسية، وإلى حد ما تتبع التغيير في تلك الفترة تقاليد التغيير العثمانية، فيما يمكن أن يسمى بـ"التحديث الطوعي"، غير أن فرمان الإصلاحات سنة 1272هـ/1856م غير هذا الاتجاه من خلال فرض إرادة القوى الخارجية على عملية التغيير والتحوّل؛ فقد تم إعداد فرمان الإصلاحات والذي كان كما قيل: "من نواحٍ عديدة عمل اللورد ستراتفورد"³ بالتعاون مع السفير الفرنسي والمندوب النمساوي لدى الباب العالي، وتم قبوله كلياً من قِبَل الحكومة العثمانية، وكان هدفه الرئيس منح المساواة للمسيحيين كما وعد خط كلخانة⁴.

طوال شهر جمادى الأولى 1272هـ/يناير 1856م التقى ستراتفورد كاتينج بانتظام مع السفير الفرنسي والمندوب النمساوي لدى الباب العالي، واجتمع كل من الصدر الأعظم عالي باشا ووزير

¹ - A. Nuri Yurdusev: Op.cit, P139.

² - Ibid, P52.

³ .كان ينظر إلى فرمان الإصلاحات بشكل واسع على أنه نتاج للتدخل البريطاني في الشؤون العثمانية؛ في الواقع تم إملاء خط همايون إلى حد كبير من قبل السفير البريطاني ستراتفورد كاتينج. ينظر:

Kevin Goodwin: **The Tanzimat and the Problem of Political Authority in the Ottoman Empire: 1839-1876**, History Honors Thesis, Rhode Island College (RIC), USA, May, 2006, P28.

⁴ - Kemal H. Karpat: **The Transformation of the Ottoman State, 1789-1908**, International Journal of Middle East Studies, Vol 3, Iss 3, Cambridge University Press, Great Britain, 1972, P258-259.

الخارجية فؤاد باشا وأمير والاشيا بالسفراء الثلاثة لمناقشة خططهم¹، حثّت القوى الثلاث العثمانيين على استكمال المرسوم قبل افتتاح مؤتمر باريس للسلام، حتى لا يكون لروسيا أي دور في الإصلاح العثماني، وقد نجحوا في ذلك؛ لكن الاستياء العثماني مما كان في الأساس إمعاناً أجنبياً لبرنامج إصلاحي يظهر من خلال روايات التفاوض، على الرغم من أن عالي باشا وفؤاد باشا كانا على استعداد للاعتراف بصحة جميع النقاط التي أثّرت تقريباً في المسوّدة².

لم يحصل السفير البريطاني ستراتفورد على كل ما يريده لأن العثمانيين وجدوا الدعم الفرنسي والنمساوي لتخفيف بعض المطالب، ولكن نتيجة فرمان الإصلاحات كانت على عكس خط شريف كلخانة؛ كان مضمونه صناعة أوروبية بالأساس وليس للعثمانيين منه سوى الشكل فقط!! تم حفظ ماء الوجه العثماني بإعلان المرسوم كعمل صادر عن إرادة السلطان، وبأنّ معاهدة باريس تضمنت بنداً ينص³ على عدم استخدام المرسوم كأساس للتدخل الأجنبي⁴.

مع ذلك اعتبر المستشرق البريطاني ستانلي لين بول (Stanley Lane-Poole)⁵ زميل ومساعد اللورد ستراتفورد أنّ الأخير هو بمثابة مهندس فرمان الإصلاحات، باعتبار هذا فرمان ذروة عمله كسفير بريطاني في الشرق؛ قال ستانلي لين بول: "يد اللورد ستراتفورد يمكن تتبعها في كل سطر من فرمان

1. السفير الفرنسي هو (Édouard Antoine de Thouvenel)، والمندوب النمساوي هو (Anton von Prokesch-Osten)، وأمير والاشيا هو اليوناني العثماني (Kallimaki).

2- Roderic H. Davison: Op.cit, P53.

3. ورد في المادة التاسعة من معاهدة باريس سنة 1856م ما نصه: "... عزم على أن يطالع الدول المتعاهدة بذلك المنشور الصّادر عن طيب نفس منه، فتلقى الدولة المشار إليها هذه المطالعة بتأكيد ما لها من النّفع والفائدة، ولكن المّفهُوم منها صريحاً أنّها لا توجب حقاً لهذِهِ الدولة في أي حال كان على أن تتعرض كلاً أو بعضاً لما يتعلّق بالسلطان ورعاياه أو بإدارة سلطنته الداخلية" ينظر: محمد فريد بك الحامي: المرجع السابق، ص 515.

وللاطلاع على نص خط همايوني 1856م ينظر: المرجع نفسه، ص 489، 484. وقد ذكر النص أيضاً ضمن الكتاب الضخم للدبلوماسي العثماني من أصل يوناني غريغوري أريستارخيس (Grēgorius Aristarchēs). ينظر:

Grēgorius Aristarchēs (bey) : **Législation ottomane : ou, Recueil des lois, règlements, ordonnances, traités, capitulations et autres documents officiels de l'Empire ottoman, Vol 2**, Freres Nicolaïdes, Constantinople, 1874, P24-35.

4- Roderic H. Davison: Op.cit, P54.

5. ستانلي لين بول (1854-1931): مستشرق بريطاني. هو نجل المستشرق إدوارد ستانلي بول (Edward Stanley Poole) وشقيق عالم الآثار والمستشرق ريجينالد ستوارت بول (Reginald Stuart Poole) وخاله هو المستشرق والمعجمي إدوارد ويليام لين (Edward William Lane). ترك عدة مؤلفات منها: حياة اللورد ستراتفورد دو ريدكليف (The Life of Lord Stratford de Redcliffe). ينظر:

Ali Murat Yel: **Lane-Poole Stanley (1854-1931) İngiliz şarkiyatçısı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 27, İstanbul, 2003, sayfa 100-101.

الإصلاحات؛ كانت هذه إصلاحاته سواء تم تنفيذها بالفعل، أو غالبًا ما تم الضغط على الباب العالي لتنفيذها، كانت تتويجا لحياته المهنية، وختم كل عمله باسم حكومة عادلة ومنتساوية في تركيا، لقد كان انتصارا أن يُفتكَّ مثل هذا البرنامج الإصلاحي من ملك محمدي!! في مواجهة عداء الغالبية العظمى من رعاياه المسلمين، وعلى الرغم من معارضة معظم رجال الدولة!! واللامبالاة إن لم يكن الازدراء الذي أظهرته القوى الأوروبية لجميع أحلام التجديد التركي¹.

ينقل لنا ستانلى لين بول اندهاش السفير اللورد ستراتفورد كانينج نفسه من إنجاز لفرمان الإصلاحات حيث قال كانينج: "بالنظر إلى الأشخاص الخمسة الذين انضموا إليّ في صياغة الميثاق؛ اثنان من المسلمين [عالي وفؤاد باشا] واثنان من الروم الكاثوليك وعضو في الكنيسة اليونانية كان قبوله ليس أقل بقليل من معجزة، أعترف أنه لم يكن لدي توقع مسبق للتغلب على الأحكام المسبقة لهؤلاء الزملاء في المفاوضات، ولا سيما أولئك الذين اعتنقوا العقيدة الإسلامية²، مع ذلك يجب أخذ تفاخر كانينج بحذر، إذ معلوم أن الكثير مما ورد في فرمان الإصلاحات كان متوافقا أصلا مع الرؤى الإصلاحية لعالي باشا وفؤاد باشا.

يعلق لين بول على كلام كانينج أعلاه بقوله: لم يكن بإمكان أحد غير اللورد ستراتفورد أن يفوز بهذا النصر، لكنه كان نصرا يحتاج إلى متابعة، كان فرمان الإصلاحات بالفعل جزءًا من معاهدة باريس تم الاعتراف به رسميًا في البند التاسع، لكنه كان بحاجة إلى أكثر من الاعتراف؛ إنه بحاجة إلى الإنفاذ كانت هذه هي النقطة التي لم يتوقف اللورد ستراتفورد عن الإصرار عليها³، ويبدو هنا محقا إذ أنّ المشاريع الإصلاحية العثمانية كانت عرضة للتأخر أو حتى الإلغاء لأسباب عديدة منها عزل أو حتى إعدام القائمين عليها بسبب صراع أجنحة السلطة والوشايات الكاذبة.

الذي جعل ستراتفورد يرمي بكل ثقله تجاه إصدار فرمان الإصلاحات والحرص على تنفيذه يعود إلى خلفيته البروتستانتية الصارمة، فقد كان كما ذكر سابقا شديد الإيمان بمعتقدده وطائفته؛ بناء عليه كان من طموحاته ومن أولى أولوياته الحصول على اعتراف بالبروتستانت - بشكل رئيسي الأرمن المبشرين من الكنيسة الأرمنية - كفتة، من أجل الحصول على نقطة ارتكاز دينية نحو اكتساب حقوق دبلوماسية مماثلة لتلك الحقوق التاريخية التي طالبت بها كل من النمسا وروسيا وفرنسا. وقد نجح ستراتفورد في الحصول على اعتراف بالكنيسة البروتستانتية بالقدس رغم استياء الحكومات النمساوية والروسية

¹ - Stanley Lane-poole: **The Life of the Right Honourable Stratford Canning**, Vol 1, Longmans, Green, London, 1890, P357.

² - Loc.cit.

³ - Loc.cit.

والفرنسية من ذلك. وفي سنة 1266هـ/1850م حصل على الاعتراف الكامل بالبروتستانت كطائفة جديدة بالدولة العثمانية¹، بعد ذلك عمل على ضمان المساواة بين الرعايا العثمانيين خدمة لطائفته بالدرجة الأولى.

يُفهم مما كتب ستانلي لين بول أنّ كانينج لم يكتفي بصياغة الميثاق بل كان معنيا بمراقبة تنفيذه وتوفير الضغط الخارجي اللازم من أجل ذلك، يعلّق ستانلي لين بول: "كان اللورد ستراتفورد لا يزال ممتلئاً بالشيء الذي كان لديه دائماً في قلبه ألا وهو إصلاح الدولة العثمانية من الداخل، وفي الوقت نفسه ضمان الإشراف الخارجي؛ على اعتبار أنه لا يمكن الوثوق بالمسؤولين العثمانيين في جعل الإصلاحات ممكنة وفعالة"²، وحرصه هذا كان بدافع ديني لحساب طائفة البروتستانت، وبدافع سياسي يخص المصالح العليا البريطانية.

تشير رسالته إلى وزير الخارجية اللورد كلارندون (Lord Clarendon)³ في 3 جوان 1856م بوضوح إلى الحاجة إلى مثل ذلك الإشراف والضغط الخارجي إذا ما كان يراد أن تكون للإصلاحات تأثير حقيقي، وأكّد على ضرورة تحسين الدولة العثمانية بشكل عام إن أمكن من أجل استعدادها وفق مبادئ راسخة للحكومة الإنسانية والحضارية!! ويجادل في الجهة التي يجب أن تشرف على مراقبة تنفيذ الإصلاحات ويُفاضل بين تحالف القوى الأوروبية أو بريطانيا منفردة، ويفضل الخيار الأخير على اعتبار أن بريطانيا أكثر روية وثباتاً وثقة، ويستبعد فرنسا لأنها تعمل دائماً ضد المصالح البريطانية⁴. كان اللورد ستراتفورد في موقعه سفيرا بإستانبول يمثل ضغطاً كافياً لإنفاذ الإصلاحات عملياً

1. يذكر القس الأمريكي البروتستانتي ويليام جودل (1792-1867م) الذي مكث مدة طويلة بإستانبول وكانت مهمته التركيز على نشر البروتستانتية ضمن الأرمن خصوصاً، في كتابه: "أربعون سنة في الإمبراطورية التركية": أثناء الغياب المؤقت للسفير ستراتفورد كانينج الذي كان الصديق الثابت للمبشرين والمسيحيين المضطهدين تفاوض اللورد كاولي مع الحكومة العثمانية، وفي 15 نوفمبر 1847م، أصدر الصدر الأعظم فرماناً معلناً فيه أن "الرعايا المسيحيين للحكومة العثمانية الذين يعتنقون البروتستانتية يجب أن يشكلوا مجتمعاً منفصلاً مع جميع الحقوق والامتيازات التي تمتلكها الطوائف الأخرى. ينظر:

William Goodell: **Forty years in the Turkish empire: or, Memoirs of Rev. William Goodell, D.D., late missionary of the American Board of Commissioners for Foreign Missions (A.B.C.F.M) at Constantinople**", 4 Edt, R. Carter and Brothers, New York, USA, 1877, P330.
2 - Stanley Lane-poole: Op.cit, P355.

3. جورج ويليام فريدريك فيليز إيرل كلارندون الرابع (1800-1870) [المعروف باللورد كلارندون]: وزير الخارجية البريطاني تحت أربعة رؤساء وزراء في أوقات مختلفة من سنة 1853م بما في ذلك فترة حرب القرم. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **George William Frederick Villiers, 4th earl of Clarendon, British statesman**, <https://www.britannica.com/topic/Liberal-Party-political-party-United-Kingdom> .

4 - Stanley Lane-poole: Op.cit, P355.

بفضل شخصيته القوية والمؤثرة، وشبكة علاقاته القوية بالسلطان وكبار رجال الدولة العثمانيين ولكن كان يهيمه استمرار الضغط بعد مغادرته منصبه، لذا كان يريد لبريطانيا أن تستمر في متابعة تنفيذ الإصلاحات والضغط المستمر لجعلها ملموسة على أرض الواقع.

انتهت مهمة اللورد ستراتفورد في الشرق تقريبا، بمجرد التوقيع على معاهدة باريس طلب إجازة إذ أنه بعد أربع سنوات من الكدح المستمر شعر بالحاجة إلى الراحة، توصلت له الحكومة بالبقاء طالما أن التفاصيل المختلفة لترتيبات السلام تتطلب إشرافه، فأخر إجازته قليلا تبعا لذلك، غادر أخيراً في ربيع الآخر 1274هـ/ديسمبر 1857م¹ في حالة من الاكتئاب، ويرجع ذلك جزئياً إلى اعتلال صحته، وجزئياً لاعتبارات سياسية؛ أثر موقف إنجلترا في مؤتمر باريس بشكل طبيعي على هيئته في الشرق²، لم يكتثر الفرنسيون بالإصلاح العثماني، وكان أكثر ما يثقل في ذهنه هو الخوف من أن تأثيرهم قد يجعل فرمان الإصلاحات جسدا بلا روح³.

مضمون فرمان الإصلاحات

بعد أن عرفنا الظروف السياسية الداخلية والخارجية التي أنتجت فرمان الإصلاحات لسنة 1272هـ/1856م، وعرفنا دور الضغط الخارجي عامة والبريطاني متمثلاً في اللورد ستراتفورد خاصة يمكننا الآن معرفة مضمون فرمان الإصلاحات مع مقارنته بخط شريف كلخانة لمعرفة جديده والنقاط

¹. قبل مغادرته إستانبول سنة 1857م أقيم بإستانبول حفل مهيب، في هذا الحفل قام اللورد ستراتفورد كممثل للملكة البريطانية بتقليد السلطان عبد المجيد الأول أعلى وسام للفروسية ببريطانيا، هل فهم السلطان ما كان قاله السفير الفخم اللورد ستراتفورد وهو يضع قلادة القديس جورج حول رقبته؟ إذ قال ستراتفورد باللغة اللاتينية: هذه القلادة التي ترتديها هي رمز قلادة = القديس جورج وشهداء المسيح الذين قهرو عدوهم وكسروا كبرياءه وفازوا بالراحة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وكان لهم النصر " Taeniam hanc gestato, imagine Sancti Georgii Martyris et Militis Christi insignitam, cujus aemulatione accensus, per adversos simul prosperosque casus feraris invictus, donee tam animi quam corporis hostibus fractis, non solum palmam pugnae terrestri, sed et aeternae victoriae coronam reportes". تساءل ستانلي لين بول: عندما يستسلم سلطان لأمر بمحاكاة شهيد وجندي المسيح من قال إن تعصب الإسلام لا يمكن إخماده؟ ينظر: Stanley Lane-poole: Op.cit, P359.

². لم يكن راضياً بمعاهدة باريس 1856م فقد كانت كلماته الأولى حين علم بشروط معاهدة باريس أن قال: "كنت أفضل أن أقطع يدي اليمنى على أن أوقع على هذه المعاهدة"، كان من الصعب عليه رؤية كل الانتصارات الدبلوماسية التي حققها بشق الأنفس منذ سنة 1853م قد تمّ الانقلاب عليها تماماً سنة 1856م. في رسالته الأولى قبل مؤتمر باريس في 3 فبراير 1856م إلى الدبلوماسي ورجل الدولة البريطاني اللورد كلارندون (1800-1870م) باعتبار الأخير كان ممثل بريطانيا بمؤتمر باريس. كان يرى ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد روسيا، كان يرى ضرورة مواصلة الحرب من أجل الحصول على أفضل الشروط في المفاوضات مع روسيا وعلى أنّ الترتيبات التي تفرض على الدولة العثمانية ينبغي أن تتم بنوع من الإشراف الدولي مع ضمان سلامة الدولة العثمانية. ينظر: Ibid, P353-354.

³ - Ibid, P 358.

المشتركة بينه وبين الأخير، كما سنستعرض ردود الفعل حول فرمان الإصلاحات وانعكاساته داخليا وخارجيا، وأهم العقبات التي واجهها مع بدء تطبيقه على أرض الواقع.

قام المحامي والمؤرخ محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا بنقل وترجمة النص الكامل لفرمان الإصلاحات من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية، نقلا عن اللغة التركية لكتاب: أس انقلاب، وأثبت ذلك في كتابه: تاريخ الدولة العلية العثمانية، وقد كتب فرمان الإصلاحات باللغتين العثمانية والفرنسية وكانت الحكومة العثمانية حريصة على نشر فرمان وقوانين تنفيذه بلغات الأقليات المشكلة للدولة العثمانية؛ في ملاحظاته على تنفيذ فرمان الإصلاحات كتب فؤاد باشا: " لم تُترجم هذه القوانين المختلفة التي نُشر نصها بالتركية والفرنسية إلى اللغات الأخرى، اتخذت الحكومة خطوات لسد هذه الفجوة من خلال النشر الكامل والمتزامن لترجمة قوانين الإمبراطورية بجميع اللغات المستخدمة في تركيا"¹ إذ كان المقصود دائما هو ضمان تعميم الإصلاحات على جميع أراضي الدولة العثمانية.

تجمع حشد من عدة آلاف لدى الباب العالي بإستانبول لسماع القراءة الرسمية لفرمان الإصلاحات الذي وجهه السلطان عبد المجيد الأوّل إلى صدره الأعظم عالي باشا وذلك على الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم 12 جمادى الآخرة 1272هـ/18 فبراير 1856م، لم يحضر وزراء الدولة العثمانية والعديد من الأعيان العثمانيين فحسب، بل أيضا بطاركة اليونان والأرمن والحاخام الكبير وغيرهم من الشخصيات البارزة لمختلف الشعوب غير المسلمة في الدولة، فقد كان الخط الهمايوني يعني جميع رعايا السلطان المسلمين وغيرهم... ثم تم توزيع نسخ مطبوعة من فرمان على الحاضرين²، وقد تضمن "فرمان الإصلاحات" إصلاحات سياسية وقانونية ودينية وتربوية واقتصادية وأخلاقية حيث كانت المساواة والحرية والتقدم المادي والوطن الواحد هي الكلمات المفتاحية³.

¹ كانت لدى الحكومة العثمانية نسخة فرنسية لفرمان الإصلاحات نشر نصها في جريدة لومونيتور (Le Moniteur) الفرنسية، ثم تم إعادة نشرها في المجلد الثاني من كتاب لويس جوزيف دلفي فيرود جيرون (Louis-Joseph-Delphin Feraud-Giraud) المعنون ب: (De la juridiction française dans les échelles du Levant et de la Barbarie) الطبعة الأولى والثانية كما نشر الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا بيلين (François Belin) (1817-1877) - الذي أمضى عدة عقود بإستانبول كدبلوماسي - نص فرمان في دراسته لسنة 1862م: حول ملكية الأراضي في البلدان الإسلامية وخاصة في تركيا (sur la propriété foncière en pays musulman et spécialement en Turquie). ينظر:

Christoph Herzog and Malek Sharif: **The First Ottoman Experiment in Democracy**, Istanbul Texts and Studies Herausgegeben vom Orient-Institut Istanbul, Band 18, Würzburg, Germany, 2016, Seite 23,30.

²- Roderic H. Davison: Op.cit, P3-4.

³ . استهل فرمان بهذه العبارات: " من أهم أفكارنا السامية سَعَادَة أحوال كَافَّة صنوف التبعة الّتي أودعها الله إلَى يدنا المملوكية المؤيدة ولما بذلناه من هممنا المملوكية فِي هَذَا الشَّأن من يَوْم جلوسنا المقرون بِالْيَمِينِ، قد تزايد عمار وثروة مملكتنا العلية يَوْمًا فيوما

يمكن تلخيص ما تضمّنه الفرمان في عشرة نقاط:

- 1) إعادة التأكيد على الحقوق الممنوحة بموجب خط كلخانة السابق وضرورة اتخاذ تدابير فعالة لتنفيذها على أرض الواقع على أكمل وجه¹.
- 2) إعادة تأكيد وتجديد جميع الامتيازات والحصانات الروحية القديمة الممنوحة للطوائف غير المسلمة (الملل). " وَالَّتِي مَنْحَتْ مِنْ قَبْلِ اجْدَادِنَا الْعِظَامِ لِلطَّوَائِفِ الْمَسِيحِيَّةِ وَكَافَةِ الْمَمْلِكِ الْغَيْرِ مُسْلِمَةٍ"².
- 3) حظر أي تسمية تشهيرية [تناز باللقاب] ضدّ أي طائفة من الأشخاص على أساس الدين أو اللغة أو العرق. " وَتَمَحَى وَتُرْزَأُ إِلَى الْأَبَدِ مِنَ الْمَحَرَّرَاتِ الرَّسْمِيَّةِ الدِّيَوَانِيَّةِ كَأَقْفَى التَّعْبِيرَاتِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُتَضَمِّنَةِ تَحْقِيرِ جِنْسٍ لَجِنْسٍ آخَرَ فِي اللِّسَانِ أَوْ الْجِنْسِيَّةِ الْمَذْهَبِ مِنْ أَفْرَادِ تَبَعَةِ سُلْطَنَاتِنَا السَّنِّيَّةِ"³.
- 4) ضمان الحرية الكاملة في ممارسة جميع المعتقدات والطقوس الدينية⁴.
- 5) ضمان المساواة في معاملة أتباع جميع العقائد في مسائل التعليم والتعيين في المناصب الحكومية؛ وفي إقامة العدل والضرائب والخدمة العسكرية⁵.
- 6) إعادة إصلاح المحاكم القضائية، وإنشاء المحاكم المختلطة، وإصلاح القوانين الجزائية والتجارية التي ستدار على أساس موحد، وإصلاح السجون " حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْعَدَالَةُ"⁶.
- 7) تمثيل المسيحيين والمسلمين في المجالس المنتخبة بالمقاطعات⁷.
- 8) ضمان حق الأجنبي في امتلاك العقارات " بَعْدَ الْإِتِّفَاقِ الَّذِي سَيَبْرَمُ بَيْنَ دَوْلَتِنَا الْعَلِيَّةِ وَالدَّوْلِ الْإِجْنَبِيَّةِ"⁸.

وشوهدت جملة فوائد نافعة، وَلَكُونُ تَأْيِيدَ وَتَوْسِيعَ نِطَاقِ النِّظَامَاتِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَوَفَّقْنَا إِلَى الْآنِ لَوْضَعِهَا وَتَدْوِينِهَا بِالْمُؤَافَقَةِ لِلْمَوْقِعِ الْعَالِي الْحَاضِرَةِ لَعَلَّ دَوْلَتِنَا الْعَلِيَّةَ بَيْنَ الدَّوْلِ الْمُتَمَدِّنَةِ مَطْلُوبِنَا أَيضًا إِلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ". ينظر: الحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا: المرجع السابق، ص 484.

1. المكان نفسه.

2. المرجع نفسه، ص 485.

3. المرجع نفسه، ص 486.

4. المكان نفسه.

5. المرجع نفسه، ص 486-487.

6. المرجع نفسه، ص 487.

7. المكان نفسه.

8. المرجع نفسه، ص 488.

(9) تمثيل الطوائف الدينية في مداولات المجلس الأعلى الذي يُكفل فيه حرية إبداء الرأي دون خوف¹.

(10) وضع التدابير اللازمة لإصلاح مالية الدولة وتحسين التجارة والزراعة مع "النظر في الأسباب المؤدية لاستفادة من العلوم والمعارف الأجنبية"².

ختمَ فرمان الإصلاحات بهذه العبارة: "فيا أيها الصّدر الأعظم الممدوح الشيم، يلزمكم إعلان هذا فرمان الجليل العنوان الملوكي حسب أصوله بدار السّعادة، ولكل طرف من ممالكنا المحروسة وإجراء مقتضيات الخصائص المشروحة حسبما توضح آفنا، وبذل جَلّ الهمة في استحصال واستكمال الأسباب اللّازمة والوسائل القوية للدوام والاستمرار على رِعاية أحكامه الجليلة من الآن فصاعداً ويلزمكم معرفة ذلك واعتماد علامتنا الشريفة. حرر في أوائل شهر جمادى الآخرة سنة 1272هـ / 1856م"³.

تحليل مضمون فرمان الإصلاحات

أكد هكذا فرمان الإصلاحات وعود خط شريف كلخانة السابقة، لكنه تجاوز خط كلخانة بعدة طرق، لا سيما من خلال التأكيد على المساواة بين جميع رعايا السلطان مهما كانت طوائفهم كما قدم فرمان الإصلاحات ما لم يقدمه خط كلخانة وهو المبدأ التمثيلي، كان ضغط القوى الأوروبية حلفاء الدولة العثمانية في انتصارها على روسيا في حرب القرم مسؤولاً بلا شك عن ذلك، لكن معظم الشروط كانت على أي حال متفقة مع أفكار عالي باشا وفؤاد باشا اللذين شارك اللورد ستراتفورد في كتابة فرمان كما سبق وأن رأينا.

تم ذكر المبدأ التمثيلي في فرمان الإصلاحات في ثلاثة مواضع مختلفة على مختلف الوحدات السياسية العثمانية: أولها: تعلق بإدخال تعديل داخل الملل والطوائف غير المسلمة بحيث يصبح للشخص العادي داخلها صوتاً في التحكم بشؤونه الزمنية؛ جاء في فرمان انتخاب: "مجلس مركب من أعضاء ينتخبهم رُهبان وعوام كل طائفة لإدارة مصالح طوائف المسيحيين والتبعية العَيْر مسلمة"⁴ ثانيها: حين تحدث فرمان عن إعادة تنظيم مجالس الولايات القائمة للسماح باختيار عادل للمندوبين وضمن التصويت والتعبير الحر داخلها: "وتنتخب أعضاء المجالس المَوْجُودَة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة والمسيحية وغيرهما بِصُورَة صَحِيحَة، ولأجل التَّأمين على ظُهُور الآراء الحَقِيقِيَّة سيصير

1. المكان نفسه.

2. المرجع نفسه، ص 489.

3. المكان نفسه.

4. المرجع نفسه، ص 485.

التشبث في إصلاح الترتيبات التي تجرّي في حق تشكيل هذه المجالس لاستحصال دولتنا العلية على الأسباب والوسائل المؤثرة للوقوف على الحقيقة وملاحظة صحة نتيجة الآراء والقرارات التي تُعطى عن ذلك¹، وثالث المواضع التي ذكر فيها مبدأ التمثيل تعلق بوجود إضافة ممثلين عن الملل غير المسلم إلى مجلس ولاية الأحكام العلية عند مناقشة القضايا التي تؤثر على مصالح جميع العثمانيين "يصير جلب مأمور من المأمورين الذين سيعينون من طرفنا الملوكي مع رؤساء كل طائفة لأجل أن يتواجدوا بالمجلس الأعلى للمذاكرة في المواد المختصة بعموم تبعة سلطنتنا السنّية"².

ارتكز الأساس الإيديولوجي الذي قام عليه فرمان الإصلاحات على إيجاد ولاء قائم على الجنسية العثمانية (Osmanlılık) بدل الولاء القائم على الدين³، مما يدعم إقامة المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، ويسمح بإعادة تنظيم علاقات المجتمع في الدولة، وتعزيز انتماء الأفراد بصرف النظر عن مللهم وطوائفهم وعرقياهم إلى الوطن الواحد، يختلف مفهوم العثمانية بوضوح عن المفهوم الإسلامي الذي يجعل حقوق الفرد ومكانته وواجباته محدّدة بانتمائه الديني، هذا التصور الجديد كان غريباً ومدنيّاً في نهجه؛ حيث أن حقوق المواطن ومكانته نابعة من جنسيته في الدولة وولائه لحكومتها، كان من شأن هذا التصور حسب أصحابه أن يفتح الطريق نحو اندماج أفضل لغير المسلمين داخل الدولة العثمانية بشكل عام ليصبحوا أكثر فعالية في خدمة الدولة والدفاع عن مصالحها، إلى جانب القضاء على النزعة الانفصالية التي كانت تؤرّق السلطان ونخبته السياسية.

لفهم الطابع الخاص لهذه الجنسية العثمانية التي ملأت فراغاً قانونياً ودستورياً من الضروري مراجعة أصلها في خط شريف كلخانة؛ يشير هذا المرسوم إلى الرعايا العثمانيين بـ "تبعيّة دولتنا العلية"، مصطلح

1. المرجع نفسه، ص 487-488.

2. المرجع نفسه، ص 488.

3. نجد ذلك الأساس في مقدمة فرمان الإصلاحات حيث جاء نصاً: "وبما أن من أهم رغائبنا المجبولة على الشفقة تقدم الأسباب والوسائل الداخلية المستلزمة تزايد قوة سلطتنا العلية وعمار ممالكنا السنّية وحصول تمام سعادة أحوال كافة صنوف تبعة دولتنا العلية الملوكية المرتبطة بعضها ببعض بروابط الوطنية القلبية والمتساوية الماهية في نظر شفقتنا الملوكية". ينظر: المرجع نفسه، ص 484. ونجد ذلك الأساس مبثوثاً في كامل فرمان الإصلاحات.

على أنّ إيجاد أساس للانتماء الوطني بدل الانتماء الديني كانت بدايته قبل فرمان الإصلاحات؛ ففي سنة 1266هـ/1850م بدأ يعامل أعضاء الطوائف بالفعل كمواطنين عثمانيين، على الرغم من أن قانون الجنسية الرسمي لم يتم اعتماده حتى سنة 1286هـ/1869م، ففي الحقيقة لم يكن هذا القانون الذي يُشار إليه غالباً على أنه خلق وضعاً قانونياً جديداً ووحيداً للرعايا العثمانيين سوى مجرد تقنية أدت إلى مزيد من المصادقية وتوضيح مفهوم كان راسخاً بالفعل. ينظر:

Kermal H. Karpat: **Studies on ottoman social and political history: selected articles and essays**, Social, Economic and Political Studies of The Middle East and Asia (S.E.P.S.M.E.A.), Vol 81, Brill, Leiden, Boston, Koln, 2002, P639.

"تَبَعِيَّة" أو "تَبَعَة" أو "أَتْبَاع" يعني حرفياً "رعيّة أو تابع" والفاعل "الراعي أو المتبوع"، تقابلها في التركية اليوم المواطن (vatandaş) والمواطنة (vatandaşlık) ومع ذلك في أربعينيات القرن التاسع عشر كانت تلك المصطلحات تعني محاولة للتوفيق بين المفهوم العثماني للجنسية النابعة من تجربة الطوائف مع الفكرة الأوروبية للمواطنة، تم تكرار مصطلح "تَبَعِيَّة دولتنا العلية" ضمن خط شريف كلخانة مرة واحدة فقط بينما تمّ التعبير عنه في فرمان الإصلاحات مرات عدّة "تبعه سلطنتنا السنيّة" و "تبعه دولتنا العلية" "عُموم تبعتنا الملوكية الجميلة" و "كافة التبعة الملوكية" و "أرواح كافة التبعيّة الملوكية" وبأشكال مختلفة بعد أن اكتسب مفهوم المواطنة قبولاً أوسع في نظر الحكومة¹.

نعلم أن فرمان كان يستهدف بشكل خاص الطوائف العثمانية غير المسلمة، لذا أدت الإصلاحات إلى إعادة تنظيم الطائفة داخلياً²، لكنها في الوقت نفسه اعترفت ضمناً بأن الحكومة هي مصدر حقوقها وحرّياتها، ومنح السلطان رسمياً الطائفة بموجب فرمان الإصلاحات جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لهم من قِبَل أسلافه³، ومع ذلك طلب السلطان أيضاً أن تعمل سائر الطوائف على النظر في حقوقها وامتيازاتها في مدة معينة وتقوم "بعرضها إلى جانب بابنا العالي"⁴ لفحص حصاناتهم وامتيازاتهم الحالية "تحت ملاحظة الباب العالي"⁵، و"يصير توثيق الرخصة التي أعطيت لأساقفة الطائفة المسيحية من قبل ساكن الجنان السلطان أبي الفتح محمد خان الثاني وخلفائه العظام وما صار تأمينهم عليه من قبلنا بحسب الأحوال والظروف الجديدة"⁶، وقد أصدر المرسوم تعليمات أخرى بشأن انتخاب رجال الدين ومكافأتهم على شكل أجور وبناء وإصلاح المؤسسات الدينية ثم أعلن المساواة بين الأعراف والأديان⁷.

تعتبر الخدمة العسكرية من الإشكالات الكبيرة أمام فكرة المواطنة العثمانية التي تعني نظرياً

¹ - Ibid, P640.

² . تضمنت إصلاحات سنة 1856م بنداً يقضي بإعادة تنظيم الملل غير المسلم (وهي الطوائف: الروم الأرثوذكس، الرسولية الأرمنية اليهود) تحت ملاحظة الباب العالي، بحلول منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر كان لكل من الطوائف غير المسلمة الرئيسية ميثاقاً تبيّن ديمقراطية مؤسساتها بينما حدّ نظرياً من امتيازات رجال الدين. ينظر:

Richard Edward Antaramian: **In Subversive Service of the Sublime State: Armenians and Ottoman State Power, 1844-1896**, A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy (History), The University of Michigan, USA, 2014, P12.

³ - Kermal H. Karpat: Oo.cit, P642.

⁴ . المحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا: المرجع السابق، ص485.

⁵ . المكان نفسه.

⁶ . المكان نفسه.

⁷ - Kermal H. Karpat: Oo.cit, P642.

أنّ لجميع المواطنين حق وواجب تجاه الخدمة العسكرية، لكن في الواقع لم تفرض الإدارة العثمانية هذه القضية، كما لم يطلبها غير المسلمين، اتفق الجانبان على مواصلة دفع ضريبة الرأس (الجزية) مقابل الخدمة العسكرية ولكن تحت اسم جديد، علاوة على ذلك فإنه مع اختفاء فوج القوزاق الفرسان والمرتزة الألبان المسيحيين والبحارة اليونانيين من صفوف الجيش والبحرية في سبعينيات القرن التاسع عشر، كان الجيش العثماني مكوّنًا فقط من رتب عسكرية إسلامية، الاستثناء الوحيد كان مهنة الطب التي كانت تقليدياً مهنة غير المسلمين في الدولة العثمانية¹.

يذكر أنّه بالنسبة للمحاكم المختلطة حيث كان على الشهود من جميع المذاهب أن يكونوا على قدم المساواة وأن يؤدوا اليمين حسب معتقداتهم الخاصة، فقد استهدفت تلك المحاكم إزالة حواجز نظام الملل واستبداله بنظام الجنسية المشتركة لجميع شعوب الدولة العثمانية؛ طوال فرمان الإصلاحات تتكرر عبارات بريئة عن التمييز الديني؛ "عُموم تبعتنا الملوكية الجميلة"، "كأفّة تبعة سلطنتنا السنيّة" و"كأفّة صنوف تبعة دولتنا العلية"، في ديباجة فرمان تم تقديم مفهوم الوطنية أو المواطنة باعتباره الرابطة بين جميع رعايا الدولة لقد كانت خطوة نحو مفهوم الجنسية العلماني الغربي²، ومع ذلك كان هناك ازدواجية ضمنية في حقيقة أن فرمان الإصلاحات الذي أكّد على مبدأ المساواة دون تمييز ديني، كان يكرّس جزئياً بتعداده لحقوق الطوائف المسيحية وغيرها من المجتمعات غير المسلمة، الحفاظ على نظام

¹ - Mesut Uyar and Edward J. Erickson: Op.cit, P180.

² . مصطلح مواطن (vatandaş) المستخدم للتعبير عن الوطنية الفرنسية كان شكلاً جديداً، كلمة وطن (vatan) والتي تعني حتى القرن التاسع عشر "مكان الميلاد أو الإقامة" أصبحت تعادل في منتصف القرن التاسع عشر كلمة الوطن (Patrie) الفرنسية سواء في الاستخدام الشعبي أو الرسمي. استخدم رشيد باشا كلمة وطن (vatan) في رسالة له سنة 1856م ينظر:

Cevdet Paşa: **Tezakir 1--12**, Yayınlayan: Mehmet Cavid Baysun, II. Seri - No.22, Türk Tarih Kurumu Yayınlarından, Türk Tarih Kurumu Basımevi-Ankara, 1953, P75 .

ينظر: التعليقات على تطور الكلمة عند برنارد لويس "تأثير الثورة الفرنسية على تركيا"

Bernard Lewis: " **The Impact of the French Revolution on Turkey: Some Notes on the Transmission of Ideas** ", N1, Vol1, Journal of World History, London, juillet 1953, p107-108

راجع سيلفيا ج. حايم "الإسلام ونظرية القومية العربية":

Sylvia G. Haim: "**Islam and the Theory of Arab Nationalism**", New Series, Vol4, Issue 2/3, Die Welt des Islams, Brill, Leiden, Netherlands, 1955, P132-135

لمعرفة تطور المصطلح باللغة العربية. جاء مصطلح (Vatandas) ليتم استخدامه بمعنى "المواطن" ومصطلح (vatanperverlik) بمعنى "الوطنية"، كما هو موضح على سبيل المثال في الترجمة التركية للمصطلحات الفرنسية في رسالة مصطفى فاضل باشا إلى السلطان سنة 1867م. استمر مصطلح (Vatan) في الاستخدام بمعنى "الوطن" لكنه يستمد معظم محتواه العاطفي من الأسلوب الذي استخدمه العثمانيون الحديثون، لا سيما نامق كمال في مسرحيته سنة 1873م والتي تسمى أيضاً (Vatan).

ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, 56.

الملل على الرغم من إرادة إصلاحه، فالحواجز بين مختلف الملل كانت غير واضحة لكنها كانت لا تزال موجودة، المساواة الكاملة والجنسية العثمانية المتساوية لم تتحقق بعد حتى من الناحية النظرية¹.

تجدر الإشارة إلى أنّ فرمان الإصلاحات ألغى الجزية² وغيرها من الأمور التي من شأنها تكريس التمييز الديني كالألقاب " وتمحى وتزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد تبعة سلطنتنا السنّية ومتمتع قانوننا استعمال كل وصف وتعريف يمس الشرف أو يستوجب العار بين أفراد الناس ورجال الحكومة"³ وأثبت بشكل أكثر تحديدا ودقة من ذي قبل المساواة الكاملة بين جميع رعايا الدولة العثمانية بغض النظر عن مللهم وأعراقهم.

يقارن رودريك دافيسون بين خط كلخانة وفرمان الإصلاحات فقال: "على الرغم من أن فرمان الإصلاحات كان نتيجة لإملاءات غربية على عكس خط شريف كلخانة إلا أن الوثيقتين كانتا متشابهتين في كثير من النواحي؛ تم إصدار كل منهما عندما انخرطت الإمبراطورية العثمانية بعمق في التعقيدات الدولية، واستهدف كل منهما الرأي العام الأوروبي إلى جانب الإصلاح الداخلي تم إلقاء كل منهما في أكثر أشكال المراسيم السلطانية جديدة، وقدم كل منهما وعوداً يتطلب تنفيذها لوائح أكثر تحديداً، وتم تكرار ضمانات سنة 1255هـ/1839م وتوسيع نطاقها في مرسوم سنة 1272هـ/1856م"⁴.

نجد مع ذلك أيضا اختلافات كبيرة؛ كان مرسوم سنة 1272هـ/1856م أكثر دقة من سابقه في تعداد التغييرات الواجب إجراؤها؛ لقد بدأ بتأكيد وعود مرسوم 1255هـ/1839م ولكنه تجاوز ذلك بكثير، ولم يكن فرمان الإصلاحات - بخلاف مرسوم 1255هـ/1839م - يحمل ازدواجية في الخطاب: صحيح أنّ لهجته ولغته لم تكن أكثر حداثة وغربية، إلى درجة الوضوح والإيجاز غير العادي بالنسبة للوثائق العثمانية في ذلك العهد، ولكنها لم تتضمن أي ذكر للشريعة أو القرآن أو الأعراف القديمة وأمجاد الإمبراطورية⁵، نفسيا كان هذا أمرا خطيرا، لكن المرسوم برّمته يتطلع

¹ - Loc.cit.

² . جاء في فرمان ما نصه: " ولكون التكاليف والحزج الموزع على كافة تبعة سلطنتنا السنّية لا ينظر فيه إلى أجناسهم ومذاهبهم بل جاري تحصيله بصفة واحدة فيلزم المذاكرة في التدابير السريعة لإصلاح سوء الاستعمال الواقع في أخذ واستيفاء هذه التكاليف وبالأخص العشور " ينظر: المحامي، محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا: المرجع السابق، ص488.

³ . المرجع نفسه، ص486.

⁴ - Roderic H. Davison: **Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876**, Op.cit, P54-55.

⁵ - Ibid, P55.

إلى المستقبل وليس إلى الماضي، إذ أنّ الرّؤية الإصلاحية كانت تعطي للمجتمع العثماني وفق نظام التقطير؛ جرعة فجرعة حتى يستسيغها.

نلاحظ أن بعض الوعود الواردة في فرمان الإصلاحات قد أطلق من قبل؛ فمرة أخرى تم الوعد بإلغاء الجزية وبالمثل إلغاء الرشوة، وتم التأكيد مجدداً على المسؤولية المتساوية للمسلمين وغير المسلمين في الخدمة العسكرية، وتمّ التأكيد على القرار الوارد سنة 1260هـ/1844م بأن الرّدة عن الإسلام لن يعاقب عليها بالإعدام¹، لكن الأحكام الأخرى الواردة في فرمان الإصلاحات تتجاوز وعود خط شريف كلخانة؛ مثل التقيد الصارم بالميزانيات السنوية، وإنشاء البنوك وتوظيف رأس المال الأوروبي والمهارات اللازمة للتحسين الاقتصادي، وتدوين القانون الجنائي والتجاري وإصلاح نظام السجون وإنشاء محاكم مختلطة لرعاية نسبة أكبر من القضايا المتعلقة بالمسلمين وغير المسلمين².

تم تحفيز عملية تبسيط الأسلوب بموجب قانون صدر في 17 ربيع الأول 1272هـ/26 نوفمبر 1855م والذي جعل تبسيط الأسلوب أمراً ملزماً، وبدأ تطبيقه بالفعل في المراسيم الإدارية: "مستقبلاً لن تتم كتابة قوانين أو مراسيم بعبارات غامضة أو مبهمّة، ويجب كتابتها وشرحها بعبارات واضحة وسهلة وموجزة" كتب فرمان الإصلاحات بأسلوب هو الأبسط حتى وقته. كان ظهور أول قواعد اللغة التركية الحديثة في الدولة علامة فارقة؛ تم نشرها سنة 1267هـ/1851م من قبل أحمد جودت باشا وفؤاد باشا، مع ذلك كانت اللغة لا تزال تسمى اللغة "العثمانية"³.

ردود الأفعال الداخلية والخارجية حول فرمان الإصلاحات

كان من الطبيعي عند صدور فرمان بهذا الحجم أن نتوقع ردود أفعال معارضة ومستنكرة إلى جانب ردود الأفعال المؤيدة؛ ولو بدأنا بالأولى حيث يشير جودت باشا بعد إعلان هذا المرسوم

1. فيما تعلق بالرّدة لم يذهب نص فرمان إلى أكثر من تأكيد قوله تعالى: { لا إكراه في الدين } جاء في فرمان نصاً: "وبما ان عوائد كل دين ومذهب موجود بممالكنا المحروسة جارية بالحريّة فلا يمنع أي شخص من تبعتنا الملوكية من اجراء رسوم الدين المتمسك به ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه". ينظر: محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق، ص486.

2. هذه الإصلاحات من بين أمور أخرى كانت لصالح جميع رعايا السلطان بغض النظر عن دينهم أو طبقتهم. وعلى الرغم من أن هذا التأكيد لمبدأ المساواة قد ردد سابقاً من قبل خط شريف كلخانة، إلا أن المساواة حظيت بتأكيد أكبر سنة 1272هـ/1856م لقد تم توضيح الآثار المترتبة على العثمانية (Osmanlılık) بشيء من التفصيل: يجب أن يكون المسلمون وغير المسلمين متساوون من حيث الخدمة العسكرية وإقامة العدل والضرائب والقبول في المدارس المدنية والعسكرية وفي الوظائف العامة وفي الاحترام الاجتماعي؛ يحظر بند خاص التشهير باستخدام أوصاف وألقاب مهينة. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, 55.

3 - Ibid, P178.

إلى موجة تدمر كبيرة في صفوف المسلمين إذ قال: "بدأ العديد من المسلمين يتدمرون: لقد فقدنا اليوم حقوقنا القومية المقدسة التي اكتسبها أسلافنا بدمائهم. وبينما كانت الأمة الإسلامية هي الأمة الحاكمة فهي الآن محرومة من هذا الحق المقدس، إنه يوم الدموع والحداد بالنسبة لأهل الإسلام"¹، وهو رد فعل طبيعي حين تشعر الأغلبية أنّها متساوية مع الأقلية².

استاء المسلمون بشكل خاص بالعاصمة إستانبول من الضغوط الأجنبية التي أدت إلى صدور فرمان الإصلاحات؛ احتجّ شيخ الإسلام مشرب زاده محمد عارف أفندي³ بأنه ليس فقط الأسطولان الإنجليزي والفرنسي اللذان كانا على مقربة من إستانبول، بل وأيضاً الجيوش البرية لكلا البلدين في إشارة للضغط الأجنبي، وانتقد رشيد باشا المرسوم علانية واصفا إياه بفرمان التنازلات (Tâvizler Ferman)؛ في مذكرة طويلة⁴.

¹ - Şerif Mardin: Op.cit, P17-18.

² . اعتبرت العديد من النخب السياسية والاجتماعية فرمان الإصلاحات بمثابة تهديد؛ وبحسبهم هدد فرمان الهيمنة الإسلامية على الطوائف الدينية الأخرى في الدولة، وحاب الجماعات المسيحية من خلال منحها حقوقاً وامتيازات سياسية محروم منها بعض المسلمين، اعتبرت النخب المسلمة هذا فرمان مؤامرة من قِبَل أوروبا من أجل الحصول على مساعدة أوروبية وخاصة بريطانيا العظمى. ينظر:

Kevin Goodwin: **The Tanzimat and the Problem of Political Authority in the Ottoman Empire: 1839-1876**, History Honors Thesis, Rhode Island College (RIC), USA, May, 2006, P28.

³ - عارف أفندي (1791-1858): تولى التدريس والقضاء، وألف كتابه في الفقه المسمى (Câmiu'l-icâreteyn) وقدمه لمحمود الثاني، فعين قاضياً لمكة المكرمة، ونظراً لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية عين مرتين في منصب أمين الفتوى، عين سنة 1846م عضواً في مجلس ولاية الأحكام العرفية، ثم عين في مارس 1854م شيخاً للإسلام وشغل المنصب حتى وفاته. ينظر

Mehmet İpşirli : **ÂRİF EFENDİ, Meşrepzâde (1791-1858) Osmanlı şeyhülislâmı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 3, İstanbul, 1991, sayfa 365.

⁴ . ملخص ما جاء في مذكرته هو أن عالي باشا وفؤاد باشا كانا يسيران بسرعة كبيرة جداً في منح امتيازات سياسية للمسيحيين موضحاً أنه لم يعد بالإمكان فعلاً معاملة المسيحيين كما كانوا قبل مائة أو عشرين عاماً خلت، ولكن أي تغيير يجب أن يكون تدريجياً ودون تدخل أجنبي، وقال إن المساواة الكاملة الموعودة في فرمان خط همايوني ستمنح الإمبراطورية العثمانية لوئاً مختلفاً تماماً عن ألوان القرون الستة الماضية مما يلغي التمييز بين الملّة الحاكمة والمحكومة. عاتة المسلمين سيعارضون ذلك، يجب أن تهتأ العقول لذلك. تنبأ رشيد باشا باضطرابات في مختلف أنحاء الإمبراطورية. كما عارض بشدة الطريقة التي صيغ بها فرمان وعلى ذكره في معاهدة باريس. أثرت هذه الإشكالات بشكل خطير على شرف واستقلال وسلامة الدولة والسلطان. وعاب رشيد باشا أنّ الوزراء تصرّفوا على عجل ولم يستدعوا الجمعية العامة للتشاور. نص المذكرة الطويلة لرشيد باشا نجدها ضمن كتاب جودت باشا: التذكرة ينظر: Cevdet Paşa: Op.cit, P76-82.

التدخل الأجنبي كان مرفوضاً على ما يبدو حتى من العثمانيين غير المسلمين إذ نُقِلَ عن أحد السكان الأرمن المقيمين بإستانبول سنة 1857م قوله: "بعد أن جعل الأجانب الحكومة التركية كريهة يحاولون جعلها جديرة بالازدراء". ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P72.

يذكر المؤرخون حادثة تعبر عن التشاؤم من فرمان الإصلاحات؛ فقد تمّ التنبؤ بالعواقب الوخيمة على العائلة العثمانية الحاكمة والعثمانيين في حدث رمزي حدث في مأدبة ضخمة أقامها السلطان عبد المجيد الأوّل للاحتفال بمعاهدة باريس؛ فقد وصف أحد الضيوف الحدث قائلاً: "بعد دقيقة أو اثنين من خروج السلطان أذهلنا صفيقان مرعبان للرد، تبعهما عاصفة من الرياح الباردة، وبدا كما لو أنّ المبنى بأكمله يهتز، وفي لحظة خرج الغاز وكنا في ظلام دامس، الفرقة الموسيقية سقطت آلتها مع الصدام وهرب أعضاؤها، ساد الصمت لبضعة لحظات، ثم سمع صوتاً رقيق وحاد باللغة الفرنسية "إنه يريد ولكن خط اليد على الحائط" وعبارة: (Mene, Tekel, Upharsin)¹ تجعل من هذا عيداً ثانياً لبيلاشازار (Belshazzar)².

قام عدد من الشباب الأفنديين المتأثرين قليلاً بالغرب باستقبال مرسوم خط همايوني بابتهاج وأفيد أن البعض يبتهجون بذلك بسبب أنّ الاختلاط المتزايد بين المسلمين وغير المسلمين في المجتمع العثماني سوف يزيد في القيمة المالية لعقاراتهم!! لكنّ هؤلاء كانوا استثناء؛ استاء العثمانيون المؤيدون للإصلاح ليس فقط من الإملاءات الخارجية ولكن من الطبيعة المتطرفة لفرمان الإصلاحات، والتي من شأنها بالتأكيد أن تثير المعارضة؛ صرّح أحدهم: "ليس لدي صبر على واضعي الميثاق، لقد كنا نسير بسرعة في إصلاحاتنا، والآن تأتي هذه الخطوة الخاطئة السخيفة التي ربما تفسد جهد عشرين عاماً من إصلاح المصلحين... الأشخاص الذين أرسلوها إلينا من باريس لا يعرفون شيئاً عن قوانيننا"، ونفس الاعتراض كان بالأناضول؛ في مدينة مرعش [مدينة بين قيليقية والأناضول جنوب تركيا حالياً] وفي بعض المراكز في سوريا كانت هناك ثورات³.

بالنسبة للرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية كانت ردود الفعل على خط همايوني لا تزال مشوشة

1. هي كلمات مكتوبة بخط يد غامض على جدار قصر بيلشازار (Belshazzar) (ت 539 ق م) ولي عرش بابل وابن نابونيدوس آخر ملوك بابل، وفسرها دانيال [أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المسيحي] كما تنبأ بهلاك الملك وسلالته. وصفت الحادثة على النحو التالي: في أحد الأيام وبينما كان الملك بيلشازار يقيم مأدبة مع أمراءه ويشرب الخمر من الأواني الذهبية لمعبد (Yhwh)، شوهدت يد رجل تكتب على الحائط بعض الكلمات الغامضة. تملكه الخوف وأمر المنجمين بتفسير الكتابة الغامضة؛ لكنهم لم يتمكنوا من قراءتها. استدعي دانيال إلى القصر الملكي. ووعد الملك بجائزة عظيمة إذا فك شفرة النقش. قرأه دانيال: مين ملكي، تكبل، وتوهير ("Mene, mene, tekel, upharsin") وأوضح أنّ ذلك يعني أن الله قد كتب نهاية مملكة بيلشازار وأنّ ملكه ومملكته ستؤول إلى الميديين والفرس. ينظر:

Isidore Singer, M. Seligsohn: **MENE, MENE, TEKEL, UPHARSIN (מנא מנא תקל)**

, Jewish Encyclopedia, The unedited full-text of the 1906 Jewish Encyclopedia,

<http://www.jewishencyclopedia.com/articles/10678-mene-mene-tek-el-upharsin> .

² - Roderic H. Davison: Op.cit, P5.

³ - Ibid, P58.

على الرغم من أنها في مجملها أكثر إيجابية. نظرة المسيحيين للفرمان تعتمد على وضعهم الخاص؛ كان البلغاريون الأكثر حماسة من بين المسيحيين الذين رأوا في المرسوم فرصة للتخلص من نير التسلسل الهرمي البغيض للأرثوذكس اليونانيين؛ فقد فرض المرسوم إعادة تنظيم الملل وحل محل الإيرادات الكنسية المرنة مرتبات ثابتة لرجال الدين¹.

كانت هناك موافقة على المرسوم بين المسيحيين العاديين من كل الطوائف لاحتمال أن يكون للشخص العادي صوت أكبر في السيطرة على شؤون الملة، وكذلك الحماس العام لمعظم الأحكام المتعلقة بمبدأ المساواة، لكنهم استاءوا من احتمال المساواة في الخدمة العسكرية، وكان من الغباء أن نفترض أن هذا العبء الذي كرهه المسلمون وتجنّبوه قدر الإمكان كان يمكن أن يقبله المسيحيون إن ما تم تجربته أثناء حرب القرم قد تحول بشكل سيء إلى درجة أن خط همايوني نفسه كان عليه الاعتراف بمبدأ دفع مال مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية، الذي أصبح الآن نظرياً امتيازاً متساوياً لكل من المسلمين والمسيحيين، وقد عارض كبار رجال الدين المسيحيين من الرعايا العثمانيين عمومًا فرمان الإصلاحات لأنه ضرب قوتهم التي كانوا يتمتعون بها على مللهم خاصة قدرتهم على ابتزاز رعاياهم الروحيين².

استمرت في المحافظات الفجوة بين كبار ملاك الأراضي والفلاحين، ولم يلعب الوجهاء والأعيان في المحافظات دور الطبقة الوسطى الريفية التقدمية، كما فعلت طبقة ملاك الأراضي الصغيرة في بعض المجتمعات الأخرى، لكنهم قاوموا الإصلاح لأنهم استفادوا من عدم التنظيم وعدم الكفاءة في الحكومة المركزية للحفاظ على سيطرتهم السياسية والمالية، ومن بين الوجهاء والأعيان نجد المسيحيين والمسلمين وكلاهما اضطهد الفلاحين³، هذه الثغرات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع العثماني إلى جانب

¹ - Loc.cit.

² . خوفاً من فقدان أسبقيتهم بين غير المسلمين نفر أصحاب التسلسل الهرمي اليوناني ليس فقط من انتهاك الامتيازات التقليدية بل أيضاً كرهوا التركيز العام على مبدأ المساواة؛ قال بعض اليونانيين: " الدولة تساوي بيننا وبين اليهود!!! لقد كنا راضين عن تفوق المسلمين" من المحتمل جداً أن يكون المطران اليوناني رئيس أساقفة إزميت الذي نُسب إليه قوله عندما أعيد فرمان الإصلاحات إلى الحقيبة الحريية الحمراء بعد القراءة الرسمية بالباب العالي: "أسأل الله ألا يتم إخراجها من هذه الحقيبة مرة أخرى". كان لدى اليونانيين سبب وجيه للقلق بشأن المرسوم، سيما فيما تعلق منه بالمساواة، مع ذلك نجد أنّ أسبقية رجال الدين اليونانيين على الملل الأخرى غير المسلمة كانت محفوظة إلى حد ما طوال عهد التنظيمات. ينظر: Ibid, P58-59.

³ . على الرغم من أن خط همايوني قد وعد بإصلاح نظام مجالس المحافظات، بالإضافة إلى تدابير تحسين المواصلات والزراعة ونظام تحصيل الضرائب، فإنه لم يتم تنفيذ أي شيء في ذلك الاتجاه في سنة 1859م. بدلاً من ذلك أصبح من الواضح أن السخط والاضطراب في مختلف مقاطعات الدولة العثمانية لم يتناقص بأي شكل من الأشكال. شهدت السنة السابقة تمرّداً في جزيرة كريت بسبب النظام الضريبي وانتفاضة الفلاحين المسيحيين في البوسنة ضد اضطهاد الملوك المسلمين، وتجدد =

الاختلافات الدينية واللغوية شكّلت عقبات خطيرة أمام أي برنامج إصلاحي يهدف إلى المساواة في الحقوق، وإلى تحقيق الأمن على الحياة والممتلكات والشرف، وإلى إرساء المؤسسات السياسية النيابية¹.

قبل التطرق إلى ردود الأفعال الأجنبية على فرمان الإصلاحات وجب الحديث عن واقعة شكّلت معارضة راديكالية سنة 1275هـ/1859م وعن جماعة ظهرت سنة 1282هـ/1865م ومثّلت بدايات أول رأي عام عثماني حديث؛ أمّا الواقعة فهي واقعة كوليلي (Kuleli Vak'ası)²؛ ففي الوقت الذي اكتسب فيه الدافع لاستيراد الأفكار الأوروبية وتوسيع نطاق المساواة العثمانية الفعالة زخمًا كبيرًا خلال الصدارة الكبرى لعالي باشا التي امتدت من جمادى الآخرة 1274 هـ/يناير 1858م إلى ربيع الأول 1276 هـ/أكتوبر 1859م بدأت معارضة مهمة على الرغم من كونها غير مكتملة بالتطوّر

تحريض البلغاريين لأساقفتهم ليحلّوا محلّ هيمنة التسلسل الهرمي اليوناني، وهجوم من الجبل الأسود على حدود البوسنة والهرسك. في بعض الأماكن اشتكى المسيحيون من المسلمين، وفي بعضها الآخر اشتكى المسلمون من المسيحيين، قتل حشد من المتعصبين في جدة القنصلين الفرنسي والإنجليزي القبائل العربية والكردية واليزيدية دمرت منطقة الموصل سنة 1859م. كان لهذه المشاكل الإقليمية العديد من العواقب المهمة. ينظر: Ibid, P104.

¹ - Ibid, P64.

². واقعة كوليلي (Kuleli Vak'ası) هي أول محاولة قتل سياسية معروفة في حقبة ما بعد زوال الإنكشارية سنة 1826م، وكان هدفها التخلّص من السلطان عبد المجيد الأول أو حتى قتله، وتنصيب عبد العزيز على العرش، ولم يكن الأخير على علم بالمؤامرة وقعت الواقعة سنة 1859م، وتمثّلت الروح الملهمة لهذه المؤامرة في شخص الشيخ أحمد (Şeyh Ahmed) وهو مدرس بمدرسة ملحقة بمسجد السلطان بايزيد الذي اعتبر مراسيم الإصلاح لسنتي 1839م و1856م مخالفة للشريعة الإسلامية. في 14 سبتمبر اجتمع العديد من أعضاء المؤامرة السريّة بمسجد علع علي باشا بمنطقة توبخانا (Tophane) بجي بيوغلو (Beyoğlu) بإستانبول. كان الهدف من هذا الاجتماع هو تقديم الأعضاء الحاليين إلى عضو معين حديثًا وهو قائد اللواء حسن باشا قائد البوسفور. لم يكن حسن باشا في الواقع يعترم المشاركة في المؤامرة. بعد هذا الاجتماع تمّت خيانة المتآمرين من طرف أحدهم، فتمّ اعتقال جميع أعضاء هذه المؤامرة، وتم استجواب المشتبه بهم أولاً في وزارة الحربية، ثم نُقلوا إلى الثكنات العسكرية في كوليلي (Kuleli) على الجانب الآسيوي من مضيق البوسفور لمزيد من الاستجواب. لهذا السبب أطلق على الواقعة اسم واقعة كوليلي (Kuleli Vak'ası). لا يعرف بالضبط عدد الأشخاص الذين تم اعتقالهم؛ وفقًا لصحيفة التايمز البريطانية كان هناك ما يقرب من 200 شخص، ولكن وفقًا لأحمد جودت باشا (رجل دولة وكتّاب وقائع) كان عددهم 300. ويبدو أن السلطات قد أطلقت سراح الكثير من الأشخاص المعتقلين بعد استجوابهم الأول. بعد خمسة أو ستة أيام فقط من الاعتقالات كتبت الصحف العثمانية وصحيفة القسطنطينية (Journal de Constantinople) بتاريخ 21 سبتمبر 1859م وجريدة الحوادث على وجه الخصوص بتاريخ 22 سبتمبر 1859م أنّه لم يتم القبض إلا على حوالي أربعين شخصًا، معظمهم عسكريون أو علماء 14 شخص منهم من الطريقة البكتاشية. حول هذه الواقعة ينظر:

Burak Onaran: "How to Kill an Ottoman Sultan: The Regicide plans of the Kuleli Incident (1859)", AHA (American Historical Association), The 123rd Annual Meeting, New York, USA, January 2009.

على أساس الاستياء الواسع النطاق من الحكومة والإصلاحات، استهدفت واقعة كوليلي عزل السلطان عبد المجيد الأوّل أو حتى قتله وتنصيب عبد العزيز على العرش.

غالبًا ما تم الترحيب بالمؤامرة باعتبارها أول ظهور في التاريخ العثماني يهدف إلى تحقيق حكومة دستورية¹، وعلى الرغم من أن بعض المتآمرين ربما تأثروا بالأفكار الغربية إلا أنّ معظمهم لم يتأثروا بها² وُئدت المؤامرة في مهدها وأشرفت لجنة حكومية عالية المستوى في التحقيق يرأسها عالي باشا بنفسه وشارك في التحقيق الصدر الأعظم المستقبلي والسكرتير الثاني للمجلس الأعلى للأحكام العدلية مدحت باشا³، حُكم على المتآمرين بعقوبات مختلفة وبالأخص السجن أو النفي إلى جانب بعض أحكام الإعدام، لم تكن هذه مثالاً على التمرد على الحكومة البرلمانية أو الدستورية لكنها كانت مثالاً على مؤامرة للإطاحة بالحكومة، واعتمدت على دعم شعبي واسع النطاق إلى حد ما، على هذا النحو كانت بمثابة سابقة للخطة العثمانية الفاشلة الجديدة لسنة 1284هـ/1867م، وللانقلاب الناجح سنة 1293هـ/1876م⁴.

على الرغم من أن المتآمرين لم يتمكنوا من خلع عبد المجيد، إلا أنه تم تحقيق جزء من أهدافهم بعد شهر من واقعة كوليلي عندما تم استبدال الصدر الأعظم عالي باشا بشخصية أكثر محافظة هو محمد أمين باشا القبرصي، وعلى الرغم من معرفته الكبيرة بأوروبا وعلاقاته المبكرة مع مصطفى رشيد باشا وتعاونه اللاحق مع عالي باشا وفؤاد باشا، لم يتطور محمد أمين باشا القبرصي ليصبح غربيّ الهوى⁵ بل ظلّ رجلاً شقيقاً محافظاً لأبعد الحدود.

كان الدافع الأساسي للمتآمرين على الحقيقة هو معارضة التغريب، واستياءهم العام من الحكومة كان له عدّة مبررات؛ الإنفاق المفرط للسلطان عبد المجيد، تأخر سداد رواتب الجيش الوضع الاقتصادي والمالي الصعب للدولة، لكن كل ذلك تبلور كدفاع عن الشريعة الإسلامية؛ من حيث الاستياء من مراسيم الحكومة الرامية للمساواة والامتيازات المختلفة الممنوحة لغير المسلمين والغضب

1 . ذهب المؤرخ الروماني نيكولاس جورجا (Nicholas Jorga) في كتابه تاريخ الإمبراطورية العثمانية أنّ حادثة كوليلي كان الغرض منها التخلّص من السلطان الشاب - قارب عمره حينها 37 عامًا - المسرف على نفسه، وتحقيق حياة دستورية حقيقية مع البرلمان. ويدين بعض قادة هذه المؤامرة بجرائمهم لتدخل السفير الفرنسي، حيث تم سجنهم بصفتهم مجرد سجناء دولة. ينظر: Nicholas Jorga: **Geschichte des osmanischen Reiches**, Band V, Gotha F.A. Perthes, Deutschland, 1908-1913, Seite 517 .

2 - Roderic H. Davison: Op.cit, P100.

3 . ستعرف على شخصيته بشكل واسع في المبحث الأخير من هذا الفصل.

4 - Roderic H. Davison: Op.cit, P102.

5 - Ibid, P103-104.

من الضغوط الأوروبية التي كانت من وراء تلك المراسيم¹، وقد طبع جماعة من الإنسانيين الأجانب المتحمسين عدّة نسخ من فرمان خط همايوني ووزّعوها، مما دفع المسيحيين من السكان الأصليين إلى توقع أكثر مما كان ممكناً بالفعل².

بعد ذلك نتحدث عن الجماعة التي تشكلت سنة 1282هـ/1865م ومثلت بدايات أول رأي عام عثماني حديث إنهم العثمانيون الجدد، وكثيراً ما كان يُطلق على العثمانيين الجدد اسم "الأتراك الشباب"، وقد استخدم بعضهم أحياناً المصطلح الفرنسي "Jeune Turquie" لوصف مجموعتهم تأسس تنظيمهم سنة 1282هـ/1865م. تنبع أهمية العثمانيين من حقيقة كونهم يرمزون إلى التّخمر الفكري المتزايد في ذلك الوقت ويشكلون في الواقع بداية التحريض السياسي الحديث في الدولة العثمانية كانت الصحافة هي ميدان تحرّكهم³، وقدر كبير من إلهامهم مرده إلى معرفتهم باللغة الفرنسية وملاحظاتهم المباشرة عن أوروبا الغربية⁴.

نشأت معارضة العثمانيين الجدد لعالي باشا جزئياً من سيطرة الأخير على الحكومة وخضوعه للقوى الأجنبية؛ حيث أُجبر عالي باشا كوزير للخارجية أو الصدر الأعظم في مناسبات عديدة على الخضوع لضغط القوى العظمى والتعامل مع التمرد عن طريق التوفيق والقمع، كان الرابط الآخر

¹ . في مناقشة بمجلس العموم البريطاني بتاريخ 12 جويلية 1861م ذكر السيد ستراتفورد كانينج أنّ الأدميرال والسياسي البريطاني المحافظ (Charles Philip Yorke, 4th Earl of Hardwicke) كان لديه انطباع "بأن سياستنا تجاه تركيا كانت خاطئة تماماً لعدة سنوات وأنها أنتجت الشر بدلاً من الخير. إذا فهمته جيداً فقد كان لديه انطباع بأنه لم يكن هناك أدنى احتمال لرؤية أي تأثير على المصالح الكبرى لهذه الإمبراطورية وأنّ الإصلاحات التي تم تبنيها كانت مجرد إجراءات رسمية، ولن تنطوي على نتيجة عملية وبالتالي فإن الفرصة الوحيدة للنجاح كانت تحويل جميع السكان المسلمين إلى المسيحية." وفي معرض دفاعه عن الجهود المبذولة في الدولة العثمانية وضرورة مساعدتها قال: "إذا استمرت هذه الإمبراطورية في التدهور وبدون مساعدة من أوروبا فسوف تتحول إلى دولة تثير اهتمام وطموحات جيّرتها الأقوياء، وحينها سيكون من الضروري اتّخاذ بعض خطوات من أجل الحصول على تسوية جديدة لأوروبا... ومن أجل الحصول على التنفيذ الكامل للإصلاحات الموعودة... يجب أن أوضح أننا ملتزمون بالتزامات رسمية لدعم الإمبراطورية التركية ومساعدتها حتى النهاية. أوكد أن شرف إنجلترا في سياق ارتباطاتنا الحالية يلزمنا أن نستخدم أسلحتنا ونفق ثروتنا لمنع الإمبراطورية التركية من السقوط." ينظر:

Viscount Stratford de Redcliffe: **State of Turkey, Parliamentary Papers, HL Deb 12 July 1861, vol 164, P780, 784.** <https://api.parliament.uk/historic-hansard/lords/1861/jul/12/state-of-turkey-address-for-papers> .

² - Roderic H. Davison: Op.cit, P101.

³ . لم يكن العثمانيون الجدد حزباً سياسياً بالمعنى الحديث. ولكن في الأساس كان العثمانيون الجدد مجموعة من الأفراد المثقفين غير المهيكليين الذين لديهم بعض المواقف المشتركة تجاه وضع الدولة العثمانية في منتصف ستينيات القرن التاسع عشر. عارضوا القبضة المشددة على الإدارة العثمانية التي حافظ عليها كل من عالي باشا وفؤاد باشا، سيما عالي باشا، وكان هناك رابط آخر وأقوى فيما بينهم تمثّل في الاستياء الشديد من التدخل الأوروبي في شؤون الدولة.

⁴ - Roderic H. Davison: Op.cit, P173.

بين العثمانيين الجدد هو مشاركتهم في النهضة الأدبية لذلك العصر؛ الثورة ضد الكلاسيكية ومحاكاة بعض الأمثلة الغربية وصعود الصحافة المستقلة في الدولة العثمانية¹، إنهم نتاج الانتقال العثماني إلى النادي الأوروبي.

لعبت الصحافة بشكل عام دورا في التأثير على المجتمع العثماني سيما المستقلة منها وسيما في العاصمة إستانبول؛ كان هناك عدد كبير من الصحف باللغات الأجنبية أو لغات الأقليات وكانت هناك جريدتان فقط باللغة التركية وكلاهما مدعومتان حكوميا؛ تقويم الوقائع (Takvim-i vekayi) الجريدة الرسمية التي أنشأها محمود الثاني وجريدة الحوادث (Ceride-i havadis) شبه الرسمية، وأما المستقلة فكانت جريدة "ترجمان أحوال" (Tercümân-ı Ahvâl)² وجريدة "تصوير أفكار" (Tasvîr-i Efkâr)³.

على الرغم من محدودية الصحافة إلا أن عدد الصحف زاد بشكل ملحوظ خلال العقد اللاحق واتضح أن لديها قوة مؤثرة جدا؛ إذ منحت المعارضين للإدارة صوتا مسموعا، لم تكن هناك طبقة وسطى عثمانية مهمة تلعب الدور الذي تلعبه البرجوازية في الدول الغربية، وكان معظم المثقفين مرتبطين بالإدارة من خلال المناصب الرسمية بشكل أو بآخر، ومع ذلك وبوجود صوت مطبوع أصبح بالإمكان معارضة الإدارة وسوء سياساتها، وباتت للرأي العام بعد سنة 1282هـ/1865م أهمية متزايدة وأصبح تطوير هذا الرأي العام إحدى المهام الرئيسية للعثمانيين الجدد⁴.

¹ - Ibid, P175.

² . جريدة (Tercümân-ı Ahvâl) هي أول صحيفة خاصة تصدر في إستانبول بين 1277-1282 (1860-1866). وتعتبر بداية الصحافة العثمانية، كانت "ترجمان أحوال" الجهاز الإعلامي لأفكار العثمانيين الجدد، تم إغلاقها بعد فترة ست سنوات في 23 شوال 1282هـ/11 مارس 1866م. ينظر:

Hamza Cakir: **Tercümân-ı Ahvâl**, ترجمان احوال، **Osmanlı Devleti'nde bir Türk vatandaşının çıkardığı ilk özel Türkçe gazete**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 40, İstanbul, 2011, sayfa 495-497.

³ . هي رابع صحيفة تركية تُنشر في الدولة العثمانية بعد جريدة تقويم الوقائع (Takvîm-i Vekāyi) في 1 نوفمبر 1831م وجريدة الحوادث (Cerîde-i Havâdis) في 31 جويلية 1840م، وترجمان الأحوال (Tercümân-ı Ahvâl) في 22 أكتوبر 1860م. وقد أنشأها إبراهيم شناسي وأعطى لها الترخيص ليصدر عددها الأول في يوم الجمعة 27 جوان 1862م وقد تم دعم الجريدة ماديا من طرف عدة الأمير المصري مصطفى فاضل باشا، وحتى السلطان عبد العزيز والأمير مراد. ينظر:

Nesimi Yazıcı: **Tasvir-i Efkâr**, **Şinâsi (ö. 1871) tarafından yayımlanan ilk Türkçe gazetelerden**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 40, İstanbul, 2011, sayfa 138-139.

⁴ - Ibid, P187.

نأتي الآن إلى ردود الأفعال الأجنبية من فرمان الإصلاحات: بالنسبة لروسيا رأت في فرمان الإصلاحات تهديدا لنفوذها على الطوائف المسيحية باعتبار فرمان سيجعل الأخيرة أكثر استقلالية أو حتى مستقلة عن السيطرة العثمانية، ومع ذلك كان هذا الرأي مختلفاً جذرياً عن وجهة نظر بريطانيا التي كان لها أهدافها الخاصة؛ بالنسبة إلى ستراتفورد كانينج أراد أن تكون الطائفة مساوية "لشركة جماعية"، لم يكن كانينج معنيا بالدولة العثمانية على أساس اجتماعي أو ثقافي، بل كان اهتمامه الوحيد هو ضمان سلامة الدولة العثمانية وبقائها بعيداً عن أيدي الدول الأوروبية الأخرى سيما فرنسا وروسيا وهذا هو السبب في قلق النخب العثمانية التي رأت أنّ فرمان صنيعة بريطانية تحاول به إبقاء الدولة العثمانية على المسرح السياسي والحفاظ على توازن السلطة لمزيد من المصالح البريطانية في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي¹، بمعنى أنّ فرمان أصبح سلاحاً دبلوماسياً لخدمة المصالح البريطانية.

عبر رجل الدولة النمساوي الشهير كليمنس فون مترنيخ عن وجهة نظره حول التنظيمات وفرمانات الإصلاح بوضوح حين رأى أن الدولة العثمانية كانت تواجه خطر الخلط بين ما هو مفيد وما هو ضار، وما هو ممكن مع ما هو مستحيل، على اعتبار أنّ أي يتعارض مع البنية الأساسية للمجتمع لا بدّ أن يكلل بالفشل، وأنّ أحد مصادر متاعب الدولة العثمانية هو محاولة إجراء إصلاحات على الطريقة الأوروبية²، عبر ميتزنيخ رسمياً عن نفسه بقوله: "نوصي الباب العالي بالسياسة التالية: قم ببناء حكومتك على أساس الالتزام بالمؤسسات الدينية التي هي أساسيات وجودك... لا تدمر نظامك القديم من أجل بناء نظام لا يناسب عاداتك وأسلوب حياتك... لا تقتبس من أنظمة الحضارة الأوروبية التي لا تتفق مع أنظمتك، لأن الأنظمة الغربية تقوم على مبادئ مختلفة عن تلك التي تشكل قواعد الإمبراطورية، أسس الغرب هي قوانين مسيحية، ابقوا أتراكاً: لكن استشيروا الشريعة الإسلامية"³.

يقال إنه في يوم عاصف عبر نامق كمال مضيق البوسفور في قارب مع ضياء الدين ورشاد ونوري، كان رشاد خائفاً وسأله نامق كمال عما إذا كان خائفاً من الموت؟ فأجاب رشاد: "أنا لا أخاف من الموت لكن إذا غرق القارب، أخشى أن يفرق الرأي العام أيضاً". ينظر: Ibid, P196.

¹ - Kevin Goodwin: Op.cit, P28-29.

² . نقلا عن (Édouard Philippe Engelhardt) في كتابه: تركيا والتنظيمات، أو تاريخ الإصلاحات في الإمبراطورية العثمانية منذ سنة 1826م إلى وقتنا الراهن (La Turquie Et Le Tanzimât, Ou Histoire Des Réformes Dans L'empire Ottoman Depuis 1826 jusqu'à nos jours) قال مترنيخ: أبقوا أتراكاً، لا تأخذوا كنموذج الدول التي يعارض تشريعها الأساسي عادات الشرق. " Restez turcs, ne prenez point pour modèles les Etats dont la législation fondamentale est en opposition avec les mœurs de l'Orient". ينظر:

Édouard Philippe Engelhardt : **La Turquie Et Le Tanzimât, Ou Histoire Des Réformes Dans L'empire Ottoman Depuis 1826 jusqu'à nos jours**, Vol1, A. Cotillon et Cie, Paris, 1882, P21.

³ - Niyazi Berkes: Op.cit, P148-149.

اعتبرت البعثة [البروتستانتية] وأهل المسيحية الإنجيلية في العاصمة بشكل عام فرمان الإصلاحات ميثاقًا حقيقيًا للحرية الدينية لجميع رعايا الباب العالي، باستثناء المحمديين، هذا واضح من تصرفاتهم في ذلك الوقت، في 28 جمادى الآخرة 1272هـ/5 مارس 1856 (نُشر المرسوم في جمادى الأولى/فبراير) أحد عشر مبشرًا أمريكيًا في مجلس المفوضين الأمريكيين للبعثات الأجنبية (American Board of Commissioners for Foreign Missions (A.B.C.F.M))¹ جنبًا إلى جنب مع أربعة موظفين من بعثات تبشيرية أخرى واثنين من رجال الدين البريطانيين قدّموا مجتمعين إلى اللورد ستراترفورد شهادة مكتوبة فيها إقرار بأقوى العبارات بالخدمة المهمة التي قدمها لقضية الإنسانية والمسيحية في الدولة العثمانية².

بالنسبة لفرنسا التي رعت مؤتمر باريس الذي نوّه بفرمان الإصلاحات وأثنت عليه، فإن فرمان لم يكن يتعارض مع مصالحها بل ربما كان يكرّسها وقد ازداد التأثير الفرنسي بقوة بعد صدور فرمان الإصلاحات، وقد ذكر دافيسون: أنه في سنة 1284هـ/1867م قدّمت فرنسا وروسيا خططًا مفصلة إلى حد ما للإصلاح العثماني؛ اقترحت الخطة الفرنسية إدماج شعوب الدولة العثمانية في جنسية عثمانية من خلال تمديد الحقوق المتساوية والتعليم المختلط وتقليل التأثير الديني واقترحت الخطة الروسية

¹ . المجلس الأمريكي للمفوضين للبعثات الأجنبية المعروف اختصاراً بـ (A.B.C.F.M) هو أول جمعية تبشيرية أمريكية أجنبية تأسست سنة 1810م من قبل أبرشيات شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية. الهدف من المجلس الأمريكي هو نشر المسيحية في جميع أنحاء العالم. ينظر:

The Editors of Encyclopaedia Britannica: **American Board of Commissioners for Foreign Missions, American organization**, <https://www.britannica.com/topic/American-Board-of-Commissioners-for-Foreign-Missions> .

² - William Goodell: Op.cit, P385.

أورد تلك الشهادة التقديرية القس الأمريكي البروتستانتى ويليام جودل في كتابه سالف الذكر: " أربعون سنة في الإمبراطورية التركية (Forty years in the Turkish empire) وهذا بعض ما جاء فيها : "يعتبر المبشرون البروتستانتيون الموقعون أدناه المنتمون إلى كنائس ومجتمعات مسيحية مختلفة في بريطانيا العظمى وأمريكا، أن واجبهم في هذه الفترة الهامة والميمونة الحالية لهذه الإمبراطورية والذي يشير إليه نشر خط شريف الإمبراطوري للسلطان الحاكم هو توجيه الشكر بالامتنان لله مقدم كل هبة جيدة؛ أن يعربوا لسيادتكم عن رضاهم التام عن أفق وروح تلك الوثيقة المتعلقة بالحرية الدينية وحقوق الضمير وأن نهنئكم على الشرف السماوي الذي منحتم إياه عن جدارة لمساهمكم في إنجاز مثل هذا العمل الرائع والجيد جدا لملايين الأتراك وبينما نقدر بامتنان الخدمات القيمة التي قدمها ممثلو العديد من الدول الأخرى لإحراز هذه النهاية الجديرة بالثناء، لا يسعنا إلا أن ندرك أن إنجاز هذا العمل يرجع في المقام الأولى بعد عون الله إلى تأثير ممثل بريطانيا العظمى". ينظر: Ibid, P385-386.

تقسيم الدولة العثمانية إلى مناطق للحكم الذاتي على أساس القوميّة!!!¹.

كانت تلك هي أهم ردود الفعل حول صدور فرمان الإصلاحات وكما كان هذا فرمان وليد ضغط أجنبي مباشر، فإنّ تلكم الضغوط ظلت ترافقه لإنفاذ بنوده؛ فبعد ثلاث سنوات من صدور فرمان تحديدًا في أكتوبر 1859م قدم سفراء القوى الأوروبية مذكرة مشتركة تشكو للصدر الأعظم عدم إحراز تقدم في تطبيق فرمان الإصلاحات وتشكو من بطؤ التنفيذ² وتدعو إلى الأعمال الفوري لعوده، كما أصرت روسيا بشكل خاص على إجراء تحقيق دولي في الوضع بالبلقان³، وفي فبراير 1867 قدمت الحكومة الفرنسية بدعم من إنجلترا والنمسا مذكرة إلى الباب العالي تدعو إلى سياسة إصلاح أكثر نشاطاً وتقدم اقتراحات مفصلة⁴، هكذا انخرطت الدول الأوروبية في الإصلاح العثماني لخدمة مصالحها بصرف النظر إن كان ذلك الإصلاح يخدم أصحاب الشأن بالدرجة الأولى.

تقييم فرمان الإصلاح على الأساس الإيديولوجي الذي قام عليه وهو استبدال الولاء للطائفة بالولاء للوطن تحت مفهوم الجنسية العثمانية وصهر الرعايا العثمانيين على اختلاف لغاتهم وأعراقهم ومللهم ضمن بوتقة واحدة⁵ - وهو أساس لتمتين الجبهة الداخلية من النزعات الانفصالية التي كان الغرب وروسيا يشجعانها بطرق مختلفة - فإنّ مدى نجاح فرمان بهذه الناحية يجعلنا نجزم أنّه فشل فشلاً ذريعاً، ذلك لأنّ المد القومي في تلك الحقبة كان يبشّر بانقضاء عصر الإمبراطوريات.

العقبات التي أثرت على نجاح فرمان الإصلاحات

حاول أخيراً الوزراء العثمانيون شرح أهميّة فرمان الإصلاحات وفائدته التي تعود على الجميع: بتسويقه للقوى الكبرى والرعايا غير المسلمين للدولة العثمانية على أنّه تنازل مهم، وتسويقه بين الرعايا

1. ما من وزير عثماني كان يمكن أن يفضل الخطة الروسية. كان هذا سيّودي كما قال فؤاد باشا بهذه الصفة للسفير الروسي الكونت نيكولايف بافلوفيتش إجناتيف إلى إنشاء "الولايات غير المتّحدة التركية". مع ذلك كانت الخطة الفرنسية تتوافق مع ميولات عالي باشا وفؤاد باشا. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P234-235.

2. قال السفير الفرنسي (Édouard Thouvenel): يبدو أن بطن قطار الفساد الصغير للإمبراطورية - الذي يفقر تركيا الجديدة ويحطّم روحها - أصبح لا يطاق. ينظر: Nicholas Jorga: Op.cit, Seite 517-518.

3 - Roderic H. Davison: Op.cit, P104-105.

4 - Bernard Lewis : Op.cit, P119,121.

5. بحسب دافيسون كان هناك ما يقرب من 36 مليون شخص يعيشون في الدولة العثمانية؛ المسلمون حوالي 21 مليون نسمة الأتراك منهم حوالي 10 إلى 12 مليوناً يتركزون بالأناضول، حوالي 6 ملايين من السلاف بما فيهم البلغار، و2 مليون يوناني و4 ملايين روماني ومليون ونصف المليون أرمني وربما 6 إلى 8 ملايين عربي، 1 مليون ونصف ألباني و1 مليون كردي. شكّل اليهود وأعراق أخرى مجموعة أقليّات. كان معظم غير المسلمين من الأرثوذكس اليونانيين [الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية]. هذا التّنوُّع العرقي صبّب الدمج على أساس الجنسية العثمانية (Osmanlılık). ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P61.

المسلمين على أنه لا يحتوي على شيء جديد أو ضار¹ بمكانتهم²، مع ذلك كان هناك الكثير من العراقيين التي حالت دون أن يؤتي الفرمان أكله كاملاً، رغم الجهد الذي بذله كل من عالي باشا وفؤاد باشا لإحداث تغيير حقيقي يضمن سلامة الدولة العثمانية واسترجاع قوتها ومكانتها بين الدول المتحضّرة، وقد كان كل منهما حريص على تقييم التنظيمات والنظر في مدى تقدّمها ومحاولة تدليل العقبات التي تعترضها³، وحتى الكثير من ولاية الولايات حاولوا مخلصين إحداث اختراق في المجتمع

¹ . لاحظ حجّة فؤاد باشا المضلّلة إلى حد ما - ولكن المبررة من خلال النص الحربي للمرسوم - أنّ المرسوم لم يصرّح حقاً أن المسيحيين سيكونون أعضاء في المجلس الأعلى، ولكن فقط يجب دعوتهم إلى مناقشاته. ينظر: Cevdet Paşa: Op.cit, P71.
من الواضح أن عالي باشا وفؤاد باشا استفادا من المرسوم على سؤته؛ فقد وافقا على المرسوم من أجل تجنب البلاد التدخل الأجنبي النشط، والحفاظ على زمام المبادرة بأيديهما؛ ويبدو أن بند معاهدة باريس للسلام الذي يحظر أي تدخل خارجي يؤكّد حكمة سلوكهما، بل يذكر المؤرخ أحمد جودت باشا أنّ فؤاد باشا جادل بأن إصدار المرسوم منع القوى الكبرى من إدراج تفاصيل حول الإصلاح العثماني في معاهدة السلام بباريس. ينظر: Ibid, P85.

² - Roderic H. Davison: Op.cit, P60.

³ . في 25 ماي 1867م أرسل وزير الخارجية فؤاد باشا مذكرات إلى ممثلي الباب العالي في كل من: لندن وباريس وفيينا وبرلين وسان بطرسبرغ وفلورنسا. أرفقت تلك المذكرات مع الإفراق الآتي الذي أكّد فيه فؤاد باشا على " أنّ خط همايوني في 18 فبراير 1856م هو فقط تأكيد وتطوير لخط شريف كلخانة، الذي فتح رسمياً نظام المساواة وفتح عهد الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية إن تنفيذ مثل هذا البرنامج المعقد الذي يشمل جميع فروع الإدارة وتطرّق إلى أكبر قضايا النظام الاجتماعي قد أثار صعوبات مختلفة وأخطرها تمثّل في مشكلة التحيزات الوطنية والأخلاق العامة، لذلك يتطلب كل إصلاح يعلن عنه جهدا مزدوجا يتناسب مع العقبة المزدوجة التي يجب التغلب عليها. لقياس حجم المجالات التي تمت تغطيتها على مدى السنوات العشر الماضية، والتحدث بنزاهة عن تنفيذ وعود سنة 1856م، ونقد سلوك الحكومة بشأن مستقبل سياستها، من الضروري الدخول في الفحص الدقيق لأعمالها ومراعاة كيفية تجاوز العقبة أكثر من النتيجة المادية. باتباع هذا النهج الذي يفرض نفسه على كل عقل نزيه في فحص الحقائق السياسية والإدارة الداخلية المرتبطة ببرنامج سنة 1856م، سوف نرى أنه في بعض النقاط قد تركت الأمة وراء التقاليد القديمة بينما في نواح أخرى فإن النتيجة التي تم الحصول عليها رغم كونها حقيقية بالكاد تكون ملحوظة". ينظر:

Abdolonyme Ubicini et Abel Pavet de Courteille: Op.cit , P243-244.

يمكن الاطلاع على النص الكامل لهذه المذكرة في المصدر أدناه:

Grégorius Aristarchēs (bey): Op.cit, P24-35.

ويعترف عالي باشا بالجوانب السلبية التي رافقت الإصلاحات بقوله: " وفي الوقت نفسه كان جزء من سكاننا يخرجون من سباتهم؛ كانت هناك ابتكارات، ظهرت بعض التعديلات في الأعراف وظهرت عادات تتوافق مع الاحتياجات الجديدة، ولكن كما هو الحال دائماً عندما تستورد الحضارة من مصدر أجنبي، بدلا من أن تتبع من تقدّم فعلي بطيء، فإنّ شعوبنا أخذت من الرذائل أضعاف ما أخذته من الفضائل". ينظر: Aali Pacha: Op.cit, P508.

وصرّح البارون أنطوان فون بروكسش أوستن مندوب النمسا قائلًا: " إنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت لتغيير الأفكار ومن ثم تحقيق التغييرات الاجتماعية، لا يمكن التسرّع في الإصلاح". ينظر: Roderic H. Davison: Ibid, P60.

العثماني لصالح العثمانية (Osmanlılık)¹، لكن العقبات كانت أقوى من أن تلتين، نوجز أهم تلك العقبات أو العراقيل في اثنا عشرة نقطة:

1. عدم تحسين المنظومة الإدارية العثمانية وهو من شروط نجاح أي إصلاحات.
2. المزاج العام للرأي العام في الدولة العثمانية سنة 1856م.
3. عدم وجود جهد إصلاحي منظم من أسفل الهرم أي في صفوف المجتمع العثماني.
4. رسخ نظام الملل ليس فقط التمييز بين المسلمين وغير المسلمين، ولكن أيضًا العداوات بين الطوائف غير المسلمة² التي شكّلت بالنسبة للباب العالي متاعب لا نهاية لها في القرن التاسع عشر.
5. المد القومي الكبير الذي أصبح بشكل متزايد عقيدة القرن التاسع عشر حال دون نجاح فكرة صهر الأقليات العثمانية ضمن بوتقة واحدة³، سيما مع تدخل القوى الأوروبية.
6. من بين أهم العقبات الرؤيا المحافظة للمجتمع العثماني المسلم التي تنظر بحذر شديد إلى "الكافر" (gavur) الأوروبي وكل ما يأتي منه، واعتزازهم بأنفسهم باعتبارهم أهل الملة الحاكمة (Millet-i Hakime) أعاق قضية المساواة حتى وإن لم تخالف الشرع في بعض جوانبها.
7. تدني مستوى التعليم عند عموم المجتمع العثماني الذي لم يولي الأهمية التي يستحقها⁴ باعتباره عصب نجاح أي إصلاح.

1. في سنة 1858م أعلن سكرتير محافظة أرضروم بخصوص نزاع طائفي أنّ الحكومة "تنظر إلى كل قوميات الإمبراطورية بنفس الطريقة"، وأعلن حاكم أنقرة علناً كلاسيكياً سنة 1865م جاء فيه: "أمرت السلطات الحاكمة بأن يكف جميع الرعايا عن السخرية من بعضهم بعضاً؛ الجميع من المسلمين والرعايا الأرمن والبروتستانت، نظراً لأن الجميع متساوون ورعايا الحكومة السلطانية، ويُطلب منهم أيضاً أن يحترموا بعضهم بعضاً ويكرّموا بعضهم بعضاً، على الجميع أن يعيشوا معا في حب أخوي" كان هذا الإعلان المبتكر بأسلوبه الخاص ملخصاً رائعاً للسياسة الرسمية للمساواة بين أتباع جميع الأديان، ولمفهوم المواطنة العثمانية والذي يكشف أن الحاكم يفهم تماماً ما أعلنه الباب العالي. ينظر: Ibid, P96.

2. ازدرء المسيحيين لليهود، والمعارضة اليونانية للأرمن، والمشادات بين كل من الأرمن الغربيين والروم البروتستانت.

3. صحيح أيضاً أن هناك مزيجاً لغوياً جزئياً بين شعوب الدولة العثمانية؛ الكثير من اليونانيين والأرمن لم يعرفوا لغتهم الوطنية وكانوا يتحدثون التركية وحدها على الرغم من أنهم كتبوها بالأحرف اليونانية والأرمنية. ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر كان المفهوم القومي الغربي يتصاعد بين الأقليات وأصبحوا مدفوعين نحو الانفصالية وليس العثمانية. الصرب والرومان واليونانيين كانوا مصابين بالفعل بحدوى القومية ثم لحق بهم البلغاريون والأرمن. الأتراك والعرب كانوا آخر الشعوب العثمانية التي شرعت في السير على طريق القومية. ينظر: Ibid, P62.

4. كان التعليم بالدولة العثمانية خلال فترة التنظيمات في أسوأ أحواله؛ ومعظم الأتراك لم يتلقوا سوى القليل من التعليم أو لم يتلقوا أي تعليم؛ في سنة 1868م قدّر ضياء بك أن حوالي 2% فقط من السكان المسلمين كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وذكر المؤرخ العثماني أحمد مدحت الذي كتب في نهاية فترة التنظيمات أن الأمية تراوحت بين 90 إلى 95%، في الوقت نفسه خمن سليمان باشا أنّ العاصمة يمكن أن يكون بها حوالي عشرين ألف مسلم فقط ممن يستطيعون قراءة الصحف. ينظر: Ibid, P68-69.

8. اتساع الرقعة الجغرافية للدولة العثمانية وعدم تجانسها كان أيضا من أهم عقبات نجاح الإصلاحات.

9. الاستياء الطبيعي للكثير من رجالات الدولة العثمانية إزاء التدخل الخارجي على الرغم من أنّ بعض الاقتراحات الخارجية حول الإصلاح قد تكون صالحة وفعّالة.

10. ضعف الباب العالي في نظر رعاياه شكّل عقبة رئيسية أمام القبول العام لبرنامج الإصلاح الذي تفرضه الحكومة، ولا ريب أنّ أي إصلاحات مهما كانت قيّمة لا يحالفها النجاح إذا افتقدت للمصداقية وثقة الشعب.

11. المجموعة الحاكمة في أعلى الهرم لم تكن متفقة حول أهداف أو أساليب الإصلاح¹ كما أنّ التنافس الشديد فيما بينها أعاق تقدّم الإصلاحات².

12. ثقل الامتيازات التي منحت للقوى الأوروبية منذ أيام السلطان سليمان الثاني أصبحت مع الوقت وبضعف الدولة العثمانية عبأ كبيرا أمام أي إصلاح³، على اعتبارها أصبحت بوابات التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية العثمانية سيما ما تعلق منها بالأقليات المسيحية.

كان ذلك هو فرمان الإصلاحات أو خط همايوني الذي وإن كان صدوره تم بضغط أوروبي سيما بريطاني، إلا أنّ مضمونه لم يختلف كثيرا عن الرؤى الإصلاحية التي نضجت مع الوقت ومع الكثير

1. بعضها عارض أي تغيير في الوضع الراهن؛ كان هناك رجال مهمون - محافظون حقيقيون وأدكيا - عارضوا بضمير حي أي انفصال جذري عن الماضي؛ لقد أرادوا إصلاح الانتهاكات ربما لتغيير الأمور ببطء، ولكن أرادوا الاستمرار في خدمة العقيدة والدولة كما فعل أجدادهم. كان هناك أيضا محافظين فقط على الوضع الراهن الذي أتاح لهم تحقيق مصالحهم الشخصية، وكان هناك أيضًا الأفندية المتفرنجين الذين لم تحوّلهم المظاهر الغربية السطحية إلى مصّلحين جادّين. ينظر: Ibid, P64.

2. سيطر أربعة رجال على الحكومة خلال نصف العقد الأول من القرن التاسع عشر وجميعهم من فئة الكتاب من أهل القلم وهم: مصطفى رشيد باشا وعالي باشا، وفؤاد باشا، وكبيريسلي محمد باشا... مثلوا وجهات نظر وجماعات مصالح تنافسوا على السيطرة كان كبيريسلي محمد محافظا وكان البقية أكثر قابلية للتغريب لكن مختلفين مع بعضهم. ينظر: Ibid, P81.

3. ذكر الصحفي والمؤرخ والدبلوماسي الفرنسي بينوات برانسويك (Benoît Brunswik) (1830-؟؟؟؟) في كتابه: "دراسات عملية عن المسألة الشرقية: الإصلاحات والامتيازات" ما نصّه: "قرأت في محاضر مؤتمر باريس جلسة 24 مارس 1856: "عالي باشا يعزو كل الصعوبات التي تعيق... عمل الحكومة العثمانية إلى الامتيازات التي أهدرت وقتهم. يناقش التفاصيل التي تميل إلى إثبات أن التّعهدات التي أعطتها الامتيازات للأوروبيين تلحق الضرر بأمنهم وتطوير معاملتهم، ... وبالتالي عقبة كأداء أمام جميع التحسينات". ينظر:

Benoit Brunswik : *Études pratiques sur la question d'Orient : Réformes et capitulations*, Veuve Berger-Levrault et fils, Strasbourg, France, 1869, P183=

ويذكر عالي باشا مرة أخرى في وثيقة صادرة عن الباب العالي سنة 1869م: "لقد أظهرنا مرارا وتكرارا كيف أن وجود الامتيازات بحد ذاته يمثل عائقا أمام سير المؤسسات بشكل منتظم والتقدم التدريجي للحضارة في الإمبراطورية". ينظر: Ibid, P185.

من الضغوط في أذهان النخبة الإصلاحية من فئة الكتّاب من أهل القلم التي تبنته، وعملت بجد على تنفيذها على أرض الواقع بسن القوانين والتشريعات التي تجعله واقعا ملموسا في حياة المجتمع العثماني المتعدد الملل والأعرق، صحيح أنّ المرسوم واجه معارضة أشد مما واجهها خط شريف كلخانة على اعتبار الأخير غلبت عليه الصبغة الإسلامية في لغة الخطاب، عكس فرمان الإصلاحات الذي عكست لغته إلى حد ما دور اليد الأجنبية في صناعته، وصحيح أيضا أن فرمان الإصلاحات انتقد بشدة أكثر من خط كلخانة وجوبها بعراقيل كثيرة حالت دون نجاح فكرته الجوهرية وهي إعادة صياغة المجتمع العثماني على أساس الولاء للدولة والسلطان أي الجنسية العثمانية، وليس على أساس الهوية الدينية، إلا أنّه مع ذلك كان من أهم الوثائق العثمانية التي مهّدت للدستور العثماني ولن يكون من المبالغة إذا قيل أنّ فرمان الإصلاحات وقبله خط شريف كلخانة مهّدا الطريق أيضا لعلمنة الدولة والمجتمع لاحقا.

المبحث الثالث: فئة الكتاب من أهل القلم والدستور العثماني
1293هـ/1876م

حصيلة ما تحقق بعد خط همايوني 1272هـ/1856م إلى صدور الدستور
ترجمة من سُمِّي بأبي الدستور العثماني
الأحداث التي فرضت تولي عبد الحميد الثاني العرش
تتبع مسار الفكرة الدستورية العثمانية
مسارات وضع أول دستور عثماني
ردود الفعل حول صدور أول دستور عثماني

رأينا في المبحثين السابقين كيف دشنت فئة الكتّاب من أهل القلم بخط شريف كلخانة وفرمان الإصلاحات العهد الرسمي إن جاز التعبير لتغريب الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في الدولة العثمانية، مدفوعين بحماسة قوية لتمدين الدولة وتقويتها لتصل إلى مصاف القوى الكبرى الأوروبية إلى جانب الحفاظ على سلامتها من النزعات الانفصالية والمد القومي الذي اجتاحت أوروبا واستغلظ سوقه فيها في القرن التاسع عشر، وقد مهّد خط شريف كلخانة وفرمان الإصلاحات الأجواء والمناخات المناسبة لظهور أول دستور عثماني، وقبل الخوض في ذلك الانتقال الدستوري ما الذي تحقّق من لدن صدور فرمان الإصلاحات إلى صدور أول دستور في التاريخ العثماني؟

حصيلة ما تحقّق بعد خط همايوني 1272هـ/1856م إلى صدور الدستور

عملت فئة الكتّاب من أهل القلم في السنوات من 1272هـ/1856 إلى 1293هـ/1876م ليس فقط على المهمة التقليدية المتمثلة في استئصال التجاوزات الإدارية والفساد التّأخر في مفاصل الإدارة، ولكن أيضا على مهمة تكييف الأفكار الغربية مع الواقع العثماني الذي وضع الأساس للمجالس التمثيلية والتمدين النهائي للحكومة، حاولوا تكريس المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية، وحاولوا إيجاد شيء من مفهوم المواطنة المشتركة "العثمنة أو العثمانلية" (Osmanlilik or Osmanlıcılık) وحاولوا إعادة التنظيم الحكومي بعيداً عن المفهوم الإسلامي الكلاسيكي الذي يجعل الفرد وحقوقه وواجباته نابعة من انتمائه الديني سواء أكان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً، لحساب المفهوم المدني الغربي الذي يجعل الفرد وحقوقه وواجباته مستمدة من كونه مواطناً في دولة يدين لها ولحكومتها بالولاء، كان نجاحهم نسبياً¹ غير أنّ كل مهمة تستهدف تغيير البنى الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما تحتاج إلى الزمن والجهد التراكمي لمسؤولين ذوي كفاءة واقتدار.

1. كتب برنارد لويس في كتابه "ظهور تركيا الحديثة": في الكتابات الأوروبية حول الإصلاحات التركية في القرن التاسع عشر أصبح من الشائع أن نرى الإصلاحات مولوداً ميتاً؛ توقفت التنظيمات عند باب الباب العالي، ومع ذلك فإن مقارنة الدولة العثمانية سنة 1800 بالدولة العثمانية سنة 1871م سيكشف لنا العديد من التغييرات المبكرة العميقة بما يكفي لإظهار ما إذا كانت للأفضل أو للأسوأ، كانت التنظيمات أكثر من مجرد رشوة لأوروبا أو تعبيراً متصّعّباً عن النوايا الحسنة للإصلاحيين الساذجين، كان الشعور العام في أوروبا هو أن المؤسسات القديمة وهيكل الدولة العثمانية كانت بربرية وسيئة بشكل لا يمكن إصلاحه، وأن اعتماد شكل من أشكال الحكم الأوروبي وأسلوب الحياة سيمكن الدولة العثمانية في أسرع وقت ممكن من الوصول إلى مصاف الدول المتحضرة... يتم التعبير عن [شعور تلك الطبقة بضعفها وقوة عدوها] في قصيدة مشهورة لضياء باشا (1825-1880) كتبها بخريف سنة 1870م:

عبرت أراضي الكفار، رأيت المدن والقصور

تحوّلت في مملكة الإسلام، ولم أر سوى الأطلال

كان لدى تلميذي رشيد باشا، عالي وفؤاد باشا إحساس بالمطالب الضرورية الملحة للحفاظ على الدولة، تلك المطالب الناشئة عن الضغوط الداخلية والخارجية، مع امتلاكهما رؤية للسير نحو الأهداف البعيدة من خلال سلسلة من الخطوات والإجراءات الصغيرة المدروسة، مع اطلاع لا بأس به بالحياة الغربية ومطالب الحياة الحديثة، جنبا إلى جنب مع تقدير الماضي العثماني والشعور بالمسؤولية داخل الحكومة، وقد واجها عقبات كثيرة بشكل مثير للإعجاب.

بدأ القانون الغربي في سنة 1272هـ/1856م في اختراق الدولة العثمانية من خلال القانون التجاري وزاد اختراقه للمنظومة القانونية العثمانية بمرور الزمن، لكن مبادئ الشريعة ظلت سائدة في بعض مجالات القانون حتى القرن العشرين لا سيما في قانون الأسرة والميراث، وقد أدى غلق باب الاجتهاد بعد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى تقويض الشريعة، صحيح أنه كانت هناك بعض الاجتهادات القليلة لكنّها كانت نادرة، ظلت الشريعة أيضا رمزا أو مثلا يجب اختبار التدابير الجديدة على منواله؛ كان على الإصلاحيين العثمانيين أن يعتمدوا في الواقع على السلطات التشريعية التقليدية للسلطان، ولكن كان عليهم إقناع منتقديهم بأن التدابير المقترحة تتفق مع أو على الأقل لا تتعارض مع الشريعة¹، حتى بموجب دستور سنة 1293هـ/1876م كلّفت الهيئة المشرفة على وضعه بواجب ضمان توافق جميع التشريعات مع الشريعة².

خلال ما يزيد قليلاً عن خمس سنوات بين إعلان فرمان الإصلاحات ووفاة عبد المجيد الأوّل في 16 ذو الحجّة 1277هـ/ 25 يونيو 1861م، لم يتغير الهيكل الإداري للدولة بشكل كبير ولكن كانت هناك محاولات للحفاظ على الوعود التي قطعت في فرمان وتوسيع نطاق المساواة الفعلية بين جميع الرعايا العثمانيين، أعاق عدد من الاضطرابات في الولايات وما عرف بواقعة كوليلي هذه الجهود³ إلى جانب طبيعة المجتمع العثماني المحافظ جدا والمستريب من المجلوبات الثقافية الغربية.

¹ . عارض العلماء ترجمة القوانين الفرنسية إلى التركية قصد العمل ببعضها في المحاكم النظامية لتجاوز مسألة التمييز في نظام الملل ينظر: Cevdet Paşa: Op.cit, P63.

تأسست مدرسة جديدة لتدريب القضاة سنة 1854م، ومنحت شهادتها الأولى سنة 1856م، من الواضح أنها تطرقت إلى القانون المتأثر بالغرب بشكل طفيف فقط، وبعد سنة 1869م تمت دراسة عناصر من القانون المدني المدون حديثاً بمجلة الأحكام العدلية المعروفة اختصاراً بالجلّة (Mecelle)، وكانت الدراسة الرئيسية للقانون المتأثر بالقوانين الغربية إلى جانب قوانين الشريعة قد تمّت في كلية الحقوق المستقلة التي تم إنشاؤها سنة 1869م. ينظر:

Osman Nuri Ergin: Türk Maarif Tarihi, Cild 1-2, Eser Matbaasi, İstanbul, 1977, P157.

² - Roderic H. Davison: Op.cit, P66.

³ - Ibid, P81.

اعتبر الفرمان الإصلاحات المساواة أهم ركيزة قام عليها فرمان الإصلاحات؛ وقد أعلن النص كما رأينا المساواة في الخدمة العسكرية (التي لم يجبّدها أحد)، والعدالة والمدارس (كانت المدارس المسيحية بالفعل أكثر تقدماً)، وألغى الجزية وكفل المساواة في العمل بالحكومة، على الرغم من أن تنفيذ جميع هذه التدابير كان محدوداً للغاية، إلا أنّ الأثر طويل الأمد لهذه "المساواة" تتمثل في زيادة القوة الاقتصادية للمجموعات المسيحية المتبقية في الدولة العثمانية، ممّا منحهم الدعم غير المباشر في كفاحهم القومي من ناحية أخرى شدد الفرمان كما رأينا على التدابير الاجتماعية والاقتصادية الأساسية التي تجاهلها خط شريف كلخانة إلى حد كبير، ودعا إلى إنشاء البنوك وتدوين القوانين الجنائية والتجارية، والاحترام الصارم للميزانيات السنوية وإصلاح السجون، بناء عليه تم إدخال القوانين البحرية والتجارية ذات الأصل الفرنسي في سنتي 1272هـ/1856م و1279هـ/1863م¹.

كانت الحكومة العثمانية في ظل الأزمات المالية المتعاقبة - كان التمويل المالي هو نقطة ضعف الإصلاحيين - مضطرة للاستدانة من القوى الأوروبية؛ خلال حرب القرم حصلت الدولة العثمانية على قروض لنفقات الحرب من حلفائها البريطانيين والفرنسيين، وجلبت القروض الجديدة في 1274هـ/1858 و1276هـ/1860م راحة مؤقتة فقط، وفي سنة 1277هـ/1861م وصلت الأزمة إلى نقطة حرجة، مكّنت المساعدات البريطانية والفرنسية الحكومة العثمانية من تحويل قروضها المحلية وإنشاء أداة مالية جديدة هي البنك العثماني الهمايوني، تم استخدام قرض جديد تفاوض عليه البنك بسحب سندات الخزنة، وجلبت هذه الإجراءات إلى جانب الإصلاحات المالية والإدارية الطفيفة بعض التحسن، لكنها لم تجنّب الدولة لوقت طويل الإفلاس والرقابة المالية الأجنبية².

تمّ تركيز الإصلاحات بعد عشر سنين من صدور الفرمان على الموضوعين الرئيسيين القانون والتعليم؛ في ذي الحجة 1284هـ/أبريل 1868م، أعيد تنظيم مجلس ولاية الأحكام العدلية وتم إنشاء هيئتين جديدتين؛ ديوان الأحكام العدلية ومجلس شورى الدولة: الأول هو نسخة منقحة من مجلس العدل السابق بوظائف قضائية والأخير على غرار مجلس الدولة الفرنسي، كان في الواقع محكمة استئناف عليا في المسائل الإدارية مع مسؤوليات استشارية وشبه تشريعية³.

¹ - Kemal H. Karpat: Op.cit, P259.

تقدّم الإصلاح القانوني خطوات أخرى مع إدخال قانون الأراضي وقانون العقوبات الجديد سنة 1858م، وإعادة تنظيم المحاكم التجارية التي اندمجت مع المحاكم المختلطة سنة 1860م، والقوانين التجارية والبحرية الأخرى وكلّها من أصل فرنسي سنة 1861م و1863م. ينظر: Bernard Lewis: Op.cit, P118-119.

² - Ibid, P120.

³ - Ibid, P121-122.

شهدت نفس السنة افتتاح مدرسة الثانوية الهمايونية العثمانية بغلطة سراي، في هذه المدرسة كانت لغة التدريس الفرنسية (باستثناء المواد التركية البحتة)، وقد بُدِئت محاولات جادة لتقديم برنامج تعليم ثانوي غربي حديث، وقد تم بالفعل إنشاء بعض من هذه المدارس من قبل الإرساليات الأجنبية ولا سيما الكلية البروتستانتية الأمريكية روبرت كوليدج (Robert College) سنة 1279هـ/1863م؛ مع ذلك كانت مدرسة غلطة سراي أول محاولة جادة من قبل حكومة مسلمة لتوفير التعليم الثانوي الحديث بلغة غربية، تمثل وجه آخر للحدثة في تعليم الطلاب المسلمين والمسيحيين جنباً إلى جنب؛ فكانت خطوة نحو كما قيل لإلغاء الفصل العنصري الديني، كان تأثير مدرسة غلطة سراي على تطوير تركيا الحديثة هائلاً؛ نظرًا لأن الحاجة إلى الإداريين والدبلوماسيين وغيرهم ممن لديهم تعليم غربي، وقدرة على إدارة الجهاز الإداري الغربي أصبحت أكثر إلحاحًا، فقد أصبح خريجو غلطة سراي يلعبون دورًا رائدًا في السياسة وإدارة الدولة العثمانية، وبعد ذلك الجمهورية التركية¹.

كتب دافيسون حول الإصلاحات في التعليم بشكل عام سنة 1285هـ/1869م فصاعداً: كان هناك ضمناً في النظام أيضًا عنصر قوي من عناصر العثمانية، وقد تم وضع خمسة مستويات من التعليم: مدرستان ابتدائيتان الرشدية والصبيان (rüşdiye، sıbyan)، ومدرستان ثانويتان إعدادية وسلطانية (sultaniye، idadiye) ومدارس خاصة للتعليم العالي، والجامعة في أعلى مستوى، ووفقًا للخطة سيتم توفير مدارس من المستويات الثلاثة الأولى لكل قرية أو مدينة أو مجموعة أحياء سكنية

¹. كتب المؤرخ التركي الدكتور كمال كاريات عن مدرسة غلطة سراي قائلاً: في سنة 1868م وبناء على إصرار الفرنسيين وبعد التغلب على المعارضة الأولية للسلطان تم فتح ثانوية غلطة سراي، لسنوات عديدة تخرج من هذه المدرسة رجال ممتازين، ولكن تخرج منها أيضًا العديد من المثقفين الفرنكوفيليين الذين لا يختلف نفورهم من ثقافتهم المحلية، وازدراءهم لمجتمعهم عن مواقف المثقفين الاستعماريين تجاه مجتمعاتهم. ينظر: Kemal H. Karpat: Op.cit, P253.

وقد سعت فرنسا لزيادة نفوذها في مجال التعليم وربما التأثير الكاثوليكي اليسوعي؛ حيث يصف الكاتب والتربوي الأمريكي ورئيس ثانوية روبرت [وهي أقدم ثانوية أمريكية خاصة بإستانبول تأسست سنة 1863م] السيد جورج واشبرن (1833 - 1915) في كتابه: خمسون عامًا بالقسطنطينية وذكريات كلية روبرت، الجهود الفرنسية في الاستفراء بالتأثير على مجال التعليم بالدولة العثمانية ويذكر هنا فشل السفير الفرنسي بالقسطنطينية (Nicolas Prosper Bourée) (والسيد بوري المدير العام للبعثات اليسوعية في منع افتتاح كلية روبرت، ولكنهما استغلًا زيارة السلطان عبد العزيز إلى باريس سنة 1867م لحث نابليون الثالث على انتزاع وعد من السلطان لإنشاء مدرسة ثانوية كبرى، يعين نابليون معلّمها وتعتمد اللغة الفرنسية وتدفع الحكومة العثمانية التكلفة كاملة، وقد انتزع هذا الوعد من السلطان رغم معارضة الأتراك والروس والإنجليز. وتم افتتاح هذه الثانوية الفرنسية بإستانبول سنة 1868م في مباني رائعة على موقع جميل في بير، تم القيام بكل شيء لجعلها جذابة بكل الطرق وضمت ستمائة طالب. ينظر:

Washburn George: **Fifty years in Constantinople and recollections of Robert college**, Houghton Mifflin Company, Boston, New York, 1909, P24-25.

مع وجود سلطانية في كل عاصمة ولاية، وتم إظهار أكبر قدر من المساواة فيما يتعلق باللغة والدين للأقليات غير المسلمة، وعلى مستوى المدارس الابتدائية كان من المفترض فصل المسيحيين عن المسلمين لتجنب الصعوبات العملية¹.

كان التعليم مختلطاً من المدارس الثانوية فصاعداً، ويعترف القانون أيضاً بوجود مدارس خاصة يديرها الأفراد أو الملل، بشرط أن يحمل معلموها شهادات حكومية فقط، وفي ظل النظام الجديد كانت مدرسة الصبيان مجانية وإلزامية² والرشدية مجانية ولكن ليست إلزامية. تم إلزام الأولاد بالالتحاق بالمدرسة حتى سن الحادية عشر، والبنات حتى سن العاشرة³، في خطوة لزيادة عدد المتعلمين الذين يمكنهم استيعاب فلسفة الإصلاح العثماني وإشاعته في المجتمع.

كانت الخطة التعليمية جيدة من الناحية النظرية رغم أنه قوبل ببعض اللامبالاة في الداخل والشك في الخارج؛ وصفت صحيفة التايمز (The Times) اللندنية الخطة بأنها نظام فرنسي مع مزيج من مذهب التطهير البروتستانتي الإنجليزي (denominationalism)⁴، لكنها اعترفت أنه إذا تم تطبيقه فسوف يقدم الكثير في سبيل دمج الشعوب العثمانية، وبالطبع فإنّ مثل هذا المخطط الواسع لا يمكن تنفيذه بسرعة وظلّت هذه الخطة سارية مع بعض التغييرات كأساس للتعليم العثماني حتى نهاية الدولة العثمانية وكانت مؤشراً قويا على أن الدولة مسؤولة عن المدارس بدلا من الملل، مع ضعف الإمكانيات المادية التي جعلت تطبيق الخطة يعاني من القصور⁵.

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P248.

² . يذكر الرحالة والمستشرق المجري أرمينيوس فمبيري (Hermann Vámbéry) (1832 - 1913) في كتابه: الإسلام في القرن التاسع عشر: دراسة ثقافية تاريخية (Der Islam im neunzehnten Jahrhundert: eine culturgeschichtliche Studie): أنّ العوام العثمانيين سيما في المناطق الداخلية للولايات العثمانية كرهوا هذه المدارس الابتدائية وفضلوا عليها المدارس القديمة، وأنّ الآباء لجؤوا من أجل تجنّب الطابع الإلزامي لهذه المدارس إلى إلباس أبنائهم الذكور لباس البنات لإرسالهم إلى مدارس البنات التي كانت لا تزال على شكلها القديم، أو حتى استبقاء أبنائهم بالمنزل. ينظر:

Hermann Vámbéry: **Der Islam im neunzehnten Jahrhundert: eine culturgeschichtliche Studie**, F.A. Brockhaus, Leipzig, Deutschland, 1875, Seite 174.

³ - Roderic H. Davison: Op.cit, P248-249.

⁴ . هو مذهب مسيحي بروتستانتي يسعى إلى تطهير كنيسة إنجلترا من الممارسات الكاثوليكية الرومانية، يعتقد أصحابه أن كنيسة إنجلترا لم يتم إصلاحها بالكامل ويجب أن تصبح أكثر بروتستانتية. ينظر:

Spraggon Julie: **Puritan Iconoclasm During the English Civil War**, Studies in Modern British Religious History, Vol 6, Boydell Press, Britain, 2003, P98.

⁵ - Ibid, P249.

افتتحت الجامعة بإستانبول¹ في 20 ذي القعدة 1286هـ/20 فبراير 1870م وسرعان ما واجهت الجامعة صعوبات جزئياً بسبب نقص المعلمين والطلاب والكتب المناسبة، ولكن أيضاً لأن المحاضرات الشهيرة لجمال الدين الأفغاني أثارت احتجاجاً من جانب شيخ الإسلام وأعضاء آخرين من العلماء، لذلك تم إغلاق الجامعة سنة 1287هـ/1871م، ولن يعاد فتحها إلا بعد نهاية فترة التنظيمات².

كان التقدم التعليمي في أفضل الأحوال غير مكتمل، وكان هناك العديد من الصعوبات صحيح أنه تم استنساخ المؤسسات الغربية، ولكن المدرسين المدربين في الغرب كانوا قلة، تم تغطية بعض النقص في المدارس المدنية من قبل الرجال الذين تدرّبوا في المدارس العسكرية، عندما يكون المدرسون أجانب فإنّ التعليم يكون باللغة الفرنسية كما هو الحال في غلطة سراي أو في كلية الطب العسكرية أثار ذلك حفيظة واحتجاج الطلاب الأتراك الوطنيين ممّا دفع بتحوّل كلية الطب بالفعل إلى اللغة التركية سنة 1284هـ/1869م، لم يتزايد عدد المدارس الابتدائية بالسرعة الكافية وتم تحديث التدريس فيها ببطء شديد³.

كانت أوجه القصور وخيبات الأمل حقيقية ولكن كان هناك تقدّم محرز⁴؛ كان التعليم التركي أكثر انتشاراً ومختلفاً بعض الشيء من حيث الأسلوب والجودة عما كان عليه في سنة

1. ترأسها خوجا تحسين أفندي وهو عضو ليبرالي من العلماء الذين كانوا في باريس وكان على صلة بالعثمانيين الجدد، ذكر العالم الفيلولوجي وعالم الاجتماع السويسري والتر روج (Walter Rüegg) (1918-2015) في موسوعته: تاريخ الجامعة في أوروبا ما نصّه: في تركيا كان التعليم العالي حتى الحرب العالمية الأولى قائماً على المدرسة (Medrese) العثمانية التي تأسست في العصور الوسطى... في القرن التاسع عشر، كان التعصّب الديني فيما يتعلق بالاكْتِشاف قد أفسح منذ فترة طويلة الطريق للتقليدية التي منعت كل محاولة للتحديث ومع ذلك فإن تأسيس مدرسة الهندسة البحرية الهمايونية في إستانبول سنة 1771م لم يواجه أي مقاومة، وانضمت إليها سنة 1883م المدرسة العليا للهندسة المدنية... ثبت أنه من الصعب إنشاء جامعة في إستانبول على النموذج الأوروبي، تم إغلاق "دار الفنون" التي تم افتتاحها سنة 1863م، وأعيد فتحها مرتين حتى بدأت في العمل ككلية جامعية سنة 1900م مع أقسام في علم اللاهوت الإسلامي والفلسفة والرياضيات والعلوم وعلم اللغة. ينظر:

Walter Rüegg: **A History of the University in Europe, Universities in the Nineteenth and Early Twentieth Centuries (1800–1945)**, Vol 3, Cambridge University Press, New York, USA, 2004, P44.

² - Roderic H. Davison: Op.cit, P249-250.

³ - Ibid, P250.

⁴ . عقد المستشرق المجري (Hermann Vámbéry) في كتابه السالف الذكر فصلاً حاول فيه وضع مراجعة عامة للتعليم العام بالدولة العثمانية اعتباراً من سنة 1875م، وذلك في الفصل التاسع الذي يحمل عنوان: المدرسة والتعليم والأدب (Schule,) (Bildung und Literatur). ينظر: Hermann Vambéry: Op.cit, P171,185.

1272هـ/1856م¹ لقد تحملت الدولة المسؤولية وتم اعتماد برنامج التحديث رسميًا وكانت بعض المدارس آخذة في التحسن، جنبا إلى جنب مع المدارس العسكرية الغربية والتطورات الجديدة في الأدب والصحافة وزيادة اتصال الأفراد بأوروبا، كانت المدارس المدنية تساهم في إنشاء طبقة جديدة متعلمة تشكلت خارج الأنماط القديمة للمدرسين²، وكل عملية إحياء أو تغريب تنطلق من التعليم. نقلا عن دافيسون أيضا في المجال القانوني: بحلول سنة 1283هـ/1867م كان الصدر الأعظم عالي باشا مستعدا على الأقل للنظر في اعتماد أجزاء كبيرة من القانون المدني الغربي، واقترح ذلك في مذكرته لتلك السنة؛ كان عالي باشا مطلعًا على شيء من القانون المدني الفرنسي، وقد ترجم هذا القانون بالفعل إلى اللغة العربية تحت رعاية الحكومة المصرية، طالب عالي باشا الذي كان مقتنعًا بوضوح بأن المساواة والعثمانية سوف يتم الدفاع عنهما بشكل أفضل من خلال اعتماد قانون مدني يخضع له جميع رعايا الدولة العثمانية على اختلاف معتقداتهم، بترجمة النسخة العربية إلى التركية، لكن السؤال يتعلق بالمدى الذي أراد عالي باشا أن يذهب إليه في تطبيق القانون المدني الفرنسي على الدولة العثمانية³، فلم يكن واردا عند هذه النقطة التنبؤ نهائيا عن الشريعة.

اعتبر كل من عالي باشا وفؤاد باشا أنّ جودت باشا كان يمثل روحًا ليبرالية يمكنها توجيه اندماج القانون الأوروبي والتركي، لقد تمت مناقشة مسألة القانون الفرنسي وإمكانية اعتماده في مجلس الوزراء لكن تمت معارضته، ويقال إن فؤاد باشا أيّد جودت باشا وآخرين ممن عارضوا مثل هذه الخطوة وفي الأخير فازت الشريعة⁴، لا ريب أنّ الرغبة في تحديث القوانين كانت موجودة، ولكن ليس بعيدا

1. الحاجة إلى تعزيز العثمانية (Osmanlılık) دعت إلى إيجاد مدارس مختلطة للمسلمين وغير المسلمين كالتالي بدأ مدحت باشا تأسيسها في ولاية الطونة، لتجاوز الخطوط الفاصلة بين الملل. تم فحص هذا الإشكال من قبل لجنة خاصة قامت بفحص إصلاحات سنة 1856م والتي وافقت على أنه كان من الأفضل أن يكون هناك أطفال غير مسلمين في المدارس العثمانية بدلاً من المدارس الأجنبية، ولكنها وجدت أن طريقة التعليم الديني التي ما زالت تميّز المدارس الرشدية جعلت التدريس المختلط صعباً للغاية. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P245-246 .

2 - Ibid, P250.

3 - Ibid, P252.

اعتبر تبيّ قانون نابليون لسنة 1804م بأكمله في ذلك الوقت تدبيراً أكثر تطرفاً مما كان عليه الوضع في ظل الجمهورية، وضع قانون مدني جديد يستند إلى القانون المدني السويسري سنة 1926م، كان اقتراح عالي باشا في مذكرته سنة 1867م مقيداً؛ استخدام القانون المدني الفرنسي للمحاكم المختلطة في القضايا المتعلقة بالمسلمين وغير المسلمين، كان عالي باشا رجلاً حذراً بطبيعته ربما كان ينوي تماماً اعتماد أجزاء من القانون المدني الفرنسي التي تؤثر على المعاملات التجارية كملحق للقانون التجاري الفرنسي القائم بالفعل. بالنسبة للمذكرة الفرنسية المؤرخة في 22 فبراير 1867م فقد أشار بالتحديد إلى أنّ القانون التجاري العثماني يفتقر إلى المبادئ العامة اللازمة التي تم العثور عليها في القانون المدني الفرنسي. ينظر: Loc.cit.

4 - Ibid, P252-253.

عن الشريعة.

يعتبر من أجل ذلك أنّ الإصلاح القانوني الأكثر أهمية في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر كان إصدار القانون المدني الجديد المعروف باسم مجلة (Mecelle) الذي ظهر القسم الأول منها سنة 1287هـ/1870م وتمّ الانتهاء منها سنة 1293هـ/1876م، كان القانون إلى حد كبير عمل المؤرخ والفقير القانوني الكبير أحمد جودت باشا، بعد توليه مناصب رسمية مختلفة تم تعيينه رئيساً لديوان الأحكام العدلية سنة 1285هـ/1868م، وهو منصب يوازي منصب وزير العدل، قبل أن يعتمد منصب وزارة العدل منصباً منفصلاً ومستقلاً في الحكومة العثمانية، وقد عمل أحمد جودت باشا على عقد دورات في القانون في الوزارة لصالح القضاة، ووضع مجموعة جديدة من المحاكم المدنية، ومحاكم نظامية مع نظامها القضائي والإجرائي الخاص بها ومع محاكم الاستئناف في "ديوان الأحكام العدلية" وقد لعب جودت باشا خلال توليه سابقاً منصبه كعضو ضمن لجنة العدل، دوراً في تطوير قانون العقوبات وقانون الأراضي¹، ويمكن اعتباره بحق أبو القانون الشرعي العثماني الحديث.

بالنسبة للمبدأ التمثيلي لجميع رعايا الدولة العثمانية الذي أقرّه فرمان الإصلاحات فإنه بعد ثلاثة أشهر من إعلان فرمان تم تعيين أول مندوبين مسيحيين في المجلس الأعلى للأحكام العدلية وهكذا ولأول مرة في التاريخ العثماني يطبّق مبدأ التمثيل في أحد أجهزة الحكومة المركزية، إن مسألة ما إذا كان الأعضاء المعيّنون في رمضان 1272هـ/ماي 1856م ممثلين حقاً، باستثناء أنهم ينتمون إلى ملل مهمّة غير مسلمة² تثير شكوكاً جديدة. لم يتم انتخابهم من قبل مجتمعاتهم ولكن تم تعيينهم بموجب مرسوم حكومي، علاوة على ذلك كان على هؤلاء غير المسلمين الجلوس والتصويت فقط عند مناقشة المسائل ذات الاهتمام العام فيما يتعلق بجميع رعايا الدولة العثمانية، وهي تسوية تبرر توضيح فؤاد باشا

¹ - Bernard Lewis: Op.cit, P122- 123.

حرص عالي باشا على اتباع سابقة القانون التجاري واعتماد أجزاء من القانون المدني الفرنسي كقانون مدني للدولة العثمانية، غير أنّ جودت باشا فضل عدم الخروج عن الشريعة الإسلامية، وإعداد مدونة قانونية تعتمد على الشريعة الإسلامية مع الحرص أن تكون حديثة في الشكل والعرض، وفق هذا المنهج شق طريقه هو ولجنته، حتى وضعوا مدونة الشريعة وفق المذهب الحنفي والتي تعتبر من بين الإنجازات العظيمة للفقهاء العثماني، وظلت سارية حتى إلغائها سنة 1926م، ولا تزال تشكل أساس الأنظمة القانونية للعديد من الدول الآسيوية التي كانت تتبع الدولة العثمانية. ينظر: Bernard Lewis: Op.cit, P123.

². تم اختيارهم أيضاً من بين العائلات الكبيرة في إستانبول التي ترتبط مصالحها ارتباطاً وثيقاً بالباب العالي، فمثلاً كان العضو الغريغوري الأرمني يوحنا داديان (Ohannes Dadian) من عائلة كانت تحتكر صناعة البارود في الإمبراطورية لأكثر من قرن وكان ممثلاً اليهود حليم الصغير مصرفياً ثرياً. وفي سنة 1867م شغل أعضاء المجلس من غير المسلمين مقاعدهم مثل زملائهم المسلمين على أساس دائم وليس مؤقت. وعندما تم تحويل المجلس الأعلى في 1868م إلى مجلس الدولة تم توسيع عضوية غير المسلمين. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P93-94 .

للمسلمين حول أهمية هذا الوعد في خط همايوني، فما المشكلة التي ستثيرها مجموعة صغيرة من غير المسلمين؟ ومع ذلك في البداية لا يمكن توقع المزيد.

بدأ مبدأ التمثيل أكثر وضوحاً في سنة 1280هـ/1864م إذ بمجرد اكتمال إصلاحات الملل تم وضع مخطط جديد لحكومة المقاطعة أو الأيالة؛ سمي نظام تشكيل الولايات (Teşkil-i Vilayet Nizamnamesi) وهو الاسم الجديد الممنوح للأيالات، كانت الجهود التي بذلت منذ صدور فرمان الإصلاحات لتحسين الإدارة المحلية وعمل مجالس الأيالات ذات التمثيل الجزئي متفرقة إن زيارات المفتشين ورحلة التفتيش إلى البلقان التي قام بها الصدر الأعظم محمد أمين باشا القبرصي قد أثرت شيئاً ما من خلال تحسين المشورة، ومن خلال أساليب خاصة مثل عزل المسؤولين الفاسدين وإجراء انتخابات جديدة في سنة 1280هـ/1864م تمت محاولة لإصلاح شامل للوائح تنظيم حكومة الأيالة، وتم إجراء مراجعة إضافية طفيفة سنة 1283هـ/1867م، من الواضح أن المخطط الجديد للولايات يدين بالكثير للمثال الإداري الفرنسي: الولاية (departement)، المحافظة (arrondissement) البلدية (canton) الناحية (commune)، التي ظهرت في القانون العثماني تحت اسم ولاية (Vilayet) سنجق (Sancak)، قضاء (Kaza)، قرية (kariye) أو ناحية (Nahiye)¹.

تم دمج المبدأ التمثيلي في ثلاث مؤسسات منفصلة تم إنشاؤها بموجب هذا القانون: بالمجلس الإدارة الذي تم إنشاؤه في كل ولاية وسنجق وقضاء وفي المحاكم المحلية وفي الجمعية العامة أو المجلس العمومي الذي تم إنشاؤه بكل ولاية. بالنسبة إلى مجالس الإدارة والمحاكم كان النظام الانتخابي المقدم معقداً للغاية وغير مباشر، فقط أعضاء مجلس القضاء تم انتخابهم بشكل يقترب من الاقتراع المباشر، مع ذلك كان القانون كله مشعباً بفكرة التمثيل، كان من المفترض أن يكون لدى مجلس إدارة الولاية والسنجق بالإضافة إلى أعضائها السابقين اثنين من المسؤولين المسلمين المنتخبين واثنين من المسؤولين غير المسلمين المنتخبين².

كان المجلس العمومي للولاية يتكون من اثنين من المسلمين المنتخبين واثنين من غير المسلمين المنتخبين عن كل سنجق. فقط في المجلس الإداري للقضاء (Kaza) ترك تحديد ديانة المنتخبين في قاعدة هرم التنظيم الإداري الجديد أي القرية أو الناحية، كان مجلس الشيوخ (İhtiyar meclisi) في كل قرية متجانساً على الأرجح من ناحية الديانة سواء كان مسلماً أو مسيحياً³، كان الهدف المتوخى هو إرساء

¹ - Roderic H. Davison: **Essays in Ottoman and Turkish History, 1774-1923**, The Impact of the West, 1 Edt, University of Texas Press, Austin, USA, 1990, P103.

² - Loc.cit.

³ - Ibid, P103-104.

قاعدة تمدين الدولة على أساس المواطنة لا الهوية الدينية.

طراً على قانون أو نظام تشكيل الولايات تغييرات وإضافات وعمّر طويلاً، واجهت تنفيذه العديد من الصعوبات، وكانت الشكاوى حوله كثيرة، التوازن الذي حاول القانون إحداثه بين المركزية واللامركزية، بين المسؤولين المعيّنين من إستانبول والممثلين المحليين من المتوقع أن ينجم عنه احتكاكاً أو عدم كفاءة أو تواطؤاً، وغالباً ما كان العنصر التمثيلي داخل النظام وفقاً للمنطقة والمسؤولين المعيّنين في وقت معين ليس أكثر من أمر شكلي، ولكن لا ريب في أن القانون نفسه كان أساسياً في إرساء المبدأ التمثيلي في الحكومة العثمانية وربطه بعملية انتخابية، مهما كانت غير مباشرة¹، ومثل ذلك بدايات الحياة التمثيلية والنيابية بالدولة العثمانية².

تم إنشاء الرابط الأول بين مجالس الولايات وهيئة الحكومة المركزية عندما تم استبدال مجلس ولاية الأحكام العرفية السابق (Meclis-i Vala) بمجلس الدولة (Şura-yı Devlet) سنة 1285هـ/1868م. كان على مجلس الدولة وهو الآن الهيئة الرئيسية لصياغة القانون في الدولة أن يجتمع كل عام مع ثلاثة أو أربعة مندوبين من الجمعية العامة لكل ولاية، ويناقش معهم الرغبات والمطالب التي حددت في المذكرات المرسلة من الولاية، ذلك كان يمثل الحلقة الأولى بين الهيئات التمثيلية الولاية المنتخبة وهيئة مركزية دائمة تعمل وفقاً لقواعد إجراءات برلمانية محددة جيداً وكانت هي نفسها ممثلة جزئياً لشعوب الدولة³.

كان مجلس الدولة نفسه في الحقيقة أكثر تمثيلاً لشعوب الدولة مما كان عليه سلفه مجلس ولاية الأحكام العرفية؛ من أصل ثمانية وثلاثين عضواً أصلياً تم تعيينهم سنة 1285هـ/1868م كان ربعهم تقريباً من وجهاء الولايات، وما يقرب من الثلث بما في ذلك بعض هؤلاء الأعيان كانوا من غير المسلمين، على الرغم من أن النسب كانت جميعها غير مضبوطة فيما يتعلق بالطوائف مجموع غير المسلمين: أربعة كانوا من الأرمن الكاثوليك وهم أقلية ضئيلة، ثلاثة كانوا يونانيين، اثنان من اليهود؛

¹ - Ibid, P104.

². بعض المؤرخين العثمانيين ولا سيما أحمد راسم وعلي فؤاد ذكروا أنه يوجد في مذكرات مدحت باشا نصّ مفاده أن قانون نظام تشكيل الولايات قد صاغه عالي باشا وفؤاد باشا باعتباره "مقدمة لغرفة النواب" وهذا بعيد عن الاحتمال في حالة عالي باشا ومشكوك فيه في حالة فؤاد باشا، من الممكن أن يكون مدحت باشا الذي ساعد في إعداد القانون وكان أول رئيس لمجلس الدولة (Şura-yı Devlet) قد طور أفكاراً برلمانية في هذا الاتجاه سنة 1868م. يبدو أن الهدف من القانون هو ببساطة ضمان حكومة أفضل من خلال الجمع بين بعض الأصوات الشعبية والسلطة الإدارية المركزية في كل منطقة. ومع ذلك لا يمكن إنكار أنه عند صياغة دستور سنة 1876م، كان القانون الانتخابي الذي رافقه قائماً بالكامل على الأحكام الانتخابية لقانون نظام تشكيل الولايات

ينظر: Loc.cit

³ - Loc.cit.

أحدهما أرمني غريغوري. والآخر بلغاري¹.

نجد أنّه في سنة 1285هـ/1868م كان هناك تاريخ كبير يمتد لما يقرب من ثلاثين عامًا من التجارب مع مؤسسات الحكومة المحلية والمركزية التي جسدت المبدأ التمثيلي، لقد عملت جميع المؤسسات بشكل غير كامل، وبعضها في الواقع كان سيئًا للغاية، وكان المبدأ التمثيلي ينتهك في كثير من الأحيان أكثر مما لوحظ، لا يمكن لأحد أن يجادل بأن الناس العاديين كانوا ممثلين حقا في الدولة، أو أن تلك الانتخابات لم تكن كقاعدة عامة خاضعة لسيطرة صارمة من قبل المسؤولين المحليين أو الأعيان، ومع ذلك كان المبدأ التمثيلي من عدة جوانب راسخًا في القانون العثماني².

يمكن لبعض المؤسسات التي تم إنشاؤها أن تساهم في توسيع مبدأ التمثيل، أو حتى توفير أساس لإنشاء برلمان. بعض المعلقين الأتراك يشيرون إلى إنشاء برلمان داخل مجلس الدولة، وكما ورد أنّ فؤاد باشا قال عن أحمد مدحت باشا³: "يرى هذا الرجل في النظام البرلماني علاجًا لجميع الشرور دون الشك في أن السياسيين يعارضون الترياق الشافي على الرغم من كونه دواء"، إن معظم المراقبين إذا رأوا أي فضيلة على الإطلاق في مجلس الدولة فعلى الأرجح كانوا يتفقون مع أحمد مدحت باشا على أن المجلس كان "مدرسة لتدريب رجال الدولة"⁴.

بالنسبة لموضوع شائك هو الخدمة العسكرية والذي وعد الفرمان وأكد فيه على مبدأ المساواة بين جميع العثمانيين مع تأكيد ذلك من خلال الإجراءات التي اتخذتها الحكومة فإنّ التنفيذ لم يحالفه النجاح نظرًا للحواجز الدينية والنفسية؛ كتب دافيسون: كانت هناك قضية حسّاسة وهي القضية ذاتها التي طرحت في خط شريف كلخانة أو أثناء حرب القرم فقد باءت محاولة إنشاء خدمة عسكرية وفق مبدأ المساواة بالفشل؛ فقد أراد المسلمون من إخوانهم من غير المسلمين أن يتقاسموا عبء الدفاع عن الدولة، لكنهم بطبيعة الحال لم يكونوا يريدون الخدمة تحت ضباط مسيحيين أصليين أو تسليح مسيحيين قد يثورون مستقبلًا⁵، وشكلت تلك الهواجس أهم كوابح الذهاب بعيدا في تمدن الدولة.

تقرر إضافة إلى ذلك أنه بسبب معارضة التدبير والصعوبات العملية التي واجهته فإنّه إذا تم إدخال فرقة كاملة من غير المسلمين غير المدربين فجأة في جيش مسلم متمرس على القتال فإنّ ذلك من شأنه أن يحدث خللا بالجيش، في المجموعة الأولى المؤلفة من ستة عشر ألفًا

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, P105.

³ . ستعرف بشكل مفصل عن شخصية مدحت باشا بعد قليل.

⁴ - Roderic H. Davison: Op.cit, P105.

⁵ - Roderic H. Davison: **Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876**, Op.cit, P94.

من المجندين المؤهلين غير المسلمين سيتم توظيف أربعة آلاف فقط في السنة الأولى، في الواقع حتى هذا لم يحدث، اعترف فرمان الإصلاحات بمبدأ دفع المال مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية والذي أعيد فرضه بتسمية جديدة هي بَدَل الخدمة العسكرية (bedel-i askeri)، وهي مساهمة للإعفاء كانت في الأساس أموال الجزية القديمة، تم الحفاظ على المساواة النظرية من حيث المبدأ لأن المسلمين سُح لهم أيضاً ببدل الخدمة العسكرية. لكن تم رفض المساواة لأن المسلمين اضطروا إلى دفع مبلغ أكبر¹.

أظهرت السنوات التي تلت صدور فرمان الإصلاحات بطرق مختلفة دليلاً على وجود اتجاه بطيء ولكنه مستمر نحو المساواة العثمانية، وحماية أكثر فعالية تمنحها الحكومة للعثمانيين من جميع المعتقدات واصل الباب العالي تقديم الضمانات وإصدار أوامر بشأن المعاملة المتساوية للجميع كتب دافيسون: تم قبول شهادة المسيحيين في المحاكم المختلطة وأحياناً في المحاكم الإسلامية تم إعطاء عدد أكبر من غير المسلمين المناصب الرسمية ذات الأهمية، على الرغم من أنه في سنة 1868 فقط ولأول مرة في التاريخ العثماني يعين أول غير مسلم يدعى كريكور أغاتون (Krikor Ağaton)² في المرتبة الوزارية وزيار للأشغال العامة، في هذا التقدم المتقطع نحو مساواة أكثر صدقاً كان هناك انقسام ثلاثي: كان الباب العالي مقابل الرأي العام المسلم، والعاصمة مقابل الولايات، وبينما حسّن بعض العثمانيين غير المسلمين وضعهم وتقدّموا في الوظائف الرسمية، ذهب العديد من إخوانهم في الاتجاه المعاكس نحو القومية الانفصالية³.

¹ - Loc.cit.

² . بحسب مقالة البروفسور محمود أكينار بعنوان: أول وزير غير مسلم في الدولة العلية: كريكور أغاتون أفندي (1823-1868) فإن: كريكور ولد سنة 1823م لأسرة تعمل بالزراعة في حي هاسكوي (Hasköy) [على الضفة الشمالية للقرن الذهبي في بيوغلو إستانبول] وهو مكان يسكنه الأرمن...أكمل دراسته الثانوية بباريس التحق بمدرسة الزراعة في جرينون بفرنسا تحت رعاية يعقوب جيرجكيان مترجم ومستشار السفارة العثمانية بباريس. وتخرّج بمرتبة الشرف بعد ثلاث سنوات من التدريب سنة 1843م. وكانت له بعد ذلك عدة أنشطة علمية وتولى عدة مناصب في الدولة العثمانية، في أبريل 1865م شارك في أعمال مؤتمر التلغراف المنعقد بفرنسا وهو ما سمح للدولة العثمانية نتيجة لعمله بأن تصبح عضواً في اتحاد التلغراف الدولي. وفي مارس 1868م تم تعيينه وزيراً للأشغال العامة (Nafia Nezareti). اعتبر الصدر الأعظم عالي باشا تعيين كريكور أفندي في منصب وزير ضرورة من حيث الاندماج الاجتماعي للرعايا غير المسلمين، وأيضاً كرسالة ذات مغزى إلى الدول الغربية. شارك كريكور في صياغة دستور الطائفة الأرمنية العثمانية، وعمل من أجل أن تستفيد الطائفة الأرمنية من برامج الإصلاح العثماني. وكانت أفعاله دائماً مدفوعة بمبدأ سلامة الدولة العثمانية، توفي في 1868م بفرنسا بسبب المرض. أعيد جثمانه إلى إستانبول ودفن بمقبرة الأرمن في هاسكوي. ينظر:

Mahmut Akpınar: **Devlet-i Aliyye'nin İlk Gayrimüslim Nazırı: Krikor Ağaton Efendi (1823-1868)**, Proje Türkler ve Ermeniler Tarih Boyunca Türk-Ermeni ilişkilerini, Marmara Üniversitesi, Türkiye, <http://turksandarmenians.marmara.edu.tr/tr/devlet-i-aliyyenin-ilk-gayrimuslim-naziri-krikor-agaton-efendi-1823-1868/> .

³ - Roderic H. Davison: Op.cit, P94.

نجد مثالا في واحدة من حالات الردة النادرة حيث ارتدّت عائلة مسلمة تركية إلى المسيحية حقق الباب العالي في الواقعة ولم يعثر على أي شبهة إكراه، فقام بحماية العائلة المرتدّة مصرّحا: "المسلمون أصبحوا أحراراً في أن يصبحوا مسيحيين كما أن المسيحيين أحرار في أن يصبحوا مسلمين، لن تفرّق الحكومة بين الحالتين!!" لكن هذا الموقف أثار حفيظة الرأي العام بحيث أن تلك العائلة فرّت بحثاً عن الأمان رغم حماية الباب العالي¹، هل كان ذلك من الباب العالي رسالة للغرب، أم أنّه كان تأكيد على السير نحو علمنة الدولة وفصل دينها عن إدارتها؟²

أنشأت الحكومة العثمانية سنة 1279هـ/1862م مديرية للصحافة، وفي سنة 1282هـ/1865م صدر قانون للصحافة يلزم بطلب تصريح رسمي لكل صحيفة أو ناشر جديد ويلزم بتقديم نسخة موقعة من كل إصدار إلى الحكومة لمراجعتها، ووضعت أنواع مختلفة من العقوبات للمخالفين، وقد تمّ بناء على ذلك إصدار قانون منع نشر أي شيء يضر بالأخلاق العامة أو الدين أو العادات الصالحة، وكذلك أي شيء ضد السلطان أو الوزراء، ويمنع التواطؤ في أي خطوة يُرجح أن تخلّ بالنظام الداخلي، من الواضح أنّ عالي باشا (وزير الخارجية حينها) وفؤاد باشا (الصدر الأعظم حينها) كانا قلقين بشأن التأثير المحتمل للصحافة المستقلة على الاستقرار العثماني وعلى قراراتهما³.

من المستحيل أن نكون دقيقين علمياً حول بيئة الرأي العام في الدولة العثمانية من 1272هـ/1856 حتى 1293هـ/1876م، لكن نجاحات وإخفاقات فترة التنظيمات لا يمكن فهمها دون الرجوع إليه؛ استخدم مصطلح "الرأي العام" (efkâr-i umumiye) بشكل متزايد من قبل الكتّاب العثمانيين في هذه السنوات، وكان هذا الرأي العام نتاجاً للتأثيرات المتنافسة والمتداخلة

¹ - Ibid, P97.

² . كان عالي باشا يعتبر الإسلام هو الدين الرسمي للدولة العثمانية، لكنه كان يعمل على إبقاء شؤون الدولة منفصلة عن أحكام الإسلام؛ نرى مصداق ذلك في رسائل القس المبشر ويليام جودل التي يوضح فيها كيف سعت الحكومة إلى فصل الشؤون "الدينيّة" و "الدينيّة" وكيف أربك التأثير الغربي للقرن التاسع عشر العثمانيين غير المسلمين فأربكوا الحكومة في سعيها لذلك الفصل. وفقا لرجال دولة التنظيمات سيتم الحفاظ على امتيازات الطوائف ذات الطبيعة الدينيّة البحتة لكونها تتعلق بحرية الضمير، ولكن تلك المتعلقة بالشؤون المدنيّة والقضائيّة يجب القضاء عليها لأنها تتعارض مع التنفيذ الموحد للإصلاحات. لا يمكن أن تكون الدولة العثمانية مدنيّة إلا عندما تصبح الطوائف تجمعات دينيّة (cemaat) ويكون كل رعية عثمانية مسؤولاً بشكل فردي ومتساو أمام القانون. عندها تتوقف الشريعة عن كونها القانون الأساسي، ستبقى الشريعة فقط كقانون خاص للمسلمين، في حين ستدار الدولة وفقا للقوانين الإداريّة والإجرائيّة والجناييّة والمدنيّة والتجاريّة الجديدة. ستكون هناك قاعدة للتسامح بالمعنى الذي يفهمه عالي باشا. سيعزز التعليم قيم التسامح والمساواة والمواطنة العثمانية المشتركة. وأخيراً ستنتهي الأنشطة السياسيّة للعلماء والكنائس والمبشرين.

ينظر: Niyazi Berkes: Op.cit, P154.

³ - Roderic H. Davison: Op.cit, P186-187.

التي تتراوح من أقدم عرف إسلامي إلى أحدث فكر مدني بباريسي، في سنة 1293هـ/1876م كان يجب أخذ الرأي العام بعين الاعتبار¹.

بالنسبة للنساء نجد أنه في وقت مبكر من أربعينيات القرن التاسع عشر بدأت النساء العثمانيات في تلقي بعض التعليم الرسمي في مدارس الدولة، وبحلول نهاية القرن ربما كانت واحدة من كل ثلاث فتيات في سن الدراسة تذهب إلى المدارس الابتدائية الحكومية، لكن المدارس العليا ظلّت حكرًا على الذكور حتى قبل الحرب العالمية الأولى. علاوة على ذلك دخل عدد قليل جدًا من النساء الخدمة الحكومية، وجميعهن عملن تقريبًا كمدرسات في مدارس البنات الحكومية ومدرسة الفنون الجميلة وبخلاف ذلك بقيت الإدارات الدينية والعسكرية والمدنية محفوظة للذكور².

كانت الدولة العثمانية في ثمانينيات القرن التاسع عشر وما بعده لا تزال تعاقب النساء على ارتداء الملابس التي تعتبرها غير محتشمة، بالإضافة إلى ذلك اختفت العديد من ضمانات الملكية التي تمتعت بها المرأة بموجب الشريعة الإسلامية مع إصلاحات التحديث، وحددت القوانين الجديدة الحقوق بشكل أكثر صرامة من الحقوق التي تم تحديدها من قبل القضاة المحليين، وبطريقة ما تراجعت حقوق الملكية القانونية للمرأة بالفعل نتيجة للإصلاحات³.

أصبح هناك اتجاه متنامي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي لبعث اللغة التركية، وتوّجت هذه الفترة من التحرك نحو التركية في المفردات بالقاموس الذي جمعه أحمد وفيق باشا ونشر سنة 1293هـ/1876م والذي كان يستند إلى اللغة الحية مع التركيز على الكلمات التركية، ربما يكون تبسيط الأسلوب قد تقدم أكثر من مجرد استبدال الكلمات العربية والفارسية بالكلمات التركية⁴، وأصبح عدد متزايد من الكتاب مقتنعين بأن المزيد من الوضوح والبساطة في الأسلوب أمر مهم، كان من بين المقتنعين بذلك المؤرخ جودت باشا الذي بدأ بتحديث أسلوبه - مبتعدا

¹ - Ibid, P9.

² - Donald Quataert: **The Ottoman Empire 1700–1922**, 2 Edt, Cambridge University Press, USA, 2005, P67.

³ - Loc.cit.

⁴ . تم تحفيز عملية تبسيط الأسلوب بموجب قانون صدر في 17 ربيع الاول 1272هـ/ 26 نوفمبر 1855م والذي جعل تبسيط الأسلوب أمرا ملزما، وبدأ تطبيقه بالفعل في المراسيم الإدارية؛ كتب مرسوم خط همايوني سنة 1856م بأسلوب هو الأبسط حتى وقته، كان ظهور أول قواعد اللغة التركية الحديثة في الإمبراطورية علامة فارقة؛ تم نشرها سنة 1851م من قبل أحمد جودت باشا وفؤاد باشا. مع ذلك كانت اللغة لا تزال تسمى "عثمانية". أتى فتحي علي الأذربيجاني إلى إستانبول سنة 1863م ليقتراح على الحكومة إصلاح الأبجدية لكن اقتراحه رفض. وكان أيضا على استعداد لاعتماد الأبجدية اللاتينية. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P178-179 .

عن الأسلوب المنمّق المتصنّع - في المجلد السادس من تاريخه، وكان من بينهم أيضا معظم الصحفيين من الجيل الجديد بما في ذلك العثمانيين الجدد¹.

كان رمز هذا الاهتمام المتزايد الذي يظهر بوضوح تأثير الفكر الغربي العلماني والاتجاه نحو العثمانية (Osmanlılık) هو تأسيس الجمعية العلمية العثمانية (Cemiyet-i İlmîye-i Osmaniye) سنة 1278هـ/1861م على يد محمد طاهر منيف باشا وقد عكست هذه الجمعية العلمية تمامًا كما عكست أكاديمية التعليم السابقة (Encümen-i Daniş) مخاوف أحمد جودت باشا الأكثر تحفظًا ولكن المستنير بنفس القدر. لم يكن منيف باشا على دراية باللغات الشرقية فحسب، بل كان يعرف أيضًا العديد من اللغات الأوروبية، وقد درس في برلين أثناء خدمته كسكرتير للسفارة هناك، وكانت له العديد من الاتصالات بما في ذلك مع المبشرين الأمريكيين في إستانبول، وبسبب قيامه بترجمة بعض أعمال فولتير ومساعدته في ترجمة الإنجيل إلى اللغة التركية أتم أحيانًا بالزندقة، حدد دستور الجمعية العلمية² هدفها بتوسيع نطاق معرفة الفنون والعلوم في الدولة العثمانية من خلال الترجمات ونشر الكتب والتدريس، بينما كان عليها الامتناع عن الخوض في المسائل السياسية أو الدينية في الوقت الراهن³ وكان ذلك قرارًا حكيمًا لإبعاد الجمعية الفتية عن أي تجاذبات سياسية أو مباحكات دينية.

بالإضافة إلى الكتب المدرسية والترجمات العلمية تم ترجمة عدد متزايد من الروايات والقصائد والمسرحيات الغربية⁴، امتد رد الفعل ضد الأدب العثماني الكلاسيكي إلى تقديم المسرح الغربي؛ تمتع الأتراك منذ فترة طويلة بأصنافهم التقليدية من المسرح مثل مسرح الظل، لكن المسرح الجديد جاء من الاتصالات الغربية، من خلال الأتراك الذين ذهبوا إلى أوروبا وأحبوا المسرح الغربي وخاصة المسرح

¹ - Ibid, P178.

² . كانت العضوية في الجمعية مفتوحة للجميع بغض النظر عن العرق أو الدين، من الذين كانوا يعرفون اللغة التركية أو العربية أو الفارسية بالإضافة إلى الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية أو الإيطالية أو اليونانية. نشرت مجلّتها مجمع الفنون (Mecmûa-i Fünûn) مقالات حول مجموعة واسعة من الموضوعات بما في ذلك التاريخ والجغرافيا وعلم الفلك والجيولوجيا وتربية الأطفال والمشاكل المالية والنقل. كانت لغة المجلة واضحة وبسيطة "لكي يفهمها الجميع". ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P P180-181 .

³ - Ibid, P180.

⁴ . ترجمة رواية مغامرات تيليماك (Les aventures de Télémaque) للشاعر والكاتب الفرنسي فرانسوا فنلون (François Fénelon) تشهد على شعبية بعض الأعمال المترجمة. كانت واحدة من أشهر الروايات الفرنسية في مجتمع اللاتين بييرا (Pera) بإستانبول، ترجمها يوسف كامل باشا أحد أبرز رجال الدولة في الدولة العثمانية إلى اللغة التركية سنة 1859م وهي أول رواية وضعت باللغة التركية. ينظر: Ibid, P181.

الفرنسي¹.

نص فرمان الإصلاحات على أنه ينبغي السماح للطوائف بإصلاح نفسها، غير أنّها لم تتمكن من القيام بذلك، فتولّت الحكومة العثمانية بدعم من القوى الأوروبية الإصلاح بنفسها في النهاية تم إصلاح الطائفة الأرمنية التي كانت مصابة بالتحزّبات والخوف من التحول إلى الكاثوليكية والبروتستانتية - تم تشكيل طائفة أرمنية بروتستانتية سنة 1266هـ/1850م - أخيراً في ستينيات القرن التاسع عشر²، الطائفة اليونانية التي خشيت بحق أن يجرمها الإصلاح من المطالبة بتمثيل جميع المسيحيين الأرثوذكس، أصدرت أخيراً دستورا إصلاحيا في 1276هـ/1860م و1278هـ/1862م. أصدرت الطائفة اليهودية دستورا جديداً سنة 1865م على الرغم من أن الإصلاح الفعلي لم ينفذ لأنه كان غير ضروري³.

أطلق الباب العالي على دساتير تلك الطوائف اسم لوائح أو قوانين (Nizamat) ضمنت تلك اللوائح إضعاف سلطة رجال الدين في الشؤون المدنية، وتمّ إنشاء مجلس عام (Meclis-i Umûmî) لكل طائفة يضم مندوبين مدنيين منتخبين. على الرغم من أن هذه المجالس ضمت مندوبي المقاطعات إلا أنّ التمثيل كان ناقصاً إلى حد كبير؛ فقد كان عدد المندوبين الذين يمثلون إستانبول مرتفع بشكل لا يتناسب مع مجتمع الطوائف وتوزيعه ببقية المقاطعات. مع ذلك تم الآن تكريس المبدأ التمثيلي رسمياً في دستور مكتوب لكل فئة، أثر هذا الإصلاح على حوالي تسعة ملايين نسمة متناثرة في جميع أنحاء الدولة العثمانية ما يقرب من ثلث سكان الدولة إذا تم استبعاد مناطق الحكم الذاتي في مولدوفا ووالاشيا وصربيا⁴.

كانت السمة الرئيسية لإصلاح الطوائف هي السماح للمدنيين بشكل خاص

¹. كان مولير على وجه الخصوص ملهما لهم. تمت ترجمة العديد من أعماله الكوميدية وتكييفها مع البيئة التركية بواسطة أحمد وفيق باشا. ينظر: Ibid, P182.

². بخصوص الطائفة البروتستانتية والإصلاحات قال المبشر البروتستانتي الأمريكي ويليام جودل: "مرة أخرى يقال إن الأتراك ليسوا صادقين فيما يتعلق بالتسامح، وأنهم فقط تحت الضغط الأجنبي يحاولون العمل لصالحه. ولكن سيكون من الأصح القول أنه فيما يتعلق بالبروتستانتية فإنهم فقط تحت ذلك القبيل من الضغط تم دفعهم للعمل ضد البروتستانتية" ويتحدث كيف أن الجماعات الأرمنية واليونانية والكاثوليكية ذات التأثير القوي والمعززة بالحكومات الأوروبية عملت مجتمعة ضد البروتستانتية باستعمال جميع أساليب الضغط القدر على الحكومة العثمانية، "وبالتالي فإن التأثير الذي كان وما زال يمارس على الحكومة التركية ضد الحرية الدينية أقوى مما يمكن التعبير عنه". ينظر: William Goodell: Op.cit, P402-403.

³ - Kermal H. Karpat: Op.cit, P641.

⁴ - Roderic H. Davison: Op.cit, P102-103.

التجار والحرفيين بالمشاركة في انتخاب البطارقة وفي إدارة الطائفة المعاد تكوينها¹، ينسب روديريك دافيسون الذي خصص مساحة كبيرة لدراسة الطائفة الفضل إلى هذه الإصلاحات في تقديمها لمبادئ الحكومة التمثيلية بين الأقليات، وتعزيز وعيها الوطني، والعمل كنماذج للدستور العثماني لسنة 1293هـ/1876م²، في الواقع كان إصلاح الطوائف الخطوة الأخيرة في تصفية نظام الملل القديم ومنح العثمانيين قاعدة معرفية حديثة في كيفية التعامل مع المسائل الدينية، وكان خطوة أيضاً لكيفية التعامل مع الدين الإسلامي نفسه لاحقاً.

العديد من الاعتبارات دفعت الباب العالي للإصرار على إعادة تنظيم الملل، وأكثرها إلحاحاً الأمل في أن يتم الحد من التدخل الأوروبي لصالح الأقليات، وخاصة الضغط الروسي لصالح الأرثوذكسية اليونانية، الذي سيتم كبحه في حالة ما إذا انخفضت سلطة اكليروس رجال الدين الذين حاولوا إبقاء أتباعهم تحت السيطرة، ومن المحتمل أيضاً أن يكون رجال التنظيمات قد وضعوا في اعتبارهم تعزيز الأخوة العثمانية والمواطنة المتساوية، والتي كانت ضمنية تسري في كامل نص فرمان الإصلاحات؛ فكلما تم دفع العقيدة الدينية وسيطرة الإكليروس إلى المشهد الخلفي، كانت فرص تعزيز وضع الدولة على أساس العثمانية (Osmanlılık) أكبر، مثل هذا الإصلاح لنظام الملل من شأنه أن يساعد على زيادة الفصل بين الدولة والدين، كما كان التبرني التدريجي للقانون المدني يفعل بالفعل³.

كان التأثير الأكثر إلحاحاً لإعادة تنظيم نظام الملل هو إصلاح إدارة الولاية الذي بدأ بعد سنة من سريان القانون الأساسي لطائفة الأرمن سنة 1279هـ/1863م. ربما كانت مجرد صدفة أن تكون النظم الانتخابية والمجالس الانتخابية المعقدة لقوانين الملل والولايات موحية لبعضها البعض لكن ربما كان هناك تأثير مباشر مرة أخرى لأن فؤاد باشا ومدحت باشا كانا المؤلفين الرئيسيين للقانون الجديد للولايات⁴.

علاوة على ذلك كان من المحتمل أن يكون تمديد المبدأ التمثيلي في تشكيل مجالس الولايات والجمعيات العامة أكثر نجاحاً لأن القوانين الأساسية للملل وخاصة الأرميني منها، قد خففت

1. كان من الصعب تحقيق إعادة التنظيم الهيكلي للملل غير المسلمة بسبب معارضة رجال الدين وبعض المجموعات الصغيرة من الشخصيات البارزة المؤثرة لأيّ فعل يضعف موقفهم التقليدي المهيمن على الملل. ولكن لعدة سنوات كانت هناك تحركات داخل المجتمعات اليونانية والأرمنية واليهودية حيث انتشرت الأفكار الغربية فيما بينها، علاوة على كفاح التجار وبعض البرجوازية الوسطى والعليا ضد سيطرة النخبة الراقصة في طوائفهم. وقد مارس الباب العالي ضغوطاً للإسراع بالإصلاح الذي يتم إعداده من قبل اللجان التي تم إنشاؤها في كل من الملل الثلاثة. ينظر: Ibid, P102.

2 - Kermal H. Karpat: Op.cit, P641-642.

3- Roderic H. Davison: Op.cit, P114-115.

4- Ibid, P135.

من التأثير الاستبدادي لرجال الدين الذين لعبوا دوراً مهماً في الحياة العامة، تم الآن انتخاب بعض رجال الدين من طرف شعبهم بدلاً من تعيينهم إكليروسياً، ليشتغلوا تلقائياً بمقاعد في مختلف المجالس المحلية وفقاً لقانون الولاية الجديد، ولكن قانون الولاية الجديد بالطبع كان له تأثير أوسع إذ أثر على جميع الرعايا العثمانيين وليس فقط على غير المسلمين¹.

علاوة على ذلك من الممكن أنه باستثناء الدوافع السياسية كان هناك رغبة لدى المسؤولين في الباب العالي لتخفيف حدة الطغيان القانوني والمالي الذي يمارسه كل من الإكليروس اليوناني والأرمني على أتباعهما، وكان هناك اعتبار عملي إضافي لرجال التنظيمات يتمثل في التقليل من الاستياء المسيحي الذي أثير ضد الباب العالي من قبل كبار رجال الدين (مطرانات) (provincial metropolitans) الذين أخبروا أتباعهم بأن ما جمعه من أجل جيوبهم كان عملاً من قبل الدولة².

كانت إحدى المزايا التي اكتسبتها المجتمعات العثمانية المسيحية من فرمان الإصلاحات قدرتها على تمديد السلطة السياسية التي مُنحت لها واستخدامها في تسوية الشؤون داخل الفئة؛ في ظل النظام العثماني القديم تم منح هذه السلطة لرؤساء الجماعات الدينية أي أبناء الكنيسة أما بعد فرمان فقد تشكلت تجمعات مدنية انتزعت بيئتها تلك السلطة من البطاركة، لدرجة أن قامت الطائفة الأرمنية بصياغة دستور لنفسها، وهكذا اكتسبت أفكار الدستورية والتمثيل الشعبي موطئ قدم بين مسيحيي الدولة العثمانية.

كانت فئة الكتّاب من أهل القلم حريصة أكثر من أي شيء آخر على تحقيق مبدأ المساواة أحد أهم ركائز فرمان الإصلاحات باعتباره بوابة تكريس الهوية العثمانية، غير أنه بدلاً من أن يعزز إصلاحها للطوائف الهوية العثمانية الجديدة كان ذلك الإصلاح مصدراً للفتنة وتكريس النزعة القومية الانفصالية قال المؤرخ الأمريكي كارتر فيندلي: "في حين تمّ تعزيز التماسك العثماني وتهيئة الظروف المواتية لتنمية مجتمعات معينة كان يمكن التوفيق بينها فلسفياً، فإنه في ظل الظروف العثمانية لا يمكن تنفيذ إصلاحات طائفية دون تعزيز الانفصالية وبالتالي تقويض الهوية العثمانية. وبقدر ما نادراً ما تتوافق الاختلافات الدينية الأساسية في إصلاح الطوائف مع الاختلافات العرقية الأساسية في القومية الحديثة فإنه قد انعكست عن تلك الإصلاحات نتائج متباينة وغير متوقعة كما هو الحال في الطائفتين الأرثوذكسية اليونانية والأرمنية. بين الأقليات الدينية العثمانية اليهود فقط من كانت الأفكار القومية أو الانفصالية

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, P115.

أجنبية عنهم في هذه الفترة"¹، بمعنى أن تلك الإصلاحات الطائفية كانت بذرة للنزعة الانفصالية. يفرض السؤال الآتي نفسه: إلى أي مدى يمكن اعتبار أنّ مقصود فئة الكتّاب من أهل القلم من رجال التنظيمات من إصلاح الطوائف الدينية غير المسلمة هو جعلها بمثابة نسخ تجريبية يمكن تعميمها على عموم الشعب العثماني والمسلمين في قلبه إذا أثبتت نجاحها؟ كتب دافيسون: من غير المحتمل أن يكون هدف رجال الدولة العثمانيين في إعادة تنظيم الطائفة هو إيجاد "تجارب دستورية" و "نماذج للاستخدام المستقبلي"² لكن إعادة تنظيم الملل ساعد دون شك في تعريف بعض رجال الدولة العثمانيين بمفهوم التجمع التمثيلي المجسد في دستور مكتوب. وفي غضون بضع سنوات كان نامق كمال زعيم العثمانيين الجدد يشير إلى تجمعات المسيحيين كنماذج محتملة لمجلس النواب. من الممكن أيضًا أن الإصلاح المعروف بقانون الولايات لسنة 1280هـ/1864م قد تأثر بالدستور الأرمني لسنة 1279هـ/1863م³.

ثمّة حدث مهم جدا ولا يجب إغفاله وقع سنة 1283هـ/1867م وكان له تأثير كبير في دفع عجلة الإصلاحات العثمانية، تمثل الحدث في خروج السلطان عبد العزيز من حدود الدولة العثمانية كأول سلطان عثماني يخرج خارج حدود بلاده ليس على رأس جيشه بل في رحلة استكشافية بأوروبا بمناسبة دعوة وجهها له إمبراطور فرنسا نابليون الثالث لزيارة معرض باريس⁴ كان من شأن هذه الرحلة أن تجعل السلطان يعايش مدى التطور الذي بلغته أوروبا في جميع المجالات، وبالتالي تحفيزه للدفع بقوة

¹ - Carter Findley: "Tanzimat", Edited Reşat Kasaba, The Cambridge History of Turkey, Vol 4, Cambridge University Press, New York, 2008, P 29.

². رغم ذلك نجد أنّ رجل الدولة العثماني إسماعيل كمال بك (1844-1919م) - أحد قيادات الحركة الوطنية الألبانية ومؤسس دولة ألبانيا الحديثة سنة 1912 وأول رئيس لها - ذكر في مذكراته أنّ الأرمن نُظِر إليهم دائما على أنّهم أكثر الرعايا المسيحيين إخلاصًا للإمبراطورية وكان يُطلق عليهم اسم الملة الصديقة (Mileti sadika) وقال: عندما دخلت تركيا في مسار الحضارة والتقدم كان الأرمن هم أول المسيحيين الذين استفادوا من نظام المساواة الجديد. وأول الوزراء المسيحيين وكبار الشخصيات في الباب العالي كانوا أرمن. وقال: عندما بدأ رجال الدولة الأتراك بعد حرب القرم العمل من أجل نظام دستوري (حوالي سنة 1860م) منحوا للكنيسة والطائفة الأرمنية نظامًا قائمًا على قانون أساسي فُصد منه أن يكون بمثابة قانون أساسي تجريبي، وكان بمثابة نموذج لاستخدامه لاحقًا. ينظر:

Isma'il Kamal Bey: The memoirs of Ismail Kemal Bey, 1 Edt, Constable and Company LTD, London, 1920, P254.

³ - Roderic H. Davison: Op.cit, P103.

⁴. في رأي الدكتور دافيسون كان السبب الظاهري للرحلة هو رؤية معرض باريس، غير أنّ السبب الحقيقي هو استعادة السمعة العثمانية التي انقلبت رأسًا على عقب بسبب أحداث جزيرة كريت في عواصم أوروبا الغربية، ومحاولة منع أي تعاون فرنسي روسي لصالح المتمردين الكرستيين. لقد وصل القيصر الروسي ألكسندر الثاني نيكولايفيتش رومانوف إلى باريس، وقد تؤدي رحلة السلطان إلى إحباط تأثير القيصر ينظر: Ibid, P235.

باتجاه إحداث إصلاحات عميقة بدولته لتصل إلى مصاف دول أوروبا.

أراد عالي باشا وفؤاد باشا أن يكون لهذه الرحلة السلطانية أكثر من مجرد تأثير دبلوماسي، أراد أن يكون لها آثارا على الدولة أيضا؛ يجب أن يرى عبد العزيز بنفسه شيئا من الحكومة الملكية الغربية والتقدم المادي الغربي، عمل رجال الدولة بلا ريب يجد لإقناع عبد العزيز بهذه الرحلة، وأعدّوا الأرضية لتقديم عبد العزيز ودولته في أفضل صورة ممكنة، بدأت العملية بالفعل بمذكرة فؤاد باشا المؤرخة في 12 محرم 1284هـ/15 ماي 1867م¹ والتي أشادت بالتقدم المحرز في الإصلاح منذ صدور فرمان الإصلاحات سنة 1272هـ/1856م مع الاعتراف بصراحة بأن بعض أوجه القصور تحتاج إلى تصحيح في أقرب وقت ممكن².

رافق فؤاد باشا السلطان عبد العزيز في رحلته إلى باريس رسمياً كوزير للخارجية، ولكن أيضاً لحفظ عبد العزيز من الأخطاء المخرجة في السلوك الشخصي، خلال غياب السلطان لأربعة وأربعين يوماً عن عرشه، بلغ عالي باشا إلى ذروة سلطته السياسية كوصي على العرش، وهي المرة الأولى والوحيدة التي تقلد فيها تابع عثماني هذا المنصب، وصل عبد العزيز إلى باريس في 28 صفر 1284هـ/30 جوان 1867م، وبعد زيارة رائعة استغرقت أحد عشر يوماً، توجه إلى لندن بدعوة من الملكة فيكتوريا (Victoria)³ للقيام بزيارة مماثلة، وعاد عبر بروكسل وكولنز وفيينا وبودابست حيث التقى ليوبولد

¹. تمت الإشارة سابقا إلى الرسالة التي أرسلها فؤاد باشا باعتباره وزيرا للخارجية مصحوبة بمذكرة تفصيلية عن كل ما تحقق من وعود فرمان الإصلاحات وما لم يتحقق وأهم العقبات التي واجهت تحقيق فرمان. مما جاء فيها: عن طريق إرسال نسخة من هذه المذكرة إليكم فإني أتوسّل إليكم سيدي أن تستفيدوا منها بالشكل الذي ترونه مناسباً لاستعادة الوضع الحقيقي لشؤون الدولة، لحماية الرأي من حولك ضد أي تقييم خاطئ لجهودنا المثمرة في السعي وراء تجديد عمل وطننا. (توقيع) فؤاد. ينظر:

Grēgorius Aristarchēs (bey): Op.cit, P24-35.

وقد تمت الرحلة في ظروف استثنائية ودقيقة؛ فقد كانت سنة 1867م أيضاً أكثر السنوات حافلة بالأحداث بين حرب القرم وخلع السلطان عبد العزيز سنة 1876م؛ فقد شهدت تمرّد جزيرة كريت التي شكّلت ضغطاً على العلاقات اليونانية العثمانية. وانتفاضة الثوار البلغار في الجبل الأسود، والتمرّد في سوريا انسحاب الحامية التركية من صربيا، بدايات الإعداد لحركة موحدة للبلقان ضد الحكم العثماني. هذه الأحداث أثارت شعور المسلمين داخل الدولة العثمانية. في الوقت نفسه انشغلت فرنسا وروسيا وبريطانيا في تقييم الوفاء بوعود فرمان الإصلاحات والضغط على الوزراء العثمانيين لإجراء المزيد من الإصلاحات العميقة. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P172-173 .

² - Ibid, P235-236.

³ . الملكة ألكسندرينا فيكتوريا(1819-1901م): ملكة بريطانيا العظمى (1837-1901) وإمبراطورة الهند (1876-1901م)، وقد اقترن عهدها بتقدم بريطانيا وبالتوسع. ينظر: البعلبكي: المرجع السابق، ص340-341.

الثاني (Leopold II)¹ وليام الأول (Wilhelm I)² وفرانز جوزيف الأوّل (Franz Joseph I)³ في 3 ربيع الاخر/3 أوت وصل إلى الأراضي العثمانية إلى ولاية الدانوب أو التونة (Tuna Vilayeti) حيث أبدى امتنانه لعمل الوالي مدحت باشا. بعد ثلاثة أيام عاد إلى عاصمته، واستقبل بالترحيب الحار⁴، لقد كانت الرحلة ناجحة على العموم⁵ استطاع السلطان من خلالها استكشاف أوروبا الجديدة المتقدمة واستكشاف مدى ما وصلت إليه من ازدهار ورفاه وقوة مقارنة بالدولة العثمانية.

شكّلت الرحلة من الناحية الدبلوماسية نقطة تحول في التعاون الفرنسي الروسي في جزيرة كريت لصالح العثمانيين، كان الانطباع الذي تركته الحضارة الغربية على عبد العزيز بالغ الأهمية؛ كانت الجوانب المادية أكثر ما جذبه سيّما الجانب العسكري، وقام بتفتيش العديد من أحواض بناء السفن البريطانية والترسانات البحرية بانتباه، ورأى المناورات البحرية بالقاعدة العسكرية بورتسموث (Portsmouth) [جنوب شرق إنجلترا]، وبعد ذلك منحته الملكة فيكتوريا بيدها وسام ربطة الساق (The Order of the Garter) [أحد أكبر الأوسمة ببريطانيا]، واستعرض القوات الفرنسية والبروسية، وأعجب بشكل

1. ليوبولد الثاني (1835-1909م): ملك بلجيكا (1865-1909م). جعل بلاده دولة صناعية واستعمارية. ينظر: المرجع نفسه، ص402.

2. وليام الأول (1888-1797م): ملك بروسيا (1861-1888م) وإمبراطور ألمانيا (1871-1888م) عرف بنزعه إلى الاستبداد وإيمانه بحق الملوك الإلهي. في عهده نشبت الحرب الفرنسية البروسية التي انتهت بتحقيق الوحدة الألمانية، وتوقيع وليام إمبراطورا على ألمانيا في سنة 1871م، ولمع نجم المستشار بسمارك (Bismarck). ينظر: المرجع نفسه، ص496-497.

3. فرانز جوزيف الأوّل (1830-1916م): إمبراطور النمسا (1848-1916م) وملك المجر (1867-1916م). في عهد انشئت إمبراطورية النمسا المجر الثنائية سنة 1867م، وصرع فرانز هو وزوجته في سرايفو حيث كانا يشهدان مناورات للجيش فكان ذلك السبب المباشر في نشوب الحرب العالمية الأولى. ينظر: المرجع نفسه، ص317.

4 - Roderic H. Davison: Op.cit, P236.

5. كان لهذه الرحلة أثرين جانبيين مؤسفين بالنسبة للسلطان: إحداها كانت استياء المسلمين المحافظين بزيارة السلطان الخليفة لأراضي الكفار؛ في مفهومهم المعتمد على آداب السلوك أو القواعد البروتوكولية كان الأدني هو الذي يزور الأعلى منه رتبة وقدرًا. أمّا الأثر الآخر يتعلّق بعلاقة عبد العزيز مع ولي عهده ابن أخيه مراد. فقد اصطحب السلطان معه مراد وشقيقه عبد الحميد، وكذلك أخذ برفقته ابنه يوسف عزالدين الذي لم يبلغ العاشرة من عمره. لقد ترك مراد انطباعًا إيجابيًا في أوروبا مما أثار بوضوح غير عبد العزيز بخصوص ابنه، وسرت شائعات مختلفة حول مراد؛ من بين تلك الشائعات: رغبة الملكة فيكتوريا في تزويج إحدى بناتها لمراد، ورغبة نابليون الثالث في أن يدرس مراد علم السياسة بفرنسا وأن مراد كان سيقبى في الخارج كتهديد للسلطان عبد العزيز مثلما حدث للأمير جم ابن محمد الفاتح، وأن مراد كان عليه أن يعود إلى إستانبول قبل عبد العزيز ويعلن نفسه سلطانًا. هذه الشائعات عزّزت من شكوك السلطان فيه. في ظلّ شائعات أخرى ربما تستند إلى الواقع مفادها رغبة عبد العزيز في تغيير ترتيب الخلافة لإعطاء الأولوية لابنه، والتي أثارت معارضة ضدّ السلطان. لذلك بعد عودته إلى إستانبول فرض السلطان عبد العزيز رقابة مشدّدة أكثر من أيّ وقت مضى على مراد، وتعمّقت الهوة بينهما. ينظر: Ibid, P236-237.

خاص بأسلحة وانضباط الأخير¹.

يصعب القول ما إذا كان عبد العزيز قد تأثر كثيراً بنماذج الملكية الدستورية التي شاهدها في رحلته القصيرة، بالتأكيد أنه لم يرجع إلى وطنه دستورياً على الرغم من زيارته لدورة مجلس العموم لكنه ربما قرّر أن شكلاً من أشكال المجلس التمثيلي الموسع يتوافق مع موقفه السلطاني، كانت إحدى النصائح المحددة التي أرسلها السفير البريطاني بإستانبول إلى لندن هي أن عبد العزيز يجب أن يشاهد الوضع الفخم للملكة فيكتوريا، لأن معارضي دستورية الدولة العثمانية أخبروا السلطان أنه لا وجود للفخامة دون الحكم المطلق، مما لا شك فيه أنه تأثر بليبرالية إمبراطورية نابليون ودستورية الملكة فيكتوريا² ولا شك أن رحلته تلك كانت ملهمة بالنسبة له وجعلته منبهاً بأوروبا³، وشجعت الإصلاحيين على المضي قدماً في خططهم.

لعلّ من أهم الأحداث التي وقعت بعد رحلة السلطان الملهمة تلك، هي موافقة عبد العزيز في 12 ذي القعدة 1284هـ/5 مارس 1868م على استبدال المجلس الأعلى للأحكام العدلية بهيئتين جديدتين هما: مجلس الدولة والمجلس القضائي أو ديوان الأحكام العدلية الذي أصبح في الواقع محكمة الاستئناف العليا والنقض، تم تعيين مدحت باشا رئيساً لمجلس الدولة وأحمد جودت باشا رئيساً للمجلس القضائي وقد مارس كل منهما تأثيراً كبيراً في وضع القوانين الأساسية للهيئتين⁴، رئاسة مدحت باشا لمجلس الدولة مهّدت له الطريق كما سنرى بعد قليل نحو وضع الدستور العثماني الأوّل.

صدر النظام الأساسي للمجلس القضائي في 7 رمضان 1284هـ/1 أبريل 1868م كان على المجلس أن يتعامل مع القضايا بموجب القانون الغربي الجديد - الجنائي والتجاري والمدني - ولكن ليس مع قضايا التي تخضع للشريعة، أو تلك التي ستتم معالجتها بواسطة محاكم الملل أو المحاكم التجارية المختلطة الجديدة كان أعضاء هذا المجلس بمجرد تعيينهم غير قابلين للإقالة إلا إذا أدينوا بأمر يחדش في كرامة المنصب؛ منعت السلطة التنفيذية على وجه التحديد من التدخل

¹ - Ibid, P237-238.

² - Ibid, P238.

³ من بين الأمور التي كانت بتأثير من الرحلة الأوروبية: دعم إعادة التنظيم العسكري العثماني لسنة 1869م، بناء السكك الحديدية حيث تمّ التفاوض مع مختلف المقاولين الأوروبيين بهدف بناء خطوط تربط بلغراد بإستانبول وإستانبول بالخليج الفارسي الرغبة في وجود برنامج موسع للتعليم العام وبناء الأساس المادي للازدهار والرّفاه، الموافقة على تحويل المجلس الأعلى القديم للأحكام العدلية إلى مجلس دولة وفقاً للنموذج الفرنسي، وتم تزويده بقواعد داخلية تشبه تلك الخاصة بالإجراءات البرلمانية الغربية. إلى جانب موافقته على استبدال المجلس العلي للأحكام العدلية بهيئتين هما: مجلس الدولة والمجلس القضائي أو ديوان الأحكام العدلية الذي أصبح في الواقع محكمة الاستئناف العليا والنقض. ينظر: Ibid, P238,240.

⁴ - Ibid, P240.

في وظائف المحكمة¹، وكانت تلك أول الخطوات لاستقلالية القضاء وترسيخه كسلطة وازنة.

تم تعيين ثلاثة عشر عضوًا بالمجلس القضائي إضافة إلى رئيس المجلس أحمد جودت باشا، كان من بين الأعضاء: اثنان من الأرمن الكاثوليك وغريغوري أرمني وواحد يوناني وواحد بلغاري، وكان من بين الأعضاء المسلمين عدة علماء، كان جودت باشا راضٍ جدًا عن نوعية الأعضاء والطريقة التي نظم بها سير أعمال المجلس بنفسه².

تم نشر الخط المنشئ لمجلس الدولة بعد شهر واحد في 9 محرم 1285هـ/1 ماي 1868م بموجب هذا القرار كانت وظيفة هذا المجلس مناقشة وصياغة جميع مشاريع القوانين واللوائح إلى جانب المراقبة العامة للإدارة والإبلاغ عن أوجه القصور، ويعمل كمحكمة للفصل في قضايا النزاع الإداري والموظفون العامون، علاوة على تقديم المشورة العامة كلما طلبها السلطان أو الوزراء³ كانت قرارات المجلس تتخذ بأغلبية الأصوات، والتي قد تكون سرية إذا رغبوا في ذلك، وكان يجب عليهم حفظ محاضر الجلسات⁴. تم الترحيب بمجلس الدولة من قبل العديد من الكتاب المعاصرين باعتباره خطوة كبيرة نحو تشكيل حكومة برلمانية، وذهب البعض منهم إلى أنّ ذلك تمّ بتخطيط واعٍ من عالي باشا وفؤاد باشا، من عدّة نواحٍ يمكن اعتبار الأول منهما صحيحًا؛ تم قبول الفصل بين الوظائف القضائية والتشريعية والتنفيذية من حيث المبدأ، تم وضع نوع منتظم من الإجراءات البرلمانية داخل المجلس وكان من المقرر أن تشارك وفود من المجالس العامة المنتخبة للولايات في مناقشة المسائل التي طرحوها على المجلس، ومن ثمّ يمكن للمرء أن يدعو المجلس برلمان جنيني⁵، على اعتباره سيتطوّر لاحقًا إلى ما عرف بالمجلس العمومي العثماني (Osmanlı Meclis-i Umûmî).

كان المجلس جزءًا من جهد واعٍ لتوسيع مبدأ الحكم التمثيلي على مستوى الدولة العثمانية كان هذا واضحًا ليس فقط في حضور المندوبين المؤقتين من المجالس العامة للولايات، ولكن أيضًا في القائمة

¹ - Ibid, P240-241.

² - Ibid, P241.

³ .كان بعض أعضاء مجلس الدولة يشاركون في المراجعة السنوية لميزانية الدولة ووضعها المالي. ولإنجاز مهام المجلس تم إنشاء خمسة أقسام تابعة له: قسم الشرطة والجيش والبحرية، قسم المالية والأوقاف، قسم التشريعات، قسم الأشغال العامة والتجارة والزراعة، وقسم التعليم العام. كل قسم كان له رئيسه الخاص، ويعمل خمسة إلى عشرة من أعضاء المجلس في كل قسم. كان المجلس بأكمله على النموذج الفرنسي بالإضافة إلى ذلك تم النص على أن يناقش المجلس مع ثلاثة أو أربعة مندوبين يتم إرسالهم كل عام من المجالس العامة للولايات مرفقين بمدكرات وضعت من طرف تلك المجالس العامة. كان ذلك يظهر بوضوح الرغبة في التحقق من عمل الولاية إلى جانب التنسيق بين السلطة التمثيلية المحلية والمركزية. ينظر: Loc.cit.

⁴ - Loc.cit.

⁵ - Ibid, P242.

الرسمية للأعضاء المعيّنين سنة 1285هـ/1868م؛ من بين سبعة وثلاثين رجلاً تم تعيينهم بالإضافة إلى مدحت باشا الذي تم تعيينه بالفعل رئيساً، كان ثمانية من الشخصيات البارزة من مدن مهمة في الإمبراطورية، أحد عشر شخصاً بمن فيهم بعض الشخصيات البارزة كانوا من غير المسلمين على اعتبارهم يمثلون طوائفهم، نجد أنّ أربعة من الأحد عشر ينتمون إلى الكاثوليك الأرمن وذلك تمثيل هائل لأقلية صغيرة إضافة إلى ثلاثة من اليونانيين واثنين من اليهود وواحد بلغاري وواحد أرمني غريغوري وتم الاحتفاظ بنسبة مماثلة من حوالي ثلاثين في المائة من غير المسلمين في مناصب أعضاء المجلس¹.

افتتح السلطان عبد العزيز رسمياً في 18 محرم 1285هـ/10 ماي 1868م مجلس الدولة والمجلس القضائي في الباب العالي في غرفة مغطاة بالسجاد الأحمر تم الانتهاء منها كمدرج، أيّا كان كاتب خطابه فإنّ كلامه كان يعكس دائماً انطباعات رحلته إلى أوروبا²؛ أدان السلطان الحكومة التّعسّفية وأيد الحرية الفردية ضمن الحدود الملائمة للمجتمع، وأعلن السلطان الفصل بين السلطات القضائية والسلطات التنفيذية، والحاجة إلى إدارة جيدة لتعزيز الرخاء واللاحق بأوروبا، كرر مفهوم العثمانليّة؛ جميع الرعايا أيّا كانت ديانتهم هم "أبناء نفس الوطن" كان هناك أيضاً تلميح للمدنية في خطابه، حيث ذكر فصل السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية والدينية والتشريعية³.

يذهب المؤرخ يلماز أوزتونا إلى أنه بعد وفاة عالي باشا 1871/9/7 دخلت الدولة العثمانية في عهد " قحط الرجال " وأنّ الصدور العظام الذين أعقب بعضهم بعضا كانوا جميعهم قاصرين عن أن يسدوا الفراغ الذي أحدثته وفاة عالي باشا، كان التنافس المقيت بينهم شديداً، وأصبحت غايتهم الرئيسية هي الحصول على المنصب وتسخير الدولة في جمع الثروة والغنى الشخصي وقد أعقب عالي باشا خلال خمس سنوات ستة صدور عظام ودخلت الدولة سنة 1876م مرحلة حرجة سيما مع ضخامة الدين الخارجي⁴ ودبّرت مكيدة لخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب ولي عهده مراد

¹ - Ibid, P242-243.

² . تم الترحيب بخطاب السلطان في المجلات الأوروبية، إلى جانب ارتياح مصري غالتا، وارتفاع أسعار السندات العثمانية. ولمدة عام تقريباً تم تعزيز حرية الصحافة كما لو أن مجلس الدولة افتتح "إمبراطورية ليبرالية" على طراز إمبراطورية نابليون الثالث. مع ذلك لم تحصل المؤسسات الجديدة على موافقة عالمية؛ من لندن أشار نامق كمال إلى أنه لا تزال هناك حاجة إلى إشراف شعبي على الحكومة، وإلى مزيد من فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية، في حين انتقد ضياء باي تعيين المسيحيين في مجلس الدولة مما يدل على ضعف الباب العالي. ينظر: Ibid, P243.

³ - Loc.cit.

⁴ . بلغت الديون الخارجية للدولة العثمانية سنة 1876م 200 مليون قطعة ذهبية (كانت سنة 1861م 25 مليون قطعة ذهبية). ينظر: المرجع نفسه، ص 81.

وهي أحداث مهّدت للدستور العثماني موضوع هذا المبحث.

ترجمة من سُمِّي بأبي الدستور العثماني

ثمة رجل كان دوره محوريا في كل تلك الأحداث بداية من خلع السلطان عبد العزيز إلى إصدار الدستور؛ إنّه أحد آخر رجال فئة الكتاب من أهل القلم والتنظيمات أحمد شفيق مدحت باشا¹ يعتبره البعض أبو الأحرار وأبو الدستور²، بينما يرى فيه آخرون رجلا إنجلترا³ وخدام سياساتها ومصالحها الخارجية، غير أنّه ظل لاعبا أساسيا إلى بدايات عهد السلطان عبد الحميد الثاني حتى قتل في منفاه بالطائف.

التحق أحمد شفيق بسلك فئة الكتاب من أهل القلم تحديدا ديوان القلم الهمايوني (Dîvân-ı

1. مدحت باشا (Midhat Paşa) (1822-1884م): رجل دولة عثماني من فئة الكتاب من أهل القلم. اسمه الحقيقي أحمد شفيق. أصله من روسه (Ruşçuklu) [شمال شرق بلغاريا حاليا]، وكان والده موظفا صغيرا بنظارة الأوقاف. حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره. التحق بديوان القلم الهمايوني بواسطة رئيس الكتاب عاكف باشا في منصبه هذا اكتسب اسمه المستعار "مدحت" الذي صار لا يعرف إلا به. شغل عدة مناصب سامية. زار أوروبا سنة 1858، وتقلد بعدها عدة مناصب، حتى عين في 31 جويلية 1872م صدرا أعظما لفترة قصيرة وعزل بتدخل روسي في 19 أكتوبر 1872م. كان له دور في عزل عبد العزيز وتنصيب مراد الخامس، وعينه السلطان عبد الحميد الثاني صدرا أعظما. وفي 23 ديسمبر 1876م أعلن مدحت باشا أول دستور عثماني بعد مصادقة السلطان. لي عزل ثم يحاكم في جويلية 1881م بتهمة المشاركة في مقتل السلطان عبد العزيز، ويحكم عليه بالإعدام، لكنه ينفى إلى الطائف ليخفق هناك بعد ثلاث سنوات ليلة 7 أو 8 ماي 1884م. ليعاد دفنه بإستانبول سنة 1951م بالمقبرة التي أقيمت بميدان نُصب الحرية الأبدية. ينظر:

Gökhan Çetinsaya, Ş. Tufan Buzpınar: **Midhat Paşa (1822-1884) Osmanlı sadrazamı**, TDV İslam Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 30, Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Araştırmaları Merkezi, Türkiye, 2005, sayfa 7-10.

يذكر أنّ (Édouard Drumont) (1844-1917) الكاتب والصحفي والسياسي الفرنسي - مؤسس الرابطة الوطنية المعادية للسامية في فرنسا - ذكر أنّ مدحت باشا يهودي الأصل وهو ابن حاخام يهودي مجري، عمل بمساعدة عائلتين يهوديتين ثريتين هما: كاموندو (Camondo) وعائلة ساسون (Sassoon) على تأسيس المدارس الشرقية اليهودية، وأنشأ حزب تركيا الفتاة (la Jeune Turquie). ينظر:

Edouard Adolphe Drumont : **La France juive, sous-titré Essai d'histoire contemporaine**, Tom1, 43 Edt, C. Marpon et E. Flammarion, Paris, 1886, P112.

ينظر: (الملحق 32) صورة أبو الدستور العثماني مدحت باشا، ص 645.

2. ممن أطلقوا عليه لقب أبو الدستور العثماني المؤرخ العربي قدرتي قلعي (1917 . 1986م) الذي ألف كتابا عن مدحت باشا بعنوان: مدحت باشا أبو الدستور العثماني: وخالع السلاطين، وكذا المؤرخ توفيق علي برو في كتابه: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني: 1908-1914، وغيرهما.

3. هكذا اعتبره السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته. ينظر: عبد الحميد الثاني: مذكرات عبد الحميد الثاني، تر: محمد حرب، ط3، دار القلم، دمشق، 1991، ص 109.

(Hümâyün Kalemi) في سن مبكرة؛ إذ كان عمره اثنا عشرة عاماً، وفي هذا الديوان أطلق عليه اللقب الذي سيلازمه بقية حياته: مدحت، وظلّ يترقى في الوظائف حتى عين سنة 1265هـ/1849م في المؤسسة الأكثر نفوذاً في ذلك الوقت وهي مجلس ولاية الأحكام العدلية (Meclis-i Vâlâ-yı) بمكتب المحاضر الرسمية (mazbata odası)، ورقي سنة 1266هـ/1850م إلى منصب كبير في سلك فئة الكتّاب وهو منصب سر خليفة (serhalife)¹ سنة 1850م.

لفت مدحت باشا أنظار كبار رجال التنظيمات رشيد باشا وتلميذه عالي وفؤاد باشا فقربوه إليهم، وقلّده عدة وظائف حتى تمّ تعيينه في جمادى الآخرة 1277هـ/يناير 1861م واليا برتبة وزير في نيش (Niş) [جنوب صربيا حالياً] إحدى أكثر الولايات حساسية بالبلقان، نجّاه في هذه الولاية طيلة ثلاث سنوات جعله أحد مهندسي الإصلاح الإداري المحلي الذي تمّ اعتماده أولاً بمنطقة البلقان ثم عمّم بالبلاد كلها؛ فقد رأى كل من الصدر الأعظم فؤاد باشا ووزير الخارجية عالي باشا أنّ الأصلح لتولي أوّل منطقة يطبّق فيها نظام (yeni vilâyet nizamnâme) الولايات الشهير سنة 1280هـ/1864م، فأصبح واليا لولاية التونة (Tuna vilâyeti) - التي تشكل جزءاً كبيراً من بلغاريا اليوم - بالدانوب التي جعلت عاصمتها مدينة روسه (Rusçuk) وتشكلت من خلال دمج أيلات سيلبيستر وفيدين ونيش، وقد أبدى نجاحاً كبيراً في مهمته هذه².

بعد إلغاء مجلس ولاية الأحكام وتعويضه في ذي القعدة 1284هـ/مارس 1868م بمؤسستين هما: مجلس شورى الدولة (Şûrâ-yı Devlet) وديوان الأحكام العدلية (Dîvân-ı Ahkâm-ı Adliyye)، ترأس مدحت باشا مجلس شورى الدولة وكان نجاحاً في مهمته³ ثمّ أحرز نجاحاً لافتاً حين

¹ . بحسب موقع (Kubbealtı Akademisi Kültür ve Sanat Vakfı) المتخصص في الثقافة العثمانية فإنّ منصب سر خليفة (serhalife) هو منصب لشخص يكون عادة رئيس قلم في الدوائر الرسمية وكان كبير الموظفين. ينظر:

<http://www.lugatim.com/s/serhalife>

² . خلال ثلاث سنوات ونصف قضاها واليا للتونة تمّ إحداث تقدّم مهم في النقل النهري والبري، وتطوير الزراعة وإنشاء صناديق المنافع العمومية (menâfi-i umûmiyye sandıkları) الذي هو الأساس لبنك الزراعة (Ziraat Bankası) الذي أنشأه مدحت باشا ليجنّب الفلاحين الاقتراض من المرابين. كما تمّ إصدار جريدة التونة (Tuna Gazete) في مارس 1865م باللغة التركية والبلغارية، وهي أوّل جريدة ولائية تصدر في الدولة العثمانية، كما نجح مدحت باشا في تعزيز الأمن بالولاية بسبب كل ذلك تمّ إثبات قابلية استمرار نظام الولايات الجديد وتمّ في غضون سنوات قليلة نشره في أجزاء أخرى من البلاد، خاصة

البوسنة وسوريا وحلب. ينظر: Gökhan Çetinsaya, Ş. Tufan Buzpınar: Op.cit, Sayfa 8.

³ . خلال فترة رئاسته القصيرة لمجلس شورى الدولة - الذي كانت مهمته إعداد القوانين ومناقشتها - عمل على مواضيع مثل النظام المتري [وهو نظام للقياس عشري متفق عليه دولياً] والمواطنة والمناجم وصندوق الضمان والمدرسة الصناعية. مدحت باشا =

عيّن واليا للعراق سنة 1285هـ/1869م¹. وبعد وفاة آخر رجالات التنظيمات الأقوياء عالي باشا في جمادى الآخرة 1288هـ/سبتمبر 1871م، ازداد الضغط عليه من معارضي التنظيمات، رغم ذلك استطاع اقناع السلطان عبد العزيز بشخصه فعيّنه الأخير صدرا أعظما في 26 جمادى الأولى 1289هـ/31 جويلية 1872م غير أنّه لم يكن ناجحا في منصبه هذا الذي عزل عنه بعد فترة قصيرة جدا في 17 شعبان 1289هـ/19 أكتوبر 1872م² مع ذلك استفاد من تجربته القصيرة في ذلك المنصب للاطلاع عن قرب عن كيفية إدارة الدولة في الباب العالي.

تولى مدحت باشا الذي كان ينظر إليه على أنّه الوارث الشرعي للتنظيمات عدة مناصب إدارية هامشية، ثم عيّن ناظرا للعدلية مرتين سنة 1290هـ/1873م و1292هـ/1875م، أقيل في الأولى واستقال في الثانية³ وربما بتشجيع من إنجلترا التي كانت تريده في مركز صنع القرار كصدر أعظم⁴، وخلال مدة ابتعاده عن المناصب التي استمرت حتى ربيع الآخر 1293هـ/ماي 1876م انخرط في نقاشات

الذي كان في مثل هذه المكانة الرفيعة للمرة الأولى، اختلف مع الصدر الأعظم عالي باشا شخصيا بسبب القضايا المتعلقة بمجلس الدولة، لذا وبعد أحد عشر شهرا تم تعيينه واليا لبغداد وإبعاده عن إستانبول. ينظر: Loc.cit.

1. من خلال خبرته التي اكتسبها كوال بالبلقان طبق قانون الأراضي وقانون الولايات الجديد هنا أيضا؛ فبالإضافة إلى أنشطة إعادة الإعمار والبناء، حاول تطوير الزراعة من خلال ضمان توزيع الأراضي العراقية بسندات الملكية (tapu)، وربط القبائل بسلطة الدولة قام بتنظيم عمل العبارات في نهري دجلة والفرات. حاول تحسين حوض بناء السفن في البصرة وزيادة التجارة. جعل الكويت إداريا قضاء، وتم ضم الأحساء والقطيف وقطر ونجد إلى البصرة تحت اسم متصرفية نجد (Necid mutasarrifi) وكان ذلك أحد إنجازاته ومن بين إنجازاته الأخرى إصداره لأول صحيفة رسمية لولاية بغداد باسم " الزوراء " (ez-Zevrâ) باللغتين التركية والعربية، وافتتح مدارس ومستشفيات مدنية وعسكرية جديدة. ينظر: Loc.cit.

2. تمّ عزله عن منصب الصدارة العظمى بسبب نفوذ السفارة الروسية التي انزعجت من عزل رجلها محمود نديم باشا عن منصب الصدارة وتعويضه برجل الإنجليز مدحت باشا، وقد أعلنت روسيا أن مدحت باشا شخص غير مرغوب فيه منذ توليه منصب والي ولاية نيش، كما سرّعت خلافاته لسياسة القصر بعزله. ينظر: Loc.cit.

3. في الأولى أقاله السلطان من هذا المنصب في سبتمبر من نفس السنة، بسبب تنامي خبير إلى السلطان بأنّ مدحت باشا أعدّ لائحة (lâyihâ) عن المشاكل الإدارية والمالية وتشكيل برلمان (Meclis-i Meb'ûsan). وفي الثانية استقال هو من منصبه في نوفمبر 1875م احتجاجا على الصدر الأعظم محمود نديم باشا لأسباب مثل الضعف الإداري والإفلاس المالي والتمرد المستمر في البلقان. ينظر: Loc.cit.

4. كانت إنجلترا تريد أن ترى ولي العهد مراد على العرش، ومدحت باشا صدرا اعظما. كان مراد الصديق الشخصي لولي عهد إنجلترا - إدوارد السابع مستقبلا - وكان مزاج مراد لا يسمح له بالتدخل في شؤون الدولة. أما مدحت باشا فكان يعتبر من رجال إنجلترا وتريد إنجلترا أن يكون حسين عوني باشا الذي كانت تربطها علاقات معه أيضا على رأس الجيش العثماني؛ إنهما المرة الأولى في التاريخ العثماني التي نشاهد دولة أجنبية تشغل بالشؤون الداخلية للسلطة العثمانية وتنظيمها حسب مقتضيات مصالحها، وسخرت إنجلترا في سبيل ذلك كل قوتها وبنوكها ومحافلها الماسونية ومؤسستها. ينظر: أوزتونا يلماز: المرجع السابق، ص 80-81.

مع العلماء والدوائر المنظومة الإدارية المدنية والعسكرية وتمت مناقشة فكرة الدستور والبرلمان، على أساس أن النظام الدستوري من شأنه إنقاذ الدولة في ربيع سنة 1293هـ/1876م مع تصاعد سخط الرأي العام بإستانبول، أصبح مدحت باشا محور السلطة البديلة¹، فكيف سارت الأحداث باتجاه تبوئه من جديد أقوى مركز في المنظومة الإدارية العثمانية ذلك المنصب الذي أتاح له فرض أول دستور للدولة العثمانية؟ وما هي البيئة السياسية التي ولد فيها الدستور العثماني؟

الأحداث التي فرضت تولي عبد الحميد الثاني العرش

اندلعت في 16-17 ربيع الآخر 1293هـ/10-11 ماي 1876م - بسبب مشاكل متراكمة مختلفة غذتها مذابح البلغار ضد الأتراك المسلمين بالبلقان² - مظاهرات طلاب المدارس الشرعية التي قيل أنّ مدحت باشا يد في ترتيبها³، هذه الاحتجاجات مهّدت لعزل السلطان عبد العزيز الذي رأى فيه معارضيه وعلى رأسهم مدحت باشا أنه أكبر عقبة في وجه الإصلاحات الدستورية التي كان مدحت باشا مصمما على تحقيقها؛ فتمّ الاتصال بولي العهد مراد أفندي - مراد الخامس لاحقا - وبعد أن وعد بقبول إدارة دستورية (meşrutî) تم الاتفاق وبدعم من شيخ الإسلام على عزل عبد العزيز

1. عين للمرة الثانية رئيسا للمؤسسة الأكثر نفوذا؛ مجلس الدولة في حكومة الصدر الأعظم مترجم محمد رشدي باشا بعد إقالة محمود نديم باشا. ينظر: Gökhan Çetinsaya, Ş. Tufan Buzpinar: Op.cit, Sayfa 8.

2. في سنوات 1873 و 1874 و 1875م اكتسب السخط العام من حكومة عبد العزيز قوة دفع جديدة بسبب الضائقة الاقتصادية لشرائح واسعة من السكان وأعقب الأزمة الزراعية أزمة في الخزانة الامبراطورية. سنة 1873م ضربت الدولة العثمانية مجاعة أثرت على مناطق شاسعة من الأناضول حتى أنّها وصلت إلى العاصمة، إلى جانب الديون الثقيلة على الخزانة العثمانية، فاقمها الكساد العالمي لسنة 1873م، ومع البؤس الاقتصادي للفلاحين بالأناضول خاصة، استنفرتهم الحكومة لملء صفوف الجيش ضد ترمد البلقان في فترة 1875 و 1876م. ومع كل ذلك كان السلطان عبد العزيز لا يزال ينفق بإسراف على نفسه، يُضاف إلى ذلك الاضطرابات التي بدأت ربيع سنة 1875م بالهرسك (Herzegovina) بسبب ثقل ضرائب الدولة على الفلاحين. امتدّ التمرّد إلى البوسنة وازدادت ضراوته، ووجد إسنادا عبر حدود الجبل الأسود وصربيا والنمسا والمجر، وكان مدعوماً من القوميين السلاف. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P301,311.

3. كتب الدكتور دافيسون أنّ مدحت باشا كان له تأثير في صفوف طلاب الشريعة (softa) بالعاصمة؛ الذين يقدر عددهم بإستانبول بين 5000 و 60000، حيث قاموا بشراء الأسلحة والتهديد بأعمال جماعية. لقد جعلوا أنفسهم متحدّين عن استياء المسلمين من حكومة غير قادرة على سحق المتمردين وصدّ القوى العظمى. اتهم مدحت باشا من طرف خصومه بإثارة الاحتجاجات ضد محمود نديم من خلال توزيع الأموال بالمدارس عن طريق وسيط عثماني يوناني يدعى كريستاكي زاغاروف أفندي مصري الأمير مراد. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P326.

يذكر يلماز أوزتونا في تاريخه أنّ 1000 طالب وزعت عليهم مبالغ مالية قدرت بمجيدية واحدة (خمس قطع ذهبية)، وأنّ هذه الأموال أخذت من ولي العهد مراد. ينظر: أوزتونا يلماز: المرجع السابق، ص 82.

وكان لهم ذلك في 7 جمادى الأولى 1293هـ/30 ماي 1876م¹.

أعلنت جريدة إستانبول (Le Stamboul) بشجاعة في 7 جمادى الأولى/30 ماي أنه من المتوقع أن يجتمع الوزراء في تلك الأمسية برئاسة مراد الخامس ويعلنوا دستوراً، بعد ذلك بيومين ذهب طلاب الشريعة إلى منزل مدحت باشا وهتفوا باسمه واسم السلطان مراد ونادوا بإنشاء مجلس شورى الأمة (Şûrâ-yı Ümmet)، وبدا أن عزل عبد العزيز واعتلاء مراد العرش كما أطلق عليه البعض حدثاً ميموناً أو واقعة خيرية (Vaka-i Hayriye)² وهو المصطلح الذي كان الأتراك يطلقونه في كثير من الأحيان على حادثة إبادة محمود الثاني للإنكشارية سنة 1241هـ/1826م³.

جرت الأمور سريعاً إلى حيث لم يكن أحد يتوقعها؛ فقد أدرك الذين انقلبوا على السلطان عبد العزيز وخلعوه ثم قتلوه بعد أقل من أسبوع⁴، أدركوا أنّ السلطان الجديد مراد الخامس يعاني من اضطراب

¹ - Gökhan Çetinsaya, Ş. Tufan Buzpınar : Op.cit, Sayfa 9.

². تم التأكيد على اعتبار أن عزل عبد العزيز واعتلاء مراد العرش "واقعة خيرية" من خلال الأفعال الرسمية والوثائق التي حدثت فور تنصيب مراد؛ فقد سلم مراد الكثير من أموال ونفائس عبد العزيز للخزينة باستثناء التوزيع المتعارف عليه لمبالغ كبيرة على المسؤولين المدنيين والعسكريين بمناسبة اعتلاء العرش. كما تم فتح حديقة الحيوانات الرائعة لعبد العزيز للجمهور، والأهم من ذلك أنه تم تصوير مراد على أنه بمثابة "الملك المواطن". أمر مراد في خطاب العرش بإعادة تنظيم مجلس الدولة ووزارات المالية والعدل والتعليم العام وتنازل عن ثلث مخصّصاته المالية أي 300 ألف ليرة، وثبّت مراد في فرمانه ذلك جميع الوزراء في مناصبهم. كما أكد على احترام الشريعة دون أن ينتقص ذلك من الحرية الكاملة ودون تمييز لجميع الرعايا. أثبت صحيفة صباح (Sabah) التي تصدر بإستانبول على ما جاء في فرمان، مع ذلك فإنّ فرمان اعتلاء العرش لم يتضمن أي كلمة عن الدستور. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P337-338 .

³ - Ibid, P337.

⁴. قيل أنّ عبد العزيز انتحر؛ في صباح يوم الأحد 4 جوان 1876م تم العثور على عبد العزيز منتحراً بقطع أوردته ذراعيه بمقص ربما بسبب حالته العقلية والنفسية بعد عزله المفاجئ. قام تسعة عشر من أبرز الأطباء في العاصمة، بما في ذلك العديد من سفارات القوى العظمى بفحص الجثة واستنتجوا بالإجماع أنه قتل نفسه. ينظر: Ibid, P341.

بعد اثنا عشر سنة من حادثة الانتحار تلك شكّك الطبيب الخاص لعبد الحميد الثاني الدكتور (Spiridon Mavroyeni Paşa) في رواية الانتحار، وتأكيد رواية مقتله بأمر من الوزراء الذين أقدموا على الانقلاب عليه. ينظر:

Paul de Réglá : **Au Pays de l'espionnage : les sultans Mourad V et Abd-ul-Hamid II**, Librairie J. Strauss, Paris, 1902, P42-44 .

كما أشار تقرير نشر بالمجلة الطبية البريطانية العريقة (The British Medical Journal)، بتاريخ 8 جويلية 1876م بعنوان: "تقرير عن وفاة السلطان السابق عبد العزيز خان"، بقلم الدكتور (Dickson Edward Dalzel) الطبيب بالسفارة البريطانية بإستانبول، إلى أنّ المدّكرات الرسمية لوفاة السلطان السابق عبد العزيز خان والتقرير الطّبي حول الحادثة الذي أشرف عليه تسعة عشر طبيباً تمّ انتقادها بشدّة، واعتبر ذلك التقرير غير مقنع من الناحية الطبية. ينظر:

E. D. Dickson: "**Report on the Death of the Ex-Sultan Abdul Aziz Khan**", The British Medical Journal, United Kingdom, Jul 8 1876, P41-42.

عقلي لا يمكنه معه أداء مهامه؛ فقد تعرّض مراد إلى صدمة شديدة من حيث أنّه أخذ فجأة ليلاً على حين غرّة من طرف رجال مسلحين من شقته وأعلن سلطاناً، زعم أحمد جودت باشا أنّ علامات الضعف العقلي للسلطان الجديد ظهرت من اليوم الموالي لاعتلائه العرش كما لوحظ أنّه كان مضطرباً يوم اعتلائه العرش لذا مكثنا في القصر لمدة ليلتين بعد تنصيبه إلى جانب الصدر الأعظم وشيخ الإسلام¹ وزادت حادثة وفاة عمه السلطان المخلوع عبد العزيز من تعقيد صحته النفسية والعقلية² ورغم حرص رجال الدولة على علاجه³ إلاّ أنّه بمرور الوقت ترسّخ لديهم ضرورة البحث عن بديل.

أرسل كبار رجال الدولة مدحت باشا إلى الأمير عبد الحميد لمعرفة ما إذا كان سيوافق على التصرف كوصي حتى يتم علاج مراد، وقد أرسلوه مرة أخرى⁴ إلى عبد الحميد بعد أن استيأسوا

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P339.

² . هزه انتحار عمّه من أعماقه بعنف؛ وحين رآه مدحت باشا ومحمد رشدي بعد الحادثة بوقت قصير كان في حالة من الذهول حتى أنّه تم تأجيل مراسم اعتلاء العرش عدة مرات بسبب الحالة العقلية لمراد. ينظر: Ibid, P342-343.

³ . تم استدعاء الدكتور (Maximilian Leidesdorff) وهو أخصائي أمراض عقلية بفينينا إلى إستانبول لفحص السلطان مراد الخامس، وصل في 10 أوت وبعد فحص شامل أفاد أن مراد كان في حالة ذهنية وعصبية سيئة، وبحسب تشخيصه فإنّه مع اتخاذ التدابير المناسبة قد يتم علاجه في غضون ثلاثة أشهر تقريباً. تقرير الدكتور ماكسيميليان إلى جانب تقارير أطباء آخرين نجده بدراسة الأكاديمي التركي إسماعيل حقي أوزونسار شيلي المعنونة ب: "تقارير ورسائل عن معاملة وموت السلطان مراد الخامس، 1876-1905" "Beşinci Sultan Murad'ın Tedavisine ve Ölümüne ait Rapor ve Mektuplar, 1876-1905" الذي نشر بالمجلة الفصلية التركية (Belleten). ينظر:

İsmail Hakkı Uzunçarşılı: "Beşinci Sultan Murad'ın Tedavisine ve Ölümüne ait Rapor ve Mektuplar, 1876-1905" Belleten, Türk Tarih Kurumu, Cilt10, Sayı 38, Nisan1946, sayfa 326-328=

وردت إشارة في مصدر آخر على أنّ الدكتور ماكسيميليان طلب نقل السلطان إلى فيينا لمتابعتة بشكل أفضل لكن هذا الطلب رفض رفضاً مطلقاً من طرف أغلبية الوزراء بحجة أنّ الشرع لا يحوّل للسلطان العثماني تحت أي ظرف مغادرة أراضي الدولة العثمانية وردت تلك الإشارة بكتاب سكرتير مدحت باشا السيد أحمد كليسيان واصيف أفندي المعنون ب: صاحب السمو مدحت باشا الوزير الكبير. ينظر:

Ahmad Clician Vassif Effendi : **Son Altessse Midhat-Pacha, grand vizir**, Société anonyme de l'imprimerie Kugelman, 1909, P71-72.

⁴ . وقد ذكر سكرتير مدحت باشا السيد أحمد كليسيان واصيف أفندي في كتابه سالف الذكر خير ذهاب مدحت باشا لاستطلاع رأي شقيق مراد عبد الحميد فيما إذا كان بإمكانه أن يكون وصياً على العرش إلى حين استرجاع السلطان عافيته، ويفهم من واصيف أفندي أنّ الصدر الأعظم أيضاً استطلع رأي عبد الحميد في المسألة غير أنّ الأخير رفض ذلك بكل حسم. وذكر واصيف أفندي أنّه أمام رفض عبد الحميد أن يكون وصياً على العرش أدرك الصدر الأعظم أنّ لدى عبد الحميد دوافع خفية من وراء رفضه. ينظر:

Ahmad Clician Vassif Effendi:Op.cit, P72 .

ونقرأ فيما ذكره نجل مدحت باشا علي حيدر باي في كتابه عن والده: مدحت باشا: حياته وأثره (Midhat-Pacha; sa vie,) son oeuvre): قرر الوزراء ذهاب مدحت باشا إلى مقر إقامة الأمير عبد الحميد بشكل سري ليرى ما إذا كان =

من شفاء مراد، وعاد إلى مجلس الوزراء بكلمة عبد الحميد للالتزام بثلاثة شروط: التزامه بإصدار الدستور دون تأخير، وأنه سيتصرف في المسائل الحكومية فقط بناءً على مشورة المستشارين المسؤولين، وأنه سوف يعيد تعيين كل بعض رجالات العثمانيين الجدد كأمناء للقصر، وبهذه الطريقة كان الوزراء يأملون في حماية أنفسهم من عودة نفوذ القصر كما حدث في السنوات الخمس الأخيرة من حكم عبد العزيز¹. بعد المقابلة الموفقة مع عبد الحميد وموافقته على شروط رجال الدولة تمّ الإعداد لخلع مراد الخامس، وتمّ وضع اثنين من الفتاوى لتبرير العزل، وتم اختيار أقواهما عبارة بناءً على طلب عبد الحميد تلك التي تتحدث عن الجنون المؤكد لمراد. ومن أجل أن تسند الفتوى على أساس طبي، اعتمد على شهادة ستة أطباء بإستانبول، بينهم أربعة ملحقون بالسفارات، أفاد هؤلاء بأنهم بعد دراسة وضعية السلطان مراد خلصوا إلى أنّ حالته العقلية ميؤوسا منها.

نوقشت القضية في اجتماع استثنائي للوزراء بالباب العالي يوم الأربعاء 10 شعبان 1293هـ/ 30 أوت 1876م، توافق رجال الدولة وعلماء الشريعة على العزل، تم إرسال الدعوات لعقد مجلس كبير في صباح اليوم التالي إلى جميع الشخصيات المدنية والدينية والعسكرية من أجل التقليل من خطر المعارضة المفتوحة، حيث عرضت التقارير الطبية غير السارة عن صحة مراد، وبطلب من الصدر الأعظم تليت فتوى شيخ الإسلام بشرعية العزل²، وافق المجلس على مضمض ثم تلقى عبد الحميد يمين الولاء³

يمكن للوزراء الاعتماد على تمسكه بالإصلاحات والدستور. إذا رفض عبد الحميد الإصلاحات التي سيقترحها مدحت عليه، فسيتم تقديم العرش لأخيه الأمير محمد رشاد. لهذا الغرض تم تكليف زوجة مدحت باشا بالتحقيق مع الأمير محمد رشاد بشأن موافقه فيما يتعلق بالإصلاحات. ينظر:

Ali Haydar Midhat Bey : **Midhat-Pacha ; sa vie, son oeuvre**, Stock Éditeur, Paris, 1908, P64 .

وذكر إسماعيل كمال بك في مذكراته أنّ مدحت باشا أجرى مقابلة مع عبد الحميد في قصر والدته بتاريخ 27 أوت 1876م، وقرأ عليه مشروع مسودة الدستور الذي كان من المقرر وضعه وإصداره، وأعطى عبد الحميد موافقته وأقسم على ذلك. ينظر:

Isma'il Kamal Bey: Op.cit, P117.

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P353.

² . ذكر إسماعيل كمال بك في مذكراته أنّ الصدر الأعظم خاطب شيخ الإسلام أمام الحاضرين بهذه الكلمات: "كان لدينا سلطان كالملاك لكن الله بمشيئته العليا ابتلاه بمرض عضال يتطلب منا التضحية القاسية بسيادته". ينظر:

Isma'il Kamal Bey: Op.cit, P118 .

دامت سلطنة مراد 12 يوماً فقط. ونقرأ في مذكرات نجل مدحت باشا السيد علي حيدر: وافق أعضاء المجلس بجزن [على ضرورة عزل مراد]، وقرأ شيخ الإسلام حسن خير الله الفتوى التالية: إذا كان خليفة المسلمين مجنوناً وأصبحت ممارسته لمهامه أمراً مستحيلاً فهل يمكن خلعه؟ الجواب: الشريعة تجيز ذلك. كتبها الفقير إلى رحمة الله حسن خير الله. 12 شعبان 1293هـ/ 1 سبتمبر 1876 ينظر: Ali Haydar Midhat Bey: Op.cit, P66.

³ - Roderic H. Davison: Op.cit, P353-354.

باعتباره السلطان عبد الحميد الثاني، وفي عهده تم إعلان الدستور كما سنرى.

تتبع مسار الفكرة الدستورية العثمانية

نتطرق بإيجاز للمراحل التي مرّت بها الفكرة الدستورية حتى توجت بأول دستور مكتوب في التاريخ العثماني سنة 1293هـ/1876م، بداية نجد أنّ مفهوم الدستور في العُرف العثماني يمكن أن يشمل جميع ما صدر من القوانين والفرمانات منذ خط شريف كلخانة بما فيها القانون الأساسي الذي يعرف بأول دستور عثماني، رغم أنّ كلمة الدستور كانت أعلق بالقانون الأساسي من غيره من القوانين، بسبب دوره الواسع في تحديد السلطات على منوال الدساتير الغربية، وإن كانت الفكرة الدستورية بحد ذاتها تعود لوقت أبكر زمن محمود الثاني¹ حسب بعض الباحثين.

نشط رجال التنظيمات رشيد باشا وعالي وفؤاد باشا في وضع اللوائح والقوانين والتنظيمات التي مهّدت لظهور أول دستور عثماني مكتوب، وفي تتبعنا لفكرة الدستور أو القانون الأساسي المكتوب لا بدّ من ذكر الأمير المصري ورجل الدولة العثماني مصطفى فاضل باشا² الذي يذكر بعض الباحثين

¹ . يذكر الدكتور دافيد دافيسون على هامش كتابه: الإصلاح في الدولة العثمانية، 1856-1876، أنّ الدبلوماسي والكتّاب الفرنسي (Benoît Brunswick) في كتابه: الإصلاح والضمانات (La réforme et les garanties) يؤكد دون دليل على أن الفكرة الدستورية ولدت سنة 1834، كما أنّ الصحفي اليهودي التركي (Milasli Gad Franco) أشار في كتابه: التطورات الدستورية في تركيا (Développements constitutionnels en Turquie) المنشور بباريس سنة 1925م إلى "الكتّاب" المجهولين الذين يفترض أنّهم كتبوا مشروع الدستور في عهد محمود الثاني، وقال "إنه مطمئن" بأن نسخة من المشروع الدستوري كانت في إحدى مكاتب إستانبول رغم أنه لم يستطع العثور عليها ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P30 .

² . مصطفى فاضل باشا (1830-1875م): أمير مصري. الابن الثالث لولي عهد مصر إبراهيم باشا وحفيد محمد علي باشا أكمل تعليمه بالقاهرة. وذهب إلى إستانبول سنة 1845 وبدأ العمل في سلك فئة الكتّاب ضمن سكرتارية الصدارة العظمى (Sadâret Mektûbî Kalemi). وتولى عدة مناصب سامية بالدولة العثمانية ومصر، وفي سنة 1858 أصبح عضوًا بالمجلس الأعلى للتنظيمات (Meclis-i Âlî-i Tanzîmat) برتبة وزير. ثم شغل منصب وزير للتربية والتعليم في 18 نوفمبر 1862. عند وفاة عمه سعيد باشا أصبح وليا للعهد عندما تم تعيين شقيقه إسماعيل حاكما لمصر. كانت له اتصالات مع العثمانيين الجدد وكان منزله مركزا لاجتماعاتهم. إثر خلافات بينه وبين الصدر الأعظم فؤاد باشا تم فصله في 18 فبراير 1866، فذهب إلى باريس في أبريل 1866 وعمل شقيقه على تغيير القانون ليعزله عن ولاية العهد وتم له ذلك بموافقة السلطان عبد العزيز في 28 ماي 1866. في نهاية يناير 1867 بدأ يُشار إليه على أنه زعيم جماعة تركيا الفتاة (Jeune turque) في إستانبول. بعد ذلك نُشرت رسالة فرنسية موقعة من مصطفى فاضل موجهة إلى السلطان عبد العزيز ينتقد فيها وضع الدولة العثمانية ويضع العلاج والحلول ويقترح إرساء مبدئي الحرية والمساواة ويدعو إلى حكومة دستورية وبرلمان منتخب أرسلت نسخة منها إلى نابليون الثالث، ووزعت نسخ كثيرة منها على العديد من الدبلوماسيين الأوروبيين والسياسيين والوزراء والصحف. وأرسلت نسخة تركية بخط فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز في 22 مارس 1867. أسّس مع العثمانيين الجدد صحيفتين هما جريدة المخبر (Muhbir) =

أنه حاول إعداد مسودة دستور رفقة بعض العثمانيين الجدد بمنفاه الاختياري بباريس سنة 1284هـ/1867م¹، ودعا في رسالة شهيرة وجهها إلى السلطان عبد العزيز من بروكسل إلى إصلاحات على أساس الحرية والمساواة، وحكومة دستورية ودستور مع برلمان منتخب².

ما يهمننا في الرسالة الشهيرة لفاضل باشا هو رد رجل التنظيمات القوي حينها عالي باشا إذ من خلاله نعرف موقف النخبة العثمانية المحافظة والتي تمثل تيار الأغلبية في المجتمع العثماني من الدستور؛ كتب عالي باشا في معرض رده على رسالة فاضل باشا للسلطان عبد العزيز: " حكومة تمثيلية يحكمها دستور هذا ما تعرضه من أجل إنقاذ وطننا، وأنت الذي سوف تؤلّف أو ستضع هذا الدستور مع بعض من أصدقائك الذين نعرفهم لسوء الحظ! أكثر مما ينبغي " ثم يتابع قائلاً: " إنّ خط شريف كلخانة دستور، وخط همايوني لسنة 1272هـ/1856م دستور، وخط 1277هـ/ 1861م دستور، قانون تشكيل الولايات دستور، غير أنّك بلا ريب تريد دستوراً أكثر أوروبياً بحيث يسير عمل الحكومة ومراقبة الميزانية جنباً إلى جنب، إنّ الدساتير كما تفهمها تتعلق بخصوصية الحكومات التمثيلية وتلك مواضيع بالغة الأهمية والتعقيد، وتلك ليست مهمّة المبتدئين، وأولئك الذين يستحقون القيام بها - وهم نادرون جداً - قد أعدوا أنفسهم من خلال الدراسات الفلسفية والسياسية الطويلة والجادّة، لقد تأملوا لفترة طويلة في دروس التاريخ حتّى تعلّموا الطريق السديد لتلبية جميع احتياجات ومصالح الدّول"³.

وجريدة الحرية (Hürriyet) الصادرتين بلندن. عاد فاضل باشا إلى إسطنبول في سبتمبر 1867، وعين وزيراً للعدل، ثم وزيراً للمالية سنة 1870 أسس مجلس الصداقة الذي كان أول نادٍ على الطراز الغربي. وواصل في دعم العثمانيين الجدد، حتى وفاته بإسطنبول. ينظر:

Ş. Tufan Buzpinar: **Mustafa Fazıl Paşa (1830-1875) Osmanlı devlet adamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 31, İstanbul, 2006, sayfa 300-301.

¹ - Ibid, Sayfa 301.

² . اعتبر الأمير مصطفى فاضل الذي كان يعيش في منفاه الاختياري بباريس لبعض الوقت رئيساً لتنظيم العثمانيين الجدد الذي كان يطلق عليه أيضاً (la jeune Turquie)، وقد أرسل عدّة رسائل إلى السلطان عبد العزيز حول الوضع الخطير للإمبراطورية، وكان يطمح أن يظفر بمنصب الصدر الأعظم. وفي 5 فبراير 1867م أرسل مصطفى فاضل من بروكسل خطاباً نُشر في 7 فبراير 1867م يعلن فيه نفسه ممثلاً للعثمانيين الجدد، وعرض إصلاحات ذات طبيعة دستورية تستند إلى مبدأ المساواة وبدأ رسالته بعبارة أصبحت حكمة تنقل عنه: " مولاي، ما يدخل إلى قصر الأمراء بصعوبة بالغة هو الحقيقة " ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P201-202.

³ . ثم ياستعرض تجربة الدول المسيحية مع الدساتير فقال: " إذا نحن تفحصنا الدساتير التي خبرناها في أوروبا منذ أكثر من نصف قرن فإننا لا نرى أنّه تمّ حلّ مشكلتهم بشكل جيد للغاية؛ لقد حصلت فرنسا على نصف دَرَبَة من الدساتير لم تُحلّ بينها وبين الكثير من الثورات التي كان بعضها فظيعاً. بالنظر إلى شيء من التاريخ الإنجليزي سنجد عدم وجود دستور مكتوب =

نرى أنّه من وجهة نظر عالي باشا فإنّ الدستور يشمل كل القوانين والفرمانات والخطوط التي صدرت في عهد التنظيمات بداية من خط شريف كلخانة، وأنّ الدساتير الغربية مرتبطة بالحكومات التمثيلية، أي التي تملك برلمانا وذلك يتطلب إعدادا كبيرا للمجتمع العثماني المتعدد العرقيات والديانات والمهدد بالنزعات القومية الانفصالية، ويشير أن تجربة الدساتير الغربية لا تشجع على المضي في هذا المسلك الدستوري، وسنرى أنّ هذا الرأي تبناه السلطان عبد الحميد الثاني لاحقا.

يجدر بنا أيضا عدم إغفال الدور الدستوري لشخص آخر مهم وهو رجل الدولة العثماني المصري خليل شريف باشا¹، فقد عرف خليل أوروبا عن كثب عبر البوابة الدبلوماسية كمفوض عثمانى بمؤتمر باريس 1272هـ/1856م، وسفيرا للبابا العالي بأثينا، ومبعوثاً فوق العادة ووزيراً مفوضاً في سانت بطرسبرغ وتقاعده بباريس لمدة سنتين 1283-1285هـ/1866-1868م حيث تعرّف بنخبة المجتمع الباريسي، ثم سفيرا للباب العالي بفيينا ثم باريس، إلى جانب علاقته الوطيدة بالأمير مصطفى فاضل باشا الذي تزوّج ابنته، كما جمعت صلة وطيدة بمدحت باشا ولعلّ الأخير يُدين بفكره الدستوري لمصطفى فاضل باشا و خليل شريف باشا.

في الولايات المتحدة الأمريكية أدّى الدستور مؤخراً إلى اندلاع الحرب الأهلية الأكثر كارثية التي ابتليت بها البشرية على الإطلاق على الرغم من دساتيرها فإنّ معظم الجمهوريات الأمريكية الأخرى في حالة من الفوضى المستمرة، يرافقها حروب مستمرة وثورات تمتلك إسبانيا دستورا غير أنّ وضعها يرثى له. ولا تعرف التماسا حقا كيف تنجز أعمالها مع دستورها، بروسيا لها دستور كذلك وحكومتها تضعه في جيبتها كلّما رأت أنّ ذلك مناسباً إيطاليا أيضا لديها دستور ويمكن للمرء أن يرى بوضوح الفوضى والعجز الهائلين الذين سيؤديان بها إلى الإفلاس الوطني. أنا بالتأكيد لا أذمّ الدساتير أنا أحبها كثيرا لكنني أعتقد أنه للحصول على نتائج جيدة ينبغي تطبيق الدساتير فقط على البلدان المتقدمة للغاية مدنيا، وحيث تكون النفوس مستعدة جيدا للتعامل وفقا لها، الأمر الذي يتطلب الكثير من الوقت. فهل تمّ إعداد الدولة العثمانية بما فيه الكفاية لصياغة دستور خاص بها؟ ينظر:

Mehmed Emin Âli Paşa : Op.cit, P24,26.

1. خليل شريف باشا (1831-1879م): رجل الدولة العثماني المصري المعروف سابقاً باسم خليل باي، جاء إلى باريس سنة 1843 حيث تلقى تعليمه، وعاد إلى بلاده سنة 1849 فألحقه عاهل مصر عباس باشا بشخصه كسكرتير ثان. التحق بالباب العالي سنة 1856م إذ رافق عالي باشا إلى مؤتمر باريس في نفس السنة. عيّن بعدها في عدة مناصب سامية، ومنها أنه عين مبعوثاً فوق العادة ووزيراً مفوضاً في سانت بطرسبرغ ليصبح مقرباً من قيصر روسيا والمجتمع الروسي الراقي. تقاعد سنة 1866، وعاش بباريس حيث أصبح من الشخصيات المعروفة بأوروبا. لكن في أوت 1870 تم تعيينه سفيراً ل للباب العالي بفيينا، وتولى سنة 1872 منصب وزير الخارجية، تزوج الأميرة نازلي ابنت الأمير المصري مصطفى فاضل باشا. ينظر:

Adolphe Bitard : Dictionnaire général de biographie contemporaine française et étrangère, Maurice Dreyfous Editeur, Paris, 1878, P737-738.

مسارات وضع أول دستور عثماني

يذكر الدكتور دافيد دافيسون أنّ خليل باشا وضع في مذكرته منذ سنة 1284هـ/1867م مسودة لمشروع الدستور، وظلّ يُعرب عن آرائه الدستورية حتى 12 محرم 1290هـ/11 مارس 1873م تاريخ عزله من وزارة الخارجية¹، وعلى الرغم من أنّ خطة الدستور على ما يبدو بقيت كمفهوم عام في مرحلة النقاش غير الرسمي، إلا أنّها بدأت شيئاً فشيئاً تأخذ طابعاً رسمياً مع مدحت باشا الذي بدأت فكرة الدستور المكتوب تحتّم عنده حين كان والياً للتونة²، ولا ريب أنّ سياحته سنة 1274هـ/1858م لمدة ستة أشهر بأوروبا بين باريس ولندن وبروكسل وفيينا وإطّاعه على التقدم الذي بلغته أوروبا قد كان دافعاً أساسياً وراء اختتام الفكرة الدستورية لديه.

خلال الفترة القصيرة لصدارته الأولى من 26 جمادى الأولى 1289هـ/31 جويلية 1872م إلى 17 شعبان 1289هـ/19 أكتوبر 1872م بدأ مدحت باشا في العمل على مشروعين: خطة دستورية وخطة للتنظيم الفيدرالي للدولة العثمانية. لم يصل أي منهما إلى ذروته خلال فترة ولايته القصيرة لكن كل منهما حظي بدعم خليل شريف باشا الذي استبقاه السلطان عبد العزيز في وزارة الخارجية لمدة خمسة أشهر بعد عزل مدحت باشا³، يمكن القول أنّ الثلاثي مدحت باشا ومصطفى فاضل باشا و خليل شريف باشا كانوا في طليعة المنادين بالدستور والحكم الدستوري.

ظلت فكرة الحكومة الدستورية والبرلمان والدستور تشغل فكر مدحت باشا وقد أُقيل من منصبه كوزير للعدلية سنة 1290هـ/1873م بسبب تنامي خبر إلى السلطان بأنّ مدحت باشا أعدّ لائحة عن المشاكل الإدارية والمالية وتشكيل برلمان، وقد عيّن مرة أخرى في ذات المنصب ثم استقال

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P289.

² . في مذكراته كتب مدحت باشا ما يلي: " لم نقصد بلخع السلطان [عبد العزيز] والدخول في المآزق الحرجة سوى تخليص الدولة من أزمته واتخاذ مسلك ثابت للإدارة والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورى بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها أفراد الأمة أحراراً متساوين وكانت هذه المسألة قد ارتسخت في فكري حين كنت والياً في التونة فكتبت قانوناً موافقاً لروح العصر وحن وقت العمل به ولكن إعلانه كان يقتضي موافقة أقراني على محتوياته" ويذكر أنه تناقش ذلك القانون مع رجال الدولة في الليلة التي تلت عزل عبد العزيز. ينظر: مدحت باشا: **مذكرات مدحت باشا**، المصدر السابق، ص 16. المعلوم أنّ مدحت باشا عيّن والياً على ولاية التونة في سنة 1864م ومكث بها ثلاث سنوات إلى غاية 1867م.

³ . يذكر الدكتور دافيسون أنّ الخديوي إسماعيل حاكم مصر كتب للسلطان عبد العزيز بعد شهر أو نحو ذلك من إقالة مدحت باشا من منصب الصدارة العظمى سنة 1872م، أنّ الثلاثي مدحت باشا و خليل شريف باشا ومصطفى فاضل شكّلوا رابطة لرفع يد السلطان عن الحكومة وأنّهم كانوا بصدد البحث عن دستور، ونصح السلطان بالألا يستسلم لضغوطهم. وبالمثل اتّهم السفير الروسي إغناطييف الرجال الثلاثة أنفسهم بالسعي لتشكيل حكومة دستورية مستقلة، وحذر عبد العزيز منهم ينظر:

منه سنة 1292هـ/1875م احتجاجاً على سوء تسيير الصدر الأعظم والإفلاس المالي والتمرد المستمر في البلقان، وانخرط مدحت باشا مع استقالته حتى ربيع الآخر 1293هـ/ماي 1876م في نقاشات مع العلماء والدوائر المنظومة الإدارية المدنية والعسكرية حول فكرة الدستور والبرلمان، على أساس أن النظام الدستوري من شأنه إنقاذ الدولة.

حين اندلعت احتجاجات طلبة علوم الشريعة وتوسّعت بإستانبول رفضاً لسوء أوضاع الدولة سيما المالية وضعفها في مواجهة تمردات البلقان، ورأى الضالعين في تحريك تلك الاحتجاجات وعلى رأسهم مدحت باشا أنّ عزل السلطان بات ضرورة لا مفرّ منها من أجل تمرير أجندة الإصلاحات وعلى رأسها الحكم الدستوري الذي كان مدحت باشا يرى فيه الخلاص الوحيد لأدواء الدولة العثمانية وقد استشير مدحت باشا فكان من رأيه لتجنيب السلطان العزل أن يصدر دستوراً¹ غير أنّ السلطان لم يتجاوب مع عرضه فكانت النتيجة كما رأينا عزل السلطان وتنصيب مراد الخامس.

انصبّ عمل مدحت باشا بعد تنصيب السلطان الجديد على إعلان الدستور، لكن مرض مراد الخامس غير المتوقع أفسد خطته إلى حين، وفي الوقت الذي كان رجال الدولة يأملون في تعافي السلطان مراد الخامس ويبدلون له من الطّب أقصى ما باستطاعتهم تواصلت مناقشات مسودة الدستور دون هوادة في عدّة اجتماعات بالباب العالي² وفي قصور كبار رجالات الدولة، يدفعها حماس مدحت

1. يذكر مدحت باشا في مذكراته ما نصّه: "انتشرت اشاعة عزم الأمة على خلع الرجل [أي السلطان عبد العزيز] ووصل صدى ترديدها إلى السراي فهاله [أي السلطان] أمرها وأرسلت والدته [أي والدة السلطان عبد العزيز] جوهر أعيا [وهو احد موظفي السراي] إلى مدحت باشا تطلب منه إبداء رأيه فيما يجب عمله لتسكين سورة غضب الشعب، فأسرع بكتابة لائحة ضمّتها الأسباب التي أوقعت الدولة في مأزق الأزمات وختمها بوجوب إصدار قانون يكفل للأمة حق المساواة ويجعل التظار [أي الوزراء] مسؤولين عن أعمالهم لتلافي وقوع الثورة المنتظرة، البادية علاماتها من الحركات التي يظهرها أفراد الشعب" فلم تؤثر محتويات اللائحة على فكر عبد العزيز وبقيّة نتيجتها عقيمة. ينظر: مدحت باشا: المصدر السابق، ص 13.

ويذكر دافيسون أنّ مدحت باشا أطلع سفير بريطانيا بإستانبول (Sir Henry George Elliot) (1817 - 1907) بأنه يريد إيجاد مجلس منتخب يمارس سيطرة دستورية على السلطان. وذكر مدحت أنه الآن يشاطر وجهة نظر الرأي العام الحالي بأنّ تحسّن الوضع ميؤوس منه بالنظر إلى شخصية السلطان عبد العزيز. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P319.

2. يذكر دافيسون أحد أهم الاجتماعات التي عقدت بمكتب شيخ الإسلام حول الدستور بعد عزل عبد العزيز فقال: حيث أتبع الصدر الأعظم محمد رشدي خطأً محافظاً بقوله: أن أهل الدولة لم يكونوا مهتمين بعد لحكم دستوري. ومن أجل كسب رضى الشعب سيكون من الأفضل أن نقدّم لهم قليلاً من الامتيازات، سليمان باشا الذي أمره حسين عوي باشا بعدم التحدث ما لم تتم مناقشة الأمور العسكرية، لم يستطع تمالك نفسه وما لبث أن وقف وخاطب الصدر الأعظم قائلاً: "صاحب المعالي لم يحدث عزل السلطان للحفاظ على الحكم المطلق الحالي. لقد قام الجميع بهذه التضحية لتأمين مستقبل الأمة وأولئك الذين أقدموا على تلك التضحية لم يكن لديهم عداء شخصي تجاه السلطان المعزول، ولا تربطهم علاقة خاصة بالسلطان الحالي. يرجى أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار أثناء نقاشكم". عندما اقترح محمد نامق باشا الوزير بدون حقيبة برلماناً مشابهاً للبرلمان البريطاني غير أنّه يتألف فقط =

باشا ومؤيديه، وعلى ما يبدو كانت هناك عدّة مسودات للدستور غير التي أعدها مدحت باشا والتي قيل إنّها كانت تتألف من تسعة عشر مادة فقط¹، وقد شارك العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام في نقاشات الدستور والحكومة الدستورية، ولم يكن بالإمكان تجاوزهم على كل حال.

رأينا أنّ رجال الدولة بعد أن استيأسوا من شفاء السلطان مراد الخامس وأمام تفاقم المشاكل الداخلية والخارجية سيما ما تعلّق منها بالأزمة المالية والتمردات بالبلقان داخليا، وضغط روسيا واستعداداتها للقوميّات السلافية خارجيا، لم يكن أمامهم سوى خلع السلطان مراد الخامس وتنصيب أخوه عبد الحميد سلطان جديدا وفق شروط وافق عليها الأخير؛ يذكر مدحت باشا في مذكراته²: " وكان عبد الحميد قد قرأ نسخة القانون الأساسي (الدستور) وقال أنّ الدولة لا تخلص من مشاكلها الحاضرة إلا إذا عملت حكومتها به، فلما جلس على التخت [أي العرش] جلس وهو مصمّم على إعلان كالسلطان مراد، وحوّله على مجلس الوكلاء لتدقيق مواده وإعلان أحكامه في أوّل فرصة"³ فمسودة مدحت باشا كانت دائما هي الأساس وهي التي اختارها السلطان عبد الحميد الثاني وأمر بإجراء تعديلات عليها⁴، ومن ثمّ إعلانها للعالم.

من المسلمين سخر منه الصدر الأعظم كما سخر من الأفكار الدستورية لمدحت باشا وخلييل باشا، وعندما أعلن مدحت باشا أن سليمان قام بترجمة الدستور الفرنسي وعرض قراءته، لكن الجلسة رفعت دون التوصل إلى نتيجة. لقد قام سليمان باشا بالفعل في شهر جوان وربما قبل الاجتماع بباب فتوى (Bab-1 fetvâ) بصياغة دستور يتكون من خمسة وأربعين مادة، مع ذلك ليس هناك ما يشير إلى أن مشروع سليمان قد تم الإعلان عنه أو مراجعته من قبل الوزراء. الأغلبية كانت ترى أن فكرة الدستور كانت انحرافا راديكاليا للغاية. ومن المثير للاهتمام أن معظم النقاش كان حول الاعتبارات المدنية؛ يبدو أن قارا خليل ومحمد نامق باشا هما فقط من أدخلتا الاعتبارات الدينية. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P343-345.

¹ - Ibid, P340.

². ترك مدحت باشا مذكراته باللغة التركية والتي تقع في مجلدين الأوّل بعنوان تبصرة العبر (Tabsira-i İbret) والثاني ميراث الحيرة (Mirat-1 Hayret). حيث تتلمّس فيها الجذور التاريخية لآلام التحديث والديمقراطية في المجتمع العثماني. وقد كتب مدحت باشا مذكراته هذه في منفاه بالسجن بالطائف. نجد سيرة حياة مدحت باشا في كتاب ألفه نجله علي حيدر مدحت لترجم للإنجليزية بعنوان: حياة مدحت باشا؛ سجل خدماته وإصلاحاته السياسية ونفيه والحكم بإعدامه (The life of Midhat Pasha; a record of his services, political reforms, banishment, and judicial murder).

³. مدحت باشا: المصدر السابق، ص23.

⁴. يفهم من مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني أنّه لم يكن راغبا في إعلان الدستور لعدم توفر شروطه في الأمة العثمانية وأنّه اضطر لذلك لاعتبارات شتى يلخصها بقوله: " لم اكن أستطيع الوقوف أمام تيار ذلك العهد، وقلت: مادامت الأمة تريد تجربة مسؤوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها، فليكن ما تريده الأمة" ويفهم أنّ ثمة عدة مقترحات لمسودات الدستور وأنّه اختار مسودة دستور مدحت من بينها بعد تعديلات جزئية وبرر اختياره بقوله: " كنت مجبرا في البداية على تفضيل لائحة مدحت =

استفاد مدحت باشا بلا شك في وضع مسودة الدستور من تجارب غيره¹؛ قيل إن مدحت و خليل شريف باشا كانا يفكران في الدستور البلجيكي لسنة 1247هـ/1831م كنموذج، وهو دستور كان له تأثير كبير في العديد من الدول الأوروبية²، وذهب آخرون إلى أنّ دستور مدحت باشا تأثر بدستور الطائفة العثمانية الأرمنية الذي صدر سنة 1279هـ/1863م نتيجة لإصلاح الطوائف³ والذي يعتبر من أوائل الدساتير الطائفية المكتوب بالدولة العثمانية، وقد كان بعض من كتب هذا الدستور من أصدقاء مدحت باشا.

لقد اعتقد مدحت باشا ومن شايعه من العثمانيين الجدد وغيرهم في سعيهم الحثيث لفرض دستور وحكومة دستورية وبرلمان أنه لا يمكن تحقيق تقدم اقتصادي أو استقلال سياسي تحت الحكم المطلق والتعسفي وغير المسؤول للسلطان وحكومته؛ ستكون الدولة العثمانية في ظل هكذا حكم دائما بيدقا في أيدي الدبلوماسيين في لعبتهم المسماة بالمسألة الشرقية. لذلك وجدوا أنّ ترياق هذا الداء هو إدخال نظام دستوري يتم بموجبه إخضاع الحاكم والحكومة لسيطرة نواب الشعب. وبمجرد تمثيل شعوب المقاطعات المسيحية في برلمان منتخب، لن تستطع أي قوة أجنبية إضفاء الشرعية على تعزيز مصالحها الوطنية بذرائع تمثيل حقوق هذه الشعوب على أسس دينية أو عرقية.

باشا على لوائح الآخرين، فقد كان من الضروري أن نقدم لشعب مريض أفصح بأن اسم مدحت يساوي بحساب الجُمّل دواء الأمة، أن نقدم له الدواء الذي طلبه، ولم أكن أستطيع إسكاته بصورة أخرى" ينظر: ينظر: عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص82.

1. يذكر دافيسون مرة أخرى أنّ مدحت باشا كانت له علاقات وطيدة واتصالات ببعض العثمانيين الأرمن أمثال كريكور أوديان والدكتور سافرفيشن فيسنيان وغيرهما الذين قيل إنهم قدموا له الحجج الدستورية خلال العشاء الأسبوعي في منزل أوديان. ينظر: Roderic H. Davison: Op.cit, P290 .

وهو ما يؤكد عبد الحميد الثاني في مذكراته بقول: " لم يكن مدحت باشا قد درس أي قانون أساسي في أي دولة من الدول عندما اقترح عليّ إعلان القانون الأساسي، ولم يكن له في هذا الموضوع فكر متأصل. كان أوديان أفندي هو أستاذ مدحت باشا الفكري واوديان أفندي الأرمني هذا لم يكن في ذلك الوقت أفضل المشرعين، ولا سيما أنه لم يكن يعرف البلاد" ينظر: عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص80-81.

2 - Roderic H. Davison: Op.cit, P340.

3. قدّم أبناء طائفة الأرمن الذين تلقوا تعليمهم في الغرب دستورهم المكتوب بعد فترة وجيزة من إصدار فرمان الإصلاحات 1856 لكن لم يتم المصادقة عليه من طرف الباب العالي حتى سنة 1863 والذي سماه الأرمن ب "الدستور القومي للأرمن". ينظر: John Joseph: **Muslim-Christian Relations and Inter-Christian Rivalries in the Middle East: The Case of the Jacobites in an Age of Transition**, SUNY Press, USA, 1984, P81.

وكتب دافيسون أن عدد كبير من رجال الدولة العثمانيين قد اكتسبوا من تجربة دساتير الطوائف العثمانية [الأرمن، اليهود وغيرهم] بعض الإلمام بمفاهيم الدستور المكتوب والبرلمان الوطني والتمثيل الشعبي... وقد كان كريكور أوديان أفندي أحد واضعي الدستور الأرمني مستشارًا لعدة سنوات لمدحت وشارك بنفسه في المناقشات حول الدستور العثماني اللاحق. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P134.

بناء عليه وبناء على المعارضة الداخلية من قبل التيار المحافظ تمّ تعديل مسودة الدستور الذي اقترحه مدحت باشا عدّة مرات¹، وحين استقر الأمر على السلطان عبد الحميد الثاني كان من المفترض أن يتحدّث في خطاب اعتلاء العرش على الدستور والحكومة الدستورية، لكن هذا الخطاب تأخّر ليس فقط بسبب الخلافات بين الوزراء، ولكن أيضا بسبب التعديلات التي أراد عبد الحميد إدخالها على خطاب العرش الذي كتبه مدحت باشا بنفسه، تمت قراءته أخيراً في 21 شعبان 1293هـ/10 سبتمبر 1876م²؛ غير أنّه كان بعيدا كل البعد عما أراده مدحت؛ فقد شدّد عبد الحميد الثاني على ضرورة التقيد الصارم بالشرعية. ووعده بعبارات عامة بإجراء تحسينات في المنظومة الإدارية والتعليم، وفي حكومة المقاطعة، واتخاذ تدابير نشطة ضد متمردي البلقان، لم يعد السلطان في خطابه المعدل بالحكومة الدستورية، وبذلك تم رسم خطوط الصراع على الدستور³ أصبح الصراع يدور ليس على إصدار الدستور من عدمه، ولكن على نوع الدستور المراد إصداره.

¹. ينقل دافيسون على هامش كتابه نقلا عن الجريدة اليومية الليبرالية الألمانية (Augsburger Allgemeine Zeitung) [كانت تصدر بجنوب ألمانيا من سنة 1807 إلى سنة 1882م] في عدد 5 أوت 1876م أنّ مدحت باشا قلص مواد الدستور من 140 إلى 70 مادة، كما ينقل عن ذات الجريدة في عدديها بتاريخ 18 و24 أوت 1876م أنّه تم الإعلان عن تعيين لجنة مكونة من خمسة مسلمين وثلاثة مسيحيين برئاسة ساور باشا وزير الأشغال العامة لمراجعة مسودة الدستور. [كان ذلك قبل تنصيب عبد الحميد سلطانا]. ينظر: Ibid, P348-349.

². يمكن الاطلاع على نص خطاب العرش الذي نقّحه عبد الحميد من المسودة التي كتبها مدحت في كتاب حياة مدحت باشا؛ ولتسهيل معرفة التعديلات التي أدخلها السلطان على مسودة مدحت قال علي حيدر: " يتم إرفاق الخطاب الذي ألقاه [السلطان عبد الحميد، وهو خطاب العرش] بحيث أن الجمل المحذوفة من الأصل وضعت بين قوسين". ينظر:

Ali Haydar Midhat: Op.cit, P106-107.

³ - Roderic H. Davison: Op.cit, P356.

يذكر نجل مدحت باشا علي حيدر تلك الخطوط بين السلطان ومدحت في النقاط الآتية: 1. استبدل السلطان عبارة رئيس الوزراء بعبارة صدري الأعظم. وهو التغيير الذي كان سيترتب عليه وقوع المسؤولية على كافة الوزراء بدل شخص واحد هو الصدر الأعظم. 2. استغنى السلطان عن الفقرة التالية: "بما أن النظام الدستوري هو أحد الأسباب الرئيسة لتقدم الأمم، فإننا نعلن بوجهه أن نظام الحكم هذا يجب أن نعتمده نتمسك به، إلخ". بدلا عن ذلك تحدث عن الحاجة إلى عقد "جمعية عامة متوافقة مع عادات وأعراف وقدرات رعايانا". 3. فيما يتعلق بصلب الموضوع الذي اقترحه مدحت لأجل وضع القوانين الدستورية والمتمثل في عقد اجتماع لمجلس كبير للتداول حول الدستور وبنوده، بحيث يرفعوا تقريرا نهائيا يراجعه مجلس الوزراء ثمّ يقدّم إلى السلطان ليصادق عليه، هذا الموضوع تجاوزه السلطان بالكامل. 4. اقترح مدحت الذي كان مدركا للأزمة المالية للدولة ومقتنعا بتقليص النفقات بما فيها نفقات القصر والعائلة الحاكمة، لكن عبد الحميد تجاوز هذا أيضا في خطابه. 5. علق مدحت أهمية كبيرة على المدارس المختلطة بالولايات التي تعايش فيها المسيحيون والمسلمون، لكن السلطان كتب فقط: "تتمنى أن يتمتع جميع رعايانا بصرف النظر طبقتهم، بفوائد المعرفة كل حسب قدراته الشخصية". 6. اقترح مدحت في مسودة خطاب العرش إعلان إلغاء تجارة الرقيق ودعوة السلطان إلى تحرير جميع عبيد القصر، لكن عبد الحميد ألغى هذه الفقرة بأكملها. ينظر: Ali Haydar Midhat: Op.cit, P109-113.

أظهر خطاب العرش الذي ألقاه عبد الحميد الثاني على الأقل أنه كان مترددًا في تبني نظام دستوري كان بالفعل موضوع نقاش عام لمدة ستة أشهر، وموضوع مداوولات رسمية لمدة ثلاثة أشهر وقد شكّلت لجنة برئاسة رئيس مجلس الدولة مدحت باشا للفصل في نقاط الخلاف بين عبد الحميد الثاني والمحافظين وبين مدحت باشا ومن شايعة، مستعينة بمشاريع دستورية ومصادر شتى¹، كانت اللجنة مكونة من ثمان وعشرين عضواً يمثلون أهم شرائح المجتمع العثماني وجميعهم شغلوا مناصب رسمية² وكان من بينهم مسيحيين.

حدث نقاش كبير داخل اللجنة وصل صدها إلى المجتمع العثماني وانقسم الناس بين من يؤيد

1. أراد عبد الحميد الثاني دستوراً يؤسس من خلالها لسلطاته السيادية بشكل أفضل على أسس دينية كونه خليفة للمسلمين، لقد أراد دستوراً يناسب احتياجاته الخاصة، يدور الخلاف أيضاً بشأن مسألتين رئيسيتين: المسألة الأولى حول صلاحيات كل من الحاكم والحكومة والبرلمان في الشؤون التنفيذية والتشريعية والدينية. والمسألة الأخرى تمثّلت في الحكومة المركزية مقابل الحكومة اللامركزية. دعا مدحت إلى تأسيس برلمان: أي الحكومة وحدها يجب أن تكون مسؤولة؟ تشكيل البرلمان على أساس وطني مثلاً للشعب بغض النظر عن الانتماءات الدينية والعرقية؛ وتفويض درجات متفاوتة من الحكم الذاتي الإداري إلى مقاطعات معينة حيث كانت غالبية السكان من غير المسلمين أو غير الأتراك ينظر: Niyazi Berkes: Op.cit, P230 =

يذكر دافيسون أنّ اللجنة في بداية عملها كان لديها بالفعل عدد من مسودات مشاريع دستورية المتاحة للاستخدام. ذكر السلطان عبد الحميد في وقت لاحق أن حوالي عشرين مشروعاً قد تم تقديمه إليه. وكان لدى اللجنة عدّة مصادر ملهمة في عملها. ويبدو من المحتمل أن مشروع مدحت كان له تأثير كبير، بسبب أنّ مدحت كان المؤيد الرئيسي للدستور ولأنه كان رئيس اللجنة. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P370-371 .

ويعتقد بشكل كبير أنّ الدستور البلجيكي لسنة 1831 كان النموذج الذي نسج على منواله الدستور العثماني وهو ما أكّده المستشرق البولوني (Gotthard Jäschke) (1894 - 1983) ضمن كتابه: "تطور الدستور العثماني من البداية إلى الوقت الحاضر"، حيث يذكر: أنّ الدستور العثماني الصادر في 23 ديسمبر 1876 إلى جانب الدستور البروسي المؤرخ في 31 يناير 1850، فإن دستور بلجيكا الصادر في 7 فبراير 1831، والذي كان يعتبر مثالاً بسبب لغته البسيطة والواضحة والمفضل من قبل الدول الأخرى قد خدمهما. مع أنّ غوتهارد ياشك يؤكد مرة أخرى إلى أنّ التشابه الذي يبدو أنه موجود بين الدستور البلجيكي من جهة وبين الدستور البروسي والتركي من جهة أخرى ليس سوى في الشكل الخارجي أمّا الروح التي تتحكم في الاثنين فمختلفة اختلافاً جذرياً. ينظر:

Gotthard Jäschke: Die Entwicklung des osmanischen Verfassungsstaates von den Anfängen bis zur Gegenwart, Inaugural-Dissertation zur Erlangung der juristischen Doktorwürde, der Hohen Rechts- und Staatswissenschaftlichen Fakultät der Königl. Universität Greifswald, eingereicht, Berlin, 1917, Seite 38 .

2. تتألف اللجنة من ثمانية وعشرون عضواً يمثلون حكومة الولاية والجيش والقضاء والأشغال العامة والشؤون الخارجية والتعليم والإدارات التجارية والمالية، وكان أربعة من الأعضاء من سلك العلماء، وستة من غير المسلمين (ثلاثة يونانيين وثلاثة أرمن) وموظفين مدنيين، ومثّل العثمانيين الجدد ضياء ونامق كمال. وكانت اللجنة الفرعية التي [عدّلت] المسودة بالفعل مشكلة من ثلاثة مسلمين وثلاثة مسيحيين. ينظر: Niyazi Berkes: Op.cit, P236 .

ومعارض، ومن يرى أن مدحت ومؤيديه يريدون تقييد الشريعة والغض من منصب خليفة المسلمين وجعل الدولة العثمانية تنسج على منوال الكفار الأوروبيين، وقد أسهمت الصحافة بدورها في هذا النقاش الذي لم يكن عبد الحميد الثاني بعيدا عنه¹، أنهت اللجنة عملها بعد جدل طويل وقدمت مسودتها إلى عبد الحميد الثاني في 26 شوال 1293هـ/13 نوفمبر 1876م، وقد رفضت المسودة الأولى بسبب الانتقاص من الحقوق السيادية للحاكم وإلغاء منصب الصدر الأعظم واستبداله برئيس الوزراء، وقد أعطى عبد الحميد الثاني توجيهاته بخصوص التعديل المطلوب².

جرت هذه النقاشات في ظل أجواء مشحونة خارجيا بطبول الحرب فقد كانت التمرّدات بالبلقان (انتفاضة الهرسك 1292هـ/1875م ثم انتفاضة البلغار والحرب مع صربيا والجبل الأسود سنة 1293هـ/1876م) وتدخل روسيا بذرائع دينية وقومية باعتبار أنّ غالبية المتمردين من القومية السلافية أو المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين أو كليهما، ولأجل ذلك تنادت القوى الأوروبية لعقد مؤتمر ترسانة³ لمنع تدهور الأمور وقطع الطريق عن روسيا التي كانت تريد التوسع على حساب الدولة العثمانية بحجة حماية الأقليات المسيحية.

كان مدحت باشا يخطط لإعلان الدستور كسلاح دبلوماسي في نفس يوم مؤتمر ترسانة ظنا منه أنّ إعلان إصلاحات دستورية سيجعل المؤتمر بلا معنى وسيقطع أي ذريعة أجنبية للتدخل في الشؤون الداخلية العثمانية، لذا استمر العمل على إنجاز دستور توافقي، لكن لم يبق وقت طويل أمام اللجنة باعتبار أنّ مؤتمر ترسانة كان قد اقترب موعده، بسبب ذلك لم يستطع مدحت ومؤيديه في اللجنة فرض رؤيتهم بالكامل، ولكن ضغط الوقت واقتراب موعد المؤتمر اضطرهم للتنازل⁴ وقد عين عبد الحميد الثاني

¹ - Loc.cit.

² - Ibid, P243.

³ . مؤتمر ترسانة عقد في 23 ديسمبر 1876م بمبنى نظارة البحرية الواقع على خليج إستانبول. كان هدف المؤتمر الوصول إلى حل بين الدولة العثمانية والصرب بحضور مندوبين من أوروبا وروسيا عقد الاجتماع الثاني يوم 28 ديسمبر 1876م للمؤتمر، ولم تتفق الأطراف المختلفة على حل يرضي الطرفين، فشلت المفاوضات واندلعت الحرب مع روسيا. ينظر: صابان: المرجع السابق، ص217.

⁴ . أثارت المادة الشهيرة 113 جدلا كبيرا بين رافضيها من مدحت وأنصاره وبين إصرار السلطان على إثباتها: وقد أعطت المادة 113 السلطان سلطة نفي من يشكل وجوده تهديدا للدولة، أوضح نامق كمال في مذكرة أرسلها إلى عبد الحميد الثاني أنّ المادة 113 تكفي لتدمير ليس فقط النظام الدستوري، بل حتى كل إصلاحات التنظيمات، وحذره من أن استخدام هذه الحقوق التعسفية ستسبب في حدوث ثورات، أصر كمال وضياء على وجوب رفض المادة 113، كما اعتقد مدحت أن المادة تمثّل قبلة وضعت تحت أسس الدستور وأن الصاعق تم وضعه بيد السلطان. ينظر: Niyazi Berkes: Op.cit, P245.

حاول مدحت باشا كثيرا حذف المادة 113 من مشروع الدستور، دون جدوى وكان مستعداً لفعل أي شيء للموافقة على إعلان الدستور حتى بوجودها. ينظر: Mahmud Celaleddin Pasa: Op.cit, P 204-205 =

مدحت باشا مضطراً¹ صدراً أعظماً في 3 ذي الحجة 1293هـ/19 ديسمبر 1876م، فلم يكن يثق به ربما لدوره في عزل عمه السلطان عبد العزيز، وربما عينه ليعلم دستوراً وليستفيد منه دبلوماسياً²؛ فقد كان مدحت باشا يحظى باحترام أوروبا سيما الإنجليز.

دعا عبد الحميد الثاني إلى اجتماع أخير للتوافق حول الدستور وذلك في 6 ذي الحجة 1293هـ/22 ديسمبر 1876م، وبعد جدل صاحب تخلله تهديد مدحت باشا بالاستقالة من منصب الصدارة إذا تمّ عرقلة إصدار الدستور، تمّ التوافق أخيراً على الدستور في الليلة الأخيرة قبل المصادقة عليه صبيحة اليوم الموالي، في يوم السبت 7 ذي الحجة 1293هـ/23 ديسمبر 1876م في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر تمّ إصدار الدستور رسمياً³، وقد وافق عبد الحميد أخيراً على الدستور المعدّل مناورة منه في السياسة الدولية أكثر من كونه نتيجة لاقتناع ذاتي⁴، رغم أنّ الدستور

يبدو أنّ البند الذي أضيف للمادة 113 كان محلّ انتقاد حتى من القوى الأوروبية إذ أنّ اللورد سالزبوري مفوض بريطانيا بمؤتمر ترسانة صرّح لمدحت باشا بأنّه بوجود هذا البند بالمادة 113 لا يمكن الحديث عن دستور. ينظر: Ibid, P212.

¹. كتب عبد الحميد الثاني في مذكراته: "ولما كانت الأمة تزعم أنّها وصلت رشدها، فقد عينت على الفور مدحت باشا في منصب الصدارة العظمى لأنّه كان محل ثقة العموم". ينظر: عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص7.

يذكر المؤرخ العثماني محمود جلال الدين باشا بأنّه على رغم من أنّ القصر اعتبر أنه من الضروري عزل مدحت باشا من إدارة الدولة بسبب دوره في عزل عبد العزيز مع ذلك وبسبب شهرته العامة لم يكن من المناسب اتباع مثل هذا المسار. ينظر:

Mahmud Celaleddin Pasa: Op.cit, P 204.

². ابتهج السفير البريطاني السير هنري إليوت بتعيين مدحت باشا صدراً أعظماً وهذا ما توضحه رسالته إلى وزير الخارجية البريطاني (Edward Henry Stanley) حيث كتب: "سيدي اللورد، تم تعيين مدحت باشا الوزير الأكبر بدلا من محمد رشدي باشا أهمية هذا التعيين في هذه اللحظة كبيرة جدا؛ فمدحت باشا هو بلا ريب أكثر رجال الدولة الأتراك نشاطاً ولبيرالية... إلى جانب إرادته في أن يخضع الوزير الكبير والسلطان لأحكام الدستور... قبل ذلك أراد دائماً اتباع نصيحة حكومة صاحب الجلالة، لكنني لا أدرك ما هي مشاعره تجاه إنجلترا في هذه اللحظة". ينظر: Ali Haydar Midhat: Op.cit, P116.

³. تزامنت مراسيم حفل إصدار الدستور العثماني بتاريخ 7 ذو الحجة 1293هـ/23 ديسمبر 1876م مع يوم افتتاح مؤتمر ترسانة مؤتمر القوى العظمى بإستانبول، وذكر مراسيم هذا الحفل أحد شهود العيان والذي قرأ مرسوم السلطان رئيس أمانة الباب العالي المسؤول عن الاتصالات مع القصر محمود جلال الدين باشا في كتابه مرآة الحقيقة، حيث ذكر أنّه رغم الأمطار الغزيرة إلا أنّ الحشد كان كبيراً، وذكر ابتهاج الجميع بصدور الدستور وإطلاق قذائف المدفعية، وأنّ السفراء وخاصة سفير روسيا تساءلوا وهم بالمؤتمر عن سبب إطلاق المدافع فأعلمهم وزير الخارجية والندوب العثماني أنّ ذلك كان بمناسبة صدور الدستور. ينظر:

Mahmud Celaleddin Pasa: Op.cit, P 205 .

⁴. ذكر عبد الحميد الثاني في مذكراته أنّه لم يكن الوحيد المعارض للدستور بل كان غالبية رجال الدولة معارضين فقال: "المعارضون للقانون الأساسي من طبقة الخواص كانوا أكثر من المؤيدين؛ كان أدهم باشا وكثير من الوزراء الآخرين وأصحاب النفوذ من رجال الدولة، ضد إعطاء حرية كاملة لشعب من الشعوب دون تأنّ وإعداد، حتّى إنّ وزيراً جريئاً مثل خير الدين باشا =

جاء إلى حد كبير كما أراداه السلطان ومؤيديه.

أقيم الحفل الذي تمّ الإعداد له على عجل في الساحة العامة المفتوحة على الجانب البحري من الباب العالي، وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة تجمع حشد كبير من الناس متدافعين بمظلاتهم وصل السكرتير الأول للقصر حاملاً حقيبة مخملية تحتوي على المرسوم الرسمي أو الخط الشريفي لإصدار الدستور المختوم بختم السلطان عبد الحميد ونص الدستور¹، وسلم ذلك إلى الصدر الأعظم مدحت

التونسي قال لي ذات مرة عندما كان في الصدارة العظمى: (ينبغي التفكير كثيراً قبل تسليح الأجلاف بالقانون) وهذه العبارة هي نص ما قاله خير الدين باشا¹ ينظر: عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص 81.

¹ . حسب رأي اثنين من الأكاديميين الأتراك؛ الدكتور ارجون أوزبون وهو متخصص في القانون الدستوري، والدكتور عمر فاروق جانتشكايَا أستاذ العلوم السياسية بجامعة مرمره في كتابهما المشترك: "الديمقراطية وسياسة صياغة الدستور بتركيا": كان النص النهائي للدستور العثماني حلاً وسطاً بين الإصلاحيين والمحافظين المدعومين من السلطان عبد الحميد الثاني. نصّ دستور سنة 1876م لأول مرة على آليات دستورية لضبط السلطات المطلقة للسلطان، أهم تجديد في الدستور هو إنشاء جمعية تشريعية ينتخبها الشعب جزئياً على الأقل. تتألف الهيئة التشريعية العثمانية المسماة "الجمعية العامة" (Meclis-i Umumi)، من مجلسين: مجلس الشيوخ أو هيئة الأعيان (Heyet-i Âyan) ومجلس النواب أو هيئة المبعوثان (Heyet-i Mebusan). كان يتم تعيين أعضاء مجلس الشيوخ مدى الحياة من قبل السلطان، في حين كان يتم انتخاب النواب من قبل الشعب من خلال انتخابات غير مباشر (على مرحلتين) حيث لم يُسمح إلا لأصحاب العقارات بالتصويت. منحت الجمعية العامة بعض الصلاحيات لسنّ القوانين وممارسة الرقابة على السلطة التنفيذية. مع ذلك ظلّت السلطة النهائية بيد السلطان، الذي ظل حجر الزاوية للنظام الدستوري. غير أنّه لم يكن بإمكان السلطان سن القوانين من جانب واحد أو تعديل الدستور. وهكذا تم إقامة توازن معين بين الهيئتين السياسيتين. بالإضافة إلى ذلك أقر الدستور باستقلال القضاء وإقرار بعض الحقوق والحريات الأساسية. ومع ذلك حتى هذه التجربة المحدودة للحكومة الدستورية أثبتت أنها صعبة للغاية بالنسبة لعبد الحميد الثاني؛ الذي امتثل لمجلس النواب إلى فترة من الزمن، ثمّ عاد سنة 1878م إلى الحكم المطلق لمدة ثلاثين عامًا. ينظر:

Ergun Özbudun and Ömer Faruk Gençkaya: **Democratization and the Politics of Constitution-Making in Turkey**, Central European University Press, Central European University Share Company, Budapest and New York, 2009, P8-9.

كان الدستور المصادق عليه من قبل السلطان عبد الحميد الثاني مكوّنًا من 119 مادة أو بندا، تندرج تحت 10 فصول: يمكن تلخيصها على النحو التالي: الفصل الأوّل: ممالك الدولة العثمانية: وبه سبعة بنود (1-7) حددت الأقاليم والولايات التابعة للدولة العثمانية، كما حددت عاصمة الدولة إستانبول، واعتبرت الدولة بمثابة خلافة إسلامية كبرى يرأسها أكبر أولاد آل عثمان وأنّ السلطان هو الخليفة حامي الإسلام وحاكم جميع العثمانيين، وأنّه فوق المساءلة، وأنه يعين الوزراء والمسؤولين ويعزلهم، وتصدّق النقود باسمه، ويذكر اسمه في الجمعات، ويعقد المعاهدات الأجنبية، ويعلن الحرب والسلام، وينفذ الشرع الخفيف، ويجمع مجلس الأمة ويختتمه، ويحل مجلس المبعوثين إذا اقتضت الضرورة. الفصل الثاني: حقوق العثمانيين، ويندرج تحته 19 بندا (8-26)، الفصل الثالث: الوزراء، ويندرج تحته 12 بندا (27-38)، الفصل الرابع: المأمورون أو المسؤولون ويندرج تحته 3 بنود (39-41)، الفصل الخامس: مجلس الأمة ومجلس الأعيان والمبعوثين ويضم 39 بندا (42-80) وهو أطول الفصول وأكثرها بنوداً، الفصل السادس: القوة الشرعية النظامية، وتضم 11 بندا (81-91)، الفصل السابع: المجلس العالي، ويندرج تحته 4 بنود (92-95)، الفصل الثامن: المالية ويندرج تحته 12 بندا (96-107)، الفصل التاسع: إدارة الولايات، ويضم 5 بنود (108-112) الفصل =

باشا، الذي قام بدوره بتسليمها باحترام إلى رئيس أمانة الباب العالي المسؤول عن الاتصالات مع القصر الذي قرأ المرسوم بصوت عالٍ، لم يشرف السلطان الحفل بحضوره، بُرّر ذلك بأنه أصيب بوعكة خفيفة مع ذلك كان مرسومه المرفق مع نص الدستور واضحاً لا لبس فيه؛ وصف الدستور بأنه متوافق مع الشريعة الغراء، وبأنه استمرار طبيعي للإصلاحات التي بدأها والده عبد الحميد.

كما صرّح بأن الدستور يرمي إلى تحقيق رفاهية جميع الرعايا العثمانيين، الذين يجب أن يتمتعوا دون تمييز بمزايا الحرية والعدالة والمساواة وحماية الحكومة من السيطرة التعسفية من جانب فرد واحد أو أكثر، حدد المرسوم بإيجاز العملية التي تم من خلالها وضع الدستور والعناوين الرئيسية لتلك الوثيقة وأمر في النهاية الصدر الأعظم بضمان تطبيق الدستور في جميع أنحاء الإمبراطورية وأن القوانين اللازمة لتنفيذه قد تم وضعها أيضاً، بعد تلاوة مرسوم السلطان تحدثت باختصار وشكر السلطان على هذا المرسوم الهام وعلى إصدار الدستور الذي سيكون إيذاناً بفتح حقبة جديدة من الرخاء المستدام، وبعد أن رفع المفتي القديم لأدرنة الدعاء من أجل حياة طويلة لعبد الحميد، تم إطلاق 101 قذيفة مدفع ابتهاجاً بهذا الحدث، ووصلت أصداً ذلك الابتهاج إلى ممثلي القوى الكبرى بمؤتمر ترسانة حيث شرح لهم وزير الخارجية العثماني والمندوب العثماني الأول بالمؤتمر حقيقة ما يجري¹.

خارج قاعة المؤتمرات بإستانبول ولّد الإعلان الدستوري حماسة أكبر؛ كانت هناك بالطبع زيارات رسمية لتهنئة السلطان في قصره من قبل الوزراء وغيرهم من المسؤولين، وليلاً تم إضاءة المنازل والمتاجر كانت الزيارة الأكثر أهمية هي الزيارة التي قام بها مدحت في اليوم التالي إلى بطاركة اليونان والأرمن كبادرة لإلزام جميع شعوب الدولة العثمانية بروابط مشتركة في ظل العثمانية وإظهار أنه في ظل النظام الدستوري الجديد سيتم التعامل مع الرجال من جميع الأديان على قدم المساواة، هذه الزيارة التي قام بها أحد كبار المسؤولين لم يسبق لها مثيل في التاريخ العثماني، ومما لا شك فيه أن رؤساء الملل يحظون بالتقدير، لكن هذا تقدير زائد باعتبارهم تقليدياً هم الذين يزورون ذوي السلطة العثمانيين، قال البطريرك اليوناني رداً على كلمات مدحت الودية: "نحن نعتبرك منقذ الإمبراطورية العثمانية"²، وفي مساء يوم

العاشر: قواعد مختلفة ويضم 7 بنود (113-119). للاطلاع على النص الكامل للدستور ينظر: ينظر: الدولة العلية العثمانية: القانون الأساسي، مطبعة الآداب، بيروت، 1908، ص4، 22.

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P382.

² . ذكر نجل مدحت باشا في كتابه عن والده أنّ العلماء توجهوا بقيادة شيخ الإسلام (خير الله أفندي)، ورجال الدين المسيحي مع بطاركتهم والوزراء، والعلامة المبجل شاعر أفندي إلى جانب طلاب الشريعة وغيرهم من الطلاب، وممثلون عن جميع المهن والتقابات وسكان العاصمة يحملون أعلاماً كتبت عليها عبارة "الحرية"، لتهنئة مدحت باشا بمقر إقامته على عهد الحرية الجديد في المساء تم إضاءة المساجد، وكان الناس يحملون المشاعل في الشوارع وهم يهتفون "عاش السلطان ومدحت باشا" =

7 ذو الحجة/23 ديسمبر قامت مجموعات من الليبراليين الشباب الأتراك بالتظاهر في الشوارع وذهب بعضهم إلى منزل مدحت وإلى القصر ليصرخوا بحياة طويلة للصدر الأعظم والسلطان¹.

ردود الفعل حول صدور أوّل دستور عثماني

نستعرض بإيجاز ردود الفعل من صدور الدستور؛ في جميع أنحاء الدولة أثارت أنباء إعلان الدستور عموماً رد فعل من الشك أو اللامبالاة أو عدم الفهم، في عاصمة كل ولاية تم قراءة مرسوم السلطان [الموطّئ للدستور] علانية من طرف والي الولاية، وفي بعض الأوساط كان هناك خوف من أن الدستور يمثل ببساطة تنازلات جديدة لضغط القوى المسيحية، استبشر يهود الدولة بالدستور لكونهم لا يملكون أيّ طموحات قومية، ورحّب به الأرمن بشكل عام لاعتقادهم أنه قد يعني لهم المزيد من الحرية، فقد كانوا عاجزين على استمالة القوى الكبرى لصالح دعم تقرير مصيرهم، ويبدو أن اليونانيين وخاصة بإستانبول وأدرنة رحبوا بالدستور لأجل مصلحتهم من جهة، ومن جهة أخرى لأنهم كانوا يأملون في أن يجبط إعلان الدستور مساعي الانفصاليين البلغار الذين تميل القوى العظمى إلى تأييدهم غير أن شعوب البلقان الأخرى لم تُظهر أي ابتهاج؛ فلا يمكن للسلاف الذين حملوا السلاح ضد السلطان أن يتطلعوا بسرور إلى إعادة الاندماج في الدولة ولو أصبحت حكومتها دستورية².

بالنسبة للقوى الأوروبية الممثلة في مؤتمر ترسانة والذي كان رد فعل مندوبيها سيحدد مصير مدحت باشا، الذي كان يأمل أن يمنح المؤتمر الاعتراف الدولي بالنظام الجديد، كان جميع المندوبين باستثناء مندوبي الدولة العثمانية قد عقدوا بالفعل اجتماعات غير رسمية في مقر إقامة السفير الروسي ووافقوا بلا شك على تجاهل حدث إصدار الدستور وبالتالي رفضهم للنظام الجديد، وانشغلوا في مداولاتهم وكأنّ شيئاً لم يكن، في 1 محرم 1294هـ/15 يناير 1877م، سلمت قائمة مطالب تتماشى إلى حد كبير مع ما تأمل روسيا في الحصول عليه من إعادة تنظيم للأراضي والأوضاع العثمانية

تم تلقي برقية تهنئة من جميع ولايات الإمبراطورية، تعبيراً عن الابتهاج بهذا الحدث الكبير، كان قصر طولمة باغجة هو المكان الوحيد غير المضاء فلم يكن السلطان مكتئباً". ينظر: Ali Haydar Midhat: Op.cit, P130-131.

¹ - Roderic H. Davison: Op.cit, P383.

² - Ibid, P384,385.

بالبلقان¹، رُفِضَت المطالب فأعلنت روسيا حربها بتأييد أوروبي على الدولة العثمانية².

أعطت الحرب والهزيمة اللاحقة ومؤتمر برلين اللاحق الذي فرض على الدولة العثمانية شروطاً أقسى من تلك التي كانت في مؤتمر ترسانة ومن تلك التي أملتها الهدنة الروسية، أعطت أسباباً كافية لعبد الحميد الثاني لتولي زمام الأمور بين يديه مدّة ثلاثين سنة؛ فتمّ عزل مدحت باشا عن الصدارة ونفيه بموجب المادة 113، فذهب في 22 محرم 1294هـ/5 فبراير 1877 إلى أوروبا³، ثمّ عفي عنه ثم قبض عليه وحكم عليه بالإعدام بتهمة المشاركة في قتل السلطان عبد العزيز بعد عزله، غير أنّ عبد الحميد فضّل نفيه للطائف، ليقتل بعد سنوات في منفاه في 11 أو 12 رجب 1301هـ/7 أو 8 ماي 1884م، وهكذا طويت صفحة آخر رجال التنظيمات الذي كان أوّل مصلح يجعل من الولايات المختبر الرئيسي للتنظيمات.

كان الدستور أو القانون الأساسي الذي كرّس مدحت أواخر حياته من أجله، وتحمّل لأجل إصداره الكثير⁴، تويجاً للحركة الإصلاحية الغربية المسماة بالتنظيمات، كان الإنجاز كبيراً بالنظر إلى الاتجاه العام في ذلك العصر والمقاومة النفسية للتغيير، إلى جانب تنامي النزعات القومية الانفصالية

¹ - Niyazi Berkes: Op.cit, P249.

تتضمن مطالب للقوى الست (بريطانيا وروسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا) أنظمة خاصة وإصلاحات إدارية للبوسة والهرسك وتقسيم بلغاريا إلى قسمين. جزء من هذه المقترحات كان مقبولاً لدى الحكومة العثمانية، لكنها لن تقبل اشتراط موافقة القوى الكبرى على تعيين حكام هذه المقاطعات، وأن تشرف لجان الرقابة الدولية على تنفيذ الإصلاحات. ينظر:

Roderic H. Davison: Op.cit, P392-393 .

² . دعت الحكومة العثمانية إلى مجلس عموم خاص حضره إلى جانب رجال الدولة الممثلين المدنيين والكنسيين من جميع الأديان والكنائس وتمّ فيه رفض مطالب مؤتمر ترسانة، تبع الرفض إعلان حرب من جانب روسيا، وإعلان بريطانيا - التي عوّل عليها مدحت باشا - الحياد إلى جانب القوى الأوروبية الأخرى. وهكذا تمّ خيانة مدحت وقضية الدستورية. وفشل مدحت في توفير الدعم الأوروبي لإصلاحاته الدستورية - كما فعل رشيد باشا في خط شريف كلخانة - وضمان حرصهم على سلامة أراضي الدولة العثمانية من نُذر الحرب الروسية، كما فشلت خطته في تنفيذ الإصلاحات بإخضاع الحاكم لإرادة البرلمان فشلاً ذريعاً.

³ - Loc.cit.

⁴ . كان الكثير من أهل ذلك العصر يسمون الدستور العثماني بدستور مدحت، مما اضطر نجله علي حيدر للرد بما يلي: من بين الانتقادات الأخرى التي لا أساس لها من الصحة أن "دستور مدحت" كما كان يطلق عليه كان وسيلة ساذجة لمواجهة المؤتمر [مؤتمر ترسانة 1876] الذي كان على وشك الانعقاد. هناك حقيقة لا يمكن التنازع حولها وتشهد عليها جهة لن تكون محل نزاع، تقضي تماماً على هذا الافتراء؛ وهي أنّ السيد هنري إليوت [السفير البريطاني] في إشارة إلى هذه القضايا بالذات يؤكّد على أن مدحت باشا وأصدقائه أبلغوه بأنهم كانوا يعملون من أجل إصدار دستور، وشرحوا له وجهات نظرهم بالكامل، قبل اثني عشر شهراً من وجود فكرة عقد مؤتمر... أن يكون مدحت وأصدقائه قد استخدموا حقيقة إصدار الدستور كسلاح لمعارضة قرارات المؤتمر فذلك هو الموقف الصائب بلا شك، وهو سلاح شرعي يمكن الاستفادة منه... من الواضح جداً أنه لو لم يكن هناك مؤتمر على الإطلاق، لما كان الدستور قد تمّ وضعه وأصر على إصداره. ينظر: Ali Haydar Midhat: Op.cit, P118-120.

كان هدف رجال التنظيمات الرئيسي هو الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية ووحدة أراضيها من خلال تنشيطها بإصلاح الإدارة المركزية، وإيجاد إدارة إقليمية مرنة توفّق بين السيطرة المركزية وصوت محليّ في الحكومة، وصولاً إلى حكومة دستورية وبرلمان منتخب ودستور يحدّ من سلطة السلطان ويشرك الأمة في إدارة نفسها، إلى جانب الحفاظ على ولاء جميع شعوب للدولة والوطن، وبهذه الطريقة فقط يمكن وقف تدخل القوى الأجنبية، وتخفيف الدوافع القومية الانفصالية للأقليات، وتم إدخال العديد من مراسيم الإصلاح التي تهدف إلى تحقيق هذه الأهداف في الدولة بدرجات متفاوتة وفقاً للنماذج السياسية والإدارية الغربية وبعض القوانين والمفاهيم والمؤسسات التعليمية الغربية، ومفهوم الحقوق المتساوية لجميع الرعايا أياً كان العرق أو العقيدة.

نجد أنّ إعلان القانون الأساسي يظهر في الواقع تشابهاً معيناً مع الأسباب الخارجية التي دفعت باتجاه إعلان خط شريف كلخانة وفرمان الإصلاحات؛ فإعلان خط شريف كلخانة استخدم كسلاح دبلوماسي استهدف الدفع باتجاه حل القضية المصرية ولجم محمد علي باشا، وبالمثل استهدف إعلان فرمان الإصلاحات تأمين دعم الدول الغربية للمجتمع بمؤتمر باريس الذي عقد بعد حرب القرم، ومع ذلك لا يمكن أن نعزو إعلان القانون الأساسي بالكامل لأسباب خارجية، إذ تلعب الأسباب الداخلية دوراً أيضاً؛ فهو بمعنى من المعاني استمرار طبيعي لعملية التحديث التي بدأت مع التنظيمات.

اكتسبت فكرة أن يكون للناس رأي في الإدارة بعض الوزن بين العثمانيين الجدد، الذين كانوا حركة معارضة رئيسية في هذه الفترة، وقد ظهرت أيضاً قواسم مشتركة بين العثمانيين الجدد ومدحت باشا في هذه المرحلة، ومع ذلك فإن حقيقة أن دور الديناميكيات الخارجية في إعلان الدستور تجاوز دور الديناميكيات الداخلية حال دون استمرار هذه النقلة الدستورية في الاتجاه التصاعدي المستمر في الفترات التالية.

عرضنا في هذا المبحث موجزاً لتاريخ الفكرة الدستورية من مَهْدِهَا حتى آلت إلى دستور مكتوب هو أوّل دستور عثماني مكتوب في العالم الإسلامي - إذا استثنينا دستور عهد الأمان التونسي 1277هـ/1861م - ورأينا كيف أصبحت الفكرة الدستورية محط جدل واسع في صفوف النخبة العثمانية من الإداريين والعلماء وحتى عموم الناس، حتى نقلها مدحت باشا ومؤيدوه من الوثائق إلى الحقائق، ورأينا كيف حاول مدحت باشا أيضاً استعمال إعلان الدستور كسلاح دبلوماسي لمواجهة تدخل القوى الأوروبية سيما روسيا في الشأن الداخلي العثماني، وفرض أجندة إصلاحات داخلية لحساب الطوائف غير المسلمة، بل لعله لولا مؤتمر ترسانة لما سمح السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار الدستور من أساسه باعتبار أنّه كان يرى أنّ الدستور يحتاج إلى وقت طويل لتهيئة الشعب العثماني له

ومع أنّ فكرة مدحت باشا باستعمال إصدار الدستور كسلاح دبلوماسي ضد المجتمعين الأوروبيين في مؤتمر ترسانة فشلت فشلا ذريعا بإعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية، إلا أنّ ذلك لا ينفي أنّ الدستور كان استمرارا طبيعيا للإصلاحات التي دشّنها أعضاء فئة الكتاب من أهل القلم في عهد التنظيمات بصدور خط شريف كلخانة، وأنّ مسار التنظيمات كان سيؤدي حتما إلى إصدار دستور. فحسنا في هذا الفصل: فئة الكُتّاب من أهل القلم والانفتاح الإصلاحي على أوروبا الجديدة، حقبة التنظيمات (1839-1876) التي شكّلت ذروة الجهود الإصلاحية التغريبية في الدولة العثمانية والتي بدأت مع "عهد التوليب" زمن السلطان أحمد، ومع كثرة فرمانات والمراسيم الصادرة في حقبة التنظيمات غير أنّ أسسها القانونية بنيت على ثلاث فرمانات؛ خط شريف كلخانة، وخط همايوني أو فرمان الإصلاحات، انتهاء بالدستور العثماني.

قدمنا في هذا الفصل مفهوم التنظيمات عثمانيا، والجدل الذي أثير حول التحديد الزمني لبداية حقبة التنظيمات ونهايتها، وذكرنا الجهد الإصلاحي لمحمود الثاني الذي تأسّس عليه عهد التنظيمات لنشرع في بسط القول حول أوّل فرمانات التنظيمات خط شريف كلخانة 1839م، وهو المرسوم الذي أقرّ مبدأ المساواة بين أفراد الشعب العثماني بصرف النظر عن الدين والعرق إلى جانب إصلاحات أخرى كان الهدف منها إدخال الدولة العثمانية إلى نادي الدول الأوروبية الحديثة، كما عرضنا ردود الفعل الداخلية حول فرمان والتي كان أغلبها رافضا له لأسباب مختلفة، كما تباينت حوله ردود الفعل الخارجية بين مرحب وقلق.

كما عرضنا بنفس السياق خط همايوني 1856م ودور التأثير الأجنبي في صدوره سيما البريطاني وأينا كيف أكد هذا فرمان ما ورد سابقا في خط كلخانة، وما هي النقاط الكثيرة التي تجاوزه فيها، وأينا أنّ الفكرة المركزية التي يدور حولها فرمان 1856م كانت هي استبدال المواطنة على أساس الهوية بالمواطنة على أساس العثمانية، وأينا كيف فشل فرمان في تحقيق ذلك ولما، ثم ختمنا بعرض مسار الفكرة الدستورية إلى أن صدر الدستور العثماني الأوّل 1876م، وكيف كانت ردود الفعل الداخلية والخارجية حوله وحول فرمان 1856م.

رأينا من خلال هذا الفصل كيف تصاعد التغريب، وكيف بدأت تتشكل رؤى الدولة الحديثة التي فيها رقابة على تصرفات السلطان الإدارية، وفيها فصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتشكّلت فيها المجالس والبرلمان وبدايات الصحافة وتشكّل الرأي العام العثماني، وكل ذلك بدفع كبير من رجالات فئة الكتاب من أهل القلم.



أقول في ختام هذا الجهد العلمي المتواضع أنّ دراسة فئة الكتاب من أهل القلم لا تزال ساحة بكرًا تحتاج إلى المزيد من الفحص والبحث، وترجع أهمية ذلك لارتباط هذه الفئة بالتغيير والإصلاحات عبر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي عامة والعثماني خاصة، باعتبارها امتلكت إلى جانب الثقافة الموسوعية لأفرادها وخبرتهم الإدارية الكبيرة والدراية الواسعة بمفاصل الدول الإسلامية المتعاقبة، بسبب انبثاقهم في كامل الجهاز الإداري لتلك الدول، امتلكوا إلى جانب ذلك كله القدرة على الوصول إلى الأرشيف والوثائق البالغة الأهمية بل والسرية أحيانًا كثيرة في الدول التي خدموا تحت ظلها وخبروا تفاعلاتها الداخلية، وارتباطاتها الخارجية.

رأينا في مجال الدراسات العثمانية أنّ دراسة فئة الكتاب من أهل القلم تكشف لنا التفاعلات الإدارية داخل المؤسسة الحاكمة العثمانية، والعلاقات المتبادلة بين السلطان والديوان الهمايوني والباب العالي، وبين هذه الأقطاب الثلاثة التي تمثل المؤسسة الحاكمة وبين بقية الإدارات والمؤسسات في ولايات الدولة العلية العثمانية، كما توضّح لنا التجاذبات بين المؤسسة الحاكمة والمؤسسة الدينية متمثلة في شيخ الإسلام، والعلاقة بين الحكومة العثمانية والحكومات الإسلامية والأوروبية على اعتبار أنّ فئة الكتاب كانوا تقريبًا يسيطرون على ملف الشؤون الخارجية حتى قبل أن تتشكل رسميًا وزارة الخارجية.

اضطلعت فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية عدا واجباتهم الإدارية التي أدّوها كما يجب بشهادة الغربيين كما رأينا، بمهمة التنظير الفكري والسياسي في الدولة العثمانية من خلال العديد من الرسائل والمؤلفات التي تندرج تحت ما عُرفَ بأدب نصائح الملوك، ومن خلال مهمّتهم هذه بات بأيدينا كم هائل من المعلومات السياسية والمالية والعسكرية والثقافية التي يمكن معها معرفة الكثير عن التاريخ العثماني الطويل، علاوة على إسهامهم في التأليف التاريخي حول حقبة عثمانية كثيرة سواء بمبادرات شخصية أو من خلال موقعهم كمؤرخين رسميين للدولة.

كانت فئة الكتاب من أهل القلم بحق كما قال عنهم الدكتور خالد زيادة الجماعة الأكثر تنبُّهاً لأزمة الدولة¹ بحيث مكّنتهم تنظيمهم الدقيق وانبثاقهم في أجهزة الدولة، من مُلامسة المشاكل الأساسية المحيطة بالعسكرية والخزينة والمؤسسة الحاكمة ككل، ومكّنتهم في الترجمة والاتصال بالسفراء الأجانب من التنبّه إلى الصعود والنهضة الأوروبية مُنتبّهين إلى ما يجري في أوروبا، ومن ثمّ نقلوا خبرتهم تلك إلى النخبة العثمانية التي تفاعلت معها بقوة سلبيًا وإيجابًا، وكان لهم الدور الكبير في تأسيس الطباعة

¹ . خالد زيادة: " دور فئة الكتاب الإداريين في علمنة الدولة العثمانية "، المرجع السابق، ص 169 .

ورعاية الصحافة وبالتالي أسهموا في إيجاد ما عُرف لاحقا بالرأي العام، وكان لهم الدور الكبير في ترسيخ تقاليد دبلوماسية جديدة، وفي تبسيط اللغة العثمانية عامة والإدارية بوجه خاص.

فلا غرو بعد ذلك من أنه رغم وضوح آمارات الضعف والانحلال في الدولة العثمانية بداية من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وما بعده إلا أن الدولة ظلّت صامدة بفضل فئة الكتاب هؤلاء الذين كما سبق أن ذُكر شكّلوا دعامة دائمة من الإداريين الذين واصلوا وظيفتهم في إدارة القانون وتنفيذ مهام الإدارة وفق تقاليدهم القديمة، رغم كلّ التحوّلات والفساد الذي استشرى فيمن فوقهم، واستماتوا في الدفاع والحفاظ على سلامة الدولة العثمانية، ومحاولة تجديدها لتواكب الدول الأوروبية الحديثة.

يمكن بعد ذلك كله أن تُذكر جملة من النتائج المستخلصة:

1. فئة الكتاب من أهل القلم مؤسسة إدارية عريقة عرفت كل الدول الإسلامية، وأخذت شكلها الكامل في الدولة العثمانية مع زمن سليمان القانوني.
2. مثّلت فئة الكتاب من أهل القلم بانضباطهم وتنظيمهم الدقيق قوّة إدارية مكّنت الدولة العثمانية من إدارة شؤونها الداخلية والخارجية بكفاءة واقتدار.
3. كان رجالات فئة الكتاب من أهل القلم أهم المنظرين الإصلاحيين في الدولة العثمانية سيما في عهد انحدارها، ومعظم المشاريع الإصلاحية وأهمها كانت بتوقيعهم، مما أسهم في تأخير انهيار الدولة العثمانية.
4. نجاح فئة الكتاب من أهل القلم في التفاوض باسم الدولة العثمانية سيما في اتفاقية كارلوفيتز 1110هـ/1699م، جعل مكانتهم تعلق في نظر السلطان والباب العالي، ومكّنهم ذلك من بلوغ أعلى منصب في المنظومة الإدارية العثمانية منصب الصدر الأعظم.
5. كان منتسبوا فئة الكتاب من أهل القلم أوّل من فتح باب الثقافة الأوروبية على مصراعيه على الدولة العثمانية فيما يعرف بعهد التوليب.
6. شكّلت كتب "السفارت نامه" التي تركها السفراء سيما من فئة الكتاب مفاتيح معرفية لفهم التطوّر الأوروبي.
7. أسهمت فئة الكتاب من أهل القلم تنظيرا وتنفيذا في إصلاحات أهم سلطانين إصلاحيين في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي سليم الثالث ومحمود الثاني، وكان لهم دور كبير في القضاء على الإنكشارية التي عرقلت كل جهود المصلحين في الدولة العثمانية.

8. دشنت فئة الكتاب من أهل القلم باقتدار عهد الدبلوماسية التركية الحديثة مع سليم الثالث ومحمود الثاني.
9. تحمّلت فئة الكتاب من أهل القلم أعباء ثقيلة للإصلاح في الدولة العثمانية أفضت بنفي بعضهم ومصادرة ممتلكاته، وإعدام آخرين.
10. معظم ما يعرف في التاريخ العثماني بعهد التنظيمات كان رواده من فئة الكتاب من أهل القلم، وكل الخطوط الهمايونية والمراسيم التنظيمية لعهد التنظيمات كانت من تأليفهم ولم يكن للسلطان فيها إلا التوقيع والختم.
11. أول دستور عثماني مكتوب كان جهدا خالصا تقريبا لفئة الكتاب من أهل القلم.
12. كان لفئة الكتاب من أهل القلم القدر المعلى في تأسيس الإدارة والدبلوماسية التركية الحديثة والأدب التركي الحديث، إلى جانب إسهامهم الكبير في تبسيط اللغة التركية، وقدّموا أول دراسة في مجال القانون في الدولة العثمانية.
13. لا يمكن فهم فلسفة التاريخ العثماني وتاريخ فكره السياسي دون النظر في التراث الفكري الضخم الذي خلفه رجال فئة الكتاب من أهل القلم.
14. رغم كل تلك الفضائل إلا أنّ عقدة النقص الناتجة عن انحطاط الدولة العثمانية التي كانت فيما مضى تقود العالم وترسم سياساته الخارجية، إلى جانب الانبهار بالجار الأوروبي الصاعد، أعماهم عن البحث عن التجديد من داخل منظومة القيم الإسلامية، فمهدوا بأعمالهم الإصلاحية الغربية الطريق إلى العلمانية المتوحشة التي قضت على الخلافة الإسلامية واستغنت بعلمانية أتاتورك، التي أدخلت جمهورية تركيا باقتدار إلى حضيرة العالم الثالث.
- استنتج الباحث والأكاديمي التركي الدكتور ألب إرن توبال (Alp Eren Topal) في خاتمة بحثه في فلسفة الأفكار الإصلاحية العثمانية إلى أنّه "بجلول نهاية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي بدأت تلاحظ بشكل صريح خطابات غير دينية وحتى علمانية صريحة"¹، وهذا يؤكد ما تقرّر فوق من أنّ فئة الكتاب من أهل القلم الذين دشّنوا عهد التنظيمات لم يسعوا في أغلبهم للعلمانية ومناكفة الدين، ولكنهم مهّدوا بإصلاحاتهم الطريق لنخبة بديلة ذهبت أبعد مما توقّعوا في سبيل علمنة الدولة والمجتمع ومن ثمّ إلغاء الخلافة الإسلامية، وتحويل الدولة العلية العثمانية إلى مجرد جمهورية تركية حديثة.

¹ - Alp Eren Topal: Op.cit, P190.

ملاحق

(الملحق 01) شجرة سلاطين آل عثمان

(الملحق 02) المؤسسة الدينية في الدولة العثمانية

(الملحق 03) نُظُم السراي العثماني خلال القرنين الـ 17 و 18م

(الملحق 04) مخطّط المؤسسة الحاكمة في الدولة العثمانية

(الملحق 05) مخطّط مؤسسة رئاسة الكتاب في الدولة العثمانية

(الملحق 06) صورة لمحمد الفاتح رسمها الفنان الإيطالي جنتل بيليني (Gentile Bellini) معرض لندن الوطني

(الملحق 07) صورة لملك فرنسا فرانسوا الأول رسمها الرسام العثماني حيدر رايس نيجاري

(الملحق 08) صورة سليمان القانوني للرسام العثماني نقاش عثمان في كتابه قيادة الإنسانية في الشمائل العثمانية الصادر سنة 1579م

(الملحق 09) صورة أوّل مقهى بفيينا لصاحبه جورج فرانز كلوتشيتزكي (Georg Franz Kolschitzky's Cofé) الذي أخذ البن الذي تركه العثمانيون أثناء حصارهم لفيينا سنة 1683م

(الملحق 10) صورة تخيلية لإلقاء النبي إبراهيم عليه السلام في النار

(الملحق 11) صورة تخيلية لإلقاء النبي زكريا عليه السلام في الشجرة

(الملحق 12) صورة لرجل أوروبي من قبل الفنان العثماني المعروف باسم ليفني (Levni) سنة 1720م

(الملحق 13) صورة لرجل أوروبي "الأوروبي الأنيق" من قبل الفنان العثماني المعروف باسم ليفني (Levni) سنة 1720م

(الملحق 14) صورة للرسام الهولندي المقيم بإنجلترا هانز إيپورث (Hans Eworth) (1520-1574)

(الملحق 15) صورة السلطان محمد الرابع كما وردت بمذكرات جيوفاني بيترو بيتوني

(الملحق 16) صورة الصدر الأعظم قارا مصطفى كوبرلو كما وردت في مذكرات جيوفاني بيترو بيتوني

(الملحق 17) صورة للأورغون ذو الأنابيب المزوّد بساعة الذي صنعه توماس دالام كهديّة من الملكة إليزابيث الأولى إلى السلطان محمد الثالث سنة 1599م. [النصوص بالعربية من ترجمتي]

(الملحق 18) جدول لعدد الصدور العظام خلال فترة البحث

(الملحق 19) صورة نوشهري دمادا إبراهيم باشا (Nevşehirli Damat İbrahim Paşa)

(الملحق 20) صورة ليرمي سكين محمد جلبي أفندي (Yirmisekiz Çelebi Mehmed Efendi).

الملاحق

(الملحق 21) جدول عدد السفارات والسفراء العثمانيين مرتب من أكثر العهود إلى أقلها سفارات

(الملحق 22) رسم بالألوان لرسم مجهول يظهر حديقة سعد آباد (Sa'dabad)

(الملحق 23) لوحة تظهر منطقة كاغد خانه (Kâğıthane) وقصر سعد آباد (Sa'dabad) بإستانبول سنة 1720م.

(الملحق 24) صورة الصدر الأعظم خليل حميد باشا (Halil Hamid Paşa).

(الملحق 25) جدول سفراء الدولة العثمانية إلى أوروبا خلال فترة البحث

(الملحق 26) جدول السفراء الذين تركوا سفارت نامه (فترة البحث)

(الملحق 27) صورة مصطفى رشيد باشا أحد أهم رجال التنظيمات

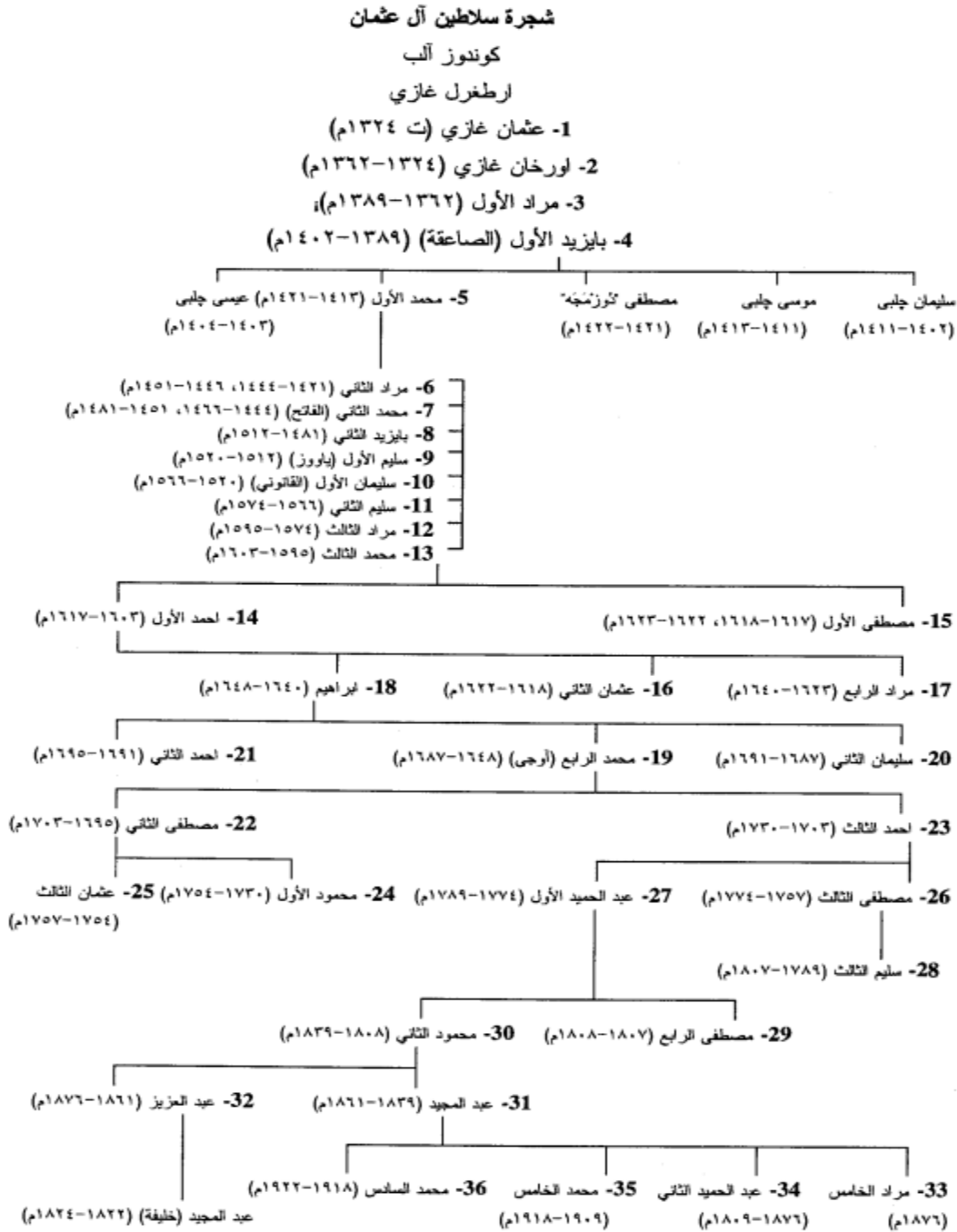
(الملحق 28) نص خط شريف كلخانه

(الملحق 29) رجل الدولة محمد أمين عالي باشا (Mehmed Emin Âli Paşa)

(الملحق 30) صورة رجل الدولة فؤاد باشا كاتشي جي زاده (Fuat Paşa, Keçecizade)

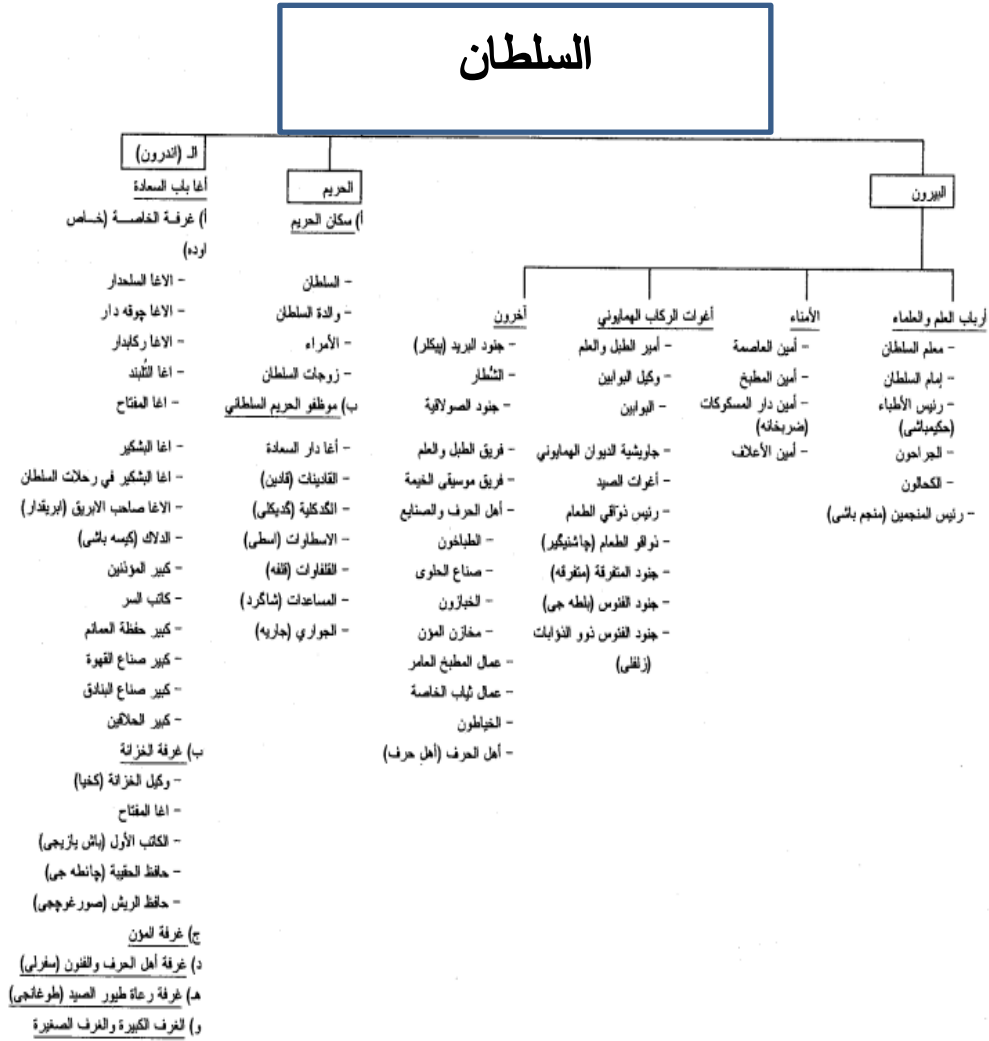
(الملحق 31) صورة السفير البريطاني بالدولة العثمانية (1842-1858)

(الملحق 32) صورة أبو الدستور العثماني مدحت باشا



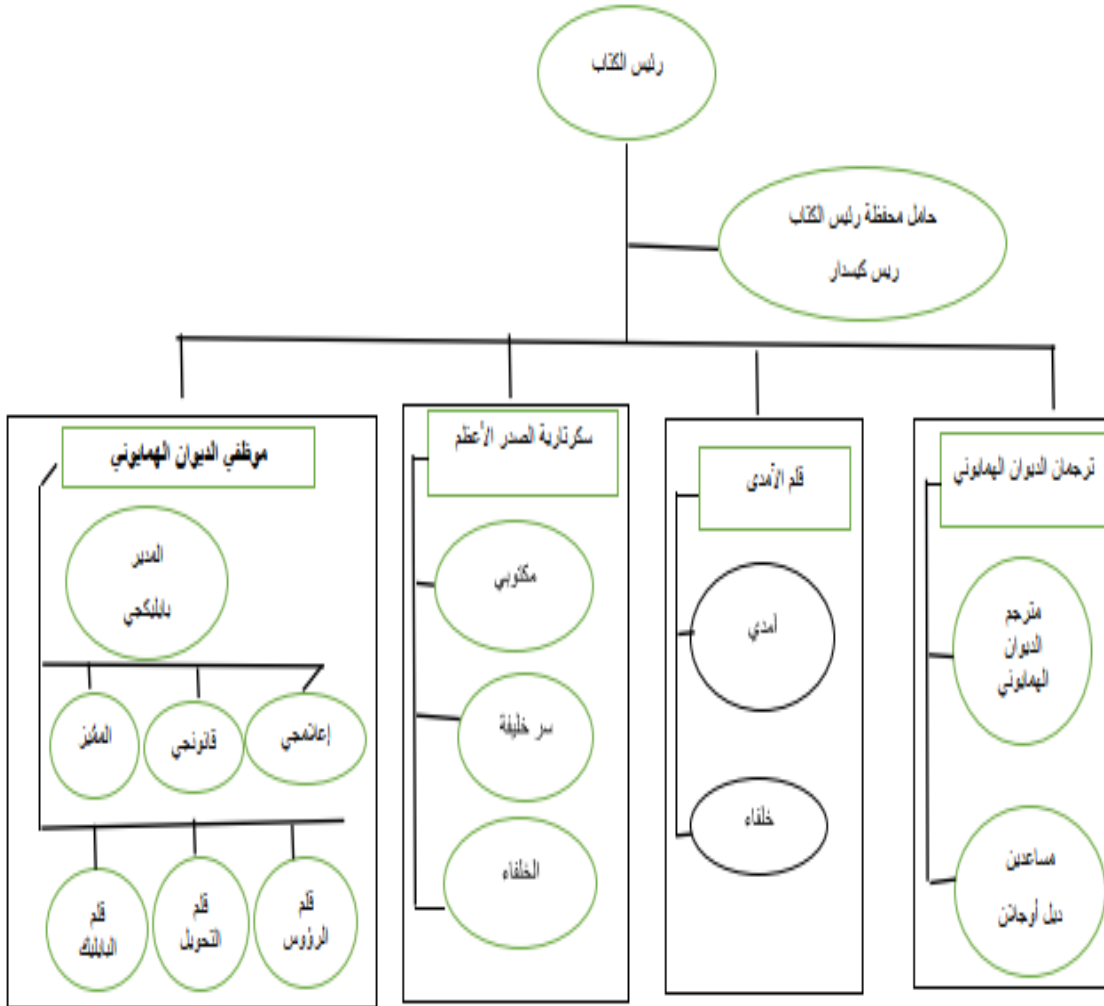
الملاحق (01) شجرة سلاطين آل عثمان

أكمل الدين إحسان أوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: صالح سعداوي، ج1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا) إستانبول، 1999، ص2.



الملحق (03) نُظْم السراي العثماني خلال القرنين الـ 17 و 18م

المرجع نفسه، ص 164.



(الملحق 05) مخطط مؤسسة رئاسة الكتاب في الدولة العثمانية

Carter V. Findley: *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire, The Sublime Porte, 1789-1922*, Princeton University Press, USA, 1980, P75.



الملحق (06) صورة لمحمد الفاتح رسمها الفنان الإيطالي جنتل بيليني. معرض لندن الوطني

Gunsel Renda: " **The Ottoman Empire and Europe: Cultural Encounters**", Foundation for Science Technology and Civilization, United Kingdom, December 2006,
http://www.muslimheritage.com/uploads/The_Ottoman_Empire_and_Europe1.pdf.P4.



(الملحق 07) صورة ملك فرنسا فرانسوا الأول رسمها الرسام العثماني حيدر رايس نيچاري

Gunsel Renda: Op.cit,

http://www.muslimheritage.com/uploads/The_Ottoman_Empire_and_Europe1.pdf.P8.



(الملحق 08) صورة سليمان القانوني للرسام العثماني نقاش عثمان في كتابه قيادة الإنسانية في الشمائل العثمانية الصادر سنة 1579م

Gunsel Renda: Gunsel Renda: Op.cit,

http://www.muslimheritage.com/uploads/The_Ottoman_Empire_and_Europe1.pdf P9



(الملحق 9) صورة أول مقهى بفيينا لصاحبه جورج فرانز كلوتشيتزكي (Georg Franz Kolschitzky's Cofé) الذي أخذ البن الذي تركه العثمانيون أثناء حصارهم لفيينا سنة 1683م.

لوحة زيتية من توقيع الرسام النمساوي فرانز تشامس (Franz Schams). هذه اللوحة معلقة في غرفة الاجتماعات الرئيسية لشركة (Julius Meinl. A.G). وهي شركة دولية بدأت منذ ما يقرب من مائة وخمسين عامًا كشركة تجميع القهوة بفيينا. أقام مؤسس الشركة مصنعًا على الفور حيث عثر كلوتشيتزكي على أكياس البن التركية المتروكة في أرض الحصار.

Bennett Alan Weinberg and Bonnie K. Bealer: The World of Caffeine: The Science and Culture of the World's Most Popular Drug, Routledge, New York, London, 2002, P46.



(الملحق 10) صورة لإلقاء النبي إبراهيم عليه السلام في النار

من كتاب فضولي حديقة السعداء " Hadikat üs-Süedâ "

طبعها (Gerald MacLean) بإذن من المكتبة البريطانية: مجموعات مكتبة الشرق والهند

رقم (shelfmark Or 7301, f.15b)

Gerald MacLean: Looking East: English Writing and the Ottoman Empire before 1800,
Palgrave Macmillan, New York, USA, 1 Edt, 2007, P50.



(الملحق 11) صورة لقطع النبي زكريا عليه السلام في الشجرة

من كتاب فضولي حديقة السعداء " Hadikat üs-Süedâ "

طبعها (Gerald MacLean) بإذن من المكتبة البريطانية

مجموعات مكتبة الشرق والهند رقم (shelfmark Or 7301, f.40b)

Gerald MacLean: Op.cit, P50.



(الملحق 12) صورة لرجل أوروبي من قبل الفنان العثماني المعروف باسم ليفني (Levni) سنة 1720م

طبعها (Gerald MacLean) بإذن من قسم الآثار الشرقية (Department of Oriental Antiquities)

بالمتحف البريطاني (British Museum) رقم (shelfmark BM 1960-11-12-01)

Gerald MacLean: Op.cit, P53

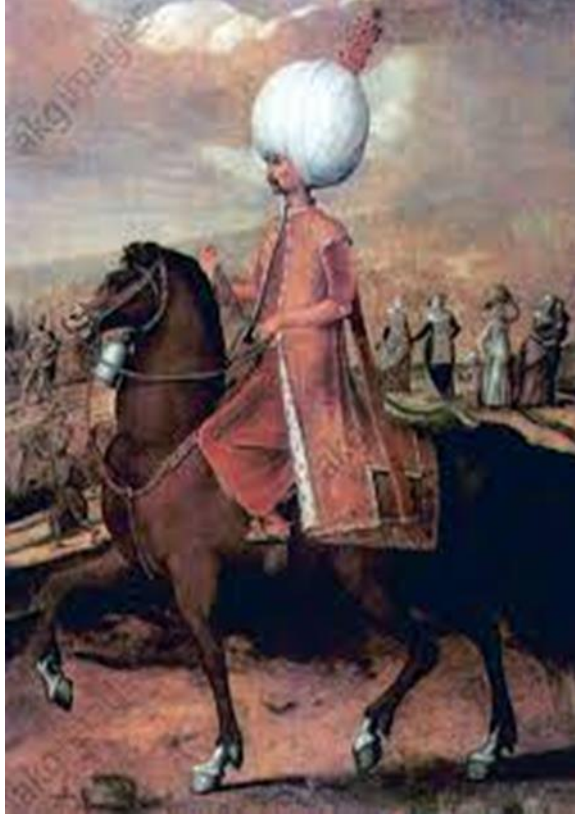


(الملحق 13) صورة لرجل أوروبي "الأوروبي الأنيق" من قبل الفنان العثماني المعروف باسم ليفني (Levni) سنة 1720م

طبعها (Gerald MacLean) بإذن من قسم الآثار الشرقية (Department of Oriental Antiquities)

بالمتحف البريطاني (British Museum) رقم (shelfmark BM 1960-11-12-02)

Gerald MacLean: Op.cit, P53.



(الملحق 14) صورة للرسام الهولندي المقيم بإنجلترا هانز إيورث (Hans Eworth) (1520-1574)

ربما تكون صورة سليمان القانوني رسمها سنة 1549 عندما كان يعيش بحي ساوثورك (Southwark) وسط لندن.

Gerald MacLean: Op.cit, P29.



(الملحق 15) صورة السلطان محمد الرابع كما وردت بمذكرات جيوفاني بيترو بيتوني

Giovanni Pietro Pittoni: **Historia, o' sia vero e distinto ragguaglio sullo stato presente della città di Costantinopoli**, Venice, Stamperia Leonardo Pittoni, 1684

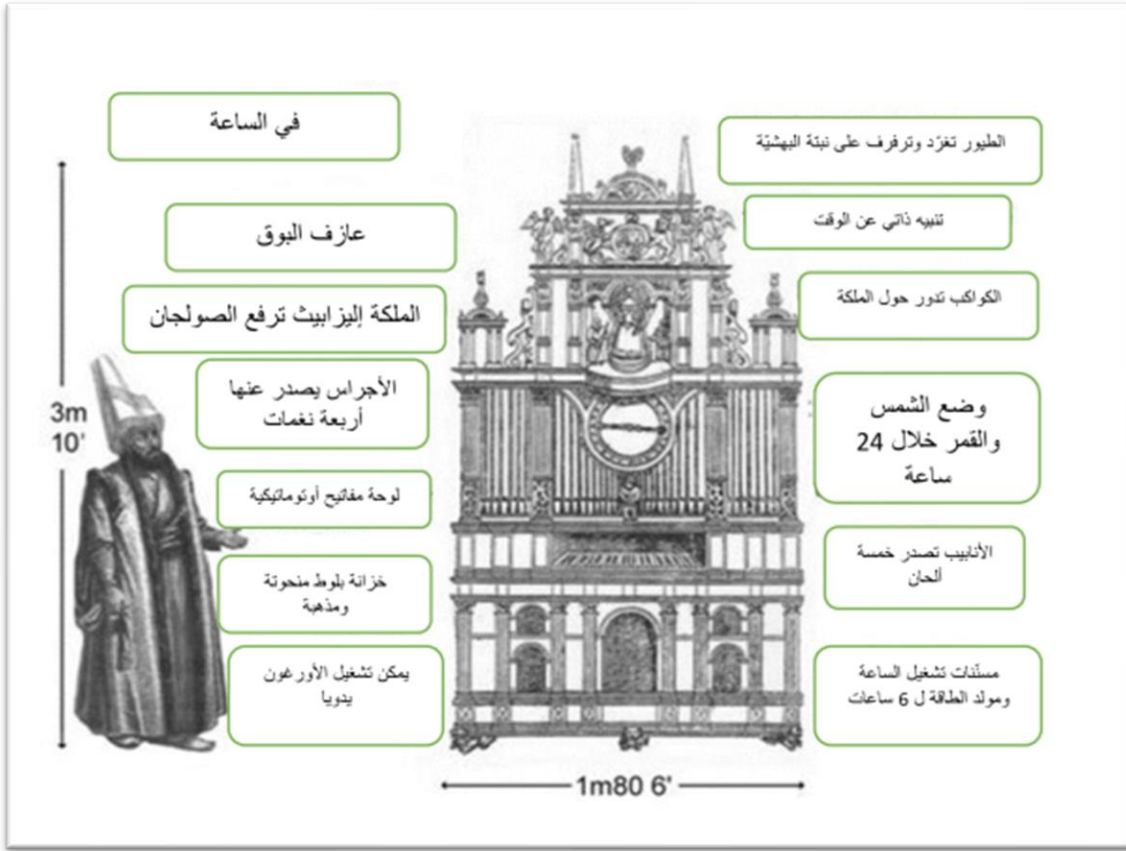
Filomena Viviana tagliaferri: " **Subjects in between: three different way of translating experience by Italian travelers in late 17 th - early 18 th century Ottoman space**", Cahiers de la Méditerranée, n° 88, Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, Université Nice Sophia Antipolis, France, juin 2014, 340.



(الملحق 16) صورة الصدر الأعظم قارا مصطفى كوبرلو كما وردت في مذكرات جيوفاني بيترو بيتوني

Giovanni Pietro Pittoni: **Historia, o' sia vero e distinto ragguaglio sullo stato presente della città di Costantinopoli**, Venice, Stamperia Leonardo Pittoni, 1684

Filomena Viviana tagliaferri: Op.cit, 341.



(الملحق 17) صورة للأورغون ذو الأنابيب المزود بساعة الذي صنعه توماس دالام كهديفة من الملكة إليزابيث الأولى إلى السلطان محمد الثالث سنة 1599م. [النصوص بالعربية من ترجمتي]

صورة منشورة في موقع التراث الإسلامي (Muslim Heritage) التابع لمؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة (Foundation for Science, Technology and civilisation) ومقره بالمملكة المتحدة (United kingdom)

<http://www.muslimheritage.com/article/clocks>

الرتبة	منهم من أهل القلم	عدد الصدور العظام	السلطان	
1 رك	01	01	مصطفى الثاني (1695-1703)	01
1 رك	03	15	أحمد الثالث (1703-1730)	02
/	03	16	محمود الأول (1730-1754)	03
2 رك	03	07	عثمان الثالث (1754-1757)	04
4 رك	05	11	مصطفى الثالث (1757-1774)	05
1 رك	03	11	عبد الحميد الأول (1774-1789)	06
/	02	09	سليم الثالث (1789-1807)	07
/	/	02	مصطفى الرابع (1807-1808)	08
1 رك 2 و خ	05	19	محمود الثاني (1808-1839)	09
3 و خ	04	22	عبد المجيد الأول (1839-1861)	10
1 و خ	04	16	عبد العزيز (1861-1876)	11
/	/	01	مُرَاد الخامس (1876 ماي - أوت)	12
/	01	02	عبد الحميد الثاني (1876-1909)	13
16	34	132	13 سلطان	مجموع

(الملحق 18) جدول لعدد الصدور العظام خلال فترة البحث

(رك) رئيس الكتاب، (وخ) وزير الخارجية

Jan Reychman and Ananiasz Zajaczkowski : **Osmanlı - Türk diplomatikası el kitabı**, (Handbook of Ottoman - Turkish diplomatics), T.C. Başbakanlık, Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu : 10, İstanbul, 1993, P235- 237.



(الملحق 19) صورة نوشهري دمادا إبراهيم باشا (Nevşehirli Damat İbrahim Paşa)

9 maddede mahyanın tarihi, Yeni Şafak , <https://www.yenisafak.com/ramazan/9-maddede-mahyanin-tarihi-2476683> , 07 Haziran 2016, 06:00.



(الملاحق 20) صورة ليرمي سكينز محمد جلي أفندي (Yirmisekiz Çelebi Mehmed Efendi).

رسمت اللوحة أثناء إقامة محمد أفندي بباريس. (Phot. Bibl. Nat., Paris)

Müge Göçek Fatma: **East Encounters West, France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century**, Oxford University Press, New York, USA, 1987, P11.

عدد أهل القلم من السفراء	عدد السفراء	عدد السفارات	السلطان	
13	15	21	سليم الثالث (1789-1807)	01
09	12	19	أحمد الثالث (1703-1730)	02
07	11	16	محمود الأول (1730-1754)	03
06	09	16	عبد المجيد الأول (1839-1861)	04
05	07	10	مصطفى الثالث (1757-1774)	05
05	07	08	محمود الثاني (1808-1839)	06
03	04	07	عثمان الثالث (1754-1757)	07
06	06	07	عبد العزيز (1861-1876)	08
03	06	05	عبد الحميد الأول (1774-1789)	09
01	01	02	مصطفى الثاني (1695-1703)	10
01	01	01	مصطفى الرابع (1807-1808)	11
59 سفير	80 سفير	113 سفارة	11 سلطان	مجموع

(الملاحق 21) جدول عدد السفارات والسفراء العثمانيين مرتب من أكثر العهود إلى أقلها سفارات

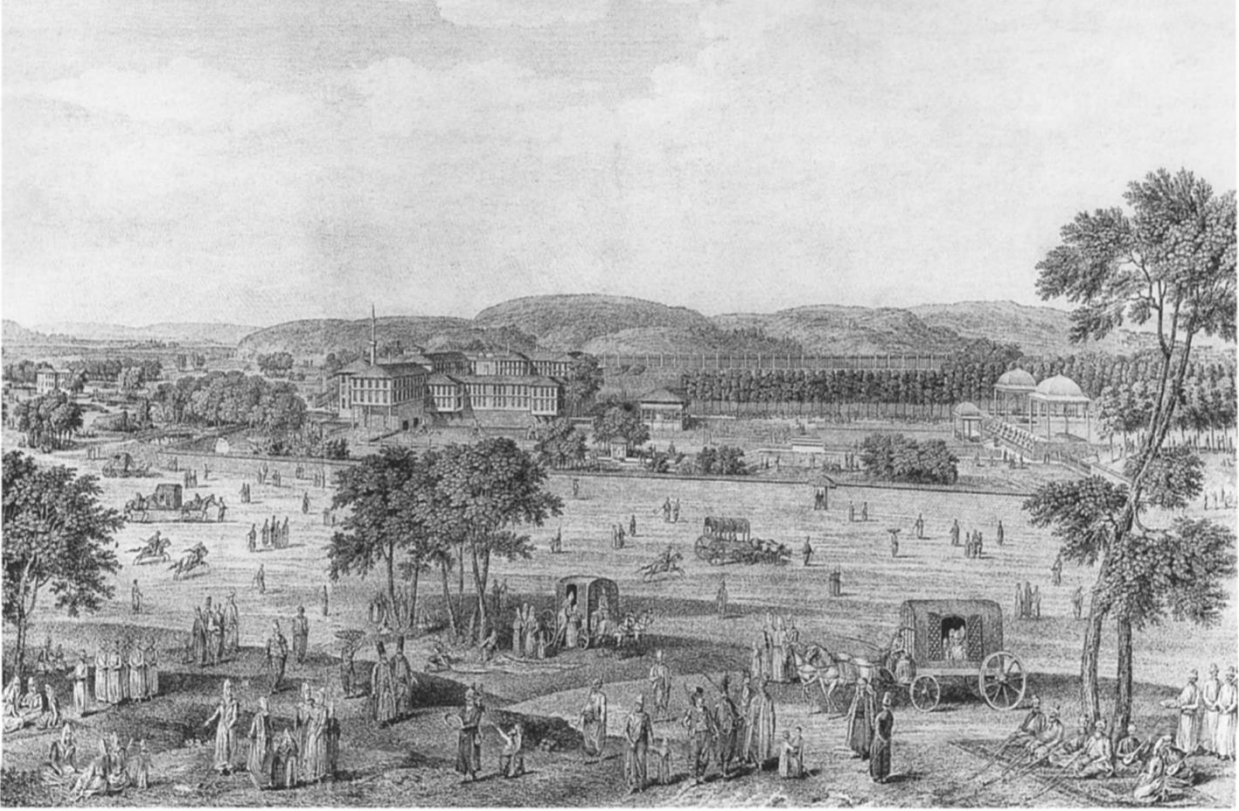
تم استخلاص الجدول من الفهرس العام للسفراء من وإلى الدولة العثمانية (The General Index of the Ambassadors to and from the Ottoman Empire) الذي أعدته المؤسسة العلمية البحثية النمساوية (Don Juan Archiv Wien). ونشرته عبر موقعها على شبكة الأنترنت، ويعدّ فهرسها أشمل فهرس عام للسفراء من وإلى الإمبراطورية العثمانية (83 صفحة)؛ واعتمدت في إعدادها على مجموعات متنوعة من المصادر أهمها فون هامر.



(الملحق 22) رسم بالألوان لرسم مجهول يظهر حديقة سعد آباد (Sa'dabad)

في منطقة كاغد خانة (Kâğıthane) بإستانبول سنة 1720م.

Shirine Hamadeh: **Ottoman Expressions of Early Modernity and the "Inevitable" Question of Westernization**, Journal of the Society of Architectural Historians, Vol 63, No. 1, (Mars 2004), P39.



(الملحق 23) لوحة تظهر منطقة كاغد خانة (Kâgıthane) وقصر سعد آباد (Sa'dabad) بإستانبول سنة 1720م

Shirine Hamadeh: Op.cit, P39.



(الملحق 24) صورة الصدر الأعظم خليل حميد باشا (Halil Hamid Paşa)

Kemal Beydilli: **Halil Hamîd Paşa, (ö. 1199/1785), Osmanlı sadrazamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 15, 1997, sayfa 316

الملاحق

عهد السلطان	تاريخ السفارة	الدولة	السفير
مصطفى الثاني (1695-1703)	1703	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	متفرقة إبراهيم آغا
مصطفى الثاني (1695-1703)	1700	جمهورية البندقية	؟؟؟؟
أحمد الثالث (1703-1730)	1707	فرنسا	أحمد باهر أفندي
أحمد الثالث (1703-1730)	1721-1720	فرنسا	يرمي سيكيز جلي محمد أفندي
أحمد الثالث (1703-1730)	1715	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	متفرقة إبراهيم آغا
أحمد الثالث (1703-1730)	1719	بولندا	مصطفى آغا كوزبكي (Kozbekçisi) (Mustafa Ağa)
أحمد الثالث (1703-1730)	1720	جمهورية البندقية	كابيجباشي نشلي محمد أفندي (Kapıcıbaşı Nişli Mehmet) (Efendi)
أحمد الثالث (1703-1730)	1722	روسيا	كابيجباشي نشلي محمد أفندي 2
أحمد الثالث (1703-1730)	1721	روسيا	مصطفى آغا كوزبكي 2
أحمد الثالث (1703-1730)	1723-1722	روسيا	كابيجباشي نشلي محمد أفندي 3
أحمد الثالث (1703-1730)	1729	روسيا	محمد باي الكريتلي (Giritli) (Mehmed Bey)
أحمد الثالث (1703-1730)	1709	السويد	موسى آغا
أحمد الثالث (1703-1730)	1714	السويد	يوسف آغا
أحمد الثالث (1703-1730)	1727	السويد	مصطفى آغا كوزبكي 2
أحمد الثالث (1703-1730)	1704	جمهورية البندقية	مصطفى آغا كوزبكي 3
أحمد الثالث (1703-1730)	1704	فيينا (إ ر م)	إبراهيم أفندي (İbrahim Efendi)
أحمد الثالث (1703-1730)	1718	جمهورية البندقية	؟؟؟؟
أحمد الثالث (1703-1730)	1716-1715	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	متفرقة إبراهيم آغا 2
أحمد الثالث (1703-1730)	1711	فيينا (إ ر م)	سيف الله آغا (Seyfullah Ağa)
أحمد الثالث (1703-1730)	1711-1710	بولندا	صلاح أحمد باي (Salahor Ahmed) (Bey)
أحمد الثالث (1703-1730)	1719	فيينا (إ ر م)	سلحدار إبراهيم باشا (Silahdar) (İbrahim Paşa)
محمود الأول (1730-1754)	1740	فرنسا	محمد سعيد أفندي (ابن يرمي سيكيز جلي محمد أفندي)
محمود الأول (1730-1754)	1741	نابولي (إيطاليا)	حاجي حسين باي (Hacı Hüseyin) (Efendi)

الملاحق

مصطفى آغا	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	1732	محمد الأول (1730-1754)
علي باشا	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	1740	محمد الأول (1730-1754)
مصطفى خطي أفندي (Mustafa) (Hatti Efendi)	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	1748	محمد الأول (1730-1754)
منيف مصطفى أفندي (Münif) (Mustafa Efendi)	بولندا	1737	محمد الأول (1730-1754)
علي آغا السيتوني (Aliaga von) (Sistow)	بولندا	1754	محمد الأول (1730-1754)
محمد سعيد أفندي 2	روسيا	1731	محمد الأول (1730-1754)
محمد سعيد أفندي 3	السويد	1733-1732	محمد الأول (1730-1754)
مصطفى خطي أفندي 2	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	1740-1711	محمد الأول (1730-1754)
محمد أفندي (Mehmed Efendi)	بولندا	1730	محمد الأول (1730-1754)
كانبي علي باشا (Canibi Ali Paşa)	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	1740	محمد الأول (1730-1754)
كانبي علي باشا 2	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	1740	محمد الأول (1730-1754)
مصطفى خطي أفندي 3	المجر	1748	محمد الأول (1730-1754)
محمد درويش أفندي (Mehmed) (Derviş Efendi)	روسيا	1754	محمد الأول (1730-1754)
محمد أمني أفندي (Mehmed Emni) (Efendi)	روسيا	1742-1740	محمد الأول (1730-1754)
محمد درويش أفندي 2	روسيا	1764-1754	محمد الأول (1730-1754) عثمان الثالث (1754-1757) مصطفى الثالث (1757-1774)
محمد باشا	بولندا	1756	عثمان الثالث (1754-1757)
محمد درويش أفندي 3	روسيا	1755	عثمان الثالث (1754-1757)
زشتوفيلي علي آغا (Zıstovili Hacı) (Ali Ağa)	بولندا	1756-1755	عثمان الثالث (1754-1757)
خليل أفندي (Halil Efendi)	المجر	1754	عثمان الثالث (1754-1757)
خليل أفندي 2	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	1754	عثمان الثالث (1754-1757)
؟؟؟؟	جمهورية البندقية	1756	عثمان الثالث (1754-1757)
محمد درويش أفندي 4	روسيا	1754	عثمان الثالث (1754-1757)
رسمي أحمد أفندي (Resmi Ahmed) (Efendi)	بروسيا	1764-1763	مصطفى الثالث (1757-1774)
محمد درويش أفندي 5	روسيا	1767	مصطفى الثالث (1757-1774)

الملاحق

مصطفى الثالث (1774-1757)	1758-1757	المجر	رسمي أحمد أفندي 2
مصطفى الثالث (1757-1774)	1758-1757	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	رسمي أحمد أفندي 3
مصطفى الثالث (1774-1757)	1758-1757	روسيا	شهدي عثمان أفندي (Şehdi Osman Efendi)
مصطفى الثالث (1774-1757)	1762	جمهورية البندقية	إسماعيل آغا (İsmail Ağa)
مصطفى الثالث (1774-1757)	1764	روسيا	محمد درويش أفندي 6
مصطفى الثالث (1774-1757)	1772	روسيا	محمد أمين ناحفي أفندي (Mehmed Emin Nahifi Efendi)
مصطفى الثالث (1774-1757)	1768-1767	روسيا	كسي مصطفى أفندي (Kesbî Mustafa Efendi)
مصطفى الثالث (1774-1757)	1758-1757	بولندا	كابوجو باشي محمد آغا (Kapucubaşı Mehmed Ağa)
عبد الحميد الأول (1789-1774)	/	فيينا	سليمان باي (Süleyman Bey)
عبد الحميد الأول (1789-1774)	1788-1787	إسبانيا	أحمد واصف أفندي (Ahmed Vasıf Efendi)
عبد الحميد الأول (1789-1774)	1776-1775	روسيا	عبد الكريم باشا (Abdülkerim Paşa) محمد أمين ناحفي أفندي (Mehmed Emin Nahifi Efendi)
عبد الحميد الأول (1789-1774)	1775-1771	روسيا	سلحدار إبراهيم باشا (Silahdar Ibrahim Pasa)
عبد الحميد الأول (1789-1774)	1778	بولندا	نعمان أنيس باي (سيد نعمان باي) Numan Enis Bey (Seyid Numan Bey)
سليم الثالث (1807-1789)	1792-1791	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	أبو بكر راتب أفندي (Ebubekir Ratip Efendi)
سليم الثالث (1807-1789)	1796	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	أبو بكر راتب أفندي 2
سليم الثالث (1807-1789)	1792	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا)	كريتلي علي عزيز أفندي (Giritli Ali Aziz Efendi)
سليم الثالث (1807-1789)	1793	فرنسا	؟؟؟؟
سليم الثالث (1807-1789)	1797-1793	بريطانيا	يوسف آغا أفندي (Yusuf Agâh Efendi)
سليم الثالث (1807-1789)	1797-1793	لندن	محمود رائف أفندي (Mahmud Raif Efendi) (رئيس سكرتارية يوسف آغا)
سليم الثالث (1807-1789)	1795	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا)	مورالي سيد علي أفندي (Morali Seyyid Ali Efendi) هو أول سفير دائم بباريس

الملاحق

سليم الثالث (1807-1789)	1798-1797	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا)	كريتلي علي عزيز أفندي 2
سليم الثالث (1807-1789)	1797	فرنسا	غالب سعيد محمد باشا (Galip Sait) (Mehmet Paşa)
سليم الثالث (1807-1789)	1800-1797	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	إبراهيم عفيف أفندي (Ibrahim Afif) (Efendi) أول سفير دائم بفيينا
سليم الثالث (1807-1789)	1798	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا)	أسعد أفندي (Esad Efendi)
سليم الثالث (1807-1789)	1802	/	انسحب السفراء العثمانيون
سليم الثالث (1807-1789)	1802	فرنسا	غالب سعيد محمد باشا 2
سليم الثالث (1807-1789) مصطفى الرابع (1807-1808) محمود الثاني (1808-1839)	1811-1802	فرنسا	غالب سعيد محمد باشا 3
سليم الثالث (1807-1789)	1806-1803	فرنسا	محمد سعيد خالد أفندي (Mehmed) (Said Halet Efendi)
سليم الثالث (1807-1789)	1807-1803	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	قسطنطين تيبالدو (Konstantin von) (Tipaldo)
سليم الثالث (1807-1789)	1811-1806	فرنسا	سيد عبد الرحيم محب أفندي (Seyyid) (Abdürrahim Muhib Efendi) (آخر وزير مقيم في عهد سليم الثالث)
سليم الثالث (1807-1789) مصطفى الرابع (1807-1808) محمود الثاني (1808-1839)	1811-1806	فرنسا	سيد عبد الرحيم محب أفندي (آخر وزير مقيم في عهد سليم الثالث)
سليم الثالث (1807-1789)	1792-1790	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا)	أحمد عزمي أفندي (Ahmet Azmi) (Efendi)
سليم الثالث (1807-1789)	1794-1793	روسيا	مصطفى راشح باشا
سليم الثالث (1807-1789)	1800-1797	بريطانيا	إسماعيل فروح أفندي
سليم الثالث (1807-1789)	1802-1797	فرنسا	مورالي سيد علي أفندي 2
مصطفى الرابع (1807-1808)	1808-1807	فرنسا	سيد محمد أمين وحيد أفندي (Seyyid) Mehmed Emin Vahid (Efendi)
محمود الثاني (1808-1839)	1811-1808	النمسا	أرغيرولو جانكو (Argiropulo) (Janko)
محمود الثاني (1808-1839)	1811	فرنسا	غالب أفندي (Galib Efendi)
محمود الثاني (1808-1839)	1821-1812	النمسا	يانكو مافروييني (Yanko) (Mavroyeni)
محمود الثاني (1808-1839) عبد المجيد الأول (1839-1861)	1821-1812 1834-1832	النمسا	يانكو مافروييني 2

الملاحق

	1840-1837		
محمد الثاني (1839-1808)	1834-1832	النمسا	يانكو مافرويني 3
محمد الثاني (1839-1808)	1832	لندن	محمد نامق باشا (Mehmed Namık Paşa)
محمد الثاني (1839-1808)	1834	/	أعيد تنشيط السفراء العثمانيين المقيمين على النحو التالي (انظر أدناه):
محمد الثاني (1839-1808)	1836-1835	النمسا	أحمد فتحي باشا (Ahmet Fethi Paşa)
محمد الثاني (1839-1808)	1837	النمسا	يانكو مافرويني 4
محمد الثاني (1839-1808)	1838	فرنسا	سيد مصطفى سامي أفندي (Seyyid Mustafa Sami Efendi)
محمد الثاني (1839-1808) عبد المجيد الأول (1861-1839)	1837 سبتمبر - 1841 أبريل 1842 نوفمبر - 1843 ماي	النمسا	محمد صادق رفعت باشا (Mehmed Sadık Rifat Paşa)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1840	النمسا	يانكو مافرويني 5
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1840	اليونان	؟؟؟؟
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1840	اليونان	؟؟؟؟
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1845	فرنسا	عبد الرزاق باهر أفندي
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1841 أبريل -1842 نوفمبر	النمسا	عاكف أحمد أفندي (Akif Ahmet Efendi)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1843 ماي -1844 نوفمبر	النمسا	مختار باي (Muhtar Bey)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1844 نوفمبر - 1846 أبريل	النمسا	نافع محمد أفندي (Nafi Mehmet Efendi)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1846 أكتوبر-1848 سبتمبر	النمسا	محمد شكيب باشا (Mehmet şekip Paşa)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1848 أكتوبر- 1850 سبتمبر	النمسا	كوستاكي موسوروس باشا (Kostaki Musurus Paşa)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1850 سبتمبر- نوفمبر	النمسا	عارف محمد أفندي (Arif Mehmet Efendi)
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1854	السويد/هولندا	؟؟؟؟
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1857	بلجيكا	؟؟؟؟
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1857	روسيا	؟؟؟؟
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1857	مملكة سردينيا	؟؟؟؟
عبد المجيد الأول (1861-1839)	1860-1857	إسبانيا	كيرهو أفندي (Kerho Efendi) أول سفير دائم بإسبانيا
عبد العزيز (1876-1861)	1865 يناير - 1870 أوت	النمسا/ النمسا-المجر	إبراهيم حيدر أفندي (Ibrahim Haydar Efendi)

الملاحق

عبد العزيز (1861-1876)	1870 أوت - 1872 سبتمبر	النمسا-المجر	خليل شريف باشا (Halil şerif Paşa)
عبد العزيز (1861-1876)	1872 أكتوبر - 1873 ماي	النمسا-المجر	أحمد عريفي باشا (Ahmet Arifi Paşa)
عبد العزيز (1861-1876)	1875 نوفمبر - 1876 ماي	النمسا-المجر	أحمد عريفي باشا 2
عبد العزيز (1861-1876)	1873 ماي - 1874 جوان	النمسا-المجر	محمد كابولي باشا (Mehmet Kabuli Pasa)
عبد العزيز (1861-1876)	1874 جوان - 1875 نوفمبر	النمسا-المجر	محمد رشيد باشا (Mehmet Rasid Pasa)
عبد العزيز (1861-1876)	1876 ماي - 1877 سبتمبر	النمسا-المجر	أليكو فوجوريدي باشا (Aleko Vogoridi Pasa)

(الملحق 25) جدول سفراء الدولة العثمانية إلى أوروبا خلال فترة البحث

الجدول تم إعداده بالاعتماد على: القائمة الشاملة للسفراء من وإلى الإمبراطورية العثمانية (83 صفحة) التي نشرتها المؤسسة البحثية النمساوية الخاصة دون خوان أرشفة فيينا (Don Juan Archiv Wien) عبر موقعها على شبكة الأنترنت. ينظر:

Suna Suner: The General Index of the Ambassadors to and from the Ottman Empire, in: Don Juan Archiv Wien online: <http://archive.donjuanarchiv.at/go/bot>. إضافة إلى القائمة الشاملة للسفارات

المتبادلة بين الدولة العثمانية وخمسين دولة أوروبية وآسيوية وإفريقية، التي أعدها المستشرق النمساوي الشهير جوزيف فون هامر - بورغستول ضمن عمله التاريخي الضخم المجلد السابع عشر: تاريخ الإمبراطورية العثمانية منذ نشأتها إلى عهدنا الحاضر (Histoire de l'empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours):

Hammer: Op.cit, Tom 17, P138,159-160.

الرقم	اسم السفير	اسم الدولة	تاريخ السفارة	عنوان السفارت نامہ
01	يرمي سيكيز جلي محمد أفندي (Yirmisekiz Çelebi) (Mehmet Efendi)	فرنسا	1721-1722	Fransa Sefaretnamesi
02	كابيجياشي نشلي محمد أفندي (Kapıcıbaşı Nişli Mehmet Efendi)	روسيا	1722- 1723	Rusya Sefaretnamesi
03	سلحدار إبراهيم باشا (Silahdar) (İbrahim Paşa)	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (فيينا)	1719	Viyana Sefaretnamesi
04	مصطفى أفندي	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	1730	Viyana Sefaretnamesi- Istilah-ı Nemçe
05	مصطفى خطي أفندي (Mustafa Hattı Efendi)	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا)	1748	Nemçe Sefaretnamesi
06	محمد سعيد أفندي (Mehmed) (Said Efendi)	السويد	1731	Istokholm Sefaretnamesi
07	محمد درويش أفندي (Mehmed) (Derviş Efendi)	روسيا	1754	Rusya Sefaretnamesi
08	محمد اميني افندي (Mehmed) (Emni Efendi)	روسيا	1742-1740	Rusya Sefaretnamesi
09	زشتوفيلي علي آغا (Zıstovili) (Hacı Ali Ağa)	بولندا	1756	Lehistan Sefaretnamesi
10	رسمي أحمد أفندي (Resmi) (Ahmed Efendi)	مملكة بروسيا	1764- 1765	Prusya Sefaretnamesi
11	رسمي أحمد أفندي (Resmi) (Ahmed Efendi)	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (فيينا)	1757- 1758	Viyana Sefaretnamesi
12	شهدي عثمان أفندي (Şehdi) (Osman Efendi)	روسيا	1757- 1758	Rusya Sefaretnamesi
13	كسبي مصطفى أفندي (Kesbî) (Mustafa Efendi)	روسيا	1767- 1768	İbretname-i Devlet

الملاحق

Lehistan Sefaretnamesi	-1757 1758	بولندا	كابوجو باشي محمد آغا Kapucubaşı Mehmed) (Ağa	14
İspanya Sefaretnamesi	-1787 1788	إسبانيا	أحمد واصف أفندي (Ahmed) (Vasıf Efendi	15
Sefaretname-i Abdülkerim Paşa	1774	روسيا	عبد الكريم باشا (Abdülkerim) (Paşa	16
Sefaretname-i Necati	-1771 1775	روسيا	سلحدار إبراهيم باشا (Silahdar) (Ibrahim Pasa	17
Nemçe Sefaretnamesi (Büyük Layiha)	-1791 1792	الإمبراطورية الرومانية المقدسة	أبو بكر راتب أفندي (Ebubekir Ratip Efendi)	18
Havadisname-i İngiltere	1793-1796	بريطانيا	يوسف آغا أفندي (Yusuf) (Agâh Efendi	19
Journal du Voyage de Mahmoud Raif Efendi en Angleterre. écrit par lui meme	1794-1793	بريطانيا	محمود رائف أفندي (Mahmud) (Raif Efendi (رئيس سكرتارية يوسف آغا)	20
Fransa Sefaretnamesi	1802-1801	فرنسا	غالب سعيد محمد باشا (Galip) (Sait Mehmet Paşa	21
Fransa Sefaretnamesi	-1803 1806	فرنسا	محمد سعيد خالد أفندي Mehmed Said Halet) (Efendi	22
Fransa Sefaretnamesi	-1806 1811	فرنسا	سيد عبد الرحيم محب أفندي Seyyid Abdürrahim) (Muhib Efendi (آخر وزير مقيم في عهد سليم الثالث)	23
Prusya Sefaretnamesi	-1791 1792	مملكة بروسيا	أحمد عزمي أفندي (Ahmet) Azmi Efendi)	24
Rusya Sefaretnamesi	-1793 1794	روسيا	مصطفى راشح باشا (Mustafa) (Rasih Paşa	25
Fransa Sefaretnamesi	1797	فرنسا	مورالي سيد علي أفندي Morali Seyyid Ali) (Efendi	26

الملاحق

Fransa Sefaretnamesi	-1806 1807	فرنسا	سيد محمد أمين وحيد أفندي Seyyid Mehmed Emin) (Vahid Efendi	27
Takrirler (Londra Sefaretnamesi)	1832	بريطانيا	محمد نامق باشا (Mehmed) (Namık Paşa	28
Avrupa Risalesi	1838	فرنسا	سيد مصطفى سامي أفندي Seyyid Mustafa Sami) (Efendi	29
İtalya Sefaretnamesi	1838	النمسا	محمد صادق رفعت باشا Mehmed Sadık Rıfat) (Paşa	30

(الملحق 26) جدول السفراء الذين تركوا سفارات نامه (فترة البحث)

عدد السفراء الذين تركوا سفارات نامه خلال فترة البحث هو: 30، 26 منهم من أهل القلم (الخانات الرمادية في الجدول) من بينهم ثلاثة تولّوا منصب رئيس الكتاب، هم: أحمد واصف أفندي (Ahmed Vasıf Efendi)، أبو بكر راتب أفندي (Ebubekir Ratip Efendi)، غالب سعيد محمد باشا (Galip Sait Mehmet Paşa) وهذا الأخير ارتقى إلى الصدارة العظمى. وواحد منهم تولّى منصب وزير الخارجية وهو: محمد صادق رفعت باشا. (Mehmed Sadık Rıfat Paşa).

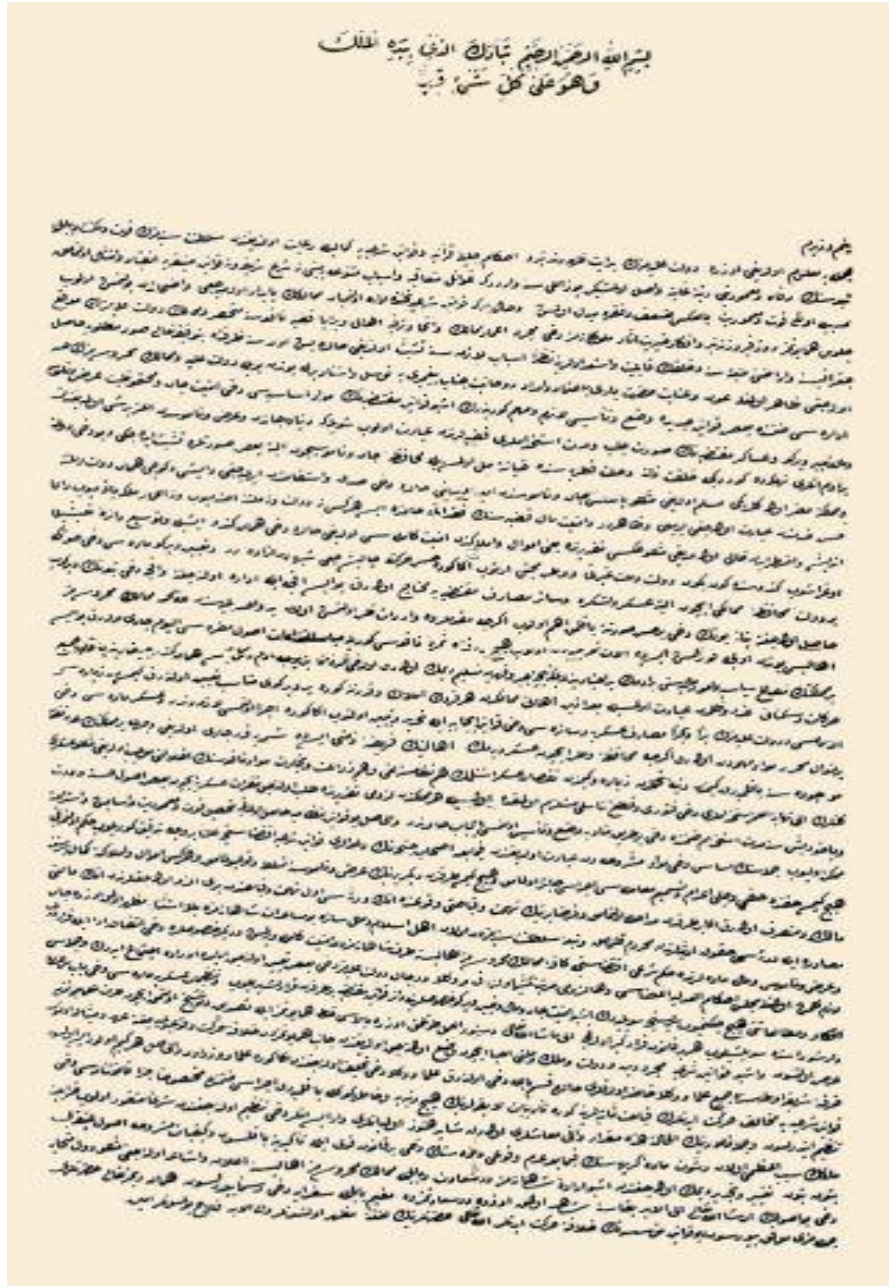
Azmi Süslü: " **Un aperçu sur les Ambassadeurs ottomans et leurs sefaretname** ", Tarih Araştırmaları Dergisi, Sayı 25, Cilt 14, Ankara Üniversitesi Dil, Tarih-Coğrafya Fakültesi, Tarih Bölümü, Türkiye,1981, P237- 249



(الملحق 27) صورة مصطفى رشيد باشا أحد أهم رجال التنظيمات

Kemal Beydilli: **Mustafa Reşid Paşa (1800-1858), Osmanlı sadrazamı**, Tanzimat döneminin önde gelen devlet adamlarından, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 31, İstanbul, 2006, sayfa 348.

خط شريف كلخانه



Ali C. Akyildiz: Tanzimat, تنظيمات, Sultan Abdülmecid'in yayımladığı mülkî ıslahat programı ve bunun uygulandığı dönem, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, cild 10, 2011, sayfa

(الملاحق 28) صورة خط شريف كلخانه



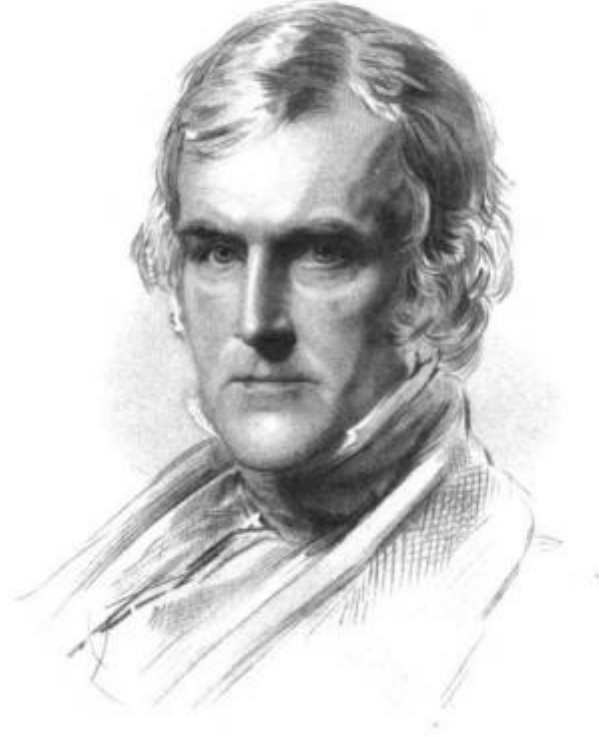
(الملاحق 29) رجل الدولة محمد أمين عالي باشا (Mehmed Emin Âli Paşa)

Kemal Beydilli: **Âli Paşa, Mehmed Emin (1814-1871) Osmanlı sadrazamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, Cilt 2, 1989, Sayfa 425



(الملحق 30) صورة رجل الدولة فؤاد باشا كاتشي جي زاده (Fuat Paşa, Keçecizade)

Orhan Fuad Köprülü : **Fuat Paşa, Keçecizade (1815-1869) Osmanlı sadrazamı**, TDV İslâm Ansiklopedisi, Op.cit, Cilt 13, 1996, Sayfa 203



(الملحق 31) صورة السفير البريطاني بالدولة العثمانية (1858-1842)

ستراتفورد كانينج فيسكونت ستراتفورد (Stratford Canning, Viscount Stratford)

المعروف باسم السير ستراتفورد كانينج (Sir Stratford Canning)

Stanley Lane-poole: **The Life of the Right Honourable Stratford Canning**, Vol 1,
Longmans, Green, London, 1890, P256



(الملحق 32) صورة أبو الدستور العثماني مدحت باشا

Gökhan Çetinsaya, Ş. Tufan Buzpınar: **Midhat Paşa (1822-1884) Osmanlı sadrazamı**, TDV İslam Ansiklopedisi, Op.cit, cilt 30, Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Araştırmaları Merkezi, Türkiye, 2005, sayfa 7

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان والدول

فهرس المصطلحات

فهرس الأعلام

- ابراهيم الأول, 132
 ابراهيم الحلبي, 49
 ابراهيم متفرقة, 75, 346, 347, 359, 362, 405
 إيشيرلي محمد, 194
 إبليس, 272
 ابن المقفع, 113, 114, 115, 119
 ابن خلدون, 20, 27, 28, 30, 31, 60, 119, 132, 165, 166, 167, 168, 174, 178, 191, 195, 196, 197, 199, 203, 378, 359, 451
 ابن سينا, 313
 ابن قتيبة, 29, 116
 أبو بكر الصديق, 19
 أبو بكر راتب أفندي, 10, 12, 325, 421, 426, 432, 433, 434, 442, 441, 436, 434
 أبو جعفر المنصور, 113
 أبو حامد الغزالي, 22, 118, 123
 أتاتورك, 182, 603
 أحمد ابن كمال باشا, 122
 أحمد الأول, 127, 158, 191, 265, 305
 أحمد الثالث, 64, 143, 193, 201, 202, 273, 283, 285, 337, 339, 340, 341, 345, 349, 350, 351, 352, 358, 380, 392, 395
 أحمد جودت باشا, 77, 499, 505, 511, 516, 520, 536, 547, 559, 565, 566, 574, 581
 أحمد زهير دانيشمان, 7, 192
 أحمد وفاق باشا, 565, 567
 أد بالي, 119
 أدهم أفندي, 428
 أدولف تيبير, 473, 509
 أرسطو, 108, 109, 112, 340
 آغا الصيبي, 297
 أكمل الدين إحسان أوغلو, 7, 42, 48, 90, 120, 121, 122, 124, 127, 163, 364
 أكوستينو فينسيانو, 259
 الأدميرال لورد هود, 416
 الأشتر, 109, 110
 الإمام علي رضي الله, 110
 الأمير ألكسندر منشكوف, 472, 512
 ألب إرن توبال, 10, 328, 603
 البابا إينوسنت الحادي عشر, 233
 البابا بولو الخامس, 226
 البابا بيوس الثاني, 208, 223, 224, 225
 البابا غريغوري الثالث عشر, 253
 البابا ليو العاشر, 209
 البارون إينغناز لورانز, 434, 435, 436
 ألبرت هـ. ليبير, 7, 50, 51, 53, 59, 168
 ألبرخت دورر, 258
 الجاحظ, 116
 الجندي قره خليل, 61
 الخديوي إسماعيل, 267, 514, 586
 الخليفة المأمون, 115
 الزبير بن بكار, 22
 ألساندرو دانكونا, 222, 223
 السلطان عبد العزيز, 20, 507, 508, 509, 513, 514, 515, 516, 541, 543, 544, 545, 547, 571, 570, 573, 575, 576, 577, 578, 579, 582, 583, 584, 585, 587, 588, 589, 593, 597
 السلطان عبد المجيد, 72, 117, 255, 467, 470, 474, 475, 476, 481, 480, 482, 483, 488, 495, 498, 500, 505, 510, 513, 514, 515, 528, 529, 538, 540, 541, 545, 553, 595
 الشاه عباس الأول, 150
 الشيخ عبد الواسع عيسى, 122
 الشيخ محمد إخلاصي, 160, 161
 الفرنسي فرانسوا, 133, 209, 566
 ألفريد لوبل, 193
 ألفيو. م. كراسي, 50, 56
 القلقشندي, 6, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 34, 37
 الكاردينال بيساريون البيزنطي, 216, 225
 الكونت كلوتشيتزكي, 264
 الكونت مايولينو بيساسيوني, 220
 اللورد أبردين, 519
 اللورد بالمرستون, 473, 479, 519
 اللورد جرينفيل, 413, 414
 اللورد كلارندون, 527, 528
 الماوردي, 23, 24, 60, 117, 128
 المثقف توديريني, 228
 المجري جوزيف ثوري, 134
 المسيح, 225, 227, 255, 292, 294, 302, 313, 319, 322, 528
 المقريري, 29, 33
 المولى تاج الدين أحمددي الكرمان, 120
 المولى قاضي زاده, 122
 المولى كادجي زاده عزت, 446
 المولى مصنفك, 121
 النبي إبراهيم (عليه الصلاة والسلام), 271
 النبي زكريا (عليه الصلاة والسلام), 272
 النهروالي, 46, 47
 الوزير محمود باشا, 121
 إليزابيث الأولى, 251, 255, 302, 303, 304, 305, 306, 307, 384, 395
 أنطوان غالان, 133, 180
 أنو شروان, 112, 114
 أورخان, 42, 43, 51, 54, 60, 61, 83, 119, 120, 139, 143, 159, 207, 250
 أوزتونا, 42, 65, 72, 126, 135, 332, 501, 575, 578, 579
 أوغوست كونت, 493
 أوليا جلبي, 264
 أوندي راير, 291
 إيراسموس الروتردامي, 229, 230
 بانايوت أفندي, 181
 بايزيد الأول, 43, 44, 45, 54, 62, 120, 143, 144
 بايزيد الثاني, 46, 79, 97, 121, 146, 248, 256, 394, 406, 468
 بابايكجي أفندي, 97
 بجوي إبراهيم أفندي, 346
 بجوي محمد سعيد باشا, 469, 480
 برلانجير فيورينتينو, 246
 بطرس الأكبر, 338, 395, 396, 442
 بندرلي سليم محمد باشا, 371, 445, 468
 بهرناور, 134
 بوتو دو لاکرو, 183
 بيتر بول روبنز, 265
 بيتر شوجر, 156
 بيتر كويكه فان أيلست, 274
 بيتر بوسينيلو, 231
 بيتهوفن, 267
 بيراي ريس, 260
 بيلكجي عاكف أفندي, 468
 بيير بيلون, 217
 پرتوى الرومي, 158
 تشارلز الأول, 277, 315
 تشارلز الثاني, 280, 338
 تشارلز الخامس, 209, 249, 261
 تشارلز فريزر, 193
 تغري بردي, 28, 53

124, 122, 104, 101, 97, 85, 84
 142, 141, 138, 137, 136, 135
 186, 185, 173, 172, 171, 154
 249, 241, 238, 219, 209, 189
 259, 258, 257, 254, 253, 250
 346, 343, 338, 305, 302, 262
 448, 433, 403, 394, 383, 370
 602, 511
 سليمان باشا الصغير, 445, 444
 سليمان بن قنلمش, 35
 سليمان بيناه أفندي, 359, 358
 سهيل صابان, 13, 14, 190
 سيباستاني فرانسوا, 444
 سيد علي أفندي, 387, 388
 سيد علي باشا الإسيرطي, 468
 سيرفانتيس, 260
 شارل الثالث, 409
 شارل الثاني عشر, 338
 شارل الخامس, 212, 250
 شارل السادس, 398, 399
 شارل سيمون فافارت, 267
 شارل ماري فرانسوا أول, 180
 شارل موريس تاليران-بريغور, 387, 336, 387
 451, 388
 شهدي عثمان أفندي, 396
 شوازل غوفيه, 362
 شيخ زاده أسعد أفندي, 446
 صلاح الدين الأيوبي, 203
 صنع الله أفندي, 142
 صوفي محمد باشا, 160
 صوقولو محمد باشا, 262, 271, 328
 عباس حلمي باشا, 511
 عبد الجليل جليبي, 272
 عبد الحميد الأول, 358, 360, 482
 عبد الحميد الثاني, 9, 72, 335, 392
 579, 576, 551, 517, 466, 459
 591, 590, 589, 588, 585, 583
 598, 594, 593, 592
 عبد الحميد الكاتب, 25, 26, 109, 112
 عبد الرحيم أفندي, 160, 161
 عبد الرحيم محب أفندي, 441
 عبد المجيد الأول, 467, 470, 480, 524, 553
 عثمان الثاني, 126, 136, 158, 172, 395, 293
 عثمان بن أرطغرل, 42, 119
 عثمان بن أوزديمير باشا, 144, 146
 عديلة هانم, 472
 عزتي محمد أفندي القلبي, 182
 عزيز أفندي, 127, 402, 403
 علاء الدين علي بن محي الدين محمد
 الشيرازي, 123
 علمدار مصطفى باشا, 367, 368, 448
 خليل إينالجيك, 8, 49, 156, 245, 330
 خليل باترونا, 352
 خليل حميد باشا, 13, 327, 336, 353
 363, 362, 361, 359, 358, 357
 443, 430, 428, 372
 خليل شريف باشا, 586, 585
 خوجا غياث الدين نقاش, 423
 دمادا إبراهيم باشا نوشهرلي, 13, 285
 340, 339, 336, 335, 334, 327
 352, 349, 346, 345, 344, 342
 453, 423, 393, 392, 356, 353
 501
 دي ميديتشي, 247
 رامبرانت هارمنسزو, 266
 رامي محمد باشا, 91, 201, 329, 330
 354, 336, 334, 331
 رانيف أفندي, 419, 418
 رستم باشا, 153, 278
 رسمي أفندي, 427, 426, 361, 360
 رشيد محمد أفندي, 380
 روبرت أدير, 518
 روبرت أنغفر, 183
 روبرت بييل, 519
 رودريك دافيسون, 9, 466, 509, 516
 562, 558, 555, 546, 545, 535
 586, 583, 579, 570, 568, 563
 591, 590, 589, 587
 ريتشارد ستييل, 279
 ريكولو بينيري دامونت كروس, 222
 سالم أبو العلاء, 109, 111, 112
 ستراتفورد كاتينج, 9, 13, 503, 505
 521, 520, 519, 518, 517, 512
 544, 542, 527, 526, 524, 523
 ستيفانيا كوستاش, 447
 سعد الدين إبراهيم البشير, 33
 سعيد بن العاص, 21
 سليم الأول, 46, 47, 154
 سليم الثالث, 10, 98, 96, 101, 268
 357, 354, 348, 336, 335, 286
 367, 366, 365, 364, 363, 358
 382, 381, 375, 373, 370, 368
 400, 392, 389, 387, 385, 383
 418, 417, 416, 411, 407, 403
 430, 429, 427, 426, 420, 419
 444, 443, 441, 439, 434, 433
 501, 490, 475, 452, 448, 447
 603, 602, 524
 سليم الثاني, 62, 71, 123, 124, 126
 394, 293, 144, 142
 سليم سيربي باشا, 371, 469
 سليمان آغا, 263, 283
 سليمان القانوني, 6, 11, 47, 48, 49, 50, 83, 77, 73, 70, 64, 60, 58, 51
 توماس دالام, 304, 305, 306, 307, 308, 310, 311
 توماس غلوفر, 322
 توماس لويس, 192, 193
 تيزيانو فيتشيليو, 259
 تيمورلنك, 44, 118, 176, 423
 ثيودوروس سيانديجينو كانتاكيسينو, 209
 جارتشك داوود, 349
 جان بلو, 265
 جان دو لاهاي, 262
 جان فيليب رامو, 267
 جنتيلي بليني, 247
 جورج الثالث, 411, 413, 414, 418
 518
 جورج بييل, 253
 جورج دو لاشابيل, 263
 جورج سانديز, 312, 313, 314, 315
 322
 جورجوس الهنغاري, 209, 215, 289
 جورجيفيتس بارتوليمو, 307
 جوزيف أديسون, 279
 جوزيف الثاني, 431, 432, 436
 جوزيف فون هامر-برجشتال, 6, 8, 43
 81, 70, 69, 65, 64, 61, 58, 55
 132, 127, 126, 124, 94, 82
 434, 431, 394, 374, 341, 136
 438, 435
 جوزيف هايدن, 267
 جوساف فيردي, 267
 جوستاف الثالث, 269
 جون درايدن, 280
 جيرالد إم ماكلين, 8
 جيورجوس الترابيزوني, 246
 جيوسبي سوريو, 298, 299
 جيوفاني باتيستا جيجلي, 226, 227
 جيوفاني باتيستا دونادو, 228, 236, 237
 جيوفاني بييترو بيتوني, 293
 جيوفاني دونا, 231
 جيوفاني ساجريدو, 226
 جيوفاني فرانسيسكو جيميلي كاريري, 295
 298, 297, 296
 جيوفاني ماريا ديغلي أونجبولولي, 208, 289
 حسام زاده عبد الرحمن أفندي, 177
 حسن باشا المعروف بيمشيحي, 141
 حسن باشا جزايرلي, 357
 حسن كافي أقحصاري, 125
 حسين أفندي البوسنوي, 177
 حسين باشا عموجه زاده, 72, 190, 191
 330, 201, 198, 195, 194, 193
 حيدر رايس نجاري, 261
 خالد أرن, 13
 خالد زيادة, 3, 10, 100, 329, 417, 601
 خُرْم سلطان روكلانا, 153, 259

- عنوان الحموي, 121
علي أفقي باي, 180, 181
علي أكيل ديز, 475, 476
علي باشا الألباني, 369, 445, 468
علي حيدر, 9, 581, 582, 588, 590, 597
علي رضا أفندي, 505
علي كمال أکسوت, 134
عماد الدين زنكي, 31
عمر بن الخطاب, 17, 23, 60, 112
عنصر المعالي كيكاس, 117
غالب دادا المولوي, 444
غونسيل ريندا, 8
غيوم بوستل, 217, 218
فاسيلي ديميتريفيش ساميرنوف, 134
فاضل أحمد باشا, 71, 72, 180, 264, 339
فاضل مصطفى باشا, 72, 339
فاطمة موج جوتشيك, 8
فتح الدين فتح الله, 33
فرانز جوزيف الأول, 572
فرانسوا الأول, 218, 249, 258, 261
فرانسيس الأول, 399
فرانشيسكو سانسوفينو, 210, 220, 226
فرديناند الثاني, 262
فهاد باشا, 141, 346
فريد بك, 54, 367, 483, 484, 487, 523
فريدريك الأول, 525, 529, 530, 533, 535, 536
فريدريك الأول, 400
فريدريك الثاني, 401
فريدريك ويليم الثاني, 402
فضولي البغدادي, 271
فولتير, 266, 423, 450, 566
فونداكو دي تورنتشي, 269
فيراري باولو دا لاغني, 228
فيليب ملانكتون, 252
فيليكس بيتانشيوس, 256
فيندلي كارتر, 439, 488, 495, 569
قارا محمد آغا, 264
قاره مصطفى كامنكاش, 127, 167, 172
قوجه محمد باشا, 161
قوسيم, 158
كابيجيانشي نشلي محمد, 393, 395
كاتب جلبي (حاجي خليفة), 7, 11, 102, 117, 118, 120, 122, 123, 124, 127, 128, 155, 158, 159, 160, 161, 162, 163, 164, 165, 166, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 173, 174, 175, 176, 177, 178, 181, 186, 188, 189, 191, 195, 196, 197, 200, 203, 265
كاتجي جي زاه عزت مولی, 510
كاتجي زاده محمد فواد باشا, 13, 334, 389, 399, 446, 501, 503, 505, 506, 507, 508, 510, 511, 512, 513, 514, 515, 516, 517, 521, 522, 525, 529, 531, 533, 536, 537, 542, 546, 547, 554, 555, 559, 561, 562, 565, 566, 571, 574, 577, 583, 584, 585, 586, 587, 588, 589, 590, 591, 592, 593, 594, 595, 596, 597, 598, 599, 600, 601, 602, 603, 604, 605, 606, 607, 608, 609, 610, 611, 612, 613, 614, 615, 616, 617, 618, 619, 620, 621, 622, 623, 624, 625, 626, 627, 628, 629, 630, 631, 632, 633, 634, 635, 636, 637, 638, 639, 640, 641, 642, 643, 644, 645, 646, 647, 648, 649, 650, 651, 652, 653, 654, 655, 656, 657, 658, 659, 660, 661, 662, 663, 664, 665, 666, 667, 668, 669, 670, 671, 672, 673, 674, 675, 676, 677, 678, 679, 680, 681, 682, 683, 684, 685, 686, 687, 688, 689, 690, 691, 692, 693, 694, 695, 696, 697, 698, 699, 700, 701, 702, 703, 704, 705, 706, 707, 708, 709, 710, 711, 712, 713, 714, 715, 716, 717, 718, 719, 720, 721, 722, 723, 724, 725, 726, 727, 728, 729, 730, 731, 732, 733, 734, 735, 736, 737, 738, 739, 740, 741, 742, 743, 744, 745, 746, 747, 748, 749, 750, 751, 752, 753, 754, 755, 756, 757, 758, 759, 760, 761, 762, 763, 764, 765, 766, 767, 768, 769, 770, 771, 772, 773, 774, 775, 776, 777, 778, 779, 780, 781, 782, 783, 784, 785, 786, 787, 788, 789, 790, 791, 792, 793, 794, 795, 796, 797, 798, 799, 800, 801, 802, 803, 804, 805, 806, 807, 808, 809, 810, 811, 812, 813, 814, 815, 816, 817, 818, 819, 820, 821, 822, 823, 824, 825, 826, 827, 828, 829, 830, 831, 832, 833, 834, 835, 836, 837, 838, 839, 840, 841, 842, 843, 844, 845, 846, 847, 848, 849, 850, 851, 852, 853, 854, 855, 856, 857, 858, 859, 860, 861, 862, 863, 864, 865, 866, 867, 868, 869, 870, 871, 872, 873, 874, 875, 876, 877, 878, 879, 880, 881, 882, 883, 884, 885, 886, 887, 888, 889, 890, 891, 892, 893, 894, 895, 896, 897, 898, 899, 900, 901, 902, 903, 904, 905, 906, 907, 908, 909, 910, 911, 912, 913, 914, 915, 916, 917, 918, 919, 920, 921, 922, 923, 924, 925, 926, 927, 928, 929, 930, 931, 932, 933, 934, 935, 936, 937, 938, 939, 940, 941, 942, 943, 944, 945, 946, 947, 948, 949, 950, 951, 952, 953, 954, 955, 956, 957, 958, 959, 960, 961, 962, 963, 964, 965, 966, 967, 968, 969, 970, 971, 972, 973, 974, 975, 976, 977, 978, 979, 980, 981, 982, 983, 984, 985, 986, 987, 988, 989, 990, 991, 992, 993, 994, 995, 996, 997, 998, 999, 1000

,146 ,145 ,144 ,143 ,142 ,141
,152 ,151 ,150 ,149 ,148 ,147
457 ,203 ,189 ,188 ,154 ,153
مطرقجي نصح, 260
معاوية بن أبي سفيان, 111
معن بن زائدة, 21
ملكشاه, 118 ,35
مليشبيور لوريث, 258
مؤذن زاده عين علي أفندي, 183
مونتنسكيو, 4 ,127 ,132
ميلان أنطوان إيغناس, 268
نابليون بونابرت, 366 ,368 ,387 ,435
470 ,451 ,449
نامق كمال, 534 ,544 ,570 ,575 ,592
نظام الملك, 36 ,37 ,38 ,53 ,118
نعيمًا مصطفى, 7 ,11 ,102 ,104 ,124
,190 ,189 ,180 ,179 ,178 ,153
,196 ,195 ,194 ,193 ,192 ,191
,202 ,201 ,200 ,199 ,198 ,197
359 ,330 ,203
نقاش عثمان, 262
نور الدين محمود زنكي, 31
نورمان إيتزكوفيتش, 189 ,194
نيشانجي أفندي العزيز, 83
نيقولاس الأول, 523
نيكولاس دي نيكولاي, 217 ,258
هارون الرشيد, 115
هانز إيبورث, 274
هانز هولباين, 261 ,275
هزارفن حسين, 7 ,11 ,102 ,104 ,178
,185 ,183 ,182 ,181 ,180 ,179
203 ,189 ,188 ,187 ,186
هشام بن عبد الملك, 111 ,112
هنري الثامن, 255 ,261 ,274 ,275
هنري بلونت, 317 ,318 ,319 ,320 ,321
323 ,322
هنري ليلو, 304 ,305 ,306 ,309 ,310
هومباراجي أحمد باشا, 406
واصف أفندي, 10 ,407 ,408 ,409 ,411
والتر فريديريك, 134 ,164
وليام الأول, 572
وليام شكسبير, 253 ,275
وليام ليثجو, 312 ,315 ,316 ,322 ,323
وليام هاربون, 303 ,305
وليام بيت, 413
وليام بيدولف, 276 ,278
وليام فوردي, 322
بينتشيهرلي عبد الله أفندي, 340 ,347 ,352
يوحنا المعمدان, 272
يورغن هايرماس, 277
,427 ,426 ,420 ,419 ,418 ,417
,452 ,448 ,446 ,445 ,444 ,443
,464 ,463 ,462 ,461 ,460 ,459
,472 ,469 ,468 ,467 ,466 ,465
,480 ,479 ,478 ,476 ,475 ,473
,507 ,505 ,501 ,495 ,494 ,481
,578 ,563 ,543 ,522 ,519 ,517
603 ,602 ,593 ,583 ,580 ,579
محمود رانيف, 412 ,417 ,418 ,419
427 ,426
محي الدين ابن عربي, 162
مدحت باشا, 9 ,13 ,334 ,517 ,541
,573 ,572 ,568 ,562 ,561 ,558
,580 ,579 ,578 ,577 ,576 ,575
,589 ,588 ,587 ,586 ,582 ,581
,596 ,595 ,593 ,592 ,591 ,590
598 ,597
مراد الأول, 43 ,48 ,61 ,82 ,139
مراد الثالث, 65 ,71 ,124 ,125 ,140
,253 ,252 ,191 ,172 ,146 ,144
,384 ,306 ,303 ,276 ,262 ,255
395
مراد الثاني, 45 ,54 ,79 ,83 ,121 ,209
224
مراد الخامس, 517 ,519 ,576 ,580
588 ,587 ,582 ,581
مراد الرابع, 126 ,127 ,131 ,132 ,133
,153 ,143 ,142 ,140 ,136 ,135
,174 ,173 ,167 ,165 ,159 ,158
262 ,196 ,182 ,180 ,176
مرادجه دوهسون, 6 ,43 ,47 ,56
,424 ,363 ,90 ,65 ,62 ,61 ,58
488 ,441 ,439 ,438
مشرب زاده, 537
مصطفى الأول, 158
مصطفى الثالث, 396 ,397
مصطفى الثاني, 193 ,201 ,273 ,285 ,331
391 ,339 ,337 ,335
مصطفى الرابع, 367 ,368 ,387 ,444 ,448
مصطفى خطي أفندي, 398
مصطفى رشيد باشا, 13 ,72 ,334 ,372
,474 ,473 ,472 ,468 ,466 ,456
,481 ,479 ,478 ,477 ,476 ,475
,495 ,493 ,490 ,489 ,487 ,486
,506 ,505 ,502 ,501 ,500 ,499
,516 ,512 ,511 ,510 ,508 ,507
549 ,541 ,521 ,520 ,517
مصطفى سويكوت, 7
مصطفى شيخ أوغلو, 120
مصطفى فاضل باشا, 534 ,543 ,583
585
مصطفى قوجي بك, 7 ,11 ,102 ,104
,134 ,133 ,132 ,131 ,130 ,127
,140 ,139 ,138 ,137 ,136 ,135

فهرس الأماكن والبلدان والدول

القاهرة, 19, 24, 35, 47, 50, 52, 54	427, 445, 490, 491, 492, 496	أدرنة, 188, 201, 202, 285, 331
131, 116, 113, 109, 106, 64	497, 498, 579	374, 462, 469, 490, 496
406, 255, 192, 163, 156, 153	الأندلس, 29, 110, 324, 406, 408	أذربيجان, 144, 187
القدس, 203, 314, 344, 352, 402	411, 410	أرمينيا, 490
522, 521, 511	ألبانيا, 55, 131, 132, 140, 141, 153	أزميت, 496
الفرم, 89, 134, 144, 156, 170, 180	167, 219, 352, 369, 570	إزمير, 297, 395
361, 357, 355, 247, 244, 186	البحر الأبيض المتوسط, 207, 217, 219	إزنيق, 41, 261
499, 476, 472, 431, 407, 364	235, 248, 251, 260, 298, 303	إسبانيا, 116, 209, 212, 251, 254
519, 512, 507, 506, 504, 500	304, 354, 375, 406, 407, 544	255, 285, 293, 303, 306, 317
531, 527, 524, 523, 522, 521	البحر الأحمر, 48	337, 346, 357, 394, 395, 398
598, 571, 570, 562, 554, 539	البحر الأدرياتيكي, 46, 376	406, 408, 409, 411, 414
التسطنطينية, 45, 49, 62, 66, 156, 180	البحر الأسود, 244, 338, 354, 355	424, 510, 519, 585
214, 209, 208, 207, 205, 181	356, 363, 375, 427, 431, 490	إستانبول, 42, 47, 53, 57, 61, 63, 72
224, 222, 221, 217, 216, 215	البرتغال, 375, 510	78, 86, 89, 91, 93, 99, 121
235, 233, 232, 231, 228, 225	البلقان, 43, 44, 45, 46, 55, 158, 183	131, 139, 145, 149, 151, 152
244, 243, 242, 240, 238, 236	207, 219, 224, 236, 282, 323	153, 156, 159, 170, 180, 182
268, 260, 257, 247, 246, 245	338, 355, 371, 375, 431, 480	183, 184, 185, 190, 191, 207
311, 303, 299, 293, 289, 276	488, 488, 577, 578, 579, 587	218, 218, 228, 246, 252, 256, 258
376, 375, 374, 345, 343, 312	590, 596	262, 263, 268, 270, 272, 273
518, 517, 444, 436, 412, 400	البنديقية, 46, 57, 208, 212, 213, 214	274, 278, 280, 284, 285, 293
540, 520, 519	216, 218, 219, 220, 221, 225	298, 299, 300, 304, 305, 307
ألمانيا, 209, 241, 252, 258, 275, 305	226, 227, 228, 229, 231, 232	308, 309, 318, 337, 342, 343
590, 572, 432, 412	235, 237, 241, 244, 247, 248	344, 346, 350, 356, 359, 360
المجر, 44, 48, 72, 75, 141, 207	253, 259, 261, 262, 263, 289	361, 362, 366, 371, 374, 376
257, 252, 251, 250, 226, 223	292, 293, 296, 305, 309, 317	377, 381, 383, 386, 387, 389
412, 394, 393, 346, 338, 282	318, 330, 337, 345, 374, 375	395, 396, 397, 398, 399, 404
572	392, 393, 394, 406, 424, 425	405, 406, 408, 411, 412, 414
المدينة المنورة, 19, 24, 29	139, 153, 355, 394, 539	415, 416, 417, 418, 423, 425
المغرب, 28, 73, 127, 136, 424	577, 579	427, 434, 439, 443, 444, 445
النمسا, 72, 75, 103, 148, 214, 236	التونة, 572, 577, 586	446, 449, 452, 462, 468, 469
338, 305, 285, 283, 258, 241	الجزائر, 48, 260, 278, 308, 357, 470	470, 471, 472, 475, 479, 485
356, 355, 354, 345, 343, 342	الجمهورية التركية, 3, 10, 389, 555	491, 492, 497, 498, 500, 501
399, 398, 396, 394, 393, 392	الحبيشة, 136	505, 511, 512, 514, 515, 528
431, 426, 424, 418, 403, 400	الحجاز, 91, 159, 412, 469	537, 543, 557, 559, 561, 563
493, 470, 447, 439, 437, 432	الدانوب, 44, 397, 367, 416, 429	565, 566, 567, 572, 578, 580
547, 526, 523, 522, 519, 511	513, 517	581, 583, 588, 594
572	الدرنديل, 244, 292, 389, 518	آسيا الصغرى, 35, 51, 244
الهند, 44, 48, 119, 163, 181, 182	الروم ايلي, 282, 331, 366, 367, 375	آسيا الوسطى, 35, 134
571, 405, 270, 267, 217	379, 385, 403, 496, 498, 507	أصفهان, 35, 150
585, 545, 108	514	أفلاق, 513
الولايات المتحدة الأمريكية, 278	السويد, 269, 284, 285, 337, 338	الإسكندرونة, 308
اليمن, 278	345, 363, 392, 393, 394, 403	الإمبراطورية الرومانية المقدسة, 209
اليونان, 7, 56, 110, 116, 161, 184	424, 523	258, 258, 337, 393, 394, 398, 426
358, 336, 311, 269, 265, 247	النشام, 21, 39, 119, 215, 444, 479	431, 432, 433, 435
401, 394, 393, 388, 370, 369	الصين, 20, 240, 423, 424	الإمبراطورية النمساوية المجرية, 393
492, 478, 451, 443, 424, 423	الطونة, 558	394
595, 529, 512	العراق, 20, 48, 112, 118, 159, 445	الأناضول, 35, 39, 41, 42, 43, 44, 46
إنجلترا, 251, 253, 254, 255, 261, 265	الفاتيكان, 221, 222, 226, 230, 233	76, 159, 165, 170, 190, 207
302, 301, 293, 280, 276, 274	الفرات, 44	216, 249, 270, 275, 285, 379
317, 315, 311, 306, 305, 303		

سنواس, 170, 510	بولندار, 213, 224, 318, 329, 337, 345	395, 411, 412, 413, 415, 416
شبه الجزيرة الإيبيرية, 232, 324	354, 354, 376, 392, 394, 397	417, 418, 424, 427, 461, 470
شبه الجزيرة العربية, 278, 498	بيت لحم, 512	476, 478, 480, 493, 518, 519
شبه جزيرة المورة, 338, 358, 411	ببرا, 248, 309, 310, 555	520, 528, 542, 546, 556, 572
صربيا, 354, 369, 395, 571, 577, 592	بيزنطة, 43, 249, 250, 424	576, 578, 593
صقلية, 232, 322, 342	بيسارانيا, 355, 512	أنقرة, 44, 548
غاليبولي, 207	بين النهرين, 20, 223, 517	أوترانتو, 219, 250
غرناطة, 232, 406	ثبريز, 42	إيران, 35, 37, 46, 97, 113, 150
غلطة, 57, 80, 248, 444, 555, 557	ترانسلفانيا, 209, 215, 346, 406	170, 285, 352, 379, 380, 423
فرنسا, 8, 48, 50, 98, 133, 180, 181	توبكاي, 246, 250, 262, 272, 274	429, 446
212, 214, 217, 218, 225, 234	284, 299, 408, 481, 482	إيطاليا, 7, 206, 212, 216, 218, 219
238, 241, 249, 258, 260, 261	جالبولي, 43	223, 224, 225, 230, 240, 241
263, 269, 270, 277, 284, 285	جبال البرينيه, 225	248, 249, 250, 256, 292, 293
302, 303, 342, 343, 344, 345	جزر الأمراء, 276	298, 301, 312, 393, 394, 424
348, 357, 362, 366, 369, 392	جزيرة بوزكادا, 429, 352	585
370, 383, 385, 387, 388, 392	جزيرة زاكينثوس, 275	باريس, 133, 284, 298, 336, 344, 345
393, 394, 396, 400, 403, 404	جزيرة كريت, 71, 160, 180, 225, 293	362, 366, 385, 387, 389, 392
411, 415, 425, 424, 426, 429	360, 515, 539, 570, 571, 572	393, 403, 404, 405, 411, 441
430, 432, 433, 437, 439, 441	جنوة, 212, 244, 248, 374	445, 448, 449, 450, 451, 464
444, 446, 447, 448, 449, 450	حلب, 35, 47, 49, 111, 159, 190	469, 471, 472, 476, 477, 504
451, 457, 476, 477, 479, 480	517, 407, 278	505, 506, 507, 508, 512, 513
492, 493, 496, 507, 511, 513	خداوندكار, 506	515, 516, 517, 523, 525, 526
515, 518, 522, 523, 527	خرسان, 39	528, 537, 538, 545, 549, 547
544, 545, 555, 570, 571, 576	دمشق, 24, 26, 29, 39, 113, 278, 308	555, 557, 571, 570, 583, 585
584	513, 516, 576	586, 598
فلورنسا, 207, 212, 223, 247, 248	دولة الأويغور, 41	بازيليا, 250
فيينا, 48, 61, 103, 196, 207, 232	دولة المماليك, 11, 17, 31, 34, 44, 47	بافيا, 249
236, 241, 258, 264, 266, 283	121	باليرمو, 232
341, 342, 374, 380, 381, 385	ديار بكر, 159	بحر إيجه, 247, 429
393, 398, 399, 412, 416, 421	راغوزا, 376, 414	بحر مرمرة, 276, 304, 306, 474
429, 430, 431, 432, 433, 434	رودس, 48, 92, 297, 298, 307, 309	برشلونة, 408, 409
435, 436, 437, 439, 440, 451	429	برلين, 360, 361, 402, 412, 423
452, 470, 506, 505, 518, 581	روسيا, 72, 132, 134, 189, 212, 336	424, 566, 597
قرطبة, 29, 207	337, 338, 345, 355, 356	بريطانيا, 103, 127, 136, 280, 322, 338, 357
قناة السويس, 267, 472	357, 358, 360, 361, 362, 363	365, 366, 384, 389, 392, 394
قونية, 35, 389, 445, 446, 469	364, 366, 367, 368, 389, 392	411, 412, 413, 414, 415, 416
كوتاهي, 444	393, 394, 395, 396, 397, 400	433, 434, 448, 476, 477, 478
لانتشير, 311	404, 407, 424, 428, 431, 439	479, 480, 493, 508, 512, 513
لبنان, 20, 21, 22, 25, 26, 27, 28, 29	447, 449, 451, 463, 469, 478, 479	516, 518, 523, 524, 527, 528
35, 47, 82, 107, 111, 141, 367	480, 493, 499, 504, 508, 511	537, 538, 545, 544, 571, 593
471, 513	512, 518, 519, 522, 523, 528	597
لندن, 108, 264, 276, 298, 304, 306	531, 534, 546, 578, 585, 588, 592	بغداد, 26, 27, 29, 39, 49, 118, 127, 136
312, 313, 383, 384, 385, 387, 389	593, 596, 597, 598	148, 165, 167, 196, 223, 271
411, 412, 413, 414, 415, 416	روما, 166, 205, 207, 209, 214, 218	444, 463, 501, 578
417, 418, 419, 470, 475, 476	221, 223, 234, 237	بلاد فارس, 119, 136, 207, 289
479, 480, 493, 506, 510	سالزبورج, 302, 593	بلجيكا, 393, 394, 412, 424, 572, 591
521, 547, 571, 573, 575	سالونيك, 208	بلدة شومن, 434
ليغوريا, 261	سان بورغو, 250	بلغاريا, 44, 280, 355, 367, 371, 429
مديدي, 409, 410, 510	ستوكهولم, 269	434, 496, 500, 576, 577, 597
مدينة أنتويرب, 257	سلاجقة الروم, 11, 17, 18, 24, 34, 35	بلغراد, 72, 158, 171, 338, 354, 356
مدينة تشيشمي, 355	85, 76, 51, 41, 39, 36	360, 398, 400, 403, 415, 573
مدينة دلفت, 266	سوريا, 47, 111, 222, 357, 371, 471	بوخارست, 368, 412, 434, 469, 500
مدينة روسه, 434, 577	478, 479, 492, 513, 538, 571	511
		بورصة, 42, 57, 374, 511

مدينة شُفُوبية, 409
مدينة طوسيه, 427
مدينة فيتننزا, 298, 301
مدينة كانتربري, 413
مصر, 22, 23, 24, 25, 27, 28, 37, 41,
42, 45, 46, 47, 53, 57, 65, 110,
113, 114, 116, 117, 123, 144,
177, 180, 278, 336, 355, 365,
370, 374, 387, 389, 403, 407,
408, 424, 451, 459, 467, 469,
470, 471, 477, 478, 480, 491,
492, 493, 502, 505, 508, 511,
514, 583, 585, 586
مضيق البوسفور, 268, 301, 362, 408,
418, 499, 540, 544
مضيق جبل طارق, 407
مقاطعة كاتالونيا, 408
مكة المكرمة, 22, 46, 47, 48, 65, 91,
153, 180, 195, 313, 412
مملكة سردينيا, 393, 394
منغوليا, 41, 423
موريا, 241, 451
موسكو, 212, 375, 393, 395, 397
موسكوفي, 212, 244, 329
ميلانو, 375
ميناء أوستند, 412
ميناء دوفر, 412
نابولي, 246, 250, 365, 375, 393,
394, 409, 424
نهر السين, 405
نيس, 48, 259, 515
نيقية, 35, 41, 216
نيويورك, 192
هولند, 393

فهرس المصطلحات

- إجازة، 528, 519, 350, 282, 80
أدب نصاب الملوك، 11, 102, 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 112
أرباب القلم، 2, 77, 78, 379
أرباب القلمية، 2, 77, 78, 379
آغا الإنكشارية، 64, 147
أقجة، 81, 143, 144, 147, 173, 174, 511
الأتابكية، 31
الأرباق، 151
الاسفسالار، 39
الألتي بلوك، 149
الأمديج، 66, 96, 428
الانتساب، 78, 79
الأندرون، 62, 131, 151, 153
الإنكشارية، 54, 66, 70, 78, 84, 125, 126, 127, 128, 136, 137, 138, 139, 140, 141, 142, 143, 144, 145, 146, 147, 148, 149, 151, 158, 159, 160, 161, 162, 163, 164, 165, 166, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 173, 174, 175, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 184, 185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 195, 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202, 203, 204, 205, 206, 207, 208, 209, 210, 211, 212, 213, 214, 215, 216, 217, 218, 219, 220, 221, 222, 223, 224, 225, 226, 227, 228, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237, 238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 246, 247, 248, 249, 250, 251, 252, 253, 254, 255, 256, 257, 258, 259, 260, 261, 262, 263, 264, 265, 266, 267, 268, 269, 270, 271, 272, 273, 274, 275, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 282, 283, 284, 285, 286, 287, 288, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 295, 296, 297, 298, 299, 300, 301, 302, 303, 304, 305, 306, 307, 308, 309, 310, 311, 312, 313, 314, 315, 316, 317, 318, 319, 320, 321, 322, 323, 324, 325, 326, 327, 328, 329, 330, 331, 332, 333, 334, 335, 336, 337, 338, 339, 340, 341, 342, 343, 344, 345, 346, 347, 348, 349, 350, 351, 352, 353, 354, 355, 356, 357, 358, 359, 360, 361, 362, 363, 364, 365, 366, 367, 368, 369, 370, 371, 372, 373, 374, 375, 376, 377, 378, 379, 380, 381, 382, 383, 384, 385, 386, 387, 388, 389, 390, 391, 392, 393, 394, 395, 396, 397, 398, 399, 400, 401, 402, 403, 404, 405, 406, 407, 408, 409, 410, 411, 412, 413, 414, 415, 416, 417, 418, 419, 420, 421, 422, 423, 424, 425, 426, 427, 428, 429, 430, 431, 432, 433, 434, 435, 436, 437, 438, 439, 440, 441, 442, 443, 444, 445, 446, 447, 448, 449, 450, 451, 452, 453, 454, 455, 456, 457, 458, 459, 460, 461, 462, 463, 464, 465, 466, 467, 468, 469, 470, 471, 472, 473, 474, 475, 476, 477, 478, 479, 480, 481, 482, 483, 484, 485, 486, 487, 488, 489, 490, 491, 492, 493, 494, 495, 496, 497, 498, 499, 500, 501, 502, 503, 504, 505, 506, 507, 508, 509, 510, 511, 512, 513, 514, 515, 516, 517, 518, 519, 520, 521, 522, 523, 524, 525, 526, 527, 528, 529, 530, 531, 532, 533, 534, 535, 536, 537, 538, 539, 540, 541, 542, 543, 544, 545, 546, 547, 548, 549, 550, 551, 552, 553, 554, 555, 556, 557, 558, 559, 560, 561, 562, 563, 564, 565, 566, 567, 568, 569, 570, 571, 572, 573, 574, 575, 576, 577, 578, 579, 580, 581, 582, 583, 584, 585, 586, 587, 588, 589, 590, 591, 592, 593, 594, 595, 596, 597, 598, 599, 600, 601, 602, 603, 604, 605, 606, 607, 608, 609, 610, 611, 612, 613, 614, 615, 616, 617, 618, 619, 620, 621, 622, 623, 624, 625, 626, 627, 628, 629, 630, 631, 632, 633, 634, 635, 636, 637, 638, 639, 640, 641, 642, 643, 644, 645, 646, 647, 648, 649, 650, 651, 652, 653, 654, 655, 656, 657, 658, 659, 660, 661, 662, 663, 664, 665, 666, 667, 668, 669, 670, 671, 672, 673, 674, 675, 676, 677, 678, 679, 680, 681, 682, 683, 684, 685, 686, 687, 688, 689, 690, 691, 692, 693, 694, 695, 696, 697, 698, 699, 700, 701, 702, 703, 704, 705, 706, 707, 708, 709, 710, 711, 712, 713, 714, 715, 716, 717, 718, 719, 720, 721, 722, 723, 724, 725, 726, 727, 728, 729, 730, 731, 732, 733, 734, 735, 736, 737, 738, 739, 740, 741, 742, 743, 744, 745, 746, 747, 748, 749, 750, 751, 752, 753, 754, 755, 756, 757, 758, 759, 760, 761, 762, 763, 764, 765, 766, 767, 768, 769, 770, 771, 772, 773, 774, 775, 776, 777, 778, 779, 780, 781, 782, 783, 784, 785, 786, 787, 788, 789, 790, 791, 792, 793, 794, 795, 796, 797, 798, 799, 800, 801, 802, 803, 804, 805, 806, 807, 808, 809, 810, 811, 812, 813, 814, 815, 816, 817, 818, 819, 820, 821, 822, 823, 824, 825, 826, 827, 828, 829, 830, 831, 832, 833, 834, 835, 836, 837, 838, 839, 840, 841, 842, 843, 844, 845, 846, 847, 848, 849, 850, 851, 852, 853, 854, 855, 856, 857, 858, 859, 860, 861, 862, 863, 864, 865, 866, 867, 868, 869, 870, 871, 872, 873, 874, 875, 876, 877, 878, 879, 880, 881, 882, 883, 884, 885, 886, 887, 888, 889, 890, 891, 892, 893, 894, 895, 896, 897, 898, 899, 900, 901, 902, 903, 904, 905, 906, 907, 908, 909, 910, 911, 912, 913, 914, 915, 916, 917, 918, 919, 920, 921, 922, 923, 924, 925, 926, 927, 928, 929, 930, 931, 932, 933, 934, 935, 936, 937, 938, 939, 940, 941, 942, 943, 944, 945, 946, 947, 948, 949, 950, 951, 952, 953, 954, 955, 956, 957, 958, 959, 960, 961, 962, 963, 964, 965, 966, 967, 968, 969, 970, 971, 972, 973, 974, 975, 976, 977, 978, 979, 980, 981, 982, 983, 984, 985, 986, 987, 988, 989, 990, 991, 992, 993, 994, 995, 996, 997, 998, 999, 1000

مجلس المعارف العمومية، 498	423, 422, 421, 418, 417, 415	بيوك تذكري، 67
مجلس شورى الدولة، 577, 554	435, 430, 427, 426, 425, 424	تذكري أول، 429
مجلس والاي، 513, 500, 496	602, 453, 441, 439, 438	ترجمان أحوال، 543
مجلس ولاي، 506, 489, 465, 446, 69	سنجق، 560, 496, 152, 145, 138, 93	تشريفاتجي، 67
577, 561, 554, 537, 532	شاكررد، 159	تصويرى أفكار، 543
مجلس ولاية الأحكام العدلية، 489, 446, 69	شاوينش باشى، 91	تقوم وقايغ، 462
577, 561, 554, 537, 532, 506	شيخ الإسلام، 72, 69, 63, 59, 57, 52	جاوشية، 145, 140
مرايا الأمراء، 129, 108, 107, 11	160, 142, 141, 122, 93, 91, 75	خزانه السفارة، 380
مسألة شرقية، 355, 328, 6	193, 187, 182, 176, 173, 161	خط شريف كلخانه، 468, 458, 456
مكتب الأمدي، 469, 96	340, 339, 332, 331, 202, 201	480, 479, 476, 475, 474, 473
مكتب الترجمة، 465, 99, 69	443, 371, 366, 363, 352, 347	486, 485, 484, 483, 482, 481
مكتب المعارف العدلية، 467, 80	517, 498, 463, 462, 461, 446	493, 492, 490, 489, 488, 487
مكتب مخرج الأقلام، 80	588, 587, 582, 579, 557, 537	524, 504, 500, 497, 495, 494
مكتوبجي، 67	601, 595	536, 535, 532, 531, 530, 525
مِلْكُ الكُتَاب، 85	صاحب الخير، 39	584, 583, 562, 554, 552, 550
ناظر الإنشاء، 82	صاحب القلم الأعلى، 28	599, 598, 597, 585
نظارة الأوقاف الهمايونية، 460	ضريبة العوارض، 147	دائرة المذاهب غير الإسلامية، 99
نظارة العدل، 77, 69	طغراء، 474, 82, 37	دفتر الباب، 100
نظام تشكيل الولايات، 561, 560	عبيد الباب، 370, 149	دفترخانه العامرة، 83
نیشان قلمي، 97	عهد التوليغ، 346, 345, 340, 285, 13	ديوان الأحكام العدلية، 573, 559, 554
واقعة خيرية، 580	392, 372, 352, 351, 350, 349	ديوان الاستيفاء، 37
واقعة كوليلي، 541, 540	599, 501, 453, 403	ديوان الإشراف، 38
وزارة المعارف العمومية، 498	فرمان الإصلاحات، 510, 505, 504, 503	ديوان الإنشاء، 29, 28, 27, 26, 24, 23
وزير مفوض، 378	526, 525, 524, 522, 521, 517	34, 33, 32
وقعة نويس، 190	534, 533, 532, 531, 529, 528	ديوان البريد، 25
وكيل دار السلطان، 38	540, 539, 538, 537, 536, 535	ديوان الجيش، 24
	553, 552, 549, 546, 545, 544	ديوان الحاتم، 25
	568, 567, 563, 560, 559, 554	ديوان الخراج، 38
	599, 598, 589, 571, 569	ديوان الرسائل، 111, 37, 29, 28, 27, 24
	فرمان التنظيمات، 504	ديوان الزمام، 37
	فرمان تصحيح المعيار، 498	ديوان الطغراء، 37
	قاضي العسكري، 381, 192, 182	ديوان القلم الهمايوني، 576, 388, 94, 88
	قاضي عسكري، 331, 142	ديوان المكاتبات، 28, 27, 24
	قانون نامه، 500, 499, 379, 127, 83	ديوان عرض الجيوش، 38
	قانون نامه توقيعى، 379	ديوان همايون قلمي، 66
	قرزلر آغاسي، 91	رفاق روستشوك، 368, 367
	قلم الأمدي، 94	رؤوس قلمي، 469, 93
	قلم البايليك، 97, 94	ريس أفندي، 82, 70, 68
	قلم التشريقات، 97	ريس الجاويشية، 91
	قلم الرؤوس، 97	ريس الكتاب، 84, 82, 80, 74, 69, 65
	قلم الرئيس، 94, 88	92, 91, 90, 89, 88, 87, 86, 85
	قلم مهمة، 94	101, 99, 98, 97, 96, 95, 94
	كاتب الدست الشريف، 29	335, 331, 330, 329, 201, 177
	كاتب السر، 82, 33, 32, 28, 25	368, 367, 362, 360, 359, 339
	كانخدا باب الأصفي، 96	407, 390, 388, 387, 382, 378
	كاغد خانة، 351, 350, 13	576, 469, 427, 421, 418, 417
	كيو رجالي، 67	سالنامه، 499
	كلخانه، 475, 474, 468, 456, 454, 12	سر خليفة، 577, 95, 80
	485, 483, 482, 481, 480, 479	سرعسكر، 468
	492, 490, 489, 488, 487, 486	سعد آباد، 351, 350, 13
	531, 528, 504, 495, 494, 493	سفارت نامه، 358, 336, 326, 325, 12
	598, 552, 550, 547, 535, 533	396, 395, 391, 374, 373, 360
	594, 560, 228	411, 408, 407, 404, 399, 398
	مجلس الشيوخ، 594, 560, 228	

ثبت المصادر والمراجع

المصادر العربية والأجنبية

{القرآن الكريم}

المصادر العربية

الحديث الشريف

1. المعجم الكبير للطبراني

2. صحيح مسلم

المصادر

1. ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين (ت668هـ): **عيون الأبناء في طبقات الأطباء**، تح: نزار رضا، ب ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965.
2. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين (ت 630هـ): **الكامل في التاريخ**، تح: عمر عبد السلام تدمري، (ج3، ج5)، ط1، دار الكتاب العربي، لبنان، 1997.
3. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ): **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تح: عبد القادر محمد مايو، ط1، دار القلم العربي، لبنان، 1997.
4. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت660هـ): **بغية الطلب في تاريخ حلب**، (ج1، ج9)، ط1، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1988.
5. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي (ت438هـ): **الفهرست** تح: إبراهيم رمضان ط2، دار المعرفة، بيروت، 1997.
6. ابن إياس، محمد ابن أحمد ابن إياس الحنفي (ت 930هـ): **المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور** ج3 ب ط، مطابع الشعب، 1960.
7. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت874هـ): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (ج2، ج7)، ط1، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر 1963.
8. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت852هـ): **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ج6، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1994

9. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت808هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: تح: خليل شحادة، ج1 ط2، دار الفكر، لبنان، 1988.
10. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإبلي (ت681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، (ج2، ج3، ج4)، ط1، دار صادر لبنان، 1994.
11. ابن صلاح تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو (ت643هـ): طبقات الفقهاء الشافعية، تح: محي الدين علي نجيب، ج2، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1992.
12. ابن عبد ربه، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي (ت328هـ): العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1404.
13. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت571هـ): تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي (ج20، ج34)، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1995.
14. أبو العباس المقري التلمساني (ت1041هـ): أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون، ج1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939.
15. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت505هـ): التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تح: أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1988.
16. أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبة الأنصاري (ت182هـ): الخراج، تح: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، ط1، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت.
17. الأقبصاري حسن كافي البوسنوي (ت1025هـ): أزهار الروضات في شرح روضات الجنات، تح: علي أكبر ضيائي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.
18. الأقبصاري حسن كافي: أصول الحكم في نظام العالم، تح: نوفان رجا الحمود، منشورات الجامعة الأردنية الأردن، 1986.
19. الأنباري أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري (ت577هـ): نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1985.
20. الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب (ت403هـ): إعجاز القرآن للباقلاني، تح: السيد أحمد صقر ط5، دار المعارف المصرية، مصر 1997.
21. البستاني سليمان خاطر: عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تق وتتح: خالد زيادة، ط3 المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2019.
22. بن المقفع عبد الله: كليله ودمنة، تح: عبد الوهاب عزام وطه حسين، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر، 2014.

23. البهائي، علي بن عبد الله الغزولي الدمشقي (ت 815هـ): **مطالع البدور ومنازل السرور**، تح: التيجاني سعيد محمود، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2016.
24. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي (ت 255هـ): **التاج في أخلاق الملوك**، تح: أحمد زكي باشا، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914.
25. الجُهَشْيَارِي، أبو عبد الله محمد ابن عَبْدُوس (ت 331هـ): **الكتّابُ والوزراء**، تق: حسن الزين، ب ط دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، لبنان، 1988.
26. السخاوي (ت 902هـ): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ج6، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ب ت.
27. حاجي خليفة، كاتب جلبي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (ت 1067هـ): **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، (ج1، ج2)، ط1، مكتبة المنفى، بغداد، 1941.
28. حاجي خليفة، كاتب جلبي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (ت 1067 هـ): **سلم الوصول إلى طبقات الفحول**، تح: محمود عبد القادر الأرنؤوط، (ج1، ج2، ج3)، ب ط، مكتبة إرسیکا إستانبول تركيا، 2010.
29. حاجي خليفة، كاتب جلبي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (ت 1067 هـ): **تحفة الكبار في أسفار البحار**، تر وتحر: محمد حرب وتسليم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2017.
30. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ): **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تح: إحسان عباس، (ج3، ج5)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998.
31. الخربوطلي علي حسين: **تاريخ الكعبة**، ط3، دار الجيل، بيروت، 1991.
32. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463هـ): **تاريخ بغداد وذيوله**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ج21، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
33. دوسون مرادجه: **نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون**، تر: فيصل شيخ الأرض " رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ، جامعة بيروت الأمريكية، لنيل شهادة أستاذ في العلوم "، الجامعة الأمريكية بيروت، 1942.
34. الدولة العلية العثمانية: **القانون الأساسي**، مطبعة الآداب، بيروت، 1908.
35. الذهبي (ت 748هـ): **سير أعلام النبلاء**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (ج1، ج4، ج13، ج18) ط3 مؤسسة الرسالة القاهرة 1985.
36. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي (ت 748هـ): **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح: بشار عوَّاد معروف، (ج3، ج5، ج8، ج10)، ط1، دار الغرب الإسلامي لبنان، 2003.

37. السبكي تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت 771هـ): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلوة، ج5، ط2، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1992.
38. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ط1، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1967.
39. الشيزري، جلال الدين عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، العدوي الشافعي (ت 590هـ): منهج المسلوب في سياسة الملوك، تح: علي عبد الله موسى، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1987.
40. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت 764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، (ج15، ج18، ج26)، ط1، دار إحياء التراث، بيروت، 2000.
41. ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت 638هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج4، ب ط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ب ت.
42. طاشكبري زاده (ت 968هـ): الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1975.
43. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (ت 310هـ): تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ط2، دار التراث، لبنان، 1387.
44. الطرسوسي، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المنعم، نجم الدين الحنفي (ت 758هـ): تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تح: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي ط2، دار الحق، لبنان 2000.
45. عبد الحميد الثاني: مذكرات عبد الحميد الثاني، تر: محمد حرب، ط3، دار القلم، دمشق، 1991.
46. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت 395هـ): الصناعتين تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998.
47. عنصر المعالي كيكأوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير (462هـ): النصيحة المعروف باسم قابوس نامه، تر: محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1958.
48. القرماني، أحمد بن يوسف (ت 1019هـ): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح: أحمد حطيط وفهمي سعد، ج2، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1992.
49. القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت 646هـ): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
50. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء تح: محمد حسين شمس الدين وآخرون، (ج1، ج4)، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987.
51. لطفي باشا (968هـ): خلاص الأمة في معرفة الأئمة، تح: ماجدة مخلوف، ط1، دار الآفاق العربية مصر، 2001.

52. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تح: محيي هلال السرحان، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
53. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): الأحكام السلطانية تح: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 2006.
54. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): نصيحة الملوك، تح: خضر محمد خضر، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983.
55. مجهول (من أهل القرن السابع الهجري): أخبار سلاجقة الروم = مختصر سلجوقنامه، تر: محمد سعيد جمال الدين، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007.
56. المحامي محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط1، دار النفائس، لبنان، 1981.
57. المحي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحي الحموي الأصل، الدمشقي (ت 1111هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (ج2، ج4)، ط1، دار صادر، بيروت 2015.
58. مدحت باشا: مذكرات مدحت باشا، تر: كمال بن حتانة، ط1، مطبعة أمين هندية، مصر، د.ت.
59. مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ): تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: أبو القاسم إمامي، ج1، ط2، سروش، طهران، 2000.
60. المقرئزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (ت 845هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (ج1، ج2، ج3)، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1418.
61. نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين (ت 485هـ): سياست نامه أو سير الملوك، تح: يوسف حسين بكار، ط2، دار الثقافة، قطر، 1987.
62. النهروالي، قطب الدين الحنفي (ت 988 هـ): الاعلام بأعلام بيت الله الحرام، ط1، المطبعة الخيرية مصر 1888.
63. الوطواط، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف (ت 718هـ): غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائص الفاضحة، تح: ابراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية لبنان، 2008.

المصادر الإنجليزية

1. Aikin John: **General Biography: Or Lives, Critical and Historical, of the Most Eminent Persons of All Ages, Countries, Conditions, and Professions, Arranged According to Alphabetical Order**, Vol 6, G. G. and J. Robinson, Londohhh.,hyhn, 1807.
2. Austen Henry Layard: **Discoveries in the ruins of Nineveh and Babylon; with travels in Armenia, Kurdistan and the desert: being the result of a second expedition undertaken for the Trustees of the British Museum**, Vol 1, John Murray, London, 1853.

3. George Washburn: **Fifty years in Constantinople and recollections of Robert college**, Houghton Mifflin Company, Boston, New York, 1909.
4. Goodell William: **Forty years in the Turkish empire: or, Memoirs of Rev. William Goodell, D.D., late missionary of the American Board of Commissioners for Foreign Missions (A.B.C.F.M) at Constantinople**", 4 Edt, R. Carter and Brothers, New York, USA, 1877.
5. Kamal Bey Isma'il: **The memoirs of Ismail Kemal Bey**, 1 Edt, Constable and Company LTD, London, 1920.
6. Lane-poole Stanley: **The Life of the Right Honourable Stratford Canning**, Vol 2, Longmans, Green, London, 1888.
7. Lane-poole Stanley: **The Life of the Right Honourable Stratford Canning**, Vol 1, Longmans, Green, London, 1890.
8. Midhat Ali Haydar: **The life of Midhat Pasha; a record of his services, political reforms, banishment, and judicial murder**, John Murray London, 1903.
9. Roscoe Thomas: **The Italian Novelists: Selected from the Most Approved Authors in that Language: From the Earliest Period Down to the Close of the Eighteenth Century: Arranged in an Historical and Chronological Series**, Tom 3, 2 Edt, W. Simpkin and R. Marshall, London 1836.
10. Steele Sir Richard: **Richard Steele**, T. Fisher Unwin, London, 1894.
11. Stump Joseph: **Life of Philip Melanchthon**, Pilger Publishing House, Reading, Pa, New York, 1897.
12. United States. Department of State: **Capitulations of the Ottoman Empire: Report of Edward A. Van Dyck, Consular Clerk of the United States at Cairo, Upon the Capitulations of the Ottoman Empire Since the Year 1150**, Vol 1, Washington Government printing office, 1881.
13. Unknown author: **Appleton's' Annual Cyclopaedia and Register of Important Events of the year 1880, Embracing Political, Civil, Military, and Social Affairs; Public Documents; Biography, Statistics, Commerce, Finance, Literature, Science, Agriculture, and Mechanical Industry**, New Series, Vol 5, D. Appleton & Company, New York, USA, 1887.
14. William N Bruce the Hon.: **Sir A. Henry Layard G.C.B., D.C.L., Autobiography and Letters from His Childhood Until His Appointment as H.M. Ambassador at Madrid**, With A Chapter on His Parliamentary Career BY the RT. Hon. Sir Arthur John Otway, Vol 2, J. Murray, London, 1903.
15. Ogier Ghiselin de Busbecq: **The Turkish Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq: Imperial Ambassador at Constantinople 1554-1562**, Louisiana State University Press, Baton Rouge, USA, 2005.

المصادر الفرنسية

1. Âli Paşa Mehmed Emin : **Réponse à Son Altesse Moustapha Fazil-Pacha au sujet de sa lettre au Sultan**, les principaux libraires, 1867.

2. Aristarchēs (bey) Grēgorius: **Législation ottomane: ou, Recueil des lois, règlements, ordonnances, traités, capitulations et autres documents officiels de l'Empire ottoman**, Vol 2, Freres Nicolaïdes, Constantinople, 1874.
3. Aubin Jean et autres : " **Histoire des relations entre l'Europe et l'Orient du XVIIe au XVIIIe siècles** ", Livret de la 4e section, l'École pratique des Hautes Études, sciences historiques et philologiques, France, 1981-82.
4. Auguste Schefer Charles Henri : **Mémoire historique sur l'ambassade de France à Constantinople, Par Le Marquis De Bonnac : publié avec un précis de ses négociations à la Porte Ottomane**, Ernest Leroux, Paris, 1894.
5. Bitard Adolphe : **Dictionnaire général de biographie contemporaine française et étrangère**, Maurice Dreyfous Editeur, Paris, 1878.
6. Briot Monsieur : **Histoire de l'état présent de l'Empire ottoman, contenant les maximes politiques des Turcs, les principaux points de la religion mahométane... leur discipline militaire...** Traduite de l'anglois de Monsieur Ricaut, Abraham Wolfgang, Amsterdam, Netherlands, 1670.
7. Brunswik Benoit : **Études pratiques sur la question d'Orient : Réformes et capitulations**, Veuve Berger-Levrault et fils, Strasbourg, France, 1869.
8. Carillan-Goeury et Dalmont : **Applications de la géométrie descriptive aux ombres, à la perspective, à la gnomonique et aux engrenages par Théodore Olivier**, Voll, Carillan-Goeury et Dalmont, Paris, 1847.
9. De Cournemin Des Hayes : **Voyages du Levant fait par le commandant du Roy en l'année 1621**, par le Sr D.C, Paris, 1624.
10. De Réglà Paul : **Au Pays de l'espionnage : les sultans Mourad V et Abd-ul-Hamid II**, Librairie J. Strauss, Paris, 1902 .
11. De Rosny Leon : **Revue orientale et américaine**, Vol 1, Challamel Ainé, Paris, 1859.
12. Demertius Cantimir : **Histoire de l'Empire Othoman ou se voyent les causes de son aggrandissement et de sa decadence**, Traduite en Francois par : De Jonquieres, Tom1, Despilly, Paris, 1743.
13. Drumont Edouard Adolphe : **La France juive, sous-titré Essai d'histoire contemporaine**, Tom1, 43 Edt, C. Marpon et E. Flammarion, Paris, 1886.
14. Engelhardt Édouard Philippe : **La Turquie Et Le Tanzimât, Ou Histoire Des Réformes Dans L'empire Ottoman Depuis 1826 jusqu'à nos jours**, Voll, A. Cotillon et Cie, Paris, 1882.
15. Galland Antoine : **Journal d'Antoine Galland pendant son séjour à Constantinople [1672-1673]**, II, Ch. Scheffer, Paris 1881.
16. Gilles Fermanel: **Observations curieuses sur le voyage du Levant**, Rouen, France, 1703.
17. Goujet Claude Pierre : **Memoire Historique & Littéraire Sur Le Collège Royal De France : contenant La Notice Historique des Lecteurs & Professeurs Royaux en Médecine, Chirurgie, Pharmacie & Botanique ; en Arabe ; en Droit-Canon, & en Syriaque, depuis la Fondation du Collège Royal jusqu'aujourd'hui**, Augustin-Martin Lottin, Vol 3, Paris, 1758.
18. Guer Jean-Antoine : **Moeurs et usages des Turcs, leur religion, leur gouvernement civil, militaire et politique, avec un abregé de l'Histoire Ottomane**, Tom2, Merigot & Piget, Paris, 1747.

19. Ibrahim Müteferrika : (أصول الحِكْم في نظام الأمم) **Traité de la tactique ou méthode artificielle pour l'ordonnance des troupes**, Jean-Thom. De Trattner, Vienna, 1769.
20. Joseph von Hammer-Purgstall: **Histoire De L'Empire Ottoman, Depuis Son Origine Jusqu'à Nos Jours**, Traduit De L'Allemand Par: J.J. Hellert, Tom 1, Bellizard, Paris, 1835.
 _____ Tome (3, 6), 1836.
 _____ Tome (7), 1826.
 _____ Tome (7, 8, 9, 10), 1837
 _____ Tome (15), 1839
 _____ Tome (17), 1841.
21. Joseph-Marie Quérard: **La France littéraire, ou Dictionnaire bibliographique des savants**, Tom 6, Firmin Didot Frères, Libraires, Paris, 1834.
22. L. G Michaud : **Biographie universelle ancienne et moderne, ou histoire par ordre alphabétique, de la vie privée et publique de tous les hommes qui se sont distingués par leurs écrits, leurs actions, leurs talents**, Vol 11, L. G. Michaud, Imprimeur Du Roi, Paris, 1814.
23. M. Grassi Alfio: **Charte Turque Ou Organisation Religieuse Civile et Militaire De L'Empire Ottoman**, Tom 1, D'Ambroise Dupont, Paris, 1826.
24. Marren Edouard : **À la mémoire de Ogier Ghislain de Busbecq 1522-1592**, La Belgique horticole : Annales de botanique et d'horticulture, Liège, Belgique, 1875.
25. Michel Emmanuel : **Biographie du Parlement de Metz**, Nouvian, Metz, France, 1855.
26. Midhat Bey Ali Haydar: **Midhat-Pacha ; sa vie, son oeuvre**, Stock Éditeur, Paris, 1908.
27. MM Rabbe : **Biographie Universelle et Portative des Contemporains**, Tom 2, L'Éditeur, Paris, 1836.
28. Mouradja Ignace D'Ohsson : **Tableau Général De L'Empire Othoman**, Tom 1, Monsieur, Paris, 1788.
29. Nicolae Eugen : **La pénétration de l'aspre ottomane dans les Pays Roumains aux XIV-XVI siècles**, Institut d'archéologie, Bucarest, 14 International Economic History Congress, Helsinki 2006.
30. Paul Tallemant Claude Gros de Boze: **Histoire de l'Académie royale des inscriptions et belles-lettres depuis son établissement, avec les eloges des académiciens morts depuis son renouvellement**, Vol 2, Hippolyte-Louis Guerin, Paris, 1740.
31. Pingaud Léonce : **Choiseul-Gouffier : la France en Orient sous Louis XVI**, Alphonse Picard, libraire, Paris, 1887.
32. Porter .M : **Observations Sur La Religion, Les Loix, Le Gouvernement et Les Moeurs Des Turcs**, Traduites De L'Anglois Par M. Britaunique, Vol 1, Dépends De La Société Typo-Graphique, Neuchatel. 1770.
33. Rayf Efèndi Mahmoun: **Tableau des Nouveaux Reglements de L'Empire Ottoman composé par Mahmoud Rayf Efèndi, ci-devant Secrétaire de**

- l'Ambassade Impériale près de la Cour d'Angleterre, sous la direction de : Abdurrahman Efendi**, la nouvelle imprimerie du Génie, Constantinople, 1798.
34. Sagredo Jean : **Histoire De L'Empire Ottoman**, Traduite de L'Italien Par : M. Laurent, voll, Francois Barois, Paris,1724.
35. Sarrut Germain and Bourg Known Saint-Edme: **Biographie Des Hommes Du Jour, Industriels, --Conseillers-D'Etat, --Artistes, --Chambellans, --Députés, --Prêtres, --Militaires, --Ecrivains, --Rois, --Diplomates, --Pairs, --Gens de justice, --Princes, --Espions fameux, --Savans**, Tom 1, Henri Krabe, Paris, 1835.
36. Tournemine René-Joseph et autres : **Mémoires pour l'histoire des sciences et des beaux-arts**, Vol 38, Society of Jesus, France, 1710.
37. Ubcini Abdolonyme et Abel Pavet de Courteille: **État présent de l'empire ottoman: statistique, gouvernement, administration, finances, armée, communautés non musulmanes, etc., etc. D'après le Salnâme (annuaire impérial) pour l'année 1293 de l'hégire (1875-76) et les documents officiels les plus récents**, J. Dumaine, Paris, 1876.
38. V.A.De LA jonquiére: **Histoire De L'Empire Ottoman, Depuis Les Origines Jusqu'au Traité De Berlin**, Hachette, Paris, 1881.
39. Vassif Effendi Ahmad Clician: **Son Altesse Midhat-Pacha, grand vizir**, Société anonyme de l'imprimerie Kugelmann, 1909.

المصادر التركية

1. Cevdet Paşa: **Tezahir 1--12** , Yayınlayan: Mehmet Cavid Baysun , II. Seri - No.22, Türk Tarih Kurumu Yayınlarından, Türk Tarih Kurumu Basımevi-Ankara, 1953.
2. Tefvik EbuZZiya: "**Yeni Osmanlılar**," Yeni tasvir-i efkar, 20 June 1909 .
3. Mahmud Celaleddin Pasa: **Mirat-i hakikat** : tarihi hakikatların aynası, Hazırlayan: İsmet Miroglu, Cilt1, Bereket Yayınevi, İstanbul, 1983, P126-127.

المراجع العربية

الموسوعات والمعاجم

1. موجز دائرة المعارف الإسلامية، تر: علي يوسف علي، مر: محمود الشحات الجندي، (ج21، ج31)، ط1 مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، 1998.
2. محمد حسين نصار وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، مج3، ط3، المطبعة العصرية، لبنان، 2009.

الكتب

1. إبراهيم محمد علي مرجونة: دراسات سياسية وحضارية في المشرق الإسلامي، دار التعليم الجامعي مصر، 2020.

2. أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، مصر، 2012.
3. إحسان أوغلو أكمل الدين: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: صالح سعداوي (ج1، ج2)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا) إستانبول، 1999.
4. أحمد آق كوندوز وأوزتورك سعيد: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، 2008.
5. أحمد الخطيب نعمان: الوجيز في النظم السياسية، ط2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2011.
6. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ب ط، دار المعارف القاهرة، ب ت.
7. أحمد حسين عبد الجبوري: القدس في العهد العثماني، 1640-1799م، دراسة سياسية عسكرية إدارية اقتصادية، اجتماعية، ثقافية، ج2، ط1، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، 2011.
8. أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ط1، دار السلام، القاهرة 1427.
9. إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي، الباباني (ت 1399هـ): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (ج1، ج2) ط1، وكالة المعارف، إستانبول، 1951.
10. إسماعيل شفيق: أبطال.. مقاتلون.. قادة، ط1، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا 2007، ب ص.
11. إنجيل لوقا 6: 29.
12. أوزتونا يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سلمان، تح: محمود الأنصاري، (ج1، ج2) ط1، مؤسسة فيصل للتمويل تركيا 1988.
13. بديعة محمد عبد العال: النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الترك، ط1، الدار الثقافية للنشر، مصر، 2009.
14. برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا، تر: ماهر عبد القادر، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1996.
15. بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين بيروت 1968.
16. البعلبكي منير: معجم أعلام المورد، موسوعة تراجم لأشهر أعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.
17. بيتر شوجر: أوروبا العثمانية (1354-1804)، في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة، تر: عاصم الدسوقي، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1998.
18. بيتروسيان إيرينا: الانكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تر: يوري بتروسيان وآخرون، مركز جمعة الماجد للثقافة والفنون، دبي، ط1، 2004.
19. جب هاملتون وهارولد باون: المجتمع الإسلامي والغرب، تر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج1، دار المعارف مصر، 1971.

20. جرانفيل بروان إدوارد: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، تر: إبراهيم أمين الشواربي ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004.
21. جيل فينشتاين: "الإمبراطورية في عظمتها (القرن السادس عشر)"، روبر مونتران: تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي ج1، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993.
22. الحاج حسن حسين: النظم الإسلامية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1987.
23. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ب ط، دار الفنية للنشر والتوزيع مصر، 1989.
24. الخالدي روجي ياسين: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.
25. الخلف سالم بن عبد الله: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ج1، ط1، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 2003.
26. خليل إينالجيك: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تر: عبد اللطيف حارس، ج1، ط1 دار المدار الإسلامي بيروت، 2007.
27. _____: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد م. الأرنؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002 .
28. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي، الزركلي: الأعلام، (ج1، ج2، ج3، ج4 ج5 ج6، ج7، ج8)، ط15، دار العلم للملايين، لبنان 2002.
29. دولينا نينل إلكساندروفنا: الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر تر: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999.
30. ديورانت ول، ويليام جيمس ديورانت: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود وآخرين، (ج2، ج4، ج29، ج33، ج34)، دار الجيل، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988.
31. ذياب خاطر نصري: تاريخ أوروبا الحديث، ط1، الجنادرية للنشر والتوزيع، الأردن 2011، ص29 بتصرف.
32. روبر مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي، ج2، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع مصر، 1992.
33. الزيدي مفيد: موسوعة تاريخ أوروبا: عصر النهضة (1500-1789م)، ج2، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن.
34. ساحلي أوغلي خليل: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، بحوث ووثائق وقوانين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسیکا)، إستانبول، 2000.
35. سامي المغلوث بن عبد الله بن أحمد: أطلس تاريخ الدولة العباسية، ط1، العبيكان للنشر، السعودية 2012.
36. السندوي حسن: أدب الجاحظ، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1931.
37. سهيل صابان: إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته، مر: عباس صالح طاشكندي ب ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1995.

38. _____: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مر: عبد الرزاق محمد حسن بركات ب ط
مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
39. شريف رسول علي محمد: الأوضاع الحضارية في بلاد ما وراء النهر في عهد الترك الإيلكخانيين (382 -
605 للهجرة / 992 - 1212 للميلاد)، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، 2020.
40. شوقي عبد السلام شوقي ضيف أحمد: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط3، دار المعارف، مصر، 1960.
41. عبّاس إحسان: عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، ط1، دار الشروق
عمان، 1988.
42. عبد الرحمن بدوي: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، ج1، دار الكتب المصرية، القاهرة
1954.
43. _____: موسوعة الفلسفة، (ج2، ج3)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984
1996.
44. _____: موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993.
45. _____: مؤلفات الغزالي، ط2، وكالة المطبوعات، الكويت، 1977
46. عبد الرحيم بنحادة: العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة، تق: عبد الرحمن المودن، ط1، النجاح الجديدة
الدار البيضاء المغرب، 2008.
47. عبد الكافي القرشي غالب: أوليات الفاروق السياسية، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر 1990.
48. عبد الكريم الخطيب مصطفى: معجم المصطلحات والالقاء التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر
لبنان 1996.
49. عبد اللطيف الحميدان بن محمد بن عبد العزيز: سنن قيام الحضارات وسقوطها: قديماً وحديثاً بآراء ابن خلدون
ط1، العبيكان للنشر، السعودية، 2017.
50. عبد المنعم أحمد فؤاد: أبو الحسن الماوردي وكتاب نصيحة الملوك، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية مصر
1988.
51. العجل بشار حسين: الخراج والضريبة المعاصرة في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، ط1، دار الكتب العلمية
لبنان، 2018.
52. عطيات أحمد محمد: الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، ط1، أمواج للطباعة والنشر، الأردن 2012.
53. كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحلیم النجار، ج3، ط5، دار المعارف، مصر، 1977.
54. كمال الدين حلمي أحمد: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ط1، دار البحوث العلمية، الكويت، 1975.
55. مجيب المصري حسين: تاريخ الأدب التركي، مطبعة الفكرة، ط1، القاهرة، 1951.

56. _____: معجم الدولة العثمانية: يحتوي من الأسماء ما تتعدد صلته بالأترك العثمانيين على امتداد تاريخهم مع الشرح والتأصيل بحيث تبدوا صورة حياتهم في شتى جوانبها وحضارتهم الإسلامية في أخص مظاهرها وفيه تراجم لرجالهم من الأعلام في تاريخ الإسلام، ط1، الدار الثقافية للنشر، مصر 2004.
57. المحامي عباس العزاوي: موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، حكومة المماليك، مج6، ط1، الدار العربية للموسوعات، العراق، 1935.
58. محمد أحمد دمج: مرايا الأمراء أو الحكمة السياسية والأخلاق التعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط ط1 مؤسستي بحسون ودار المنال لبنان، 1994.
59. محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ب ط، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي القاهرة، 1994.
60. _____: المثقفون والسلطة.. تركيا نموذجًا، ب ط، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2017.
61. محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس بيروت 2008.
62. محمد عارف نصر: في مصادر التراث السياسي الإسلامي، دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1994.
63. محمد عبد العظيم يوسف، أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية مصر، 2001.
64. مردم بك خليل: ابن المقفع، ب ط، مكتبة عرفة، دمشق، 1930.
65. مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) 1517-1924م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2000.
66. الناصر المكّي: الإسلام والدستور: دراسة قانونية وفقهية مقارنة لعلاقة الدين بالدولة في مختلف الأنظمة الدستورية، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، 2014.
67. نافعة حسن وكليفورد بوزورث: تراث الإسلام، تر: حسين مؤنس وإحسان صدقي العمدة، مر: فؤاد زكريا ج2 عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.
68. نجيب العقيقي: المستشرقون، (ج1، ج2)، ط5، دار المعارف، القاهرة، 2006.

المجلات والمؤتمرات

1. زيادة خالد: " دور فئة الكُتّاب الإداريين في علمنة الدولة العثمانية "، مجلة الاجتهاد، العدد 43، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، 1989.

2. عبد الرؤوف سنو: " العلاقات الروسية العثمانية (1687-1878) مسألة البحر الأسود والأزمة البلقانية "، مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان 79-80، السنة السابعة، دار السياسة للصحافة والنشر لبنان، ماي، جوان 1985.
3. عبد القادر عصمت برهان الدين: "تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839-1918م"، مجلة المجمع العلمي ج1، مج 48، بغداد، 2001.
4. عز الدين علام: " أخلاقيات الحاكم بين آداب الملوك الإسلامية ومرايا الأمراء المسيحية "، مجلة الباب العدد5 المملكة المغربية، ربيع 2015.
5. قاري لطف الله: " بدايات الترجمة في العهد الأموي (40-132هـ)"، أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، سوريا، 15-16 أبريل 1982.
6. مرزوق علي عبد الله: " المهرجان العربي للأعمال الفنية الصغيرة "، مجلة الفيصل، العددان 385-386، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية 1 جويلية 2008.
7. مزهر شاكر رابعة ومحمد عبد القادر خريشات: " الكتابة التاريخية عند العثمانيين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي "، مج 41، العدد1، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب الجامعة الأردنية، 2013.

المراجع الإنجليزية

دائرة المعارف الإسلامية (إنجليزية)

The Encyclopaedia of Islam. New Edition, Brill, Leiden, Holland, Tom1, 1986.

_____Tom (4, 5) , 1986.

_____Tom (2, 6) , 1991.

_____Tom 8, 1995.

_____Tom 9, 1997.

_____Tom 10, 2000.

_____Tom 7, 1979.

الكتب

1. A. Frazee Charles: **Catholics and Sultans, The church and the Ottoman Empire 1453-1923**, 1Edt, Cambridge University Press, London, New York, New Rochelle, Melbourne Sydney, 1983.
2. Ágoston Gábor and Bruce Masters: **Encyclopedia of the Ottoman Empire**, Facts on File, Inc. An imprint of Infobase Publishing, New York, USA, 2009.

3. Aksin Somel Selcuk: **The A to Z of the Ottoman Empire**, The A to Z Guide Series, No. 152, Scarecrow Press, United Kingdom, 2003.
4. Alaaddin Yalçinkaya Mehmet: **The first permanent Ottoman Embassy in Europe: the embassy of Yusuf Agâh Efendi to London (1793-1797)**, Center for Ottoman Diplomatic History, The isis press, istanbul, turkey, 2010 .
5. Alan Weinberg Bennett and Bonnie K. Bealer: **The World of Caffeine: The Science and Culture of the World's Most Popular Drug**, Routledge, New York, London, 2002.
6. Albert Howe Lybyer: **The Government of The Ottoman Empire in The Time of Suleiman the Magnificent**, Cambridge Harvard University Press, And London: Hrnry Frowde Oxford University Press, 1913
7. Avcioglu Nebahat and Emma Jones: **Architecture, Art and Identity in Venice and its Territories, 1450–1750: Essays in Honour of Deborah Howard**, Ashgate Publishing Ltd, Farnham, England, 2013.
8. Berkes Niyazi: **The Development of Secularism in Turkey**, with a new introduction: Feroz Ahmad, Hurst & Company, London, 1998.
9. Boyar Ebru and Kate Fleet: **A Social History of Ottoman Istanbul**, 1Edt Cambridge University Press, New York, USA, 2010.
10. Calder Andrew: **Molière, The Theory and Practice of Comedy**, 1 Edt, The Athlone Press, London & Atlantic Highlands, 1993.
11. Carney Jo Eldridge: **Renaissance and Reformation, 1500-1620: A Biographical Dictionary**, 1 Edt, Greenwood Press, Westport, Connecticut London, 2001.
12. Chilvers Ian and others: **The Oxford Dictionary of Art**, 4Edt, Oxford University Press, New York, USA, 2009.
13. Curry John J: **The Transformation of Muslim Mystical Thought in the Ottoman Empire: The Rise of the Halveti Order, 1350-1650**, Edinburgh University Press, Britain, 2010.
14. D. Lewis Franklin: **Rumi - Past and Present, East and West: The Life Teachings, and Poetry of Jalâl al-Din Rumi**, 1 Edt, Oneworld Publications England, 2014.
15. Eccleshall Robert and Graham Walker: **The Biographical Dictionary of British Prime Ministers**, 1 Edt, Routledge, London, 1998.
16. Edib Adıvar Halide: **Memoirs of Halide Edib**, 1Edt, John Murray, London 1923.
17. Elsie Robert: **A Biographical Dictionary of Albanian History**, I.B. Tauris London, 2012.
18. F. Bynum William and others: **Dictionary of the History of Science**, 1Edt Macmillan Publishers Ltd, Basingstoke, Royaume-Uni, 1981,
19. Findley Carter V.: **Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire**, The Sublime Porte, 1789-1922, Princeton University Press, USA, 1980.
20. Findley Carter V: **“Tanzimat”**, Edited Reşat Kasaba, The Cambridge History of Turkey, Vol 4, Cambridge University Press, New York, 2008.
21. Finkel Caroline: **Osman's Dream, History of the Ottoman Empire 1300-1923** Basic Books, New York, 2005.
22. Gartner Georg and others: **Multimedia Cartography**, Springer Science & Business Media, Berlin, Heidelberg New York, 2013.

23. Goodwin Kevin: **The Tanzimat and the Problem of Political Authority in the Ottoman Empire: 1839-1876**, History Honors Thesis, Rhode Island College (RIC), USA, May, 2006.
24. Günergün Feza and Dhruv Raina: **Science between Europe and Asia: Historical Studies on the Transmission, Adoption and Adaptation of Knowledge**, Boston Studies in the Philosophy and History of Science, Vol 275, Springer Science & Business Media, London, New York, 2010.
25. H. Aksan Virginia and Daniel Goffman: **The Early Modern Ottomans Remapping the Empire**, 1Edt, Cambridge University Press, Cambridge, 2007.
26. H. Davison Roderic: **Essays in Ottoman and Turkish History, 1774-1923**, The Impact of the West, 1 Edt, University of Texas Press, Austin, USA, 1990.
27. H. Davison Roderic: **Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876**, Princeton University Press, USA, 1963.
28. Humphrey Sumner Benedict: **Survey of Russian History**, Duck Worth, London, 1944.
29. Ihsanoglu Ekmeleddin: **Science, Technology and Learning in the Ottoman Empire, Western Influence, Local Institutions, and the Transfer of Knowledge**, the Variorum Collected Studies Series, Ashgate Publishing Limited, Great Britain, 2004.
30. Inalcik Halil: **The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire Essays on Economy and Society**, Indiana University Turkish Studies and Turkish Ministry of Culture Joint Series, Vol9, Indiana Univ Turkish Studies Department, USA, 1993.
31. Inalcik Halil: **Turkey and Europe in History**, EREN Press, Istanbul, Turkey 2006.
32. İnan, K., “**Remembering the Good Old Days: The Ottoman Nasihatname [Advice Letters] Literature of the 17th Century**”, in **Institutional Change and Stability Conflicts**, Transitions and Social Values, Edited by Andreas Gemes and others, Pisa University Press, Pisa, Italia, 2009.
33. Institut du Monde Arabe (Paris), Metropolitan Museum of Art (New York, N.Y.): **Venice and the Islamic World, 828-1797**, Trans: Deke Dusingberre, Yale University Press, USA, 2007.
34. Itzkowitz Norman: **Ottoman Empire and Islamic Tradition**, University of Chicago Press, United States of America, 1980.
35. J. Shaw Stanford and Ezel Kural Shaw: **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808-1975**, Vol 2, Edt8, Cambridge University Press, New York, USA, 2002.
36. J. Shaw Stanford: **Between Old and New: The Ottoman Empire Under Sultan Selim III, 1789-1807**, Vol 15, Harvard Middle Eastern Studies, Harvard University Press, USA, 1971.
37. J. Shaw Stanford: **Empire of the Gazis, The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808**, Tom1, 1Edt, Press Syndicate of the University of Cambridge, Cambridge, 1976.
38. James Felak and Ramet P. Sabrina: “**Remembering Peter Sugar**”, REECAS Newsletter, University of Washington, Russian, East European and Central Asian Studies Center, spring 2000.

39. Jenkins Hester Donaldson: **Ibrahim Pasha, grand vizir of Suleiman the Magnificent**, P.S. King Et Son, London, 1911.
40. John W. de Gruchy: **John Calvin: Christian Humanist and Evangelical Reformer**, Wipf and Stock Publishers, USA, 2013.
41. Joseph John: **Muslim-Christian Relations and Inter-Christian Rivalries in the Middle East: The Case of the Jacobites in an Age of Transition**, SUNY Press, USA, 1984.
42. Karpaz Kemal H: **Studies on Ottoman Social and Political History Selected Articles and Essays**, Vol 81, Social, Economic and Political Studies of the Middle East and Asia (S.E.P.S.M.E.A.), Brill, Leiden, Boston, Koln, 2002.
43. Karpaz Kermal H: **Studies on ottoman social and political history: selected articles and essays**, Social, Economic and Political Studies of The Middle East and Asia (S.E.P.S.M.E.A.), Vol 81, Brill, Leiden, Boston, Koln, 2002.
44. Korobeinikov Dimitri: **Byzantium and the Turks in the Thirteenth Century**, 1Edt, Oxford University Press, United Kingdom, 2014.
45. Lesaffer Randall: **Peace Treaties and International Law in European History: From the Late Middle Ages to World War One**, 1 Edt, Cambridge University Press, Cambridge, New York, 2004
46. Lewis Bernard: **Islam in History: Ideas, People, and Events in the Middle East**, New Edt, Open Court, USA, 2011.
47. Lewis Bernard: **The Emergence of Modern Turkey**, 2 Edt, Royal institute of International Affairs, Oxford University Press, London Oxford, New York, 1967.
48. Lewis Bernard: **What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response**, Oxford University Press, Oxford, New York, USA, 2002.
49. M. Philliou Christine: **Biography of an Empire: Governing Ottomans in an Age of Revolution**, University of California Press, London, 2010.
50. MacLean Gerald M: **Looking East: English Writing and the Ottoman Empire before 1800**, Palgrave Macmillan, New York, USA, 1 Edt, 2007.
51. MacLean Gerald M: **The Rise of Oriental Travel: English Visitors to the Ottoman Empire, 1580–1720**, 1 Edt, Palgrave Macmillan, Great Britain, 2004.
52. Mansel Philip and Torsten Riotte: **Monarchy and Exile the Politics of Legitimacy from Marie de Médicis to Wilhelm II**, 1 Edt, Palgrave Macmillan, England, 2011.
53. Mardin Şerif: **The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas** (Modern Intellectual and Political History of the Middle East), 1Edt, Paperback, Syracuse University Press, USA, 2000.
54. Marlowe Christopher: **Four Plays: Tamburlaine, Parts One and Two, The Jew of Malta**, Edward II and Dr Faustus, Edt: Brian Gibbons, A&C Black, London, 2014.
55. Matthew H. C. G and Brian Howard Harrison: **Oxford Dictionary of National Biography: In Association with the British Academy: From the Earliest Times to the Year 2000**, Aaron-Amory, Volume 1, 1 Edt, Oxford University Press, UK, 2004.

56. Mazanec Jakub: **The Ottoman Empire at the Beginning of Tanzimat Reforms**, Prague Papers on History of International Relations, Faculty of Arts, Charles University in Prague, Faculty of Historical and Cultural Sciences, Institute of East European History, Vienna University, 2016.
57. Meyer Setton Kenneth: **Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom**, Tom 201, American Philosophical Society, Philadelphia, USA, 1992.
58. Müge Göçek Fatma: **East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century** (Studies in Middle Eastern History), Oxford University Press, New York, Oxford, 1987.
59. Mullett Michael: **Luther**, 1 Edt, Lancastert Pamphlets, Routledge, London and New York, 2006.
60. Özbudun Ergun and Ömer Faruk Gençkaya: **Democratization and the Politics of Constitution-Making in Turkey**, Central European University Press, Central European University Share Company, Budapest and New York, 2009.
61. Parker Kenneth: **Early Modern Tales of Orient: A Critical Anthology**, Routledge, London and New York, 2013.
62. Petrovich Kazhdan Aleksandr: **The Oxford Dictionary of Byzantium**, Tom 2, Oxford University Press, New York, USA, 1991.
63. Pöchhacker Franz: **Routledge Encyclopedia of Interpreting Studies**, 1Edt, Routledge, the Taylor & Francis Group, New York, 2015.
64. Polo Marco: **The travels of Marco Polo, the Venetian**, Trans: Manuel Komroff, W. W. Norton & Company, New York, USA, 1934.
65. Quataert Donald: **The Ottoman Empire 1700–1922**, 2 Edt, Cambridge University Press, USA, 2005.
66. R. Şiviloğlu Murat: **The Emergence of Public Opinion: State and Society in the Late Ottoman Empire**, 1 Edt, Cambridge University Press, UK, 2018.
67. Renda Günsel: " **The Ottoman Empire and Europe: Cultural Encounters**", Foundation for Science Technology and Civilization, United Kingdom, December 2006.
68. Rüegg Walter: **A History of the University in Europe, Universities in the Nineteenth and Early Twentieth Centuries (1800–1945)**, Vol 3, Cambridge University Press, New York, USA, 2004.
69. Sariyannis Marinos: **Ottoman Political Thought up to the Tanzimat: A Concise History**, with a chapter by Ekin Tuşalp Atıyas, Foundation for Research and Technology-Hellas, Institute for Mediterranean Studies, Rethymno, Greece, 2015.
70. Satow Sir Ernest: **A Guide to Diplomatic Praticce**, Ravenio Books, London, 1917.
71. Shefer-Mossensohn Miri: **Science Among the Ottomans: The Cultural Creation and Exchange of Knowledge**, 1 Edt, University of Texas Press, USA, 2015.
72. Şişman Cengiz: **The Burden of Silence: Sabbatai Sevi and the Evolution of the Ottoman-Turkish Dönmes**, Oxford University Press, USA, 2015.
73. Spandouginos Theodōros: **On the Origins of the Ottoman Emperors**, Trans: Donald M. Nicol, Cambridge University Press, United Kingdom, 1997.

74. Spraggon Julie: **Puritan Iconoclasm During the English Civil War**, Studies in Modern British Religious History, Vol 6, Boydell Press, Britain, 2003, P98.
75. Suraiya Faroqi: **Approaching Ottoman History: An Introduction to the Sources**, 1Edt, Cambridge University Press, United Kingdom, 1996.
76. T. Darling Linda: **Mirrors for Princes in Europe and the Middle East: A Case of Historiographical Incommensurability, East Meets West in the Middle Ages and Early Modern Times**, De Gruyter, Germany, 2013.
77. Taki Victor: **Limits of Protection: Russia and the Orthodox Coreligionists in the Ottoman Empire**, The Carl Beck Papers in Russian and East European Studies, No. 2401, The Center for Russian and East European Studies, University Center for International Studies, University of Pittsburgh, April 2015.
78. Theodore Bent James: **Early Voyages and Travels in the Levant**, Ashgate Publishing Limited, England, 2010.
79. Théoharis Stavrides: **The Sultan of vezirs: the life and times of the Ottoman Grand Vezir Mahmud Pasha Angelovic 1453-1474**, The Netherlands, Leiden, 2001.
80. Thomas David and John Chesworth: **Christian-Muslim Relations A Bibliographical History, Western and Southern Europe (1600-1700)**, Vol 8, Brill, Leiden, Boston, 2016.
81. Ulwencreutz Lars: **The Royal Families in Europe V**, Lulu.com, North Carolina, USA, 2013.
82. Uyar Mesut and Edward J. Erickson: **A Military History of the Ottomans: From Osman to Atatürk**, Praeger Security International, An Imprint of ABC-CLIO, LLC, Santa Barbara, California, USA, 2009.
83. Vergilius Maro Publius: **The Aeneid Virgil**, Trans: Robert Fitzgerald, Edt1, Random House, New York, USA, 1984.
84. Victor Thomas Lewis: **Elementary Turkish**, Revised and Edited by Norman Itzkowitz, Dover Language Guides, New York, USA, 1986.
85. Watanabe Morimichi and others: **Nicholas of Cusa: A Companion to his Life and his Times**, ashgate publishing limited, England, 2011.
86. Yurdusev. A Nuri: **Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?** 1Edt, Palgrave Macmillan, Hampshire, England 2004.
87. Zorlu Tuncay: **Innovation and Empire in Turkey: Sultan Selim III and the Modernisation of the Ottoman Navy**, 1Edt, Tauris Academic Studies, London-New York, 2008,

مجلات

1. D. Dickson: "**Report on the Death of the Ex-Sultan Abdul Aziz Khan**", The British Medical Journal, United Kingdom, Jul 8 1876.
2. De Barros Eric L: **The Gatekeeping Politics of "Good" Historicism: Early Modern Orientalism and "The Diary of Master Thomas Dallam"**, College Literature, vol 43, N4, Johns Hopkins University Press, USA, 2016.

3. G. Haim Sylvia: "**Islam and the Theory of Arab Nationalism**", New Series, Vol4, Issue 2/3, Die Welt des Islams, Brill, Leiden, Netherlands, 1955.
4. Galina Yermolenko: Roxolana "**The Greatest Empresse of the East**", The Muslm World, Vol 9, April 2005.
5. H. Davison Roderic: '**The Question of Ali Paşa's Political Testament**', International Journal of Middle East Studies, the Middle East Studies Association of North America (MESA), USA, Vol 11, Issue 2, April 1980.
6. H. Karpat Kemal: **The Transformation of the Ottoman State, 1789-1908**, International Journal of Middle East Studies, Vol 3, Iss 3, Cambridge University Press, Great Britain, 1972.
7. Herkless J. L: "**Stratford, The Cabinet and Outbreak of the Crimean War**", The Historical Journal, Vol 18, Issue 3, British, September 1975.
8. István Deák: "**Peter F. Sugar, 1919–1999**", Austrian Studies Newsletter, University of Minnesota, Center for Austrian Studies, Vol12, № 2, spring 2000.
9. Jerkins Jae: "**Islam in the Early Modern Protestant Imagination, Religious and Political Rhetoric of English Protestant–Ottoman Relations (1528-1588)**", Eras, 13Edt, Issue 2, Monash University, Melbourne, Australia, June 2012.
10. Lewis Bernard: " **The Impact of the French Revolution on Turkey: Some Notes on the Transmission of Ideas** ", N1, Vol1, Journal of World History, London, juillet 1953.
11. Lewis Bernard: "**The Impact of French Revolution on Turkey, Some Notes on the Transmission of Ideas**", Journal of World History, Vol 1, No. 2, London, January 1953.
12. Menchinger Ethan: **A Reformist Philosophy of History: The Case of Ahmed Vâsıf Efendi**, Osmanlı Araştırmaları, The Journal of Ottoman Studies, XLIV, 2014.
13. Menchinger Ethan: **The Sefaretname of Ahmet Vasıf Efendi to Spain, Ahmet Vasıf Efendi'nin İspanya'ya Dair Sefaretnamesi**, History Studies, International Journal of History, Vol 2, Issue 3, 2010.
14. Murphey Rhoads: " **Westernisation in the eighteenth-century Ottoman empire: how far, how fast?**", journal Byzantine and Modern Greek Studies (BMGS), Vol 23, Issue 1, University of Birmingham, Britain, 1999.
15. Naff Thomas: " **Reform and the Conduct of Ottoman Diplomacy in the Reign of Selim III, 1789-1807** ", Journal of the American Oriental Society, USA, Vol 83, No 3, Aug - Sep 1963.
16. Onaran Burak: "**How to Kill an Ottoman Sultan: The Regicide plans of the Kuleli Incident (1859)**", AHA (American Historical Association), The 123rd Annual Meeting, New York, USA, January 2009.
17. Raby Julian: "**Pride and Prejudice: Mehmed the Conqueror and the Italian Portrait Medal**," Studies in the History of Art, issue 21, Italian Medals, ed. J. Graham Pollard, 1987.
18. Viviana tagliaferri Filomena: " **Subjects in between: three different way of translating experience by Italian travelers in late 17 th - early 18 th century Ottoman space**", Cahiers de la Méditerranée, n° 88, Centre de la Méditerranée

رسائل دكتوراه

1. Costache Stefania: **At The end of Empire: Imperial Governance, inter-imperial rivalry and "autonomy" in Wallachia and Moldavia (1780s-1850s)**, Dissertation Submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in History, The Graduate College, The University of Illinois, Urbana-Champaign, USA, 2013.
2. Dogan Mehmet Ali: **American Board of Commissioners for Foreign Missions (ABCFM) and "Nominal Christians": Elias Riggs (1810-1901) and American missionary activities in the Ottoman Empire**, A dissertation submitted to the faculty of The University of Utah in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Middle East Studies/History, Department of Languages and Literature, The University of Utah, USA, May 2013.
3. Edward Antaramian Richard: **In Subversive Service of the Sublime State: Armenians and Ottoman State Power, 1844-1896**, A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy (History), The University of Michigan, USA, 2014.
4. Lewis Menchinger Ethan: **An Ottoman Historian in an Age of Reform: Ahmed Vâsîf Efendi (ca. 1730–1806)**, A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Near Eastern Studies, University of Michigan, USA, 2014.
5. Topal Alp Eren: " **From Decline to Progress: Ottoman Concepts of Reform 1600-1876**" In Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy, Graduate School of Economics and Social Sciences, The Department of Political Science and Public Administration, Ihsan Doğramacı Bilkent University, Ankara, Turkey, June 2017.

رسائل ماستر

1. Çeliktemel Başak: "A Study of the Third English Ambassador Henry Lello's **Report on the Ottoman Empire (1597-1607)**", the degree of Master of Arts in History, the Graduate School of Social Sciences, Istanbul Bilgi University, Turkey, 2012.
2. Fatih Bayram: **Ebubekir Ratib Efendi as an Ottoman envoy of knowledge between the east and the west**, In Partial fulfillment of the requirements For the Degree of Master of Arts in History, The Institute of Economics and Social Sciences, Bilkent University, September 2000.
3. Öncü Edip: **The Beginnings of Ottoman-German Partnership: Diplomatic and Military Relations Between Germany and the Ottoman Empire Before**

the First World War, A Master's Thesis of Arts in History, Thesis Supervisor: Stanford J. Shaw, Department of History, The Institute of Economics and Social Sciences, Bilkent University, Ankara, September 2003.

مؤتمرات وندوات

1. Andrei Dipratu Radu: "**Catholics in the Ottoman Empire Through the Eyes of English Travelers in the 17th Century**", Turkey & Romania: A History of Partnership and Collaboration in the Balkans, 4th International Balkan Conference, Bucharest, between 15 and 18 October 2014, Matbaacılar Sitesi, Topkapı, Istanbul, November 2016.
2. Don Juan Archiv Wien International Symposium: **Ottoman Empire and European Theatre, VII. Culture of Politics or Cultural Politics - Act Two: Representation, Theatricality and Cultural Transfer in the Ottoman-European Diplomatic Relations, on the 630th Anniversary of the first Ottoman Envoy to Venice in 1348**, Forschungsverein für Theater- und Kulturgeschichte, Under the patronage of Exc. Hasan Gögüş Ambassador of the Republic of Turkey in Vienna & Exc. Dr. Klaus Wölfer Ambassador of the Republic of Austria in Ankara, Don Juan Archiv Wien, Vienna, 5-6 June 2014.
3. Gibson Lela: Diplomacy and Cultural Exchange: **Ebubekir Ratib Efendi's Mission to Vienna, 1792**, Conference Ottoman-European Exchanges in Commerce, Finance, and Culture, Newnham College, University of Cambridge, 28 - 30 March 2011.
4. Minaoglou Charalampos: "**The Prussian diplomatic network in Constantinople during the 18th century**", the conference "Balkan Worlds III: Power Networks in the Imperial and Post-Imperial Balkans (18th - 20th c.)", Thessaloniki, The University of Macedonia, Greece, 6-8 October 2016.

المراجع الفرنسية

1. Heullant Fabienne : **Le voyage d'Antoine-Ignace Melling dans le Midi de la France, Atlas topographique des villes de Gaule méridionale**, Centre Camille-Jullian, Cnrs, Aix-Marseille université, Paris, 24 Apr 2018.
2. Kodaman Bayram : **Les Ambassades de Moustapha Réchid Pacha à Paris**, Conseil suprême d'Atatürk pour Culture, Langue et Histoire Publications de la Société Turque D'Histoire, Serie VII, No. 123, Imprimerie de la Société Turque D'Histoire, Turquie, 1991.
3. Martin Catherine : **Les compagnies de la propagation de la foi (1632-1685) : Paris, Grenoble, Aix, Lyon, Montpellier : étude d'un réseau d'associations fondé en France au temps de Louis XIII pour lutter contre l'hérésie des origines a la Révocation de l'Edit de Nantes**, Librairie Droz S.A, Genève, 2000.
4. Pouillon François : **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, Karthala Editions, Paris, 2012.

5. Ramos Marie-Josée : **Venise**, Carnets de route Marcus, Editions Marcus, France,2004.
6. Salmon Olivier : **Alep dans la littérature de voyage européenne pendant la période ottomane (1516-1918)**, Tom 2, Alep, Syrie, 2011.

مجلات

1. Aali Pacha : "**Testament politique**", La Revue de Paris, 17e Année, Tome 2, Bureaux de la Revue de Paris, Paris, Mars-Avril 1910.
2. Arrighi Dominique : "**Le récit de voyage dans l'empire ottoman : traditions et variations dans les Lettres turques de Busbecq (1581-1589)**", Camenae, n°1, sorbonne, France, janvier 2007.
3. Fouad Pacha : " Testament Politique de Fouad Pacha ", La Revue de Paris, 3e Année, Tome 6, Bureaux de la Revue de Paris, Paris, Novembre-Décembre 1896.
4. Karal E. Z : « **La Transformation de la Turquie d'un empire oriental en un état moderne et national** » Cahiers d'histoire mondiale, vol 4, no. 2, 1958.
5. Orliac Antoine : "**Paul Véronèse et la splendeur vénitienne** ", Mercure de France ,39e année, Tom CCVI, N 726, 15 septembre 1928.
6. Robert Mantran : "**L'évolution de la vision de l'Orient par les Occidentaux du XVIe siècle au XVIIIe siècle** ". Cahiers de la Méditerranée, N°35-36,1987. Villes, voyages et voyageurs en Méditerranée [Actes des colloques de Nice, France, décembre 1987, juin 1988].
7. Yerasimos Stéphane : **Explorateurs de la modernité. Les ambassadeurs ottomans en Europe**, Genèses, 35, France,1999.

المراجع التركية

دائرة المعارف الإسلامية التركية

TDV İslâm Ansiklopedisi, Türkiye Diyanet Vakfı, İslâm Araştırmaları Merkezi, Türkiye,

- _____ Cilt (1) , 1988.
- _____ Cilt (2) , 1989.
- _____ Cilt (4) , 1991.
- _____ Cilt (8) , 1993.
- _____ Cilt (10) , 1994.
- _____ Cilt (11, 12) , 1995.
- _____ Cilt (13) , 1996.
- _____ Cilt (15, 16) , 1997.
- _____ Cilt (17) , 1998.
- _____ Cilt (23, 24) , 2001.

-
-
- _____ Cilt (25, 26) , 2002.
_____ Cilt (27, 28) , 2003.
_____ Cilt (31, 32) , 2006
_____ Cilt (30) , 2005
_____ Cilt (33, 34) , 2007.
_____ Cilt (37) , 2009.
_____ Cilt (39) , 2010.

_____ Cilt (40) , 2011.
_____ Cilt (42) , 2012.

الكتب

1. Aktepe Munir: **Patrona isyani 1730**, Edebiyat Fakültesi Basimevi, Istanbul, 1958.
2. İsmail Hakkı Uzunçarşılı: **Osmanlı Tarihi III**. Cilt 2, Baskı 6, Türk Tarih Kurumu, Ankara, 2011.
3. Katip Çelebi: **Bozuklukların Düzeltilmesinde Tutulacak Yollar “Düsturu'l-amel li Islahi'l-halel”**, Hazırlayan: Ali Can, Baskı1, Kültür ve Turizm Bakanlığı Yayınları, başbakanlık basimevi, ankara,1982.
4. Osman Nuri Ergin: **Türk Maarif Tarihi**, Cild 1-2, Eser Matbaasi, İstanbul, 1977.
5. Reyçhman Jan and Ananiasz Zajaczkowski : **Osmanlı - Türk diplomatikası el kitabı**, (Handbook of Ottoman - Turkish diplomatics), T.C. Başbakanlık, Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, Yayın Nu : 10, İstanbul, 1993.
6. Süreyya Mehmed; **Sicill-i Osmani, soruşturma**: Nuri Akbayar, Cilt 4, Tarih Vakfı Yurt Yayınları, İstanbul, 1996.
7. Yalçınkaya Mehmet Alaaddin: “ **Yusuf Agâh Efendi**”, Yaşamları ve Yapıtları ile Osmanlılar Ansiklopedisi, Cilt 2, Baskı 1, Yapı Kredi Kültür ve Sanat Yayıncılık, İstanbul, 1999.
8. Ziya Nur Aksun: **Osmanlı Tarihi Osmanlı Devleti'nin Tahlilli Tenkidli Siyasi Tarihi**, Cilt 3, Ötüken Neşriyat A.Ş, İstanbul, 1995.
9. Zuhuri Danışman: **Koçi Bey Risâlesi**, Baskı1, Devlet Kitapları (Türk Kültürü Kaynak Eserleri Dizisi), Millî Eğitim Bakanlığı, İstanbul, 1972.

مجلات

1. Anhegger Robert : " **Hazerfen Hüseyin Efendi'nin Osmanlı Devlet Teşkilatına Dair Mülâhazaları**", Türkiyat Mecmuası, Cilt: IX, İstanbul Üniversitesi, Türkiye, 1951.

2. Çalışır M. Fatih: "**Decline of a Myth: Perspectives on the Ottoman Decline**", Tarih Okulu, Sayı 9, Türkiye, Ocak-Nisan 2011.
3. Cora İhsan: **Yönetim ve organizasyon bilimi açısından Koçi Bey Risalelerinin analizi: tarihsel bir araştırma**, İstanbul Ticaret Üniversitesi Sosyal Bilimler Dergisi, Yıl, 15, Sayı29, Bahar 2016.
4. Gökçek Mustafa: **Centralisation During the Era of Mahmud II**, Osmanlı Araştırmaları, Sorun 21, Kitap Matbasellik, İstanbul, 2001.
5. Gündoğdu Hüseyin: "**An Ottoman Scribe and Intellectual: Kâtib Çelebi and the Analysis of His Work Düstûru'l-Amel li-Islâhi'l-Halel**", Cilt 1, Sayı1, Sosyal Bilimler Araştırmaları Dergisi, ODÜ Sosyal Bilimler Enstitüsü, Türkiye,2010.
6. H. Davison Roderic: "**The Question of Fuad Pasa's 'Political Testament'**", Belleten, Cilt 23, Sayı 89, Türkiye, 1959 Ocak.
7. Süslü Azmi: " **Un aperçu sur les Ambassadeurs ottomans et leurs sefaretname** ", Tarih Araştırmaları Dergisi, Sayı 25, Cilt 14, Ankara Üniversitesi Dil, Tarih-Coğrafya Fakültesi, Tarih Bölümü, Türkiye,1981.
8. Uzunçarşılı İsmail Hakkı: "**Beşinci Sultan Murad'ın Tedavisine ve Ölümüne ait Rapor ve Mektuplar, 1876-1905**" Belleten, Türk Tarih Kurumu, Cilt10, Sayı 38, Nisan1946.
9. Uzunçarşılıoğlu İsmail. Hakkı: " **Âmedi Galib Efendinin Murahhaslığı ve Paris'ten Gönderdiği Şifreli Mektuplar** ", Belleten, Türk Tarih Kurumu, Cilt 1, Sayı 2, Türkiye, Nisan 1937.

رسائل دكتوراه

Dönmez Ahmet: **Karşılıklı Diplomasiye Geçiş Sürecinde Osmanlı Daimî Elçiliklerinin Avrupa'da Yeniden Tesisi 1832–1841**, TC. Yüksek Lisans Tezi, Selçuk Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Tarih Anabilim Dalı, Yakınçağ Tarihi Bilim Dalı, Konya, Türkiye, 2006.

مؤتمرات

Ebru Erbaş Gürler : **istanbul'da Sanat, Mimari, El Sanatı, Resim, Müzik**, 7. Uluslararası Türk Kültürü Kongresi, Türk ve Dünya Kültüründe İstanbul, Bildiriler IV , Atatürk Kültür Merkez, 1Baskı , Şebnem Ercebeci Çınar, Türkiye, 2011.

المراجع الألمانية

1. Bihl Wolfdieter: **Orientalistik an der Universität Wien: Forschungen zwischen Maghreb und Ost- und Südasiens: die Professoren und Dozenten**, Böhlau Verlag, Wien, 2009.
2. Herzog Christoph and Malek Sharif: **The First Ottoman Experiment in Democracy**, Istanbul Texts and Studies Herausgegeben vom Orient-Institut Istanbul, Band 18, Würzburg, German, 2016.
3. Jorga Nicholas: **Geschichte des osmanischen Reiches**, Band V, Gotha F.A. Perthes, Deutschland, 1908-1913.
4. Schreiner Stefan: **Die Osmanen in Europa. Erinnerungen und Berichte türkischer Geschichtsschreiber**, Verlag Styria, Graz, Wien, Köln, 1985.
5. Vámbéry Hermann: **Der Islam im neunzehnten Jahrhundert: eine culturgeschichtliche Studie**, F.A. Brockhaus, Leipzig, Deutschland, 1875.

رسالة دكتوراه

Gotthard Jäschke: **Die Entwicklung des osmanischen Verfassungsstaates von den Anfängen bis zur Gegenwart**, Inaugural-Dissertation zur Erlangung der juristischen Doktorwürde, der Hohen Rechts- und Staatswissenschaftlichen Fakultät der Königl. Universität Greifswald, eingereicht, Berlin, 1917.

مجلات ألمانية يونانية

1. Dursteler.R. Eric: "**Describing or distorting the "Turk"? The relazioni of the venetian ambassadors in Constantinople as historical source**", Acta Histriae, issue: 19, vol1-2, Slovenia, 2011.
2. Emrah Safa Gürkan: "**The Efficacy of Ottoman Counter-Intelligence in the Sixteenth Century**", Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, Tom 65, Akadémiai Kiadó, Budapest, Hungary, 2012.
3. Mustafa Soykut: **Image of the "Turk" in Italy, A History of the "Other" in Early Modern Europe: 1453 -1683**, Islamkundliche Untersuchungen (Book 236), Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 2001.
4. Pal Fodor: "**State and Society, Crisis and Reform, in 15th—17th Century Ottoman Mirror for Princes**", Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, Akadémiai Kiadó, Budapest, N 40, 1986.
5. Seyfettin Erşahin: **Islamic Support on the Westernization Policy in the Ottoman Empire: Making Mahmud II a Reformer Caliph-Sultan by Islamic Virtue Tradition**, Journal of Religious Culture (Journal für Religionskultur), No 78, Ed. by / Hrsg. von Edmund Weber, in Association with / in Zusammenarbeit mit: Matthias Benad, Institute for Irenics / Institut für Wissenschaftliche Irenik Johann Wolfgang Goethe-Universität, Frankfurt, Deutschland, 2005.

المواقع الإلكترونية العربية

1. السيد رضوان: " الآداب السلطانية والسياسة الشرعية " جريدة الشرق الأوسط، عدد 12082، لندن، الثلاثاء 01 صفر 1433هـ/27 ديسمبر 2011.

http://archive.aawsat.com/details.asp?section=17&article=656169&issueno=12082#.WkEI_N9BrIX

2. خديجة يوسف جعفر: "خريطة أعمال عبد الله بن المقفع" جريدة الحياة، النسخة الإلكترونية، السبت 12 أبريل 2014 (01:00 - بتوقيت غرينتش).

<https://langue-arabe.fr/%D8%AE%D8%B1%D9%8A%D8%B7%D8%A9-%D8%A3%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%84-%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D9%81%D8%B9>

3. فرحان محمد جلوب: " في أدب المرايا السياسية-الاجتماعية الإسلامية، دراسة في أقدم نص سياسي إسلامي (38 هجرية)"، المجلة الإلكترونية أوراق فلسفية جديدة، عدد 14، أوت 2014،

<https://philospaper.wordpress.com/2014/08/02/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B5%D9%8A%D9%84%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A3%D9%88%D8%B1%D8%A7%D9%82-%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D9%8A%D8%A9-%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D8%A2%D8%A8-2014/>

4. موقع الدكتور رضوان السيد

<http://www.ridwanalsayyid.com/>

5. ناصف عبد الحميد صبحي: "تاريخ كتاب كلية ودمنة في الآداب الشرقية والغربية"، صحيفة الحياة، الجمعة 24 أيار/ماي 2013، الساعة 16:25.

<http://www.alhayat.com/Details/516936>

المواقع الإلكترونية الأجنبية

6. موقع دائرة المعارف البريطانية

<https://www.britannica.com/>

7. موقع مشروع البحث (OTTPOL) المتخصص في تاريخ الفكر السياسي العثماني الحديث المبكر من القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر، التابع لمعهد الدراسات المتوسطة / مؤسسة الأبحاث والتكنولوجيا - اليونان.

<http://ottpol.ims.forth.gr>

8. موقع مشروع (biyografya) السيرة الرقمية الأكثر موثوقية وشمولية في تركيا.

<https://www.biyografya.com/>

1. موقع الموسوعة الإيطالية (Enciclopedia Italiana) ضمن مؤسسة الثقافة تريكاني الإيطالي (Fondazione Treccani Cultura) أحد المؤسسات العلمية الرئيسة بإيطاليا.

<https://www.treccani.it/cultura/>

2. موقع صحيفة دايلي صباح (dailysabah) التركية

<https://www.dailysabah.com/>

3. موقع (Travelogues) لتعزيز الثقافة والأدب اليوناني

<http://eng.travelogues.gr/>

4. موقع مركز أبحاث الدراسات المسرحية والثقافية بفيينا (DON JUAN ARCHIV WIEN).

<http://www.donjuanarchiv.at/>

5. مواقع تعريفية ببعض الباحثين

Halil İnalçık: http://www.goodreads.com/author/show/2984250.Halil_nalc_k, Dec 20, 2012 10:58am.

Norman Itzkowitz: <https://nes.princeton.edu/people/norman-itzkowitz> .

Mehmet İpşirli: <http://www.biyografi.net/kisiayrinti.asp?kisiid=2554>

Prof. Dr. Mustafa Soykut, <http://hist.metu.edu.tr/prof-dr-mustafa-soykut>

6. موقع التاريخ العثماني لجامعة شيكاغو الأمريكية

<https://ottomanhistorians.uchicago.edu/>

7. موقع معهد الدراسات الشرقية (Institute for Oriental Study) بمدينة "ثين" (Thane) الهندية.

<https://www.orientalthane.com/>

8. موقع جريدة (Risalehaber) التركية

<https://www.risalehaber.com/>

9. موقع الأكاديمية الملكية للتاريخ (Real Academia de la Historia) إسبانيا.

<https://www.rae.es/la-institucion/historia>

10. موقع مراجع برايل أون لاين لمؤسسة دار بريل للنشر العريقة وهي من أقدم المطابع الأوروبية، تأسست

في مدينة ليدن الهولندية سنة 1683م

<https://referenceworks.brillonline.com/subjects>

11. موقع الثقافة التركية:
<http://www.turquie-culture.fr/>
12. موقع مجلة "كازون" (Cassone) الدولية لكتب الفن والفنون
<http://www.cassone-art.com/magazine/>
13. موقع تاريخ الفنون
<http://dejonckheere-gallery.com/artistes/>
14. موقع بوابة الويب (MuslimHeritage.com) موقع محكم لدراسة التراث الإسلامي.
<http://www.muslimheritage.com/>
15. موقع علم الاجتماع (Sosyolojisi) التركي.
<http://sosyolojisi.com/>
16. موقع جمعية تاريخ برلين (Verein für die Geschichte Berlins) التي تأسست سنة 1865م
<https://www.diegeschichteberlins.de/>
17. موقع (Academia.edu) المدعوم من جامعة أكسفورد.
<https://www.academia.edu/>
18. موقع المجلة البريطانية (The Guardian)
<https://www.theguardian.com/>
19. موقع السير الألمانية العامة (Allgemeine Deutsche Biographie)
Allgemeine Deutsche Biographie, 37 (1894), S. 49 [Online-Version];
<https://www.deutschebiographie.de/pnd117677965.html#adbcontent>
20. موقع جريدة (DerSTANDARD) الألمانية
<https://www.derstandard.at/>
21. موقع قسم التاريخ بجامعة أوهايو الأمريكية
<https://history.osu.edu/>
22. موقع البرلمان البريطاني
<https://www.parliament.uk/>
23. موقع دائرة المعارف اليهودية (Jewish Encyclopedia)
<http://www.jewishencyclopedia.com>
24. موقع المشروع البحثي الأتراك والأرمن (Türkler ve Ermeniler) لجامعة مرمره التركية
<http://turksandarmenians.marmara.edu.tr/>

<http://www.lugatim.com/>

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير

إهداء

قائمة الاختصارات

مقدمة

الفصل الأول: فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي عامّة والعثماني خاصّة

المبحث الأول: نشأة ومكانة فئة الكتاب من أهل القلم في التراث الإداري الإسلامي

بدايات النظم والتراتب الإداري الإسلامية 19

التنظيم الإداري في الدولة الأيوبية ودولة المماليك 31

التنظيم الإداري في دولة سلاجقة الروم 34

المبحث الثاني: النظام الإداري العثماني نظرة عامة

ظهور الدولة العثمانية وريثة السلاجقة 41

خلفية ونشأة المنظومة الإدارية العثمانية 50

بنية الجهاز الإداري العثماني 57

الإصلاحات في المنظومة الإدارية العثمانية 68

مكانة الصدور العظام في البناء الإداري العثماني 70

المبحث الثالث: فئة الكتاب من أهل القلم في النظام الإداري العثماني

نشأة التدوين وفئة الكتاب من أهل القلم 75

الرئيس القديم والجديد لفئة الكتاب من أهل القلم 82

- 88..... مهام رئيس الكتاب
- 91..... مكانة رئيس الكتاب وهيكلية مؤسسته
- 96..... الإصلاحات الإدارية لسليم الثالث ومحمود الثاني
- الفصل الثاني: فئة الكتاب من أهل القلم ودورهم في الإصلاح قبل اتفاقية كارلوفيتز سنة 1110هـ/1699م.

المبحث الأول: أدب نصائح الملوك عند العثمانيين

- 106..... أدب نصائح الملوك تعريفاً ونشأة
- 111..... أدب نصائح الملوك في العهدين الأموي والعباسي
- 117..... أدب نصائح الملوك عند السلاجقة والعثمانيين
- 128..... خصائص أدب نصائح الملوك الإسلامي

المبحث الثاني: قوجي بك ورسالته الإصلاحية

- 131..... ترجمة قوجي بك
- 132..... تقديم رسالة قوجي بك والاهتمام الغربي بها
- 137..... عرض مضمون رسالة قوجي بك

المبحث الثالث: حاجي خليفة ودستور العمل لإصلاح الخلل

- 156..... موجز عن مظاهر الفساد العثماني
- 158..... ترجمة حاجي خليفة (كاتب جلبي)
- 164..... عرض مضمون "دستور العمل لإصلاح الخلل"

المبحث الرابع: المؤرخان حسين هزارفن ومصطفى نعيما

- 180..... ترجمة حسين هزارفن
- 182..... تقديم كتاب "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"

185.....	عرض مضمون "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"
189.....	ترجمة نعيما مصطفى
191.....	تقديم كتاب "روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين"، المشهور ب"تاريخ نعيما"
194.....	عرض مضمون "تاريخ نعيما"
الفصل الثالث: العثمانيون في المنظور الأوروبي، التأثير والتأثر	
المبحث الأول: تطوّر نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين	
207.....	بدايات الاهتمام الأوروبي بالعثمانيين
210.....	معنى كلمة "تركي" في المنظور الأوروبي والعثماني
212.....	القنوات التي تعرف من خلالها الأوروبيون على العثمانيين
218.....	تطور نظرة الأوروبيين تجاه العثمانيين (إيطاليا نموذجا)
222.....	نظرة البابوية إلى العثمانيين
238.....	استنتاجات حول تطور نظرة الأوروبيين حول العثمانيين
المبحث الثاني: التأثير العثماني الأوروبي المتبادل	
245.....	بدايات التأثيرات الأوروبيةعثمانية المتبادلة بعد سقوط القسطنطينية
250.....	تأثير العثمانيين ودورهم في تشكيل المشهد الديني بأوروبا
256.....	الفن ودوره في تجسير العلاقات الأوروبيةعثمانية
262.....	التأثير المتبادل للسفارات الأوروبيةعثمانية
265.....	التأثير العثماني في الأدب الأوربي
269.....	التأثيرات على الجانب العثماني
273.....	التأثيرات على الجانب الإنجليزي
281.....	فلسفة الاقتباس الإسلامي من الغرب

تأثيرات القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي 283

المبحث الثالث: العثمانيون في عيون الرحالة

أسباب ودوافع ازدهار أدب الرحلات 289

الرحالة الإيطاليين الأربعة 293

موجز للعلاقات العثمانية الإنجليزية 301

الرحالة الإنجليز الأربعة 304

الفصل الرابع: جهود فئة الكتاب من أهل القلم بعد كارلوفيتز وقبل التنظيمات

المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم والصدارة العظمى قبل عهد التنظيمات

معاهدة كارلوفيتز الكارثة التي أيقظت العثمانيين 328

فلسفة الإصلاح العثماني 332

الصدور العظام من فئة الكتاب من أهل القلم (إحصائياً) 334

نوشهري دمادا إبراهيم باشا وعهد التولييب 336

الصدر الأعظم خليل حميد باشا 353

الصدر الأعظم محمد سعيد غالب باشا 364

المبحث الثاني: السفراء و" السفارات نامه " (اعادة اكتشاف أوروبا)

من تاريخ السفارة والبعثات الدبلوماسية عند العثمانيين 374

السفارات الدائمة في عهد سليم الثالث 382

الدبلوماسية في عهد محمود الثاني 388

السفراء من فئة الكتاب من أهل القلم 391

المبحث الثالث: أبو بكر راتب أفندي ومحمد سعيد خالد أفندي

- 422..... نظرة عامة حول السفارت نامہ
- 427..... ترجمة رئيس الكتاب ومعلم السلطان أبو بكر راتب أفندي
- 431..... سفارة أبو بكر راتب أفندي إلى فيينا
- 443..... ترجمة شيخ الدولة محمد سعيد خالد أفندي
- 447..... موقف خالد أفندي من الغرب والإصلاحين
- الفصل الخامس: فئة الكتاب من أهل القلم والانفتاح الإصلاحي على أوروبا الجديدة**
- المبحث الأول: فئة الكتاب من أهل القلم وخط شريف كلخانة 1255هـ/1839م**
- 457..... مفهوم التنظيمات وتحديدہ زمنيا
- 459..... الجهد الإصلاحي لمحمود الثاني والتنظيمات
- 468..... سيرة رجل كلخانة مصطفى رشيد باشا
- 473..... تفكيك مصطلح فرمان خط شريف كلخانة
- 474..... فرمان كلخانة والمؤثرات الداخلية والخارجية
- 481..... أجواء إعلان خط شريف كلخانة
- 483..... مضمون خط شريف كلخانة
- 486..... تحليل مضمون خط شريف كلخانة
- 490..... ردود الأفعال الداخلية والخارجية على فرمان كلخانة
- 493..... خط كلخانة وانعكاسه على فئة الكتاب من أهل القلم
- 495... حصيلة ما تحقق بعد خط كلخانة إلى سنة 1272هـ/1856م
- المبحث الثاني: فئة الكتاب من أهل القلم وخط همايوني 1272هـ/1856م**
- 504..... حول مصطلح الخط همايوني
- 505..... الشخصيات الثلاثة التي أعدت الخط همايوني

505.....	ترجمة محمد أمين عالي باشا
510.....	ترجمة كاتجي زاده محمد فؤاد باشا
517.....	ترجمة السير ستراford كانينج
521.....	الظروف السياسية التي صدر فيها خط همايوني
524.....	كيف صدر خط همايوني أو فرمان الإصلاحات؟
528.....	مضمون فرمان الإصلاحات
531.....	تحليل مضمون فرمان الإصلاحات
536.....	ردود الأفعال الداخلية والخارجية حول فرمان الإصلاحات
546.....	العقبات التي أثرت على نجاح فرمان الإصلاحات
المبحث الثالث: فئة الكتاب من أهل القلم والدستور العثماني 1293هـ/1876م	
552	حصيلة ما تحقق بعد خط همايوني 1272هـ/1856م إلى صدور الدستور
576.....	ترجمة من سُمِّي بأبي الدستور العثماني
579.....	الأحداث التي فرضت تولي عبد الحميد الثاني العرش
583.....	تتبع مسار الفكرة الدستورية العثمانية
586.....	مسارات وضع أول دستور عثماني
598.....	ردود الفعل حول صدور أول دستور عثماني
600.....	الخاتمة
604.....	الملاحق
646.....	الفهارس
663.....	ثبت المصادر والمراجع

تهدف هذه الأطروحة إلى إلقاء الضوء على فئة من رجال الدولة العثمانيين، كان لها دور كبير في عملية الإصلاح العثماني من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، وساعدت مشاريعها الإصلاحية في إبطاء تدهور الإمبراطورية العثمانية، خاصة عندما تولى أعضاؤها أعلى منصب في المنظومة الإدارية العثمانية منصب الصدر الأعظم. عُرف رجال الدولة هؤلاء باسم فئة الكتاب من أهل القلم والهدف من هذه الأطروحة هو الإجابة على إشكالية: ما الدور الذي اضطلعت به فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية والذي حوّلها أكثر من غيرها للاشتباك مع قضايا الإصلاح والانفتاح على أوروبا سيما في القرنين الثامن والتاسع عشر؟

من خلال هذه الأطروحة سنعرف كيف نشأت مؤسسة فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية، وكيف تطورت، وما هو موقعها في المنظومة الإدارية العثمانية؟ كيف تحولوا من استلهم أفكارهم من التراث الإسلامي في القرن السابع عشر، إلى استخلاص أفكارهم من الغرب في القرن الثامن عشر وما بعده؟ كيف ساهمت فئة الكتاب من أهل القلم في حركة تغريب الدولة والمجتمع، وكيف مهدت الطريق للعلمانية في المجتمع العثماني؟

كلمات مفتاحية: الإصلاحات، التنظيمات، أدب نصائح الملوك، خط شريف كلخانة، خط همايون الدستور العثماني.

Thesis summary

The group of scribes from the men of the pen, in the Ottoman Empire and their role in reform and openness to Europe (1630-1876).

Touhami Bachir. College of Humanities and Social Sciences and Islamic Sciences/ Department of Social Sciences.

Supervisor: **Dr. Bouarioua Abdel Malik.**

This thesis aims to shed light on a class of statesmen in the Ottoman Empire, who had a major role in the Ottoman reform process from the seventeenth to the nineteenth century, and their reform projects helped to slow the decline of the Ottoman Empire, especially when its members assumed the highest position in the Ottoman bureaucracy as Grand vizier. These statesmen were known as the group of scribes from the men of the pen, the goal of this thesis is to answer a problematic: What role did the group of scribes play in the Ottoman Empire, that nominated her more than others to address issues of reform and openness to Europe, especially in the eighteenth and nineteenth centuries?

Through this thesis, we will know how the institution of scribes arose in the Ottoman Empire, how it developed, and what is its position within the Ottoman bureaucratic system? How did they turn from being inspired by their ideas from the Islamic heritage in the seventeenth century, to draw their ideas from the West in the eighteenth century and beyond? How did the group of scribes contribute to the movement of Westernization of the state and society, and how did it pave the way for secularism in the Ottoman society?

Keywords: Reforms, Tanzimat, Mirrors of princes, Ehl-i Kalem, The Gülhane Hatt-ı Şerif, Hatt-i Humayun, Ottoman constitution.

Résumé de la thèse

Le groupe des scribes des hommes de plume, dans l'Empire ottoman et leur rôle dans la réforme et l'ouverture à l'Europe.(1876-1630)

Touhami Bachir. Collège des sciences humaines et sociales et des sciences islamiques / Département des sciences sociales.

Superviseur : Dr **Bouarioua Abdel Malik.**

Cette thèse vise à faire la lumière sur une classe d'hommes d'État de l'Empire ottoman, qui ont joué un rôle majeur dans le processus de réforme ottoman du XVIIe au XIXe siècle, et leurs projets de réforme ont contribué à ralentir le déclin de l'Empire ottoman, en particulier lorsque ses membres ont assumé la position la plus élevée dans la bureaucratie ottomane en tant que grand vizir. Ces hommes d'État étaient connus sous le nom de groupe de scribes par rapport aux hommes de plume, le but de cette thèse est de répondre à une problématique : Quel rôle le groupe de scribes a-t-il joué dans l'Empire ottoman, qui l'a désignée plus que d'autres pour traiter des questions de réforme et ouverture à l'Europe, surtout aux XVIIIe et XIXe siècles?

A travers cette thèse, nous saurons comment l'institution des scribes est née dans l'Empire ottoman, comment elle s'est développée, et quelle est sa place au sein du système bureaucratique ottoman ? Comment se sont-ils détournés de s'inspirer de leurs idées issues de l'héritage islamique au XVIIe siècle pour puiser leurs idées dans l'Occident au XVIIIe siècle et au-delà ? Comment le groupe des scribes a-t-il contribué au mouvement d'occidentalisation de l'État et de la société, et en quoi a-t-il ouvert la voie à la laïcité dans la société ottomane ?

Mots clés : Réformes, Tanzimat, Miroirs des princes, Ehl-i Kalem, Le Hatt-i Sharif de Gülhane, Hatt-i Humayun, Constitution ottomane.